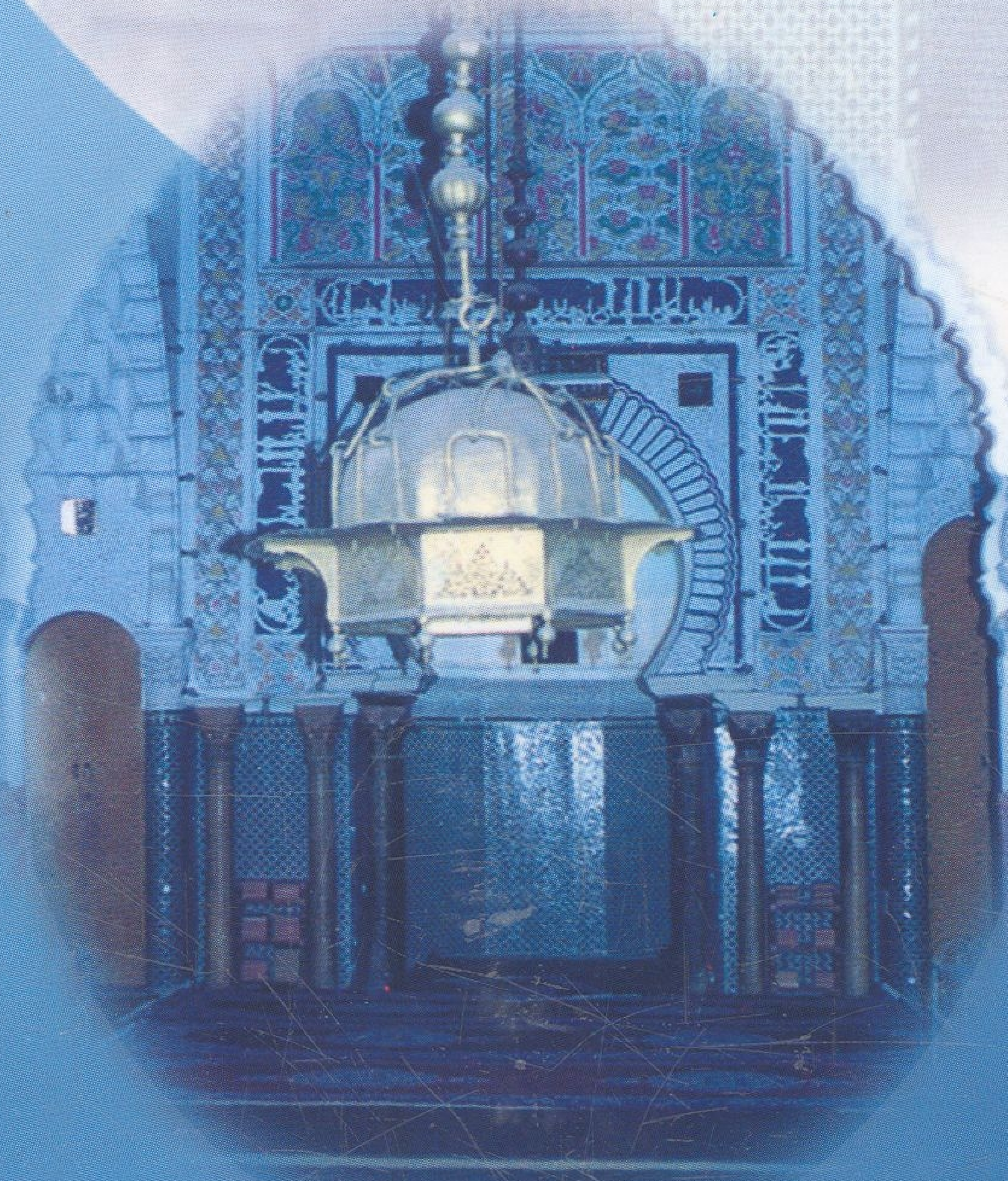
العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين

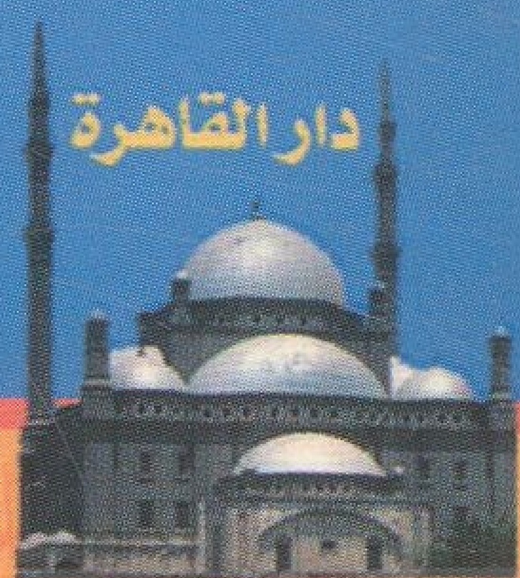
دراسة آثارية معمارية





الدكتور

محمد السيد محمد أبو رحاب



١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة

تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٣٩١٣٣٥٤

العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين

دراسة آثارية معمارية

الدكتور
محمد السيد محمد أبو رحاب



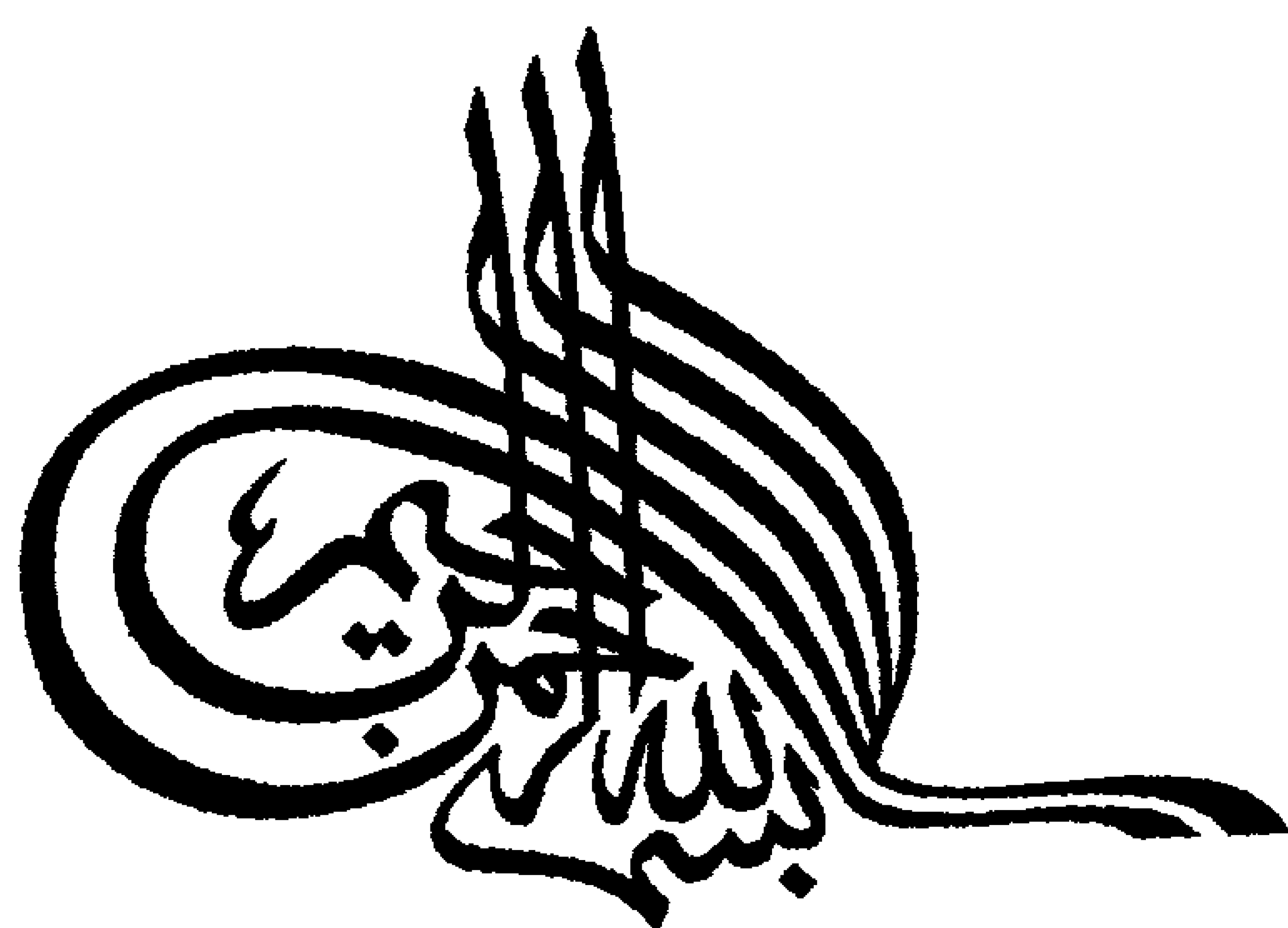
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
تليفاكس : ٠٠٢٠٢/٢٣٩١٢٣٥٤

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

أبو رحاب، محمد السيد محمد.
العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب
في عصر الأشراف السعديين: (دراسة
أثارية معمارية) / محمد السيد محمد
أبو رحاب. – القاهرة : دار القاهرة، ٢٠٠٨
٦١٧ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٦ ٥٣ ٦٠٤٨ ٩٧٧
١- العمارة الإسلامية
٢ – المغرب – تاريخ – الشرفاء السعديون
أ – العنوان
٧٢٠,٩١٧٦١

اسم الكتاب	:	العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين
اسم المؤلف	:	الدكتور/ محمد السيد محمد أبو رحاب
رقم الطبعة	:	الأولى
السنة	:	٢٠٠٨
رقم الإيداع	:	٢٦٨٣
الترقيم الدولي	:	I.S.B.N 977 – 6048 – 53 – 6
اسم الناشر	:	دار القاهرة
العنوان	:	١١٦ شارع محمد فريد
البلد	:	جمهورية مصر العربية
المحافظة	:	القاهرة
التليفون	:	٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٨٥٩
فاكس	:	٠٠٢٠٢٢٣٩١٣٣٥٤
المحمول	:	٠٠٢٠١٢٣١٧٧٥١٠



تقديم بقلم
الأستاذ الدكتور
محمد عبد الستار عثمان

قام الأشراف السعديون في القرنين (١٠- ١١ هـ / ١٦ -- ١٧م) بدور مهم في تاريخ المغرب الأقصى، تمثل في جهاد كبير وحروب متواصلة لحماية البلاد من الهجمات الشرسة المتكررة الواردة من أوربا، بقصد السيطرة على بلاد المغرب واستغلال ثرواتها. كما كان لهؤلاء الأشراف دورهم الحضاري المتميز الذي شكل اقتصاداً قوياً كانت له مساهماته الواضحة في دعم جهادهم ضد أعداء الإسلام.

ولا شك أن للازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي أثره على العمران والعمارة، وهو ما نلحظه فيما خلفه الأشراف السعديون من آثار معمارية تعكس هذا الازدهار. ومن بين الآثار المعمارية الباقية كثير من العمائر الدينية والجنائزية التي تؤكد الاهتمام بالثقافة والتعليم الديني، كما أنها تؤكد على المستوى الخاص بالأشراف السعديين مدى اهتمامهم بالمنشآت الجنائزية التي تبرز مواضع دفن حكامهم وعلمائهم.

وتجسد هذه العمائر على مستوى تاريخ العمارة استمراراً للتطور المعماري والزخرفي للعمارة في بلاد المغرب الأقصى، وتجسيداً لخصوصية واضحة في التخطيط والإنشاء والزخرفة تميزت بها هذه البلاد، في وقت تأثرت فيه العمارة في البلاد الإسلامية الأخرى بالطراز العثماني بعد أن خضعت جميع البلاد الإسلامية في القرن (١٠ هـ / ١٦م) - باستثناء المغرب الأقصى- لسيطرة الدولة العثمانية.

وقد أنجز الباحث محمد السيد محمد أبو رحاب دراسة مفيدة عن هذه العمائر، تطلب إنجازها إعداد دراسة متعمقة عن الجوانب التاريخية والحضارية لعهد الأشراف السعديين، أسهب الباحث فيها إسهاباً واضحاً، لكنه مع ذلك يخدم الدراسة المعمارية، ويوضح كثيراً من دقائقها.

والدراسة التي بين أيدينا تتناول الآثار المعمارية الدينية والجنائزية السعدية من مساجد جامعة ومدارس وزوايا وأضرحة، دراسة وصفية موثقة توثيقاً دقيقاً، تجسد للقراء الذين لم يشاهدوا هذه الآثار صورة دقيقة لهذه الآثار، تبرز ملامحها المعمارية المتميزة، وأساليب زخرفتها، وأسس تخطيطها، وتحصي كل عناصرها ووحداتها المعمارية، وبخاصة تلك الوحدات المعمارية التي تميزت بها بصفة خاصة بعض المساجد الجامعة كغرف الاعتكاف، التي تعتبر من الوحدات المعمارية المهمة التي تعكس مدى الالتزام بتطبيق السنة الشريفة في هذا الخصوص.

ويتضمن هذا الكتاب دراسةً تحليليةً للعناصر والوحدات المعمارية والزخرفية للعمائر

السعدية الباقية، في محاور متنوعة، أبرزها الاتجاه نحو التأصيل، وعقد المقارنة، وتتبع مراحل التطور، وإبراز ما تميزت به هذه العمائر من عناصر جديدة، حاول الباحث تفسير أسباب ظهورها.

وتشتمل هذه الدراسة على كثير من المصطلحات المعمارية والزخرفية المحلية، عرف الباحث بها وفسرها، وهو تعريف يكمل الدراسة ويوضح بعض خصائصها.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا إضافة مهمة للمكتبة العربية الخاصة بالدراسات الآثارية المعمارية، التي تعرض لآثار المغرب الأقصى في عهد دولة مهمة في تاريخه - وهي دولة الأشراف السعديين- والتي تمثل حلقةً مهمةً من حلقات تاريخ العمارة الإسلامية، أحسب أنها مفيدة لكل قارئ ومتخصص في مجال الآثار والحضارة الإسلامية.

والله الموفق

أ.د/ محمد عبد الستار عثمان
أستاذ العمارة والآثار الإسلامية
ونائب رئيس جامعة بسوهاج.

مُقَدِّمَة

ظفـرت بـلاد المغـرب بعـد فـتح المسلمين لهـا (٢١ – ٩٠ هـ / ٦٤٢- ٧٠٨م) كغيرهـا مـن البلـدان الـتي حكمهـا المسلمون، بـتراث معمـاري عظـيم كمًـا ونوعًـا، فمنـذ ذلـك التـاريخ وهـي تزخر بالآثار الإسلامية المتنوعة في أصولها وتكوينها وطابعها العام ووظائفها، والتي لا تقل في عظمتها عن أجمل المنشآت المعمارية في مصر والشام وبلاد فارس وغيرها.

وقد كان للمغرب الأقصى نصيب كبير من هذا التراث، إذ كان استقرار العرب بالمغرب بعد الفتح الإسلامي وطول عصر الولاة مصحوبًا بأعمال عمرانية وإقامة منشآت معمارية متنوعة، كما اهتمت جميع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ الأدارسة (١٧٢ – ٣٧٥ هـ / ٧٨٨ – ٩٨٥م) حتى الآن بالبناء والتعمير.

ولئن كانت آثار المشرق الإسلامي قد حظيت بعناية كثير من الباحثين المستشرقين والعرب على السواء منذ أكثر من قرنين، فكتبوا فيها مجلدات ضخمة، ونشروا لها صورًا ورسومات رائعة، فإن الآثار المغربية ظلت رهينة الجهل أسيرة النسيان لا تتعدى المعرفة بها سوى ما سجلته كتب التاريخ المعروفة فقط، حتى استهوت العلماء المستشرقين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للميلاد، فألفوا فيها كتبًا ومجلدات عن موضوعاتها الخاصة والعامة، إجمالاً وتفصيلاً، وقد اختص بهذه الأبحاث والدراسات العلماء الفرنسيون، ومن أشهرهم: هنري سلادان (Henri Saladin) وجورج مارسيه (Georges Marçais)، وجاك كاييه (Jacques Caillé) وهنري باسيه (Henri Basset)، وهنري تيراس (Henri Terrasse)، وبوريس ماسلو (Boris Maslow)، وجاستون ديفردان (Gaston Deverdun)، وليسين جولفان (Lucien Golvin)، وغيرهم.

وإلى هؤلاء العلماء يرجع فضل السبق في البحث عن الآثار المغربية، ووضع مناهج دراستها وتحديد أصولها ودراسة تواريخها والوقوف على تفاصيلها وحقائقها، غير أنه لا يخفى أن بعض هذه الأبحاث لم تخل من هنات سببها الميل إلى الهوى والتعصب، كما أن من بينها- سيما المبكرة منها- ما لم تقم على دراسات ميدانية مباشرة؛ حيث لم يسمح المغاربة للباحثين الأجانب بدخول آثارهم الدينية، الأمر الذي أوقع هؤلاء الباحثين في مزالق وأخطاء وبعد بهم عن تفهم تلك الآثار واستقراء خصائصها الصحيحة.

وقد تبع هؤلاء المستشرقين عدد من الباحثين العرب اهتموا بدراسة الآثار المغربية فكتبوا عنها مؤلفات وأبحاثًا مستقلة عالجوا فيها كثيرًا من النقاط المتعلقة بدراسة هذه الآثار من الناحيتين المعمارية والفنية، ومنهم: الدكتور أحمد فكري، والدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور عثمان عثمان إسماعيل، والدكتور رشيد بورويبة، والأستاذ سليمان

مـصطفى زبيس والـدكتور عبـد الهـادي التـازي، والـدكتور إبـراهيم شبوح، والـدكتور محمـد الباجي، والدكتور محمد محمد الكحلاوي، والدكتور صلاح أحمد البهنسي، والدكتور عبد العزيز لعرج، والدكتور عبد العزيز الدولاتي، والدكتور أسامة طلعت، وغيرهم.

وعلى الرغم من ذلك يلمس الدارسون في مجال الآثار الإسلامية قلة الأبحاث والمؤلفات العربية عن الآثار في هذا الجزء من العالم الإسلامي؛ وقد كان اختيار هذا التوجه للدراسة من الأمور التي حتمها هذا النقص فيما دوّن، ومساهمةً في إثراء المكتبة العربية بمثل هذه الدراسة التفصيلية الشاملة المزودة باللوحات والأشكال التوضيحية، واستكمالاً لما بدأته من خطوة على طريق البحث العلمي في دراسة آثار تلك البلاد، حيث كانت الأطروحة التي حصلت بها على درجة الماجستير عام ١٩٩٩م عن: "مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين (٦٦٨ –٨٦٩ هـ / ١٢٦٩ – ١٤٦٤م)"، آملاً أن تكون هاتان الدراستان حلقةً في سلسلة متصلة من الدراسات الأكاديمية المتخصصة عن آثار هذه البلاد، التي ما تزال يعوزها قسط وافر من عناية البحث والدراسة والتحليل.

وقد كان اختيار هذا الموضوع للبحث خلو المكتبة العربية من المراجع التي تتناول الحديث عن الآثار السعدية من وجهة النظر الأثرية والمعمارية، وذلك إذا استثنينا نبذًا عرضية وردت في ثنايا بعض المؤلفات والأبحاث، إضافةً إلى ذلك فإن العلماء الفرنسيين لم يخصوا – في جملة ما وضعوه من مؤلفات ضخمة وأبحاث رائعة عن آثار الغرب الإسلامي- الآثار السعدية بما تستحقه من عناية البحث والدراسة والتحليل. فنجد أن جورج مارسيه(Georges Marçais) – أكبر العلماء المتخصصين في عمارة المغرب الإسلامي – في دراسته الشاملة عن عمارة الغرب الإسلامي التي بعنوان:

- Manuel d'Art Musulman- L'Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, 2 Vols., Paris, 1926 – 1927.

ودراسته الأخرى التي بعنوان:

- L'Architecture Musulmane d'Occident Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris, 1954.

فرغم أهمية مؤلفاته- التي تعد مصدرًا مهمًا لكل من يتصدى بالبحث في آثار الغرب الإسلامي- أشار بإيجاز شديد إلى بعض الآثار التي ترجع إلى العصر السعدي، إلى جانب ذلك فإنه لم يشر مطلقًا إلى بعض الآثار السعدية المهمة كالجامع الكبير بتارودانت- أكبر المساجد السعدية مساحةً وواحد من أكبر مساجد المغرب الباقية بصفة عامة- وجامع أبي العباس السبتي بمراكش.

كما أن هؤلاء العلماء لم يتناولوا الآثار السعدية على نحو شامل، وإنما تركزت أبحاثهم على نوعيات معينة منها، وبخاصة قبور السعديين ومدرسة ابن يوسف وبقايا قصر البديع بمراكش، ولم تلق الضوء على الآثار السعدية الأخرى، من ذلك دراسة جابريل

روسو(Gabriel Rousseau)، التي بعنوان:

- Le Mausolée de Princes Sa'diens à Marrakech, Paul Geuthner, Paris, 1925[1].

ودراسة هنري دوكاستري (Henri de Castries)، التي بعنوان:

- Le Cimetière de Djama El- Mansour, Hespéris, Tome VII, Paris, 1927.

وقد اقتصرت الدراسة الأولى على نشر الكتابات المنقوشة على تراكيب وشواهد القبور التي تضمها مقبرة السعديين، وانصبت الدراسة الثانية على محاولة تصحيح بعض الأخطاء في قراءة الدراسة الأولى، دون اهتمام كل منهما بالنواحي التاريخية والمعمارية للمباني التي أنشئت فوق هذه القبور.

ودراسة جاستون ديفردان (Gaston Deverdun)، وعنوانها:

- L'Age des Tombeaux Saâdiens de Marrakech, D'Après de Documents Nouveaux, Hésperis, Tome XL, Paris, 1953.

وقد حاول ديفردان في هذه الدراسة التعرف على تاريخ إنشاء الوحدات المعمارية التي شيدت على قبور الأسرة السعدية — وهو أمر سكتت عنه المصادر التاريخية المتاحة آنذاك- اعتمادًا على تصميم لقصبة مراكش وضعه أحد البرتغاليين سنة (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م)، غير أن ديفردان لم يستفد من الرواية التاريخية التي أوردها المقري (ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م) في كتابه "روضة الآس"- الذي كان مخطوطًا وفي حكم المفقود حتى تم نشره عام ١٩٦٤م- والتي تسهم إلى حد كبير في التعرف على تاريخ إنشاء هذه الوحدات المعمارية.

كما أن الدراسة التي أعدها ديفردان أيضًا عام ١٩٥٦، تحت عنوان:

- Inscription Arabes de Marrakech, Éditions Techniques Nord Africaines, Rabat, 1956.

انصبت على دراسة الكتابات العربية المزينة للآثار المعمارية بمدينة مراكش، وتعرض من خلالها أيضًا للكتابات المنقوشة على تراكيب وشواهد القبور التي تضمها مقبرة السعديين.

وفي الدراسة التي أعدها شارل تيراس(Charles Terrasse)، تحت عنوان:

- Médersas du Maroc, Éditions Albert Morancé, Paris, 1927.

أشار بإيجاز شديد إلى مدرسة ابن يوسف، ولم يشر مطلقًا إلى غيرها من المدارس السعدية، ونقصد بها المدارس الملحقة بالمساجد الجامعة، والتي تمثل نمطًا مهمًا من أنماط

---

(١) اشترك مع جابريل روسو — الذي اقتصر دوره على تفريغ بعض الكتابات لتراكيب وشواهد القبور ورسم بعض اللوحات للمباني التي شيدت على هذه القبور- في إنجاز هذه الدراسة، كل من إدموند دوتي "Edomnd Doutte" وفيلكس أرن "Felix Arin"، وقد قام الأول بكتابة تقديم موجز لهذه الدراسة تناول فيها آراء بعض الباحثين عن الفن السعدي، أما فيلكس أرن فقام بقراءة الكتابات المنقوشة على تراكيب وشواهد القبور التي تضمها مقبرة السعديين.

المدارس المغربية.

كذلك أنجز كل من حميد تريكي (Hamid Triki) وآلان دوفيفات (Alain Dovifat) دراسة بعنوان:

- Medersa de Marrakech, Éditions la Croisee de Chemins, 1999.

وقد انصبت على مدرسة ابن يوسف أيضًا وتضمنت العديد من الرسومات والأشكال التوضيحية لعمارتها، وبعض التعليقات من الناحية الفنية.

كما كان للآراء المدونة عن الفن المعماري والفن السعدي بصفة عامة سبب في اختيار هذا الموضوع للبحث، حيث ذهب بعض الباحثين كهنري تيراس (Henri Terrasse) في دراسته التي بعنوان:

- Histoire du Maroc, 2 Vols., Casablanca, 1949.

إلى أن هذا الفن خالٍ من الابتكار ويتجه نحو الماضي، ولم تستطع بعض التأثيرات الأجنبية -- كالتركية والأوربية- تغيير الأصول القديمة وابتداع فن جديد؛ الأمر الذي جعله ينطوي في بعض مظاهره على الجمود، إلى جانب اقتباس هذا الفن بكثرة من الفن الغرناطي في مراحله الأخيرة، وظهور أثر الموريسكيين قويًا في العمارة والفنون.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الدراسات وغيرها كان لها فضل السبق في إلقاء الضوء على الآثار السعدية من الناحيتين المعمارية والفنية، كما أنها أسهمت في لفت الأنظار إلى أهمية دراسة هذه الآثار، كذلك كان لها أوجه الاستفادة في مجال البحث.

وغير خافٍ ما يواجهه الباحثون من صعوبات ومشاق عديدة في إجراء مثل هذه الدراسات التي تتعلق بالغرب الإسلامي، وقد واجهت الباحث بعض هذه الصعوبات، منها ندرة ما دون بالعربية عن آثار هذه البلاد بوجه عام وعمارة الأشراف السعديين - كما سبقت الإشارة- على وجه الخصوص، وأن أكثر ما دون عنها كان باللغة الفرنسية، فضلاً عن ذلك فإن هذه المراجع وغيرها من المصادر والمراجع العربية لم يكن من اليسير الحصول عليها، إما لقدم نشرها أو لكونها قليلة التداول وبخاصة في مصر، حيث إن جلها - إن لم يكن كلها- من المطبوعات الفرنسية والمغربية.

كذلك تطلبت الدراسة الميدانية المباشرة للعمائر السعدية -- موضوع الدراسة- الرحلة من مصر إلى المغرب، وقد كان لبعد الشقة ليس بين القطرين فحسب، بل وبين المدن التي تتواجد بها هذه العمائر في المغرب نفسه، أثر كبير في زيادة الجهد والمشقة، إذ يلاحظ أن النشاط المعماري للسعديين تركز في بداية الأمر بجنوب المغرب حيث نشأت الدولة بمنطقة السوس واتخذت من تيدسي ثمَّ تارودانت عاصمةً لها، ثمَّ امتد هذا النشاط المعماري بعد ذلك في اتجاه الشمال بعد أن أصبحت مراكش عاصمةً لهم، وتخطاها إلى فاس وما بعدها من مدن الشمال.

ومن الصعوبات التي واجهها الباحث أيضًا، صعوبة الحصول على تصاريح لزيارة هذه العمـائر السـعدية وإمكـان دراسـتها وتـصويرها؛ لاشـتراك عـدة جهـات في الإشـراف عليهـا: كمديرية التراث الثقافي التابعة لوزارة الثقافة والاتصال، ووزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، والمعهد الـوطني لعلـوم الآثـار والـتراث، فضلاً عـن خـضوع بعـض هـذه الآثـار لمؤسـسات خاصـة كمدرسة ابن يوسف بمراكش التي خضعت حديثًا لإشراف مؤسسة عمر بن جلون الخاصة.

وكان من الضروري لإنجاز هذا البحث الاتجاه – إلى جانب الدراسة الميدانية – إلى ما دون في المصادر التاريخيـة عـن تـاريخ الأشـراف الـسعديين، ومـا أجـري مـن دراسـات حديثـة عـن حضارتهم وآثارهم.

أمـا المصادر التاريخيـة الـتي اسـتعنت بهـا في إنجـاز هـذه الدراسـة فكثيرة ومتنوعـة، وذات أهمية بالغة؛ ذلك أن بعضها يرجع إلى الفترات السابقة على العهـد السعدي، حيث إن هنـاك كثيرًا من الموضوعات التي أثيرت في البحث، استدعت إلى أن نتطرق إلى هـذه المصادر، لتغطية بعض الجوانب التاريخية والحضارية والأثرية، وتتبـع حالـة العمـران ونوعيـة المنشآت المختلفـة بالمدن المغربية، ذلك أن بعض المنشآت قد شهدت تطورًا خلال الفترة قيد البحث، كان لا بد لتتبعـه الرجـوع إلى الفـترات التاريخيـة الـسابقة علـى عهـد الـسعديين، لنحـاول التعـرف علـى مراحل هذا التطور، كظاهرة المجموعات المعمارية التي ظهرت الإرهاصة الأولى لها – على أقل تقدير – في العصر المريني ثمَّ تبلورت في عهـد السعديين، وتطور الزاويـة مـن الربـاط والرابطـة، وكذلك التطور الوظيفي والمراحل التي مرت بها الزاوية قبـل أن تـصبح منـشأةً للتصوف تغير خلالها توزيعها الجغرافي تبعًا لكل وظيفـة، كمـا تغيرت أيضًا الفئـات الـتي شيدتها خـلال كـل مرحلة، وغير ذلك. وبعـض هـذه المصادر كـان معاصـرًا لأحـداث الفـترة التاريخيـة قيـد البحـث، حيث كان أولئك المؤرخون وغيرهم مـن الرحالـة شـهود عيـان فيمـا أوردوه مـن روايـات ونـصوص تتعلق بالأشراف السعديين والنشاط المعماري في عهدهم.

ومن أهم المؤلفات السابقة على عهد السعديين، "تـاريخ المن بالإمامـة علـى المستضعفين" لابـن صـاحب الـصلاة (ت: ٥٩٤ هـ / ١١٩٨م)، و"أخبـار المهـدي بـن تـومرت وبدايـة دولـة الموحـدين" للبيذق (من القرن ٦ هـ / ١٢م)، و"التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات التـادلي (ت: ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م)، و"نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمـان" لابـن القطـان (تُوُفِّيَ منتـصف القـرن ٧ هـ / ١٣م)، و"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبـد الواحـد المراكشي (كـان حيًـا في النـصف الأول من القرن ٧ هـ / ١٣م)، و"البيان المغرب في أخبـار الأنـدلس والمغـرب" لابـن عذارى المراكشي (ت: ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥م)، و"الأنـيس المطـرب بـروض القرطـاس في أخبـار ملـوك المغـرب وتـاريخ مدينـة فـاس" لابـن أبـي زرع الفاسـي (ت: ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م)، و"الـذخيرة الـسنية في تـاريخ الـدولـة المرينيـة" للمـؤرخ نفـسه، و"جـني زهـرة الآس في بنـاء مدينـة فـاس" للجزنـائي (مـن القـرن ٨ هـ / ١٤م)،

و"الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب (ت: ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م)، و"مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس" للمؤرخ نفسه، و"تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدا والخبر" لابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م)، و"اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار" للأنصاري (ت: ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م)، و"الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون" لابن غازي (ت: ٩١٩ هـ / ١٥١٣م)، وغير ذلك من المصادر التاريخية وكتب الرحالة والجغرافيين.

أما بالنسبة للمؤلفات التاريخية المعاصرة للفترة التاريخية قيد البحث التي استفاد منها الباحث، فمن أهمها كتاب "ديوان قبائل سوس" لإبراهيم الحساني (ت: أواخر القرن ١٠ هـ / ١٦م).

وهذا الكتاب ليس تاريخًا للدولة السعدية، وإنما هو تعريف بقبائل سوس بجنوب المغرب، حيث نشأت هذه الدولة، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه يقدم فكرةً عامةً عن نمط الحياة الاقتصادية والتنظيم الجبائي والمالي للدولة السعدية، إضافةً إلى تقديمه لطريقة تقدير إحصاءات السكان آنذاك، التي كانت مبنية على أساس "السروج" التي يتكون كل منها من عدد من "الكوانين"، وحيث إن "السرج" أو "السرجة" وحدة إحصائية تتكون من ١٥ "كانونًا"، وباعتبار أن "الكانون" أي "الأسرة" يتكون من خمسة أشخاص كرقم متوسط، بالتالي فإن عدد أفراد "السرجة" يبلغ ٧٥ فردًا.

ومن هذه المصادر كتاب "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس" لابن القاضي (ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م).

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه مرجع مهم من مراجع التاريخ والأدب والاقتصاد والاجتماع للمغرب بصفة عامة ولمدينة فاس على وجه الخصوص، وموضوع الكتاب كما يدل عليه اسمه، ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مع تمهيد فصل فيه القول في بناء هذه المدينة وذكر أسوارها وجامعيها القرويين والأندلس، واحصاء لما فيها من منشآت وعمائر.

وقد أمدني هذا المصدر بمعلومات مهمة من الناحية التاريخية من خلال التراجم التي تضمنها للعديد من سلاطين الدولة السعدية، اشتملت على أسمائهم وكناهم وألقابهم وأنسابهم وتواريخ موالدهم وولاياتهم ووفياتهم وسنوات حكمهم أحيانًا، وذكر أوصافهم الخلقية والخلقية، وذكر بعض رجال دولتهم من وزراء وقادة أحيانًا أخرى.

بالإضافة على ذلك فقد أمدني هذا المصدر ببعض المعلومات التي تفيد الجانب الحضاري والأثري، كإنشاء عبد الله الغالب بالله خلوة (زاوية) للحزابين بالركن الجنوبي الغربي لجامع القرويين، وتزويد أحمد المنصور الذهبي نفس الجامع بفسقية رخامية شيد عليها قبة خشبية تقع بالجهة الشرقية لصحن هذا الجامع، وبناء أحمد المنصور أيضًا لبرجين بفاس الجديد وعدة أبراج أخرى بفاس القديمة، وإنشاء الشيخ عبد الله محمد الهبطي لزاوية

بجبل الأشهب جنوب شرق شفشاون.

ومن هذه المصادر كتاب "درة الحجال في أسماء الرجال" لابن القاضي أيضًا. وهو معجم مرتب ترتيبًا أبجديًا، يترجم للعديد من الأعلام المشهورين الذين عاشوا ما بين أواخر القرن (٧ هـ / ١٣م) إلى أواخر القرن (١٠ هـ / ١٦م) وأوائل القرن (١١ هـ / ١٧م)، كان من بينهم العديد من سلاطين الدولة السعدية.

وقد أمدني هذا المصدر بمعلومات مهمة عن تاريخ السعديين، من أهمها انتصار جيشهم على البرتغال في معركة وادي المخازن، واستيلاء أحمد المنصور على إقليمي توات وتيكورارين في الجنوب الشرقي للمغرب، وفتح نفس السلطان لبلاد السودان الغربي. وفضلاً عن هذه المعلومات التاريخية فقد أمدني هذا الكتاب بمعلومات مهمة تفيد الجانب الحضاري والأثري كإنشاء لالة مسعودة – زوجة محمد المهدي الشيخ ووالدة ابنه أحمد المنصور- لجامع باب دكالة بمراكش، وتشييدها لعدة محطات أو استراحات على طرق القوافل، وإنشاء وتجديد لالة مسعودة أيضًا لعدة قناطر وجسور على وادي أم الربيع بطريق مراكش وعلى وادي بني بسيل وعلى وادي فاس بطريق صواغة، وإنشاء أحمد المنصور لقصر البديع بمراكش، وبناء نفس السلطان لعدة أبراج بفاس القديمة وفاس الجديد.

ويعتبر كتاب "مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا" لعبد العزيز الفشتالي (ت: ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م)، من بين المصادر المهمة لموضوع البحث، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى كون مؤلفه شارك بنفسه في صنع الأحداث والأخبار التي يصفها؛ فقد كان وزيرًا وكاتبًا لأحمد المنصور الذهبي والمؤرخ الرسمي للدولة في عهده، مما أتاح له أن يكون على اتصال مستمر بالبلاط السعدي. وقد كان هذا الكتاب – وفقًا لما ذكره بعض المؤرخين- يتكون من عدة أجزاء، إلا أنه لم يصل منه – حتى الآن – سوى جزء واحد، وهو الجزء الثاني أو مختصره الذي نحن بصدده، وقد اقتصرت مادته كلها على أحمد المنصور ونشاطه في مختلف الميادين وتفاصيل مهمة عن تنظيمات الدولة والجيش في عهده وغير ذلك.

ولما كان الفشتالي وزيرًا لأحمد المنصور وواحدًا من رجال البلاط السعدي؛ كان من البديهي ألا يهتم إلا بتسجيل الجانب الإيجابي من أعمال المنصور، ولا يذكر نقاط الضعف في سياسته وسلوكه، كذلك لم يهتم بذكر ما يتعلق بأوضاع الشعب ونشاطه، إلا أن هذا المصدر يتضمن- رغم ذلك- كثيرًا من الأخبار والوقائع التي لم تشر إليها المصادر التاريخية – المتاحة حتى الآن- المتعلقة بالسعديين، من ذلك الاستعداد لفتح السودان الغربي والمكائد التي دبرها المنصور لذلك والحروب التي خاضها الجيش المغربي حتى استولى على هذا القطر، وهو مما لا يوجد مفصلاً إلا في هذا الكتاب.

بالإضافة إلى ذلك فقد أمدني هذا المصدر بمعلومات وفيرة تفيد الجانب الحضاري

والأثـري، كتجديـد محمـد المهـدي الشيخ لمدينـة تارودانـت وبنائـه لكثير مـن المنشآت والعمـائر المختلفـة، وبنـاء أحمـد المنـصور لقصـر البـديع بمـراكش، وتـشييد نفـس الـسلطان حـصنًا بتـازة وآخرين بمدينـة العـرائش وبـرجين بمدينـة فـاس الجديـد وعـدة أبـراج بفـاس القديمـة، وحـصنًا بمدينة تغازة ، وثلاثة حصون على مناجم الذهب التي استولى عليها بالسودان الغربي، وتشييد المنصور أيضًا للعديد من معاصر السكر.

ومن المصادر التي استفادت منها الدراسة أيضًا، كتاب "روضة الآس العاطرة الأنفـاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس" للمقري(ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م).

وقد خصص المقري هذا الكتاب للحديث عن أحمد المنصور الذهبي، حيث وصف فيه احتفالاته بالمولد النبوي وعاداته فيه، ووفادة العلماء عليه من بلاد المشرق المختلفة، كما أشار إلى استيلاء المنصور على إقليمي توات وتيكورارين وفتحه للسودان الغربي، كذلك يشتمل هذا المصدر على تراجم عدة شخصيات علمية وأدبية عملت في بلاط أحمد المنصور أو ترددت عليه، يتضح من خلالها مدى الازدهار الذي بلغته الحياة العلمية والأدبية آنذاك.

أمـا مـن الناحيـة الحـضارية والأثريـة فقـد أفـدت منـه بمعلومـات وفـيرة، كبنـاء أحمـد المنصور لقصر البديع، وجامع بحارة ياسر بمراكش، وتزويده جامع القرويين بخزانة للكتب تقع خلف جدار قبلته، وفسقية رخامية شيد عليها قبةً خشبيةً بالجهة الشرقية لصحن هذا الجامع، وبنـاء ضـريح علـى قـبر والـده بمقـبرة الـسعديين بمـراكش، وتجديـد نفـس الـسلطان لعدة قناطر كقنطرة تانسيفت وقنطرة وادي أم الربيع، وقنطرة وادي سبو، وتشييده لسدين علـى وادي بوطوبـة بفـاس، وإنـشاء لالـة مـسعودة والـدة هـذا الـسلطان لجـامع بـاب دكّالـة بمـراكش، وقـد قـام المقـري بتـضمين كتابـه هـذا الـنص الكامـل لوثيقـة وقـف هـذا الجـامع، كذلك أشار إلى بنـاء أبـي فـارس بـن المنـصور لجـامع أبـي العبـاس الـسبتي بمـراكش، وإنـشاء زيدان بن المنصور لقصبة على وادي أم الربيع.

ومن مؤلفات المقري الأخرى التي استفادت منها الدراسة أيضًا، كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب".

ومـن المصادر الـتي اسـتفادت منهـا الدراسـة أيـضًا، كتـاب "تـاريخ الـسودان" لعبـد الـرحمن السعدي (ت: ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٦م).

ولا ينتمـي هـذا المؤرخ إلى الدولـة السعدية، وإنمـا هـو سـوداني – مـن الـسودان الغربـي- لكنـه يحمـل لقـب الـسعدي، وهـو يعـرض في هـذا الكتـاب لتـاريخ الـسودان عـبر القـرون، قبـل أن يخصص فصولاً مهمةً للتـدخل السعدي بهـذه الـبلاد، وبخاصـة الفـترة المواليـة للفـتح مباشـرة، وهي فترة الـولاة والقـادة المغاربـة، لمـا يشغله موضـوع افتتـاح الـسودان الغربـي علـى يـد الـسعديين من مكانة بارزة سواء في تاريخ المغرب أو تاريخ الممالك السودانية.

أمـا مـن الناحيـة الحـضارية والأثريـة، فقـد أمـدني بـبعض المعلومـات عـن المنـشآت الـتي شيدها قواد أحمد المنصور بالسودان الغربي بعد الفتح، كتشييد القائد جؤذر لقصبة بمدينة تمبكتو، وبنـاء الباشـا محمـود بـن زرقـون لقـصبة بمدينـة كلـن، كمـا أشـار السعدي إلى إنـشاء أحمد المنصور لجامع الهناء بمدينة مراكش الذي سمي بجامع الفناء بعد موت هـذا الـسلطان قبل إتمام بنائه، وهي معلومات لم يشر إليها غيره من المؤرخين.

ويعتبر كتـاب "تـاريخ الدولـة الـسعدية التاكمادرتيـة" لمؤرخ مجهـول، مـن المصادر المهمـة التي استفادت منها الدراسة. -

يلاحظ علـى المؤلفـات التاريخيـة الـسابق الإشـارة إليهـا مبالغـة مؤلفيهـا في المدح والثنـاء على سلاطين الدولـة الـسعدية، اعترافًا بفضلهم وشكرًا لمكارمهم ورغبةً في عطايـاهم وهبـاتهم، إلى جانب عدم اهتمام هؤلاء المؤرخين بتسجيل سلبيات وعثرات هؤلاء الـسلاطين، في حـين نجـد أن مؤلف هذا الكتاب اتبع في تأريخه للسعديين أسلوبًا انتقاديًا متحاملاً في كثير مـن الأحيـان، لم يـسلم منـه حتـى أحمـد المنـصور الـذهبي- أشـهر سـلاطين الـسعديين وأحـد عظمـاء حكـام المغـرب- ، بحيـث يلمـس المتـصفح لهـذا الكتـاب أنـه عبـارة عـن سلـسلة متـصلة الحلقـات مـن الثورات والمؤامرات والاغتيالات والمحاصرات والغزوات، مما جعل بعـض البـاحثين – كناشـر هـذا الكتـاب- يـرجح أن يكـون هـذا المؤلـف مـن بقيـة بـني وطـاس الـذين اسـتوطنوا مكنـاس بعـد انقراض دولتهم على يد السعديين. ورغم ذلك فقد أفادت الدراسـة مـن هـذا المصدر بمعلومـات وفيرة من الناحية التاريخية.

كمـا أمـدني أيـضًا بـبعض المعلومـات الـتي تفيـد الجانـب الحـضاري والأثـري، كإنـشاء محمـد المهـدي الـشيخ لقـصبة تامـدرت علـى يـسار الخـارج مـن بـاب الفتـوح بمدينـة فـاس، وأخـرى بمدينـة تارودانـت، وبنـاء محمـد المتوكـل بـن عبـد الله الغالـب لقـصر بـوفير وقبـة النـصر بفـاس الجديد، وشروع عبد الملك المعتصم في بناء عدة حصون بفاس الجديـد اسـتكملها أخـوه أحمـد المنصور من بعده، وتجديد المنصور للقصبة الموحدية بفاس القديمة.

وإلى جانب هذه المؤلفات المعاصرة للفترة التاريخية موضوع الدراسة، اعتمـدت الدراسـة علـى بعـض المصادر التاريخيـة المتـأخرة عـن العهـد الـسعدي، مـن أهمهـا: كتـاب "نزهـة الحـادي بأخبار ملوك القرن الحادي" للإفراني (تُوُفِّيَ بعد ١١٥١ هـ / ١٧٣٩م)، وكتـاب "الاستقـصا لأخبـار دول المغرب الأقصى" للناصري(ت:١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م)، فقد تميزت هذه المصادر المتأخرة بمـا نقلتـه مـن مـصادر بعضها مفقـود أو نـادر قليـل التـداول، فعوضت إلى حـد كـبير ضـياع هـذه المـصادر، وحفظت كثيرًا من الأخبار التي تتعلق بالدولة السعدية والتاريخ المغربي بصفة عامة.

فبالنسبة لكتاب "نزهة الحادي" يلاحظ رغم تأخر مؤلفه قليلاً عن العصر السعدي، أنه يعتبر – حتى الآن- أكمل تاريخ للدولة السعدية، وقد بدأه الإفراني بنشأة الدولة السعدية

(٩١٥ هـ / ١٥١٠م)، وتعرض في آخره لبداية الدولة العلوية إلى عهد السلطان إسماعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ / ١٦٧٢ – ١٧٢٧م)، لذلك فهو يغطي فترة قرنين من الزمان، وإن كان عنوانه يوحي بأنه سيقتصر فيه على تاريخ قرن واحد، وقد خصص الإفراني خمسةً وسبعين فصلاً من الواحد والثمانين التي اشتمل عليها كتابه للحديث عن الدولة السعدية وملوكها، عرف من خلالها بنسبهم وأصولهم وتاريخ دخولهم المغرب وقيام دولتهم، وما أعقب ذلك من حروبهم وانتصاراتهم على الوطاسيين والبرتغاليين، وغير ذلك من علاقات سياسية وعسكرية للدولة السعدية مع بعض دول أوربا والدولة العثمانية.

وفضلاً عن ذلك فقد أمدني هذا المصدر بمعلومات وفيرة تفيد الجانب الحضاري والأثري، حيث يعكس في صفحاته اهتمام السعديين بالعمارة والعمران، وأمدني بأسماء العديد من منشآتهم المختلفة، كجامع باب دكّالة، وجامع الموّاسين وجامع أبي العباس السبتي بمراكش، وقصر البديع بمراكش أيضًا، وغير ذلك من البيمارستانات والقناطر والسدود والقصاب والأبراج وغيرها.

كما أفادت الدراسة من كتب الرحالة والجغرافيين التي حفلت بالكثير من الأخبار والحقائق عن المدن المغربية المختلفة، ويعتبر كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي (تُوُفِّيَ بعد ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م) من أهم هذه النوعية من المصادر التي استفادت منها الدراسة.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه عاش بمدينة فاس ودرس على أعلام القرويين، وقد أظهر نبوغًا منذ صغره مما جعل السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي يضمه إلى رجال بلاطه، وأسند إليه مهام إدارية ثمَّ سياسية في أواخر العهد الوطاسي وأوائل العصر السعدي، تعرف خلالها على محمد القائم بأمر الله السعدي الذي بايعته القبائل في الجنوب منذ سنة (٩١٥ هـ / ١٥١٠م).

ويزيد من أهمية هذا الكتاب أن الحسن الوزان يعتبر المؤلف الوحيد الذي عاصر بداية السعديين، واهتم بوصف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما شاهدها وصفًا دقيقًا، كما عني بوصف المساجد، والمدارس، ومكاتب تعليم الصبيان، والبيمارستانات، والفنادق، والأسواق، والحمامات، والقصور والدور وغيرها من المنشآت، وصفًا يدل على دقة الملاحظة وقدرة عجيبة على التعبير عن الفن المعماري والزخرفي على السواء، فضلاً عن الإحصاء الدقيق لما تشتمل عليه المدن المغربية من مرافق مختلفة على عصره.

ويأتي كتاب "إفريقيا" لمارمول كربخال (من القرن ١٠ هـ / ١٦م) بعد كتاب الحسن الوزان في الأهمية، وقد تعاصر هذان المؤلفان ولم يفصل بين كتابتهما غير نحو أربعين سنة، وكان لذلك أثره- فيما يبدو- في اتحاد موضوعهما وتشابه نظرتهما وطريقتهما في

الكتابة، وتكاملهما بحيث نجد كثيرًا ما يتحدثان عن نفس الموضوع، ويذكر أحدهما ما أغفله الآخر، أو يحدد ويضبط ويوضح ما بقي عند الآخر عامًا أو مبهمًا؛ لذلك فإنه لا يجدر بالباحث- لكي تتم الفائدة- الرجوع إلى أحد الكتابين دون الآخر.

ولد مارمول بغرناطة في أوائل القرن (١٠ هـ / ١٦م)، وقدم إلى شمال إفريقيا في جيش الإمبراطور شارلكان الذي غزا مدينة تونس في سنة (٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م)، وبعد عودة هذا الجيش بقي مارمول بشمال إفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها شارلكان، وطال مقامه في هذا البلاد نحو اثنتين وعشرين سنة، أسر خلالها من طرف الأشراف السعديين، وبقي عندهم أسيرًا سبعة أعوام وثمانية أشهر، يسير في ركابهم أينما ساروا عبر بلاد السوس الأقصى والصحراء، أو في منطقتي فاس وتلمسان، وغير ذلك من المناطق التي كان لهم بها نفوذ، وعاصر مارمول ثلاثة ملوك، هم: أحمد الأعرج، ومحمد المهدي الشيخ، وعبد الله الغالب ووصف عن مشاهدة الجوانب المختلفة لحياتهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس، وأتراك الجزائر، مما يرجح أن أسره بالمغرب كان في آخر فترة مقامه بإفريقيا، أي فيما بين سنتي (٩٥٩ – ٩٦٦ هـ / ١٥٥٢ – ١٥٥٩م).

وقد أتم مارمول كتابه بعد سنة (٩٧٩ هـ / ١٥٧١م) بعد أن اطلع على كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان، ونسج على منواله، بل اقتفى أثره ونقل منه فصولاً كثيرةً حرفًا بحرف، ورغم ذلك يبقى كتاب مارمول على درجة كبيرة من الأهمية للباحثين في جغرافية إفريقيا وتاريخها في القرن (١٠ هـ / ١٦م)، ومن المصادر المهمة لهذه الدراسة كذيل مكمل لكتاب الحسن الوزان، متفرد بما سجله -- كشاهد عيان- من أحداث ووصف من مواقع لم يقف عليها غيره.

كما أفادت الدراسة من كتب التراجم والمناقب التي عالج فيها مؤلفوها سير الأولياء والمتصوفة الذين تعددت طوائفهم بالمغرب واشتد نفوذهم، وصاروا بدايةً من القرن (١٠ هـ / ١٦م) يؤدون أدوارًا دينيةً واجتماعيةً وسياسيةً. ومن أهم هذه المصادر، كتاب "المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى" للصومعي (ت: ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤م)، وكتاب "الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس" لابن عيشون الشراط (ت: ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧م).

وتعتبر كتب الفتاوى أو النوازل- وفقًا لمسماها المغربي- إضافةً لما سبق ذكره، من المصادر التي أفادت منها الدراسة، لما تتضمنه هذه النوعية من المصادر من معلومات لا تهتم – غالبًا- المصادر التاريخية التقليدية بتسجيلها، والتي ركز مؤلفوها جل جهدهم في تسجيل النشاط السياسي والعسكري للسلطة الحاكمة، ومن أهم هذه المصادر كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب" للونشريسي (ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م)وكتاب "النوازل" للعلمي (ت: ١١٢٧ هـ / ١٧١٦م).

وتتميـز هـذه المصادر بتنـوع الموضـوعات الـتي تطـرق إليهـا مؤلفوهـا، والـتي تتعلـق ﭬ مجملها بالاقتصاد والمجتمـع والـدين والفكـر والعمـران ﭬ المغـرب الإسـلامي، والمفتـون ﭬ هـذه الموضوعات مـن فقهـاء المالكيـة ﭬ الغـرب الإسـلامي مـن تلاميـذ الإمـام مـالـك إلى شيـوخ مـؤلفي هذه الكتب وأقرانهم المعاصرين لهم.

ومن هذه الموضوعات ما يتصل بالمياه سواء الصالحة للشرب أو للسقي، ومنهـا مـا يتصـل بالأراضي الزراعية وأوجه استغلالها، ومنهـا مـا يتصل بـالحرف والـصناعات المختلفـة، ومنهـا مـا يتـصل بالتجـارة البحريـة منهـا والبريـة، واسـتئجار الـدور والحوانيـت والمشكلات الـتي تعـترض الملاك والمستأجرين، ومنهـا مـا يتعلق بالأوقـاف أو الأحبـاس- وفقـاً لمسماها المغربـي- وطـرق تحصيلها ومنافذ صرفها، ومنهـا مـا يتعلـق بعمـارة المساجد والمدارس، ومنهـا مـا يتعلـق بالحيـاة العلمية، ومنها ما اتصل بالضرار والبنيان ومختلف المشكلات الـتي اعترضت السكان، ومنهـا مـا يتصل بالزواج والمعاملات وغيرها.

كـذلـك أفـادت الدراسـة مـن كـثير مـن الدراسـات الحديثـة، سـواء مـا يتعلـق منهـا بالجوانب التاريخية أو الحضارية أو الأثرية أو المعمارية، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها.

وقد نظمت الرؤية السابقة خطة البحث، حيث تم تقسيمه إلى ثلاثة أبـواب وخاتمـة. تناولت ﭬ البـاب الأول الأوضـاع التاريخيـة والحضارية لدولـة الأشـراف السعديين، وهـو يشتمل على فصلين. تضمن أولهما التعريف بالأشـراف السعديين أصـلهم ومـوطنهم وألقـابهم ومراحـل تكوين دولـتهم، بينمـا استعرضت ﭬ الفصل الثـاني المنشآت المعماريـة ومظـاهر العمـران ﭬ عهـد الأشراف السعديين.

أمـا البـاب الثـاني فيتـضمن الدراسـة الوصـفية للعمـارة الدينيـة والجنائزيـة الباقيـة للأشـراف الـسعديين بمختلـف مـدن المغرب ويـشتمل علـى أربعـة فـصول. خـصص الفـصل الأول للمـساجد الجامعـة، وهـي: الجـامع الكـبير بتارودانـت (٩٢٣ – ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ – ١٥٤٤م)، وجـامع بـاب دكَّالـة بمـراكش (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م)، وجـامع الأشـراف أو المواسين بمـراكش أيضًا (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م)، وجامع أبي العباس السبتي بنفس المدينة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م).

ويتناول الفصل الثـاني المدارس السعدية الباقيـة، وهـي: المدرسة الغالبيـة المعروفـة حاليًـا بمدرسـة ابـن يوسـف بمـراكش (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م)، ومدرسـة جـامع بـاب دكَّالـة، ومدرسـة جـامع المواسين، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا.

أمـا الفـصل الثالـث فقـد خـصص لدراسـة الزوايـا الـتي شـيدها الـسعديون، وتتمثـل ﭬ الزاوية الجزولية وملحقاتها المعمارية بمراكش.

بينمـا خـصص الفـصل الرابـع للعمـارة الجنائزيـة المتمثلـة ﭬ قبـور الأشـراف الـسعديين بمـراكش. مـع ملاحظـة أنـه يـسبق الوصـف المعمـاري لكـل منـشأة مـن المنشآت الـسابق ذكرهـا

الحديث عن منشئها وموقعها وتاريخ إنشائها ومناقشة الآراء المثارة حوله، وأعمال الإصلاح والتجديد التي أجريت عليها، ومواد البناء المستخدمة في إنشائها وتخطيطها المعماري.

وأما الباب الثالث فيعرض بمنهج تحليلي للعناصر المعمارية والزخرفية للعمارة الدينية والجنائزية السعدية، ويشتمل على فصلين. يتناول الفصل الأول العناصر المعمارية المختلفة التي تتكون منها عمارة المنشآت السعدية السابق الإشارة إليها، سواء كانت عناصر منفعة، أو عناصر إنشاء، أو عناصر تهوية وإضاءة، أو عناصر اتصال وحركة، أو عناصر وقاية، أو عناصر خدمة.

والفصل الثاني يتضمن دراسة العناصر الزخرفية المختلفة المزينة للعمارة الدينية والجنائزية السعدية موضوع الدراسة- من عناصر نباتية وهندسية وكتابية، وعناصر معمارية استخدمت للغرض الزخرفي.

وختمت الدراسة بعرض لأهم النتائج التي توصلت إليها، يلي ذلك ثبت بأسماء المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدت عليها. ثم ذيلت الدراسة بثبت الخرائط والأشكال واللوحات، ثمَّ مجموعة الخرائط، والأشكال واللوحات التي توضح متن الدراسة.

الباب الأول
الأوضاع التاريخية والحضارية للأشراف السعديين

ويشمل:

الفصل الأول: الأشراف السعديون ومراحل تكوين دولتهم.

الفصل الثاني: المنشآت المعمارية ومظاهر العمران في عهد الأشراف السعديين.

الفصل الأول

الأشراف السعديون مراحل تكوين دولتهم

شهد المغرب العربي[١] خلال العصور الوسطى قيام دول كبرى، عملت على توحيد كل أقاليمه، وصهرها سويًا. فقد امتدت سلطة المرابطين (٤٤٨ — ٥٤٠ هـ/ ١٠٥٦ — ١١٤٥م)، ثم دولة الموحدين (٥١٤ - ٦٦٨ هـ / ١١٢٠ - ١١٦٩م) على الأندلس في نفس الوقت الذي تركزت فيها على الشمال الإفريقي[٢]، الشيء الذي لم يحدث من قبل حتى أيام مجد الاحتلال الروماني[٣].

وقد عاشت هذه الأقاليم آنذاك في مستوى حضاري مرتفع، وفي ظل ازدهار اقتصادي ملموس؛ نتيجةً لثروتها الإنتاجية، ولسيطرتها على طريق القوافل التجارية الآتية من المشرق، أو التي تحمل إليها منتجات أقاليم أفريقيا السوداء، وبخاصة التبر والعاج وريش النعام، وغير ذلك، فضلاً عن الرقيق، فكانت تستهلك من هذه السلع قدر حاجتها، وتصدر الفائض إلى

---

(١) يقصد بمصطلح المغرب العربي كل الأقاليم الواقعة غرب مصر التي تشمل شمال القارة الإفريقية، وتتضمن حاليًا: ليبيا وتونس والجزائر وآخيرًا المغرب الأقصى وموريتانيا، الذي كان يعرف حتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين باسم مراكش نسبةً إلى عاصمته الجنوبية، ويمتد طبيعيًا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر، أما في العصور الوسطى فإلى جانب المغرب الإفريقي كان هناك المغرب الأوربي الذي يشمل شبه الجزيرة الأيبيرية، وجزر البليار المعروفة عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية، إلى جانب صقلية، ومن هنا فإن مدلول لفظ المغرب في العصور الوسطى كان أوسع من مدلوله اليوم خاصةً بعد أن خرج منه القسم الأوربي، وأصبح قاصرًا على بلاد شمال أفريقيا فقط أو ما يسمى بالمغرب العربي الكبير (خريطة رقم ١). انظر، الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، ت: ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء — المغرب، ١٩٥٤م، الجزء الأول، ص ٧١؛ مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين (٥٢٤ — ٨٧٦ هـ / ١١٣٠- ١٤٧٢م) مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٢م، ص ٢٥ ؛ محمد القبلي: المغرب والأندلس والمجال المتوسطي مقدمات أولية وملاحظات، بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص ١٣ ؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص ص ٩ — ١٠ ؛ ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم وأ.محمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٠، ص ٥ ؛ حلمي محمد عشيش: المغرب الأقصى كما رأيته، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص ص ٧ — ٨.

(٢) جلال يحيى: المغرب العربي والاستعمار، سلسلة المكتبة الثقافية (١٦٤)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص ٦.

(٣) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩١م، ص ٢٨٩.

الدول الأوربية[١].

ولكن ما أن منيت الجيوش الموحدية بهزيمة العقاب سنة (٦٠٩ هـ / ١٢١٢م) حين واجهت القوات المتحدة للممالك المسيحية الإسبانية[٢]، حتى تفككت أوصال هذه الدولة الكبرى، وضعفت سيطرتها على أملاكها في المغرب والأندلس، ولم ينته النصف الأول من القرن (٧ هـ / ١٣م) إلا وتقاسمت ممتلكاتها عدة دول، فقامت دولة الحفصيين بالمغرب الأدنى (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) [٣]، ودولة بني عبد الواد أو بني زيان بالمغرب الأوسط (٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م) [٤]، وقامت دولة بني مرين بالمغرب الأقصى بعد أن قضت نهائيًا على الموحدين عام (٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م) [٥]، أما في الأندلس فقامت الدولة النصرية في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة أيبيريا، واتخذت من غَرْنَاطَة عاصمةً لها، وذلك في عام (٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م) [٦].

وقد كان بإمكان هذه الدول التصدي للخطر النصراني في الأندلس والبحر المتوسط، وإعادة توحيد المغرب الكبير في حالة تعاونها مع بعضها، لكنها ظلت زهاء ثلاثة قرون تتصارع فيما بينها، وربما وقعت الحرب بين الأمراء المرشحين للملك في الدولة الواحدة فضعفت قوتها، وأصبح همها مشاكلها الداخلية والصراع حول السلطة، ولم تمد يدها لنجدة مسلمي

---

(١) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ٦؛ يسري الجوهري: شمال إفريقية، الطبعة السادسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ١٣٧.

(٢) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م): تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ١٩٩٢م، المجلد السادس، ص ٢٩٥؛ ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان، تُوُفِّيَ بعد عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م): وصف إفريقيا، الطبعة الثانية، ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٨٣م، الجزء الأول، ص ١٣٥.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ص ٣٢٦- ٣٢٨؛ أحمد بن عامر: الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٧٢م، ص ص ١ — ٢.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٩٣؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثاني، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص ص ٨٧٢ — ٨٧٥.

(٥) ابن عذارى (المراكشي، ت: ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص ٤٦٨؛ ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي، ت: ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ص ٣٠٥ — ٣٠٧؛ وللمؤرخ نفسه: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ص ١١٦ - ١١٨.

(٦) المقري (أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، الجزء الأول، ص ٤٤٧.

الأندلس، في الوقت الذي بدأت فيه دول أوربا تتفوق في القوى البحرية والبرية[١].

وإن كان من الإنصاف القول إن كلاً من الدولتين الحفصية والمرينية حاولت بسط نفوذها على كل المغرب بأسره، ونجح المرينيون – الذين كان تاريخهم صورةً مصغرةً للحمة الموحدين – في ذلك؛ فتابعوا سياسة الموحدين في الأندلس القائمة على مساعدة المسلمين هناك[٢]، واستطاعوا استعادة الإمبراطورية الموحدية بشمال أفريقيا على عهد السلطان أبي الحسن[٣]، غير أن هذا النجاح كان قصير الأجل؛ حيث قضت هذه الفكرة نحبها بعد المحاولة الأخيرة التي أقدم عليها ابنه السلطان أبو عنان، ولم يكتب لها النجاح[٤]. وبموته انتهت عظمة المرينيين، وأصاب دولتهم وهن سياسي وعسكري لازمها حتى زوالها؛ وبذلك فقد بنو الأحمر مناصريهم، ووجدت غرناطة نفسها منعزلةً في نضالها البائس من أجل البقاء، وأصبح الوجود الإسلامي بالأندلس مرهونًا بحركة المقاومة الداخلية، لكن ومن أسف كان مآلها إلى الإخفاق؛ إذ لم يكد القرن (٩ هـ / ١٥م) يشرف على نهايته حتى فتحت مملكة غرناطة أبوابها للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابلا في الثاني من شهر ربيع الأول (٨٩٧ هـ) الثاني من يناير (١٤٩٢م)، وسقط بسقوطها آخر معقل كان للإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية[٥]. ولم تكتف القوى المسيحية بذلك بل وتتبعت المهاجرين الأندلسيين في شمال أفريقيا؛ مما أدى إلى

---

(١) مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص ١١٢؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص ٦- ٧.

(٢) عن الدور الذي لعبه المرينيون في الدفاع عن الأندلس، انظر، ابن عذاري: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص ٤٣٠؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ص ٩٨، ١٤٣ – ١٥٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٢٢٦ – ٢٢٨، ٢٣١ – ٢٣٢، ٢٤٤ – ٢٤٨، ٢٥٤- ٢٥٦، ٢٨٦، ٣٠٨ – ٣١١؛ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت: ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م): اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٤٧ هـ، ص ص ٩٢ – ٩٣.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١٧ – ٣٢١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ١٢٣ – ١٢٦، ١٥٥ – ١٥٨.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٣٤١ – ٣٤٣، ٣٥١؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣ – ١٩٧٧م، المجلد الثاني، ص ٢١؛ ابن الحاج النميري (أبو القاسم برهان الدين بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد، تُوُفِّيَ بعد ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة ونشر د. محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٩٠م، ص ص ٣١٠ – ٣٦٥؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)، الجزء السابع، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ٢٥٧؛ لطفي عبد البديع: الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م، ص ص ١١- ١٢.

احتلال عدد من الثغور بأقطار المغرب العربي[١].

وهكذا أطل القرن (١٠ هـ/ ١٦م) والمغرب العربي في ضعف وتدهور وانقسام من طرابلس الغرب إلى رباط الفتح، فقد تداعى الحفصيون بتونس، والزيانيون بتلمسان إلى التدهور والسقوط، واستبد الأعراب وزعماء القبائل بالداخل، واستقلت المدن الساحلية. أما المغرب الأقصى فقد كان في نزاع داخلي عنيف فيما بين بني وطاس – خلفاء المرينيين[٢]– والثائرين عليهم، أو فيما بينهم وبين الأشراف السعديين – كما سنعرض فيما بعد– وإذا بالمغرب الذي ظل طوال قرون عديدة منذ الفتح الإسلامي عنوانًا على القوة، ومناعة الجانب في عهود الدول التي تعاقبت عليه، يتحول من جانب الهجوم إلى الدفاع أمام القوى المسيحية الأيبيرية بحكم الضعف والتدهور الشديد اللذين نفذا إلى جسده المجهد[٣].

وعلى إثر اكتشاف البرتغال لطريق الهند البحرية عبر جنوب أفريقيا "رأس الرجاء الصالح" سنة (٨٩٢ هـ / ١٤٨٧م)، آخذت أهمية البحر المتوسط تضعف تبعًا لذلك، في حين ازدادت مكانة المحيط الأطلسي لكونه أصبح الطريق التجارية الجديدة الموصلة إلى بلاد التوابل في الهند والشرق الأقصى، وترتب على ذلك أيضًا ظهور قوى سياسية متباينة في حوض البحر المتوسط[٤]. وقد كان من المتوقع أن يشارك المغرب الأقصى بلدان حوض المتوسط التي دخلت نتيجةً لذلك في مراحل جديدة من تاريخها[٥]، ولكن قرب المغرب من شبه جزيرة أيبيريا وغرب أوربا الناهضة، وامتلاكه سواحل طويلة على المحيط الأطلسي، أثرت على

---

(١) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ – ١٧م، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ١٤٢؛ وللمؤلف نفسه: التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي (تأصيل تاريخي)، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ٧٧؛ عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ١٩٨٩م، ص ١٠.

(٢) تولى حكم المغرب في الفترة ما بين سقوط الدولة المرينية (٨٦٩ هـ / ١٤٦٤م) وقيام الوطاسيين أبناء عمومة المرينيين ووزرائهم (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م) أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي نقيب الأشراف الأدارسة بفاس وذلك لمدة ست سنوات، ثم خلعه محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي. انظر، الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١١٤ – ١١٧.

(٣) الناصري: نفس المصدر والجزء، ص ص ١٠٩ – ١١٠؛ عمر عسران أحمد طه: دولة الأشراف السعديين في مراكش، رسالة ماجستير، غير منشورة،كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م، ص ص ٣٩، ٤٧.

(٤) عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية – دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، ص ١٠؛ فاروق عثمان أباظة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، إسكندرية، د.ت، ص ص ٣٨ – ٣٩.

(٥) للاستزادة حول هذا الموضوع. انظر، فاروق عثمان: المرجع نفسه، ص ٤٧ وما بعدها.

تاريخه تأثيرات أخرى، ذلك أن أنظار البرتغال والإسبان توجهت نحوه، وعملت على احتلال مراكز مختلفة من سواحله[١].

فلقد ظهرت البرتغال وإسبانيا كقوتين عظميين بسبب حركة الكشوف البحرية التي عادت عليهما بتأسيس إمبراطوريتين استعماريتين واسعتين في قارات مختلفة من العالم، وإلى جانب هاتين القوتين ظهر الأتراك العثمانيون الذين سيطروا على معظم الشرق الإسلامي وشرق أوربا، وبدأت أنظارهم تتجه نحو بقية البلاد الإسلامية في الشمال الإفريقي؛ لتوحيد جبهة العالم الإسلامي، ولمواجهة الأخطار الخارجية التي تتهدد هذه البلاد[٢].

وقد كان الاختلاف عظيمًا بين هذه القوى في سائر نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية، وقامت بينها صراعات ومعارك، كما حدث بينها تسابق للسيطرة على المناطق التي يمكن اتخاذها قواعد، كبلاد الشمال الإفريقي، فقد أدرك العثمانيون أهميتها في تأمين حدود إمبراطوريتهم الغربية، وفي تهديد الطريق التجارية الجديدة عبر المحيط الأطلسي. ولم يغفل الإسبان والبرتغال بدورهم عن أهمية هذه البلاد، لا باعتبارها الباب الموصل إلى قلب أفريقيا، لاستغلال ما بها من الخيرات والمعادن، ولنشر المسيحية بين شعوبها فحسب، بل ولأن استيلاء العثمانيين عليها من شأنه أن يخلق تهديدًا خطيرًا للإسبان والبرتغال، وينذر بالخطر كل الممالك المسيحية في غرب أوربا. ولكي تتلافى الدولتان المسيحيتان جميع هذه الأخطار، ولتحولا دون فتح إسلامي جديد لشبه جزيرة أيبيريا، عمدتا إلى التوسع في شمال أفريقيا واحتلال مواقع مهمة على سواحله، شجعهم على ذلك أحوال البلاد الداخلية المضطربة بسبب ضعف الحفصيين في تونس، والزيانيين بالجزائر، والمرينيين والوطاسيين بالمغرب الأقصى[٣].

وإزاء هذه الهجمة الاستعمارية الأوربية الشرسة، عمت بلدان المغرب العربي روح الجهاد، وشاركهم في ذلك مهاجرو الأندلس؛ للوقوف في وجه من أخرجوهم من ديارهم، ولاسترجاع ما ضاع منهم، فقامت لذلك أكبر حركة جهاد بحري في تاريخ البحر المتوسط، وقد استنجدوا بالدولة العثمانية عندما عجزوا عن مقاومة هذه الهجمة، فقامت بدورها ببسط نفوذها على طرابلس وتونس والجزائر؛ لملء الفراغ السياسي الذي كانت تعاني منه هذه البلاد، وحاولت ضم المغرب الأقصى – كما ضمت سائر الشمال الإفريقي من قبله- غير أنها أخفقت في ذلك، فقد كان المغرب الأقصى أحسن حظًا من جيرانه، إذ نشأت به قوة جديدة ظهرت لتحرير البلاد وتوحيدها، ونجحت في التصدي للأيبريين والأتراك العثمانيين على

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠؛ عبد الله عبد الرازق: المرجع السابق، ص ٩.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣ – ٤.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع نفسه، ص ص ٣ – ٤.

السواء، واحتفظت للمغرب الأقصى بوضعية خاصة من الدولة العثمانية، وأفلتت من قبضتها؛ فصارت بذلك البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للحكم العثماني في القرن (١٠ هـ / ١٦م)[(١)]، تلك هي دولة الأشراف السعديين التي قامت بالمغرب الأقصى، على أنقاض السلطة الوطاسية الضعيفة.

فقد تولى محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي حكم البلاد سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م) بعد خلع محمد بن علي الإدريسي- كما سبقت الإشارة- ، وكانت له ولأبنائه من بعده سلطة محدودة في الشمال تقل كلما ابتعدت المنطقة عن مدينة فاس، لتصبح مجرد سلطة اسمية في حوز[(٢)] مراكش، بينما لم يكن أي أثر للسلطة الوطاسية ببلاد ما وراء الأطلس. وقد عرف المغرب في هذا العهد - الذي يعتبر استمرارًا للعصر المريني في طور تدهوره- ، أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية خطيرة هزت المجتمع المغربي بعنف، عجزت السلطة تمامًا عن مواجهتها؛ نظرًا لضعف جهازها الإداري والمالي وتفككه[(٣)].

فمن الناحية السياسية لم يستطع الوطاسيون توحيد المغرب سياسيًا؛ نظرًا لضعف السلطة المركزية بفاس، وعجزها عن الحفاظ على الأمن والدفاع عن البلاد، فانتشرت الفوضى والفتن، مما أدى إلى احتلال البرتغاليين والإسبانيين للمدن الساحلية، فكانت مليلية وغساسة بيد الإسبان، وسبتة وطنجة وأصيلا وبلاد الهبط والقصر الصغير وأزمور ومازكان (الجديدة) وآسفي وأنفا وأكوز وأكادير وماسة[(٤)] بيد البرتغال، كما ظهرت وحدات سياسية وإمارات مستقلة أو شبه مستقلة، بعضها أملتها ظروف الجهاد ومقاتلة العدو المحتل للسواحل المغربية، كشفشاون التي كانت بيد بني راشد، وتطوان بيد بني المنظري، وبعضها الآخر

---

(١) محمد رزوق: ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية – المغرب في القرنين ١٦ و ١٧ نموذجًا، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ص ١٤٩ – ١٥٠؛ جلال يحيى: المغرب العربي الحديث والمعاصر، الفجر واحتلال فرنسا للجزائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ٩٥ وما بعدها؛ يونان لبيب رزق ومحمد مزين: تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢م، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت، ص ص ٢٥ – ٢٦.

(٢) يطلق على الحوز في الاصطلاح المغربي على بلاد الجنوب من ناحية مراكش، كما يطلق على ما يدانيها من ناحية فاس اسم الغرب، كما تعرف الحوزة بالناحية. الفشتالي (عبد العزيز بن محمد، ت: ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م): مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، مختصر الجزء الثاني، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس – الرباط، المطبعة المهدية، ١٩٦٤م، ح٢، ص ١٨.

(٣) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، ١٩٧٨م، الجزء الأول، ص ٤٠؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ٣٦؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، ص ص ١٤٢ – ١٤٧.

(٤) سوف يأتي التعريف وشيكًا بكل مدينة من هذه المدن، انظر (خريطة ٢).

نتيجة لبعدها عن مقر السلطة الحاكمة؛ كمراكش وناحيتها في الجنوب التي كانت بيد الهنتاتيون، ودبدو وحصن تازوطا في الشرق التي كانت بيد أسرة مرينية، اتخذتها مركزًا جديدًا لإمارة صغيرة بعد أن أبعدوا عن حكم المغرب، بالإضافة إلى أن المناطق الصحراوية والمناطق القريبة منها لم يكن للوطاسيين سلطة عليها، وهي أول المناطق مبادرةً إلى تأييد الأشراف السعديين، الذين خضعت لهم منطقة السوس منذ الربع الأول للقرن (١٠ هـ / ١٦م)[١].

أما عن أوضاع المغرب الاقتصادية، فكانت متردية في الضعف، متأثرة بحالة الانقسام والفتن السائدة بداخل البلاد، وبالأخطار الخارجية الناجمة من الاحتلال الأجنبي لمعظم السواحل المغربية، والتوسع العثماني بالجزائر في الوقت الذي كانت الروابط بين المغرب وبلاد غرب أفريقيا قد ضعفت، ولم نعد نرى أثرًا للنشاط التجاري الذي عرف به المغرب مع بلدان حوض البحر المتوسط. كما أن النشاط الزراعي الذي كان مزدهرًا، باعتبار أن معظم الأراضي في المغرب سهول خصبة، تعرض للتدهور نتيجةً للظروف السياسية المضطربة والفتن الداخلية التي حلت بالمغرب آنذاك، فلم يتوفر للزراع الأمن والطمأنينة ليتعهدوا أراضيهم، فضلاً عن المحافظة على وسائل الزراعة القديمة، وتحول كثير منهم للجهاد ضد المغتصبين والمغيرين على بلادهم، وينطبق ذلك على الحرف والصناعات التقليدية التي – إلى جانب تمسك أصحابها بطرق العصور الوسطى- لم تجد المناخ الملائم للتطور والازدهار[٢].

كل هذه العوائق جعلت الاقتصاد المغربي يعيش في نظام شبه مغلق، الأمر الذي ضاعف من سوء الحالة الداخلية للبلاد، وجعل الوحدات السياسية تعيش على الكفاف، ولم يشذ عن ذلك إلا المدن الساحلية والقبائل المتواجدة على مقربة من مراكز الاحتلال الأجنبي، التي كانت لهم سفن خاصة يتاجرون بها مع الأجانب من برتغال وغيرهم، بل إن بعض هذه القبائل دخلت تحت الحماية البرتغالية؛ لرغبتهم في استمرار المتاجرة والتعامل مع هؤلاء الأجانب، وبخاصة البرتغال[٣].

أما عن الحالة الاجتماعية، فقد كانت البداوة طاغيةً على الحياة الحضرية بالمغرب في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م)؛ لكون الأغلبية العظمى من السكان كانت تعيش في البوادي،

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢٦ – ٢٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٦- ١٨.

(٢) أولى ليون الإفريقي عنايةً خاصةً بالأوضاع الاقتصادية بالمغرب في العهد الوطاسي، وعرض لمختلف الصناعات والحرف المغربية آنذاك. انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٢٧ – ٢٩٢.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٣ – ١٥؛ الحسن اليوبي: الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، ١٩٩٨م، ص ص ٣٨ – ٤٢.

لاختفاء العديد من المدن، وبخاصة في المناطق الساحلية التي وقع الكثير من مدنها في قبضة البرتغاليين والإسبانيين، الذين قضوا على صبغتها المغربية وحولوها إلى مراكز استيطان لجنودهم وجالياتهم، كما هجر السكان مدنًا أخرى لمجاورتها للمحتلين الذين لم يكفوا عن الإغارة عليها، أو لشعورهم بالعزلة واختلال الأمن بسبب الفتن وانقطاع السبل، حتى المدن الداخلية نال منها الخراب بسبب الحروب والفتن، فلم يعد مسكونًا بمراكش – على سبيل المثال– إلا نحو ثلثها بينما سقط الباقي خرائب وركامًا، وحولت أحياء متهدمة إلى مزارع وبساتين[١]، وإن كانت قد احتفظت ببقايا من مجد غابر عرفته في عهد المرابطين والموحدين، بينما كانت بقية المدن في مراحل النمو والتطور، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مدينتا فاس وتطوان تمثلان مستوًى رفيعًا من التقدم الحضاري في ذلك العهد؛ الأولى باعتبارها العاصمة السياسية منذ عهد المرينيين، والثانية تدين بوجودها وتقدمها إلى المهاجرين الأندلسيين، الذين نقلوا إليها من موطنهم الأصلي مظاهر شتى من الحضارة العربية الأندلسية[٢].

أما بالنسبة للبوادي التي كانت تضم القسم الأعظم من السكان، فنجد أن نظام العشيرة، وحياة القبيلة هما السائدان في شتى أنماط الحياة هناك، بما تنطوي عليه من التمسك بالعادات والأعراف والتقاليد المحلية والنزعات العصبية، وما يتبعها من فوضى وفتن تحول دون قيام ترابط بين أفراد المجتمع[٣].

وقد استشرت في تلك الفترة من تاريخ المغرب عادات وتقاليد ذميمة، سادت بين سكان المدن والقبائل المنتشرة في البوادي، وارتكبت الموبقات، وظهرت البدع وانحراف الناس عن مبادئ الدين، والاعتقاد في الكهان، وشرب الخمر، واستعمال الوشم، والغش في المعاملات، والخروج عن أحكام الدين الحنيف، ولم يكن هذا الانحراف قاصرًا على العامة فقط، بل شمل الطبقة الخاصة من العلماء والأمراء والحكام[٤].

أما الحياة الفكرية، فإن أهم ما يميزها في هذه الفترة من تاريخ المغرب هو ذلك الدور الذي أصبحت تؤديه الزوايا التي كانت منتشرة في مختلف مناطق المغرب[٥]، وأصبحت لها خصوصيتها وسماتها المميزة التي تتجلى في تنظيم مؤسساتها، وفي الأدوار المهمة التي أصبحت تلعبها هذه المؤسسات على الساحلة المغربية فكريًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا. ولم

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣٣ – ١٣٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٤.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٨ – ١٩؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ص ٥ – ٦.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٩؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦.

(٤) عمر عسران: المرجع نفسه، ص ٦.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٠.

يقتصر دورها على الجانب التعبدي فقط، كما تعددت طوائف الصوفية في هذه الفترة، وضربت الزوايا بجذورها في أعماق المجتمع المغربي[١].

وقد كان من أهم العوامل التي دفعت أرباب الزوايا للقيام بهذا الدور هو عجز الوطاسيين عن مجابهة الخطر الأجنبي، الذي يمكن أن يهدد الوجود الإسلامي داخل البلاد إذا تمادوا في سلبيتهم، مما أفسح المجال أمام شيوخ الزوايا الذين تسابقوا إلى حمل راية الجهاد، وقادوا الجماهير المؤيدة لهم والمتعطشة إلى طرد المحتل من البلاد[٢]، ولربما لا نجد الصوفية في أي قطر إسلامي آخر بلغ شعورهم بخطورة الوضع السياسي ما بلغه شعور صوفية العهد الوطاسي[٣].

غير أن تسرب الانحراف والشذوذ إلى بعض الطوائف الصوفية، أبعدها عن أهدافها الحقيقية إلى حد أن كثيراً من الفقهاء قاموا يعارضون – بقوة- هذا اللون من الطرق للبدع التي أحدثتها، وقد ظهرت أكثر هذه الطرق المنحرفة في البوادي التي كانت أكثر غلواً في الجهل، حيث وجد فيها هؤلاء المدعون تربةً خصبةً للشذوذ والابتداع في الدين[٤].

وأما الحركة الفكرية في تلك الفترة فقد تأثرت بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتدهورة التي عمت البلاد آنذاك؛ فكسفت شمس المعرفة في عموم المدن المغربية، ولم تعد هناك أثارة من علم إلا بفاس وتطوان؛ حيث كانت فاس لا تزال متمتعةً بالشهرة العلمية بفضل جامع القرويين المركز التعليمي الأول في التاريخ الإسلامي للمغرب، أما تطوان فقد أخذت تتبوأ مكانة رفيعةً في هذا المجال، بفضل التقدم الفكري والحضاري الذي كان عليه المهاجرون الأندلسيون الذين شيدوها، وبخلاف ذلك يصعب العثور على مراكز علمية أخرى تضارع هاتين المدينتين، اللهم إلا ما كان من بعض الزوايا التي قلما تخلو منها منطقة أو ناحية من بلاد المغرب، والتي لم تعدم ظهور أئمة ومشايخ اشتهروا في علوم الدين أو عرفوا بالتقشف والزهد؛ حيث كان يعاني المعلمون والمتعلمون صنوفاً من البؤس والحرمان[٥].

هذه هي الأوضاع العامة التي كان عليها المغرب الأقصى قبل قيام دولة الأشراف السعديين في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م)، وحدات سياسية متعددة نتجت عن ضعف السلطة المركزية بفاس، وتدهور اقتصادي نجم عن الفتن والاضطرابات التي كانت عليها البلاد في الداخل والخارج، وفوضى اجتماعية زادها تأخر أنماط الحياة المختلفة، وسيادة المجتمع

---

(١) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٢؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٦٧ – ٢٧٠؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٠؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٧٦.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٤٢.

القبلي، ثم جمود فكري وجهل غالب على العامة، وظهور دعاة زوايا وطرق صوفية، غلب على بعضها الشذوذ والشعوذة، وقد زاد هذه الأوضاع تعقيداً الأخطار الخارجية التي كانت تهدد البلاد من جراء الاحتلال الأجنبي لمعظم السواحل المغربية، إذ كان المغرب كله مهدداً بالسقوط في قبضة القوى المسيحية، نتيجةً لغيبة القوى الوطنية التي عليها تعبئة الطاقات، والوقوف جبهةً قويةً متماسكةً لمجابهة هذه الأخطار[1].

وهكذا اجتمعت الأسباب لكي يفيق المغرب من سباته، ويحاول الدفاع عن نفسه وعن شخصيته، فقام المخلصون من الدعاة والأئمة – وبخاصة رجال التصوف- يحثون الناس على الابتعاد عن الرذائل، والاعتصام بحبل الله، ويحرضونهم على الجهاد للدفاع عن الوطن وإعلاء كلمة الإسلام وصد الخطر الأجنبي، الذي أخذ يتوسع في الاستيلاء على السواحل المغربية منذ سقوط سبتة في أيدي البرتغال سنة (٨١٨ هـ / ١٤١٥م)، لدرجة أنه يمكن اعتبار هذا التاريخ منطلقاً بارزاً لحركتين متضادتين، إحداهما يتزعمها البرتغال والإسبان لاحتلال الشواطئ المغربية بخاصة، وشواطئ غرب أفريقيا عموماً، والثانية حركة المقاومة الشعبية المستميتة التي بدأت على الفور بعد هذا التاريخ، على يد متصوفة الزوايا المغربية ضد هذا العدو الغاصب، بعد أن كانوا قابعين في خلواتهم منقطعين في الفيافي، وعلى قمم المرتفعات للعبادة والتأمل واستقبال المريدين، فقاموا بحمل مشعل الثورة وتولوا قيادة حركة الجهاد ضد هذا المحتل على مرأى من الدولة وفي عقر دارها، بعد أن عجزت عن تحمل مسئولياتها تجاه هذا الخطر[2].

وقد أصبح أمر السلطات القائمة بالبلاد يتوقف – إلى حد كبير- على مدى استجابتها لهذا النداء، ولما لم تصادف السلطة الوطاسية ولا حتى الوحدات السياسية التي قامت بالبلاد – وبخاصة التي في الشمال منها- أي نجاح في نشر الأمن في الداخل وصد العدوان الخارجي، الذي قد تفاقم حتى لم يعد للمقاومة الشعبية فائدة تذكر إذا لم تبادر دولة قوية إلى تبنيها وتوحيد صفها، انبرى المصلحون للإعراب عن أمانيهم في أن يقيض الله للمغرب قيادةً جديدةً، وحاكماً عادلاً مؤمناً، يعود بالناس إلى الطريق المستقيم، ويسعى في الوقت نفسه إلى القضاء على الاضطرابات الداخلية، وحماية البلاد من الأخطار الخارجية التي تتهددها، فأجمعوا على اختيار شريف من آل البيت النبوي يكون فوق العصبيات والأحلاف القبلية، ويحظى بالاحترام لدى الجميع حتى يستطيع أن يقود الجهاد لطرد

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٣؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٩.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١١١ – ١١٢؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م، الجزء الثاني، ص ص ٦٧، ٧٢ – ٧٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٥ – ٣١.

الأجانب، ولم يكن بين شخصيات المغرب في تلك الفترة أحسن مقامًا من الأشراف السعديين، الذين ظهروا بإقليم السوس جنوب المغرب، واشتهروا بتمسكهم بالدين القويم، ورفع شعار الجهاد، ومقاومة المحتل الذي حاول السيطرة على مخارج إقليم السوس على المحيط الأطلسي؛ حيث أصبحت قضية الجهاد لطرد المحتل ورقةً رابحةً في المجال السياسي والاجتماعي على السواء، يستغلها كل متطلع إلى السلطة، واستقطاب الجمهور من المتصوفة وغيرهم[١].

عوامل وصول الأشراف السعديين للحكم:

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا وصل الأشراف السعديون إلى الحكم، ووقع عليهم الاختيار بالتحديد دون غيرهم من بين أشراف المغرب الذين كانت فروعهم قد تعددت آنذاك؟ وتعد هذه النقطة واحدةً من النقاط الغامضة في تاريخ المغرب، سيما وأن المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين لم يختلفوا في تفسير هذه النقطة، حيث ردوها أساسًا إلى الغزو البرتغالي والإسباني للشواطئ المغربية، فضلاً عن انتساب هؤلاء الأشراف إلى السلالة النبوية، لذلك فهم أحق بالملك من الوطاسيين الذين عجزوا عن حرب المحتلين وفي إقرار سلطتهم على البلاد[٢].

وفي معرض الرد على هذا التساؤل يجدر بنا أولاً التعريف بفروع الأشراف المتعددة التي كانت متواجدةً بالمغرب قبل قيام الدولة السعدية في مطلع القرن (١٠ هـ/ ١٦م)، ثم الرجوع إلى الوراء لنحاول التعرف على الأوضاع العامة لهؤلاء الأشراف وبخاصة في القرنين (٨- ٩ هـ/ ١٤ – ١٥م) لنقف على مختلف المراحل التي مرت بها كل من ظاهرة "الشرف الدينية" وشعار "الشرف السياسي" داخل المغرب الأقصى[٣].

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٣؛ محمد زنيبر: النوازل السياسية في المغرب الحديث، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات (٤٦)، مطبعة فضالة – المحمدية، ١٩٩٥م، ص ص ١٢٩ – ١٣٠؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص٤٥، ١٧٥ – ١٧٦.

(٢) مؤرخ مجهول: تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية، نشرج. كولان، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٣٤م، ص ص ٢ – ٣؛ الإفراني (محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي، تُوُفِّيَ بعد ١١٥١ هـ/ ١٧٣٩م): نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، نشر هوداس، باريس، ١٨٨٨م، ص ١٠؛ ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (٥)، الرباط، ١٩٧٧م، ص ص ٢٥ – ٢٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٣؛ ولنفس المؤلف: السياسة والمجتمع، ص ٣٤.

(٣) محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، بحث نشر في كتاب مراجعات حول=

لقد أصبح المغرب الأقصى حتى نهاية القرن (٧ هـ / ١٣م) يشتمل على فروع متعددة من الأشراف، يمكن تصنيفهم إلى صنفين، حيث كان هناك أشراف تقليديون قدماء، وأشراف جدد طارئون. أما الأشراف القدماء، فهم الأدارسة[١]، الذين ضعف وزنهم الاجتماعي – فيما يبدو- بعد سقوط دولتهم في الربع الأخير من القرن(٤ هـ / ١٠م)، إما لأنهم ظلوا معتصمين بالصمت طيلة قرون وكأنهم في غيبة عما كان يجري بالبلاد، أو لأنهم شردوا على إثر الحملات القمعية والإجلائية التي وجهت ضدهم في القرن (٤ هـ / ١٠م) على يد أمويي الأندلس وأعوانهم من الزناتيين بالمغرب بزعامة موسى بن أبي العافية[٢]، أو لأنهم لم يهتموا بمسألة النسب، وانصهروا في عصبيات بربرية وعفا نسبهم[٣].

أما الأشراف الجدد، فمنهم من قدم من الشمال – مما وراء البحر المتوسط- واستقر بشمال المغرب، وهؤلاء هم الأشراف السبتيون أو (الصياقلة أو الصقليون الحسينيون) الذين قدموا إلى المغرب من صقلية عبر الأندلس، واستقروا بسبتة في منتصف القرن (٦ هـ /١٢م)[٤].

= المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ص ٨٠ – ٨١. ويرجع الفضل إلى هذا الباحث في لفت الانتباه إلى هذه النقطة ومحاولة معالجتها في بحثه المذكور.

(١) نسبةً إلى الإمام إدريس بن عبد الله بن حسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي فر من وجه الخليفة العباسي موسى الهادي إثر موقعة فخ- موضع يقع على بعد ثلاثة أميال من مكة- عام (١٦٩ هـ / ٧٨٥م)، واستطاع أن يصل إلى المغرب في عام (١٧٢ هـ / ٧٨٨م)، ونجح في تأسيس أول دولة علوية قوية بالمغرب، ونجح بالتالي في فصل المغرب عن خلافة المشرق التي يتحكم فيها العباسيون مضطهدو أبناء علي وأنصارهم، وقد امتد عمر هذه الدولة التي سميت باسمه حتى عام (٣٧٥ هـ / ٩٨٥م). راجع: الجزنائي (أبو الحسن علي، من أهل القرن ٨ هـ / ١٤م):جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م، ص ص ٩ – ١١ ؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ص ٩٧ – ١٠٣ ؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ص ١٣٥ – ١٤٤ ؛ عبد الله العمراني: فاس وجامعتها، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الثامن، السنة الثالثة، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٦م، ص ص ١٦٨ – ١٧٢.

(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر، جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ١٤٤ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ١٠١ – ١٠٣.

(٣) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ص ٨٤ – ٨٥.

(٤) أثناء تواجد هؤلاء الأشراف بجزيرة صقلية دخلوا في طاعة الدولة الفاطمية الشيعية إبان حكمها لهذه الجزيرة في القرن (٤ هـ / ١٠م)، ثم غادروها بعد أن سقطت في يد النورمان منتصف القرن (٥ هـ / ١١م)، ونظرًا لتقلب الأوضاع بالشمال الإفريقي حينذاك بسبب ظهور حركة العرب الهلالية بالجانب الشرقي وحركة المرابطين بالجانب الغربي من المنطقة، وبما أن القطيعة السياسية كانت قائمة على أشدها في هذه الفترة بين الفاطميين وكل من بني حماد وبني زيري بالمغربين الأوسط والأدنى، فإن معظم التابعين للدولة الفاطمية بصقلية – وعلى رأسهم هؤلاء الأشراف قد عدلوا – ولا شك- عن أقرب بلاد المسلمين إليهم بالجنوب، وتوجهوا غربًا نحو الأندلس، وبعد قيام دولة الموحدين بالمغرب الأقصى في=

ومنهم من قدم من الشرق من الحجاز بالتحديد، واستقروا بجنوب المغرب، وهؤلاء هم السعديون الذين استوطنوا واحات درعة[(١)] الوسطى في غضون القرن (٦ هـ / ١٢م)، ثم قدم بعدهم الأشراف الذين اشتهروا فيما بعد بالعلويين، واستقروا بسجلماسة[(٢)] في أواخر القرن

= منتصف القرن (٦ هـ / ١٢م) قدم فرع من هؤلاء الصقليين إلى مراكش، ودخل في طاعة خلفاء هذه الدولة، واستقروا بها حتى أجلاهم ضمن من أجلى من أتباع الموحدين السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق بعد استيلائه على مراكش عام (٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩م)، فالتجأوا بقصبة تاوريرات، ولم يكن لهم ذكر بها ولا بفاس بعد نزولهم إليها فيما بعد، وقد عرف هذا الفرع من الصقليين بالأشراف الطاهريين، أما فرع الحسينيين السبتيين المشار إليهم في المتن، فقد نزلوا إلى المغرب في الفترة نفسها — فيما يبدو- واستقروا بسبتة بعيداً عن عاصمة الموحدين وقليلوا الاتصال بحكامهم. وقد استفاد هذا الفرع بعد تغلب المرينيين على المغرب من نوعية العلاقات الطيبة القائمة بين الحكم المريني المتوثب وبني العزفي الذين حكموا سبتة منذ منتصف القرن (٧ هـ / ١٣م)، ودخلوا في طاعة المرينيين مباشرة بعد احتلالهم لمراكش، وهكذا فإن زعامة الأشراف الصقليين بالمغرب يستأثر بها هذا الفرع السبتي في تلك الفترة، لذا اقتصرنا على ذكره بالمتن دون فرع الطاهريين، وجدير بالذكر أن هذا الفرع السبتي قد انقرض اليوم، ولم يبق إلا هذا الفرع الأول. للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر، ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، نشر وتحقيق دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص ص ٢٠٠ — ٢٠١؛ محمد القبلي: المرجع السابق، ح٥، ص ٨٤.

(١) درعة بالدال المهملة، ويذكر مؤرخو هذه المنطقة أن الأصل ذرعة بالذال المعجمة — وهكذا وردت في بعض المصادر- من ذرع بالذراع؛ لأنها مسحت بالذراع لتحديد الخراج المضروب عليها، لكن تنطق اليوم درعة بالدال المهملة، ويخففونها أحياناً فيقولون "درا"، وينسبون إليها درعي ودراوي. وهي منطقة شاسعة تكتنفها مرتفعات الأطلس الكبير شمالاً وإقليم تافيلالت شرقاً، والسوس الأقصى غرباً، وتنساب مع رمال الصحراء الكبرى جنوباً. وتجري في شمال هذه المنطقة عدة أنهار نابعة من جبال الأطلس وتلتقي كلها لتكون النهر الكبير "واد درعة" الذي ينساب في مسافات شاسعة جنوباً ثم يعرج غرباً ليصب في المحيط الأطلنطي. وبلاد درعة بصفة عامة ذات طابع صحراوي باستثناء الجزء الشمالي الخصيب على امتداد مجرى "واد دادس" من الشرق إلى الغرب. (خريطة ٢). انظر، الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧، ح١ من الصفحة نفسها؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٢٩، ح١ من الصفحة نفسها.

(٢) المشهور أن سجلماسة من تأسيس بني مدرار الخوارج في أواسط القرن الثاني للهجرة، إلا أن ابن أبي محلي السجلماسي ذكر في تقييده في التعريف بمدينة سجلماسة أنها من تأسيس العرب الفاتحين عام ٤٠ هـ، ثم وسعها بنو مدرار فكانت عاصمة لتلك المملكة الخارجية إلى أن استولى عليها الفاطميون ملوك القيروان، فأدرت عليهم أموالاً طائلةً باعتبارها مركزً تجارياً مهماً في طريق القوافل المتجرة في السودان. ولما قامت دولة المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري رجعت سجلماسة إلى حكم المغرب وظلت عامرةً كذلك أيام الموحدين والمرينيين إلى أن خرجت قبيل قيام دولة السعديين، فانتقلت أهمية سجلماسة إلى القصور المجاورة، ولا سيما قصر الشرفاء الحسنيين (العلويين) المعروف آنذاك بالقصبة السجلماسية حيث ضريح المولى على الشريف. وما زالت أطلال سجلماسة ماثلةً للعيان بالقرب من الريصاني، ويسميها السكان "المدينة الكبيرة" (خريطة ٢). ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٢٠ — ١٢١، ح١ من ص ١٢١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٢٤ — ١٢٧.

(٨هـ / ١٣م)، اي في الفترة التي استطاعت فيها الدولة المرينية أن تبسط نفوذها على المغرب كله، وجدير بالذكر أن هذه الفروع كلها حسنية باستثناء الأشراف الصقليين فهم — كما سبقت الإشارة — حسينيون[1].

وهذه الفروع على اختلافها كان لها قبل أواخر القرن (٧ هـ / ١٣م) قاسم مشترك واحد فيما يبدو، وهو أنها لم تكن تتمتع بأي تمثيل على المستوى السياسي، لأنها لم تكن تتمتع بأي وجود اجتماعي فوق العادة باستثناء السبتيين، الذين ينسب إليهم أول ظهور سياسي اجتماعي من بين فروع الأشراف بالمغرب، والواقع أن هذا التغيير لم يكن لهؤلاء الأشراف دخل فيه، وإنما ترتب عن سياسة بني العزفي حكام سبته الذين أصبحوا يحتفلون منذ منتصف القرن (٧ هـ / ١٣ م) بالمولد النبوي لأول مرة في تاريخ هذه المدينة وتاريخ الغرب الإسلامي بصفة عامة[2].

وإذا صرفنا النظر عن الدوافع التي دعت بني العزفي حكام سبتة إلى إدخال الاحتفال بالمولد النبوي في هذه الفترة بالذات، فإن من الأهمية بمكان الإشارة إلى النتائج الاجتماعية والسياسية التي لم تلبث أن ترتبت عن هذا الاحتفال بالنسبة للأشراف في علاقاتهم مع حكام سبتة الذين أكرموهم وصاهروهم فأخذ نفوذ الأشراف يتقوى بفضل هذه المعاملة، وآخذوا يحتلون مكانةً بارزةً في المجتمع السبتي، ويتمتعون بنفوذ معنوي له وزنه في الحياة السياسية للمدينة[3].

يتضح هذا من خلال موقف الرئيس أبي سعيد بن الأحمر الذي احتل سبتة عام (٧٠٥ هـ / ١٣٠٦م) بينما كان السلطان أبو يعقوب يوسف المريني منهمكًا في حصاره الطويل لتلمسان فقد أجلى أبو سعيد هذا أسرة بني العزفي إلى الأندلس، إلا أنه لم يجرؤ على إبعاد الأشراف الصقليين لعظم مكانتهم عند أهل المدينة، فاستدعاهم بعد تردد وحاول استمالتهم إليه وظلت سبتة خاضعةً لبني الأحمر حتى عام (٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م) حين استردها السلطان أبو الربيع سليمان المريني[4]. وعاد بنو العزفي إلى منصبهم معينين من طرف المرينيين، فلم يلبثوا

---

(١) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٢) وقد عمم المرينيون الاحتفال بالمولد النبوي، وصار يحتفل به رسميًا في عهد السلطان يوسف بن يعقوب عام (٦٩١ هـ / ١٢٩١م)، واستمرت هذه الظاهرة في العهدين السعدي والعلوي، بل إن حكامهم أولوا حفلات المولد عناية فائقة، ربما لأنهم رأوا أنفسهم أحق بالاحتفال لمولد الرسول عليه السلام وهم من سلالته. ومن المعروف أن الفاطميين هم أول من احتفل بالمولد النبوي في العالم الإسلامي، كما أقاموا احتفالات مماثلة لمولد علي بن أبي طالب وأبنائه، وكان سن الاحتفال بالمولد اقتداءً بالأقباط الذين اعتادوا أن يحتفلوا برأس السنة الميلادية وبمشاركة الفاطميين رسميًا. انظر، ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص ١١٧ — ١١٨؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٢٥٩.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٤٩٠؛ محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص ٣٩٢ — ٣٩٤؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد=

أن تضايقوا من المكانة التي أصبح يتمتع بها الأشراف فاضطر آخر العزفيين إلى نفيهم إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس فاعترضتهم مراكب النصارى في بحر الزقاق(١) فأسروهم إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد المريني بمال وفير(٢).

والواقع أن هذه التجربة القصيرة لبني العزفي مع هذا الفرع من الأشراف تعكس صورةً مصغرةً للتجربة الطويلة التي خاضها المرينيون مع سائر أشراف المغرب في عصرهم، والتي انتهت في المدى القريب بوصول الأدارسة إلى الحكم لمدة قصيرة عام (٨٦٩ هـ / ١٤٦٥م)، ثم آلت في المدى البعيد إلى استقرار الحكم في أشراف الجنوب (السعديين والعلويين) لأسباب داخلية وخارجية في كلتا الحالتين(٣). لكن، ما الأسباب التي دفعت المرينيين لاتخاذ هذه السياسة إزاء الأشراف؟

هناك عدة أسباب وراء هذه السياسة المرينية، منها قضية الخلافة والتسلح ضد الحفصيين الذين حصلوا على بيعة أشراف مكة، وادعوا أحقيتهم في وراثة الموحدين بالغرب الإسلامي(٤). كما أن المرينيين كانوا في حاجة إلى مساندة أشراف المغرب لهم ضد دولة بني عبد الواد خصمهم التقليدي بتلمسان، التي اعتبرت نفسها دولة شريفة وبالتالي لم تلجأ إلى أي سياسة إزاء أشراف المغرب الأوسط، وبما أن هذا الخصم كان يحاول الانتساب إلى فرع الأدارسة، وبما أنه كان من الممكن التشكيك في صحة هذا النسب، فليس من حجة أقوى من تزكية الأدارسة الصرحاء(٥). بالإضافة إلى ذلك هناك عامل آخر يبدو أنه لعب دوره في تحديد سياسة المرينيين تجاه أشراف المغرب، وهو أن التصوف في هذه البلاد كان قد تغلغل في

= السابع، ص ص ٢٨١ – ٢٨٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ٩٧ – ١٠١.

(١) بحر الزقاق أو جبل الفتح هو جبل طارق بن زياد، وهذا الجبل كان يطلق عليه قبل الفتح الإسلامي أسماء عديدة أهمها: الاسم الفينيقي (Calpe) ومعناه تجويف؛ إذ كان هذا الاسم يطلق أصلاً على مغارة كبيرة في هذا الجبل عرفت فيما بعد باسم مغارة القديس ميخائيل، وبعد الفتح الإسلامي عرف هذا الجبل باسم الصخرة وجبل الفتح، كما عرف أيضًا بجبل طارق وهو الاسم المعروف به حتى اليوم، ومضيق جبل طارق أو بحر الزقاق، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي ١٥كم. انظر، ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ح٢، ص ٧٤؛ ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ت: ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٦٦٥.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٤٩٠؛ محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ص ٨٦ – ٨٧.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ص ٣٥٧ – ٣٦٧؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٣١٩

(٥) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٨٧.

الأوساط الشعبية بالبوادي والجبال، وأخذ يتسلل إلى أوساط عامة المثقفين وخاصتهم بالمدن والحواضر، واستطاع المتصوفة أن يفرضوا وجودهم على الدولة المغربية منذ نهاية القرن (٦ هـ/ ١٢م)، ذلك أن المعارضة الدينية والسياسية ضد الموحدين والمذهب الموحدي قد اصطبغت طيلة القرنين (٦- ٧ هـ/ ١٢ - ١٣م) بهذا اللون الصوفي، فتزعمها أفراد ليسوا فقهاء محترفين، وإنما هم زهاد قضوا معظم حياتهم بالبوادي والجبال، فأحدثوا تيارًا دينيًا من نوع خاص، واتخذوا موقفًا من الدولة ورجالها، قوامه الانزواء أو الابتعاد والمقاطعة، ونظرًا لأن متصوفة المغرب في القرن (٨ هـ/ ١٤م) قد ظلوا على مقاطعتهم المبدئية للحكم المركزي من جهة، وبما أن محبة الرسول (ﷺ) وأهل بيته تعتبر ركنًا من أهم أركان التصوف الشعبي من جهة أخرى، فلا يستبعد أن يكون المرينيون قد حاولوا أن يستميلوا القطاع الشعبي الذي يعمل فيه المتصوفة عن طريق تجسيد محبتهم لأهل البيت وترجمتها - بخلاف الزهاد- إلى واقع مادي ملموس، بالإضافة إلى محاولة التخفيف من وطأة فئة المتصوفة عن طريق الاهتمام بفئة الأشراف التي كانت تحظى بعطف كبير بين طبقات الشعب المغربي[1]. هذا إلى جانب عوامل أخرى تتعلق بكل فرع من فروع هؤلاء الأشراف.

وهكذا، وجد المرينيون أنفسهم في حاجة ماسة من عدة نواح إلى إقامة سياسة متطورة تعبر عن تعظيمهم وإكرامهم ومحبتهم للأشراف. وقد كان الأدارسة أول فئة من الأشراف اهتم بها المرينيون؛ نظرًا لأقدميتهم وانتشارهم في البلاد وكثرة المنتمين بالتالي لنسبهم عن صدق أو غير صدق، فأصبحوا يتمتعون بجرايات وإقطاعات واسعة وامتيازات مادية متوارثة[2]. ثم بعد ذلك أفسحوا المجال لأشراف آخرين كي يستفيدوا مما كان موقوفًا على الأدارسة من امتيازات، فشملت أشراف سبتة الصقليين. أما بالنسبة لبقية الأشراف - ونقصد أشراف الجنوب- فقد أدمجوا أشراف سجلماسة العلويين في سلك أشراف الدولة من دون أشراف درعة السعديين. ولا يجب الاعتقاد أن قضية صحة النسب الشريف - التي سوف نتحدث عنها فيما بعد- أو عدم صحته قد لعبت دورًا مهمًا في إهمال السعديين من طرف الحكم المريني في هذه الفترة، كما قد يفهم من الإشاعات التي روجها خصوم السعديين فيما بعد.

فلعل العامل الاقتصادي هو الذي لعب دورًا حاسمًا في تحديد اختيار المرينيين؛ حيث إن منطقة نفوذ أشراف سجلماسة أصبحت تطرح مشاكل سياسية واقتصادية بصفة منتظمة

---

(١) محمد القبلي: ما لم يرد في كتابات ابن خلدون، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ص ٦١- ٦٢؛ وللمؤلف نفسه: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، ص ٨٨.

(٢) محمد القبلي: ما لم يرد في كتابات ابن خلدون، ص ٦٣؛ وللمؤلف نفسه: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، ص ٩٢.

منذ أن عين السلطان أبو سعيد ابنه الثائر أبا علي واليًا على سجلماسة سنة (٧١٥ هـ / ١٣١٥م) من جهة[1]، ولأن وجود عرب المعقل من الأحلاف بتافيلالت وبلاد ملوية قد قوي نزعة سجلماسة وولاتها من الأمراء إلى الانفصال عن العاصمة من جهة ثانية، كما أن تحركات قبائل البدو من ذوي حسان من سوس نحو الشرق والجنوب قد أخذ يساهم بصورة فعالة في إبعاد قوافل تجارة السودان، وتحويل الطرق عن سجلماسة إلى شرقيها في نهاية الأمر، فضلاً عن ذلك فإن السلطة المرينية كانت أحوج ما تكون للتحكم في مدينة سجلماسة "قاعدة الذهب" وبقية المدن المجاورة لها؛ نظرًا لأهمية مادة الذهب التي كانت تسبب بعض المشكلات للمغرب وغيره من بلدان الحوض الغربي للبحر المتوسط في منتصف القرن (٨ هـ / ١٤م) [2].

وعلى أية حال يمكن القول بأن أشراف سجلماسة "قاعدة الذهب" قد أصبحت لهم مكانة لا تقل في شيء عن مكانة أشراف سبتة "المنفذ" الشمالي لتجارة بلاد السودان، وسوف تستمر العلاقات بين ملوك بني مرين وبين كل من أشراف سبتة وسجلماسة على أساس التوازن، ومراعاة الأهمية الاقتصادية القصوى لمنطقة نفوذ كل من الطرفين. كما احتفظوا للأدارسة بنوع من المراعاة الخاصة نظرًا لأسبقيتهم واستقرار أسر عريقة منهم بفاس العاصمة السياسية التي كانت في الوقت نفسه عاصمةً اقتصادية لا جدال في أولويتها. وهكذا صار الأشراف يكونون فئة اجتماعيةً ذات امتيازات جبائية ومكتسبات مادية جماعية متوارثة، وأعفيت من سائر أنواع الضرائب والإتاوات. وأعطيت لهم مرتبات شهرية وسنوية تؤخذ من مجبي المناطق المتواجدة بها. ومعلوم أن هذه الفئة لم تكن لتستفيد من الحكم دون أن يستفيد الحكم بدوره منها، فيجعلها تزكيه بحكم أحوالها المادية والاجتماعية، كما يجعلها مؤهلةً لتزكي استمراريته ومشروعيته[3].

ومع نهاية النصف الثاني للقرن (٨ هـ / ١٤ م) وبداية القرن (٩ هـ / ١٥م) ظهرت علامات تنذر بتغييرات لغير صالح فئة الأشراف، فالدولة المرينية لم تعد تفكر في الخلافة ولا في الزعامة الإسلامية منذ وفاة السلطان أبي عنان، والبلاد نفسها أصبحت مقسمةً إلى جنوب خارج عن السلطة المركزية، وشمال تهدد شواطئه الأطماع البرتغالية، بينما تقتسم أراضيه الداخلية أهواء الزعماء والثوار، فالحد من النفقات أصبح يفرض نفسه نظرًا للحصار الاقتصادي القائم على الشواطئ، وقل دخل الدولة بسبب ضعف السلطة وكثرة المستفيدين،

---

(١) عن أسباب تعيين السلطان أبو سعيد لابنه أبي علي واليًا على سجلماسة وثورة هذا الأخير على والده. انظر، ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٢٨٨ — ٢٩٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ١٠٥ — ١٠٧.

(٢) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ص ٩٢ — ٩٣.

(٣) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ص ٩٦ — ١٠٠.

وخاصةً أن التجربة أثبتت عدم خطورة فئة الأشراف وقلة فعاليتها، والتزام زعمائها مبدأ الحياد والمهادنة[١].

ولقد ساهم هذا الموقف الجديد للدولة المرينية إزاء الأشراف في إضعاف نفوذ هذه الفئة عند العامة والخاصة، إذ لولا ضعف هذا النفوذ لما أقدم الحكم المريني على المس بالمكتسبات المادية والمقومات المعنوية التي كان يعتز بها الأشراف دفعةً واحدة. كما ساهمت السياسة التي اتبعها الأشراف أنفسهم في ضعف هذه المكانة أيضًا؛ حيث ربطوا مصيرهم بمصير كل من قويت شوكته من الملوك والأمراء والحجاب؛ فوضعوا أنفسهم موضع الضيم والنقمة، باختيارهم سلفًا دخول معسكر المتغلبين. وهكذا لم يلبث تعظيمهم أن تأثر – ولا شك – بهذا الموقف فأصبح ذلك النفوذ العاطفي – الديني الذي كانوا يتمتعون به من قبل مشوبًا بعوامل أخرى لا تمت إلى الدين، ولا إلى النسب بصلة، وإنما كان هو الثروة والجاه في المقام الأول[٢].

فضلاً عن ذلك فقد كان للسياسة الجبائية التي انتهجتها الدولة المرينية للحصول على الأموال سببًا رئيسًا في تشدد المتصوفة وعلماء الدين الأتقياء في مقاطعة الحكم المريني بصفة عامة، حتى أن كثيرين منهم كانوا يتجنبون الاتصال بالملوك ويبتعدون عنهم ولا يقبلون أن يقيموا علاقات عائلية معهم، وأما الذين اتصلوا بالقصر المريني من أهل الورع والتقوى كانوا أحيانًا يتحاشون مد أيديهم إلى مائدة السلطان خوفًا من الوقوع في الشبهات، أو يقبلون منه هديةً حيث اعتبر بعضهم "أموال أولئك الحكام أحقر مما لو كانت أموالاً مسروقة[٣]".

وهكذا فإن الواقع الجبائي قد أدى إلى اتحاد موقف بعض العلماء والمتصوفة بموقف عامة الشعب، فالأموال التي كانت تفرض على "العامة" قد اعتبرت مشبوهةً من طرف بعض "الخاصة" من أهل الاستقامة والورع. أما الأشراف، فلم تكن هذه الأموال مبغضةً لديهم، فهم لم يعارضوا مطلقًا في قبول العطاءات والهدايا عندما كانت تقدم إليهم. بل إن بعض الأشراف في القرن (٩ هـ / ١٥م) أصبحوا يطالبون بها، ولا يحجمون عن الإلحاح في الكتابة من أجل الحصول عليها، ونتج عن هذا التعارض الجذري بين موقف كل من فئة الأشراف والمتصوفة صراع مرير بين أنصار الحكم وخصومه، فامتناع الصوفية عن تزكية السياسة الجبائية منذ القرن (٨ هـ / ١٤م) ساهم في زيادة شعبيتهم بالأرياف والجبال، نظرًا لما كان يتضمنه موقفهم هذا من تضامن مع سائر من يتحمل أعباء هذه السياسة من الفلاحين

---

(١) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ١٠٥ – ١٠٨.

(٢) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ١٠٨ – ١٠٩.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٨٩ ؛ محمد القبلي: المرجع السابق، ص ص ١٠٩ – ١١١.

وغيرهم من سكان البوادي، بينما أدى قبول الأشراف لأموال مشبوهة – في الوقت نفسه– إلى تقلص نفوذهم داخل المدن وخارجها في بعض المناطق التي كان لهم بها نفوذ أو وجود(١).

وقد ترتب عن هذا الوضع أن قام الصوفية المتمركزون في البوادي بتفجير الأوضاع بالمغرب في القرن (١٠ هـ / ١٦م)، وتنظيم هذه البوادي وتعبئتها ضد الغزاة وضد الحكام على السواء، وهو الذي سيؤهل الزوايا في النهاية لتحويل الحكم عن العصبيات البربرية التقليدية – مرابطين، موحدين، مرينيين– ونقله إلى أسرة شريفة مغمورة من أعماق البوادي هي أسرة السعديين، التي لم تحاول قط الاتصال بالدولة المرينية عندما كانت تحاول استقطاب الأشراف، والدولة نفسها لم تكد تفكر في الاتصال بهم إلا في عهد السلطان أبو العباس أحمد بن أبي سالم في أواخر القرن (٨ هـ / ١٤م) (٢). فهم لم يكونوا إذن من "أشراف الدولة" ولا من الأشراف المستفيدين. والغالب أن هذا العامل قد لعب دورًا لا يستهان به في اختيار الصوفية لهم من دون سائر أشراف المغرب بالشمال والجنوب(٣).

ومما لا شك فيه أن العامل الجغرافي قد لعب دوره بجانب عامل سلوك الأسرة المرشحة في الماضي. فهؤلاء السعديون لهم نفوذ قديم ببلاد درعة وما جاورها، كما أصبح لهم نفوذ وإشعاع نسبي بسوس. والحركة الصوفية رغم رسوخها في أغلبية المناطق كانت متغلغلة هي الأخرى بالجنوب بصفة خاصة، وبما أن الشواطئ الجنوبية أخذت تسقط في أيدي المحتلين مع بزوغ القرن (١٠ هـ / ١٦م)، كما أن الأراضي الداخلية غدت مهددة عن طريق المتعاونين من زعماء بعض القبائل المغربية، فإن جميع العناصر قد توفرت لتكاتف الجهود، واستغلال الإمكانات المعنوية من أجل القيام بالتعبئة والتنظيم وترجمة المبادئ إلى موقف(٤).

وهكذا استمدت دولة الأشراف السعديين مقومات قيامها من عدة عوامل، بعضها آنية أفرزتها الظروف الراهنة آنذاك، وأخرى قديمة اعتمدت مضاعفات بعيدة، ترجع إلى الفترة المرينية، عرضنا – فيما سبق– لبعض جوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية المتداخلة وليس لمجرد رغبة جماهير الشعب بالمغرب الأقصى في "التبرك" بهم أو جريًا وراء "البركة"

---

(١) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ١١٢ – ١١٣.

(٢) يعد هذا السلطان المريني الذي تولى مرتين أولهما عام (٧٧٦ – ٧٨٦ هـ/ ١٣٧٤ – ١٣٨٤م) ثم (٧٨٩ – ٧٩٦ هـ / ١٣٨٧ – ١٣٩٣م) هو أول من اتصل بصفة رسمية بالأشراف السعديين من ملوك بني مرين لمناصرته في استعادة ملكه. ومع ذلك فإن السياسة المرينية منذ أبي عنان حتى نهاية القرن (٨ هـ / ١٤م) قد ركزت على المجموعات الشريفة الثلاث المشار إليها مجموعة الأدارسة ومجموعة السبتيين ومجموعة أهل سجلماسة، وهي قوات موزعة جغرافيًا على نقاط توجد كلها على محور تجاري حيوي بالنسبة للدولة الحاكمة وتجارتها الخارجية. محمد القبلي: المرجع نفسه، ح٣٩، ص ٩٦.

(٣) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ص ١١٣، ١٢٥ – ١٢٦.

(٤) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ١٢٦.

كما زعم بعض الباحثين[١]، ولو كان هذا التفسير المبسط يرتكز على أساس اجتماعي لكنا قد رأينا جماهير المغرب الأوسط وجماهير المغرب الأدنى قد لجأت بدورها إلى أسرة من الأسر الشريفة لتتبرك بها حتى تستطيع الصمود في وجه الغزو الأجنبي من جهتها[٢].

هذا، وقد صاحب قيام دولة الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى عدة ظواهر بعضها مستحدثة، وأخرى قديمة أكدها قيام هذه الدولة. فمن أهم هذه الظواهر الجديدة هي المحاولة الناجحة التي قام بها التيار الصوفي بطرقه وتنظيماته في تحريك البنية الاجتماعية والسياسية بالمغرب، هذه البنية ذات الطابع القبلي الصرف، الذي اعتمدت عليه جل الدول المغربية في قيامها، فالأدارسة والمرابطون والموحدون والمرينيون اعتمدوا بالتتابع على عصبيات قبائل أوربة[٣] وصنهاجة[٤] ومصمودة وزناتة حتى طرحت "الطريقة" الصوفية ببنائها الفكري المتميز الذي يوحد الأتباع والمنتمين في ظل "الطائفة" طبقًا لنسق فكري وعقائدي كبديل للقبيلة القائمة أساسًا على رابطة الدم[٥]. ومع أن القبيلة ظلت قائمة، إلا أن "الطائفة" أصبحت خلية اجتماعية جديدة لها روابطها الفكرية والعقائدية، ومصالحها وأهدافها التي تدافع عنها وتسعى لتحقيقها. وقد أدى هذا التغيير في البنية الاجتماعية إلى

---

(١) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ص ١٤٤ – ١٤٥.

(٢) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٣) أوربة – وربة: قبيلة شهيرة من البربر البرانس، كانت في القديم تشتمل على بطون وعمائر كثيرة، مثل جاية (لجاية) ونفاسة، وزهكوجة، ومزياته، ورغيوة، ودقيوسة. وقد عظمت تلك البطون فيما بعد حتى صارت في عداد القبائل، كانت مواطن هذه القبيلة عند دخول الإسلام إلى المغرب بجبل زرهون وما جاوره، وكان أميرها يدعى سكرديد بن زوغي، ولي عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي، ولما مات سنة ٧١ هـ بقيت زعامة البربر في هذه القبيلة حتى دخل إدريس الأول المغرب فتنازل له إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي عن الإمارة وقام بنصرته، ودعا القبائل إلى بيعته، وزوجه إحدى كريمات عشيرته (كنزة)، وبعد ذلك اندمجت وربة في عداد القبائل البربرية لا تتميز عليها بشيء، بل اندثر اسمها ونسب أهلها إلى الجبل الذي يسكنون به (زرهوني – الزراهنة)، ولم يبق يحمل اسمها إلا بطن تحول إلى ناحية تازة واندمج في قبيلة البرانس ولا يزال يحمل اسم وربة حتى الآن، ولكن بقي ما يذكر بها كأولاد الوربي، وحومة الوربية بفاس، وقد عرب اسم "وربة" البربري إلى "أوربة". انظر، الجزنائي، المصدر السابق، ح٤٢، ص ١٦؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ح٣٣، ص ٢٦.

(٤) صنهاجة: إحدى قبائل البربر البرانس وأعظم قبائلهم بالمغرب على الإطلاق، إذ لا تكاد ناحية من نواحيه تخلو من بطن من بطونهم، وأكثر النسابين البربر يجعلونهم من العرب الحميريين، وقد تفرعت عن القبيلة الأصلية فروع كثيرة نمت بمرور الزمان وارتقت كل واحدة منها إلى درجة قبيلة ذات اسم خاص بها. أما القبائل التي بقيت تحمل الاسم الأصلي فهي مستقرة بشمال المغرب: الجزنائي: المصدر السابق، ح ٤٣، ١٧.

(٥) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٧٤؛ محمد زنيبر: المرجع السابق، ص ١٢٨؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ح٢، ص ٢٠٧.

تغيير خطير ومهم في البنية السياسية بالمغرب؛ حيث تمكن رجال التصوف من تغيير الدعامة التي كان يقوم عليها الحكم سابقًا، وتتمثل في العصبية القبلية، وأقاموا مكانها دعامةً جديدةً قائمة على فكرة "الشرف" إذ بفضلهم وصل الأشراف السعديون إلى الحكم، وكان ذلك تغييرًا جذريًا في شكل الدولة المغربية[١].

وإلى جانب ذلك، هناك ظاهرتان قديمتان يلاحظهما الدارس لتاريخ هذه البلاد، أكدهما – كما سبقت الإشارة- قيام الدولة السعدية، أولهما، حب المغاربة لذوي النسب العربي الشريف، وربما كان حبهم هذا للأشراف مرتبطًا بتمسكهم بتعاليم الدين الإسلامي، فإذا كان هؤلاء الأشراف هم نتاج الشجرة الطيبة التي تفرع منها نسل الرسول عليه السلام، فيعتقد أنهم أصلح من يقود البلاد للمحافظة على أمور الدين والدنيا معًا، ويبدو أن هذا الإحساس قد تأكد بوصول إدريس بن عبد الله العلوي إلى المغرب الأقصى وتأسيس دولة الأدارسة[٢]، وقد انفرد المغرب الأقصى عن بقية أقطار المغرب الكبير في هذا الاتجاه، وإذا كان المغرب الأوسط قد اعتبر أرضًا خصبةً في صدر الإسلام للمذهب الإباضي[٣]، الذي لا يعترف بفضل عربي على عجمي إلا بالتقوى، فإن المغرب الأقصى كان يعتز بقدوم المولى إدريس إليه، ويعتز بذريته، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل، وكان من الطبيعي أن يرفعوا فروع السلالة الشريفة إلى طبقة اجتماعية متميزة عن طبقة العامة، وقد أثر هذا البنيان الاجتماعي في تاريخ المغرب الأقصى، وإعطائه شخصيةً متميزةً، وجاءت العوامل الخارجية لكي تساعد على زيادة تبلور هذا البنيان، وبشكل متميز عن البنيان الاجتماعي والسياسي الموجود في بقية أقاليم المغرب الكبير[٤].

وعلى الرغم من تعدد أصول الدول التي تعاقبت على عرش المغرب الأقصى، فإن اعتزاز أهله بالأشراف ظل ساريًا في أعماقهم، وإذا كان الأشراف قد انزووا مؤقتًا في عهد الدول البربرية فقد عادوا للظهور في عهد المرينيين – كما سبقت الإشارة- واكتسبوا زعامتهم الروحية من جديد وذلك بتأييد الطرق الصوفية التي انتشرت بشكل واسع آنذاك، ولا سيما

(١) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٧٤؛ محمد القبلي: التموجات الدينية - الاجتماعية ومشروعية سلطان الدولة بالمغرب الأقصى الوسيط، بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر – الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص ص ١١٣ – ١١٤.

(٢) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ١٩٧؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٢.

(٣) للاستزادة حول هذا الموضوع: انظر، حسن علي حسن: الحياة السياسية في المغرب، القرن الثالث الهجري، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ص ٤٢ وما بعدها.

(٤) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ١٩٧؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٢.

الطريقة الشاذلية التي يتفرع عنها الكثير من الطرق الصوفية في الشمال الأفريقي[١]، وإزاء هذه المشاعر المتشبعة بحب أهل البيت النبوي لم يجد الأشراف السعديون صعوبةً في تأسيس دولة لهم ببلاد المغرب الأقصى، بل إنهم وجدوا الحماس من الطبقات الشعبية والقبائل المغربية[٢]، هذا إلى جانب العوامل الأخرى التي سبق ذكرها.

أما الظاهرة الثانية فتتلخص فيما اتسمت به الدول المختلفة التي تعاقبت على عرش المغرب الأقصى من شدة الحرص على الاستقلال السياسي الفعلي للبلاد. ولا تتعارض هذه الظاهرة مع بعض الإجراءات التي اتخذتها بعض الدول المغربية أملتها ظروف معينة في حينها. كاعتراف الدولة المرابطية بالخليفة العباسي والدعاء له على المنابر كنوع من الاتصال الرمزي النابع من نظرية المرابطين في احترام الخلافة العباسية القائمة بالمشرق حفاظًا على وحدة الأمة الإسلامية، لكنهم لم يسيروا مطلقًا في خط التبعية أثناء مدة حكمهم[٣]. كذلك السياسة التي سلكها المرينيون أيام نشأة دولتهم من الدعوة للخلافة الحفصية بالمغرب الأدنى – أقوى الدول الإسلامية حينذاك– حيث لم يكن لهم سند عربي أو قرشي يحتجون به في ادعاء الخلافة، وحتى لا يظهروا أمام رعاياهم بمظهر الغاصبين للملك، لكن سرعان ما قطعوا هذه الدعوة بعد استيلائهم على مراكش عاصمة الموحدين عام (٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م)[٤]. أما الوطاسيون فقد أحسنوا صنعًا عندما اعترفوا بالتبعية للعثمانيين؛ حيث لم يكلفهم هذا الإجراء أكثر من نقش اسم الخليفة على السكة والدعاء له على المنابر، وتوجيه بعض الهدايا التقليدية، وهذا ما ضمن للمغرب الأقصى – في هذه الفترة الحرجة–

(١) عمر عسران: المرجع نفسه، ص ١٣. وعن الشاذلي وطريقته والطرق المتفرعة عنها. انظر، حسن جلاب: محمد بن سليمان الجزولي (مقاربة تحليلية لكتابته الصوفية)، الطبعة الثانية، المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش، ١٩٩٩م، ص ص ٢٠ – ٢٢.

(٢) عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٤. وللاستزادة عن مدى حب المغاربة للعنصر الشريف وتوقع حلول البركة فيهم بحلول آل البيت النبوي بني ظهرانيهم. انظر، الجزنائي: المصدر السابق، ص ١٢ وما بعدها؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ١٩ وما بعدها.

(٣) عبد الله العمراني: العرش المغربي عبر التاريخ، بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء الثامن، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية، الرباط، ١٩٧٣م، ص ١١٨؛ محمد القبلي: ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر– الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ١٣.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٢١٣ – ٢١٥، ٢٦٥ – ٢٦٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ٢٨ – ٢٩؛ رضوان محمد محمد رضوان البارودي: الحياة الحربية في عصر الدولة المرينية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ١٩٧٩م، ص ٢٠؛ Hazared, H., W., : The Numismatic History of Late Medieval North Africa, New York, 1952, p. 192.

المحافظة على سيادته عمليًا، فصار الدولة العربية الوحيدة – كما سبقت الإشارة – التي لم تخضع للحكم العثماني الذي شمل بوجوده العالم العربي خلال القرن (١٠ هـ / ١٦م)[١].

فقد ظل المغرب الأقصى- رغم كل ما سبق- محافظًا على قيادته واستقلاله، وشهد فترات طويلة كان فيها مركز الثقل والأحداث في كل بلاد الشمال الأفريقي والأندلس، فقد شمل حكم المرابطين بلاد المغرب الأقصى ممتدًا إلى الأندلس شمالاً وإلى بلاد السنغال والنيجر جنوبيًا، كما شمل جزءًا من المغرب الأوسط، وحينما جاء الموحدون الذين خلفوا المرابطين امتد نفوذهم على جميع بلاد الشمال الأفريقي والأندلس، وبعد أن ورث بنو مرين الموحدين في حكم المغرب الأقصى، كانوا يحاولون إخضاع جميع بلاد الشمال الأفريقي والأندلس لسيطرتهم، على أساس أنهم هم الذين قضوا على الموحدين، وتمكنوا لفترات طويلة من إخضاع بني زيان حكام المغرب الأوسط، والسيطرة لبعض الوقت على بني حفص حكام المغرب الأدنى[٢].

كل هذه الأحداث أعطت لأهل المغرب الأقصى وحكامه ثقةً كبيرة واعتزازًا ببلادهم التي كان لها الصدارة على كل بلاد الشمال الأفريقي والأندلس مدى قرون طويلة ودول قوية يفخرون بها. وبهذه الروح المعتدة استطاع الأشراف السعديون المحافظة على استقلال المغرب الأقصى من القوى الخارجية في الوقت الذي كان الإسبان والبرتغاليون يتربصون ببلاد الشمال الأفريقي كله، بل إنهم احتلوا كثيرًا من مدنه الساحلية، كما أن الأتراك العثمانيين بعد أن سيطروا على جل البلاد العربية والإسلامية امتد نفوذهم إلى ليبيا وتونس والجزائر حتى أشرفوا على حدود المغرب الأقصى، لكن الأشراف السعديين الذين كانوا يعتزون بأصلهم العربي ونسبهم الشريف وتاريخ بلادهم قاوموا هذه المحاولة التركية[٣].

نسب الأشراف السعديين:

ينتسب السعديون إلى السلالة النبوية؛ حيث يرفعون نسبهم إلى الأشراف الحسنيين، ويتضح هذا من خلال تحلية سلاطينهم في الكتابات المنقوشة على مسكوكاتهم[٤]، وعلى

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٩؛ يونان لبيب رزق ومحمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٥، ٢٥.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٣٠٠ – ٣٠١، ٣١٧ – ٣٢١، ٣٤١ – ٣٤٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ١٥٤- ١٥٨، ١٨٢ – ١٨٤؛ إيفان هريك: تفكك وحدة المغرب السياسية، بحث نشر في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع "إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر"، اليونسكو، ١٩٨٨م، ص ١٠٦؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) عمر عسران: المرجع نفسه، ص ١٥.

(4) Lavoix, H., : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Ntionale, Espagne et Afrique, Paris, 1891, pp. 480 - 491, 496 - 498.

بعض عمائرهم القائمة[١]، وعلى شواهد القبور والتراكيب الرخامية الخاصة بهم[٢]، بألقاب مثل" سبط خاتم الرسل"و "الشريف الحسني" وغيرها، والاستشهاد على معظم هذه الآثار بهذه الآية الكريمة: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"[٣] التي تشير إلى تزكية الله (ﷻ) لأهل البيت النبوي الشريف.

ورغم وجود من يطعن في نسبهم هذا مدعيًا نسبتهم إلى أصول أخرى، فإن العديد من المؤرخين والمعاصرين منهم للسعديين بصفة خاصة أثبتوا صحة هذا النسب الشريف، ومنهم ابن القاضي (ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م)[٤]، وعبد العزيز الفشتالي (ت: ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م)[٥]، والمقري (ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م)[٦]، وابن الوقاد التلمساني المُتوفَّى بعد عام (١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧م)[٧]، وابن عيشون الشراط (ت: ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧م)[٨].

ويعد الإفراني (ت بعد:١١٥١ هـ / ١٧٣٩م) من أبرز من أكد سلامة وصحة نسب شرف السعديين، وعرف بهم، وأشاد بكثير من مواقفهم وآثارهم، وعرض لرأي العديد من العلماء

---

(1) Deverdun, G., : Inscriptions Arabes de Marrakech, Editions Techniques Nord Africaines, Rabat, 1956, pp. 3 - 4, 110.

(2) Rousseau, G., et des autres: Le Mausolee des Princes Sadiens à Marrakech, Paul Geuthner, Paris, 1925, pp. 21, 24, 32, 38, 40, 45, 47; Deverdun, G.,: Op. Cit., pp. 77, 83, 121, 134 .

وتجدر الإشارة إلى أنه يطلق على شاهد القبر بالمغرب مصطلح "روسية" لوضعه رأسيًا عند قبر الميت،كما يطلق على التركيبة الرخامية التي تعلو القبر مصطلح "مقبرية". انظر، عثمان عثمان إسماعيل: دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ت، ح١، ص ١٤١.

(٣) سورة الأحزاب، من الآية (٣٣).

(٤) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ص ٩، ٤٦، ٥٧، ٧٥، ٢١٢ – ٢١٣؛ القسم الثاني، ص ص ٤١٨ – ٤٤٢؛ وللمؤرخ نفسه: ذيل وفيات الأعيان المسمى بدرة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث – القاهرة، المكتبة العتيقة – تونس، ١٩٧٠ – ١٩٧٢م، الجزء الأول، ص ١٠٦ الجزء الثاني، ص ٢٢٣؛ الجزء الثالث، ص ٥٦، ١٢٨، ١٨٢

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٢.

(٦) المقري: روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية – الرباط، ١٩٨٣م، ص ص ٣، ٦٢، ٢٤٠.

(٧) ابن الوقاد التلمساني (محمد بن عبد الرحمن، تُوُفِّيَ بعد ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧م): تارودانت فيما بين (١٠٦٨ – ١٠٧٣ هـ / ١٦٥٨ – ١٦٦٢م) من خلال مقيدات ابن الوقاد التلمساني، دراسة وتحقيق د. نور الدين صادق، ١٩٩٨م، ص ٤٢.

(٨) ابن عيشون الشراط (أبو عبد الله محمد، ت: ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧م): الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات (٣٥)، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص ١٠٣.

والفقهاء المعاصرين للدولة السعدية المؤيدين لصحة نسبهم أمثال الإمام المنجور، وأبي يوسف يعقوب البدري والإمام أبي العباس احمد بن قاسم الصومعي، وأحمد بابا السوداني، وابن عرضون وأبو مالك عبد الواحد وهو من الأشراف السجلماسيين[١]. ويذكر هذا المؤرخ في سياق حديثه عن بيعة أول خلفاء السعديين: "وقد اتفقت كلمة أولئك الأشياخ – يقصد أشياخ الصوفية بالسوس- على أن أبا عبد الله محمد القائم إنما كان نهوضه بإشارة من الصالحين، وإذن من العلماء العاملين وكفى ذلك شاهداً على صحة نسبه الشريف عندهم، وإلا لما خصوه بالإمامة العظمى التي لا يتمطق (هكذا) حرمتها إلا شريف النسب قرشي المحتد"[٢].

أما الناصري (ت: ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م) فبالرغم من تأخره إلا أنه من أشد المعارضين لمن ينكر صحة شرف السعديين، حيث يقول: إن "ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة، وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة في أخبارهم"[٣]، وقد عارض كل من الإفراني والناصري بعض الذين نقلوا عن المقري انه رفع نسب السعديين إلى بني سعد بن بكر بن هوازن الذين تنتمي إليهم حليمة السعدية مرضعة الرسول (ﷺ)، قائلين بأن هذا النقل ضعيف؛ لأن المقري صرح في "نفح الطيب" بصحة شرف السعديين[٤]، وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه من كتب[٥]، فضلاً عن ذلك فإن المقري الف كتاب "روضة الآس" للسلطان أحمد المنصور السعدي لمدحه والإشادة بمناقبه الشريفة[٦].

أما الفريق الذي يطعن في نسب السعديين فيتزعمه كل من الوطاسيين وأشراف سجلماسة العلويين. إذ اتخذ الوطاسيون من ذلك وسيلة لمقاومتهم وتنفير العامة منهم بعدما رأوا من شدة التفافهم حولهم[٧]، ويعد المؤرخ المجهول – الذي يبدو أنه وطاسي الأصل[٨]- صاحب "تاريخ الدولة السعدية" من أبرز هؤلاء الطاعنين؛ حيث يزخر مؤلفه هذا بالتحامل على السلاطين السعديين، والحط من قدرهم، ونفي النسب الشريف عنهم[٩].

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٦، ٩؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٢.

(٣) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤.

(٤) المقري: نفح الطيب، الجزء الثاني، ص ٢٤٩؛ الجزء الخامس، ص ص ٢٣، ٣٥٠؛ الجزء السادس، ص ص ٤٧، ٤٩؛ الجزء السابع، ص ٦٩.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤.

(٦) المقري: روضة الآس، ص ص ٣ – ٧١.

(٧) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٨) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ث من مقدمة الناشر.

(٩) مؤرخ مجهول: المصدر نفسه، ص ص ٢ – ٤. وللاستزادة عن موقف هذا المؤرخ المجهول من الدولة =

وأما أشراف سجلماسة العلويين فقد أشاعوا أنهم لا يجتمعون مع السعديين في أصل سابق أو لاحق، وأنهم ليسوا من الأشراف، وإنما من بني سعد بن بكر بن هوازن، وقد روي ذلك عن كل من الفقيه أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي الحسني، ومحمد بن الشريف السجلماسي الحسني أول ملوك الدولة العلوية[١].

ويبدو أن إقصاء السعديين للعلويين عن مقاليد السلطة والحكم هو الذي جعل هؤلاء — خاصة بعد أن ضعفت الدولة السعدية، وآلت إلى السقوط- ينفون أن يكون السعديون من الأشراف مثلهم حتى يثبتوا أنهم أجدر بالملك منهم، ويقدموا للرعية المبرر نفسه الذي قاد السعديين إلى الحكم[٢]، ويتضح هذا الأمر من مقارنة موقف أول ملوك العلويين محمد بن الشريف — الذي سبقت الإشارة إليه — بموقف أحد أعقابه وهو السلطان محمد الثالث بن عبد الله الذي أكد انتماء السعديين إلى البيت النبوي، بقوله: "فإنهم إخواننا وبنو عمنا، وجدنا وجدهم واحد، وقريتنا وقريتهم بالينبوع واحدة يقال لها بنو إبراهيم، وجدهم أحمد، خرج للمغرب قبل جدنا الحسن بنحو الثلاثين سنة، وهما أخوان، لكنهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الإخوان، واقتصروا على التعظيم والاحترام، فكان سلفنا يحقدون إهمالهم لجانبنا، وقلة الاعتناء بأمرنا هذا موجب طعن سلفنا في نسبهم، وإلا فالحق أحق أن يتبع لا ينكر نسبهم إلا جاهل أو من لا اطلاع له على الأنساب"[٣].

كما يبدو إهمال السعديين من طرف الحكام المرينيين في الوقت الذي اظهروا فيه تعظيمهم ومحبتهم وإكرامهم لبقية فروع الأشراف بالمغرب الأقصى- كما سبقت الإشارة- كان من العوامل التي استند عليها الطاعنون في صحة نسب السعديين. لكن يبدو جليًا أن العامل الاقتصادي هو الذي لعب دورًا حاسمًا في تحديد اختيار الحكم المريني لفئات الأشراف التي أولاها الاهتمام، دون النظر إلى صحة النسب الشريف أو عدم صحته[٤].

وفي ضوء ما سبق يمكن ترجيح الرأي الأول القائل بصحة نسب السعديين لما ذكر من قرائن، وقد استطاع هؤلاء الأشراف تكوين دولة قوية دانت لها أطراف المغرب الأقصى، وامتد حكمها ليشمل مناطق واسعة في الصحراء الكبرى، وما وراءها من بلاد السودان الغربي، في فترة كانت الأخطار والأزمات تحدق بالبلاد من كل الجهات، ولعب حكامها دورًا بارزًا في

= السعدية. انظر، ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص ص ٩٧ — ١٠٠.

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٧ — ٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٤ — ٥.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٤.

(٣) الزياني (أبو القاسم، ت: ١٢٤٢ هـ / ١٨٣٣م): الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د ٦٥٨، ص ٣٤٣. عن إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٢؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٤) محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، ص ص ٩٢ — ٩٣.

الحفاظ على استقلال البلاد لما يزيد عن قرن ونصف من الزمان، فرض المغرب الأقصى نفسه خلالها كدولة تتمتع بالاحترام الدولي لدى الدول الأجنبية، واشتهر بثروته وقوته العسكرية، الأمر الذي جعل عدداً من الدول تسعى إلى كسب صداقته، وعقد العلاقات معه.

وقد أطلق المؤرخون على الدولة التي أقاموها بالمغرب الأقصى في الربع الأول من القرن (١٠ هـ / ١٦م) عدة أسماء. فهي دولة الأشراف السعديين أو الدولة السعدية[١]، والدولة الدرعية التاكمادرتية[٢]، ودولة الأشراف الزيدانيين أو الدولة الزيدانية[٣]. ولكل اسم منها دلالته الخاصة، فبالنسبة لتسميتهم بالأشراف السعديين يذكر الإفراني أنه: "لم يكن لهم هذا الوصف في القديم، ولا وقعت تحليتهم به في ظهائرهم وسجلاتهم وصدور رسائلهم، بل كانوا لا يقبلون ذلك، ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به؛ لأنه إنما يصفهم بذلك من يطعن في نسبهم، ويقدح في وشيج أصلهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن"[٤].

ويتضح من الوثائق المعاصرة لحكام هذه الأسرة والمراسلات والمراسيم الصادرة عنهم، أنهم كانوا يعرفون بـ "الشرفاء"[٥]، إلا أن بعضهم أضيف إليه لقب "السعدي" كالغالب بالله، ثالث ملوك هذه الدولة، وذلك كما جاء في الرسالة التي وجهها علماء المغرب إلى ولده السلطان محمد المتوكل جواباً عن رسالته إليهم[٦]، كما أضافه صاحب "مناهل الصفا" إلى احمد المنصور الذهبي[٧]. ثم أصبح هذا اللقب — في الغالب- صفة لهذه الدولة وحكامها، ربما لأن "الناس سعدوا بهم"[٨]، وأصبحوا ينعمون بالأمن والطمأنينة، مما لا قبل لهم به منذ عهد بعيد، وبخاصة بعد الانتصارات المستمرة التي حققوها على الصليبيين الذين كانوا يحتلون معظم ثغور المغرب[٩]. ويعد صاحب "تاريخ الدولة السعدية" — وفقاً لرأي بعض الباحثين- من أوائل المؤرخين الذين استعملوا هذا اللقب عند تأريخه لهذه الدولة[١٠]، غير أن هذا المؤرخ لا يزال مجهولاً حتى الآن، ولا يعرف تاريخ تأليفه لهذا الكتاب إلا على سبيل

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، القسم الأول، ص ٥٧؛ مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢، ١٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ١ — ٥.

(٣) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٥، ٩.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ٦٥؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٧) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧.

(٨) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧.

(٩) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٤٠؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ١٩.

(١٠) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٤٠ — ٤١.

الترجيح في عام (١٠٩٠ هـ / ١٦٨٠م)[١]؛ لذلك يمكن القول بشيء من الاطمئنان أن الفشتالي المُتوَفَّى عام (١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م) قد سبقه في استخدام هذا اللقب[٢].

ويعلق الناصري على هذا اللقب؛ بقوله: "وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف"[٣].

أما سبب تسمية هذه الدولة بالدرعية التاكمادرتية؛ فنسبةً للموضع الذي استقر به هؤلاء السعديون بعد دخولهم المغرب[٤]، بينما سميت بالدولة الزيدانية نسبةً لجدهم زيدان الذي يعد – وفقاً لرواية الإفراني والناصري- أول من دخل المغرب من أسلاف السعديين[٥]. وتجدر الإشارة إلى أن اشتقاق اسم الدولة من اسم الجد الأعلى للأسرة الحاكمة ظاهرة شائعة في جل الدول الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء، ولقد انفردت الدولتان المرابطية والموحدية من بين سائر هذه الدول، باشتقاق الاسم الدال على كل منهما على مرتكز عقدي صرف، حيث اشتقت الدولة الأولى اسمها من "الرباط" بينما اختارت الثانية مرتكز "التوحيد" بهدف تبرير عوامل قيامهما لدى الأتباع اعتماداً على مرجع الجهاد والعقيدة[٦].

موطن السعديين:

تشير الروايات التاريخية إلى أن أسلاف السعديين كانوا يعيشون قبل هجرتهم إلى المغرب بمدينة ينبع[٧]، التي تقع على ساحل البحر الأحمر إلى الغرب من المدينة المنورة بالحجاز، وتحدد رواية الزياني – السابق الإشارة إليها- أنهم كانوا يعيشون سوياً مع أبناء عمومتهم العلويين بقرية من إحدى قرى هذه المدينة تسمى "بنو إبراهيم". ولا تكاد المصادر التاريخية تمدنا بخلاف ذلك بشيء عن حياتهم في مسقط رأسهم بالجزيرة العربية، أو حتى أهم الأحداث في تاريخ هؤلاء الأشراف هناك[٨]. ومع ذلك تفيد بعض الروايات أن ينبع كانت هي ووادي نخل- منذ فترة بعيدة ترجع إلى ما قبل القرن (٧ هـ / ١٣م) – المنفى الاختياري لأشراف مكة المكرمة؛ حيث يقصدها الشريف المنهزم، إما ليموت هناك، أو لتجميع أتباعه وقوته والعودة مرة أخرى لاسترداد مكة المكرمة من منافسيه، وذلك بمهاجمتها مباشرةً أو

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ث من مقدمة الناشر.
(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧.
(٣) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٦.
(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ١ – ٥.
(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.
(٦) محمد القبلي: التموجات الدينية – الاجتماعية، ص ١١١.
(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٥- ٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.
(٨) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٢٣.

فرض الحصار الاقتصادي عليها، وقطع طريق الحجيج[١]، ولعل هذا يفسر تواجد بعض الأسر الشريفة بمدينة ينبع في تلك الفترة.

أما بالنسبة لسبب هجرة أسلاف السعديين إلى المغرب الأقصى، فإنهم قدموا إلى هذا البلاد بطلب من سكان درعة الذين اتصلوا بهم – فيما يبدو- وقت أداء مناسك الحج[٢]، وألحوا على أحدهم في الانتقال إلى درعة[٣]؛ إذ يفيدنا الإفراني بأن: "أهل درعة كانوا لا تصلح ثمارهم، وتعتريها العاهات، فقيل لهم: لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى به أهل سجلماسة إلى بلادهم، لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم"[٤]. وعلى الرغم من طرافة هذه الرواية، وما يكتنفها من صنعة، فإنها أمدتنا بسبب انتقال هؤلاء السعديين من المشرق إلى المغرب، الأمر الذي سكتت عنه كثير من المصادر التاريخية.

والسؤال الذي يطرح نفسه: من أول شخص دخل المغرب من أسلاف السعديين؟ وما تاريخ دخوله لهذه البلاد؟

في الواقع اختلفت آراء المؤرخين في تحديد هذا الشخص، فيرى البعض أنه زيدان بن أحمد بن محمد[٥]، بينما يذكر البعض الآخر أنه أحمد والد زيدان هذا هو أول من حل ببلاد المغرب[٦]. ووفقًا لرواية الإفراني -- السابق الإشارة إليها- فإن زيدان جد السعديين دخل المغرب في بداية القرن (٨ هـ / ١٤م) بعد دخول جد أشراف سجلماسة العلويين[٧]، في حين أن الزياني يذكر أن جد السعديين وصل إلى المغرب قبل جد العلويين بنحو ثلاثين عامًا[٨]، بينما يرى بعض الباحثين المحدثين أن السعديين قدموا إلى بلاد المغرب في غضون القرن (٦ هـ / ١٢م)، ثم قدم بعدهم العلويون في أواخر القرن (٧ هـ / ١٣م)[٩].

---

(١) عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م، ص ٤٣٦.

(٢) يشير بعض الرحالة المغاربة الذين وفدوا إلى الأراضي الحجازية في القرنين (٧ – ٨ هـ / ١٣ – ١٤م) إلى أن مدينة ينبع كانت محطةً مهمةً لنزول الحجاج بها؛ حيث يتزود الركب بجميع ما يحتاجه لإكمال مسيرتهم إلى مكة المكرمة، كما كان الحجاج يتركون بها فائض أزوادهم أمانةً لحين عودتهم. انظر، عواطف محمد يوسف: المرجع نفسه، ص ٣٢٦.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٤؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.

(٦) الزياني: المصدر السابق، ص ٣٤٣. عن إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٢.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣.

(٨) الزياني: المصدر السابق، ص ٣٤٣. عن إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٢.

(٩) محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، ص ٨٤.

ولعل هذا التضارب في تحديد أول من دخل المغرب من السعديين، وتاريخ دخوله، يرجع إلى أن هؤلاء لم يكونوا في بداية أمرهم من أصحاب الملك والسيادة، إنما كانوا مجرد مهاجرين من جزيرة العرب، والمهاجرون قل أن يلفتوا أنظار المؤرخين إلا إذا صاحب هجرتهم حركات ثورية، أو مغامرات لنيل الحكم والسلطان، كما فعل بنو هلال حينما هاجروا من مصر إلى بلاد المغرب على سبيل المثال[١].

وعلى أية حال، فقد استقر سلف السعديين بقرية تاكمادرت[٢] في نواحي إقليم درعة بجنوب المغرب الأقصى[٣]، الذي يذكرهم بواحات بلاد العرب شكلاً ومناخًا ومجتمعًا[٤]، ولم يمارس أفراد هذه الأسرة منذ استقرارهم بالمغرب حتى بداية القرن (١٠ هـ / ١٦م) أية سلطة رسمية ثابتة، وإنما كانوا يشتغلون بالفقه والتعليم والعبادة، ولكنهم كانوا معظمين لدى السكان في الجنوب شأن بني عمومتهم العلويين، فالتف حولهم العامة للإفادة بعلمهم والتبرك بوجودهم بينهم[٥].

وهكذا يمضي الزمن بالأشراف السعديين في موطنهم الجديد وهم يمارسون نشاطهم الديني والعلمي، ولا أثر للسياسة في حياتهم، إلى أن قام أحدهم، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن – الذي سيلقب فيما بعد بالقائم بأمر الله- في السنوات الأولى من القرن (١٠هـ/ ١٦م) بأداء فريضة الحج، وأثناء تواجده بالمدينة المنورة لقيه أحد الصلحاء، وبشره بأن نجليه سيملكان المغرب، وذلك تأويلاً لرؤيا كان أبو عبد الله قد رآها، وبمجرد عودته إلى المغرب أخذ يدعو لهذا الأمر[٦]. ورغم طرافة هذه الرواية وغيرها مما أشيع من روايات عن تطلع السعديين للملك[٧]، فإن هناك عدة عوامل برزت في تلك الفترة بالمغرب عامة، وبإقليم السوس في الجنوب – الذي اتخذه السعديون موطنًا- خاصةً، جعلت أنظار أهله تتجه إليهم من جهة، وجعلت السعديين أنفسهم يتطلعون إلى السياسة والملك من جهة أخرى، حتى قامت

---

(١) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) تقع تاكمادرت أو تكمدارت (بكاف معقودة) جنوب شرق مدينة زكورة على يمين الطريق المؤدي منها إلى تمكروت، وكانت في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م) مركزًا ثقافيًا يمتاز بحيوية خاصة وتسكنه شخصيات بارزة في مجال الفكر والسياسة، أما الآن فهي خراب لم يتبق منها سوى أطلال قليلة عبارة عن سور مبني من الحجر ممتد فوق هضبة مرتفعة بنحو مترين وبقايا بناء بالآجر وأبواب ربما كانت لمسكن أو حمام قديم (خريطة ٢). محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٣٨.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٣.

(٤) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٤٤.

(٥) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٢٦؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٤.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٦.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٣.

الإمارة السعدية بالسوس، ثم تحولت إلى مراكش، إلى أن تم بسط نفوذها على كل أطراف البلاد.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جل الحركات الثورية بالمغرب – على طول تاريخها الإسلامي – انطلقت من الجنوب، وكذلك جل الدول المغربية كان مهدها هذا الجزء من أرض المغرب. فالمرابطون انطلقوا من الصحراء، والموحدون من الجبال جنوب مراكش، وهاهم السعديون من سوس، كما انطلق العلويون من بعدهم من سجلماسة (تافيلالت)، ويرجع ذلك – فيما يبدو- إلى أن مناطق الجنوب لم تصب في مجملها بالترف والدعة، ويسودها الطابع القروي أو الطابع الصحراوي، وكلاهما رمز للبساطة والصفاء. لذلك كان إسلام هذه المناطق أقرب إلى صورته الأصلية منه في أي جهة أخرى. ولا يتصور أن يكون فيها انحلال كالذي تشهده المدن، كما أنها إلى الدفاع عن الإسلام وحرمته بقوة السلاح أكثر حماسًا من أي مجتمع آخر. ومن هنا كانت الدول المغربية تخرج من مناطق الفطرة والبساطة، وندر أن تنجح في إقامة دعائمها بغيرها، وكلما وصلت إحداها إلى الحكم، وذاقت نعمة الحضارة حيث تنمو وتتحلل، يصيبها ما يصيب كل مجتمع مغرق في الترف، فيفتر حماسها للعمل الديني والتحرك العسكري، مما يؤذن بظهور دولة أخرى عاش مؤسسوها على الفطرة ليحلوا محل الدولة المنهارة، وهكذا دواليك[1].

ألقاب أسرة الأشراف السعديين:

عكست الألقاب التي اتخذها حكام الدول المختلفة التي تعاقبت على عرش المغرب الأقصى، توجه كل دولة منها بشكل واضح. فنجد أن الأدارسة قد اكتفوا بلقب الإمامة؛ لأنهم لم يؤسسوا خلافة مستقلة، وإنما دولة علوية ينتمي مؤسسها إلى البيت العلوي، وعلى الرغم من ذلك لم تكن دولة شيعية بالمعنى المتعارف عليه من حيث الفكر السياسي والاتجاه المذهبي، كما ظهر ذلك بشكل واضح فيما بعد في الدولة الفاطمية[2]. أما الحكام المرابطون فقد اتخذوا – ولأول مرة بالشمال الإفريقي- لقب "أمير المسلمين" منذ أن منحه لهم الخليفة العباسي[3] إلى نهاية دولتهم، ولم يتخذوا لقب "أمير المؤمنين" لأنهم كانوا يرون أن

(١) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ١١١.

(٢) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ص ١٤٣ – ١٤٤؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ١٠٨، ١١٤.

(٣) عن الظهير (المرسوم) الذي استصدره يوسف بن تاشفين (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ / ١٠٦١ – ١١٠٦م) من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليتلقب بأمير المسلمين. انظر، القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت: ٨٢١هـ / ١٤١٧م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م، الجزء العاشر، ص ص ٣١- ٤٥. ويرى بعض الباحثين أن أبا بكر بن عمر (٤٤٧ – ٤٥٣ هـ / ١٠٥٥ – ١٠٦١م) هو أول من تلقب=

هذا اللقب الأخير من حق الخليفة العباسي؛ احترامًا وتأدبًا وحفاظًا على وحدة الأمة الإسلامية[١]، ولو أراد أمراء الدولة المرابطية – التي كانت أقوى الدول الإسلامية حينذاك- أن يعلنوا الخلافة، لما عابهم على ذلك أحد؛ فقد سبقهم في ذلك أمويو الأندلس، وفاطميو القاهرة، والخلافة العباسية آنذاك كانت تعاني من ضعف شديد؛ لوقوعها تحت سيطرة المتغلبين من الأتراك أو الفرس[٢].

ولكن يمكن القول: إن مسألة الخلافة المغربية كانت في عهد المرابطين فكرة لم تختمر بعد، إلى أن جاء الموحدون وأخرجوها إلى حيز التنفيذ، فقد تلقب عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ – ٥٥٨ هـ / ١١٢٩ – ١١٦٢م) بلقب "أمير المؤمنين"، فتصرف بذلك كخليفة مستقل، غير أن المقصود بالخليفة هنا خليفة ابن تومرت(ت: ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م) الذي انفرد بالمهدوية كما انفرد بلقب "الإمام" بمعناه الشيعي المتميز[٣]. أما المرينيون فقد عادوا إلى استعمال لقب "أمير المسلمين" باستثناء بعض حكامهم الذين سمت نفوسهم إلى ألقاب الخلافة فتلقبوا بـ "أمير المؤمنين"، وهم أبو الربيع سليمان (٧٠٨ – ٧١٠ هـ / ١٣٠٨ – ١٣١٠م)[٤]، وأبو عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥٧م)[٥]، وأبو فارس عبد العزيز الثاني (٧٩٦ – ٧٩٩ هـ / ١٣٩٣ – ١٣٩٦م)[٦]، وأخيرًا أبو سعيد عثمان الثالث (٨٠٠ – ٨٢٣ هـ / ١٣٩٧ – ١٤٢٠م)[٧]. وأما الوطاسيون فقد اعترفوا بالسيادة الرمزية للخليفة العثماني، ونقشوا اسمه على السكة -- كما سبقت الإشارة- ، وعلى الرغم من أن هذه التبعية الرمزية لم تمس سيادة المغرب الداخلية أو الخارجية بشيء، إلا أنهم لم يتخذوا لقب "أمير المسلمين" أو "أمير المؤمنين" الذي سبق أن اتخذتهما الدول المغربية السابقة، واكتفوا بلقب "السلطان"[٨]، الذي كان قد اشتهر به

= بـ"أمير المسلمين". إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٦، ح١ من الصفحة نفسها. غير أن الظهير الذي أورده القلقشندي في صبحه – الذي سبقت الإشارة إليه- ينفي هذا الرأي.

(١) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ص ٢٧٨ – ٢٧٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٦.

(٢) عبد الله العمراني: المرجع السابق، ص ١١٨.

(٣) محمد القبلي: التموجات الدينية – الاجتماعية، ص ١٠٨؛ عبد الله العمراني: المرجع السابق، ص ١١٨؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(4) Lavoix, H., : Op. Cit., pp. 441 - 442.

(5) Bel, A., : Inscriptions Arabes de Fès, Paris, 1919, p. 256; Basset, H., et Provençal, E., L.,: Chella une Nécropole Mérinide, Paris, 1922, pp. 42 - 43: Horne, J.,: Many Days in Morocco, London, 1925, p. 73.

(6) Hazared, H.,: Op. Cit., pp. 223 - 225; Lavoix, H.,: Op. Cit., Tome II, pp. 454- 457.

(7) Hazared, H.,: Op. Cit., pp. 226 - 227.

(٨) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٧؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ١٧٣.

أبوالحسن المريني (٧٣١ – ٧٤٩ هـ / ١٣٣١ – ١٣٤٨م) لأول مرة بالمغرب[١]. أما بالنسبة لدولة الأشراف السعديين؛ فنجد أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن تلقب بعد مبايعته بـ "القائم بأمر الله"، لكنه لم يبادر باتخاذ ألقاب الخلافة بوصفه مؤسسًا للدولة التي تنتمي إلى الأشراف، وإن كان "القائم بأمر الله" يعد من ألقاب الخلافة التقليدية، وتبعه في ذلك أكبر أبنائه أحمد الأعرج، حيث اكتفى كل منهما بلقب "الأمير"[٢]، ربما مراعاةً للسلطان الوطاسي الذي كان يحكم بفاس، وانتظارًا للحصول على نفوذ سياسي أوسع. وبالطبع لم يلتفت أحدهما إلى الخلافة العثمانية التي كانت – بدون شك- تتبع أخبارهما عن طريق ولاة الجزائر، وربما اعتبرت هذه الخلافة أن النظام السعدي مجرد مظهر جديد من مظاهر التمزق في السلطة بالمغرب[٣].

بينما تلقب محمد الشيخ – عندما كان نائبًا بإقليم السوس عن أخيه أحمد الأعرج – بلقب "ملك سوس"[٤]، غير أنه بمجرد أن خلع أخاه، وتولى حكم المغرب اتخذ على الفور لقب الخلافة، وتلقب بـ "أمير المؤمنين"[٥]، كما تلقب محمد الشيخ أيضًا – الذي يعتبر أول من مارس الحكم حقيقةً من ملوك الدولة السعدية- بـ "الإمام"، وبـ "المهدي" بينما اكتفى الملوك السعديون بعده بمرتبة الخلافة، ولقب "أمير المؤمنين"، شأنهم في ذلك شأن كل من توارث الحكم من بين الموحدين عن ابن تومرت من قبل[٦].

وبالإضافة إلى ما ذكر من ألقاب عامة، فقد اتخذ ملوك دولة الأشراف السعديين ألقابًا خاصةً، كالمهدي[٧]، والغالب بالله،

---

(١) صالح محمد فياض أبو دياك: نظم الحكم والإدارة في دولة بني مرين (بني عبدالحق)، رسالة ماجستير، غير منشورة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٧م، ص ٣. يذكر بعض الباحثين أن يعقوب المنصور المريني (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ – ١٢٨٦م) هو أول من اتخذ لقب "السلطان" بالمغرب. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٩٩، ١٩٧.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٧.

(٣) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ١٧٣.

(٤) مارمول (كربخال، ألف كتابه بعد عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١م): إفريقيا، ترجمة د. محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ – ١٩٨٩م، الجزء الثاني، ص ص ٢٧، ٣٤.

(٥) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٢٧؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ١٧٤.

(٦) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٧) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٢١٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٩.

والمتوكل[١]، والناصر[٢] والمعتصم[٣]، والمنصور[٤]، والواثق[٥]، والمأمون[٦]، شأنهم في ذلك شأن الموحدين والمرينيين من قبلهم. كما حمل بعض الملوك السعديين ألقابًا لها دلالات خاصة مثل أبو العباس أحمد الذي عرف بـ "الأعرج" [٧]، كما عرف أيضًا بـ "المخلوع" لخلعه عن العرش على يد أخيه محمد المهدي[٨]، وعرف محمد المتوكل بـ "المسلوخ" لأن جلده سلخ وحشي تبنًا بعد موته في معركة وادي المخازن[٩]، وأحمد المنصور الذي عرف بـ "الذهبي" لكثرة الذهب الذي دره عليه فتح السودان الغربي سنة (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) حسب رأي بعض المؤرخين[١٠]، وإن كان يرجح أنه تلقب به إثر هزيمة البرتغال في معركة وادي المخازن سنة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م)، وتدفق ذهبهم على خزائنه لافتداء أسراهم، يؤكد ذلك أن مؤلف "ديوان قبائل سوس" حلاه بهذا اللقب في ديوانه هذا الذي ضمنه أخبار رحلة أحمد المنصور إلى سوس سنة (٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م) [١١].

مراحل تكوين دولة الأشراف السعديين:

استغرق حكم الأشراف السعديين للمغرب الأقصى مدةً تزيد على قرن ونصف من الزمان، أنفق الملوك الأوائل ربع قرن منها في تحرير الثغور المحتلة من أيدي الأيبيريين،

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٤٠؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٥٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٨.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٤١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٤؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ١١٤؛ المقري: المصدر السابق، ص ٣؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨٩.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٦٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٦.

(٦) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٨٣؛ المقري: المصدر السابق، ص ١٠٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٨٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٦.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٨، ٢١، ٢٨.

(٨) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٣.

(٩) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٤٠؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٥٧، ٧٥ – ٧٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٨.

(١٠) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٤.

(١١) الحساني (إبراهيم بن علي بن عبد الله، أواخر القرن (١٠ هـ / ١٦م): ديوان قبائل سوس "في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي"، تحقيق د. عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص ص ٣، ١١، ح٣، ص ١١.

والقضاء على أعوانهم الخونة من القبائل السوسية، والقضاء على حكم الوطاسيين والوحدات الانفصالية السياسية في البلاد، وإقرار النفوذ على مجموع التراب المغربي، ومحاولة بسط هذا النفوذ على الأقاليم الإسلامية المجاورة، وقد استغرقت هذه الأهداف المرحلة الأولى من تاريخ السعديين، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة التكوين والتأسيس، وقد امتدت من سنة (٩١٥ هـ / ١٥١٠م) إلى سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦م). وتلت هذه المرحلة فترة استقرار سياسي لم يكدرها سوى النزاع الذي قام على العرش بين المتوكل وعميه عبد الملك وأحمد، عاشت البلاد خلاله خمس سنوات من الاضطرابات والحروب، إلى أن عاد الاستقرار مع الانتصار في معركة وادي المخازن سنة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م) التي كانت بدايةً لفترة التألق والازدهار نعمت فيها البلاد بالأمن والرخاء، خاصةً بعد فتح السودان الغربي، وازدهار تجارة الذهب بين المغرب وبعض بلاد غرب أفريقيا، وهذه هي المرحلة الثانية من تاريخ السعديين، ويمكن أن نسميها بـ "مرحلة الازدهار والنهضة"، وامتدت من سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦م) إلى سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، وهي سنة وفاة أحمد المنصور، ومرة أخرى تسرب الضعف إلى البلاد، وتأزمت الأوضاع، واختل النظام، وعمت الفوضى، لكن الأزمة هذه المرة لم تكن عابرةً؛ فقد دام النزاع على العرش بين أبناء المنصور وأحفاده مدةً تزيد على نصف قرن، عانت فيها البلاد من اضطرابات وفتن خطيرة أطاحت بالدولة، وعصفت بوحدة المغرب واستقراره، وتهافت الأجانب من جديد على شواطئه، وقام عدة ثوار جدد أخذوا ينتقصون من أطرافه شيئًا فشيئًا، حتى انحصر النفوذ السعدي على مراكش وما حولها إلى أن سقطت الدولة، وانتقل الحكم إلى الأشراف العلويين، وهذه هي مرحلة التدهور والضعف التي تعد آخر مرحلة من تاريخ السعديين، وامتدت من سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) إلى سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨م)، وهو تاريخ زوال دولة الأشراف السعديين.

أولاً- مرحلة التكوين والتأسيس (٩١٥ – ٩٦٤ هـ / ١٥١٠ – ١٥٥٦م):

تعرضت السواحل المغربية منذ مطلع القرن (٩ هـ / ١٥م) إلى الغزو الأيبيري المتمثل في الحملات البرتغالية والإسبانية المتوالية لاحتلال المغرب وتطويق سواحله، حيث تضافرت عدة عوامل – سبق ذكرها- ساعدت على تنشيط هذه الأطماع. ولقد كان الاحتلال البرتغالي[1] أسبق زمنًا من نظيره الإسباني للشواطئ المغربية، وقد مر هذا الاحتلال البرتغالي

(١) كانت شبه الجزيرة الأيبيرية حينما افتتحها العرب وحدة جغرافيةً وسياسيةً واحدة، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر منهو في الشمال والمحيط في الجنوب، وبين نهر وادي يانة شرقًا والمحيط غربًا، وهي التي يطلق عليها اليوم "البرتغال" داخلة في نطاق الأندلس المسلمة، ومقسمة إلى عدة ولايات، ولم توضع أسس البرتغال الحديثة قبل أواخر القرن (٥ هـ / ١١م). انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ٣٩٥. وقد بدأ الغزو البرتغالي للمدن المغربية مبكرًا عن مثيله الإسباني، نظرًا لخروج العرب من القواعد البرتغالية منذ القرن (٧ هـ / ١٣م)، في حين ظل الوجود العربي بإسبانيا حتى سقوط غرناطة سنة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م)، فلم يكن هناك إذن ما يشغل البرتغال عن ممارسة غزوهم للشواطئ=

بمرحلتين، الأولى كانت في القرن (٩ هـ / ١٥ م)، وتركزت على الثغور الشمالية للمغرب، بينما تمت المرحلة الثانية في مطلع القرن (١٠ هـ/ ١٦ م)، وتركزت على الثغور الجنوبية. أما المرحلة الأولى فقد بدأت باحتلالهم لمدينة سبتة[1] عام (٨١٨ هـ / ١٤١٥م)، والقصر الصغير[2] سنة (٨٦٢هـ / ١٤٥٨م)، وأنفا[3] سنة (٨٧٤ هـ / ١٤٦٨م)، وأصيلا[4]، وطنجة[5] سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م)،

= الإفريقية القريبة من السواحل البرتغالية. محمد رزوق: صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ١٤٢.

(١) سبتة مدينة ساحلية في شمال المغرب تقع على شاطئ البحر التوسط، وهي عبارة عن شبه جزيرة في مضيق جبل طارق، حيث تحيط بها المياه من ثلاث جهات، وتحيط بها الجبال من الناحية الجنوبية. وهذا الوضع الجغرافي جعل اتجاهها واتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الموجودة فيه، ولهذا نجد أن مدينة سبتة في العصور الوسطى الإسلامية كانت تمتاز بطابع أندلسي في مظهرها وثقافتها بل وفي وضعها السياسي أيضًا. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج١، ص ص ١٠١ – ١٠٢؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٦ – ٣١٨.

(٢) القصر الصغير الذي يسمى أيضًا قصر المجاز وقصر مصمودة لوقوعه بين ظهرانيهم، عبارة عن مدينة صغيرة تقع على المحيط الأطلنطي بين مدينتي سبتة وطنجة، وينسبها المؤرخون إلى رابع خلفاء الدولة الموحدية يعقوب المنصور (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ – ١١٩٩م)، والغرض من تأسيسها هو إيجاد مكان صالح لعبور الجيوش المغربية إلى مدينة طريف في العدوة الأندلسية المقابلة. انظر، ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ج٣، ص ٢٧. ويوصف هذا القصر بالصغير تمييزًا له عن القصر الكبير المسمى أيضًا بقصر عبد الكريم أو قصر كتامة لوقوعه في وسط بلاد هذه القبيلة. محمد حجي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ج١، ص ٤٢٧.

(٣) أنفا تعرف حاليًا بالدار البيضاء، وهي مدينة كبيرة تقع على ساحل المحيط الأطلسي، وكانت هذه المدينة تنافس ثغر قادس البرتغالي، ونتج عن هذا التنافس التجاري أن دمرتها الأساطيل البرتغالية، وتمكنت من احتلالها سنة (٨٧٤ هـ / ١٤٦٨م)، وظلت تحت أيديهم إلى نهاية الدولة السعدية. انظر، ابن الخطيب: المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٦٤.

(٤) أصيلا (بضم الألف وفتح الصاد، أو بفتح الألف وكسر الصاد)، مدينة على ساحل المحيط الأطلنطي بالقرب من مضيق جبل طارق. وقد هجرها معظم سكانها إلى طنجة بعد الاحتلال البرتغالي لها، ولم تحرر إلا بعد أزيد من قرنين. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٤؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ١٥٠.

(٥) طنجة: مدينة مغربية قديمة تقع على المحيط الأطلنطي يفصلها عن أوربا مضيق جبل طارق. وبعد أن احتلها البرتغاليون في التاريخ المذكور ظلت بأيديهم ما يزيد عن قرنين، ثم تنازلوا عنها لإنجلترا عام (١٠٧٢ هـ / ١٦٦١م) كمهر قدمته كاترين دوبرا كانس شقيقة ملك البرتغال لزوجها شارل الثاني ملك إنجلترا. وقد استرد السلطان إسماعيل العلوي مدينة طنجة من إنجلترا عام (١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤م). محمد حجي: الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٨م، ج٧، ص ١٨٣.

ثم أوقفوا غزو الشواطئ المغربية إلى بداية القرن(١٠هـ / ١٦م)، وقد تمكنوا خلال هذه الفترة من اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة (٨٩٢ هـ/١٤٨٧م)، وهو الذي فتح لهم الطريق إلى الهند، ومكنهم من عقد علاقات تجارية مربحة مع شعوب الشرق الأوسط التي تخلت هكذا عن الوسطاء المسلمين والإيطاليين، وبعد ذلك شرع البرتغال في إنجاز المرحلة الثانية من احتلال الثغور المغربية، والتي تبدأ في فترة قريبة جدًا من قيام الدولة السعدية(١).

أما الإسبان فلم يحتلوا في القرن (٩ هـ / ١٥م) سوى منطقة ساحلية بأقصى الجنوب المغربي مقابلة لجزر الخالدات (جزر كناريا) بالمحيط الأطلسي(٢)، حيث انحصر اهتمامهم في تلك الفترة بتوحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى بيد المسلمين بها، خاصةً أن إسبانيا أصبحت خاضعةً لسلطة واحدة بعد زواج إيزابيلا ملكة قشتالة بفرديناند ملك أراغونة، وقد استطاعوا — كما سبقت الإشارة- سنة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) فتح غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس، واكتشاف العالم الجديد (القارة الأمريكية) الذي ساد الظن في أول الأمر بأنها الشواطئ الشرقية لبلاد الهند، فكان ذلك تفوقًا كبيرًا أحرزه الإسبانيون على منافسيهم البرتغاليين، الذين اهتموا بالمغرب اهتمامًا بالغًا(٣).

ونظرًا للنزاع الشديد والحروب التي دارت بين البرتغال وإسبانيا حول أحقية كل منهما في الاستيلاء على السواحل المغربية، عقدت معاهدة "Tordesillas" سنة (٨٩٩ هـ / ١٤٩٤م) تلتها معاهدة "Sintra" سنة (٩١٤ هـ / ١٥٠٩م) بين هاتين الدولتين المسيحيتين، لوضع حد للنزاع والخلاف بينهما، وتحديد مناطق المستعمرات الإفريقية لكل منهما، وبموجب ذلك أصبحت سواحل المغرب الجنوبية الممتدة بين رأس كانتان ونام من مناطق النفوذ البرتغالي، مقابل اعتراف البرتغال بمشروعية التوسع الإسباني في الجزء الشرقي من ساحل المغرب الشمالي الواقع بين بادس(٤) حتى غساسة(٥)،

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ١٤٩ — ١٥١.

(٢) محمد حجي: الحركة الفكرية: الجزء الأول، ج٤، ص ٤٠.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) بادس بكسر الدال، ويقال باديس، مدينة بشمال المغرب تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين مليلية وتطوان، وتقع أمامها جزيرة صغيرة تسمى باسمها يبلغ طولها ٣٦٠ مترًا وعرضها ١٠٠متر، وقد أصبحت حاليًا شبه جزيرة لاتصال إحدى جهاتها بالشاطئ المغربي. انظر، ابن الخطيب: المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٠ ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ج ٢٧٤، ص ٢٠٦ ؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ح ١٧، ص ٧٨.

(٥) غساسة: تقع هذه المدينة عند مصب نهر ملوية بالبحر المتوسط غرب مليلية، وقد عثر على بعض آثارها منذ فترة قريبة، وتعتبر من أقدم المدن الإسلامية بالمغرب، ولا يعرف بانيها على وجه الدقة، وإن كان من المرجح أنها بنيت في عهد الأمويين. وكانت ميناءًا مهمًا على شاطئ البحر المتوسط، وقد نزل بها أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر بعد سقوط غرناطة وخروجه من الأندلس. انظر، ابن الخطيب: المصدر=

ومليلية[١].

وبذلك بدأت مع مطلع القرن (١٠ هـ/ ١٦م) المرحلة الثانية من مراحل احتلال البرتغال للسواحل المغربية، وتضمنت الثغور الجنوبية، وبدأت باحتلالهم لمدينة مازكان "الجديدة[٢]" سنة (٩٠٨ هـ/ ١٥٠٢م)، ثم أكادير سنة (٩١١ هـ/ ١٥٠٥م) وأكوز "الصويرة"[٣] سنة (٩١٢ هـ/ ١٥٠٦م)، وآسفي[٤] سنة (٩١٣ هـ/ ١٥٠٧م)، ثم سبيت[٥] وتيط[٦] سنة (٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م)،

= السابق، ح ٣، ص ١١٤؛ أحمد المكناسي: المدن الإسلامية المندرسة في شمال المغرب، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ص ٢٩٧ – ٢٩٨؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٩٢.

(١) مليلية: مدينة عتيقة بشمال المغرب تقع على ساحل البحر المتوسط، لا تقل أهمية عن سبتة وطنجة، ولها شهرة تاريخية قديمة فقد انشأ بها الفينيقيون مركزًا بحريًا سموه بروسادر، وتقع بجوار منطقة غنية بمعادن الحديد. ويذكر أن اسم "مليلية" تحريف لـ "تامليت" الذي يعني في البربرية موقعًا ذا مدرجات؛ لأن المدينة بنيت على منحدر صخري. إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٢) مازكان (بكاف معقودة) أو البريجة، مدينة بجنوب المغرب وتقع على ساحل المحيط الأطلنطي على بعد ١٥كم جنوبي أزمور، لم تكن قبل سنة (٩٠٨ هـ/ ١٥٠٢م) سوى بقعة تملؤها الحشائش على الساحل الأطلسي، وبرج للمراقبة سماه العامة بـ"البريجة"، وبعد أن احتلها البرتغال في هذا التاريخ اهتموا بتشييدها وتحصينها، وقد عرفت هذه المدينة في العصر العلوي باسم "الجديدة". انظر، مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٨٥ – ٨٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١١٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٦٣، ١٥١.

(٣) أكوز (بكاف معقودة) مرسى أو مدينة مغربية تقع على مصب نهر تانسيفت، وقد عرفت فيما بعد بالصويرة، وكان بها رباط مشهور ذكره البكري. انظر، التادلي (أبو يعقوب يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات، ت: ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق د. أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص ٢٤، ح ١٠١، ص ٣٥٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ١٥٢ – ١٥٣.

(٤) آسفي: تقع هذه المدينة على ساحل المحيط الاطلنطي، وقد ضبطها البعض بالسين المفتوحة، والبعض الآخر بسكون السين. وقد ورد سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم في قصة الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة حينما نزلوا بهذا المكان وظنوا أنهم في بلدهم لشبونة. فلما علموا أن بينهم وبين مدينتهم مسيرة شهرين، قال زعيمهم: وا أسفي !! فسمي المكان إلى اليوم آسفي. التادلي: المصدر السابق، ح ٣٨، ص ٤١؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ح٢، ص ١٠٧.

(٥) سبيت (بضم السين، تصغير سبت)، تقع على نهر أم الربيع قريبًا من أزمور. إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٦) رباط تيط: يقع على بعد ١٥ كم جنوبي غربي مدينة الجديدة على ساحل المحيط الأطلنطي، يذكر أن وجوده سابق عن العهد المرابطي، فقد أسس في القرن الخامس الهجري على يد رجال بيت بني أمغار. ويسمى أيضًا تيطنفطر أي عين انفطر، ومعنى انفطر: إناء معروف من قديم يشبه المد الذي به تحسب=

وتمكنوا أخيراً من احتلال مدينة أزمور[١] سنة (٩١٩ هـ / ١٥١٣م)، ثم المعمورة[٢] "المهدية" سنة (٩٢١ هـ / ١٥١٥م)[٣]. أما الإسبان فقد استطاعوا في عام (٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) احتلال مدينة مليلية، ثم مدينة بادس عام (٩١٢ هـ / ١٥٠٧م)، باعتبارهما بداية المنطقة الشرقية التي قضى لهم بها في المعاهدة السالفة الذكر[٤].

وقد أحدث هذا الاحتلال الأيبيري للسواحل المغربية رد فعل قوي داخل البلاد، فظهرت حركات تزعمها العلماء ومتصوفة الزوايا، تدعو إلى الجهاد وحمل السلاح لتحرير الأراضي المغتصبة، وأصبح أمر السلطات القائمة بالبلاد – المتمثلة في الوطاسيين آنذاك- يتوقف على مدى استجابتها لهذا النداء. لكن الوطاسيين لم يوفقوا في ذلك لعدة عوامل أهمها عدم إدخال تطوير يذكر على خططهم العسكرية أو أسلحتهم التي ظلت دون أسلحة أعدائهم

= زكاة الفطر، ويعمل فيه ثقب في أسفله ويوضع في منبع العين ليحسب به توزيع الماء للسقي بين المستفيدين بوحدات قدر كل منها قدر ما يستغرقه امتلاء الإناء من الثقب الأسفل. ولكن غالبًا ما اقتصر على تسميته بتيط ومعناها العين. التادلي: المصدر السابق، ح ٤٦٢، ص ٢٠٩؛ الصومعي (أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز التادلي، ت: ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤م): المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير – جامعة ابن زهر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م، ح ٣٩٠، ص ١٧٦.

(١) أزمور: تقع هذه المدينة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع عند مصبه في المحيط الأطلنطي، تبعد ٨٠ كم عن الدار البيضاء من جهة الجنوب، و ١٧ كم عن الجديدة من جهة الشمال. وهي إحدى المدن المغربية العتيقة، لكن تاريخها قبل الإسلام لا يعرف بوضوح، وقد ذكر أن أمراء صنهاجة أسسوها عندما استقر البربر بالمغرب، واصل الكلمة أمازيغي، ومعناها زيتونة برية. وقد كان لها بعد الفتح الإسلامي شأن في العلم والدين والسياسة والعمران، لكنها تقهقرت عندما استولى عليها البرتغال سنة ٩١٩ هـ، وبعد جلائهم عنها سنة ٩٤٨ هـ لم تعد لسابق عهدها في الحضارة والعمران سيما بعد تأسيس الدار البيضاء في شمالها والجديدة في جنوبها، وهي الآن مدينة متوسطة يغلب على نشاط سكانها الاشتغال بالزراعة والتجارة. الجزنائي: المصدر السابق، ح ٧٧، ص ٣٢؛ ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح ٤٠٦، ص ٢٠٩.

(٢) المعمورة تعرف اليوم بالمهدية، وهي واقعة على الضفة الجنوبية لنهر سبو عند مصبه في المحيط الأطلنطي على بعد ٤٠ كم إلى الشمال من الرباط، وهي قرية عتيقة حلت محل مستعمرة قرطاجنية ولما جاء الإسلام انتعشت لا سيما في أيام الدولتين المرابطية والموحدية حيث أنشئت على ضفة الوادي الملاصقة لها دور لصناعة السفن التجارية والحربية، وفي سنة ٩٢١ هـ احتلها البرتغال لكنهم طردوا منها بعد مدة وجيزة، ثم استولى عليها الإسبان سنة ١٠٢١ هـ، وظلوا بها إلى أن طردهم منها السلطان إسماعيل بن الشريف العلوي سنة (١٠٩٢ هـ / ١٦٨١م)، وفتح مرساها للتجارة مع الخارج، ولكن شأنها بدأ يضعف إلى أن انتعشت قليلاً في بداية القرن العشرين، ثم ضعفت نهائيًا عند إنشاء مرسى القنيطرة. الجزنائي: المصدر السابق، ح ٩٤، ص ٣٩.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٠٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٠ – ١٢، ٤١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٤) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ح٤، ص ٤٠؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٨.

الأجانب كمًا وكيفًا، فضلاً عن افتقارهم إلى جيش كبير منظم[١].

ولما خاب الظن فيهم، وبرزت وحدات سياسية جديدة آنذاك خاصةً تلك التي قامت في شمال المغرب كبنو راشد بشفشاون وبنو المنظري في تطوان، اتجهت أنظار المغاربة إليها، غير أن أي منها لم تكن أهلاً للقيام بهذا الدور العظيم، حيث انحصر اهتمام هذه الوحدات السياسية في النظر إلى مصالحها الخاصة قبل أي اعتبار آخر[٢].

أما بالنسبة لبلاد السوس بجنوب المغرب فقد كانت -- كما سبقت الإشارة- موكولةً إلى نفسها، ولا يوجد أثر للسلطة الوطاسية فيها، ولم يبرز من بين رؤساء القبائل من يستطيع فرض سلطته على المنطقة كلها، غير أن حركة التصوف العميقة الجذور في البلاد منذ قرون وجدت في تلك الظروف السياسية الصعبة بيئة صالحة لنموها وانتشارها، فظهر على مسرح الأحداث رجال وأعوان من بين شيوخ الزوايا لعبوا أدوارًا حاسمةً في حل المشاكل القائمة[٣].

وإذا علمنا أن بلاد السوس كانت المقر الأول للطريقة الجزولية[٤] التي عمت شهرتها كل بلاد المغرب، والتي كان لها أثر كبير في نشر حركة دينية ببلاد السوس بوجهٍ خاص، أدركنا مدى الدور الذي سيقوم به الأئمة والشيوخ الذين ينتمون إلى هذه الطريقة من حيث دعوة الناس إلى الجهاد، كما جاء على لسان إمامها ابن سليمان الجزولي: "إن دولتنا دولة المجتهدين المجاهدين في سبيل الله"[٥].

وقد تبلور نشاط هؤلاء الشيوخ في حركة سياسية عملت على تغيير الوضع القائم عن طريق إقامة حكومة جديدة محكمة الجهاز تستطيع أن توحد الصفوف، وتقوم بأعمال الجهاد والدفاع عن البلاد ضد الخطر المسيحي، خاصةً بعد أن تأكد لهم عدم جدوى المقاومة الشعبية غير المنظمة والمناوشات التي لم تستطع ردع المسيحيين، وبرزت في هذا الميدان أربع زوايا: زاوية

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٣؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ١٧٧.

(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر، عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٣ — ٣٤.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٠؛ محمد الفاسي: سوس عند الجغرافيين والمؤرخين قديمًا وحديثًا، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثالث والعشرون، السنة التاسعة، مطبعة فضالة، المحمدية، مارس ١٩٨٢م، ص ١٥.

(٤) نسبةً إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن أبي بكر السملالي الجزولي، من جزولة إحدى قبائل سوس الكبيرة التي أنجبت العديد من الشخصيات الفكرية والدينية، وهو من كبار شيوخ الصوفية بالمغرب، تُوُفِّيَ مسمومًا بأفوغال سنة ٨٦٩ هـ أو سنة ٨٧٠ هـ، ثم نقل رفاته السلطان السعدي أحمد الأعرج إلى مراكش حوالي عام ٩٣٠ هـ. ومن أهم مؤلفاته: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، وحزب الفلاح وحزب سبحان الدائم لا يزول. انظر، الصومعي: المصدر السابق، ص ص ٢٦٨ — ٢٧٤، ح ١، ص ٢٦٨؛ حسن جلاب: المرجع السابق، ص ص ٢٣ — ٥٠.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٥ — ٣٦.

مدغرة[١] في تافيلالت، وزاوية تكمادرت بدرعة، حيث تربى أحمد ومحمد ابنا محمد بن عبد الرحمن مؤسس الدولة السعدية، فقد نشر شيخ هاتين الزاويتين عبد الله بن عمر المدغري (ت: حوالي ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢م) فضائل الأسرة الزيدانية الشريفة في المناطق الصحراوية، وقام في سبيل ذلك برحلة طويلة دخل أثناءها إلى بلاد السوس باثًا دعوته بين شيوخها الذين تربطهم به أواصر الطريقة الشاذلية، وتزعمت هذه الحركة في بلاد جزولة زاوية تيدسي[٢] قرب تارودانت وزاوية أقا[٣] فيما يلي الصحراء الكبرى[٤].

وقد زاد من شدة الحاجة إلى وجود مثل هذه الحكومة، مشكلة فراغ الحكم التي طرحت نفسها في هذه المنطقة أمام الهجوم البرتغالي المتصاعد الذي كان يرفض التفاوض مع شيوخ الزوايا لعدم وجود أمير سياسي بينهم، إذ تروي المصادر أن الشيخ بركات بن محمد التيدسي (ت: بعد ٩١٧ هـ / ١٥١١م) توسط في فداء بعض الأسرى والمفاوضة على عدم احتجازهم، فامتنع البرتغاليون، وقالوا له: "حتى يكون لكم أمير، فإن ملككم ذهب واضمحل"[٥]. وحدث الشيء نفسه مع الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي (ت: ٩٢٤ هـ / ١٥١٨م) الذي كان يحرض المجاهدين في سواحل أقصى الجنوب على مدافعة المسيحيين المغيرين[٦].

لذلك اتجهت أنظار بعض القبائل السوسية إلى أي من هذين الشيخين، التيدسي

---

(١) مدغرة: اسم قبيلة كبرى من قبائل البربر البتر، انتشر أفرادها في أقطار المغرب الثلاثة، واستقر معظمهم بتافيلالت وضواحي تلمسان. وللتمييز بين هؤلاء وأولئك، كتب النسابون مدغرة للدلالة على من سكن المغرب الأقصى منهم، ومطغرة "بالطاء" للمقيمين بالمغرب الأوسط. وتقع قصور (قرى) مدغرة بأعلى تافيلالت بين قصر السوق ومسكي في طريق أرفود، لا تبعد عن أطلال مدينة سجلماسة إلا بنحو سبعين كيلو مترًا. محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٢٠.

(٢) تيدسي: اسم لموضعين أحدهما بدرعة قرب تاكمادارت الموطن الأول للسعديين، أما تيدسي الأخرى فتوجد بسهل سوس جنوب تارودانت وعلى بعد ٦كم من مركز أولاد التايمة بهوارة وتعرف الآن بأم جريد، وكان قد بويع فيها محمد القائم السعدي، وتعتبر تيدسي وتارودانت عاصمتين قديمتين للدولة السعدية. انظر، الحساني: المصدر السابق، ح ١٢٦، ص ٢٧؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٧ – ٣٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨.

(٣) أقا اسم لأحد روافد نهر درعة، ينبع من وسط الأطلس الصغير وتقوم على ضفاف مجراه الأسفل قرى غلب عليها اسم أقا. وقد ورثت هذه القرى أمجاد جارتها مدينة تمدولت – أكبر مدينة في جنوب سوس تأسست في أوائل القرن (٣ هـ / ٩م) على يد عبد الله بن إدريس- المندثرة في أواخر القرن (٨ هـ / ١٤م)، وزاد من أهمية أقا وقوعها على طريق القوافل التجارية الرابطة بين تمبكتو ومراكش (خريطة ٢). محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦١٤.

(٤) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ٤٢.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٧.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٢.

والأقاوي، وعرضت عليهما الإمارة لما يتمتع به كل منهما من قوة النفوذ إلى جانب التبجيل والاحترام[١]، ولرغبة رؤساء القبائل الملحة في إسناد السلطة إلى أحد السوسيين، فامتنع الشيخان، وأجمعا على اختيار شريف من آل البيت يكون فوق العصبيات والأحلاف القبلية ويحظى بالاحترام لدى الجميع؛ ليقود حركة الجهاد وطرد المحتلين، فكان أن وقع الاختيار على شريف درعة محمد بن عبد الرحمن، نظرًا لشجاعته وكفاءته في قيادة المجاهدين، ولنسبه القرشي، فبايعه شيوخ الزوايا ورؤساء المصامدة وعامة السوسيين سنة (٩١٥ هـ / ١٥١٠م)؛ فتلقب بـ "القائم بأمر الله"، وتولى على الفور مقاومة الاحتلال البرتغالي، متخذًا من قرية تيدسي أول عاصمة لدولة الأشراف السعديين[٢].

محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله (٩١٥ – ٩٢٣ هـ / ١٥١٠ – ١٥١٧م).

لم تستند دولة الأشراف السعديين عند قيامها على قوة عسكرية أو اقتصادية تساعدها على الصمود أمام أعدائها من المحتلين الأجانب، أو الحكام الوطاسيين بالداخل، ولتدبير هذه المتطلبات عرض محمد القائم على القبائل التي بايعته أن تمده كل قبيلة منها بعشرة رجال من أبنائها مجهزين بكامل الأسلحة والعتاد، فأصبح لديه فرقة من الفرسان بلغ عددها في بداية الأمر خمسمائة رجل، أخذت تتزايد مع الأيام لكثرة الراغبين في الجهاد ومقاتلة العدو[٣]. ولتوفير المال اللازم لتمويل العمليات الجهادية استخلص من منطقة نفوذه الزكوات والأعشار والخراج، واستحدث ضريبةً نقديةً سماها "النائبة"[٤] كانت في بداية الأمر عبارة عن بيضة واحدة لكل "كانون"[٥]، ثم استبدلت بدرهم، واستمر العمل بهذه الضريبة في عهود خلفائه من

---

(١) عن المكانة العظيمة التي يتمتع بها كل من هذين الشيخين بين القبائل السوسية، انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٤٤ – ١٤٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١١ – ١٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٧ – ٨.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١١- ١٢، ١٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٧ – ٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٤٢- ٤٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص٣٧ – ٣٩؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٤٥ – ٤٦؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ص ٤٩- ٥١؛ محمد زنيبر: المرجع السابق، ص ص ١٢٩ – ١٣٠.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٩ – ٤٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٤) النائبة أوالنايبة، كما تسمى في الدارجة المغربية، عبارة عن ضريبة استعملها السعديون فيما فرضوه على رعاياهم، وكانت أول "نائبة" فرضت سنة (٩١٦ هـ / ١٥١٠م) بيضة واحدة لكل "كانون" ثم استبدلت بدرهم، وتطورت بعد ذلك إلى أن صارت مبالغ كبيرة في أواخر عهد محمد المهدي الشيخ، وقد بقي المصطلح مستعملاً في العصر العلوي. الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٣٩ – ٤٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣١؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ح ٩، ص ٤٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ح ٢٤، ص ٤٦.

(٥) الكانون أو الكانونة، جمع كوانين، وحدة جبائية تطلق على مجموعة من الأشخاص الساكنين في محل=

بعده[١].

فبذلك استطاع محمد القائم أن يجمع حوله المجاهدين، وأن ينفق على متطلبات الجهاد ضد المحتلين بإقليم السوس، فقاد من تيدسي حملة منظمة هاجمت البرتغاليين بشاطئ أكادير واستولت على حصن فونتي[٢]، وأجلتهم منه لأول مرة في تاريخ المنطقة، فاستبشر الناس بذلك خيراً، وعدوه من يمن الدولة الناشئة، وقد وطد هذا الانتصار شعبية محمد القائم بإقليم السوس مما جعله يطلب من القبائل مبايعة أكبر ولديه أحمد الأعرج لولاية العهد، فتم له ذلك بتيدسي سنة (٩١٨ هـ / ١٥١٣م)، وعلى إثر هذا الانتصار أيضاً هبت قبائل حاحة والشياظمة بالأطلس الكبير إلى الدخول تحت طاعته مستنجدة به لتحرير شواطئها المحتلة كاكوز وآسفي، وطلبوا منه الانتقال إليهم هو وولده ولي العهد المذكور[٣].

انتهز محمد القائم هذه الفرصة فنظم شئون الجنوب، وترك ابنه الأصغر محمد أمغار - الذي سيلقب فيما بعد بالمهدي - نائباً عنه في سوس، ثم توجه قاطعاً جبال الأطلس بصحبة ابنه الأكبر أحمد الأعرج وطائفة من المقاتلين إلى أن استقر بقرية تسمى أفوغال[٤] مقر ضريح الإمام محمد بن سليمان الجزولي، ومن ثم أخذ ينظم شئون البلاد، ويجهز الكتائب للإغارة على آسفي إلى أن تُوُفِّيَ عام (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) فدفنه نجله أحمد الأعرج - الذي خلفه في الحكم- بضريح الإمام الجزولي، ثم نقل رفاته ورفاة الإمام المذكور إلى

= واحد، أي وحدة عائلية (أسرة) توزع عليها المهام داخل القبيلة، وعلى أساسها توزع أيضاً مختلف التكاليف والضرائب، ويتراوح عدد الأشخاص في الكانون الواحد ما بين خمسة إلى ستة أشخاص. انظر، الحساني: المصدر السابق، ص ١٤، ح ٢٢ من الصفحة نفسها. ويطلق مصطلح الكانون أو الكانونة أيضاً على الموقدة، وهو لا يزال معروفاً حتى الآن في الريف المصري. سامي محمد نوار: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ١٤٦.

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٣٩ - ٤٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٦؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٢) شيد هذا الحصن على يد البرتغالي "خواولوبيز Joao Lopez" سنة (٩١١ هـ / ١٥٠٥م) بعد أن استولى البرتغال على أكادير، وقد سموه بفونتي "Fonti" أي العين حيث كانت توجد عين ماء بقرب أكادير، كما عرف أيضاً بـ "سانتا كروزSanta Cruz " أي الصليب المقدس. إبراهيم حركات: المرجع السابق ص ص ١٥٢، ح١٨، ص ٣٠٢.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٦ - ١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٢ - ١٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٣؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٧؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) أفوغال: قرية تقع قرب شيشاوة على بعد ٣٥ كم من الصويرة بين مراكش وآسفي. عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ح١٣، ص ٤٩؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ح٥، ص ٤٣.

مراكش حوالي عام (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م)[١].

أبو العباس أحمد الأعرج (٩٢٣ - ٩٤٦ هـ / ١٥١٧ - ١٥٤٠م).

كان لملازمة أحمد الأعرج لوالده، بصفته وليًا للعهد، وقيامه بالنيابة عنه في تدبير شئون البلاد أحيانًا، عظيم الأثر في تهيئته تهيئةً صالحةً للملك، كما أن الحملات الناجحة التي شنها مع والده على البرتغال تركت صدًى طيبًا في نفوس قبائل الجنوب، وجعلتهم يخضعون بصفة تلقائية للحكم السعدي، ويبادرون للتطوع في صفوفه ومساعدته بالهبات السخية[٢]، فتزايد نتيجةً لذلك عدد جيش أحمد الأعرج، وتوفرت لديه الإمكانات المادية لتسليحه، غير أن هذا السلطان لم يكتف بذلك، بل سعى إلى توفير موارد ثابتة تمكنه من توطيد أقدامه، وتساعده على تطوير موارده الاقتصادية، فقام باستغلال موارد البلاد الزراعية والتجارية؛ للحصول على الأموال، وباشر سياسة التعامل مع التجار الأجانب من غير البرتغاليين منذ الأيام الأولى لتوليته؛ حيث أبرم مع عدد من التجار القشتاليين اتفاقًا يقضي باحتكار سكر[٣] سوس مقابل مبلغ من المال، وزاد من تحسين الموقف المالي لأحمد الأعرج سيطرته على مدينتين هامتين ببلاد السوس، هما: تارودانت سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٥م)[٤]، وماسة[٥].

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٦ - ١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٢ - ١٥؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٣؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٤٨؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ٤٩ - ٥٠.

(٣) اشتهر المغرب الأقصى منذ عدة قرون بزراعة قصب السكر وتصفيته،وكان يزرع في المنطقة الساحلية الممتدة من سبتة في الشمال إلى أقصى إقليم السوس في الجنوب، وقد اشتهر هذا الإقليم الأخير بجودة السكر المستخرج منه لذا كان يصدر إلى بلدان كثيرة من العالم. ويمكن القول: إن تجارة السكر ساعدت المغرب الأقصى منذ زمن بعيد وبخاصة في أواخر القرن (١٠ هـ / ١٦م) على أن يتوفر على قوة اقتصادية وسياسية كبيرة، حتى يعد إهمال خلفاء أحمد المنصور الذهبي (ت: ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) لهذه الزراعة والصناعة القائمة عليها، وظهور منافسين للمغرب في هذا المجال كالعديد من دول القارة الأمريكية بعد اكتشافها، من العوامل التي ساعدت على انهيار الاقتصاد السعدي والتعجيل بنهاية هذه الدولة. انظر، بول برتي: زراعة قصب السكر وتصفية السكر في المغرب القديم، ترجمة فتح الله ولعلو، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الأول، الرباط - المغرب، يناير ١٩٦٤م، ص ص ١٣٧ - ١٤١؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ١٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢٧٨، ٢٨٦ - ٢٨٨؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق،ح ٣٧، ص ٩٢.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١١٨؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٤٥ - ٤٦؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٥) ماسة: اسم لمدينة عتيقة اندثرت اليوم كانت تقع جنوب أكادير من إقليم سوس، ولم يبق يذكر بها إلا النهر المسمى باسمها والمنحدر إليها من الجبال الواقعة إلى الجنوب وإلى الشرق منها، وعلى مصب هذا=

وقد استغل أحمد الأعرج هذه الموارد في اتجاهين: أولهما الرغبة الأكيدة في القيام بأعمال الجهاد؛ لتحرير سواحل بلاد السوس من الاحتلال البرتغالي، وثانيهما يقوم على السيطرة، وبسط النفوذ على مجموع المغرب الأقصى. ولتحقيق الاتجاه الأول لجأ إلى منع كل تعامل مع مراكز الاحتلال البرتغالي، ومعاقبة كل من يحاول الخروج عن ذلك من قبائل سوس، ولكي يعزز هذه المقاطعة عمد إلى عزل هذه المراكز عن بعضها، وتضييق الخناق عليها، فقام بالاستيلاء على مدينة "تفتنة" التي كانت تشرف على طريق المواصلات مع حصن سانتا كروز، كما احتل "تاركوكو" الواقعة في الشمال الشرقي لحصن سانتا كروز، واتخذ من "أزرو" - وهي قصبة لا تبعد إلا بثلاثة أميال عن هذا الحصن — مقرًا لقواته المحاربة، وهكذا اشتد الحصار على حصن سانتا كروز أهم قواعد البرتغال في ساحل سوس، ولقد حاول الحاكم البرتغالي لهذا الحصن فك هذا الحصار، لكنه لم يتمكن من ذلك، فاضطر إلى طلب النجدة من حكومته في لشبونة، وذلك للمرة الأولى في تاريخ الاحتلال البرتغالي بسواحل بلاد سوس[١].

ورغم كل هذه الجهود لم يستطع أحمد الأعرج أن يستولي على هذا الحصن، لكنه استطاع أن يشن عدة حملات على مدينة آسفي أسفرت عن مقتل حليف البرتغال الخائن يحيى بن تعفوفت، وهزيمة جيش البرتغال الذي تراجعت فلوله إلى آسفي متحصنةً بالأسوار سنة (٩٢٧ هـ / ١٥٢١م)[٢]، إلى أن استطاع أن يفتحها نهائيًا سنة (٩٣٣ هـ / ١٥٣٠م)[٣] وقد ترتب على هذا الانتصار عدة نتائج على الجانبين البرتغالي والمغربي، فبالنسبة للبرتغاليين التخلي عن سياسة التوسع واستبدالها بسياسة الجلاء عن بعض الموانئ التي يصعب الاحتفاظ بها، ومن الجانب المغربي بادر المراكشيون وأميرهم ناصر بوشنتوف الهنتاتي إلى الدخول في طاعة الأمير المنتصر، وذلك عام (٩٣٠ هـ / ١٥٢٧م)[٤]، وبانتقال أحمد الأعرج إلى مراكش واتخاذها

= النهر بالمحيط الأطلنطي يوجد رباط مقدس يسميه السكان سيدي رباط، ولعله يوجد في المكان الذي كانت توجد فيه مدينة ماسة (خريطة ٢). انظر، الجزنائي: المصدر السابق، ح٢٠، ص ٨.

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٤٦ — ٤٧.

(٢) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٨٢ — ٨٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٣. وعن الدور الذي لعبه يحيى بن تعفوفت مع البرتغال، انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٨ — ٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٤٩؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ٤٥ — ٤٦.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ١٥. وذهبت بعض الآراء إلى أن أحمد الأعرج دخل مراكش عنوة وقتل أميرها الهنتاتي المذكور. حول هذه الآراء، انظر، الناصري: المصدر نفسه، الجزء الخامس، ص ١١؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ح ١٨، ص ٥٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٩.

مقرًا له بدأت السلطة السعدية تأخذ في الاستقرار والتمكن، وأخذ أحمد الأعرج يفكر جديًا في تحقيق الاتجاه الثاني، وهو - حيد المغرب الأقصى تحت النفوذ السعدي؛ مما جعله يصطدم بالسلطة الوطاسية بفاس.

لقد كانت تربط السلطة الوطاسية وإمارة السعديين الناشئة في بداية الأمر علاقات طيبة؛ لاتحاد وجهة نظرهما في ضرورة التعاون لمناهضة المسيحيين المحتلين، لا سيما في المناطق النائية عن فاس التي لا تصل إليها كتائب الجهاد الوطاسية[١]. بل ونص بعض المؤرخين على أن الوطاسيين كانوا يمدون الأشراف السعديين آنذاك بالمال والعتاد الحربي اللازم لعمليات الجهاد[٢]. ولكن ما إن دخل أحمد الأعرج مدينة مراكش واتخذها مقرًا له، حتى شعر الوطاسيون بخطر الحركة السعدية عليهم، فأعلنوا الحرب على السعديين، ولكي يتجنب الأمير السعدي الاصطدام بالوطاسيين اعترف بسيادتهم الاسمية حتى يقوى أنصاره، ويتم تدبير خطته[٣].

لم يقبل الوطاسيون هذا الوضع الجديد، فخرجوا بجيش كثيف حاصروا به مراكش، لكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها أمام المقاومة الشديدة التي قابلوها من السعديين وسكان هذه المدينة فتخلوا عن حصارها[٤]. إلا أنهم أعادوا الكرة مرةً أخرى فاشتبكوا مع السعديين في معركة أنماي قرب مراكش، لكن هذه المعركة توقفت بتدخل العلماء والصلحاء بين الطرفين، وانتهت بتوقيع اتفاق صلح[٥]، يقضي بسيادة الوطاسيين على المناطق الممتدة من تادلة[٦] إلى المغرب الشرقي، وبسيادة السعديين على المناطق الواقعة جنوب تادلة، وتم العمل بهذا الاتفاق ابتداءً من سنة (٩٣٥ هـ / ١٥٣٢م)[٧]. وقد استغل السعديون هذه الهدنة لتنظيم دولتهم، واستقطاب رؤساء الزوايا الجزولية، وجعلهم إلى جانبهم، فنظموا جيشهم وجهزوه

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٨ - ٩.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٤ - ٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٠.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٩؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٦؛ عبدالكريم كريم: المرجع السابق، ص ٥١.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩ - ٢٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٥٠.

(٦) "تادلة" بالتاء أو "تادلا" بالألف المقصورة، اسم إقليم شهير بوسط المغرب، قاعدته قصبة تادلة الواقعة على نهر أم الربيع جنوبي خنيفرة وشمالي بني ملال، وقد لعب هذا الإقليم دورًا كبيرًا في تاريخ المغرب، إذ كانت تمر به الطريق الرابطة بين فاس ومراكش، وبين الشمال والجنوب عبر جبال الأطلس المتوسط. الجزنائي: المصدر السابق، ح٣٥، ص ١٣؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ح ٢٣، ص ٢١.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٦؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ٤٩.

بالمدافع والأسلحة النارية[١].

غير أن هذه الهدنة لم تدم طويلاً، ففي سنة (٩٤٣ هـ / ١٥٣٦م) حدث اشتباك بين الطرفين من جديد قرب مشرع أبي عقبة على ضفاف وادي العبيد بمنطقة تادلة، فانهزم الوطاسيون، وكان ضمن من قتل في صفوفهم أبو عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة الذي انضم مع مهاجري الأندلس للسلطة الوطاسية التي آوتهم، وأذنت لهم بالاستقرار، فحاربوا معها ضد السعديين والمحتلين الأيبيريين أيضًا[٢]، وللمرة الثانية تدخل العلماء والصلحاء فتوسطوا بين الجانبين المتحاربين، وتم الاتفاق على تقسيم المغرب إلى شمال للوطاسيين، وجنوب للسعديين على أن تكون تادلة منطقة حدود بينهما[٣].

ورغم ما بذله أحمد الأعرج من جهود فإنه لم يستطع توحيد المغرب تحت السلطة السعدية، وظل نجاحه محدودًا بسبب مناوشة الوطاسيين له؛ لذا فقد اتهمه أخوه الأصغر محمد الشيخ – الذي كان يباشر شئون الدولة نيابة عن الأعرج بمنطقة سوس- بالعجز والفشل في حل مشاكل الدولة الناشئة، فدبت الخصومة بينهما، وسرعان ما تحولت إلى نزاع مسلح بفعل الوشاة الذين دبوا بينهما بالسعايات والأقاويل؛ فاقتحم محمد الشيخ مراكش، وأعلن خلع أخيه أحمد الأعرج سنة(٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م)، وأودعه السجن هو وسائر أسرته، ليباشر بنفسه قطع المراحل الباقية في تمهيد البلاد، وظل أحمد الأعرج في سجنه إلى أن اغتيل سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦م) في السنة نفسها التي اغتيل فيها محمد الشيخ كما سيأتي[٤].

محمد المهدي الشيخ (٩٤٦ - ٩٦٤ هـ / ١٥٣٩ - ١٥٥٦م):

على الرغم من الدور العظيم الذي قام به كل من محمد القائم ونجله أحمد الأعرج في قيام الدولة السعدية، من حيث إعداد القبائل بسوس ودرعة وغيرها للاعتراف بالدولة الجديدة، والدخول في طاعتها، وتنظيم أولي للإدارة والجيش، وتوفير الموارد اللازمة للإنفاق عليه، وإعلان الحرب ضد البرتغال، والحصول على نتائج ملموسة[٥] فإنه يمكننا القول – بشيء من الاطمئنان- أن محمد المهدي هو المؤسس الفعلي لدولة الأشراف السعديين، حيث قام

---

(١) الصومعي: المصدر السابق، ص ٤.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٢؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص ١٥٨؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ١٧١.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢١ – ٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٥٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٥.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢١ – ٢٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٧ – ١٨؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٥٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٥؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٠.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٥٩ – ٦٠.

بتنظيم جديد للبلاط السعدي[١]، وسعى إلى اتخاذ الخطوات العملية للقضاء على السلطة الوطاسية، وتثبيت قواعد الدولة الجديدة التي أرساها كل من والده وأخوه منذ عام (٩١٥ هـ / ١٥١٠م).

لم يستقر محمد المهدي بمراكش بعد أن دخلها مباشرةً سنة (٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م)، وإنما ظل بتارودانت التي اتخذها مقرًا له منذ سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٥م)، فأصبحت العاصمة السعدية الثانية بعد تيدسي[٢]، ومن هناك تفرغ لجهاد البرتغال الذين تمكنوا من استعادة حصن فونتي سنة (٩٤٠ هـ / ١٥٣٣م) بعد تحريره أول مرة على يد محمد القائم، كما سبقت الإشارة، وقد تمكن بالفعل من استرجاعه سنة (٩٤٧ هـ / ١٥٤٢م) ثم هدم هذا الحصن، وشيد على أنقاضه ميناءً، وفتحه في وجه التجار الأوربيين[٣]. وقد كان لهذا الانتصار أثر عميق ليس في نفوس المغاربة فحسب – الذين رأوا في محمد المهدي بطل الجهاد، ومنقذ البلاد من خطر الغزو المسيحي- بل حتى في البرتغال التي بدأت من هذا التاريخ في التخلي عن مراكزها بالمغرب واحدًا إثر الآخر؛ إذ آمر الملك "جان الثالث" حاميات آسفي وأزمور بالجلاء فورًا عن هاتين القاعدتين، ولم يحتفظوا من سواحل سوس إلا بقاعدة مازكان التي زادوا في تحصينها لاتخاذها مركزًا لمواجهة التوسع السعدي[٤]. وقد حاول محمد المهدي تحرير هذه المدينة، غير أن الضغط التركي على حدود المغرب الشرقية اضطره إلى مهادنة القوات البرتغالية والإسبانية لمواجهة التدخل العثماني بالمغرب[٥].

أدى انشغال محمد المهدي بقتال البرتغال في الجنوب لتحرير سواحل سوس، وابتعاده عن مراكش، إلى أن جعل أهل هذه المدينة يترددون فيما بين مبايعة السعديين والتبعية للوطاسيين بعد أن انتهت إمارة هنتاتة، مما جعله ينتقل إلى مراكش نهائيًا سنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م) وجعلها مقرًا لدولته التي تدين لها بالطاعة كل البلاد الجنوبية من المغرب، وبذلك

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٢٤ – ٢٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٩، ٣٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٩.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١١٨؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٢٧ – ٢٨؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٨٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٠٥.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٤١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٥٢؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٤٦؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٥.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٨٥ – ٨٦؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٦٣ – ٦٤.

(٥) محمد رزوق: الجهاد البحري في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ١٢٣.

وضع حداً لتردد سكان هذه المدينة، أما الجزء الشمالي للمغرب فقد كان فريسةً للفتن والانقسامات مع نفوذ ضعيف للوطاسيين الذين انحصرت رقعة دولتهم في فاس وما حولها[١]. فرأى محمد المهدي أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على بقية بلاد المغرب، وإسقاط السلطة الوطاسية الضعيفة.

استغرقت هذه المرحلة عشر سنوات، تمكن المهدي خلالها بمعاونة ابنيه القائدين محمد الحران وعبد القادر، ومساندة الشيوخ الشاذلية من القضاء على نفوذ الوطاسيين، وتوحيد المغرب تحت النفوذ السعدي[٢]، وقد بدأت فتوحاته في الشمال بالاستيلاء على مكناسة سنة (٩٥٥ هـ / ١٥٤٨م) [٣]، ثم هاجم مدينة فاس ودخلها سنة (٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م)، وألقى القبض على من وجده بها من الوطاسيين، واعتقلهم بمراكش، باستثناء أبو حسون بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي الذي لجأ إلى الجزائر مستنجداً بأتراكها، بعد أن أخفق مسعاه في الحصول على مساعدة عسكرية من البرتغال واسبانيا، تمكنه من إعادة الحكم الوطاسي، ثم ألحق المهدي بجيشه العناصر التركية والمسيحية التي كانت في خدمة الوطاسيين كمرتزقة[٤].

لقد كان لانتصار محمد الشيخ على الوطاسيين، واستيلائه على عاصمتهم فاس أثر كبير في توطيد أركان الدولة السعدية الناشئة، وزيادة شهرتها داخل المغرب وخارجه، إذ بادر الكثير من الحكام والقبائل بإعلان تأييدهم لهذه الدولة، كعلي أعراس قائد نواحي مليلية، ومحمد بن راشد حاكم شفشاون، ثم حاكم تطوان الحسن المنظري، وقائد تازوطا ببلاد الريف، الذي جمع الأشياخ والعرب وجعلهم يؤيدون السعديين، والقائد العروسي حاكم القصر الكبير، كما قامت ثورة في بادس ضد أبي حسون الوطاسي، وأعلن أهلها طاعتهم لمحمد المهدي، الذي تمكن من السيطرة على كرسيف، وعلى إمارة دَبْدُوْ التي فر عنها أميرها عمر المريني، والتجأ إلى مليلية. أما القبائل؛ فقد توالى تأييدها للدولة الناشئة كقبائل بين يزناسن، وقبائل مديونة، وعرب غياثة. وهكذا بسط محمد المهدي نفوذه على مجموع البلاد الشمالية والشرقية للمغرب الأقصى[٥].

اما في خارج المغرب؛ فيدلنا على مدى الشهرة التي وصلت إليها الدولة السعدية الناشئة

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٧ — ٢٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢١؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٥٢؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٥.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢١؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٨.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٨ — ٢٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٢٢- ٢٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٨.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٧٠ — ٧١.

أن صدى انتصارات محمد المهدي تعدى الحدود ليصل إلى موريسكيي[١] غرناطة الذين أصبح لديهم أمل قوي في أن يأتي الشريف السعدي لنجدتهم وخلاصهم على أساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى شعروا باقترابه من إسبانيا، كما أخذت أعداد كبيرة منهم تتقاطر باستمرار على فاس للانضمام إلى محمد المهدي، وحثه على توجيه ضربة للإسبان في الصميم، وذلك بالهجوم على معاقلهم الرئيسة في المغرب[٢].

وأما بالنسبة لإسبانيا والبرتغال، فبمجرد استيلاء محمد المهدي على فاس أخذوا يرسلون النجدات العاجلة إلى مراكز الاحتلال بالمغرب، وأخذوا يترقبون تعاون السعديين مع الأتراك ضد المراكز المسيحية في شمالي أفريقيا أولاً، ثم في غربي المتوسط ثانيًا، خاصةً وقد تأكد لديهم تعاون المهدي مع الأتراك العثمانيين، وأنه يسعى لبناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية، وللجهاد ضد المسيحيين، بل وللعمل على استعادة الأندلس[٣].

وهكذا ازدادت مخاوف الإسبان والبرتغال، ولم يكتفوا بتعزيز مراكز احتلالهم بالمغرب، بل منعوا كل اتصال تجاري مع موانئ الشريف السعدي، وعلى الرغم من هذا الحصار كانت لمحمد المهدي علاقات تجارية مع بعض الدول الأوربية، وبخاصة إنجلترا وهولندا، حيث كان التجار الإنجليز والهولنديون البروتستانتيون يترددون على الشواطئ المغربية المحررة، ويمدون المغرب بالأسلحة والنسيج مقابل السكر والقمح والجلود وأملاح البارود وغيرها، ولا يعيرون اهتمامًا للحصار الكاثوليكي الذي أقره البابا ليمنع تزويد المسلمين بما يحتاجون إليه من عتاد وأسلحة؛ حتى لا يتمكنوا من مهاجمة الثغور التي ما تزال تحت الاحتلال البرتغالي والإسباني، كما جاء في المرسوم المؤرخ بالتاسع والعشرين من مارس لسنة ١٥٤٩م، ويمنع منعًا باتًا المتاجرة في البضائع المحرمة كالذهب والفضة والأسلحة. ورغم كل هذه التدابير فإن حركة الجهاد ضد العدو قد استمرت ومضايقة المراكز الأجنبية، وتشديد الحصار عليها لم ينقطع، مما أجبر الملك البرتغالي جان الثالث عل اتخاذ قرار التخلي عن مركزين آخرين

---

(١) بعد سقوط غرناطة سنة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) عملت السلطات والكنيسة الإسبانية على تنصير ما تبقى من المسلمين بهذه المملكة، بالإقناع وفتح الهبات والأموال في بداية الأمر إلى أن فرض عليهم ذلك بالقوة وبخاصة منذ سنة (٩٠٥ هـ / ١٤٩٩م)، ومنذ ذلك التاريخ أطلق على هؤلاء المسلمين مصطلح "الموريسكيين" **Moriscos** وهي تصغير لكلمة "**Moros**"، ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر، رمزًا إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال. انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣١٤ — ٣٢٢، ح٣ من ص ٣٢٢.

(٢) محمد رزوق: العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر (العهد السعدي الأول نموذجًا)، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ص ٨٩ — ٩٠؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٧١ — ٧٢.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع نفسه، ص ٧٢.

هما أصيلا والقصر الصغير، على أن يتم الاحتفاظ بالمراكز الثلاث الباقية بالمغرب: سبتة وطنجة ومازكان، وهذا تمشيًا مع السياسة الجديدة التي ترمي إلى تكتيل القوى الإسبانية - البرتغالية الموجودة على ساحل المغرب الشمالي لمقاومة الخطر العثماني الذي يهدد شبه جزيرة أيبيريا، وجميع غربي أوربا،وحتى لا تتكرر مأساة الامبراطورية البيزنطية التي فتح انهزامها المجال أمام الأتراك المسلمين للسيطرة على شرقي أوربا، وبسط لواء الإسلام عليها[1].

وعلى الرغم مما حققه محمد المهدي من مكاسب إثر دخوله فاس سنة (٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م) فإن الأمر لم يخلص له نهائيًا بالمغرب الأقصى، إذ كان لا يزال هناك بعض المنافسين لحكمه ودولته، كأبي حسون الوطاسي الذي كان التجاؤه إلى أتراك الجزائر باعثًا لمحمد المهدي في أن يأخذ بزمام المبادرة، ويقوم بغزو الجزائر حتى لا يسبقه الأتراك إلى المغرب، فوجه همه لفتح تلمسان؛ لأنه رأى أن ضمها يشكل عاملاً قويًا في توطيد سيطرته على كل المغرب الشرقي، وبالتالي لصد كل تدخل تركي في المغرب[2]، وبعد حصار دام تسعة أشهر قتل خلاله محمد الحران - أعز أبناء المهدي وساعده اليمنى في الانتصارات التي حققها- تمكن الجيش السعدي من الاستيلاء على هذه المدينة سنة (٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م)، ثم زحف لفتح مراكز جديدة في الجزائر حتى بلغت فتوحاته ضفاف وداي شلف[3].

غير أن هذه الأراضي التي سيطر عليها السعديون في الجزائر لم تدم طويلاً في أيديهم؛ لأن الأتراك بدورهم كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيمًا لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب، لما تمثله شواطئه الشمالية والغربية من دور رئيس وفعال في تهديد المواصلات البحرية الإسبانية والبرتغالية وغزوهم في عقر دارهم، لهذا كان رد فعل الأتراك قويًا فسرعان ما بعث والي الجزائر حسن باشا قوات حربية تحت قيادة حسن كورسو لإخراج السعديين من تلمسان، وقد تحقق له ذلك فاسترجع هذه المدينة وسائر الأراضي التي استولوا عليها، بل ولاحق الجيش السعدي حتى مدينة دَبْدُوْ، واستولى عليها[4]. لم تثن هذه الهزيمة من عزيمة محمد المهدي الذي نظم قواته من جديد لمواجهة الأتراك، فتمكن من إخراجهم من دَبْدُوْ، لكنه لم يستطع أن يسترد تلمسان من جديد؛ لذلك توقف عن فكرة المغامرة في الجزائر

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٧٢ - ٧٣؛ جاك كاييه: سفارات وبعثات مغربية في هولاندا على عهد الملوك السعديين (١)، ترجمة عبد اللطيف أحمد خالص، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الثامن، السنة الثالثة، الرباط، المغرب، مايو - أغسطس، ١٩٦٦م، ص ٢٤٠.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٩، ٣٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٨.

(٤) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٧٧.

إلى حين[١].

منذ خروج أبو حسون الوطاسي من مدينة فاس سنة (٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م) فارًا من وجه محمد المهدي، وهو يبذل جهودًا متواصلةً لاستعادة ملكه، فبعد اتصالات غير مثمرة مع إسبانيا والبرتغال – كما سبقت الإشارة – استطاع أن يقنع الرئيس صالح باشا والي الجزائر بمساعدته بقوات عسكرية لاسترداد عرشه بفاس مقابل مكافأة كبيرة للجيش التركي[٢]. وما إن علم محمد المهدي بأن الأتراك يدبرون لغزو المغرب واحتلال فاس، حتى تهيأ على عجل وخرج لملاقاتهم عند بادس التي نزل بها الأسطول العثماني، إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وعبثًا حاول محمد المهدي أن يصد هذا الزحف العثماني عند تازة، ثم فاس التي لم تلبث أن سقطت تحت الاحتلال التركي سنة (٩٦١ هـ / ١٥٥٤م) بعد أن مني محمد المهدي بهزيمة فادحة عاد على إثرها إلى مراكش، واستقبل أهالي فاس أبا حسون بحماس عظيم؛ لأن قسوة المهدي في معاملة سكان هذه المدينة وعلمائها جعلت هؤلاء يعملون على إضعاف النفوذ السعدي والتخلص منه بشتى الوسائل[٣].

غير أن أفراد الجيش التركي الفاتح لم يحسنوا التصرف تجاه سكان فاس الذين ضجوا من اعتدائهم على الأعراض والأموال، فطالبوا بانسحابه ليتخلصوا من مضايقته، مما جعل أبا حسون يبادر بدفع ما اتفق عليه من تعويضات مالية، وإخراجهم من هذه المدينة، بقي أبو حسون دون سند خارجي أو قوة تذكر لحمايته وللدفاع عن فاس التي استردها بصعوبة بالغة، وحينئذ أتيحت الفرصة لمحمد المهدي للانقضاض عليه، وتصفية الوجود الوطاسي بالمغرب، فعاد إلى فاس بجيش كثيف استطاع أن ينتصر به على أبي حسون، ويقتله قبل انصرام سنة (٩٦١ هـ / ١٥٥٤م)، وبعد أن دخل فاس أمر بقتل عدد من فقهائها الذين كانوا متمسكين بالدعوة للوطاسيين ثم أعدم كل بقايا أسرة بني وطاس[٤]، وبذلك انقرضت سلطتهم – بعد

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ٣٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٥٣ – ٥٤.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٣٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١٥٩– ١٦٠؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٣٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٦٠؛ الجزء الخامس، ص ٢٨؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٨٠ – ٨١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٥٥؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٤.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ١٩ – ٢٠؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٣٠ – ٣١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١٦٠ – ١٦١؛ الجزء الخامس، ص ٢٨؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٥٥.

أن ظلت متوازية مع الحكم السعدي لمدة ٤٥ عامًا- ودانت بلاد المغرب للأشراف السعديين.

بعد أن خضعت البلاد لسلطة محمد المهدي، وتخلص من منافسيه بالداخل، وجد نفسه أمام عدة قوى خارجية مجاورة تتمثل في الإسبان والبرتغال في الشمال، والأتراك العثمانيين في الشرق. وقد كان من المتوقع أن تتحسن العلاقة بين السعديين والأتراك العثمانيين بحكم الجوار، والدين، والاهتمام المشترك بقضية الجهاد ضد الصليبيين الأيبيريين المتكالبين على مدن وسواحل بلاد الشمال الإفريقي، ولكن كان هذا يقتضي الاعتراف بسيادة الخليفة العثماني على المغرب الأقصى، وهذا ما لا يقبله مطلقًا محمد المهدي الذي يعتز بنسبه وشرفه، ويرى أنه أولى بالخلافة والسيادة على جميع بلاد الشمال الإفريقي(١).

وقد كان هذا العداء والتنافس السعدي- العثماني على شمال أفريقيا، بل وعلى الخلافة الإسلامية في صالح القوى المسيحية المتمثلة في الإسبان والبرتغال؛ إذ لجأ محمد المهدي إلى التحالف معها لتقف بجانبه ضد أية محاولة عثمانية لاحتلال بلاده. فعقد هدنةً مع البرتغاليين بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر، وذلك في مطلع سنة (٩٦٢ هـ / ١٥٥٥م)، وإن ظل في الواقع مفعول هذه الهدنة زمنًا طويلاً. ثم اتفق مع الإسبان عن طريق حاكم وهران — الإسباني- بإعداد حملة مشتركة إسبانية — مغربية ضد الأتراك(٢).

ونظرًا لهذا التحالف بين السعديين والقوى المسيحية الأيبيرية، توقفت حركة الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي، ذلك الهدف الرئيس الذي قامت عليه الدولة السعدية؛ مما أفقد محمد المهدي تأييد متصوفة الزوايا الذين أقاموا على عاتقهم هذه الدولة(٣). وإزاء هذا التحالف أيضًا شدد العثمانيون الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الإسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد، إلا أن جميع جهودهم فشلت نتيجةً للنجدات المتواصلة التي كانت تبعثها إسبانيا للمدينة المحاصرة(٤). وبعد أن فشلت خطة الاستيلاء على وهران أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني إثر هذا سفيرًا إلى محمد المهدي يقترح عليه السلم، ويعده بالمساعدة لمحاربة المسيحيين شريطة أن يعترف بالسيادة العثمانية بالدعاء للخليفة على المنابر، ونقش اسمه على السكة، فغضب محمد المهدي غضبًا شديدًا عندما وقف على هذه المطالب، وأغلظ في الرد للسفير، حيث قال له — وفقًا لرواية صاحب تاريخ الدولة السعدية —: "سلم على أمير القوارب(٥) سلطانك، وقل له: إن سلطان الغرب لا بد أن ينازعك على محمل

---

(١) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٨٣ — ٨٤؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٠؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص ٢٠١ — ٢٠٢.

(٣) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٤) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٤؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥) كان محمد المهدي يدعو السلطان العثماني بـ "أمير القوارب" أو "سلطان الحواتة" أي صيادي السمك،=

مصر، ويكون قتاله معك عليه – إن شاء الله- ويأتيك إلى مصر[١]".

أراد السلطان العثماني إثر هذا الرد أن يرسل قوات إلى الجزائر ليستعين بها حاكمها على احتلال المغرب، لكنه عدل عن ذلك – ربما للتقارب السعدي الإسباني القائم آنذاك- وأرسل مجموعةً من الجنود الأتراك إلى محمد المهدي زاعمين فرارهم من سلطانهم، ورغبتهم في خدمة الملك السعدي، فوثق بهم، وجعلهم من جنده المقربين، حتى إذا أمكنتهم الفرصة وهو معسكر بموضع يسمى أكلكال قرب تارودانت في أواخر سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) احتزوا رأسه وحملوها إلى الجزائر، فاستانبول حيث علقت على أحد أبوابها[٢]، بينما نقلت جثته إلى مراكش، ودفنت بقبور السعديين[٣].

أما أحمد الأعرج الذي كان تحت الأسر بمراكش منذ خلعه سنة (٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م)، فقد بادر علي بن أبي بكر عامل هذه المدينة إلى قتله وسائر أسرته، بمجرد علمه بمقتل محمد المهدي الشيخ، وذلك خشية أن يدعو لنفسه فينتقم منه، ولم يجرؤ أحد على دفن الأعرج وأسرته إلى أن دفنهم الشيخ ابو عمرو القسطلي[٤] بالمقبرة المجاورة لضريح الجزولي التي كانت تعرف بقبور الأشراف[٥].

ثانياً- مرحلة الازدهار والنهضة (٩٦٤ – ١٠١٢ هـ / ١٥٥٦ - ١٦٠٣م):

كان من المتوقع أن تهتز دعائم الدولة السعدية التي أسسها محمد المهدي عقب

= لأن الأتراك كانوا يتنقلون ببواخرهم التي كانت تجوب بكثرة عرض البحر المتوسط. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ٤٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣١؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٩.

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٢٦ – ٢٧.

(٢) يذكر الإفراني أن رأس محمد المهدي ظلت معلقةً باستانبول إلى أن تلاشت، بينما يروي الناصر أنها وضعت في شبكة من نحاس وظلت معلقةً سنوات طويلة إلى أن شفع في إنزالها ودفنها عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور ولدي المهدي، أثناء تواجدهما عند السلطان العثماني باستانبول. الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٤٣ – ٤٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٤ – ٦٣.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٢٧ – ٢٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٤٢ – ٤٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٤- ٣٥؛ محمد حجي: العلاقات المغربية التركية في القرن السادس عشر، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الخامس والعشرون، السنة التاسعة، مطبعة فضالة، المحمدية- المغرب، ديسمبر، ١٩٨٢م، ص ص ١٢ – ١٤؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩١.

(٤) هو أبو عمرو بن أحمد الأمين الأموي (٩١٢ – ٩٧٤ هـ / ١٥٠٧ – ١٥٦٦م)، صوفي أندلسي الأصل من مدينة قسطلة، ولد ونشأ بمراكش حيث أسس زاويته حوالي سنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م). الصومعي: المصدر السابق، ص ٢٦٩، ح١ من الصفحة نفسها.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٤ – ٣٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٥٠.

مصرعه، خاصةً وانها كانت محاصرةً بالعديد من أعدائها الطامعين، ولكن كان من حظ هذه الدولة أن تسلم مقاليدها سلاطين أكفاء حافظوا على كيانها، وعملوا على تطويرها، والرقي بها، وأكملوا مسيرة مؤسسها من حيث الاتجاه بها إلى الاستقرار والتحضر، وتوسيع رقعتها(١)، امثال عبد الله الغالب، وعبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور.

أبو محمد عبد الله الغالب بالله (٩٦٤ هـ - ٩٨١ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٧٣م):

بعد مقتل محمد المهدي مباشرةً بويع ولده عبد الله الغالب بمدينة فاس، حيث كان عاملاً عليها في عهد والده(٢)، لم تكن حياة الغالب حافلةً بالأحداث السياسية كما كان الأمر في عهد والده، وانما كانت "أيامه أيام رفاهية وعافية"(٣) تمتع المغرب خلالها بالطمأنينة والاستقرار، كما اقتصرت حركة الجهاد في عهده على محاولة تحرير مازكان من يد البرتغال سنة (٩٦٩ هـ / ١٥٦٢م) غير أن محاولته لم تكلل بالنجاح(٤) لعدة عوامل، سنوضحها فيما بعد.

وقد كان على عبد الله الغالب لكي تستقر له الأحوال الداخلية في البلاد أن يأخذ بثأر أبيه من قتلته الأتراك، وأن يخضع بعض الثورات التي أخذت تظهر في بعض نواحي البلاد عقب نبأ اغتيال والده محمد المهدي، فتوجه إلى مراكش ثم تارودانت فحاصر الأتراك حصارًا عنيفًا، وقتلهم حتى صفاهم عن آخرهم(٥)، كما قضى على ثورة بسوس تزعمها أخوه أبو سعيد عثمان(٦). ثم عاد مسرعًا إلى فاس ليهيئ القوات المحاربة لصد الجيش التركي بقيادة حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر، الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد وتأديب الغالب بالله – فيما يبدو- بسبب قضائه على المرتزقة من الأتراك الذين كانوا في خدمة سلفه بتارودانت، خاصةً وأن عمر أمير دَبْدُوْ اللاجئ بالجزائر لم يفتأ يحث الأتراك على غزو المغرب والسيطرة عليه(٧). وقد جرت معركة حاسمة بين الطرفين عند وادي اللبن بين تازة وفاس، فانهزم الأتراك هزيمةً ساحقةً، وذلك في سنة (٩٦٥ هـ / ١٥٥٧م)،

---

(١) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٣٠ – ٣١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٤٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٨.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٣١ – ٣٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٦؛ عمر عسران: المرجع السابق، ص ٦٨.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٧) عبد الكريم كريم: نفس المرجع والصفحة، ص ٨٦؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٦٢.

واضطرت فلولهم إلى الانسحاب إلى مدينة بادس التي كانت بأيدي الأتراك حينذاك[١].

اغتنم حاكم وهران الإسباني فرصة انهزام القوات العثمانية بالمغرب لكسب نصر عسكري بالجزائر، فقام بهجوم مفاجئ على مدينة مستغانم[٢]، فانتهز الغالب بالله هذه الظروف، وقام باحتلال تلمسان دون أن يكون بينه وبين الإسبان تحالف رسمي، غير أن القوات الإسبانية المهاجمة تكبدت خسائر فادحة، وكان الحاكم الإسباني من بين قتلى المعركة، فاضطر الغالب بدوره إلى الانسحاب من تلمسان، فقام الأتراك بتجديد هجومهم على المغرب كرد فعل على تدخل السعديين بالجزائر، غير أن هذا الهجوم التركي لم يسفر عن نتيجة إيجابية[٣].

وأمام هذا الضغط التركي على حدود المغرب الشرقية، لجأ عبد الله الغالب إلى متابعة سياسة والده المهدي الرامية إلى مقاومة التوسع العثماني في المغرب، والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من دول أوربا المسيحية عن طريق مهادنتها والمحافظة على أحوال السلم معها، وتحسين العلاقات بها لاستخدامها كعامل توازن في علاقاته مع الأتراك[٤]. وقد دفعته سياسة المهادنة هذه مع المسيحيين إلى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض دول أوربا الغربية كفرنسا، التي استقبل سفيرها وحمله رسالة يعبر فيها عن استعداده للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد معاهدة في يوليه ١٥٥٩م تقضي بتنازله عن مرسى القصر الصغير للفرنسيين مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة الحرس الخاص للغالب بالله، كما تنظم هذه المعاهدة التجارة بين البلدين، وتقر حال السلم بينهما[٥].

وكما عقد عبد الله الغالب مع الفرنسيين معاهدةً قبل فيها التنازل عن مرسى القصر الصغير فقد تخلى فعلاً للبرتغال عن مازكان سنة (٩٦٩ هـ / ١٥٦٢م) بعد أن كاد الجيش الذي يقوده ابنه محمد — الذي عرف فيما بعد بالمسلوخ — أن يفتحها بعد حصار زاد عن شهرين، عزم المجلس الملكي البرتغالي على إثر هذا الحصار إخلاء مازكان، لولا أن القوات المغربية انسحبت في آخر لحظة بأمر الغالب[٦]، ويفسر أحد المؤرخين موقف عبد الله الغالب،

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٨٦ — ٨٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٦٢؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٥٤.

(٤) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٧؛ محمد رزوق: ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية، ص ١٥٢.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٨٧ — ٨٨.

(٦) الإفراني: المصدر الساق، ص ٤٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٢.

بأن البرتغال: "أدوا له بعد رحيل المحلة[١]عنهم مالاً عريضًا، وهديةً جميلةً وكأنهم اشتروها منه"[٢].

أما بالنسبة للإسبان فقد أطلق الغالب بالله يدهم في احتلال جزيرة بادس، فتمكنوا من احتلالها سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م)، وقد كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته ضد محمد المهدي، وذلك حتى يضمن حماية الإسبان للجبهة الشمالية الشرقية للمغرب من هجوم الأتراك المتكرر، وبالتالي لا تجد سفنهم التي كانت آنذاك تصول وتجول في الحوض الغربي للبحر المتوسط منفذًا تتسرب منه إلى المغرب[٣]. وقد كان الإسبان يدركون بدورهم الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة، فهي أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق ومَالَقَة[٤]، وكانت مصدر قلق بالنسبة لهم، إذ كانت مقر المجاهدين البحريين الذين كانوا يلحقون خسائر فادحة بالسفن التجارية الإسبانية[٥].

أثار تنازل الغالب بالله عن جزيرة بادس إلى الإسبان وسياسة التهاون الشديدة مع المسيحيين المحتلين غضب المغاربة، وبخاصة رجال التصوف، فقام الغالب بمعاقبتهم والتنكيل بهم بعد أن كانوا يحظون برعايته وعطفه[٦]، بل إنه قام باحتلال مدينة شفشاون سنة(٩٧٥ هـ/ ١٥٦٧م)[٧]، وأجلى منها بني راشد بعد أن شيدوها سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م)، واستقروا بها قرابة

---

(١) المحلة في اصطلاح المغاربة الجيش، وكأنهم سموه باسم المكان الذي يحل به. كما يطلق مصطلح المحلة على الموكب السلطاني، ويستعمل لفظ "الحركة" مرادفًا "للمحلة" ويمكن التمييز بين المصطلحين بإطلاق اسم الحركة على العسكر السلطاني في حالة الظعن والانتقال وإطلاق اسم المحلة عند الإقامة. انظر، الحساني: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١؛ ج ١٣، ص ١٣؛ الفشتالي: المصدر السابق، ج١، ص ٢٥.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٣٧.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر نفسه، ص ص ٣٦ — ٣٧؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٤٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤٩؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٦٢؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٤٧؛ محمد رزوق: العلاقات المغربية الإسبانية، ص ٩٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٨٩.

(٤) مالقة: مدينة شهيرة تقع على ساحل البحر المتوسط بجنوب شرق الأندلس، أسسها الفينيقيون عام ١٢٠٠ ق.م، وأعطوها اسم "Malaca" ومعناه الملح وذلك نسبةً إلى مستودعات الأسماك المملحة التي كانت تعمل وتحفظ فيها. واشتهرت مالقة إلى جانب ذلك بزراعة الفواكه الجيدة كما اشتهرت بصناعة الخزف، أما من الناحية السياسية فكانت عاصمة الحموديين الأدارسة أيام ملوك الطوائف، كما كانت تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة أيام ملوك بني الأحمر. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج١، ص ٥٧؛ ج٢، ص ٧٦.

(٥) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٨٩ —٩٠.

(٦) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٧) عمر عسران: المرجع السابق، ص ٧٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٦٤.

قرن من الزمان؛ لأنهم اعترضوا على تسليمه بادس للإسبان، وكانوا يتعاونون مع المجاهدين الأندلسيين والمغاربة في مضايقة السفن الإسبانية[١].

وهكذا فقد التجأ عبد الله الغالب إلى التقارب في سياسته مع الإسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، إذ كانت علاقته مع الإسبان تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الأطماع التركية، أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل بأقل قدر من الخسائر، إما التنازل عن نقط معينة للإسبان وغيرهم، أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك[٢]. واتجاهه هذا يفسر لنا موقفه الحقيقي من الثورة التي أعلنها الموريسكيون بجبال البشرات بغرناطة بعد أن أعلنوا بيعة محمد بن أمية ملكًا عليهم سنة (٩٧٦ هـ / ١٥٦٨م)[٣]، وأرسلوا إلى: "ملوك المسلمين شرقًا وغربًا وهم يناشدونهم الله في الإغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله – الغالب- لأنه هو القريب إلى أرضهم[٤]". وإن كان الغالب بذل الوعود لرسل الثوار بأن يناصرهم، حتى لقد وقع مبعوثه في يد الإسبان فقتلوه، فقد ظل في الواقع محافظًا على الروابط الودية التي كانت له مع فيليب الثاني ملك إسبانيا، وعلى العكس من ذلك يذكر أحد المؤرخين أن الغالب كان يعمل في الخفاء ضد الموريسكيين، حتى يتم ترحيلهم إلى المغرب لحماية شواطئه الشمالية، واستخدامهم في الجيش السعدي بمراكش وفاس، وانتهت الثورة بهزيمة الموريسكيين وسحقهم، وتوقيع اتفاق سمح لهم بموجبه بالخروج إلى المغرب أو غيره من بلدان شمال أفريقيا، وقد جاز منهم عدد كبير إلى المغرب الأقصى، كون الغالب منهم جيشًا نظاميًا بلغ عدده ١٤ ألفًا سموا بعساكر النار؛ لاستخدامهم للأسلحة النارية من بنادق ومدافع وغيرها، حتى صاروا أهم فرق جيش الغالب[٥].

أما بالنسبة لموقف العثمانيين من عبد الله الغالب؛ فقد اكتفوا بإيواء المعارضين لحكمه بعد أن فشلت الحملة العسكرية التي قاموا بها ضد المغرب غداة تولية الغالب، وبعد أن

---

(١) مؤرخ مجهول: نبذة تاريخية تتعلق بقيام الدولة السعدية والنزاع بينها وبين الوطاسيين، نشرت في ذيل مناهل الصفا للفشتالي، ص ٢٥٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٤١. مع ملاحظة أن الناصري يذكر أن إجلاء الغالب لبني راشد من شفشاون كان سنة (٩٦٩ هـ / ١٥٦١م). وللاستزادة عن بناء مدينة شفشاون على يد بني راشد.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٦٣؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٥٤.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة. انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٦١ – ٣٧٦؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص ١٦٦ – ١٧١.

(٤) مؤرخ مجهول: تاريخ الدولة السعدية، ص ٣٧.

(٥) مؤرخ مجهول: نفس المصدر، ص ص ٣٧- ٣٩؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٩ – ٢٠؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٩٣؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٦٨ – ٣٧٦؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٣؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٦٥، ٢١٤ – ٢١٥.

ثبت لديهم تعاونه مع المسيحيين والروابط القوية التي أصبحت له معهم. ومن بين أولئك الذين عارضوا عبد الله الغالب والتجأوا إلى العثمانيين بعض إخوته الذين رفضوا التسليم لابنه محمد بولاية العهد؛ مما دفع الغالب إلى التخلص منهم عن طريق الاغتيال؛ ليرث ابنه العرش بعده، وقد قتل فعلاً ثلاثةً من إخوته، بينما فر الباقون إلى خارج المغرب، وظلوا بالجزائر حتى وفاة الغالب بالله سنة (٩٨١ هـ / ١٥٧٣م)، فدفن بقبور السعديين بمراكش، وخلفه ابنه محمد المتوكل(١).

أبو عبد الله محمد المتوكل (٩٨١ – ٩٨٣ هـ / ١٥٧٣ – ١٥٧٥م):

بوفاة الغالب بالله وتولية ابنه محمد المتوكل خلفاً له، دخل المغرب في مرحلة حاسمة من تاريخه، بعد الهدوء النسبي الذي عرفه من قبل زمن عبد الله الغالب، فقد ازدادت رغبة العثمانيين في حكم المغرب بعد النصر العظيم الذي حققوه على الإسبان في تونس سنة (٩٨١ هـ / ١٥٧٣م)، ودخول هذه البلاد في حوزة الإمبراطورية العثمانية، وبعد التجاء عمي محمد المتوكل، عبد الملك وأحمد، إلى الجزائر والتحاق عبد الملك باستانبول طلبًا لمساعدة السلطان العثماني ليعينه على استرجاع ملك أبيه، باعتباره كبير الأسرة السعدية المستحق للملك حسب ما يقتضيه نظام ولاية العهد عندهم(٢).

وما من شك في أن انتصار العثمانيين في حروب تونس ضد الإسبان، قد شجعهم على مساعدة عبد الملك المطالب بالعرش المغربي، لبسط نفوذهم على البلاد من جهة، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للإمبراطورية العثمانية، ويوطد أقدام الأتراك في مجموع الشمال الإفريقي من جهة أخرى، علاوةً على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الإسبان والبرتغال، ويبعثهم على طلب ود السلطان باستانبول(٣). كما أن مساعدة السلطان العثماني لعبد الملك لم تكن وليدة الصدفة والساعة، وإنما كانت نتيجةً لمقدمات سابقة، واستنادًا على عدة عوامل، فقد عمل الأخوان: عبد الملك وأحمد في الجيش التركي برًا وبحرًا أثناء السنوات الخمسة عشرة التي قضياها في الجزائر وتركيا، واشتركا في فتح تونس، وسبقا إلى السلطان العثماني بالبشارة(٤).

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٤٠، ٤٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٥٦، ٥٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص٥٢ – ٥٣، ٥٩، ٦١؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٩٣ – ٩٤.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٥٩ – ٦١؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٩٧؛ محمد حجي: العلاقات المغربية التركية، ص ص ١٤ – ١٥؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص ١٧٩– ١٨٣، ٢٠٤.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٤٤ – ٤٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٥٩ – ٦٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٦٢ – ٦٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٥.

أما محمد المتوكل فقد تابع سياسة والده في التقرب من الدول المسيحية، ومسالمتها لصد خطر العثمانيين؛ حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عمه عبد الملك بقوات عسكرية، فعقد اتفاقًا تجاريًا مع إليزابيث ملكة إنجلترا، لحاجته الشديدة إلى السلاح والعتاد الحربي الذي كان التجار الإنجليز يزودون به المغرب منذ آمد بعيد، أما بالنسبة لموقف إسبانيا والبرتغال من أنباء المساعدة العثمانية لعبد الملك ضد محمد المتوكل، فقد وجه دون سبستيان ملك البرتغال عدة نداءات إلى ملك إسبانيا فيليب الثاني للتدخل في المغرب، والحيلولة دون احتلاله من قبل العثمانيين، بل واغتنام فرصة اضطراب الأوضاع بالمغرب والقيام بحملة مشتركة لاحتلاله، غير أن انشغال ملك إسبانيا بثورات الأراضي المنخفضة "هولندا" ضده، وبالحروب الدينية القائمة بين الكاثوليك – تحت زعامته- والبروتستانت – تحت زعامة ملكة إنجلترا- حال دون اهتمامه بأحداث شمال إفريقيا[1].

وجد العثمانيون في انشغال إسبانيا بأحداث أوربا الغربية – فضلاً عما سبق ذكره من ظروف – فرصةً مناسبةً للتدخل في المغرب، فأمر السلطان العثماني واليه على الجزائر أن يمد عبد الملك بما يحتاج إليه من جنود ومؤن ورغم الصعوبات المالية التي اختلقها هذا الوالي، وافق على أن يعوضه عبد الملك نفقات الجيش ماديًا بمجرد تحقيق الانتصار على المتوكل، فتوجه عبد الملك وأخوه أحمد على رأس الجيش التركي نحو المغرب، فسار الجيش التركي في ركب عبد الملك، والتقى الجيشان في معركة قرب فاس، أسفرت عن هزيمة المتوكل بعد أن تخلت عنه فرقة جند الأندلس بقيادة الدغالي، وبعض القبائل، وانضمت إلى عبد الملك الذي دخل فاس أواخر ذي الحجة سنة (٩٨٣ هـ / ١٥٧٥م)، وبفضل الغنائم التي استولى عليها من جيش المتوكل، والمساهمة الإجبارية التي أداها أثرياء فاس، تم تسديد تعويضات الجيش التركي، وتقديم هدايا للسلطان العثماني، وعجل بصرفهم إلى الجزائر، بعد أن استبقى منهم فرقةً ضمها إلى جيشه الجديد[2].

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٩٧ – ٩٩.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٤٨ – ٥٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٦٢ – ٦٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٦٣ – ٦٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٦٦ – ٦٧؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٥. على الرغم من هذه الروايات التاريخية التي تشير إلى التزام عبد الملك باتفاقه مع الأتراك، إلا أن بقاء زوجته وابنه إسماعيل رهينتين بالجزائر يؤكد لنا تراجع عبد الملك عما وعدهم به، كما أن انضمام بعض القوات التركية التي قدمت مع عبد الملك إلى المتوكل بسوس ومحاولة القائد الدغالي والغري – وهما على ما كانا عليه من صلات قوية مع الأتراك – الثورة ضد عبد الملك، لا يترك مجالاً للشك في أن العلاقات بين عبد الملك والأتراك قد دخلت مرحلةً من التوتر وتربص الفرص، ولقد وصل التوتر مرحلةً جعلت رمضان = باشا والي الجزائر وقائد الأتراك الذين قدموا مع عبد الملك يتدخل عسكريًا في شرق المغرب، فقام السلطان العثماني بعزل رمضان باشا=

عقب الهزيمة فر محمد المتوكل نحو الجنوب، وقام بمحاولة يائسة لصد جيش عبد الملك، إلا أنه هزم عند وادي الريحان قرب سلا، فالتجأ إلى مراكش، واستولى على أموال خزينتها؛ حتى يغطي بها نفقات جيشه، فكلف عبد الملك أخاه أحمد بمطاردة المتوكل، والقاء القبض عليه، فنجح في إخراجه من مراكش، ففر إلى بلاد السوس، لكنه عاد إلى مراكش مرة أخرى، واحتلها من جديد، غير أن عمه أحمد تمكن من إزاحته عنها، ومطاردته فهرب المتوكل إلى الشمال، ودخل طنجة، وأرسل إلى ملك البرتغال يطلب حمايته ومساعدته[1]، وفي تلك الأثناء كان عبد الملك قد أعلن نفسه ملكاً، وذلك في نهاية سنة (٩٨٣ هـ / ١٥٧٥م).

أبو مروان عبد الملك المعتصم (٩٨٣ - ٩٨٦ هـ / ١٥٧٥ - ١٥٧٨م):

بعد أن تمهدت البلاد لعبد الملك المعتصم عين أخاه أحمد — الذي سيلقب بالمنصور فيما بعد — خليفةً له بفاس، ثم شرع في تحسين الأوضاع الاقتصادية والعسكرية السيئة التي وصلت إليها البلاد بسبب الحروب الأهلية التي جرت بينه وبين ابن أخيه المتوكل، وكان بإمكان المعتصم فرض ضرائب جديدة على الشعب، إلا أنه رأى أن هذه الوسيلة تؤدي إلى ضعف الدولة وإفقارها أكثر مما تساعد على تنمية اقتصادها؛ لذلك اتجه إلى الوسائل البناءة، فرأى البحرية أكبر مورد للمال، فأمر بتجديد السفن، وصناعة مراكب جديدة؛ فازدهرت الحركة التجارية البحرية مع ما يتبعها من الاستيلاء على سفن الأعداء من النصارى المحتلين لبعض مدن المغرب ومراسيه، فتوفرت لديه بذلك موارد ضخمة ساعدته على تجديد معالم الدولة، وتأسيس قوات عسكرية منظمة، ونظراً لقضائه سنوات في ديار الخلافة العثمانية، شارك أثناءها في معارك برية وبحرية تحت راية العثمانيين، وتعرف عن قرب على تنظيمات الجيش التركي الذي يعتبر آنذاك من أقوى وأحدث الجيوش في العالم، عمل عبد الملك على أن يجعل الجيش المغربي على صورة الجيش التركي نظاماً وأسلحةً ولباساً، ولم يتردد في استعمال العنف لفرض التنظيم الجديد على رجال القبائل البدو المتشبثين بالتقاليد القديمة الموروثة[2].

= عن الجزائر من قبل طمأنة عبد الملك ريثما تسنح الفرصة للتخلص منه، ولعل عزل رمضان باشا يؤكد ما قيل عنه أنه دس من سم عبد الملك أثناء توجهه لمعركة وادي المخازن كما سيأتي ذكره. انظر، عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠١ - ١٠٢.

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٥٤ - ٥٧؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٦٣ - ٦٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٦٥ - ٦٩.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٥٣ - ٥٨؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٦١ - ١٦٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٧؛ محمد الفاسي: موقعة وادي المخازن الحاسمة، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، الرباط - المغرب، سبتمبر ١٩٦٦م، ص ٢٢٢؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٤٧.

ثم أراد عبد الملك المعتصم أن ينهج بالمغرب سياسةً جديدةً تكسبه احترام جميع الدول الأوروبية المعاصرة، وتوفر له الأمن والاستقرار اللازمين لتقدم البلاد وازدهارها، ولهذا السبب نجده يتودد إلى السلطان العثماني، ويرضي القوات التركية التي جاءت لمساعدته على استرداد الحكم، ويرسل إلى ملك فرنسا هنري الثالث ليخبره بتوليه حكم البلاد، ثم لإبرام حلف بين المغرب وفرنسا، كما أرسل إلى الملك الإسباني فيليب الثاني برسالة تحمل الغرض نفسه، تلتها رسالة أخرى مع حاكم وهران الإسباني بتاريخ إبريل ١٥٧٧م تتضمن مشروع معاهدة مغربية – إسبانية، نصت أهم بنودها على إقرار السلم بين البلدين، وحرية التجارة لرعاياهما، وعدم مد يد المساعدة ضد بعضها البعض، وفي نطاق هذه السياسة أرسل أيضًا إلى إليزابيث ملكة إنجلترا ليخبرها بتوليه السلطة، وأنه مستعد لتلبية كل مطالبها، وأكد للتجار الإنجليز رغبته في احترام جميع الاتفاقيات التي كان ملوك المغرب قد عقدوها مع الدولة الإنجليزية، وسمح لهم دون غيرهم بتصدير ملح البارود مقابل قذائف المدافع وأسلحة أخرى(١).

وعندما علم عبد الملك المعتصم بطلب المتوكل مساعدة ملك البرتغال، وجه المعتصم رسالة إلى لشبونة، يذكر فيها الملك البرتغالي بأن الحروب التي يسعى لها غير عادلة، وأنه يرمي من ورائها احتلال المغرب، وليس بسبب تأييد حاكم مغربي ضد آخر سيعرض ملك البرتغال نفسه وجيشه للخطر، ثم ينبهه إلى أن عهود المتوكل لا قيمة لها، وفي الختام يشعر المعتصم ملك البرتغال بالعلاقة الحميمة التي تربط المغرب بالخلافة العثمانية. وهكذا فتحت صفحة جديدة من العلاقات الودية بين المغرب والبلاد المجاورة لها، غير أن هذا العهد لم يدم أكثر من ثلاث سنوات؛ حيث جاء محمد المتوكل بجيش البرتغال وملكه دون سبستيان، فكانت معركة الملوك الثلاثة العظمى بوادي المخازن سنة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م) (٢).

فبعد أن وجد المتوكل نفسه قد أصبح مجردًا من كل سند شعبي أو عسكري في الداخل، منهكًا بسبب الحروب التي خاضها ضد عميه من غير جدوى، استغاث بدون سبستيان ملك البرتغال يطلب عونه وصور له الحالة بالمغرب على غير صورتها مدعيًا أن له أنصارًا كثيرين، فوجدها سبستيان فرصةً عظيمةً للتدخل في المغرب، واستعادة نفوذ البرتغال في هذه البلاد، ولم تنجح معارضة مستشاريه ورجال دولته في إثناء عزمه عن هذه المغامرة(٣). بل إن

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٩٩ – ١٠١، ١٠٣؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ١٥٨، ١٦١.

(٢) محمد حجي: العلاقات المغربية التركية، ص ١٥.

(٣) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٦٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٦٩؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٥٨؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

تمادي ملك البرتغال في خطته الرامية إلى غزو المغرب بدعوى مساندة المتوكل، وحرصه على اغتنام هذه الفرصة، جعل ملك إسبانيا الذي كان منشغلاً بأحداث أوربا الغربية، والنزاع مع إنجلترا، يبعث إلى سبستيان عدة سفارات ليحذره من مغبة أعماله، لكن جميع المحاولات باءت بالفشل؛ لإصرار ملك البرتغال الطموح في تحقيق أمنيته المنشودة[١].

فتم الاتفاق بين المتوكل ودون سبستيان على أن يتخلى الأول للبرتغال عن الشواطئ المغربية، ويحتفظ بالداخل فقط، وذلك بعد الانتصار المزعوم[٢]، بلغت هذه الأخبار عبد الملك المعتصم فما كان منه إلا أن وجه رسالةً إلى سبستيان بتاريخ ٢٣ يوليه ١٥٧٨م (٩٨٦ هـ) يذكره فيها ثانيةً بأن الحرب التي يقوم بها غير شرعية، وأن محمد المتوكل لن يستطيع الوفاء بما تعهد به للبرتغال من أن يتنازل لهم عن قسم من الأراضي المغربية[٣]. غير أن هذه الرسالة لم يقع لها – كالرسالة الأولى – أي أثر عند سبستيان بل تمادى في الاستعداد للحرب، وحشد الجنود، وتجهيز الأسلحة والعتاد والأقوات والبهائم، وكل ما تحتاجه هذه الحملة، ولما اجتمع له ما أراد خرج لعبور البحر نحو المغرب، فوصل إلى طنجة، ومنها توجه إلى أصيلا حيث عسكر بجيشه بها[٤].

أما عبد الملك المعتصم الذي كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة، فقد خرج من مراكش وقصد سوس – ربما لإعداد وتجهيز القوات العسكرية- ثم عاد إلى مراكش وخرج منها ثانيةً باتجاه الشمال؛ حيث وصل تامسنا[٥]فسلا، ثم المعمورة؛ حيث نصب بها بعض المدفعية، ثم عسكر بسوق الخميس على بعد ستة أميال جنوبي وادي القصر الكبير[٦]، وكان قد أمر أخاه وخليفته على فاس أحمد المنصور أن يسبقه إلى القصر الكبير بجيوش فاس ونواحيها[٧].

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠٣؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ص ٢٢٣ – ٢٢٤

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٦٩.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠٤؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ص ٢٢٤ – ٢٢٥

(٤) محمد الفاسي: المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

(٥) تامسنا: البسيط الممتد من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع، وهو بسيط الشاوية وما جاوره، وقد اختفى هذا الاسم الآن، وبقيت بعض الأسر المغربية منسوبةً إليه. الجزنائي: المصدر السابق، ح ٣٣، ص ١٢؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ح ٢١، ص ٢٠؛ ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح١، ص ٢٣٣.

(٦) وادي القصر الكبير ويعرف أيضًا بوادي لُكُوس أو لُكُس، وهو ينبع من جبال غمارة ويجري نحو الغرب عبر سهول الهبط وأزغار مارًا بالقرب من مدينة القصر الكبير، ثم يتابع سيره إلى أن يصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة العرائش بإقليم أزغار على تخوم الهبط (خريطة ٢). ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٩؛ ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح ١٩٠، ص ١٠٣

(٧) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦٠ – ٦١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤؛ الناصري: المصدر=

ونظرًا لأن المنطقة الشمالية كانت معرضة على الدوام لخطر الغزو الأجنبي، وكانت بعض مراكزها كأصيلا وسَبْتَة بيد البرتغال، رأى المعتصم أن يفسح المجال لجيش البرتغال حتى يتوغل قليلاً في الداخل، ويبعد عن المراكز التي يمكن أن تصلها الإمدادات بسرعة، أو أن ينسحب منها بسهولة[١]، فوجه رسالة إلى سبستيان يقول له فيها: "إني رحلت إليك ستة عشر مرحلةً أما ترحل إلى واحدةً"[٢]، فقامت القوات البرتغالية بالفعل بالزحف نحو الداخل صوب القصر الكبير، وعسكرت أخيرًا على الضفة الجنوبية لوادي المخازن – أحد روافد نهر لكوس – بعد عبور القنطرة الوحيدة القائمة عليه[٣].

وتختلف الروايات التاريخية اختلافًا كبيرًا حول عدد الجيش ومعداته بالنسبة للطرفين، فأقل التقديرات للجنود البرتغاليين كان ٦٠ ألفًا[٤]، وأكبرها ١٢٥ ألفًا[٥]، وكان يشتمل جيشهم على مرتزقة من الإسبان والفرنسيين والإيطاليين والألمان وغيرهم[٦]. ومعهم محمد المتوكل برفقة ٣٠٠ من أصحابه الموالين له[٧]. أما الجيش المغربي فإنه من الصعب تحديد عدده لأنه كان يزيد كثرةً كلما طوى مرحلةً بما ينضم إليه من المجاهدين والمتطوعة أثناء الطريق[٨]، بالإضافة إلى الجنود النظاميين والقوات التي بعثها باشا الجزائر لصد الغزو البرتغالي[٩]. وعلى الرغم من ذلك ذكر أحد مؤرخي المغرب أن عدد الجنود المغاربة بلغ ٣٦ ألفًا[١٠]، بينما تجعلهم الروايات الأوربية ما بين ٦٠ ألفًا و ٩٠ ألفًا[١١]، على أن الاعتبار العددي لم يكن له كبير وزن في معركة كان للمدفعية والأسلحة النارية فيها دور حاسم[١٢].

= السابق، الجزء الخامس، ص ص ٧٨ – ٧٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٠٤ – ١٠٥؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٥٨؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ٧٠؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨٠؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٥٩. وانظر (خريطة ٢).

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) ابن القاضي: درة الحجال، الجزء الثاني، ص ٢٢٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٥٩.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٨) محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٩) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(١٠) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٢.

(١١) محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٢٦؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٧١.

(١٢) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٧٢؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٥٩.

وكان على رأس الجيش المغربي عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد المنصور، إلا أن الأول كان مريضًا قيل دس إليه رمضان باشا والي الجزائر من سمه(١).

وفي صبيحة يوم الاثنين ٣ من جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٥٧٨م، كان كل فريق قد نظم الكيفية التي يريد أن يهجم بها على عدوه، وما إن التقى الجمعان حتى أمر عبد الملك المعتصم أخاه أحمد المنصور بهدم القنطرة التي عبرها كل جنود سبستيان؛ حتى يتعذر عليهم الانسحاب في حالة هزيمتهم(٢). اشتد القتال بين الفريقين، إلا أن المسلمين كانوا يتقدمون ونصارى البرتغال ينهزمون حتى اضطروا إلى الفرار والتراجع إلى وادي المخازن؛ فوجدوا القنطرة قد اندكت، وتراموا إلى النهر فغرق كثير منهم، وبينهم دون سبستيان ومحمد المتوكل، ومن بقي على قيد الحياة ولم يقتل وقع في الأسر، وفي تلك الأثناء تُوُفِّيَ عبد الملك المعتصم متأثرًا فيما قيل بالسم الذي دس إليه – كما سبقت الإشارة- ، وكان محمولاً في محفة وهو مريض حتى يتشجع المسلمون بوجوده، ولما مات لم يعلم بذلك إلا حاجبه رضوان العِلَج(٣) الذي كتم خبر وفاته عن المسلمين إلا عن أخيه أحمد المنصور، وإنما كان الجيش على علم بمرض الملك، فكان رضوان يخرج به في محفة، ويوهم الجيش أنه يحادثه سرًا، ويتلقى منه التعليمات، ويوجهها باسمه، ومنع على الجميع الدخول إلى سرادقه(٤) . وهكذا مات في هذه المعركة ثلاثة ملوك، هم: عبد الملك المعتصم، ومحمد المتوكل، ودون سبستيان، ولذلك يسميها الأوربيون "معركة الملوك الثلاثة"(٥)، ويسميها المسلمون "معركة وادي المخازن"(٦) ، كما عرفت باسم "معركة القصر

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦٢ – ٦٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٧٥، ٧٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق،الجزء الثاني، ص ٢٥٩؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٦. هذا وتشير بعض الروايات أن عبد الملك المعتصم تُوُفِّيَ متأثرًا بإصابته بالكوليرا، وهي مرض كثيرًا ما تسلط على المغرب في القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م). انظر، إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٧٣.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦١ – ٦٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٧٤ -- ٧٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨٠؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

(٣) عِلَج بفتح العين وكسرها، وجمعها أعلاج، كل من ارتد عن دينه. انظر، ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ح١٤١، ص ٢٣٤.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦٢ – ٦٣؛ ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ص ص ١٠٣ – ١٠٤؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٨٠ - ٨١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٧٢ -- ٧٣.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٧٣.

(٦) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥٨؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٦٩.

الكبير"[١].

وقد كان لانتصار المغرب على البرتغال – الدولة البحرية العظمى آنذاك- نتائج عميقة بالنسبة للمغرب من جهة، وللبرتغال ولأوربا من جهة أخرى، كما كان لها صدًى واسع في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء. فقد استعاد المغرب وحدته السياسية أقوى من ذي قبل – على الرغم من بقاء بعض الجيوب تحت الاحتلال[٢] – ودخل في طور من الاستقرار والازدهار في سائر الميادين الاقتصادية والفكرية والعمرانية؛ حيث تدفق الذهب على المغرب بكميات ضخمة، وحملت إليه معظم الكنوز التي كانت تمتلئ بها خزائن الدولة والقصور البرتغالية لفداء الأسرى من الأمراء والنبلاء والقواد والجنود الذين بلغوا – وفقًا لبعض التقديرات – نحو أربعة عشر ألفًا[٣]، وامتلأت أيدي عدد كبير من أفراد الشعب بالثروة من جراء الغنائم العظيمة التي تركها البرتغال، كما أصبح الاتصال التجاري مع السودان الغربي مضمونًا من جديد بعد إقصاء المنافس الخطير، وإعادة بسط النفوذ المغربي على المراكز الصحراوية الواقعة في طريق القوافل[٤]، ولم تقتصر نتائج هذه المعركة على الميدان الداخلي، وانما عبرت الحدود لتقدم المغرب إلى دول الشرق والغرب كقوة مرهوبة الجانب، ينبغي التقرب إليها وربط الصلات الودية معها[٥]، وانهالت على أحمد المنصور – الذي خلف أخاه المعتصم- وفود المهنئين من الجزائر والبرتغال واسبانيا واستانبول وفرنسا وغيرها يحمل سفراؤها الهدايا وكتب التهنئة[٦].

أما بالنسبة للبرتغال؛ فقد تعرضت بعد هزيمة وادي المخازن(٩٨٦ هـ/١٥٧٨م) لكارثة عظمى لم يسبق لها مثيل في تاريخها، فإلى جانب فقدها لملكها دون سبستيان ونحو ستةً وعشرين ألف رجل من زهرة شبابها[٧]، فقدت أيضًا عظمتها وحريتها واستقلالها بعد أن كانت واحدةً من أكبر إمبراطوريات العالم آنذاك؛ حيث استولت عليها إسبانيا كوارثة للعرش إذ

---

(١) جاك كاييه: المرجع السابق (١)، ح٢٠، ص ٢١٥ بوفيل ا.و: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة د. زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٧٥.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٧٥؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٣) محمد الفاسي: المرجع نفسه، ص ٢٢٩.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦٦ – ٦٧؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٥٠؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٨؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ٨٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٩١ – ٩٢؛ محمد حجي: العلاقات المغربية التركية، ص ١٦.

(٧) بوفيل: المرجع السابق، ص ١٧٤؛ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

لم يكن لدون سبستيان ولي عهد؛ فورثه خاله فيليب الثاني، واستولى على ممتلكاته، ولم تنفصل عن إسبانيا إلا سنة (١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠م)[(١)]. كما أن هذه المعركة جعلت الأمم النصرانية تعدل عن فكرة الحروب الصليبية، وإن كانوا عوضوها بمطامع جديدة في التوسع الاستعماري، ولكنهم صبغوها بصبغة جديدة هي نشر المدنية والرقي[(٢)].

وأما بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد اغتبط المسلمون كافةً بهذا الانتصار العظيم الذي اتخذ طابعًا دينيًا، فلو انهزم المغرب في هذه المعركة لأصبح مستعمرةً برتغالية لعدة قرون فضلاً عن أن عملية تنصير أهله أو قسم منه لا بد أن تدخل في السلوك السياسي للحكام البرتغاليين، كما كان من غير المستبعد أن يوسعوا أطماعهم شرقًا فيحتلوا المغربين الأوسط والأدنى، وقد يتعاونون في ذلك مع دول أوربية أخرى؛ ليرغموا الأتراك على الانسحاب منها؛ لذا فإن انتصار المغاربة في هذه المعركة قد عزز جانب الدولة العثمانية[(٣)].

أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ/ ١٥٧٨ – ١٦٠٣م):

تمت مبايعته لأول مرة بوادي المخازن بمجرد الإعلان عن وفاة أخيه المعتصم، ثم جددت له البيعة بفاس على يد علمائها بعد أن لحق بهم علماء مراكش وغيرها من مختلف المدن المغربية[(٤)]. ويمثل عهد أحمد المنصور – الذي يعد أشهر السلاطين السعديين، وأحد عظماء حكام المغرب – أوج ازدهار الدولة السعدية، وأحد أزهى العهود في التاريخ المغربي[(٥)]؛ حيث يعتبر أول من وضع نظامًا ثابتًا للحكومة المغربية، ونظم جهازها الإداري والعسكري والضريبي، وبشكل استمرت الحكومة المغربية عليه حتى وقت إعلان الحماية الفرنسية على البلاد سنة ١٩١٢م[(٦)]، كما قام بإعادة تنظيم الجيش المغربي بصورة تضمن مزيدًا من إخلاصه للدولة وسياستها الجديدة، فاستكثر من الجنود الأندلسيين، والأسرى المسيحيين والمرتزقة من الأتراك والأوربيين، ثم السودانيين، وتمكن في النهاية من تكوين جيش نظامي حديث مكون من فرق متعددة، موحدة الزي، منظمة الصفوف، مسلحة بأحدث الأسلحة النارية؛ حتى ظل هذا

---

(١) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٨٥ – ٨٦؛ جاك كاييه: المرجع السابق (١)، ح٢٠، ص ٢١٥؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٧٤؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٢) محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٧٥؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٦١؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٨١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩١.

(٥) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٨٨.

(٦) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

النظام العسكري قائمًا في المغرب قرونًا عديدة[١].

وقد كان أول عمل قام به أحمد المنصور بعد إتمامه بيعته أن أمر بدفن جثة أخيه عبد الملك المعتصم؛ فدفن بمراكش وفقًا لرواية الإفراني والناصري[٢]، أو بفاس وفقًا لرواية المؤرخ المجهول[٣]، أما جثتا المتوكل ودون سبستيان؛ فقد أمر المنصور بسلخ جلد ابن أخيه المتوكل وحشوه تبنًا وأرسله إلى مراكش؛ ليراه الناس على تلك الحالة، ويعتبرون به، ولقب من أجل ذلك بالمسلوخ[٤]، وأما جثمان دون سبستيان فقد افتداه خلفه وخاله فيليب الثاني مع من افتدى من أسرى البرتغال[٥]، ثم كتب إلى السلطان العثماني وسائر البلاد الإسلامية المجاورة مخبرًا بالانتصار في وادي المخازن، وبتوليته الحكم في المغرب، وفي فاس استقبل وفود الدول التي جاءت تهنئه بهذا الانتصار باسم ملوكها من استانبول والجزائر وإسبانيا وفرنسا[٦].

ورغم استقبال أحمد المنصور لهذه الوفود السياسية بحفاوة بالغة، لحرصه على الحفاظ على نوع من الصلات الودية مع الدول المجاورة، وبخاصة الأتراك والإسبان[٧]، إلا أن السفير التركي استشعر إهمالاً من جانب المنصور؛ فذهب مغاضبًا إلى بلاده، وعظم الأمر للسلطان العثماني الذي أمر علوج على قائد الأسطول العثماني بغزو المغرب[٨]، كما أن الوالي التركي بالجزائر حسن البندقي تزوج أرملة المعتصم، وأصبح يحتضن الأمير الصغير إسماعيل بن المعتصم لغاية بعيدة يهدف إليها السلطان العثماني[٩]، وقد ضيع هذا التهديد التركي على أحمد المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد في الشواطئ المغربية (سبتة، طنجة، أصيلا، البريجة)، وأجبره على التقارب إلى الإسبان، بل ووعدهم

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٦٢؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٤٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢١٦ – ٢١٧.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨٦؛
De Castries, H.,: Le Cimètiere de Djama El-Mansour, Hespéris, Tome VII, Libraire Larose, Paris, 1927, pp. 349 - 450.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٦؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٦٥ – ٦٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٨١.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٨؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ٢٣؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٦٠.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٨١ – ٨٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩١ – ٩٢.

(٧) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٨) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٨٥ – ٨٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩٥؛ محمد حجي: العلاقات المغربية التركية، ص ١٦؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٩) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١١٠.

بالتنازل عن مدينة العرائش[١].

وفي تلك الأثناء أصيب المنصور سنة (٩٨٧ هـ / ١٥٧٩م) بمرض عضال كاد أن يذهب بحياته، وبعد شفائه اقترح عليه وزراؤه ومستشاروه ترشيح ابنه محمد الشيخ المأمون وليًا للعهد، وقد أدى هذا الإجراء إلى ثورة الأمير داود بن عبد المؤمن بن محمد المهدي بجبل سكسيوه، ثم بهوزالة، لكن تمَّ سحق هذه الثورة بفضل القائد محمد بن إبراهيم الذي طارد داود حتى اضطره إلى الانسحاب إلى بلاد السوس والتجأ عند بني معقل، حيث تُوُفِّيَ هناك سنة (٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م)[٢]، وقد جعل نجاح أحمد المنصور في القضاء على هذه الثورة، واكتساح القوات الإسبانية للأراضي البرتغالية، وإلحاق الهزائم المتوالية بمقاومة الأمير البرتغالي دون انطونيو، السلطان العثماني مراد الثالث يفكر في وسيلة أخرى يبرر بها تدخله في المغرب، فاقترح على المنصور في رسالتيه المؤرختين برجب سنة (٩٨٨ هـ / سبتمبر ١٥٨٠م) عقد تحالف عسكري ضد الإسبان على أساس إمداده بأسطول حربي وقوات عسكرية، وقبل في الوقت نفسه زواج المنصور من إحدى بناته، غير أن المنصور تثاقل عن الرد لتأكده من عدم صدق نوايا الأتراك تجاهه، وبأنهم غير جادين في محاربة الإسبان بعد أن جددوا معهم اتفاقية الهدنة في ٢٥ يناير سنة ١٥٨١م، أي أن الأمر لا يخرج عن كونه وسيلةً لغزو المغرب، وضمه إلى الدولة العثمانية[٣].

وأمام إصرار المنصور على موقفه أعطيت الأوامر لعلوج علي قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب، وقد وصل بالفعل إلى الجزائر في جمادى الثانية (٩٨٩ هـ / يونيه ١٥٨١م)، وما أن علم المنصور بخبر الحملة حتى سارع بحشد قوات جرارة رابط بها عند نهر تانسيفت بدعوى أخذ البيعة مصافحةً لابنه محمد المأمون، ووجه إلى جانب هذه الاستعدادات العسكرية، سفارةً خاصةً إلى استانبول يشكر السلطان العثماني على تهنئته وهديته، ويعتذر عما يكون حدث من تقصير في جانب السفير التركي، فلم يجد السلطان العثماني بدًا من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر علوج علي بالعودة إلى الشرق[٤]. وكانت هذه آخر محنة في العلاقات المغربية التركية، تلاها ثلث قرن من المودة والصفاء، لم تنقطع خلاله السفارات بين

---

(١) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٢٠ — ١٢١.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٢٦ — ٣١؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٨٣ — ٨٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩٢ — ٩٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٧٧.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١١١ — ١١٢.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٨٥ — ٨٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٩٥ — ٩٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٢؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٦ — ١٧.

استانبول والجزائر ومراكش[١].

ونظرًا لتراجع الأتراك عن تهديدهم للمغرب، ودخولهم في نوع من المسالمة مع المنصور، عرفت العلاقات المغربية – الإسبانية وجهة أخرى؛ إذ أخذ المنصور في التريث وعدم التسرع في تنفيذ ما وعد به الإسبان، وتأكيدًا لهذا الموقف الجديد عمد إلى تحصين مدينة العرائش وإمدادها بقوات عسكرية للدفاع عنها، بل ووجه قوات عسكرية لتدعيم سلطانه على الريف وكل الشمال المغربي باعتبار أن هذه المناطق كانت محط أطماع الإسبان[٢]، كما ازداد تمسكًا بأسرى وادي المخازن، خاصة الأيدي الخبيرة منهم؛ ليستغلهم في مشروعاته العسكرية والصناعية والعمرانية وغيرها[٣]، كما أنه تحالف مع الأتراك ضد الإسبان خاصة بعد هزيمة إسبانيا في معركة الأرمادا أمام الإنجليز في أغسطس ١٥٨٨م، وأخذ يسعى جادًا لتحرير الثغور المغربية وتقديم المساعدة للموريسكيين داخل المغرب وخارجه؛ لذا لا يمكن فهم العلاقات المغربية الإسبانية خلال هذه الفترة إلا من خلال العلاقات المغربية التركية كعنصر مؤثر فيها[٤].

كما كان هناك عنصر مهم أثر على طبيعة العلاقة بين أحمد المنصور وإسبانيا، هو التقارب الجديد مع الإنجليز، وما أبدته ملكتهم إليزابيث من جدية في تسليح الجيش المغربي، وإمداد المنصور بكل ما يلزمه من أجل بناء قوات عسكرية في البر والبحر، ولتطوير اقتصاديات البلاد من جراء التجارة بين البلدين؛ وذلك للحيلولة دون تقاربه مع الإسبان والتنازل لهم عن العرائش وتمكينهم من احتكار التجارة المغربية، مما جعل المنصور ينحاز إلى المعسكر البروتستانتي الذي تتزعمه إنجلترا – ويضم هولندا وفرنسا إلى جانب إنجلترا- للوقوف في وجه الهيمنة الإسبانية على أوربا الغربية وشمالي المحيط الأطلسي[٥]، حتى لقد اتفق مع إليزابيث على مساعدة أحد أدعياء العرش بالبرتغال على الاستقلال في الوقت الذي كانت البرتغال قد أصبحت تابعة للتاج الإسباني، وكذلك على القيام بغزو مشترك لإسبانيا، لكن وفاتهما في السنة نفسها (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) حالت دون ذلك[٦].

وحتى لا ينضم أحمد المنصور إلى خصوم إسبانيا، اضطر فيليب الثاني إلى الدخول مع المنصور في مفاوضات سرية، مبديًا استعداده للتنازل عن بعض مناطق الاحتلال الإسباني بالمغرب، بعد أن كان يطالب بالمزيد من هذه القواعد كالعرائش، وبالفعل تم التفاهم بين

---

(١) محمد حجي: المرجع نفسه، ص ١٧.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٣٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١١٤ – ١١٩.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١١٩.

(٤) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٩٥؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١١٧ – ١٢١.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٢٦، ١٣٠

الطرفين، وجلت القوات الإسبانية عن مدينة أصيلا سنة (٩٩٧ هـ / ١٥٨٩م)، وهنا يتجلى لنا جانب مهم من جوانب السياسة التي كان المنصور ينهجها، سياسة الحذر واستغلال الظروف؛ لتحقيق المزيد من الانتصارات دون خوض معارك حربية وإراقة دماء، وقد عبر الفشتالي عن ذلك بقوله: "فلم يزل – المنصور – يسدى في أمرها ويلحم، ويسرج في شأنها ويلجم، ويوعد ويعد، ويبني ذلك على أساس من المكايد حتى ضاق ذرع المشركين بها بالإرهاب، ورضوا من الغنيمة بالإياب"[١].

ومن أبرز صفات سياسة المنصور خلال المرحلة الأولى من حكمه تجاه القوى الكبرى بالشرق والغرب، المتمثلة في الأتراك والإسبان، هي السعي إلى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع أي من هاتين القوتين، ويؤدي به إلى الاصطدام والمجابهة، في الوقت الذي كان يرى في تربص بعضهما للآخر أقوى الضمانات التي تحول دون تعرض المغرب لأي هجوم خارجي، وقد أدرك مراد الثالث وفيليب الثاني هذا الجانب في سياسة المنصور، وأرغما تحت وطأة المشاغل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الأمر الواقع[٢]. فقد توجه الأتراك إثر الانتصارات العسكرية والدبلوماسية التي حققوها في إيران، نحو أوربا الشرقية لمهاجمتها، شجعهم على ذلك تصدع الجبهة المسيحية بأوربا الشرقية، والحروب القائمة بينها، وانهزام الإسبان في الأرمادا، وتوالي الحروب الدينية بأوربا الغربية. أما الإسبان فكانوا منشغلين برد الهجوم الإنجليزي ضد البرتغال وإسبانيا، وبحروب القوات الإسبانية بأوربا الغربية، وتدخلهم بفرنسا بدعوى تأييد الحزب الكاثوليكي ضد البروتستانت[٣]. فوجد المنصور في ذلك فرصةً عظيمةً لتحقيق آماله وطموحه، والتوسع نحو الجنوب حيث بلاد السودان الغربي[٤] المشهورة

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٢؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٣٤ – ١٣٥؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٤) يطلق اسم السودان على كل الأجزاء الجنوبية من القارة الإفريقية خلف الصحراء، أما السودان الغربي فهو كل أجزاء المنطقة التي تقع غرب بحيرة تشاد، واشتهرت منذ القدم بنهرها العظيم (نهر النيجر) الذي بعث الخصب والحياة في جميع المناطق التي يمر بها، وقامت على ضفافه عدة ممالك قوية كمملكة غانة ومملكة مالي ومملكة سنغاي أو كاغو باسم عاصمتها كما يسميها المؤرخون أحيانًا. وقد دخل الإسلام إلى بلاد السودان في القرن نفسه الذي ظهر فيه، وهو القرن السابع الميلادي، ولقد أسهم في نشر الإسلام ببلاد السودان التجار المسلمون والدعاة الذين جاءوا من وادي النيل ومصر بصفة خاصة ومن بلاد المغرب، ونشطت العلاقات المتنوعة طوال عصور التاريخ المختلفة، بحيث لم يحدث أن انعزل قلب إفريقيا تجاريًا أو ثقافيًا عن بقية أجزاء القارة، وعن آسيا وأوربا في أي فترة من فترات التاريخ، وزاد الاتصال وسهلت الرحلة والنقلة منذ استخدم الجمل في إفريقيا. ثم جاء دور المرابطين في القرن (٥ هـ / ١١م) الذين لم يقتصر دورهم على نشر الإسلام بين الوثنيين، بل شمل أيضًا إصلاح عقيدة المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام ولكن لم يلتزموا أحكامه، فلم يكونوا مسلمين في نظر المرابطين. فقد اجتمع =

بذهبها وغناها ووفرة منتجاتها، والتي كانت بعض سواحلها تخضع قبل ذلك للبرتغاليين الذين ضعفت دولتهم، وانقرضت إمبراطوريتهم منذ انهزامهم – كما سبقت الإشارة – في معركة وادي المخازن.

والواقع أنه منذ ظهور السعديين وقيام دولتهم بالمغرب، سعوا إلى البحث عن موارد ثابتة تمكنهم من توطيد أقدامهم وتساعدهم على تطوير الاقتصاد المغربي لما فيه من رفاهية البلاد وازدهارها، وكما استغل السعديون قصب السكر بسوس، وغيره من الثروات الزراعية والمعدنية؛ فقد سعوا إلى استغلال ثروات الصحراء المغربية الجنوبية كمعادن الملح بتغازة[1]، "الذي تمتار

= حول عبد الله بن ياسين الجزولي (ت: ٤٥١ هـ / ١٠٤٩م)، الزعيم الروحي للمرابطين، نحو ألف رجل في الرباط الذي شيده في جزيرة بالبحر عند مصب السنغال، اجتهدوا في نشر العقيدة والتعاليم الإسلامية الصحيحة، وأسلم على يديهم من لم يعتنق الإسلام من بربر الصحراء أمثال جدالة ولمتونة ومسوفة وغيرهم، ثم اتجهت حركة المرابطين بعد ذلك للجهاد في بلاد السودان في حياة ابن ياسين وفي زمن إمارة أبي بكر بن عمر اللمتوني (ت: ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧م) فاجتذبت تعاليمهم الكثير من زعماء التكرور والماندنجو، واحتلوا بعد ذلك مدينة كومبي صالح عاصمة مملكة غانة آنذاك عام (٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م) وعينوا عليها حاكمًا مسلمًا، وأرسلوا العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة، وبفضل هذه الحركة نشطت الاتصالات التجارية والثقافية بين بلاد السودان وبين العالم الإسلامي، ولا سيما شمال إفريقيا والأندلس، وهذا ما أتاح الفرصة لنشر الأفكار المتطورة والمدنية الإسلامية بين السود. انظر، بوفيل: المرجع السابق، ص ص ٧١، ٩٧ – ٩٨؛ إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية – دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ص ص ٤٧ – ٥٠؛ حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١م ص ص ٩٣ – ١٥١.

(١) تقع تغازة أو تغازى شمال الصحراء الغربية على مسير عشرين يومًا إلى الجنوب من طريق غانة، وكانت خاضعةً لنفوذ آل سكية حكام سنغاي يستغلونها لمصلحة دولتهم، وقد كانت أكبر منطقة منتجة للملح المصدر إلى بلاد السودان التي رغم ما تمتعت به من وفرة معدن الذهب وغيره من الثروات الكثيرة فإنها كانت تعاني قلة الملح وهي مادة ضرورية، حتى أصبح مادةً أساسية في المبادلات التجارية المغربية – السودانية،ويشير ابن بطوطة إلى قيمته النقدية في السودان الغربي، بقوله: "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعًا ويتبايعون به"، حتى لقد صار الطريق الغربي المار عبر سجلماسة وتغازة وولاته ليصل إلى السودان أهم محور في التجارة الصحراوية في العصور الوسطى. ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ت: ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٦٧٤؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨٠؛ محمد الشريف: ابن بطوطة ومظاهر أزمة التجارة الصحراوية في القرن (٨ هـ / ١٤م) بالنسبة للمغرب المريني، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي – تطوان، ١٩٩٩م، ص ص ١١٧ – ١١٩؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٩٣؛ قاسم الزهيري: الممالك الإسلامية القديمة في إفريقيا– مملكة=

منه سائر بلاد السودان"[١]. إذ أرسل محمد المهدي سنة (٩٥٠ هـ / ١٥٤٤م) إلى أسكيا (سكية) إسحق الأول ملك سنغاي[٢] في شأن التنازل عن معادن تغازة حيث يستخرج الملح، ولكن سكيه إسحق رفض وأرسل ألفين من الطوارق أغاروا على درعة، وقاموا بعمليات السلب والنهب دون أن يسببوا خسائر في الأرواح، فكان أن وجه محمد المهدي حملةً عسكريةً تقدمت نحو تغازة، وقتلت حاكمها من قبل سنغاي، وقضت على مظاهر السلطة السودانية بها[٣]، غير أن المهدي اضطر أمام مقاطعة السودانيين ملح تغازة والقوافل التي تمتار منه إلى أن يتخلى عن بعض إنتاجها لسكية دون أن تكون له أدنى سلطة على هذه المدينة[٤]، إلا أن الأوضاع تغيرت — فيما يبدو — إثر مقتل المهدي على يد الأتراك، وبسبب الظروف الداخلية الصعبة التي عرفتها المغرب بعد مقتله، فاستأثر سكية بمصالح تغازة وعائداتها الوافرة. وما إن تولى أحمد المنصور، وأخذت أوضاع الدولة الداخلية والخارجية تعرف نوعًا من الاستقرار، بدأ في رسم سياسة توسعية

= سغاي (٤)، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الخامسة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، يوليو ١٩٦٢م، ص ٨١.

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٢) سنغاي: أو صغي: لا يعرف على وجه التحديد تاريخ قيام هذه المملكة، على أن المؤرخين العرب ويوافقهم المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي مجمعون على أن أصل نشأتها يرجع إلى القرن السابع الميلادي، أي يوافق ظهور الإسلام، إذ كانت في الأصل مقاطعةً صغيرةً على ضفاف نهر النيجر الأوسط بالقرب من مدينة كاغو، وتعاقب عليها ملوك من أسرة (دجة) لا يعرف أصلهم بالضبط، يحتمل بعض المؤرخين أنهم من العرب، ويذهب آخرون أنهم من البربر، ويبلغ عدد الملوك الذين تربعوا على كرسي المملكة أربعة عشر قبل أن يعتنق الإسلام الملك "دجة كسوى" وذلك في أوائل القرن (٥ هـ / ١١م)، وبقيت هذه المملكة قائمةً لا شأن لها إذ خضعت لإمبراطورية غانة ثم لمملكة مالي، إلى أن قام أحد أمرائها ويدعى بعلي كولين بالاستقلال عن إمبراطورية مالي سنة ١٤٦٤م، ثم استطاع إلحاق الأقطار المجاورة له والتي كانت خاضعةً لمالي إلى ملكه حتى تكونت له مملكة شاسعة الأطراف، ثم خلفه على العرش أحد أعوانه المقربين واسمه محمد توري، وعرفت عائلة الملك من ذلك الوقت بعائلة سكية، وكانت هذه المملكة تشتمل قسمًا كبيرًا من صحراء الجزائر وموريتانيا ومالي والسنغال وغينيا وسيراليون وفولتا العليا والنيجر وشمال نيجيريا. وقد ضعفت هذه الإمبراطورية في القرن (١٠ هـ / ١٦م) نتيجة اصطدام نفوذها بنفوذ دولة برنو التي ظهرت في هذه الفترة وازدهرت خلال حكم إدريس الثاني وإدريس الثالث إلى أن انتهت على يد أحمد المنصور الذهبي، ولم تقم قائمة بعد القرن (١١ هـ / ١٧م) للممالك الإسلامية من هذا النوع على ضفاف نهر النيجر وفي عموم إفريقيا الغربية. قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ص ٧٩ — ٨٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٤٦ — ١٤٧؛ حسن عيسى عبد الظاهر: المرجع السابق، ص ص١٣٩ — ١٥١.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٤٨؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٧٩.

خاصة، أساسها التمركز في مواقع استراتيجية مهمة في الصحراء المغربية التي تشتهر بواحاتها ومعادنها وبأهميتها في طرق التجارة والمواصلات، ثم اتخاذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها أولاً، ثم بلاد السودان ثانياً[١].

وقد شجعه على ذلك – فضلاً عن الأسباب السابقة- توجيه ملك برنو سنة (٩٩٠ هـ / ١٥٨٢م) رسالة إلى أحمد المنصور يستنجده فيها لإخضاع بعض قبائل السودان التي تمردت عليه، وذلك بعد أن أخفق مسعاه لدى السلطان العثماني، فاشترط المنصور على ملك برنو أن يدخل في طاعته أولاً، وأرسل له نص البيعة. ولم يلبث هذا الملك أن وجه جوابه بالموافقة، فتقوى عزم المنصور على الشروع في تنفيذ سياسته التوسعية بالصحراء وبلاد السودان[٢].

وكانت أولى خطوات أحمد المنصور لتحقيق سياسته التوسعية، هي استيلاؤه على إقليمي توات[٣]وتيكورارين[٤]- الواقعين الآن في الأراضي الصحراوية الجزائرية- وقد كانا يتمتعان بحكم ذاتي، ويخضعان للملوك المغاربة الذين يمدون نفوذهم إلى تلك الجهات[٥]. وقد قرر المنصور فتح توات وتيكورارين شعوراً منه بالدور المهم الذي ستقوم به هاتان المنطقتان

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٦١ – ٦٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٠٤ – ١١١؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٤٨ – ١٤٩؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٦٥.

(٣) توات: إقليم مغربي يقع في الجنوب الشرقي للمغرب جنوبي إقليم فجيج، وتقع أهم واحاته على نهر الساورة وسائرها واقع في شرقه، وقد أقام المنصور بعد سيطرته لهذا الإقليم بتنظيم شئونه الإدارية بعد الانحلال الذي أصابها منذ دب الضعف إلى الدولة المرينية، وظل إقليم توات مثلما كان من قبل جزءاً من التراب المغربي إلى أن احتلت فرنسا الجزائر، فرغب المستعمرون في الاستيلاء على هذا الإقليم لعزل باقي المغرب عن طرابلس والسودان، ولم تزل تغتصبه جزءاً جزءاً حتى احتلته – جميعه- في بداية القرن العشرين، وضمته إلى المقاطعات الصحراوية الجنوبية التي كانت تديرها الولاية العامة الفرنسية بالجزائر. وقد احتج سلاطين المغرب وحكوماته المتعاقبة – في حينه – على الاعتداءات الفرنسية، وأيدتهم العديد من الدول في موقفهم لا سيما إنجلترا، ويمتلك المغرب العديد من الوثائق الدولية التي تثبت اعتداءات فرنسا وحق المغرب في ذلك الإقليم، والمؤمل أن يصل المغرب مع شقيقه الجزائر إلى حل مرضٍ لهذه المشكلة – التي لا زالت قائمةً حتى الآن – وينهيا التركة الاستعمارية لخير البلدين (خريطة ٢). انظر، المقري: المصدر السابق، ح ٢١، ص ٣١.

(٤) تيكورارين: كلمة بربرية عربت الآن بكورارة، وهي اسم لمنطقة فسيحة واقعة في شمال إقليم توات بين العرق الغربي وهضبة تدمايت ووادي الساورة، وفيها تقع واحات تبلكورة وطلمين وشروين وأولاد سعيد، وتينميمون ووكروت والخنافسة ودلدل وقصور كرارة التي تقع في وسطها، وهو يقع الآن كتوات بالأراضي الجزائرية (خريطة ٢). المقري: المصدر السابق، ح ٢٢، ص ٣١.

(٥) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٧٧.

لتحقيق أطماعه التوسعية ببلاد السودان: "وأمل أن يجعلها ركاباً إلى استفتاح أقطار السودان والاستيلاء على ممالكهم"[١]. كما أن احتلاله لهاتين المنطقتين يمكنه من قطع الطريق على الأتراك بالجزائر إذا ما فكروا في التوجه نحو بلاد السودان وغربي إفريقيا بوجهٍ خاصٍ، لغنى المنطقة الاقتصادي، ووفرة ثرواتها ولمركزها الاستراتيجي المهم كبلد له سواحل طويلة على المحيط الأطلسي، أصبحت أداة المواصلات الأولى بين أوربا الغربية والشرق الأقصى بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ولن يعدم السلطان العثماني ما يسوغ به تدخله في هذه البلاد التي تدين بالإسلام بصفته خليفة المسلمين، خاصةً إذا أرسل إليه سكية ملك هذه المنطقة يطلب النجدة والمساعدة ضد المنصور[٢].

وجه أحمد المنصور سنة (٩٩١ هـ / ١٥٨٣م) حملتين عسكريتين لفتح توات وتيكورارين واحدةً من فاس بقيادة محمد بن بركة، والأخرى من مراكش أسند قيادتها إلى أحمد بن الحداد العمري المعقلي، وبعد أن التقت القوات الفاتحة بسجلماسة زحفت إلى تيكورارين حيث حاصرت تينميمون قاعدة هذا الإقليم، ففتحت عنوةً بفضل الأسلحة النارية التي تتوفر عليها القوات السعدية: "وانقاد بانقياد تينميمون سائر أقطار تيكورارين، وأتوا طاعتهم راهبين" [٣]. وبعد هذا قصدت هذه القوات مدينة تمنطيط قاعدة إقليم توات، فأسرع رئيسها الشيخ عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن إلى إعلان طاعته للمنصور، إذ: "علم أنه لا طاقة له بمقاومة الحصار، ودفع العساكر عنه بالقتال ..... ودخل في حزب الجماعة، ثم سابقه إلى الطاعة رؤساء البلاد وأعيان القطر ...... وأتوا راغبين راهبين"[٤].

وهكذا حقق المنصور الخطوة الأولى من سياسته في السودان، واعتبر هذا النصر بمثابة عامل مشجع على التمادي في طريق التوسع والفتح: "وامتدت عينه – أيده الله – إلى فتح ما وراء ذلك من بلاد السودان" [٥].

أما الخطوة الثانية؛ فقد جاءت عقب وفاة الملك السوداني إسحق بن داود سنة (٩٩٠ هـ / ١٥٨٢م)، الذي كانت تربطه بالمنصور روابط حسنة، إذ أرسل المنصور وفداً إلى كاغو[٦] سنة (٩٩١ هـ / ١٥٨٣م) لتقديم التعازي في الملك الراحل، ولتهنئة الملك الجديد، ثم

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٢؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٠.
(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٠.
(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٣٧ – ٣٨.
(٤) الفشتالي: المصدر نفسه، ص ص ٣٨ – ٣٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٥٠ – ١٥١.
(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥.
(٦) كاغو: مدينة عتيقة تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر وترتفع ٢٦٤ متراً فوق سطح البحر، وكانت فيما مضى عاصمةً لمملكة سنغاي، أما الآن فهي تتبع جمهورية مالي وتقع على بعد ١٢٥٠ كم عن باماكو عاصمة مالي. المقري: المصدر السابق، ج١، ص ١٥٩.

الاطلاع على أحوال البلاد كلها[١]، والتعرف على سكية الحاج محمد، وموقفه من قضية معادن الملح بتغازة التي كان المنصور يرى أحقية استغلالها بحكم أن والده محمد المهدي قد انتزعها من السودان، وضمها إلى المغرب — كما سبقت الإشارة: "فرأى — أيده الله — أن المعدن لبيت المال، وأن إباحة ملحه بغير قيمة فيه تضييع مال المسلمين وحقوقهم فيه"[٢]. عاد الوفد المغربي إلى المنصور، وقد حمله سكية الحاج محمد بهدايا عظيمة، غير أنه أكد للمنصور في الوقت نفسه عزمه على عدم التنازل له عن معادن الملح بتغازة[٣].

وانتهى الأمر بأن قرر المنصور التدخل عسكريًا؛ لانتزاع المعدن المذكور، ومهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة بين سوس ودرعة شمالاً ونهر النيجر جنوبًا، حتى: "يستعين بها وبما تستاق العساكر منها من الكراع والظهر المجلوب من زكاة أعراب الفلاة والأمم المجاورة لها من أهل الوبر، وغيرها من ممالك السودان على أمر الحركة إلى جهة الجنوب" [٤]. ولتحقيق هذا الهدف وجه المنصور سنة (٩٩٢ هـ / ١٥٨٤م) حملةً عسكريةً بقيادة محمد بن سالم وعبد المولى بن عيسى: "فحصل أمير المؤمنين — أيده الله — على ما أراد وما كان يأمل من الاستعادة بكثرة الظهر على ما اجتمع عليه من الحركة إلى سكية بجهة الجنوب" [٥].

واستمرارًا لسياسة المنصور التوسعية بالسودان، وجه سنة (٩٩٤ هـ / ١٥٨٦م) حملةً عسكريةً إلى تغازة تمكنت من السيطرة عليها، وأمر بفرض ضريبة مقدارها مثقال من الذهب على كل حمل من الملح يستورده السودان[٦]، مما جعل سكية يأمر بمقاطعة المغاربة بتغازة وعدم التعامل معهم، :" فرأى صاحب السودان ما يحصل من عظيم الربح والمنفعة في ذلك لأمير المؤمنين، فسعى في تعطيل ذلك وإفساده، ونادى في سائر أعماله وبلاده باقتطاع ملح ذلك المعدن، ومنع العير التي تمتار منه من الورود به إلى بلاده" [٧]. ويبدو أن هذا الموقف قد

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٥١ — ١٥٢.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) الفشتالي: المصدر نفسه، ص ص ٥٩ — ٦١؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٢. يشير البعض إلى أن الجيش السعدي وصل إلى غينيا دون أن يحصل على نجاح يذكر، لما أصاب الجيش من الجوع والعطش الذي أهلك منه قسمًا عظيمًا قبل بلوغه وادان، لذلك لم تحقق هذه الحملة ما كان يراد منها مما اضطر المنصور إلى إعادة النظر في استعداداته اعتبارًا لبعد المسافة وتغير الطقس وانعدام التموين بسهولة في عين المكان. إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨١.

(٦) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٣؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٧) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥.

أغضب الكثير من السودانيين؛ - لأن تغازة كانت المورد الوحيد لهم، وهم البعيدون عن الشاطئ للحصول على الملح[١]- مما أدى إلى قيام ثورة في شهر ذي الحجة سنة (٩٩٤ هـ / نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٦م)، أطاحت بحكم سكية الحاج محمد وجعلت البلاد تدخل في مرحلة من الفوضى الداخلية، إذ تولى سكية محمود أخ الملك المعزول في محرم (٩٩٥ هـ / يناير ١٥٨٧م)، إلا أنه تُوُفِّيَ في السنة نفسها، وخلفه أخوه سكية إسحق الثاني الذي تمت بيعته في ٣ جمادى الأولى سنة (٩٩٦ هـ / ١٠ إبريل ١٥٨٨م)[٢].

وفي سنة (٩٩٧ هـ / ١٥٨٨م)، وبينما كان أحمد المنصور في مدينة فاس، وصل إلى مراكش سوداني فار من ملك سنغاي، وبينما يذكر الفشتالي أن هذا السوداني هو أخو ملك سنغاي سكية إسحق الثاني بن داود، وأن اسمه علي، وكان من المعارضين على تولية إسحق الحكم، فقام الأخير بالقبض عليه وإبعاده عن السودان إلى تغازة[٣]، نجد أن صاحب "تاريخ السودان" يذكر أنه كان يسمى كرنفل، وأنه لم يكن من الأسرة المالكة نفسها، بل كان يخدم سكية إسحق الثاني الذي سجنه بتغازة سبب سوء سيرته فهرب منه إلى مراكش[٤]، أيا ما كان الأمر؛ فقد كتب هذا السوداني رسالةً إلى أحمد المنصور يقدم له نفسه، بأنه الأخ الأكبر لسكية الذي اغتصب منه عرشه، وطلب من المنصور أن يحتضن قضيته، ووعده بأن يجزل له المكافأة على ذلك[٥]، وقد كان وصول هذا السوداني فرصةً عظيمةً مكنت المنصور من الاطلاع على حقيقة الأوضاع بالسودان وما كانت عليه البلاد من فوضى وانقسام داخلي[٦]، كما أن خطابه زود المنصور بحجة وعذر ليبادر بغزو السودان[٧]. ولذلك قرر المنصور أن يبعث بخطاب جديد إلى إسحق الثاني يخبره فيه بأن ممالح تغازة تدخل ضمن حدود مملكته، وعليه بإلغاء المقاطعة، وعودة القوافل السودانية لتمتار الملح منها مع تمسك المنصور بفرض مثقال على كل حمل، وأخيرًا أخبره المنصور بأنه وضع أخاه الثائر تحت حمايته، ولوح لسكية بإمكانية مساعدته في استرجاع عرشه؛ لأنه مستعد لإعلان طاعة

(١) لقد أدت هذه المقاطعة إلى اكتشاف السودانيين لمناجم تاوديني – المشهورة حتى الآن- الواقعة بين تغازة وتمبكتو، لكن مناجم تاوديني لم تكن لتسد المطالب العاجلة للسودانيين آنذاك. بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٣؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٥٦ – ٥٧.

(٤) السعدي (عبد الرحمن عبد الله بن عمران بن عامر، ت: ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٦م): تاريخ السودان، نشره هوداس، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٦٤م، ص ١٣٧.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٧؛ السعدي: المصدر السابق، ص ١٣٧؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٦) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٧) بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٩.

المنصور وللاستجابة لرغباته متى استقر له الأمر بالسودان[١].

رفض سكية إسحق الاستجابة لمطالب المنصور، و"التسليم في ذلك المعدن، بل قبح له الكلام في الجواب، وبعث له صحبة جوابه حرشانًا ونعلين من حديد"[٢] ؛ ليبرهن عن إشهار الحرب ضده، وأنه بعد انتصاره على المنصور سيضعهما في قدميه، مما أثار المنصور ودفعه إلى التعجيل بالتدخل في السودان ضد سكية إسحق بعد أن فشلت المحاولات السلمية في إقناعه[٣].

ولكن كان على المنصور أن يتصرف بحذر؛ إذ أن هذه الحرب من الممكن أن تضع قيودًا على شعبه الذي يستفيد فائدةً كبيرةً من التجارة مع السودان، وبالتالي فإنها ستضر بهذه التجارة- إن لم تحطمها- كما أن الجيش الذي أرسله سنة (٩٩٢ هـ / ١٥٨٤م) هلك في الصحراء ومحاولة إرسال جيش آخر قد تدعو إلى انفجار الروح الثورية التي ما زالت – كما سنوضح فيما بعد – تفور تحت السطح؛ لذا عقد المنصور مجلسًا للشورى جمع العلماء والمستشارين الذين يركن إلى رأيهم ليحصل على موافقتهم في القيام بالحملة التي ينوي القيام بها[٤]. وقد اتخذ المنصور من إمكانية استغلال خيرات السودان للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ضد أعداء الإسلام، وإنقاذ الأندلس وإرجاعها إلى حظيرة الإسلام، سببًا قويًا لتبرير فتحه لهذه البلاد، ولتوحيد قوة الإسلام تحت راية قائد واحد، ثم إن سكية إسحق ليس قرشيًا، ويفتقر إلى شروط الملك الضرورية[٥].

لقد لاقت فكرة أحمد المنصور معارضةً صريحةً من قبل علماء مجلسه ومستشاريه، بل إنهم قالوا له صراحةً وبدون مواربة – وفقًا لرواية الإفراني – إن هذه الفكرة لا تخطر "ببال السوقة فكيف بالملوك" [٦]، وقد قرنوا معارضتهم بأسباب المعارضة، فبين المغرب وبلاد السودان صحراء واسعة موحشة تفتقر إلى الماء والمراعي، ومن هنا يصعب اجتيازها، كذلك عدم تفكير أي من الدول السابقة التي حكمت المغرب – رغم قوتها- كالمرابطين والموحدين والمرينيين في

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٥٤ – ١٥٥؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٢) السعدي: المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٨١.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٤؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٢؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٨٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٦٥ – ٦٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٩٠ – ٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٦؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ١٨٩ – ١٩٠.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٣.

القيام بمثل هذه المخاطرة[١]،: "وما ذلك إلا لما رأوا من صعوبة مسالكها، وتعذر مداركها، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول" [٢].

وما إن انتهى العلماء من إبداء رأيهم حتى رد عليهم المنصور بما جعلهم يتراجعون، ففيما يتعلق ببعد المسافة والأخطار المحدقة بها فقد لفت أنظارهم إلى أن التجار الذين لا يملكون استعداداً كاستعداد الجيوش يغامرون فرادى وجماعات، ويقطعون هذه الصحراء بانتظام إلى تلك البلاد دون انقطاع، وفيما يخص عدم تفكير الدول السابقة بفتح السودان، فبين لهم أن المرابطين والموحدين قد شغلوا بغزو الأندلس والنزاع مع المسيحيين، كما شغل بنو مرين بعدهم بحرب بني عبد الواد بتلمسان، أما الآن فقد سد الطريق إلى الأندلس بعد استيلاء الإسبان عليها، ولم نعد في حرب مع تلمسان أو بقية الجزائر بعد استيلاء الأتراك عليها، فضلاً عن ذلك، فإن جيوش الدول المغربية السابقة كانت تستخدم الأسلحة التقليدية من سيوف وحراب وغيرها، ولم تكن الأسلحة النارية والبارود قد عرف بعد، أما اليوم فقد جهز الجيش السعدي بهذه الأسلحة، في حين لا زال السودانيون لا يملكون إلا الحراب والسيوف، وهي أسلحة لا قيمة لها إذا قورنت بالأسلحة الحديثة، من هنا فستكون أمامنا حرب سهلة ناجحة، وستعود على البلاد بفوائد أكثر من محاولة إخراج الأتراك من شمال إفريقيا الذين يبذل لأجلهم مجهوداً كبيراً وتعود بنفع قليل[٣]. لم يسع العلماء إلا الامتثال لرأي المنصور، وقالوا له: لقد "ألهمت الصواب، ولم يبق لأحد ما يقول، وصدق من قال: عقول الملوك ملوك العقول" [٤].

وهكذا تقرر مصير مملكة آل سكية، فأخذ المنصور يجهز جيشًا ضخمًا بما يلزمه من خيل وإبل وبغال ومدافع وقذائف وبارود وبنادق ومهاريس وخشب لصناعة سفن خفيفة لعبور الأنهار، وبراميل لحمل الماء، وغير ذلك من عتاد حربي[٥]، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول مجموع الجيش الذي يتراوح — حسب الروايات — بين ثلاثة آلاف فقط واثنين وعشرين ألفاً،

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٦؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ١٩٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٣.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٦٥ — ٦٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٩١ — ٩٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١١٣ — ١١٤؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ١٩٠ — ١٩١؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٤.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٦٦ — ٦٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢١؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

ولكن يبدو أن الصحراء الواسعة بين المغرب وبلاد السودان منعت من استخدام الأعداد الهائلة، وحتمت استخدام قوة صغيرة ذات كفاية عالية، وتجهيزات كاملة ونقل متوفر لتكون أقدر على الوصول إلى سنغاي[١]. وقد عقد المنصور على هذا الجيش للقائد جؤذر باشا، وتم استعراض القوات الفاتحة بظاهر مراكش في السادس عشر من ذي الحجة سنة (٩٩٨ هـ / ١٥٩٠م)، غير أنها لم تتحرك إلا في مطلع شهر المحرم سنة (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م)[٢].

سلكت الحملة المسلحة طريقًا خاصًا نحو السودان عرف فيما بعد بـ "طريق جؤذر[٣]"، فقد تجمع الجيش في واد تانسيفت متخذًا طريقة في ثنية الكلاوي ثم درعة، حيث تزود الجيش من جديد بالماء والقمح والشعير والتمر، ثم أخذ في اختراق الصحراء المغربية الجنوبية متجهًا نحو لكتاوا فتندوف وتغازة وتاوديني ثم كارابار على نهر النيجر وتمبكتو، ثم قصدوا كاغو عاصمة سنغاي بعد أن قطع الجيش نحو ألفي كيلو متر خلال أربعة أشهر تقريبًا (خريطة ٣)، ثم وجه جؤذر رسالة إلى سكية إسحق يطلب منه الدخول في طاعة المنصور، لكن إسحق رفض هذا العرض، وجمع جيشًا يتراوح ما بين ٨٠ ألفًا و ١٠٤ ألفًا مسلحين بالرماح والسيوف والسهام، ويصحبهم عدد من السحرة، وكان في مقدمتهم قطيع كبير من الثيران التي اقتادها لتبث الفوضى بين صفوف مهاجميهم، وليحتمي بها من قصف المدافع[٤].

وفي السادس عشر من جمادى الأولى سنة (٩٩٩ هـ / ١٣ مارس ١٥٩١م) التقى الجيشان على بعد ٣٠ كم من كاغو شمال تنديبي، وكانت الثيران التي احتمى بها السودان أول من تخلى عن مكانه فزعًا من قصف المدافع التي قتلت عديدًا من السودان الذين لم يغن عنهم تفوقهم العددي أمام الأسلحة النارية والنظام المتفوق الذي كان للمغاربة، ولم ينته النهار حتى وقعت الهزيمة على الجيش السوداني، وفر سكية في شرذمة من قومه بعد أن أعطى الأمر بإخلاء كاغو العاصمة، فدخلها الجيش السعدي منتصرًا بعد أن نهب أسلاب السودان[٥]. غير أن آمال جؤذر قد خابت حينما لم يجد بكاغو ما كان يتوقعه من كنوز الذهب، ويرجع ذلك إلى الأوضاع الداخلية السيئة التي شهدتها بلاد السودان خلال السنوات العشر الأخيرة من

---

(١) السعدي: المصدر السابق، ص ١٣٨ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢١ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ٢٦٩.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص٦٧ — ٦٨ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢١.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٦٨ — ٧٠ ؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٣ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٢١ — ١٢٢ ؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٥٩ — ١٦١ ؛ إبراهيم حركات:المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٦٩ ؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ١٩٥ — ٢٠٣.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٧٠ — ٧١ ؛ السعدي: المصدر السابق، ص ١٤٠ ؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٤ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٢.

القرن العاشر الهجري (٩٩٠ – ٩٩٩ هـ / ١٥٨١ – ١٥٩١م) بسبب عدة عوامل أهمها استبداد الحكام، وتمرد الولاة في المناطق المختلفة، وعدم تحديد مبدأ لوراثة العرش، الأمر الذي جعل الخروج والثورة على الحكم الطريق الوحيد لتولي السلطة، ونتيجةً لكثرة الحروب الداخلية المستمرة وما صاحبها من تخريب وتدمير، تفشت المجاعات والأوبئة[1].

فتح سكية باب المفاوضات بعد أن فقد عاصمته وقدرته على المقاومة، فوجه رسلاً إلى جؤذر يطلب منه الهدنة مقابل الدخول في طاعة المنصور، ودفع مائة ألف مثقال من الذهب وألف عبد، وأن يؤدي ضريبةً سنويةً، واشترط أن ينسحب الجيش المغربي، ويعود إلى المغرب، ويترك أمر مملكة سنغاي لآل سكية[2].

لم يجد جؤذر أمام الظروف التي أحاطت بجيشه سوى قبول المفاوضة؛ لأنه كان – كرجال جيشه- يشعر بخيبة الأمل، إذ لم يتبدد حلمه في ثروة السودان فحسب، بل بدأ المرض يتفشى بين أفراد جيشه، ومات عدد منهم، فكانت رغبته الوحيدة أن يعود أدراجه بأسرع ما يستطيع، ولكنه لم يكن يملك سلطة وضع الشروط مع العدو، ولذا رفع عروض إسحق إلى المنصور في رسالة عبر فيها عما قاساه رجاله في الصحراء، كما وصف حالتهم المؤسفة وفقر البلاد التي فتحوها بهذا الثمن الباهظ[3].

لم تحدث رسالة جؤذر سرورًا للمنصور، بل احتقر الشروط التي عرضها سكية إسحق، ولم يصدق قصة فقر مملكة سنغاي؛ فمنذ قرون والذهب ينصب إلى الشمال عبر الصحراء في كميات لا تدع مجالاً للشك في وجود مخازن ضخمة في مكان ما في السودان الغربي، فصمم المنصور على أن يستبدل بجؤذر قائدًا آخر أقل منه تساهلاً وأكثر حزمًا، يستطيع أن يخرج من السودانيين ثروتهم، وسر الذهب الذي يخرج من بلادهم. فجهز جيشًا جديدًا عقد عليه للقائد محمود بن زرقون، وأعطى الأمر بعزل جؤذر. قطع هذا الجيش الصحراء في مدة يسيرة إلى أن وصل إلى مدينة تمبكتو في السادس والعشرين من شوال (٩٩٩ هـ / ١٧ أغسطس ١٥٩١م)، وشرع القائد محمود في تنظيم القوات المغربية لمتابعة الحرب ضد سكية إسحق حتى الاستسلام أو القضاء عليه، ثم أخذ يلاحق سكية إسحق فوقعت ثلاث معارك دامية انهزم فيها ما تبقى من جيش إسحق الذي فر إلى الأدغال فعزله قومه، وما لبث أن اغتيل على يد أحد رعاياه، وتولى بعده أحد إخوته، ولكنه لقي المصير نفسه على يد القائد محمود، وبموته انتهت مملكة سنغاي،

---

(١) السعدي: المصدر السابق، ص ص ١٤١ – ١٤٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٦٠ – ١٦١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٢٢.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص٧٩ – ٨٠؛ السعدي: المصدر السابق، ص ١٤١؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٢؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٧٩ – ٨٠؛ السعدي: المصدر السابق، ص ١٤١؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وخضعت لحكم أحمد المنصور، وذلك في مطلع سنة (١٠٠٠ هـ/ ١٥٩١م)[١]. واعتمادًا على ما ذكره الناصري: "انتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب إلى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر"[٢].

أرسل القائد محمود إلى أحمد المنصور يخبره بالفتح والقضاء على سكية إسحق، وبعث له هدايا عظيمة من جملتها: "ألف ومائتان من متخير الرقيق الجواري والغلمان، واربعون حملاً من التبر، وأربعة سروج ذهبًا خالصًا"[٣]. وغير ذلك حتى كان المنصور: "لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي، وكانت ببابه كل يوم أربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى وشبه ذلك، ولأجل ذلك لقب بالذهبي؛ لفيضان الذهب في زمانه"[٤]. وقد كان لفتح السودان صدًى عظيم في البلاط السعدي؛ حيث أقيمت احتفالات رسمية بالمناسبة، وألقيت فيها قصائد شعرية تهنئ المنصور بانتصاره[٥].

وبالرغم من ذلك لم يذعن أهل مملكة سنغاي للأمر الواقع، فسرعان ما انتظمت المقاومة من جديد برئاسة نوح سكية بن داود، ودامت هذه المقاومة أزيد من أربع سنوات لم يستطع القائد محمود ولا القواد والجنود الذين بعثهم المنصور لنجدة جيشه في السودان إخمادها. لقد كانت مقاومةً شعبيةً تترصد لجيش الاحتلال، وتهاجمه وتلحق به خسائر فادحة، حتى أصبح هذا الجيش لا يستطيع الخروج من الحواضر الثلاث، كاغو ودجيني وتمبكتو، ولم تنهار المقاومة المنظمة إلا بعد وفاة نوح هذا، حيث أصبح انهيار إمبراطورية السنغاي حقيقة كاملة، لتلحق بالإمبراطوريتين غانة ومالي[٦].

لقد ترتب على فتح بلاد السودان الغربي عدة نتائج، منها: تمكن أحمد المنصور من توسيع رقعة نفوذه فشملت مجموع الأراضي الواقعة شمال نهر النيجر، كما نشر الأمن في مناطق الصحراء النائية التي كانت فيما قبل ملجأ للثوار والمتمردين، وشملت سلطة الملك

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٨١ – ٨٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٣؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٢.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٥.

(٣) الناصري: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٥.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٨٧ – ٩٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٨٤.

(٦) السعدي: المصدر السابق، ص ١٥٣ وما بعدها؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٣؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ٢١١ – ٢٢٢.

السعدي مملكة برنو الواقعة شرقي السودان[١]. أصبح المنصور يحصل بحرية على معدن الذهب الذي تحتوي عليه أراضي السودان، حتى إن مجموع ما كان يحصل عليه المنصور من ذهب السودان قد بلغ – وفقاً لتقدير الوثائق المعاصرة – نحو الستين قنطاراً في كل سنة[٢]، وبذلك حقق ما كان يصبو إليه من تنمية اقتصاد المغرب، وإحداث عملة ذهبية ثقيلة، صارت لها قيمة دولية، حتى قيل- كما سبقت الإشارة - إن ألفاً وربعمائة مطرقة كانت تقوم بضرب الدينار الذهبي في دار السكة بمراكش، وكان الطلب شديداً على هذا الدينار في الأسواق[٣]. وتكاثرت بفضل هذا الذهب المنشآت المعمارية والصناعية، كما شهدت التجارة الخارجية نشاطاً لم يعرف له مثيل من قبل[٤]. ولم يكن الذهب هو الشيء الوحيد الثمين الذي يحصل عليه المنصور من السودان، بل كانت لديه رغبة قوية في طلب الرقيق والعاج والأبنوس والزبد وغير ذلك من الأشياء الثمينة[٥].

وعلى الرغم من هذه المكاسب المادية التي حصل عليها المنصور فإنه لم يجن ربحاً معنوياً يذكر؛ فقد انقضت جيوشه بقسوة على جنود مسلمين أبرياء غير متكافئين معهم تسلحاً وتنظيماً. وكان من الممكن قبول الشروط التي تراضى عليها ملك سنغاي والقائد جؤذر منذ الحملة الأولى، ولكن أهداف المنصور لم تكن عسكرية وسياسية فحسب[٦]، بل كانت كذلك اقتصادية لاستغلال ذهب السودان في الاستعدادات العسكرية التي كان بصددها لغزو شبه

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٨٥ – ٨٦؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٧١؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٣.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٧٣؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٩٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧١؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ص ٢٣١ – ٢٣٤. استطاع المرابطون منذ سنة (٤٤٥ هـ / ١٠٥٣م) التحكم في مناجم ذهب غانة وطرق تجارته، وقد أدى هذا إلى تراكم الذهب بأيدي المرابطين وبالتالي تمكنوا من سك دينار وصلت درجة نقائه إلى ٩٦٪، مما جعله يتصدر العملات المعاصرة له سواء الإسلامية منها أم المسيحية، بل واتخذ مرجعاً في الأوساط الدولية آنذاك، لدرجة أن شدة الإقبال عليه جعلت بعض الباحثين يطلقون عليه وصف "دولار العصور الوسطى". انظر، محمد المغراوي: مسائل العملة والصرف والأسعار في العصر المرابطي من خلال "فتاوى ابن رشد"، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م، ص ص ٦٣ – ٦٤.

(٤) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٨٥؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٣٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٧٦ – ١٧٧.

(٥) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٢٥؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨٥؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٧١.

الجزيرة الايبيرية[١].

أما بالنسبة لنتائج الفتح على بلاد السودان، فالواقع لم يحصل أهل هذه البلاد على نتائج ملموسة في الميدان السياسي أو الفكري أو الاقتصادي بعد خضوعهم للدولة السعدية، بل إن بعض المراكز التي عرفت عصراً علمياً مزدهراً قبل التدخل السعدي كتمبكتو وكاغو، خلت بعد هذا التدخل من معظم علمائها ومثقفيها، ونفي الكثير منهم إلى مراكش مصفدين في الحديد - لمعارضتهم لهذا الفتح - وعلى رأسهم العلامة الشهير أحمد بابا السوداني (ت: ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م)[٢].

على أن فتح الجيش السعدي لبلاد السودان الغربي أتاح للتأثيرات المعمارية والفنية المغربية أن تتدفق - أكثر من ذي قبل- على بلاد السودان الغربي، إذ أن أول ما اهتم به قادة الجيش بعد الفراغ من العمليات العسكرية، هو بناء قصبات في مختلف المدن السودانية؛ لمراقبتها واستقرار الحاميات بها، كتغازة[٣] وتمبكتو وكلن[٤]، وغيرها. وقد كانت هذه القصبات شبيهة بمثيلاتها الموجودة بمناطق الجنوب المغربي القريبة من الصحراء[٥]، ولا يزال الأثر المغربي يبدو واضحاً في فن البناء بتلك البلاد، وكذلك في الخزف والملابس والطعام[٦]، فقد استقر أعقاب الجيش المغربي بالسودان الغربي، وانصهروا في أهله عن طريق النسب، وكونوا جيلاً جديداً بالمناطق التي استقروا بها؛ فجمعوا بين محاسن وعيوب أصولهم والأرض الجديدة التي استوطنوها[٧]. ومهما يكن الأمر فإن تدخل الجيش السعدي ببلاد السودان لا يمكن أن يقاس بالتدخل الاستعماري الأوروبي الذي جعل من الأفارقة مجرد أداة لخدمة أهدافه[٨]، ولا يمكن الاتفاق مع الرأي القائل بأن الغزو المغربي لهذه البلاد يمثل أحلك حلقة في تاريخها[٩].

هكذا نجح أحمد المنصور في تأسيس إمبراطورية عظيمة بغرب إفريقيا لا تقل أهمية وغنى عن الإمبراطوريتين المعاصرتين: العثمانية والإسبانية، ونجح كذلك في المحافظة على

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٦٦؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٧١؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٠؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ٨٤

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٤) السعدي: المصدر السابق، ص ص ١٤٢ - ١٥٣.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨٦.

(٦) بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٨٦؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٧٢.

(٨) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٩) بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٣٠.

استقلال دولته، وعلى العزة التي أسبغها عليه انتصار وادي المخازن، الشيء الذي رفع من قدره، وجعله في مصاف الملوك العظام الذين عرفهم الربع الأخير من القرن (١٠ هـ / ١٦م)، وصارت له شهرة تردد صداها في الشرق والغرب[١].

وعلى الرغم من ذلك لم يخل عهد المنصور من بعض الثورات الداخلية التي لم تكن لها نتائج عميقة الأثر، باستثناء ثورة ابنه وولي عهده محمد المأمون[٢]. فبخلاف ثورة داود بن عبد المؤمن سنة (٩٨٧ هـ / ١٥٧٩م) التي سبقت الإشارة إليها، قامت سنة (٩٩٦ هـ / ١٥٨٨م) ثورة بجبال غمارة بشمال المغرب على يد رجل يدعى ابن قراقوش، وقد اجتمع حوله عدد كبير من الأنصار، فأعلن الرجل نفسه خليفةً، وتلقب بأمير المؤمنين، فأرسل إليه المنصور حملةً عسكرية تمكنت من قتله، والقضاء على ثورته[٣].

ثم جاءت بعد ذلك ثورة الناصر بن السلطان عبد الله الغالب بالله، الذي انضم في معركة وادي المخازن إلى معسكر البرتغال إلى جانب أخيه السلطان محمد المسلوخ، ثم التجأ إلى الإسبان بعد هزيمة البرتغال في هذه المعركة، وتقدم بطلب النجدة ضد عمه أحمد المنصور، إلا أن الملك الإسباني لم يلتفت إليه بسبب مشاغله الداخلية والخارجية، وللعلاقات الودية التي كانت له مع المنصور آنذاك. ولما انهزم الإسبان في معركة الأرمادا ضد الإنجليز — كما سبقت الإشارة — وأبدى أحمد المنصور تأييده ومساعدته للأمير البرتغالي دون أنطونيو المطالب بعرش لشبونة، وغالى في التعامل مع المعسكر البروتستانتي واليزابيث ملكة إنجلترا بصفة خاصة، أخذ فيليب الثاني ملك إسبانيا يترقب الفرص لإزعاج المنصور والإطاحة به، وزاد من تبرمه تمكن المنصور من فتح السودان الغربي، فدعا الملك الإسباني الناصر إلى الثورة ضد عمه، وزوده بجيش جرار معظمه من الموريسكيين الذين وجدوا في ذلك فرصةً للفرار من

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٤٤ ؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٤٠. من بين مظاهر الشهرة التي اكتسبها المغرب الأقصى وحكامه في العصر السعدي، أن كثيراً من أدباء أوربا اتخذوا من أحداث المغرب البارزة وشخصياته المعاصرة موضوعات لكتاباتهم القصصية والمسرحية، ومن أشهرهم الشاعر المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير (ت: ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م) الذي أكثر من استخدام أحداث المغرب في آثاره الأدبية،حتى أن أحد النقاد المعاصرين أحصى الإشارات إلى المغرب والمغاربة في مسرحيات شكسبير فتجاوزت الستين. ومن أبرز الشخصيات المغربية عنده ثلاث: اليهودي هارون، والأمير السعدي ابن أحمد المنصور، والقائد عطيل. محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ص ٧١ — ٧٧.

(٢) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٨٦.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٤٦ — ٤٨ ؛ وقد ذكر كل من الإفراني والناصري أن هذه الثورة قامت سنة (٩٩٣ هـ / ١٥٨٤م)، غير أننا نرجح رواية الفشتالي لأنه شاهدعيان جدير بالاعتماد عليه. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ١٦٢ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٧.

جحيم التعصب الديني، نزل الناصر بمدينة مليلية يوم الثلاثاء ٢٧ شعبان ١٠٠٣ هـ الموافق ٩ مايو ١٥٩٥م، وأعلن منها الثورة ضد عمه أحمد المنصور. وقد تمكن من الحصول على تأييد قبائل الريف وسكان تازة وناحية مكناس، وبعد عدة معارك طاحنة بين الناصر وجيش المنصور بقيادة ابنه محمد المأمون، تمكن الناصر من إحراز النصر في المصادمات الأولى بسبب تراجع بعض القبائل عن المأمون، غير أن هذا الأخير استطاع سحق هذه الثورة، وإلقاء القبض على الناصر واعتقاله، ثم احتز رأسه سنة (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦م)[١].

ويكفي لإظهار خطورة هذه الثورة أن المنصور أمر بإقامة الاحتفالات، وجلس لتلقي التهاني وسماع القصائد، وكاتب جميع ولاته بالداخل وبالسودان، وبعض الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي الدينية منها والسياسية، يعرفهم بالنصر والقضاء على الثورة[٢]. ورغم ذلك فإن ثورة محمد المأمون تعد أعظم منها خطرًا، وترتب عليها نتائج عميقة الأثر على تاريخ الدولة السعدية بعد وفاة المنصور.

لقد رشح أحمد المنصور ابنه محمد المأمون لولاية العهد – كما سبقت الإشارة- سنة (٩٨٧ هـ / ١٥٨٤م) وجعله نائبًا له بفاس. لم يلق اختيار المأمون لخلافة المنصور ارتياحًا من قبل المغاربة، ولا من لدن إخوته وأسرته، فقد كان سيئ السيرة، ولا يحفل بشعائر الدين فضلاً عن اغتصابه لأموال السكان ليهبها لبعض القبائل التي كان والده قد نكبها بسبب تأييدها لثورة الناصر، مثل: أولاد طلحة والخلط وأولاد حسين وقبائل الجبال، ورغم معارضة أبيه له في ذلك فقد تمادى في سياسته واستعان بهذه القبائل في جيشه، بل واتضح أنه حاول أن يدبر انقلابًا ضد والده؛ ليتولى مكانه حيث استغل الأوضاع المضطربة التي تعرضت لها البلاد من جراء الطاعون منذ عام (١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩م)، وقبل أن يقدم المنصور على اتخاذ اي إجراء ضد ابنه حاول إصلاح أموره بكل الوسائل، ولكن بدون جدوى، فخرج إليه من مراكش بقوات جرارة في مطلع جمادى الأولى سنة ١٠١١ هـ الموافق منتصف أكتوبر ١٦٠٢م، وحاصر ابنه الذي فر من فاس، والتجأ إلى زاوية الشيخ أبي الشتاء ببلاد فشتالة في جبال الأطلس، فقبض عليه وسجن بمكناس التي ظل بها إلى أن فر من السجن في عهد زيدان، واستمرت ثورته بعد ذلك سنوات عديدة[٣].

---

(١) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٩٤ – ١٠٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٠٠ – ١٠٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٤٥ – ١٤٦؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١٩١ – ٢٠٣؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٨٦ – ٨٧.

(٢) لفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٠٣ – ١٠٨؛ السعدي: المصدر السابق، ص ص ٢٠٢ – ٢٠٣؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٧١ – ٧٧؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٧٣ – ١٨٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٦٩ – ١٧٨؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢١٩ ==

وفيما كان أحمد المنصور بمدينة فاس بعد قضائه على ثورة المأمون، أصيب بمرض عضال من جراء وباء الطاعون الذي تسلط على المغرب، واستمر من سنة (١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩م) إلى سنة (١٠١٦ هـ / ١٦٠٧م)، وأهلك العديد من سكان المغرب وشخصياته البارزة، وكان أحمد المنصور من ضحايا هذا الوباء؛ حيث تُوُفِّيَ في شهر ربيع الثاني سنة ١٠١٢ هـ الموافق أغسطس ١٦٠٣م، وقد دفن أولاً بفاس الجديد ثم نقل إلى مراكش حيث دفن بقبور السعديين[1]. على أن هناك رواية أخرى تشير إلى أن المنصور مات مسمومًا، سمته زوجته عائشة بنت أبي بكر الشيبانية أم ولده زيدان؛ لأنه أوصى ببيعة ابنه أبي فارس، وتذكر الرواية نفسها أنه تُوُفِّيَ بينما كان متجهًا من فاس إلى مراكش، فكتم جؤذر موته حتى دخل مراكش[2]. غير أن الإفراني يدحض هذه الرواية، ويؤكد أن سبب وفاته هو الوباء المذكور[3].

مهما يكن الأمر، فبموت أحمد المنصور طويت صفحة مشرقة من صفحات التاريخ المغربي، لما عرفته البلاد بعده من محن وأهوال تجلت في وباء الطاعون والمجاعة والحروب الأهلية، وتجسد رواية التمنارتي المعاصر الأوضاع التي سادت البلاد بعد وفاة المنصور، حيث "نزل الأرض بذلك ما نزلها، ونالها من الفساد ما نالها، طاش لها الوقور ..... ووضع النفيس، وارتفع الخسيس، وفشا العار، وخان الجار، ولبس الزمان البؤس، وجاء بالوجه العبوس ... ووردت المهالك، وسدت المسالك، وعم الجوع ....فإنا لله وإنا إليه راجعون، فيالها من مصيبة! ما أعظمها!"[4].

ثالثاً- مرحلة التدهور والضعف (١٠١٢ - ١٠٦٩ هـ / ١٦٠٣ - ١٦٥٨م):

كان للأزمة الاقتصادية التي عرفها المغرب في السنوات الأخيرة من حكم أحمد المنصور، أثرها الواضح في ضعف الدولة السعدية، وقد نجمت هذه الأزمة عن وباء الطاعون الذي تعرضت له البلاد – كما سبقت الإشارة – منذ سنة (١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩م)، ومات بسببه كثير من سكان المغرب، كان من بينهم أحمد المنصور، الذي بموته انهار تمامًا البناء الذي شيده بفعل تنازع أبنائه على السلطة، وما صاحب ذلك من حروب وفتن واضطرابات في وقت كان الوباء لا

= ٢٢٢؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٧٣.

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢١٩ – ٢٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٨٦ – ١٨٧.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٧٧ – ٧٨؛ السعدي: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٨٧.

(٤) التمنارتي (أبو زيد عبد الرحمن الجزولي، ت: ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠م): الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط بدار الوثائق بالرباط، رقم د ١٤٢٠، ص ١٩٤. عن عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٢٦، ٣٢٨.

يزال يفتك بالعديد من الأرواح[١].

والواقع أن المنصور قد حاول تفادي نزاع أبنائه من بعده، فقام بإجراءين أولهما مبايعة أكبرهم وهو محمد المأمون كولي للعهد، وثانيهما تقسيم البلاد بين أبنائه، فولي المأمون على فاس، وأبا فارس على منطقة سوس، وأبا الحسن غلى مكناسة، وعقد لزيدان على تادلة[٢]، إلا أن ذلك كان بدون جدوى؛ حيث جعل كلاً منهم يعتقد أنه أحق بالملك من سائر إخوته، فبمجرد وفاة المنصور دخل أبناؤه الثلاثة: زيدان وأبو فارس والمأمون في نزاع دائم على السلطة، جر البلاد إلى التمزق، وكان سببًا في اشتعال الثورات بمختلف الجهات، فاندلعت ثورة ابن أبي محلي بالجنوب، وثار يحيى الحاحي وأبو حسون بسوس[٣].

زيدان بن أحمد المنصور (١٠١٢ – ١٠٣٧ هـ / ١٦٠٣ – ١٦٢٧م).

تُوُفِّيَ المنصور ولم يكن قد عهد لأحد أبنائه بولاية العهد، بعد أن ثار عليه ولده البكر محمد المأمون خليفته بفاس، وولي عهده السابق، فقبض عليه وأودعه السجن بمكناس – كما سبقت الإشارة- وما إن أعلن خبر وفاة المنصور حتى بويع زيدان بفاس بتدبير من أعيانها وقضاتها، وبموافقة قادة الجيش، وما إن علم أهل مراكش بخبر الوفاة والبيعة حتى قاموا بمبايعة أبي فارس، ولم يوافقوا على تولية زيدان الذي لم يكن معروفًا لديهم لتواجده بتادلة طوال فترة حكم والده المنصور، وزاد الأمر تعقيدًا عندما أخرج أبو فارس أخاه محمد المأمون من سجنه بمكناس ونقله إلى مراكش[٤].

كان من المتوقع أن يسعى العلماء وذوو الرأي والنفوذ لحل هذه المشكلة، وتجنيب العرش هزةً عنيفةً قد تعرض الدولة للانهيار، وكان من واجب الأمراء المتنازعين أن يبتعدوا عن روح الأنانية، ويذعنوا لرأي الجماعة، غير أن علماء فاس ما إن بلغهم خبر مبايعة أهل مراكش لأبي فارس حتى أفتوا بوجوب قتال المراكشيين؛ عملاً بحديث: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما" [٥]. وهكذا بدأ الصدام بين الأخوين، فالتقى الجيشان بمكان يدعى حواته على

---

(١) صدقي علي آزايكو: فتاوى بعض علماء الجنوب بخصوص نظام "إينفلاس" بالأطلس الكبير الغربي في أوائل القرن السابع عشر. بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م، ص ١٦٣.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١١٦ – ١١٧؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(٣) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ٢٣ – ٢٤.

(٤) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٧٨ – ٧٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩٠ – ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٣ – ٤.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٤. وهذا الحديث أورده=

ضفة نهر أم الربيع، ولم يحضر أبو فارس المعركة بنفسه، بل أسند قيادة جيشه لأخيه المأمون بعد أن أخرجه من السجن، وأسفرت المعركة عن انهزام زيدان وفراره إلى تلمسان، وتقوى المأمون بما انضم إليه من جند أخيه المنهزم؛ فتنكر لأبي فارس، وأعلن نفسه ملكًا على فاس بعد أن استولى عليها[1]. وبهذا الإجراء الذي اتخذه المأمون في منتصف سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) تصبح هناك مملكتان سعديتان، إحداهما بفاس والأخرى بمراكش، غير آن هذه الأخيرة كانت أوسع نفوذًا وأكثر استقرارًا[2].

بعد استيلاء محمد المأمون على فاس انقلب على أخيه أبي فارس، ووجه جيشًا إلى مراكش بقيادة ابنه عبد الله، فوقعت الهزيمة على أبي فارس الذي لاذ بالفرار، واستولى عبد الله بن المأمون على مراكش، وعاث فيها فسادًا هو وجيشه، مما جعل أهلها يستقدمون زيدان ويبايعونه، وفي تلك الأثناء وردت قوات من فاس إلى عبد الله بن المأمون فتمكن من إلحاق الهزيمة بجيش زيدان عند تافيلالت، واسترجع عبد الله مراكش فاستباح أموالها، وارتكب فيها أقبح الأعمال، مما جعل أهل مراكش يثورون عليه، ويبايعون محمد بن عبد المؤمن بن محمد المهدي الشيخ، ثم عادوا يستقدمون زيدان مرةً أخرى فتغلب على محمد بن عبد المؤمن، واستعاد مراكش سنة (١٠١٦ هـ / ١٦٠٧م)، ثم استرجع فاس بعد أن هزم عبد الله بن المأمون عند وادي أبي رقراق، فالتجأ المأمون إلى الإسبان يطلب نجدتهم، ونظرًا للاضطرابات التي قامت بمراكش اضطر زيدان للعودة إليها، فانتهز عبد الله بن المأمون هذه الفرصة واستولى على فاس، وكان برفقته عمه أبو فارس، الذي أصبح مجرد تابع لأخيه المأمون ثم لابنه هذا، وأخذ يدبر ليستولي على فاس؛ فقتله عبد الله بن المأمون خنقًا سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م)[3].

وما إن علم زيدان باستيلاء عبد الله بن المأمون على فاس حتى خرج من مراكش قاصدًا فاس ليستردها، فدخلها سنة (١٠١٩ هـ / ١٦١٠م) ثم التقى بجيش عبد الله عند رأس الماء[4]، فانهزم جيش زيدان، وعلى إثر هذه الواقعة تخلى زيدان نهائيًا عن فاس، وركز جهوده

= الإمام مسلم في صحيحه بلفظه عن أبي سعيد الخدري. انظر، مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م): صحيح مسلم، نشر وتحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، الجزء الثالث، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٨٥٣، ص ١٤٨٠.

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٨٠ — ٨٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩٢ — ١٩٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٥ — ٦.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٨.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٨٣ — ٩٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩٣ — ١٩٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٧ — ١٠؛ ١٢ — ١٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٢٧٨ — ٢٧٩؛ وللمؤلف نفسه: السياسة والمجتمع، ص ص ٩٣ — ٩٤.

(٤) يقع رأس الماء بسهل سايس على بعد ١٤ كم تقريبًا إلى الجنوب الغربي من فاس، وفي هذا المكان تقع=

في بسط نفوذه على مراكش والمناطق التابعة لها شمالاً وجنوبًا[١].

أما محمد المأمون فقد استطاع بعد عدة محاولات مع الحكومة الإسبانية التي لجأ إليها أن يحصل على وعد بمساعدتها له لاسترجاع ملكه من يد أخيه زيدان الذي طرده من فاس على أن يتخلى لها عن العرائش، وبالفعل سلمت المدينة إلى الإسبان سنة (١٠١٩ هـ / ١٦١٠م) في الوقت الذي استطاع ابنه عبد الله أن يسترد فاس من زيدان الذي عاد نهائيًا إلى مراكش وقد أغضب هذا الإجراء كل طوائف الشعب، فدعا المأمون علماء فاس إلى إصدار فتوى تجيز له التنازل عن العرائش للإسبان، وشدد الضغط عليهم بمختلف الوسائل، فتملص معظمهم من هذه المسئولية، فامتحن عددًا منهم، واضطر بعضهم للاختفاء عن فاس خوفًا من بطشه، وهروبًا من تبرير خيانته، وفي السنة نفسها استطاع المأمون أن يستولي على تطوان فازداد سخط أهل الشمال عليه، وأخذوا يتربصون به الفرصة حتى قتلوه سنة (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م)، ونقلت جثته إلى فاس حيث دفن بها[٢].

عقب مقتل المأمون استبد ابنه عبد الله بمقاليد الأمور بفاس، التي عرفت في عهده عدة اضطرابات بسبب سوء سيرته، وعيث أنصاره من عرب شراقة[٣]، فانقسم أهل المدينة بسبب ذلك إلى فريقين، مؤيدين له وهم أهل فاس الجديد، ومعارضين وهم أهل فاس القديم الذي استمر في محاربتهم من سنة (١٠٢٠ هـ / ١٦١١م) إلى وفاته سنة (١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣م) [٤]، ثم تولى من بعده أخوه عبد الملك بن المأمون إلى أن تُوُفِّيَ أواخر عام (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧م)، وقد دخل بعد

= العيون التي يبتدئ منها وادي فاس أو وادي الجواهر. Bel, A., : Op. Cit., p. 108

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٩٣ – ٩٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ١٨ – ١٩؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٧٩.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩٧ – ١٩٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٢٢ – ٢٣؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٩٤ – ٩٥؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٩١ – ٣٩٢.

(٣) الشراقة أو الشراكة (بالكاف المعقودة) هم أعراب من بادية تلمسان، سموا بذلك لأنهم قدموا من النواحي المتاخمة لشرقي المغرب، وقد اصطنعهم عبد الله بن الشيخ المأمون سلطان فاس واتخذ منهم جيشًا خاصًا يعتمد عليه، وكانوا في بادئ الأمر يسكنون قصبات فاس وفنادقها ثم أخرجوا من المدينة بسبب طيشهم وفسادهم، فسكن بعضهم منطقة ورغة الواقعة شمال مدينة فاس. وقد أحدثوا اضطرابات متوالية على الصعيد السياسي سواء في العصر السعدي أو العلوي. انظر، ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح ٢٨٤، ص ١٥٤؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٣٣ – ٢٣٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥٢؛ الجزء السابع، ص ٤١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢١٥؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ح ٣٩، ص ١٦٠.

(٤) ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح٢٨٧، ص ١٥٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٥٢ – ٥٩.

ذلك إلى فاس أحمد بن زيدان، وادعى الإمارة، فلم يتم له الأمر، وبذلك انقرض ملك السعديين في فاس بموت عبد الملك بن المأمون[١].

كان من الممكن أن تستقر الأمور نسبيًا لزيدان بعد مقتل أخويه، أبي فارس (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) والمأمون (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م)، لولا ظهور بعض الزعماء الشعبيين وشيوخ الزوايا الذين تسابقوا إلى حمل راية الجهاد لطرد المحتل من البلاد، ورأب الصدع الذي تعرضت له من جراء تقلص نفوذ أبناء المنصور وصراعهم على السلطة، وعجزهم عن القيام بواجب الجهاد ومقاومة المحتل؛ فقامت لذلك عدة ثورات شعبية استهدفت الاستيلاء على الحكم، والإطاحة بالعرش السعدي. ومن المؤسف حقًا أن ما عابه هؤلاء الثوار على الأمراء السعديين من صراعهم على السلطة، وتعريضهم البلاد إلى الخراب لم يلبثوا هم أيضًا أن تورطوا فيه، إذ لم يتمكن أي منهم من اكتساب نفوذ كاف للتغلب على الآخرين، فكانت النتيجة هي تمزق البلاد بينهم، ودخولهم في مواجهات مع بعضهم البعض جرت على البلاد مزيدًا من الحروب ومزيدًا من الفتن والاضطرابات[٢].

وقد اندلعت أولى هذه الثورات بالجنوب على يد ابن أبي محلى الذي كان فقيهًا قبل أن يتجه إلى التصوف، ويدعي المهدوية، وقد قام بالجنوب داعيًا إلى المعروف ناهيًا عن المنكر، ومعترضًا على تناحر أبناء أحمد المنصور الذي أدى إلى اختلال شئون الدولة، وانتشار الفساد، وما إن سلم المأمون مدينة العرائش لإسبانيا سنة (١٠١٩ هـ / ١٦١٠م)، حتى أظهر ابن أبي محلى الغضب والحمية للدين، فدعا الناس للجهاد، وأعلن ثورته فاجتمعت عليه العامة، وزحف بهم إلى سجلماسة فاستولى عليها، ثم استولى على درعة، وتوجه نحو مراكش فاقتحمها وأرغم زيدان على الفرار منها إلى سوس، واستقر ابن أبي محلى بقصر البديع قصر السلطان السعدي[٣]، وضرب نقودًا باسمه[٤]، ولعل في مسارعة ابن أبي محلى إلى اتخاذ هذا الإجراء علاقة بما يذكره عنه المؤرخ المجهول، من أنه اشتغل بالكيمياء وتحويل المعادن، إذ: "كان صاحب حكمة لم تنقطع النار في جيشه لتذويب الرصاص وصبغته"[٥].

وفي سوس توجه زيدان بن المنصور إلى زاوية الشيخ أبي زكريا الحاحي بجبل

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٠، ح١ من الصفحة نفسها.

(٢) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ٣١ – ٣٢.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ١٠١ – ١٠٢؛ السعدي: المصدر السابق، ص ص ٢٠٥ – ٢٠٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٠٠ – ٢٠٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٢٦ – ٣١

(٤) محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٤٤؛ Lavoix H.,: Op. Cit., pp. 492 - 493.
للاستزادة عن النقود التي ضربها هذا الثائر، انظر: عوض عوض محمد الإمام: نقود الصوفي الثائر أبو محلي ضد السلطان الناصر زيدان السعدي (١٠١٩- ١٠٢٢ هـ / ١٦١٠ – ١٦١٣م)، بحث تحت النشر.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ١٠١؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٤٤.

درن[١] طالبًا منه النجدة لاسترداد عاصمة ملكه والقضاء على منافسه ابن أبي محلى، فتوجه أبو زكريا سنة (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م)، والتقى بجيش ابن أبي محلى بقرب جبل جليز[٢]، فانهزم هذا الأخير، واحتزت رأسه، وعلقت مع رءوس جماعة من أصحابه نحو اثنتي عشرة سنة- وفقًا لرواية بعض المؤرخين- وبذلك استغرقت ثورة ابن أبي محلى نحو ثلاث سنوات[٣]. ويمكن القول إن هذه الثورة كانت نتيجة عوامل سياسية واجتماعية، وعلى الرغم من كل ما قيل حول طيش هذا الرجل، وتطلعه للسلطة، فإن ثورته كانت تفجيرًا لغضب جمهور الشعب، وسخطه على انتشار الفساد وخيانة الساسة[٤].

بعد أن قضى أبو زكريا الحاحي على ثورة ابن أبي محلى، ظل مقيمًا بمراكش في حين كان زيدان في آسفي ينتظر خروج أبي زكريا وجيشه إلى مقرهم بسوس؛ ليرجع هو إلى عاصمة ملكه. ولما رأى عدم تحرك أبي زكريا كتب إليه: "إن كنت إنما جئت لنصرتي، وكف يد ذلك الثائر عني فقد أبلغت المراد، وشفيت الفؤاد، وإن كنت رمت أن تجر النار لقرصك، وتجعل الملك من قنصك، فأقر الله عينيك به"[٥]. فاضطر أبو زكريا إلى مغادرة مراكش تحت ضغط أتباعه الذين رأوا أنهم أدوا واجبًا دينيًا فرضته عليهم بيعة السلطان التي في أعناقهم، وليس لهم بعد ذلك إلا العودة إلى زاويتهم بسوس. غير أن أبا زكريا لم يلبث أن استبدت به فكرة الرياسة؛ فأعلن الثورة بسوس على السلطان زيدان موهمًا أتباعه بأن عمله هذا يهدف إلى حماية الدين، وجمع كلمة المسلمين، وتوجه بهم إلى تارودانت فاستولى عليها من أيدي أبي حسون السملالي بعد معارك طاحنة، واتخذها عاصمةً لإمارته التي تمتد من تارودانت إلى زداغة[٦]، وظل ينافس كلاً من زيدان وأبي حسون السملالي أمير إيليغ[٧] حتى

---

(١) جبل درن أو أدرارن: هو الاسم القديم لجبال الأطلس، ويطلق بصفة خاصة على سلسلة جبال الأطلس الكبير ولا سيما جبال المصامدة القريبة من مدينة مراكش. ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ح٧، ص ص ١١ – ١٢؛ ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح٥٧٢، ص ٢٩١

(٢) جليز أو إيجليز (كليز – إيكليز): جبل يقع غربي مدينة مراكش تقلع منه الأحجار منذ العصر المرابطي. التادلي: المصدر السابق، ح ٢٣٨، ص ١٤٩.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ١٠٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٠٨ – ٢٠٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٣٢ – ٣٣.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٠٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٣٥، ٦٠ – ٦٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٦) تقع زداغة بمنحدرات الأطلس الكبير شمال شرق تارودانت بعيدة عنها بنحو سبعين كيلو مترًا (خريطة ٢). انظر، محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٥٥٩.

(٧) تقع مدينة إيليغ في بسيط تازروالت غربي زاوية سيدي أحمد بن موسى بين تيزنيت وتفراوت، أسسها أبو حسون السملالي سنة (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م)، لكنها لم تعمر أكثر من ستين سنة حتى دكتها مدافع=

وفاته سنة (١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦م) [١].

وإذا كان لسوس الفضل في إرساء قواعد الدولة السعدية، فإن إضعافها نتج كذلك عن قيام ثورة أبي حسون السملالي – الملقب ببو دميعة- بهذا الإقليم، حيث التفت حوله أغلب القبائل السوسية بعد أن خرجت هذه المنطقة عمليًا من سلطة السعديين، وعلى الرغم من أن أبا حسون بدأ ثورته في عهد أبي زكريا الحاحي فإنه لم يبرز كزعيم ثوري إلا بعد وفاة أبي زكريا سنة (١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦م)؛ حيث عاد إلى تارودانت التي كان مستوليًا عليها، وأخرجه منها أبو زكريا – كما سبقت الإشارة- وقوي نفوذه بعد وفاة السلطان زيدان، فشمل درعة وسجلماسة ونواحيها حتى صار في حوالي سنة (١٠٤٠ هـ / ١٦٣١م) أمير الجنوب المغربي بأكمله متخذا من مدينة إيليغ التي شيدها في أوائل سنة (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م) كعاصمة لإمارته، وتلقب بالسلطان[٢]، وضرب العملة باسمه كما فعل ابن أبي محلى[٣].

وقد اعترفت الدول الأوربية التي لها مصالح في المغرب بالأمر الواقع، فأخذت تفاوض أبا حسون بصفته صاحب الأمر في الساحل[٤]، وتعقد معه المعاهدات التجارية. في الوقت نفسه الذي كانت تتعامل مع السلطان السعدي فيما يرجع إلى منطقة نفوذه بمراكش وآسفي وناحيتهما، وتتعامل مع العياشي، ثم الدلائيين في شأن الثغور الواقعة شمالي نهر أم الربيع، وكانت هذه العلاقات الخارجية من أهم الأسباب التي دعمت نفوذ أبي حسون بسوس؛ إذ جعلته يتوفر على أرباح طائلة من الصفقات التجارية التي كان يعقدها مع الأوربيين، ويتزود منهم بالأسلحة والعتاد الحربي لتجهيز جيش قادر على الدفاع عن الأقاليم الشاسعة التابعة لإيليغ[٥].

وإذا كان الثائران: ابن أبي محلى وأبو زكريا قد أفل نجمهما سريعًا، فإن أبا حسون استطاع أن يوطد أركان إمارته عشرات السنين، ويستبد بالجنوب المغربي كله حينًا، وببعضه

= الرشيد بن الشريف العلوي أوائل عام (١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م) (خريطة٢). محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٠٥، ح١ من الصفحة نفسها.

(١) الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٣٥، ٦٠ – ٦٨؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ١٤٨.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٨٦؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٧٨ – ٧٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٩٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٤٨ – ١٤٩؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣١؛ محمد الفاسي: سوس عند الجغرافيين والمؤرخين، ص ١٦.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٤) يطلق الساحل على المنطقة الجنوبية الغربية الممتدة من أكادير إلى وادي نول. محمد حجي: المرجع السابق، ح١٨، ص ١٤٩.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، ص ١٤٩؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٣٣ – ٣٣٥.

حينًا آخر. واستطاع أن يقاوم الدلائيين[١] لفترة طويلة، إلا أنه لم يصمد أمام الحروب التي شنها عليه العلويون بعد قيام دولتهم، واضطر للانسحاب إلى سوس إلى أن تُوُفِّيَ سنة (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الذي تولى الأمر بعده إلى سنة (١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م)، وهي السنة التي تم فيها استيلاء الرشيد بن الشريف العلوي على سوس، واحتل إيليغ وهدمها على رءوس أهلها[٢] .

وعلى الرغم من انشغال زيدان بن المنصور بهذه الثورات المتتالية، ومحاولة إخمادها، وإقرار بعض الأوضاع الداخلية المضطربة، فإنه اهتم بتنظيم مقاومة الغزو المسيحي على الشواطئ المغربية، ولما كان الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالعياشي يمارس الجهاد بناحية دكّالة[٣] منذ حوالي سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) ضد البرتغاليين المحتلين

---

(١) الدلائيون نسبةً إلى دلاء قبيلة من صنهاجة، ومنها فخذ آل مجاط الذين كانوا يقطنون أعالي وادي ملوية، ثم استقر جدهم أبو بكر بن محمد المجاط الملقب بالوجاري والزموري بتادلة حيث بنى الزاوية الدلائية المشهورة وذلك بشرقي خنيفرة في قبيلة آيت إسحاق. وكان رئيس الزاوية يسمى أحيانًا صاحب جبل درن. وقد ولد أبو بكر هذا سنة (٩٤٣ هـ/ ١٣٣٦م) ولمع نجمه في عهد السلطان أحمد المنصور، وكان ذا فضل وعلم فأصبحت زاويته ملجأً لرجال التصوف، وبدأت الوفود تتوارد عليه حتى اشتهر أمره، ومع أن المنصور لم يرق له ظهور الدلائيين، فقد أبدى عطفه على حركتهم كرجال تصوف وعلماء دين، ولكن سرعان ما اتخذت هذه الحركة اتجاهًا سياسيًا بعد موت المنصور، وكانت وفاة أبي بكر هذا سنة (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م) فخلفه ابنه محمد الذي تُوُفِّيَ سنة (١٠٤٦ هـ / ١٦٣٧م)، ثم خلفه ابنه محمد الحاج (١٠٤٦ – ١٠٧٩ هـ / ١٦٣٧ – ١٦٦٨م) وهو أبرز رؤساء الزاوية وأطولهم عهدًا وفي عهده امتدت سلطة الدلائيين إلى مكناس وفاس وكل مناطق تادلة، وتمكن من هزيمة جيش محمد الشيخ الأصغر (الثالث) بن زيدان في بو عقبة سنة (١٠٥٠ هـ / ١٦٤١م)، واستولى على سلا وأكثر ناحية الهبط بعد مقتل العياشي سنة (١٠٥١ هـ / ١٦٤٢م)، كما أرغم العلويين الذين كانوا يمدون نفوذهم إلى أعالي وادي ملوية، بعد معارك متعددة إلى الالتجاء إلى سوس سنة (١٠٥٠ هـ / ١٦٤١م) فأصبح محمد الحاج يسيطر على تافيلالت ودرعة والصحراء، ثم اشتبك الدلائيون في حروب متوالية مع الرشيد العلوي الذي احتل زاويتهم سنة (١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م)، وبقي محمد الحاج مدةً في فاس ثم ذهب هو وأسرته إلى تلمسان حيث تُوُفِّيَ هناك سنة (١٠٨٢ هـ / ١٦٧١م)، وهكذا قضت أسرة الدلائيين قرابة ثلثي القرن (١١ هـ / ١٧م) في حكم جزء كبير من المغرب، وقد تمكنوا بفضل نفوذهم على عدد من موانئ المغرب خاصةً ميناء أبي رقراق أن يعقدوا بعض المعاهدات مع الدول الأوربية، وبخاصة هولندا التي كانت تجارتها الخارجية قد اتسعت في تلك الفترة. انظر، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٢٩٣ – ٢٩٥.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٨٦، ٣٠٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٧٩؛ الجزء السابع، ص ٤٠.

(٣) دكّالة: اسم لقبيلة بربرية ومدينة عتيقة بالمغرب الأقصى يحدها من الشمال والغرب المحيط الأطلنطي، ومن الشرق نهر أم الربيع، ومن الجنوب مدينة مراكش. ابن الخطيب: المصدر السابق، ج١، ص ١٥٠.

للجديدة (مازكان) بإذن من شيخه عبد الله بن حسون السلاسي (ت: ١٠١٣ هـ/ ١٦٠٤م)، فقد نصبه زيدان قائدًا على أزمور سنة (١٠٢١ هـ/ ١٦١٢م) عندما بلغته أخبار تضييقه على المحتلين، وانتصاره على جيوشهم في عدة معارك، فواصل حملاته الجهادية بصفة رسمية، وكانت تلك الحملات شديدة الوقع على المحتلين حتى ضاقوا به ذرعًا، فعمدوا إلى المكر والخديعة، واشتروا ضمائر حاشية السلطان زيدان بهدايا ثمينة لإبعادهم عنه، ونجحت المؤامرة حيث جهز زيدان حملةً قوية وجهها إلى مدينة أزمور للقبض على العياشي وقتله، فاضطر العياشي إلى النجاة بنفسه والعودة إلى مسقط رأسه فغادر منطقة دكّالة إلى سلا سنة (١٠٢٣ هـ/ ١٦١٤ — ١٦١٥م)، فوجد الإسبان قد احتلوا ثغر المعمورة قبل ذلك بعام، وقد استغاث السلويون حينذاك بزيدان فلم يجبهم بشيء، فاضطروا إلى الاعتماد على أنفسهم في مدافعة العدو المحتل، وقدموا عليهم المجاهد العياشي فور عودته، وبايعوه على الجهاد وإقامة الحدود. وبذلك نصب العياشي أميرًا للمجاهدين في سلا وسائر بلاد الغرب، وامتد نفوذه فشمل تطوان وأقاليم الشمال، واتسع نطاق جهاده فصار يتنقل بين المعمورة والعرائش وطنجة وسبتة ومليلية والجديدة للإغارة على الإسبان بالمعمورة والعرائش وعلى البرتغال بطنجة[1].

وقد حقق العياشي في أغلب هذه الغارات انتصارات جديرة بالتقدير، فهي وإن لم تحقق إجلاء العدو من الثغور المحتلة، إلا أنها كانت تستنزف قواته المادية والبشرية، وترغمه على الانكماش والتراجع؛ فقد انتصر على البرتغال بالمعمورة سنة (١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧م) بعد إحكام الحصار عليها، وحصوله على كثير من الغنائم والأسرى، كما تمكن من الانتصار عليهم أيضًا في نفس السنة في وقعة الغريبة، وفي سنة (١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩م) تمكن من الانتصار عليهم أيضًا قرب طنجة، وكان آخر انتصار له على البرتغال في حملته على الجديدة سنة (١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠م) أما الإسبان فقد انتصر عليهم مرتين بالعرائش سنة (١٠٤١/١٦٣١م)، واستمر في جهاده حتى مقتله على يد عرب الخلط سنة (١٠٥١ هـ/ ١٦٤١م)[2].

وقد تباينت الآراء حول شخصية العياشي هل كان مجاهدًا في سبيل الله مخلصًا لا يريد إلا وجه الله والدار الآخرة؟ أم كان إلى جانب الجهاد طالب ملك ودنيا وجاه؟ وهل بقي ملتزمًا طوال مسيرته الجهادية بمبدئه الصوفي الشفاف الذي انطلق منه؟ أم غالبته النفس والشيطان والهوى؟ وقد كانت هذه التساؤلات وغيرها موضوع فتوى فقهاء وشيوخ المغرب في

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٦٠ — ٢٦٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٢٤ — ٢٥، ٧٣ — ٧٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٥٤ — ١٥٥؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٥٠؛ كينيث براون: موجز تاريخ سلا (١٠٠٠ — ١٨٠٠م) ترجمة محمد جيدة وأناس لعلو، منشورات أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص ص ٥٩ — ٦٠.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٦٦ — ٢٧١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٧٥ — ٧٧، ٨٥ — ٩٢؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ٥٠ — ٥١.

ذلك العصر[١]. وعلى أية حال يمكن القول من خلال النشاط المتواصل الذي أبداه العياشي قرابة أربعين عامًا حتى وفاته، إن رغبته في الجهاد وإصلاح الأوضاع كانت صادقةً لأنه لم يهاجم جيوش الدولة السعدية إلا في حالة الدفاع[٢].

وفي الوقت الذي حول فيه العياشي مدينة سلا إلى ثغر للجهاد، نزحت إلى المغرب أفواج من مهاجري الأندلس على إثر قرار الطرد النهائي للموريسكيين من إسبانيا (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م)[٣]، على أن أهم جالية أندلسية قدمت إلى المغرب هم الهورناتشيون[٤] الذين استقروا على الضفة الجنوبية لنهر أبي رقراق حيث الرباط وقصبة الودايا (الأوداية)[٥]، ودخلوا في طاعة السلطان زيدان، لكنهم سئموا من سيطرة القائد الذي ولاه عليهم زيدان، فثاروا على هذا القائد وطردوه سنة (١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧م)، وقطعوا صلتهم بالسلطة السعدية، وكونوا الجمهورية الموريسكية بالرباط، ثم فعل سكان القصبة ما فعله جيرانهم فكونوا جمهوريةً ثانيةً مماثلةً، وذلك حوالي سنة (١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠م)، وربطت الجمهوريتين في بادئ الأمر علاقات طيبة مع المجاهد العياشي الذي كان نفوذه يمتد من سلا إلى تطوان، واعترفا بسلطته مع الاحتفاظ باستقلالهما الداخلي، وساعدوه في حركاته الجهادية، ثم ساءت العلاقات بين العياشي

---

(١) حول هذه الفتاوى، انظر، محمد حجي: موقف الفقهاء من حركة المجاهد العياشي السلاوي، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة – المحمدية، ١٩٩٥م، ص ص ١١٩ – ١٢٥.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣١٦.

(٣) للاستزادة حول هذه القرار والأسباب التي أدت إليه، انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٩٣ – ٤١٠؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، ص ص ١١٨ – ١٢٠.

(٤) نسبةً إلى مدينة هورناتشوس التي تقع وسط منطقة اكسترامادور في إقليم بطليوس جنوب غربي إسبانيا، بين إشبيلية وماردة، تبعد عن الأولى بنحو ١٧٠ كم شمالاً، وعن الثانية بنحو ٥٠ كم جنوبًا، وقد هاجرت مجموعة هورناتشوس وهي متماسكة، وهذا لم يتوفر في أي مجموعة أخرى كما حملوا معهم ثرواتهم المالية وخبرتهم الصناعية والتجارية، وكذلك تاريخهم النضالي والسياسي، مما أضفى صبغةً جديدةً على الوجود الموريسكي بالمغرب. محمد رزوق: المرجع نفسه، ص ١١٢؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ح١٥، ١٨٥.

(٥) كانت الرباط والقصبة قبل مجيء الأندلسيين إليهما تنسبان معًا إلى سلا، فيقال: رباط سلا وقصبة سلا. ثم صارت المدن الثلاث تدعى إجمالاً مدن سلا، وعند التفصيل يعبر عن سلا الحالية بسلا القديمة، وعن الرباط بسلا الجديدة، وبقيت القصبة منسوبةً إلى سلا إلى أن سكنها جيش الودايا أو الأوداية – وهم مجموعة قبائل عربية استخدمها العلويون في الجيش ابتداءً من عهد السلطان إسماعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ / ١٦٧٢ – ١٧٢٧م)- أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام (١٢٣٨ – ١٢٩٠ هـ / ١٨٢٢ – ١٨٧٣م) فسميت قصبة الودايا، كما استرجعت الرباط الاسم الذي أطلقه عليها مؤسسوها الموحدون وهو رباط الفتح. انظر، محمد حجي:المرجع نفسه، ح ١٤، ص ١٨٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ح ٢٢، ص ١١٩؛ جاك كايبه: المرجع السابق (١)، ص ٢٠٦.

والموريسكيين حين رفضوا طلبه في توحيدهم تحت سلطته، وقد حاولوا الاستعانة عليه بالسلطان السعدي، لكنه عجز عن نجدتهم، فاتصلوا بالإسبان ووطدوا الصلات مع حامية المعمورة، وأمدوها بالطعام والذخيرة في الوقت الذي كان العياشي يحاصر هذا الحصن حتى كاد أن يسقط في يديه، فقام العياشي بمحاربة الموريسكيين والانتقام منهم، فتدخل الدلائيون لصالح مهاجري الأندلس، فكان في ذلك نهاية المجاهد العياشي، وعلى إثر ذلك تكونت في سلا جمهورية ثالثة على غرار الجمهوريتين القائمتين في الرباط والقصبة[١]. وقد أقر الدلائيون هذا الوضع في الجمهوريات الثلاث (جمهورية أبي رقراق) بعد أن أسندوا أمر النيابة عليهم فيها جميعًا إلى قائد سلا، سارت الأمور سيرًا عاديًا بضع سنوات، ثم عاود الحنين إلى الاستقلال التام موريسكي القصبة، ورغبوا في الانفصال عن الدلائيين، وجددوا صلاتهم بالسلطة السعدية في مراكش، فتصدى لقتالهم محمد الحاج الدلائي الذي أجبر الموريسكيين على الاستسلام، فأخرجهم من القصبة ولم يترك فيها إلا جنودًا مغاربة[٢].

كما تمكن الموريسكيون في تطوان من خلق كيان خاص بهم نتيجة الاضطرابات التي عرفها المغرب في عهد زيدان، حيث توارثت أسرة أولاد النقسيس الموريسكية حكم مدينة تطوان من آل المنظري الغرناطيين، منذ سنة (١٠٠٦ هـ / ١٥٩٧م) حتى سنة (١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢م)، وعلى الرغم من خضوعهم لبعض الوقت لسلطان فاس بعد انقسام الدولة السعدية إلى مملكتي مراكش وفاس، وللعياشي والدلائيين أيضًا، كان لهم نوع من الاستقلال في الحكم[٣].

وهكذا شهد حكم زيدان بن المنصور عدة ثورات بعضها داخل الأسرة المالكة بمراكش وفاس، وبعضها حركات ثورية قادها صوفية أو فقهاء كابن أبي محلى ويحيى الحاحي وأبي حسون السملالي والعياشي، وكلها باستثناء ثورة العياشي كان منطلقها من سوس والجنوب بوجهٍ عام، ويبدو أن الصراع على الطريق التجاري المؤدي إلى غرب إفريقيا، وخاصةً ما يتعلق بتجارة الذهب والرقيق كان له دور أساسي في نشاط ثورات الجنوب[٤]. وقد حاول زيدان القضاء على هذه الثورات، وإعادة إقرار النفوذ السعدي على البلاد إلا أنه لم يتمكن من ذلك، واستمرت الاضطرابات متفشيةً في مختلف أنحاء البلاد من بداية عهده، وحتى وفاته سنة (١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨م)، ودفن بقبور السعديين بمراكش[٥].

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٨٥ – ١٨٧؛ كينيث براون: المرجع السابق، ص ص ٦٠ – ٦٤؛ جاك كاييه: المرجع السابق (١)، ص ٢٠٦.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٨٧ – ١٨٨؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١٨٢ – ١٨٤؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٥٢.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٩٩.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ١٠٣؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٤٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٧٢.

أما بالنسبة لأحوال السودان الغربي بعد وفاة المنصور، فإن الجيش المغربي هناك قبل بيعة السلطان زيدان كخليفة شرعي لوالده، ولكن هذا لم يفد كل من الطرفين بشيء؛ إذ كان زيدان مشغولاً بالقضاء على الثورات الداخلية، لذا لم يفكر كثيراً فيما كان يجري وراء حدود الصحراء، كما أن الجيش المغربي هناك لم يكن ليفيده بشيء في التغلب على الصعوبات الداخلية التي تواجهه، لتدهور موقف هذا الجيش بسبب الثورات التي قام بها الطوارق والسنغاي والفولاني في تلك البلاد[1].

وعندما استقرت الأمور نسبيًا لزيدان بمراكش خاصةً بعد مقتل أخويه أبي فارس (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) ومحمد المأمون (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م)، حاول إقرار نفوذه على السودان فارسل عمار باشا ليرى ما يمكن فعله بتلك البلاد، فلما رأى عمار أن السودان يعج بالثورة والجيش المغربي عاجز عن إقرار الأمن، عاد إلى مراكش سنة (١٠٢٦ هـ / ١٦١٨م) ليخبر السلطان زيدان الذي رأى أن يتخلى عن تلك المهمة الصعبة. وأصبح مغاربة السودان أسياد الموقف حين أصبحوا يختارون بأنفسهم حكامهم من الباشوات والقواد، وأصبحت سيادة السلطان السعدي اسميةً فقط حيث يكتفى بذكر اسمه على الخطبة، وإرسال بعض الضرائب التي يرجح أنها كانت لا تتعدى الهدايا. وفي سنة (١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠م) حذف الباشا الحاكم محمد الشتوكي اسم السلطان من الخطبة، ووضع اسمه مكانه حيث كانت الدولة السعدية قد سقطت من قبل هذا الإجراء، وبعد بضع سنوات أصبح المغاربة في حالة شديدة من الضعف أدت إلى سقوط تمبكتو في أيدي اليمبار الوثنيين من سيجو، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو إنهاء السيادة السياسية للمغاربة ببلاد السودان[2].

وتسير الأحوال بالمغرب بعد وفاة زيدان من سيئ إلى أسوأ؛ إذ سقط ما بقي للسعديين من هيبة في أعين العامة، وبدأ الطامعون يعلنون خروجهم ويستقلون تدريجيًا بمناطق نفوذهم، وأصبحت أوضاع البلاد أشبه ما تكون بها في العهد الوطاسي قبل قيام الدولة السعدية، من تدهور اقتصادي يذكيه انعدام الأمن والاستقرار، وتقاسم المناطق المختلفة قادة محليون، فأبو حسون السملالي بسوس والجنوب المغربي، والسلطة العلوية الناشئة بسجلماسة ودرعة، والدلائيون بالمنطقة الوسطى للمغرب، والمجاهد العياشي وخليفته الخضر غيلان بالسهول الشمالية الغربية على المحيط الأطلسي[3]. هذا إلى جانب سيطرة الإسبان على سبتة

(١) السعدي: المصدر السابق، ص ص ١٩٣ — ٢٠١؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢) بوفيل: المرجع نفسه، ص ٢٢٥ — ٢٢٧.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٢٩ — ٣٣٦؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثالث، ص ١٤.

ومليلية والمعمورة والعرائش وأصيلا، واحتلال البرتغال للجديدة[(١)].

أما خلفاء زيدان فلم يكن في مقدور أي منهم التحكم في أمور البلاد الداخلية، ولا درء الخطر الخارجي، وانحصر نفوذهم خلال اثنتين وثلاثين سنةً هي آخر ما تبقى من عمر الدولة السعدية في العاصمة مراكش وما حولها، وذلك زمن حكم عبد الملك بن زيدان (١٠٣٧ – ١٠٤٠ هـ / ١٦٢٧ – ١٦٣٠م) والوليد بن زيدان (١٠٤٠ – ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٠ – ١٦٣٥)، ومحمد الشيخ الأصغر (الثالث) بن زيدان (١٠٤٥ – ١٠٦٤ هـ / ١٦٣٥ – ١٦٥٣م) والعباس بن محمد الشيخ الأصغر (١٠٦٤ – ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٣ – ١٦٥٨م)، وهو آخر ملوك السعديين إذ اغتاله أخواله الشبانات ليحولوا الملك إلى أسرتهم، وقد نجحوا بالفعل، وتولى كبيرهم عبد الكريم الشباني الملقب بكروم الحاج[(٢)] لمدة إحدى عشرة سنة؛ حيث اغتاله أحد جنده سنة (١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م)، فخلفه ابنه أبو بكر الذي انتهى أمره على يد السلطان الرشيد بن الشريف العلوي في إطار جهوده لبسط السلطة العلوية على مجموع التراب المغربي[(٣)] .

وهكذا ترك السعديون المغرب ممزقًا كما وجدوه ممزقًا، فنضالهم الجاد والمثمر في شتى المجالات قد استمر حوالي قرن ثم توقف تقريبًا خلال أزيد من نصف قرن، ولولا نكسة العرش التي حدثت بعد وفاة أحمد المنصور لكان من الممكن أن تتطور الأوضاع إلى ما هو أفضل[(٤)] .

---

(١) إبراهيم حركات: نفس المرجع والجزء، ص ص ١٤ – ١٥.

(٢) هو عبد الكريم بن أبي بكر الشباني نسبةً إلى الشبانات إحدى القبائل العربية المعقلية القوية التي استقرت بجنوب المغرب. الضعيف الرباطي (محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد كان حيًا حتى عام ١٢٣٨ هـ / ١٨١٢م): تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان (١٠٤٣ - ١٢٣٨ هـ / ١٦٣٣ – ١٨١٢م)، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٨، الجزء الأول، ح ٥٧، ص ١٤٧.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ١٠٥ – ١٠٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٤٤ – ٢٥٨؛ الضعيف الرباطي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٤٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٧٢، ٧٧ – ٧٨، ٨٢ – ٨٤، ٩٨ – ١٠٩؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٩٩ – ١٠٢

(٤) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٤٤٧.

الفصل الثاني

المنشآت المعمارية ومظاهر العمران في عهد الأشراف السعديين

لقد ظفرت بلاد المغرب بعد فتح المسلمين لها (٢١ - ٩٠ هـ/ ٦٤٢ - ٧٠٨ م)، كغيرها من البلدان التي حكمها المسلمون، بتراث معماري عظيم كمًا ونوعًا، وكان للمغرب الأقصى نصيب كبير من هذا التراث؛ فمنذ ذلك التاريخ وهي تزخر بالآثار الإسلامية المتنوعة في أصولها وتكوينها وطابعها العام ووظائفها، والتي لا تقل في عظمتها عن أجمل المنشآت المعمارية في مصر والشام وبلاد فارس وغيرها، وتشرف بدون منازع عبقرية المعماريين المسلمين[١].

كما تصور الآثار الإسلامية في المغرب جانبًا مهمًا من جوانب الحضارة العربية الإسلامية في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير، وهي خير ما ينطق بما كانت عليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار، كما أنها تعتبر الوثائق الحقيقية التي يستند عليها في كتابة تاريخ هذه البلاد[٢]. كذلك يمكن من خلال هذه الآثار المغربية الوقوف على ما بلغته العمارة الإسلامية بالأندلس من تقدم وازدهار؛ حيث نشأ في المغرب في بداية من القرن (٥ هـ / ١١م) فن أندلسي مغربي يجمع بين الرصانة المحلية والروعة الأندلسية، فن تميز باستيعاب التراث الأندلسي قاطبةً بمميزاته ومؤثراته[٣].

ولولا احتضان المغرب لهذا التراث الأندلسي لكانت صفحة الفن والعمارة الإسلامية في الأندلس قد طويت[٤]؛ لأن الأندلس القديمة تبدو اليوم بلادًا إسبانيةً نصرانيةً محضةً، ولا تكاد قواعدها القديمة - باستثناء غرناطة وإشبيلية وقرطبة - تبدي شيئًا من مظاهرها الإسلامية، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد أن نظفر في بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسي. فالمساجد كلها قد هدمت أو حولت إلى كنائس، أو بنيت الكنائس فوق أنقاضها، والأحياء الأندلسية القديمة قد اختفت في معظم المدن، أو غاضت معالمها، ولم تبق منها إلا بقايا متناثرة هنا وهناك في سفوح القصبات والحصون الأندلسية القديمة، التي تبدو في أثواب متواضعة رثة، وأسلم معظمها لغمر النسيان

---

(١) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٩٠؛ عبد العزيز بنعبد الله: معطيات الفن الإسلامي في المغرب، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثالث، السنة الثانية، الرباط - المغرب، يونيه ١٩٧٥م، ص ٥٦.

(٣) إبراهيم حركات: الثقافة المغربية بين الثقافات الإنسانية، بحث نشر في مجلة الثقافة، السنة الثالثة، العدد ١٨، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، ١٩٧٣م، ص ص ٤٥ - ٤٦.

(٤) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٣٣٥؛ Maslow, B.,: Les Mosquée de Fès et du Nord du Maroc, Les Éditions d'Art et d'Histoire, Paris, 1934, P.x.

والعفاء[١].

وقد كان استقرار العرب بالمغرب بعد الفتح الإسلامي وطوال عصر الولاة مصحوبًا بأعمال عمرانية وإقامة منشآت معمارية متنوعة[٢]، كما اهتمت جميع الدول التي تعاقبت على عرش المغرب منذ الأدارسة حتى الآن بالبناء والتعمير وحرص الحكام والأمراء وشاركتهم العامة في الحفاظ على ما تركه من سبقهم من الدول، وتشييد ما هم في حاجة إليه من المنشآت، ورغم ذلك، ونظرًا لتأثر حركة العمران والنشاط المعماري بالحالة السياسية والاقتصادية للبلاد، أصيبت بلاد المغرب في بعض فترات التدهور والضعف بحالات من الجمود العمراني والمعماري حالت فيها الاضطرابات والفتن دون تحقيق أعمال عمرانية ومعمارية كبرى، ومن أبرز هذه الفترات تلك التي بدأت مع نهاية الدولة الموحدية، واستمرت قرابة قرن من الزمان، أي حتى قيام دولة بني مرين، لم تعرف البلاد خلالها منشآت معمارية بارزة[٣]. ثم ازدانت البلاد في عهد المرينيين بعمائر شامخة متنوعة، فنشأت مدن جديدة، وجددت أخرى، وأقاموا العديد من المنشآت المختلفة[٤]، على أن هذا الازدهار العمراني بدأ ينكمش بعد فترة حكم أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان، إذ توقفت — أو كادت — جهود أعقابهم من الملوك المرينيين والوطاسيين من بعدهم عن الاهتمام ببناء وتجديد مختلف المدن والمنشآت لمدة قرنين من الزمان، أي إلى ظهور الدولة السعدية، وذلك للأوضاع السياسية والاقتصادية المتدهورة التي عرفتها البلاد آنذاك[٥].

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، الجزء الثامن، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ص ٩ — ١٠.

(٢) عن النشاط المعماري ومظاهر العمران في عصر الولاة بالمغرب الأقصى، انظر، أحمد المكناسي: المدن الإسلامية المندرسة في شمال المغرب، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ص ٢٩٥ — ٣٠٧؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ص ٩٢ — ٩٣.

(٣) عبد العزيز بنعبد الله: الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال، بحث نشر في مجلة اللسان العربي، المجلد التاسع، الجزء الأول، الرباط — المغرب، يناير ١٩٧٢م، ص ٢٥٤؛ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ص ٥٠٧ — ٥٠٨.

(٤) محمد السيد محمد أبو رحاب: مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين (٦٨٨ — ٨٦٩ هـ / ١٢٦٩ — ١٤٦٤م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب بسوهاج — جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٩م، ص ص ٤٠ — ٧٢.

(٥) عبد العزيز بنعبد الله: معطيات الفن الإسلامي في المغرب، ص ٦٥؛ محمد مزين: مساهمة السعديين في عمران فاس — محاولة استقراء لبعض المصادر: النوازل الفقهية والحوالات الحبسية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ — ١٩٨١م، ص ٢٤٨.

فقد كان تدمير المنشآت المعمارية، وإحراق المحاصيل، واجتثاث الشجر من الممارسات المألوفة التي تخللت الحروب التي خاضها ملوك الدولة المرينية - في الدور الأخير من تاريخها - وبخاصة أبو سعيد الثالث (٨٠٠ - ٨٢٣ هـ / ١٣٩٧ - ١٤٢٠م) ضد أعدائه بالداخل[١]، من هذه المدن فنزارة بالقرب من سلا[٢]، والمعمورة على مصب نهر سبو[٣]، وجامع الحمام جنوبي مكناس[٤]، وخميس مطغرة غربي فاس[٥]، وبني بازيل[٦]، والمقرمدة شرقي فاس[٧]، ومدينة الجمعة بأزغار[٨].

وقد عصفت هذه النزعة التدميرية بتراث حضاري وعمراني لا يقدر بثمن، كما هجرت العديد من المراكز الحضارية بسبب الخطر البرتغالي الذي كان له النصيب الأوفر في تخريب كثير من المدن والقرى الآهلة بالسكان، كتيدنست بحاحة، وتاكوليت قرب الصويرة القديمة، وتنزة بناحية مراكش، وتاغوداست بإقليم دكّالة[٩].

كما كان لعجز الوطاسيين عن توحيد المغرب سياسيًا تحت سلطتهم - كما سبقت الإشارة - وانقسام البلاد إلى عدة مناطق - أقل ما يقال عنها إنها - لا تخضع للسلطة المركزية بفاس، فمنطقة يحكمها البرتغال ومنطقة الإسبان ومنطقة السعديين، ومناطق أخرى يحكمها أمراء مستقلون مثل هنتاتة بمراكش، وبنو المنظري بتطوان وبنو راشد بشفشان وأسرة مرينية بدبدو، أدى ذلك إلى انشغال الوطاسيين بالمشاكل السياسية وتوجيه جل الأموال إلى تسليح الجيش وما شابه ذلك، وبالتالي إهمال العمارة والعمران[١٠].

كما إن خراب كثير من الأملاك والبساتين التي كان عائدها مخصصًا للصرف على ترميم المنشآت المختلفة، وتحول موارد الأوقاف عن مخصصاتها عندما عجزت الميزانية عن تحمل نفقات الدولة[١١]، إلى جانب قلة الأوقاف والعطاءات الحبسية التي كان يتبرع بها سكان البلاد للصرف على المنشآت المعمارية وترميمها، أدى إلى اختفاء عدد كبير من العمائر التي

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٠.

(٢) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢١٠ - ٢١١.

(٤) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٢١٦.

(٥) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٦) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٢١٧.

(٧) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٢.

(٨) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٣٠٢.

(٩) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢١٨؛ ولنفس المؤلف: السياسة والمجتمع، ص ٣٥.

(١٠) محمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢١٩.

(١١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

شيدت على يد المرابطين والموحدين والمرينيين، فبعد عدة قرون من الارتفاق بها كان من الضروري ترميمها وتجديدها عند الحاجة لذلك، وحيث إن السلطة الحاكمة لم تكن قادرة على هذا العمل لقلة وسائلها، وضيق رقعة نفوذها أدى إلى اختفاء هذه المنشآت[١].

فباستثناء قنطرة وادي الرصيف التي شيدها أحمد الوطاسي سنة (٩٥١ هـ / ١٥٤٣) [٢]، ومدرسة باب الجيسة – المشكوك في نسبتها إليهم- يكاد يكون أثر الوطاسيين في العمارة والعمران منعدمًا إذا اعتبرنا المدة التي قضوها في الحكم (٨٧٦ – ٩٦١ هـ / ١٤٧١ – ١٥٥٣م). ورغم أنهم لم يشاركوا بنصيب يذكر في هذا المجال، فقد شيدت في عهدهم عدد من المنشآت على يد أمراء مستقلين أو على يد البرتغال ولصالحهم، الذين تركوا عدة آثار من هذا العهد[٣]، فلولا بناء مدينة شفشاون على يد أبي الحسن علي بن موسى بن راشد حوالي سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م) [٤]، وإعادة بناء تطوان على يد بني المنظري القادمين من الأندلس سنة (٨٨٩ هـ / ١٤٧٩م) [٥]، وبناء البرتغال لمدينة الجديدة على ساحل المحيط الأطلسي وتحصينها، كما شيدوا حصن فونتي بأكادير[٦]، لما وجدنا شيئًا يستحق الذكر في ميدان العمران في العهد الوطاسي.

وما إن دانت البلاد للأشراف السعديين حتى شرعوا في تشييد وتجديد العديد من المدن والمنشآت المختلفة، إذ اشتهروا بشغفهم للبناء والتعمير وبخاصة محمد المهدي الشيخ (٩٤٦ – ٩٦٤ هـ / ١٥٤٠ – ١٥٥٧م)، وولديه عبد الله الغالب (٩٦٤ – ٩٨١ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٧٤م) وأحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م)، فإلى هؤلاء السلاطين يرجع الفضل في بعث روح البناء من جديد في بلاد المغرب؛ حيث ازدانت البلاد على عهدهم بعمائر متنوعة، فمن العمائر الدينية أقاموا مجموعةً رائعةً من المساجد الجامعة والمدارس والزوايا ومكاتب تعليم الصبيان وخزانات الكتب، ومن العمائر الجنائزية شيدوا بعض الأضرحة، كما اهتموا بالمنشآت المدنية فشيدوا المدن والقصور والدور والبيمارستانات والحمامات والفنادق والأسواق والقناطر والسدود والسقايات ومصانع السكر وغيرها، هذا إلى جانب المنشآت الحربية كالقصاب والحصون والأبراج والأسوار فضلاً عن مصانع الأسلحة.

وتجدر الإشارة إلى أن النشاط المعماري للسعديين تركز في بداية الأمر في جنوب المغرب؛ حيث نشأت الدولة بمنطقة السوس، واتخذت من تيدسي ثم تارودانت عاصمةً لها، ثم

---

(١) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٥٥؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٥.

(٣) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢١٩.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٢١.

(٥) الناصري: نفس المصدر والجزء، ص ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٦) الناصري: نفس المصدر والجزء، ص ص ١٣٦ – ١٤٠.

امتد هذا النشاط بعد ذلك في اتجاه الشمال بعد أن اتخذوا من مراكش عاصمةً لهم سنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م)، وتخطاها إلى فاس وما بعدها من مدن الشمال.

كما شارك العامة وخاصةً بعض كبار الصوفية في إقامة المنشآت ذات النفع العام، وفي الدور الأخير من تاريخ الدولة السعدية نجد أن الثوار والزعماء المستقلين عن السلطة المركزية بمراكش شيدوا لصالحهم مدنًا ومنشآت مختلفة، ولكن مما يؤسف له أن جل منشآتهم تعرضت للهدم والتخريب على يد بعض ملوك الدولة العلوية الأوائل في إطار القضاء على زعماء الزوايا والأمراء المستقلين لاستعادة الوحدة الوطنية تحت سلطتهم، وتمثل زاوية الدلاء[1] ومدينة إيليغ[2] أهم ما خرب في تلك الفترة.

واستمرارًا لما كان معروفًا بالمغرب قبل العصر السعدي، فإن مخططات المنشآت المعمارية المختلفة كانت تخضع لتصميم هندسي يرسم سلفًا، مدروس من قبل لجنة مختارة من المعماريين الأكفاء أو "عرفاء البناء" كما يطلق عليهم بالمغرب[3]، وبمقاييس متفق عليها مسبقًا، وكانت وحدات القياس تشمل الذراع والشبر والأصبع[4]. وكان لبعض السلاطين السعديين دراية بالهندسة المعمارية سمحت لهم بتبادل الآراء مع كبار المعماريين حول تصاميم المنشآت وطرق العمل والتنفيذ، من ذلك ما ذكره الفشتالي عن أحمد المنصور عند تشييد بعض الوحدات المعمارية بقصر البديع: "أحضر عرفاء المباني فاقترحها لهم، وأخذ – أيده الله – يرشدهم بحاسة الوصف إلى أشكالها التي تصورها، فلم يكونوا ليهتدوا حتى تولى لهم رسمها بيده في قرطاس، وعاينوه، وحينئذ اهتدوا إلى فهم ما لم يؤته أولو الحكمة من يونان، فبهتوا ثم اجتهدوا وفق الاقتراح الكريم"[5].

---

(١) عن تخريب زاوية الدلاء من قبل السلطان الرشيد بن الشريف العلوي سنة (١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨م)، انظر، الناصري: المصدر نفسه، الجزء السابع، ص ص ٣٦ – ٣٧؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ٢٥٢ – ٢٥٤

(٢) وعن تخريب مدينة إيليغ بسوس على يد السلطان نفسه سنة (١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م)، انظر، حبيبة البورقادي: إيليغ قديمًا وحديثًا للمختار السوسي، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، الرباط – المغرب، سبتمبر ١٩٦٦م، ص ٢٥٣.

(٣) عن هذه الظاهرة في المغرب قبل العصر السعدي، انظر، ابن غازي (أبو عبد الله محمد، ت: ٩١٩ هـ / ١٥١٣م): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م، ص ٣٥؛ المقري: نفح الطيب، الجزء السادس، ص ٢١٤؛ محمد المنوني: نظم الدولة المرينية (٣) النظام الاقتصادي، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الرابع والخامس، السنة الثانية، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٦م، ص ٢٥٣.

(٤) عبد القادر زمامة: فاس وصناعاتها التقليدية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ – ١٩٨١م، ص ٤٧٤.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧٤؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

كما قام أحمد المنصور أيضًا بتأليف كتاب – مفقود الآن – في علم السياسة ضمنه أبحاث تتعلق بإقامة الحصون والقواعد العسكرية ومختلف وسائل التحصين(١)، لما في ذلك من فائدة: "بمصالح العباد وحياطة البلاد لما يفيد من المعرفة التامة بتحصين الحصون منها، واختطاطها، وتشييد المعاقل وتوطيدها" (٢). فضلاً عن ذلك فإن بعض السلاطين لم يكتف بالخبرة المحلية في هذا المجال، بل سعى في طلب بعض المعماريين الأجانب، كالسلطان زيدان بن أحمد المنصور الذي كلف صمويل بالاش – مبعوثه إلى هولندا – باستقدام مهندس هولندي لوضع تصميم بناء حصن بالمعمورة(٣).

وكان يقوم بتنفيذ تعلميات السلطان بشأن إنشاء مبان جديدة أو ترميم أخرى قديمة، موظف بكل مدينة – فيما يبدو – يعرف باسم "صاحب الأشغال"(٤). وقد كانت هذه الوظيفة معروفة في العصر الموحدي، ويحمل صاحبها الاسم نفسه(٥)، وفي العصر المريني كان صاحبها يدعى بـ"المشرف" (٦).

أولاً- المنشآت الدينية:

هي أكثر العمائر القائمة بالمغرب ليس من العصر السعدي فحسب، بل من جميع العصور السابقة عليه، لما تحظى به هذه النوعية من المنشآت من حرمة تمنع الاعتداء عليها(٧)، ولحث الشرع الحنيف على ضرورة تعهدها وإصلاحها كلما احتاجت إلى ذلك، وبخاصة المساجد التي اتفقت آراء الفقهاء على أنها لا تهدم ولا تنقل إلى مكان آخر إلا عند أقصى الضرورة، كأن ينقطع العمران من حولها، وكذلك العقارات المحبسة عليها لا تباع ولا تعوض إلا إذا انقطعت منفعتها أصلاً(٨). وتكاد تكون جميع المنشآت المغلة بالمدن المغربية –

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع نفسه، ص ٣١٨.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٣) جاك كاييه: المرجع السابق (١)، ص ٢١٢؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ١٦٤.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٢٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢١١ – ٢١٢.

(٥) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٦) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٦٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٨٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢١١.

(7) Marçais, G., Manuel d'Art Musulman L'Architecture Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, Éditions Auguste Picard, Paris, 1926, Tome II, P. 691.

(٨) الونشريسي (أحمد بن يحيى، ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، د ت، الجزء الرابع، ص ص ١٥٣ – ١٥٤؛ العلمي (عيسى بن علي الحسني، ت: ١١٢٧ هـ / ١٨١١م): النوازل، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة فضالة – المحمدية،=

كفاس على سبيل المثال- من حوانيت وفنادق ودور وحمامات وأفران وغيرها محبسة على المساجد والمدارس والزوايا لتؤمن صيانتها والحفاظ عليها، ودفع مرتبات العاملين بها[١].

وتذهب آراء الفقهاء المالكية إلى النهي عن هدم المسجد الذي لا يصلى فيه لانقطاع العمران من حوله، وإنما يرمم إبقاء لحرمة المسجدية عليه حتى يعمر هذه الموضع[٢]. وأفتى الشافعية بعدم جواز بناء أية عمارة أخرى على أرض المسجد، إذا ما تعرض للهدم والزوال، وإن كانوا أجازوا بناء مسجد آخر في محله[٣]. وهذا يفسر — فيما يبدو — استقرار عمارة المساجد الأولى في الإسلام في عين المكان الذي شيدت فيه منذ مئات السنين، على الرغم من التوسع في مساحتها أضعاف ما كانت عليه، واختفاء الأصول المعمارية كلية، كمسجد الرسول (ﷺ) بالمدينة (١ هـ / ٦٢٢م)، ومسجد عمرو بن العاص بالفسطاط (٢١ هـ / ٦٤٢م)، ومسجد عقبة بن نافع بالقيروان (٥٥ هـ / ٦٧٠م)، والجامع الأموي بدمشق (٨٦ هـ / ٧٠٦م)، ومسجد قرطبة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) والقرويين بفاس (٢٤٥ هـ / ٨٥٩م)، وغيرها.

ولهذه النوعية من المنشآت أهمية خاصة لما تتضمنه من نقوش زخرفية وكتابية تعد ذخيرةً تاريخيةً طيبةً، ولما تضمه بين جدرانها من أساليب فنية ذات مظاهر تعكس روح العصر الذي أقيمت فيه، وتعبر عن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذا العصر[٤]، ويمكن إلقاء الضوء على المنشآت الدينية السعدية بالتفصيل على النحو التالي:

الجوامع والمساجد:

يمكن تتبع النمو العمراني واتجاهاته لمدينة ما من خلال التعرف على النشاط المعماري بها؛ ذلك أن المبنى (المنشأة) يكون في حد ذاته الخلية الأساسية، بل العضو الجوهري المؤثر في حياة المدينة وتطورها؛ لذلك يجب دراسته من حيث هيئته، ووظيفته ضمن النسيج العمراني، فنتمكن أولاً من إبراز شخصيته المؤثرة في ملامح المدينة، وثانيًا من تبرير وجوده داخل هذا

= ١٩٨٣ — ١٩٨٩م، الجزء الثاني، ص ص ٢٦٩ — ٢٧٠، ٣١٢ — ٣١٤.

(١) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٣١ — ٣٣٢، ٣٦٣ — ٣٧٨؛ محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م، ص ص ٩٣ — ٩٤.

(٢) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ١٢، ٥٦، ٧٩ — ٨٠، ١٤٢، ١٦٢.

(٣) محمد عبد الستار عثمان وعوض عوض محمد الإمام: عمارة المساجد في ضوء الأحكام الفقهية دراسة تطبيقية أثرية، بحث نشر في سجل أبحاث ندوة عمارة المساجد، المجلد الثامن: الضوابط الشرعية لعمارة المساجد، كلية العمارة والتخطيط — جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، يناير — فبراير ١٩٩٩م، المجلد الثامن أ، ص ١٣٥.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت؛ ١٩٧١ — ١٩٧٢م، الجزء الثاني، ص ٩١.

النسيج الذي هو في الحقيقة أصل وجوده[١]. وإذا كانت هناك عناصر وأشكال مختلفة يمكن الاستدلال بها على إبراز ظاهرة النمو العمراني في المدينة الإسلامية، فإن تعدد جوامع الخطبة (المساجد الجامعة) في المصر الواحد يأتي على رأس أهم هذه العناصر.

وقد تعرض الفقه الإسلامي إلى هذه المشكلة التي واجهت الجماعات الإسلامية منذ أن اتسعت رقعة الدولة، وعظمت الأمصار كدمشق والقيروان وفاس وبغداد والقاهرة وغيرها، فتكاثف سكانها، وشعر الناس بالحاجة الملحة إلى الزيادة في عدد جوامع الخطبة، فتناولته بالدرس والتمحيص كتب الفقه والفتاوى، وقد اتفق علماء المالكية – المذهب الرسمي لبلاد شمال إفريقيا- على عدم السماح بتعدد جوامع الخطابة في المصر الواحد إلى عند "الضرورة القاطعة" [٢]. لأن الترخيص في خطبة جديدة لا يكون إلا استجابةً للمصلحة العامة، حتى يتوفر للمصلين الظروف الملائمة للقيام بفريضتهم؛ لضيق الجامع الوحيد على جمهور المصلين مثلاً، مما يؤدي إلى اختلال نظام الصلاة، أو عندما تبتعد المسافة بعداً مشقاً بين المصلي ومكان الصلاة، وكذلك عندما يتعذر بلوغ الجامع، أو يصعب الوصول إليه لقيام حاجز يفصله عن السكان كالخندق أو السور، شريطة ألا يتسبب المسجد الجديد في إلحاق الضرر بآخر قديم[٣]. ويؤكد بعض الفقهاء أنه يجوز إضافة جوامع جديدة للخطبة كلما اتسعت الأرباض[٤] واتخذت هيئة "المدينة الأم"، وعلى أية حال فقد بدأت ظاهرة تعدد جوامع الخطبة بالمدينة الإسلامية في الانتشار منذ القرن (٧ هـ / ١٥م)[٥].

على أن الموحدين – فيما يبدو – لم يتقيدوا بالشروط نفسها التي وضعها أصحاب المذهب المالكي، فزودوا معظم قصباتهم – في كل إمبراطوريتهم- بجوامع جديدة للخطبة،

---

(١) عبد العزيز الدولاتلي: مدينة تونس في العهد الحفصي، ترجمة محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨١م، ص ص ١٣ – ١٤.

(٢) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع نفسه، ص ص ١٢١ – ١٢٢.

(٣) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ٤٨٣؛ العلمي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣١٤ – ٣١٨؛ عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ص ١٢٢- ١٢٣. وللاستزادة عن آراء فقهاء المذاهب الأخرى حول هذا الموضوع، انظر، محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٣٥؛ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ص ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٤) الأرباض: جمع ربض (بفتح الباء وسكونها). ما حول المدينة، يطلقه المغاربة والأندلسيون على الضاحية القريبة من أسوار المدينة، والمشتملة في الغالب على دور الطبقة العاملة والفقيرة وحظائر الماشية وغير ذلك، ويقلب بعض العوام ضاد هذه الكلمة إلى طاء، فينطقونها (ربط). الأنصاري: المصدر السابق، ح ٧٦، ص ٤٧؛ محمد محمد الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٤م، ح١، ص ٢٦.

(٥) محمد عبد الستار: المرجع نفسه، ص ٢٣٧؛ عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٢٢.

ربما لاعتبارها مدنًا قائمةً بذاتها[١]، مع الأخذ في الاعتبار محاربة الموحدين للمذهب المالكي، وابتداعهم فكرة المهدوية بالمغرب، ونشرهم عقائد الأشعرية والشيعة، وحمل الناس على مذهب الظاهرية[٢]، حتى أنهم في أوائل حكمهم بالأندلس في القرن (٦ هـ / ١٢م) وجدوا أن جامع إشبيلية المعروف بجامع ابن عدبس لم يعد كافيًا لاستيعاب المصلين يوم الجمعة، مما اضطرهم إلى الالتجاء إلى الصحن وحتى خارج الجامع؛ لأنه الجامع الوحيد للخطبة منذ عبد الرحمن الثاني (٢١٤ هـ / ٨٢٩ – ٨٣٠م) فلم يلجأوا إلى توسيع الجامع القديم، كما هو متبع في كثير من المساجد الجامعة في المدن الإسلامية المختلفة؛ كالمسجد الجامع في البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وقرطبة وغيرها[٣]، بل أضاف أبو يعقوب يوسف الموحدي سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧٢م) جامع ثان للخطبة في القسم الجنوبي الشرقي من المدينة سرعان ما جلب حوله جانبًا مهمًا من النشاط الاقتصادي الذي كان في السابق مركزًا حول الجامع القديم[٤]. كما شيدوا بمراكش عدة جوامع للخطبة – رغم اشتمالها على مسجد جامع من العصر المرابطي (خريطة ٤) لا يزال باقيًا منها حتى الآن جامع الكتبية الثاني الذي شيد قبل سنة (٥٥٨ هـ / ١١٦٢م)، وجامع المنصور بالقصبة (٥٩١ هـ / ١١٩٦م)[٥](خريطة ٥).

وإذا عرفنا أن الأشراف السعديين شيدوا بمدينة مراكش، وفقًا للروايات التاريخية، أربعة مساجد جامعة – ما زالت ثلاثة منها قائمة حتى الآن- إلى جانب جوامع الخطبة السابقة، وفي أماكن متفرقة من المدينة بعيدةً عن المساجد الجامعة الموحدية، تميز بعضها بوقوعها في أطراف المدينة بجوار الأسوار، كجامع باب دكالة في الطرف الشمالي الغربي للمدينة، وجامع أبي العباس السبتي في أقصى الشمال منها (خريطة ٦)؛ مما يشير إلى أن العمران لم يكن قد شمل كل أطراف المدينة قبل العصر السعدي، وإنما كانت تشتمل – فيما

---

(١) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٢) المراكشي (عبد الواحد، كان حيًا في النصف الأول من القرن ٧ هـ / ١٣م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص ص ١٦١ – ١٦٢ ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٢٦٧؛ عبد الله كنون: عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط، ١٩٦٦م، ص ص ١٧٦ – ١٧٩ محمد المنوني: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص ١٣.

(٣) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ص ٤٦ – ٤٧؛ عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ح ٣٦٥، ص ١٢٣.

(٥) محمد بن محمد عبد الله بن المبارك الفتحي المراكشي: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، الطبعة الثانية، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، د.ت، ص ٧؛ ليوبولدوتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة د. سيد غازي، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م، ص ص ١٧ – ٢٧.

يبدو – على وحدات سكنية مبعثرة بين الحقول والبساتين الكثيرة المجاورة للأسوار المحيطة بالمدينة، ومع تزايد التوسعات العمرانية شيئًا فشيئًا اتصلت تلك الوحدات ببعضها مكونةً في منتصف القرن (١٠ هـ / ١٦م) مستوطنات (أرباض) آهلة بالسكان(١)، ونظرًا لبعد المساجد الجامعة القديمة عن أطراف المدينة من جهة، وربما رغبةً في إيقاف تسرب القادمين الجدد من هذه التجمعات السكنية الجديدة إلى جوامع الأحياء الداخلية المكتظة بعمارها، وحرصًا على تعمير هذه الاطراف لتوفير هامش قروي مجاور للمدينة من جهة أخرى، قام سلاطين الدولة السعدية ببناء جوامع جديدة للخطبة في أطراف هذه المدينة؛ بحيث لا تثبت شرعية الصلاة إلا بثبوت شرعية مكانها، لذلك يمكن القول بأن وجود جامع جديد للخطبة ينبئ مبدئيًا بوجود مجموعة سكنية تحيط به أو تقع بالقرب منه تتوفر فيها الشروط الفقهية كشرطي العدد والاتصال، وعلى هذا الأساس يمكن تتبع النمو العمراني عن طريق تعدد جوامع الخطبة في المدينة الواحدة(٢).

وفي ضوء ما سبق يمكن استنتاج أن أزهى فترة عمرانية عرفتها مدينة مراكش كانت في العصر السعدي، فمن جامع واحد للخطبة في منتصف القرن (٥ هـ / ١١م) عندما اختطها يوسف بن تاشفين سنة (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م) (٣)- وفقًا للقاعدة التقليدية التي كانت تسير عليها المدن الإسلامية في الغالب حتى ذلك التاريخ- أو جامعين على أقصى تقدير، إذا ثبت أن العمل الذي قام به علي بن يوسف في النصف الأول من القرن (٦ هـ / ١٢ م) بناء جامع ثان للخطبة بمراكش – لا يزال يحمل اسمه حتى الآن- وليس تجديدًا وتوسعةً لجامع والده الذي شيده عند اختطاط هذه المدينة(٤). ثم أضيف إلى ذلك جامعان في العصر الموحدي، هما

---

(١) اشتهرت مدينة مراكش بكثرة بساتينها ومزروعاتها حتى فاقت في ذلك سائر المدن المغربية وفقًا لما ذكرته الروايات التاريخية التي تحدثت عن هذه المدينة. انظر: الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني من القرن ٦ هـ / ١٢م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، الجزء الأول، ص ص ٢٣٣ – ٢٣٤؛ الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت بعد عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦١م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ص ٥٤١.

(٢) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٢١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤؛ عبد الله كنون: يوسف بن تاشفين (ترجمة نقدية)؛ بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء الثامن، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية (مديرية الشئون الثقافية)، الرباط، ١٩٧٣م، ص ١٣؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثاني، ص ص ٧٠٢ – ٧٠٣.

(٤) تجدر الإشارة إلى أن من أكبر المشاكل التي تواجه الباحث المتتبع لما شيد من منشآت معمارية خلال العصر المرابطي هي ندرة المصادر والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر، ويعزى ذلك – بدون شك – إلى أن معظم هذه الوثائق والمصادر عفى عليها الدهر أو تم طمسها تحت تأثير خلافات مذهبية أو=

الكتبية وجامع القصبة، ثم جامع واحد في العصر المريني هو جامع ابن صالح[١]، إلى أن صار المجموع ثمانية جوامع للخطبة في العصر السعدي. ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكره الرحالة والتجار الأجانب الذين نزلوا المغرب وأقاموا بمراكش مدةً طويلةً في بداية القرن (١١ هـ / ١٧م)، ومن أشهرهم الفرنسي جان موكي "Jean Moquet" الذي زار مراكش سنة (١٠١٥ هـ / ١٦٠٦م)، وذكر أنها أكبر مساحة من باريس، وقدر عدد سكانها ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ألف نسمة[٢]، في حين تقدر إحدى الروايات التاريخية عدد سكان مراكش في عهد مؤسسيها المرابطين بنحو ١٠٠ ألف نسمة[٣].

وعلى أية حال؛ فقد شيد السعديون مجموعة رائعةً من المساجد الجامعة والمساجد

= حزازات سياسية، وهذا ما فعله الموحدون بالمصادر والكتب التي ألفت في عصر الدولة المرابطية. جمال أحمد طه: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م إلى ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٩٣م، ص ٣/ م. فعلى سبيل المثال نجد أن المصادر المتأخرة عن العصر المرابطي لم تزد عند الحديث عن اختطاط يوسف بن تاشفين لمدينة مراكش إلا أن قالت: إنه شيد بها جامع للخطبة. الإدريسي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٣٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٢١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤. ولم تشر الروايات التاريخية إلى جامع علي بن يوسف إلا عند استيلاء الموحدين على مراكش وتخريبهم للمنشآت المرابطية ومن بينها مسجدهم الجامع، غير أن هذه الروايات التاريخية لم تتفق في تحديد منشئ هذاالجامع، وكذلك في كون الموحدين قد هدموه كليةً أم خربوه فقط، فنجد أن = =الإدريسي والحميري ينسبانه ليوسف بن تاشفين، وذكرا أن الموحدين تركوه مهملاً ولم يصلوا فيه. الإدريسي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٣٤؛ الحميري: المصدر السابق، ص ٥٤١. بينما ينسبه البيذق إلى علي بن يوسف ويذكر أن الموحدين هدموا بعض أجزائه، ويتفق ليون الإفريقي مع البيذق في نسبة هذا الجامع إلى علي بن يوسف، بينما يذكر أن عبد المؤمن الموحدي هدم هذا الجامع وأعاد بناءه من جديد. البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي، من القرن ٦ هـ / ١٢م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص ٦٦؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٢٧. وقد جدد هذا المسجد على يد الخليفة المرتضي الموحدي آخر ملوك الموحدين، وعرف بالجامع المرتضي، وبجامع السقاية. محمد المنوني: المرجع السابق، ص ص ٢٠٥ — ٢٠٦؛ محمد محمد الكحلاوي: العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي (عمائر الموحدين الدينية في المغرب) دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١١٥. غير أنه لم يتبق شيء من المسجد القديم –باستثناء الجزء السفلي من المئذنة— حيث يرجع البناء الحالي لعهد السلطان سليمان العلوي (١٢٣٥ هـ / ١٨١٩م) غير أنه لا يزال يحمل اسم علي بن يوسف. محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٨؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٢٢٣؛ الجزء الثالث، ص ٥٣٣؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٢٤.

(١) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٨.

(٢) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٢٣٧.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٧.

الصغيرة بعاصمتهم مراكش وغيرها من المدن المغربية، كما قاموا بعمل زيادات مهمة ببعض المساجد الجامعة السابقة على عصرهم أو التي شيدها بعض الأمراء في عهدهم، حتى أن رواية مارمول – المعاصر للسعديين- تشير إلى أن مدينة فاس كانت تتوفر على خمسين جامعًا كبيرًا فضلاً عن ستمائة مسجد آخر أكثر صغرًا[١].

ولئن كانت المساجد الجامعة السعدية أقل زخرفةً من مثيلاتها المرينية، فإنها تعد أكبر مساجد المغرب مساحةً بعد مساجد الموحدين التي تميزت عمارتها بالقوة والضخامة شأن سائر المنشآت الموحدية، كما يتميز المسجد الجامع في العصر السعدي بأنه مبني ضمن مجموعة معمارية تضم مصلى جنائزي ومدرسة وميضأة وحمام وسقاية وأحواض للدواب ومكتب لتعليم الصبيان، وخزانة للكتب وبيت للاعتكاف ومساكن للقومة، وكانت هذه الملحقات تتوزع بحرية حول الساحة المجاورة للمسجد. ويذكر بعض الباحثين أن هذه الظاهرة استقاها المعماريون السعديون من فكرة المجمعات المعمارية المملوكية بالقاهرة[٢]، والواقع أن هذه الفكرة ليست جديدةً على المغرب، إذ لا يخلو جامع كبير في تاريخه من هذا التجميع الذي يمثل وحدةً متكاملةً تستجيب للحاجة ولتعاليم الإسلام في وقت واحد[٣].

ومن هذه النماذج جامع سيدي بومدين الذي شيده السلطان أبو الحسن المريني ببلدة

---

(١) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ١٤٦.

(٢) هنري تيراس: مسجد للاعودة بمكناس، ترجمة عبد اللطيف ملين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، مطبعة فضالة، المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م، ص ٥١. وقد أيد هذا الرأي أيضًا "Gaston Deverdun"، انظر، إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٩. وتجدر الإشارة إلى ما ذكره أحد الباحثين من أن المعمار المملوكي بدأ فكرة المجمعات الدينية بمنشأة السلطان برقوق بالنحاسين (٧٨٦ – ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ – ١٣٨٦م)، ثم تبلورت هذه الفكرة في منشأة السلطان برسباي بالصحراء التي انتهى من بنائها سنة (٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م)، وأخذت في النضوج في منشأة السلطان إينال بالصحراء (٨٥٥ هـ / ١٤٥١م)، واستوت في منشأة السلطان قايتباي بالصحراء أيضًا (٨٧٧ – ٨٧٩ هـ / ١٤٧٢ – ١٤٧٤م)، واستمرت هذه الظاهرة في عهد السلطان الغوري، وكان آخرها مجمع قرقماس (٩١١ – ٩١٣ هـ / ١٥٠٥ – ١٥٠٧م) الملاصق لمجمع إينال السابق الذكر. ويقصد بالمجمع المعماري: ذلك النظام الذي تتبعه أي منشأة تضم أكثر من وحدة معمارية، بقصد تعدد منافع هذه المنشأة. انظر، محمد مصطفى نجيب: نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي الجركسي (٧٨٤ – ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٧م)، بحث نشر في الكتاب الذهبي للاحتفال الخمسيني بالدراسات الآثارية بجامعة القاهرة، عدد خاص من كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، الجزء الثاني، ص ٢١، ح ح ١ – ٤ من الصفحة نفسها. والواقع أن أول منشأة شهدت الإرهاصة الأولى لفكرة المجمعات المعمارية في العصر المملوكي هي مجموعة السلطان قلاوون بالنحاسين (٦٨٣ – ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ – ١٢٨٥م) التي تضم مدرسةً وضريحا وبيمارستانًا، وليست منشأة السلطان برقوق بالنحاسين المذكورة عاليه.

(٣) إبراهيم حركات:المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٣٩٣ – ٣٩٤.

العباد قرب تلمسان سنة (٧٣٩ هـ / ١٣٣٩م) بجوار ضريح هذا الصوفي الكبير أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي (ت: ٥٩٤ هـ / ١١٩٧)، وألحق بالمسجد مدرسة ومساكن للطلاب والقومة وميضأة وحمامات عامة وغير ذلك[١]، ومنشأة السلطان أبي عنان المريني بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م) التي تضم مدرسةً ومسجدًا جامعًا ومساكن للطلاب والقومة ومصلى جنائزيًا وميضأة داخلية وأخرى خارجية، ومبنى المنجانة أو الساعة المائية[٢]، وكذلك الزاوية المتوكلية التي شيدها السلطان نفسه على غدير الحمص خارج فاس الجديد سنة (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣م)، وألحق بها مسجدًا ودارًا للضيافة، ومساكن للمؤذن وناظر الوقف والقومة[٣]، ومسجد سيدي الحلوي بتلمسان الذي شيده السلطان أبوعنان أيضًا سنة (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣م)، وألحق به مدرسة وزاوية ومساكن للطلاب وللقومة[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن الوحدات المعمارية المكونة للمجمع الديني السعدي كانت تتوزع – كما سبقت الإشارة- حول الساحة المجاورة للمسجد الجامع، ولم تكن كل الوحدات المعمارية المكونة لهذه المجمعات – غالبًا- تتجمع في ساحة واحدة تحدها حدود أربعة[٥] كما هو الحال في المجمعات الدينية المملوكية، ويرجع ذلك – فيما يبدو- لظروف المساحة التي شيدت عليها هذه المجمعات السعدية من جهة، ولتعدد الوحدات المكونة لهذه المجمعات من جهة أخرى. كما يلاحظ أن هذه الوحدات تعود كلها بالنفع على المرتفقين بهذا المجمع والمترددين

---

(١) رشيد بورويبة والدكالي: المساجد في الجزائر، سلسلة الفن والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة التاميرا، روتوبريس، مدريد – إسبانيا، ١٩٧٠م، ص ص ٣٧ – ٤١؛ حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٨١م، ص ص ٢٣٨ – ٢٣٩؛

Marçais, G., : L'Architecture Musulmane d'Occident Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris, 1954, pp. 276 - 277; Marçais, W., et G.,: Les Monuments Arabes de Tlemcen, Paris, 1903, pp. 240 - 265.

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٢٥٩، ٢٦١ – ٢٨٥. والمنجانة أو المنقانة آلة تعرف بها الأوقات، وأصلها فارسي؛ حيث تسمى (بنكان) أي ساعة مائية أو آلة حساب الوقت. انظر، القرطبي (ابن حيان): المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٩٧٣م، ح٢، ص ٢٨٣؛ المقري: نفح الطيب، الجزء الثالث، ح٢، ص ٣٧٤؛ Dozy, R., : Supplement aux Dictionnaires Arabes, Paris, 1927, Vol. 1, pp. 569 - 570.

(٣) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص ٤٣، ٦٦٤؛ ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص ٢٠٦ – ٢٠٨.

(٤) ابن الحاج النميري: المصدر نفسه، ص ٤٨٨؛ Marçais, G., : Op. Cit., p. 278

(٥) عن هذا المصطلح انظر محمد عبد الستار عثمان: الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي – دراسة أثرية معمارية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٨م، ص ١٥٥.

عليه وعلى سكان الأحياء التي تقوم بينها هذه المجمعات، ولم يكن من بين هذه الوحدات ما يعود بالنفع على صاحب المنشأة، بخلاف المجمعات الدينية المملوكية التي كانت تضم في بعض الأحيان قاعات خاصة أو قصر لسكن صاحب المنشأة، وما يتصل بهذا السكن الخاص من مطابخ ومراحيض واسطبلات كان يستغلها صاحب المنشأة وأقاربه عندما كانوا ينزلون بالمنشأة، بالإضافة إلى العديد من المدافن الجنائزية كالقبة التي ينشئها السلطان أو الأمير لنفسه ولأولاده، كما هو الحال في مجموعة برقوق بالنحاسين(٧٨٦ – ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤– ١٣٨٦م)، وانتشرت هذه الظاهرة بصفة خاصة في المجمعات – الترب – المملوكية بالقرافة الكبرى بالقاهرة، كما هو الحال في مجموعة قرقماس أمير كبير(٩١١ – ٩١٣ هـ / ١٥٠٦ – ١٥٠٧م)، التي ضمت فضلاً عن ذلك حوشًا جنائزيًا كبيرًا أعدت فساقيه لدفن العتقاء أو من يلوذ بصاحب هذا المجمع[١].

ويعد الجامع الكبير بتارودانت – العاصمة الثانية للسعديين بعد تيدسي- أول المساجد الجامعة التي أقامها الأشراف السعديون بالمغرب، وقد شيده محمد المهدي الشيخ[٢]فيما بين (٩٢٣ – ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ – ١٥٤٤م)، وبعد انتقال العاصمة إلى مراكش سنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م) تركز النشاط المعماري السعدي بهذه المدينة؛ حيث شيد به جامع الحرة المعروف حاليًا بجامع باب دكّالة فيما بين (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م) على يد لالة (لالا) مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورززاتي زوجة محمد المهدي وأم أحمد المنصور، ثم شيد عبد الله الغالب بالله جامع الأشراف أو المواسين سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) بمراكش أيضًا، وبنفس المدينة شرع أحمد المنصور في بناء مسجد جامع بحارة ياسر ألحق به مدرسة وحمامًا وغير ذلك من الملحقات[٣]: "ووضعه وضعًا عجيبًا فسمي بذلك جامع الهناء"[٤]، غير أن الوباء الشديد الذي تعرضت له البلاد منذ سنة (١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩م) والثورات الداخلية التي شهدتها الفترة الأخيرة من حكم أحمد المنصور لم تمكنه من إكماله: "حتى تُوُفِّيَ فسمي جامع الفناء"[٥]، ثم حملت الساحة المجاورة له الاسم نفسه "ساحة جامع

---

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، إسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ص ٣٢٩ – ٣٣٣، ٣٥٢؛ محمد مصطفى نجيب: المرجع السابق، ج١، ص ٢١.

(٢) يوجد بقرية تييوت الصغيرة القريبة من تارودانت جامع كبير ينسب لمحمد المهدي الشيخ، يتوسطه صحن متسع، وملحق به ميضأة وحمام. محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٥٧١.

(٣) المقري: روضة الآس، ص ٢٠.

(٤) السعدي: المصدر السابق، ص ٢٠٥

(٥) السعدي: نفس المصدر والصفحة؛ Colin, G., S.,: Autour du Jama El- Fna de Marrakech, Hespéris, Tome X, Librarie Larose, Paris, 1930, pp. 122 - 123.

الفناء"[١]، وما تزال يطلق عليها هذا الاسم حتى الآن، ثم شيد أبو فارس عبد العزيز بن أحمد المنصور جامع أبي العباس السبتي سنة (١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م) بمدينة مراكش بجوار ضريح الصوفي الشهير أبي العباس السبتي، وباستثناء جامع الهناء أو الفناء الذي شرع في تشييده أحمد المنصور، فإن المساجد الجامعة السعدية التي سبق ذكرها لا تزال قائمة حتى الآن كآثار فنية أصيلة، تشهد بالنضج والازدهار الذي بلغه الفن السعدي، وسوف نتعرض في هذا البحث لكل مسجد منها بالدراسة الوصفية والتحليلية.

كما ساهم بعض الأمراء والحكام المستقلون – خاصةً في فترة ضعف الدولة السعدية – في بناء المساجد الجامعة، كجامع شفشاون الذي شيده الأمير أبو عبد الله محمد بن راشد في حوالي منتصف القرن (١٠ هـ / ١٦م)، وكان يتكون من قسمين: صحن مكشوف ورواق للقبلة يشتمل على أربع بلاطات موازية لجدار القبلة، وبعد اتساع عمران المدينة وكثرة سكانها ضاق هذا الجامع بالمصلين، فاستأذن قاضي شفشاون سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) السلطان السعدي – زيدان بن أحمد المنصور– فأذن له السلطان، وزوده بالمال اللازم لذلك، فزاد القاضي في الجامع زيادةً مهمةً تمثلت في إضافة أربع بلاطات موازية لجدار القبلة أكثر طولاً من البلاطات القديمة، كما إن عقود بوائكها أكثر ارتفاعًا واتساعًا من مثيلاتها القديمة، وقد شغلت هذه البلاطات الصحن القديم للجامع، لذا زوده القاضي بآخر جديد أبعاده (١٨ × ١٢م)، وكان ملحقًا بالجامع خزانة للكتب، ومدرسة ومصلى للنساء وميضأة خارجية[٢].

كما شيد أبو بكر الدلائي حوالي سنة (٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م) جامعًا بزاوية الدلاء، غير أن هذا الجامع تهدم عندما أمر السلطان الرشيد بن الشريف العلوي بتخريب الزاوية الدلائية سنة (١٠٧٩ / ١٤٦٠م)، ولم يتبق من الجامع سوى بعض الأجزاء السفلى من الجدران[٣].

وإلى جانب قيام سلاطين الدولة السعدية بإنشاء العديد من المساجد الجامعة – كما سبقت الإشارة – فقد وجهوا اهتمامهم لتوسيع وتجديد العديد من المساجد السابقة على عهدهم، فبعد عدة قرون من الارتفاق بها كان من الضروري القيام بمثل هذه الأعمال لتستمر في أداء وظائفها. وهكذا قاموا بعمل إصلاحات وتجديدات بجامعي الكتبية والقصبة الموحدين بمراكش[٤]،

---

(١) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣١١.

(٢) سعيد أعراب: جامع شفشاون، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، مطبعة فضالة – المحمدية، أكتوبر، ١٩٦٢م، ص ص ٢٨ – ٢٩؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٥.

(٣) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ٢٣١ – ٢٣٢؛ Henry, R: Ou se trouvait la Zaouia de Dila?, Hespéris, Tome XXXI, Librairie larose, Paris, 1944, pp. 53 - 54.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٢٣٠، ح٢ من الصفحة نفسها، ص ص ٢٤٥ – ٢٤٦، ٢٦٢، ٢٦٥.

وتجديد الجامع الكبير بآسفي[١]، كما اهتموا بجامع القرويين بفاس القديمة ففي سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) شيد عبد الله الغالب بالله بالركن الجنوبي الغربي لهذا الجامع وبأعلى ساباط نهج السبطريين خلوةً (زاويةً) للحزابين[٢]، في مقابل زاوية الحزابين المرينية التي شيدها السلطان المستعين بالله أبو سالم المريني سنة (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م)[٣] المعروفة بخلوة الأسبوع السفلى؛ لذا فقد عرفت مثيلتها السعدية بخلوة الأسبوع العليا، وهي مكونة من أربع غرف متفاوتة المساحة، ولهذه الخلوة نافذة تطل على داخل الجامع ببائكة مكونة من عقدين مرتكزين على ثلاثة أعمدة من الرخام تحمل تيجانها كتابات تشير إلى أنها صنعت بأمر السلطان أبو فارس عبد العزيز المريني سنة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨م)؛ مما يوحي بأن هذه الخلوة مرينية الإنشاء، وأن ما حدث على عهد السعديين لا يعدو أن يكون ترميمًا أو إصلاحًا، على أن وجود هذه الأعمدة ليس قطعيًا في أن الخلوة مرينية[٤]، فمن الجائز أن يكون السلطان السعدي جلب هذه الأعمدة من منشآت مرينية قديمة، وأعاد استعمالها على هذا النحو، وهي ظاهرة معروفة وشائعة في المشرق والمغرب، ويدعم هذه الرأي رواية ابن القاضي التي نصت على إنشاء الغالب بالله لهذه الخلوة.

وفي سنة (٩٩٦ هـ / ١٥٨٧م) زود أحمد المنصور الجهة الشرقية لصحن جامع القرويين بخصة عظيمة جلب رخامها من فرنسا[٥]، عوضًا عن الخصة القديمة – الموحدية – التي تداعت، ثم أنشأ عليها قبةً خشبيةً تأخذ من الخارج هيئة جمالونية غطيت بالقرميد المزجج

---

(١) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ١٨٦.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، القسم الأول، ص ٧٥؛ عبد الهادي التازي: جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م، المجلد الثاني، ص ص ٣٣٤ – ٣٣٥. ويقصد بخلوة الحزابين ويطلق عليها أيضًا مجلس الأسبوع، وزاوية القراء، وذلك لكون القراء يجتمعون فيها لقراءة القرآن الكريم وختمه كل أسبوع. الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٧؛ ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٧٦ – ٧٧؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٧٤.

(٤) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٣٢، ٣٣٥.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٢١. الخصة في الاصطلاح المغربي تعني مجموع شيئين اثنين: الأنبوب الذي يتفجر منه الماء إلى أعلى، والحوض الذي يجتمع فيه الماء بعد اندفاعه من الأنبوب، وتجمع على خصص أو خصات، وكانت تدعى قديمًا بالخرشفة وتسمى اليوم الخسة (الخصة) تشبيهًا لها بالنباتين المعروفين. والخصة في المغرب ترادف الفوارة أو الفسقية التي تتوسط صحون المساجد والمدارس بالمشرق الإسلامي. الأنصاري (محمد بن القاسم بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك السبتي، كان حيًا عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م): اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٦٩م، ح ٥٦، ص ٣٨؛ المقري: المصدر السابق، ح١٧، ص ٢١؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ح٤٨، ص ٨٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٥٢٠.

باللون الأخضر، أما باطنها ومحيطها الخارجي فمزين بزخارف نباتية متنوعة ونقوش كتابية بالخط الثلث تتضمن أبياتًا من الشعر لأبي العباس الغرديس (ت: ١٠٢٠ هـ / ١٦١١م) وابن القاضي (ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م)[١]. وفي سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) زود الأمير عبد الله بن محمد المأمون بن أحمد المنصور الجهة الغربية لصحن جامع القرويين بخصة من الرخام تعلوها قبة خشبية، في تكوين معماري يشبه – بل ويفوق في الروعة – العمل الذي قام به جده المنصور بالجهة الشرقية لهذا الصحن، وقد زينت القبة الخشبية بزخارف نباتية متنوعة، ونقوش كتابية بخط الثلث تتضمن أبياتًا من الشعر تشير إلى المنشئ وتاريخ الإنشاء، وتفوق ما أنشأه الحفيد على عمل جده[٢]. ويشبه الشكل العام للخصتين والقبتين السعديتين ووقعهما بمحور الصحن، مثيلاتهما بساحة الأسود في قصر الجمراء بغرنلطة[٣].

وكما أنشأ أبو عنان المريني خزانة للكتب وأخرى للمصاحف بجامع القرويين[٤]، زود أحمد المنصور السعدي هذا الجامع أيضًا بخزانة للكتب خلف جدار القبلة على يسار خزانة المصاحف المرينية الواقعة بدورها على يسار المحراب[٥]، ويطلق عليها المقري اسم "الخزانة العليا"[٦]، وقد سمتها الحوالة الإسماعيلية بـ "الخزانة الأحمدية الشريفة" نسبة لأحمد المنصور، ونعتها البعض بالخزانة السعدية[٧]، ويرجع تاريخ إنشائها إلى نحو (١٠١٠ هـ / ١٦٠١م) أي قبل وفاة المنصور بعامين[٨]. وهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل، طول ضلعها ٥.٥٠م، وارتفاع

---

(١) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ص ٤٦ – ٤٧؛ المقري: المصدر السابق، ص ص ٢١ – ٢٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص١٦٠ – ١٦١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٨؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٣٦ – ٣٣٨؛ محمد الكحلاوي: السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش دراسة أثرية مقارنة مع الأسبلة المملوكية بالقاهرة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد الرابع، ١٩٩٥م، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٢.

(٢) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٣٨ – ٣٤٠؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٤٢ – ٣٤٤.

(٣) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٣٨، ٣٤٠؛ Marçais, G.,:Manuel d'Art Musulman, Tome II, pp. 700 - 701; Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane, p. 387.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٦؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ص ٧٣ – ٧٤؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٤١.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٢٢؛ العابد الفاسي: خزانة القرويين ونوادرها، بحث نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجد الخامس، الجزء الأول، مايو ١٩٥٩م، ص ٥؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٤١.

(٦) المقري: المصدر السابق، ص ٢٢.

(٧) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٤١.

(٨) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٧٥؛ المقري: المصدر السابق، ص ٢٢؛ العابد الفاسي: المرجع السابق، =

جدرانها الأربعة ٧م، فتح بها مجموعة من النوافذ؛ لتزويدها بالضوء اللازم للقراءة، وتشتمل جدرانها الأربعة على رفوف خشبية لوضع الكتب، وقد غطيت هذه القاعة بسقف خشبي هرمي الشكل غطي من الخارج بالقرميد[١].

أما بالنسبة للمساجد الصغيرة أو مساجد الأحياء، فلا بد أن المدن المغربية المختلفة كانت تتوفر على أعداد كبيرة منها في العصر السعدي، نظرًا لازدهار العمران وزيادة الكثافة السكانية التي شهدتها تلك المدن في هذا العصر. حتى إن بعض الرحالة الأجانب لم يخفوا إعجابهم بمظاهر التطور العمراني بتلك المدن، فشبهوا فاس بغرناطة، ومراكش بإشبيلية، وجعلوا فاس ومراكش في مصاف العواصم الكبرى في العالم الإسلامي، مثل استانبول ودمشق والقاهرة[٢]، وقد سبقت الإشارة إلى أن الرحالة الفرنسي جان موكي الذي زار مراكش سنة (١٠١٥ / ١٦٠٦م) قدر عدد سكانها فيما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ألف نسمة[٣]، وتفيد رواية مارمول بأن عدد مساجد مدينة فاس بلغ في القرن (١٠ هـ / ١٦م) – كما سبقت الإشارة – خمسين مسجداً كبيرًا، وستمائة مسجد صغير[٤]، ويقدر الرحالة الإنجليزي ليتجو "Litgow" الذي زار فاس سنة (١٠١٨ / ١٦٠٩م) عدد سكانها بمليون نسمة، وذكر أن عدد مساجدها بلغ آنذاك ٤٦٠ مسجداً بخلاف جامع القرويين[٥]. ويمكن أن نعتبر آن هذه الإحصاءات غير مبالغ فيها إذا وضعنا في الاعتبار أنه يدخل فيها أصغر المصليات مساحةً من جهة، واتساع العمران وتزايد الكثافة السكانية من جهة أخرى.

والواقع لا يمكننا حاليًا التعرف بدقة على المساجد الصغيرة التي شيدت في العصر السعدي، أو حتى تحديد مواقعها ونسبتها إلى ذلك العصر، ولو أمكن ذلك لساعدنا على تتبع النمو العمراني واتجاهاته بالمدن المغربية المختلفة بصورة دقيقة أثناء الفترة السعدية. وقد ساهمت طبقات الشعب المختلفة في إنشاء العديد من المساجد الصغيرة، وتحبيس بعض ممتلكاتهم عليها لتستمر في أداء وظائفها[٦]. ويشير "صاحب السعادة الأبدية" إلى أن العادة

= ص ٥؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٤١ – ٣٤٢؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٧٩، ح ٢٧ من الصفحة نفسها.

(١) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٤١. القرميد: نوع من الفخار الذي تغطى به الأسقف الجمالونية من الخارج، وهو على هيئة أنصاف قنوات فخارية غالبًا ما تطلى بدهان أخضر مزجج. انظر، محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٥٢٦.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٦.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٦) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

جرت بسكان مراكش: "إنهم يؤسسون في كل درب مسجداً لهم"[١]. كما شيدت العديد من المساجد والمصليات الصغيرة بداخل الزوايا والمدارس والثكنات الحربية، وبعض الدور على ما جرت به العادة في المغرب قبل العصر السعدي[٢]، فضلاً عن اشتمال بعض المنشآت السعدية على مصليات صغيرة كقصر البديع[٣] وقبور السعديين بمراكش[٤].

المدارس:

شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين وعصر الموحدين ثورةً تعليميةً بما تضمنته من دعوتين دينيتين: دعوة المرابطين والتي نادى بها عبد الله بن ياسين، ودعوة الموحدين والتي نادى بها محمد بن تومرت[٥]، وما صاحب ذلك من صراع فكري واتجاهات دينية انتشرت في أرجاء البلاد، ولم يتجه التعليم وجهةً دينية فحسب، بل كانت هناك الحياة الأدبية من أدب ولغة، والحياة العلمية من فلسفة وطب وعلوم اجتماعية وغيرها[٦].

وأصبحت المدن المغربية كفاس ومراكش وطنجة وسلا وسبتة وغيرها من المدن تزخر بطلاب العلم في العلوم المختلفة، وصار المغرب الأقصى ينعم بنهضة تعليمية في ظل ولاة الأمر من المرابطين والموحدين، وقد تضافرت عدة عوامل على دفع حركة التعليم بالبلاد منها: استقرار الأوضاع بالبلاد، وتشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء، والصلة الوثيقة بين المغرب والأندلس، فضلاً عن حرص أبناء المغرب الأقصى على طلب العلم[٧]. ولقد استوعبت هذه الحركة العلمية النشطة حتى نهاية العصر المرابطي منشآت تعليمية متنوعة انتشرت في أنحاء متفرقة من البلاد، منها المسجد والرباط ومكتب تعليم الصبيان، فضلاً عن دور بعض العلماء[٨].

---

(١) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ص ٩ - ١٠.

(٢) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٦٩، ١٧١.

(4) Marçais, G.,: Op. Cit., p. 394; Rousseau, G., and Others: Op. Cit., p.XV.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد الأول (المقدمة)، ص ص ١٦٧ – ١٦٨؛ حسن علي حسن: التعليم بالمغرب الأقصى في عهدي المرابطين والموحدين، بحث نشر في حوليات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م، ص ص ٦١ – ٦٥؛ عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦١م، الجزء الأول، ص ص ٦٧ – ٦٨.

(٦) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ٦١؛ الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، الطبعة الثانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص ص ١٧٨ – ١٧٩.

(٧) محمد الأخضر: الأدب المغربي أيام المرابطين والموحدين (٤٦٢ – ٦٦٧ هـ / ١٠٦٩ – ١٢٦٨م)، بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء التاسع، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية، مديرية الشئون الثقافية، الرباط، ١٩٧٣م، ص ص ١٠٨ – ١٠٩؛ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ص ٦١ – ٦٥.

(٨) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٨٦ – ٩٢.

وخلافًا لما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن المرينيين هم أول من شيدوا المدارس بالمغرب الأقصى[١]، وأكده بعض الباحثين الذين ذكروا أن المدارس ظهرت أولاً بالمغرب الأدنى، عندما شيد أبو زكريا الحفصي المدرسة الشماعية بتونس عام (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م)، ثم وصلت إلى المغرب الأقصى متأخرةً بنحو ثلاثين سنةً عن هذا التاريخ[٢]. فإن المغرب الأقصى عرف بناء المدارس منذ العصر الموحدي (٥٢٤ – ٦٦٨ هـ/ ١١٣٠ – ١٢٦٩م)، ولكن مما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء من عمارة تلك المدارس نتيجة عامل الزمن من جهة، وعبث العابثين من جهة أخرى. لذا ربط الباحثون بين عمارة المدرسة القائمة وبين عصر إنشائها، ولم يلتفتوا إلى ما أنشئ منها في فترة سابقة على العصر المريني، ويدعم ذلك بقاء معظم عمائر المدرسة المرينية قائمًا إلى اليوم، بينما لم تصلنا من عصر الموحدين – كما سبقت الإشارة- مدارس قائمة، بل ولم يصلنا حتى بقايا من أنقاضها تؤكد وجود مثل هذه المدارس[٣].

لكن أشارت المصادر التاريخية والوثائقية إلى بناء الموحدين لمثل تلك المنشآت التعليمية، وتبقى الدليل الوحيد القائم – حتى الآن- على وجود هذه النوعية من المنشآت[٤]؛ إذ نسبت إلى عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين (٥٢٤ – ٥٥٨ هـ/ ١١٣٠ – ١١٦٣م) اهتمامه ببناء المدارس في كل من مراكش[٥]،

---

(١) ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني، ت: ٧٨١ هـ / ١٣٨٠م): منتخبات من مسند ابن مرزوق، المعروف بالمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن،نشر ليفي بروفنسال،مجلة هسبريس، المجلد الخامس، الفصل الأول، الرباط، ١٩٢٥م، ص ٣٤؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٣٣٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: مدارس فاس بحث نشر في كتاب الشعب، عدد ٧٨، بيوت الله مساجد ومعاهد، الجزء الثاني، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢٠١؛ سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٥١٦؛ هادي روجي إدريس: المجتمع في المغرب بعد زوال الموحدين، بحث نشر في كتاب إفريقيا العام، المجلد الرابع "إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، اليونسكو، ١٩٨٨م، ص ١٢٦؛ عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ص ١٣٨ – ١٣٩؛

Marçais, G.,: Op. Cit., pp. 284, 292; Hillenbrand, R.,: Islamic Architecture Form, Function and Meaning, Edinbrgh University press, 1994, p. 239; Golvin, L.,: Architecture Musulmane La Madrasa Médıévale, Edisud, 1995, pp. 174, 212.

(٣) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ١٢٠؛ وللمؤلف نفسه: المدارس المغربية دراسة أثرية معمارية، بحث نشر في مجلة العصور، المجلد السادس، الجزء الأول، دار المريخ للنشر، لندن، يناير ١٩٩١م، ص ٧٣؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٨٢.

(٤) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ١٢٠؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٥) ابن القطان (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك، تُوُفِّيَ منتصف القرن ٧ هـ / ١٣م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٩٠م، ص ص ١٧٣، ١٧٤، ١٧٩؛ محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص ١٧.

والرباط[١]. كذلك أفادت المصادر أيضًا تشييد أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ – ١١٩٩م) للعديد من المدارس بمختلف مدن المغرب[٢]، كما أشارت نصوص الرحالة وبعض المخطوطات التي حبسها الخلفاء الموحدون إلى وجود ثلاث مدارس موحدية بمدينة مراكش، مدرستان منها بالقصبة الموحدية أو "تامراكش" التي شيدها يعقوب المنصور جنوب مراكش القديمة، أما الثالثة فكانت بمراكش القديمة[٣]. وإلى جانب المدارس التي شيدها خلفاء الموحدين كانت هناك محاولات لبناء مدارس من قبل العامة، وتتمثل في مدرسة أبي الحسن الشاري الغافقي المُتوَفَّى عام (٦٤٩ هـ / ١٢٥١م) التي شيدها بسبتة[٤].

وفي ضوء ما سبق، يمكن القول إن المغرب الأقصى قد عرف بناء المدارس منذ عصر الموحدين، منذ عهد أول خلفائهم عبد المؤمن علي (٥٢٤ – ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ – ١١٦٣م) على وجه التحديد، ولم تظهر في المغرب الأدنى إلا في أواسط القرن (٧ هـ / ١٣م) عندما شيدت المدرسة الشماعية سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م) [٥] كما سبقت الإشارة، بينما شيدت أول مدرسة بالمغرب الأوسط سنة (٧١٠ هـ / ١٣١٠م)، وهي مدرسة أولاد الإمام بتلمسان على يد أبي حمو الأول أحد

---

(١) محمد المنوني: نفس المرجع والصفحة.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٢١٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٠١ – ٢٠٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٩٥، ١٩٨.

(٣) ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م): وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، مقتبس من "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، نشر وتحقيق محمد المنوني، مجلة البحث العلمي، العدد الأول، السنة الأولى، الرباط، يناير ١٩٦٤م، ص ص ١٤٥ – ١٤٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣١ – ١٣٣؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٨ – ٤٩؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٦؛ محمد الكحلاوي: المدارس المغربية، ص ٧٥؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٩٥ – ٩٨.

(٤) ابن الزبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م): صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٤م، القسم الرابع، ص ص ١٦١ – ١٦٢؛ ابن الخطيب: الإحاطة، المجلد الرابع، ص ص ١٨٧ – ١٨٨؛ الأنصاري: المصدر السابق، ص ٢٣؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٧٤؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٩٤ – ٩٥.

(٥) وبعد المدرسة الشماعية، شيدت بتونس في العهد الحفصي مدرسة الهواء في منتصف القرن (٧ هـ / ١٣م)، والمدرسة المعرضية سنة (٧٣٧ هـ / ٣٨ – ١٣٣٧م)، والمدرسة العنقية سنة (٧٤١ هـ / ١٣٤١م)، والمدرسة العصفورية (٧٤٢ هـ / ١٣٤٢م)، ومدرسة ابن تافراجين (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤م)، ومدرسة باب البحر سنة (٧٩٩ هـ / ١٣٩٩م)، ثم شيدت فيما بين (٨٣٨ – ٨٤١ هـ / ١٤٣٤ – ١٤٣٧م) المدرسة المنتصرية، وهي المدرسة الوحيدة التي ما زالت قائمةً بحالة جيدة – إلى حد ما – بتونس من العهد الحفصي. انظر، عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ص ١٣٩ – ١٤٠؛

Golvin, L.,: Op. Cit., pp. 173 - 189

سلاطين بني عبد الواد[١]. أما الأندلس فلم تعرف بناء المدارس إلا في عصر دولة بني الأحمر؛ حيث المدرسة النصرية التي شيدها السلطان يوسف أبو الحجاج سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م) على يد حاجبه أبي النعيم رضوان النصري[٢].

ولئن كان المغرب الأقصى قد عرف بناء المدارس على يد الموحدين – كما سبقت الإشارة- فليس هناك شك في أن المرينيين هم أعظم بناة المدارس في بلاد المغرب، وأكثرهم نشاطًا، وأوفرهم همة[٣]؛ إذ شيدت على يد سلاطينهم مدرسة أو أكثر في كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك، وبخاصة مدينة فاس عاصمة ملكهم في ذلك الوقت. وقد حظيت هذه المدارس بعناية الملوك الخاصة، وأشرفوا عليها بأنفسهم؛ حتى شيدت في أروع مثال وأبهى منظر، وكثيرًا ما يتجلى فيها الذوق الفني والمهارة والصناعة الرقيقة والخلق والإبداع في النقش والنحت والزخرفة، فكانت بذلك آية في الفن المعماري الذي ما زال بعضه قائمًا حتى الآن، شاهدًا على ذلك الإتقان وتلك الروعة[٤].

ويعد أبو يوسف يعقوب (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ – ١٢٨٦م) أول من أنشأ المدارس من سلاطين بني مرين: "واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية ..... ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، وأجروا بها الجرايات الكافية" [٥]. ولم يقتصر المرينيون على تشييد المدارس بالمغرب الأقصى، وإنما اهتموا بتشييدها في المغرب الأوسط أيضًا،

---

(١) لم تكن مدرسة أولاد الإمام هي المدرسة الوحيدة التي شيدها سلاطين بني عبد الواد بتلمسان، إذ شيدوا بعدها المدرسة التاشفينية، ثم المدرسة اليعقوبية. ومن الطريف أن مدارس بني عبد الواد بتلمسان قد اختفت تمامًا – باستثناء بقايا قليلة من المدرسة التاشفينية- في حين تبقت بعض المدارس التي شيدها سلاطين بني مرين كمدرسة العباد التي شيدها السلطان أبو الحسن علي عام (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م) أثناء سيطرته على المغرب الأوسط. انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٥٢؛ Marçais, G.,: Op. Cit.,: pp. 290 - 291; Golvin, L.,: Op. Cit., pp. 195 - 205.

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٥٠٨؛ وللمؤرخ نفسه: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق د. محمد كمال شبانة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص ١٥٥؛ المقري: نفح الطيب، الجزء الأول، ص ص ٢٢٠ – ٢٢١؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ١٧٢؛ أحمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٧م، ص ص ٣١٥ – ٣١٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٢٠٢؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٤) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٣٥؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٥ – ٢٢٦؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ محمد بن شقرون: النهضة الأدبية والفنية على عهد بني مرين (٢)، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العددان ١٤ – ١٥، السنة السادسة، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٩م، ص ص ٧٢ – ٧٣.

(٥) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١١١.

فقد شيد أبو الحسن علي – كما سبقت الإشارة – مدرسة العباد سنة (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م) التي لا تزال قائمةً بجوار مسجد العباد الذي شيده السلطان نفسه أيضًا[١]. كما أنشأ أبو عنان فارس سنة (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣م) مدرسة تجاور مسجد سيدي الحلوي الذي شيده بتلمسان في العام نفسه، غير أن هذه المدرسة لم يعد لها وجود الآن[٢].

وإذا كانت مدارس الحفصيين بالمغرب الأدنى – باستثناء المدرسة المنتصرية- ومدارس بني عبد الواد بالمغرب الأوسط قد اختفت ولم يصلنا شيء – ذو قيمة كبيرة – من عمارتها، فإنه لا تزال بعض المدارس التي شيدها المرينيون بالمغرب الأقصى قائمةً حتى الآن كآثار فنية أصيلة، تشهد بالنضج والازدهار الذي بلغه الفن المريني، وهذه المدارس كالتالي:

مدرسة الشهود أو القاضي بمكناس (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م)، ومدرسة الصفارين بفاس القديمة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م)، ومدرسة دار المخزن بفاس الجديد (٧٢١ هـ / ١٣٢١م)، ومدرسة الصهريج، ومدرسة السبعيين بفاس القديمة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)، ومدرسة العطارين بفاس القديمة أيضًا (٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م) والمدرسة الجديدة بمكناس – المعروفة خطأ بالبوعنانية – (٧٣٦ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١م) ومدرسة أبي الحسن بسلا (٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) والمدرسة المصباحية بفاس القديمة (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م) والمدرسة البوعنانية بفاس القديمة أيضًا (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م)[٣].

وبانتهاء العصر المريني لم يشهد المغرب الأقصى نشاطًا ملموسًا في بناء المدارس التي كانت في عديد من المدن الكبرى، وبخاصة مدينة فاس قد بلغت حد الكفاية منذ عهد المرينيين[٤]؛ إذ لم يهتم الوطاسيون بإنشاء مثل هذه النوعية من المنشآت التعليمية، وإن كان بعض الباحثين ينسب إليهم تشييد المدرسة المجاورة لجامع باب الجيسة المريني، اعتمادًا على ورود ذكرها في بعض الحوالات الوقفية التي ترجع إلى سنة (٩٧٣ هـ / ١٥٦٥م)[٥]، وعلى رواية الناصري التي أفادت تجديد هذه المدرسة على يد السلطان محمد بن عبد الله العلوي(١١٧١ – ١٢٠٤ هـ / ١٧٥٧ – ١٧٩٠م)[٦]، في حين ذهبت بعض الآراء إلى أنها من إنشاء هذا السلطان

---

(١) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ص ٣٤ – ٣٥؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٢٤؛ Marçais, G., Op. Cit., pp. 290 - 291.

(2) Marçais, G.,: Ibid., p. 278.

(٣) للاستزادة حول هذه المدارس وأسباب إنشائها وانتشارها في العصر المريني، ودراستها الوصفية والتحليلية. انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١٠٨ وما بعدها.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٢١.

(٥) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٦٠، ح٣٠، ص ٣٦٤.

(٦) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ٦٩.

العلوي المذكور(١).

فضلاً عن ذلك كان للأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها البلاد في العصر الوطاسي أثر سيئ على الحركة العلمية بمختلف المدن المغربية، وأدت الفتن والاضطرابات الناجمة عن تلك الأزمات إلى عرقلة سير المنشآت التعليمية، وشل نشاطها، وزاد الأمر سوءًا أن السلطة الوطاسية كانت تمد يدها إلى دخل الأوقاف التي لم تعد تؤدي دورها في ظل الفوضى وتشتت السلطة، فقل مردودها وضعفت مراقبتها(٢). وقد أمدنا ليون الإفريقي المتوَفَّى بعد سنة (٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م) بوصف دقيق للتنظيم الداخلي للمدارس المرينية إبان ازدهارها بقوله: "في كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقي درسه في الصباح، وذاك في المساء، ويتقاضون جميعًا مرتبات حسنة أوصى بها مؤسس المدرسة. وكان كل طالب من طلبة هذه المدرسة في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات" (٣).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف حاضر هذه المدارس كما شاهده، ويعلل تراجع الحياة العلمية بالمغرب في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م) بما كان من تخريب أوقاف المدارس والمعاهد العلمية في الفتن، واستيلاء المتأخرين من سلاطين المرينيين ثم الوطاسيين على دخل ما تبقى منها عن طريق قروض لا ترد، فلم يبق للطالب — بعد ما كان له من سكنى وطعام وكسوة لمدة سبع سنوات — غير مجرد السكنى وأجور بسيطة للأساتذة، وكذلك قل عددهم، وفترت همتهم عن الدرس والتحصيل(٤).

وقد يكون من أسباب هذا التراجع في الحياة العلمية أيضًا اضطرار العلماء والطلبة إلى المشاركة في حركة الجهاد؛ للوقوف في وجه المغيرين الأيبيريين خاصةً في الشمال، وربما كان من أسبابه أيضًا ما يقال من تلازم السياسة والحياة العلمية قوةً وضعفًا وارتقاءً وانحطاطًا، ولو أن ذلك غير مطرد(٥).

وعلى الرغم من ذلك شهد العهد الوطاسي تنافس العلماء والفقهاء والميسورين في بناء المدارس وبخاصة في إقليم سوس، وهي تجربة جماهيرية في نطاق الحقل الثقافي والتعليمي لم يسبق لها نظير(٦)، إذ كان إنشاء المدارس في العصر المريني والتمويل المنتظم لها منذ البداية

---

(١) ابراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٥٣٥.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٥؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

(٤) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء والصفحة؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٤.

(٥) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٦) ابراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٣٧٤ — ٣٧٥. سبقت الإشارة إلى أنه كانت هناك محاولة لبناء مدارس من قبل العامة في العصر الموحدي، وتتمثل هذه المحاولة في المدرسة التي شيدها =

من قبل السلاطين أنفسهم، وظل مختصًا بهم حتى آخر مدرسة شيدت في عصرهم[١]. فالجهد الذي قام به بنو مرين في نطاق نشر التعليم عن طريق المساجد والكتاتيب والعديد من المدارس لم يكن هينًا، لكنه كان دون الكفاية؛ لتركزه – غالبًا – في المدن الكبرى، وظلت مراكز كثيرة من البلاد لم تصلها عناية الدولة، بما في ذلك مناطق دكّالة والأطلس المتوسط والجنوب[٢].

على أن مدارس سوس امتازت ببساطة تكوينها المعماري، وتأثرها بالطابع المحلي، وقد شيدت للدراسة – رغم اشتمال بعضها على مساكن للطلبة – في المقام الأول[٣]، بخلاف مدارس الدولة التي جمعت بين التعليم والسكن[٤]. وكان انتشارها يدل على الغيرة على الدين، ومدى الإقبال على العلم بتلك المنطقة التي ازداد نشاطها الثقافي في تلك الفترة، واستمر في العصر السعدي ثم العلوي من بعده، ومن مدارس سوس التي لمع اسمها في العهد الوطاسي: مدرسة آقا التي كان من علمائها محمد بن مبارك المُتوفَّى سنة (٩٢٤ هـ / ١٥١٨م)، ومدرسة تازمورت بسملالة التي شيدها أحفاد الإمام ابن العربي ابتداء من سعيد أكرامو المُتوفَّى سنة (٨٨٢ هـ / ١٤٧١م)، ومدرسة آل عمرو المشيدة في أوائل القرن (١٠ هـ / ١٦م) على يد أسرة آل عمرو بقرية أسرير على ضفاف وادي نون في تخوم الصحراء[٥]، والمدرسة البرحيلية الواقعة بقرية أولاد برحيل من قبيلة المنابهة قرب تارودانت، ومن أوائل علمائها حسين الشوشاوي المُتوفَّى سنة (٨٩٩ هـ / ١٤٩٤م) [٦].

هكذا كانت الحياة الفكرية بالمغرب قبل قيام الدولة السعدية تعاني من الخمول والركود من جراء الفتن والاضطرابات التي عمت البلاد في عهد الوطاسيين، ومع مجيء السعديين واستقرار الأحوال السياسية بدأت الحياة الثقافية تزدهر من جديد، سيما وأن مسئولية نشر العلم ورعايته احتلت المرتبة الثانية من اهتمام السعديين بعد مسئولية الجهاد

= أبو الحسن الشاري بسبتة.

(١) محمد القبلي: قضية المدارس المرينية – ملاحظات وتأملات، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ٧٥؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١١٣؛ Bel, A.,: Op. Cit., p. 92.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٣٧٤ – ٣٧٥. وعن ظاهرة إهمال التعليم ببعض المراكز والبوادي المغربية. انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٩٨، ٣٥٩.

(٣) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٢٢١ ، ٣٩٢.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١١٧ – ١١٨.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٢١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٢.

(٦) المتوكل عمر الساحلي: المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٩٠م، الجزء الرابع، ص ص ٢٥ – ٢٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٢.

وطرد المحتل التي شكلت الركيزة الأساسية لقيام دولتهم[١]، لذا فقد انتشر التعليم في العصر السعدي على نطاق واسع، وكان للنشاط الثقافي والعلم وأهله حظ من عناية الملوك السعديين الذين قام مقامهم بعد أن ضعفت دولتهم، زعماء الحركة الصوفية لا سيما الدلائيين، وشهدت عدة مناطق من المغرب ازدهارًا علميًا وثقافيًا لم تشهده من قبل، كما هو الحال في درعة وسوس، فقد تنافست الأسر والعلماء والميسورون في بناء المدارس المحلية واقتناء الكتب، وتشجيع المعرفة بمختلف الوسائل[٢]؛ فنشطت لذلك المدارس الخاصة نشاطًا عظيمًا، وانبثت في المدن والبوادي وسفوح الجبال وأعماق الصحراء[٣].

وجدير بالذكر أن سلاطين السعديين لم يكثروا من بناء المدارس في عهدهم، ويرجع ذلك – فيما يبدو- إلى سببين، أولهما: وفرة المدارس المرينية، وبخاصة في المدن الكبرى التي واصلت أداء مهمتها في هذا العهد مع اختلاف في مواردها المالية التي تناقصت عما كانت عليه أيام مؤسسيها[٤]. وثانيهما: إقبال كثير من العلماء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب على بناء كثير من المنشآت التعليمية والدينية من مدارس وزوايا في عدة جهات لم يسبق أن عنيت السلطة المركزية بها مطلقًا، من حيث تزويدها بهذه المنشآت[٥]، مما جعل التعليم في العصر السعدي يصطبغ بطابع الشمول من حيث التوزيع الجغرافي، حيث أصبحت الخريطة التعليمية تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى تخوم الصحراء ثم إلى ما وراءها جنوبًا[٦].

ويبدو أن هذا الإقبال الشديد على بناء المدارس من قبل تلك الفئات، جعل بعض الفقهاء كأبي علي اليوسي (ت: ١١٠٢ هـ / ١٦٩١م) يحدد شروطًا لبناء المدارس، من أهمها أن يكون بناء المدرسة من مال حلال جمع بالكسب المشروع، ويجب على كل طالب أن يطلع على الشروط الخاصة بنظام المدرسة، والتي أوصى بها الواقف، ومن الواجب احترامها شرعًا، وإذا خصصت المدرسة لإيواء الطلبة أو لفئة معينة كطلبة العرب أو الأجانب أو الفقهاء أو النحاة والبالغين سنًا معينًا، فليس لأحد غيرهم السكنى بها، وإلا عد ذلك غصبًا[٧].

ويمكن تقسيم المدارس التي شيدها سلاطين الدولة السعدية إلى نوعين، أولهما: المدارس

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨١؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ١٠٨؛ محمد الفاسي: سوس عند الجغرافيين والمؤرخين، ص ٢١

(٣) إبراهيم حركات: الثقافة المغربية بين الثقافات الإنسانية، ص ٥١.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٠٧.

(٥) إبراهيم حركات: نفس المرجع والصفحة؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٢.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٨١ – ٨٢.

(٧) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٩٧.

الكبرى، وهي على غرار مثيلاتها المرينية من حيث اشتمالها على مساكن للطلاب، وقاعة للصلاة والدرس، وقد شيدت من هذا النوع - في ظل ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتاحة، وما وصلنا من آثار قائمة - مدرسة واحدة، هي المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش. أما النوع الثاني فهو عبارة عن مدارس صغيرة بنيت كملحق للمساجد الجامعة التي شيدوها، وتشتمل على مساكن للطلاب فقط، ومن هذا النوع مدرسة الجامع الكبير بتارودانت، وكل من مدرسة جامع باب دكّالة، ومدرسة جامع المواسين، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش. وباستثناء مدرسة الجامع الكبير بتارودانت التي ظلت قائمةً حتى سنة ١٩٥٧م، ثم هدمت وشيدت مكانها مدرسة جديدة، فإن هذه المدارس لا تزال قائمةً حتى الآن، غير أن بعضها تعرض لتجديدات غيرت من تخطيطها الأصلي كمدرسة جامع باب دكّالة، وبعضها الآخر تغيرت وظيفته كمدرسة جامع المواسين.

وتتفق المدارس السعدية بنوعيها مع المدارس المرينية في أن توزيع هذه المدارس داخل المدن لم يكن توزيعًا عشوائيًا، بل كان يتم وفق توجه مدروس، اقترن فيه توزيع المدارس بالمسجد الجامع لكل مدينة، أو بالمساجد الجامعة إذا كانت في المدينة الواحدة أكثر من مسجد جامع كمدينتي فاس ومراكش(١).

أما بالنسبة للمدارس التي شيدت على يد الفقهاء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب، المنتشرة في البوادي والمراكز الصغرى، فهي باستثناء المدرسة المجاورة لجامع مولاي عبد الله بالحي الذي يحمل الاسم نفسه بفاس الجديد، والتي شيدها محمد الحاج الدلائي بعد استيلائه على فاس سنة (١٠٥١ هـ/ ١٦٤١م) (٢)، تتميز ببساطة تكوينها المعماري، وعدم خضوعها للتأثير الأندلسي(٣)، وإنما خضعت للتأثير المحلي؛ حيث بنيت وسقفت بالطريقة نفسها التي قامت عليها مساكن القرية المتواجدة بها، بعضها يتكون من مساحة كبيرة مسقوفة (بيت واحد كبير) (٤) يأوي إليها جميع الطلبة الغرباء في

(١) للاستزادة حول هذه الظاهرة بالمغرب، انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٠٩ - ١١٠. وعن الظاهرة نفسها بالمشرق، انظر، عبد القادر الريحاوي: الأبنية الأثرية في دمشق دراسة وتحقيق، (٣) المدرسة الجقمقية، بحث نشر في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠م، ص ص ٦٩ - ٧١؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م، الجزء الأول، ص ص ٥٦ - ٥٨.

(٢) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ١٩٩٦م، ص ص ٥٤ - ٥٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٨؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ٢٣٢.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(٤) البيت لغةً: اسم لمسقف واحد وأصله بيت الشعر أو الصوف سمي بذلك لأنه يبات فيه، ولهذا المصطلح=

المركز[1]، وبعضها يحتوي على بيوت صغيرة متعددة كما هو الحال في مدارس المدن الكبرى، على أن هناك مدارس بدوية كبرى عدت بيوت الطلبة فيها بالمئات، كالمدرسة البونعمانية في جنوب سوس، ومدرسة سكتانة بالأطلس الكبير، ويبلغ عدد بيوت المدرسة المجاورة للمسجد الجامع بالزاوية الدلائية ألفاً وأربعمائة بيت لسكن الطلاب[2].

وإذا كان الالتحاق بمدارس البوادي والمراكز الصغرى التي شيدها العامة وسكناها، لا يتطلب غير إبداء الرغبة في التعليم، وملازمة دروس الشيخ الذي بيده مقاليد كل المرافق التعليمية في المركز[3]، فإن الأمر مختلف بالنسبة لمدارس المدن التي كان الالتحاق بها وسكناها يخضع لقوانين وتنظيمات كان يشرف عليها مختصون في ذلك، استمراراً لما عرف في العصر المريني، فكان يلزم للطلاب المتقدمين للالتحاق بهذه المدارس أن يكونوا قد تلقوا قسطاً من التعليم الأولي، كتعلمهم الكتابة، وحفظ القرآن، وما تيسر من الأحاديث، وغير ذلك من العلوم الفقهية التي كانت تدرس في المكاتب والزوايا والمساجد في ذلك الوقت[4]، وأن لا يقل سن الطلاب المتقدمين عن عشرين عاماً، ويشترط عليهم أن يجتهدوا في الدرس والتحصيل وملازمة حضور مجالس التدريس التي تعقد داخل المدرسة، وكل طالب لم يظهر تفوقه العلمي بعد مقامه عشر سنوات يطرد؛ حتى لا يضر بقاؤه في المدرسة بالوقف المخصص للطلبة، ولا يجوز للطالب أن يعير البيت الذي يسكنه بالمدرسة لغيره من الطلبة، ولا يخزن به

= المعماري "بيت" دلالات واستخدامات عدة عندما يضاف إليه مضاف يحدد وظيفته، ويشار إلى حجرة أو غرفة الطالب بالمدرسة في المغرب بمصطلح "بيت". للاستزادة حول هذا المصطلح، انظر، محمد عبد الستار عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ص ١٤٠ – ١٤١؛ عوض عوض محمد الإمام: وكالة جديدة في ضوء وثيقة الحاج إبراهيم بن عبيد المسراتي مع دراسة ونشر وتحقيق لهما، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج – جامعة آسيوط، العدد السادس عشر (عدد تذكاري)، مطبعة الجبلاوي، يونيو ١٩٩٤م، ح٣، ص ٥١١.

(١) يتفق هذا النوع من المدارس البدوية في هذه الظاهرة مع بعض المدارس اليمنية التي شيدت في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ – ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ – ١٤٥٤م) والدولة الطاهرية (٨٥٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٢٩ – ١٥١٧م) التي لا تشتمل على حجرات وغرف مستقلة لإقامة كل طالب، والتي عرفتها معظم مدارس العالم الإسلامي وإنما خصصت قاعات متسعة لإقامة الطلاب، كما كانت في بعض هذه المدارس قاعات الدرس هي ذاتها أماكن الإقامة. انظر، محمد سيف النصر: نظرة عامة إلى المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية، بحث نشر في مجلة الإكليل، السنة الثالثة، العدد الأول، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء – اليمن، ١٩٨٥م، ص ١٠٥.

(٢) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ص ١٢٦ – ١٢٧.

(٣) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ١٢٧.

(٤) علي حامد الماحي: المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨– ١٣٥٨م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ١٦٦.

من الأشياء إلى مؤونته الخاصة، وكذلك لا يجوز له الاحتفاظ بهذا البيت والإقامة بالمدرسة إذا انقطع للعبادة وترك دراسة العلم؛ لأن المدرسة لم تحبس لذلك، وإنما حبست لمن يتعبد بقراءة العلم مع عبادة لا تشغله عن القيام بذلك[١]. وعند توزيع البيوت على الطلاب يراعى المسئولون المختصون ما يضمن راحتهم ومصالح المدرسة فتخصص أفضل البيوت للمتقدمين من الطلاب، والبيوت المضيئة لمن يشتغل منهم بنسخ الكتب، ويخصص الطابق العلوي لأهل الحضر؛ لكونهم أقل إزعاجًا من طلبة البدو، ويبعد أصحاب الأصوات المرتفعة عن قاعة الصلاة والدرس[٢].

أما بالنسبة للموارد المالية التي كان ينفق منها على هذه المدارس لدعم العملية التعليمية، ودفع مرتبات الأساتذة والهيئة العلمية، والإنفاق على الطلبة حتى يتيسر لهم سبل العيش الكريم، ويتفرغوا لتحصيل العلم؛ فقد اختلفت باختلاف المكان الذي توجد به المدرسة؛ ففي المدن الكبرى كان ينفق على المدارس المتواجدة بها من دخل الأوقاف الكثيرة التي تشمل عددًا وافرًا من الأسواق والحوانيت التجارية والدور والأرحية (الطواحين) والحمامات والفنادق والبساتين، وتكاد تكون كل هذه المنشآت في بعض المدن كفاس ومراكش وتارودانت في ملك الأوقاف[٣]، إلى جانب عطاءات السلاطين والأمراء التي لم تكن موقوتةً ولا محددةً[٤]، وتكفل بعض الأسر الموسرة بالإنفاق على بعض الطلبة المعوزين أو الغرباء لا سيما ذوي النسب الشريف والأخلاق الفاضلة[٥].

أما في البوادي فلم تكن هناك أوقاف للإنفاق على الطلبة، ولكن رجال القبائل كانوا يقدمون للمدارس التي بين أظهرهم ما يكفي لمؤونة الأساتذة والطلبة في شكل أعشار وشرط[٦]

---

(١) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ٢٦٣ -- ٢٦٤؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٢١ — ١٢٢.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٧.

(٣) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٨٢؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٤٧ — ١٥٠.

(٤) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٧؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١٥١؛ Peretie, A., : Les Medrasas de Fès, Archives Marocaines, vol. XVIII, Paris, 1922, p. 289; Bel, A.,: Op. Cit., p. 119.

(٥) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٣٨ — ٢٣٩؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ح٤، ص ٣٦١؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٨؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٦) الشرط في اصطلاح بادية المغرب عبارة عن التزام أستاذ أو فقيه بتعليم أبناء القبيلة أو القرية مقابل أجر سنوي معين يكون في الغالب حبوبًا وإدامًا، ويطلق "الشرط" أيضًا على الأجر نفسه، واشتقوا منه شارط يشارط إلخ. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ح٣، ص ٥٤٣.

وهدايا وذبائح[١]. ولعل القبائل السوسية من أكثر قبائل المغرب اعتناءً بالعلماء والطلبة، وأوفاها التزامًا بالإنفاق بكميات محددة في أوقات معلومة لا تكاد تختلف. وإذا عرفنا أن الكوانين (الأسر) المشارطة لكل مدرسة تعد بالمئات، وتبلغ أحيانًا ألفًا وخمسمائة، أدركنا أهمية الأطعمة التي كانت تقدم للمدرسة، وللأستاذ مطلق التصرف في كل ما يحمل إلى المدرسة، بيده مفاتيح المخازن، يمون نفسه وطلبته ثم لا يراقب عمله[٢].

ونظرًا لعدم انتظام تساقط الأمطار في المغرب، وتغير المحاصيل الزراعية تبعًا لذلك، عانت مدارس البادية بدورها في سنوات المحن شيئًا من الخصاص، ونقصًا في الأرزاق، كما ضاق العيش، وقدرت الأرزاق على بعض المدارس والزوايا في قمم جبال الريف وجزولة، وبالأودية غير المزروعة في سوس ودرعة وتافيلالت مما يلي الصحراء، فلا يكاد الطلبة في بعض مدارس هذه المناطق يجدون ما يقتاتون به، وفي المقابل هناك بعض المراكز العلمية البدوية اشتهرت بالخصب ورغد العيش؛ لوقوعها على ضفاف أودية سوس وأم الربيع وسبو، أو في مناطق جبلية غنية تنتشر بها زراعة الزعفران وأشجار الزيتون واللوز والجوز، وتكثر قطعان الماشية بالغابات[٣].

على أن ظاهرة اعتماد الطلبة على أنفسهم في كسب الرزق أصبحت متفشيةً حتى في المدن العلمية الكبرى بالمغرب في الفترة الأخيرة من حكم الدولة السعدية التي اتسمت بالضعف والانهيار، فاحترف الطلبة آنذاك عدة مهن كالنساخة والنجارة والتجارة والحياكة والحجامة والدباغة والجزارة وغيرها[٤]. ورغم ذلك فقد كان لطلبة العلم نصيب من اهتمام نظارة أحباس الضعفاء والمساكين التي أنشئت في العصر السعدي، على أن بعض الفقهاء نادى بأولوية الفقراء والمساكين في الاستفادة من الزكاة والصدقة، حتى قالوا: إن الطالب الذي يواظب على حضور الدروس العلمية لا يمكن أن يستفيد من هذه الموارد إلا إذا ثبت فقره أو حاجته، وإن كنا نجهل مدى استفادة الطلبة والطبقات الضعيفة منها في المدن والقرى النائية[٥].

أما فيما يتعلق بالمناهج العلمية المقررة بالمدارس والمراكز العلمية في العصر السعدي، فنجد أن المدارس والمراكز الشعبية كان التعليم فيها اختياريًا لا يخضع لتوجيه محدد، ولكنه يتفق – إلى حد ما – مع حاجات الدولة والشعب، ويتواكب فيه النشاط الديني

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٨.

(٢) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ص ١٢٨ – ١٢٩؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٤٦٨.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٩.

(٤) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ١٣٠.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٤.

والثقافي في الوقت الذي نجد فيه المدارس والمراكز الرسمية التي هيمنت الدولة على تسييرها لا تمنح الدراسات الصوفية الاهتمام نفسه الذي نجده في مثيلاتها الشعبية. ومن جهة أخرى فالمراكز العلمية الشعبية لم تعن في معظمها بالعلوم البحتة، وإن كانت سوس تعد في المقام الأول بين جميع المراكز الشعبية التي اهتمت بتخريج الرياضيين والفلكيين(١).

وقد كان من أهم مظاهر النشاط الفكري والتعليمي في عصر السعديين تضاعف أهمية الكراسي العلمية(٢) التي عرفها المغرب مع المرينيين، وزيادة عددها بمختلف المدارس والمساجد التي كان يتم التدريس بها كجامع القرويين وجامع الأندلس بفاس، والجامع الكبير بتارودانت، وكل من باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش(٣). ولم يعد تأسيس هذه الكراسي العلمية وتخصيص الأوقاف لتغطية مصاريفها وأجور المدرسين عليها قاصرًا على السلاطين والأمراء السعديين، بل أصبح يشارك في ذلك خاصة الناس وعامتهم.

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ص ٣٧٤ — ٣٧٥، ٣٩٤ — ٣٩٥.

(٢) أكدت النصوص التاريخية أن المجالس العلمية التي كان الفقهاء والشيوخ يلقون دروسهم من خلالها، كانت تشتمل على كرسي يجلس عليه الأستاذ ليتمكن من تبليغ رسالته، وخاصةً في المجالس التي تزيد فيها أعداد الطلبة زيادةً كبيرة. ابن الخطيب: الإحاطة، المجلد الرابع، ص ١١٧؛ الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٧٦ — ٤٧٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٤؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٧٠؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٣٨ — ١٣٩. ولعل أول إشارة وردت إلى اتخاذ شيوخ وفقهاء بلاد المغرب للكراسي — في حدود ما أعلم — ما ذكره المالكي في سياق حديثه عن يحيى بن عمر الأندلسي (ت: ٢٨٩ هـ / ٩٠٢م) الذي كان يلقي دروسه بجامع القيروان بتونس. المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، الطبعة الثانية، تحقيق. بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٩٤م، الجزء الثاني، ص ٤٩٣. وقد كان بعض الفقهاء يرى في اتخاذ الكراسي ابتداعًا يشجع على العجب والخيلاء؛ لذا لم تنتشر هذه الظاهرة بصورة كبيرة بالمغرب حتى العصر المريني. الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص٤٧٦ — ٤٧٧. وقد عرف المشرق هذه الظاهرة أيضًا، حيث يذكر ابن الفوضي في سياق حديثه عن المدرسة المستنصرية، أنه كان لكل مدرس كرسي (سده) يلقي من عليه دروسه. انظر، أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها الجزء الثاني، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص ١٥٦، ح٣، من الصفحة نفسها.

(٣) الكلالي (أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى، ت: ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧م): فصله تصف الدراسة بالقرويين، مقتبسة من رسالة "تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب مع الهارية من الهذيان لمدعي استحقاق الفتوى آجليان"، نشر وتحقيق محمد المنوني، مجلة البحث العلمي، العدد السابع، السنة الثالثة، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٦م، ص ص ٢٤٤ — ٢٥٧؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٧٠ — ٤٠٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١١٩؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦.

وكان صاحب الوقف يعين المادة أو الكتاب الذي يدرس على الكرسي، والمسجد أو المدرسة التي يكون فيها، وأحيانًا يعين حتى مكان الكرسي داخل المسجد أو المدرسة، والوقت الذي يلقى فيه الدرس، فيحترم المدرسون رغبات الواقفين، ويلتزمون بها التزامًا تامًا، وكثيرًا ما تنوسي اسم الواقف ونسب الكرسي إلى العالم الذي درس عليه لأول مرة أو طالت مدة تدريسه عليه(١).

وعلى أية حال فإن المغرب الذي ظل طوال القرن (٩ هـ / ١٥م) منحصرًا في نطاق العلوم النقلية، أصبح في عهد الأشراف السعديين ميدانًا للدراسات العقلية والتجريبية، يتدارسها المغاربة إلى جانب العلماء الوافدين عليهم من مختلف الجهات. لكن رغم هذا التفتح وما نتج عنه من تنوع في المادة الدراسية(٢)، لم يستطع التعليم في المغرب أن يتخلص من ظاهرتين خطرتين طالما جثمتا على عقول الدارسين في عصر الانحطاط، وعرقلتا كل تطور فكري، وهما الاختصار(٣) والحفظ(٤). ورغم ذلك فمن الإنصاف القول إن المغرب لم يعرف قط مثل هذا النشاط الدراسي والفكري الذي لعبت فيه القيادات الشعبية دورًا بالغ الأهمية(٥).

الزوايا:

مر التصوف الإسلامي بمراحل تطور مختلفة بدأت من مظهر الزهد والتقشف في عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين(٦)، إلى مظهر ترك الحياة الدنيا، والتفرغ للعبادة الفردية في

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ١١٩ — ١٢١.

(٢) عن المواد الدراسية في عهد السعديين، انظر، محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٨٥ — ٩٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٤٠٠ — ٤٠٤.

(٣) بدأت المختصرات الفقهية في المذهب المالكي بالمغرب في أوائل القرن (٣ هـ / ٩م)، وازداد انتشارها في القرن (٤ هـ / ١٠م)، ثم راجت كتب المختصرات بشكل لفت الانتباه في القرن (٧ هـ / ١٣م) وزاد الإقبال عليها في العصر المريني وما تلاه من عصور. للاستزادة حول هذه الظاهرة، انظر، ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الأول (المقدمة)، ص ص ٦١٤، ٦١٧ — ٦١٨؛ الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ٤٧٩ — ٤٨٠؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ١٢٣؛ المقري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٢٧٥ — ٢٧٦؛ عمر الجيدي: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ص ١٣١ — ١٣٦؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨٢ — ٨٣؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٢٥ — ١٢٩.

(٤) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٨٢ — ٨٣. وللاستزادة حول ظاهرة الحفظ التي اعتمد عليها طلبة المغرب ونقد لها. انظر، ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الأول (المقدمة)، ص ص ٤٦٢ — ٤٦٣.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(٦) يمكن القول: إن التصوف نشأ مع نشأة الإسلام بظهور أهل الصفة، وهم جماعة من فقراء المؤمنين تفرغوا للصلاة والعبادة بالمسجد في عهد الرسول (ﷺ)، متخلين عن كل نشاط دنيوي، وقد حظوا بعطف الرسول عليه السلام والأمة. انظر، التادلي: المصدر السابق، ص ص ٥٠ — ٥١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ٣٢٣.

العصر الأموي، وهو مظهر زاد من حدته فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية نتيجة تحول الخلافة إلى ملك عضوض في هذا العصر، واشتد هذا التيار قوةً في عهد العباسيين، وبدأت ظاهرة التعدد والتنظيم الجماعي لفئات المتصوفة، ودخلت الدولة في صراع معهم تحت تحريض الفقهاء، غير أن ذلك قوى من عزم هذه الفئات، وساعد على تبلور نظامها، وانتشار أفكارها؛ لذا لم تجد الدولة حيال ذلك فضلاً عن استقرار قواعد ومناهج التصوف، وزيادة عدد المتصوفة، سوى مهادنتهم والاعتراف بهم(١).

ومن الطبيعي أن يكون للغرب الإسلامي نصيب من هذا التيار الصوفي، إذ ظهرت فئة من الزهاد – وإن كانت محدودة العدد- مع الفتح الإسلامي بسائر أنحاء الشمال الإفريقي، وفي إقليم إفريقية (المغرب الأدنى) ظهر الصلحاء الأولون في عصر الأغالبة، في القرن(٢ هـ/ ٨م)، ومعظمهم من طبقة العلماء المثقفين(٢). وفي المغرب الأقصى شهد العصر المرابطي أول ظهور للتصوف الذي انتشر في أواخر دولتهم في المغرب والأندلس، لا سيما بعد دخول كتاب "الإحياء" للغزالي لهذه الديار، فإن هناك من كان قد شغف بالكتاب، على الرغم مما كان حاصلاً من عقاب على من يوجد عنده، وإفتاء الفقهاء المالكية في كل من المغرب والأندلس بإحراقه، وتحريم قراءته(٣). على أن التصوف كان في هذا العصر أقرب إلى أصول السنة منه إلى حالات الجذب، والاستغراق التي تطور إليها فيما بعد، فلم تكن هناك طقوس خارجة عن السنة، ولا طرق أو مذاهب متميزة عكس ما حدث بالمشرق الذي ظهرت فيه طرق بارزة الملامح ابتداءً من القرن (٣ هـ / ٩م)(٤).

وفي عهد الموحدين صار للمتصوفة قوة اجتماعية يحسب حسابها بعد أن تجاوزت إطار التصوف الفردي إلى تصوف جماعي منظم(٥)، وأخذت تظهر في كتب مناقب الأولياء والمتصوفة، ككتاب "التشوف" – الذي فرغ من تأليفه (٦١٧ هـ / ١٢٢٠م) – مصطلحات خاصة

---

(١) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٢٤.

(٣) عبد الله التليدي: المطرب في مشاهير أولياء المغرب، الطبعة الثانية، مؤسسه التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة، ١٩٨٧م، ص ص ٣١ – ٣٣؛ محمد القبلي: رمز "الإحياء" وقضية الحكم في المغرب الوسيط (الخطاطة العامة وأرضية الاختلاف)، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ص ٢٨ – ٣١.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٢٤؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ١٨١.

(٥) محمد الشريف: "المستفاد" أو استقطاب التيار الصوفي على عهد الموحدين، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ١٩٩٩م، ص ص ١٢ – ١٣.

بالتصوف الجماعي، كمصطلح "الإخوان" و"الزوار" و"المريدين" و"الفتوح" [١]، حتى أصبح المغرب الأقصى يشتمل في القرن (٧ هـ/ ١٣م) على ست طوائف كبرى استوطنت كلها الجنوب المغربي [٢]. ومع ظهور المرينيين اشتد نفوذ المتصوفة غير أن نشاطهم اقتصر على الجانب الديني في البداية، ثم شمل في النصف الأخير من القرن (٩ هـ / ١٥م) الميدان الجهادي من غير تدخل في الشئون السياسية، وبدايةً من القرن (١٠ هـ / ١٦م) شهد المغرب امتدادًا واسعًا لنشاط المتصوفة الذين أدوا في تلك الفترة دورًا دينيًا واجتماعيًا وسياسيًا [٣].

وقد ارتبط بذكر الأولياء والمتصوفة في المصادر التاريخية، وبخاصة كتب المناقب، عدة منشآت تمثلت في الرباط [٤] والرابطة والزاوية، على أن الزاوية لم تظهر في تاريخ التصوف كمركز ديني وعلمي إلا بعد الرباط والرابطة [٥].

دعت الضرورة بالعرب الفاتحين بعد أن أشرفوا على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي بمجرد فتح بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، قبل أن يكون لهم أسطول بحري، وقبل أن يتمكنوا من إنشاء وسائل دفاع فوق الماء إلى أن يحموا سواحلهم من البر فقط، وأن يركزوا كل دفاعهم الساحلي على الأرض اليابسة؛ لذا فقد بنيت المناظر والمحارس والربط على طول السواحل التي أشرفوا عليها؛ حيث تقوم المناظر بمراقبة السفن المعادية قبل اقترابها من

---

(١) انظر على سبيل المثال، التادلي: المصدر السابق، ص ص ٢١٩ – ٢٢٢؛ محمد القبلي: قراءة في زمن أبي محمد صالح، بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩٧م، ص ٩٥. ويقصد بالفتوح أو الفتوحات، الهدايا التي تقدم لضريح الولي أو للولي من مال وشمع وزيت وماشية وغير ذلك. محمد حجي: الزاوية الدلائية، ح٧٢، ص ٢٢٩.

(٢) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ص ٩٣ – ٩٤.

(٣) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٣٥.

(٤) الرباط مصدر رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، وجمعها رُبُط. ويعني الإقامة علىجهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، ويعني أيضًا المكان الذي يرابط فيه الجيش، وأصل الرباط أن يرابط الفريقان في ثغر كل منهما معد لصاحبه، ثم سمي المقام في الثغور رباطًا، والمرابط والرابط الزاهد الراهب الحكيم الذي نزه نفسه عن الدنيا. محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، ص ١٠٠، حسن علي حسن: الحياة الدينية في المغرب، ص ٨٧. والرباط من حيث المدلول المعماري الإسلامي هو بناء حربي يمثل حصنًا من الحصون، يقام عند ساحل أو شاطئ نهر أو حد صحراوي، قصد الدفاع عن الثغور أو الحدود عن طريقة المطوعة والمجاهدين من المرابطين والمثاغرين، وقد انتشرت هذه الربط منذ الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي من المحيط الأطلسي غربًا إلى تونس شرقًا على = البحر المتوسط. انظر، ابن حوقل (أبو القاسم محمد، ٣٨٠ هـ / ٩٠٩م): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د.ت، ص ص ٧٤ – ٧٥؛ عبد الرحمن فهمي محمد: حول مئذنة من روائع الفنون الإسلامية، بحث نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، جامعة الملك عبد العزيز، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٣٩٨ هـ، ص ١٨٦.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢١.

الساحل، وتعطي الإشارة إيذانًا بقدوم العدو وحلول الخطر، وعن طريقها توجه أجناد الربط حركتها وتسير نحو الخطر، إذ كانت الربط بمثابة مراكز دفاع قوية، وليست أبراج المناظر إلا عيونًا حولها(١). وإيجاد مثل هذه المنشآت لحماية المدن تخطيط قديم وجد في المدن القديمة، وأقره المسلمون وطوروه وأجادوا تطويره، وارتبط هذه التطوير بالظروف السياسية والحربية التي مرت بتاريخ الدول الإسلامية(٢).

وقد زاد من أهمية هذه الربط بالمدن الساحلية لبلاد المغرب انتشار ظاهرة القرصنة التي وجدت منذ أقدم العصور بالبحر المتوسط،واستمرت بعد الفتح الإسلامي، إذ تقدم لنا أقدم كتب مناقب الأولياء والمتصوفة بالمغرب صورةً حيةً لنشاط البحرية المسيحية في عمليات القرصنة والإغارة على المدن الساحلية، وعن محنة الأسرى المسلمين، كما تسلط الضوء على دور الزهاد والأولياء المتواجدين بالربط الساحلية في عمليات الجهاد والتصدي للهجمات المسيحية، وافتكاك الأسرى المسلمين(٣)، مما يشير إلى أن عمليات الجهاد لم تكن عملاً سلطويًا فقط، وإنما كذلك حركة شعبية يزكيها الأولياء عن طريق مشاركتهم الفعلية في الجهاد، وتنظيمه ومرابطتهم في الربط المنتشرة على طول السواحل؛ حيث كان من بينهم من قسم عامه بين الحج والجهاد، ومنهم من حبب إليه الجهاد، فكان لا يتأخر عنه مطلقًا(٤).

فقد لعب الرباط دورًا بارزًا في تاريخ المنطقة، فهو لم يكن فقط للدفاع عن حدود البلاد وملازمة الجهاد، وإنما كان مأوى للمتعبدين والزهاد، ومركز إشعاع ديني يتعلم فيه المقيمون به أصول دينهم وأحكام الإسلام(٥)، ولقد قامت الربط بالمغرب على أكتاف بعض العلماء

---

(١) محمد عبد الهادي شعيرة: من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ص ١١ – ١٥.

(٢) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١٦١.

(٣) محمد الشريف: جوانب من الحياة اليومية لمتصوفة الأندلس والمغرب من خلال "السر المصون" لطاهر بن محمد الصدفي، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، الطبعة الثانية، تطوان، ١٩٩٩م، ص ص ٣٨ – ٤٠، ٥٥؛ وللمؤلف نفسه: من مصادر التاريخ البحري للمغرب في العصر الوسيط "المقصد الشريف" لعبد الحق البادسي، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، الطبعة الثانية، تطوان ١٩٩٩م، ص ص ١٦٤ – ١٦٥؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤) محمد الشريف: جوانب من الحياة لمتصوفة الأندلس والمغرب، ص ٣٨؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٥) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ٨٨؛ وللمؤلف نفسه: التعليم بالمغرب الأقصى، ص ٦٧.

المالكية الذين مالوا إلى الزهد والتعبد، ومالوا إلى الاعتزال عن حياة المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة، لذا كانوا يرحلون إلى ربط ينقطعون فيها للعبادة وتلقين أتباعهم والدارسين العلوم الدينية[١]، ملتزمين بالمذهب السنى، متخذين موقف الحياد من المذاهب الأخرى التي عرفتها مراكز الشمال الإفريقي؛ كالشيعية والخارجية والبرغواطية[٢].

وقد عرف المغرب الأقصى الربط مع الفتح الإسلامي، وورد ذكر "رباط ماسة"[٣] بالسوس الأقصى في أخبار عقبة بن نافع (ت: ٦٣ هـ/ ٦٨٢م)، وموسى بن نصير (ت:٩٦ هـ / ٧١٤م)، وإدريس الأول (ت: ١٧٧ هـ/ ٧٩٣م)[٤]، وتذكر الروايات التاريخية أن "رباط شاكر" — المعروف حاليًا بسيدي شاكر على ضفة وادي نفيس بناحية مراكش — ينسب لشاكر أحد الفقهاء الذين تركهم عقبة بن نافع لنشر تعاليم الإسلام بين المصامدة وغيرهم، وكان صلحاء ومتصوفة المغرب يجتمعون بهذا الرباط في شهر رمضان من كل سنة[٥]، ويشير ابن حوقل المُتوَفَّى سنة (٣٨٠ هـ / ٩٠٩م) إلى أن رباطًا قد أقيم على ضفة نهر أبي رقراق أو وادي سلا كما يسميه[٦]، وفي القرن (٥ هـ / ١١م) اشتهر رباط واجاج بن زلو اللمطي (تُوُفِّيَ بعد ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨م) المعروف برباط أكلو بإقليم سوس، وقد انطلق منه عبد الله بن ياسين (ت: ٤٥١ هـ / ١٠٥٩م) الزعيم الروحي للمرابطين لتصحيح العقيدة الإسلامية لدى الملثمين، ولإقرار المذهب

---

(١) حسن علي حسن: نفس المرجع والصفحة؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٨٧ — ٨٨.

(٢) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٢٤.

(٣) ماسة: اسم نهر ينبع من الأطلس الصغير يصب شمالي مدينة تزنيت، قامت على مجراه قرى عديدة أشهرها رباط ماسة قرب المصب، ويذكر أن عقبة بن نافع وصل إلى هذا المكان في حركة الفتح الأولى سنة (٦٢ هـ / ٦٨٢م) وشيد به مسجدًا اتخذ من بعد رباطًا ومجمعًا للصالحين، وفي القرن (١٠ هـ / ١٦م) كان رباط ماسة دار علم وصلاح؛ لذا أحاطه السعديون بالعناية والإجلال، وأصدر ملوكهم المتعاقبون أوامرهم بإعفاء من يشتغلون فيه بالإمامة والتدريس والوعظ والإرشاد من كافة أنواع الضرائب، وظل كذلك حتى قيام أبي حسون السملاوي بثورته في سوس (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م) وطغت مظاهر السياسة والتجارة على هذه المنطقة، وأصبح مصب ماسة الميناء الرئيس لإمارة إيليغ. أما الآن فقد غطت رمال الشاطئ المنساحة رباط ماسة، حتى لم يعد يظهر منه سوى الأجزاء العليا من المسجد، وبنيت بالقرب منه قرية حديثة آهلة بالسكان. محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٥٧٤، ح٥ من الصفحة نفسها.

(٤) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ٢١- ٢٢؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٥٣٣.

(٥) التادلي: المصدر السابق، ص ص ٥١ — ٥٢، ح ٣٤، ص ٥١؛ الصومعي: المصدر السابق، ح١١، ص ٧١؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٢.

(٦) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ٨٢.

المالكي بصورة نهائية بالمغرب[١]، والذي أسس بدوره رباطًا في إحدى الجزر الساحلية بأقصى الجنوب المغربي، في أوائل القرن (٥ هـ / ١١م)، والتف حوله نحو ألف رجل بهذا الرباط[٢]. ثم كثر بناء الربط في المغرب، ولا سيما على السواحل إلى أن صارت تعد بالعشرات؛ حيث أشار التادلي في كتابه "التشوف" الذي ألفه سنة (٦١٧ هـ / ١٢٢٠ - ١٢٢١م) إلى أحد عشر رباطًا وتسع رابطات[٣]، جميعها بمنطقة حوز مراكش، باستثناء رابطة واحدة بقرية العباد قرب تلمسان بالمغرب الأوسط[٤].

وعلى أية حال؛ فإن هذه الربط قد ضعف شأنها في العصر المريني، وبدأت تترك مكانها للزوايا التي انقطع أغلبها للجهاد الروحي[٥]. وأصبح مصطلح الرباط في إشارات مؤرخي ذلك العصر يلتبس أحيانًا بالزاوية، وبالمقبرة الجماعية أحيانًا أخرى، إذ نجد صاحب "اختصار الأخبار" قد جمع بين الربط والزوايا في إحصاء واحد دون تمييز[٦]، كما نعت ابن أبي زرع (ت: ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م) شالة المقبرة الملكية لبني مرين بالرباط[٧]، كذلك أطلق ابن خلدون مصطلح "رباط" على المقبرة التي شيدها السلطان أبو يعقوب يوسف المريني(٦٨٥ - ٧٠٦ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٦م) بتافرطست لتضم رفات أسلافه[٨].

أما الرابطة فتأتي بمعنى الرباط، سواء في الإطلاق على مكان الجهاد، أو مكان العبادة، وإن كانت بعض الآراء تسمي الجيش المقيم في الربط رابطة[٩]. وقد أطلق المؤرخون مصطلح "رابطة" على المنشأة التي أقام فيها عبد الله بن ياسين السابق ذكرها مع بعض الصنهاجيين

---

(١) التادلي: المصدر السابق، ص ٨٩، ابن عذاري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ٨؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٢٣؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٢٥؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٥٧٧.

(٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٥. وقد اختلف المؤرخون القدامى والباحثون المحدثون في تحديد مكان هذا الرباط، عن هذه الآراء، انظر، عصمت دندش: حول رباط عبد الله بن ياسين، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد ١١، السنة الخامسة، وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، الرباط، المغرب، مطبعة فضالة - المحمدية، مارس ١٩٧٨م، ص ص ٣٥٧ - ٣٦٠.

(٣) التادلي: المصدر السابق، فهرس الأماكن، ص ص ٥١٣ - ٥١٤.

(٤) التادلي: المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٥) إبراهيم حركات: الحياة الدينية في عهد بني مرين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، السنة السابعة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط - المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، نوفمبر ١٩٦٣م، ص ٧٠؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٨٧.

(٦) الأنصاري: المصدر السابق، ص ص ٣٣ - ٣٤.

(٧) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٨٨.

(٨) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٤٩.

(٩) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ٢٣.

للعبادة ونشر تعاليم الدين[١]. ويلاحظ أن مصطلح "رباط" ورد في كتاب التشوف – كما سبقت الإشارة- إحدى عشرة مرة، بينما ذكر مصطلح "رابطة" تسع مرات، ورغم التمييز في استخدام المصطلح إلا أن كلاً من الرباط والرابطة اتفقا في كل هذه الإشارات من حيث الوظيفة، وهي انقطاع رجال التصوف بكل منهما للتعبد ومجاهدة النفس وإطعام الفقراء وأبناء السبيل، ويرى بعض الباحثين أن مصطلح "رباط" قد سبق مصطلح "رابطة" في الظهور بالمغرب الأقصى[٢]. وعلى أية حال لم تبق أية نماذج كاملة من ربط المغرب الأقصى، كما هو الحال برباط المنستير (١٨٠ هـ/ ٧٩٦م)، ورباط سوسة (٢٠٦ هـ/ ٨٢١م) بالمغرب الأدنى[٣].

أما الزوايا؛ فهي تعتبر تطوراً للربط من حيث أن كليهما مأوى لإقامة الزهاد والمتعبدين وإطعام الفقراء، ولكن بتوزيع جغرافي مغاير لما كان عليه نظام الربط التي كانت تقع أغلبها على الحدود والمراكز الساحلية، بينما انتشرت الزوايا داخل المدن المغربية[٤]. كما أن الزوايا أصبحت تحتضن خلايا اجتماعية دينية لها نفس الأهداف، ولكن لكل منها طقوسه وطريقته في الذكر، فضلاً عن تنوع أصولها، بينما كانت الربط تضم المؤمنين من غير انتماء لطريقة معينة؛ حيث لم تكن الطرق قد اشتهرت حتى وقت ظهور الزوايا – في النصف الأول من القرن (٧ هـ/ ١٣م)- على الرغم من وجود بعض الطرق قبل هذا التاريخ كما سبقت الإشارة[٥]. كذلك فإن الزاوية بعكس الرباط قد تكون رسمية أو شبه رسمية، وأنها لم تهتم حتماً بالمرابطة في أول أمرها، ولا بأخذ العدة للجهاد[٦]، فهي رباط جرد من صفته العسكرية؛ ليصبح مكاناً للاعتزال[٧].

غير أن هذا الوضع تغير في القرن (١٠ هـ/ ١٦م) عندما تغلب النصارى على المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ثم امتدت أطماعهم إلى احتلال الثغور المغربية، وضعفت الدولة الوطاسية عن التصدي لهذا الخطر، بدأت الزوايا تتدخل في شئون البلاد السياسية، وتدعو إلى

---

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٥؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢) محمد القبلي: المرجع السابق، ح١٥، ص ٩٥.

(٣) سليمان مصطفى زبيس: القبة التونسية، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٩م، ص ص ٩٣ – ٩٤.

(٤) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣١٢؛ الحسن السائح: الثقافة المغربية في عصر السعديين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثالث، السنة السابعة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ديسمبر ١٩٦٣م، ص ٢١. وعن توزيع الزوايا بالمغرب الأقصى في العصر السعدي، انظر (خريطة ٢).

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٦) محمد القبلي: المرجع السابق، ح ٢٣، ص ٩.

(٧) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ترجمة د. عفيفي بهنسي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٢١٣.

الجهاد، ومقاومة التدخل الأجنبي.

ووجد نداء الصوفية آذانًا صاغيةً من الشعب الذي التف حولهم، فقادوه في عدة معارك ظافرة انتهت بطرد البرتغال من الثغور التي كان يحتلها في الجنوب، ونصب رجال الزوايا الشريف أبا عبد الله القائم السعدي (٩١٥ – ٩٢٣ هـ / ١٥١٠ – ١٥١٧م) ملكًا على المغرب(١).

وخلافًا لما ذكره بعض الباحثين من أن المغرب عرف الزوايا بعد القرن (٥ هـ / ١١م)(٢)، أو ما ذكره بعضهم الآخر من أنها لم تظهر بالمغرب قبل عهد أبي يوسف المريني (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ – ١٢٨٦م)(٣)، فإن أقدم المنشآت التي أطلق عليها مصطلح "زاوية" بالمغرب الأقصى – في حدود ما أعلم- تلك التي ظهرت على عهد الشيخ أبي محمد صالح بن ينصارن الماجري المُتوَفَّى سنة (٦٣١ هـ / ٣٣ – ١٢٣٤م)، وانتشرت على طول الطريق البري الموصل إلى الشرق- فيما بين المغرب ومصر- التي يسلكها ركب الحجيج؛ ليأووا إليها في مراحل سفرهم الطويل(٤)؛ ولتؤمن هذا الطريق الذي أصبح منذ منتصف القرن (٥ هـ / ١١م)، عندما نزلت قبائل البدو الهلاليين بالبلاد الإفريقية وما حولها، مهددًا بالمخاطر مما جعل فقهاء المغرب والأندلس يتبنون موقفًا من فريضة الحج يقتضي "إسقاط فريضة الحج على أهل المغرب" تجنبًا "للإلقاء بالنفس في التهلكة"، كما كان يعتبر الخروج إلى الحج من هذه الزاوية معصيةً. وأصبح أداء فريضة الحج من لدن المغاربة من وجهة نظر هذا الموقف الحذر رهينًا باكتراء السفن، ولو كانت "سفن النصارى" رغم كراهية هذا الأمر ونبذه من الأساس عند المالكية(٥). وزادت شدة هذه المخاطر بعد التصدع الذي أحدثته هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة (٦٠٩ هـ / ١٢١٢م) الذي لم يقف بالطبع عند جهاز هذه الدولة الحاكمة، وإنما امتد إلى مجموعة البلاد المحكومة، فغدت مسرحًا لكثير من التحركات القبلية والقلاقل المهددة لنشاط الطرق(٦).

وفي ظل هذه الأوضاع التي كانت لا تدعو إلى الارتياح بالنسبة للطريق المؤدي إلى الشرق الإسلامي ظهرت دعوة أبي محمد صالح في مطلع القرن (٧ هـ / ١٣م) التي قامت على دعوة الناس إلى الحج؛ لذا سمي أتباعه بـ"طائفة الحجاج". وقد ربط هذا الشيخ دعوته إلى الحج – فيما يبدو- بالنهي الصريح عن ركوب البحر – بخلاف الفقهاء- كما حث الناس بشتى الوسائل على استعمال طرق البر المحظورة حتى عهده من طرف الفقهاء

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ٢٤ – ٢٧.

(٢) محمد حجي: المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٢؛ ولنفس المؤلف: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٨٦.

(٤) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٩٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٥) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٦) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ٩٨.

المالكية[١].

وبالتالي فإن تأمين السبل في مثل هذه الظروف من آكد ما كان ينبغي أن يضطلع به شيخ يدعو بأقصى الغرب إلى الخروج إلى الحج، واختراق كل هذا الطريق المهدد نحو الشرق. ولعل من الوارد أن يكون إلمام الشيخ بأحوال السبل لقرب عهده بها، وطول مقامه بمصر والشام – حيث قضى مدة عشرين سنةً– قد ساعده على أن يستوحي منها التنظيم الملائم لمواجهة معضلة الطريق[٢]؛ لذا فإن أخطر المناطق وأكثرها "قطاعًا ومحاربين" ظهر بها "زوايا فيها ناس من أهل الدين والصلاح يعتنون بالناس في جواز تلك المخاوف"[٣].

وعلى الرغم من عدم معرفتنا على وجه التحديد عن الدور الذي يمكن أن يكون قد لعبه أبو محمد صالح بالنسبة لظهور هذه الظاهرة "الزوايا" بالمنطقة، إلا أن الثابت أن حركته قد اعتمدتها فشيدت مجموعة من "الزوايا" لم تلبث أن كونت شبكةً واسعةً تغطي رقعة المغرب الإسلامي بأجمعها، وتؤمن الطريق إلى الشرق، وتساعد الحاج قبل وصوله إلى "بلاد مصر والشام"، وأثناء مقامه كذلك[٤]، حتى يذكر أن زواياه قد بلغت ستًا وأربعين زاويةً[٥].

وفي عهد الدولة المرينية انتشر مصطلح "الزاوية" على نطاق واسع وزاد عدد الزوايا بالمغرب، فقد ذكر ابن أبي زرع أن يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ – ١٢٨٦م): "بنى الزوايا في الفلوات، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات"[٦]. كذلك أنشأ أبو الحسن علي (٧٣١ – ٧٤٩ هـ / ١٣٣١ – ١٣٤٨م) زاويتين بمكناس، هما زاوية القورجة وزاوية المشاورين[٧]، كما قام أبو عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥٧م) بإنشاء العديد من الزوايا حتى لقب "بباني الزوايا"[٨]، منها تلك التي شيدها خارج فاس الجديد على غدير الحمص "وادي الجواهر" التي وصفها ابن بطوطة بأنها لا مثيل لها في المشرق والمغرب[٩]، ونعتها صاحب فيض العباب بـ "الزاوية العظمى" وأنها "أعجوبة المغرب

---

(١) محمد القبلي: المرجع نفسه، ص ٩٢؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ص ٤٠٩ – ٤١٠.

(٢) محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، القاهرة، ١٩٣٣م، ص ص ٣٦٨ – ٣٧٠. عن محمد القبلي: المرجع السابق، ص ٩٨.

(٤) محمدالقبلي: المرجع نفسه، ص ص ٩٨ – ٩٩.

(٥) محمد حجي: المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٦) ابن ابي زرع: الذخيرة السنية، ص ٩١.

(٧) ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٤؛ المقري: نفح الطيب، الجزء السادس، ص ٢١٤؛ عبد الرحمن بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، ١٩٢٩م، الجزء الأول، ص ص ١٢٠ – ١٢١.

(٨) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٩) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ٤٣، ٦٦٤.

والمشرق" [١]، والزاوية التي شيدها خارج مدينة سلا بنحو ٦٠٠م على الطريق المؤدية لمكناس، وتعرف بزاوية النساك[٢]، والزاوية التي شيدها خارج مدينة تازة بنحو ٣٥٠م على الطريق المؤدي إلى مدينة وجدة[٣]، ومنها أيضًا الزاوية التي شيدها بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك التي تقع بين مدينتي تطوان وسبتة، وقد شيدها: "هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم" [٤]. كما شيد أبو عنان أيضًا زاويةً بجوار مسجد سيدي الحلوي بقرية العباد قرب تلمسان بالمغرب الأوسط[٥].

وفي عهد الوطاسيين بدأ انتشار الزوايا في المغرب الأقصى بشكل لم يسبق له نظير في داخل المدن والبوادي، وأصبح للصوفية في هذا العهد دور ثلاثي إذ خاضوا الميدان السياسي والحربي، كما كان لهم نفوذ روحي بالغ، وإن كان نسب إلى بعضهم خوارق وتصرفات لا تكاد تصدق[٦]، وبلغت ثقة العامة بهم إلى درجة أن السلاطين الوطاسيين رهبوا جانبهم، واضطروا إلى مجاراة العامة في تعظيمهم واحترامهم[٧].

ومما سبق يمكن القول: إن الزاوية قبل أن تكون منشأةً خاصةً بالتصوف مرت بعدة وظائف، تغير خلالها – إلى حد ما- توزيعها الجغرافي داخل المدن تبعًا لكل وظيفة، فبدأت بإيواء الحجاج المسافرين عبر الطريق البري المؤدي للشرق الإسلامي؛ لذا فقد انتشرت على طول هذا الطريق، وفي بداية العصر المريني أقيمت الزوايا خارج أسوار المدن وبالقرب من أبوابها وعلى الطرق المؤدية بين المدن؛ لاستقبال وإيواء عابري السبيل والمسافرين الواردين عليها الذين يباغتهم الليل، الذي جرت العادة أن تغلق فيه أبواب المدن، كما أن وجودها على الطرق المؤدية بين المدن جعلها بمثابة استراحات يقضي فيها المسافرون ليلتهم قبل متابعة طريقهم[٨].

---

(١) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص ٢٠٦ – ٢٠٧. وقد جدد الدلائيون بناء هذه الزاوية اثناء امتداد نفوذهم على فاس، لذا ظن بعض المؤرخين أنهم مؤسسوها، ولا يوجد في الموقع الذي أشار إليه كل من ابن بطوطة وابن الحاج النميري إلا بقايا يعتقد أنها أطلال هذه الزاوية. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٤، ح١٢، من الصفحة نفسها.

(٢) ابن الخطيب: مشاهدات، ص ١٠٤؛ كينيث براون: المرجع السابق، ص ٤٤؛
Colin, G., La Zaouya Mérinite d'Anemli, a Taza, Hespéris, Tome XL, Librairie Larose, Paris, 1953, Note 1, p. 530.

(3) Colin, G.,: Ibid., pp. 528 , 530.

(٤) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٥) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ٤٨٨.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٨٧. وقد انتقد ليون الإفريقي تصرفات بعض متصوفة العهد الوطاسي وأبدى أسفًا شديدًا على ما صار إليه حالهم. انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٦٩ – ٢٧٠.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٨) وجدت هذه الظاهرة في الفترة الزمنية نفسها بالمغرب الأدنى، وقد عرف هذا النوع من الزوايا هناك =

فالغرض الأول من بنائها كان أبعد ما يكون عن الهدف الصوفي الذي اتجهت إليه فيما بعد، حيث أصبحت المكان المفضل لرجال التصوف الذين كانوا ينقطعون فيها للعبادة[١]، ثم تحولت لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لطريقة معينة، وصارت لا تبنى إلا لهذا الغرض. وكان السلطان أبو عنان قد خصص للفقراء الوافدين على الزوايا طعامًا يوميًا، فهيأ بذلك الجو من غير قصد لجعل هذه الزوايا تستقبل المريدين وخصوصًا الفقراء فيما بعد[٢].

وفي نهاية القرن (٩ هـ / ١٥م) بدأت الزوايا تمارس أنشطةً دينيةً وتعليميةً ثم سياسيةً[٣]، ويعد هذا التاريخ صار دور الزوايا يختلف من ديني إلى علمي أو سياسي، وقد تجمع هذه الزوايا بين هذه الأدوار جميعًا. وتعد المناطق التي تواجه الخطر الأجنبي من أكثر جهات البلاد زوايا فيما يخص ذات الدور السياسي والحربي الذي لعبته الربط فيما مضى[٤]. وإن كان السعديون قد نجحوا – سيما أثناء ازدهار دولتهم- في صرف عدد غير قليل من شيوخ المتصوفة عن الخوض في السياسة التي طالما شغلتهم من قبل، فتحولت زواياهم إلى مراكز تعليمية نشطة[٥]، ولكن ما إن ضعفت الدولة السعدية عقب وفاة أحمد المنصور (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) حتى تبنت بعض الزوايا القيام بحركات سياسية مناوئة للدولة، وكونت كيانات مستقلة عنها، وهو تحول له أهميته ودلالته في تاريخ المغرب الاجتماعي والديني؛ ذلك أن شخصية رجل الدين أصبحت إطارًا ملائمًا ومناسبًا لتوحيد كيانات قبلية لا ترقى إلى مستوى العصبيات الكبرى، وتعد الزاوية الدلائية من أبرز الأمثلة في هذا الصدد، كما يعتبر ابن أبي محلى من أشهر الثوار المتصوفة ضد السعديين[٦].

وفي عهد الأشراف السعديين، أي خلال القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م) كثرت الزوايا

= بـ "الزاوية المبيت"، حول هذه الظاهرة انظر، عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ص ١٤١ – ١٤٢.
وعن زوايا المغرب الأدنى، انظر،

Saadaoui, A.,: Testour du XVIIe, Au XIXe Siècle Histoire Architecturale d'une ville Morisque de Tunisie, Publications de la Faculté des lettres La Manouba, Tunis, 1996, pp. 209 - 319.

(١) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٢٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٦.

(٢) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ص ٢١٣ – ٢١٤، ٢١٦ – ٢١٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٨٦ – ٨٧؛ وللمؤلف نفسه: الحياة الدينية في عهد بني مرين، ص ٧.

(٣) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣١٢.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

(٥) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٨١.

(٦) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ١٦٣ – ١٦٥؛

Boutaleb, B., La Zaouia de Dila , Hespéris Tamuda, Vol. IV - Fasc. 1- 2, Paris,1963, pp. 415 - 416.

بالمغرب الأقصى حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد[(١)]، وأصبحت أكثر من أن تحصى[(٢)]، حتى إن بعض متصوفة هذا العصر نسب إليه تشييد أكثر من زاوية، كالشيخ أحمد بن محمد الشاوي (ت: ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥م) الذي كانت له خمس زوايا: "في كل واحدة من هذه الزوايا تلامذة له، وأصحاب كثيرون يعمرونها بإقامة الصلوات وقراءة الأحزاب وذكر الله عز وجل" [(٣)]. إذ لم يعد تشييد الزوايا قاصراً على الدولة – كما كان في العصر المريني- وإنما شهد العهد الوطاسي مشاركة شيوخ التصوف في بنائها، بل أصبحت – فيما يبدو – قاصرة عليهم؛ إذ لم تسجل الروايات التاريخية المتوفرة حتى الآن – في حدود ما أعلم- بناء زوايا على يد سلاطين بني وطاس، وقد استمرت هذه الظاهرة في عصر السعديين، على أن بناء الزوايا من طرف شيوخ التصوف كان يتم – فيما يبدو- بموافقة السلطة الحاكمة، سيما في فترة ازدهارها؛ إذ تسجل رواية الإفراني أن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي (ت: ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م) شيد زاويته بجبل درن المعروفة بزاوية زداغة بموافقة السلطان عبد الله الغالب بالله[(٤)].

ولكن تجدر الإشارة إلى أن الضريح الذي شيده السلطان السعدي أحمد الأعرج بمراكش لدفن رفاة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي بعد أن نقلها مع رفاة والده محمد القائم من أفوغال كما سبقت الإشارة[(٥)]، صار نواةً أو عنصراً رئيساً التفت حوله مجموعة من الوحدات كونت مجموعةً دينيةً كاملةً، وهي تعد الزاوية الوحيدة من العصر السعدي – رغم ما تعرضت له من تجديدات- التي لا تزال بحالة جيدة[(٦)].

ومن أهم الزوايا التي شيدها شيوخ التصوف في العصر السعدي زاوية محمد بن مبارك الأقاوي (ت: ٩٢٤ هـ/ ١٥١٨م) التي شيدها بأقا، ونشطت خلال القرنين (١٠ – ١١ هـ/ ١٦ – ١٧م) [(٧)]، وزاوية عبد الجبار بن أحمد البرزوزي (ت: حوالي ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م) بفجيج وزودها بمكتبة علمية نالت عناية أبنائه من بعده، حتى أصبحت في منتصف القرن ١٠ هـ/ ١٦م من

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩٥.

(٣) ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢١٠. وتوجد هذه الزاوية على المنحدر الجنوبي للأطلس الكبير شمالي شرقي تارودانت تبعد عنها بنحو ٧٠ كم، غير أنها تهدمت، ولم يعد باقيًا منها سوى ضريحي مؤسس الزاوية وابنه أبو زكريا الحاحي (ت: ١٠٣٥ هـ/ ١٦٢٦م). انظر، محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ص ٥٥٩ – ٥٦٠؛ De Cenival, P.,: La Zaouia Dite de Berada a , Hespéris, Tome XV, Librairie Larose, Paris, 1932, pp. 137 - 138.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨؛ حسن جلاب: المرجع السابق، ص ٢٧.

(6) Marçais, G.,: Op. Cit., pp. 386 - 387.

(٧) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٦١٤ – ٦١٧.

أعظم مكتبات الجنوب المغرب[١]، وزاوية عبد الله بن إبراهيم الخياط (ت: ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢م) بجبل زرهون – بين مدينتي فاس ومكناس- التي اتسع نفوذها الروحي في القرن (١١ هـ / ١٧م)، وصارت تخدمها عدة قبائل، وتقدم لها هدايا عظيمة[٢]، وزاوية أحمد بن موسى السملالي (ت: ٩٧١ هـ / ١٥٦٤م) التي أسسها في مستهل القرن (١٠ هـ / ١٦م) في وادي تزروالت على الطريق المؤدي إلى تيزنيت واستمرت في نشاطها حتى أصبحت منطقة سوس كلها في القرن (١١ هـ / ١٧م) خاضعةً لأمر شيوخ هذه الزاوية[٣]، وزاوية علي بن محمد الجزولي البكري (ت: حوالي ٩٤٠ هـ / ١٥٢٤م) التي أسسها بتمكروت في القرن (١٠ هـ / ١٦م)[٤]، وزاوية سيد الناس التي أسسها الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأنصاري بتمكروت في القرن (٨ هـ / ١٤م)، وتعاقب على عمارتها والقيام بشئونها أبناؤه وأحفاده، حيث ازدهرت في النصف الأول من القرن (١٠ هـ / ١٦م) خاصةً في حياة أبي القاسم بن عمر التفنوتي (ت: ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦م) ولا تزال أطلالها باقيةً حتى الآن[٥]، وزاوية أبو عمرو القسطلي (ت: ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦م) التي أسسها بمراكش حوالي سنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م)[٦]، وزاوية الشيخ محمد بن يعقوب (ت: ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦م) التي أسسها بتاتلت جنوبي سوس[٧]، وزاوية عبد الله بن محمد الهبطي (ت: ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦م) التي أسسها بمدشر معاتب بجبل الأشهب جنوب شرق شفشاون، وازدهرت في عهد أبنائه من بعده[٨]، والزاوية الشرقاوية التي شيدها الشيخ محمد الشرقي في النصف الثاني من القرن (١٠ هـ / ١٦م) بأبي الجعد بإقليم تادلة وقد خربت على يد السلطان العلوي محمد بن عبد الله عام (١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥م)، ولا تزال بعض أطلالها قائمةً حتى الآن، منها ضريح الشيخ محمد الشرقي (ت: ١٠١٠ هـ /

---

(١) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٥١١ – ٥١٥. وفجيج أو فكيك (بكاف معقودة) عبارة عن مجموعة من القصور أو القرى الصغيرة، واقعة وسط واحة من النخيل في الصحراء الشرقية على الحدود الجزائرية، وتبعد عن مدينة وجدة بنحو ٣٨٠كم إلى جهة الجنوب الشرقي منها. محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٥١١.

(٢) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٤٩٤ – ٤٩٥.

(٣) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٦٠١ – ٦٠٤.

(٤) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٥٤٥ – ٥٤٨. وتمكروت منطقة واسعة تشتمل على قرى كثيرة مبنية على ضفاف نهر درعة. محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ح١، ص ٥٤٥.

(٥) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٥٤٢ – ٥٤٤.

(٦) الصومعي: المصدر السابق، ص ٢٦٩، ح ١٦ من الصفحة نفسها.

(٧) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٩. وتاتلت منبسط قفر جنوبي سوس لا نبات فيه ولا ماء إلا بئرًا صغيرةً، توافد عليها الكثير من المريدين بعد تأسيس الشيخ محمد بن يعقوب زاويته. محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الأول، ح٢٣، ص ١٢٩.

(٨) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص ص ٤٤٠ – ٤٤١؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٦٦ – ٤٦٩.

١٦٠١م)، وضريح الشيخ محمد المعطي (ت: ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٦م) [(١)]، وزاوية الشيخ عبد الوارث اليالصوتي (ت: ٩٧١ هـ/ ١٥٦٣م) بقرية بني دركول على وادي أوضور ببني زروال، وهي لا تزال قائمةً حتى الآن[(٢)]، والزاوية الدلائية البكرية، وهما في الواقع زاويتان دلائيتان: تبعد إحداهما عن الأخرى بنحو اثني عشر كيلو مترًا، أسس أولاهما الشيخ أبو بكر بن محمد الدلائي حوالي عام (٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦م) في مرتفعات جبال الأطلس المتوسط، وشيد الثانية حفيده محمد الحاج الدلائي عام (١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨م) في موقع زاوية آيت إسحاق الحالية بين خنيفرة وقصبة تادلة، وقد هدمت هاتان الزاويتان في أوائل عام (١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨م) على يد جيوش السلطان الرشيد بن الشريف العلوي، ولا تزال بعض أطلالهما باقيةً حتى الآن[(٣)]، وزاوية ابن مهدي، أو زاوية الحناء كما تسمى اليوم شيدها محمد بن مهدي الجراري (ت: ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١م) بأحد أرباض مدينة زكورة ببلاد درعة[(٤)]، ثم جددها الشيخ محمد بن ناصر الدرعي (ت: ١٠٨٥ هـ/ ٧٤ – ١٦٧٥م) فسميت بالناصرية نسبةً إليه[(٥)]، وزاوية ابن ويسعدن التي شيدها محمد بن ويسعدن السكتاني (ت: ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩م) بسكتانة الجنوبية المطلة على سهل سوس شمال شرقي تارودانت[(٦)]، والزاوية الفاسية التي أسسها الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بحي المخفية بفاس سنة (١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٥م)، ثم أسس زاويةً أخرى بحي العيون بتطوان[(٧)]، وزاوية أحمد بن

---

(١) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ٥٩؛ أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية خلال القرن (١٢ هـ/ ١٨م) بعض جوانب نشاطها الاجتماعي والسياسي، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثامن والثلاثون السنة الخامسة عشرة، وزارة الشئون الثقافية، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ديسمبر ١٩٨٩م، ص ص ٢٢٩ – ٢٤١ ؛ديل إيكلمان: الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩١م، الجزء الأول، ص ص ١٨، ١٩، ٥٧ – ٥٨.

(٢) ابن عيشون الشراط: المصدر السابق، ح ٤٩٨، ص ٢٤٥؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٧٦ – ٤٧٧؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣١٣. وتقع بلاد بني زروال جنوبي جبال غمارة في مرتفعات متدرجة وسهول ضيقة تمتد إلى مجرى نهر ورغة، وتخترق بلاد بني زروال أربعة أنهار صغيرة تنبع من جبال غمارة وتصب في ورغة، هي أمزاز، وأولاي، وأوضور، وأوضير، وتسكن هذه المنطقة بطون من صنهاجة، يخالطهم قليل من جيرانهم المصامدة وقبائل من الأعراب أسكنهم معهم المرابطون والموحدون، وقد تعرب لسان بني زروال تعريبًا كليًا، لقربهم من مدينة فاس، ولسكنى الأعراب معهم وامتزاجهم بهم عبر الفترات المختلفة. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٥.

(٣) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ٣١ – ٣٩، ٢٣٢؛ Henry, R.,: Op. Cit., pp. 49 - 54

(٤) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ص ٥٣٣ – ٥٣٥.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٤٩ – ٥٥١؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ٦٠ – ٦٤.

(٦) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ص ٥٦٥ – ٥٦٧.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٦٤ – ٣٦٥، ٤٢٠، ح ١٣ من الصفحة نفسها.

أبي القاسم التادلي (ت: ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤م) التي أسسها بالصومعة[١]، وما تزال هذه الزاوية قائمةً بضاحية بني ملال يتوسطها ضريح مؤسسها[٢]، وزاوية الشيخ السعيدي بتطوان التي أسسها الشيخ قاسم الحاج أوائل القرن (١١ هـ / ١٧م)، والزاوية العياشية التي أسسها محمد بن أبي بكر العياشي سنة (١٠٤٤هـ / ٣٤ — ١٦٣٥م) بسفح جبل العياشي على ضفة أحد روافد وادي زيز، واشتهرت بمكتبتها العلمية التي ما زال جبل العياشي يحتفظ بها، وتعرف هذه الزاوية اليوم بزاوية سيدي حمزة، نسبةً إلى حمزة حفيد الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي مؤسس الزاوية، وزاوية عبد الله الشريف بن إبراهيم (ت: ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م) التي شيدها بوزان إحدى القرى الجبلية الصغيرة وسط قبائل مصمودة، وقد اتسع عمرانها وشهرتها منذ تأسيس هذه الزاوية بها[٣].

وتختلف الزوايا فيما بينها من حيث الشكل المعماري، فبعضها بسيط بدأت في بيت أو مسجد صغير للصلاة والذكر واجتماع المريدين، أو في المكان الذي يسكنه أحد الصلحاء أو موقع خلوته، وبعضها نشأ حول ضريح أحد الصلحاء، ويجتمع فيه أتباع طريقته؛ للزيارة والإقامة[٤]، مع الأخذ في الاعتبار- وفقًا للروايات التاريخية- أن زوايا المغرب الأقصى لم تكن تشتمل حتى العصر المريني على أضرحة، كما لم تنشأ الزاوية في الأصل حول الضريح الذي أصبح بعد ذلك من الوحدات الرئيسية للزاوية، كما قد تتوفر الزاوية على مقبرتها الخاصة، وعادةً يدفن فيها أفراد عائلة شيخ الطريقة والمريدون وغيرهم، وتشتمل الزاوية فضلاً عن ذلك على مساكن لشيخ الزاوية والقومة بالإضافة إلى حجرات وغرف لاستقبال الغرباء والوافدين[٥]، وميضأة وحمام وسقاية وأحيانًا فرن أو أكثر، ومكتب لتعليم الصبيان كما في الزاوية الجزولية بمراكش على سبيل المثال[٦].

---

(١) تقع قرية الصومعة بجوار مدينة داي القديمة في منطقة الدير الخصبة بسفح الأطلس المتوسط، وربما غلب اسم الصومعة على القرية والمدينة معًا، وقد بنيت بجوارهما في أوائل القرن (١٣ هـ / ١٩م) مدينة بني ملال الحالية. وقد كانت الصومعة في القرن (١٠ هـ / ١٦م) قاعدة بلاد تادلة، يحكمها أمير من أهلها، يكل إليه الملوك السعديون أمر جمع الضرائب المفروضة على تلك القبائل إلى أن قسم احمد المنصور عام (٩٩٢ هـ / ١٥٨٤م) ولايات المغرب بين أولاده، فكانت ولاية تادلة من نصيب ابنه زيدان الذي اتخذ من الصومعة مقرًا لإمارته بضع سنوات إلى أن بنى القصبة الزيدانية فغدت الحاضرة السياسية لبلاد تادلة. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٠٤.

(٢) المقري: روضة الآس، ص ٣٠٢؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٠٤ — ٥٠٦، ح٣، ص ٥٠٥.

(٣) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٤٧٣ — ٤٧٤.

(٤) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ص ٢١٣؛

Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane,p. 386.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩٦؛ ديل إيكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٠.

(6) Marçais, G.,: Op. Cit., p. 387.

غير أن بعض الزوايا لا يقتصر مدلولها على كل ما سبق ذكره من الوحدات، وإنما يشمل كافة القرية أو المدينة القائمة حولها بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافق الحياة الضرورية لها، كما هو الحال في الزاوية الدلائية والزاوية الناصرية بتمكروت(١)، والزاوية الشرقاوية بأبي الجعد(٢).

وتتوفر الزوايا عادةً على أوقافها الخاصة؛ حيث حصل شيوخ هذه الزوايا على أراضٍ شاسعة حول زواياهم يتبرع بها المريدون في الغالب، ويكون دخلها موردًا للإنفاق على الفقراء والزوار الذين يفدون ليلاً ونهارًا على الزاوية. إنه عمل تلقائي يقوم به المحسنون، مريدون وأرباب زوايا، وإن تغلغل الروح الدينية في نفوس العامة كثيرًا ما جعلهم يضحون في سبيل الله بأعز ما يملكون من أراضٍ وأموال(٣).

كما إن "الزيارة" بالنسبة للمتصوفة لم تقتصر اهميتها على توثيق الصلة بين الشيوخ والمريدين وتجديد الولاء للزاوية فحسب، بل تعتبر أيضًا موردًا اقتصاديًا مهمًا؛ إذ على كل مريد أن يدفع "حق الزيارة" ويقدمه "للمقدم" المكلف بجمعه، كما نظموا مواسم الزيارة بشكل دوري متلائم غالبًا مع جني المحصول الزراعي، فلكل ولي وقت معلوم تلزم فيه زيارته. وقد أقبل المغاربة على الزيارة سواء الموسمية منها أو غير الموسمية، الجماعية أو الفردية، إذ أصبحت الأضرحة التي تشتمل عليها الزوايا أمكنةً مقدسةً – في نظرهم- تشد لها الرحال للتبرك والاستشفاء وقضاء الأغراض؛ فتقدم لها النذور والصدقات والهبات، وتنحر على أعتابها الذبائح(٤).

فقد عمل بعض المتصوفة على تعميق روح الخرافة، خاصةً بعد أن دبّ الفساد إلى بعض الزوايا، وتحولت عن أهدافها التربوية والإصلاحية إلى أهداف مادية، وأصبحت المبالغة في ادعاء الولاية والكرامات الخرافية وسيلةً من وسائل الاستغلال والنهب، فقصد الناس الزوايا وأضرحة الأولياء لزيارتها، وخصوها بالهدايا والنذور رغبةً في شفاء الأمراض وقضاء الأغراض كما سبقت الإشارة، واتقاءً لغضب الولي وسخطه حيًا كان أو ميتًا(٥).

ونظرًا لما تميزت به الزوايا من استقلال اقتصادي وسيطرة بالغة على جماهير الشعب

---

(١) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ٣٢؛ جول اركمان: الزوايا والطوائف الدينية بالمغرب، ترجمة مليكة دلال، بحث نشر في مجلة أمل، عدد مزدوج ٢٢ – ٢٣، نظيمة الزوايا في علاقاتها بالمجتمع والسلطة (٢)، السنة الثامنة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٢) ديل إيكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٤٨ – ٤٩.

(٣) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ١١٠ – ١١١؛ ديل ايكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٨.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(٥) الحسن اليوبي: المرجع نفسه، ص ٧٣.

المغربي، برزت كمؤسسة مزاحمة للسلطة ومنافسة لها[١]، وتذخر المصادر التاريخية بالعديد من الإشارات عن الصراع الدائم بين المتصوفة والسلطة التي اعتبرت أن الزاوية تشكل خطرًا على الحكم؛ لذا ما كاد السعديون يضبطون شئون دولتهم حتى ألزموا متصوفة الزوايا بأداء حصتهم من الضرائب والرسوم، ولم يترددوا في امتحان بعض شيوخ الصوفية، وتشتيتهم وإخلاء زواياهم، وهم الذين قامت الدولة على أكتافهم[٢]، فكان ذلك من أهم عوامل انبعاث الزوايا من جديد ضد الدولة[٣].

وعلى أية حال فقد ضربت الزوايا في الفترة السعدية – وما بعدها- بجذورها في أعماق المجتمع المغربي، ويرجع ذلك لطبيعة العلاقات التي ربطت هذه الزوايا بالناس من حيث ارتباطها بواقعهم المعيش، وتلبية حاجاتهم المادية والنفسية. والمتأمل لعلاقة الإنسان المغربي بالزاوية الصوفية في ذلك العصر، يلاحظ عمق تأصلها في حياته بشكل يتدخل فيه الروحي بالمادي والحقيقة بالأسطورة، والواقع بالخيال، فهي مجال مقدس مفعم بالحكم والأسرار، يقصده الناس في زيارات موسمية وغير موسمية للتبرك والاستشفاء والاستفسار عن أمور دينية ودنيوية، أو الاستغاثة بها من ظلم الحكام، أو طلب التدخل لفض نزاع بين الأفراد والقبائل، ومما ساعد على توثيق الصلة بين العامة ورجال التصوف هشاشة العلاقة بين السلطة الحاكمة والجماهير الشعبية التي اقترنت لديهم بالنهب والظلم، إلى جانب الفراغ الذي تركه الفقهاء في المجال الديني خاصةً بالبوادي[٤].

ورغم ذلك لم يقف الفقهاء وأهل السنة جامدين أمام متصوفة الزوايا، بل اجتهدوا في محاربة بدع المتصوفين والطرقيين، وخاصةً المدعين والدجالين منهم، وحذروا الناس من خرافاتهم الهادفة إلى الاستغلال، كما تصدوا للفرق الضالة والمرتدة عن الدين، ودعوا إلى اقتلاع جذورها ليرجعوا بالدين إلى صفائه[٥]، غير أن مواجهة الفقهاء للمتصوفة وإنكارهم عليهم لم يكن بالأمر السهل، فقد كان تيار التصوف تيارًا قويًا بفضل تنظيم مؤسساته ونشاط دعاته، وكانت كل الظروف مواتيةً لكي تسير فئات من الناس في اتجاهه[٦].

مكاتب تعليم الصبيان:

عرفت بلاد المغرب – منذ فترة مبكرة بعد الفتح الإسلامي لها- المكاتب[٧] أو المسايد

(١) الحسن اليوبي: المرجع نفسه، ص ٣٧٤؛ ديل ايكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٣.
(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٣٨ – ٤١.
(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٥.
(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٦١؛ ديل ايكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٨.
(٥) الحسن السائح: المرجع السابق، ص ٢٣؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ص ١٤٦، ٣٧٦ – ٣٧٩.
(٦) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٧٨.
(٧) المكاتب مفردها مكتب، وتعرف في المغرب أيضًا باسم المسايد ومفردها مسيد، وهي تحريف مغربي لكلمة=

كمكان يتلقى فيه الصغار التعليم الأولي، وفي القرنين (٣- ٤ هـ / ٩ - ١٠م) شهد هذا النوع من التعليم ومنشآته المتمثلة في المكاتب اهتمامًا واضحًا من الفقهاء والعلماء المغاربة، وبخاصة في إفريقية أو المغرب الأدنى، وكان على رأس المهتمين بهذا الأمر سحنون (ت: ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م) وابنه محمد بن سحنون (ت: ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) ثم جاء من بعدهم علي بن خلف القابسي (ت: ٤٢١ هـ / ١٠٣٠م) [1]، وقد وضع هؤلاء العلماء الخطوط العريضة للتعليم الأولي، وتذليل ما يواجهه من صعوبات سواء كانت متعلقةً بمكان التعليم وموضوع التعليم ونوعيته وشخص "المؤدب" المعلم ومشروعية أخذ الأجرة على التعليم وخصوصًا القرآن، ومدة التعليم وأيامه في الأسبوع والعقوبات والعطلات وحفلات الختام، وما إلى ذلك، وتعتبر آراؤهم الفقهية في التعليم الأسس التي قامت عليها حركة التعليم في بلاد المغرب والأندلس لأجيال عدة[2].

وفي القرن (٧ هـ / ١٣م) تزايدت الكتابات عن عملية التعليم في المكاتب والتأكيد على ضوابطها الشرعية والعلمية. وبرز في تلك الفترة الكثير من العلماء الذين اهتموا بهذه القضية، ولكن لم تخرج آراء هؤلاء العلماء في التربية والتعليم عما رسمه أولئك العلماء الأوائل، سحنون وابنه محمد والقابسي[3]. ثم ظهر في مصر في نهاية القرن (٧ هـ / ١٣م) وأوائل القرن (٨ هـ / ١٤م) ابن الحاج (ت: ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م) أحد علماء المغرب الأقصى الذي رحل في أواخر حياته إلى مصر، وبها صنف كتابه المشهور والمعروف اختصارًا بـ"المدخل"[4]، الذي عالج

= (مسجد) للتمييز بينهما. وترجع هذه التسمية - فيما يبدو- إلى عهد الدولة الموحدية، وقد انتشرت في بلاد المغرب المختلفة أثناء سيطرة هذه الدولة على مجموع الشمال الإفريقي. انظر، الجزنائي: المصدر السابق، ح١٢٤، ص ٥٩؛ سليمان مصطفى زبيس: المرجع السابق، ص ١٠٦؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ح ١٥٨، ص ١٤٦. كما عرف المكتب أيضًا في بعض المدن المغربية كمراكش على سبيل المثال باسم "لحضار" بفتح اللام وتسكين الحاء، وربما كانت هذه التسمية مشتقةً من مصطلح "الحضار" الذي يطلق في العامية المغربية على التدريس بمكاتب الصبيان. انظر، الصومعي: المصدر السابق، ص ٢٢١، ح ١٢٨ من الصفحة نفسها. أما مصطلح الكتاتيب ومفردها كتاب المعروف في مصر والمشرق، فلم يستخدم في كتابات المؤرخين المغاربة الذين استخدموا مصطلح "المكاتب" و "مكتب". انظر على سبيل المثال: التادلي: المصدر السابق، ص ص ٢٤١، ٢٧٢ - ٢٧٣؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٥٧ - ٥٩؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٨٧؛ القسم الثاني، ص ٤٧.

(١) محمد بن فارس الجميل: آراء ابن الحاج في تعليم الصبيان "دراسة مقارنة"، بحث نشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٦٥، السنة ١٧، مجلة النشر العلمي - جامعة الكويت، ١٩٩٩م، ص ٩.

(٢) محمد الجميل: المرجع نفسه، ص ص ١٠، ١٦ - ١٧. وحول موضوع التعليم بمكاتب الصبيان بالأندلس، انظر، أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص ٣١٨.

(٣) محمد الجميل: المرجع السابق، ص ٩.

(٤) ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري، ت: ٧٣٧ هـ / ١٣٦٦م): المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، دار=

فيه الكثير من القضايا الاجتماعية والأخلاقية والعلمية والتعليمية، وتعرض خلال ذلك للكثير من المسائل المتعلقة بالتعليم الأولي في المكاتب، فقد تحدث عن "المؤدب" والمؤهلات العلمية، والصفات الأخلاقية الواجب توافرها فيه، وتحدث عن الصبيان والأخلاق التي يجب أن يكونوا عليها، وسن التحاقهم بالمكتب، كما تحدث عن موقع المكتب، ومصادر الصرف عليه، وما يجب أن يتوفر عليه من مرافق، وما يلقى فيه من الدروس، وتحدث عن مواعيد الدراسة اليومية والعطلات وحفلات الختام، وتطرق كذلك إلى العقوبات وأنواعها من لفظية وبدنية، والآلة التي تستخدم في تنفيذ العقوبة، كما شدد النكير على تعليم أبناء المسلمين في مكاتب النصارى ذاكرًا المساوئ التي تنتج عن ذلك[1]. وقد اتسمت رؤيته ومعالجته لهذه المسائل بالعمق والشمولية مما جعله يتميز عن سابقيه، بل وعلى من جاء بعده في تلك الفترة[2].

ونظرًا لأهمية موضوع التعليم الأولي بالمكاتب باعتباره المرحلة التي ترسى فيها اللبنات الأولى في بناء شخصية الفرد المسلم، نراه يحتل حيزًا مهمًا في كتب الفتاوى أو "النوازل" الفقهية – وفقًا للاصطلاح المغربي- التي ازدهرت بالمغرب الأقصى ابتداءً من القرن (١٠ هـ / ١٦م) [3]، وخصص مدونو هذه الفتاوى الفقهية فصولاً وأبوابًا في مؤلفاتهم للمسائل الخاصة بهذا الموضوع استندوا فيها على أجوبة وآراء مشاهير العلماء والفقهاء على مر العصور. ومن أبرز هذه المؤلفات "المعيار المعرب" للونشريسي (ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م)، و"الأجوبة الناصرية" لأحمد بن محمد الناصري (ت: ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤م)، و"الأجوبة الكبرى والصغرى" المعروفة بنوازل عبد القادر الفاسي (ت: ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠م)، و"نوازل العلمي" لعيسى بن علي العلمي (ت: ١١٢٧ هـ / ١٧١٦م) وغيرها[4].

كما أفرد له أحد علماء العصر السعدي وهو أحمد بن أبي جمعة المغراوي مؤلفًا خاصًا بعنوان "جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان"، تحدث فيه عن أحكام المعلمين والمتعلمين، وآبائهم، وحقوق بعضهم على بعض، وعن أجرة المعلم، وطرق

= الحديث، القاهرة، ١٩٨١م، الجزء الأول، ص ص ٢ – ٦.

(١) ابن الحاج: المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ص ٣٠٥ – ٣٣٤؛ محمد الجميل: المرجع السابق، ص ص ٩ – ٤١.

(٢) محمد الجميل: المرجع نفسه، ص ٩.

(٣) عن هذا الازدهار وأسبابه، انظر، محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، ص ص ٤٢ – ٥٤؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ص ٤١٤ – ٤٢٠.

(٤) للاستزادة حول الفتاوى المتعلقة بموضوع التعليم في مكاتب الصبيان، وحول كتب الفتاوى المذكورة، انظر، محمد أبو طالب: نوازل تربوية، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م، ص ص ٩٣ – ٩٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، ص ص ١١٨ – ١١٩.

تأديب الصبيان، وتنظيم فترات عطلاتهم ودراستهم[١].

وإذا كنا لا نستطيع التعرف على ما شيد من مكاتب الصبيان في العصر المرابطي؛ نظرًا لندرة المصادر والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر، فإنه يمكن القول إن هذه المكاتب انتشرت في عهد الموحدين في أنحاء متفرقة من البلاد، كمراكش[٢]، وفاس[٣]، ودكالة وتادلة[٤]، وغيرها، إذ حرص ولاة الأمر على تحفيظ رعاياهم القرآن والحديث والعلوم الدينية وخاصةً فيما يتعلق بالدعوة الجديدة[٥].

وفي العهدين المريني والوطاسي، لاقت مكاتب الصبيان اهتمامًا واضحًا وزادت أعدادها بصورة ملحوظة، حتى إن ليون الإفريقي ذكر آن مدينة فاس – على سبيل المثال- كانت تشتمل على نحو مئتي مكتب لتعليم الصبيان[٦]، وأفاد بأن المكتب يتكون من وحدة معمارية عبارة عن قاعة مربعة أو مستطيلة، تشتمل على مدرجات تستخدم كمقاعد للأطفال[٧]. وكانت هذه المكاتب – في الغالب- مستقلةً بذاتها[٨]، وأحيانًا كانت تلحق بالمنشآت الدينية كما هو الحال في المدرسة البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م)، ومسجد لالة غريبة بفاس الجديد (٨١٠ هـ / ١٤٠٨م)[٩]، كما ارتبطت – أحيانًا- عمارة المكتب بالسقاية، كما هو معروف بمصر والمشرق في الكتاب والسبيل، حيث استغل المعمار الامتداد الرأسي للسقاية في بناء المكتب، كما هو الحال بالمكتب الملحق بمسجد لالة غريبة بفاس الجديد[١٠]، وقد استمرت هذه الأشكال المختلفة فيما بعد.

وفي العصر السعدي استمر الاهتمام بتشييد مكاتب الصبيان في مختلف المدن المغربية، وزاد عددها زيادةً ملحوظةً نظرًا للازدهار العمراني الذي شهدته الكثير من تلك المدن، فلا يكاد يخلو حي أو حارة – مهما بلغت من الصغر- من مكتب يتزاحم فيه الصغار لحفظ القرآن ومبادئ العلوم، ويبلغ التنافس أشده بين المكاتب والحارات في جودة الحفظ والحذق، وكثرة المتخرجين الذين ختموا القرآن الكريم عدة مرات بضبط وإتقان، ثم يرتقي المتفوقون

---

(١) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ١٦٦؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٢) التادلي: المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٣) التادلي: المصدر نفسه، ص ص ٢٧٢ – ٢٧٣؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٥٧، ٥٩.

(٤) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٥) ابن القطان : المصدر السابق، ص ص ١٧٨ – ١٧٩؛ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص ٦٦.

(٦) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦١.

(٧) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(8) Bel, A.,: Op. Cit., p. 301.

(٩) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٥٤، ٣٨٣؛ Bel, A.,: Op. Cit., p. 257.

(١٠) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٥٤؛ Bel, A.,: Op. Cit., p. 66.

في سلم التعليم بالمدارس، ويجلسون في حلقات العلماء بالمساجد الجامعة[١].

وقد كان جل هذه المكاتب من بناء الخواص[٢]، كما ساهم سلاطين الدولة السعدية في إنشاء العديد من مكاتب الصبيان وألحقوها بالمساجد الجامعة التي شيدوها؛ كالمسجد الجامع بتارودانت، وجامع باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمدينة مراكش.

وتشير الروايات التاريخية إلى الوظيفة التعليمية بهذه المكاتب، ما يفيد بأن القرآن الكريم كان يحتل مكان الصدارة في مواد الدراسة، وأن المؤدب أو المعلم لم يكن يعلمهم في كتاب معين، ولكن بواسطة ألواح كبيرة يكتب عليها الصبيان جزءاً من القرآن الكريم في كل يوم، ويسيرون على ذلك مدة سنتين أو ثلاث، ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظوه عن ظهر قلب، وأقصى ما يقضون في ذلك سبع سنين، وبعد أن يختم الصبي حفظ القرآن يقيم والده مأدبة يُدعَى إليها جميع الصبيان، يقدم فيها والد الصبي المحتفل به هدايا وكسوة جديدة لمعلم المكتب، كما يتعلم الصبيان قواعد الكتابة وهذا الفن يدرس مثل النحو وسائر العلوم في المدارس الكبيرة، ويتقاضى المعلمون مرتبات نظير ذلك، وتتوقف الدراسة في هذه المكاتب يومين في الأسبوع كما هو الحال في المدارس الكبرى[٣].

خزانات الكتب:

المكتبات بمفهومها الحالي تعرف في بلاد المغرب بالخزائن العلمية[٤]، أو خزائن الكتب[٥]، وهي تنقسم إلى نوعين: مكتبات خاصة وأخرى عامة، ويرجع عهد المكتبات الخاصة بهذه البلاد إلى عصر الأدارسة والمرابطين[٦]، وفي القرنين (٦ – ٧ هـ/ ١٢ – ١٣م) اشتهر العديد من علماء المغرب بشغفهم بجمع ذخائر الكتب وتملكها، ومن أشهر المكتبات الخاصة في تلك الفترة: مكتبة محمد الأنصاري، المعروف بابن الصقر بمراكش (ت: ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م)، ومكتبة عبد الله بن غلندة بمراكش أيضًا (ت: ٥٨١ هـ /١١٩١م) [٧]، ومكتبة عبد الرحيم بن عيسى بن الملجوم

---

(١) مصطفى بن عمر المسلوتي: الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد ٣٢٥، السنة ٣٨، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، يناير، فبراير، ١٩٩٧م، ص ٨٧.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٩٧.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٦١ – ٢٦٢؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٨٧؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٢٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق ص ٣٩٥.

(٤) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣١.

(٥) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ١٤٧؛ المقري: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٢.

(٧) محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص ١٨٨.

بفاس (ت: ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م) [١]، ومكتبة عبد الرحمن بن يوسف بن الملجوم بالمدينة نفسها (ت: ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨م) [٢]، ومكتبة محمد بن أحمد السبائي المعروف بابن الطراوة بمراكش (ت: ٦٥٩هـ / ١٢٦١م) [٣].

أما بالنسبة للمكتبات العامة[٤] فقد تأخر ظهورها إلى عهد الموحدين، حيث يشير الأنصاري إلى أن أول مكتبة عامة وقفت على طلبة العلم بالمغرب هي تلك التي زود بها الشيخ أبو الحسن الشاري المُتوَفّى عام (٦٤٩ هـ / ١٢٥١م) مدرسته التي شيدها بمدينة سبتة[٥]، وإن كانت رواية ابن فضل الله العمري تفيد بأن الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ — ١١٩٨م) قد زود مدرسته التي برحبة قصره بقصبة مراكش بخزانة علمية عامة[٦]، ويزيد من أهمية هذه الرواية أن العمري قد استقاها من الجزء الخاص بالمغرب — مفقود الآن- من كتاب "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي المُتوَفّى بتونس عام (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م)، كما أن هذه المكتبة ظلت قائمةً حتى القرن (١٠ هـ / ١٦م) حيث شاهدها ووصفها كل من ليون الإفريقي[٧] ومارمول[٨] مما يشير إلى أن المغرب عرف المكتبات العامة في أوائل العصر الموحدي، وربما قبل ذلك، ولكن سكت عنها التاريخ وأهملها فيما أهمل[٩].

ومن الشواهد على ازدهار المكتبة بالمغرب في العصر الموحدي، أنه كان بمدينة مراكش وحدها من دكاكين الكتبيين مئة دكان لبائعي الكتب المخطوطة بجوار جامع عبد المؤمن بن علي المعروف بالكتبية[١٠]. ورغم ذلك فإن صفة العمومية لم تظهر بوضوح وتتسم بها المكتبات في المغرب إلا في عهد بني مرين في القرن (٧ هـ / ١٣م) [١١]، نتيجةً لنشاط الحركة

---

(١) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص ص ٤١٥ — ٤١٦؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ١٨٧؛ العابد الفاسي: المرجع السابق، ص ٣.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص ٣٩٦؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ١٨٧؛ العابد الفاسي: المرجع السابق، ص ٣.

(٣) محمد المنوني: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٤) نقصد بالمكتبات العامة هنا: هي تلك المكتبات التي ألحقت بالمساجد والمدارس والزوايا، باعتبارها ليست من الملكيات الخاصة، وإنما مباحة لعامة المرتفقين والمترددين على هذه المنشآت.

(٥) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٢؛ وعن هذه المكتبة انظر أيضًا، ابن الزبير: المصدر السابق، القسم الرابع، ص ص ١٦١ — ١٦٢، ص ص ١٦١ — ١٦٢؛ ابن الخطيب: الإحاطة، المجلد الرابع، ص ص ١٨٧ — ١٨٨.

(٦) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ص ١٤٦ — ١٤٧.

(٧) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣٢ — ١٣٤.

(٨) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٥٢.

(٩) محمد المنوني: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(١٠) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٨؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ١٨٢.

(١١) العابد الفاسي: المرجع السابق، ص ٣.

العلمية، وازدياد المتعلمين وطلاب المعرفة، وانتشار المدارس في مختلف المدن المغربية؛ حيث لا تكاد تخلو مدرسة من هذه المدارس من مكتبة عامة تشتمل على كتب ومصنفات في علوم مختلفة[١]، ومما يدل على كثرة المكتبات العامة في العصر المريني أنه كان بمدينة سبتة – على سبيل المثال– اثنتان وستون مكتبةً عامة[٢]. وتعد خزانة الكتب التي زود بها السلطان يعقوب بن عبد الحق مدرسة الصفارين التي شيدها بفاس القديمة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م) أولى المكتبات العامة في العهد المريني[٣]، ثم تبعه في ذلك خلفاؤه كأبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي وأبي عنان فارس، الذي زود جامع القرويين بخزانتين، إحداهما للكتب، والأخرى للمصاحف، ما زالتا قائمتين حتى الآن[٤].

ولما وصل الأشراف السعديون إلى حكم البلاد بعد فترة غير قصيرة من التدهور – كما سبقت الإشارة– تمثل اهتمامهم بالجانب الثقافي في الاهتمام بالمكتبات العامة، وتزويدها بالمصنفات في مختلف العلوم والفنون، وإحياء المكتبات القديمة، وتنشيطها وإنعاشها بالمزيد من الكتب، كما أسسوا مكتبات جديدة، وزودوا مساجدهم بمكتبات عامة مساعدةً على تعميم الثقافة والمعرفة[٥]. وقد تمتعت المكتبات العامة في هذا العهد بعدة مميزات، من أهمها اتساع الرقعة الجغرافية للمكتبات تبعًا لاتساع المراكز الثقافية وانتشارها في البوادي فضلاً عن المدن، وخاصةً في جبال الأطلس وما وراءها من بلاد تافيلالت ودرعة وسوس، دخول كميات كبيرة من الكتب الأندلسية إلى المغرب مع الأفواج الأخيرة من مهاجري الأندلس[٦]، وجلب أعداد أخرى وافرة من الكتب المشرقية[٧] والسودانية[٨]، هذا إلى جانب وفرة الكتب والمؤلفات المغربية، وإقبال طلبة العلم عليها بالدراسة والنساخة[٩]، وقد ساعد على ذلك توفر وسائل

---

(١) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣١.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٣٦٣؛ ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٤٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ٦٣ – ٦٤؛ العابد الفاسي: المرجع السابق، ص ص ٣ – ٤؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٦؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ص ٧٣ – ٧٤.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٢؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨٠.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٢.

(٧) المقري: المصدر السابق، ص ٧٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٧٨.

(٨) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٢؛ قاسم الزهيري: المرجع السابق (٤)، ص ٨٣؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٩) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣٣ – ١٣٥؛ ١٨٢.

الكتابة بكثرة، ووجود الورق المصنوع داخل المغرب[١] والمجلوب من أوربا، حتى إن الكتابة على الرق كادت تنتهي في هذا العصر، باستثناء بعض صكوك العقود والإجازات العلمية وما شابه ذلك[٢].

وانتشرت بالمغرب في العصر السعدي عشرات المكتبات العامة ومئات المكتبات الخاصة، فبالنسبة للنوع الأول يلاحظ أن سلاطين وأمراء الدولة السعدية زودوا مساجدهم الجامعة والمساجد القديمة السابقة على عهدهم بهذا النوع من المكتبات، وشاركتهم فئات الشعب المختلفة في إثراء هذه المكتبات بالعديد من المؤلفات، حتى إنه لا يكاد يخلو مسجد كبير في أية مدينة مغربية من مكتبة عامة تشتمل فضلاً عن مصاحف القرآن الكريم على كتب قليلة أو كثيرة في العلوم الدينية واللغوية وغيرها[٣]. ومن أشهر هذه المكتبات: مكتبة الجامع الكبير بتارودانت التي توالى تزويدها بالكتب منذ عهد مؤسسها محمد المهدي الشيخ حتى مطلع القرن العشرين[٤]، ومكتبة جامع باب دكّالة بمراكش التي اسستها لالة مسعودة والدة أحمد المنصور[٥]، ومكتبة جامع المواسين بمراكش التي أسسها عبد الله الغالب[٦]، الذي أسس أيضًا مكتبة جامع ابن يوسف المرابطي بمراكش أيضًا[٧]، ومكتبة جامع القرويين بفاس التي آسسها أحمد المنصور، وما زالت تحتفظ ببضع عشرات من الكتب التي حبسها عليها المنصور[٨]، ومكتبة جامع أبي العباس السبتي بمراكش التي آسسها أبو فارس عبد الله بن

(١) من المعروف أن المغرب أنتج الورق واستعمله في الكتابة منذ أواسط القرن (٥ هـ / ١١م) حيث كان في فاس وحدها ١٠٤ معملاً للكاغد. وتضاعف هذا العدد مع مرور الزمان حتى صار في أوائل القرن (٧ هـ / ١٣م) أربعمائة معمل في حي خاص قرب باب الحمراء بفاس ما زال حتى اليوم يعرف بالكغادين، بالإضافة إلى معامل الورق الشهيرة بسبتة وشاطبة، ولما اضطربت أحوال المغرب في أواخر العصر المريني بدأت البلاد في استيراد الورق من البندقية وغيرها، فاحتدم جدال الفقهاء حول جواز الكتابة على الورق الإفرنجي. وقد ظلت معامل الورق قائمة بفاس إلى ما بعد العصر السعدي. انظر، الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول،ح٢، ص١٨٣؛ وللمؤلف نفسه: نظرات في النوازل الفقهية، ص ص ١٤٥ — ١٤٦.

(٢) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ١٨٣.

(٣) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ١٨٤.

(٤) محمد المنوني: الخزائن العلمية بمدينة تارودانت وما إليها، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، أغسطس — سبتمبر ١٩٩٠، ص ص ٥٨ — ٦٠؛ مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ص ٨٩ — ٩٠.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٦٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٥.

(٦) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٥.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٥؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٨) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٧٥؛ المقري: المصدر السابق، ص ٢٢.

جامع أبي العباس السبتي بمراكش التي أسسها أبو فارس عبد الله بن المنصور[١]،ومكتبة الجامع الكبير بمكناس التي أحياها السعديون، وأوقفوا عليها العديد من الكتب وازدادت عنايتهم بها بعد آن أصبح زيدان بن المنصور واليًا على هذه المدينة من قبل والده[٢]، ومكتبة الجامع الكبير بآسفي الذي جدده السعديون، وزودوا مكتبته القديمة بالعديد من الكتب[٣].

وإلى جانب هذه المكتبات العامة التي أسسها سلاطين الدولة السعدية، أقبل العديد من متصوفة الزوايا المنتشرة بمختلف جهات المغرب، مساهمةً منهم في خدمة المجال الثقافي على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات، وتزويدها بكتب فروع العلم المختلفة لتكون تحت تصرف طلبة العلم والدارسين، وصارت المكتبة من مرافق الزاوية الصوفية؛ إذ كان التعليم — كما سبقت الإشارة- أحد المهام التي تكفلت الزوايا بأدائها، فكان الطلبة يعدون بالمئات بزاوية محمد بن ويسعدن بسكتانة، بينما كان طلبة الزاوية الدلائية يعدون بالآلاف[٤].

ومن أشهر مكتبات الزوايا الصوفية في العهد السعدي، مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت التي تعد أعظم مكتبة ضمتها زاوية مغربية، وذاعت شهرتها لا في المغرب فحسب، بل حتى لدى المستشرقين من أوربا وغيرها، وقد كانت أعداد كتبها تزداد بفضل الأوقاف الكثيرة التي خصصت للزاوية، حتى أضحت من أغنى المكتبات المغربية بالمخطوطات، وتضم منها الآن نحو ٤٢٠٠ مخطوط سلمت، بدون شك من بين آلاف أخرى انتهبتها الأيدي عبر الأجيال[٥]، ومكتبة الزاوية الحاحية بزداغة في الأطلس الكبير التي ما تزال كثير من مخطوطاتها موزعةً على المكتبات الخاصة بسوس[٦]، ومكتبة الجامع الكبير بزاوية الدلاء القديمة التي تأسست مع هذا الجامع على يد الشيخ أبي بكر محمد أواخر القرن (١٠ هـ / ١٦م) وتزايد عدد الكتب بها حتى امست تعد بالآلاف، وشبهها بعض المؤرخين بمكتبة الخليفة الأموي الحكم المستنصر في قرطبة[٧]، ومكتبة الزاوية العياشية بوسط الأطلس التي ما زالت قائمةً إلى الآن بجبل العياشي،

---

(١) المقري: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٢) محمد حجي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٨٦.

(٣) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٩.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٣٤٨؛ ٣٨١ — ٣٨٢؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩٢، ح ٣٦ من الصفحة نفسها؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩٢،ح ٣٦ من الصفحة نفسها؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٧) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ١٦٧؛ وللمؤلف نفسه: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ١٨٧؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠.

وتعرف بالمكتبة الحمزاوية نسبةً إلى حمزة حفيد الشيخ محمد بن أبي بكر العياشي مؤسس الزاوية[١]، ومكتبة زاوية الصومعة بتادلة التي كانت تضم نحو ١٠٨٠ مؤلفاً في مختلف العلوم اللغوية فضلاً عن كتب التصوف[٢].

كما قام مهاجرو الأندلس الذين عمروا الرباط والقصبة (قصبة الأوداية أو الودايا) في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجريين (١٦ – ١٧م) بتأسيس مكتبة بجامع قصبة الرباط، وزودوها بما حملوه معهم من تراث الأندلس وبالعديد من الكتب التي جلبوها من المشرق أثناء رحلاتهم الحجازية[٣].

أما بالنسبة للمكتبات الخاصة؛ فيلاحظ ان فترة الاستقرار التي عاشها المغرب في دور ازدهار الدولة السعدية، اتسمت بتنافس الأسر والخواص والعلماء في جمع الكتب واقتنائها، حتى لم يكد يخلو منزل من منازل العلماء في عصر السعديين من مكتبة صغيرة أو كبيرة في المدن أو البوادي، وشمل هذا التنافس الملوك والأمراء ورجال الدولة[٤]، حتى إن عبد العزيز ابن سعيد المزوار وزير أحمد المنصور كان لديه مكتبة تشتمل – وفقاً لرواية الإفراني- على خمسين ألف مجلد[٥]، كما إن بعض الموسرين الذين لم يكن لهم حظ يذكر من الثقافة شغفوا باقتناء الكتب رغبةً منهم في وضعها تحت تصرف طلبة العلم، مثلما كان يفعل عدد من العلماء الذين يضعون مكتباتهم تحت تصرف زملائهم وطلبتهم[٦].

وتعد المكتبة الملكية بمراكش من أشهر المكتبات الخاصة في العصر السعدي وأهمها على الإطلاق؛ إذ حوت من نفائس مؤلفات القدماء والمحدثين ما لم تحوِه مكتبة أخرى من قبل[٧]، وأهدي إليها مئات المؤلفين كتبهم من المغرب والمشرق، بالإضافة إلى ما حمل إليها، أو انتسخ لها من كتب طوال نحو قرن ونصف[٨]. وبلغت هذه المكتبة السعدية أوج مجدها في عهد أحمد المنصور الذي رتب لها في قصره خطاطين ماهرين للنساخة، وفنانين للتجليد والتزويق، وكان الوراقون المشارقة يمدونه بمنتجاتهم في القاهرة واستانبول والحرمين الشريفين[٩]. ومما يؤسف

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩١، ح ٣٤ من الصفحة نفسها؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨١؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ح ١٣٠، ص ١٣٠.

(٣) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ١٨٦.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٧٩؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٨.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٧) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩٠.

(٨) المقري: المصدر السابق، ص ص ٦٩ – ٧٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩٠.

(٩) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة.

له أن هذه المكتبة تعرضت للضياع في عهد زيدان بن المنصور، وذلك سنة (١٠٢٠ هـ / ١٦١٢م) عندما حاول زيدان – في غمرة هلعه بعد هزيمته من الثائر ابن أبي محلى – تهريب هذه المكتبة إلى مأمنه بسوس، ووكل أمر نقلها من مرسى آسفي إلى سفينة فرنسية نظير أجر معين، لكن البحارة استغلوا حالة الفوضى والضعف، وتوجهوا بالسفينة نحو الشمال في طريقهم إلى فرنسا، فوقعوا في أسر القراصنة الإسبان الذين أخذوا صناديق الكتب التي تجاوز عددها ثلاثة آلاف مجلد، وقدموها هديةً إلى ملكهم فيليب الثالث، وانتهى الأمر بها إلى أن وضعت بقصر الإسكوريال[1] قرب مدريد، وحاول زيدان بعد ذلك –عبثًا– استرداد المكتبة من إسبانيا، وكذلك فعل ملوك الدولة العلوية من بعده، ولكن دون جدوى[2].

ويمكن القول إن هذه الكتب التي آلت إلى الإسكوريال لم تكن كل المكتبة الملكية السعدية، يدل على ذلك وجود مئات الكتب بمختلف المكتبات بالمغرب، من بينها كتب امتازت بحظوة خاصة عند أحمد المنصور، وأثارت إعجاب من تحدث عنها من المؤرخين المعاصرين؛ كمصحف عقبة بن نافع الفهري، الذي انتسخه في منتصف القرن الأول الهجري بالقيروان من مصحف عثمان بن عفان، وبقي هذا المصحف متداولاً في مكتبات السعديين ثم العلويين، كذلك لا يعتقد أن زيدان – وهو في حالة هلعه واضطرابه إثر هزيمته من ابن أبي محلى – تمكن من أخذ كل ما تشتمل عليه المكتبة من مجلدات[3].

وبخلاف هذه المكتبة الملكية انتشرت المكتبات الخاصة بين رجال العلم من الفقهاء والمتصوفة، وتوارثت عدة عائلات مكتبات ظلت تنمو مع تعاقب الأجيال، ونالت شهرةً بين طلاب العلم، كمكتبة آل الغرديس بفاس التي قد تكون أقدم مكتبة خاصة عرفت في المغرب؛ إذ أن تسلسل العلم والرياسة والثروة في آل الغرديس التغلبيين بفاس أزيد من سبعة قرون، عمل علماؤهم الرؤساء الأولون مع أمراء مغراوة أواخر الدولة الإدريسية، وعرف منهم آخرون مع المرابطين والموحدين والمرينيين، وقد آلت مكتبتهم العظيمة في القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م)

---

(١) أنشأ هذا القصر الملك فيليب الثاني سنة ١٥٥٧م تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كنتان، وتنويهًا بذكرى القديس لورنسو، الذي استمد منه العون والنصر في تلك الموقعة. ويعتبر قصر الإسكوريال من أعظم الصروح الملكية في أوربا، وهو يضم مقامًا ملكيًا، وكنيسة، وديرًا، ومكتبة ومعهدًا دينيًا، ومدفنًا ملكيًا، وقد بلغت مجموعة الكتب العربية بمكتبة هذا القصر في أوائل القرن (١١ هـ / ١٧م) بعد إضافة مكتبة السلطان زيدان، نحو عشرة آلاف مجلد، وفي سنة ١٦٧١م شب حريق بهذا القصر التهم معظم هذه الكتب، ولم ينقذ منها أكثر من ألفي مجلد، وهي التي ما زالت باقية حتى الآن بمكتبة الإسكوريال. انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ص ٤٣٢ – ٤٣٣.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٧٠؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ص ٤٣٢ – ٤٣٣.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٩٠.

إلى الفقيه الصوفي محمد بن القاضي محمد الغرديس[١]، ثم إلى ابنه الأديب الشاعر أحمد الغرديس، ومن مراجعها الكثيرة استفاد أحمد الونشريسي (ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٨م) في تأليف "المعيار" أكبر موسوعة في الفتاوى الفقهية بالغرب الإسلامي، وأوثق سجل لاجتهادات فقهاء هذه المنطقة طوال سبعة قرون[٢]. ومكتبة عائلة بني الملجوم[٣]، ومكتبة آل ابن القاضي بفاس، ومكتبة الهبطيين بالريف[٤]، وفي منطقة سوس تنافس العديد من الأسر في اقتناء الكتب، وتكوين مكتبات خاصة، كأسرة أزريف بجبل آيت أحمد التي أسست مدرسةً منذ القرن (٨ هـ / ١٤م) اكتسبت شهرةً واسعةً في العهد السعدي؛ لدورها النشط في حركة التعليم والتثقيف، وكانت لها — وما تزال— مكتبة تحتوي على أندر الكتب[٥]، ومكتبة الأمراء السملاليين بإيليغ التي أسسها الأمير أبو حسون السملالي بعد أن استبد بجنوب سوس عام (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م)، واتخذ من إيليغ عاصمةً لإمارته، وحاول أن يجعل قصره فيها على هيئة قصر البديع بمراكش، ومكتبته على هيئة مكتبة السلطان زيدان، فتكونت مكتبة أميرية ظلت تنمو وتفيد رجال الحاشية والمقربين من الأمير، ومن بينهم عدد غير قليل من العلماء والأدباء طوال نصف قرن، إلى أن لقيت نفس مصير مكتبة الدلاء على يد السلطان العلوي الرشيد بن الشريف[٦].

ومما يلفت الانتباه بقاء معظم كتب العصر السعدي — سيما التي كانت بالخزانات العامة— إلى اليوم باستثناء ما ضاع من المكتبة الملكية في عهد زيدان، وآل إلى قصر الإسكوريال بإسبانيا[٧]، ويرجع ذلك إلى أن هناك شروطًا حددت لهذه الخزانات والقائمين عليها حدودًا يسيرون عليها للمحافظة على ما تحت أيديهم من الكتب، وترميمها وتقديمها للمستعيرين؛ فشرطت الإعارة لمن يستحق إعارتها بالطريق الشرعي[٨]. وكان لا يسمح للطلبة بقراءة الكتب إلا في عين المكان من غير استعارتها، ولما كانت هذه الكتب محبسة، فلم يكن

---

(١) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ١٨٨ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨١: الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) المقري: المصدر السابق، ص ١٨٧ ؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٨ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨١.

(٣) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص ص ٣٩٦، ٤١٦ ؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٩.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٨٠؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٩.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٨١. وللاستزادة عن المكتبات الخاصة بمنطقة سوس، انظر، محمد المنوني: المرجع السابق، ص ٦٠.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ١٩٢ — ١٩٣.

(٧) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ١٨٣.

(٨) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ٣٤٠؛ العلمي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٣٦ — ٣٣٧.

مباحًا بيعها أو تبادلها[١]. وذلك على عكس كتب المكتبات الخاصة التي كانت تعار من منزل إلى منزل، ومن بلد لآخر، حتى كان بين أصحاب المكتبات الخاصة من يجعل المكتبة بجوار قاعة الاستقبال؛ لتتاح الفرصة لمن أراد من زائريه أن يستفيد بالقراءة أو النساخة أو المقابلة؛ لذلك لم تعمر المكتبات الخاصة طويلاً، بعكس المكتبات العامة، وتبدد معظمها إثر موت أصحابها، أو بعده بجيل أو أجيال معدودة، باستثناء قلة من مكتبات بعض الأسر العلمية الثرية فإنها ظلت سليمةً مئات السنين[٢].

العمائر الجنائزية:

الأضرحة والمقابر:

كان للأضرحة مكانة خاصة لدى سكان المغرب الأقصى، وغيرها من بلدان الشمال الإفريقي منذ أوائل العهد الإسلامي، خاصةً بين الأوساط الشعبية التي أخذت هذه المكانة عندها أبعادًا متناهيةً، وكلما انتشرت حركة التصوف والزوايا أصبحت الأضرحة التي تضم رفات الصالحين مقصدًا للزوار[٣].

إذ كان من الممارسات التي دعا إليها الصوفية وشيوخ الزوايا زيارة الصالحين والأولياء، وقد صنفوا في هذا الصدد عدة تآليف تناولوا فيها آداب الزيارة، والفوائد والبركات التي تحصل للزائرين من زيارته[٤].

وتخصص الأضرحة ببلاد المغرب للأولياء والزهاد والعلماء والملوك والأمراء، وقد يدفن بالضريح شخص واحد، وربما دفن إلى جانبه شخص آخر أو أكثر. وهناك أضرحة تقام حولها مقابر للعامة أو مقابر يخصص ركن منها لبناء ضريح أو عدة أضرحة[٥]، وإن كانت القاعدة المتبعة في تكوين المقابر- غالبًا- هي وجود ضريح ولي يجذب لجواره أضرحة أخرى تكون بدورها نواة مقبرة جديدة[٦]. وغالبًا ما كان اسم صاحب هذا الضريح أو "الروضة" وفقًا للاصطلاح المغربي والأندلسي يغلب على تسمية المقبرة[٧]؛ كروضة عبد السلام التونسي

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٨٨.

(٣) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٥٤٥؛ محمد بن عبد السلام بن أحمد بوسته: بلوغ الآمال في ذكر مناقب السادات سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ١٩٩٥م، ص ص ٨ – ٩.

(٤) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٣٠٥. وعن هذه المؤلفات، انظر، الحسن اليوبي: المرجع نفسه، ح٢،ص ٣٠٥.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٥٣٢.

(٦) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٧) التادلي: المصدر السابق، ص ص ١٢٠، ١٢٤، ٢٤٥؛ المقري: المصدر السابق، ص ١٥٣؛ الإفراني: المصدر السابق،=

بالعباد قرب تلمسان، وروضة موسى بن حماد الصنهاجي بمراكش (ت: ٥٣٧ هـ / ١١٤٢م)، وروضة عبد الملك بن مروان (ت: ٥٧١ هـ / ١١٦٣م) بمراكش أيضًا، وروضة أبي إسحاق بن قرقول (ت: ٦٩٠ هـ / ١١٦١م) بفاس[1]، وغيرها.

وإذا حظي الضريح بمكانة شعبية كبيرة ألحق به مسجد ومنشآت أخرى، خاصةً إذا كان المدفون به صاحب طريقة، أو ترك تأثيرًا دينيًا كبيرًا، كالمجمع المعماري الذي شيده السلطان أبو الحسن المريني بجوار ضريح سيدي بومدين بالعباد[2]، والمجمع المعماري الذي شيده ابنه السلطان أبو عنان فارس بجوار ضريح سيدي الحلوي بتلمسان[3]، والمجمع المعماري الذي شيده أبو فارس عبد الله بن أحمد المنصور السعدي بجوار ضريح أبي العباس السبتي بمراكش[4]. وقد كانت جل هذه الأضرحة من بناء أهل المتوفين أو أتباعهم في الطريقة، أو بعض الميسورين من العامة، وبعض الأضرحة ذات المكانة الكبيرة لدى الشعب يهتم بها الملوك فيزينونها أو يوسعون عمارتها، أو يعيدون بناءها، حتى أصبح ذلك تقليدًا خلال القرون المتأخرة منذ القرن (١٠ هـ / ١٦م)[5]، كضريح سيدي بومدين بالعباد الذي شيده الخليفة الناصر الموحدي، ثم جدده السلطان أبو الحسن المريني وألحق به – كما سبقت الإشارة- مجموعةً معماريةً لا زالت قائمةً حتى الآن[6]، كذلك شيد السلطان أحمد الأعرج السعدي ضريحًا على قبر الشيخ محمد بن سليمان الجزولي بمراكش[7]، وعلى الضفة الشرقية لنهر أم الربيع شيد السلطان زيدان بن أحمد المنصور ضريحًا على قبر لالة رحمة أم الشيخ محمد الشرقي مؤسس الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد[8]، وشيد ابنه السلطان محمد الشيخ الأصغر

= ص ٢٠٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٢٩؛ ليوبولدو توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورو دي لابنيا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٣م، ص ٣٥٢؛ أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص٦٥.

(١) التادلي: المصدر السابق، ص ص ١١٠، ١٢٠، ٢٣٨، ٢٤٥.

(٢) بورويبة والدكالي: المرجع السابق، ص ص ٣٧ – ٤١؛
Marçais, W. et G.,: Op. Cit., pp. 240 265.

(٣) ابن الحاج النميري: المصدر السابق، ص ٤٨٨؛
Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane, p. 278.

(٤) المقري: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٥٣٢.

(٦) بورويبة والدكالي: المرجع السابق، ص ٣٧؛
Marçais, W., G.,: Op. Cit., pp. 240 - 269.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨؛ محمد بوستة: المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٨) ديل إيكلمان: المرجع السابق، الجزء الأول، ح٩، ص ٥٠.

ضريحًا على قبر الشيخ محمد بن أبي بكر مؤسس زاوية الدلاء[١].

أما بالنسبة للأضرحة الخاصة بالملوك والسلاطين؛ فقد اهتم حكام الدول المختلفة المتعاقبة على عرش المغرب بتشييد أضرحة أو مقابر ملكية خاصة بهم وبأسلافهم وخلفائهم من بعدهم، وتعد قبة الباروديين المرابطية المجاورة لجامع ابن يوسف بمراكش من أقدم أمثلة هذا النوع، ويرجح أنها شيدت فيما بين (٥١٤ – ٥٢٥ هـ / ١١٢٠ – ١١٣٠م) لتكون مدفنًا لإحدى الشخصيات المرابطية الكبرى[٢]، ربما كان علي بن يوسف وفقًا لرأي بعض الباحثين[٣]، وكالروضة التي شيدها عبد المؤمن بن علي الموحدي بمدينة تينملل على قبر المهدي بن تومرت، ولتكون مدفنًا له ولخلفائه من بعده[٤]، وقد أسفرت التنقيبات التي أجريت بجوار جامع تينملل- الذي شيده عبد المؤمن بن علي أيضًا فيما بين (٥٤٣ – ٥٤٨ هـ / ١١٤٩ – ١١٥٤م) – عن وجود مقبرة كبيرة[٥]، ربما كانت هي الروضة المذكورة، كما أشار كل من ليون الإفريقي ومارمول إلى أن الخليفة الناصر الموحدي قد دفن بالضريح الذي شيده بشالة بناءً على وصيته[٦]. ومن الثابت تاريخيًا أن خلفاء الموحدين اتخذوا فوق قبورهم قبابًا، وإن كان لم يصلنا شيء من هذه القباب[٧].

أما حكام الدولة المرينية؛ فقد اتخذوا من شالة مقبرةً ملكيةً حتى منتصف القرن (٨ هـ/ ١٤م)؛ حيث كان أبو الحسن علي هو آخر من دفن بها[٨]، ثم أصبحت "القلة" أو "قبب بني مرين"، الواقعة أعلى التل المشرف على خارج باب الجيسة بفاس القديمة، منذ عهد أبي عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥٧م) هي مدينة الموتى المرينية[٩].

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٤٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٨٣.

(٢) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية في المغرب، ح ١،ص ١٧٣.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٤١؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني،ص ص ٤٥، ٦٦؛ حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٨١م، ص ٢٢٠.

(٥) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ح١، ص ١٧٦.

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٢٧٠؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٠٣؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٣١.

(٧) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ١٣١ – ١٣٢.

(٨) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٠٣؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٣١؛
Basset, H., et Provençal, E., L.,: Op. Cit., pp. 9 - 26; Marçais, G.,:Ibid., p. 283

(٩) Marçais, G.,:Op.Cit., p. 282. وقد سميت هذه المقبرة بـ"القلة" وبـ"بكدية بني مرين"، لوقوعها فوق قمة هضبة مرتفعة كانت تعرف قديمًا باسم "جبل العرض"، ثم بـ"جبل الزعفران". التادلي: المصدر السابق، ص ص ١٠١، ٢٠٣؛ ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري، ت: ٨٠٧ – ٨١٠ هـ /=

وما تزال أطلال الأضرحة والمنشآت الدينية التي شيدها سلاطين هذه الأسرة باقيةً بشالة تتمثل في أربع قباب ومسجدين أحدهما ينسب لأبي يوسف يعقوب والآخر لأبي الحسن علي[١]، وهي تعد أقدم أثر مغربي قائم حتى الآن ارتبطت فيه العمارة الجنائزية والعمارة الدينية برباط وثيق، كما هو الحال في المنشآت المملوكية بالقرافة الكبرى بالقاهرة[٢]. كذلك ما تزال مقبرة القلة تحتفظ ببعض أطلال الأضرحة المرينية من بينها قبتان بحالة جيدة[٣].

ومن خلال النماذج الباقية من الأضرحة المغربية منذ العصر المرابطي حتى نهاية العصر المريني إلى جانب بعض الإشارات التاريخية[٤]، يتضح أن التكوين المعماري الغالب على عمارة الضريح هو أن يرتفع فوق أضلاعه الأربعة قبة، كقبة الباروديين المرابطية، والقباب المرينية بكل من شالة وفاس، فضلاً عن قبور الصالحين والأولياء التي جرت العادة ببلاد المغرب أن تبنى عليها القباب[٥]، كنوع من التمييز عن قبور غيرهم من العامة، لدرجة أن مصطلح القبة انسحب على تسمية القبر الذي يضم جثمان أحد الأولياء أو الصالحين، كما هو الحال في مقبرة باب الفتوح بفاس؛ حيث أطلق على قبور هذه الفئة اسم "القباب أو الكبب" [٦]. وقد اتخذت القبة بالمغرب وغيرها من بلاد الغرب الإسلامي أشكالاً معماريةً متعددة، سنعرض لها بالتفصيل في الدراسة التحليلية.

وفي عصر الدولة السعدية ذكرت الروايات التاريخية أن مؤسسها محمد القائم المُتوَفَّى سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) قد دفن في أول الأمر- كما سبقت الإشارة- بآفوغال بجوار ضريح الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، وفي حدود سنة (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م) قام ابنه أحمد الأعرج بنقل كل من رفاته ورفاة الجزولي إلى مراكش، وشيد ضريحاً على قبرهما بحي رياض

= ١٤٠٤ – ١٤٠٧م): روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية،الرباط، ١٩٩١م، ح ٤١، ص ٤١؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٨٠؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦١؛ الصومعي: المصدر السابق، ص ١٧٣؛ محمد المنوني: المرجع السابق، ص ٦٩.

(1) Basset, H., et Provençal, E., L.,: Op. Cit., pp. 256 - 264.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٥٢٢؛

Marçais, G.,: Manuel, Tome II, P. 530.

(3) Marçais, G., : Ibid., Tome II, pp. 532 - 533.

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ١٠٥؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٣١.

(٥) سليمان مصطفى زبيس: المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٦) محمد مزين: الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦؛ جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م، ص ١١٥.

العروس[١]، صار نواةً للزاوية الجزولية القائمة حتى الآن بمراكش، وبعد مقتل كل من محمد المهدي الشيخ وأخيه أحمد الأعرج سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) كما سبقت الإشارة، نقل جثمان الأول – بدون رأس؛ حيث فر بها قتلته الأتراك إلى القسطنطينية- إلى مراكش، ودفن: "قبلة – أي جنوب- جامع المنصور في قبور الأشراف" [٢]، وقام الشيخ أبو عمرو القسطلي بدفن جثمان أحمد الأعرج وسائر أفراد أسرته – كما سبقت الإشارة- بالمقبرة المجاورة لضريح الشيخ الجزولي[٣].

وهكذا يكون محمد المهدي الشيخ أول من دفن من سلاطين الأشراف السعديين بالمقبرة الواقعة حاليًا بقصبة مراكش جنوب جامع المنصور الموحدي، ولم تكن تحمل قبل دفن هذا السلطان اسم "قبور الأشراف"، ذلك الاسم الذي عرفت به بعد أن أصبحت منذ ذلك التاريخ المقبرة الملكية للأسرة السعدية، وقد كان هذا الاسم يطلق من قبل على مقبرة حي رياض العروس[٤]، السابق الإشارة إليها.

وبخلاف السلطانين محمد القائم وولده أحمد الأعرج المدفونين بزاوية الجزولي بحي رياض العروس، فإن هناك خمسةً من ملوك الدولة السعدية لم يدفنوا بقبور الأشراف أو قبور السعديين – كما يطلق عليها حاليًا- وهم السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل الذي مات غريقًا في معركة وادي المخازن سنة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م) فأخرج وسلخ جلده وحشي تبنًا؛ لذلك لقب بالمسلوخ[٥]، والسلطان ابو فارس عبد الله بن أحمد المنصور الذي تذكر الروايات التاريخية أنه قتل خنقًا بفاس على يد ابن أخيه عبد الله بن محمد المأمون سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) لكنها سكتت عن مكان دفنه[٦]، والسلطان محمد المأمون بن أحمد المنصور الذي قتل سنة (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م) في مكان يسمى "فج الفرس" بتطوان، ودفن أولاً هناك، ثم نقل إلى فاس الجديد ودفن بها[٧]، والسلطان الوليد بن زيدان الذي قتل على يد بعض المتمردين عليه

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨.

(٢) الإفراني: المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٣) الإفراني: المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٤) الإفراني: نفس المصدر والصفحة؛ De Castres, H., : Le Cimètiere de D. Jama El Mansour, Hespéris, Tome VII, Librairie Larose, Pairs, 1927, p. 349.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٧٥ – ٧٦؛ De Castries, H., : Op. Cit., p. 351.

(٦) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩٦ – ١٩٧؛ De Castries, H., : Op. Cit., p. 351.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٢٢؛ De Castries, H.,: Op. Cit., p.351.

بمراكش سنة (١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥م) [١]، ولكن لا يعرف مكان دفنه حتى الآن[٢]، وأخيراً السلطان أبو العباس محمد الشيخ الأصغر بن زيدان آخر سلاطين الدولة السعدية، الذي قتل على يد أخواله الشبانات سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨م) [٣]، واستولى كبيرهم عبد الكريم الشباني على الملك، ولم يهتم – فيما يبدو- بدفن أبي العباس بمقبرة الأسرة التي قوض حكمها[٤].

بقي أن نشير إلى ملاحظة مهمة تتعلق بموقع الضريح والمقبرة بصفة عامة من المخطط العام للمدينة بالمغرب الأقصى؛ إذ نجد من بين نماذج الأضرحة القائمة ما شيد بداخل المدن بين الأحياء السكنية، كقبة الباروديين المرابطية بمراكش، والمقبرة الملكية الموحدية بتينملل، وضريح الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ومحمد القائم السعدي وابنه أحمد الأعرج بحي رياض العروس بمراكش، وقبور السعديين بقصبة مراكش، على حين نجد أن بعض الأضرحة الأخرى شيدت خارج المدن كأضرحة المرينيين بكل من شالة وفاس.

والواقع أنه وفقاً للروايات التاريخية من جهة، ومواقع المقابر القديمة التي تواصل الدفن فيها على مر العصور، وما زالت تحتفظ بمواقعها القديمة من جهة أخرى، يمكن القول إن العادة جرت ببلاد المغرب والأندلس أن تبنى المقابر على أطراف المدن خارج الأبواب والأسوار[٥]، حتى إن أسماء بعض الأبواب غلب على تسمية المقابر القريبة منها، كمقبرة "مطرح الجنة" أو "مطرح الجلة" بفاس التي حملت اسم باب الفتوح القريب منها[٦]، ومقبرة القلة بفاس أيضاً التي عرفت بمقبرة باب الجيسة لوقوعها بالقرب من هذا الباب[٧]، ومقبرة باب تاغزوت بمراكش[٨](الخرائط: ٤، ٥، ٦). ومقبرة باب الشاكرة بطليطلة، ومقبرة باب القبلة

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

(2) De Castries, H., : Op. Cit., pp. 351 - 352.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٥٨.

(4) De Castries, H., : Op. Cit., pp. 351 – 352.

(٥) التادلي: المصدر السابق، ص ص ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٩٥، ٣٠٣، ٤٣٩، ٤٤٢؛ ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ١٤٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٨٠؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦١؛ الصومعي: المصدر السابق، ص ١٧٣؛ ابن عيشون: المصدر السابق، ص ١٧٢؛ ليوبولدو توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٣٥١ – ٣٥٢؛ عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٤٢؛ أحمد الطوخي: المرجع السابق، ص ص ٦٥، ١٧٣ – ١٧٤؛ Bel, A., : Op. Cit., p. 12. ويبدو في ظل تشابه المدن الإسلامية بصفة عامة أن موضع المقبرة خارج السور المحيط بالمدينة كان ظاهرة عامة في مدن الأمصار الإسلامية المختلفة. انظر، محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٦) ابن عيشون: المصدر السابق، ص ١٧٢، ح ٣١٣ من الصفحة نفسها؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ١١٥.

(٧) الصومعي: المصدر السابق، ص ١٧٣، ح ٣٦٥ من الصفحة نفسها.

Bel, A.,; Op. Cit., p. 12.

(٨) التادلي: المصدر السابق، ص ٢٩٥.

بسَرَقُسْطَة، ومقبرة باب إلبيرة بغرناطة[١]. كما يلاحظ أن المقبرة وجدت في كثير من مدن بلاد المغرب والأندلس بجوار المصلى أو "الشريعة" وفقاً لاصطلاح المغاربة والأندلسيين- الذي جرت العادة بتواجده خارج أسوار المدن لصلاة العيد والاستسقاء وغير ذلك- وكانت المقبرة تعرف في هذه الحالة بمقبرة المصلى، كما هو الحال في كل من مدينة سبتة وقرطبة وبلنسية ومالقة، وغيرها[٢].

ولئن كانت هناك بعض المقابر ما تزال في مواقعها القديمة حتى الآن، فإن العديد منها تلاشى أو أصبح بداخل المدن نظرًا للنمو العمراني الذي طرأ على بعض المدن عبر العصور؛ إذ كان هذا التوسع والنمو يتم غالبًا على حساب المقابر القديمة الواقعة عادةً على أطرافها، كما أن هذا النمو الحاصل لمدينة الأحياء كان يواكبه نمو نسبي على الأقل لمدينة الأموات، التي تستحوذ بدورها على أراضٍ جديدةٍ مجاورةٍ للأسوار الخارجية، وتعد هذه المقابر الجديدة "حدثًا عمرانيًا" بالغ الأهمية – ربما كان – له نفس الوزن كظهور الأرباض، وتعدد الأبواب الداخلية، وتنمية الموارد المائية، وتعدد جوامع الخطبة والمدارس والزوايا وامتداد المناطق التجارية والصناعية وغيرها، وهو يشهد كبقية هذه "الأحداث العمرانية" على مدى اتساع ظاهرة النمو العمراني[٣].

وقد كانت ظاهرة التوسع العمراني للمدينة على حساب المقابر القديمة المجاورة لأسوارها الخارجية موضوع فتوى بعض الفقهاء المالكية بالمغرب، من ذلك تصريح الزياتي (ت: ١٠٥٥ هـ / ١٦٤٦م) بأن ما أحدثه توسيع سور مدينة تلمسان يعد خرقًا لحرمة المقابر[٤]، ومن الموضوعات التي تتعلق بالمقابر، وكانت موضوع مناقشة الفقهاء المالكية المغاربة، بناء مسجد ومئذنة داخل المقبرة، الزراعة والتشجير في المقابر، ممارسة أعمال الفخار في المقبرة، القبور العائلية والروضات الخاصة، إلقاء القمامة في المقابر، العصبية والمقابر، وغيرها من الموضوعات التي تأرجحت فيها أجوبة الفقهاء بين الرفض والإباحة، رافضةً المغالاة والانتهازية، مبيحةً التقرب من الموتى والدعاء لهم، وكلها نابعة من كونهم يدركون أن المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه مجتمع يقدس الروح ويحترم الميت، ويعطي للمقبرة أهميةً رمزيةً واضحةً حتى في أصعب الفترات، أيام الأوبئة والمجاعات، عندما كان الناس يموتون بالمئات، فإن العائلات تسهر دائمًا على دفن أهلها في أمكنة معروفة تقصدهم بدعواتهم وبقراءتها للقرآن[٥].

(١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٣٥٥ – ٣٥٦.

(٢) توريس بالباس: نفس المرجع، ص ص ٣٢٥ – ٣٢٦، ٣٥٥- ٣٥٦.

(٣) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ص ١٤٢، ١٤٥ – ١٤٦.

(٤) محمد مزين: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٥) محمد مزين: المرجع نفسه، ص ص ١١٣- ١١٥.

وقد كان وراء تحديد مكان الدفن بالمقبرة اعتبارات معينة، بحيث إن المقبرة كانت تعكس الفئات أو الطبقات الاجتماعية في المدينة أو القرية، ففي مدينة فاس على سبيل المثال، كانت مقبرة باب الفتوح – وما زالت– تفرق بين الصالحين المدفونين بـ"الروضات" وأبناء الأسر التجارية والزراعية الذين كانت لهم بقع عائلية خاصة، بينما كان يدفن عامة الناس والغرباء على اتساع أرجاء المقبرة، أما في البوادي النائية فكانت العصبيات تتحكم في توزيع مساحة المقبرة[١].

ثانياً- المنشآت المدنية:

اهتم سلاطين وأمراء الدولة السعدية بتشييد عديد من المنشآت المدنية، كالقصور والدور والسقايات والقناطر والجسور وغيرها من المنشآت العامة، لكن مما يؤسف له أن جل هذه المنشآت قد اندثر؛ لكونها لا تحظى بحرمة تمنع من الاعتداء عليها كالحرمة التي تتمتع بها المنشآت الدينية، ولتعرض بعضها للهدم على يد السلطات الجديدة محاولةً منها طمس كل ما من شأنه أن يذكر الناس بالدولة السالفة أو بحكامها، وهي ظاهرة قديمة بالمغرب دأبت عليها كثير من السلطات الحاكمة قبل العصر السعدي[٢]، فضاع بسببها كثير من التراث المعماري لهذه البلاد، كان بحق جديراً بالعناية والتجديد لمقاومة عوامل الطمس والاندثار.

المدن:

منذ أواخر عصر الدولة المرينية، ولمدة تزيد عن قرنين ضعفت الجهود التي بذلها الملوك الأوائل لهذه الدولة إبان ازدهارها في بناء وتوسيع وتجديد مختلف المدن والمنشآت[٣]، وهكذا كانت البداوة طاغيةً على الحياة الحضرية بالمغرب أوائل القرن (١٠ هـ / ١٦م)؛ نظراً لاختفاء عدد كبير من المدن، وبخاصة المنطقة الساحلية التي استولى فيها البرتغاليون والإسبانيون على ثغور قضوا على صبغتها المغربية، وحولوها إلى مراكز استيطان لجنودهم وجالياتهم، كما هجر السكان مدناً أخرى لمجرد مضايقة المحتلين ومجاورتهم، أو للشعور بالعزلة بسبب اختلال الأمن وانقطاع السبل، فخلت المدن المغربية بين الوليدية وآسفي، ورباط تيط جنوبي البريجة (الجديدة الحالية)، ومدينة أنفا في الموقع الحالي للدار البيضاء، والقصر الصغير بين

---

(١) محمد مزين: المرجع نفسه، ص ص ١١٤ – ١١٥.

(٢) حول هذه الظاهرة، انظر، الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٨١ – ١٨٢؛ مصطفى أعشى: نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب، مطبعة فضالة، المحمدية – المملكة المغربية، د.ت، ص ٣٠؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٦٩، ٢٠٩؛

Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane, P. 382.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٥.

طنجة وسبتة[١]، وتقلصت الحياة في مدن أبي رقراق، فأصبحت الرباط والقصبة وبعض أحياء سلا شبه خالية[٢]، وحتى المدن الداخلية لم تسلم من الخراب بسبب الحروب والفتن التي شهدتها البلاد أواخر العصر المريني؛ فمدينة مراكش تناقص عمرانها، ولم يعد مسكونًا منها غير نحو ثلثها، بينما تحول الباقي إلى خرائب وركام، وتحولت بعض الأحياء المتهدمة إلى بساتين لزراعة النخيل والأشجار المثمرة[٣]، وحتى مدينة فاس- العاصمة آنذاك- تناقصت فيها أعداد البيمارستانات والفنادق وغيرها، وتوقف نشاطها المعماري، كما شهد بذلك ليون الإفريقي الذي يظهر عبر وصفه لهذه المدينة أسفًا لما أصابها من تدهور في عمرانها[٤].

على أن هذه الصورة القاتمة لم تلبث أن أخذت تتغير مع ظهور السعديين وانتشار نفوذهم، فلم يكد ينتصف القرن (١٠ هـ / ١٦م) حتى تخلصت شواطئ سوس وآسفي وأزمور والعرائش وآصيلا من الاحتلال الأجنبي، وأُسست مدن أخرى، أو جددت واتسع عمرانها[٥]، ويلاحظ أن جل المدن والقصبات في هذا العهد تركزت في منطقة سوس والأقاليم الجنوبية المجاورة، وكان اختيار مواقعها لأسباب دفاعية وسياسية، أولوقوعها في المناطق التي يوجد بها أهم أنصار الدولة، وبعضها شيد لأغراض صناعية. وتجدر الإشارة إلى أن جل هذه المدن يعود إلى أصول قديمة، وإنما كان للسعديين فيها فضل التجديد، وإضافة بعض المنشآت الأساسية[٦].

وقد ساهم سكان هذه المدن في حركة الإنشاء والتعمير؛ حيث استغلوا حالة الأمن والاستقرار التي عمت البلاد ليشيدوا العديد من المرافق والمنشآت التي كانت مدنهم في أمس الحاجة إليها؛ حتى أصبحت حركة الإنشاء والتعمير في جل المدن تلقائيةً؛ استدراكًا لما فقدته هذه المدن في العهد الوطاسي بسبب كثرة الحروب، وعدم الاستقرار السياسي، وكثرة الاضطرابات[٧].

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٠١ – ٢٠٣، ٢٠٧ – ٢٠٨؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٢٨ – ١٢٩؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٢٧ – ٢٢٩؛ ٢٣١ – ٢٣٣؛ محمد مزين: مساهمة السعديين في عمران فاس. محاولة استقراء لبعض المصادر النوازل الفقهية والحوالات الحبسية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس – جامعة محمد بن عبد الله، العددان الرابع والخامس، ١٩٨٠- ١٩٨١م، ص ٢٤٨.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١.

(٦) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٨٦.

(٧) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢١٦.

تارودانت (المحمدية) (خريطة ٢):

بنيت هذه المدينة على يد أمراء بربر جزولة وهشتوكة قبل الإسلام؛ لذا فهي تعد واحدةً من أقدم مدن المغرب، وقد لعبت دورًا بارزًا في تاريخ المغرب الإسلامي(١)، نظرًا لثرواتها الطبيعية، ووقوعها وسط شبكة طرق التجارة بين المغرب وممالك السودان.

وقد شهدت هذه المدينة ازدهارًا اقتصاديًا وعمرانيًا وسياسيًا كبيرًا في العهدين المرابطي والموحدي(٢)، إلا أنها فقدت كثيرًا من هذا الازدهار في العهد المريني والوطاسي؛ إذ ارتبط ازدهارها في الغالب بازدهار مراكش؛ حتى أصبحت في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م) تنافسها قرى تيدسي وتييوت البسيطة بضواحيها(٣).

لذا قام محمد المهدي الشيخ بتجديدها كليًا بعد أن اتخذها مقرًا له كنائب عن أبيه محمد القائم وأخيه أحمد الأعرج؛ فأصلح أسوارها وقصبتها وحصنها، وشيد بها الجامع الكبير والمدرسة القريبة منه، وغير ذلك من المنشآت، واتخذها عاصمةً له بعد أن انفرد بالحكم حتى عام (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م)؛ حيث انتقل إلى مراكش؛ لذلك فقد نسبت إليه هذه المدينة وسميت بـ"المحمدية" (٤)، ورغم ذلك ظلت هذه المدينة قاعدة إقليم السوس، وحرص خلفاء محمد المهدي على أن تتزايد أهمية المحمدية، وتكتمل لها كل المظاهر العمرانية والسياسية والعلمية التي لمراكش وفاس، فجعلوا فيها مقر خليفة السلطان من أبنائه، ومقر

---

(١) أحمد بزيد الكنساني: تاريخ تارودانت في العصر الوسيط حتى القرن الثامن الهجري، منشورات نادي الغد الأدبي، تارودانت – المغرب، ١٩٩٩م، ص ص ١٧ – ١٩؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٠١.

(٢) أحمد بزيد: المرجع السابق، ص ص ٤٠، ٥٢، ٨٩.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٠٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠١.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٠ – ٣١؛ مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٦؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٨٢ – ١٨٣؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٠٥. وقد ظل اسم "المحمدية" يطلق على هذه المدينة بعد وفاة محمد المهدي،حيث نجده في المراسلات الرسمية الصادرة من بلاط أحمد المنصور الذهبي. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨٥. وكذلك على القطع النقدية المضروبة بهذه المدينة في عهد أحمد المنصور أيضًا، ثم عرفت بعد ذلك على النقود باسم "رودانة" إلى القرن (١٢ هـ / ١٨م). الحساني: المصدر السابق، ح ١١٣، ص ٢٥؛ مصطفى المسلوتي: البحوث المنشورة في مجلة "هسبريس" حول مدينة تارودانت؛ بحث نشر في مجلة تارودانت، العدد الخامس، نشرة الجمعية الرودانية للثقافة والتراث، مكتبة الاعتصام، الرباط – المغرب، ١٩٩٩م، ص ص ٢٩ – ٣٢. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن مدينة فضالة القديمة المجاورة للدار البيضاء هي التي اصبحت تحمل اليوم اسم "المحمدية" نسبةً للسلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١٢٠٤ هـ / ١٧٩٠م) الذي زودها بالعديد من المنشآت. محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ح١، ص ٤٠٥؛ عبد الهادي التازي: ما قاله التاريخ عن مدينة المحمدية الحديثة ومدينة المحمدية القديمة، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، يوليو ١٩٦٠م، ص ص ٩١ – ٩٢.

قاضي الجماعة، ومفتي الديار السوسية، وتسكنها جاليات متحضرة من الأندلسيين والبرتغاليين الذين اعتنقوا الإسلام، ونخبة من العلماء المهاجرين من تلمسان، ثم تراجعت أهمية هذه المدينة وضعفت مكانتها بعد أن انحسر النفوذ السعدي عن إقليم السوس في عهد ضعف الدولة إثر وفاة أحمد المنصور عام (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، وتنافس الحاحيون والسملاليون للسيطرة عليها[١].

فريشة (فريجة):

تقع هذه المدينة الصغيرة أو القرية بالقرب من تارودانت، ذكر مارمول أن محمد المهدي الشيخ أعاد بناءها قبل أن يصبح ملكًا على المغرب[٢]، وقد تم اختيارها – فيما يبدو- نظرًا لموقعها الاستراتيجي القائم على ربوة تشرف على الطرق التي تربط بين شمال المغرب وجنوبه، مما يوفر ملجأً طبيعيًا أمينًا بجوار أراضي زراعية شاسعة وخصبة يتخللها نهر سوس الكبير[٣]، ويؤكد ذلك رواية مارمول التي تفيد أن عبد الله الغالب أقام بها عامل، وعدد من الجنود لحفظ الأمن في البوادي المجاورة[٤].

أكادير:

شيد أمراء حاحا قبل الإسلام حصنًا أو قلعةً على المحيط الأطلسي بالموقع الحالي لهذه المدينة، قام البرتغال بهدمها بعد أن استولوا عليها سنة (٩١١ هـ / ١٥٠٥م)، وبنوا مكانها حصنًا جديدًا حمل اسم سانتا كروز "Santa Cruz" أي الصليب المقدس، كما عرف أيضًا بحصن فونتي "Fonti" أي العين؛ لوجود عين ماء قرب أكادير، وقد اتخذها البرتغال مركزًا عسكريًا وتجاريًا معًا، ونشأ حول الحصن تجمع سكني ظل يحمل اسم أكادير، وفي سنة (٩٤٧ هـ / ١٥٤٠م) استولى محمد المهدي على هذا الحصن، وتركه قائمًا، واختط إلى جواره ميناء أكادير[٥]، الذي يطلق عليه البعض اسم "أكادير العليا" بينما يطلق على حصن فونتي البرتغالي "أكادير السفلى"[٦]. ثم قام عبد الله الغالب سنة (٩٨٠ هـ / ١٥٧٢م) ببناء قصبة جديدة ظلت قائمةً وآهلةً بالسكان إلى أن خربت هي والمدينة بأكملها بفعل الزلزال الذي تعرضت له المدينة عام ١٩٦٠م، وقد أعيد بناء هذه المدينة كليًا بعد ذلك، ولم يبق قائمًا من

---

(١) ابن الوقاد التلمساني: المصدر السابق، ص ص ١٠، ٢١ – ٢٨.

(٢) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢.

(3) El Farz, H.,: Expertise de Remparts de La Ville de Taroudannt, Etude Historique, Royaume de Maroc, 1996, p. 3.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢.

(٥) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ص ٣٢ – ٣٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٤١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ص ٢٠، ٣٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٢، ح ١٨ من الصفحة نفسها.

(٦) حبيبة البورقادي: المرجع السابق، ص ٢٥٢.

القصبة إلا سورها وبوابتها المرممة[١].

أمسكرود:

تقع هذه القرية بدائرة إنزكان بمنطقة أكادير، وقد اختطها السعديون سنة (٩٤٨ هـ / ١٥٤١م)، وهي مركز زراعي مهم، قضى بها أحمد المنصور الذهبي شطرًا من طفولته[٢].

الصويرة القديمة:

أسسها محمد المهدي مكان قصبة حاحية، بنيت قبل الإسلام، وكانت في البداية عبارة عن قصبة مربعة أكمل بناءها بعد ذلك أحمد المنصور، وصارت من المراكز الرئيسة لزراعة قصب السكر وصناعته، وهي تقع شمال وادي حاحا الذي يوجد مصبه قرب الصويرة الحالية[٣].

تكوليت:

مدينة قديمة أسسها المصامدة قرب مصب نهر تانسيفت، وقد خربت في عهد عبد المؤمن الموحدي، وبقيت خالية لفترة طويلة من الزمن، وفي سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤م) تعرضت للنهب على يد البرتغال وحليفهم يحيى بن تعفوفت، ثم قام السعديون بإعادة تعميرها من جديد، وردوا سكانها الذين لجأوا إلى الجبال خوفًا من البرتغال، وتشتهر هذه المدينة بجودة بساتينها وحدائقها المثمرة[٤].

الكارض:

أسس هذه المدينة عبد الله الغالب لحماية مزارع قصب السكر ومعاصره التي شيدها بأحد سهول نهر سوس، وأقام بها عاملاً وعددًا من الجنود لهذا الغرض[٥].

مراكش (خريطة ٢):

أسسها يوسف بن تاشفين المرابطي عام (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م)، واتخذها عاصمة لدولته، واستمرت عاصمة للبلاد في العصر الموحدي، وقد نعمت هذه المدينة بحضارة زاهرة في عهد المرابطين والموحدين، وصارت أكثر مدن الغرب سكانًا[٦]، إلا أنها فقدت مكانتها السياسية بعد

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٢.

(٢) إبراهيم حركات: نفس المرجع والصفحة؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٨٧؛ الجزء الثالث، ص ص ٥٢١ – ٥٢٣.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص ٣٨٧.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٥.

(٥) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ٣٠.

(٦) الإدريسي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٣٣ – ٢٣٤؛ المراكشي: المرجع السابق، ص ٢٩١؛ الحميري: المصدر السابق، ص ص ٥٤٠ – ٥٤١؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٢٦ – ١٢٧؛

أن أصبحت فاس عاصمةً للمغرب في العهدين المريني والوطاسي، وانحسرعمرانها ونشاطها كثيراً عما كانت عليه من قبل، ولم يستطع أمراء هنتاتة الذين استبدوا طويلاً بهذه المدينة أن يحافظوا- على الأقل- على تراث أسلافهم، ويواصلوا الاهتمام به[١].

هكذا كانت مراكش عندما دخلها السعديون قد فقدت مجدها القديم، وبدت عليها مظاهر الفقر، فأزقتها موحلة في الشتاء، مغبرة في الصيف، ودورها المبنية من الطين تتراص في غير تناسق، في الوقت الذي يسكن فيه الأثرياء قصوراً بنيت بالحجر، وحصنت بالأسوار[٢]، فما إن استقر السعديون بمراكش واتخذوها عاصمةً لدولتهم حتى شرعوا في استرجاع سالف عمرانها ومجدها القديم، خاصةً في عهد عبد الله الغالب الذي اتسم عهده بالهدوء النسبي؛ لذا فقد وجه نشاطه للإنشاء والتعمير، وكانت أكثر المدن استفادةً بهذا النشاط هي مدينة مراكش، كما شهد بذلك مارمول المعاصر للغالب، وذكر أنه زين: "مدينة مراكش حتى أصبحت الآن من أجمل مدن إفريقيا، وحيث أنه يحب العمران فإن الناس يتنافسون في البنيان اقتداءً به" [٣].

وفي عهد أحمد المنصور شهدت مراكش تطوراً كبيراً في نشاطها العمراني، حيث زودها بالعديد من المنشآت المتنوعة التي من أهمها قصر البديع، أعظم تحفة معمارية وفنية احتفظت كتب التاريخ والرحلات بوصفها[٤]، حتى أصبحت مراكش مع نهاية القرن (١٠ هـ / ١٦م) وبداية القرن الذي يليه أكثر عمرانًا وفخامةً منها في أي وقت مضى، يؤكد ذلك روايات بعض الرحالة الفرنسيين الذين نزلوا المغرب حينذاك للتجارة والسياحة، وأقاموا بمراكش مدةً طويلةً، ولم يخفوا إعجابهم بمظاهر التطور العمراني بمختلف مدن المغرب زمن أحمد المنصور، وبخاصة مراكش التي رأوا أنها أكبر مساحةً من باريس[٥].

ومن أهم ما يميز ظاهرة التطور العمراني في عهد الأشراف السعديين، أنها لم تقتصر على الثغور الساحلية والمدن الكبرى، التي طالما استأثرت باهتمام سابقيهم، وإنما امتدت لتشمل مناطق واسعة في البادية المغربية التي دخلت جلها تحت طاعة السعديين- وقد

مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٦ – ٥٣.

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٢٨ – ١٢٩؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٥.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ص ٤٩، ٢٣٥.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٥٣.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٦٧ – ١٨١؛ المقري: المصدر السابق، ص ص ٢٦ – ٣٠؛ ٧٩؛ ١٣٤ – ١٣٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٠٢ – ١١٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١.

(٥) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

كانت فيما قبل لا تدخل في نطاق سياسة الدولة إلا نادرًا[١] - سيما بعد أن اتسعت حدود الدولة السعدية، وشملت الصحراء الكبرى وما وراءها من بلاد السودان الغربي بعد فتح المنصور لها[٢]. ويرجع اهتمام السعديين بعمران البادية - فيما يبدو - لاعتماد البلاد حينذاك على الزراعة وتربية الماشية كأحد مواردها الأساسية إلى جانب التجارة التي كانت تمر - غالبًا - عبر هذه البوادي، وظهر هذا الاهتمام في الحرص على نشر الأمن وتوزيع الأراضي على القبائل وإلزامها بزراعتها والاستيطان حولها بدلاً من الاستمرار في حياة الترحال، وإقامة المراكز والمحطات التجارية ومعامل السكر ومصانعه؛ فظهر نتيجة لذلك تجمعات بشرية ومراكز عمرانية في شكل ثلاثة أنواع من القرى[٣]، أشار كل من ابن القاضي والفشتالي إلى ازدهارها - بصفة خاصة - في عهد أحمد المنصور، وهي:

قرى زراعية أقامها أحمد المنصور ليسكنها: "أهل البادية، وأجرى لهم على ذلك من إقطاع الأرض ما يكفيهم ثوابًا على سكناهم هنالك[٤]". وقرى تجارية أوجد فيها المنصور لسكان البادية المقيمين فيها مجالات اقتصادية مهمة تدر عليهم أرباحًا وفوائد عظيمة، إذ: أمرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل، وغير ذلك مما يحتاج إليه المسافرون ودوابهم" [٥]. أما القرى الصناعية فنشأت نتيجة الاهتمام المتزايد بزراعة قصب السكر وما تطلب ذلك من إقامة للعديد من معاصر السكر ومعامله، ونظرًا لاتساع عمران هذا النوع من القرى صارت أشبه بـ: "قرية النمل، وكورة النحل، ومدرج الذر؛ لكثرة ما ضمت من العملة، وحشرت من الخلق، ولا تسأل عن هولها، ولغط الأصوات بها تدل عظمة شأنها، وضخامة أحوالها، على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة" [٦].

وقد تنوعت مسميات هذه القرى - إلى حد ما - تبعًا لتخطيطها العام واتساع عمرانها، فإذا كانت القرية محصنةً ومحاطةً بأسوار أطلق عليها مصطلح "قصر" وتعرف في اللسان البربري باسم "إِغْرَمْ"، وهي تنتشر شرقًا وجنوبًا ناحية فكيك وتافيلالت وغيرها، وإذا صغر

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٨٩، ٣٠٦.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٢؛ الجزء الثاني، ص ٦٢٤.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(٤) ابن القاضي: (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت: ١٠٢٥ / ١٦١٦م): المنتقى المقصور على مآثر مولانا المنصور، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د ٧٦٤، ص ٩٥. عن عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٥) ابن القاضي: المصدر السابق، ص ٩٥؛ عن عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٨٩؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٦) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨٧.

القصر ولم يضم إلا منازل قليلة سمي "قصيرًا" أو "تَغْرَمْتْ" (١). أما إذا كانت القرية عبارة عن تجمعات سكنية بيوتها من القش والطين غير محصنة ولا يحيط بها سور، أطلق عليها مصطلح "مجشر" وجمعها "مجاشر" وتنطق أيضًا "مدشر – مداشر" وأحيانًا "دشرة – دشور"(٢).

وهكذا انتعشت البادية المغربية في العصر السعدي، وتطور عمرانها، وزادت مظاهر النعم والترف بها، وبعد أن كان معظم سكانها يعيشون حتى مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م) في أكواخ من القش، شبهها ليون الإفريقي – وهو شاهد عيان، جدير بالاعتماد عليه- باصطبلات القرويين في أوربا(٣)، أخذت ظاهرة البيوت الحجرية تعم هذه النواحي دليلاً على انتشار الأمن والاستقرار واتساع العمران(٤)، كما استخدمت الطابية المكونة من الطين المخلوط بالتبن أو الطابية المركبة من الجير والصلصال، وصغير الحصى في بناء بعض الدور السكنية(٥).

وتميزت هذه القرى باشتمالها على مرافق وتكوينات معمارية تكاد تكون – فيما أعلم- قاصرةً عليها دون المدن الداخلية، من أهمها ما عرف باسم "أكادير أو أجادير" وهو عبارة عن بناء كبير محصن شيد من الطابية أو الآجر، زودت أركانه بأبراج، وفضلاً عن كونه يستخدم كمخزن مشترك بين الجماعة عند بعض القبائل(٦)، فإنه يستخدم أيضًا كملجإ للقبيلة عند الحاجة، أو عند نشوب حروب؛ لذا فإن تخطيطه يشتمل على مسجد وقاعات للاجتماع وأخرى للحراسة، وحجرات وغرف صغيرة وزعت في عدة طوابق – تصل إلى خمسة أحيانًا- تستخدم للسكنى، ويشتمل الأكادير أيضًا على ماجل(٧) أو صهريج كبير؛ لتخزين ماء الأمطار، وقد انتشر هذا النوع من المنشآت بكثرة في جنوب المغرب، ومناطق الأطلس(٨). ويرى بعض الباحثين

---

(١) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ح٧٠، ص ١٧٢.

(٢) الجزنائي: المصدر السابق، ح٨٢، ص ٣٥؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٩٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٣١.

(٤) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٩؛ الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ح ١٩٣، ص ١٩٢.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٧) الماجل أو المأجل لغةً هو الماء الكثير المجتمع، والماجل من حيث المدلول المعماري عبارة عن وحدة معمارية تبنى في تخوم الأرض في الدور أو غيرها يجتمع فيها ماء المطر في موسم سقوطه، ويخزن بها لاستغلاله في أغراض الحياة المختلفة. ويستخدم مصطلح الماجل في بلاد المغرب وفي اليمن للدلالة على الأحواض الواسعة التي تملأ بماء المطر. انظر، ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري، ت: ٧١١ هـ / ١٣١١م): لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م، المجلد السادس، ص ٣٨٣؛ محمد عبد الستار: الإعلان بأحكام البنيان، ص ص ٢١٢ – ٢١٣؛ سامي محمد نوار: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٨) الحسن السائح: المرجع السابق، ص ص ٢٨٦ – ٢٨٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٩؛ ليفي=

أن هذا المخزن الجماعي المحصن الذي يدعى "أكادير" وجده الرومان بالبلاد، وهو أصل التجمعات السكنية بالشمال الإفريقي وبلاد أخرى كالحبشة[1]. وتتفق الأكادير من حيث الوظيفة مع "الآطام" ومفردها "أطم" التي وجدت بالحجاز قبل الإسلام، وانتشرت في يثرب (المدينة)، والطائف، وفي واحات الشمال على طول الطريق التجاري الممتد من الجنوب إلى الشمال، وكانت في كثير من الأحيان ذات تخطيط مربع، وتتألف من عدة طبقات، ويحف بها أسوار، ولها رحاب ومداخل حصينة[2]، واستمر تواجدها بهذه المنطقة في العمارة التقليدية حتى الآن تحت مسمى "الحصون" [3].

وحرصًا من أحمد المنصور على نشر الأمن في هذه البوادي والقرى المنتشرة بها، وضمانًا لأمن المسافرين عبر هذه البوادي، قام بعمل محطات أو مراكز يقيم بها عدد من الحراس بصفة مستمرة، وهي عبارة عن دور أو خيام توجد كل منها على مسافة ٢٠كم من الأخرى، وبإمكان المسافرين أن يشتروا في هذه المحطات ما يحتاجون إليه من غذاء لهم ولدوابهم وغير ذلك من متطلبات[4]، كما ساهمت والدته لالة مسعودة في إنشاء العديد من هذه المحطات[5].

وفي سياق الحديث عن المدن، تجدر الإشارة إلى أن المغرب الأقصى شهد منذ نهاية القرن (٩ هـ / ١٥م) نشأة وتجديد عديد من المدن على يد شخصيات دينية وأمراء مستقلين عن السلطة المركزية آنذاك[6]، تمثل ذلك في تأسيس أبي الحسن علي بن موسى بن راشد (ت: ٩١٧ هـ / ١٥١١م) لمدينة شفشاون نحو سنة (٨٧٦ هـ / ١٤٧١م)، لتكون قاعدة ينطلق منها المجاهدون لمقاومة الاحتلال البرتغالي بثغور شمال المغرب، وبقيت شفشاون بيد بني راشد أزيد من قرن إلى أن طردهم منها السعديون، الذين ساهموا في اتساع عمران شفشاون حتى أصبحت في القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م) من أهم مدن الشمال[7] (خريطة ٢).

= بروفنسال: المرجع السابق، ص ٣٣.

(1) Benoit Fernand: L'Afrique Méditérraneénne, Paris,1931, p. 81.

عن إبراهيم حركات: المرجع السابق، ح ٣٥، ص ٣٠٥.

(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع. انظر، محمد عبد الستار عثمان: آطام المدينة، دراسة تحت النشر في موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة – مادة أطم.

(٣) أحمد بن محمد العبودي: المؤشرات الآثارية للعمارة السكنية التقليدية في جنوب غربي الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، قسم الآثار والمتاحف، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٣٩.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(٥) ابن القاضي: درة الحجال، الجزء الثالث، ص ١٨٢.

(٦) كينيث براون: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٧) الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ١٢١؛ سعيد أعراب: المرجع السابق، ص ٢٨؛ محمد حجي:

ومدينة تطوان التي وجدت قبل الإسلام (خريطة ٢)، وعرفت تطورات سياسية ومعمارية أيام الأدارسة والموحدين والمرينيين من بعدهم، وفي عهد هذه الدولة الأخيرة زودها السلطان يوسف بن يعقوب المريني بقصبة جديدة عام (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م)، وفي سنة (٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م) قام السلطان أبو ثابت عامر بتجديد هذه المدينة[١]، حتى أصبحت من المراكز الأولى لحركة الجهاد البحري بالمغرب، إلى أن خربها الإسبانيون حوالي سنة (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م)، وظلت مهجورة نحو قرن من الزمن، قبل أن يجدد بناءها على الصورة التي هي عليها اليوم تقريبًا أحد مهاجري الأندلس الوافدين على هذه المدينة في عهد محمد الشيخ الوطاسي، هو أبو الحسن المنظري الغرناطي سنة (٨٨٨ هـ / ١٤٨٣م)[٢]، وقد توارث آل المنظري حكم مدينة تطوان منذ تجديدها حتى انتقل حكمها إلى أولاد النقسيس الذين ظلوا يحكمونها فيما بين (١٠٠٦ — ١٠٨٣ هـ / ١٥٩٧ - ١٦٧٢م)[٣].

كما كان لنكبة المسلمين العظمى في الأندلس سنة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م)، وما أعقبها من هجرات متوالية إلى بلاد المغرب، كانت آخرها الهجرة الكبرى التي أعقبت قرار طرد الموريسكيين نهائيًا من شبه جزيرة أيبيريا سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) أثرًا كبيرًا في تغيير خريطة هذه البلاد بإحياء مدن مندثرة وتعمير أخرى أو توسيعها، كتطوان ومدن أبي رقراق سلا والرباط والقصبة، بفضل ما شيده هؤلاء المهاجرون من تحصينات وقصور ودور وحمامات وغيرها من منشآت[٤]. كما سكنوا المدن المغربية الأخرى حتى بلاد سوس مكونين في الغالب أحياء خاصة بهم، كما انتشر الفلاحون الأندلسيون في بوادي المغرب ينشطون الزراعة، ويجددون من طرق الري والغرس والسكنى القروية[٥].

وبخلاف الدور الذي قام به الموريسكيون في تعمير وتجديد بعض المدن المغربية في العصر السعدي، تأسست عدة مدن وقرى في هذا العصر — سيما في فترة ضعف الدولة - على يد

الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٤٢٢؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢١٩.

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٩٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٨١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٢١٩.

(٢) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الرابع، ص ص ١٢٤ — ١٢٥؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤١٧؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ٣١١؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢١٩.

(٣) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ١٨٣.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٩٦؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣١٠ — ٣١١، ٣٩٦ — ٤٠٢؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، ص ص ١١٨ — ١٢٠؛ كينيث براون: المرجع السابق، ص ص ٦٠ — ٦١.

(٥) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الأول، ص ٥٢.

بعض زعماء الصوفية والأمراء المستقلين، وتميزت المدن التي شيدها المتصوفة بأن الزاوية التي شيدها الصوفية شكلت النواة الأساسية التي التفت حولها سائر المنشآت والمرافق العامة التي تلبي متطلبات الحياة الضرورية، كزاوية سيدي حمزة بجبل العياشي والزاوية الناصرية بتمكروت، والزاوية الدلائية، مع ملاحظة أن مصطلح الزاوية في مثل هذه الحالات لا يقتصر على الوحدات التي تتكون منها الزاوية فقط، وإنما يشمل – كما سبقت الإشارة- كافة المدينة أو القرية القائمة حولها بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافقها[(١)] (خريطة ٢).

كما قام الأمير أبو حسون السملالي، الثائر بمنطقة سوس، بتأسيس مدينة إيليغ سنة (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م) بين تزنيت وتفراوت، وأحاطها بأسوار وأبراج وشيد بوسطها مسجداً جامعًا متصلاً بقصره، وتفرع عنه أسواق تشتمل على حوانيت منتظمة حول شوارع مستقيمة، غير أن هذه المدينة لم تعمر أكثر من ستين سنة حتى دكتها – كزاوية الدلاء- مدافع السلطان الرشيد بن الشريف العلوي أوائل عام (١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م)، ثم أسست بجوار إيليغ المهدمة – في تاريخ غير محدد – مدينة أخرى حملت الاسم نفسه[(٢)].

القصور:

تفيد الروايات التاريخية أن ملوك وأمراء الدول المختلفة التي تعاقبت على عرش المغرب الأقصى، اهتموا بتشييد القصور في مختلف المدن المغربية وبخاصة حاضرة البلاد أو العاصمة، التي يلاحظ أن قصر الحكم أو "دار الأمارة" الموجود بها كان يشيد . غالبًا . إلى جوار المسجد الجامع[(٣)]، اتباعًا للتقليد المعروف في كافة المدن الإسلامية الذي تمثلت أول نماذجه في دار الرسول(ﷺ) التي كانت ملاصقة للمسجد[(٤)] كما اهتموا أيضًا بتشييد قصور أخرى يلتمسون فيها الراحة والهدوء، ويتمكنون من الاستغراق في حياة اللهو والترف بعيدًا عن مقر الحكم بالعاصمة[(٥)].

وقد كانت القصور الكبرى بالمغرب- كما هو الحال بالأندلس أيضًا- أشبه ما تكون بالمدن الصغرى المستقلة، لتعدد مرافقها وعظم بساتينها؛ فكانت تتألف من قصور الملك أو الخليفة وأفراد حاشيته وخاصته، بالإضافة إلى قاعات للاجتماع، ومساجد وحمامات وأسواق

---

(١) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ٣٢ – ٣٥.

(٢) حبيبة البورقادي: المرجع السابق، ص ص ٢٥٢ – ٢٥٣؛ محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٦٠٥، ح١ من الصفحة نفسها.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٨؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ١٩، ٢٥.

(٤) حول هذه الظاهرة، انظر، محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٣٨ – ٢٣٩.

(٥) السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص ٥١.

وغير ذلك[١].

غير أن ما يؤسف له أن المعروف عن عمارة القصور بالمغرب الأقصى غالبًا لا يتعدى الروايات التاريخية؛ نظرًا لأن هذه القصور كانت هدفًا لأعمال التخريب من جانب العامة، أو الإهمال والهدم من جانب السلطات المستجدة[٢]. فقصور الأدارسة، ومن أشهرها "دار القيطون" بفاس لم يبق لها أثر[٣]، ولم يعد قائمًا من قصور المرابطين سوى بقايا قليلة من القصر الذي شرع علي بن يوسف في تشييده سنة (٥٢٦هـ/٣١- ١١٣٢م)[٤]، بعد أن كشفت عنها التنقيبات التي أجريت بجوار جامع الكتبية الموحدي بمراكش[٥]، بينما اختفت تمامًا قصور الموحدين بالمغرب الأقصى[٦]، رغم كثرة ما شيد منها بمراكش[٧]، والرباط[٨]وسلا[٩]، وغيرها. كما لم يتبق من القصور العديدة التي شيدها المرينيون[١٠] سوى أجزاء قليلة لقصر يوجد بالربوة التي تشرف على فاس القديمة من جهة الشمال[١١].

---

(١) ابن فضل الله العمري: المصدرالسابق، ص ١٤٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٨؛=
= السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٠؛ سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق،ص ٥٢٣؛ Marçais, G., : OP. Cit., p. 382.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤) الحميري: المصدر السابق، ص ٥٤٠؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٣٠ — ٣١.

(٥) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٣١؛ Meunié, J., Terrasse, H., et Deverdun, G.,: Recherches Archéologiques à Marrakech, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1952, pp. 27 - 32.

(٦) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٣٣؛ مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٨؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٧٢ — ٧٣. وتجدر الإشارة إلى أنه لا تزال هناك بقايا من القصور التي شيدها الموحدون بالأندلس، انظر، توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٣٣؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٣٩؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٧٣.

(٧) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ص ١٤٥ — ١٤٦، ١٤٨؛ الحميري: المصدر السابق، ص ٥٤٠؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٨) المراكشي: المرجع السابق، ص ٢٩٠ — ٢٩١؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٠٢ — ٢٠٣

(٩) محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص ١٦٥؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين: مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٣م، ص ص ٧١ — ٧٣؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٣٤٨ — ٣٤٩.

(١٠) عن القصور المرينية، انظر، ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ١٣٤؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ص ٣٦٣، ٣٨٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد السابع، ص ص ٢٦٢، ٢٨٢؛ ابن الأحمر: المصدر السابق، ص ص ٢٩ — ٣٠.

(١١) روجيه لوتورنو: فاس قبل الحماية، ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٨٦م، الجزء الأول، ص ١٠٩.

أما بالنسبة للقصور التي شيدت في عصر الدولة السعدية، فتشير الراويات التاريخية إلى تشييد عدد كبير منها على يد ملوكها بمختلف المدن المغربية، فبعد أن بويع محمد القائم بالملك قام بإنشاء- وفقاً لما ذكره مارمول- قصر فخم بمدينة تيدسي- العاصمة الأولى للسعديين- أحاطه بعدة بساتين وخزانات للماء[١]. كما قام محمد المهدي الشيخ بإنشاء قصر لسكناه بمدينة تارودانت في إطار تجديده الشامل لهذه المدينة بعد أن اتخذها مقراً له كنائب عن أبيه ثم أخيه أحمد الأعرج[٢].

وعندما تمكن أحمد الأعرج من الاستيلاء على مدينة مراكش سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٧م)، كانت القصور التي شيدها الموحدون- والتي لاشك أحدثت بها تغييرات بعدهم- لا تزال قائمة، إذ كان الأمير الهنتاتي ناصر بوشنتوف يسكن بالقصر الملكي الموحدي، كما أن حجابه وبعض حاشيته كانوا يسكنون بقصر حرس الرماة، أما سائر القصور وإن كانت قد أفلتت من التدمير فإنها تعرضت للإهمال إذ أصبحت أوكاراً للحمام والبوم والغربان[٣]. ويبدو أن أحمد الأعرج وأخاه محمد المهدي من بعده، قد اتخذا من هذه القصور مقراً لهما، ولم تشر المصادر إلى أنهما شيدا قصوراً جديدة.

أما عبد الله الغالب، فإلى جانب استخدامه هو ورجال حاشيته لهذه القصور، تفيد رواية مارمول- شاهد العيان- أن الغالب بالله شيد قصراً جديداً لسكناه بمراكش[٤]. كما تفيد رواية المؤرخ المجهول أن هذا السلطان أيضاً أمر ابنه محمد المتوكل- الذي عرف بالمسلوخ فيما بعد- بإنشاء قصر في مدينة فاس الجديد، فشيد المتوكل:"قصر بوفير وقبة النصر" [٥]. وإن كان بعض الباحثين يقرر بأن هذا القصر مريني ويقتصر دور السعديين على تجديده، ويرجح هذا الافتراض أن اسم"أبي فير" الذي يبدو أنه تصحيف عامي عن"أبي فهر"قد أطلق على عدة منشآت معاصرة للعصر المريني، كالبستان الملكي الذي شيد بتونس في عهد عبد الله المستنصر الحفصي عام(٦٧٥هـ/١٢٧٧م)، وأطلق أيضاً على بستان آخر بتلمسان شيده السلطان أبو تاشفين الأول العبد الوادي المُتوَفَّى عام(٧٣٧هـ/١٣٣٧م) [٦]. غير أن كل هذه القصور السعدية السابق الإشارة إليها اختفت تماماً ولم يبق لها أي أثر حالياً.

وبعد أن تولى أحمد المنصور حكم البلاد عقب انتصار معركة وادي المخازن سنة (٩٨٦-/١٥٧٨م)، لم يكتف بالقصور الموروثة عن الموحدين أو التي شيدها أسلافه، بل أراد السير

---

(١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٠.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨٢ ؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣١.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٣٤.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٢ — ٥٣.

(٥) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٣٣ — ٣٤.

(٦) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

على منوال كبار الخلفاء والاستئثار بقصور جديدة، يخلد بها ذكره على مر العصور، وتليق بالمكانة التي وصلت إليها الدولة عقب هذا الانتصار، فشيد قصر البديع أعظم تحفة معمارية وفنية احتفظت كتب التاريخ - كما سبقت الإشارة - بوصفها[١]. ويقع هذا القصر في الزاوية الشمالية الشرقية لقصبة مراكش التي تقع بدورها جنوبي هذه المدينة[٢]، وقد شارك في بناء هذا القصر الأسري والفنيون الأوربيون إلي جانب المغاربة، واستمر العمل فيه ست عشرة سنة من(٩٨٦هـ/١٥٧٨م) إلي سنة(١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) [٣]، وتفيد رواية الفشتالي أن أحمد المنصور كثيراً ما كان يتبادل الآراء مع المعماريين حول تصميم القصر وطرق تنفيذ العمل[٤].

وفي قصر البديع أستقبل أحمد المنصور عدداً كبيراً من الوفود والسفارات الأجنبية، وأحيا حفلات دينية كبرى كحفلات المولد النبوي. ولكن لم يكتب لهذا القصر أن يعمر طويلاً إذ ظل قائمًا من سنة(١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م) إلي أن خربه السلطان إسماعيل العلوي سنة (١١١٩هـ/ ١٧١٠م)، لأسباب وصفها الإفراني بأنه يطول شرحها دون أن يذكر منها شيئًا[٥].

وفي عهد السلطان عبد العزيز العلوي(١٣١١- ١٣٢٧ هـ/١٨٩٤- ١٩٠٩م) حول قسم من بقايا هذا القصر إلي سجن للثوار من قبيلة الرحامنة، وأعيد بناء جناح آخر ليتخذ منه مخزنًا للقصر الملكي العلوي المجاور له[٦]. ولم يعد قائمًا من قصر البديع حاليًا سوي بقايا معمارية قليلة، ويمكن من خلال الوصف الذي تضمنته المصادر التاريخية لهذا القصر، وما ذكره عنه بعض الرحالة والأسرى الأجانب الذين شاهدوه قبل تعرضه للهدم[٧]، إلي جانب البقايا المعمارية القليلة القائمة، التعرف على التخطيط المعماري لهذا القصر.

والي جانب القصور التي شيدها سلاطين الدولة السعدية، شيدت في عهدهم عدة قصور علي يد بعض مهاجري الأندلس أو بعض الثوار المستقلين عن السلطة المركزية، فبعد أن استقر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر(ت:٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤م) أو(٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م)،

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥١. ومن أهم المصادر التاريخية التي ورد بها وصف قصر البديع، الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٦٧ — ١٨١؛ المقري: المصدر السابق، ص ص ٢٦ — ٣٠، ٧٩، ١٣٤ — ١٣٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٠٢ — ١١٤.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٦٧ — ١٦٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٠٣، ١١١.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١١٣ — ١١٤؛ الضعيف: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٩٠؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩١.

(٦) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣١٧.

(7) Koehler, H., : La Kasba Saadienne de Marrakech d'Aprés un plan Manuscrit de 1585, Hespéris, Tome XXVII, Librairie Larose, Paris, 1940, pp. 1 - 13; Marçais, G., : Op. Cit., pp. 395 - 396.

بمدينة فاس شيد بها قصورًا على الطراز الأندلسي، رآها وتجول فيها المقري بعد ذلك بنحو قرن وربع (١٠٢٧هـ/١٢١٨م) [١]. كما أقام الأمير أبوحسون السملالي قصرًا متصلاً بالمسجد الجامع الذي يتوسط مدينة إيليغ، لكنه تعرض للهدم كبقية مرافق المدينة على يد السلطان العلوي الرشيد بن الشريف كما سبقت الإشارة.

الدور:

تعد النماذج القليلة التي وصلتنا من الدور المرينية سواء كانت بفاس[٢] أو في المنصورة بتلمسان وبالعباد قرب تلمسان أيضًا[٣]، هي أقدم ماتبقى من الدور المغربية حتى الآن، إذ لم يتبق في حدود ما هو معروف حاليًا . على حد علمي. أية أمثلة للدور المغربية ترجع إلى فترات سابقة على العهد المريني. ورغم قلة هذه النماذج الباقية، فإنها تسمح إلي جانب الوصف المعماري الذي زودنا به ابن فضل الله العمري (ت:٧٤٩ هـ/١٣٤٨م) عن الدور المرينية، التعرف على الوضع المعماري للدور المغربية في تلك الفترة، مع احتمال وجود تنوع واختلاف بين الدور نتيجة رغبة كل منشئ وإمكاناتة وظروف الموقع، واختلاف الأسر التي تسكنها من حيث كثافتها وصلة القرابة بينها، فمنها دور مخصصة لسكنى أسرة واحدة وأخرى مخصصة لعدد من الأسر [٤]، وبصفة عامة فهي ذات مدخل منكسر يؤدي إلى صحن أوسط مكشوف تتوسطه فسقية (خصة)، تحيط به أروقة (ممرات) مغطاة بأسقف خشبية، تفتح عليها مجموعة حجرات لكل منها فتحة باب كبيرة تعلوها نافذة يطلان على الصحن، المصدر الرئيس للتهوية والإضاءة، لخلو الجدران الخارجية للدار- في الغالب- من النوافذ المطلة على الشوارع الخارجية، حرصًا على توفير الخصوصية ومنع ضرر الكشف، وعلى أحد جوانب الصحن توجد- غالبًا- قاعة كبيرة تقع غالبًا على محور المدخل الرئيس للدار، بالإضافة إلى بعض الملاحق الأساسية كالمراحيض والمطبخ والحمام[٥]، ووفقًا لرواية ابن أبي زرع فإن الدور المغربية

---

(١) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ٢٨٦ ؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٢) روجيه لوتورنو: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٠٩ ؛ وللمؤلف نفسه: فاس في عصر بني مرين، ترجمة د. نقولا زيادة، مكتبة لبنان، ١٩٦٧م، ص ص ٩١ — ٩٤؛

Bel, A., : Op. Cit., pp. 317 - 363; Maslow, B., et Terrasse, H., : Une Maison Mérinide de Fès, Revue Africiane, Tome LXXIX - Au Siége de la Société Historique Algérienne, Alger, 1936, pp. 503 - 510; Marçais, G., : Op. Cit., p. 398.

(٣) عبد العزيز لعرج: صورة المسكن المغربي الإسلامي في العصرين المريني — الزياني من خلال النصوص التاريخية والشواهد الأثرية، بحث نشر في كتاب دراسات في آثار الوطن العربي (٢) المؤتمر الرابع للآثاريين العرب — الندوة العلمية الثالثة، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ص ٨٣٩ — ٨٥٣؛

Marçais, W., et G., :Monumnets Arabes de Tiemcen, pp. 266 - 269.

(٤) عبد العزيز لعرج: المرجع السابق، ص ص ٨٤٧ — ٨٤٨.

(٥) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ص١٣٩ — ١٤٠ ؛ عبد العزيز لعرج: المرجع السابق،

في العصر المريني، كانت تتألف من عدة طوابق وصلت في بعضها إلى ثلاثة وأحيانًا أربعة[١].

أما بالنسبة لمواد البناء والزخرفة، فقد استخدم في بناء هذه الدور الآجر والحجر، وصنعت الأسقف والأبواب والنوافذ والرفارف من الخشب، وغطيت الأرضيات والأجزاء السفلى من الجدران بالزليج المتعدد الألوان[٢]، وعلى العكس من الثراء الزخرفي الذي تمتاز به الدور المغربية من الداخل، فإنها تمتاز بفقر مظهرها الخارجي وجدرانها العارية من الزخرفة باستثناء- أحيانًا- واجهة المدخل الرئيس للدار[٣].

من خلال الوصف المعماري الدقيق الذي زودنا به ليون الإفريقي المتوفى بعد عام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)عن دور مدينة فاس[٤] من جهة، ووصف مارمول في نهاية القرن(١٠هـ/١٦م) لدور المدينة نفسها[٥] من جهة أخرى، ومقارنته بما سبق يتضح أن الدار المغربية احتفظت بهيئتها وتخطيطها المعماري الذي كانت عليه في العصر المريني، أي أن هذا التخطيط أصبح المظهر التقليدي للدار المغربية منذ ذلك العهد حتى العصر السعدي، بل وما بعده أيضًا[٦].

وفي عصر الأشراف السعديين برزت عدة عوامل ساعدت على تزايد الإقبال على بناء الدور والتنافس في زخرفتها وغلاء أثمانها، ومن أهم هذه العوامل زيادة عدد سكان المغرب في العصر السعدي، وإن كنا لا نعرف عددهم على وجه الدقة لغياب الإحصاءات المضبوطة، فإن

ص ص ٨٤٨ – ٨٥٢؛ Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane, p. 398.

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ص ١٣٩ – ١٤٠. والزليج نوع من الخزف الأملس الفاخر متعدد الالوان يستخدمه أهل المغرب والأندلس في تبليط الأرضيات وكسوة الأجزاء السفلى من الجدران، وهو يقوم مقام الرخام الملون الذي يتخذه أهل المشرق للأغراض السابقة نفسها. ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الكلمة إلى الإسبانية (Azulejos)، بينما يذكر البعض الآخر أن كلمة "زليج" كلمة مغربية اصطلاحية تطورت على الألسنة والأقلام منذ أن أخذوا من كلمة الزجاج فعلاً ومصدرًا فقالوا: زجج – والتزجيج، ثم تطورت هذه الكلمة الأخيرة إلى "التزديج" التي تطورت بدورها إلى "التزليج" ومنها أخذ اسم "الزليج". وقد ازدهرت هذه الصناعة وتطورت في عهد بني مرين وضمت مدارسهم ومساجدهم وقصورهم أنواعًا من هذا الزليج البراق المتعدد الأشكال والألوان. انظر، عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص ٤٧٣؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الجزء الثاني، ح٢، ص ٧١٣؛ عثمان عثمان إسماعيل: دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ت، ص ١٠٨؛ Bel, A., : Les Industries de la Céramique à Fès, A. Leroux Libraire - Éditeur, Paris, 1918, p. 153.

(3) Marçais, G., : Op. Cit., p. 398.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٥) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٤٥ – ١٤٦.

(٦) عبد العزيز بنعبد الله: معطيات الفن الإسلامي، ص ٦٩؛ Marçais, G., : Manuel d'Art Musulman, Tome II, p. 717.

بعض الباحثين قدروا عدد السكان- اعتماداً على ما ورد في كتاب ليون الإفريقي- في أوائل القرن (١٠هـ/١٦م). بستة ملايين ونصف[١]، ومن المؤكد أن سكان المغرب السعدي تزايد عددهم بتقدم عقود هذا القرن، لاسيما بعد أن اتسعت حدود الإمبراطورية السعدية وشملت الصحراء الكبرى وما وراءها من بلاد السودان، وقد دخلت إلى المغرب- بعد خروج ليون الإفريقي منه- عناصر سكانية جديدة، فيهم المرتزقة من الأتراك والأوربيين العاملين في الجيش، والأسرى والرقيق المسيحيين والسودانيين العاملين في الجيش كذلك، وبخاصة في خدمة القصور والحقول وورش البناء ومعاصر السكر، واليهود المشتغلون بالتجارة وصياغة الذهب، وعدد غير قليل من الأسر الوهرانية والتلمسانية وقبائل برمتها من أعراب المغرب الأوسط فرت من وجه الاحتلال التركي، وتعد الجالية الأندلسية التي تتابع نزوحها إلى المغرب طوال القرن(١٠هـ/١٦م) حتى صدور قرار طرد الموريسكيين نهائيًا من شبه جزيرة أيبيريا سنة(١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، من أهم وأكبر العناصر الوافدة على المغرب أيام السعديين[٢].

وقد أدت هذه الزيادة السكانية إلى خلق"أزمة سكنية" كمدينة فاس على سبيل المثال، حتى إن خلافات وخصومات الناس حول الدور السكنية كانت موضوع فتوى بعض علماء وفقهاء المغرب آنذاك، ويتضح من خلال هذه النوازل تزايد بناء الدور على حساب البساتين والأراضي الزراعية، وكثرة البيع والشراء في الدور والمساكن وكثرة ارتهانها واكترائها وغلاء أثمان بيعها وارتهانها[٣].

ومن هذه العوامل أيضًا، أن طراز البناء الأندلسى لم يعد مقتصرًا- بعد نزوح الجالية الأندلسية نهائيًا إلى المغرب- على مدن الشمال، وإنما تخطى جبال الأطلس نحو الجنوب ودخل استخدام الزليج والنقش على الحجر والجص والخشب والفسقيات المائية حتى بالدور المتوسطة، بعد أن أصبح الأندلسيون المختصون يعيشون بين أظهر سكان المدن المختلفة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد سوس[٤]. وإلى جانب ذلك يلاحظ أن الأمراء وكبار رجال الدولة والأثرياء قد قلدوا سلاطين الدولة السعدية، وبخاصة أحمد المنصور، فشيدوا الدور الجميلة المزينة بالزليج والجص والخشب، وكانت تلحق بها حدائق خاصة[٥].

فضلًا عن ذلك ساعد انتشار الأمن والاستقرار الذي تمتعت به البلاد في العصر السعدي، خاصة في وقت ازدهار الدولة، على تزايد كبير في عدد الدور، حتى إن مدينة فاس

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٢. وعن ظاهرة تزايد عدد سكان المغرب في العصر السعدي.

(٢) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٢.

(٣) محمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٢٦٤ — ٢٦٦.

(٤) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٥٢ — ٥٣؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

مثلًا بلغ عدد دورها وفقًا لرواية الرحالة الإنجليزي ليتجو"Litgow " الذي زارها سنة(١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، ١٢٥ ألفًا[١]، بينما كان عددها أيام الوطاسيين في أوائل القرن(١٠هـ/١٦م)- وفقًا لرواية ليون الإفريقي- ٨٩٢٣٦ دارًا[٢]، مما يشير إلي تزايد عمرانها على عهد السعديين.

ومع زيادة الإقبال على بيع الدور وتأجيرها وغلاء ثمنها، كان الحرص على إتقان بنائها وخلوها من العيوب، وقد كانت هذه العيوب من جملة القضايا التي عالجها وأفتى بشأنها الفقهاء المالكيه حينذاك منعًا لوقوع الخلاف والتخاصم بين الناس، ومنها وجود: "الحفرة والبئر، والمطهرة بقرب الحيطان أو البيوت أو تحتها، والسقف التي يخشى سقوطها، وجريان ماء غيرها عليها، واستنقاع مائها فيها، وتنقية مرحاضها على بابها، وأن لا يكون لها مرحاض، وكثرة البق، ووجود القبر إلا قبر سقط وتشقق الحيطان ....ووجود البئر زعاقا" [٣]. كما افتى الفقهاء بأن وضع ميازيب الماء على السطح بحيث يسقط منها ماء المطر على المارة فيلحق بهم ضررًا، من الأمور التي تتطلب نظر الخبراء ورأيهم[٤].

البيمارستانات :

عرف المشرق الإسلامي إنشاء البيمارستانات منذ القرن الأول الهجري، وذلك عندما بنى الوليد بن عبد الملك سنة(٨٨هـ/٧٠٧م) أول بيمارستان شيد في الإسلام[٥]، ورغم ذلك فإن المغرب الأقصى لم يعرف بناء البيمارستانات- فيما يبدو- قبل عصر الموحدين[٦]، حيث ارتبط بملوك هذه الدولة تاريخ إنشاء البيمارستانات بالمغرب، وخاصة يعقوب المنصور الذي شيد البيمارستانات للمرضى والمجانين بمختلف مدن المغرب[٧]، ومن أشهرها بيمارستان مراكش الذي أسهب في وصفة صاحب المعجب، ومن خلال هذا الوصف يتضح أنه كان ذا طابع عصري بمفهومنا الحالي[٨]. ولكن مما يؤسف له أن هذا البيمارستان اختفى تمامًا ولم

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٢) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٣) العلمي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٢٨ – ٢٩. ويقصد بالبئر زعاقًا، أي أن ماءها مالح لا يطاق شربه. انظر، الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت: ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م): أساس البلاغة، تقديم د. محمود فهمي حجازي، سلسلة الزخائر (٩٥)، الهيئة العامة لقصور الثقافة مايو ٢٠٠٣م، الجزء الأول، ص ٤٠٠.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٥) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ٢٤٩.

(٦) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٤٦.

(٧) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٨) محمد المنوني: المرجع السابق، ص ص ٩٢ – ٩٤؛ مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٢؛ إبراهيم حركات:

يبق حتى مايدل على مكانه، وإن كان من المرجح أن موقعه كان بقصبة مراكش حيث لا زال هناك زقاق يحمل اسم البيمارستان[1].

وفي عهد الدولة المرينية انتشرت البيمارستانات بالعديد من المدن المغربية، كفاس[2] وسلا[3] وآسفي[4] الرباط[5] غيرها، حيث اهتم سلاطين هذه الدولة بتشييدها وعلى رأسهم أبو يوسف يعقوب الذي خصصها: "للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم كل يوم غدوة وعشية، وأجرى على الكل الإنفاق من بيت المال، وأجرى على الجزمي والعميان والفقراء مالاً معلومًا يأخذونه في كل شهر"[6]. كما شارك ابنه أبو يعقوب يوسف[7]، وأبو عنان فارس في إنشائها أيضًا[8].

وقد ذكر ليون الإفريقي في سياق حديثه عن مدينة فاس، إنها كانت تشتمل على العديد من البيمارستانات لا تقل حسنًا عن المدارس المرينية بنفس المدينة، وبخلاف تلك التي بداخل المدينة كان هناك عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة، ولكنها أقل جمالاً عن التي في داخلها[9]. وتفيد رواية مارمول أن التخصص ونوع المرض كان وراء هذا التوزيع، حيث خصصت البيمارستانات التي بخارج المدينة لذوي الأمراض الخطيرة كالجزام وغيره، التي لم يكن يسمح للمصابين بها بالتجول داخل المدينة، كما لم يكن يسمح لمرضى الجزام بصفة خاصة أن يعالج في داره بداخل المدينة حتى ولو كان من البيوتات الكبرى، وإنما يحمل إلى البيمارستان الذي يرث نصف ثروته إذا توفى، ويترك الباقي لورثته، لذلك كان البيمارستان المخصص لأمراض الجزام يمتلك ثروة كبيرة[10].

وتفيد رواية ليون الإفريقي أن هذه البيمارستانات كانت تتوفر إلى جانب الهيئة الطبية إلى كل ما تحتاج إليه من كتاب وممرضين وحراس وطباخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى،

المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٣٤٦ — ٣٤٧.

(١) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٣) ابن الخطيب: مشاهدات، ص ١٠٤.

(٤) ابن الخطيب: المصدر نفسه، ص ١٤٨.

(٥) الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا، دار الفكر العربي، ١٩٦١م، ص ص ٨٢ — ٨٣

(٦) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٢٩٨.

(٧) ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص ٣٨٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٦٢.

(٨) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص ٦٦٢ — ٦٦٣.

(٩) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٢٧ — ٢٢٨.

(١٠) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٠ — ١٦١.

ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرًا حسنًا[١]. وذكر المؤرخ نفسه أنه عمل كاتبًا بأحد بيمارستانات فاس- هو المعروف بسيدي فرج- لمدة عامين أثناء شبابه وكان يتقاضى ثلاثة مثاقيل في الشهر[٢].

أما الأشراف السعديون فلم يكثروا من تشييد البيمارستانات[٣]، ربما لكثرة البيمارستانات المرينية التي واصلت وظيفتها في عهدهم، ومن أهم البيمارستانات التي شيدت في العهد السعدي، البيمارستان الذي شيدة عبد الله الغالب سنة(٩٧٠هـ/١٥٦٢م) في حي الطالعة بمراكش وأوقف عليه أوقافًا كثيرة[٤]، للإنفاق على علاج وغذاء المرضى وأداء رواتب الأطباء والإداريين، ثم أصبح فيما بعد خاصًا بذوي الأمراض العقلية، وفي العصر العلوي تحول نشاطه كليًا عن أهدافه الطبية فصار سجنًا للنساء، إلى أن تخرب تمامًا ولكن مكانه لا يزال معروفًا بمراكش[٥].

كما شيد أبومروان عبد الملك المعتصم بيمارستانًا. بمراكش أيضًا خصصه للأسرى المسيحيين، وكان يقدم إليهم فيه العلاج والغذاء. وقد كان لهذا العمل أثر كبير في نفوس الرعايا المسيحيين، حتى أن أحد الرهبان آلف قصيدة مدح فيها المعتصم ونوه فيها بهذا العمل[٦].

ورغم أن البيمارستانات المرينية واصلت أداء وظيفتها في عهد الأشراف السعديين، كما سبقت الإشارة، إلا أنه عندما وصلت كانت قد فقدت أوقافها ومواردها منذ فترة طويلة، بسبب- وفقًا لرواية ليون الإفريقي- الحروب التي خاضها السلطان المريني أبوسعيد الثالث (٨٠٠- ٨٢٣هـ/ ١٣٩٧- ١٤٢٠م) ضد أعدائه بالداخل، فدعته الحاجة للأموال إلى استعمال موارد الأوقاف وبيع الأملاك التي وقفها أسلافه على منشآتهم المختلفة ومنها البيمارستانات[٧]. لذا فإن بعض هذه البيمارستانات أصبحت في العهد السعدي- وفقًا لرواية مارمول الذي وصف حاضرها آنذاك- خالية ولا تقدم إلا الغذاء للمرضى الذين كان عليهم أن يعالجوا أنفسهم على نفقتهم[٨].

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(٢) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ص ٢٤٩، ٣١٨، ح ١١٣ من الصفحة نفسها.

(٧) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

(٨) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

الحمامات :

تعد الحمامات العامة من المنشآت التي كثر إنشاؤها في المغرب الأقصى، كغيره من البلدان التي دخلها الإسلام، لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ولعدم قدرة العامة جميعًا على تضمين منازلهم حمامات خاصة، ولما تدره هذه الحمامات من ريع على منشئيها لشدة الطلب عليها[١]. وقد زاد من الاهتمام بهذه الحمامات في المغرب أن معظمها كان موقوفًا على المساجد والمدارس ويخصص دخلها للصرف على هذه المنشآت[٢].

والواقع أن المصادر التاريخية- المعروفة حتى الآن -- لا تفيدنا كثيرًا عن الحمامات العامة بالمغرب الأقصى، سواء من حيث الإحصاءات العددية أو الوضع المعماري، فضلاً عن عدم وجود بقايا معمارية لهذا النوع من المنشآت قبل العصر الموحدي، ولكن يمكن القول بصفة عامة، إنه كان بكل حي من أحياء المدن المزدحمة بالسكان حمام على الأقل إن لم يكن أكثر من ذلك. أما في عهد الموحدين فقد انتشرت الحمامات العامة انتشارًا كبيرًا، حتى إن مدينة فاس وحدها، على سبيل المثال، كانت تشتمل في عهدهم على ثلاث وتسعين حمامًا[٣]، كما ذكر أن الخليفة الناصر الموحدي شيد ثلاثمئة وثلاثة وتسعين حمامًا[٤].

ولكن مما يؤسف له اختفاء هذه النوعية من المنشآت، باستثناء حمام كشف عنه في مدينة القصر الصغير شيده يعقوب المنصور الموحدي عندما قام بتحصين هذه المدينة وشيد بها مسجدًا[٥]. ويتبع هذا الحمام في تخطيطه التخطيط المعماري المتعارف عليه في حمامات العالم الإسلامي[٦]، إذ يتكون من ثلاث حجرات" بيوت" للاستحمام، وحجرة لخلع الملابس "المشلح" تجاورها أربعة مراحيض، بالإضافة إلي حجرة لتسخين المياه"المستوقد"[٧]، وهذا التكوين يتطابق تمامًا مع الوصف المعماري الذي زودنا به ليون الإفريقي، عن حمامات مدينة فاس في القرن (١٠هـ/١٦م) كما سيأتي فيما بعد.

وفي العصر المريني زاد الاهتمام بالحمامات العامة، كما تدل علية إشارات المؤرخين، فرغم أن الأنصاري ذكر أن:"بكل دار من سبتة حمام ومسجد إلا القليل، ولقد كان. بمنزلنا

---

(١) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٢٤٦.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٣٠.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٥) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ص ٣٣، ٣٥.

(٦) عن التخطيط المعماري للحمامات الإسلامية، انظر، محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٢٤٩؛ ليوبولدو توريس بالباس: الأبنية الإسبانية الإسلامية، ترجمة علية إبراهيم العناني، بحث نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الأول، السنة الأولى، مدريد، ١٩٥٣م، ص ص ١١٠ — ١١١.

(٧) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٣.

حمامان اثنان ومسجد" [١]، ينص المؤرخ نفسه أن مدينة سبته كانت تتوفر فضلاً عن ذلك على اثنين وعشرين حماماً[٢]، ويشير العمري في سياق حديثه عن سكان مدينة فاس، إن " غالب أغنيائهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم، أنفة من الدخول مع عامة الناس"[٣]، مع ذلك فقد كانت فاس تحتفظ في بداية القرن (١٠هـ/١٦م) بمئة حمام ترجع- في الغالب- إلى العهد المريني[٤]، على أنه لم يتبق حاليًا من الحمامات المرينية سوى نماذج قليلة جداً[٥].

أما في عصر الأشراف السعديين، فرغم سكوت المصادر التقليدية المتاحة حتى الآن- في حدود ما أعرف- عن تقديم إحصاءات لعدد الحمامات التي كانت تتوفر عليها المدن المغربية آنذاك، فإنه يمكن القول في ظل النمو العمراني والكثافة السكانية التي شهدتها البلاد في عهد الدولة السعدية، إن عدد الحمامات قد تزايد بصورة كبيرة انعكاسًا لما سبق قوله من عوامل. فضلاً عن ذلك فقد ألحق سلاطين هذه الدولة بمجموعاتهم المعمارية التي شيدوها- كما سبقت الإشارة- حمامات خصصت لتلبية حاجات المرتفقين بها كطلبة المدارس الملحقة بهذه المجمعات، والهيئة التعليمية والقومة، وربما كان يسمح للعامة باستخدام هذه الحمامات أيضًا، ولا تزال بعض هذه الحمامات قائمة حتى الآن، كالحمام الملحق بالجامع الكبير بتارودانت، والحمام الملحق بزاوية الجزولي بمراكش، والحمام الملحق بجامع باب دكالة، ومثيله الملحق بجامع المواسين، والحمام الملحق بجامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا.

ولكن مما يؤسف له أن هذه الحمامات قد دخلت عليها العديد من التعديلات والتجديدات غيرت من تخطيطها القديم، كما أنها لم تعد تابعة حاليًا للمجموعات المعمارية التي شيدت إلى جوارها، إذ أصبحت جميعها- باستثناء الحمام الملحق بالجامع الكبير بتارودانت الذي أصبح من الملكيات الخاصة- تتبع بلدية مراكش التي فتحتها لعامة السكان مقابل أجر معين.

ونظرًا لاختفاء جل الحمامات العامة المغربية، سواء تلك التي شيدت في العصر السعدي أو قبله، وأن النماذج القليلة الباقية قد تعرضت- على طول الفترات التاريخية- لعدة تجديدات لا يعرف على وجه التحديد مدى محافظتها على التخطيط الأصلي للحمام في عصر الإنشاء، فاننا للتعرف على التكوين المعماري لهذه الحمامات يمكن الاستشهاد

(١) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٢) الأنصاري: المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(5) Terrasse, H., : Trois Bains Mérinide du Maroc, Maisonneuve, Paris, 1950, pp. 311 - 320.

بالوصف الدقيق الذي زودنا به ليون الإفريقي في سياق حديثه عن حمامات مدينة فاس في أوائل القرن(١٠هـ/ ١٦م)، حيث ذكر أنها: "جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير وبعضها كبير وكلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات أو بالأحرى ثلاث قاعات. وفي خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلاً يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم ويتركونها هناك. وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا أنها كبيرة جداً"(١).

ثم ينتقل بعد ذلك فيذكر صفات القاعات الثلاثة التي يشتمل عليها الحمام، بقوله: "وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخنًا جداً، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة، حيث يوجد مرجل محكم البناء- يقصد المستوقد الذي يقع خلف الحمام- يسخن فيه الماء" (٢).

وقد كان من بين هذه الحمامات ما هو مخصص للنساء، فضلاً عن وجود بعض الحمامات المشتركة التي تتقاسم فيها النساء والرجال الاستحمام من خلال فترتين منفصلتين، كما تحدث عن سير العمل داخل هذه الحمامات(٣)، وعن الوقود المستخدم في الحمامات يذكر ليون الإفريقي: " يسخن الحمام بالزبل، ويعمل عند الحمامين غلمان ويغالون يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل من الإصطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة، ثم يجعلوه أكداسًا ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يستعمل كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات"(٤).

كما تطرق ليون الإفريقي إلى عادات الناس التي كانت متبعة داخل هذه الحمامات، حيث يذكر: " ومن عادة سكان المدينة أيضًا رجالاً ونساءً آن يأكلوا في الحمامات ويتسلوا فيها غالبًا بمختلف ضروب التسلية، ويغنوا بأعلى أصواتهم، ويدخل إليها معظم الشبان عراة دون أن يستحيي بعضهم من بعض، لكن الرجال المحترمين وذوي الحيثيات منهم يأتزرون ولايجلسون في القاعات المشتركة، بل ينفردون في حجر خاصة مزخرفة يحتفظ بها في حالة نظافة جيدة لاستقبال الشخصيات السامية" (٥).

وقد كانت الحمامات العامة تخضع للإشراف المباشر للمحتسب لضمان سير العمل

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(٢) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(٤) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠.

سيراً طبيعيًا وفق القواعد والقيم الإسلامية، إذ كان يأمر القائمين عليها بتنظيفها والتحفظ من بقاء مزالق بها، وأن يحضروا مناديل نقية وأخرى للسترة، وبأن يبيتوا محاكهم في الملح والماء كل ليلة ويلزم كل من دخل الحمام من بالغ أو مراهق ستر عورته، ويمنع مباشرة الدلاك ما تحت السرة، كما يمنع أيضًا الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك[١].

الفنادق والأسواق :

لاقت المنشآت التجارية اهتمامًا كبيرًا من ملوك وأمراء مختلف الدول التي حكمت المغرب، سيما في فترات الازدهار الاقتصادي والرواج التجاري التي شهدتها البلاد، وزاد من الاهتمام بإنشاء هذه النوعية من المنشآت أنها كانت- في الغالب- ملكًا للأوقاف، ويعد ريعها من أهم مصادر الإنفاق على المساجد والمدارس لتستمر في أداء وظائفها[٢].

وتعد الفنادق من المنشآت التجارية التي كثرت بالمدن المغربية، نظرًا للحاجة إليها والرغبة في إنشائها لما تدره من دخل وفير، حتى إن عدد فنادق مدينة فاس- على سبيل المثال- بلغ على عهد الموحدين أربعمئة وتسعة وستين فندقًا[٣]، كما تفيد رواية الأنصاري أن مدينة سبتة كانت تتوفر أيام المرينيين على ثلاثمئة وستين فندقًا[٤]، ورغم ما يبدو في هذه الإحصاءات من مبالغة فإنها تدل على الاهتمام بمثل هذه المنشآت.

ويطلق مصطلح"فندق" في المغرب على نوعين من المنشآت يتشابهان من حيث التكوين المعماري، ولكنهما يختلفان من حيث الموقع والوظيفة، يوجد النوع الأول على طرق المدينة وعلى الطرق التي تربط بين المدن، ويستعمل لإيواء المسافرين والعابرين بدوابهم وهو شبيه بخانات الشرق الواقعة على طرق التجارة، أما النوع الثاني فيوجد بداخل المدن وهو معد- فضلاً عن الإيواء- لتخزين البضائع ولمختلف الحاجيات الصناعية والتجارية، حيث تحولت حجرات وغرف الفندق إلى مخازن للغلال والفواكه والسلع وبيعها ومعامل للصناعات اليدوية[٥].

وفي العصر السعدي كان للعلاقات السياسية الواسعة مع الخارج أثر كبير في نمو تجارة المغرب الخارجية، حيث أقبل التجار الأجانب من جميع أقطار أوربا الغربية إلي المغرب، يشجعهم على التعامل معه انتشار الأمن والطمأنينة وحاجتهم إلى منتجات المغرب، ورغبة

---

(١) محمد المنوني: خطة الحسبة في المغرب، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد ١٤، السنة السادسة، وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٧٩م، ص ص ٢١٢ - ٢١٣، ٢٢٠.

(٢) روجيه لوتورنو: فاس قبل الحماية، الجزء الأول، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣، ٤٥٨ – ٤٦٠.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٤) الأنصاري: المصدر السابق، ص ص ٤١ – ٤٢.

(٥) الجزنائي: المصدر السابق، ح٦٢، ص ٤١؛ لوتورنو: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٨٢، ٤٥٩ – ٤٦٠

السعديين في الحصول على الذخيرة الحربية ومختلف أنواع الأسلحة والسلع التي تحتاجها البلاد، وبفضل هذا الأمن والاستقرار من جهة، وازدهار الزراعة في البادية ثم بسبب نمو الصناعات بالمدن من جهة أخري، حدث تبادل بين هذين القطاعين فانتعشت التجارة الداخلية وتزايد لذلك عدد الفنادق والقيساريات في المدن، والأسواق الأسبوعية والمواسم الفصلية والسنوية في البوادي[١]، مما جعل المغرب الأقصى في القرن(١٠هـ/١٦م) يشهد أزهى فترات الأزدهار الاقتصادي، ويصبح أهم سوق تجاري في الشمال الإفريقي، لأن المغرب الأوسط لم يكن يتوفر على موارد مهمة، بينما كان المغرب الأدنى يجتاز أزمة اقتصادية بسبب الاضطرابات الداخلية[٢].

وتفيد رواية ليون الإفريقي أن مدينة فاس كانت تتوفر في بداية القرن(١٠هـ/١٦م) على مئتي فندق، وذكر أن: "بنيانها في غاية الإتقان، بعضها فسيح جداً، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير- جامع القرويين- وتتألف كلها من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك. وفي كل فندق صهريج وميضأة ببالوعتها لاستفراغ القاذورات، ولم أرقط في إيطاليا أبنية مثلها، إلا مدرسة الإسبانيين الموجودة في بولونية وقصر الكردينال سان جورج في روما، وتفتح كل أبواب الغرف على ممر"[٣].

وفي النصف الثاني من القرن(١٠هـ/١٦م) تزايد عدد الفنادق بهذه المدينة، حيث يذكر مارمول أنها أصبحت تشتمل على: "ما يربو عن مائتي فندق للغرباء مثلما هو عليه الحال بأوربا، وهي كبيرة حسنة البناء فيها عدة غرف بأعلاها وأسفلها، مع ما هو ضروري"[٤]. ويمكن أن يقاس هذا على غيرها من المدن المغربية، وقد كان بمدينة آسفي فندق خاص بكل جالية مسيحية تنتمي إلى بلد معين[٥].

وفي مدينة مراكش التي شهدت في القرن(١٠هـ/١٦م) أعظم مظاهر نشاطها الاقتصادي في تاريخها حتى هذه الفترة، ومنحت التجار الأجانب كل التسهيلات المكنة في ذلك العصر، كان يوجد بالقصبة مركز جمركي" ديوانة " عبارة عن فندق كبير يشتمل على غرف ومخازن يحل بها التجار الأجانب وبضائعهم عند الاستيراد والتصدير، ومصرف مالي ومحلات إدارية، وفي هذا المركز تتعرض البضائع لفحص خاص، كما تؤدي عنها الحقوق الجمركية التي يحددها القصر الملكي[٦]. وقد أوكل السلاطين السعديون، وبخاصة أحمد المنصور، أمر

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٥٩، ٢٦٤.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٩٠؛ وللمؤلف نفسه: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٧٧.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٣١.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

(٥) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٧٠.

(٦) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٨٧؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

الديوانة إلى أشخاص انيطت بهم مهمة السهر على التجار الأجانب وسلامة بضائعهم التجارية[١].

وفي سنة (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) شيد محمد المهدي الشيخ بمراكش أيضًا فندقًا أو مركزًا جمركيًا أكبر مساحةً من سابقه، كان يشتمل على ثلاث وعشرين حجرة في الطابق السفلي ومثلها في الطابق العلوي، ويقوم حارس مسلم بالسهر على أمن التجار، ومعه جاب لاستخلاص الحقوق الجمركية، وقد فقد هذا المركز أهميته شيئًا فشيئًا بعد موت أحمد المنصور، وابتداءً من سنة(١٠٣٤هـ/١٦٢٤م) تحول إلى مجرد فندق لنزول التجار الأجانب، ولكنه اختفى بعد ذلك ولم يبق له أثر اليوم[٢]. كما كان في مدينة تارودانت " ديوانة " تشبه مثيلاتها بمراكش[٣].

ولتأمين الطرق وجعلها صالحة للسفر وآمنة للمسافرين وقوافل التجارة، قام سلاطين الدولة السعدية، وبخاصة أحمد المنصور كما سبقت الإشارة، بإقامة محطات أو مراكز يقيم بها عدد من الحراس باستمرار، توجد كل منها على مسافة ٢٠كم تقريبًا من الأخرى، أطلق عليها ابن القاضي اسم "المنزلة" وذكر أن المقيمين بها يقومون: "ببيع الشعير والطعام واللحم والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المسافرون ودوابهم..... وإن باتت عندهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون أمتعتهم وإن ضاع شئ منها عندهم ليلاً ضمنوه لربهم فيما بينهم........ وإن كان ضياعه فيما بين المنزلتين نهارًا ضمنه أقربهما منه....فتجد المسافر في حالة ذهابه وإيابه كأنه في بيته وبين أهله وقرابته في بلاده.... وأن الإنسان يكون في أحماله من التبر والياقوت عدد عديد فلا يخشى عليها في الطريق شيئًا"[٤].

أما الأسواق فتشغل جانبًا مهمًا في الحياة المغربية سواء في المدينة أو في البادية، حتى أن بعض المدن كانت في الأصل أسواقًا ثم عمرها التجار وأقاموا بها المباني الثابتة فتطورت وصارت مدنًا، يدل على ذلك كثرة المدن التي تحمل كلمة سوق في المغرب، وما تزال بها أسواق أسبوعية مثل"سوق الأربعاء" و"سوق الثلاثاء غرب" و" سوق السبت" [٥].

وفي العهد السعدي لاقت الأسواق التجارية اهتمامًا كبيرًا، لما كان لها من دور كبير في إنعاش الحياة الاقتصادية للبلاد. واعتمادًا على روايات شهود عيان معاصرين فإن هذه الأسواق بكبريات المدن المغربية كفاس ومراكش، كانت مزدحمة بالحوانيت المملوءة

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

(٤) ابن القاضي: المنتقى المقصور، ص ٩٥. عن عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٥) حلمي محمد عشيش: المرجع السابق، ص ١١٣.

بالبضائع والمنتجات المختلفة، وأن الشوارع الرئيسية لهذه الأسواق كانت مغطاه، وذلك لوقاية البضائع والمترددين على السوق من أمطار الشتاء وحرارة الصيف. وفي البوادي كانت الأسواق تقام في المراكز المهمة حيث تباع فيها الحبوب والماشية والجلود وأنواع البضائع والمنتجات، وقد كان التجار يقومون بالتجوال بانتظام في مختلف أسواق البادية ويقصدون بوجه خاص المواسم الفصلية والسنوية التي تشبه تمامًا المعارض العامة وذلك للبيع والشراء ولتبادل المنتجات والبضائع على نطاق واسع جدًا[١].

وللتعرف على ازدهار الأسواق بالمدن المغربية أيام السعديين، يمكن مقارنة الوصف الدقيق الذي زودنا به ليون الإفريقي عن أسواق مدينة فاس وحوانيتها في أوائل القرن(١٠هـ/١٦م) قبل مجيء السعديين إليها[٢]، بما جاء في حوالة أحباس جامع القرويين وفاس المؤرخة بعام (٩٩٨هـ/١٥٩٠م)، الذي يوافق الفترة المزدهرة من عهد المنصور، حيث يلاحظ أن كل الأسواق المذكورة عند ليون الأفريقي وردت في الحوالة الحبسية، لكن العكس غير صحيح أي أن بعض الأسواق المذكورة في الحوالة لم توصف عند ليون الإفريقي، مثل: سوق الفراشين، سوق الخم، سوق القراقين، سوق قنطرة بروس، سوق فم الرصيف، سوق صفاح الصاغة، وغيرها. فهل كانت هذه الأسواق غير معروفة في عهد ليون الإفريقي؟ أم أنها كانت صغيرة ومحدودة في عصره ولم تتطور إلا في العهد السعدي؟[٣] أيًا ما كان الأمر فإن هذا يدل على ازدهار الأسواق ورواج التجارة والاهتمام بمنشآتها في عهد السعديين.

وتفيد الروايات التاريخية أن كل سوق بالمغرب كان مخصصًا لسلعة معينة وكان لهذا أثره على توزيع الأسواق في المدينة[٤]، وكانت السلع في هذه الأسواق تخضع لنظام التسعير، وكان المحتسب هو المسئول عن تسعير هذه السلع ويفرض ذلك على أصحابها، ويراقب الموازين والمكاييل[٥]، ويقاوم منكرات تطفيف المكيال والميزان، والغش والتدليس، ويمنع الاحتكار إذا أضر بالناس، ويضرب على أيدي المماطلين والمسوفين من الصناع، كما يأمر بتنظيف أواني

---

(١) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ٢٥٩ — ٢٦٠.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٣٣ — ٢٤٦.

(٣) محمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٢٧٩ — ٢٨٣.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٣٣ — ٢٤٦؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٤٨ — ١٥٤.

(٥) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٥١؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٥١، ١٦٥؛ كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٧٣.

الباعة والطباخين[١].

فبعد أن شهدت ولاية الحسبة تدهورًا ملحوظًا في العهد الوطاسي، لأنها كانت موضع مساومة حقيقية في البلاط[٢]، رد للمحتسب اعتباره في العصر السعدي، ورغم أنه ظل تابعًا للقاضي إلا انه تمتع- كناظر الأوقاف- باستقلال إداري في نطاق اختصاصه، حتى يتاح له أن يطبق من غير تهاون العقوبات المقررة ضد الباعة الذين لايتبعون الأسعار المتفق عليها مع أمناء الحرف الذين يختارهم ذوو المهن لتمثيلهم بكل حرية لدى السلطات المختصة. وكان مفروضًا على الباعة أن يضعوا في أدوات الوزن والقياس والكيل علامة خاصة يلزمهم بها المحتسب، حتى يسمح لهم باستعمال هذه الأدوات في تجارتهم، كما آن الموازين تخضع لضوابط معينة من حيث حجمها ومحتواها[٣].

القناطر والسدود :

لقد كان ومازال موضوع المياه وما يتعلق بها من زراعة ورعي وصناعة(الطواحين المائية)، يكتسب أهمية كبيرة لبلاد كالمغرب الأقصى تقع بين الصحراء في الجنوب والبحر في الشمال والغرب[٤]، حتى إن المصادر المعاصرة للسعديين والتي كتبت قبلهم آو بعدهم خصصت له مكانة بارزة[٥]. فلا يمكن فصل موضوع المياه عن المناخ وعن العمران بالمغرب.

فكلما كان المناخ جافًا كلما قل الماء وكثرت الخصومات بين سكان المدن وسكان البوادي المجاورة لها، لأن سكان هذه البوادي يوجهون المياه للسقي بينما تبقى المدن محرومة من الماء للشرب والبناء، والمعروف أن البناء لا يتكاثر إلا مع وفرة المياه. وكلما كانت الأمطار غزيرة كلما حاول سكان المدينة الاحتياط منها ومن خرابها، ومن هنا أوجبت الحاجة والضرورة إلى بناء القناطر[٦]

---

(١) محمد المنوني: المرجع السابق، ص ص ٢١١ – ٢١٢.

(٢) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٥١.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٤) محمد مزين: التاريخ المغربي ومشكل المصادر نموذج: النوازل الفقهية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس – جامعة محمد بن عبد الله، عدد خاص ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص ١١٠.

(٥) للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر، محمد مزين: المرجع نفسه، ص ص ١١٠، ١١٤ – ١١٩؛ عبد القادر زمامة: وثيقة حضارية عن شبكة توزيع المياه في فاس القديمة، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد ٣١، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٠م، ص ١٤١.

(٦) يطلق مصطلح "القنطرة" على كل بناء معقود بعقد أيًا كان نوعه. ومن هنا قد يسمى البناء المعقود الذي يعترض المجاري المائية بالقنطرة. سامي محمد نوار: المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة أثرية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، =

والسدود[1].

وقد تزايد بناء هذه النوعية من المنشآت المائية على الأودية والأنهار والممرات الصعبة بمختلف مناطق ومدن المغرب الأقصى، نظرًا لأهمية هذه المنشآت- إلى جانب ما سبق- في الحفاظ على العمران وتنظيم المواصلات الداخلية، وتسهيل مرور الجيوش والجباة والقوافل وسائر السكان[2]، وتوسيع رقعة الأرض الزراعية المسقية، وإمداد بعض الطواحين بالطاقة المائية[3].

ومن مظاهر اهتمام الدول المختلفة التي حكمت المغرب بهذه المنشآت، تشييد المرابطين مجموعة من القناطر بالمغرب والأندلس، أشهرها قنطرة وادي تانسيفت قرب مراكش، التي شيدت في عهد علي بن يوسف، ويبلغ طولها ٤٠٠م، وقد بنيت بالآجر وتشتمل على واحد وعشرين عقدًا[4]. كما شيد في عصر الموحدين العديد من القناطر والجسور وجددت أخرى قديمة[5]، منها تجديدهم لقنطرة تانسيفت المرابطية سنة(٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) بعد أن هدمتها السيول[6]، وأقاموا جسرًا من السفن بين الرباط وسلا، يتكون من ثلاث وعشرين معدية وضعت

= ١٩٩٩م، ص ١١٥. وقد تباينت الآراء حول التفريق بين الجسور والقناطر، ففي حين يطلق بعض الباحثين مصطلح "الجسور" على العقود التي تعترض المجاري المائية وتستخدم للعبور فقط من شاطئ إلى آخر، ومصطلح "القناطر" على العقود التي تعترض المجاري المائية لرفع منسوب الماء وتحويله لجهة معينة بعد تخزينه. انظر، سامي نوار: نفس المرجع والصفحة. نجد أن البعض الآخر يذكر أن الفرق بين الجسور والقناطر، هو أن الأولى متحركة مثل الكباري حاليًا، عبارة عن سفن يشد بعضها ببعض بواسطة سلاسل بعرض النهر، وتوضع ألواح خشبية عليها لمرور الناس والدواب عليها، ثم تفتح عند اللزوم لمرور السفن، بينما القناطر ثابتة، مثل القناطر الخيرية على سبيل المثال. انظر، درويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٤م، ص ١٤٥.

(١) محمد مزين: مساهمة السعديين في عمران فاس، ص ٢٧٢. والسدود عبارة عن جدران ضخمة لحجز المياه وضبط مناسيبها بواسطة بوابات تسمح بتصريف الماء الزائد الذي يخشى منه على جدار السد، وأحيانًا تكون السدود بدون بوابات مثل السدود الترابية التي كانت تقطع بعد رفع منسوب الماء. وتشيد السدود الضخمة للتحكم في المياه وتخزين الفائض منها في خزانات ضخمة لاستخدامها إذا لزم الأمر، أو لتجنب أخطار الفيضانات فلا تغرق البلاد والزراعة. انظر، سامي نوار: المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٢) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٦٣؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٦٩؛ Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane, p. 410.

(٣) عمر بنميرة: قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ص ٨٢.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٢٥.

(٥) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٦) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ١٢.

عليها ألواح خشبية لمرور الناس والدواب[(١)]، ثم استعيض عنها ببناء قنطرة محكمة في عهد يعقوب المنصور، كان عرضها يبلغ حينذاك عشرة أمتار[(٢)]. وفي العصر المريني شيد أبو يوسف يعقوب عام(٦٨٠هـ/١٢٨١م) قنطرة وادي النجات وقنطرة ماريج[(٣)]، وعلى إثر السيل الذي اجتاح مدينة فاس سنة(٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) قام أبو سعيد عثمان بإعادة بناء عدد من القناطر بهذه المدينة، كقنطرة أبي طوبة وقنطرة باب السلسلة وقنطرة الصباغين[(٤)]، وشيد أبو الحسن على قنطرة وادي ردات وقنطرة بني بسيل وقنطرة الوادي بفاس وقنطرة الرصيف[(٥)].

وفي عهد دولة الأشراف السعديين، شيدت العديد من القناطر والجسور والسدود، وجددت أخرى قديمة أيضًا، ولم يكن هذا قاصرًا على ملوك وأمراء هذه الدولة بل شاركهم في ذلك بعض زعماء الصوفية والميسورين من العامة، وقد بنيت معظم هذه القناطر والسدود على وادي سبو وفروعه، ووادي أم الربيع وفروعه[(٦)]. فقد شيد محمد المهدي الشيخ جسرين أحدهما على وادي سبو والآخر على وادي أم الربيع[(٧)]، وشيدت زوجته لالة مسعودة قنطرتين[(٨)]، إحداهما على وادي أم الربيع ناحية قصبة تادلة والأخرى على وادي أسيل شرقي مراكش[(٩)].

كما أسهم أحمد المنصور بنصيب كبير في بناء وتجديد العديد من القناطر والسدود، إذ يذكر المقري أن هذا السلطان جدد سنة(١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) قنطرة تانسيفت بعد أن هدم السيل نحو أربعة أقواس (عقود) منها، وأعاد بناء قنطرة وادي أم الربيع السفلى بعد أن هدمها السيل، كما شيد قنطرة بين المدن بفاس- المعروفة حاليًا بكهف الوقادين- ، كذلك أتم أو جدد قنطرة وادي سبو التي أسسها والده بفاس[(١٠)]، وبهذه المدينة أيضًا شيد المنصور سدين على وادي بوطوبة(بو خرارب) [(١١)]، بعد أن جرف السيل السد القديم، الذي جدده السلطان أبو

(١) محمد المنوني: حضارة الموحدين، ص ١٧٦.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٣٤٧ – ٣٤٨؛ كينيث براون: المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٣٩.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٤١٤؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٤١، ١١٤ – ١١٥.

(٥) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٣٧.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩٠.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ٤١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٠.

(٨) المقري: المصدر السابق، ص ٦٧. وقد ورد في الكتابات المنقوشة على شاهد قبر لالة مسعودة، أنها شيدت جسرين وليس قنطرتين كما ذكر المقري.

(9) Deverdun, G., Op. Cit., Note 37, p. 133.

(١٠) المقري: المصدر السابق، ص ص ٢٢ – ٢٣؛ إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٣٠٧.

(١١) المقري: المصدر السابق، ص ص ٢٣- ٢٤، ٢١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٩٢ – ١٩٣.

العباس أحمد الوطاسي، المصنوع من أخشاب وحشائش، بينما شيد هذان السدان من أحجار ضخمة صفت بشكل دقيق والصقت بملاط مكون من طين وجير، وقد تركت فيها ممرات للماء(قواديس)، وهما لايزالان بحالة جيدة، وقد ساعد هذا العمل على حصر المياه وضبط قوتها وفي نفس الوقت على توزيعها وتوجيهها حسب الطلب(١).

وقد شارك الدلائيون في بناء القناطر والجسور، حيث شيد محمد الحاج الدلائي ثلاثة جسور على وادي أم الربيع، نظرًا للأهمية الكبيرة التي كانت لهذا المعبر الذي يصل الشمال بالجنوب، والذي يلعب دورًا بارزًا في أحداث التاريخ القومي المغربي، كذلك شيد أحد صلحاء فاس وهو أحمد الشاوي قنطرة ابن طاطو خارج فاس(٢).

السقايات :

عرفت السقايات في المغرب الأقصى كمورد لشرب الإنسان والدواب، ولتوفير الماء الطاهر للوضوء في المساجد والمدارس والزوايا وكذلك مد الدور السكنية بما تحتاجه من الماء(٣)، فلقد كان تزويد المدن بماء الشرب في الفترات التي لم تكن تمتد فيها شبكات المياه من العمليات المهمة التي شاركت فيها السقايات بدور مهم، لذا فقد انتشرت بأعداد كبيرة سواء أكانت مستقلة أو ملحقة بالمنشآت الأخرى، سيما وأن الماء كان- ومازال- في تلك البلاد مشكلة قائمة بذاتها حتى إن العديد من المصادر المغربية المختلفة خصصت له- كما سبقت الإشارة- مكانة بارزة، ذلك لأن مناخها الجاف والمتقلب يجعل من وفرة الماء أو قلته قضية حياة أو موت(٤).

وتعد السقايات من المنشآت الخيرية المهمة التي حرص حكام الدول المختلفة المتعاقبة على عرش المغرب على تشييدها في مختلف الأماكن الآهلة بالسكان، فضلاً عن كون الحكام مطالبين شرعًا بتوفير مصادر الماء بحسب حاجة السكان ونمو العمران(٥)، وقد أفادت الروايات التاريخية إلى اهتمام كل من الموحدين والمرينيين من بعدهم اهتمامًا كبيرًا بإنشاء

---

(١) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٧٠. وقد ورد وصف دقيق لسد بوطوبية الذي شيده المنصور في وثيقة خاصة بشبكة توزيع المياه بفاس، كتبت بعد أكثر من خمسين عامًا من تشييده، حول هذا الوصف، انظر، عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص ص ١٤٥ – ١٤٦ ؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٣) محمد الكحلاوي: السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش، ص ٣١٧.

(٤) محمد مزين: وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس المدينة القديمة (عدوة الأندلس) في أواخر العصر المريني، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس – جامعة محمد بن عبد الله، العددان الثاني والثالث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٧٩ – ١٩٨٠م، ص ص ٣٨٩ – ٤٠٢.

(٥) عبد العزيز الدولاتلي: المرجع السابق، ص ١٣٦ ؛ محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٣٦٨.

السقايات، من ذلك أن مدينة فاس كانت تتوفر في عهد الموحدين على ثمانين سقاية[١]، وذكر ابن غازي أن مدينة مكناس كان بها على عهد الموحدين أربعمئة مسجد حول كل مسجد سقاية[٢]، وفي رباط الفتح شيد عبد المؤمن بن علي سقاية لشرب الناس والدواب[٣]، وبمدينة مراكش شيد أبو يوسف يعقوب عدة سقايات لسقى الناس والدواب[٤].

وفي العهد المريني ذكر الأنصاري أن مدينة سبتة كانت تتوفر على خمس وعشرين سقاية بعضها معد لسقى الإنسان وبعضها لسقى الدواب[٥]، ومن السقايات المرينية التي لاتزال قائمة حتى الآن، تلك التي شيدها السلطان أبو ثابت عامر سنة(٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) بصحن جامع الأندلس بفاس القديمة[٦]، والسقاية الملحقة بمدرسة أبي الحسن على التي شيدها بسلا سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م) [٧]، وسقاية سيدي فرج بفاس القديمة التي شيدها عبد الحق بن أبي سعيد آخر سلاطين بني مرين سنة (٨٤٠هـ/١٤٣٦م) [٨].

وفي عهد الأشراف السعديين تزايد عدد السقايات بالمدن المغربية لتلبية حاجة الزيادة السكانية واتساع العمران الذي شهدته البلاد آنذاك، فقد أشار مارمول أن فاس القديمة- على سبيل المثال- كانت تتوفر في النصف الثاني من القرن (١٠هـ/١٦م) على خمسين جامعًا كبيرًا في كل واحد منها سقاية، فضلاً عن انتشار العديد من السقايات بين أحياء كل من فاس القديمة وفاس الجديد[٩]، ويفيد صاحب السعادة الأبدية أن عدد السقايات التي كانت قائمة داخل أسوار مراكش حتى منتصف القرن (١٤هـ/٢٠م) بلغ تسعًا وثمانين سقاية[١٠].

وقد ألحق سلاطين الدولة السعدية بمجموعاتهم المعمارية الدينية سقايات لشرب

---

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٤٧ ؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) ابن غازي: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة (محمد بن أحمد بن إبراهيم الباجي، ت: ٥٩٤ هـ / ١١٩٨م): تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق د. عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، دار المغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٧م، ص ٣٥٨.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٣٢٧. وبذلك يكون المغاربة قد تساووا مع أهل المشرق وخاصةً في مصر التي يرجع إنشاء أقدم حوض دواب بها إلى العصر الأيوبي، وكان يوجد خلف الجامع الأقمر. انظر، محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ص ٤١٥ – ٤١٦.

(٥) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٤٣.

(٦) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٧) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٨) محمد الكحلاوي: السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش، ص ص ٣٣٠ – ٣٣٢؛ Bel, A., : Op. Cit., pp. 72- 85.

(٩) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٤٦، ١٥٩.

(١٠) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ١٣.

الناس والدواب، مازال بعضها قائمًا حتى الآن، كالسقاية الملحقة بزاوية الجزولي بمراكش، والسقاية المجاورة لجامع باب دكّالة، ومثيلتها المجاورة لجامع المواسين بمراكش أيضًا، والسقاية المعروفة باسم "اشرب وشوف" بمراكش[١]، التي ربما كانت ملحقة كسابقاتها بمنشأة دينية غير أنها اختفت ولم يعد قائمًا غير هذه السقاية. كما شارك بعض زعماء الصوفية والميسورين من العامة في بناء السقايات، إذ قام الدلائيون بإنشاء عدة سقايات من بينها سقاية ملحقة بجامع محمد الحاج الدلائي الذي شيده بفاس الجديد[٢]، كذلك شيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي (ت:١٠٣٦هـ/١٦٢٦م) سقاية قرب داره بمدينة فاس أيضًا[٣].

ثالثًا: المنشآت الحربية:

كان لموقع المغرب الأقصى الذي يشرف على بحرين عظيمين: البحر الأبيض في الشمال بامتداد ٤٧٥كم، والمحيط الأطلسي في الغرب بشاطئ طوله ١٦٦٠كم[٤]، وللدفاع عن المدن الساحلية العديدة التي شيدت بطول هذه الشواطئ وتوفير الأمن لسكانها من جهة، وقيام جل الدول التي تعاقبت على عرش هذه البلاد في غمار الحروب من جهة أخرى، أثرًا كبيرًا في الاهتمام ببناء القصاب[٥] والأسوار والأبراج والحصون[٦] وغيرها من المنشآت الحربية التي تساعد

---

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 161 - 162.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٨؛

arçais, G., : Op. Cit., pp. 410 - 413.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٤) حلمي محمد عشيش: المرجع السابق، ص ٩.

(٥) القِصَاب: جمع قصبة، والقصبة في بلاد المغرب والأندلس حصن منيع يقام عادةً في موقع مرتفع مثل قصبة مالقة وقصبة المرية بالأندلس، وقصبة رباط الفتح وقصبة مراكش بالمغرب الأقصى. وكانت القصبة تشمل عادةً قصر الحاكم والقلعة أو القلاع التي تحميه، ودور الوزراء والحاشية. وأحيانًا تنمو هذه المجموعة حتى تغدو قاعدةً ملوكيةً محصنةً. كما هو الحال في مدينة الزهراء التي أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، في أواسط القرن (٤ هـ/ ١٠م)، ومدينة الزاهرة التي أنشأها الحاجب المنصور بن أبي عامر، عقب إنشاء الزهراء سنة (٣٦٨ هـ / ٩٧٨م). انظر، محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ١٨٩؛ السيد عبد العزيز سالم: روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر، بحث نشر في مجلة المجلة، العدد التاسع والعشرون، مايو ١٩٥٩م، ح ١، ص ٢٧. ويلاحظ أن لكلمة قصبة معاني أخرى حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم في بعض المدن كالقاهرة، وأحيانًا أطلقت على قطاع مسقوف من هذا الشارع الأعظم كان له صفة تجارية بارزة كأن يقال: "قصبة رضوان"، وكانت تطلق أيضًا على المدن الكبيرة، والأم في الإقليم كأن يقال: "صنعاء قصبة بلاد اليمن". انظر، محمد عبد الستار: المرجع السابق، ح ٥١، ص ١٦٧.

(٦) الحصون: جمع حصن، هو كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في داخله لارتفاعه وحصانته، وقد عرفت الحصون بمصر في العصر العثماني بالطوابي مفردها طابية- ربما- لاستخدام مادة الطابية في بنائها. وقد يسمى الحصن قصرًا. انظر، سامي محمد نوار: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية، ص ٤٩.

على وقاية البلاد من الأخطار سواء الخارجية أو الداخلية.

فقد اهتم المرابطون ببناء الحصون لاتخاذها مراكز للحراسة والدفاع واستكثروا منها في مختلف أقاليم المغرب والأندلس، ففي المغرب الأقصى شيدوا حصن تاكرارت بمكناس، كما شيدوا سلسلة من الحصون حول المناطق الجبلية للإشراف على تنقلات ونشاط المصامدة، كحصن امركو على وادي ورغة وقصبة النصراني عند جبل زرهون[١]، وحصن تاسجيموت عند الأطلس الكبير[٢]، كما شيدوا بعض الحصون بالصحراء أيضًا، كالحصن الذي شيدوه قرب أودغشت التي تمكنوا من إخضاعها[٣]، فضلاً عن ذلك فقد سور المرابطون عددًا من المدن كمراكش وغيرها[٤].

وبينما كان الموحدون يبسطون نفوذهم على المغرب كانوا يهدمون التحصينات والأسوار المرابطية تحت شعار"إنما أسوارنا سيوفنا" [٥]، إلا أنهم سرعان ما غيروا هذه السياسة بعد أن استقرت دولتهم، فشرعوا في بناء القصبات والحصون والأسوار كما جددوا وأصلحوا بعض التحصينات والأسوار القديمة لعدد من المدن في المغرب والأندلس ، ومن أهمها في المغرب الأقصى تينملل وتازةومن أشهر القصبات التي شيدوها قصبة رباط الفتح- التي عرفت منذ العصر العلوي بقصبة الودايا- وقصبة مراكش[٦]، وقصبة الوادي بفاس المعروفة حاليًا بقصبة بوجلود[٧]، كما جددوا وشيدوا عددًا من الحصون في رباط الفتح وتازة وتينملل والقصر الصغير وحصن وادي ايكم[٨]، وفي بعض مدن الريف- بشمال المغرب- كالمزمة وبادس ومليلية[٩]، وجدد الموحدون أيضًا العديد من الأسوار، كأسوار فاس ومراكش ووجدة[١٠]، وسلا والرباط[١١].

وفي عهد المرينيين شيد العديد من القصاب والحصون والأسوار، وجددت أخرى بمختلف مدن المغربين الأقصى والأوسط، فمن القصاب التي شيدوها بالمغرب الأقصى قصبة مكناسة[١٢]،

---

(١) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٢٢٥.

(٢) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص ٣٦؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٥.

(٣) إبراهيم حركات: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٤) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٥) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، القسم الأول، ص ٥٠؛ محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٧٩.

(٦) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٧) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص٤٢، ١١٥.

(٨) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ص ٣٨ – ٤٤؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٨٠ – ٨١.

(٩) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٧.

(١٠) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٣٧؛ مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٣٧.

(١١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٨.

(١٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٢٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٣١؛ ابن غازي:=

وقصبة مدينة وجدة[١]، وقصبة تطوان[٢]، كما شيدوا حصن تاوريرت[٣]، ومن الأسوار التي شيدوها سور مدينة سلا[٤]، وسور بادس[٥]، وسور شالة[٦].

ونظرًا لانشغال الوطاسيين، وخاصةً في أواخر حكمهم بالمشاكل السياسية، وتوجيه جل الأموال إلى تسليح الجيش وما شابه ذلك، دون الاهتمام بالتشييد والعمران، شهد عهدهم اختفاء عدد كبير من المنشآت الحربية التي بنيت على يد سابقيهم المرابطين والموحدين والمرينيين، فبعد بضعة قرون من استعمالها كان من اللازم ترميمها أو تجديدها عند الاقتضاء، وحيث إن أية سلطة حكومية في أواخر القرن (٩ هـ / ١٥م)، وأوائل القرن التالي لم تكن قادرةً على هذا العمل لقلة وسائلها وضيق رقعة نفوذها، كان على الدولة السعدية لما دانت لها البلاد أن تجدد وتعيد بناء ما سقط من الأسوار، وتشيد القصبات والحصون والأبراج، وتطورها لتواكب الانقلاب الذي طرأ على الأساليب الحربية نتيجةً لظهور وتطور الأسلحة النارية[٧].

القصاب:

اهتم الأشراف السعديون ببناء العديد من القصاب والحصون بمختلف مدن المغرب الأقصى والسودان الغربي، بعد خضوعه للسلطة السعدية في عهد أحمد المنصور، لمراقبة التحركات الخارجية، وصد كل هجوم محتمل، فأكثروا من تشييدها على السواحل، وبداخل البلاد، وفي المراكز الصحراوية أيضًا؛ إذ أنشأ محمد المهدي الشيخ نحو ثلاثين قصبة[٨]، من أشهرها قصبة تامدرت على يسار الخاج من باب الفتوح بمدينة فاس[٩]، وقصبة مدينة تارودانت[١٠]، كما شيد عبد الله الغالب عدة قصاب، منها قصبة بترغة المطلة على المحيط الأطلسي قرب تطوان[١١]، وقصبة

= المصدر السابق، ص ٣٤.

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٦٠.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٣٢.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٦٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٧٦.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٣٠١.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السابع، ص ٢٢٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٤٣.

(6) Basset et Provençal: Op. Cit., p. 31; Marçais, G.,: Op. Cit., p. 283.

(٧) محمد مزين: مساهمة السعديين في عمران فاس، ص ٢٤٩؛ عبد العزيز بنعبد الله: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٨) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع، ص ٢١٨.

(٩) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٥؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(١٠) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٦.

(١١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.

ببادس[١]، وفي مدينة مراكش قام أحمد المنصور بإعادة بناء وتجديد القصبة الموحدية، وأضاف إليها مبان جديدة[٢]، وفي عهد زيدان بن المنصور شيدت قصبة على وادي أم الربيع لا زالت تعرف حتى الآن بالقصبة الزيدانية[٣]، كما قام الوليد بن زيدان بإنشاء قصبة سنة (١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤م) على المحيط الأطلسي بين آسفي وتيط[٤]، ولم يعد قائمًا من هذه القصبة الوليدية سوى أحد أبوابها وأجزاء من الجدران، وقد بنيت مكانها قصبة جديدة في العصر العلوي[٥].

وفي السودان الغربي كان أول ما اهتم به الجيش السعدي بعد الفراغ من العمليات العسكرية، بناء قصاب في مختلف المدن؛ لمراقبتها واستقرار الحاميات بها، وكانت هذه القصاب شبيهة بمثيلاتها الموجودة بالمناطق القريبة من الصحراء المغربية[٦]، ومن أشهرها قصبة مدينة تمبكتو التي شرع جؤذر باشا في تشييدها عندما دخل هذه المدينة في السادس من شعبان سنة (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م)[٧]، وقصبة مدينة كلن[٨]، التي شيدها الباشا محمود بن زرقون الذي تولى قيادة الجيش السعدي بعد عزل القائد جؤذر باشا كما سبقت الإشارة.

أما بالنسبة للتكوين المعماري للقصاب السعدية؛ فيمكن القول بصفة عامة أنها عبارة عن مساحة مسورة تبنى بالطين والحجر محاطة بأبراج، ونصبت داخلها خيام للحاميات، ويحيط بمدخلها الرئيس برج من كل جهة، وهو مدخل منكسر وفقًا للتقاليد الموحدية والمرينية[٩].

الحصون والأبراج:

شيد الأشراف السعديون سلسلةً من الحصون والأبراج أو "البساتين" — مفردها بستيون- كما يطلق عليها في العامية المغربية[١٠]، في مختلف المراكز العسكرية

---

(١) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٣٧.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٣٠٢ — ٣٠٣.

(٣) المقري: المصدر السابق، ص ٦٢، ح ٣٥ من الصفحة نفسها.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٨٢، ح١ من الصفحة نفسها؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٤.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ح ٢٨، ص ٣٠٤.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٨٦.

(٧) السعدي: المصدر السابق، ص ١٤٢؛ بوفيل: المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٨) السعدي: المصدر السابق، ص ص ١٥٣ — ١٥٤.

(٩) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢١٨.

(١٠) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٥٢؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٥٠؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٥٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٩٠؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

الاستراتيجية للدفاع عن البلاد، ولتدعيم سلطانهم وتوطيد أركان دولتهم، منها الحصن الذي شيده محمد المهدي الشيخ على مشارف أكادير[1]، كما أمر عبد الملك المعتصم بإنشاء عدة حصون بفاس الجديد سنة (٩٨٤ هـ / ١٥٧٦م) واستكملها أخوه أحمد المنصور وفقًا لرؤية المؤرخ المجهول[2]، وفي سنة (٩٩٤ هـ / ١٥٨٦م) استولى أحمد المنصور على مدينة تغازة، وأمر بتشييد حصن بها؛ لحماية معدن الملح الذي تشتمل عليه هذه المدينة[3]، كما شيد المنصور أيضًا حصنًا بمدينة تازة[4]، وآخرين بمدينة العرائش[5]، وشيد برجين بفاس الجديد، وعددًا منها بفاس القديمة[6]، بلغت نحو تسعة أبراج[7]، كما أمر المنصور قائده جؤذر بتشييد ثلاثة حصون على مناجم الذهب الثلاثة التي استولى عليها بالسودان الغربي[8].

وفي مدينة سلا شيد المجاهد العياشي برجين في الجنوب الغربي لهذه المدينة، لا يزالا قائمين حتى الآن، أحدهما أقيم حيث توجد مجزرة سلا حاليًا، والثاني بموازاة السور من جهة باب الحديد[9]، كما شيد الهورناتشيون – من مهاجري الأندلس- برجًا بالرباط عرف باسم برج سيدي مخلوف[10]، هذا إلى جانب التحصينات التي تركها البرتغاليون في المراكز التي رحلوا عنها كآسفي وأصيلا والجديدة (البريجة أو مازكان)، وقد بقيت سليمةً بعد مغادرة جيش الاحتلال، وجددها السعديون، ثم استعملت كما كانت لأغراض عسكرية مخافة تجدد غارات البرتغال[11].

الأسوار:

تعرضت كثير من أسوار المدن المغربية للتداعي والسقوط، سواء بفعل الحروب والصراعات الداخلية التي شهدتها البلاد أواخر الدولة المرينية وطيلة العهد الوطاسي، أو

---

(١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٤ – ٣٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٩٠.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٥٢، ٦٥.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٥٥؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥) الفشتالي: المصدر نفسه، ص ص ١٨٤ – ١٨٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٦) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٨٣ – ١٨٤؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٥٠؛ مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٦٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٥٩ – ١٦٠؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٩٠.

(٧) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(٨) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٩٤.

(٩) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ٧٥؛ كينيث براون: المرجع السابق، ص ٦٢؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ١٢٥، ٢١٩.

(١٠) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ١١٨.

(١١) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ص ٢١٩، ٣٠٤ – ٣٠٦.

بسبب الهجوم البرتغالي والإسباني الذي تعرضت له البلاد آنذاك، وحال ضعف الوطاسيين دون إصلاح الأجزاء التي سقطت من تلك الأسوار. وهكذا قام الأشراف السعديون بإعادة بناء وتجديد أسوار عدة مدن منها مدينة شيشاوة قرب مراكش، التي أحيطت بأسوار عالية في بداية العهد السعدي[١]، وقام محمد المهدي الشيخ بإصلاح أسوار مدينة تارودانت[٢]، كما قام عبد الله الغالب بإصلاح أسوار فاس عندما كان نائبًا عن أبيه بهذه المدينة[٣]، أما أحمد المنصور فقد قام بإعادة بناء وتجديد أسوارالعديد من المدن كفاس[٤]، وآسفي وأزمور وأصيلة[٥].

كما شاركت بعض القيادات الشعبية في بناء وتجديد أسوار بعض المدن؛ حيث شيد الموريسكيون أسوار مدينة سلا [٦]، كما أتموا القسم الجنوبي من سور الرباط الممتد من باب الحديد إلى نهر بورقراق[٧]، وقام الدلائيون ببناء أسوار بعض المدن[٨].

ونظرًا لحاجة الجيوش والقوات السعدية إلى الذخيرة والعتاد الحربي، اهتم سلاطين الدولة السعدية بإنشاء مصانع للأسلحة ببعض مدن المغرب، فبعد أن كان الحصول على الأسلحة – وبخاصة المدافع- يتم عن طريق التهريب على يد عناصر أوربية، أو عن طريق المغانم، بدأ صنع المدافع لأول مرة بالمغرب سنة (٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م) بعد اكتشاف معدن جديد للنحاس بجبل ديميرا بالأطلس الكبير، وكانت صناعة المدافع الأولى بمراكش كما كانت المدينة نفسها تشتمل على مصنع للبارود من أوائل الدولة السعدية، كما أن محمد المهدي الشيخ بعد استيلائه على فاس، أمر بصناعة المدافع بدار الصناعة بها سنة (٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م)، وأنشأ مصنعًا للبارود بالمدينة نفسها، كذلك كانت تارودانت تشتمل على دار لصناعة المدافع[٩].

وتشير رواية مارمول إلى أنه كانت لعبد الله الغالب بكل من فاس ومراكش وتارودانت: "دور للسلاح مليئة بالمدفعية، يصهر منها متى شاء بواسطة إنجليزيين وفرنسيين مهرة اعتنقوا الإسلام، يصنعون البارود والكور، ويديرونها بواسطة أسارى مسيحيين آخرين وبعض

---

(١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٦٢.

(٢) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ٣١؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٣) محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤) المقري: المصدر السابق، ص ٢٣.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٦) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٣٠٦.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ١١٨.

(٨) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٣٠٦.

(٩) إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص ٢٢٣.

الأتراك"[١]. كما اهتم أحمد المنصور بإنشاء مصانع الأسلحة وتطويرها، وقد وصفها الفشتالي وصفًا دقيقًا وسماها "دار العدة" [٢]، ويمكن أن ندرج ضمن مصانع الأسلحة، دور صناعة السفن التي حرص الأشراف السعديون على إنشائها، وبخاصة أحمد المنصور؛ لتكوين أسطول مغربي قوي[٣].

وهكذا يتضح من العرض السابق أن المغرب الأقصى شهد في عصر الأشراف السعديين نشاطًا معماريًا، وازدهارًا عمرانيًا ملموسًا؛ حيث ازدانت البلاد – على عهدهم – بشتى أنواع المنشآت ما بين دينية ومدنية وحربية، وأن هذا النشاط امتد من عهد محمد المهدي الشيخ حتى وفاة أحمد المنصور، ثم بدأ ينكمش بعد ذلك في فترة ضعف الدولة وانحلالها، مما يعكس أثر العوامل السياسية والاقتصادية على النمو العمراني وعناصره المعمارية.

وفي ضوء العرض السابق يمكن أن نكون قد أوضحنا حالة العمران والنشاط المعماري بالمغرب الأقصى في عهد الأشراف السعديين، في ضوء ما سمحت به المصادر التاريخية المتاحة، ولكن ميدان البحث ما زال مفتوحًا؛ لأن المصادر لم تنتهِ، والبقايا الأثرية لم تكشف بعد عن كل أسرارها، فما تزال هناك نوعيات من المنشآت كالأسواق والحوانيت التجارية وبعض أسوار المدن لم يحدد بعد ما شيد منها في العهد السعدي، وما شيد منها في عهود أخرى[٤].

---

(١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٩.

(٢) الفشتالي: المصدر السابق، ص ٢٤٦؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٦؛ عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤) حول هذا الموضوع، انظر، محمد مزين: المرجع السابق، ص ص ٢٤٧ – ٢٨٤.

الباب الثاني

الدراسة الوصفية للعمارة الدينية والجنائزية الباقية

ويشمل:

الفصل الأول: المساجد الجامعة وتخطيطاتها المعمارية.

الفصل الثاني: المدارس وتخطيطاتها المعمارية.

الفصل الثالث: الزوايا (الزاوية الجزولية)

الفصل الرابع: العمارة الجنائزية (قبور الأشراف السعديين)

الفصل الأول

المساجد الجامعة وتخطيطاتها المعمارية

كان للأشراف السعديين اهتمام زائد بالعمارة والعمران، وقد تجلى ذلك في أعمال التجديد والزيادات التي أجروها بالمساجد الجامعة المشيدة في فترات تاريخية سابقة على عهدهم، إضافةً إلى تشييدهم للعديد من المساجد الجامعة بمختلف مدن المغرب الأقصى، وبخاصة تارودانت ومراكش وذلك استجابةً للمصلحة العامة؛ حتى يتوفر لجمهور المصلين الظروف الملائمة للقيام بفريضتهم، بعد أن ضاقت عليهم المساجد القديمة، نظرًا للتزايد السكاني الكبير والازدهار العمراني الذي شهدته البلاد في عهد السعديين، كما سبقت الإشارة.

ولئن كانت المساجد الجامعة السعدية أقل زخرفةً من مثيلاتها المرينية، فإنها أكبر منها مساحةً، إذ تعد المساجد السعدية – كما سبقت الإشارة – أكبر مساجد المغرب الأقصى مساحةً بعد مساجد الموحدين التي تميزت بالقوة والضخامة شأن سائر المنشآت الموحدية، كما امتازت المساجد الجامعة السعدية بأنها مبنى ضمن مجموعة معمارية تضم مصلى جنائزي ومدرسة وخزانة للكتب، ومكتب لتعليم الصبيان وبيتًا للخطيب، وبيتًا للاعتكاف، وميضأةً، وحمامًا وسقايةً وأحواض للدواب.

ولا تزال بعض المساجد الجامعة السعدية قائمةً حتى الآن كآثار فنية أصيلة تشهد بالنضج والازدهار الذي بلغه الفن المعماري السعدي، وهي بحسب ترتيبها التاريخي: الجامع الكبير بتارودانت الذي أنشأه محمد المهدي الشيخ فيما بين (٩٢٣ – ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ – ١٥٤٤م)، وجامع الحرة أو جامع باب دكالة بمراكش الذي شيدته لالة مسعود بنت أحمد الوزكيتي، زوجة محمد المهدي الشيخ وأم ابنه أحمد المنصور، فيما بين (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م)، وجامع الأشراف أو المواسين بمراكش أيضًا الذي شيده عبد الله الغالب بالله سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م)، وأخيرًا جامع أبي العباس السبتي الذي شيده أبو فارس عبد العزيز بن أحمد المنصور سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) بمدينة مراكش أيضًا (خريطة ٦) وسنعرض فيما يلي بالدراسة الوصفية لكل مسجد من هذه المساجد.

الجامع الكبير بتارودانت

المنشئ

شيده السلطان محمد بن أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، الملقب بأمغار أو الشيخ وبالمهدي، كانت ولادته في عام (٨٩٣ هـ / ١٤٨٨م) وتولى حكم البلاد سنة (٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م) بعد أن خلع أخاه أحمد الأعرج(١)، ويعتبر المهدي هو المؤسس الفعلي لدولة الأشراف السعديين؛ حيث قام – كما سبقت الإشارة – بتنظيم جديد للبلاط السعدي، وسعى إلى اتخاذ الخطوات العملية للقضاء على السلطة الوطاسية وتثبيت قواعد الدولة الجديدة، وقد مات مقتولاً سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) على يد بعض الجنود الأتراك(٢).

ومن أهم منشآته المعمارية – فضلاً عن هذا الجامع موضع الدراسة- تجديد بناء مدينة تارودانت وتحصينها وإصلاح قصبتها وأسوارها(٣)، وبناؤه لميناء أكادير سنة (٩٤٧ هـ / ١٥٤٠م) (٤)، وبناؤه أيضًا لمدينة الصويرة القديمة(٥)، كما شيد نحو ثلاثين قصبةً بمختلف مدن المغرب(٦)، من أشهرها قصبة تامدرت على يسار الخارج من باب الفتوح بمدينة فاس(٧)، وقصبة مدينة تارودانت(٨)، كما شيد فندقًا أو مركزًا جمركيًا بمدينة مراكش سنة (٩٥٤ هـ / ١٥٤٧م) (٩)وشيد أيضًا جسرين أحدهما على وادي سبو والآخر على وادي أم الربيع(١٠).

الموقع وتاريخ الإنشاء:

يقع هذا المسجد في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة تارودانت بالقرب من باب الزركان أحد الأبواب القديمة لهذه المدينة (خريطة ٧)، يحده من الجهة الشرقية مقبرة قديمة دفن بها بعض كبار العلماء، كابن الوقاد التلمساني (ت ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢م) الذي يعد

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٢ – ٢٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ١٧ – ١٨.

(٢) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٢٧ – ٢٨؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٤٣ – ٤٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٤،

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٠ – ٣١؛ مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٦؛ الفشتالي: المصدر السابق، ص ص ١٨٢ – ١٨٣.

(٤) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٢ – ٣٦؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٤١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٢٠،

(٥) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٨٧.

(٦) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٢١٨.

(٧) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٥؛ محمد مزين: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٨) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٢٦.

(٩) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(١٠) الإفراني: المصدر السابق، ص ٤١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٠.

أول من دفن بها[١]، تعرف حاليًا بروضة المحراب لوقوعها خلف جدار القبلة، ويحده جنوبيًا شارع أحمد المنصور الذهبي، ويطل بواجهته الغربية على شارع "تاسوكت غزيفن" وهو اسم بربري بمعنى السكة الطويلة، ويحده من الجهة الشمالية شارع الجامع الكبير.

وعلى الرغم من كبر مساحة هذا الجامع الذي يعد أكبر المساجد السعدية القائمة، وواحدًا من أكبر مساجد المغرب الأقصى، فإن المصادر التاريخية سواء التي كتبت في عهد السعديين أو بعهدهم – والتي اعتمدت عليها الدراسة – لم تفدنا بأية معلومات عن هذا الجامع وتاريخ إنشائه، ولعل ذلك يرجع إلى أن التاريخ العمراني وكذلك السياسي والاقتصادي والاجتماعي لتارودانت وغيرها من البوادي المغربية، لم يحظ من عناية المؤرخين بمثل ما حظيت به مدن مغربية أخرى مثل فاس ومراكش والرباط التي كانت مركز الثقل السياسي للعديد من الدول التي تعاقبت على عرش المغرب[٢].

وإذا كان هذا الجامع قد حظي بعناية بعض الباحثين – وجلهم من أبناء مدينة تارودانت رغبةً منهم في إحياء تراث مدينتهم العريق – الذين اهتموا بتاريخه العلمي والفكري[٣]، فإن الدراسات – القليلة- التي تناولت المساجد السعدية من وجهة النظر الأثرية والمعمارية لم تشر مطلقًا إلى هذا الجامع[٤].

أما بالنسبة لتاريخ إنشاء هذا الجامع فقد تباينت فيه آراء الباحثين، ففي حين يرى بعضهم أن محمد المهدي الشيخ شيد هذا الجامع والمدرسة المجاورة له عندما جدد مدينة تارودانت بعد أن اتخذها مقرًا له أثناء خلافته بسوس نيابةً عن أبيه وأخيه[٥]، يرى بعضهم

---

(١) محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: الجامع الأعظم بتارودانت دراسة في الجانب التاريخي والعلمي، بحث لنيل الإجازة – غير منشور – شعبة الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، ١٩٩٧م، ص ١٥.

(٢) حول هذه الظاهرة، انظر: أحمد بزيد الكنساني: المرجع السابق، ص ص ح – خ؛ محمد الحمداوي: من الحلقات المفقودة في تاريخ المساجد المغربية، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، عدد خاص، وزارة عموم الأوقاف الرباط، المغرب، مطبعة فضالة- المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م، ص ٢١.

(٣) انظر على سبيل المثال: محمد المنوني: الخزائن العلمية بتارودانت وما إليها، ص ص ٥٨ – ٦٢؛ مصطفى المسلوتي: الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت، ص ص ٨٧ – ٩٧؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ص ١١ – ٥٠.

(4) Marçais, G., : Manuel d'Art Musulman, Tome II, pp. 695 - 698; L'Architecture Musulmane, pp. 385 - 386; Basset, H., et Terrasse, H., : Sanctuaires et Fortersses Al Mohades, Hespéris, Tom VII, Librairie Larose, Paris, 1927, pp. 306 - 345.

(٥) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٦؛ الجزء الثاني، ص ٤٠٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

الآخر أن هذا الجامع سابق على العهد السعدي وقام محمد المهدي بتجديده وتوسيعه[1]. وفي ظل هذا التضارب لا يسهل القطع بنسبة هذا الجامع إلى محمد المهدي، خاصة وإذا علمنا أن الجامع يخلو من أي نص تأسيسي يحدد تاريخ إنشائه، واختفاء جل العناصر الزخرفية الأصلية – نظرًا للتجديدات والإصلاحات العديدة التي تعرض لها الجامع – التي يمكن مقارنتها بمثيلاتها التي نفذت على الآثار السعدية المؤرخة، ولكن في ظل اتفاق العناصر التخطيطية والإنشائية لهذا الجامع مع مثيلاتها بالمساجد الجامعة السعدية القائمة، كجامع باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش، وعدم وجود أية إشارة عن هذا الجامع في المصادر التاريخية السابقة على السعديين من جهة، واتفاق المصادر التاريخية السعدية على قيام محمد المهدي بتجديد مدينة تارودانت وتشييد عدة منشآت بها من جهة أخرى، يمكن نسبة إنشاء هذا الجامع إلى محمد المهدي الشيخ، وذلك فيما بين سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) وهو التاريخ الذي اتخذ فيه محمد المهدي من تارودانت مقرًا له كنائب عن أبيه وأخيه بإقليم السوس، وسنة (٩٥٢ هـ / ١٥٤٤م) التي ترك فيها تارودانت واتخذ من مراكش عاصمة لدولته.

أعمال الإصلاح والتجديد بالجامع:

تعرض هذا الجامع لكثير من أعمال الترميم والتجديد بعد العهد السعدي مما أفقده الكثير من عناصره الزخرفية الأصلية، من أهمها تلك التي أجريت بأمر من السلطان العلوي الرشيد بن الشريف سنة (١٠٨٢ هـ / ١٦٧١م) على يد محمد بن الرسموكي[2]، وتركزت على تجديد بعض بلاطات رواق القبلة، وذلك وفقًا للكتابات المنقوشة بالخط الثلث على حشوتين مستطيلتين من الجص ثبتت كل منهما على إحدى الدعامات الحاملة لعقود رواق القبلة،

---

(١) محمد المختار السوسي: خلال جزولة، الجزء الرابع، تطوان – المغرب، د.ت، ص ١٤٨. عن محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١١؛ وانظر أيضًا: مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٨؛ زكي علي: أهم الآثار التاريخية بتاردوانت، بحث نشر في مجلة الصديق، جمعية أصدقاء الثقافة والفن بتاردوانت، العدد الثاني، أبريل، ١٩٧٧م، ص ١٦.

(٢) رسموكة هي إحدى القبائل الجبلية التي تسكن الأطلس الصغير أو بلاد جزولة كما كان يعرف قديمًا، وفي القرن (١١ هـ / ١٧م) اشتهر بعض رجال هذه القبيلة بالعلم والدين، منهم علي بن أحمد الرسموكي (ت: ١٠٤٩ هـ / ١٦٤٠م) الذي شيد مدرسة في قرية أفلاوكنس وقضى حياته فيها تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا، وبعد موته خلفه ابنه أحمد (ت: ١٠٧٣ هـ / ١٦٦٣م) في التدريس والإفتاء بهذه المدرسة، وشاركه في ذلك أخواه محمد ويحيى، وقد نالوا جميعًا تقدير الأمير أبي حسون السملالي ومن خلفه في إمارة إيليغ بعد نهاية العصر السعدي. انظر: محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٨٠، ٥٨٧ – ٥٨٨. فربما كان محمد بن علي بن أحمد الرسموكي هو نفسه الذي عهد إليه السلطان الرشيد العلوي بترميم الجامع الكبير بتارودانت.

وسيأتي ذكر هذه الكتابات عند وصف رواق القبلة، كما يذكر أن هذا السلطان أيضًا نقل إلى هذا الجامع مصاريع أبواب مدينة إيليغ التي هدمها سنة (١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م)[١]، كذلك تعرض هذا الجامع لإصلاحات في عهد السلطان يوسف العلوي شملت الرواق الغربي وبعض أجزاء من السقف الذي تداعى للسقوط آنذاك[٢]، ونظرًا لحالة الخراب التي وصل إليها الجامع قامت إدارة الأحباس في النصف الأول من القرن (١٤ هـ / ٢٠م) بتدعيم جدرانه وأسقفه بجذوع ودعائم من الخشب شوهت جمال عمارته[٣]، مما جعل السلطان محمد الخامس يأمر بتجديده وإصلاحه منذ سنة ١٩٤٥م حتى تم الانتهاء من هذه الأعمال سنة ١٩٥٥م[٤]، وكانت آخر هذه الإصلاحات التي تمت بهذا الجامع هي تلك التي أجرتها إدارة الأحباس سنة (١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م)، وشملت ترميم الجدران الداخلية والمئذنة والميضأة، غير أن هذا الترميم طمس جل النقوش الأثرية المنفذة على تلك الجدران، وكذلك طمس المقبرة الواقعة خلف جدار القبلة[٥]، التي سبق الإشارة إليها.

التخطيط المعماري للجامع (الشكلان ١، ٢):

يشغل هذا الجامع مساحةً من الأرض مربعة الشكل تقريبًا تبلغ نحو ٣٦٠٠ م٢، وتخطيطه عبارة عن صحن مكشوف في الوسط تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، كما تضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى بعضها داخل حدود عمارته كبيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز وخزانة الكتب ومكتب تعليم الصبيان، وبعضها خارج حدوده كالميضأة والمدرسة والحمام.

وقد شيدت جدران هذا الجامع بالطابية المكونة من التراب المخلوط بالجير، في حين شيدت الدعامات والعقود بالآجر[٦]، واستخدم الخشب في الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك وما به من أثاث ديني كالمنبر، كذلك استعمل الجص في كسوة الجدران كما غشيت بعض النوافذ بالجص المفرغ في تشكيلات هندسية، واستعمل الزليج في كسوة الواجهات الأربعة للمئذنة، في حين استخدم القرميد[٧] في تغطية الأسطح من الخارج.

---

(١) زكي علي: المرجع السابق، ص ١٦ ؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٨؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٢.

(٣) زكي علي: المرجع السابق، ص ١٧ ؛ مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٩؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٢.

(٤) زكي علي: المرجع السابق، ص ١٧ ؛ مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٩؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٣.

(٥) مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٩؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٤.

(٦) محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٥.

(٧) القرميد: نوع من الآجر أو الفخار الذي تغطى به الأسقف الجمالونية، وهو على هيئة أنصاف قنوات=

الوصف المعماري:

أولاً- الوصف الخارجي:

الواجهة الغربية للجامع (اللوحتان ١، ٢):

هي الواجهة الرئيسية لهذا الجامع، يبلغ طولها نحو ٦١م، وارتفاعها نحو ٦،٥م، ويلاحظ أنها لا تمتد في استقامة واحدة، حيث تبدأ من طرفها الجنوبي الغربي باستقامة قدرها ٢٦،٥م، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة فتبرز بمقدار ١٨،٤٠م، ثمَّ تستقيم ثانية لمسافة قدرها ٨م، (لوحة ١) تشتمل على فتحة باب تؤدي إلى حانوت يلي فتحة المدخل الذي يتوسط هذه الواجهة، ثمَّ ترتد هذه الواجهة بعد ذلك بمقدار ١،٥٠م تسير بعدها في استقامة قدرها ١٥،٣٠م، وهي تمثل الواجهة الغربية لميضأة الجامع (لوحة ١)، ثمَّ يلاحظ وجود شطف في هذه الواجهة بمقدار ٣م، ثمَّ ترتد الواجهة بعده لمسافة قدرها ٧،٧٥م، ثمَّ تستقيم مسافة قدرها ٦،٩٠م تشتمل على فتحة باب توصل إلى ميضأة حديثة خاصة بالنساء[1]، ثمَّ ترتد الواجهة بعد ذلك لمسافة قدرها ٧،٣٠م يشتمل طرفها الشمالي الغربي على فتحة باب توصل أيضًا إلى ميضأة النساء، ثمَّ تسير الواجهة بعد ذلك في استقامتها إلى نهايتها الشمالية الغربية لمسافة قدرها ١،٨٣م تشتمل على فتحة باب حديثة تؤدي إلى الرواق الشمالي للجامع الذي خصص حاليًا لصلاة النساء.

المدخل الرئيس (لوحة ١):

يتوسط الواجهة الغربية، ويبرز عن سمتها بمقدار ١،٥٠م، يبلغ اتساع حنيته ٣،٧٠م، ويصدرها فتحة باب اتساعها ١،٩٠م، وارتفاعها ٢،٩٠م متوجةً بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب محاط بآخر على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة، يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، زين كل منهما بسبعة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة المدخل حطات مائلة من القرميد، ويلاحظ أن واجهة المدخل الرئيس ترتفع بنحو ١،٥٠م عن مستوى الواجهة الغربية للجامع (لوحة ١)، وتفضي فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

مدخلا ميضأة النساء:

يتم الوصول إلى ميضأة النساء – كما سبقت الإشارة – عن طريق مدخلين، أحدهما يوجد بواجهتها الغربية، يبلغ اتساع فتحته ١م وارتفاعها ١،٩٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد. أما المدخل الثاني فيوجد بالطرف الشمالي الغربي للواجهة الشمالية لهذه الميضأة، وتبلغ اتساع فتحته ١م وارتفاعها ٢م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد.

= فخارية غالبًا ما تطلى بدهان أخضر مزجج. انظر، محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٥٢٦.

(١) يشير البعض إلى أن هذه الميضأة الصغيرة الخاصة بالنساء حاليًا كانت في الأصل سقاية، وكان يطلق على الحارة القريبة منها اسم درب السقاية. مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ج٨، ص ٨٩.

مدخل مصلى النساء:

سبقت الإشارة إلى أن الرواق الشمالي للجامع خصص حاليًا لصلاة النساء، لذا فقد تم استحداث فتحة باب بالطرف الشمالي للواجهة الغربية، يبلغ اتساعها ٠.٩٦م وارتفاعها ١.٨٠م، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى الرواق الشمالي للجامع.

الواجهة الشمالية :

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٥٩.٥٠م، وهي تمتد في استقامة واحدة، وتشتمل على مدخل بارز يقع على بعد ٣٤.٦٠ م من طرفها الغربي، ويتوج هذه الواجهة رفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد .

مدخل الواجهة الشمالية :

يلاحظ أنه يبرز عن سمت الواجهة الشمالية – كما سبقت الإشارة- بمقدار١.٩٠م، ويبلغ اتساع واجهته ٤.٧٠م، ويصدرها فتحة باب اتساعها ١.٨٦م، وارتفاعها ٣م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بسبعة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة هذا المدخل حطات مائلة من القرميد، ويتوصل من فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٦١م، وهي تطل – كما سبقت الإشارة- على المقبرة القديمة التي تعرف حاليًا بـ"روضة المحراب"، ويلاحظ أنها لا تمتد في استقامة واحدة، حيث دعمت بثماني دعامات ساندة، سمك كل منها ١م، أربع منها بقطاعها الشمالي، والأربع الأخرى بالقطاع الجنوبي، تحصر بينها الواجهة الشرقية لكل من بيت الخطيب وبيت المنبر ومصلى الجنائز، وهي وحدات شيدت كلها خلف جدار القبلة، وتبرز عن سمت هذا الجدار بمقدار ٣.٧٥م، ويتوج هذه الواجهة رفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد.

الواجهة الجنوبية (لوحة ٢):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٥٩م، ويلاحظ أنها تمتد في استقامة واحدة، وتشتمل على مدخل بارز يقع على محور مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفها، وعلى بعد ٢١.٩٠م من هذا المدخل في اتجاه الغرب توجد مئذنة الجامع التي تلاصق هذه الواجهة، ويبلغ عرض قاعدتها ٥.٥٠ م (لوحة ٢). يليها مباشرةً مدخل بارز آخر، ثمَّ تمتد الواجهة حتى نهايتها في الاتجاه الغربي لمسافة قدرها ٤.٣٥م، ويتوج هذه الواجهة رفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد (لوحة ٢).

مدخلا الواجهة الجنوبية:

سبقت الإشارة إلى أن الواجهة الجنوبية تشتمل على مدخلين أحدهما بقطاعها الشرقي والآخر بقطاعها الغربي، بالنسبة للمدخل الأول يلاحظ أنه يبرز عن سمت الواجهة – كما سبقت الإشارة- بمقدار ١.٦٦م، ويبلغ اتساع واجهته ٥م، ويصدرها فتحة باب اتساعها ١.٩٠م، وارتفاعها ٢.٧٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بسبعة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة هذا المدخل رفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد، ويتوصل من فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

أما مدخل القطاع الغربي للواجهة الجنوبية، فيلاحظ أنه يبرز عن سمت هذه الواجهة – كما سبقت الإشارة – بمقدار ١.٥٠م، وهو ملاصق للواجهة الغربية للمئذنة، ويبلغ اتساع واجهته ٣.٢٥م بصدرها فتحة باب اتساعها ١.٤٨م، وارتفاعها ٢.٣٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا، يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، ويتوج واجهة هذا المدخل رفرف مائل غطي بحطات من القرميد، ويتوصل من فتحة الباب- السابق وصفها- إلى دركاة.

ثانياً- الوصف الداخلي

الدركاوات:

وضح من الوصف الخارجي لواجهات الجامع أنه يشتمل على أربعة مداخل، أحدها وهو الرئيس يتوسط الواجهة الغربية، واثنان بالواجهة الجنوبية، أما المدخل الرابع فيوجد بالواجهة الشمالية، يؤدي كل مدخل منها إلى دركاة.

بالنسبة للدركاة التي تلي المدخل الرئيس الذي يوجد بالواجهة الغربية، فتشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢.٥٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١.٩٠م، وقد غطيت هذه الدركاة بقبو نصف برميلي، وهي تؤدي من خلال فتحة باب تشبه فتحة باب المدخل الرئيس – السابق وصفها- تمامًا إلى دهليز.

الدهليز:

يشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٤.٥٠م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٤.٧٠م، وقد فرشت أرضيته ببلاطات حديثة، أما سقفه فمغطى بجوائز خشبية يعلوها طبقة من الغاب، ويشتمل الجدار الجنوبي لهذا الدهليز على فتحتي بابين متشابهتين تمامًا، اتساع كل منهما ٠.٩٠م، وارتفاعها ١.٩٠م يغلق على كل منهما باب خشبي من مصراع واحد، توصل كل منهما إلى مساحة مستطيلة، الأولى تستخدم حاليًا كخزانة للكتب، والثانية مكتب لتعليم الصبيان، وبالجدار الشمال لهذا الدهليز أيضًا توجد فتحة باب يبلغ

اتساعها ١م وعمقها ٠.٥٣م وارتفاعها ٢.١٠م يتوصل منها إلى الميضأة، وبصدر الدهليز في مقابل الداخل توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ١.٩٠م، وارتفاعها ٣م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بستة صفوف من رءوس المسامير، ويتوصل من خلال هذا الباب إلى دركاة ثانية تشبه الدركاة التي تلي المدخل الرئيس السابق وصفها تمامًا، وتفضي هذه الدركاة إلى الرواق الغربي للجامع.

أما الدركاة التي تلي مدخل الواجهة الشمالية، فتشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٢.٣٠م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١.٨٠م، غطيت بقبو نصف برميلي، وتفضي هذه الدركاة إلى البلاطة الأولى لرواق القبلة (شكل١).

وأما الواجهة الجنوبية فهي تشتمل – كما سبقت الإشارة- على مدخلين يلي كل منهما دركاة، بالنسبة للدركاة التي تلي المدخل الذي بالطرف الشرقي لهذه الواجهة، فهي تشبه الدركاة المقابلة لها التي تلي مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفها تمامًا، وتؤدي إلى البلاطة الأولى لرواق القبلة (شكل ١). أما الدركاة التي تقع خلف المدخل الذي يقع بالقطاع الغربي للواجهة الجنوبية، فتشغل مساحةً مربعةً طول ضلعها ١.٨٠م، غطيت بقبو نصف برميلي، وتفضي إلى الرواق الجنوبي للجامع.

الصحن (شكل ١، لوحة٣):

يتوصل إلى الصحن من المداخل الأربعة التي سبقت الإشارة إليها بعد اجتياز دركاواتها والأروقة التي تؤدي إليها هذه الدركاوات، ويتوصل من هذه الأروقة إلى الصحن. وهو يشغل مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤٠.٧٠م، وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢٨.٤٠م، فرشت أجزاء من أرضيته بالآجر، وفرشت أجزاء أخرى بالدص[1]، وتنخفض أرضية الصحن عن أرضية الأروقة الأربعة بمقدار ٠.١٢م، وتتوسطه خصة أو فسقية مستديرة من الرخام الأبيض ذات بدن مفصص، يبلغ عمقها ٠.٣٠م، وترتكز على قاعدة أسطوانية من الرخام أيضًا يبلغ ارتفاعها ٠.٢٧م، ويحيط بها حوض مثمن الشكل يبلغ عمقه ٠.٢٣م وسمك جدرانه ٠.١٩م محاط بآخر مربع الشكل طول ضلعه ٢.٨٣م وعمقه ٠.٢٠م، فرشت أرضية كل منهما بالزليج المتعدد الألوان (لوحة ٣).

وتطل الأروقة الأربعة على الصحن بأربع واجهات، يلاحظ أن كل واجهة تشبه الواجهة

---

(١) تعني كلمة (دص) في الاصطلاح المغربي الأرض الصلبة العارية، وهي مادة تغطية تستخدم عادة لتكسية المسطحات الكبيرة وبخاصة الخارجية، وتتكون هذه الأرضية من طمي الأودية يخلط بالجير والرمل بنسبة ثلاثة أجزاء إلى جزء واحد، ويحتاج هذا الملاط إلى بضع ساعات قبل أن يتماسك ويصبح صالحًا للاستعمال، وحينئذ يفرش على الأرض ويدك لعدة ساعات. انظر، أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٤٧٨، ٤٩٦ – ٤٩٧.

المقابلة لها تمامًا، فالواجهتان الغربية والشرقية (لوحة ٤) تشرف كل منهما على الصحن بائكة مكونة من تسع دعامات مستطيلة من الآجر (١م × ١,٢٠م) في الوسط ودعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، يبلغ ارتفاع كل دعامة من مستوى أرضية الأروقة حتى مستوى مأخذي العقد ١,٧٨م، ويعلو هذه الدعامات عشرة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، اتساع فتحة كل عقد منها ٢,٩٨م، وارتفاعها ٤,٢٠م، وقد توجت كل واجهة منهما بصف من كوابيل جصية تحمل حطات مائلة من القرميد.

ويلاحظ أن العقد الخامس بكل من هاتين الواجهتين – الذي يقع على محور المحراب – قد سد جزؤه السفلي بالبناء بارتفاع ٢,٠٣ م من مستوى أرضية الصحن، وهذا البناء على هيئة حجاب توج بعقد على هيئة حدوة فرس، ويلاحظ أن حجاب الواجهة الغربية مصمت، أما حجاب الواجهة الشرقية فمقسم إلى ثلاثة أقسام أوسطها مصمت يبلغ اتساعه ١,٥٠م بصدره حنية مستطيلة اتساعها ٠,٦٠م وعمقها ٠,٠٥م، وارتفاعها ١,٦٧م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، وأما القسمان الجانبيان فبكل منهما فتحة باب اتساعها ٠,٧٠م وارتفاعها ١,٨٠م تفضيان إلى رواق القبلة (لوحة ٣). ويلاحظ أن أرضية الصحن تشتمل أسفل القسم الأوسط على دخلة ذات خمسة أضلاع اتساعها ١م وعمقها ٠,٥٠م وبنفس مستوى أرضية الصحن (لوحة ٣)، ويطلق على هذا الحجاب وفقًا للاصطلاح المغربي مصطلح "العنزة" [1] أو المحراب الصيفي؛ لأنه يحل محل المحراب في تحديد اتجاه القبلة عند استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف[2].

أما الواجهتان الجنوبية والشمالية (لوحة ٥)، فتشرف كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من ست دعائم مستطيلة من الآجر في الوسط تشبه مثيلاتها السابق وصفها بالواجهتين الغربية والشرقية، وعلى دعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، ويعلو هذه

---

(١) عنزة: بفتح النون، هي– في الأصل– الحربة الطويلة المزودة في طرفها بعلمين، والتي أهداها نجاشي الحبشة إلى الزبير ابن العوام (ﷺ) فأعطاها بدوره إلى الرسول (ﷺ). وقد غرسها بلال (ﷺ) في العام الثاني للهجرة (٦٢٤م) أمام الرسول (ﷺ) عند صلاته في عيد الفطر؛ لتحديد اتجاه القبلة. انظر، السيد عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، ص ١٨٠؛ محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٥٢٢. وتنطق في المغرب عنْزة بتسكين السين، وتطلق على الحجاب الخشبي الذي يسد فتحة العقد الأوسط لواجهة رواق القبلة المطلة على الصحن، والواقع على محور المحراب، ويطلق عليه في اصطلاح المغاربة أيضًا "المحراب الصيفي"؛ لأنه يحل محل المحراب في تحديد اتجاه القبلة عند استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف. انظر، عبد الهادي التازي: جامع القرويين، المجلد الأول، ح٢٢، ص ٨٥.

(٢) جرت العادة أن يكون هذا الحجاب من الخشب – كما هو الحال في المساجد المغربية السابقة على هذا الجامع السعدي موضوع الدراسة والمساجد السعدية الأخرى اللاحقة عليه – وليس من البناء كما في هذا الجامع.

الدعامات سبعة عقود على هيئة حدوة فرس مدببة بنفس اتساع وارتفاع فتحات عقود الواجهتين الغربية والشرقية السابق وصفها، ويلاحظ أن الجزء السفلي لفتحات عقود الواجهة الشمالية، باستثناء فتحة العقد الأخير من الطرف الشرقي، قد سدت حاليًا بالبناء بارتفاع ١.٧٠م من مستوى أرضية الصحن؛ وذلك لتوفير نوع من الخصوصية للنساء التي تصلي بالرواق الشمالي للجامع الذي أصبح قاصرًا عليهن كما سبقت الإشارة، ويعرف هذا الرواق بمقصورة النساء[١].

الأروقة الأربعة للجامع:

رواق القبلة:

يقع إلى الشرق من الصحن، وهو أكبر أروقة الجامع وأعمقها، ويشغل مساحةً مستطيلةً طولها من الشمال إلى الجنوب ٥٧.٣٠م، وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢١.٩٠م، ويطل على الصحن ببائكة مكونة من عشرة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٤). ويشتمل رواق القبلة على خمسة بلاطات موازية لجدار القبلة، اتساع كل منها ٣.٦٥م باستثناء البلاطة الأولى من جهة الصحن إذ يبلغ اتساعها ٣.٢٠م، بواسطة خمس بائكات، بكل بائكة ثلاث عشرة دعامةً مستطيلةً من الآجر (١.٠٢ × ١.١٤م) في الوسط ودعامتين مدمجتين في الجدارين الشمالي والجنوبي للجامع، ارتفاع كل دعامة من مستوى أرضية الرواق حتى مستوى مأخذي العقد ١.٨٣م، وقد غطى الجزء السفلي لهذه الدعامات كغيرها من دعامات الجامع والأجزاء السفلى لجدرانه بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٠م (لوحة ٦)، وتحمل هذه الدعامات أربعة عشر عقدًا على هيئة حدوة فرس مدبب، اتساع فتحة كل عقد منها ٢.٩٨م باستثناء العقدين الثالث عشر والرابع عشر من الطرف الشمالي؛ إذ يلاحظ أن اتساع فتحة كل منهما ٣.٤٨م. كما يلاحظ أن البلاطة التي تتقدم المحراب تشتمل فضلاً عن العقود الموازية لجدار القبلة – السابق وصفها- على عقدين على هيئة حدوة فرس عموديين على جدار القبلة يكونان مساحةً مربعةً تتقدم المحراب، كما تشتمل البلاطة الأولى لهذا الرواق من جهة الصحن فضلاً عن العقود الموازية السابق وصفها، على أربعة عقود على هيئة حدوة فرس عمودية على اتجاه جدار القبلة (لوحة ٧)، ويؤطر كوشتي كل عقد من عقود رواق القبلة حشوة متسعة من الجص زينت بزخارف هندسية متنوعة[٢] تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، ويزين الجزء العلوي لجدران رواق القبلة إزار من الخشب يجري أسفل السقف مباشرةً، زين بصف من عقود مفصصة متجاورة تحصر بداخلها كتابات مكررة بالخط

---

(١) مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ج٨، ص ٨٩.

(٢) تجدر الإشارة إلى تناول العناصر الزخرفية من نباتية وهندسية وكتابية التي تزين هذا الجامع وغيره من العمائر السعدية، بالتفصيل في الفصل الخاص بالعناصر الزخرفية.

الكوفي نصها لفظ الجلالة كتب طرداً وعكساً.

وقد غطيت بلاطات رواق القبلة بأسقف خشبية جمالونية الشكل زين باطنها بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر وبألوان متعددة (لوحة ٨)، وغطيت هذه الأسقف من الخارج بحطات من القرميد (شكل ٢). ويلاحظ أن المساحة المربعة التي تتقدم المحراب – السابق الإشارة إليها- غطيت بسقف مربع المسقط هرمي الشكل يعرف في اصطلاح المغاربة بـ "البرشلة" [١]، يرتفع قليلاً عن بقية أسقف الجامع وقد زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر وبألوان متعددة (لوحة ٩)، وغطى من الخارج بحطات من القرميد (شكل ٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الدعامتين المستطيلتين الحاملتين للعقد الخامس للبلاطة الأولى لرواق القبلة من جهة الصحن، تشتمل كل منهما على حشوة مستطيلة من الجص اتساع كل منهما ٠.٢٥م وارتفاعها ٠.٨٨م، نفذت عليهما كتابات بالخط الثلث تتصل ببعض حروفها عناصر نباتية بسيطة، وهذه الكتابات تؤرخ – كما سبقت الإشارة – لأعمال الترميم والتجديدات التي أجراها السلطان العلوي الرشيد بن الشريف سنة (١٠٨٢ هـ / ١٦٧١م) لهذا الجامع، ونصها على الدعامة التي على يمين الواقف في مواجهة المحراب: "شيد هذه[٢]/ القبة[٣] مع/ اللتين[٤] حوليها/ بعد خرابها/ أفضل ملوك/ الأرض كلها/ وأسماها/ الإمام/ الهمام/ السلطان النا/ صر الأجل الأ/ عظم أمير/ المؤمنين/ وخليفة رب العالمين[٥]"، ونصها على الدعامة التي على يسار الواقف في مواجهة المحراب: "مولانا/ أبو عبد الله/ محمد الرشيد/ بن المقدس/ مولانا أبي/ عبد الله/ محمد الشريف/ الحسني/ ذو الرأي/ السديد/ عام اثنين/ وثمانين وألف/ بمنه"، وعلى يمين هذه الحشوة المستطيلة توجد حشوة لوزية الشكل تستمر عليها الكتابات بما نصه: "على يد المعلم محمد بن الرسموكي".

المحراب (لوحة ١٠):

يلاحظ أن حنية المحراب في هذا الجامع لا تتوسط جدار القبلة تماماً، حيث يبلغ طول القطاع الذي إلى الجنوب منها ٣٠.٢٥م، بينما يبلغ طول القطاع الذي إلى الشمال منها ٢٥.٦٠م، ويبلغ الفارق بينهما نحو ٤.٦٠م، غير أنه لا يمكن القطع بأن هذا الفارق كان موجوداً عند

---

(١) أندريه باكار: المجلد السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٧.

(٢) تشير هذه العلامة (/) إلى نهاية السطر الكتابي على الحشوة.

(٣) يطلق المغاربة مصطلح القبة – أحياناً- على الأسقف الجمالونية، كما استخدموا مصطلح القبة أيضاً على المكان المخصص للصلاة بمدارسهم، بغض النظر عن أسلوب تغطيته. انظر، ابن زيدان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٢٣ ؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٩.

(٤) وردت في النص "التين".

(٥) وردت في النص "العلمين".

إنشاء الجامع أم أنه حدث نتيجةً لتوسعة الجامع في الجهة الجنوبية – سيما وإن الجامع قد تعرض كما سبقت الإشارة لعدة إصلاحات وتجديدات- وإن كان الوضع المعماري للجامع بصفة عامة لا يكشف عن أدنى اضطراب نشأ من إضافات لاحقة.

والمحراب عبارة عن حنية ذات خمسة أضلاع يلاحظ أن الضلعين الجانبيين أكثر طولاً من الأضلاع الثلاثة الأخرى نظرًا لعمق حنية المحراب البالغ ٢.٥٠م ويبلغ اتساعها ١.٤٥م وارتفاعها ٣.١٥م، ويكتنفها من الجانبين في الداخل أربعة أعمدة زخرفية من الجص اثنان في كل جانب، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة فرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة تحصر بداخلها زخارف نباتية وهندسية دقيقة (لوحة ١٠)، وزينت توشيحتاه[١] بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٢٨م تزينها كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وعلى الشريط الأفقي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على"، ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"، ويعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص تزينها ثلاث حشوات مستطيلة توج كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية دقيقة، بينما زينت الحشوات نفسها بزخارف هندسية متنوعة (اللوحتان ١٠، ١١)، ويؤطر هذه الزخارف ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٢م تزينها زخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويعلو الشريط الأفقي نافذتان مستطيلتان توجت كل منهما بعقد نصف مستدير زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، وقد غشيت كل نافذة منهما بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية (لوحة ١١)، يعلو ذلك السقف الخشبي الذي يغطي المساحة المربعة التي تتقدم المحراب وقد سبق وصفه (اللوحتان ٩، ١١).

أما بالنسبة لحنية المحراب من الداخل (لوحة ١٠)، فيلاحظ أن القطاع السفلي غطي بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٠م من مستوى أرضية رواق القبلة، يعلوه شريط من الجص اتساعه ٠.٢٦م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وتبدأ هذه الكتابات من على يمين الواقف بداخل حنية المحراب، بما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في

(١) يطلق على المساحتين مثلثتي الشكل المحصورتين بين العقد والشريط المستطيل المحيط بالعقد مصطلح "توشيحتا العقد" إذا كان هذا العقد يتوج فتحة باب أو حنية محراب أو دخلة أو نافذة، أما إذا كان هذا العقد ضمن سلسلة عقود كأن يكون في بائكة على سبيل المثال، فإنه يطلق على هذين الفراغين مصطلح "كوشتا العقد". وفي الغرب الإسلامي يطلق على هاتين المساحتين مصطلح "بنيقتا العقد". انظر: السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ص ٤٠٥ – ٤٠٦؛ محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٥٢٥.

الله[1]"، يعلو هذا الشريط مساحة مستطيلة من الجص يبلغ ارتفاعها ١.٣٣م تشتمل على سبع حشوات مستطيلة توجت بعقود على هيئة حدوة فرس ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص، وزينت كوشاتها بزخارف نباتية وهندسية دقيقة، بينما زينت هذه الحشوات بزخرفة هندسية متكررة على هيئة شبكة معينات[2] متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية نفذت على الجص، ويغطي حنية المحراب قبة خالية من الزخرفة.

ويوجد بجدار القبلة ثلاث فتحات أبواب اثنتان على يمين المصلى في المحراب، والثالثة تقع على يساره، بالنسبة للفتحتين اللتين على اليمين، تقع الأولى على بعد ١.٩٠م من المحراب، ويبلغ اتساع فتحتها ١.٢٠م وارتفاعها ٣.٢٠م توجت بعقد نصف مستدير زينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويؤطره ثلاثة أشرطة من الجص زين كل منها بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين يوصل إلى بيت المنبر، وعلى بعد ٥.٢٥م من هذا الباب — السابق وصفه- توجد فتحة الباب الثانية ويبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ٢م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى مصلى الجنائز. أما فتحة الباب الثالثة فهي- كما سبقت الإشارة- على يسار المصلى في المحراب، وتقع على بعد ٧.١٥م منه، ويبلغ اتساعها ١م وارتفاعها ٢.١٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس يؤطره ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٢٠م تزينها كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية"، ويؤطر هذه الأشرطة ثلاثة أشرطة أخرى من الجص أيضًا اتساع كل منها ٠.١٠م تزينها كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى بيت الخطيب. كما يشتمل الجزء العلوي لجدار القبلة على يمين المحراب على نافذتين مستطيلتين توجت كل منهما بعقد نصف مستدير، وغشيت بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية.

أما الجداران الجنوبي والشمالي لرواق القبلة؛ فهما متشابهان، حيث يشتمل كل منهما على فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، تقع كل منهما خلف الدركاة التي تلي كل من مدخل الواجهتين الجنوبية والشمالية للجامع (شكل ١).

الرواق الغربي:

يقع في مقابل رواق القبلة، وهو يشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى

---

(١) سورة الحج، آية ٧٧، وبداية الآية ٧٨.

(٢) تعرف شبكة المعينات في اصطلاح المغاربة باسم "الكتف والدرج"، والكتف هو الخط المنحني أما الدرج فهو الزاوية القائمة الصغيرة التي تليه، وينشأ عن تقاطع الخطوط المنحنية شكل يشبه طرف الرمح. انظر، أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨٤.

الجنوب ٥٧,٣٠م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٤,٠٥م، ويغطيه سقف خشبي جمالوني خال من الزخرفة، غطي من الخارج بحطات من القرميد، ويطل هذا الرواق على الصحن ببائكة مكونة من عشرة عقود من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس سبق وصفها عند وصف الصحن، ويشتمل هذا الرواق على أربعة عقود تشبه مثيلاتها المطلة على الصحن تمتد عموديةً على الجدار الغربي للجامع تشكل خمس مساحات مستطيلة غطيت كل منها بسقف جمالوني . ويشتمل الجدار الغربي لهذا الرواق على ست دخلات مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس مدبب أيضًا ذي حافة مفصصة، أربع منها تقع على يسار الداخل من الفتحة المعقودة التي تلي الدهليز، والتي سبق وصفها عند وصف هذا الدهليز، يبلغ عمق كل دخلة منها ٠,٣٣م واتساعها ٢,٣٥م، واثنتان على يمين الداخل من الفتحة المعقودة السابق ذكرها، يلاحظ أنها بنفس عمق الدخلات السابقة، بينما يبلغ اتساع كل منها ٢,٦٨م، وهي جميعها دخلات صماء باستثناء الدخلة الأولى التي على يسار الداخل من الفتحة المعقودة السابق ذكرها، حيث يوجد بصدرها فتحة باب يبلغ اتساعها ١,٠٢م وارتفاعها ١,٧٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى حجرة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٤,٢٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢,٦٠م، كان جدارها الغربي يشتمل على فتحة باب توصل إلى ميضأة الجامع غير أنها سدت حاليًا بالبناء وأصبحت هذه الحجرة تستخدم للتخزين.

الرواقان الجنوبي والشمالي (لوحة ١٢):

يلاحظ أنهما متشابهان إلى حد ما؛ إذ يشغل كل منهما مساحة مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب ٣٤,٨٠م، لكنهما مختلفان من حيث العرض ففي حين يبلغ عرض الرواق الجنوبي ٦,٨٠م نجد أن عرض الرواق الشمالي يبلغ ٧,٨٠م، وذلك لاتساع فتحات عقود بائكات هذا الرواق عن مثيلاتها بالرواق الجنوبي – كما سبقت الإشارة- ويطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من سبعة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٥)، ويشتمل كل منهما على سبع بلاطات موازية لجدار القبلة بواسطة ست بائكات بكل بائكة منها دعامتان مستطيلتان من الآجر، ودعامة مدمجة في الجدار الجنوبي بالنسبة لبائكات الرواق الجنوبي، ومدمجة في الجدار الشمالي فيما يخص بائكات الرواق الشمالي، وتحمل دعامات كل بائكة عقدين من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، ويغطي كل بلاطة سقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر وبألوان متعددة، وغطيت من الخارج بحطات من القرميد، ويلاحظ أن السقف الخارجي الذي يغطي هذين الرواقين الجنوبي والشمالي يشتمل على درجات سلم تمتد من الشرق إلى الغرب، وتنتهي عند البلاطة الأولى لرواق القبلة من جهة الصحن، وهي ظاهرة تفرد بها سطح

هذا الجامع — في حدود ما أعلم — عن غيره من المساجد المغربية.

بيت المنبر:

يقع على يمين المحراب، وهو يبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب تقع على يمين المصلي في المحراب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة، وهو يشغل مساحةً مستطيلةً طولها ٣م وعرضها ١.٥٠م، ويوجد بأرضيتها قضيبان من الحديد في وضع متوازٍ بنفس اتساع قاعدة المنبر، ويستمر القضيبان خارج بيت المنبر بأرضية البلاطة الأولى التي تتقدم المحراب، ويعلو هذا الجزء غطاء من الحصير والسجاد يتم رفعه عند إخراج المنبر لتلقى من عليه الخطبة، حيث تشتمل قاعدة المنبر — كما جرت العادة ببلاد المغرب — على مجموعة من العجلات مثبتة في قوائم قاعدته لتنزلق على القضيبين السابق وصفهما، وتجدر الإشارة إلى أن المنبر الأصلي لم يعد موجودًا بالجامع واستعيض عنه بآخر حديث.

بيت الخطيب:

يقع على يسار المحراب، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب تقع على يسار المصلي في المحراب سبق وصفها عند وصف الجدار الشرقي لرواق القبلة، وهو يشغل مساحةً مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤.٧٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٣م، فرشت أرضيتها ببلاطات حديثة، ويغطيها سقف أسمنتي مسطح حديث، ويشتمل الجدار الجنوبي لبيت الخطيب على فتحة باب اتساعها ١.١٦م وارتفاعها ١.٩٧م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى ممر ضيق يمتد خلف بروز حنية المحراب وبيت المنبر حتى يصل إلى مصلى الجنائز المجاور لبيت المنبر السابق وصفه، ويشتمل الجدار الشمالي لبيت الخطيب على فتحة باب تشبه السابق وصفها تمامًا توصل إلى المقبرة التي تقع خلف جدار القبلة.

مصلى الجنائز:

يقع على يمين المحراب وبيت المنبر، وهو يبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج، ويتوصل إليه من فتحة باب تقع على يمين فتحة الباب المؤدية إلى بيت المنبر، وقد سبق وصفها عند وصف الجدار الشرقي لرواق القبلة، ويشغل مصلى الجنائز مساحةً مستطيلةً فرشت أرضيتها ببلاطات حديثة، ويغطيها سقف أسمنتي مسطح حديث، ويشتمل جدارها الجنوبي على فتحة باب اتساعها ١.١٦م وارتفاعها ١.٩٧م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى المقبرة السابق ذكرها.

خزانة الكتب:

سبقت الإشارة إلى أن هذا الجامع كان يشتمل على مكتبة عامة، توالى تزويدها بالكتب منذ عهد مؤسسها محمد المهدي الشيخ حتى مطلع القرن العشرين، ثمَّ توزعت محتوياتها ما بين المكتبات الخاصة ومكتبة الإمام علي بتارودانت، كما يوجد بعض من كتبها بخزانة

الجامع الكبير بمكناس[١]. وتقع خزانة الكتب – كما سبقت الإشارة- على يمين الداخل من المدخل الرئيس للجامع الذي يتوسط واجهته الغربية، ويتوصل إليها من خلال فتحة باب سبق وصفها عند وصف الدهليز، وهي تشغل مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحو ٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢م.

مكتب تعليم الصبيان:

تجدر الإشارة إلى أن الكتاب القديم كان ملاصقاً للمئذنة[٢]، وليس في موقعه الحالي على يمين الداخل من المدخل الرئيس للجامع – كما سبقت الإشارة- ، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب سبق وصفها عند وصف الدهليز، وهو يشغل مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٩.٢٠م وعرضها ٢م.

المئذنة (**شكل ٢**):

تقع هذه المئذنة خارج ساحة الصلاة بالجامع؛ حيث شيدت بملاصقة واجهته الجنوبية بجوار المدخل الذي يقع بالقطاع الغربي منها (شكل ١) (لوحة ١٣). وهي تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري للمآذن المغربية ذات التخطيط المربع، حيث تتكون من طابقين مربعين يبلغ ارتفاعهما الكلي من مستوى الأرض ٢٧م، يلاحظ أن الطابق الأول أكبر حجمًا وأكثر ارتفاعًا من الثاني، حيث يبلغ طول ضلعه ٥.٥٠م وارتفاعه ٢٢م، أما الطابق الثاني فطول ضلعه ١.٨٠م وارتفاعه ٥م، ويغطيه قبة مخروطية الشكل يعلوها عمود من الحديد ثبت فيه ثلاث كرات نحاسية، ويلاصق الطرف الشمالي الشرقي لهذا الطابق صاري من الحديد ترفع من عليه راية بيضاء إيذانًا بموعد الأذان[٣].

ويتوصل إلى داخل هذه المئذنة من فتحة باب بالجدار الجنوبي للجامع(شكل ١)، يبلغ اتساعها ٠.٨٠م وارتفاعها ١.٦٧م وعمقها ٠.٢٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى سلم صاعد يدور حول بناء مركزي في الوسط، يبلغ اتساعه ١م وعدد درجاته ٨٨ درجة ارتفاع قائمة كل منها ٠.٢٠م واتساع نائمتها ٠.٥٠م وبعد ٨٠ درجة من درجات هذا السلم توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ١م وارتفاعها ١.٩٠م تؤدي إلى بيت المؤذن، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣.٥٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١م، وينتهي

---

(١) محمد المنوني: الخزائن العلمية بتارودانت، ص ص ٥٨ – ٥٩؛ مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ص٨٩ – ٩٠.

(٢) مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ج٨، ص ٨٩. لم يحدد هذا الباحث موقع الكتاب القديم هل كان ملاصقاً للمئذنة من داخل الجامع أم من الخارج، فربما كان يقع إلى الشرق من المئذنة خارج حدود ساحة الصلاة بالجامع.

(٣) عرفت المآذن المغربية هذه الظاهرة منذ العصر المريني وما زالت مستمرة حتى الآن.

هذا السلم بالمشى الذي يفصل الطابق الأول عن الطابق الثاني للمئذنة.

وقد زينت الواجهات الأربعة للطابق الأول بزخرفة هندسية متكررة على هيئة شبكة من معينات متجاورة متصلة بداخلها تربيعات من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وترتكز شبكة المعينات من أسفل في كل واجهة على ستة أعمدة رشيقة من الجص، ويلاحظ أن هذه الزخارف تبدأ من أعلى سطح الجامع بينما ترك الجزء السفلي للمئذنة خاليًا من الزخرفة (لوحة ١٣). ويدور بالجزء العلوي للواجهات الأربع لهذا الطابق تكسيه من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويتوج هذا الطابق صف من شرافات مدرجة، ويتخلل الواجهات الأربع للطابق الأول مجموعة من النوافذ المزغلية الشكل، وزعت في كل من الواجهتين الجنوبية والغربية في صفين رأسيين، الصف الأول يشتمل على نافذة واحدة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، أما الصف الثاني فيشتمل على نافذتين مزغليتين مستطيلتين، بينما وزعت النوافذ في كل من الواجهتين الشرقية والشمالية (اللوحتان ٥، ١٣) في ثلاثة صفوف يشتمل كل منها على نافذتين مزغليتين مستطيلتين، وذلك لإضاءة السلم الداخلي للمئذنة.

أما الطابق الثاني للمئذنة فيرتد إلى الداخل ليوفر الممشى الذي يعلو الطابق الأول – كما سبقت الإشارة- وتشتمل كل واجهة من واجهاته على فتحة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٠.٦٠م وعمقها ٠.٥٠م وارتفاعها ٢م، ويغطي هذا الطابق – كما سبقت الإشارة- قبة مخروطية الشكل ثبت فيها عمود من الحديد يشتمل على ثلاث كرات من النحاس (اللوحات ٥، ١٣).

المرافق الخارجية للجامع:

الميضأة:

تقع هذه الميضأة خارج مساحة الجامع خلف رواقه الغربي، ويتم الوصول إليها من خلال فتحة باب تقع على يسار الداخل من الدهليز الذي يلي المدخل الرئيس للجامع سبق وصفها عند وصف هذا الدهليز، وتشغل الميضأة مساحة مربعة الشكل تقريبًا تبلغ نحو ٢٤٠م^{2}، ويتوسطها فناء مربع الشكل تقريبًا يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٩.٩٠م، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٩.٢٠م، يتوسطه فسقية مستديرة من الرخام الوردي اللون يبلغ عمقها ٠.٥م، ويحيط بها حوض مثمن الشكل يبلغ عمقه ٠.٣١م وسمك جدرانه ٠.١٩م، محاط بحوض آخر مربع طول ضلعه ٢.٢٣م وعمقه ٠.٣١م وسمك جدرانه ٠.٢٤م، ويحيط بالفناء من الجهات الأربع رواق يبلغ اتساعه في الجهة الغربية ٣.٧٠م، وفي الجهة الشمالية ١.٧٠م، أما في الجهة الشرقية فيبلغ ١.٦٠م بينما يبلغ اتساعه في الجهة الجنوبية ٢.٦٠م، ويطل كل رواق منها على الفناء ببائكة مكونة من أربعة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب ترتكز على ثلاثة أعمدة

مستديرة في الوسط وكتفين بنائيين في الأركان، يبلغ ارتفاع كل عمود منها حتى مستوى مأخذي العقد حوالي ١.١٨م، وتشتمل هذه الميضأة على أحد عشر مرحاضًا تقع خلف الرواق الجنوبي، ستة منها على يسار الداخل من مدخل الميضأة والخمسة الأخرى على يمين هذا المدخل، يشغل كل مرحاض منها مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١.٤٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٠.٨٤م، لكل مرحاض فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٨٠م وارتفاعها ١.٨٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد. وقد كان بالطرف الجنوبي للجدار الشرقي للميضأة فتحة باب كانت تؤدي إلى الرواق الغربي للجامع، لكنها سدت حاليًا بالبناء كما سبقت الإشارة.

الحمام:

يقع الحمام[1] في مقابل الواجهة الجنوبية للجامع لا يفصلهما سوى شارع أحمد المنصور الذهبي، ويقع مدخله في مواجهة المدخل الذي يقع بالقطاع الغربي لهذه الواجهة، ولا يزال هذا الحمام مستمرًا في أداء وظيفته غير أنه أصبح حاليًا من الملكيات الخاصة، ولم يعد تابعًا للجامع.

المدرسة:

تقع هذه المدرسة إلى الغرب من الجامع على بعد أمتار قليلة من مدخله الرئيس الذي يتوسط هذه الواجهة، على يسار الداخل في الشارع الضيق المقابل لمدخل الجامع السابق ذكره، وقد ظلت هذه المدرسة قائمةً محتفظةً بوضعها القديم حتى سنة ١٩٥٧م، ثمَّ هدمت وبني مكانها ملحق للمعهد الجديد بتارودانت وذلك على يد جمعية علماء سوس، وفي سنة ١٩٧٢م، أطلق على هذا المبنى الجديد اسم "المدرسة الجشتمية" تيمنًا باسم الأسرة الجشتَمية العلمية الشهيرة بهذه المنطقة[2]، ولا زالت تحمل هذا الاسم حتى الآن.

---

(١) ذكر بعض الباحثين أن هذا الحمام من تحبيس عبد المالك بن السلطان إسماعيل العلوي، دون أن يشير إلى مستنده في ذلك. انظر، مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٨٩. في حين يمكن إرجاع تاريخ بناء هذا الحمام إلى تاريخ إنشاء الجامع، حيث جرت العادة أن يكون الحمام ضمن الوحدات المعمارية الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية، كما هو الحال في كل من جامع باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش.

(٢) مصطفى المسلوتي: المرجع السابق، ص ٩٠؛ محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش: المرجع السابق، ص ١٧.

جامع (الحُرّة) باب دكّالة بمراكش

المنشئ:

شيدته عودة أو مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورززاتي[١] أحد شيوخ قبائل وزكيته، إحدى القبائل الكبرى المعروفة بالمغرب منذ عصر الموحدين[٢]، وزوجة السلطان محمد المهدي الشيخ ووالدة السلطان أحمد المنصور الذهبي التي يذكر صاحب تاريخ السودان أنها كانت جارية[٣]، وإن كان نسبتها إلى ذلك الشيخ الورززاتي – وفقاً لرأي أحد الباحثين- ينفي هذا الأمر[٤]، ولعل ما يؤكد هذا الرأي هو وصفها بـ"الحرة" من قبل بعض المؤرخين[٥]، الذي يشير إلى أن هذه المرأة لم تكن جارية أو ملك يمين. وفي حين تشير الكتابات المنقوشة على شاهد قبرها أنها توفيت سحر ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من محرم فاتح عام ألف للهجرة، وهو ما أكده ابن القاضي[٦]، يذكر الإفراني أنها توفيت سحر ليلة الثلاثاء السادس والعشرين من صفر عام ألف للهجرة[٧].

وتفيد رواية الناصري أن العامة تزعم أن لالة مسعودة شيدت هذا الجامع – موضع الدراسة- كفارةً لما انتهكته من حرمة رمضان، وذلك: "أنها دخلت بستانًا من بساتين قصورها، وهي في حال الوحم فرأت به خوخًا ورمانًا فتناولتهما وأكلت منهما في رمضان، ثمَّ ندمت على ما صدر منها، وفعلت أفعالاً كثيرةً من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها إلى الآن، فيقولون: عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان" [٨]. ورغم طرافة هذه الرواية، فهي تشير إلى سبب بناء هذا الجامع.

وقد نسب إلى لالة مسعودة – فضلاً عن الجامع موضع الدراسة- بناء عدة منشآت أخرى، منها قنطرتان إحداهما على وادي أم الربيع ناحية قصبة تادلة والأخرى على وادي أسيل شرقي مراكش، كما شيدت العديد من محطات أو استراحات الطرق لإيواء المسافرين

---

(١) نسبةً إلى مدينة ورزازات جنوب شرق الأطلس الكبير، ولا تزال تحمل هذا الاسم حتى الآن، انظر:
Deverdun, G., : Op. Cit., Note 28, p. 132; Rousseau et des autres: Op. Cit., Note ll, p. 49.

(2) Deverdun, G., Op. Cit., Note 26, p. 132.

(٣) السعدي: المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(4) Deverdun, G., Op. Cit., p. 133.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٦٤؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٧.

(٦) ابن القاضي: درة الحجال، الجزء الثالث، ص ١٨٣.

(٧) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٨) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٨.

ودوابهم[١].

الموقع وتاريخ الإنشاء:

يقع هذا الجامع بحومة أو حي باب دكّالة بالطرف الشمالي الغربي لمدينة مراكش (الخريطتان ٦، ٨/ أ)، وقد حمل هذا الحي اسم باب دكّالة – أحد الأبواب القديمة لمدينة مراكش- القريب من هذا الحي، كما انسحب اسم هذا الباب أيضًا على الجامع الذي لم يكن يحمل اسمًا معينًا عند إنشائه[٢]، كذلك عرف بجامع الحرة[٣]، نظرًا لتحلية عدد من المؤرخين لالة مسعودة مشيدة هذا الجامع بهذا اللقب كما سبقت الإشارة.

ويحد الجامع من الناحية الغربية شارع باب دكّالة، ويطل بجزء من واجهته الشمالية على شارع ضيق يفصل هذا الجامع عن الميضأة التابعة له، ويعرف بطريق العبدلاوية بينما حجب الجزء المتبقي من هذه الواجهة وهو طرفها الشرقي لإنشاء مدرسة حديثة تعرف بالمدرسة العبدلاوية إلى جوار الجامع، ويلاصق معظم أجزاء الواجهة الشرقية مبان حديثة، أما الواجهة الجنوبية فتطل على شارع فاطمة الزهراء (خريطة ٨/ب).

اختلفت المصادر التاريخية فيما بينها على تاريخ إنشاء هذا الجامع، إذ نجد أن كلاً من الإفراني والناصري – رغم اعتمادهما في الحديث عن هذا الجامع على مصدر واحد هو المنتقى المقصور لابن القاضي (ت: ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م) – أشارا إلى تاريخين مختلفين لإنشائه، فيذكر الإفراني أنه شيد عام (٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م) [٤]، في حين يذكر الناصري أنه شيد (٩٩٥ هـ/ ١٥٨٦م) [٥]، فضلاً عن ذلك فإن وثيقة الوقف التي تتضمن العيون التي حبستها لالة مسعودة على هذا الجامع – والتي نشر المقري نصها كاملاً في روضة الآس- تحمل تاريخ عام (٩٩٥ هـ/ ١٥٨٦م)[٦].

وفي ضوء ما سبق يمكن أن نرجح رواية الإفراني، وبالتالي نعتبر عام (٩٦٥ هـ/١٥٥٧م) هو تاريخ إنشاء هذا الجامع، وهو ما اتفقت عليه آراء الباحثين المحدثين[٧]، وأما رواية الناصري – المتأخر كثيرًا عن الإفراني- فالمرجح أنها تحريف رقمي للأولى، أو أنه يمكن اعتبار تاريخ (٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م) هو تاريخ بدء العمل في بناء الجامع، وأن تاريخ (٩٩٥ هـ/ ١٥٨٦م) هو تاريخ

---

(١) ابن القاضي: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٨٢؛ المقري: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) المقري: المصدر نفسه، ص ص ٦٣، ٦٥؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٣) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩٥.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٧٩.

(٥) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١١٧؛ محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٩.

(٦) المقري: المصدر السابق، ص ص ٦٣ – ٦٧.

(٧) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٠؛ ولنفس المؤلف: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٤؛ Marçais, G., : Op. Cit., p. 385.

الفراغ من إنشائه، وكذلك هو تاريخ تسجيل الأملاك التي وقفتها لالة مسعودة للصرف على هذا الجامع.

أوقاف الجامع:

خصص السعديون للمساجد الجامعة التي شيدوها عدة أوقاف للصرف على الأنشطة الدينية والتعليمية المنعقدة بها وللحفاظ على عمارتها[١]، لكن مما يؤسف له أنه لم يصلنا شيء – على حد علمي – من الوثائق الخطية التي سجلت فيها هذه الأوقاف، كما لم تحتفظ هذه المساجد بلوحات رخامية نقشت عليها لائحة الأوقاف، كما جرت العادة في العصر المريني[٢]، وعلى الرغم من ذلك فإنه يرجع الفضل إلى المقري (ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢م) في تزويدنا بنموذج من هذه الوثائق، حيث قام بنشر النص الكامل لوثيقة وقف جامع باب دكّالة في كتابه "روضة الآس" كما سبقت الإشارة.

وتبدأ الوثيقة بالبسملة والتصلية على سيدنا محمد، ثمَّ تشير إلى فضل الأسرة السعدية وتنوه إلى نسبها الحسني الشريف واجتماع القلوب على محبتها وارتفاع مكانة دولتهم بين الأمم، ثمَّ تشيد بأحمد المنصور أعظم سلاطين هذه الدولة ومثبت قواعدها، وتذكر كنيته ولقبه، ويتبع ذلك الدعاء له ، ثمَّ تذكر الوثيقة بعد ذلك أن علو شأن هذا السلطان ومفاخر أسلافه حركت عزم والدته ونشاطها على فعل الخير والاستكثار من عمل البر،

---

(١) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٣١٠.

(٢) من الظواهر التي عرفها المغرب الأقصى في عهد بني مرين أن سلاطينهم حرصوا على نقش لائحة الوقف الخاصة بمساجدهم ومدارسهم على لوحات رخامية، وتثبيتها داخل هذه المنشآت كنوع من الإعلام بهذه الأوقاف، ليقف عليها الجميع، وبالتالي يضمنون عدم السطو عليها. انظر، عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٦١؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ح١، ص ١١٧، ص ١٧٩ وما بعدها. وهذا الأسلوب في الحفاظ على الحبوس يختلف عن النظام السائد في تسجيل الأوقاف في الشرق الإسلامي، إذ اعتاد أصحاب الأوقاف أن يسجلوا أوقافهم في وثيقة خطية تتضمن الأوقاف وحدودها الشرعية، ويعد هذا التسجيل حجةً شرعيةً موثقة بتوقيعات الشهود والقضاة يحفظها صاحبها في داره أو في موضع أمين. محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٨٢. والى جانب ذلك عرف الشرق الإسلامي ظاهرة تسجيل لائحة الوقف على لوحات رخامية أو على واجهات العمائر من ذلك الوقفية بالمدرسة النورية بدمشق (٥٦٧ هـ / ١١٧٢م). حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م، الجزء الثالث، ص ١٠٥٤. والوقفية المنقوشة على عتبة باب المدرسة الأكزية بدمشق (٥٨٦ هـ / ١١٨١م). النعيمي (عبد القادر بن محمد الدمشقي، ت: ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م، الجزء الأول، ص ١٦٦. كما نقش نص الوقف أحيانًا على جدران المنشآت، كما فعل السلطان المملوكي الأشرف برسباي بمدرسته الأشرفية (٨٢٦ – ٨٢٩ هـ / ١٤٢٢ – ١٤٢٥م) في الإيوان القبلي، وبواجهة منشآته بصحراء القاهرة (٨٣٥ هـ / ١٤٧١م). محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ١٠٥.

وتنتقل إلى ذكر اسمها وصفاتها والدعاء لها[١]، ثمَّ تعدد بعد ذلك الأملاك التي أوقفتها على هذا الجامع تقربًا إلى الله ورجاء ثوابه، وهي: "جميع السبعين حانوتًا غير نصف حانوت الواجبة لها في نصفها من القيسارية المشتركة بينها وبين مساكين المارستان المخترعة لها وسط سوق الحضرة[٢] المراكشية دون البقعة المتصلة بقلعتها، وجميع بيت الأرحاء الجديدة المخترعة لها على وادي تسلطانت القريب من أرحاء أولاد الأمين محمد بن قاسم القسطلي وأولاد التاجر عبد الله التنجاري، المشتمل على أربع مدارات، مع جميع داره المبنية له وجميع العين الكبرى التي تملكتها من ورثة أحمد بن ريوح الكائنة بالمخالص خارج باب تَاغزُوت[٣] مع جميع أرضها وجنانها ومائها ما عدا الحظ الواجب لأولاد الولي الصالح السيد أبي عمر القسطالي[٤]".

وتختم الوثيقة بإشهاد الواقفة على نفسها بأنها وقفت جميع ما ورد بالوثيقة للصرف على: "مصالح الجامع المذكور من مرتب أئمته وفقهائه وقرائه ومؤذنيه القيمين بسائر وظائفه وإجراء مائه، وإكمال بنائه[٥]"، ثمَّ يرد بعد ذلك تاريخ تحرير الوثيقة وهو منتصف شهر المحرم سنة (٩٩٥ هـ)، يتبع ذلك إشهاد حفيدها الواثق بالله أبي فارس بن أحمد المنصور، وإشهاد أبي الحسن أحمد بن أبي الحسن بن أحمد الأعرج بن القائم بأمر الله، و(استقلال) أبي القاسم بن علي الشاطبي وإمضاء المأمون الابن الأكبر لأحمد المنصور وولي عهده، وأخيرًا إمضاء ولدها السلطان أحمد المنصور وعلامته[٦].

---

(١) المقري: المصدر السابق، ص ص ٦٣ — ٦٥.

(٢) يقصد بالحضرة في اصطلاح المغاربة بالعاصمة أو كرسي الخلافة. المقري: نفح الطيب، الجزء السادس، ص ٢١٣.

(٣) ما يزال اسم باب تَاغزُوت يطلق على حي من أحياء مدينة مراكش، ولم يعد من أبوابها بعد أن أضيف إلى المدينة الحي الذي به ضريح أبي العباس السبتي والمسمى بالزاوية العباسية، والذي شيد أبو فارس بن أحمد المنصور جامعًا إلى جواره سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، وقد اتفق المؤرخون على أن هذا الباب سمي بهذا الاسم لأنه كان باب الخروج إلى الغزو، كما تجدر الإشارة إلى أن تَاغزُوت كلمة بربرية تعني حوض والمنخفض من الأرض، وأصلها من الفعل إغز بمعنى حفر، ويطلق اسم تَاغزُوت على العديد من الأماكن في بلاد المصامدة، وقد يرد في صيغة الجمع: تيغزا. انظر: التادلي: المصدر السابق، ح ٧٦٦، ص ٢٩٥؛ الصومعي: المصدر السابق، ح ١٠٨، ص ١٢٤؛ محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ١١.

(٤) المقري: روضة الآس، ص ٦٥. وفقًا لما ذكره ديفردان فإن هذه المنشآت والبقاع المذكورة في الوثيقة اختفت ولم يعد لها وجود الآن. Deverdun, G., : Op. Cit., p. 134.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٦) المقري: المصدر نفسه، ص ص ٦٦ — ٦٧.

أعمال الإصلاح والتجديد بالجامع:

تعرض هذا الجامع منذ إنشائه لعدة إصلاحات من أهمها تلك التي أجريت على يد الملك الحسن الثاني عام ١٩٧٠م، وذلك وفقًا للكتابات المنقوشة على اللوحة الرخامية المثبتة على واجهة المدخل الرئيس للجامع الذي يتوسط واجهته الغربية.

التخطيط المعماري للجامع (شكل ٣):

يشغل هذا الجامع مساحةً من الأرض مستطيلة الشكل تبلغ نحو ٢٦٦٥م٢، وتخطيطه عبارة عن صحن مكشوف في الوسط تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، كما تضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى بعضها داخل حدود عمارته، كبيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز وبيت الاعتكاف وخزانة الكتب، وبعضها خارج حدود الجامع في المناطق المجاورة له كالمدرسة الملاصقة للواجهة الغربية للجامع، والميضأة والسقاية المقابلتين لواجهته الشمالية، والحمام الذي يقع إلى الشرق من الميضأة.

وقد استخدم الآجر في بناء الجامع وملحقاته، بينما استخدم الخشب في الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك والرفارف، واستخدم الجص في كسوة الجدران وبواطن القباب، كما أن بعض النوافذ غشيت بستائر من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، واستعمل الرخام في كسوة أرضية الصحن وفي عمل بعض الأعمدة، واستخدم الزليج في تكسية الأجزاء السفلى لبعض الدعامات وفي كسوة واجهة المحراب وحنيته الداخلية، في حين استخدم القرميد المزجج باللون الأخضر في تغطية الأسطح.

الوصف المعماري:

أولاً- الوصف الخارجي:

الواجهة الغربية للجامع (لوحة ١٤):

هي الواجهة الرئيسية لهذا الجامع، يبلغ طولها نحو ٤١م، ويلاحظ أنها تمتد باستقامة واحدة، حيث تبدأ من طرفها الجنوبي باستقامة قدرها ١٦,٨٥م تمثل الواجهة الغربية للمدرسة الملحقة بالجامع، وهي متوجة بصف من شرافات مدرجة، ويلاحظ أنها أقل ارتفاعًا من واجهة الجامع (لوحة ١٤)، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة بعد ذلك بارتداد مقداره ٦م يمثل الواجهة الشمالية للمدرسة، ثمَّ تسير هذه الواجهة بعد ذلك في استقامة قدرها ٢٣,٧٥م حتى نهايتها في الاتجاه الشمالي، ويوجد بهذا الجزء من الواجهة المدخل الرئيس يليه ثلاث دخلات معقودة يبلغ اتساع كل منها ٣,٥٠م وارتفاعها نحو ٦م توجت كل فتحة منها بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة، ويبلغ عمق كل دخلة منها ١,٤٠م، وقد سد الجزء السفلي لكل منها حاليًا بالبناء بارتفاع ١,٣٥م، ولعل هذه الدخلات كانت تستخدم كحوانيت تجارية، ويتوج الجزء العلوي لهذه الواجهة حطات مائلة

من القرميد المزجج باللون الأخضر.

المدخل الرئيس :

يتوسط الواجهة الغربية، ويبرز عن سمتها بمقدار ١.٥٠م، يبلغ اتساع واجهته ٥.٦٥م، ويصدرها فتحة اتساعها ٢.٤٥م وارتفاعها ٤.١٥م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بتسعة صفوف من رءوس المسامير، ولكل مصراع مطرقة من البرنز، ويتوج واجهة المدخل رفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، يرتكز على صف من كوابيل خشبية وحرمدانين من الخشب أيضًا زين سطحاهما بزخارف نباتية أما باطنهما فمزين بمقرنصات ذات دلايات، وتوصل فتحة الباب إلى دركاة.

الواجهة الشمالية :

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٦٥ م،وهي تمتد في استقامة واحدة وبها مدخل بارز يقع على بعد ٣٨م من طرفها الغربي، وهو يبرز عن سمتها بمقدار ١.٥٥م، وعلى بعد ٨م من طرفها الغربي أيضًا توجد فتحة باب، تقع في مواجهة مدخل ميضأة الجامع المقابلة لهذه الواجهة، يبلغ اتساعها ١.٤٢م وارتفاعها ٢.١٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى الرواق الشمالي للجامع، ويعرف هذا المدخل حاليًا بباب النساء لاقتصار الدخول منه عليهن بعد أن خصص الرواق الشمالي لصلاة النساء، وقد أحيط هذا المدخل حديثًا من الجهات الغربية والشمالية والشرقية بسور يبلغ ارتفاعه ٣.٥٠م، يتوسطه في الجهة الشمالية فتحة باب يبلغ اتساعها ١.٠٧م وارتفاعها ٢م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وعلى بعد ٢٩.٥٠م من باب النساء السابق وصفه يوجد المدخل الثاني الذي تشتمل عليه هذه الواجهة، ثمَّ يختفي الجزء المتبقي من هذه الواجهة خلف المدرسة العبدلاوية الحديثة التي شيدت إلى جوار الجامع كما سبقت الإشارة.

مدخل الواجهة الشمالية:

يبرز عن سمت هذه الواجهة – كما سبقت الإشارة- بمقدار ١.٥٥م، ويبلغ اتساع واجهته ٤.٩٥م، ويصدرها فتحة باب اتساعها ٢.٦٤م وارتفاعها ٤م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بتسعة صفوف من رءوس المسامير، ويوصل هذا الباب إلى دركاة، ويتوج واجهة هذا المدخل وكذلك الجزء العلوي للواجهة الشمالية للجامع حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر.

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٤١م، وقد حجب الجزء الأكبر منها بالمساكن الحديثة التي شيدت إلى جوارها كما سبقت الإشارة.

الواجهة الجنوبية (لوحة ١٥):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٦٥م، وهي لا تمتد باستقامة واحدة، حيث تبدأ من طرفها الشرقي باستقامة قدرها ٨م تمثل الواجهة الجنوبية لبيت الاعتكاف الملحق بالجامع، ثمَّ تنكسر الواجهة بعد ذلك بارتداد مقداره ٣م، ثمَّ تمتد بعد ذلك في استقامتها حتى نهايتها في الاتجاه الجنوبي الغربي، وتشتمل هذه الواجهة على مدخل بارز يقع على بعد ٣٦،٥٠م من طرفها الجنوبي الغربي، ثمَّ نجد بعد ذلك الواجهة الجنوبية للمدرسة الملحقة بالجامع، ويبلغ طولها ٧،٥٠م ويلاحظ أنها ترتد عن الواجهة الجنوبية للجامع بمقدار ٠،٢٠م.

مدخل الواجهة الجنوبية (لوحة ١٥):

يبرز عن سمت هذه الواجهة بمقدار ١،٧٢م، ويبلغ اتساع واجهته ٥،٧٥م، وبصدرها فتحة باب يبلغ اتساعها ٢،٥٠م وارتفاعها ٣،١٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بتسعة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة المدخل وكذلك الجزء العلوي للواجهة الجنوبية حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، وتؤدي فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

ثانيًا: الوصف الداخلي:

الدركاوات:

وضح من الوصف الخارجي لواجهات الجامع أنه يشتمل على ثلاثة مداخل، أحدها وهو الرئيس يوجد بالواجهة الغربية، والآخر بالواجهة الشمالية، أما الثالث فيوجد بالواجهة الجنوبية، ويلي كل منهم – كما سبقت الإشارة- دركاة. بالنسبة للدركاة التي تلي المدخل الرئيس، فمستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٢،٩٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١،٣٠م، يغطيها سقف مسطح زين باطنه بزخارف هندسية نفذت على الجص، وهي تؤدي إلى الرواق الغربي للصحن، ويلاحظ أن الجزء الذي يتقدم هذه الدركاة مغطى بقبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة، نفذت على الجص بألوان متعددة (لوحة ١٦) (شكل ٤/ أ).

أما بالنسبة للدركاة التي تلي مدخل الواجهة الشمالية، فتشغل مساحةً مستطيلةً تشبه دركاة المدخل الرئيس السابق وصفها جملةً وتفصيلاً، وهي تؤدي إلى البلاطة الأولى لرواق القبلة من جهة الصحن، وقد غطي الجزء الذي يتقدمها بقبة تشبه مثيلتها التي تتقدم دركاة المدخل الرئيس السابق وصفها تمامًا.

وأما الدركاة التي تلي مدخل الواجهة الجنوبية، فتشبه كل من دركاة المدخل الرئيس ودركاة مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفها تمامًا، وهي تؤدي إلى البلاطة الأولى لرواق القبلة من جهة الصحن، ويغطي الجزء الذي يتقدم هذه الدركاة قبة تشبه كلاً من القبة التي تلي دركاة المدخل الرئيس ودركاة مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفها تمامًا.

الصحن (شكل ٣):

يتوصل إلى الصحن من المداخل الثلاثة السابق الإشارة إليها بعد اجتياز دركاواتها والأروقة التي تؤدي إليها هذه الدركاوات، ويتوصل من هذه الأروقة إلى الصحن، وهو يشغل مساحة مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب ٢٩.٥٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢٥.٨٥م، فرشت أرضيته بالرخام الأبيض المجزع باللون الأحمر، وهي تنخفض عن مستوى أرضية الأروقة الأربعة للجامع بمقدار ٠.٠٥م، ويتوسط هذا الصحن فسقية حديثة من الرخام أضيفت في الترميم الذي أجري للجامع عام ١٩٧٠م، بعد أن تآكلت الفسقية القديمة، ويغطي هذه الفسقية سقف مسطح يرتكز على أربع دعامات مستطيلة من الآجر، غطي من أعلى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، وقد كان الصحن يشتمل على بئر توجد في الركن الشمالي الغربي غير أنها طمت الآن.

وتطل الأروقة الأربعة على الصحن بأربع واجهات متشابهة تمامًا، حيث تشرف كل منها على الصحن ببائكة تتكون من أربع دعامات من الآجر على هيئة حرف T في الوسط – باستثناء الدعامتين الثانية والثالثة بالواجهة الشرقية فهي على هيئة الصليب – ، ودعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، يبلغ ارتفاع كل دعامة من مستوى أرضية الأروقة حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٢٧م، وقد غطي الجزء السفلي لكل دعامة بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ٠.٤٥م من مستوى أرضية الصحن، ويلاحظ أن كل دعامة قد أدمج بها عمودان من الجص، وتحمل هذه الدعامات خمسة عقود على هيئة حدوة الفرس.

ويلاحظ أن عقود الواجهتين الشمالية والجنوبية (لوحة ١٧) (شكل ٤/ ب) متشابهة تمامًا، حيث يبلغ اتساع العقد الأوسط بكل منهما ٤.١٥م بينما يبلغ اتساع العقدين الجانبيين ٣.٨٦م، أما بالنسبة لعقود الواجهتين الشرقية والغربية (لوحة ١٨) فهي متشابهة أيضًا، حيث يبلغ اتساع العقد الأوسط بكل منهما ٤م بينما يبلغ اتساع العقدين الجانبيين ٣.١٦م، ويبلغ ارتفاع عقود هذه الواجهات الأربعة ٥م، ويلاحظ أن الجزء السفلي لهذه العقود قد غشي حديثًا بالسلك على هيئة الأحجبة يبلغ ارتفاعها ٢.٧٥م، باستثناء العقد الأوسط للواجهة الشرقية الذي يقع على محور المحراب، فقد سد بحجاب من الخشب[1] ارتفاعه ٤م (لوحة ١٨)، يشتمل

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذا الحجاب مستحدث حل مكان الحجاب الأصلي للجامع الذي تعرض للتلف وذلك في الترميم الذي أجري على الجامع عام ١٩٧٠م.

على فتحتين اتساع كل منهما ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٩٠م ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهما يؤديان إلى رواق القبلة، ويلاحظ أن أرضية الصحن تشتمل أسفل القسم الأوسط لهذا الحجاب على دخلة ذات خمسة أضلاع تقع على محور المحراب بنفس مستوى أرضية الصحن، يبلغ اتساعها ١م وعمقها ١م أيضًا، وهي تحل مع الحجاب الخشبي السابق وصفه محل المحراب في تحديد اتجاه القبلة عند استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف (شكل٣).

ويحيط بكل عقد من عقود الواجهات الأربعة عقد آخر زخرفي على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، ويلاحظ أن كوشات هذه العقود خالية من الزخرفة باستثناء العقد الأوسط بكل من الواجهتين الشرقية والغربية (لوحة ١٨)، حيث زينت كوشتي كل منهما زخارف نباتية وهندسية متنوعة وكتابات بالخط الكوفي نصها لفظ الجلالة نفذت على الجص، ويعلو هذه العقود بطول الواجهات الأربع للصحن – كما سبقت الإشارة- صف من كوابيل جصية، يعلوها رفرف مائل غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (اللوحتان ١٧، ١٨) (شكل ٤/ ب).

الأروقة الأربعة للجامع:

رواق القبلة (الشكلان ٣، ٤ / ج):

يقع إلى الشرق من الصحن، وهو أكبر أروقة الجامع وأعمقها، ويشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣٧.٢٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢٨.٤٥م، وهو يطل على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن، ويشتمل رواق القبلة على بلاطتين عقودهما موازية لجدار القبلة، إحداهما من جهة الصحن والأخرى تتقدم المحراب مباشرةً، يحصران بينهما سبع بلاطات تمتد عقودها عموديةً على اتجاه جدار القبلة (الشكلان ٣، ٤/ ج)، بالنسبة للبلاطتين الموازيتين لجدار القبلة يبلغ اتساع كل منهما ٤.٧٥م، وبكل منهما بائكة تتكون من ست دعامات من الآجر في الوسط بعضها على هيئة حرف T وبعضها الآخر على هيئة الصليب، أدمج في كل دعامة من دعامات النوع الأول ثلاثة أعمدة من الجص، وبكل دعامة من دعامات النوع الثاني أربعة أعمدة، وعلى دعامتين مدمجتين في الجدارين الجنوبي والشمالي للجامع، يبلغ ارتفاع كل دعامة منها من مستوى أرضية هذا الرواق حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٢٧م، وقد غطي الجزء السفلي لهذه الدعامات كبقية دعامات الجامع والجزء السفلي لجدرانه الداخلية، بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٥م من مستوى أرضية الأروقة الأربعة للجامع (لوحة ١٩)، وتحمل هذه الدعامات سبعة عقود على هيئة حدوة فرس زينت بواطنها بوسائد زخرفية من الجص، وهي تمتد بموازاة جدار القبلة، كما تشتمل كل بائكة منهما على أربعة عقود من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس ذي حافة مفصصة وهي تمتد عمودية على اتجاه جدار القبلة،

وهي تشكل في كل بلاطة ثلاث مساحات مربعة غطيت كل منها بقبة واحدة في كل جانب، والثالثة في الوسط تقع على محور المحراب تحصر بينهم مساحتين مستطيلتين (لوحة ١٩) (شكل ٣).

أما بالنسبة للبلاطات السبعة ذات البائكات العمودية على اتجاه جدار القبلة، فيلاحظ أن البلاطة الوسطى أكثرها اتساعًا حيث يبلغ اتساعها ٤م، بينما يبلغ اتساع كل بلاطة من البلاطات الست الجانبية ٣.١٦م، وهي تشتمل على ست بائكات تتكون كل بائكة منها من دعامتين مستطيلتين من الآجر (ام × ١.٢٢م) في الوسط أدمج في كل دعامة منهما عمودان من الجص، ويرتكز على هاتين الدعامتين وعلى دعامات البلاطتين الموازيتين لجدار القبلة السابق وصفها، ثلاثة عقود على هيئة حدوة الفرس (لوحة ٢٠) (الشكلان ٣، ٤/ ج).

وقد استخدم في تغطية رواق القبلة نوعان من أساليب التغطية، هما القباب والأسقف الخشبية الجمالونية الشكل، بالنسبة للقباب يشتمل هذا الرواق، كما سبقت الإشارة، على ست قباب موزعة على البلاطتين الموازيتين لجدار القبلة، ثلاث في كل بلاطة واحدة في كل جانب والثالثة في الوسط، يلاحظ أنها تغطي الجزء الذي يتقدم المحراب مباشرةً في البلاطة التي تتقدم المحراب، أما في البلاطة التي تطل على الصحن فتغطي الجزء الذي يتقدم فتحة العقد الأوسط الذي يقع على نفس محور المحراب (الشكلان ٣، ٤/ ج)، وقد زين باطن هذه القباب بمقرنصات جصية ذات دلايات وزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص بألوان متعددة (اللوحتان ١٦، ٢١)، أما من الخارج فتأخذ هذه القباب هيئة هرمية الشكل غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٢٢) (شكل ٤/ ج). أما بالنسبة للمناطق المحصورة بين هذه القباب بهاتين البلاطتين فقد غطيت، كما هو الحال في البلاطات السبع العمودية على جدار القبلة، بأسقف خشبية جمالونية الشكل زينت من الداخل بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، وغطيت من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٢٢) (شكل٤/ ج).

المحراب (لوحة ٢٣):

يتوسط الجدار الشرقي لرواق القبلة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة أضلاع غير متساوية نظرًا لعمق هذه الحنية، إذ يبلغ عمقها ٣.٢٥م واتساعها ٢.٠٨م وارتفاعها ٤.١٠م، يكتنفها من الجانبين في الداخل أربعة أعمدة مستديرة من الرخام الأبيض عمودان بكل جانب، يبلغ ارتفاع كل منها ١.٧٥م، وترتكز هذه الأعمدة على أرضية رواق القبلة مباشرةً بدون قواعد، وتعلوها تيجان رخامية زينت بزخارف نباتية يبلغ ارتفاع كل تاج منها ٠.٤٥م، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة الفرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف هندسية، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص (لوحة ٢٣)،

ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٥م تشتمل على كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد"، وعلى الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو" وعلى الشريط الأيسر الرأسي: "والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله[1]"، ويعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص تزينها خمس حشوات توجت بعقود نصف مستديرة ترتكز على أعمدة صغيرة من الجص وزينت كوشاتها بزخارف نباتية، أما الحشوات نفسها فقد زينت بزخارف نباتية متنوعة باستثناء الحشوة الوسطى التي زينت في الوسط بكتابات بالخط الكوفي، نصها: "الحمد لله"، وعلى جانبي هذه المساحة الزخرفية شريطان من الجص زين كل منهما بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر عقد المحراب السابق وصفه كذلك المساحة المستطيلة التي تعلوه ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٨م زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة (لوحة ٢٣)، يعلو ذلك حشوة مستطيلة من الجص امتدادها على الجدران الأربع الحاملة للقبة التي تتقدم المحراب السابق وصفها، وتزينها زخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، تعلوها حشوة مستطيلة من الجص بطول الجدران الأربع أيضًا تشتمل في كل جانب على سبع حنايا صماء توجت بعقود نصف مستديرة ترتكز على أعمدة صغيرة زخرفية من الجص زينت كوشاتها بزخارف نباتية، أما الحنايا نفسها فزينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو ذلك القبة التي تغطي الجزء الذي يتقدم المحراب السابق وصفها.

أما حنية المحراب من الداخل فيلاحظ أنها غطيت، كما هو الحال في واجهة المحراب، بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية يبلغ ارتفاعها ٢م من مستوى أرضية رواق القبلة (لوحة ٢٣)، يعلو ذلك سبع حشوات خالية من الزخرفة، توجت بعقود على هيئة حدوة الفرس ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص زينت كوشاتها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وقد غطيت حنية المحراب بقبة مخروطية الشكل زين باطنها بزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص (شكل ٤/ ج) (لوحة ٢٤).

ويوجد بجدار القبلة أربع فتحات أبواب، إحداها بقطاعه الجنوبي والأخرى بقطاعه الشمالي والاثنتان الباقيتان على جانبي المحراب، يلاحظ أن الأولى والثانية متشابهتان تمامًا؛ حيث يبلغ اتساع كل منهما ١.٢٠م وارتفاعها ٢.٨٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، تؤدي كل منهما إلى كتبية تستخدم حاليًا لحفظ المصاحف، التي بالقطاع الجنوبي عمقها ٠.٩٠م بينما يبلغ عمق التي بالقطاع الشمالي ١.٠٢م، أما فتحتا البابين اللتين على جانبي المحراب فمتشابهتان أيضًا، حيث يبلغ اتساع كل منهما ١.١٥م وارتفاعها ٢.١٥م، يغلق على كل

---

(١) سورة النور، الآيتان ٣٦، ٣٧.

منهما باب خشبي من مصراعين (لوحة ٢٣)، التي على يمين المصلي في المحراب تؤدي إلى بيت المنبر أما التي على اليسار فتوصل إلى بيت الخطيب (شكل ٣). كما كان جدار القبلة يشتمل أيضًا على فتحة باب خامسة تقع على يسار فتحة الباب المؤدية إلى بيت الخطيب (شكل ٣) كانت توصل إلى مصلى الجنائز، غير أنها سدت حديثًا بالبناء.

ويشتمل الجزء العلوي لجدار القبلة على أربع نوافذ مستطيلة صغيرة توجت كل منها بعقد نصف مستدير، وغشيت كل نافذة منها بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية.

أما الجداران الجنوبي والشمالي لرواق القبلة فمتشابهان تقريبًا، حيث يشتمل كل منهما على فتحة متوجه بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساع كل منهما ٢.٥٠م وارتفاعها نحو ٤م، وتفضي كل منهما إلى البلاطة الأولى لرواق القبلة من جهة الصحن (شكل ٣)، والاختلاف الوحيد بين هذين الجدارين هو اشتمال الجدار الجنوبي على فتحة باب يبلغ اتساعها ٩٠ م وارتفاعها ٢.٢٠م توجت بعقد على هيئة حدوة الفرس، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد وهو يؤدي إلى بيت الاعتكاف الملحق بالجامع (شكل ٣) (لوحة ١٩) وسوف يأتي وصفه عند الحديث عن الملحقات الداخلية للجامع.

الرواق الغربي:

يشغل هذا الرواق مساحةً مستطيلةً طولها من الشمال إلى الجنوب ٣٧.٢٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٤.٨٥م، وهو يطل على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن (شكل ٤/ ب)، ويلاحظ أن المئذنة تشغل الركن الشمالي الغربي من هذا الرواق (شكل ٣). ويشتمل هذا الرواق على ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس ذات حواف مفصصة تسير عمودية على اتجاه جدار القبلة، وتشكل هذه العقود مساحتين مربعتين إحداهما بالطرف الجنوبي لهذا الرواق ويغطيها سقف خشبي مربع المسقط مخروطي الشكل المعروف بالبرشلة، والأخرى تتوسط هذا الرواق وتتقدم الدركاة التي تلي المدخل الرئيس للجامع، وهي مغطاة بقبة سبق وصفها عند وصف هذه الدركاة (الشكلان ٣، ٤/ ١)، أما من الخارج فتأخذ هذه القبة والسقف الخشبي المربع المسقط (البرشلة) هيئةً هرمية الشكل غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ١٩). وقد غطيت المساحتان المستطيلتان المحصورتان بين السقف الخشبي المربع والقبة والمئذنة (شكل ٣) بأسقف خشبية جمالونية الشكل تشبه مثيلاتها السابق وصفها برواق القبلة، غطيت من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ١٤).

ويشتمل الجدار الغربي لهذا الرواق، على يمين الداخل من الدركاة التي تلي المدخل الرئيس، على فتحة باب حديثة يبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ٢.١٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهي تؤدي حاليًا إلى المدرسة الملحقة بالجامع كما يشتمل الطرف الجنوبي

لهذا الجدار - بعد فتحة الباب السابق وصفها - على نافذة مستطيلة يبلغ اتساعها ٠،٩٥م وارتفاعها ١،١٥م غشيت بمصبعات حديدية، وهي تطل على المدرسة المجاورة للجامع.

الرواقان الجنوبي والشمالي (لوحة ٢٥):

وهما متشابهان تمامًا، يبلغ طول كل منهما من الغرب إلى الشرق ٣٥م، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٤،١٠م، ويطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن (اللوحتان ١٧، ٢٥)، وقد غطي كل منهما بسقف خشبي جمالوني الشكل يشبه مثيله برواق القبلة والرواق الغربي السابق وصفهما، وغطي من الخارج بالقرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٢٢)، ويجري بأعلى الجدران الأربع لكل من الرواقين الجنوبي والشمالي حشوة متسعة من الجص زينت بزخارف هندسية متنوعة (لوحة ٢٥).

بيت المنبر:

يقع على يمين المحراب، ويبرز عن سمت جدار القبلة بمقدار ٢،٥٠م، ويتوصل إليه من فتحة باب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة (لوحة ٢٣)، وهو يشغل مساحة مستطيلة تزيد مقاساتها عن حجم المنبر (شكل ٣)، ويوجد بأرضية بيت المنبر قضيبان من الحديد في وضع متواز بنفس اتساع قاعدة المنبر، وهما يستمران خارج هذه الحجرة بأرضية البلاطة الأولى التي تتقدم المحراب، ويعلو هذا الجزء غطاء من الحصير والسجاد يتم رفعه عند إخراج المنبر، وتشتمل قاعدة المنبر على مجموعة من العجلات مثبتة في قوائم قاعدته لتنزلق على القضيبين السابق ذكرهما، وتجدر الإشارة إلى أن المنبر الأصلي غير موجود بالجامع، ربما تعرض للتلف أو نقل إلى مكان آخر، واستعيض عنه حاليًا بمنبر حديث.

بيت الخطيب:

يقع خلف جدار القبلة، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب توجد على يسار المصلي في المحراب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة (لوحة ٢٣)، وهو يشغل مساحة مستطيلة تعرضت لتجديدات غيرت من تخطيطها المعماري، ويشتمل جدارها الشرقي على فتحة باب تطل على الشارع الذي يحد الجامع من الجهة الشرقية، وفي إطار مطابقة هذا التخطيط لبيت الخطيب بمثيله في الجامع الكبير بتارودانت السابق وصفه، يمكن أن نفترض وجود فتحة باب بجداره الشمالي تتصل بمصلى الجنائز المجاور لبيت الخطيب من الجهة الشمالية (شكل ٣)، لكنها غير موجودة الآن، نظرًا لتعرض بيت الخطيب لبعض التجديدات كما سبقت الإشارة.

مصلى الجنائز:

يقع خلف جدار القبلة، وكان يتوصل إليه من فتحة باب توجد على يسار مدخل بيت الخطيب (شكل ٣) غير أنها سدت حاليًا بالبناء بعد أن تحول مصلى الجنائز إلى مسكن خاص،

وقد أدى ذلك إلى تعرضه لتجديدات غيرت من تخطيطه المعماري.

خزانة الكتب:

تقع خلف جدار القبلة، وكان يتوصل إليها من فتحة باب بالطرف الشمالي لهذا الجدار، غير أنها سدت حاليًا بالبناء من الداخل وأصبحت مجرد دخلة لحفظ الكتب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة (شكل ٣)، ولم تعد خزانة الكتب تقوم بوظيفتها بعد أن ضمت مساحتها إلى مساحة مصلى الجنائز وأصبحتا حاليًا مسكنًا خاصًا كما سبقت الإشارة.

بيت الاعتكاف:

يقع خلف القطاع الشرقي للجدار الجنوبي لرواق القبلة (شكل ٣)، ويتوصل إليه من فتحة باب بالجدار الجنوبي للجامع سبق وصفها عند وصف رواق القبلة، وهي تؤدي إلى سلم صاعد يتكون من ١٣ درجة تؤدي إلى فتحتي بابين، الأولى على يسار الصاعد يبلغ اتساعها ٠.٨٢م وارتفاعها ١.٨٥ توصل إلى مساحة صغيرة مستطيلة تشتمل حاليًا على سلم خشبي متحرك يصعد من خلاله إلى سطح الجامع، والثانية في مواجهة الصاعد يبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٩٥م توجت بعقد على هيئة حدوة الفرس، وهي تؤدي إلى بيت الاعتكاف الذي يشغل مساحةً مربعة الشكل طول ضلعها ٣.٩٠م (لوحة ٢٦)، وقد غطي الجزء السفلي لجدرانها بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٠ من مستوى أرضية بيت الاعتكاف، وبامتداد الجزء العلوي للجدران الأربعة يوجد إزار مستطيل زين بزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، ويتوسط الجزء العلوي للجدار الجنوبي نافذة مستطيلة تطل على شارع فاطمة الزهراء، أما الجدار الشمالي لبيت الاعتكاف فيطل على البلاطة التي تتقدم جدار القبلة مباشرة ببائكة تتكون من ثلاثة أعمدة من الرخام أحدها في الوسط وهو من الرخام الأحمر الوردي المجزع باللون الأصفر أما الجانبيان فهما من الرخام الأسود، يرتكز كل منها على أرضية بيت الاعتكاف مباشرةٍ بدون قواعد ويبلغ ارتفاعه ١.٧٠م ويعلوه تاج من الرخام أيضًا ارتفاعه ٠.٣٧م زين بزخارف نباتية، ويتميز تاج العمود الأوسط باشتماله على كتابات بالخط الكوفي تدور على الأوجه الأربعة، نصها كلمة "اليمن" كتبت طردًا وعكسًا، و"النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين ..."، وفي هذا إشارة إلى أن هذا العمود مجلوب مع آثار أخرى تخص أحد السلاطين، نظرًا لأن هذا الجامع من إنشاء لالة مسعودة وليس من إنشاء أحد السلاطين، وتحمل هذه الأعمدة عقدين على هيئة حدوة فرس زينت كوشتا عقد كل منهما بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، تؤطرها ثلاثة أشرطة ضيقة من الجص تزينها كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها "العز لله"، وقد سد الجزء السفلي لهذه البائكة، بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ٠.٨٥م (شكل ٣) (اللوحتان١٩، ٢٦)، ويغطي بيت الاعتكاف سقف خشبي مسطح زين بزخارف هندسية متنوعة (لوحة ٢٦)،

ويستخدم الجزء السفلي لبيت الاعتكاف حاليًا لحفظ فرش المسجد.

المئذنة (شكل ٤/ أ) (لوحة ٢٧):

تقع هذه المئذنة داخل ساحة الصلاة بالجامع، حيث تشغل -- كما سبقت الإشارة- الركن الشمالي للرواق الغربي لهذا الجامع (شكل ٤/ أ)، وهي تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري للمآذن المغربية ذات التخطيط المربع، حيث تتكون من طابقين مربعي المسقط يبلغ ارتفاعهما الكلي ٢٧,٥٠م ويلاحظ أن الطابق الأول أكبر حجمًا وأكثر ارتفاعًا من الثاني حيث يبلغ طول ضلعه ٤,٦٠ وارتفاعه ٢٢,٢٥م، أما الطابق الثاني فطول ضلعه ٢,١٠م وارتفاعه ٥,٢٥م.

ويتوصل إلى داخل هذه المئذنة من خلال فتحة باب تقع بالطرف الغربي لجدارها الجنوبي، يبلغ اتساعها ٠,٦٦م وارتفاعها ١,٨٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهي تؤدي إلى سلم صاعد يدور حول بناء مركزي، يبلغ اتساع هذا السلم ٠,٧٢م ويشتمل على ٩٠ درجة ارتفاع قائمة كل منها ٠,١٧م واتساع نائمتها ٠,٣٥م، وبعد ٤٥ درجة من درجات هذا السلم توجد على يمين الصاعد فتحة باب يبلغ اتساعها ٠,٦٧م وارتفاعها ١,٥٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، توصل إلى غرفة مستطيلة يحتويها البناء المركزي للمئذنة، طولها من الشرق إلى الغرب ٤,٣٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١,٣٥م يغطيها سقف خشبي مسطح، وبعد ٨٢ درجة من درجات السلم توجد فتحة باب مماثلة لفتحة الباب السابق وصفها تؤدي إلى غرفة أخرى مستطيلة الشكل أيضًا طولها من الشمال إلى الجنوب ٣,١٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٠,٨٥م، وهما تخصان مؤذن الجامع، وفي نهاية السلم الصاعد توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ٠,٦٠م وارتفاعها ١,٧٠م تؤدي إلى سطح الطابق الأول أو الممشى الذي يفصل هذا الطابق عن الطابق الثاني، ويأعلى واجهات الطابق الأول صف من شرافات مدرجة يبلغ ارتفاع كل منها ٠,٦١م وعرض قاعدتها ٠,٧٦م (لوحة ٢٧).

وقد زينت الواجهات الأربع للطابق الأول بمجموعة من الدخلات المعقودة والزخارف الهندسية، يلاحظ أنها تبدأ من أعلى سطح الجامع (لوحة ٢٧)، كما يلاحظ أن كل واجهة تشبه الأخرى المقابلة لها تقريبًا.

بالنسبة للوجهتين الشرقية والغربية (لوحة ٢٧) تشتمل كل منهما على ثلاثة صفوف رأسية من الدخلات المعقودة تحصرها على كل واجهة دخلة مستطيلة يبلغ اتساعها ٣,١٠م، وتمتد رأسيًا حتى صف الشرافات المدرجة التي تتوج واجهات الطابق الأول، ويبدأ الصف الأول لهذه الدخلات من أسفل بدخلتين مستطيلتين توجت كل منهما على الواجهة الغربية بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، بينما على الواجهة الشرقية فهو عقد على هيئة حدوة فرس مدبب، بصدر كل دخلة منهما نافذة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة

فرس، يلاحظ أن نافذتي الواجهة الغربية سدتا بالبناء، يعلو ذلك الصف الثاني وهو عبارة عن دخلة مستطيلة توجت بعقد مدبب ذي حافة مفصصة، بصدرها دخلة مستطيلة أخرى توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة بصدرها نافذة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يلاحظ أن نافذة الواجهة الغربية سدت حاليًا بالبناء، يلي ذلك الصف الثالث من الدخلات وهو يشتمل في كل واجهة على نافذتين صغيرتين مستطيلتين توجت كل منهما بعقد مدبب، ثمَّ يلي ذلك صف الشرفات المدرجة التي تتوج واجهات الطابق الأول للمئذنة (لوحة ٢٧).

أما الواجهتان الشمالية والجنوبية للطابق الأول (شكل ٤/ أ) (لوحة ٢٧) قسمت رأسيًا إلى صفين من الدخلات المعقودة يعلوهما زخرفة هندسية متكررة، يبدأ الصف الأول لهذه الدخلات على الواجهة الجنوبية بدخلة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، بصدرها دخلة أكثر عمقًا توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، وعلى يسار هذه الدخلة توجد فتحة باب مستطيلة تؤدي بالصاعد من سلم المئذنة إلى سطح الجامع (لوحة ٢٧)، في حين نجد أن الصف الأول للواجهة الشمالية يشتمل على ثلاث دخلات مستطيلة توج كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، ويصدر كل منها نافذة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، يلاحظ أن النافذة الوسطى سدت حاليًا بالبناء، يعلو ذلك الصف الثاني من الدخلات، ويشتمل في كل واجهة من هاتين الواجهتين على دخلة مستطيلة بصدرها نافذة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، يلاحظ أن نافذة الواجهة الشمالية سدت بالبناء، وعلى جانبي هذه النافذة السابق وصفها توجد بكل واجهة دخلتان مستطيلتان توجت كل منهما بعقد مدبب، يعلو ذلك زخرفة هندسية متكررة على هيئة شبكة من معينات متجاورة متصلة تقوم على أرضية زرقاء، وتمتد رأسيًا إلى أسفل صف الشرافات المدرجة التي تتوج واجهات الطابق الأول للمئذنة (شكل ٤/ أ) (لوحة ٢٧).

أما الطابق الثاني للمئذنة فيرتد إلى الداخل ليوفر الممشى الذي يعلو الطابق الأول كما سبقت الإشارة، وتشتمل كل واجهة من واجهاته الأربع على دخلة مستطيلة بصدرها فتحة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٠,٥٧م وارتفاعها ٢,٠٥م، ويتوج واجهاته الأربع صف من شرافات مدرجة تشبه مثيلاتها بالطابق الأول السابق وصفه، ويغطي هذا الطابق قبة صغيرة ملساء من الخارج يعلوها عمود من الحديد فيه ثلاث تفافيح من النحاس، ويلتصق بالطرف الشرقي للواجهة الشمالية لهذا الطابق صاري من الخشب ترفع من عليه راية بيضاء إيذانًا بموعد الأذان.

المرافق الخارجية للجامع:

الميضأة:

تقع ميضأة هذا الجامع في مقابل واجهته الشمالية (لوحة ٢٧)، لا يفصلهما سوى طريق العبدلاوية الذي يبلغ اتساعه ٨،٣٥م، وهي تشغل مساحة مستطيلة الشكل تبلغ حوالي ٣٩٠م٢، ولم يعد يظهر من واجهات هذه الميضأة سوى الواجهة الجنوبية، بينما اختفت الواجهات الثلاث الأخرى خلف الحوانيت التي شيدت إلى جوارها، وتشتمل الواجهة الجنوبية على المدخل الوحيد للميضأة.

مدخل الميضأة:

يتوسط الواجهة الجنوبية للميضأة، وهو يقع في مقابل المدخل الذي يقع على بعد ٨م من الطرف الغربي للواجهة الشمالية للجامع والذي كان يعرف قديمًا بباب الحفاة[1]، ويبلغ اتساعه ١،٧٠م وارتفاعه ٢،١٠م توج بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغلق عليه باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى دركاة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢،١٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١،٩٠م، ويغطيها قبو نصف برميلي وتشتمل في نهايتها الشمالية على فتحة معقودة بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب بنفس اتساع وارتفاع فتحة الباب السابق وصفها، وهي تؤدي إلى فناء الميضأة.

فناء الميضأة:

يشغل مساحةً مستطيلة الشكل طولها من الشرق إلى الغرب ١٩م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٣،٢٥م، ويتوسطه بناء مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ١١،٤٥م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٦،٤٢م وارتفاع جدرانه ٦م، يشتمل كل من جداريه الشمالي والجنوبي على فتحتين متشابهتين تمامًا، حيث يبلغ اتساع كل منهما ٣،١٠م وارتفاعها ٣،٢٠م ويتوجها عقد على هيئة حدوة فرس مدبب، بينما يشتمل كل من جداريه الشرقي والغربي على فتحة واحدة يبلغ اتساعها ١،٠٥م ارتفاعها ٢،٣٠م توجت بعقد مدبب، ويتوسط هذا البناء حوض مستطيل يبلغ عمقه ٠،٦٧م وسمك جدرانه ٠،٢٥م، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٦،٩٠م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١،٩٥م، وتحيط به قناة لتصريف المياه الناتجة عن

---

(١) جرت العادة في المساجد المغربية أن تكون الميضأة – غالبًا – في مقابل الجامع خارج المساحة المخصصة للصلاة، وكانت تشتمل واجهة الجامع المقابلة للميضأة على فتحة باب تقع في مقابل مدخل الميضأة مباشرة وكانت تثبت بين هذين البابين مجموعة من الأحجار يمر عليها المتوضئ (حافي القدمين)؛ لذا سمي الباب بـ(باب الحفاة) وكان لهذه الأحجار قيِّم على تنظيفها كل حين وله على ذلك جراية شهرية من الحبس المعين لذلك. انظر: ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩؛ عبد الرحمن بن زيدان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٩٩.

الوضوء يبلغ عمقها ٠,٥٣م واتساعها ٠,٣٣م، وقد غطي هذا البناء بسقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة أصابها التلف حاليًا بفعل الرطوبة وغطي من الخارج بالقرميد المزجج باللون الأخضر.

ويطل على الفناء من الجهات الأربعة مجموعة من المراحيض يبلغ عددها ٣٤ مرحاضًا، توزيعها عشرة بكل من جهتيه الشمالية والجنوبية وسبعة بكل من جهتيه الشرقية والغربية، ويشغل كل مرحاض مساحةً مستطيلة يبلغ طولها ١,٦٠م وعرضها ١,٤٠م ويغطيها قبو نصف برميلي فتحت بوسطه فتحة صغيرة مستديرة الشكل للتهوية والإضاءة ولكل مرحاض فتحة باب اتساعها ٠,٦٠م وارتفاعها ١,٦٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، ويعلو كل فتحة باب نافذة مستطيلة ضيقة للتهوية والإضاءة.

السقاية (شكل ٥) (لوحة ٢٨):

تقع هذه السقاية إلى الغرب من ميضأة الجامع، السابق وصفها، لا يفصلهما سوى شارع ضيق يبلغ اتساعه نحو ٣م، ولا يظهر من واجهات هذه السقاية سوى الواجهة الغربية التي تطل على طريق عرصة أوزال، بينما حجبت مجموعة من الحوانيت الواجهات الثلاثة الأخرى. وتعرف هذه السقاية حاليًا باسم سقاية سيدي الحسن وعلي(١)، وهو اسم أحد شيوخ المدرسة القرآنية الملحقة بجامع باب دكَّالة(٢).

وقد اتفقت آراء الباحثين على أن هذه السقاية ترجع إلى نفس تاريخ بناء جامع باب دكَّالة الذي شيدته لالة مسعودة فيما بين (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م) (٣)، وتجدر الإشارة إلى أن وثيقة وقف هذا الجامع أشارت إلى آن لالة مسعودة حرصت عند تشييده على أن تزوده بمصدر للماء الصالح للشرب والوضوء، إذ: "أمدته بعين الماء، لإسباغ الطهور وإرواء الظماء، فجاء محكم الإنشاء، وأغنا عن الدلو والرشا ...... فالله مجازيها عن كل كبد رطبة سقتها، ومشقة صعبة وقتها" (٤).

وتشغل هذه السقاية مساحةً مستطيلة الشكل تبلغ نحو ١٢٠م٢ (شكل ٥)، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٩,٨٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٥,٥٠م، وتطل على الشارع ببائكة تتكون من ثلاثة دعامات على هيئة حرف T في الوسط ودعامتين مدمجتين في الأطراف، يرتكز

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن "الواو" في اللهجات البربرية تقابل "ابن"، فيكون الاسم في هذه الحالة (الحسن بن علي). انظر: محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، ح ٦٩، ص ١٠٩.

(٢) محمد الكحلاوي: السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش، ص ٣٣٦؛ Deverdun, G., : Op. Cit. pp. 161 - 162; Marçais, G., : Op. Cit., p. 413.

(3) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 161 - 162; Marçais, G., : Op. Cit., p. 413

(٤) المقري: المصدر السابق، ص ٦٥. وهذا يشير إلى أن هذه السقاية قد أغنت عن استخراج الماء بالدلو والحبال (الرشا) من الآبار.

عليها أربعة عقود؛ العقود الثلاث من الطرف الجنوبي على هيئة حدوة فرس مدبب، أما العقد الرابع الذي بالطرف الشمالي الغربي فهو عقد خشبي مطنف (شكل ٦) (لوحة ٢٨) أما العقود الثلاث التي على هيئة حدوة الفرس فيلاحظ أن أوسطها أكثر اتساعًا وارتفاعًا، حيث يبلغ اتساعه ٣.٦٠م وارتفاعه نحو ٥م، بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ٢.٩٠م وارتفاعه ٤.٥٠م ويتوج الواجهة أعلى هذه العقود الثلاث صف من كوابيل جصية تزينها زخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو ذلك حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٦) (لوحة ٢٨).

أما العقد الرابع الذي بالطرف الشمالي الغربي لهذه السقاية (الشكلان ٦، ٧) (لوحة ٢٨) فهو عقد خشبي مطنف يبلغ اتساع فتحته ٢.٩٠م وارتفاعه ٥م، حيث يعلو الدعامتين الحاملتين لهذا العقد حرمدانيان من الجص زين سطح كل منهما بزخارف هندسية بينما زين باطنه بمقرنصات جصية ذات دلايات وزخارف نباتية متنوعة، يرتكز عليهما طنفان خشبيان في كل جانب يعلوهما عتب خشبي ليبدو العقد المطنف بهيئته الكاملة، زين كل من الطنفين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، أما العتب العلوي فتزينه كتابات من الشعر نفذت بخط الثلث على مهاد من زخارف نباتية، نصها:

"احسن ما صرف فيه المقال الحمد لله على كل حال"

ويعلو ذلك رفرف خشبي يرتكز على صف من كوابيل خشبية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويغطي هذا الرفرف حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٧).

أما بالنسبة للسقاية من الداخل فيلاحظ أنها مقسمة إلى أربعة أقسام، حيث تؤدي كل فتحة معقودة من الفتحات الأربعة السابق وصفها إلى مساحة مستطيلة (شكل ٥)، يلاحظ أن المساحات الثلاثة من الجنوب إلى الشمال متشابهة، حيث فرشت أرضياتها بالزليج المتعدد الألوان، وغطيت كل منها بقبو متقاطع، ويبلغ طول كل منها من الشرق إلى الغرب ٥.٥٠م، والاختلاف الوحيد هو أن المساحة الوسطى أكثر اتساعًا حيث تبلغ ٤.٨٠م بينما يبلغ اتساع كل مساحة من المساحتين الجانبيتين ٤.١٠م، ويلاحظ أن هذه المساحات الثلاثة متصلة من الداخل بعضها ببعض، حيث تطل كل من المساحتين الجانبيتين على المساحة الوسطى بفتحة معقودة بعقد على هيئة حدوة فرس يرتكز على كتفين بنائيين مدمجين، أحدهما بالجدار الشرقي والآخر بالجدار الغربي (شكل ٥)، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من السقاية كان مخصصًا لشرب الدواب[1].

(١) تحول حاليًا الجزء الذي كان مخصصًا لشرب الدواب من هذه السقاية إلى معرض للوحات الفنية يتبع مرسم مدينة مراكش، لذا فقد أغلقت الفتحات المعقودة الثلاثة المطلة على طريق عرصه أوزال، بأبواب=

وأما المساحة الرابعة والتي تقع بالطرف الشمالي لهذه السقاية (الشكلان ٦، ٧) (لوحة ٢٨)، فهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٥,٥٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣.٧٠م، يلاحظ أنها مقسمة إلى قسمين مستطيلين أيضًا (شكل ٥)، القسم الخارجي طوله من الشمال إلى الجنوب ٣.٧٠م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٢.١٠م، به من الجهة الشرقية حوض مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٢.٩٠م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٠.٧٠م وعمقه ٠.٢٥م وارتفاع جدرانه ٠.٣٠م وسمكها ٠.٢٠م، وقد فرشت أرضية هذا القسم الخارجي بالزليج المتعدد الألوان، بينما غطي بسقف خشبي مسطح ويوجد بأعلى الجدران الأربعة لهذا القسم أسفل هذا السقف الخشبي إزار من الخشب مزخرف بسلسلة من عقود مفصصة متجاورة يحصر كل عقد بداخله كتابة بالخط الكوفي لكلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا على مهاد من زخارف نباتية، ويوجد بأسفل هذا الإزار حشوة متسعة من الجص تزينها زخارف هندسية تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، وبأسفل هذه الحشوة يوجد شريط ضيق من الجص أيضًا تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها "العز لله" (الشكلان ٧، ٨)، يلاحظ سقوط أجزاء كثيرة من الجص الذي نفذت عليه هذه الزخارف بالجدار الشرقي.

أما القسم الداخلي فهو مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٣.٧٠م وعرضه من الشرق إلى الغرب ١.٩٠م ويغطيه قبو متقاطع، ويتوسط الجزء السفلي لجداره الشرقي أنبوبة من المعدن مغيبة داخل هذا الجدار لتتصل بمصدر الماء الذي يزود هذه السقاية ويقع خلف جدارها الشرقي (شكل ٨)، ويصب ماء هذه الأنبوبة في هذه المساحة المستطيلة السابق وصفها، والتي يشتمل جدارها الغربي على فتحة يبلغ اتساعها ٢.٩٠م توجت بعقد مدبب وقد سد جزؤها السفلي بجدار ارتفاعه ٠.٧٠م وسمكه ٠.٦٠م يشتمل على ثلاثة أنابيب من المعدن تجلب الماء من القسم الداخلي ليصب في الحوض السابق وصفه الذي يحد القسم الخارجي من الجهة الشرقية، وتجدر الإشارة إلى آن هذا الجزء من السقاية كان خاصًا بالإنسان دون الدواب غير أنها معطلة حاليًا، حيث أوقف جريان الماء بهذه السقاية منذ فترة طويلة.

الحمام:

يقع هذا الحمام إلى الشرق من ميضأة الجامع لا يفصلهما سوى شارع ضيق، كما يقع إلى الشمال من الجامع في مقابل رواق القبلة ولا يفصلهما سوى المدرسة العبدلاوية الحديثة التي شيدت إلى جوار الجامع وبعض الحوانيت، ويشغل هذا الحمام مساحة مستطيلة الشكل تغير تخطيطها الداخلي لتعرضه للعديد من أعمال الإصلاح والتجديد، ورغم أنه لا يزال يقوم بأداء وظيفته إلا أنه لم يعد تابعًا للجامع، وإنما يتبع حاليًا بلدية مدينة مراكش.

= خشبية يتكون كل منها من مصراعين (شكل ٦) (لوحة ٢٨).

المدرسة:

تقع هذه المدرسة إلى الغرب من الجامع بملاصقة القطاع الجنوبي الغربي لواجهته الغربية، وسوف نعود إلى دراستها في الجزء الخاص بالمدارس.

جامع (الأشراف) الموّاسين بمراكش

المنشئ:

شيده السلطان عبد الله بن محمد المهدي بن محمد القائم بأمر الله، الملقب بالغالب بالله، كانت ولادته – وفقاً للكتابات المنقوشة على شاهد قبره – عام (٩٣٣ هـ / ١٥٢٦م) [١]، وتولى الحكم بعد وفاة والده في أواخر سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) [٢]، وتوفي في سنة (٩٨١ هـ / ١٥٧٥م).

شيد عبد الله الغالب العديد من المنشآت المعمارية المختلفة من دينية ومدنية وحربية، ومن أهمها – فضلاً عن هذا الجامع- المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش، كما شيد قصرًا بمدينة مراكش أيضًا[٣]، كذلك شيد بيمارستانًا بنفس المدينة سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) [٤]، وشيد مدينة الكارض[٥]، كما شيد أيضًا قصبة بأكادير سنة(٩٨٠ هـ / ١٥٧٢م) [٦]، وقصبة بترغة قرب تطوان[٧]، وقصبة ببادس[٨].

الموقع وتاريخ الإنشاء:

يقع هذا الجامع بحومة (حي) الموّاسين بمراكش (الخريطتان ٦، ٩ / أ – ب)، وكان يعرف منذ إنشائه باسم "جامع الشرفاء[٩]" و"جامع الأشراف[١٠]"، ويعرف حاليًا بجامع الموّاسين، وهو اسم لأسرة من سلالة الرسول عليه السلام كانت تسكن الحي الذي شيد فيه الجامع، فغلب هذا الاسم على الحي والجامع معًا[١١].

مع الأخذ في الاعتبار أن هذه التسمية "جامع الموّاسين" لم يرد لها ذكر في المصادر التاريخية – المشار إليها في هذه الدراسة- التي ترجع إلى الفترة السعدية وما بعدها، وإنما وردت هذه التسمية في الأبحاث الحديثة التي ترجع إلى القرن الماضي، واستمرت وعرف الجامع

---

(١) ذكر الإفراني أن عبد الله الغالب ولد بعد سنة (٩٢٠ هـ / ١٥١٤م). الإفراني: المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) الإفراني: المصدر نفسه، ص ص ٤٤ – ٤٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٨. تشير الكتابات المنقوشة على شاهد قبر الغالب أنه تولى الحكم في شهر المحرم بداية سنة ٩٦٥ هـ.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٥٢ – ٥٣.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٩.

(٥) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٠.

(٦) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٢٥٢.

(٧) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.

(٨) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ٣٧.

(٩) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، القسم الثاني، ص ٤٥٤.

(١٠) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٩.

(١١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

بها[1]، الذي يحده من الجهة الغربية طريق السويقة، ومن الجهة الشمالية درب الحمام، ومن الجهة الشرقية درب الجنائز، أما من الجهة الجنوبية فتحده زنقة المّواسين (خريطة ٩ / ب).

وفيما يتعلق بتاريخ الإنشاء، فقد اتفقت آراء المؤرخين على أن عبد الله الغالب شيد هذا الجامع سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م)، كما أشار المؤرخون إلى أن موضع هذا الجامع كان مقبرةً لليهود، وأنه قد شاع على ألسنة العامة أن هذا السلطان توصل إلى بنائه "بصنعة الكيمياء"[٢] - التي يقصد بها آنذاك تحويل المعادن من خلال ممارسة أعمال السحر - التي تعلمها عندما كان تلميذًا للشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي، لذا فإن أهل الورع كانوا يتجنبون الصلاة فيه لفترة بعد بنائه، غير أن الإفراني نفى هذه الرواية ووصفها بالجهل والكذب[٣].

التخطيط المعماري للجامع (شكل ٩):

يشغل هذا الجامع مساحةً من الأرض مستطيلة الشكل تبلغ نحو ٣٢٢٥م٢، وتخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، كما تضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى بعضها داخل حدود عمارته كبيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز وخزانة الكتب وبيت الاعتكاف، وبعضها خارج حدوده كالميضأة والسقاية والمدرسة.

وقد استخدم الآجر في بناء الجامع وملحقاته، واستعمل الخشب في الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك والرفارف وما به من أثاث ديني كالمنبر، واستخدم الجص في كسوة الجدران وبواطن القباب كما أن بعض النوافذ غشيت بستائر من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، كما استعمل الزليج في كسوة أرضية الصحن والجزء السفلي لواجهة المحراب وحنيته الداخلية، واستخدم الرخام في عمل بعض الأعمدة والفسقية التي تتوسط الصحن ورقبة البئر المجاورة لها، في حين استعمل القرميد المزجج باللون الأخضر في تغطية الأسطح الخارجية.

الوصف المعماري للجامع:

أولاً- الوصف الخارجي:

الواجهة الغربية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٤٣م، ويلاحظ أنه لا يظهر منها حاليًا سوى واجهة المدخل الذي يتوسطها (لوحة ٢٩) وواجهة باب الحفاة بطرفها الشمالي، الذي يعرف حاليًا بمدخل

---

(1) Basset, H., et Terrasse, H., : Op. Cit., p. 304; Marçais, G.,: Op. Cit., p. 384; Deverdun, G., : Op. Cit., p. 159.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١.

(٣) الإفراني: المصدر نفسه: ص ص ٥١ – ٥٣؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٩ – ٤٠.

النساء لاقتصاره على دخولهن (شكل ٩)، بينما حجبت الأجزاء الأخرى لهذه الواجهة بالمباني التي شيدت إلى جوارها، وتتمثل في المئذنة الملاصقة للقطاع الجنوبي، ومسجد صغير يلي المئذنة ومجموعة من الحوانيت.

المدخل الرئيس (لوحة ٢٩):

يتوسط الواجهة الغربية[١]، يبلغ اتساع واجهته ٥.٢٠م، ويصدرها فتحة باب اتساعها ٢.٩٠م وارتفاعها ٤م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين مصفحين بالنحاس ومزين بصفوف من رءوس المسامير، ولكل مصراع مطرقة لوزية الشكل من البرنز مزينة بزخارف نباتية نفذت بطريقة التخريم (لوحة ٢٩)، أما من الداخل فيلاحظ أن هذا الباب – وكذلك البابين الآخرين للجامع – يتم غلقه عن طريق مغلاقين يتكون الأول من قضيبين من الحديد، السفلي قطاعه دائري الشكل يبلغ طوله ٠.٦٦م يشتمل على كتابات نفذت باللون الأصفر تتضمن دعاءً لمنشئ الجامع، يقرأ منها: "اللهم اجعله شاكر في ملكه، وزكي أيامه بحق المصطفى ....."، وينتهي هذا القضيب بحلقة مستديرة يدخل فيها القضيب الثاني أو العلوي وهو مستدير القطاع أيضًا يبلغ طوله ٠.٤٥م ثبت في المصراع الآخر للباب، وهو يشتمل أيضًا على كتابات تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصنع وبعض الزخارف النباتية، يقرأ منها: "صنعها سالم والحاج علي ... عام سبعة وسبعين تاريخنا[٢]"، أما المغلاق العلوي فقطاعه دائري الشكل أيضًا، ولكنه أقل قطرًا من القضيب السفلي للمغلاق الأول، ويبلغ طوله ٠.٨٣م ولإحكام غلق الباب يمر هذا القضيب في حلقتين مستديرتين ثبتتا في المصراع الآخر للباب، ويتوج واجهة المدخل السابق وصفه حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٢٩).

باب الحفاة:

يقع بالطرف الشمالي للواجهة الغربية، ويعرف حاليًا بباب النساء لدخولهن منه لتأدية الصلاة بالرواق الشمالي للجامع، وهو عبارة عن فتحة يبلغ اتساعها ٢.٣٥م وارتفاعها ٢.٨٠م سدت بحجاب من الخشب بصدره خوخة[٣] اتساعها ١.١٥م وارتفاعها ١.٦٥م توجت بعقد على

---

(١) يعرف هذا الباب حاليًا بباب العدول، حيث كانت الحوانيت التي على جانبيه مخصصة لجلوس العدول، غير أن هذه الحوانيت القديمة ضمت حاليًا إلى الحوانيت الحديثة التي شيدت إلى جوار الواجهة الغربية للجامع. اعتمدت في نقل هذه المعلومة على رواية شفهية للسيد/ محمد المغاري القاسمي مؤذن جامع المواسين.

(٢) يقصد بكلمة "تاريخنا" أي التاريخ الهجري الذي يؤرخ به المسلمون تمييزًا عن التاريخ الميلادي الذي يؤرخ به الإسبان والبرتغال المنتشرين ببلاد المغرب حينذاك.

(٣) يلاحظ على الأبواب الخشبية الكبيرة –وكذلك الأحجبة الخشبية– أن كل مصراع من مصراعيها يشتمل على فتحة صغيرة، تسمح بالدخول والخروج منها دون فتح الباب الكبير، عرفت هذه الفتحات =

هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، يؤدي إلى مساحة مستطيلة مكشوفة، يلاحظ أن جدرانها أقل ارتفاعًا من جدران الجامع، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣,٣٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢,٧٥م، بجدارها الجنوبي على يمين الداخل توجد فتحة باب تؤدي إلى مساحة مستطيلة تستخدم حاليًا لحفظ الفرش وبعض الأدوات الخاصة بالجامع، وفي مواجهة الداخل توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ١م وعمقها ١,٢٥م وارتفاعها ١,٧٥م، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى الرواق الغربي للجامع (شكل ٩).

الواجهة الشمالية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٧٣م، وتطل على شارع ضيق يعرف بدرب الحمام يبلغ اتساعه ٢,٧٠م، وقد غطي هذا الشارع بساباط يربط واجهة الجامع بواجهات المباني المقابلة لها والتي منها ميضأة الجامع، وشيدت بأعلى هذا الساباط مجموعة مباني، ربما كانت تابعة للجامع تستخدم حاليًا للسكن، وعلى بعد ٤٨,٥٠م من الطرف الغربي لهذه الواجهة يوجد مدخل بارز يؤدي إلى داخل الجامع.

مدخل الواجهة الشمالية:

يبرز عن سمت الواجهة بمقدار ٢,٨٥م، يبلغ اتساع واجهته ٥,٥٠م، وبصدرها فتحة باب يبلغ اتساعها ٢,٥٥م وارتفاعها ٤م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بأحد عشر صفًا من رءوس المسامير، ولكل مصراع مطرقة مستديرة من البرنز، ويتوج واجهة المدخل صف من كوابيل جصية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية نفذت على الجص، يعلو ذلك حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، وتوصل فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٤٥م، ويلاحظ أنها ليست في استقامة واحدة، حيث تبدأ من طرفها الجنوبي باستقامة قدرها ١٦,٢٥م، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة فتبرز بمقدار ٣,٧٥م، ثمَّ تستقيم ثانيةً لمسافة قدرها ٢,٦٠م تشتمل على فتحة باب اتساعها ٠,٧٥م وارتفاعها ١,٦٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى بيت المنبر الذي يقع خلف جدار القبلة، ثمَّ ترتد الواجهة بمقدار ٠,٤٠م ثمَّ تسير في استقامة قدرها ٤,٦٠م تمثل الواجهة الخارجية لحنية

= في بلاد المغرب والأندلس بـ"الخوخات" ومفردها "خوخة"، كما عرفت في الأندلس أيضًا بـ "الدفة". توريس بالباس: المدن الأسبانية الإسلامية، ص ٥٨١؛ أندريه باكار: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٥٥.

المحراب الذي يبرز عن سمت جدار القبلة بمقدار ٢.٢٠م، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة فتبرز بمقدار ٤م تشتمل على فتحة باب اتساعها ١.١٥م وارتفاعها ٢.١٥م يعلوها عقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى المصلى الجنائزي، أما الجزء المتبقي من هذه الواجهة والذي يشتمل على الواجهة الشرقية لكل من المصلى الجنائزي وخزانة الكتب فقد حجبته المباني التي شيدت إلى جوار هذا الجزء من الواجهة (شكل ٩).

الواجهة الجنوبية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٧٠م، وهي لا تمتد في استقامة واحدة حيث تبدأ من طرفها الشرقي باستقامة قدرها ٦م، تمثل الواجهة الجنوبية لبيت الاعتكاف، ثمَّ تنكسر بعد ذلك بارتداد ١.٥٠م، ثمَّ تمتد بعد ذلك في استقامتها حتى نهايتها في الاتجاه الجنوبي الغربي، وتشتمل هذه الواجهة على مدخل بارز يقع على محور مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفه، وقد حجبت هذه الواجهة خلف مجموعة من حوانيت حديثة ومكتب لتعليم الصبيان حديث أيضًا يعرف بكتاب "أبي عمرو الداني" يقع على يسار المدخل البارز السابق ذكره، والذي تتقدمه مساحة مستطيلة مكشوفة طولها من الشمال إلى الجنوب ٤.٧٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٤م، يتوصل إليها من فتحة باب حديثة اتساعها ٢.٥٠م وارتفاعها ٢.٥٠ يغلق عليها باب حديدي حديث (شكل ٩)، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الواجهة الجنوبية ترتبط في قطاعها الغربي بجدار المبنى المقابل لها بساباط شيدت بأعلاه خلوة الأسبوع[1] التابعة للجامع.

مدخل الواجهة الجنوبية:

يبلغ اتساع واجهته ٤.٢٠م بصدرها فتحة باب اتساعها ٢.٥٠م وارتفاعها ٤م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بأحد عشر صفًا من رءوس المسامير ولكل منهما مطرقة مستديرة الشكل من البرنز، ويتوج واجهة المدخل صف من كوابيل جصية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية نفذت على الجص، يعلو ذلك حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، وتوصل فتة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

ثانيًا: الوصف الداخلي:

الدركاوات:

وضح من الوصف الخارجي لواجهات هذا الجامع أنه يشتمل على ثلاثة مداخل، أحدها

---

(١) عبارة عن غرفة أو قاعة جرت العادة بإلحاقها بالمساجد الجامعة المغربية، ويطلق عليها أيضًا "مجلس الأسبوع" و"زاوية القراء"، وذلك لكون القراء يجتمعون فيها لقراءة القرآن الكريم في كل أسبوع. الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٧٦ – ٧٧؛ ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩؛ وانظر ص ٤٩١ من الدراسة.

وهو الرئيس يتوسط الواجهة الغربية، وآخر بالواجهة الشمالية أما الثالث فيقابله بالواجهة الجنوبية، ويلي كل مدخل منها – كما سبقت الإشارة- دركاة.

بالنسبة للدركاة التي تلي المدخل الرئيس، تشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣.٢٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢م، غطيت بسقف مسطح زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة، ويصدرها فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس يبلغ اتساعها ٢.٩٠م وارتفاعها ٤م، تؤدي إلى الرواق الغربي للجامع (الشكلان ٩، ١٠/ أ).

أما بالنسبة للدركاة التي تلي كل من مدخل الواجهتين الشمالية والجنوبية فمتشابهتان تمامًا، حيث تشغل كل منهما مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٣م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١.٣٠م، غطيت كل منهما بسقف مسطح زين بزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص، ويصدر كل دركاة منهما فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس يبلغ اتساعها ٢.٥٠م وارتفاعها ٤م، توصل كل منهما إلى رواق القبلة (الشكلان ٩، ١٠/ ج).

الصحن (لوحة ٣٠):

يتوصل إلى الصحن من المداخل الثلاثة التي سبق وصفها بعد اجتياز دركاواتها والأروقة التي تؤدي إليها هذه الدركاوات، ويتوصل من هذه الأروقة إلى الصحن، وهو يشغل مساحةً مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ٢٧.٦٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية وهي تنخفض عن مستوى أرضية الأروقة الأربع للجامع بمقدار ٠.٠٦م، ويتوسط الصحن فسقية دائرية الشكل من الرخام الأبيض (لوحة ٣٠)، وهي ذات حافة مفصصة ارتفاعها ٠.٠٨م ويبلغ عمقها ٠.٤٣م، وتحيط بها قناة مثمنة الشكل يبلغ اتساعها ٠.٤٥ وعمقها ٠.٠٨م تشتمل على فتحة صغيرة دائرية الشكل لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء، وقد أحيطت هذه الفسقية حديثًا بمقاعد في هيئة مسطبة لجلوس المتوضئين كما غطيت بسقف مخروطي يرتكز على ثمانية أعمدة مستديرة من الآجر كسيت بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية (لوحة ٣٠)، كما يشتمل الصحن بطرفه الشمالي الغربي وعلى بعد ٨.٤٠م من الفسقية السابق وصفها، على بئر لتزويد الجامع بالماء غير أنها طمت حاليًا ولم يعد باقيًا منها سوى جزؤها العلوي وهو عبارة عن فوهة مرتفعة مثمنة الشكل من الرخام الوردي اللون يبلغ ارتفاعها من مستوى أرضية الصحن ٠.٨١م واتساعها ٠.٦٨م وسمك جدارها ٠.٠٩م (لوحة ٣١).

وتطل الأروقة الأربعة على الصحن بأربع واجهات متشابهة تمامًا، حيث تشرف كل منها عليه ببائكة مكونة من أربع دعامات من الآجر في الوسط على هيئة حرف T أدمج في كل منها عمودان من الجص، باستثناء دعامات الواجهة الشرقية فهي على هيئة الصليب وأدمج في كل

منها ثلاثة أعمدة من الجص، وعلى دعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، يبلغ ارتفاع كل دعامة من مستوى أرضية الأروقة حتى مستوى مأخذي العقد ٢,٢٧م، ويرتكز على هذه الدعامات خمسة عقود على هيئة حدوة فرس (الشكلان ٩، ١٠/ ب) (اللوحتان ٣١، ٣٢)، ويلاحظ أن العقد الأوسط بكل واجهة من الواجهات الأربع أكثر اتساعًا وارتفاعًا من العقود الأربعة الجانبية، حيث يبلغ اتساع فتحته ٣,٩٠م وارتفاعه ٥,١٥م، بينما يبلغ اتساع فتحة كل عقد من العقود الجانبية ٣,٤٣م وارتفاعه ٥,١٠م، ويلاحظ أن كل عقد محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة، وقد غشي الجزء السفلي لفتحات عقود هذه الواجهات حديثًا بالسلك على هيئة الأحجبة يبلغ ارتفاعها ٢,٥٠م، باستثناء فتحات عقود الواجهة الشمالية والعقد الأوسط للواجهة الشرقية، حيث سدت الأولى (لوحة ٣١) بأحجبة خشبية ارتفاع كل منها ٢,٥٠م، ويرجع ذلك لاستخدام الرواق الشمالي للجامع لصلاة النساء، أما العقد الأوسط للواجهة الشرقية والذي يقع على نفس محور المحراب(اللوحتان ٣٢، ٣٣) فقد سد بحجاب من الخشب ارتفاعه ٢,٨٥م توج بصف من شرافات مدرجة، ويلاحظ أنه مقسم إلى ثلاثة أقسام اتساع كل منها ١,٣٠م، يشتمل الأوسط على حشوة مستطيلة يبلغ اتساعها ٠,٣٨م وارتفاعها ١,٠٢م زينت بكتابات بالخط الثلث لا يقرأ منها حاليًا سوى البسملة، بينما تآكلت بعض حروفها بفعل الرطوبة واختفى بعضها الآخر تحت طبقة من الدهان الحديث ويؤطر هذه الحشوة زخارف هندسية، أما القسمان الجانبيان فيشتمل كل منهما على خوخة اتساعها ٠,٥٥م وارتفاعها ١,٧٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي كل منهما إلى رواق القبلة (لوحة ٣٣)، ويعلو القسم الأوسط حشوة مستطيلة توجت بعقد نصف مستدير، بينما يعلو كل قسم من القسمين الجانبيين حشوة مربعة، وقد زينت هذه الحشوات الثلاث بكتابات بالخط الكوفي المربع، يبدأ نصها على الحشوة الوسطى لظهر الحجاب من جهة رواق القبلة: "أمر بعمل هذه مولانا عبد الله أيده الله" ويستمر النص على الحشوتين المربعتين لوجه الحجاب من جهة الصحن (لوحة ٣٣)، على الحشوة اليمنى: "قاصدا بذلك"، وعلى الحشوة اليسرى: "وجه الله العظيم"، أما على الحشوة الوسطى لوجه الحجاب فنصها: "الله محمد أبو بكر عمر عثمان علي"، ويطلق على هذا الحجاب وفقًا للاصطلاح المغربي مصطلح "العنزة" أو المحراب الصيفي كما سبقت الإشارة، لأنه يحل محل المحراب في تحديد اتجاه القبلة عند استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف، ويلاحظ أنه يوجد بأرضية الصحن أسفل القسم الأوسط لهذا الحجاب دخلة ذات خمسة أضلاع بنفس مستوى أرضية الصحن، تقع على محور المحراب ويبلغ عمقها ٠,٧٨م وارتفاعها ١,٠٥م (شكل ٩) (لوحة ٣٣).

وبينما تركت كوشات عقود الواجهات الأربعة السابق وصفها خاليةً من الزخرفة

(اللوحتان ٣١، ٣٢)، نجد أن العقد الأوسط للواجهة الشرقية (لوحة ٣٣) قد زينت كوشتاه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تشتمل على سبع حشوات مستطيلة توجت بعقود نصف مستديرة زينت كوشاتها بزخارف هندسية، في حين زينت الحشوات نفسها بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر كوشتي العقد والزخارف السابق وصفها التي تعلوه شريط ضيق من الجص اتساعه ٠.١٧م تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العافية الباقية"، ويعلو ذلك صف من كوابيل جصية، يلاحظ أنها تمتد بطول الواجهات الأربعة للصحن، زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية متنوعة، ويتوج الواجهات الأربعة للصحن حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (اللوحتان ٣١، ٣٢).

الأروقة الأربعة للجامع:

رواق القبلة (شكل ٩):

يقع إلى الشرق من الصحن، وهو أكبر أروقة الجامع وأعمقها، ويشغل مساحة مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٣٨.١٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٩م، ويطل على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٣٢)، ويشتمل هذا الرواق على بلاطة موازية لجدار القبلة تتقدم المحراب مباشرةً، تحصر بينها وبين البائكة التي تطل على الصحن السابق وصفها، سبع بلاطات بواسطة ست بائكات تمتد عقودها عموديةً على اتجاه جدار القبلة (الشكلان ٩، ١٠ / ج). بالنسبة للبلاطة الموازية لجدار القبلة يبلغ اتساعها ٥.٠٥م، وتشتمل على بائكة مكونة من ست دعامات من الآجر في الوسط على هيئة حرف T أدمج في بعضها خمسة أعمدة من الجص وفي بعضها الآخر ثلاثة أعمدة فقط، وعلى الجدارين الجنوبي والشمالي للجامع، ويبلغ ارتفاع كل دعامة من مستوى أرضية هذا الرواق حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٣٠م، وقد غطي الجزء السفلي لكل منها كغيرها من دعامات الجامع وجدرانه الداخلية بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٤٥م من مستوى أرضية الأروقة الأربعة (لوحة ٣٤). وتحمل هذه الدعامات سبعة عقود موازية لجدار القبلة على هيئة حدوة فرس زين باطنها بوسائد زخرفية مسننة من الجص (لوحة ٣٤) باستثناء العقد الأوسط فهو على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصه وزين باطنه بمقرنصات جصية ذات دلايات (لوحة ٣٥)، فضلاً عن ذلك فترتكز على هذه الدعامات أربعة عقود تشبه العقد الأوسط السابق وصفه ولكنها عمودية على جدار القبلة (لوحة ٣٤) تشكل بتعامدها على هذا الجدار ثلاث مساحات مربعة واحدة وسطى تتقدم المحراب، وواحدة في كل جانب، غطيت كل منها بقبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص (لوحة ٣٦)، تأخذ من الخارج هيئةً هرميةً غطيت بالقرميد المزجج باللون الأخضر

(لوحة ٣٧)، وتحصر هذه القباب بينها مساحتين مستطيلتين غطيت كل منهما بسقف خشبي جمالوني الشكل مزين بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت بطريقة الحفر وبألوان متعددة (لوحة ٣٨)، وغطي من الخارج بالقرميد (لوحة ٣٧).

أما البلاطات السبع العمودية على اتجاه جدار القبلة (شكل ٩)، فيلاحظ أن البلاطة الوسطى أكثر اتساعًا من البلاطات الجانبية، حيث يبلغ اتساعها ٥م بينما يبلغ اتساع كل بلاطة من البلاطات الجانبية ٤.٦٠م، وبهذه البلاطات ست بائكات تتكون كل منها من ثلاث دعامات مستطيلة من الآجر في الوسط (١م × ١.٢٠م) ارتفاع كل منها من مستوى أرضية هذا الرواق حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٣٠م وقد أدمج في كل دعامة عمودان من الجص، وترتكز على هذه الدعامات وعلى دعامات كل من البلاطة التي تتقدم المحراب والبائكة المطلة على الصحن السابق وصفها، أربعة عقود على هيئة حدوة الفرس (الشكلان ٩، ١٠ / ج) (لوحة ٣٩)، يؤطر كوشتي كل عقد منها حشوة متسعة من الجص الملون تزينها زخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها كتابات بالخط الكوفي، نصها: "الحمد لله"، "الملك لله"، "الشكر لله"، وقد غطيت هذه البلاطات بأسقف خشبية جمالونية الشكل تزينها زخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت بطريقة الحفر وبألوان متعددة، وغطيت من الخارج بالقرميد (لوحة ٣٧).

المحراب (اللوحتان ٣٥، ٤٠):

يتوسط الجدار الشرقي لرواق القبلة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة أضلاع غير متساوية نظرًا لعمق هذه الحنية البالغ ٣.١٨م ويبلغ اتساعها ٢.٣٥م، يكتنفها من الجانبين في الداخل أربعة أعمدة مستديرة من الرخام الأصفر، عمودان بكل جانب، يلاحظ أنها بدون قواعد، يبلغ ارتفاع كل عمود منها ١.٥٥م ويعلوه تاج من الرخام أيضًا ارتفاعه ٠.٤٥م تزينه زخارف نباتية وهندسية وكتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها كلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، وأخرى بالخط الثلث اختفت بعض حروفها، ونقرأ منها: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا .... "، كما غطي بدن كل عمود من الأعمدة الأربع بزخارف نباتية وهندسية تحصر بداخلها كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "الملك لله" كما يتوج بدن كل عمود شريط ضيق اتساعه ٠.٠٥م تزينه كتابات بخط الثلث، نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين[1] العز لله"، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة فرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة (لوحة ٤٠)، ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص اتساع كل منها ٠.٤٠م تزينها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد"، وعلى

---

(١) سورة الصف، من الآية ١٣.

الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه يسبح له فيها با" ويستمر النص على الشريط الأيسر الرأسي: "لغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" [(١)]، ويعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص تزينها خمس حشوات مستطيلة توجت بعقود على هيئة حدوة فرس ذات حواف مفصصة ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص، وقد زينت كل كوشات هذه العقود والحشوات من الداخل بزخارف نباتية متنوعة نفذت بألوان متعددة (اللوحتان ٣٥، ٤١)، ويؤطر عقد المحراب السابق وصفه وهذه المساحة التي تعلوه ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٤٠م زينت بزخارف نباتية متنوعة نفذت بألوان متعددة (لوحة ٣٥)، ويعلو الشريط الأفقي منها (لوحة ٤١) حشوة مستطيلة من الجص امتدادها على الجدران الأربعة التي تحمل القبة التي تتقدم المحراب السابق وصفها، زينت بزخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، يعلو ذلك مساحة مستطيلة تشتمل على أربع نوافذ صغيرة مستطيلة غشيت بستائر من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، تحصر بينها ثلاث مضاهيات نوافذ زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وقد توجت كل نافذة ومضاهيتها بعقد نصف مستدير يرتكز على عمودين زخرفيين من الجص، زينت كوشتاه بزخارف نباتية متنوعة (لوحة ٤١)، يعلو ذلك القبة التي تتقدم المحراب التي سبق وصفها (لوحة ٣٦).

أما بالنسبة لحنية المحراب من الداخل (لوحة ٤٠) فيلاحظ أنها غطيت، كما هو الحال في واجهة المحراب من الخارج، بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية يتوجه صف من شرافات زخرفية مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل[(٢)]، ويبلغ ارتفاع هذه التكسية ١.٩٠م من مستوى أرضية رواق القبلة، يعلوها شريط عريض من الجص اتساعه ٣٠ ٠م زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة وكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، يعلو ذلك سبع حشوات مستطيلة خالية من الزخرفة توجت بعقود على هيئة حدوة فرس ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص وزينت كوشاتها بزخارف نباتية، ويعلو ذلك شريط مستطيل من الجص زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويغطي حنية المحراب قبة مخروطية الشكل زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة (شكل ١٠/ ج). ويلاحظ أنه يكتنف حنية المحراب من الخارج أربعة أعمدة من الرخام الأصفر، عمودان بكل جانب (لوحة ٤٠)، وهي تشبه الأعمدة الأربع التي تكتنف حنية المحراب من الداخل جملةً وتفصيلاً وقد سبق وصفها.

ويوجد بجدار القبلة أربعة فتحات أبواب، إحداها بطرفه الجنوبي والأخرى بطرفه

---

(١) سورة النور، الأيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) يطلق على زخرفة الشرافات المدرجة المقلوبة والمعتدلة بالتبادل، وفقًا للاصطلاح المغربي مصطلح "القايم والنايم". أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨٤.

الشمالي والاثنتان الباقيتان على جانبي المحراب، التي بالطرف الجنوبي اتساع فتحتها ١.٢٥م وارتفاعها ١.٩٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى كتبية يبلغ عمقها ٠.٧٥م تستخدم حاليًا لحفظ المصاحف، أما فتحة الباب التي بالطرف الشمالي فاتساعها ١م وارتفاعها ٢.٢٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى خزانة الكتب الملحقة بالجامع (شكل ٩)، ويعلو هذا الباب نافذة مستطيلة غشيت بشبكة من قضبان حديدية.

وأما فتحة الباب التي على يمين المصلى في المحراب (لوحة ٤٠) فاتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ٣.٣٨م يكتنفها من الجانبين عمودان من الجص كسي بدن كل منهما بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ارتفاع كل عمود منها ١.٩٠م ويعلوه تاج من الجص زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويتوج فتحة الباب عقد نصف مستدير ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بزخارف هندسية، وهو يوصل إلى بيت المنبر، (شكل ٩). أما فتحة الباب التي على يسار المصلي في المحراب فاتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ٢.٧٣م يكتنفها من الجانبين عمودان من الجص يشبهان العمودين السابق وصفهما تمامًا، ويتوجها عقد نصف مستدير ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بزخارف هندسية متنوعة، وهو يؤدي إلى بيت الخطيب والمصلى الجنائزي (شكل ٩) (لوحة ٤٠).

وتجدر الإشارة إلى أن جدار القبلة كان يشتمل، فضلاً عن فتحات الأبواب الأربع السابق وصفها، على بابين آخرين سدا حاليًا بالبناء أحدهما يقع إلى الشمال من فتحة الباب التي تقع على يسار المصلي في المحراب، وكانت تؤدي إلى بيت الخطيب، تليها فتحة الباب الثانية وكانت تؤدي إلى خزانة الكتب. ويشتمل الجزء العلوي لجدار القبلة على أربعة نوافذ مستطيلة، توجت كل منها بعقد نصف مستدير وغشيت بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية.

أما الجدار الجنوبي والشمالي لرواق القبلة فمتشابهان تقريبًا، حيث يشتمل كل منهما على فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس سبق وصفهما عند وصف الدركاة التي تلي كل من مدخل الواجهة الجنوبية والشمالية، وإن كان ثمة اختلاف بين هذين الجدارين فهو اشتمال الطرف الشرقي للجدار الجنوبي على فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٧٥م وارتفاعها ١.٦٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، يوصل إلى بيت الاعتكاف الملحق بالجامع (الشكلان ٩، ١٠/ ج).

وبرواق القبلة ثريتان من البرنز يرجع تاريخهما إلى تاريخ بناء الجامع، تتدليان من سقف البلاطة الوسطى العمودية على المحراب (الشكلان ٩، ١٠/ ج) واحدة بطرفها الغربي من جهة الصحن وقد أنزلت من مكانها منذ فترة لإصلاحها ولم تعاد حتى الآن، ويحتفظ بها حاليًا بإحدى الغرف التي تشتمل عليها مئذنة الجامع، أما الثانية فتتدلى من الطرف الشرقي

لهذه البلاطة ولا تزال قائمة في مكانها (لوحة ٣٥)، وتكوينها في هيئة قبة كروية الشكل ملساء من الخارج تحيط بها قضبان من البرونز تتصل بالسلاسل التي تتدلى من سقف الجامع، وزين باطن القبة من الداخل بضلوع متقاطعة تحصر بداخلها زخارف نباتية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، وبأسفل هذه القبة قرص دائري يرتكز على قاعدة مثمنة الزوايا يبلغ ارتفاعها ٠.٣٤م وطول كل ضلع من أضلاعها ٠.٣٦م، وتتصل بهذه القاعدة ثماني كرات أو تفافيح برونزية (اللوحتان ٣٥، ٤٠)، وقد زين كل من القرص الدائري وهذه القاعدة المثمنة بزخارف نباتية وأخرى كتابية بالخطين الثلث والكوفي، نفذت بطريقتي الحفر والتخريم، حيث يشتمل القرص الدائري على شريط ضيق اتساعه ٠.٠٦م زين بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، بأسفله شريط آخر يبلغ اتساعه ٠.٢١م زين بكتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "قل كل يعمل على شاكلته"[(١)]، وزين كل جانب من جوانب القاعدة المثمنة بعقد مفصص زين سطحه بزخارف نباتية (اللوحتان ٣٥، ٤٠)، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الثريا غير مزودة – حاليًا- بكئوس حاملة للقوارير الزجاجية (لوحة ٣٥).

الأثاث الديني للجامع

المنبر (لوحة ٤٢):

لا يزال الجامع يحتفظ بمنبره الأصلي القديم، وهو – كما جرت العادة ببلاد المغرب- منبر متحرك يقع على يمين المحراب، ويعد هذا المنبر نسخةً مطابقةً لمنبر جامع المنصور الموحدي بقصبة مراكش، حتى ليخيل للناظر للوهلة الأولى أنه أمام المنبر الموحدي، إذ أنهما بنفس الأبعاد والتناسق والتصميم[(٢)]. ولهذا المنبر قاعدة مستطيلة طولها ٢.٣٢م وعرضها ٠.٧٧م وارتفاعه الكلي ٣.١٣م (لوحة ٤٢)، وقد ثبت في قوائم هذه القاعدة ست عجلات حديدية ثلاث بكل جانب، لتيسير تحريك المنبر على القضبان وإخراجه يوم الجمعة لإلقاء الخطبة، ثمَّ عودته مرةً ثانيةً إلى موضعه بعد الانتهاء منها.

ويصدر قاعدة المنبر يوجد باب المقدم الذي يبلغ اتساع فتحته ٠.٦٢م وارتفاعها ١.٧٨م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، ويعلوه صف من شرافات مدرجة، ويوصل باب المقدم إلى درج مكون من خمس درجات ارتفاع قائمة كل منها ٠.٢١م واتساع نائمتها ٠.٢٤م، تنتهي بجلسة الخطيب التي يبلغ ارتفاع قائمتها ٠.٤٠م واتساع نائمتها ٠.٩٤م، وبأعلى جانبي قاعدة المنبر توجد ريشتا المنبر، كما يربط بين باب المقدم وجوانب جلسة الخطيب عارضتان من الخشب (لوحة ٤٢).

وقد زينت جميع أجزاء المنبر بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت بعدة أساليب فنية،

---

(١) سورة الإسراء، من الآية (٨٤).

(2) Basset, H., et Terrasse, H., : Op. Cit., p. 333.

كأسلوب الحفر والحشوات المجمعة والتطعيم بالعاج، ولئن كانت بعض هذه الزخارف قد تآكلت واختفت وبخاصة تلك التي تزين درجات المنبر وجلسة الخطيب، فإن ريشتي هذا المنبر لا تزالان تحتفظان بأجزاء كبيرة من زخارفهما (لوحة ٤٣)، التي تشبه زخارف منبر جامع القصبة الموحدي ومنبر جامع المدرسة البوعنانية المريني بفاس، مما يجعل هذا المنبر – على حد قول بعض الباحثين- واحدًا من أجمل منابر شمال أفريقيا[1].

الرواق الغربي:

يشغل هذا الرواق مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣٧,٦٠م، وعرضها من الشرق إلى الغرب ٤,٤٥م، ويطل على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن، وهو يشتمل على أربعة عقود على هيئة حدوة فرس ذات حواف مفصصة تتعامد على جداره الغربي لتشكل ثلاث مساحات مربعة، واحدة في الوسط والاثنتان الأخريان في الأطراف، غطيت الوسطى بقبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة، وتأخذ من الخارج هيئةً هرميةً غطيت بالقرميد المزجج باللون الأخضر بينما غطيت كل من المساحتين الجانبيتين بسقف خشبي مربع المسقط هرمي الشكل، أما من الخارج فقد غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر. وقد غطيت كل من المساحتين المستطيلتين المحصورتين بين القبة والسقفين المربعين السابق وصفهما، بسقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة، وغطي من الخارج بالقرميد.

ويشتمل الجدار الغربي لهذا الرواق على ثلاث فتحات أبواب (شكل ٩) إحداها بالطرف الجنوبي يبلغ اتساعها ١م وارتفاعها ٢م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى داخل المئذنة، أما فتحة الباب الثانية فتوجد على يسار الداخل من الدركاة التي تلي المدخل الرئيس، يبلغ اتساعها ١,٣٥م وارتفاعها ٢,١٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بخمسة صفوف من رءوس المسامير، يؤدي إلى حجرة مستطيلة تستخدم حاليًا لحفظ فرش المسجد، وأما فتحة الباب الثالثة فتوجد بالطرف الشمالي لهذا الجدار يبلغ اتساعها ١م وارتفاعها ١,٧٢م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهي تؤدي بالداخل من باب الحفاة إلى الرواق الغربي للجامع (شكل ٩).

الرواقان الجنوبي والشمالي (لوحة ٤٤):

يلاحظ أنهما متشابهان تمامًا، إذ يبلغ طول كل منهما من الشرق إلى الغرب ٢٨م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٤,٥٠م، ويطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن (شكل ١٠/ ب) (لوحة ٤٢)،

(1) Basset, H., et Terrasse, H., : Ibid., pp. 333, 344 - 345.

ويغطي كل منهما سقف خشبي جمالوني الشكل يشبه الأسقف التي تغطي البلاطات العمودية برواق القبلة السابق وصفها تمامًا (لوحة ٤٤)، وقد غطي من الخارج بحطات من القرميد.

بيت المنبر:

يقع على يمين المصلي في المحراب ويبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج بمقدار ٢,٦٠م، ويشتمل جداره الشرقي على فتحة باب تطل على الشارع الذي يحد الجامع من الجهة الشرقية وقد سبق وصفها عند وصف الواجهة الشرقية للجامع، كما يشتمل جداره الغربي على فتحة باب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة (لوحة ٤٠)، ويشغل بيت المنبر مساحة مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب ٣م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١.٢٠م تقريبًا، ويوجد في أرضيتها قضيبان من الحديد في وضع متوازٍ بنفس اتساع قاعدة المنبر، التي تثبت فيها عجلات تسهل سير وتحريك المنبر إلى خارج هذه الحجرة، ويستمر هذان القضيبان خارج هذه الحجرة حيث يتقدمان فتحة بابها، بأرضية البلاطة التي تتقدم المحراب(لوحة ٤٢).

بيت الخطيب:

يقع على يسار المصلي في المحراب ويبرز عن سمت جدار القبلة بمقدار ٢.٢٠م، ويشتمل جداره الشرقي على فتحة باب تؤدي إلى مصلى الجنائز الملاصق له (شكل ٩)، كما يشتمل جداره الغربي على فتحة باب سبق وصفها عند وصف جدار القبلة (لوحة ٤٠)، ويشغل بيت الخطيب مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣.٨٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢,٨٨م، فرشت بالزليج المتعدد الألوان ويغطيها سقف خشبي مسطح خالٍ من الزخرفة، وتجدر الإشارة إلى أن بيت الخطيب يستخدم حاليًا هو ومصلى الجنائز كسكن خاص لمؤذن الجامع.

مصلى الجنائز:

يقع إلى الشرق من بيت الخطيب وبينهما جدار مشترك به فتحة باب سبق وصفها عند وصف بيت الخطيب (شكل ٩)، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب بجداره الجنوبي سبق وصفها عند وصف الواجهة الشرقية للجامع، وهو يشغل مساحةً مستطيلة الشكل تعرض تخطيطها لبعض التعديلات بعد أن استخدمت إلى جانب بيت الخطيب كسكن خاص لمؤذن الجامع كما سبقت الإشارة.

خزانة الكتب:

تقع خلف جدار القبلة من الناحية الشمالية الشرقية، وكان يتوصل إليها من خلال بابين سد أحدهما حاليًا بالبناء، أما الآخر فيوجد بالطرف الشمالي الشرقي لجدار القبلة سبق وصفه عند وصف هذا الجدار (شكل ٩)، وتشغل خزانة الكتب مساحةً مربعة الشكل طول

ضلعها ٧.٢٠م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان وغطيت بقبة خشبية. ويشتمل كل من الجدار الشمالي والشرقي والجنوبي لهذه الخزانة على ثلاث دخلات مستطيلة متشابهة تمامًا (شكل ٩)، حيث يبلغ عمق كل منها ٠.٦٠م واتساعها ٢م، وارتفاعها ٢.٧٠م، يشتمل كل منها على ثلاثة أرفف لوضع الكتب، ويحيط بكل دخلة منها شريط من الجص اتساعه ٠.٢٤م تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية" يلاحظ تساقط أجزاء كبيرة من هذا الشريط بفعل الرطوبة والإهمال الشديد الذي تعرضت له هذه القاعة، حيث تستخدم حاليًا لحفظ الحصر التالفة وغيرها من مخلفات فرش الجامع، ويشتمل الجزء العلوي لكل من الجدارين الشرقي والجنوبي لخزانة الكتب على ثلاث نوافذ مستطيلة غشيت كل منها بستارة من الجص المعشق بالزجاج الملون في تشكيلات هندسية.

بيت الاعتكاف:

يقع خلف القطاع الجنوبي الشرقي للواجهة الجنوبية للجامع (شكل ٩)، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب بالجدار الجنوبي لرواق القبلة سبق وصفها عند وصف هذا الجدار (الشكلان ٩، ١٠/ ج)، وهي تؤدي إلى سلم صاعد تهدمت معظم درجاته حاليًا، كان يوصل إلى فتحتي بابين أحدهما إلى يسار الصاعد يؤدي إلى مساحة صغيرة مستطيلة الشكل تشتمل على سلم خشبي متحرك يصعد من خلاله إلى سطح الجامع، أما فتحة الباب الثانية فتوجد في مواجهة الصاعد وتفضي إلى بيت الاعتكاف الذي يشغل مساحةً مستطيلةً غطيت بسقف خشبي مسطح، وهو يطل على البلاطة الموازية لجدار القبلة التي تتقدم المحراب مباشرةً ببائكة مكونة من ثلاثة أعمدة مستديرة من الرخام الأسود أحدهما في الوسط والعمودان الآخران مدمجان في الأركان، يعلو كل منهما تاج من الرخام الأسود زين بزخارف نباتية، وتحمل هذه الأعمدة عقدين على هيئة حدوة فرس، سدت فتحة كل منهما حاليًا بالبناء، نظرًا لحالة الخراب الشديدة التي وصل إليها بيت الاعتكاف، كما سد الجزء السفلي لهذه البائكة بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ١.٤٠م (شكل ١٠/ ج) (اللوحتان ٣٤، ٤٣).

المئذنة (شكل ١٠/ أ):

شيدت هذه المئذنة بملاصقة الطرف الجنوبي للواجهة الغربية للجامع (شكل ٩)، ويلاحظ أن الواجهة الجنوبية هي الواجهة الوحيدة التي لم يحجبها بناء حديث، بينما شيد إلى جوار الواجهتين الغربية والشمالية مسجد صغير ومجموعة حوانيت حديثة، لذا لا يظهر من هاتين الواجهتين سوى الأجزاء العليا (لوحة ٤٥). وهي تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري للمآذن المغربية ذات التخطيط المربع، حيث تتكون من طابقين مربعي المسقط يبلغ ارتفاعهما الكلي من مستوى الأرض ١٧.٥٠م، يلاحظ أن الطابق الأول أكبر حجمًا وأكثر

ارتفاعًا من الطابق الثاني، حيث يبلغ طول ضلعه ٩م وارتفاعه ١١,٥٠م، بينما يبلغ طول ضلع الطابق الثاني ٣,٢٥م وارتفاعه ٧م، ويتوجه صف من شرافات مدرجة يبلغ ارتفاع كل منها ٠,٤٥م، ويلاصق الجدار الشرقي لهذا الطابق صاري مرتفع من الخشب ترفع من عليه راية بيضاء إيذانًا بموعد الأذان (لوحة ٤٥).

على أن هذه المئذنة تنفرد عن غيرها من المآذن المغربية – على حد علمي- باشتمالها على سلم صاعد مكشوف يلاصق الواجهة الشرقية لطابقها الثاني (لوحة ٤٥)، وهو يتكون من ثماني درجات تؤدي إلى نهاية الطابق الثاني حيث يقف المؤذن لرفع الأذان، ويلاحظ أن لهذا السلم الصاعد سياج أو سترة مبنية تمنع المؤذن من النظر إلى الدور المجاورة، سيما وأن هذه المئذنة قليلة الارتفاع (لوحة ٤٥).

ويتوصل إلى داخل هذه المئذنة من خلال فتحة باب تقع بالطرف الجنوبي الغربي للجدار الغربي للجامع (شكل ٩) سبق وصفه عند وصف هذا الجدار، وهو يؤدي إلى ممر مستطيل الشكل يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٣,٥٠م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١,٣٠م، يؤدي إلى فتحتي بابين إحداهما على يسار الداخل يبلغ اتساعها ٠,٩٠م وارتفاعها ١,٧٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يوصل إلى حجرة صغيرة مستطيلة تستخدم حاليًا للتخزين، أما الثانية فتوجد على يمين الداخل يبلغ اتساعها ١,٣٠م وتفضي إلى سلم صاعد يوصل إلى نهاية الطابق الأول، ويبلغ اتساعه ١,٣٢م ويشتمل على ٧٢ درجة ارتفاع قائمة كل منها ٠,١٦م واتساع نائمتها ٠,٤٧م، وقد غطي بأقبية برميلية وأخرى متقاطعة، ويدور هذا السلم حول بناء مركزي يحتوي على عدة غرف صغيرة أو دخلات عميقة، وضعت في إحداها الثريا البرونزية التي كانت معلقة برواق القبلة كما سبقت الإشارة، ويلاحظ أن هذا السلم لا يؤدي إلى الممشى الذي يفصل بين الطابقين الأول والثاني للمئذنة كما جرت العادة في المآذن المغربية، وإنما يؤدي إلى غرفة تتخلل بدن الطابق الثاني، وهي تعرف ببيت المؤذن وتشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢,٦٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢,١٨م غطيت بسقف خشبي مسطح، ويشتمل كل من جدارها الغربي والشمالي والجنوبي على نافذة مستطيلة اتساعها ٠,٤٦م وارتفاعها ٠,٦٥م، بينما يشتمل جدارها الشرقي على فتحة باب يبلغ اتساعها ٠,٦٠م وارتفاعها ١,٦٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى السلم المكشوف الملاصق للواجهة الشرقية للطابق الثاني للمئذنة، وقد سبق وصفه.

ويلاحظ أن الواجهات الخارجية لطابقي المئذنة خالية تمامًا من الزخرفة، واكتفي بتغطية مداميك الآجر المستخدمة في تشييدها بطبقة من الملاط الجصي، ويشتمل الجزء العلوي لكل واجهة من الواجهات الأربعة للطابق الأول على دخلة مستطيلة يبلغ عمقها ٠,٣٠م وارتفاعها ١م وطولها ٦م، بصدر كل منها مجموعة تجويفات عميقة (لوحة ٤٥)، ربما كان

الغرض من هذه الدخلات تخفيف الضغط الناتج عن ارتفاع جدران هذا الطابق وسمكها الذي يصل إلى ٢م.

المرافق الخارجية للجامع:

الميضأة:

تقع هذه الميضأة في مقابل الواجهة الشمالية للجامع لا يفصلهما، كما سبقت الإشارة، سوى شارع ضيق عرضه ٢.٧٠م يسمى درب الحمام، ويعلو هذا الشارع ساباط يربط بين الواجهة الشمالية للجامع والواجهة الجنوبية للميضأة شيدت بأعلاه وحدات سكنية كما سبقت الإشارة، ويحدها من الجهتين الشرقية والشمالية دور سكنية، أما واجهتها الغربية فلا يظهر منها سوى المدخل المؤدي إلى هذه الميضأة، بينما حجبت السقاية التابعة للجامع الجزء المتبقي من هذه الواجهة.

مدخل الميضأة:

يقع بالطرف الجنوبي للواجهة الغربية للميضأة، ويبلغ اتساع فتحته ١.٨٣م وارتفاعها ٢.٤٠م وعمقها ٠.٦٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين مصفحين بالمعدن، يوصل إلى دركاة مستطيلة طولها من الشمال إلى الجنوب ٢.٢٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١.٨٠م غطيت بقبو متقاطع، تؤدي بدورها إلى دهليز مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٤.٧٠م وعرضه من الشرق إلى الغرب ١.٥٠م غطي بقبو نصف برميلي، وهو يؤدي إلى الفناء المكشوف للميضأة.

فناء الميضأة:

يشغل مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٨.٢٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٥م، ويتوسطه بناء مستطيل الشكل يبلغ ارتفاع جدرانه ٦م وطوله من الشمال إلى الجنوب ١١.٦٥م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٦.٦٥م، يشتمل كل من جداره الشرقي والغربي على فتحة يبلغ اتساعها ٢.٩٨م وارتفاعها ٣.٢٧م وعمقها ٠.٦٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، بينما يشتمل كل من جداره الشمالي والجنوبي على فتحتين يبلغ اتساع كل منها ٢.٧٦م وارتفاعها ٢.٩٥م وعمقها ٠.٦٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغطي هذا البناء سقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة، وغطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر. ويتوسط هذا البناء حوض مستطيل الشكل يبلغ عمقه ٠.٨٠م وسمك جدرانه ٠.١٤م ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٧.٥٥م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٢.٣٠م محاط بقناة لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء يبلغ عمقها ٠.٢٨م واتساعها ٠.٣٢م وسمك جدرانها ٠.٣٢م أيضًا.

ويطل على فناء هذه الميضأة مجموعة من المراحيض يبلغ عددها ٣٤ مرحاضًا، عشرة

بكل جهة من جهتيه الشمالية والجنوبية، وسبعة بكل جهة من جهتيه الشرقية والغربية، يشغل كل مرحاض منها مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها ٢.١٥م وعرضها ١.٢٠م ويغطيه سقف برميلي الشكل فتحت فيه طاقة صغيرة مستديرة الشكل للتهوية والإضاءة، ولكل مرحاض فتحة باب اتساعها ٠.٦٠م وارتفاعها ١.٧٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الميضأة ما زالت تؤدي وظيفتها حتى الآن غير أنها أصبحت تابعةً لبلدية مدينة مراكش.

السقاية (الشكلان ١١، ١٢) (لوحة ٤٦):

يرجع تاريخ إنشاء هذه السقاية وفقًا للروايات التاريخية إلى نفس تاريخ بناء الجامع سنة (٩٧٠ هـ/ ١٥٦٢م)، والتي أفادت أيضًا أن وظيفة هذه السقاية لم تكن قاصرةً على تزويد الجامع وملحقاته فقط بالماء العذب، وإنما كانت تزود مختلف منشآت حي المواسين بالماء العذب أيضًا[1].

وتقع هذه السقاية إلى الغرب من ميضأة الجامع السابق وصفها، حيث شيدت واجهتها الشرقية بملاصقة الواجهة الغربية لهذه الميضأة، وهي تطل بواجهتها الجنوبية على درب الحمام وبواجهتها الغربية على طريق السويقة، بينما يحدها من الجهة الشمالية الحمام التابع للجامع (لوحة ٤٦)، وهي تشغل مساحةً مستطيلة الشكل تبلغ ١٠٨.٦٠م٢، حيث يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٨.١٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٦م (شكل ١١).

وهي تشبه في شكلها العام التكوين المعماري لسقاية جامع باب دكّالة السابق وصفها (الشكلان ٥، ٦)، حيث تطل بواجهتها الغربية على طريق السويقة ببائكة تتكون من ثلاث دعامات من الآجر في الوسط على هيئة حرف T ودعامتين مدمجتين في الأطراف، وتحمل هذه الدعامات أربعة عقود، العقود الثلاث من الطرف الشمالي الغربي على هيئة حدوة فرس، أما العقد الرابع الذي بالطرف الجنوبي الغربي فهو عقد خشبي مطنف (الشكلان ١١، ١٢) (لوحة ٤٦)، أما العقود الثلاث التي على هيئة حدوة فرس فيلاحظ أن أوسطها أكثرها اتساعًا، حيث يبلغ اتساعه ٣.٢٠م بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبين ٢.٤٥م، ويبلغ ارتفاع كل عقد من هذه العقود الثلاث ٣.٧٠م، ويتوج الواجهة أعلى هذه العقود الثلاث صف من كوابيل جصية خالية من الزخرفة، يعلوها حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ١٢) (لوحة ٤٦).

أما العقد الرابع الذي بالطرف الجنوبي الغربي لهذه السقاية (شكل ١٢) (لوحة ٤٦)،

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٩؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٠؛

Marçais, G., : Op. Cit., p. 410; Deverdun, G., : Op. Cit., p. 160.

فهو خشبي مطنف يبلغ اتساع فتحته ٣م وارتفاعه ٤.٥٠م، ويعلو الدعامتين الحاملتين لهذا العقد حرمدانان من الجص زين سطح كل منهما بزخارف هندسية ونباتية متنوعة بينما زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، ويرتكز عليهما طنفان خشبيان في كل جانب يعلوهما عتب خشبي ليبدو العقد المطنف بهيئته الكاملة، وقد زين كل من الطنفين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، أما العتب العلوي فتزينه كتابات من الشعر نفذت بالخط الثلث على مهاد من زخارف نباتية، وهي تشبه مثيلتها المنفذة على سقاية باب دكالة السابق وصفها، ونصها:

"احسن ما صرف فيه المقال الحمد لله على كل حال"

(شكل ١٢)، وقد زين هذا العتب العلوي من الداخل أيضًا بكتابات من الشعر نفذت بالخط الثلث على مهاد من زخارف نباتية، نصها:

"بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا"

يعلو ذلك عتب من الخشب زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة تآكل معظمها، يعلوه رفرف خشبي يرتكز على صف من كوابيل خشبية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وقد غطي هذا الرفرف بحطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ١٢) (لوحة ٤٦).

أما بالنسبة للسقاية من الداخل فيلاحظ أنها مقسمة إلى أربعة أقسام، حيث تؤدي كل فتحة معقودة من الفتحات الأربعة السابق وصفها إلى مساحة مستطيلة (شكل ١١)، بالنسبة للمساحتين الأولى والثالثة من الشمال إلى الجنوب فمتشابهتان تمامًا، حيث يبلغ طول كل منهما من الشرق إلى الغرب ٥.٥٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣.٦٠م، بينما يبلغ طول المساحة الوسطى ٤.٧٠م وعرضها ٣.٨٢م وقد فرشت أرضية كل منها بالزليج المتعدد الألوان ويغطيها قبو متقاطع، ويلاحظ أن هذه المساحات الثلاثة متصلة من الداخل بعضها ببعض، حيث تطل كل من المساحتين الجانبيتين على المساحة الوسطى بفتحة معقودة بعقد على هيئة حدوة فرس يرتكز على دعامتين مدمجتين في الجدارين الغربي والشرقي، اتساع فتحته ٣م وارتفاعه ٣.٢٠م (شكل ١١)، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من السقاية كان مخصصًا لشرب الدواب.

وأما المساحة الرابعة والتي تقع بالطرف الجنوبي الغربي لهذه السقاية، فهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٦.٩٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣م، يلاحظ أنها مقسمة إلى قسمين مستطيلين أيضًا (الشكلان ١١، ١٣)، القسم الخارجي طوله من الشرق إلى الغرب ٣.٤٢م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٣م، فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان، ويغطيه سقف خشبي مسطح يمتد أسفله إزار من الخشب زين بسلسلة من عقود مفصصة متجاورة بداخل كل منها كتابة بالخط الكوفي نصها كلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، وبأسفل هذا الإزار حشوة متسعة من الجص زينت بزخارف هندسية تحصر بداخلها زخارف

نباتية دقيقة، ويوجد أسفل هذه الحشوة شريط ضيق من الجص زين بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، ويحد هذا القسم الخارجي من الجهة الشرقية حوض مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب ٣م، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٠.٤٧م وعمقه ٠.٣٧م وارتفاع جدرانه ٠.٤٠م، يليه القسم الداخلي ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ٣م، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٢.٠٥م فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان وغطي سقفه بقبو نصف برميلي (شكل ١٣)، ويتوسط الجدار الشرقي لهذا القسم أنبوبة من المعدن مغيبة داخل هذا الجدار لتتصل بمصدر الماء الذي يزود هذه السقاية ويقع خلف جدارها الشرقي (شكل ١٣)، ويصب الماء الخارج من هذه الأنبوبة في القسم الداخلي السابق وصفه والذي يحده من الجهة الغربية جدار يبلغ ارتفاعه ٠.٧٠م يشتمل جزؤه العلوي على ثلاثة أنابيب من المعدن يصب الماء الناتج منها في الحوض الذي يحد القسم الخارجي من الجهة الشرقية وقد سبق وصفه، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجزء من السقاية كان مخصصًا لتوفير الماء العذب للإنسان دون الدواب، غير ان هذه السقاية معطلة حاليًا حيث أوقف جريان الماء بها منذ فترة طويلة، ويعلو هذه السقاية والحمام المجاور لها من الناحية الشمالية عدة وحدات معمارية (لوحة ٤٦) ربما كانت مخصصةً لسكن آرباب الوظائف بالجامع وملحقاته، وربما كانت بمثابة مكتب لتعليم الصبيان كما هو الحال في سقاية الزاوية الجزولية التي ارتبط فيها الكتاب والسبيل، غير أنها تستخدم حاليًا كسكن خاص.

خلوة الأسبوع:

تقع هذه الخلوة بأعلى الساباط الذي يصل بين القطاع الغربي للواجهة الجنوبية للجامع بجدار المبنى المقابل لها، وهي عبارة عن غرفة مستطيلة طولها ٤.٥٠م وعرضها ٣.٥٥م، ويتوصل إليها من آعلى سطح الجامع، غير أنها في حالة سيئة من الخراب حاليًا.

الحمام:

يقع هذا الحمام إلى الشمال من السقاية التابعة للجامع كما سبقت الإشارة، حيث شيد بملاصقة واجهتها الشمالية مباشرةً، ويطل بمدخله الرئيس على طريق السويقة (لوحة ٤٦)، وهو يشغل مساحةً مستطيلةً تعرضت للعديد من أعمال الإصلاح والتجديد مما غير من تخطيطها الداخلي إلى حد ما، ورغم أن هذا الحمام لا يزال يقوم بأداء وظيفته إلا أنه لم يعد تابعًا للجامع، وإنما يتبع حاليًا بلدية مدينة مراكش.

المدرسة:

تقع هذه المدرسة إلى الغرب من الجامع على بعد نحو ١٠٠م، غير أنها لم تعد تابعةً للجامع حاليًا بعد أن تغيرت وظيفتها وأصبحت تستخدم كسكن خاص، وسوف نعود إلى وصفها في الجزء الخاص بالمدارس.

جامع أبي العباس السبتي بمراكش

المنشئ:

شيده السلطان عبد العزيز[١] بن أحمد المنصور، المكنى بأبي فارس والملقب بالواثق بالله[٢]، بايعه أهل مراكش خلفًا لوالده المنصور الذي تُوُفِّيَ في شهر ربيع الأول عام (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) في نفس الوقت الذي بايع فيه أهل فاس أخاه زيدان، غير أن أبا فارس لم يستمر في الحكم طويلاً حيث تعرض جيشه للهزيمة أمام جيش أخيه محمد المأمون، الذي استولى على مراكش في منتصف عام (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، ومنذ ذلك التاريخ أصبح أبو فارس مجرد تابع لأخيه المأمون ثمَّ لابنه عبد الله بن المأمون إلى أن قتله هذا الأخير خنقًا سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م) [٣].

الموقع وتاريخ الإنشاء:

يقع هذا الجامع بحي باب تَاغزُوت إلى جوار ضريح أبي العباس السبتي[٤] في شمال مدينة مراكش (خريطة ٦)، لذا فقد انسحب عليه اسم هذا الصوفي الكبير فعرف بمسجد أبي العباس السبتي وبالمسجد العباسي[٥]، ويؤلف هذا الجامع السعدي هو وميضأته والمدرسة الملحقة به والمجاوران لواجهته الجنوبية مع ضريح هذا الصوفي الكبير والوحدات المعمارية الملحقة به من سقاية وحمام ووحدات سكنية وأفران ومجزر لذبح النذور وحوانيت تجارية (سوق المجادلين)، والتي ترجع جميعها إلى العصر العلوي، مجموعة معمارية تعرف حاليًا

---

(١) هذا الاسم "عبد العزيز" ذكره كل من ابن القاضي (ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م)، والمقري (١٠٤١ هـ / ١٦٣٢م)، بينما ذكر كل من الإفراني والناصري المتأخرين عن العصر السعدي أنه يسمى "عبد الله". انظر: ابن القاضي: درة الحجال، الجزء الثالث، ص ١٢٨؛ المقري: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٢) المقري: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص ٨٣ – ٩٢؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ص ١٩٣ – ١٩٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ص ٧ – ١٠، ١٢ – ١٧.

(٤) هو الصوفي الشهير أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، ولد بمدينة سبتة عام (٥٢٤ هـ / ١١٢٩م)، ثمَّ نزل مدينة مراكش وبها مات عام (٦٠١ هـ / ١٢٠٤م) ودفن بباب تَاغزُوت في موضع قبره المتعارف عليه حتى الآن بشمال مدينة مراكش. التادلي: المصدر السابق، ح ٧٦٦، ص ٢٩٥؛ عبد اللطيف التباع: ترجمة الشيخ أبي العباس السبتي، مخطوط خاص، ص ١٥. وقد ظل قبر أبي العباس غير حافل بالبناء إلى أن قام السلطان إسماعيل العلوي ببناء قبة صغيرة عليه سنة (١١٣٢ هـ / ١٧١٩ – ١٧٢٠م)، أما القبة والضريح القائم حاليًا فهو من إنشاء السلطان محمد بن عبد الله العلوي سنة (١١٧٠ هـ / ١٧٥٦م). عبد اللطيف التباع: المرجع نفسه، ص ص ٧، ١٤؛ محمد بوسته: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥) عبد اللطيف التباع: المرجع السابق، ص ١٥.

بزاوية سيدي بلعباس[١] (شكل ١٤). ويطل هذا الجامع بكل من واجهته الغربية والشمالية على ساحة كبيرة مكشوفة تابعة لضريح أبي العباس السبتي، ويحد واجهته الشرقية المصلى الجنائزي الملحق بالجامع ودور سكنية حديثة، أما واجهته الجنوبية فتطل على كل من المدرسة والميضأة التابعتين للجامع (شكل ١٤).

والواقع أن الدراسات – القليلة- التي أشارت إلى المساجد السعدية من الناحية الأثرية والمعمارية لم تشر إلى هذا الجامع مطلقاً[٢]، بل إن بعض الباحثين نسبه إلى السلطان عبد الله الغالب[٣]، على الرغم من تأكيد العديد من المصادر التاريخية إلى أنه من إنشاء السلطان أبي فارس بن أحمد المنصور[٤]، وذكرت أن هذا السلطان كان: "عظيم البطن أكولاً مصاباً بمس الجن، ويقال أنه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ العارف بالله أبي العباس السبتي وشيد بناءه وشحن الخزانة التي بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وتحف الكتب كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الولي بالبرء من تلك العلة" [٥]. غير أن هذه المصادر سكتت عن تاريخ بناء أبي فارس لهذا الجامع، وإن كان يرجح أنه شيده سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) بعد أن بايعه أهل مراكش خلفاً لوالده المنصور كما سبقت الإشارة[٦].

التخطيط المعماري للجامع (شكل ١٤):

يشغل هذا الجامع مساحة من الأرض مستطيلة الشكل تبلغ ١٦٢٨م٢، وتخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، كما تضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى بعضها داخل حدود عمارته كبيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز وخزانة الكتب وبيت الاعتكاف، وبعضها الآخر خارج حدوده كالمدرسة والميضأة.

وقد استخدم الآجر في بناء الجامع وملحقاته، واستخدم الخشب في الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك وما به من أثاث ديني كالمنبر، واستعمل الجص في كسوة الجدران وبواطن القباب، كما أن بعض النوافذ غشيت بالجص المفرغ في تشكيلات هندسية، كما استخدم الزليج في كسوة أرضية الصحن، واستعمل الرخام في عمل بعض الأعمدة والفسقية

(1) Marçais, G., : Op. Cit., p. 386.

(٢) انظر على سبيل المثال:

Marçais, G., : Manuel d'Art Musulman, II, pp. 695 - 698; Marçais, G., : L'Architecture Musulmane d'Occident, pp. 384 - 386; Basset, H., et Terrasse, H., : Op. Cit., pp. 304 - 345.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١١؛ ولنفس المؤلف: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٤.

(٤) المقري: المصدر السابق، ص ٥٩؛ الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

(٦) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٩؛ عبد اللطيف التباع: المرجع السابق، ص ١٥.

التي تتوسط الصحن، في حين استعمل القرميد المزجج باللون الأخضر في تغطية الأسطح.

الوصف المعماري للجامع:

أولاً- الوصف الخارجي:

الواجهة الغربية (شكل ١٥) (لوحة ٤٧):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٣٧,٥٠م، وهي الواجهة الرئيسية لهذا الجامع، ويلاحظ أنها تمتد في استقامة واحدة وبوسطها مدخل بارز، وقد شيدت مئذنة الجامع بملاصقة الطرف الشمالي الغربي لهذه الواجهة (الشكلان ١٥، ١٦) (لوحة ٤٧).

المدخل الرئيس (شكل ١٥):

يتوسط الواجهة الغربية ويبرز عن سمتها - كما سبقت الإشارة - بمقدار ٢,٢٠م ويبلغ اتساع واجهته ٤,١٠م بصدرها فتحة باب اتساعها ٢,٥٠م وارتفاعها ٣,٧٠م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا، يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، ويتوج واجهة المدخل حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٤٧)، ويتوصل من فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

الواجهة الشمالية (لوحة ٤٨):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٣٩م، وهي تمتد في استقامة واحدة ويلاصق طرفها الغربي مئذنة الجامع التي تبرز عن سمتها بمقدار ٤م، وعلى بعد ٢١م من طرفها الغربي أيضًا يوجد مدخل بارز حجبت المساحة الواقعة بينه وبين المئذنة، بمجموعة وحدات سكنية من طابقين خصصت للطلبة المكفوفين المرتبين بزاوية أبي العباس السبتي (لوحة ٤٨)، ثمَّ تمتد هذه الواجهة بعد ذلك في استقامتها حتى نهايتها في الاتجاه الشمالي الشرقي، حيث تبدأ بعد ذلك واجهة مصلى الجنائز الذي يقع خلف جدار القبلة، ويلاحظ أن بها ورروب عن الواجهة الشمالية للجامع، وتشتمل على فتحة باب اتساعها ١,٥٠م وارتفاعها ٢,٢٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، يؤدي إلى مصلى الجنائز السابق ذكره (شكل ١٤) (لوحة ٤٨)، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الواجهة الشمالية قد فتح بقطاعها الغربي حديثًا باب يلي المئذنة مباشرة، يغلق عليه مصراعان من الحديد غشي كل منهما بالزجاج، وهو يؤدي إلى الرواق الشمالي للجامع.

مدخل الواجهة الشمالية:

يقع على بعد ٢١م من الطرف الغربي لهذه الواجهة كما سبقت الإشارة، وهو يبرز عن سمتها بمقدار ١,٩٥م، يبلغ اتساع حنيته ٤م وبصدرها فتحة باب اتساعها ٢,٤٠م وارتفاعها ٣,٨٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما

بتسعة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة المدخل حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، ويتوصل من فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٣٣م، وقد حجبتها تمامًا مجموعة دور سكنية حديثة شيدت إلى جوارها وجوار مصلى الجنائز الذي يلاصق قطاعها الشمالي (شكل ١٤).

الواجهة الجنوبية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٣٩م، وقد شيد بملاصقة قطاعها الشرقي بيت الاعتكاف الملحق بالجامع، وإلى الغرب منه يوجد مدخل يقع على محور مدخل الواجهة الشمالية السابق وصفه وهما متشابهان تمامًا، ويتقدم هذا المدخل ممر مغطى يوصل إلى مدخل المدرسة التابعة للجامع والمشيدة إلى جوار واجهته الجنوبية.

ثانيًا: الوصف الداخلي:

الدركاوات:

وضح من الوصف الخارجي لواجهات هذا الجامع أنه يشتمل على ثلاثة مداخل، أحدها وهو الرئيس يتوسط الواجهة الغربية، وآخر بالواجهة الشمالية يقابله المدخل الثالث بالواجهة الجنوبية، ويلي كل مدخل منها دركاة، يلاحظ أنها متشابهة تمامًا، حيث تشغل كل منها مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ٢.٨٧م وعرضها ١.٤٧م، التي تلي المدخل الرئيس غطيت بقبو متقاطع ويصدرها فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس يبلغ اتساعها ٢.٥٠م تؤدي إلى الرواق الغربي للجامع، ويغطي الجزء الذي يتقدم هذه الدركاة سقف خشبي مربع المسقط هرمي الشكل غطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ١٦/ أ)، أما بالنسبة للدركاة التي تلي كل من مدخل الواجهة الشمالية والجنوبية، فقد غطيت كل منهما بسقف مسطح زين باطنه بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص، ويصدر كل دركاة منهما فتحة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، تؤدي كل منهما إلى رواق القبلة (شكل ١٤).

الصحن:

يتوصل إلى الصحن من خلال المداخل الثلاثة السابق وصفها بعد اجتياز دركاواتها والأروقة التي تؤدي إليها هذه الدركاوات، ويتوصل من هذه الأروقة إلى الصحن، وهو يشغل مساحة مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٢١.١٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٤.١٢م، فرشت أرضيته بالزليج الأبيض والأسود في تشكيلات هندسية، وهي تنخفض عن مستوى أرضية الأروقة الأربعة بمقدار ٠.١٢م، وتتوسطه فسقية حديثة من الرخام الأبيض حلت مكان الفسقية القديمة التي تعرضت للتلف.

وتطل الأروقة الأربعة على الصحن بأربع واجهات يلاحظ أن كل واجهة تشبه الواجهة المقابلة لها تمامًا، فالواجهتان الشرقية والغربية (اللوحتان ٤٩، ٥٠) تشرف كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من أربع دعامات من الآجر في الوسط على هيئة الصليب في الواجهة الشرقية وعلى هيئة حرف T في الواجهة الغربية، وعلى دعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، يبلغ ارتفاع كل دعامة منها من مستوى أرضية الأروقة حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٤٨م، ويرتكز عليها خمسة عقود من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، يلاحظ أن العقد الأوسط بكل واجهة من هاتين الواجهتين أكثر اتساعًا وارتفاعًا من العقود الجانبية، حيث يبلغ اتساع فتحته ٣.٣٠م وارتفاعه ٥.١٥م، بينما يبلغ اتساع فتحة كل عقد من العقود الأربع الجانبية ٢.٢٣م وارتفاعه ٥م، وقد غشي الجزء السفلي لفتحات هذه العقود بالسلك في هيئة الأحجبة يبلغ ارتفاعها ٢.٤٨م توجت بصف من شرافات مدرجة، باستثناء العقد الأوسط للواجهة الشرقية (لوحة ٤٩) حيث سد بحجاب من الخشب يبلغ ارتفاعه ٢.٤٠م توج بصف من شرافات خشبية مدرجة، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام (لوحة ٥١)، الأوسط يبلغ اتساعه ١.٤٥م زين بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ويتوجه عقد على هيئة حدوة فرس بصدره كتابات بالخط الكوفي المربع، نصها: "صلي على الفاضل محمد"، أما القسمان الجانبيان فيبلغ اتساع كل منهما ١م ويشتمل كل قسم على خوخة اتساعها ٠.٦٠م وارتفاعها ١.٧٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى رواق القبلة، ويعلو كل قسم من هذين القسمين حشوة مستطيلة زينت بزخارف هندسية نفذت بطريقة الحفر، ويلاحظ أن أرضية الصحن تشتمل أسفل القسم الأوسط لهذا الحجاب على حنية ذات خمسة أضلاع يبلغ عمقها ٠.٧٨م واتساعها ٠.٧٠م تقع على نفس محور المحراب (لوحة ٥١)، حيث يستخدم هذا الحجاب والحنية التي بأسفله كمحراب يحدد اتجاه القبلة عند استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف، لذا فإنه يعرف بالمحراب الصيفي كما سبقت الإشارة.

أما الواجهتان الشمالية والجنوبية (شكل ١٦/ ب) (لوحة ٥٢)، فتشرف كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من دعامتين من الآجر على هيئة حرف T في الوسط، وعلى دعامتين على شكل زاوية قائمة في الأركان، يبلغ ارتفاع كل دعامة منها من مستوى أرضية الأروقة حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٤٨م، وترتكز على هذه الدعامات ثلاثة عقود من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، يلاحظ أن فتحة العقد الأوسط بكل واجهة من هاتين الواجهتين أكثر اتساعًا وارتفاعًا من العقدين الجانبيين، حيث يبلغ اتساعه ٣.٣٣م وارتفاعه ٥.١٥م، بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ٢.٧٨م وارتفاعه ٥م، وقد غشي الجزء السفلي لفتحات هذه العقود، باستثناء العقد الأوسط بكل من هاتين الواجهتين، بالسلك في هيئة

الأحجبة تشبه مثيلاتها السابق وصفها بالواجهتين الشرقية والغربية (اللوحات ٤٩، ٥٠، ٥٢).

الأروقة الأربعة للجامع

رواق القبلة:

يقع إلى الشرق من الصحن، وهو أكبر أروقة الجامع وأعمقها، ويشغل مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢٩.٤٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٩م، ويطل على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٤٩)، ويشتمل هذا الرواق على بلاطة واحدة عقودها موازية لجدار القبلة وهي التي تتقدم المحراب مباشرةً، ويوجد بين هذه البلاطة والبائكة التي تطل على الصحن السابق وصفها، سبع بلاطات تمتد عقودها عموديةً على اتجاه جدار القبلة (الشكلان ١٤، ١٦/ ج) البلاطة التي تتقدم المحراب يبلغ اتساعها ٤.١٠م وبها بائكة مكونة من ست دعامات من الآجر على هيئة حرف T في الوسط أدمج في بعضها أربعة أعمدة من الجص وفي بعضها الآخر ثلاثة أعمدة فقط، وعلى دعامتين مدمجتين في الجدارين الجنوبي والشمالي للجامع، يبلغ ارتفاع كل دعامة منها من مستوى أرضية رواق القبلة حتى مستوى مأخذي العقد ٢.٤٨م، وقد غطي الجزء السفلي لهذه الدعامات كغيرها من دعامات الجامع وجدرانه الداخلية بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٠م من مستوى أرضية أروقة الجامع (لوحة ٥٣)، وترتكز على هذه الدعامات سبعة عقود موازية لجدار القبلة، العقد الأوسط من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، بينما العقود الست الجانبية فعلى هيئة حدوة فرس زين باطنها بوسائد زخرفية مسننة من الجص، كما ترتكز على هذه الدعامات وعلى جدار القبلة أربعة عقود تمتد عموديةً على هذا الجدار، وهي تشبه العقد الأوسط الموازي السابق وصفه (لوحة ٥٣)، وتشكل هذه العقود بتعامدها على جدار القبلة ثلاث مساحات مربعة واحدة في الوسط تتقدم المحراب وواحدة في كل جانب، غطيت كل منها بقبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص (لوحة ٥٤)، تأخذ من الخارج هيئة هرمية غطيت بالقرميد (لوحة ٥٥)، بينما غطيت كل مساحة من المساحتين المستطيلتين المحصورتين بين هذه القباب بسقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة وغطي من الخارج بحطات من القرميد (لوحة ٥٥).

وأما البلاطات السبعة العمودية على اتجاه جدار القبلة، فيلاحظ أن البلاطة الوسطى العمودية على المحراب أكثر اتساعًا من البلاطات الجانبية، حيث يبلغ اتساعها ٤.٢٠م بينما يبلغ اتساع كل بلاطة من البلاطات الجانبية ٣.٥٠م، وتشتمل هذه البلاطات على ست بائكات تتكون كل منها من دعامتين مستطيلتين من الآجر في الوسط، ترتكز عليه وعلى دعامات

البائكة التي تتقدم المحراب ودعامات البائكة المطلة على الصحن، ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس (شكل ١٦/ ج) (لوحة ٥٦)، يؤطر كوشتي كل عقد حشوة متسعة من الجص زينت بزخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، وقد غطيت هذه البلاطات بأسقف خشبية جمالونية الشكل زينت بزخارف هندسية متنوعة، وغطيت من الخارج بحطات من القرميد (شكل ١٦/ ج) (لوحة ٥٥).

المحراب (شكل ١٦/ ج) (لوحة ٥٧):

يتوسط الجدار الشرقي لرواق القبلة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة اضلاع يبلغ اتساعها ١.٧٣م وعمقها ٢.٥٣م وارتفاعها ٤.٥٠، يكتنفها من الجانبين في الداخل ستة أعمدة مستديرة من الرخام غطيت حاليًا بطبقة من الجص، ثلاثة أعمدة في كل جانب يرتكز كل منها على قاعدة مستطيلة الشكل ارتفاعها ٠.٣٢م، بينما يبلغ ارتفاع كل عمود ١.٥٨م ويعلوه تاج من الرخام أيضًا زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة يبلغ ارتفاعه ٠.٣٧م، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة فرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية وهندسية متنوعة، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٠م تزينها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم صلى الله على سيدنا محمد"، ونصها على الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو" ويستمر النص على الشريط الأيسر الرأسي: "والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"[1] (لوحة ٥٧)، ويعلو الشريط الأفقي السابق وصفه مساحة مستطيلة من الجص تزينها خمس حشوات مستطيلة توج كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، ويزين كوشات هذه العقود زخارف نباتية دقيقة، زينت الحشوات الأولى والثالثة والخامسة بزخارف نباتية متنوعة، بينما زينت الحشوتان الثانية والرابعة بكتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، ويؤطر مجموع هذه الزخارف السابق وصفها شريط متسع من الجص يبلغ عرضه ٠.٤٠م زين بزخارف نباتية متنوعة، ويعلو ذلك مساحة مستطيلة تشتمل على أربعة نوافذ مستطيلة صغيرة، غشيت كل منها بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، وتحصر بينها ثلاثة مضاهيات نوافذ زينت كل منها بزخارف نباتية متنوعة، ويتوج هذه النوافذ ومضاهياتها عقود نصف مستديرة زينت كوشاتها بزخارف نباتية، يعلو ذلك القبة التي تغطي المساحة المربعة التي تتقدم المحراب السابق وصفها.

أما بالنسبة لحنية المحراب من الداخل، فيلاحظ أنها غطيت بكساء من الحصير الملون

---

(١) سورة النور، الآيتان ٣٦، ٣٧.

بارتفاع ١.٥٠م، وعلى ارتفاع ٢.٤٠م من مستوى أرضية رواق القبلة يوجد شريط من الجص يبلغ اتساعه ٠.١٣م تزينه كتابات بالخط الثلث يبدأ نصها من على يمين الواقف بداخل حنية المحراب، ونصها: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم صلى الله على سيدنا محمد يا أيها الذين آمنو اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم"[1]، يعلو ذلك سبع حنايا مستطيلة خالية من الزخرفة توجت بعقود على هيئة حدوة فرس ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص، يعلو ذلك القبة التي تغطي حنية المحراب، وهي قبة مخروطية الشكل زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص (شكل ١٦/ ج).

ويوجد بجدار القبلة ثلاثة فتحات أبواب، اثنتان منها على جانبي المحراب (لوحة ٥٧)، والثالثة بالطرف الشمالي لهذا الجدار (شكل ١٤)، أما اللتين على جانبي المحراب فيلاحظ أنهما متشابهتان تمامًا، حيث يبلغ اتساع كل منهما ٠.٨٥م وارتفاعها ٣.٣٠م يغلق عل كل منهما باب خشبي من مصراعين تزينهما زخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، ويتوج فتحة الباب التي على يمين المصلى في المحراب عقد نصف مستدير وهي تؤدي إلى بيت المنبر، بينما توجت التي على اليسار بعقد على هيئة حدوة فرس وتوصل إلى بيت الخطيب ومصلى الجنائز، وأما فتحة الباب التي بالطرف الشمالي لجدار القبلة فيبلغ اتساعها ٠.٩٢م وارتفاعها ١.٨٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين غطي كل منهما بكساء من المعدن وزين بصفوف من رءوس المسامير، وهي توصل إلى خزانة الكتب، ويشتمل الجزء العلوي لجدار القبلة على نافذتين مستطيلتين توجت كل منهما بعقد نصف مستدير، وقد غشيت كل منهما بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية.

أما الجداران الشمالي والجنوبي لرواق القبلة فمتشابهان تقريبًا، حيث يشتمل كل منهما على فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس سبق وصفهما عند وصف الدركاة التي تلي كل من مدخل الواجهة الشمالية والجنوبية، وإن كان ثمة اختلاف بين هذين الجدارين هو اشتمال الطرف الشرقي للجدار الجنوبي على فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٩٢م وارتفاعها ١.٩٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين مصفحين بالمعدن يؤدي إلى بيت الاعتكاف الملحق بالجامع.

الأثاث الديني للجامع:

المنبر (لوحة ٥٨):

هو منبر متحرك يقع على يمين المحراب، ويشبه من حيث الأبعاد والتصميم منبر جامع

---

(١) سورة الحج، الآيتان ٧٧، ٧٨.

الأشراف (المواسين) السابق وصفه، حيث يبلغ عرض قاعدته المستطيلة ٠٫٧٧م وطولها ٢٫٣٢م وارتفاعه الكلي ٣٫١٥م وقد ثبت في قوائم قاعدته أربع عجلات حديدية اثنتان بكل جانب، لتيسير تحريك المنبر على القضبان التي بأرضية بيت المنبر عند إخراجه يوم الجمعة لإلقاء الخطبة، ثمَّ عودته مرةً ثانيةً إلى موضعه بعد الانتهاء منها (لوحة ٥٨).

ويصدر قاعدة المنبر يوجد باب المقدم الذي يبلغ اتساع فتحته ٠٫٥٥م وارتفاعها ١٫٨٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويعلوه صف من شرافات مدرجة، ويؤدي باب المقدم إلى درج مكون من ست درجات ارتفاع قائمة كل منها ٠٫٢٩م واتساع نائمتها ٠٫٢٩م أيضًا، تنتهي بجلسة الخطيب التي يبلغ ارتفاع قائمتها ٠٫٢٩م واتساع نائمتها ٠٫٥٣م، وبأعلى جانبي قاعدة المنبر توجد ريشتا المنبر، ويربط بين باب المقدم وجوانب جلسة الخطيب عارضتان من الخشب، وقد زينت أجزاء المنبر بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر والتلوين بألوان متعددة (لوحة ٥٨).

الرواق الغربي (لوحة ٥٩):

يشغل مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢٩م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٣٫٦٥م، ويغطيه سقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة وهو يشبه مثيله الذي يغطي رواق القبلة السابق وصفه، وقد غطي من الخارج بحطات من القرميد، ويطل هذا الرواق على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٥٠)، ويتوسط الجدار الغربي لهذا الرواق فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الدركاة التي تلي المدخل الرئيس، كما يشتمل جداره الشمالي على فتحة باب يبلغ اتساعها ٠٫٧٠م وعمقها ٠٫٣٦م وارتفاعها ١٫٦٦م توجت بعقد نصف مستدير، ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهي توصل إلى مئذنة الجامع (شكل ١٤).

الرواقان الشمالي والجنوبي:

يلاحظ أنهما متشابهان تمامًا، حيث يبلغ طول كل منهما من الشرق إلى الغرب ١٦م وعرضه ٣٫٤٥م، ويغطي كل منهما سقف خشبي جمالوني الشكل غطي من الخارج بالقرميد، وهو يشبه مثيله الذي يغطي الرواق الغربي السابق وصفه، ويطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٥٢).

المئذنة (شكل ١٥) (لوحة ٦٠):

تقع هذه المئذنة خارج ساحة الصلاة بالجامع، حيث شيدت بملاصقة الطرف الغربي للواجهة الشمالية للجامع (شكل ١٤)، وهي تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري للمآذن

المغربية ذات التخطيط المربع، حيث تتكون من طابقين مربعي المسقط يبلغ ارتفاعهما الكلي عن مستوى أرضية الشارع ٢٥م، يلاحظ أن الطابق الأول أكبر حجمًا وأكثر ارتفاعًا من الثاني، حيث يبلغ طول ضلعه ٤.٤٠م وارتفاعه ١٩.٥٠م، بينما يبلغ طول ضلع الطابق الثاني ١.٩٥م وارتفاعه ٥.٥٠م.

ويتوصل إلى داخل هذه المئذنة من خلال فتحة باب تقع بالطرف الغربي للجدار الشمالي للجامع سبق وصفها عند وصف الرواق الغربي، وهي توصل إلى مساحة مستطيلة طولها ٣م وعرضها ١.٧٠م غطيت بقبو متقاطع، وبصدرها سلم صاعد اتساعه ٠.٧٠م يدور حول بناء مركزي يحتوي بداخله على عدة غرف، ويلاحظ أن هذا السلم يأخذ هيئةً مختلفةً عن مثيله بمآذن المساجد السعدية السابق وصفها، إذ يتكون من درجة يبلغ ارتفاع قائمتها ٠.١٢م واتساع نائمتها ٠.٧٠م، وطريق صاعد أو مرقاة يبلغ اتساعها ٠.٧٠م وطولها ١.٧١م هكذا بالتبادل حتى نهاية سلم المئذنة، ويغطي كل درجة قبو متقاطع بينما غطيت كل مرقاة بقبو نصف برميلي، وبعد ثماني درجات ومرقاة توجد فتحة باب اتساعها ٠.٦٥م وارتفاعها ١.٦٥م يغلق عليها مصراع واحد من الخشب، تؤدي إلى غرفة مستطيلة يحتويها البناء المركزي للمئذنة طولها من الشمال إلى الجنوب ٣.٢٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢م غطيت بقبو متقاطع، وبعد ٢٤ درجة ومرقاة توجد فتحة باب أخرى اتساعها ٠.٧٠م وارتفاعها ١.٤٢م تؤدي إلى سطح الجامع، وبعد ٤٧ درجة ومرقاة نصل إلى فتحة باب اتساعها ٠.٧٠م وارتفاعها ١.٨٠م، تؤدي إلى غرفة مستطيلة طولها من الشمال إلى الجنوب ٣م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٠.٧٠م غطيت بقبو نصف برميلي، وبعد ٥٨ درجة ومرقاة نصل إلى الممشى الذي يفصل بين طابقي المئذنة، ويتخلل الواجهات الأربع للمئذنة نوافذ مزغلية الشكل لإضاءة سلمها الداخلي.

وقد زينت الواجهات الأربع للمئذنة بمجموعة من الدخلات تحصر بداخلها دخلات معقودة، يلاحظ أنها تبدأ على الواجهتين الغربية والشمالية (لوحة ٤٧) بارتفاع ٦م تقريبًا من مستوى أرضية الشارع الحالية، بينما على الواجهتين الشرقية والجنوبية تبدأ من أعلى سطح الجامع (لوحة ٦٠).

بالنسبة للواجهتين الغربية والشمالية فمتشابهتان تمامًا، حيث تشتمل كل منهما على أربعة صفوف رأسية من الدخلات المعقودة (لوحة ٤٧)، يبدأ الصف الأول لها بكل واجهة من أسفل بدخلتين مستطيلتين تحصر كل منهما دخلة صغيرة مستطيلة توجت بعقد مدبب ذي حافة مفصصة، بصدرها نافذة مستطيلة مزغلية الشكل، يلاحظ أن الجزء السفلي لهاتين الدخلتين بالواجهة الغربية قد حجبه المدخل الحديث الذي شيد إلى جوار هذه الواجهة (لوحة ٤٧)، يلي ذلك الصف الثاني ويشتمل على دخلة مستطيلة بداخلها دخلة أخرى مستطيلة أيضًا توجت بعقد مدبب ذي حافة مفصصة، بصدرها ثلاث دخلات مستطيلة ضيقة توجت

الوسطى بعقد على هيئة حدوة فرس، بينما توجت كل من الجانبيتين بعقد مدبب، يلاحظ أن جميعها صماء باستثناء الدخلة الوسطى بالواجهة الغربية نافذة (لوحة ٤٧)، وبالركنين العلويين لهذه الدخلة توجد نافذتان مزغليتان (لوحة ٤٧)، أما الصف الثالث لزخرفة الواجهتين الغربية والشمالية، فيشتمل على دخلتين مستطيلتين بكل منهما دخلة مستطيلة توجت بعقد مدبب ذي حافة مفصصة بداخلها نافذة مستطيلة مزغلية الشكل توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يلاحظ انهما سدتا بالبناء في الواجهة الغربية (لوحة ٤٧)، يلي ذلك الصف الرابع وهو عبارة عن خمس دخلات صغيرة صماء مستطيلة توجت كل من الأولى والثالثة والخامسة بعقد مدبب بينما توجت كل من الثانية والرابعة بعقد على هيئة حدوة فرس، ويتوج هاتين الواجهتين، كما هو الحال بالواجهتين الجنوبية والشرقية، صف من شرافات مدرجة سدت الفراغات التي بينها بالجص (شكل ١٥) (لوحة ٤٧).

أما الواجهة الشرقية (لوحة ٦١) فمقسمة إلى ثلاثة صفوف رأسية من الدخلات المعقودة، الصف الأول لها من أسفل يبدأ من أعلى سطح الجامع، وهو يشتمل على دخلتين مستطيلتين بكل منهما دخلة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، تشتمل إحداهما على دخلة مستطيلة صغيرة توجت بعقد مدبب، أما الأخرى فتشتمل على فتحة باب تؤدي بالصاعد من السلم الداخلي للمئذنة إلى سطح الجامع، وقد سبق وصفها عند وصف هذا السلم، أما الصف الثاني والثالث لهذه الواجهة فيشبهان تمامًا الصفين الثالث والرابع للواجهة الشمالية السابق وصفها (لوحة ٦١). وأما الواجهة الجنوبية فتشتمل على مستويين رأسيين فقط من الحنايا المعقودة (شكل ١٦/ أ) (اللوحتان ٤٧، ٦٠)، يشبهان الصفين الثاني والثالث للواجهة الشرقية السابق وصفها.

أما الطابق الثاني للمئذنة فيرتد إلى الخلف ليوفر الممشى الذي يعلو الطابق الأول كما سبقت الإشارة، ويبلغ طول ضلعه ١.٩٥م وارتفاعه ٥،٥٠م توج بصف من شرافات مدرجة (الشكلان ١٥، ١٦/ أ) (لوحة ٦٠) وتشتمل كل واجهة من واجهاته الأربع على فتحة مستطيلة يبلغ اتساعها ٠.٤٧م وارتفاعها ٢.٢٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس،وقد غطي هذا الطابق بقبة صغيرة ذات بدن مضلع من الخارج يعلوها عمود من الحديد ثبتت فيه كرتان من النحاس، ويلاصق الطرف الشمالي للواجهة الشرقية لهذا الطابق صاري من الحديد ترفع من عليه الراية البيضاء إيذانًا لموعد الأذان (شكل ١٦/ أ).

بيت المنبر:

يقع على يمين المحراب، وهو يبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج، ويتوصل إليه من باب يقع على يمين المحراب سبق وصفه عند وصف جدار القبلة (لوحة ٥٧)، ويشغل مساحة مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب نحو ٣م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١.٢٠م تقريبًا،

وبأرضيتها قضيبين حديديين في وضع متوازٍ بنفس اتساع قاعدة المنبر، ويستمر القضيبان خارج هذه الحجرة بأرضية البلاطة الأولى التي تتقدم المحراب، ويختفي هذان القضيبان تحت فرش رواق القبلة الذي يتم رفعه عند إخراج المنبر لتلقى من عليه الخطبة (لوحة ٥٨).

مصلى الجنائز:

يقع على يسار المحراب خلف جدار القبلة، ويتوصل إليه من بابين أحدهما من الداخل على يسار المصلي في المحراب سبق وصفه عند وصف جدار القبلة (لوحة ٥٨)، والآخر من الخارج يقع بالطرف الشرقي للواجهة الشمالية للجامع سبق وصفها عند وصف هذه الواجهة (شكل ١٤)، وهو يؤدي إلى دركاة مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٣,٥٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١.٢٥م، تؤدي إلى مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٦.٩٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٤.٩٠م، وتنقسم إلى قسمين متساويين في المساحة بواسطة بائكة من دعامتين مدمجتين في الجدارين الجنوبي والشمالي بالإضافة إلى دعامة من الآجر في الوسط (٠.٤٩م × ٠.٧٢م) يبلغ ارتفاعها حتى مستوى مأخذي العقد ١.١٠م، ويرتكز على هذه الدعامات عقدين على هيئة حدوة فرس مدبب، ويلاحظ أن جدران مصلى الجنائز أقل ارتفاعًا من جدران الجامع، ويغطيه سقف حديث عبارة عن جوائز خشبية تحمل أعوادًا متراصةً من نبات الغاب.

خزانة الكتب:

تقع خزانة الكتب خلف الطرف الشمالي الشرقي لجدار القبلة، ويتوصل إليها من فتحة باب بالطرف الشمالي لجدار القبلة سبق وصفها عند وصف هذا الجدار (شكل ١٤)، وقد أفادت الروايات التاريخية بأن السلطان أبو فارس بعد بنائه للجامع المجاور لضريح أبي العباس السبتي: "شحن الخزانة التي بقبلة الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وتحف الكتب[١]". وهي تشغل مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢.٣٠م، جدرانها خالية من الزخرفة ويغطيها قبو نصف برميلي.

بيت الاعتكاف:

يقع بيت الاعتكاف خلف القطاع الجنوبي الشرقي للجدار الجنوبي للجامع، ويتوصل إليه من فتحة باب بالقطاع الشرقي للجدار الجنوبي لرواق القبلة سبق وصفها عند وصف هذا الجدار (شكل ١٤)، وهي تؤدي إلى سلم صاعد يتكون من إحدى عشرة درجة ارتفاع قائمة كل منها ٠.٢١م واتساع نائمتها ٠.٣٢م، تؤدي إلى مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٣.٥٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢.٥٠م، غطيت بسقف خشبي مسطح خالٍ

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩١ ؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٥.

من الزخرفة، وقد كان الجدار الشمالي لبيت الاعتكاف يطل على البلاطة التي تتقدم جدار القبلة ببائكة مكونة من عقدين على هيئة حدوة فرس، غير أن هذه البائكة تعرضت لبعض التعديلات حيث سدت فتحات عقودها بالبناء، وتحولت حديثًا إلى نافذتين مستطيلتين يطلان على البلاطة الأولى التي تتقدم المحراب، اتساع كل منهما ١.٢٠م وارتفاعها ١.٦٥م، يفصل بينهما دعامة مستطيلة من الآجر (٠.٨٠م × ٠.٩٢م) ويبلغ ارتفاعها ١.٦٥م.

الميضأة:

تقع هذه الميضأة إلى الغرب من الجامع في مقابل القطاع الجنوبي الغربي لواجهته الغربية (شكل ١٤)، وقد تعرضت لتعديلات غيرت من تخطيطها كما تغيرت وظيفتها حديثًا وتحولت إلى محلات تجارية وضمت مساحة منها إلى بعض المساكن الخاصة. وقد كانت تشغل مساحةً غير منتظمة الشكل تتكون من فناء أوسط مكشوف محاط من الجهتين الشرقية والجنوبية بعشرة مراحيض خمسة في كل جهة يتقدمها رواق يفصلها عن الفناء، وإلى الشمال من هذا الفناء السابق وصفه يوجد بناء مربع الشكل توجت جدرانه بصف من شرافات مدرجة، ويغطيه قبة ذات بدن مضلع من الخارج، ويشتمل كل جدار من جدرانه الأربعة على فتحة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، وقد كان يتوسطه حوض مستطيل محاط بقناة لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء، ويحيط بهذا البناء المربع السابق وصفه مجموعة من المراحيض يبلغ عددها خمسة عشر مرحاضًا ستة منها بالجهة الشمالية وسبعة بالجهة الغربية واثنان بالجهة الجنوبية (شكل ١٤)، وقد زود الجامع حاليًا بميضأة حديثة صغيرة المساحة تشتمل على ثلاثة مراحيض، وهي تقع في مقابل مدخل الواجهة الغربية للجامع.

المدرسة:

تقع هذه المدرسة إلى الجنوب من الجامع، وسوف نتناولها بالدراسة في الجزء الخاص بالمدارس.

التخطيط المعماري للمساجد الجامعة السعدية الباقية

وضح من الدراسة الوصفية للمساجد السعدية الباقية، أن هذه المساجد اتبعت التخطيط التقليدي الذي اتبعته غالبية المساجد الجامعة المغربية السابقة على العهد السعدي[١]، ذي الصحن المركزي المكشوف المحاط بالأروقة من أربعة جوانب[٢].

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك كثيرًا من الملامح المعمارية التي تتميز بها تخطيطات المساجد السعدية، فمن حيث المساحة يلاحظ أن المساجد السعدية تتميز بأنها من أكبر مساجد المغرب مساحةً بعد المساجد الموحدية – التي تميزت بضخامتها وكبر مساحتها شأن سائر المنشآت الموحدية – كما يتضح من الجدول الآتي:

المسجد	المساحة م٢
تينملل	٢٣٧٣
الكتبية الأول المندثر بمراكش	٦٨٦٤
الكتبية الثاني بمراكش	٧٥٩٢
المنصور بقصبة مراكش	٦٢٠٥[٣]
حسان بالرباط	٢٥٢٠٠[٤]

ولو قدر لمسجد حسان بالرباط أن يتم لما فاته سعة في مساجد العالم الإسلامي إلا المسجد الجامع بسامراء (٢٣٥ هـ / ٨٥٠م)، وجامع أبي دلف (٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م)، وفاق جامع قرطبة (١٧٠ هـ /

(١) لقد بقيت للموحدين والمرينيين من بعدهم عدة مساجد بالمغرب الأقصى – فضلاً عن وجود بقايا من مساجد الموحدين بالأندلس، ونماذج من المساجد المرينية بالمغرب الأوسط- بينما لم يبق من مساجد المرابطين بالمغرب سوى جامع القرويين بفاس، بالإضافة إلى جامعي تلمسان والجزائر بالمغرب الأوسط، بعد أن دخلها بعض التعديل؛ بينما لم يبق أي أثر للمساجد التي شيدوها بالأندلس. انظر، توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ١٥ – ١٦.

(٢) يتميز كل من مسجدي القصبة بمراكش وحسان بالرباط الموحدين بظاهرة تعدد الصحون، حيث يشتمل الأول على خمسة صحون، أحدهما في الوسط واثنين بكل من الجانبين الغربي والشرقي، بينما يشتمل مسجد حسان على ثلاثة صحون أحدهما في الوسط واثنين على جانبي روق القبلة. انظر، محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٣٩٨. كما تجدر الإشارة إلى أن هناك بعض المساجد الموحدية يتألف تخطيطها المعماري من صحن مركزي مكشوف محاط بالأروقة من ثلاث جوانب فقط وليس أربعة، وهي مسجد الكتبية الأول المندثر، ومسجد تازة – قبل الزيادات المرينية- ومسجد تينملل. انظر، محمد الكحلاوي: نفس المرجع، ص ٣٧٣.

(٣) محمد الكحلاوي: نفس المرجع، ص ص ٢٧٣، ٢٧٦، ٣٧٣.

(٤) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

٧٨٦م)، الذي يعد أكبر مسجد أثري قائم حتى الآن[١]، كما يتضح من الجدول الآتي:

المسجد	المساحة م٢
سامراء	٣٧٤٤٠
أبي دلف	٣٠٨٠٠
قرطبة	٢٢٥٠٠

وفي العصر المريني صغرت المساحة التي يشغلها المسجد بشكل ملحوظ، فباستثناء جامع تازة الذي شيده عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة (٥٢٩ هـ / ١١٣٥م)، وأضيفت إليه زيادات كبيرة في العهد المريني على يد أبي يعقوب يوسف فيما بين (٦٩١ – ٦٩٣ هـ / ١٢٩٢ / ١٢٩٤م) ضاعفت من مساحته حتى بلغت نحو ٣٤١١م٢ (شكل ١٧) [٢]، والجامع الكبير بفاس الجديد الذي تبلغ مساحته نحو ٢٠٠٠م٢ (شكل ١٨) [٣]، نجد أن ما تبقى من مساجد مرينية أخرى، كمسجد الحمراء بفاس الجديد (شكل ١٩)، ومسجد باب الجيسة بفاس القديمة (شكل ٢٠) وغيرها[٤]، تشغل مساحات صغيرة إذا قورنت بالمساجد الجامعة الموحدية، أو حتى بمسجدي تازة وفاس الجديد المرينيين السابق الإشارة إليهما.

ثمّ تعود ظاهرة الضخامة وكبر المساحة مرة أخرى مع تشييد السعديين لمساجدهم الجامعة، كما يتضح من الجدول الآتي:

المسجد	المساحة م٢
الجامع الكبير بتارودانت	٣٦٠٠
المواسين بمراكش	٣٢٢٥
باب دكالة بمراكش	٢٦٦٥
أبي العباس السبتي بمراكش	١٦٢٨

ويلاحظ من خلال مخططات المساجد الموحدية – وبخاصة الأولى منها- كجامعي الكتبية الأول – المندثر- والثاني بمراكش، وجامع تينملل، أنها تشغل مساحات مستطيلة

(١) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦١م، ص ص ٢٣٨ – ٢٤٢.
(2) Maslow, B.,: Op. Cit., pp. 17 – 24.
(3) Maslow, B.,: Ibid., pp. 17 – 24.
(٤) بخلاف المساجد الجامعة المرينية التي ما زالت قائمة، وصلت إلينا من هذا العصر عدة مساجد للصلوات الخمسة، تمتاز بصغر مساحاتها وتنوع تخطيطاتها، كمسجد أبي الحسن ومسجد الشرابليين ومسجد رأس عين ازليتن وجزام بن عامر بفاس القديمة، ومسجد الزهر (لالا الأزهر) بفاس الجديد. للاستزادة عن هذه المساجد، انظر: Maslow, B.,:Ibid., pp. 65 - 85, 105 - 107.

اتساعها (عرضها) أكثر من عمقها (طولها) [١]، تميز رواق القبلة فيها بكثرة عدد بلاطاته، التي وزعت في مساحة مستطيلة أيضًا أكثر اتساعًا منها عمقًا، في حين شغل الصحن مساحة مستطيلة صغيرة – إلى حد كبير– إذا ما قورنت بالمساحة التي يشغلها روق القبلة، ويرجع ذلك إلى تعدد بلاطات الأروقة الجانبية المحيطة بصحون المساجد الموحدية [٢].

وإن كانت مخططات المساجد المرينية تكشف أن هذه المساجد تشغل مساحات مستطيلة [٣]، كما هو الحال في المساجد الموحدية، إلا أنه يلاحظ بكل وضوح أن مساحة هذه المساجد أكثر عمقًا منها اتساعًا، وأنها شهدت تغييرًا في الأبعاد بين الصحن ورواق القبلة، حيث أصبحت البائكة التي تفصل بينهما تقسم مساحة المسجد إلى قسمين متساويين تقريبًا، وأصبح رواق القبلة قليل العمق ولا يشتمل إلا على عدد قليل من البلاطات، بينما شغل الصحن مساحة كبيرة بالنسبة للمساحة الكلية للمسجد [٤]، كما هو الحال في الجامع الكبير بفاس الجديد (شكل ١٨)، وجامع الحمراء بنفس المدينة (شكل ١٩)، وجامع باب الجيسة بفاس القديمة (شكل ٢٠)، وجامع المنصورة قرب تلمسان، وجامع سيدي بومدين بالعباد، وجامع سيدي الحلوي بتلمسان.

وقد استمرت هذه الظاهرة في المساجد الجامعة السعدية، التي يلاحظ أنها شغلت – باستثناء الجامع الكبير بتارودانت– مساحات مستطيلة عمقها أكبر من اتساعها مع ملاحظة أن الصحن أصبح يشغل مساحةً كبيرةً مربعة الشكل – تقريبًا – تبلغ نحو نصف مساحة الجامع، بعد أن صغرت مساحة رواق القبلة وقلت عدد بلاطاته، وصار اتساعه أكبر من عمقه، هذا إلى جانب قلة عدد بلاطات الأروقة الثلاثة الأخرى المحيطة بالصحن وأصبحت لا تشتمل إلا على بلاطة واحدة في كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، وبلاطتين في الجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، وقد استمر هذا التقليد في تخطيط المساجد العلوية اللاحقة على السعديين [٥].

ومن حيث التخطيط يلاحظ تشابه المساجد السعدية من حيث التخطيط العام، ورغم ذلك فيمكن تقسيمها من خلال نظام توزيع البلاطات داخل أروقتها إلى نمطين رئيسين، الأول عقود بائكاته موازية لجدار القبلة [٦]، ويوجد منه نموذج واحد يتمثل في الجامع الكبير

---

(1) Besset, H., et Terrasse, H.,: Op. Cit., p. 308; Maslow, B.,: Op. Cit., p. XII.
(2) Besset, H., et Terrasse, H.,: Op. Cit., p. 308; Maslow, B.,: Op. Cit., p. XII.
(٣) يستثنى من ذلك العديد من مساجد الصلوات الخمسة التي وصلت إلينا من العصر المريني، والتي شغلت – كما سبقت الإشارة– مساحات صغيرة ذات تخطيطات مختلفة وغير منتظمة.
(4) Maslow, B., Op. Cit., p. XII.
(5) Besset, H., et Terrasse, H.,: Op. Cit., p.331.
(٦) يطلق بعض الباحثين على البلاطات الموازية لجدار القبلة مصطلح "أساكيب" ومفردها "أسكوب". انظر، أحمد فكري: المرجع السابق، المدخل، ص ٣٠٤؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢١٩؛ محمد =

بتارودانت (شكل ١)، أما النمط الثاني فعقود بائكاته عمودية على اتجاه جدار القبلة، ويمثله كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، مع ملاحظة أن رواق القبلة بمساجد هذا النمط الأخير يشتمل فضلاً عن البلاطات التي تمتد عقودها عموديةً على اتجاه جدار القبلة، على بلاطات عقودها موازية لهذا الجدار، بلغ عددها بلاطتين في جامع باب دكّالة (شكل ٣)، وبلاطة واحدة بكل من جامعي الموّاسين وأبي العباس السبتي (الشكلان ٩، ١٤).

ومما سبق يتضح أن المساجد السعدية لا تختلف في نظام توزيع البلاطات داخل أروقتها عن بقية مساجد العالم الإسلامي، التي وزعت بلاطات أروقتها في طرازين مختلفين: إما في موازاة جدار القبلة، أو عمودية على هذا الجدار، ويمثل الطراز الأول الجامع الأموي بدمشق، وقد اتبع هذا النظام في كثير من مساجد الشام مثل جامع الرصافة وجامع حران، وفي مصر نجده على سبيل المثال في جامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم، مع ملاحظة أن كل من الجامع الأموي بدمشق والأزهر والحاكم بالقاهرة، يشتمل كل منهما على مجاز قاطع عمودي على جدار القبلة، وقد كان أول ظهور لهذا الطراز بالمغرب الأقصى في جامع الشرفاء الإدريسي بفاس، ثمَّ طبق في جامعي القرويين والأندلس بنفس المدينة – ويشتمل كل منهما على مجاز قاطع عمودي على جدار القبلة كما هو الحال في الجامع الأموي والأزهر والحاكم- ثمَّ ظهر في بعض المساجد المرينية كمسجد أبي الحسن بشالة، ومسجد الشرابليين بفاس القديمة، ومسجد الزهر (لالا الأزهر) بفاس الجديد، ومسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة، وفي العصر السعدي ظهر هذا التخطيط- كما سبقت الإشارة- في الجامع الكبير بتارودانت (شكل ١).

أما الطراز الثاني من البلاطات فيمثله المسجد الأقصى ببيت المقدس الذي أسسه الوليد بن عبد الملك عام (٨٧ هـ / ٧٠٦م)، ولم يكن لهذا الطراز مدرسة بالمشرق، إذا استثنينا مسجد دمغان- أقدم المساجد القائمة بإيران[1]- (١٣١ – ١٧٠ هـ / ٧٥٠- ٧٨٦م)، وجامع أبي دلف (٢٤٥ هـ / ٨٦٠م)، ولكنه انتشر انتشارًا كبيرًا في بلاد المغرب والأندلس، فنجده في جامع قرطبة على عهد عبد الرحمن الداخل (شكل ٢١)، وجامع القيروان، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع سوسة، وفي المساجد الموحدية، والمساجد المرينية[2]- باستثناء بعض المساجد التي

= الكحلاوي: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(١) أحمد فكري: المرجع السابق، المدخل، ص ٢٨٤.

(٢) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ١٧؛ السيد عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، بحث نشر في كتاب الشعب، عدد ٧٨، بيوت الله مساجد ومعاهد، مطابع الشعب، الجزء الثاني، ١٩٦٠م، ص ص ١٨٣ – ١٨٤؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٨٦ – ٣٨٨.

سبقت الإشارة إليها- (الشكلان ١٨، ١٩)، وفي عهد السعديين نجده في جميع المساجد السعدية الباقية باستثناء الجامع الكبير بتارودانت، الذي يتبع الطراز الأول كما سبقت الإشارة (الأشكال ٣، ٩، ١٤).

وتتميز المساجد السعدية باشتمالها على عدة مداخل، بلغ عددها أربعة مداخل بالجامع الكبير بتارودانت، وثلاثة مداخل بكل من جامع باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش، وتتميز هذه المداخل بأنها بارزة على سمت الجدران (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤). وهي ظاهرة لم تشهدها المساجد المرابطية التي كانت مداخلها على سمت الجدران (الشكلان ٣١، ٣٩)، بينما اشتملت بعض المساجد الموحدية كمسجد تينملل وتازة والكتبية على مداخل بارزة[1]، كما تميزت المساجد الجامعة المرينية بالمغربي الأقصى والأوسط بأن مداخلها بارزة على سمت الجدران (الشكلان ١٨، ١٩).

ويلاحظ أن كل مدخل من مداخل المساجد السعدية تليه دركاة تشغل عادة مساحة مربعةً أو مستطيلة الشكل، وتتميز هذه الدركاوات بأنها تقع داخل كتلة المداخل البارزة، حتى لا تشغل – فيما يبدو – جزءًا من ساحة الصلاة بالجامع (الشكلان ١٨، ١٩)، وهي ظاهرة تميزت بها دركاوات المداخل البارزة بالمساجد الموحدية الثلاثة – السابق الإشارة إليها- تينملل وتازة والكتبية، والمساجد المرينية (الشكلان ١٨، ١٩).

كما يتميز تخطيط المساجد السعدية باشتماله على بيت للاعتكاف، عبارة عن قاعة مستطيلة تقع خلف القطاع الشرقي للجدار الجنوبي لرواق القبلة، يتوصل إليه من خلال فتحة باب بالجدار الجنوبي لهذا الرواق، وهو يطل على رواق القبلة ببائكة مكونة من عقدين على هيئة حدوة فرس (اللوحات ١٩، ٢٦، ٣٤، ٤٣) (الأشكال ٣، ٩، ١٤). وقد شهدت المساجد الجامعة المرينية – في حدود ما أعلم – الإرهاصة الأولى لهذه الظاهرة، حيث نجدها في الجامع الكبير بفاس الجديد (شكل ١٨)، وفي مسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة، ويتفق بيت الاعتكاف بهذين المسجدين من حيث الموقع والشكل المعماري مع مثيله الذي ظهر بالمساجد السعدية.

ويلاحظ على تخطيط المساجد الجامعة السعدية أن المئذنة لم يكن لها موقع محدد بالنسبة لتخطيط المسجد، كما يبدو واضحًا من خلال المساقط الأفقية لهذه المساجد، حيث تقع أحيانًا داخل ساحة الصلاة بالجامع كما هو الحال في مئذنة جامع باب دكالة بمراكش، التي تشغل الركن الشمالي من الرواق الغربي لهذا الجامع (شكل ٣)، وأحيانًا أخرى – وهو الغالب- تقع المئذنة خارج ساحة الصلاة بالجامع، كما في مئذنة الجامع الكبير بتارودانت التي شيدت بملاصقة القطاع الغربي لواجهته الجنوبية (شكل ١)، ومئذنة

---

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٧٤، ٣٨٢، ٤٠١.

جامع المؤاسين بمراكش حيث توجد بملاصقة الطرف الجنوبي لواجهته الغربية (شكل ٩)، ومئذنة جامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا التي شيدت بملاصقة الطرف الغربي للواجهة الشمالية لهذا الجامع (شكل ١٤).

ومن هنا يمكن القول إن المآذن السعدية تتفق من حيث الموقع مع المآذن المغربية السابقة على العهد السعدي، التي لم يكن لها هي الأخرى موقع محدد بالنسبة لتصميم المسجد، كما يتضح من خلال المساقط الأفقية لبعض المساجد المغربية (الأشكال ١٨، ١٩، ٢٠).

وتميزت المساجد السعدية باستخدام الأسقف الخشبية الجمالونية الشكل في تغطية أروقتها (اللوحتان ٧، ٣٨)، وقد غطيت هذه الأسقف من الخارج بالقرميد، ويلاحظ أنها تأخذ نفس امتداد بلاطات هذه الأروقة من الداخل سواء كانت هذه البلاطات عمودية أو موازية لجدار القبلة (اللوحات ٢٣، ٣٧، ٥٥). ويعد تغطية المساجد السعدية بهذه الأسقف الجمالونية استمرارًا للأسلوب الشائع في تغطية مساجد الغرب الإسلامي قبل العهد السعدي، حيث غطيت هذه المساجد بهذا النوع من الأسقف كمسجد قرطبة والقيروان والقرويين والأندلس بفاس القديمة ومساجد الموحدين والمرينيين من بعدهم.

كما استخدمت القباب المبنية بالآجر والجص في تغطية هذه المساجد، حيث نجدها تغطي بعض المساحات المربعة بأروقة الصلاة بهذه المساجد، كما هو الحال في القبة التي تغطي بداية البلاطة الوسطى برواق القبلة العمودية على المحراب مباشرةً بجامع باب دكّالة بمراكش (شكل ٣) (لوحة ١٨)، وهي تذكر بالقبة التي تغطي مدخل البلاطة الوسطى العمودية على المحراب في زيادة إبراهيم بن أحمد الأغلبي بجامع القيروان سنة (٢٦١ هـ / ٨٧٥م)[١]، وبمثيلتها التي تغطي مدخل البلاطة الوسطى العمودية على المحراب في زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة سنة (٣٥٤ هـ / ٩٦٥م)[٢]، وتذكر بمثيلتها التي تغطي الجزء الذي يلي العنزة في زيادة المنصور بن أبي عامر – حاجب الخليفة هشام المؤيد – بجامع القرويين سنة (٣٨٨ هـ / ٩٩٨م)[٣]، وبمثيلتها التي تغطي الجزء الذي يلي العنزة أيضًا بالجامع المريني الكبير بفاس الجديد (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨م).

كذلك استخدمت القباب في تغطية الجزء الذي يلي المدخل الرئيس ببعض المساجد السعدية، كما هو الحال بكل من جامعي باب دكّالة والمواسين بمراكش (الشكلان ٣، ٩)، ويذكر ذلك بالقبة التي تلي مدخل الواجهة الشمالية بجامع القرويين بفاس[٤]، وبمثيلتها التي تغطي الجزء الذي يلي مدخل الواجهة الشمالية أيضًا بجامع القصبة الموحدي بمراكش.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: المسجد الجامع بالقيروان، بحث نشر في كتاب الشعب، (٧٨)، بيوت الله مساجد ومعاهد، الجزء الثاني، مطابع الشعب، ١٩٦٠م، ص ١٧١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص ٢٣؛ Marçais, G.,: Op. Cit., p. 385

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٥٤؛ السيد عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، ص ١٨١

(4) Marçais, G.,: Op. Cit., p. 385.

كما يلاحظ أن بلاطة المحراب التي تمتد عقودها بموازاة جدار القبلة بكل من جامع باب دكالة والمواسين وأبي العباس السبتي (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، تشتمل على ثلاثة قباب إحداها في الوسط وواحدة بكل جانب، ويعتبر هذا الأسلوب استمرارًا للتقاليد الموحدية، حيث وجدت هذه الظاهرة في جامع تينملل وجامع القصبة بمراكش(١).

ومما سبق يتضح أن السعديين لم يحدثوا في تخطيط مساجدهم تغييرات جوهرية بالنسبة لما كانت عليه مساجد أسلافهم، وإن كانت قد تميزت ببعض الملامح المعمارية التي ميزتها عن غيرها كما سبقت الإشارة، كما يمكن القول بوضوح أن تخطيط المساجد المغربية في العهد السعدي لم يخضع مطلقًا للطراز العثماني في تخطيط المساجد الذي يتكون من قسمين: الأول، ويتألف من صحن مكشوف تتوسطه- غالبًا- فسقية للوضوء، وتحيط به أروقة تغطيها قباب ضحلة، وهو الجزء المكشوف من الجامع (الحرم)، أما القسم الثاني أو مكان الصلاة فتغطيه قبة رئيسة مركزية تكتنفها مجموعة من القباب وأنصافها، وقد تأثر تخطيط المساجد في البلاد الإسلامية التي خضعت للسيطرة العثمانية منذ القرن (١٠ هـ / ١٦م) بهذا التخطيط(٢)، ومن بينها بلاد الشمال الإفريقي، ليبيا(٣)، والجزائر(٤)، وتونس(٥)، باستثناء المغرب الأقصى، الذي يعد البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للسيطرة العثمانية في القرن (١٠ هـ / ١٦م) كما سبقت الإشارة.

---

(1) Besset, H., et Terrasse, H.,: Op. Cit., p.331; Marçais, G.,: Op. Cit., p. 385.

(٢) ربيع حامد خليفة: أثر الفن والعمارة العثمانية على مصر والبلاد العربية، بحث نشر في مجلة دراسات في الأدب والتاريخ التركي المصري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) عن التأثيرات العثمانية على العمارة في ليبيا. انظر، صلاح أحمد البهنسي: التأثيرات العثمانية على العمارة والفنون الإسلامية في ليبيا منذ بداية العصر العثماني الأول وحتى نهاية العصر العثماني الثاني (٩٥٨ – ١٣٣٠ هـ / ١٥٥١ – ١٩١١م)، بحث نشر في أعمال المؤتمر الثاني لمدونة الآثار العثمانية في العالم حول: العمارة السكنية، النقائش الجنائزية وآليات الترميم، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ١٩٩٨م، ص ص ٦٩ – ٧٩.

(٤) حول تأثر العمارة في الجزائر بالعمارة العثمانية. انظر، عبد العزيز لعرج: مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر، بحث نشر في كتاب المؤتمر الخامس لجمعية الأثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي (٣)- الندوة العلمية الرابعة، المجلس العربي للدرسات العليا والبحث العلمي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ص ٥٣٠ – ٥٣٣.

(٥) عن التأثيرات التركية على العمارة الدينية بتونس. انظر، محمد الباجي بن مامي: جوامع تونس في العهد العثماني دراسة تاريخية وفنية ومعمارية، بحث نشر في مجلة جمعية الأثاريين العرب، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الأول، القاهرة، يناير، ٢٠٠٠م، ص ص ١٠٥ – ١١٩.

الفصل الثاني
المدارس وتخطيطاتها المعمارية

كانت الحياة الفكرية بالمغرب قبل قيام الدولة السعدية تعاني – كما سبقت الإشارة – من الخمول والركود؛ من جراء الفتن والاضطرابات التي عمت البلاد في عهد الوطاسيين، ومع مجيء الأشراف السعديين واستقرار الأحوال السياسية بدأت الحياة التعليمية والعلمية تزدهر من جديد، سيما وأن نشر العلم ورعايته شغل المرتبة الثانية من اهتمام السعديين، بعد الجهاد وطرد المحتل الذي شكل الركيزة الأساسية لقيام دولتهم[١].

لذا فقد انتشر التعليم في العصر السعدي على نطاق واسع، وكان للنشاط الثقافي والعلم وأهله نصيب كبير من عناية الملوك السعديين، الذين قام مقامهم – كما سبقت الإشارة- بعد أن ضعفت دولتهم زعماء الحركة الصوفية وبخاصة الدلائيون، وشهدت عدة مناطق من المغرب الأقصى ازدهارًا علميًا وثقافيًا لم تشهده من قبل كما هو الحال في درعة وسوس، إذ تنافست الأسر والعلماء والميسورون في بناء المدارس المحلية واقتناء الكتب وتشجيع المعرفة بمختلف الوسائل[٢]، فنشطت لذلك هذه المدارس نشاطًا عظيمًا وانتشرت في المدن والبوادي وسفوح الجبال وأعماق الصحراء[٣].

ورغم ذلك فإن سلاطين الدولة السعدية لم يكثروا من بناء المدارس في عهدهم، ويرجع ذلك فيما يبدو – كما سبقت الإشارة- إلى سببين، أولهما: وفرة المدارس المرينية وبخاصة في المدن الكبرى، التي واصلت أداء مهمتها – كما سبقت الإشارة- في هذا العهد مع اختلاف في مواردها المالية، التي تناقصت عما كانت عليه أيام مؤسسيها[٤]. وثانيهما: إقبال العديد من العلماء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب على بناء كثير من المنشآت التعليمية والدينية، من مدارس وزوايا في عدة جهات لم يسبق أن عنيت السلطة المركزية بها مطلقًا، من حيث تزويدها بهذه المنشآت[٥]، مما جعل التعليم في العصر السعدي يصطبغ – كما سبقت الإشارة- بطابع الشمول من حيث التوزيع الجغرافي، حيث أصبحت الخريطة التعليمية تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى تخوم الصحراء ثمَّ إلى ما وراءها جنوبًا[٦].

وقد شيد سلاطين الدولة السعدية نوعين من المدارس، أولهما: المدارس الكبرى، ولا

---

(١) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول،ص ٨١؛ الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ١٠٨؛ محمد الفاسي: المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) إبراهيم حركات: الثقافة المغربية بين الثقافات الإنسانية، ص ٥١.

(٤) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

(٥) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٣٠٧.

(٦) محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٨١ – ٨٢.

نعرف مما شيد من هذه النوعية – في ظل ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتاحة وما وصلنا من آثار قائمة- سوى مدرسة واحدة، هي المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش. أما النوع الثاني، فهو عبارة عن مدارس صغيرة بنيت كملحق للمساجد الجامعة التي شيدها هؤلاء السلاطين، كمدرسة الجامع الكبير بتارودانت، وكل من مدرسة جامع باب دكالة، ومدرسة جامع المواسين، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش. وباستثناء مدرسة الجامع الكبير بتارودانت التي ظلت قائمة ومحتفظة بوضعها القديم حتى سنة ١٩٥٧م، ثمَّ هدمت وبني مكانها ملحق للمعهد الجديد بتارودانت على يد جمعية علماء سوس، أطلق عليه اسم "المدرسة الجشتمية"- كما سبقت الإشارة- ، فإن المدارس السعدية السابق ذكرها لا تزال قائمة حتى الآن، غير أن بعضها – كما سبقت الإشارة- تعرض لتجديدات غيرت من تخطيطها الأصلي كمدرسة جامع باب دكالة بمراكش، وبعضها الآخر تغيرت وظيفته كمدرسة جامع المواسين بمراكش أيضًا. ونعرض فيما يلي بالدراسة الوصفية لكل مدرسة من هذه المدارس.

المدرسة الغالبية (ابن يوسف) بمراكش

الموقع:

تقع هذه المدرسة بوسط مدينة مراكش القديمة تقريبًا (خريطة ٦)، إلى جوار جامع ابن يوسف المرابطي من جهته الشرقية (خريطة ١٠)، لا يفصلهما سوى شارع ضيق عرضه ٣,٨٠ م يعلوه ساباط يصل بين الواجهة الجنوبية للمدرسة وواجهة الجامع المقابلة لها، وتطل المدرسة بواجهتها الغربية على شارع ضيق، بينما حجبت كل من واجهتيها الشمالية والشرقية بمبان حديثة شيدت إلى جوارهما.

المنشئ وتاريخ الإنشاء:

أشار ابن بطوطة في سياق حديثه عن مراكش إلى بناء السلطان أبي الحسن المريني لمدرسة بهذه المدينة، دون تحديد موقعها وتاريخ إنشائها، حيث ذكر: "وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة، وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن، رضوان الله عليه" [١].

وقد أشار الإفراني في سياق حديثه عن أعمال السلطان عبد الله الغالب بالله السعدي، أنه شيد سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) عدة منشآت بمدينة مراكش، وهي جامع الأشراف والسقاية المجاورة له - وقد سبقت دراستهما- والبيمارستان، وذكر أن هذا السلطان: "جدد أيضًا بناء المدرسة التي بجوار جامع علي بن يوسف اللمتوني، وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس، بل الذي أنشأها أولاً هو السلطان أبو الحسن المريني رحمه الله تعالى حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته" [٢].

ويفهم من هذا النص أن السلطان السعدي الغالب بالله قام في سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) بتجديد المدرسة المجاورة لجامع ابن يوسف، التي نسبها الإفراني لأبي الحسن المريني بناء على رواية ابن بطوطة، على الرغم من أن هذا الأخير لم يحدد موقع المدرسة المرينية من المدينة كما وضح من روايته السابقة. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى الفارق الزمني الكبير بين كل من ابن بطوطة المُتَوَفَّى عام (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م) والإفراني المُتَوَفَّى بعد عام (١١٥١ هـ / ١٧٣٩م) من جهة، وبين الإفراني وسنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) التي ذكر أن عبد الله الغالب جدد فيها هذه المدرسة، من جهة أخرى مع الأخذ في الاعتبار أن مدينة مراكش — ومعظم المدن المغربية- منذ أواخر الدولة المرينية وحتى قيام الدولة السعدية، قد تناقص عمرانها، وتوالى عليها الخراب، ولم يعد مسكونًا منها غير نحو ثلثها بينما تحول الباقي — كما سبقت الإشارة-

---

(١) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٦٧٣.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥١.

إلى خرائب وركام، وفقدت هذه المدينة في تلك الفترة أمجادها العلمية القديمة، وكان من جملة ما تهدم من منشآتها التعليمية العديد من المدارس ودكاكين الكتبيين، كما سبقت الإشارة.

وفي ظل رواية كل من ابن بطوطة والإفراني السابق الإشارة إليهما، تباينت آراء الباحثين حول تاريخ إنشاء هذه المدرسة ومشيدها، فقد رجح بعضهم أنها من إنشاء السلطان السعدي عبد الله الغالب بالله سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م)، ويستبعد أن يكون قد شيدها على أنقاض مدرسة أبي الحسن المرينية، التي ربما قد اندثرت تمامًا(١)، في حين ذكر آخرون أنها من إنشاء السلطان أبي الحسن المريني، ثمَّ جددت في العصر السعدي على يد السلطان عبد الله الغالب بالله(٢).

والواقع أن الأدلة التاريخية والأدلة الأثرية والمعمارية والزخرفية، تتفق على أن المدرسة المجاورة لجامع ابن يوسف بمراكش، والتي تحمل نفس الاسم، من إنشاء السلطان عبد الله الغالب بالله عام (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م)، وأنها لم تكن تجديدًا لمدرسة أبي الحسن المريني، التي يبدو أنها اندثرت منذ فترة طويلة، ربما قبل بداية القرن (١٠ هـ / ١٦م).

فمن الناحية التاريخية، نجد أن ليون الإفريقي لم يشر في سياق حصره الدقيق لمرافق ومنشآت مدينة مراكش – في الربع الأول من القرن (١٠ هـ / ١٦م)- ، إلا إلى مدرستين بالقصبة ترجعان إلى العصر الموحدي(٣)، كما أنه لم يشر في سياق وصفه لجامع ابن يوسف إلى وجود أية مدارس بجواره(٤)، إذ لو كانت هذه المدرسة – موضع الدراسة- قائمةً لكانت جديرةً بالتنويه والإشارة، نظرًا لضخامتها، وكبر مساحتها وثراء زخرفتها.

في حين أشار مارمول – في النصف الثاني من القرن (١٠ هـ / ١٦م) – في سياق حديثه عن مدرسة جامع المنصور الموحدي بقصبة مراكش، أنها كانت مزدهرةً: "ولكنها أصبحت كلا شيء، خاصةً منذ أن أسس الشريف الحاكم حاليًا – يقصد عبد الله الغالب بالله- مدرسة أخرى أكثر جمالاً في أسفل المدينة، كما سنذكر فيما بعد"(٥)، وفي سياق حديثه عن جامع

---

(1) Marçais, G., : Op. Cit.,p. 392; Terrasse, C., :Médersas de Maroc, Éditions Albert Morancé, 1927, p. 32; Deverdun, G., : Op. Cit., p. 2; Golvin, L., : Op. Cit., Note 3, p. 213.

(٢) محمد حجي: المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني (٢)، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد السابع، السنة الثالثة، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط – المغرب، ١٩٦٦م، ح ٦٣ص ٢٥ ؛ عبد العزيز بنعبد الله: الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال، ص ٢٦٢ ؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ؛ محمد الكحلاوي: المدارس المغربية، ص ص ٧٨، ١٠٣.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ١٣١ – ١٣٤.

(٤) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ١٢٧.

(٥) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٩.

ابن يوسف قدم نفس المؤرخ وصفاً دقيقاً لهذه المدرسة، فقال: "وبقربه مدرسة كبيرة تحتوي على أربعمائة حجرة للطلبة بصحونها وممراتها، معزول بعضها عن بعض (ومبلطة) كلها بمربعات صغيرة كأنها مرصعة، مع قاعات كبيرة للدروس، وأروقة كبيرة للتفسح فيها. ينفق على الطلبة والأساتذة من موارد المدرسة التي من أفضل أملاك المدينة. وقد أسس بجوار المدرسة مسجد (مخزن) تحفظ فيه موارد جميع مساجد المملكة"[1].

وفي الرسالة التي وجهها السلطان زيدان بن المنصور إلى أبي زكريا الحاحي – بعد قضاء هذا الأخير على ثورة ابن أبي محلى سنة (١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م) - تأكيداً لرواية مارمول، حيث صرح هذا السلطان بأنه قام بزيارة المدرسة التي شيدها عمه عبد الله الغالب[2]. وهذه المدرسة نفسها هي التي قام الشيخ محمد بن يوسف التملي (ت: ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م) بتدريس القرآن بها لطلبة مراكش، حيث ذكر في الرسالة التي وجهها لشيخه أحمد المقري: "ولقد خرجوا للقائي متعطشين لمرحلة عن مراكش في جمع كثير أزيد من ثلاثمائة طالب، وقد بدأت مع الطلبة بالمدرسة الغالبية، الشاطبية ولامية الأفعال بعد العصر، والكراريس[3] بعد العشاء، ووقت التجويد من طلوع الشمس إلى العصر"[4]. وترجع أهمية هذه الرواية الأخيرة، فضلاً عن تأكيد بناء الغالب بالله لهذه المدرسة، إلى تزويدنا بالاسم الذي كان يطلق على هذه المدرسة في عصر إنشائها، وهو "المدرسة الغالبية" نسبة إلى لقب منشئها، أما هذه التسمية "مدرسة ابن يوسف" فلم يرد لها ذكر في المصادر التاريخية – فيما أعلم- ، وإنما وردت في الأبحاث والدراسات الحديثة، واستمرت ولصقت بهذه المدرسة.

كما أن الوصف السابق الذي قدمه مارمول للمدرسة المجاورة لجامع ابن يوسف، يتفق بدرجة كبيرة مع الشكل المعماري لمدرسة ابن يوسف موضع الدراسة (شكل ٢١)، ولئن كان مارمول قد بالغ في عدد حجرات الطلاب، فإن المدرسة تشتمل بالفعل على عدد كبير منها يبلغ مئة وأربعين حجرة، يلاحظ – كما سيتضح من الوصف المعماري- أن كل مجموعة منها تطل على صحن أوسط مكشوف خاص بها، حتى بلغ عدد صحونها ستة صحون بالإضافة إلى الصحن الأوسط المركزي، كما أنها تشتمل على عدة أروقة اثنان أحدهما بالجانب الشمالي والآخر بالجانب الجنوبي للصحن الأوسط، وثلاثة تتقدم مساكن الطلاب الموزعة بالأضلاع الشمالية والجنوبية والغربية للمدرسة كما يحيط بكل صحن من الصحون

(١) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ص ٥٤ – ٥٥.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٣) الكراريس عبارة عن المتون الصغرى المتعلقة برسم القرآن وضبطه. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، ح ٦٤، ص ٢٥.

(٤) أحمد المقري: فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ٥٦٥ ج، ورقة ١٥٣ / أ. عن محمد حجي: المرجع السابق، ص ٢٥.

الست الصغيرة أربعة أروقة، تفصله عن حجرات الطلاب المطلة عليه.

أما من الناحية الأثرية، فتعتبر النصوص الكتابية التي يشتمل عليها هذا الأثر من أهم المصادر التي تكشف اللثام عن منشئه وتاريخ إنشائه، فعلى العتب الخشبي المتوج لفتحة المدخل الرئيس للمدرسة والذي يبلغ طوله ٢,٩٠ م وعرضه ٠.٣٠م، نقشت كتابات بالخط الثلث عبارة عن بيتين من الشعر – من بحر البسيط- تقوم على مهاد من زخارف نباتية (لوحة ٦٢)، نصها:

"أقامني للعلوم وللصلاة أمير المؤمنين وسبط خاتم الرسل
أسمى الخلائف عبد الله فادع له يا داخلي ببلوغ منتهى الأمل" [١]

وعلى تكسية الزليج التي تغطي الجزء السفلي للواجهات الأربعة المطلة على الصحن، نقشت كتابات بالخط الثلث عبارة عن أبيات من الشعر تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الطرف الجنوبي الشرقي للواجهة الشرقية (لوحة ٦٣):

"من بعد تسع مئين طلقت في عام اثنين مع السبعين قد سلفت
تبارك الله هذا منزل سبقت له الكرامة قبل الكون في الأزل
بني في أسعد وقت وأنتما حسنا فالحمد لله حمداً غير منفصل
فسبحان الله الملك الحق المبين"

وعلى تيجان الأعمدة الرخامية الحاملة للعقود التي يرتكز عليها سقف بيت الصلاة، نقشت كتابات بالخط الثلث داخل شريط مستطيل يدور على الأوجه الأربع لكل تاج، يبلغ طوله ٠.٢٠ م وعرضه ٠.٠٤م (لوحة ٦٤)، نصها: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير"، "المؤمنين أبوا محمد عبد الله بن مولانا أمير"، "المؤمنين مولانا آبوا عبد الله محمد الشيخ"، "الشريف الحسني أيد الله أمره بمنه".

وفي ضوء ما سبق، يتضح أن كلاً من الكتابات المنقوشة على العتب الخشبي وتيجان الأعمدة الرخامية، تحمل اسم أبي محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد الشيخ، وتحمل الكتابات المنقوشة على الزليج تاريخ (٩٧٢ هـ)، وهو يرجع إلى فترة حكم أبي عبد الله الملقب بالغالب بالله السلطان الرابع من سلاطين الدولة السعدية – حكم فيما بين (٩٦٤ –٩٨١ هـ/ ١٥٥٦ – ١٥٧٣م – الوارد اسمه في الكتابات السابقة؛ ومن هنا يمكن القول بالإضافة إلى الأدلة التاريخية السابقة- أن هذه المدرسة من إنشاء هذا السلطان، سيما وأن اسمه ورد على العتب الخشبي مسبوقاً بلفظ "أقامني"، والحق بتاريخ (٩٧٢ هـ) المنقوش على الزليج لفظ "بني"،

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 2 - 3.

بالإضافة إلى أن هذه الكتابات لا تنبئ عن محو أو كشط[١]، بل يلاحظ توافق النسب بينها وبين المساحات المنفذة عليها، كما أن الوضع المعماري للعتب الخشبي المتوج لفتحة المدخل الرئيس، وتيجان الأعمدة الحاملة للعقود التي يرتكز عليها سقف بيت الصلاة (شكل ٢٣)، يكشف عن الانسجام التام مع العناصر المعمارية الأخرى للمبنى، ولا يكشف عن أدنى اضطراب نشأ من إضافات لاحقة.

على أن بعض الباحثين ذكر أن نص الكتابات المنقوشة على الزليج — السابق الإشارة إليها — المتضمنة لتاريخ الإنشاء، جاء في بدايتها تمجيداً واعتزازاً بحضارة بني مرين، الشيء الذي يكشف عن تناقض ربما ناتج عن خطأ تاريخي، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعترف السعديون بالحضارة المرينية ويخلدوا اعترافهم على جدران مآثرهم[٢]، بما نصه: "كان عصر بني مرين عصر العلوم والتقدم والحضارة وإن ما خلفه بنو مرين من الآثار لأعظم دليل على ذلك". والواقع أن هذه الكتابات تؤكد نسبة هذه المدرسة للسلطان عبد الله الغالب، سيما إذا علمنا أنه اشتهر — من بين سلاطين الدولة السعدية — بحبه لبني مرين ومحاولته تتبع آثارهم، يؤكد ذلك صاحب تاريخ الدولة السعدية، بقوله: "وكان محبباً عند أهل فاس ومحبًا فيهم لتطوره على شكل بني مرين وهيئتهم ويتبع سيرتهم في المباشرة والهدنة ...... فاستحسن الناس أيامه بعد بني مرين" [٣]. مع الأخذ في الاعتبار أن عبد الله الغالب كان مقيمًا بفاس كولي لعهد أبيه محمد الشيخ، تلك المدينة التي شيد بها المرينيون العدد الأكبر من مدارسهم، ولا زالت تشتمل حتى الآن على سبع مدارس مرينية، كما سبقت الإشارة.

ومن الناحية المعمارية، يلاحظ من خلال المسقط الأفقي للمدرسة الغالبية (شكل ٢٠)، أن تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف بالجهة الشرقية منه بيت الصلاة، ورواق بكل من الجهتين الجنوبية والشمالية، أما مساكن الطلاب فتشغل الضلعين الجنوبي والشمالي للمدرسة منفصلة تمامًا عن الصحن والرواقين المحيطين به، ووزعت في مجموعات منفصلة عن بعضها كل مجموعة مكونة من ست أو سبع حجرات، حول صحن أوسط مكشوف مستقل (شكل ٢٠).

وقد ظهر هذا التخطيط بعد ذلك في مدرسة الشراطين العلوية بفاس القديمة

---

(١) ذكر أحد الباحثين أن السلطان عبد الله الغالب محا من الجدران اسم السلطان المريني، وكتب اسمه بدلاً منه. انظر، محمد حجي: المرجع السابق، ح ٦٣، ص ٢٥.

(٢) محمد خصيف: مدرسة ابن يوسف أكبر مدرسة عتيقة بالمغرب العربي، بحث نشر في مجلة المتحف العربي، السنة الثالثة، العدد الثالث، تصدر عن متحف الكويت الوطني، وزارة الإعلام — الكويت، يناير، فبراير، مارس، ١٩٨٨م، ص ٥٤.

(٣) مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ٣٠.

(١٠٨١هـ / ١٦٦٩م) [١]، وهو يختلف – إلى حد ما- عن تخطيط المدارس المرينية بكل من فاس ومكناس وسلا، المكون من صحن أوسط مكشوف بجهته الجنوبية بيت الصلاة، وبالجهتين أو الجهات الثلاثة الأخرى رواق يتقدم مساكن الطلاب[٢].

ومن الناحية الزخرفية، يلاحظ ضعف وبساطة العناصر النباتية التي تزين هذه المدرسة عن مثيلاتها في العصر المريني[٣]، كما يلاحظ غلبة استخدام الزخارف الهندسية على حساب العناصر الزخرفية الأخرى[٤]، بينما اقتصر استخدامها في المدارس المرينية كإطارات للزخارف النباتية والكتابية[٥]، بالإضافة إلى أن بعض الأبيات الشعرية المنقوشة على جدران هذه المدرسة، نقشت بالنص على بعض المنشآت التي شيدها السلطان عبد الله الغالب، كالسقاية المجاورة لجامع المواسين، وبعض المنشآت السعدية الأخرى كالزاوية الجزولية، والسقاية المجاورة لجامع باب دكالة، وجميعها بمدينة مراكش، كما سبقت الإشارة.

التخطيط المعماري للمدرسة (الشكلان ٢١، ٢٣):

تشغل هذه المدرسة مساحة من الأرض مربعة الشكل تقريبًا (٤١ م × ٤٤م) تبلغ نحو ١٨٠٤م٢، تخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف بالجهة الشرقية منه بيت الصلاة، ورواق بكل من الجهتين الجنوبية والشمالية، كما تتضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى كمساكن الطلاب والميضأة.

وقد استخدم الآجر في بناء المدرسة، بينما استخدم الخشب في عمل الأسقف والأبواب والنوافذ والأعتاب والرفارف وفي كسوة الأجزاء العلوية من الجدران، واستخدم الرخام في كسوة أرضية الصحن وفي عمل أعمدة بيت الصلاة، في حين استعمل الزليج في تكسية الأرضيات والأجزاء السفلية من الجدران، أما القرميد فاستعمل في تغطية الأسطح.

الوصف المعماري:

أولاً: الوصف الخارجي:

الواجهة الجنوبية :

هي الواجهة الرئيسية لهذه المدرسة، ويلاحظ أنها تمتد في استقامة واحدة، وقد حجب طرفها الشمالي بمجموعة حوانيت حديثة، ويبلغ طول الجزء المكشوف منها حاليًا ٢٩م، وتبدأ بعد ٢.٧٠م من طرفها الغربي بواجهة المدخل الرئيس، يليه واجهة مساكن الطلاب التي تشغل

---

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ١١٠؛ Terrasse, C., :Op. Cit., pp. 29 - 30

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(3) Terrasse, C., : Op. Cit., p. 3; Gayot, H., : Le Décor Floral dans L'Art de L'Islam Occidental, École du Livre, Rabat, 1955, ,pp. 7- 9.

(4) Terrasse, C., : Op. Cit., p. 33.

(5) Bel, A., : Op. Cit., p. 303.

الضلع الجنوبي للمدرسة، وتشتمل على صفين من نوافذ مستطيلة يبلغ عرض كل منها ٠,٥٢م وارتفاعها ٠,٦٤م، غشيت بمصبعات حديدية، يبلغ عدد هذه النوافذ سبعة في كل صف،تبدأ نوافذ الصف الأول بارتفاع ٢,١٠م من مستوى أرضية الشارع، وهي تخص حجرات الطلاب بالدور الأرضي، أما نوافذ الصف الثاني فتخص غرف الطابق الأول، ويتوج هذه الواجهة حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر.

وتتصل هذه الواجهة – كما سبقت الإشارة- بواجهة جامع ابن يوسف المقابلة لها، بساباط يغطي الجزء الذي يتقدم المدخل الرئيس للمدرسة، وقد غطي هذا الساباط بقبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة (شكل ٢٤/ أ – ب) (لوحة ٦٥)، وهي ترتكز على عقدين على هيئة حدوة فرس، اتساع فتحة كل منها ٣,٢٠م وارتفاعه ٤م، يرتكز كل عقد منهما على دعامتين مستطيلتين من الآجر ارتفاع كل منهما ١,٤٥م، إحداهما مدمجة بواجهة المدرسة والأخرى بواجهة الجامع المقابلة لها.

ويلاحظ أن كل عقد من العقدين السابقين، محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذي حافة مفصصة (اللوحتان ٦٦، ٦٧)، زينت توشيحتي كل عقد منهما بزخارف نباتية متنوعة نفذت بطريقة الكشط على تربيعات من الزليج، يعلو ذلك شريط مستطيل يبلغ عرضه ٠,٣٠م وطوله ٣,٧٠م، تزينه كتابات بالخط الثلث، تقوم على مهاد من زخارف نباتية متنوعة نفذت بطريقة الكشط أيضًا على تربيعات من الزليج، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر البسيط، نصها على العقد الغربي (لوحة ٦٦):

"تبارك الله هذا منزل سبقت ... له الكرامة قبل الكون في الأزل

بنى في أسعد وقت وأنتما حسنا ... فالحمد لله حمدًا غير منفصل"

ونصها على العقد الشرقي، وهي من بحر الطويل (لوحة ٦٧):

"سموت بحسني في سماء سناء ... وفقت قبابًا شيدت بفناء

بهندسة أملا حكيم رسومها ... سطورًا ترى للرامقين ثناء

فحزت من الوشي المنوط بزخرفي ... معان تكل الناظرين إزاء

حويت من الحسن المصوغ لزينتي ... سوارًا وسمطي حليتي ورداء" (١)

ويعلو هذا الشريط الكتابي الأخير (لوحة ٦٧)، مساحة مستطيلة من الجص تزينها ست حشوات مستطيلة، تفصل بينها أشرطة ضيقة مستطيلة أيضًا تزينها زخارف هندسية، أما الحشوات فقد توجت بحطات متدرجة من مقرنصات جصية ذات دلايات، يلاحظ أن الحشوة الأولى والثالثة والخامسة زينت بكتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، يعلوها جامة دائرية

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 5 – 6.

تزينها زخارف هندسية، أما الحشوة الثانية والرابعة والسادسة فتزينها زخارف نباتية متنوعة، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تزينها زخارف هندسية متنوعة، ويؤطرها أربعة أشرطة ضيقة من الجص تزينها كتابات مكررة الخط الثلث، نصها: "العز لله".

المدخل الرئيس (لوحة ٦٨):

هو المدخل الوحيد للمدرسة، ويقع على بعد ٢,٧٠م من الطرف الغربي لواجهتها الجنوبية، يبلغ اتساع واجهته ٥.٦٠م، ويصدرها فتحة باب يبلغ اتساعها ١,٨٠م وارتفاعها ٢,٩٠م، يغلق عليها باب خشبي من مصراعين مصفحين بالبرنز، زين كل مصراع منهما بزخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، ولكل مصراع مطرقة مستديرة من البرونز، ويتوج فتحة الباب – كما سبقت الإشارة- عتب مستطيل من الخشب يبلغ عرضه ٠.٣٠م وطوله ٢٩٠م زين بكتابات بالخط الثلث[1]، سبق ذكرها عند الحديث عن تاريخ إنشاء المدرسة، ويزين الجزء العلوي لواجهة هذا المدخل مساحة مستطيلة من الجص مزينة بزخارف هندسية متنوعة، ويؤطرها اربعة أشرطة ضيقة من الجص أيضًا تزينها كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها "العز القائم لله الملك الدائم لله"، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص أيضًا تزينها زخارف هندسية متنوعة، يعلوها شريط ضيق من الجص تزينه عقود مفصصة متجاورة، يحصر كل منها بداخله كتابة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، ويلاحظ أن هذه الزخارف السابق وصفها تدور على الجدران الأربعة للساباط، الذي يغطي الجزء الذي يتقدم هذا المدخل، وقد سبق وصفه، وتوصل فتحة الباب السابق وصفها إلى دهليز.

الواجهة الغربية (لوحة ١٤٣):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٤١م، وهي مورورية في اتجاه الشرق، وذلك لعدم تربيع مساحة المدرسة، والرغبة في المحافظة على حق الطريق حيث يلاحظ ضيق الشارع الذي تطل عليه هذه الواجهة، ولنفس الغرض قام المعمار بشطف ركنيها الشمالي والجنوبي، وتشتمل هذه الواجهة على صفين من النوافذ تشبه مثيلاتها بالواجهة الجنوبية السابق وصفها، يشتمل الصف السفلي على أربع نوافذ بينما يشتمل الصف العلوي على سبع نوافذ، ويتوج هذه الواجهة حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، ويلاحظ أنها تتصل بواجهة المبنى المقابل لها بساباط، يرتكز على عقدين على هيئة حدوة فرس، يرتكز كل عقد منهما على دعامتين مستطيلتين من الآجر، إحداهما مدمجة في هذه الواجهة والأخرى مدمجة في واجهة المبنى المقابل لها (لوحة ٦٩). وعلى بعد ١٣م من الطرف الشمالي لهذه الواجهة فتح باب حديث، يبلغ اتساعه ١.١٣م وارتفاعه ١.٩٥م، ويغلق عليه مصراع واحد من الخشب.

---

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 2 - 3

الواجهة الشمالية:

يلاحظ أن هذه الواجهة تمتد في استقامة واحدة، غير أنه لم يعد مكشوفًا منها حاليًا سوى مسافة قدرها ٨.٦٥م في قطاعها الغربي، بينما حجب الجزء المتبقي منها بالمباني الحديثة التي شيدت إلى جوارها.

الواجهة الشرقية:

شيدت إلى جوار هذه الواجهة مجموعة من مبان حديثة حجبتها تمامًا.

الوصف الداخلي:

الدهليز (لوحة ٧٠):

نصل من المدخل الرئيس إلى دهليز يشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٩.١٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢.١٨م، فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، أما سقفه فخشبي مسطح زين بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر والتعشيق ودهنت بألوان متعددة، ونظرًا لطول هذا الدهليز فقد فتح فيه منوران للتهوية والإضاءة، أحدهما في طرفه الجنوبي والآخر في طرفه الشمالي، ونظرًا لطول المساحة التي يغطيها هذا السقف يلاحظ انه يرتكز على ثمانية عقود خشبية مطنفة، أسفل كل منها حرمدانان من الجص أحدهما مدمج في الجدار الشرقي والآخر بالجدار الغربي لهذا الدهليز (لوحة ٧١)، يلاحظ أن أربعة عقود منها تتكون من طنفين وعتبين خشبيين (لوحة ٧١)، زين الطنفان بزخارف نباتية متنوعة، بينما يزين العتب الأول كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "البركة الكاملة النعمة الشاملة الغبطة المتصلة"، أما العتب الثاني فمزين بصف من عقود مدببة متجاورة، يحصر كل عقد بداخله كتابات بالخط الكوفي نصها كلمة "اليمن" كتبت طردًا وعكسًا، وتقوم على مهاد من زخارف نباتية (لوحة ٧١)، أما العقود الأخرى فيتكون كل عقد منها من طنفين وعتب واحد، زين الطنفان بزخارف نباتية متنوعة بينما زين العتب بكتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، يلاحظ أن هذه الكتابات تشبه مثيلاتها بالعتب الأوسط السابق وصفه تمامًا، باستثناء الكتابات المنفذة على عتب العقد الأخير من الطرف الشمالي الغربي للدهليز، حيث يلاحظ أن هذا العتب مقسم إلى ثلاثة أقسام، الأوسط زين بكتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها:

"متع جفونك في الحسن البديع ترا سرًا عجيبًا يزيل البث والفكرا"

بينما زين كل قسم من القسمين الجانبيين بعقد مفصص يحصر بداخله كتابة بالخط الكوفي لكلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا وتقوم على مهاد من زخارف نباتية.

ويغطي الجزء السفلي للجدارين الشرقي والغربي لهذا الدهليز (لوحة ٧٠)، تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ١.٣٧م من مستوى أرضية الدهليز، يعلو ذلك شريط مستطيل من الجص يبلغ ارتفاعه ٠.٣٦م، زين بكتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية"، يعلو ذلك حشوة متسعة من الجص تزينها زخارف هندسية متنوعة، ويؤطرها من أعلى ومن أسفل شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، ويمتد أسفل السقف الخشبي الذي يغطي هذا الدهليز إزاران من الخشب (لوحة ٧٢) زين السفلي منهما بصف من عقود مفصصة متجاورة، وبداخل كل منها كتابة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها كلمة "اليمن" كتبت طرداً وعكساً، أما الإزار العلوي فتزينه كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "البركة الكاملة النعمة الشاملة الغبطة المتصلة" (لوحة ٧٢).

ويوجد على يمين ويسار الداخل بهذا الدهليز، بعد فتحة الباب السابق وصفها مباشرة، دخلة تبدأ بارتفاع ٠.٧٤م من مستوى أرضية الدهليز (لوحة ٧٠)، ويبلغ عمقها ٠.٦٧م وارتفاعها ٢.٠٨م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، وقد فرشت أرضيتها وكسيت جدرانها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويزين باطن العقد المتوج لكل دخلة من هاتين الدخلتين زخارف نباتية وكتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "العافية الباقية"، ويبدو أن هاتين الدخلتين كانتا مخصصتين لجلوس البواب أو حراس المدرسة[1]. وبعد الدخلة التي على يسار الداخل بهذا الدهليز كانت توجد فتحة باب[2]، يبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٥٨م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يوصل إلى مساحة مستطيلة الشكل عرضها ١.٧٣م وتمتد بمحاذاة الدهليز حتى نهايته الجنوبية، ربما كانت تستخدم للتخزين (شكل ٢٠).

ويوصل هذا الدهليز إلى مساحة مربعة الشكل طول ضلعها ٤.٩٦م فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان، أما سقفها فخشبي مربع المسقط هرمي الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة (لوحة ٧٣)، وغطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، ويغطي الجزء السفلي لجدران هذه المساحة المربعة السابق وصفها، تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية يبلغ ارتفاعها ١.٣٧م، يعلوها شريط مستطيل من الجص ارتفاعه ٠.٣٦م تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية

---

(١) عن الوظائف التي كانت مرتبة بالمدارس المغربية، انظر: محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) كانت فتحة الباب هذه موجودة عند زيارتي الأولى للمدرسة في سبتمبر ١٩٩٦م، وفي زيارتي الثانية لهذه المدرسة في أغسطس ٢٠٠١م، لاحظت أن فتحة الباب هذه قد سد جزؤها السفلي بالبناء بارتفاع ٠.٧٥م من مستوى أرضية الدهليز، ونزع الباب الخشبي الذي كان يغلق عليها، انظر (لوحة ٧٠).

الباقية"، وبالجزء العلوي لكل من الجدار الجنوبي والغربي والشمالي توجد نافذة مستطيلة، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة، وقد سد جزؤها السفلي بحجاب من خشب الخرط، ويؤطر كل نافذة أربعة أشرطة ضيقة من الجص زينت بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها سورة الإخلاص، يعلو ذلك مساحة مستطيلة متسعة زينت بزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص، يعلوها شريط مستطيل من الجص أيضًا تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها سورة الإخلاص، يعلوه مساحة مستطيلة من الجص تزينها سبع حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير وزينت بزخارف هندسية، يعلو ذلك إزار من الخشب زين بصف من عقود مفصصة متجاورة زين كل عقد منها بكتابات بالخط الكوفي، نصها كلمة "اليمن" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه (لوحة ٧٣).

يتوسط الجدار الغربي لهذه المساحة المربعة السابق وصفها فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٢,٥٠م وارتفاعها ٣,٥٦م وتوصل إلى سلمين أحدهما على يمين الداخل والآخر على يساره (شكل ٢٠) يوصلان إلى مساكن الطلاب بالطابق الأول للمدرسة، وبكل من جداريها الجنوبي والشمالي فتحة متوجة بعقد نصف مستدير، يبلغ اتساع كل منهما ١,٢٨م وارتفاعها ٢,٥٦م توصل كل منهما إلى رواق يتقدم مساكن الطلاب بالدور الأرضي، وبوسط الجدار الشرقي توجد فتحة يبلغ اتساعها ٢,٤٠م وارتفاعها ٤م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها حجاب من خشب الخرط بكامل اتساعها بصدره فتحة باب توصل إلى صحن المدرسة (شكل ٢٠)، يبلغ اتساعها ١,٠٥م وارتفاعها ١,٧٨م يغلق عليها مصراعان من الخشب، ويعلوها عقد على هيئة حدوة فرس غشي بحشوة من خشب الخرط مزينة من جهة الصحن (لوحة ٧٤) بكتابات بالخط الكوفي المضفر، نصها: "الملك لله"، ويتوج هذا العقد صف من شرافات مدرجة.

الصحن (**لوحة ٧٥**):

يتوصل إلى الصحن من المدخل الرئيس للمدرسة بعد اجتياز الدهليز الذي يليه والمساحة المربعة التي يؤدي إليها هذا الدهليز، وهو يشغل مساحةً مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب ٢٠,٢٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٦,٥٠م، فرشت أرضيته بألواح مستطيلة من الرخام الأبيض، وهي تنخفض عن أرضية بيت الصلاة والرواقين الجانبيين بمقدار ٠,٠٥م، وبوسطه حوض مستطيل الشكل طوله من الشرق إلى الغرب ٨,٥٤م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٤,٦٧م وعمقه ٠,٧٦م، فرشت أرضيته وكسيت جدرانه الداخلية بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وتحيط به من الخارج قناة صغيرة عرضها ٠,٠١٧م وعمقها ٠,٠٧م لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء، ويطل على الصحن أربع واجهات يلاحظ أن كل واجهة

تشبه المقابلة لها تماماً، باستثناء مضمون الكتابات المنقوشة على كل منها، ويتوج كل واجهة صف من كوابيل خشبية تحمل رفرفاً خشبيًا مغطى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر.

الواجهة الغربية منها (لوحة ٧٤)، تطل على الصحن بخمس دخلات رأسية تفصل بينها أربع دعامات مستطيلة (٠,٦٥م × ٠,٣٠م)، اتساع الدخلة الوسطى ٥,٨٥م بصدرها فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، يغلق عليها حجاب من خشب الخرط يتوسطه فتحة باب توصل الداخل من الدهليز إلى الصحن، وقد سبق وصفه عند وصف الدهليز، أما الدخلات الأربع الجانبية فمتشابهة تماماً، إذ يبلغ اتساع كل منها ١,٦٨م، ويغطي الجزء السفلي لهذه الواجهة بارتفاع ١,٦٨م من مستوى أرضية الصحن، تكسية من الزليج المتعدد الألوان تنقسم إلى ثلاثة أقسام زخرفية، السفلى ارتفاعه ١,٤٠م وتزينه زخارف هندسية متنوعة، والقسم الأوسط ارتفاعه ٠,٢٠م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر بعضها تشبه مثيلاتها المنقوشة على العقد الغربي للساباط الذي يصل الواجهة الجنوبية للمدرسة بواجهة جامع ابن يوسف المقابلة لها، وتبدأ هذه الكتابات من الطرف الشمالي لهذه الواجهة بما نصه:

"[اسموت بحسنى في سماء] [1] سناء وفقت قبابًا شيدت بفناء

بهندسة أملا حكيم رسومها سطورًا ترى للرامقين ثناء

[فحزت من الوشي] المنوط بزخرفي معان [تكل الناظرين إزاء]

[حويت] من الحسن المصوغ لزينتي سوارًا وسمطي حليتي ورداء

حمدًا لمن قد كون الاكوان ...... [2] الموت على الإنسان

وجعل المختار أول شفيع وأفضل المشفعين في الجميع

لا قوة إلا بالله ما شاء الله العظيم"

يتوقف النص الكتابي لوجود الفتحة التي يغلق عليها الحجاب الخشبي السابق وصفه (لوحة ٧٤)، ثمَّ تستمر الكتابات بعد ذلك بنص شعري آخر:

"ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتعالى في الثواب وفي الثنا

---

(١) الكلمات التي بين الأقواس اختفت حاليًا لسقوط بلاطات الزليج المنفذة عليها، والتكملة من خلال الكتابات المنقوشة على العقد الغربي للساباط الذي يصل واجهة المدرسة الجنوبية بواجهة جامع ابن يوسف المقابلة لها.

(٢) سقطت حاليًا بلاطات الزليج التي نقشت عليها بعض كلمات عجز هذا البيت الشعري.

لقد ظهرت للطاهر الملك همة	بها اليوم في الدارين قد بلغ المنا
تجمع فيها من كل حسن يعرف	فراقت قلوب الأنام وأعينا
لا باس بالغالي إذا قيل حسن	ليس لما قرت به العين ثمنا
لقد بنيت بالسرور من بعد ما كان	الزمان ....(١)"

أما القسم العلوي من كساء الزليج المغطي للجزء السفلي من هذه الواجهة، فيبلغ ارتفاعه ٠.٠٨م مزين بصف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، يعلو ذلك شريط من الجص ارتفاعه ٠.٢٨م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها سورة الإخلاص والفلق والناس وآية الكرسي(٢)، يلي ذلك ما نصه: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا(٣)"، يعلو ذلك مساحة متسعة زينت بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، يعلو ذلك بالنسبة للدخلات الأربع عقد على هيئة حدوة فرس زين باطنه بحطات متدرجة من مقرنصات جصية (لوحة ٧٤)، يعلوه حشوة مستطيلة من الجص زينت بزخرفة هندسية مكررة على هيئة معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، أما الدخلة الوسطى فقد سبقت الإشارة أن الفتحة التي بوسطها متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس (لوحة ٧٤)، يلاحظ أنه محاط بآخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضًا ذو حافة مفصصة، زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطره ثلاثة أشرطة من الجص مزينة بكتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها سورة الإخلاص، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تزينها أربع حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير، يفصل بين هذه الحشوات أربعة أشرطة مستطيلة زينت بزخارف نباتية، أما الحشوات الأربع فقد زينت الأولى والرابعة بزخارف هندسية بينما زينت الحشوتان الثانية والثالثة بكتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، يعلو ذلك زخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويتوج هذه الدخلة عقد على هيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الخشب (لوحة ٧٤)، ويتوج هذه الواجهة إزار عريض من الخشب، يمتد بطول الواجهات الأربعة للصحن، تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن آيات من سورة الفتح تبدأ من الطرف الجنوبي للواجهة الشرقية للصحن، سوف يأتي ذكرها عند وصف هذه الواجهة، يعلو هذا الإزار صف من كوابيل

---

(١) سقطت حاليًا بلاطات الزليج المنقوشة عليها بعض كلمات عجز هذا البيت الشعري.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة، جزء من الآية ٢٨٥.

خشبية يحمل رفرف خشبي مغطى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر.

وأما الواجهة الشرقية (شكل ٢٥) (لوحة ٧٦)، فتطل على الصحن بخمس دخلات تشبه مثيلاتها بالواجهة الغربية السابق وصفها، فبصدر الدخلة الوسطى فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٣.٥٠م وارتفاعها ٤.٥٠م توصل إلى بيت الصلاة، وبصدر كل من الدخلة الأولى والخامسة فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٨٥م وارتفاعها ١.٩٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، ويؤطره ثلاثة أشرطة من الجص تزينها كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، ويغلق على كل منها باب خشبي من مصراعين تزينهما زخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، وهما يوصلان إلى بيت الصلاة.

وتشبه الزخارف المنفذة على هذه الواجهة مثيلاتها بالواجهة الغربية السابق وصفها، باستثناء مضمون الكتابات المنفذة على القسم الأوسط لتكسية الزليج، حيث تشير على هذه الواجهة إلى تاريخ إنشاء المدرسة، وتبدأ من الطرف الجنوبي لهذه الواجهة (لوحة ٦٣)، بما نصه: "كان عصر بني مرين عصر العلوم والتقدم والحضارة وأن ما خلفه بنو مريـن من[١] الآثار لاعلظم دليل على ذلك]"، وتستمر هذه الكتابات بعد فتحة الباب التي بالطرف الجنوبي لهذه الواجهة (اللوحتان ٦٣، ٦٤)، بما نصه:

"من بعد تسع مئين طلقت في عام اثنين مع السبعين قد سلفت

تبارك الله هذا منزل سبقت له الكرامة قبل الكون في الأزل

بنى في أسعد وقت وانتما حسنا فالحمد لله حمدا غير منفصل

فسبحان الله الملك الحق المبين"

ويعترض هذا النص الكتابي المدخل المؤدي إلى بيت الصلاة الذي يتوسط هذه الواجهة الشرقية (لوحة ٧٦)، وتستمر الكتابات بعد ذلك، بما نصه:

"متع [جفونك في الحسن البديع ترا][٢] سرًا عجيبًا يزيل البث والفكرا"

ثمَّ يضطرب النص بعد ذلك لاختفاء بعض الكلمات وصعوبة قراءة بعضها الآخر، وتنتهي الكتابات على هذه الواجهة، بما نصه: "الله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين".

---

(١) سقطت حاليًا بلاطات الزليج التي نقشت عليها هذه الكلمات التي بين الأقواس، وقد كانت قائمة في مكانها في أغسطس من عام ١٩٩٦م عند زيارتي الأولى لهذه المدرسة، وقد زودت أحد القائمين بترميم هذه المدرسة في سبتمبر ٢٠٠١م بالنص الكامل لهذه الكتابات.

(٢) سقطت حاليًا بلاطات الزليج المنقوشة عليها هذه الكلمات، والتكملة من خلال الكتابات المنقوشة على العتب الأخير من الطرف الشمالي للدهليز.

أما الإزار الخشبي الذي يتوج هذه الواجهة ويمتد بطول الواجهات الأخرى للصحن، فتزينه – كما سبقت الإشارة- كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وتبدأ من الطرف الجنوبي للواجهة الشرقية، بما نصه: "أعوذ بالله العلي العظيم من الشيطان الغوي الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وبنيه وآل بيته أفضل الصلاة وأزكى التسليم إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك"، وتستمر على الواجهة الشمالية، بما نصه "وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا وينصرك الله نصرًا عزيزًا هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر"، ونصها على الواجهة الغربية: "عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا ولله جنود"، وعلى الواجهة الجنوبية: "السماوات والأرض وكان الله عزيزًا حكيمًا إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا"(١).

أما الواجهتان الجنوبية والشمالية للصحن (شكل ٢٦)(اللوحتان ٧٧، ٧٨) فمتشابهتان تمامًا ، حيث تطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من أربع دعامات على هيئة حرف T ودعامتين مدمجتين في الأركان، يرتكز عليها خمسة عقود خشبية مطنفة، وقد غطي الجزء السفلي لكل دعامة من هذه الدعامات بتكسية من الزليج المتعدد الألوان، تشبه مثيلتها بالواجهتين الغربية والشرقية السابق وصفهما، باستثناء مضمون الكتابات المنفذة على القسم الأوسط، وهي تتضمن على دعامات الواجهة الجنوبية أبيات من الشعر غير أنه يصعب قراءة هذه الكتابات حاليًا، لاختفاء بعض بلاطات الزليج المنفذة عليها وسقوط بعض البلاطات الأخرى، وإعادة تركيبها بأوضاع خاطئة دون نظر لسياق الكلمات (لوحة ٧٧)، ونص هذه الكتابات على دعامات الواجهة الشمالية (اللوحتان ٧٩، ٨٠):

" توسل إلى الرحمن في السر والجهر ... تنل كل ما ترجو من الفضل والخير
يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع

(١) سورة الفتح، الآيات من ١ – ١٠.

حاشا لجودك أن تقنط عاصيًا الفضل أجزل والمواهب أوسع
بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا
أحسن ما صرف فيه المقال الحمد لله على كل حال"

ويعلو هذا الكساء على كل من دعامات هاتين الواجهتين، شريط من الجص يبلغ ارتفاعه ٠.٢٨، تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية (لوحة ٨٠)، يلاحظ أنها استمرار للآيات القرآنية المنقوشة على الواجهة الغربية للصحن، ونصها على دعامات الواجهة الجنوبية:

"وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين[١] صدق الله العظيم والحمد لله رب العالمين" "قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[٢] لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين[٣]".

ونصها على دعامات الواجهة الشمالية: "هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم[٤]" "الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون[٥] بسم الله الرحمن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر" [٦] "بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون" [٧].

أما عقود هاتين الواجهتين (لوحة ٧٧)، وهي عقود خشبية مطنفة يبلغ عددها خمسة بكل واجهة كما سبقت الإشارة، يتكون كل عقد منها من طنفين وعتبين من الخشب، ترتكز على حرمدانين من الجص زين سطحهما بزخارف نباتية أما باطنهما فمزين بحطات من

(١) سورة البقرة، نهاية الآية ٢٨٥، آية ٢٨٦.
(٢) سورة آل عمران، نهاية الآية ١٨.
(٣) سورة التوبة، آية ١٢٨.
(٤) سورة الحشر، الآيتان ٢٣، ٢٤.
(٥) سورة التغابن، آية ١٣.
(٦) سورة القدر.
(٧) سورة المنافقون، آية ٩.

مقرنصات جصية، أما الطنفين فقد زين كل منهما بزخارف نباتية متنوعة، بينما قسم العتب الأول إلى ثلاثة أقسام زخرفية، زين أوسطهما بكتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر تمدح المدرسة، يلاحظ أنها اختفت تمامًا على أعتاب الواجهة الشمالية (لوحة ٧٨)، في حين لا تزال بحالة جيدة على أعتاب الواجهة الجنوبية، وسوف يأتي ذكرها، أما القسمان الجانبيان فيزين كل منهما عقد مفصص يحصر بداخله كتابة بالخط الكوفي لكلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، وأما العتب العلوي فمزين بصف من عقود متجاورة بداخل كل منها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "البقاء لله". وأما الكتابات التي تزين العتب الأول لعقود الواجهة الجنوبية، فتبدأ من الطرف الغربي لهذه الواجهة، بما نصه[1]:

"متى تلج بي فجل بالطرف وانصرف	نحو القباب تحط بالسر من عمل
بدر وشمس لعلا........	زخرمني فخر السلاطين وسبط خاتم الرسل
فقت قباب إزائي مذ بدا شرفي	وجل قدري ونوري لاح للقبل
إذا دنت للغروب الشمس أشرق بي	نور العلوم وبان الفجر من قبلي
بمن بدت لعباد الله دولته	أسراره في دهور الغيب لم تنل"

ويعلو هذه العقود بكل من هاتين الواجهتين مستوى واجهة الطابق الأول (شكل ٢٦) (اللوحتان ٧٧، ٧٨)، وهي مقسمة إلى خمس دخلات بنفس اتساع عقود الدور الأرضي، تفصل بينها الدعامات الأربعة السابق ذكرها، وهي تحمل خمسة عقود خشبية مطنفة يرتكز كل منها على حرمدانين من الجص زين سطحيهما بزخارف نباتية بينما زين باطنهما بحطات من مقرنصات جصية، وقد زينت هذه الدخلات بزخرفة هندسية مكررة على هيئة معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية وهندسية دقيقة نفذت على الجص (اللوحتان ٧٧، ٧٨)، ويصدر كل دخلة نافذة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، زين باطنه بوسائد زخرفية من الجص بينما زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، وقد سد الجزء السفلي لكل نافذة بحجاب من خشب الخرط ويغلق عليها شباك خشبي من مصراعين تزينهما زخارف هندسية متنوعة، ويؤطر كل نافذة أربعة أشرطة ضيقة من الجص مزينة بكتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها سورة الإخلاص،

---

(١) قبل أعمال الترميم التي تمت لهذه المدرسة عام ٢٠٠١م، لم تكن الكتابات المنقوشة على هذه الأعتاب واضحة بصورة تمكن من قراءتها، بفعل الرطوبة وتراكم الأتربة. وفي هذا الصدد أتقدم بخالص الشكر إلى الأستاذ / محمد الغوثي إحسان المشرف على ترميم الأخشاب بهذه المدرسة، الذي ساعدني كثيرًا في قراءة هذه الكتابات وتوفير السقالات الحديدية المتحركة التي سهلت هذه المهمة.

وتخص هذه النوافذ مساكن الطلاب بالطابق الأول للمدرسة، ويتوج كل واجهة من هاتين الواجهتين الإزار الخشبي السابق وصفه، تعلوه الكوابيل الحاملة للرفرف الخشبي المغطى بحطات القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٧٨).

الرواقان الجانبيان للصحن (لوحة ٧٧):

يطل على الصحن من الجانبين الجنوبي والشمالي – كما سبقت الإشارة- رواق مستطيل الشكل، طوله من الشرق إلى الغرب ٢١م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٢.٨٠م، فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، أما سقفه فخشبي مسطح زين بزخارف هندسية متنوعة، ويطل كل رواق منهما على الصحن ببائكة مكونة من خمسة عقود خشبية مطنفة سبق وصفها عند وصف الصحن، ويغطي الجدران الداخلية لكل رواق تكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١.٤٧م، مزين بتشكيلات هندسية متنوعة يتوجها صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل (لوحة ٧٧)، يعلو ذلك شريط مستطيل من الجص ارتفاعه ٠.٥٣م زين بكتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما" ثمَّ يلي ذلك سورة الإخلاص مكررة، ويعلو هذا الشريط شريط آخر من الجص أيضًا يبلغ ارتفاعه ٠.١٢م تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله" ويتوسط هذين الشريطين حشوة مستطيلة من الجص اتساعها ١.٩٥م وارتفاعها ١.٥٠م توجت بعقد مدبب ذي حافة مفصصة يرتكز على عمودين زخرفيين من الجص، وهي مزينة بزخارف نباتية متنوعة، وبصدرها جامة مستديرة ذات حافة مفصصة تحصر بداخلها كتابات بالخط الثلث، نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم" (لوحة ٧٧)، ويزين الجزء العلوي لجدران كل رواق مساحة مستطيلة من الجص مقسمة إلى ثلاثة أشرطة زخرفية، أوسطها أوسعها وتزينه زخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، أما الشريطان العلوي والسفلي فمتشابهان تمامًا وتزينهما كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، يعلو ذلك إزار عريض من الخشب يمتد أسفل السقف مباشرةً، زين بصف من عقود مفصصة متجاورة يحصر كل منها بداخله كتابة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها كلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

بيت الصلاة (شكل ٢١):

يقع إلى الشرق من الصحن – كما سبقت الإشارة- ويتوصل إليه من خلال فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس زين باطنه بزخارف نباتية، سبق وصفها عند وصف الصحن (لوحة ٧٦) ويوجد بالجزء السفلي لجانبي هذا المدخل لوحة من الرخام الأبيض

مستطيلة الشكل (لوحة ٦٣)، يبلغ اتساعها ١,٤٠م وارتفاعها ٢,١٠م، مقسمة إلى ثلاثة أقسام زخرفية، السفلي ارتفاعه ١,٤٥م قوام زخرفته دخلة صماء على هيئة محراب متوج بعقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، ويرتكز على عمودين زخرفيين لكل منهما تاج مزين بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر هذا القسم السفلي من الجهات الأربعة شريط آخر يبلغ اتساعه ٠,٢٠م مزين بزخارف نباتية متنوعة،أما القسم الثاني فارتفاعه ٠,١٧,٥م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم"[1]، وأما القسم الثالث فارتفاعه ٠,١١,٥م وهو مزين بصف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، تحصر بداخلها زخارف نباتية متنوعة.

ويشغل بيت الصلاة مساحة مستطيلة الشكل، طولها من الشمال إلى الجنوب ١٦,٥٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٨,١٤ م، يلاحظ أنها مقسمة إلى ثلاثة أقسام غير متساوية في المساحة، أوسطها أكبرها اتساعه ٨,٤٠ م بينما يبلغ اتساع كل قسم من القسمين الجانبيين ٤,٠٥م، وذلك بواسطة بائكتين تتكون كل منهما من أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المجزع باللون الأصفر، اثنين في الوسط وعمودين مدمجين أحدهما بالجدار الشرقي والآخر بالجدار الغربي لبيت الصلاة، ارتفاع كل عمود منها ١,٨٥م ولكل منها قاعدة ناقوسية الشكل ترتكز على قاعدة مربعة طول ضلعها ٠,٥٥م وارتفاعهما معًا ٠,١٧م، ولكل عمود تاج من الرخام أيضًا ارتفاعه ٠,٤٢م تزينه زخارف هندسية ونباتية متنوعة وكتابات بالخط الثلث داخل شريط مستطيل يدور على الأوجه الأربعة لكل تاج، يبلغ طوله ٠,٢٠ م وعرضه ٠,٠٤م، نصها: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير" ، "المؤمنين أبوا محمد عبد الله بن مولانا أمير"، "المؤمنين مولانا أبوا عبد الله محمد الشيخ"، "الشريف الحسني أيد الله أمره بمنه"، ويرتكز على هذه الأعمدة ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس عمودية على جدار القبلة (شكل ٢٢) (لوحة ٦٤)، يلاحظ أن العقد الأوسط أكثرها اتساعًا حيث يبلغ ٢,٣٢م، بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ١,٩١م، ويزين كوشات هذه العقود (لوحة ٦٤) زخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص ويؤطر كل عقد ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص زينت بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها سورة الإخلاص، ويعلو عقد كل بائكة مساحة مستطيلة متسعة تزينها زخرفة هندسية متكررة على هيئة معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة وكتابة بالخط الكوفي لكلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك ست نوافذ مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، وقد غشيت كل نافذة بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، وتحصر هذه النوافذ فيما بينها خمس حشوات

---

(١) سورة المزمل، نهاية الآية ٢٠.

مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، وقد زينت هذه الحشوات وكوشات العقود التي تتوجها بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطر هذه النوافذ والحشوات السابق وصفها شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، يعلو ذلك السقف الذي يغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة، وهو عبارة عن قبة مخروطية الشكل تتكون من ثمانية أضلاع تعرف في الاصطلاح المغربي بـ (الجفنة المثمنة)[1]، وزين باطنها بزخارف هندسية متنوعة (الأشكال ٢٢، ٢٧، ٢٨/ أ – ب) (لوحة ٨١)لاحظ أنها تأخذ من الخارج هيئة هرمية غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٢٥) (لوحة ٨٢).

أما بالنسبة للجدار الغربي للقسم الأوسط لبيت الصلاة، فيتوسطه المدخل السابق وصفه الذي يؤدي إلى بيت الصلاة، وقد زينت توشيحتا العقد الذي يتوجه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطره ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٨م تزينها كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد" وعلى الشريط الأفقي: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار"[2]، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تزينها تسع حشوات مستطيلة توجت كل منها بهيئة عقد نصف مستدير، وترتكز هذه العقود على أعمدة زخرفية من الجص وقد زينت كوشاتها بزخارف نباتية متنوعة، ويلاحظ أن الحشوات الثانية والرابعة والسادسة والثامنة تزينها زخارف هندسية بينما زينت الحشوات الأخرى بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر هذه الحشوات وتوشيحتي عقد المدخل السابق وصفهما شريط متسع تزينه زخارف نباتية نفذت على الجص، يعلوه مساحة مستطيلة من الجص تزينها إحدى عشرة حشوةً مستطيلةً توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، كما زينت هذه الحشوات بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويؤطر هذه الحشوات شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، يعلو ذلك القبة الخشبية التي تغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة، وقد سبق وصفها.

المحراب (لوحة ٨٣):

يتوسط الجدار الشرقي للقسم الأوسط لبيت الصلاة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٠، ١٩١.

أضلاع اتساعها ٢٫٠٣م وعمقها ٣٫٢٠م وارتفاعها ٣٫٦٠م، يكتنفها من الجانبين أربعة أعمدة من الرخام الأبيض، عمودان بكل جانب ارتفاع كل منها ١٫٧٦م، ولهذه الأعمدة قواعد وتيجان ناقوسية الشكل، يبلغ ارتفاع كل تاج ٠٫٢٥م زين بزخارف نباتية متنوعة، وزين بدن كل عمود بأربع مناطق زخرفية، السفلى ارتفاعها ١٫٦٠م تزينها زخرفة هندسية متكررة على هيئة معينات متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة، والمنطقة الثانية ارتفاعها ٠٫٠٥م زينت بزخرفة هندسية مجدولة، أما الثالثة فارتفاعها ٠٫٠٧م زينت بكتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، يبدأ نصها على العمود الأول على يمين الواقف بحنية المحراب وتستمر على الأعمدة الثلاث الأخرى: "أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن"، "الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا ومن الليل"، "فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقامًا"، "محمودًا وقل رب أدخلني مدخل صدق[1]"، وأما المنطقة الرابعة فارتفاعها ٠٫٠٤م زينت بصف من شرافات مدرجة.

ويتوج واجهة المحراب عقد على هيئة حدوة فرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية متنوعة، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطره ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠٫٣٨م زينت بكتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد" وعلى الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"[2] (لوحة ٨٣)، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة تزينها أربع حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية بينما زينت هذه الحشوات بزخارف هندسية متنوعة نفذت على الجص أيضًا، ويفصل بين هذه الحشوات ثلاثة أشرطة مستطيلة زينت بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويؤطر مجموع هذه الزخارف التي تزين واجهة المحراب (اللوحتان ٨٣، ٨٤) شريط مستطيل من الجص يبلغ اتساعه ٠٫٧٠م، زين جزؤه السفلي بكتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله" يعلوها زخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص (لوحة ٨٤)، ويعلو الشريط الأفقي ست نوافذ مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، وقد غشيت كل نافذة بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، وتحصر هذه النوافذ فيما بينها خمس حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت كوشتاه بزخارف نباتية كما زينت هذه الحشوات بزخارف نباتية متنوعة نفذت على

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٧٨ ، ٧٩، وبداية الآية ٨٠.

(٢) سورة النور، الآيتان ٣٦، ٣٧.

الجص، يعلو ذلك السقف الخشبي الذي يغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة (لوحة ٨٤).

أما حنية المحراب من الداخل، فيلاحظ أن قطاعها السفلي خال من الزخرفة وعلى ارتفاع ٢م توجد مساحة مستطيلة تزينها سبع حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير ذي حافة مفصصة زينت كوشتاه بزخارف نباتية كما زينت الحشوات نفسها بزخارف نباتية نفذت على الجص (لوحة ٨٣)، ويغطي حنية المحراب قبة مخروطية الشكل زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص (شكل ٢٩/ أ — ب).

أما بالنسبة للقسمين الجانبيين لبيت الصلاة، فيزين الجزء العلوي لجدرانهما مساحة مستطيلة من الجص تزينها زخارف نباتية متنوعة، يعلوها شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها سورة الإخلاص، يعلو ذلك مساحة مستطيلة تزينها حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، ويلاحظ على هذه الحشوات أن واحدة منها زينت بزخارف هندسية وأخرى بزخارف نباتية بالتبادل (لوحة ٨٥)، يعلو ذلك إزار خشبي متسع يزينه صف من زخرفة على هيئة عقود مفصصة متجاورة بداخل كل منها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها كلمة "اليمن" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك السقف الذي يغطي كل قسم من القسمين الجانبيين لبيت الصلاة، وهو سقف خشبي مسطح زين بزخارف هندسية متنوعة (شكل ٢٢) (لوحة ٨٥). ويشتمل كل من الطرف الجنوبي والشمالي للجدار الشرقي لبيت الصلاة على دخلة يبلغ عمقها ٠.٥٠م واتساعها ١.٧٥م، ركب على كل منها باب خشبي مكون من أربعة مصاريع، وهما يستخدمان لحفظ الكتب (شكل ٢٢) (لوحة ٦٤).

مساكن الطلاب (الشكلان ٢١، ٣٠):

تتكون مساكن الطلاب في هذه المدرسة من طابقين، وزعت في الدور الأرضي على ضلعيها الجنوبي والشمالي، منفصلة تمامًا عن صحنها الأوسط المكشوف برواقين أحدهما يقع إلى الجنوب من هذا الصحن والآخر إلى الشمال منه، حيث يلاحظ أنها خططت في مجموعات منفصلة عن بعضها كل مجموعة مكونة من ست أو سبع حجرات حول صحن داخلي مستقل مكشوف (الشكلان ٢١، ٢٣)، بلغ عددها ستة صحون، ثلاثة في الضلع الجنوبي ومثلها في الضلع الشمالي للمدرسة.

وهذه الصحون متشابهة تمامًا، حيث يشغل كل منها مساحة مربعة الشكل تقريبًا يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢.٣٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢.٠٦م، محاط من الجهات الأربع برواق يبلغ عرضه ٠.٨٤م فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان ويغطيه سقف خشبي مسطح، ويطل على الصحن في كل جهة بعقد خشبي مطنف مكون من ثلاثة أعتاب خشبية ترتكز على حرمدانين من الجص يرتكزان بدورهما على دعامتين من الآجر على هيئة زاوية

حادة (الشكلان ٢١، ٣٠)، ويفصل هذا الرواق بين حجرات الطلاب والصحن السابق وصفه.

ويبلغ عدد حجرات الطلاب بالدور الأرضي (شكل ٢١) أربعًا وخمسين حجرةً، تسعًا وعشرين منها بالضلع الجنوبي، وخمسًا وعشرين بالضلع الشمالي للمدرسة، وتشغل هذه الحجرات مساحات مستطيلة تتراوح فيما بين (٢.٣٥ × ٢.٢٠م) و (٢.٧٥م × ١.٨٥م) فرشت أرضية كل منها بالزليج المتعدد الألوان ويغطي كل منها قبو نصف برميلي، ولكل حجرة فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٦٥م وارتفاعها ١.٧٨م توجت بعقد نصف مستدير ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وتشتمل كل حجرة على نافذتين مستطيلتين غشيت كل منهما بمصبعات حديدية، إحداهما تطل على الشارع والأخرى تطل على الرواق الذي تطل عليه هذه الحجرات كما سبقت الإشارة.

أما غرف الطابق الأول (شكل ٣١)، فيتوصل إليها من خلال سلمين على يسار الداخل بالطرف الشمالي لدهليز المدرسة (شكل ٢١) وقد سبق وصفهما عند وصف الدهليز، وهما يوصلان إلى رواقين أحدهما بالضلع الجنوبي والآخر بالضلع الشمالي للمدرسة، يبلغ عرض كل منهما ١.٤٣م فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، أما سقفه فخشبي مسطح زين بزخارف هندسية ونباتية متنوعة (لوحة ٨٦)، ويبلغ عدد غرف هذا الطابق اثنين وثمانين غرفةً في الجوانب الجنوبية والشمالية والغربية للمدرسة، اثنين وثلاثين بالجانب الجنوبي وإحدى وثلاثين بالجانب الشمالي وتسع عشرة غرفة بالجانب الغربي (شكل ٣١)، ويلاحظ أن بعضها على جانبي الرواقين السابق وصفهما وبعضها الآخر حول الصحون الستة الجانبية السابق وصفها بالدور الأرضي، مع ملاحظة أن الأروقة المحيطة بهذه الصحون قد سد الجزء السفلي لفتحات عقودها الخشبية المطنفة بحجاب من خشب الخرط (لوحة ٨٧)، وتشبه هذه الغرف مثيلاتها السابق وصفها بالدور الأرضي، وإن كان ثمة اختلاف فيتمثل في تغطية غرف الطابق الأول بأسقف خشبية باطنها مستو لكنها تأخذ من الخارج شكل جمالوني غطي بحطات من القرميد (شكل ٣٢).

الميضأة:

تقع بالركن الشمالي الغربي للمدرسة، وهي تنخفض عن مستوى أرضية صحن المدرسة بنحو ٠.٢٠م، ويتوسط هذه الميضأة صحن مربع الشكل طول ضلعه ٢.٨٠م فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وقد غطي هذا الصحن بقبة من الآجر زين باطنها بمقرنصات جصية ذات دلايات، وتأخذ من الخارج هيئةً هرميةً غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٣٢)، وترتكز هذه القبة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض ارتفاع كل عمود منها ١.٩٠م، يرتكز على قاعدة مستديرة من الرخام أيضًا ارتفاعها ٠.١٠م ويعلوه تاج مزين بزخارف نباتية ارتفاعه ٠.٢٧م، ويتوسط هذا الصحن حوض مستطيل

من الآجر يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ١.٤٨م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١.٤٠م وعمقه ٠.٣٢م وسمك جدرانه ٠.٢٤م، محاط بقناة لتصريف الماء الناتج عن الوضوء عمقها ٠.٢٤م واتساعها ٠.١٧م وسمك جدارها ٠.٣٣م، ويطل على الصحن تسعة مراحيض أربعة منها بالجهة الشمالية وثلاثة بالجهة الغربية واثنان بالجهة الشرقية، وتشغل هذه المراحيض مساحات مستطيلة متفاوتة فيما بينها، ولكل مرحاض فتحة باب اتساعها ٠.٦٤م وارتفاعها ٢م يغلق عليها باب خشبي مكون من مصراع واحد، ووفقًا لما ذكره بعض الباحثين فإن هذه المدرسة كانت تشتمل على حجرتين كانتا تستعملان لغسيل ملابس طلبة المدرسة[1]، ربما هما الواقعتان إلى الجنوب من الميضأة، غير أنه لا يمكن القطع بذلك لتعرض هذا الجزء لبعض التعديلات واستحداث فتحة باب سبق ذكرها عند وصف الواجهة الغربية للمدرسة.

(١) محمد خصيف: المرجع السابق، ص ٥٧.

مدرسة جامع باب دكّالة بمراكش

المنشئ:

شيدتها مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورززاتي، زوجة السلطان محمد المهدي، ووالدة السلطان أحمد المنصور، كملحق للجامع الذي شيدته بحي باب دكّالة بمراكش، الذي شيدته – كما سبقت الإشارة- فيما بين عامي (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م).

التخطيط المعماري:

تشغل هذه المدرسة مساحةً من الأرض مستطيلة الشكل تبلغ ١٢٠م^2 تقريبًا، وكان تخطيطها الأصلي عبارة عن صحن أوسط مغطى محاط من الجهات الشرقية والجنوبية والغربية بحجرات لسكن الطلاب (شكل ٣)، غير أن هذا التخطيط تغير حاليًا، نظرًا للتجديدات العديدة التي تعرضت لها هذه المدرسة.

الوصف المعماري:

أولاً- الوصف الخارجي:

شيدت هذه المدرسة بملاصقة الطرف الجنوبي للواجهة الغربية للجامع، لذا فإنه لا يظهر منها سوى ثلاث واجهات فقط هي الجنوبية والغربية والشمالية، ويلاحظ أن هذه الواجهات أقل ارتفاعًا من واجهات الجامع، وقد توجت بصف من شرافات مدرجة (لوحة ١٤) يبلغ طول الواجهة الجنوبية ٧,٥٠م، وطول الواجهة الغربية ١٦,٨٥م بينما يبلغ طول الواجهة الشمالية ٦م حيث اختفى طرفها الشرقي خلف واجهة المدخل الرئيس للجامع (لوحة ١٤)، وقد كانت هذه الواجهة تشتمل على المدخل الأصلي المؤدي إلى داخل المدرسة (شكل ٣)، غير أنه سد حاليًا بالبناء واستعيض عنه بفتحة باب حديثة بالطرف الشمالي للواجهة الغربية لهذه المدرسة (لوحة ١٤)، يبلغ اتساعها ١,٥٠م وارتفاعها ٢,١٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين ويتوج واجهة هذا المدخل حطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، وعلى يمين ويسار هذا المدخل فتحت ثلاث نوافذ مستطيلة، اثنتان منها على يمين المدخل والثالثة على يساره وقد غشيت كل منها بشبكة من مصبعات حديدية (لوحة ١٤).

الوصف الداخلي:

سبقت الإشارة إلى أن الصحن الأوسط لهذه المدرسة كان محاطًا بمجموعة من حجرات لسكن الطلاب (شكل ٣)، يبلغ عددها ثلاث عشرة حجرةً؛ منها خمس حجرات بكل من الجهتين الشرقية والغربية، وثلاث حجرات بالجهة الجنوبية، غير أن هذه الحجرات هدمت جميعها وأصبحت المدرسة عبارة عن مساحة مستطيلة خالية من البناء تستخدم حاليًا لحفظ

فرش المسجد (شكل ٣٣). وقد سبقت الإشارة عند وصف الرواق الغربي لجامع باب دكّالة، أن الجدار الغربي لهذا الرواق يشتمل على فتحة باب تؤدي إلى داخل هذه المدرسة، يبلغ اتساعها ٩٠م وارتفاعها ٢.١٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، كما يشتمل الطرف الجنوبي لهذا الجدار على نافذة مستطيلة تفتح على هذه المدرسة، يبلغ اتساعها ٠.٩٥م وارتفاعها ١.١٥م غشيت بشبكة من مصبعات حديدية.

مدرسة جامع الأشراف (المواسين) بمراكش

المنشئ:

شيدها السلطان عبد الله بن محمد المهدي الملقب بالغالب بالله، كملحق للجامع الذي شيده بحي المواسين بمراكش سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) كما سبقت الإشارة.

الموقع:

تقع هذه المدرسة إلى الغرب من جامع المواسين على بعد ١٠٠م تقريبًا، وهي محاطة بالمساكن والحوانيت التجارية من الجهات الأربع باستثناء جزء من واجهتها الغربية، وبه مدخل هذه المدرسة والواجهة الغربية للميضأة التابعة لها (شكل ٣٤). ولم تعد هذه المدرسة تقوم بوظيفتها حاليًا حيث تحولت منذ فترة طويلة إلى سكن خاص لعدة أسر، مما أدى إلى إحداث عدة تغييرات في تخطيطها الأصلي ليتوافق مع وظيفتها الجديدة.

التخطيط المعماري:

تشغل هذه المدرسة مساحةً مستطيلة الشكل، تخطيطها الأصلي كان عبارة عن صحن أوسط مكشوف محاط بأربعة أروقة تتقدم مساكن الطلاب، كما ألحق بها فضلاً عن مساكن الطلاب قاعة مستطيلة ربما كانت تستخدم كمصلى للصلوات الخمس أو للدرس أو ربما كانت سكنًا خاصًا بأحد شيوخ المدرسة.

الوصف المعماري:

المدخل الرئيس:

يقع هذا المدخل بالطرف الجنوبي للواجهة الغربية للمدرسة، وهو يفضي إلى دركاة مستطيلة بصدرها سلم صاعد يتكون من خمس درجات، يوصل بدوره إلى دهليز مستطيل توجد في بدايته على يسار الداخل فتحة باب توصل إلى الميضأة، ثمَّ ينكسر الدهليز في نهايته نحو الشرق حيث توجد فتحة باب تؤدي إلى صحن المدرسة.

الصحن:

يشغل مساحةً مستطيلةً، وكان يتوسطه فسقية مستديرة المسقط يقع إلى الجنوب منها بئر مثمنة المسقط، ويحيط بالصحن واجهات الأروقة الأربعة، ويلاحظ أن كل واجهة تشبه المقابلة لها تمامًا، حيث تشرف كل من الواجهتين الجنوبية والشمالية على الصحن ببائكة مكونة من أربع دعامات مستطيلة من الآجر في الوسط ودعامتين مدمجتين في الأركان، ترتكز عليها خمسة عقود أوسطها مطنف بينما العقود الجانبية من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، ويتوج كل واجهة رفرف خشبي مائل مغطى بحطات من القرميد (شكل ٣٥). أما الواجهتان الغربية والشرقية، فتطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من

ست دعامات مستطيلة من الآجر في الوسط ودعامتين مدمجتين في الأطراف، تحمل سبعة عقود أوسطها مطنف بينما العقود الجانبية من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، ويتوج كل واجهة منها كما هو الحال في الواجهتين الجنوبية والشمالية – السابق وصفهما- رفرف خشبي مائل مغطى بحطات من القرميد.

مساكن الطلاب:

كانت المدرسة تشتمل على مجموعة من الحجرات لسكن الطلاب يبلغ عددها ستًا وعشرين حجرةً موزعةً على الجهات الأربع للصحن، سبع منها بالجهة الجنوبية وتسع بالجهة الشرقية وست بالجهة الشمالية وأربع بالجهة الغربية، وهي تشغل مساحات مستطيلة الشكل متفاوتة فيما بينها ولكل منها فتحة باب مستطيلة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد. كما تشتمل المدرسة بركنها الشمالي الغربي على قاعة كبيرة مستطيلة الشكل، تنقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية في المساحة بواسطة بائكتين، تتكون كل منهما من دعامتين مدمجتين في الأطراف بالإضافة إلى دعامة مستطيلة من الآجر في الوسط، يرتكز عليها عقدان على هيئة حدوة فرس، ويبدو أن هذه القاعة كانت تستخدم – كما سبقت الإشارة- كمصلى للصلوات الخمس أو لعقد الدروس، وربما كانت تستخدم لسكن أحد شيوخ المدرسة.

الميضأة:

تقع هذه الميضأة إلى الشمال من المدخل الرئيس للمدرسة (شكل ٣٤)، ويتوصل إليها من خلال فتحة باب بالطرف الجنوبي للجدار الغربي لدهليز المدرسة سبق ذكرها عند وصف هذا الدهليز، وتشغل الميضأة مساحة غير منتظمة الشكل تتكون من فناء مكشوف يحده من الجهة الغربية خمسة مراحيض، تشغل مساحات مستطيلة متفاوتة فيما بينها، ولكل منها فتحة باب يغلق عليها مصراع خشبي (شكل ٣٤).

مدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش

المنشئ:

شيدها السلطان عبد العزيز بن أحمد المنصور، كملحق للجامع الذي شيده بحي باب تغزوت بمراكش إلى جوار ضريح الصوفي الشهير أبي العباس السبتي حوالي عام (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، لذا فقد حمل الجامع اسم هذا الصوفي، كما عرفت هذه المدرسة باسم "المدرسة العباسية"[(١)].

الموقع:

تقع هذه المدرسة إلى الجنوب من جامع أبي العباس السبتي (شكل ١٤)، وهي محاطة بالمساكن والحوانيت التجارية ولا يظهر منها سوى المدخل الرئيس لهذه المدرسة.

التخطيط المعماري:

تشغل هذه المدرسة مساحة مستطيلة الشكل تبلغ نحو ٢٥٠م²، وتخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة أروقة تتقدم مساكن الطلاب الموزعة على الجوانب الأربعة للصحن (شكل ٣٦)، وتجدر الإشارة إلى أنه يسكن هذه المدرسة حاليًا الطلبة المكفوفون المرتبون بضريح أبي العباس السبتي المجاور لهذه المدرسة[(٢)].

الوصف المعماري:

المدخل الرئيس:

يقع بالطرف الغربي للواجهة الشمالية للمدرسة، يبلغ اتساع فتحته ١,٤٧م وارتفاعها ٢,٠٥م، يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهو يفضي إلى دهليز.

الدهليز:

يشغل مساحة مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٥,٩٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢,١٥م، ويغطيه سقف خشبي مسطح، وبالنهاية الجنوبية لهذا الدهليز على يسار الداخل فتحة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس تفضي إلى صحن المدرسة.

الصحن:

يشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٦,٣٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٧,٧٥م، كان يتوسطه حوض مستطيل اختفى الآن، ويطل على الصحن أربع واجهات تنقسم كل منها راسيًا إلى قسمين السفلي يمثل واجهة الدور الأرضي ويمثل القسم العلوي واجهة الطابق الأول، حيث تتكون هذه المدرسة من طابقين، وقد توجت كل

---

(١) عبد اللطيف التباع: المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) عبد اللطيف التباع: نفس المرجع والصفحة.

واجهة منها برفرف خشبي مائل مغطى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر.

ومما يلاحظ أن كل واجهة تشبه المقابلة لها تمامًا، حيث تشرف كل من الواجهتين الشرقية والغربية على الصحن ببائكة مكونة من دعامتين مستطيلتين من الآجر (٠,٥٥م × ٠,٧٥م) في الوسط ارتفاع كل منهما ١,٤٢م ودعامتين مدمجتين في الأركان، يرتكز عليهما ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس، بينما تشرف كل من الواجهتين الجنوبية والشمالية على الصحن ببائكة مكونة من أربع دعائم مستطيلة من الآجر في الوسط ودعامتين مدمجتين في الأركان، تحمل خمسة عقود على هيئة حدوة فرس.

مساكن الطلاب:

تفتح مساكن الطلاب بهذه المدرسة على الأروقة الأربعة المطلة على الصحن، وهي تتكون من طابقين كما سبقت الإشارة، ويبلغ عددها بالدور الأرضي (شكل ٣٦) سبع وعشرين حجرة، ست منها بالجهة الشرقية وثماني بكل من الجهتين الجنوبية والشمالية وخمس بالجهة الغربية، يلاحظ أن حجرتين منها تحولتا حاليًا إلى ميضأة صغيرة تشتمل على مرحاضين (شكل ٣٦)، وتشغل هذه الحجرات مساحات مستطيلة متفاوتة فيما بينها، ويغطي كل حجرة قبو نصف برميلي ولكل منها فتحة باب يبلغ اتساعها ٠,٧٧م وارتفاعها ١,٩٥م يغلق عليها مصراع واحد من الخشب. ويتقدم حجرات الطلاب في كل جهة رواق مستطيل اتساعه ١,٠٢م غطي بسقف خشبي مسطح.

أما غرف الطابق الأول، فيتم الوصول إليها من خلال سلم صاعد بالطرف الشمالي للرواق الغربي للصحن (شكل ٣٦)، وهي بنفس عدد حجرات الدور الأرضي السابق وصفها، وقد سد الجزء السفلي لفتحات عقود بائكات الأروقة الأربعة التي تتقدمها بحجاب من خشب الخرط يبلغ ارتفاعه ١,٧٠م. وبأعلى الدهليز الذي يلي المدخل الرئيس للمدرسة توجد قاعة مستطيلة مستحدثة تستخدم حاليًا كمصلى للصلوات الخمس، يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١١,٧٠م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٦,٧٥م، تنقسم إلى ثلاثة أقسام بواسطة بائكتين تتكون كل منهما من دعامتين مربعتين في الوسط طول ضلع كل منها ٠,٥٥م وارتفاعها حتى مأخذي العقد ١,٥٧م، ودعامتين مدمجتين في الأطراف، ويرتكز على هذه الدعامات ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس موازية لجدار القبلة، الذي تتوسطه حنية محراب عمقها ٠,٣٨م واتساعها ١م، وقد غطي الجزء السفلي لجدران هذه القاعة بكساء من الحصير ارتفاعه ١م.

التخطيط المعماري للمدارس السعدية الباقية

وضح من الدراسة الوصفية السابقة للمدارس السعدية القائمة، أن تخطيطها المعماري ينقسم إلى نمطين، الأول وتمثله المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م)، التي يتكون تخطيطها من صحن أوسط مكشوف بالجهة الشرقية منه قاعة مستطيلة للصلاة والدرس، ويكل من الجهتين الجنوبية والشمالية رواق مغطى، ومساكن للطلاب موزعة في طابقين على الأضلاع الجنوبية والشمالية والغربية منفصلة تمامًا عن الصحن الأوسط للمدرسة، حيث وزعت كل مجموعة منها حول صحن صغير مكشوف محاط من جهاته الأربع برواق مغطى، يبلغ عدد هذه الصحون الصغيرة ستة صحون، ثلاثة بالضلع الجنوبي للمدرسة تقابلها ثلاثة أخرى بضلعها لشمالي (شكل ٢١).

أما النمط الثاني فهو بسيط وتمثله كل المدارس الصغيرة الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية، وهي مدرسة جامع باب دكّالة (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م) (شكل ٣٣)، ومدرسة جامع المواسين (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) (شكل ٣٤)، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) (الشكلان ١٤، ٣٦) وجميعها بمراكش، وتخطيطها عبارة عن صحن أوسط، يلاحظ أنه مغطى في مدرسة جامع باب دكّالة، بينما ظل مكشوفًا في كل من مدرستي جامع المواسين وجامع أبي العباس السبتي، ويحيط بهذا الصحن من الجهات الأربع في كل من هاتين المدرستين الأخيرتين رواق مغطى يتقدم مساكن الطلاب التي وزعت على جوانبه الأربعة، في طابق واحد بمدرسة جامع المواسين وفي طابقين بمدرسة جامع أبي العباس السبتي، بينما كانت تطل مساكن الطلاب – قبل هدمها – بمدرسة جامع باب دكّالة على الصحن مباشرةً دون أن يتقدمها أروقة، وقد وزعت على الجهات الشرقية والجنوبية والغربية.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن مدارس النمط الثاني شيدت كملحق للمساجد الجامعة المشيدة إلى جوارها – كما سبقت الإشارة – بينما شيد السلطان عبد الله الغالب مدرسته الغالبية التي تمثل النمط الأول مستقلة دون أن يلحقها بمسجد جامع، يمكن القول إن الاختلاف في الشكل المعماري جاء تلبيةً لحاجة الوظيفة، إذ أن اشتمال المدرسة الغالبية على قاعة مستطيلة للصلاة والدرس فضلاً عن مساكن الطلاب، يشير إلى أن هذه المدرسة لم تكن مخصصةً لسكنى الطلاب فحسب، وإنما خصصت أيضًا لعقد الدروس العلمية، على عكس مدارس النمط الثاني التي كانت قاصرةً على سكنى الطلاب الذين كانوا يتلقون دروسهم في المساجد الجامعة التي ألحقت بها هذه المدارس، لذا لم تكن هناك حاجة لتزويدها بقاعات لعقد الدروس.

وقد أكدت المصادر التاريخية المعاصرة لإنشاء هذه المدارس هذا الأمر، حيث حفلت بالعديد من النصوص التي تؤكد أن هذا العالم أو ذاك كان يعطي دروسه في المدرسة الغالبية

من جهة، أو أنه كان يدرس في جامع باب دكّالة أو جامع المّواسين أو جامع أبي العباس السبتي، دون الإشارة إلى عقد الدروس بالمدارس الملحقة بهذه المساجد من جهة أخرى. من ذلك نجد أن المدرسة الغالبية درس بها محمد بن يوسف التملي (ت: ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م)، وكان يجتمع له أكثر من ثلاثمائة طالب يعلمهم القراءات السبع والعشر، على النحو التالي: "الشاطبية ولامية الأفعال بعد العصر، والكراريس بعد العشاء، ووقت التجويد من طلوع الشمس إلى العصر" [١].

وفي جامع باب دكّالة كانت هناك كراسٍ متعددة لعلوم متنوعة من أوقاف منشئته مسعودة الوزكيتية، ومن الذين أسندت إليهم وظيفة التدريس به، الفلكي والأديب محمد بن يوسف الولاتي (ت: ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠م) الذي تخرج على يده الكثير من الطلبة [٢]، وخلفه في التدريس بهذا الجامع ابنه وتلميذه أحمد (ت: ١٠٦١ هـ / ١٦٥١م) الذي برع في الحساب والهندسة فدرسهما وألف فيهما وكثر الآخذون عنه [٣].

كما أحدث عبد الله الغالب عدة كراسٍ علمية بجامع المّواسين وأوقف عليها أوقافًا عديدة [٤]، ومن العلماء الذين درسوا بهذا الجامع محمد بن أبي القاسم الحسني السجلماسي (ت: ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م) الذي أسندت إليه الخطابة والتدريس بالجامع بعد أن تم بناؤه، وأخذ عنه الطلبة العلوم اللسانية والدينية [٥]، ودرس به أيضًا عبد الواحد بن أحمد الحسني السجلماسي (ت: ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٥م)، وقد كثر الآخذون عنه من الطلبة والعلماء حتى عد شيخ الجماعة في عصره [٦]، ومحمد بن يوسف الترغي (ت ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ – ١٦٠١م) الذي كان يعقد مجالس التفسير والحديث والفقه والنحو على كرسيه بهذا الجامع [٧]، كما درس به أيضًا عبد العزيز بن عبد الله السكتاني المُتَوَفَّى بعد سنة (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) [٨]. وفي جامع أبي العباس السبتي كانت هناك كراسٍ للتفسير وغيره من العلوم، من أوقاف منشئه أبي فارس عبد العزيز بن

---

(١) المقري: فتح المتعال، ورقة ١٥٣/ أ. عن محمد حجي: المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني، ص ٢٥.

(٢) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ٣٩٥.

(٣) محمد حجي: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٤) محمد حجي: المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ١١٩.

(٥) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، القسم الأول، ص ٣٢٥؛ ولنفس المؤرخ: درة الحجال، الجزء الثاني، ص ص ٢١٣ – ٢١٤؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٧٦.

(٦) ابن القاضي: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ١٤٠ – ١٤١؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٧٩.

(٧) ابن القاضي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ١٦٤ – ١٦٥؛ محمد حجي: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٨٠.

(٨) محمد حجي: نفس المرجع والجزء، ص ٣٨٦.

أحمد المنصور[١].

وتجدر الإشارة إلى أن جمع المدرسة الغالبية لوظيفتي التعليم والسكن لم يكن ابتكارًا سعديًا، حيث سبقتها في ذلك المدارس المرينية التي قرنت جميعها بين التعليم والسكن[٢]، كما أن هذه المدارس التي يتكون تخطيطها من صحن أوسط مكشوف بالجهة الجنوبية منه قاعة مستطيلة للصلاة والدرس، وبالجهات الثلاث الأخرى وأحيانًا من جهتين فقط رواق يتقدم مساكن الطلاب، كما هو الحال على سبيل المثال في مدرسة الصفارين بفاس القديمة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م) ومدرسة الصهريج بفاس القديمة أيضًا (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م) ومدرسة أبي الحسن (المعروفة خطأ بالبوعنانية) بمكناس (٧٣٦ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١م) والمدرسة المصباحية بفاس القديمة (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م)، كانت مصدر الإيحاء لتخطيط المدارس السعدية – وبخاصة المدرسة الغالبية – رغم بساطة الشكل المعماري لمدارس النمط الثاني، وعدم اشتمالها على قاعات للصلاة والدرس، لكونها شيدت كملحق للمساجد الجامعة المجاورة لها.

ورغم ذلك فقد تميزت المدرسة الغالبية بأنها تشتمل فضلاً عن صحنها الأوسط المكشوف – كما سبقت الإشارة – على ستة صحون جانبية صغيرة مكشوفة، ثلاثة منها بالضلع الجنوبي للمدرسة تقابلها ثلاثة أخرى بالضلع الشمالي، وزعت على جوانب هذه الصحون الصغيرة مساكن الطلاب منفصلة تمامًا عن الصحن الأوسط الرئيس للمدرسة (شكل ٢١). وظاهرة تعدد الصحون هذه لم تشهدها المدارس المرينية، رغم أنها عرفت بالمغرب الأقصى- في ظل النماذج القائمة – منذ العصر الموحدي[٣]، حيث نجدها في مسجد القصبة الموحدي بمراكش (٥٩١ هـ / ١١٩٦م) الذي يشتمل على خمسة صحون، ومسجد حسان بالرباط (٥٨٧ – ٥٩٣ هـ / ١١٨٩ – ١١٩٥م) الذي يشتمل على ثلاثة صحون[٤]، غير أنها لم تظهر في عمائر المرينيين سواء كانت مدارس أو مساجد، إلى أن ظهرت في العصر السعدي في المدرسة الغالبية – كما سبقت الإشارة- ثمَّ شوهدت بعد ذلك في مدرسة الشراطين العلوية بفاس القديمة (١٠٨١ هـ / ١٦٦٩م).

كما امتازت المدرسة الغالبية – فضلاً عن ذلك- بكبر المساحة التي تشغلها، والتي بلغت نحو ١٨٠٤م٢، وهي تعد بذلك أكبر مدرسة أثرية ليس بالمغرب الأقصى فحسب، بل في

---

(١) المقري: روضة الآس، ص ٥٩.

(٢) للاستزادة حول هذه الظاهرة. انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١١٧ – ١١٨.

(٣) عرف المغرب الأدنى ظاهرة تعدد الصحون قبل المغرب الأقصى، إذ نجدها في جامع المهدية بتونس(٣٠٥ هـ / ٩٣٥م) الذي يشتمل على ثلاثة صحون. انظر، محمد الكحلاوي: السمات المعمارية بين مساجد دهلي ومساجد الغرب الإسلامي، بحث نشر في كتاب ندوة الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي، نشر كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٥٢.

(٤) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٣٩٨.

كل بلاد الشمال الإفريقي، كما يتضح من الجدول الآتي:

اسم المدرسة	مساحتها م٢	مساحة الصحن م٢	مساحة بيت الصلاة م٢
مدرسة الشهود أو القاضي بمكناس حوالي (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م)	٣٥٧	١٠٣,٢٩	٣٧,٨٠
مدرسة الصفارين بفاس القديمة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م)	٨٢٠	١٨٠,٠٤	٦٢,٤١
مدرسة دار المخزن بفاس الجديد (٧٢١ هـ / ١٣٢١م)	٣٥٠	١٥٠,٠٨	٧٠,٠٩
مدرسة الصهريج بفاس القديمة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)	٥٤٠	٨٩,٠٦	٦٤,٠٤
مدرسة العطارين بفاس القديمة (٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م)	٤٨٠	٨٧,٠٥	٥٩,٠٤
مدرسة أبي الحسن بمكناس (٧٣٦ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١م)	٦٤٠	٨٦,٠٩	٥٧,٨١
مدرسة أبي الحسن بسلا (٧٤٢ هـ / ١٣٤١م)	٢٤٠	٤١,٠٣	٣٥,١٠
المدرسة المصباحية بفاس القديمة (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م)	٥٤٠	١٣٢,٠٣	٤٩
المدرسة البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م)	١٢٩٠	٣١٠,٠٩	١٨٥,٦٥ (١)
المدرسة الغالبية (ابن يوسف) بمراكش (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م).	١٨٠٤	٣٣٠	١٢٨,٧٥

---

(١) انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٢٩٦ ، ٣٢٦.

الفصل الثالث

الزوايا (الزاوية الجزولية)

تعتبر الزوايا تطورًا للربط – التي عرفها المغرب الأقصى مع الفتح الإسلامي – من حيث إن كليهما مأوى لإقامة الزهاد والمتعبدين وإطعام الفقراء، ولكن بتوزيع جغرافي مغاير لما كان عليه نظام الربط التي كانت تقع أغلبها على الحدود والمراكز الساحلية، بينما انتشرت الزوايا داخل المدن المغربية[1].

وقد مرت الزوايا قبل أن تصبح منشأة خاصةً بالتصوف – كما سبقت الإشارة- بعدة وظائف، تغير من خلالها توزيعها الجغرافي تبعًا لكل وظيفة، كما صاحبها أيضًا تغير الفئات التي شيدت هذه الزوايا. فبدأت بإيواء الحجاج المسافرين عبر الطريق البري المؤدي للشرق الإسلامي، لذا فقد انتشرت الزوايا التي شيدها الشيخ أبو محمد صالح وأتباع طريقته في مطلع القرن(٧ هـ /١٣م) على طول هذا الطريق[2]، وفي بداية عصر الدولة المرينية شيد سلاطينها الزوايا خارج أسوار المدن وبالقرب من أبوابها وعلى الطرق التي تربط بين المدن، لاستقبال وإيواء عابري السبيل والمسافرين الواردين عليها الذين يباغتهم الليل، أي أنها كانت – كما سبقت الإشارة- بمثابة استراحات يقضي فيها المسافرون ليلتهم قبل متابعة طريقهم، ثمَّ تحولت بعد ذلك لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لطريقة معينة، وصارت لا تبنى إلا لهذا الغرض[3].

وفي عهد الوطاسيين مع نهاية القرن (٩ هـ / ١٥م)، بدأت الزوايا تمارس أنشطة دينية وتعليمية ثمَّ سياسية جهادية، وبعد هذا التاريخ صار دور الزوايا يختلف من ديني إلى علمي أو سياسي، وقد تجمع بين هذه الأدوار جميعًا، وتعد المناطق التي تواجه الخطر الأجنبي أكثر جهات البلاد التي انتشرت فيها الزوايا ذات الدور السياسي والحربي الذي لعبته الربط فيما مضى[4]، وفي ظل سكوت المصادر التاريخية المتاحة – كما سبقت الإشارة- يمكن القول إن السلطة الحاكمة في ذلك العهد لم تشارك في بناء الزوايا، الذي أصبح قاصرًا على شيوخ التصوف.

وفي عهد الأشراف السعديين كثرت الزوايا بالمغرب الأقصى وأصبحت أكثر من أن تحصى، وكاد عددها يفوق عدد المساجد، وقد نجح السعديون أثناء ازدهار دولتهم في صرف

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٢؛ الحسن السائح: المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) محمد القبلي: قراة في زمن أبي محمد صالح، ص ص ٩٨ – ٩٩؛ محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ٢٤.

(٣) راجع ص ص ١٥٥ - ١٥٦ من الدراسة.

(٤) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣١٢؛ ولنفس المؤلف: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

العديد من شيوخ التصوف عن الخوض في السياسة التي طالما شغلتهم من قبل، فتحولت زواياهم إلى مراكز تعليمية نشطة[١]، ولكن ما إن ضعفت الدولة السعدية عقب وفاة أحمد المنصور (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، حتى قامت بعض الزوايا بحركات مناوئة للدولة وكونت كيانات مستقلة عنها، وتعد الزاوية الدلائية من أبرز الأمثلة في هذا الصدد[٢].

وقد شيدت الزوايا في هذا العهد على يد شيوخ التصوف، ولكن يبدو أن ذلك كان يتم – وفقًا لرواية بعض المؤرخين – بموافقة السلطة الحاكمة خاصةً في فترة ازدهارها[٣]، ومع ذلك فإن الضريح الذي شيده السلطان أحمد الأعرج بمراكش لدفن رفاة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ووالده محمد القائم، صار نواةً أو عنصرًا رئيسيًا التفت حوله مجموعة من الوحدات كونت مجموعة دينية كاملة، تعد الزاوية الوحيدة من العصر السعدي التي لا تزال – رغم ما تعرضت له من تجديدات – بحالة جيدة[٤].

(١) محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الجزء الأول، ص ٨١.

(٢) محمد حجي: الزاوية الدلائية، ص ص ١٦٣ – ١٦٥.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢١٠.

(4) Marçais, G., : Op. Cit., pp. 386 - 387.

الزاوية الجزولية بمراكش

الموقع:

تقع هذه الزاوية بحي رياض العروس أحد الأحياء القديمة بمدينة مراكش (خريطة ٦)، وتطل بواجهتها الشمالية على شارع ضيق يعرف بدرب اليقوري، وتطل بواجهتها الشرقية على شارع سيدي "بنسليمان"، ويحدها من الجهتين الجنوبية والغربية مقبرة قديمة سابقة على بناء الزاوية، كانت تعرف قديمًا بـ "قبور الأشراف" [1].

المنشئ وتاريخ الإنشاء:

يبدو أن الوحدات المعمارية المكونة لهذه الزاوية شيدت على فترات متتالية، فقد شيد الضريح الذي يضم رفاة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي على يد السلطان أحمد الأعرج سنة (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م)، بعد أن نقل رفاة هذا الصوفي ورفاة والده محمد القائم من أفوغال [2]، ثمَّ صار هذا الضريح – كما سبقت الإشارة- النواة الرئيسية الذي التفت حوله الوحدات المعمارية الأخرى بعد ذلك، وفي حين يذكر بعض الباحثين أن جامع ابن سليمان المجاور لهذا الضريح من إنشاء السلطان أحمد الأعرج [3]، يذكر بعضهم الآخر أن هذا الجامع شيد سنة (٧١٥ هـ / ١٣١٥م) في عهد أبي الحسن المريني – أثناء ولايته لعهد أبيه- ثمَّ أضيفت إليه زيادات جعلته على الشكل الذي عليه الآن، وذلك سنة (١١٣٢ هـ / ١٧١٩م) في عهد السلطان إسماعيل العلوي الذي أمر أيضًا أن تقام فيه الخطبة [4]، مما يشير إلى أن هذا الجامع كان قبل هذا التاريخ قاصرًا على الصلوات الخمس.

وبعد مقتل السلطان أحمد الأعرج بمدينة مراكش سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦م) على يد علي بن أبي بكر عامل هذه المدينة آنذاك – كما سبقت الإشارة – قام الشيخ أبو عمرو القسطلي بدفنه بالمقبرة المجاورة لضريح الجزولي، التي كانت تعرف كما سبقت الإشارة بقبور الأشراف [5]، ثمَّ قامت عائشة ابنة هذا السلطان – في تاريخ غير محدد- بإنشاء قبة على قبره، هي القبة التي تقع إلى الغرب من الصحن المكشوف الذي يتقدم ضريح الجزولي [6]، وذلك وفقًا

---

(١) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٤ – ٣٥.

(٢) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٥؛ محمد بوستة: المرجع السابق، ص ١٤٠.

(3) De Castries, H., : Op. Cit., p. 348.

(٤) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٩.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٣٤ – ٣٥.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن هذا الصحن يناظر حوش الدفن في المجموعات الجنائزية المصرية، حيث كان يستخدم لغرض الدفن في العصر السعدي كما يشهد بذلك بعض شواهد القبور التي كانت موجودة به، ويؤرخ أقدمها بعام (٩٧٣ هـ / ١٥٦٦م)، ويخص الشيخ علي بن إبراهيم، غير أنه لم يعد يستخدم حاليًا

للكتابات المنقوشة على شاهد قبر السلطان أحمد الأعرج[1]، وتعرف هذه القبة حاليًا بقبة السعديين أو قبة السلطان الأسود[2].

أعمال الإصلاح والتجديد بالزاوية:

تعرضت هذه الزاوية للعديد من أعمال الترميم والتجديد بعد العهد السعدي، من أهمها تلك التي أجريت في عهد السلطان إسماعيل العلوي وانصبت على مسجد الزاوية سنة (١١٣٢ هـ / ١٧١٩م) [3]، وتلك التي أجريت على عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي (١١٧١ – ١٢٠٤ هـ / ١٧٥٧ – ١٧٩٠م) [4]، كما تمت بهذه الزاوية إصلاحات في عهد السلطان محمد بن الرحمن العلوي فيما بين عامي (١٢٨٤ – ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٧ – ١٨٦٨م)، وذلك وفقًا للكتابات المنقوشة على الزليج على جانبي المدخل المؤدي لضريح الجزولي، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر الطويل، نصها:

"بنا فاستغث يا من رماه بنكبة — زمان ولم تجد الرقي والعزائم -1284- عام
وقل بلسان صادق ومحبة — تقوم بمن تهوى إذا أنت قائم
أيارب غثني بالجزولي محمد — ويسر مرامي الذي أنا رائم
تفز بالذي تهوى وتصبح ساليًا — ويصحبك التيسير والعز دائم"[5] -1285- عام

كما أجريت بعض الإصلاحات على هذه الزاوية سنة ١٣٨٣ هـ في عهد الملك الحسن الثاني، وذلك وفقًا للكتابات المنقوشة على الجص بالواجهة الجنوبية للصحن المكشوف الذي يتقدم ضريح الجزولي.

التخطيط المعماري للزاوية (شكل ٣٧):

تشغل هذه الزاوية مساحة من الأرض غير منتظمة الشكل تبلغ نحو ٣٦٣٠م٢، محاطة بسور مرتفع يجمع بداخله الوحدات المعمارية المختلفة التي تتكون منها الزاوية، وهي عبارة عن صحن مكشوف في الوسط (أ) إلى الشمال منه قاعة مربعة تمثل ضريح الجزولي (ب)، والى الجنوب من الصحن جامع الزاوية المعروف بجامع ابن سليمان (ج)، بالإضافة إلى مكتب لتعليم

للدفن. انظر: Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 63 - 68.

(١) هذا الشاهد عبارة عن لوح من الرخام الأسود، ذكر جاستون ديفردان أنه ظل موجودًا بهذه القبة حتى عام ١٩٤٦م ثمّ اختفى بعد هذا التاريخ، ولحسن الحظ أن الكتابات المنقوشة على هذا الشاهد قد نشرت على يد الكولونيل دوكاستري قبل أن يختفي. Deverdun, G., Ibid., p. 68.

(2) Deverdun, G.,: Ibid., pp. 68 - 69.

(٣) محمد المراكشي: المرجع السابق، ص ٩.

(4) Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 72.

(5) Deverdun, G., Ibid., p. 65.

الصبيان (د) وسقاية (هـ) ومسكن لمقدم الزاوية ورئيس الطريقة (و) ودار للضيافة واستقبال الغرباء الوافدين (ز) وميضأة (ح) وفرنان (ط) وحمام (ي) يقع في مقابل الطرف الشمالي للواجهة الشرقية للزاوية ويتصل بها من خلال ساباط يعلو شارع سيدي بنسليمان، فضلاً عن المقبرة القديمة (ك) التي كانت تعرف بقبور الأشراف كما سبقت الإشارة، وهي تجاور وحدات الزاوية من الجهات الغربية والجنوبية والشرقية، وتشتمل هذه المقبرة بالجهة الغربية على قبتين للدفن إحداهما القبة السعدية (ل) السابق الإشارة إليها، والأخرى تعرف بالقبة العلوية (م).

وقد استخدم الآجر في بناء الوحدات المعمارية المختلفة المكونة للزاوية، واستعمل الخشب في الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك والرفارف والأعتاب، واستخدم الجص في كسوة الجدران كما غشيت بعض النوافذ بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، بينما استخدم الزليج في كسوة الأرضيات، والأجزاء السفلى من الجدران، كما استعمل القرميد المزجج باللون الأخضر في تغطية الأسطح، واستخدم الرخام في عمل بعض الأعمدة وفساقي الوضوء وشواهد القبور.

الوصف المعماري.

أولاً: الوصف الخارجي:

الواجهة الشمالية:

هي الواجهة الرئيسة لهذه الزاوية، ويبلغ طولها ٦٦م تقريبًا يلاحظ أنها لا تمتد في استقامة واحدة، حيث تبدأ من طرفها الغربي باستقامة قدرها ١٥,٣٥م، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة فتبرز بمقدار ٧,٨٥م، ثمَّ تستقيم ثانيةً لمسافة قدرها ١٦م بطرفها الغربي شطف مقداره ٠,٥٠م وبطرفها الشرقي أيضًا شطف يبلغ مقداره ١,٢٠م، وقد كان هذا الجزء من الواجهة يشتمل على أربع فتحات أبواب كان كل منها يؤدي إلى حجرة مستطيلة تابعة للضريح (شكل ٣٧)، غير أنها سدت حاليًا بالبناء باستثناء فتحة الباب التي بالطرف الغربي، ثمَّ ترتد هذه الواجهة بعد ذلك بمقدار ٧,٣٥م (لوحة ٨٨)، ويطل هذا الجزء على الشارع ببائكة مكونة من ثلاثة أعمدة مستديرة من الرخام أحدهم في الوسط والآخرين مدمجان في الجانبين، يلاحظ أن العمود الأوسط يرتكز على الأرض مباشرةً ويبلغ ارتفاعه ١,٨٨م يعلوه تاج ناقوسي الشكل ارتفاعه ٠,٢٠م خالي من الزخرفة، أما العمودان المدمجان فيرتكز كل منهما على قاعدة يبلغ ارتفاعها ٠,١٥م ويبلغ ارتفاع كل عمود منها ١,٥٣م ويعلوه تاج ارتفاعه ٠,٤٠م مزين بزخارف نباتية، وتحمل هذه الأعمدة عقدين موتورين تؤدي فتحتاهما إلى مساحة مستطيلة تتقدم المدخل الرئيس للزاوية (شكل ٣٧، ١/ ١) ثمَّ تستقيم الواجهة بعد ذلك حتى نهايتها في الاتجاه الشرقي لمسافة قدرها ٣١م، وتبدأ من طرفها الغربي بواجهة مكتب تعليم

الصبيان التي كانت تشتمل على فتحة باب سدت حاليًا بالبناء، يليها واجهة السقاية (لوحة ٨٩)، يلي ذلك فتحة باب تؤدي إلى جامع الزاوية، يليها فتحة باب تؤدي إلى مسكن مقدم الزاوية، يلي ذلك وعلى بعد ٧,٥٠م فتحة باب توصل إلى دار الضيافة، ويرتبط القطاع الشرقي لهذه الواجهة بالمبنى المقابل لها بساباط يعلو درب اليقوري.

المدخل الرئيس للزاوية (شكل ٣٧، ١/١):

يتقدم هذا المدخل – كما سبقت الإشارة – مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤,٧٦م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢,٦٧م، ترتفع أرضيتها عن أرضية الشارع الحالية بمقدار ٠,٠٧م وقد فرشت بالزليج المتعدد الألوان، ويغطيها سقف خشبي مسطح زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وتطل واجهتها الشرقية على الشارع ببائكة من عقدين موتورين سبق وصفهما عند وصف الواجهة الشمالية للزاوية (لوحة ٨٨).

ويبلغ اتساع فتحة المدخل الرئيس ١,٥٥م وارتفاعها ٢,٥٠م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويغلق على هذا المدخل باب خشبي من مصراعين، وهو يؤدي إلى دهليز (شكل ٦١).

المدخل المؤدي إلى جامع الزاوية (لوحة ٨٩) (شكل ٣٧، ١/ ٢):

يقع هذا المدخل إلى الشرق من السقاية – كما سبقت الإشارة- ويبلغ اتساع واجهته ٢,٢٠م بصدرها فتحة باب اتساعها ١,٤٣م وارتفاعها ١,٦٥م يغلق عليها باب حديدي حديث من مصراعين، ويتوجها عقد على هيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص، يعلو ذلك مساحة مستطيلة زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص أيضًا، ويعلو هذه المساحة إزار من الخشب يبلغ طوله ٢م وعرضه ٠,٢٠م، تزينه كتابات بالخط الثلث، تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر الطويل، نصها:

"ألا قف بباب القطب شيخ المشايخ وقل يا جزوليًا أيا خير راسخ
وسل تنل المنا إن كنت مخلصا ولا توجل إن تلجأ لأعلى شوامخ" (١)

ويتوج واجهة المدخل رفرف خشبي مغطى بحطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر، يرتكز على حرمدانين خشبيين زين باطنيهما بمقرنصات خشبية (لوحة ٨٩)، ويؤدي هذا المدخل إلى دهليز طويل يوصل إلى مكتب تعليم الصبيان ومسكن المقدم وجامع الزاوية (شكل ٣٧).

---

(1) Deverdun, G., : Ibid., p. 71.

الواجهة الشرقية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٥٥ م، ويلاحظ أنها لا تمتد بمحاذاة الشارع تمامًا، إذ يوجد بها وروب في اتجاه الجنوب نظرًا لعدم استقامة هذا الشارع، وتبدأ الواجهة في ركنها الشمالي بشطف يبلغ قدره ٣.٢٢ م، ثمَّ تسير بعده في استقامة قدرها ١٧.٦٥م حيث توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٨٠م وارتفاعها ١.٨٥م يغلق عليها مصراع خشبي واحد، وهي تؤدي إلى الفرن الأولى التابعة للزاوية، وقد كان يوجد على يمين هذا الباب فتحتا بابين توصلان إلى ميضأة الزاوية، لكنهما سدتا حديثًا بالبناء نظرًا لحالة الخراب التي وصلت إليها هذه الميضأة، ثمَّ تمتد الواجهة بعد ذلك لمسافة قدرها ١٥.٧٥م حيث توجد فتحة باب تؤدي إلى الفرن الثانية للزاوية، ويبلغ اتساع فتحة هذا الباب ١.١٠م وارتفاعها ١.٩٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، ثمَّ تمتد هذه الواجهة في استقامتها لمسافة قدرها ٨.٨٠م، أما بقية الواجهة فقد اندثر أو أزيل، وهو القطاع الجنوبي الذي كان يشتمل على فتحة باب تؤدي إلى المقبرة التي تقع إلى الشرق من جامع الزاوية (شكل ٣٧)، والتي استقطعت منذ فترة طويلة من مساحة الزاوية[١]؛ لذا فقد أصبح القطاع الجنوبي للواجهة الشرقية لجامع الزاوية مكشوفًا، واستحدثت فيه فتحة باب يبلغ اتساعها ٢م وارتفاعها ٢.٥٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخارف حديثة نفذت على الجص، ويتوج واجهة هذا المدخل رفرف مغطى ببحطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٩٠)، ويلي هذا المدخل فتحة باب أخرى يبلغ اتساعها ١.٣٠م وارتفاعها ٢.٥٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين زين كل منهما بستة صفوف من رءوس المسامير، ويتوج واجهة هذا المدخل رفرف مائل غطي بالقرميد المزجج باللون الأخضر، وهو يؤدي إلى مصلى الجنائز والمقبرة التي تقع خلف الجدارين الجنوبي والغربي لجامع الزاوية (شكل ٣٧).

ثانيًا: الوصف الداخلي.

الدهليزان:

وضح من وصف الواجهات الخارجية للزاوية، أنها تشتمل على مدخلين رئيسيين، يقعان بواجهتها الشمالية، أحدهما على يمين مكتب تعليم الصبيان (شكل ٣٧، ١/١) والآخر على يسار السقاية (شكل ٣٧، ١/ ٢)، يلي كل منهما – كما سبقت الإشارة- دهليز، بالنسبة للدهليز الذي يلي المدخل الأول، يلاحظ أنه يشغل مساحة مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ٦.٣٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢م، فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية وغطي بقبو نصف برميلي، وبنهايته الجنوبية فتحة بكامل

(١) تحولت هذه المساحة حاليًا إلى موقف للسيارات.

اتساعه توجت بعقد مدبب تؤدي إلى الصحن المكشوف الذي يتقدم ضريح الجزولي.

أما الدهليز الذي يلي المدخل الثاني، فيشغل مساحةً مستطيلة الشكل يلاحظ أنها تضيق في جانبها الجنوبي، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٣,٦٠م وأكبر عرض لها من الشرق إلى الغرب ٢,١٠م، ويغطيه سقف خشبي خالٍ من الزخرفة، يوجد بجداره الغربي على يمين الداخل فتحتا بابين، الأولى يبلغ اتساعها ٠,٨٣م وارتفاعها ١,٨٨م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، كانت تؤدي إلى مكتب تعليم الصبيان الذي يستخدم حاليًا لإقامة إمام جامع الزاوية، أما فتحة الباب الثانية فيبلغ اتساعها ٠,٨٢م وارتفاعها ١,٧٢م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، يوصل إلى سلم صاعد يؤدي إلى مكتب تعليم الصبيان الحالي الذي يقع أعلى السقاية، كما يشتمل الجدار الغربي لهذا الدهليز على نافذة مستطيلة اتساعها ٠,٩٥م وارتفاعها ١,٣٥م غشيت بشبكة من مصبعات حديدية وهي تطل على الصحن الذي يتقدم ضريح الجزولي، وبالجدار الشرقي لهذا الدهليز توجد فتحة باب يبلغ اتساعها ٠,٩٥م وارتفاعها ١,٧٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، كان يوصل إلى مسكن مقدم الزاوية الذي يقطنه حاليًا مؤذن الجامع، وفي صدر هذا الدهليز توجد فتحة باب اتساعها ١,١٥م وارتفاعها ٢,٤٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، يؤدي إلى جامع الزاوية والميضأة الملاصقة لجداره الشرقي.

صحن الزاوية (**شكل ٣٧ / أ**) (**لوحة ٩١**):

يتوصل إلى الصحن من المدخل الرئيس (شكل ٣٧، ١/ ١) السابق وصفه بعد اجتياز الدهليز الذي يليه والأروقة الثلاثة المحيطة بالصحن من الجهات الشمالية والغربية والشرقية التي يؤدي إليها هذا الدهليز، ويتوصل من هذه الأروقة إلى الصحن الذي يشغل مساحةً مستطيلة الشكل طولها من الشمال إلى الجنوب ١٧,٥٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٩,٤٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وهي تنخفض عن مستوى أرضية الأروقة الثلاثة السابق ذكرها المحيطة بهذا الصحن بمقدار ٠,٠٧م، ويتوسطه حوض مثمن الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ٠,٨٤م وعمقه ٠,٠٥م تحيط به قناة مثمنة أيضًا لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء يبلغ عمقها ٠,٠٣م واتساعها ٠,١١م، يتوسط هذا الحوض المثمن فسقية مستديرة من الرخام الأبيض ترتكز على قاعدة أسطوانية من الرخام الأبيض أيضًا ارتفاعها ٠,٧٦م (لوحة ٩١).

وتطل على الصحن أربع واجهات يلاحظ أن الواجهتين الغربية والشرقية متشابهتان، إذ تشرف كل منهما على هذا الصحن ببائكة مكونة من أربعة أعمدة مستديرة من الرخام الأبيض عمودين في الوسط والآخرين مدمجان في الأركان، يبلغ ارتفاع كل عمود منها ٢م يرتكز على أرضية الأروقة مباشرةً ويعلوه تاج من الرخام الأبيض ارتفاعه ٠,٤٢م خالٍ من

الزخرفة، ويرتكز على هذه الأعمدة ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس، يلاحظ أن فتحة العقد الأوسط أكثرها اتساعًا حيث يبلغ اتساعه ٢٫٨٠م، بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ٢٫١٢م.

أما الواجهة الشمالية فتطل على الصحن ببائكة مكونة من ستة أعمدة من الرخام الأبيض في الوسط وعمودين مدمجين في الأركان يلاحظ أنهما أقل قطرًا من مثيلاتها بالبائكتين الغربية والشرقية، ويبلغ ارتفاع كل عمود منها ٢م، ويرتكز على قاعدة ناقوسية الشكل من الرخام الأبيض ارتفاعها ٠٫١٢م، ويعلوه تاج من الرخام الأبيض أيضًا ارتفاعه ٠٫٣٥م، وتحمل هذه الأعمدة سبعة عقود على هيئة حدوة فرس، يلاحظ أن العقد الأوسط أكثر اتساعًا من العقود الجانبية، حيث يبلغ اتساعه ٣م بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقود الجانبية ٢٫٨٥م، وقد سدت فتحات هذه العقود بكامل ارتفاعها بأحجبة خشبية غشيت بالزجاج الملون.

وأما الواجهة الجنوبية للصحن (لوحة ٩١)؛ فقد غطي جزؤها السفلي بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ١٫٨٨م من مستوى أرضية الصحن، ويتوسط هذه الواجهة دخلة مستطيلة اتساعها ٣٫٧٥م، ويصدرها فتحة باب يبلغ اتساعها ١٫٥٥م، وارتفاعها ٢٫٦٥م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويؤطره ثلاثة أشرطة مستطيلة اتساع كل منها ٠٫٧٨م زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى الرواق الشمالي لمسجد الزاوية (شكل ٣٧)، ويتوج هذه الدخلة صف من كوابيل خشبية تحمل رفرفًا خشبيًا مائلاً غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٩١).

ويطل على صحن الزاوية في كل من الجهات الشمالية والغربية والشرقية – كما سبقت الإشارة- رواق مستطيل الشكل يبلغ عرضه ٢٫١٠م ويبلغ طول الرواق الشمالي ١٨٫٥٠م بينما طول الرواق الغربي ٩٫٥٥م وطول الرواق الشرقي ٨٫٥٠ م، وقد فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويغطي كل رواق سقف خشبي مسطح خالٍ من الزخرفة، يطل الرواق الشمالي على الصحن ببائكة مكونة من سبعة عقود على هيئة حدوة فرس، بينما يطل كل من الرواقين الغربي والشرقي على الصحن ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس أيضًا سبق وصفها عند وصف الصحن، ويوجد بالجدار الشمالي للصحن ثلاث فتحات أبواب، الأولى من الطرف الشرقي تؤدي من الدهليز إلى الصحن، أما الثانية والثالثة فتفضيان إلى ضريح الجزولي، ويشتمل الجدار الغربي على فتحتي بابين إحداهما بطرفه الشمالي وتؤدي إلى قاعة مستطيلة تقع إلى الغرب من ضريح الجزولي، والأخرى بطرفه الجنوبي تؤدي إلى قبة السعديين (ل)، وقد غطي الجزء السفلي للجدران الشمالية والغربية

والشرقية للصحن بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١,٥٠م.

ضريح الجزولي (**شكل ٣٧/ ب**):

يتم الوصول إلى هذا الضريح – كما سبقت الإشارة- من خلال فتحتي بابين بالجدار الجنوبي للضريح، إحداهما بطرفه الشرقي والأخرى بطرفه الغربي، أما فتحة الباب الأولى فاتساعها ٢,٠٨م وارتفاعها ٣,٧٠م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تزينها خمس حشوات مستطيلة توج كل منها بعقد مدبب، وقد زينت هذه الحشوات بزخارف نباتية وهندسية متنوعة باستثناء الحشوة الوسطى التي زينت بكتابات بالخط الكوفي نصها: "الملك لله"، وأخرى بالخط الثلث نصها: "العز لله"، ويؤطر هذه المساحة المستطيلة شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العافية الباقية"، ويغلق على هذه الفتحة باب خشبي من مصراعين ارتفاعه ٤,١٥م، وهو مزين بزخارف هندسية نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة، وبكل مصراع خوخة يبلغ اتساعها ٠,٦٣م وارتفاعها ١,٧٠م (لوحة ٩٢)، ويغطي الجزء السفلي لجانبي هذا المدخل تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية يتوجها صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، يعلو ذلك حشوة مستطيلة زينت بزخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص، ويعلو ذلك زخارف نباتية وهندسية وكتابات مكررة بالخط الكوفي نصها لفظ الجلالة تزين باطن العقد الذي يتوج فتحة الباب السابق وصفها (لوحة ٩٢).

أما فتحة الباب الثانية، فيبلغ اتساعها ١,٣٠م وارتفاعها ٢,٠٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراعين ارتفاعه ٣,٠٥ م زين بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة، وبكل مصراع خوخة يبلغ اتساعها ٠,٥٥م وارتفاعها ١,٥٠ م، ويعلو فتحة الباب مباشرةً شريط مستطيل من الجص يبلغ طوله ١,٣٠م وعرضه ٠,٥٠ م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر البسيط، نصها:

"تبارك الله هذا منزل سبقت ... له الكرامة قبل الكون في الأزل

بنى في أسعد وقت وانتما حسنا ... فالحمد لله حمداً غير منفصل"

أما الضريح فهو عبارة عن قاعة مربعة يبلغ طول ضلعها ٩,٢٥م، فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وتغطيه قبة خشبية زين باطنها بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر (لوحة ٩٣)، بينما تأخذ من الخارج شكلاً هرميًا غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، يعلو قمته عمود من البرنز ثبتت فيه كرة برنزية أيضًا مستديرة الشكل(لوحة ٩٤).

ويغطي الجزء السفلي للجدران الأربعة للضريح من الداخل تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية يبلغ ارتفاعها ١.٦٧م، يعلوها شريط مستطيل من الجص يبلغ ارتفاعه ٠.٢٥م تزينه كتابات بالخط الثلث تدور على الجدران الأربعة، نصها على الجدار الغربي: "لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير[1] صدق الله العظيم الحمد الله رب العالمين"، وعلى الجدار الجنوبي نصها: "ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين[2] (اصلاح 1399)"، ونصها على الواجهتين الشرقية والشمالية: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كتبت مكررةً بطول هاتين الواجهتين، ويزين الجزء العلوي لهذه الواجهات الأربع إزار من الجص مقسم إلى ثلاثة أشرطة زخرفية أوسطها أكثرها اتساعًا وتزينها زخارف هندسية متنوعة بينما زين الشريطان السفلي والعلوي بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العافية الباقية"، يعلو ذلك إزار متسع من الخشب مزين بصف من عقود مفصصة متجاورة ترتكز على أعمدة زخرفية دقيقة من الخشب، وتحصر بعض هذه العقود بداخلها زخارف نباتية متنوعة وبعضها الآخر كتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك إزاران ضيقان من الخشب أيضًا السفلي تزينه كتابات بالخط الثلث بينما زين العلوي بصف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، يعلو ذلك القبة الخشبية السابق وصفها التي تغطي هذا الضريح.

ويشتمل الجدار الجنوبي لهذه القاعة – كما سبقت الإشارة- على فتحتي بابين سبق وصفهما، أما الجداران الشرقي والغربي فهما متشابهان تمامًا إذ يشتمل كل منهما على دخلة عميقة يبلغ اتساعها ١.١٨م وارتفاعها ٢.٥٣م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، ركب على كل دخلة منهما مصراعان من الخشب، وتشتمل كل منهما على عدة رفوف لحفظ الكتب، أما الجدار الشمالي فتتوسطه نافذة مستطيلة تبدأ بارتفاع ٠.٤٠ م من مستوى أرضية القاعة، ويبلغ اتساعها ١.٧٦م وارتفاعها ٢.٢٥م غشيت بمصبعات حديدية، وهي تطل على مساحة مستطيلة تقع خلف الضريح تستخدم للدفن يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٣م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢.٠٦م، وقد كانت في الأصل قبل أن تتعرض للتعديلات عبارة عن ثلاث حجرات مستطيلة متجاورة (شكل ٣٧)، غطيت كل حجرة بقبو متقاطع، ولكل منها فتحة باب تطل على درب اليقوري غير أنها سدت حاليًا بالبناء – كما سبقت الإشارة- ويتم الوصول إلى هذه المساحة حاليًا من خلال فتحة باب مستحدثة بالطرف الشمالي لجدارها الجنوبي، تقع في مقابل المدخل الرئيس للزاوية.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٣.

ويقع إلى الغرب من الضريح – كما سبقت الإشارة – حجرة مستطيلة (شكل ٣٧)، يتم الوصول إليها من خلال فتحة باب بالطرف الشمالي للجدار الغربي للصحن، يبلغ اتساعها ١.٢٢م وارتفاعها ٢.٧٠م توجت بعقدعلىهيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين تزينه زخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر، ويفتح في كل مصراع خوخة يبلغ اتساعها ٠.٥٠م وارتفاعها ١.٤٥م، ويفضي هذا الباب إلى دركاة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ٢.٩٠م وعرضها ١.٥٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية ويغطيها سقف خشبي مسطح مزين بزخارف هندسية متنوعة، وقد غطي الجزء السفلي لجدران هذه الدركاة بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ١.٥٠م، يعلوها شريط من الجص ارتفاعه ٠.٢٨م تزينه زخارف نباتية متنوعة، يشتمل كل من الجدارين الغربي والجنوبي لهذه الدركاة على دخلة عميقة، بينما يوجد بجدارها الشمالي فتحة باب يبلغ عمقها ٠.٩٥م واتساعها ١.١٥م وارتفاعها ٢.٦٥م تؤدي إلى حجرة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٥.٤٢م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٤.١٥ م فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية ويغطيها سقف خشبي مسطح زين بزخارف هندسية نفذت بألوان متعددة، ويغطي الجزء السفلي لجدرانها الأربعة تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ١.٥٠م من مستوى أرضية هذه الحجرة، يعلوها شريط مستطيل من الجص يبلغ ارتفاعه ٠.٢٨م، تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا[1] الحمد لله صدق الله العظيم"، ويمتد أسفل السقف الخشبي السابق وصفه شريط من الجص مزين بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله"، ويوجد بالجزء العلوي للجدار الغربي لهذه الحجرة نافذتان مستطيلتان تطلان على المقبرة التي تقع بالضلع الغربي للزاوية، كما يشتمل الطرف الشرقي للجدار الجنوبي لهذه الحجرة على دخلة مستطيلة يبلغ عمقها ٠.٧٥م واتساعها ١.٢٥م وارتفاعها ٢.٣٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، بصدرها نافذة مستطيلة اتساعها ٠.٧٠م وارتفاعها ٠.٩٠م يغلق عليها شباك خشبي من مصراعين تطل على الرواق الغربي للصحن، ويتوسط كل من الجدارين الشمالي والجنوبي لهذه الحجرة كتف بنائي يبرز عن سمت كل منهما ويمتد حتى السقف الخشبي المسطح السابق وصفه.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحجرة يوجد بها حاليًا شاهد قبر من الرخام الأبيض وثلاثة تراكيب هرمية الشكل من الرخام أيضًا، كانت توجد قبل أن توضع في هذه الحجرة

---

(١) سورة الفتح، الآيتان ٢،١.

بقبة العلويين[1](م)، بالنسبة لشاهد القبر يلاحظ أنه ثبت حاليًا على الطرف الشرقي للجدار الشمالي لهذه الحجرة، بينما وضعت التراكيب الثلاثة في وضع متوازٍ بأرضية الركن الشرقي لهذه الحجرة، وسنعرض فيما يلي لوصفها والكتابات المنقوشة عليها، وفقًا لترتيبها الزمني.

(١) شاهد قبر محمد اليقوري (ت: ٧٤٥ هـ / ١٣٤٥م).

عبارة عن لوح مستطيل من الرخام الأبيض يبلغ عرضه ٠,٣٨م وطوله ٠,٩٦م، يشتمل على ٢١ سطرًا من الكتابات نفذت بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي[2] يخلو من علامات الإعراب، ويتوج هذه الكتابات عقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية ويرتكز على عمودين زخرفيين، ويؤطر هذه الكتابات شريط ضيق مزين بصف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل (لوحة ٢٠٠)، نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم/ صلى الله على سيدنا محمد/ النبي الكريم وعلى آله وسلم / تسليمًا كل نفس / ذائقة الموت وإنما توفون/ اجوركم يوم القيامة فمن زحزح / عن النار وادخل الجنة فقد فاز/ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[3]/ توفي الشيخ الاجل الفقيه المبارك / العابد العامل العالم الخطيب/ الشهير[4] الصدر الكبير أبو عبد الله / بن الشيخ الاجل الاكرم الافضل / الفقيه المبارك العابد الورع/ الزاهد العالم المقدس المرحوم/ ابي عبد الله اليقوري رحمه الله / بمنه وكرمه ليلة الخميس بين العشائين الحادي والعشرين/ من صفر من عام ستة وأربعين / وسبعمائة وصلى الله على سيدنا/ ونبينا محمد وآله وصحبه / وسلم تسليمًا يا خير / من يرغبه الراغب اغفر للقارئ[5] وللكاتب".

---

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 58 - 62.

(٢) انفرد الخط المغربي بظاهرة ميزته عن الخط المشرقي، إذ رأى المغاربة أن ينقط حرف الفا بنقطة واحدة من أسفل وينقط حرف القاف بنقطة واحدة من أعلى، بينما رأى المشارقة أن تنقط الفاء بنقطة من أعلى وتنقط القاف بنقطتين. انظر، محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ت، ص ٢١٩. وليست هذه هي الميزة الوحيدة، بل يلاحظ أن الألف اللينة كتبت ألفًا مطلقًا (الفتا = الفتى ، رما = رمى)، وأن يمد رسمًا كل ما هو ممدود لفظًا (هاذا = هذا، وداوود = داود). انظر ، ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص ٨. على أننا سوف نثبت الكتابات في هذه الدراسة وفقًا للطريقة المشرقية في الكتابة.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٤) وردت في النص (الشير) بإسقاط الهاء. انظر، Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 58.

(٥) وردت في النص (لقار). انظر، Deverdun, G., : Ibid., pp. 58.

(٢) تركيبة لأحد الأشراف العلويين (ت: ١١٧٤ هـ/ ١٧٦٠ – ١٧٦١م)[1].
(٣) تركيبة الأمير حسين بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩م).
(٤) تركيبة السلطان هشام بن محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩م).

جامع الزاوية (شكل ٣٧/ ج):

التخطيط المعماري:

يشغل هذا الجامع مساحةً مستطيلة الشكل تبلغ نحو ٧٥٠م٢، وتخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف محاط بأربعة أروقة، كما تضمن بعض الوحدات المعمارية الأخرى كبيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز.

المدخل الرئيس:

يتوصل إلى هذا الجامع من خلال فتحة باب تتوسط واجهته الشمالية التي تمثل الواجهة الجنوبية لصحن الزاوية (شكل ٣٧) (لوحة ٩١)، وقد سبق وصفها عند وصف الصحن، كما يتم الدخول إلى الجامع حاليًا من خلال فتحة باب حديثة تقع بالطرف الجنوبي لواجهته الشرقية، سبق وصفها عند وصف هذه الواجهة (لوحة ٩٠).

الصحن:

يتوصل إلى الصحن من المدخل الذي يتوسط الجدار الشمالي للرواق الشمالي للجامع بعد اجتياز هذا الرواق الذي يؤدي إلى الصحن، وهو يشغل مساحةً مربعةً طول ضلعها ١٣,١٥م فرشت أرضيتها بالزليج الأبيض والأسود في تشكيلات هندسية، وهي تنخفض عن مستوى أرضية الأروقة الأربعة المحيطة بها بمقدار ٠,١٠م، ويتوسط هذا الصحن فسقية مستديرة من الرخام الأبيض ذات حافة مفصصة يبلغ عمقها ٠,١٣م، ترتكز على قاعدة أسطوانية من الحجر يبلغ ارتفاعها ٠,١٦م، ويحيط بهذه الفسقية قناة مثمنة الشكل لتصريف الماء الناتج عن الوضوء يبلغ عمقها ٠,٠٤م واتساعها ٠,٣٢م.

وتطل الأروقة الأربعة على الصحن بأربع واجهات متشابهة تمامًا، إذ تشرف كل منها على هذا الصحن ببائكة مكونة من دعامتين من الآجر في الوسط على هيئة حرف T، باستثناء دعامتي الواجهة الجنوبية حيث إنهما بهيئة مصلبة، ودعامتين على هيئة زاوية قائمة في الأركان، وتحمل هذه الدعامات ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، يلاحظ أن العقد

---

(١) عن الكتابات المنقوشة على هذه التركيبة وغيرها من التراكيب العلوية الموجودة بمقبرة هذه الزاوية، وبقبور الأشراف السعديين أيضًا، انظر، ص ص ٦٨٠- ٦٨٥ من النص الأصلي للرسالة المنشور منها هذا الكتاب.

الأوسط بكل بائكة أكثر اتساعًا من العقدين الجانبيين، إذ يبلغ اتساعه ٢,٧٥م بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ٢,٦٣م، لكنها متشابهة تمامًا في الارتفاع حيث يبلغ ارتفاع كل عقد منها ٤م، وقد غشي الجزء السفلي لفتحات هذه العقود بالسلك في هيئة الأحجبة يبلغ ارتفاع كل منها ٢,٧٠م، باستثناء فتحة العقد الأوسط للواجهة الجنوبية الذي يقع على محور المحراب، فقد سد بحجاب من الخشب (لوحة ٩٦) ارتفاعه ٣,٤٠م، ومقسم إلى ثلاثة أقسام أوسطها يبلغ اتساعه ٠,٦٥م بينما يبلغ اتساع كل قسم من القسمين الجانبيين ١م، بكل منها خوخة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٠,٤٢م وارتفاعها ١,٥٠م ويغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، وهما يؤديان إلى رواق القبلة (لوحة ٩٦)، ويعلو كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة حشوة مربعة زينت بزخارف هندسية، ويعلو حشوة القسم الأوسط عقد خشبي على هيئة حدوة فرس توج بصف من شرافات مدرجة، ويوجد بالصحن أسفل القسم الأوسط لهذا الحجاب دخلة ذات خمسة أضلاع بنفس مستوى أرضية الصحن يبلغ عمقها ٠,٤٧م واتساعها ٠,٦٠م (لوحة ٩٦)، وهي مع الحجاب السابق وصفه بمثابة محراب لتوجيه المصلين بالصحن في فصل الصيف كما سبقت الإشارة.

ويتوج كل واجهة من الواجهات الأربع المطلة على الصحن صف من كوابيل جصية ملساء خالية من الزخرفة، يعلو ذلك حطات مائلة من القرميد.

الأروقة الأربعة للجامع.

رواق القبلة:

يقع إلى الجنوب من الصحن وهو أكبر أروقة الجامع وأعمقها، ويشغل مساحة مستطيلة طولها من الشرق إلى الغرب ٢١,٦٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٧م، ويطل على الصحن ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس سبق وصفها عند وصف الصحن، ويشتمل على بلاطة واحدة عقود بائكتها موازية لجدار القبلة وهي تتقدم المحراب مباشرة، ويوجد بين هذه البلاطة والبائكة التي تطل على الصحن التي سبق وصفها خمس بلاطات عقودها عمودية على اتجاه جدار القبلة (شكل ٣٧/ ج)، أما البلاطة الموازية لجدار القبلة فيبلغ اتساعها ٣,٦٥م، وتشتمل بائكتها على أربع دعامات من الآجر على هيئة حرف T في الوسط، ودعامتين مدمجتين في الجدارين الشرقي والغربي للجامع، وتحمل هذه الدعامات خمسة عقود من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس، كما يرتكز على هذه الدعامات أيضًا عقدان من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس عموديان على جدار القبلة، يشكلان ثلاثة مساحات إحداها مربعة في الوسط تتقدم المحراب مباشرة غطيت بسقف مربع المسقط هرمي الشكل غطي من الخارج بالقرميد، ومساحتان مستطيلتان في الجانبين غطيت كل منهما بسقف خشبي جمالوني الشكل خالٍ من الزخرفة غطي من الخارج بالقرميد (لوحة ٩٧)، وأما

البلاطات الخمسة العمودية فيلاحظ أن البلاطة الوسطى أكثر اتساعًا من البلاطات الأربع الجانبية، إذ يبلغ اتساعها ٣,٨٠م بينما يبلغ اتساع كل بلاطة من البلاطات الجانبية ٣,٦٥م، وتشتمل هذه البلاطات على أربع بائكات تتكون كل منها من دعامتين مستطيلتين من الآجر في الوسط (٩٨ ٠م × ٠,٧٣م) يرتكز عليها وعلى دعامات البائكة الموازية لجدار القبلة والبائكة المطلة على الصحن، ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب، وقد غطيت كل بلاطة بسقف خشبي جمالوني الشكل خالٍ من الزخرفة يشبه مثيله بالبلاطة الموازية السابق وصفه، وغطي من الخارج بالقرميد (لوحة ٩٧).

المحراب (لوحة ٩٨):

يتوسط الجدار الجنوبي لرواق القبلة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة أضلاع يبلغ اتساعها ١,٨٥م وعمقها ٢,٥٣م وارتفاعها ٣,٣٠م، يكتنفها من الجانبين في الداخل أربعة أعمدة من الرخام الأبيض عمودان بكل جانب، يبلغ ارتفاع كل عمود منها ١,٥٨م ويرتكز على أرضية رواق القبلة مباشرةً بدون قاعدة ويعلوه تاج من الرخام الأبيض ارتفاعه ٠,٤٤م زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة غطيت حاليًا بطبقة من الجص، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة الفرس مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية وهندسية دقيقة وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص (لوحة ٩٨)، ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠,٢٥م تزينها كتابات بالخط الكوفي، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد" وعلى الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" [1]، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص تزينها سبع حشوات مستطيلة أيضًا توجت كل منها بعقد نصف مستدير، وقد زينت هذه الحشوات وكوشات عقودها بزخارف نباتية متنوعة، يعلو ذلك مساحة مستطيلة زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطر مجموع هذه الزخارف التي تزين واجهة المحراب شريطان مستطيلان من الجص أحدهما يبلغ اتساعه ٠,٣٠م تزينه زخارف نباتية وهندسية متنوعة كما يشتمل الجزء السفلي لكل من الشريطين الأيمن والأيسر الرأسيين على كتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله" (لوحة ٩٨)، أما الشريط الثاني فيبلغ اتساعه ٠,١٣م وتزينه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله" (لوحة ٩٨)، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

أما حنية المحراب من الداخل، فقد غطي قطاعها السفلي – كما هو الحال بالنسبة

---

(١) سورة النور، الآيتان ٣٦، ٣٧.

لجدران الجامع الداخلية ودعاماته – بكساء من الحصير الملون بارتفاع ١.٥٠م، وعلى ارتفاع ٠.٥٠م من هذا الكساء يوجد شريط مستطيل من الجص اتساعه ٠.١٣م تزينه كتابات بالخط الثلث تبدأ من على يمين الواقف بداخل هذه الحنية بما نصه: "العز لله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله العظيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل" [1]، ويغطي حنية المحراب قبة كروية الشكل خالية من الزخرفة.

ويوجد بجدار القبلة ثلاث فتحات أبواب؛ واحدة على يمين المصلي في المحراب واثنتان على يساره، أما الفتحة التي على اليمين فاتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ٣.٨٠م توجت بعقد نصف مستدير، ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين، وهي تؤدي إلى بيت المنبر (لوحة ٩٨)، وأما الفتحتان اللتان على يسار المصلي في المحراب فالأولى يبلغ اتساعها ٠.٧٥م وارتفاعها ٢.٦٥م توجت بعقد نصف مستدير يغلق عليها باب خشبي من مصراعين يؤدي إلى مصلى الجنائز، أما فتحة الباب الثانية فتوجد بالطرف الشرقي لجدار القبلة، ويبلغ اتساعها ٠.٩٥م وارتفاعها ١.٨٠م توجت بعقد نصف مستدير يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى مصلى الجنائز أيضًا، ويفتح بالجزء العلوي لجدار القبلة أربع نوافذ مستطيلة غشيت بقضبان خشبية.

الرواق الشمالي:

يشغل هذا الرواق مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٢١م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٣م، ويغطيه سقف خشبي جمالوني الشكل يشبه مثيله السابق وصفه برواق القبلة غطي من الخارج بحطات من القرميد، ويلاحظ أن الجزء الأوسط لهذا الرواق الذي يؤدي إليه المدخل الرئيس للجامع مغطى بسقف خشبي مربع المسقط هرمي الشكل تزينه زخارف هندسية متنوعة، غطي من الخارج بحطات من القرميد، ويفتح في جانبه الشمالي أربع نوافذ مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس. ويطل هذا الرواق على الصحن ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب سبق وصفها عند وصف الصحن، ويشتمل الجدار الشمالي للجامع على فتحتي بابين، إحداهما بوسطه وتمثل المدخل الرئيس للجامع وقد سبق وصفها، والأخرى بقطاعه الشرقي، ويتوصل منها إلى داخل مئذنة الجامع (شكل ٣٧/ ج).

---

(١) سورة الحج، الأيتان ٧٧، ٧٨.

الرواقان الغربي والشرقي (لوحة ٩٩):

يلاحظ أنهما متشابهان، إذ يبلغ طول كل منهما من الشمال إلى الجنوب ١٥م، ويبلغ عرض الرواق الغربي ٣,٦٥م بينما يبلغ عرض الرواق الشرقي ٣,٣٥م، وقد غطي كل منهما بسقف خشبي جمالوني الشكل يشبه مثيله برواق القبلة والرواق الشمالي السابق وصفهما، غطي من الخارج بحطات من القرميد، ويطل كل منهما على الصحن ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب سبق وصفها عند وصف الصحن، وقد كان الطرف الشمالي للجدار الشرقي للجامع يشتمل على فتحة باب تؤدي إلى الميضأة (شكل ٣٧/ ج). لكنها سدت حاليًا بالبناء، نظرًا لحالة الخراب التي وصلت إليها هذه الميضأة.

بيت المنبر:

يقع على يمين المحراب، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب تقع على يمين المصلي في المحراب سبق وصفها عند وصف الجدار الجنوبي لرواق القبلة (لوحة ٩٩)، وهو يشغل مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٣م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١.٧٥م، ويوجد في أرضيتها قضيبان من الحديد في وضع متوازٍ المسافة بينهما تعادل عرض قاعدة المنبر، التي ثبتت فيها عجلات تسهل إخراج وإدخال المنبر في هذه الحجرة، حيث يستمر القضيبان بأرضية البلاطة التي تتقدم المحراب، ويعلوهما الحصير والسجاد الذي فرشت بهما أرضية أروقة الجامع، وعند إخراج المنبر يتم رفع هذا الغطاء، وتجدر الإشارة إلى أن المنبر الأصلي للجامع غير موجود حاليًا، واستعيض عنه بمنبر حديث.

مصلى الجنائز:

يقع على يسار المصلى في المحراب خلف جدار القبلة، ويتوصل إليه من خلال فتحتي بابين على يسار المحراب سبق وصفهما عند وصف جدار القبلة، كما يشتمل الطرف الشرقي لجداره الجنوبي على فتحة باب توجت بعقد على هيئة حدة فرس اتساعها ٢.٦٠م وارتفاعها ٣.٨٠م، ويشغل مصلى الجنائز مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٩.٦٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢.٤٠م، ويلاحظ أنه تعرض لبعض التعديلات حيث استخدم حديثًا طرفه الشرقي لغرض الدفن.

المئذنة (لوحة ١٠٠):

تقع هذه المئذنة خلف الطرف الشرقي للجدار الشمالي للجامع، وتشغل الركن الجنوبي الشرقي لصحن الزاوية (شكل ٣٧)، وهي تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري للمآذن المغربية ذات التخطيط المربع، إذ تتكون من طابقين مربعي المسقط يبلغ ارتفاعهما الكلي عن مستوى أرضية الجامع بمقدار ١٧.٨٥م، ويلاحظ أن الطابق الأول أكبر حجمًا وأكثر ارتفاعًا من الثاني حيث يبلغ طول ضلعه ٢.٧٠م وارتفاعه ١٤.٥٠م، بينما يبلغ طول ضلع

الطابق الثاني ١,١٠م وارتفاعه ٣,٣٥م.

ويتوصل إلى داخل هذه المئذنة من خلال فتحة باب بالقطاع الشرقي للجدار الشمالي للجامع، يبلغ اتساعها ١م وارتفاعها ٢م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد يؤدي إلى مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١,٥٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٠,٨٧م، توصل إلى سلم صاعد يبلغ اتساعه ٠,٨٥م يدور حول بناء مركزي، ويبلغ عدد درجاته ٥١ درجة اتساع نائمة كل منها ٠,٢٨م وارتفاع قائمتها ٠,٢٨م أيضًا، ويغطيه أقبية متقاطعة تتبادل مع أسقف خشبية مسطحة، وبعد ٢٠ درجة من هذا السلم يوجد بالجدار الشمالي للطابق الأول للمئذنة فتحة باب مستطيلة تؤدي إلى سطح مسكن مقدم الزاوية (لوحة ١٠٠)، وبعد ذلك بسبع درجات يوجد في مواجهة الصاعد بداخل المئذنة فتحة باب اتساعها ٠,٦٢م وارتفاعها ١,٥٠م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد، يؤدي إلى بيت المؤذن وهو عبارة عن غرفة مستطيلة يحتويها البناء المركزي للمئذنة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١,٧٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١,٦٥م بكل من جدارها الشمالي والجنوبي والشرقي نافذة مزغلية الشكل.

وقد زينت الواجهات الأربع للطابق الأول بمجموعة من الدخلات المعقودة، يلاحظ أنها تبدأ من أعلى سطح الجامع نظرًا لاختفاء الجزء السفلي لواجهات هذا الطابق خلف جدران الجامع وصحن الزاوية (لوحة ١٠٠)، وتشتمل كل واجهة على دخلة مستطيلة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، بصدرها دخلة عميقة توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب فتح بجزئها السفلي نافذة مزغلية لإضاءة بيت المؤذن، باستثناء الدخلة التي بالواجهة الغربية كما سبقت الإشارة (لوحة ١٠٠)، ويتوج واجهات هذا الطابق صف من شرافات مدرجة (لوحة ١٠٠).

أما الطابق الثاني للمئذنة فيرتد إلى الداخل ليوفر الممشى الذي يعلو الطابق الأول كما سبقت الإشارة، وقد فتح في كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة مستطيلة متوجة بعقد على هيئة حدوة فرس، يبلغ اتساعها ٠,٢٦م وارتفاعها ٢,٣٠م (لوحة ١٠٠)، ويغطى هذا الطابق قبة صغيرة ذات بدن مضلع من الخارج يعلوها عمود من الحديد ثبتت فيه كرتان من النحاس، ويلاصق الطرف الشرقي للواجهة الجنوبية لهذا الطابق صاري من الخشب ترفع من عليه راية بيضاء إيذانًا بموعد الآذان (اللوحتان ٩٠، ١٠٠).

الميضأة (شكل ٣٧/ ح):

تقع هذه الميضأة إلى الشرق من جامع الزاوية (شكل ٣٧)، وكان يتوصل إليها من خلال فتحتي بابين بالواجهة الشرقية، غير أنهما سدتا حاليًا بالبناء بعد حالة الخراب التي وصلت إليها الميضأة كما سبق ذكره عند وصف الواجهة الشرقية للزاوية، وتنقسم مساحة هذه

الميضأة إلى قسمين غير متساويين في المساحة، أكبرهما يشتمل على فناء مكشوف وأربعة عشر مرحاضًا أربعة منها بالجهة الجنوبية للفناء المكشوف وعشرة مراحيض بجهته الشرقية، غير أن هذا القسم من الميضأة تعرض للخراب منذ فترة طويلة، ولم يعد مستخدمًا، أما القسم الأصغر من الميضأة فيقع إلى الشمال من القسم السابق وصفه، وهو ما زال يقوم بوظيفته حتى الآن ويتوصل إليه من خلال فتحة باب حديثة بجداره الغربي يبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٨٥م، ويشتمل هذا القسم على فناء مكشوف يشغل مساحةً مستطيلةً يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤.٠٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٣.٨٥م، يطل عليه من الجهة الشرقية مرحاضان يشغل كل منهما مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١.٣٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١م، لكل مرحاض منها فتحة باب يبلغ اتساعها ٠.٨٠م وارتفاعها ١.٦٥م يغلق عليها باب خشبي من مصراع واحد.

مكتب تعليم الصبيان (شكل ٣٧/ د) :

يقع مكتب تعليم الصبيان إلى الشرق من المدخل الرئيس للزاوية (شكل ٣٧، ١/ ١)، وكان يتوصل إليها من خلال فتحتي بابين إحداهما بواجهته الشرقية المطلة على درب اليقوري، غير أنها سدت حاليًا بالبناء كما سبقت الإشارة عند وصف الواجهة الشرقية للزاوية، أما فتحة الباب الثانية فتوجد على يمين الداخل بالدهليز الذي يلي المدخل الواقع إلى الشرق من السقاية (شكل ٣٧/ هـ)، وقد سبق وصفها عند وصف هذا الدهليز، ويشغل هذا المكتب مساحةً مستطيلةً من طابقين تعرض تخطيطها لبعض التعديلات، حيث أصبحت المساحة التي بالدور الأرضي تخص إمام جامع الزاوية كما سبقت الإشارة، أما مكتب تعليم الصبيان الحالي فيوجد أعلى المساحة السابق وصفها والسقاية المجاورة لها من الجهة الشرقية (شكل ٣٧/ د، هـ)، ويتوصل إليه من خلال فتحة باب تقع على يمين الداخل بالدهليز الذي يقع إلى الشرق من السقاية (هـ)، وقد سبق وصفه عند وصف هذا الدهليز وهو يؤدي إلى سلم صاعد مكون من ١٨ درجة اتساع نائمة كل منها ٠.٢٨م وارتفاع قائمتها ٠.٢٣م، تؤدي إلى مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١١.٤٥م، وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٤.٧٥م، غطيت بسقف خرساني مسطح حديث، ويفتح في جدارها الشمالي المطل على درب اليقوري أربع نوافذ مستطيلة يبلغ اتساع كل منها ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٥٥م،وغشيت كل نافذة بشبكة من مصبعات حديدية كما يغلق عليه شباك خشبي من مصراعين.

السقاية (الشكلان ٣٧/ هـ ، ٣٨) (لوحة ٨٩):

تقع هذه السقاية إلى الشرق من مكتب تعليم الصبيان السابق وصفه، ويبلغ طول واجهتها ٣م غطي جزؤها السفلي بارتفاع ١.٨٧م بتكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، يعلوه حشوة مستطيلة من الجص زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة (لوحة ٨٩)،

ويصدر هذه الواجهة دخلة عميقة اتساعها ١,٦٨م وارتفاعها ٣,٢٠م توجت بعقد خشبي مطنف زين باطنه بحطات من مقرنصات خشبية، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الخشب، ويتوج واجهة السقاية صف من كوابيل خشبية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت بألوان متعددة، يحدها من الجانبين حرمدانان من الخشب زين باطنهما بحطات من مقرنصات خشبية، ويرتكز على هذين الحرمدانين والكوابيل السابق وصفها رفرف خشبي غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ٨٩).

وتؤدي فتحة العقد السابق وصفها إلى مساحة مستطيلة يبلغ عمقها ٢,٥٠م فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان، يحدها من الجهة الجنوبية جدار يبلغ ارتفاعه ١,١٠م بجزئه السفلي القطاع الظاهر المستدير لثلاث آنابيب من المعدن مغيبة في هذا الجدار تجلب الماء من حوض مستطيل خلف الجدار السابق وصفه يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ١,٦٨م وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١,٦٠م، وقد سدت حاليًا أنبوبتان من هذه الأنابيب بينما ركب على الثالثة صنبور حديث ما زال يجري الماء من خلاله حتى الآن، ويغطي الجدران الداخلية لهذه السقاية تكسية من الزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية بارتفاع ٢,٨٠م من مستوى أرضية هذه السقاية، يعلوها شريط مستطيل من الجص اتساعه ٠,٤٠م تزينه زخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو ذلك إزار من الخشب يبلغ ارتفاعه ٠,٣٠م زين بصف من عقود مفصصة متجاورة يحصر كل منها بداخله كتابات بالخط الكوفي نصها كلمة "يمن" كتبت طردًا وعكسًا، يعلو ذلك سقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة.

المقبرة[1]**(شكل ٣٧/ك) (لوحة ١٠١)**:

تشغل هذه المقبرة مساحة كبيرة من المساحة الكلية التي تشغلها الزاوية، وهي سابقة — كما سبقت الإشارة- على تاريخ بناء الزاوية وكانت تعرف قديمًا بـ "قبور الأشراف"، وتجاور الجانب الغربي للزاوية بطول الواجهة الغربية لكل من ضريح الجزولي وجامع الزاوية (شكل ٣٧) (لوحة ١٠١)، كما كانت المساحة التي تقع إلى الشرق من القطاع الجنوبي لواجهة الجامع الشرقية تستخدم للدفن (شكل ٣٧)، غير أنها استقطعت منذ فترة من مساحة الزاوية، وأصبحت — كما سبقت الإشارة- موقفًا للسيارات، ويتوصل إلى هذه المقبرة حاليًا من خلال فتحة باب تقع بالطرف الجنوبي للواجهة الشرقية للزاوية وقد سبق وصفها عند وصف هذه الواجهة، وهي تؤدي إلى سلم هابط يتكون من عشر درجات غطي بسقف خشبي مسطح، يوصل إلى مساحة مستطيلة مكشوفة تمتد بمحاذاة الجدار الجنوبي لجامع الزاوية وملحقاته كمصلى الجنائز وبيت المنبر، ويوجد بنهايتها فتحة باب يبلغ اتساعها ١,٢٠م وارتفاعها ٢,٣٠م

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن كلمة مقبرة تسمية محلية، وهي تقابل أحواش الدفن في المنشآت الجنائزية المصرية.

تؤدي إلى سلم صاعد مكون من ست درجات تؤدي إلى المقبرة (شكل ٣٧)، وهي تشغل مساحة مستطيلة مكشوفة تشتمل على مجموعة كبيرة من القبور بعضها قديم وبعضها الآخر حديث، حيث لا تزال تستخدم كمقبرة أساسية لسكان الحي الذي توجد به الزاوية (لوحة ١٠١)، ويعلو كل قبر من هذه القبور بناء على هيئة الحوض، حيث إنه مجوف من الداخل وسطحه العلوي مفتوح بهيئة الحوض[١]، وجوانبه قليلة الارتفاع باستثناء الجانب الغربي الذي يلاحظ أنه أكثر ارتفاعًا وينتهي من أعلى ببناء بهيئة نصف مستديرة، وقد ثبت على وجهه الداخلي لوح من الرخام نقشت عليه كتابات بالخط الثلث نفذت بالحفر البارز تتضمن بعض النصوص القرآنية والأدعية بالإضافة إلى أسماء وتواريخ وفاة أصحاب هذه القبور (لوحة ١٠١)، كما يوجد بهذه المقبرة فضلاً عن ذلك قبتان إحداهما بقطاعها الشمالي وتعرف – كما سبقت الإشارة- بقبة السعديين (شكل ٣٧/ ل) والأخرى بقطاعها الجنوبي وتعرف بقبة العلويين (شكل ٣٧/ م) (لوحة ١٠١) [٢].

قبة السعديين (شكل ٣٧/ل):

يلاحظ أن مستوى أرضية هذه القبة ينخفض عن مستوى أرضية المقبرة بنحو ٣م، ويتم الوصول إليها من داخل الزاوية وذلك من خلال فتحة باب بالطرف الجنوبي للجدار الغربي للصحن (شكل ٣٧)، وقد سبق وصفها عند وصف الصحن، وهي توصل إلى مساحة مستطيلة مكشوفة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٥.٣٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢.٣٥م، يشتمل كل من جدارها الشمالي والجنوبي والغربي على فتحة باب ، التي بالجدار الشمالي يبلغ اتساعها ٠.٩٠م وارتفاعها ١.٨٠م يغلق عليها باب حديث من الحديد مكون من مصراع واحد يؤدي إلى حجرة مستطيلة تستخدم للتخزين، والتي بجدارها الجنوبي يبلغ اتساعها ٣.٠٧م وارتفاعها ٣.١٥م توصل إلى مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٢م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١.٦٥م غطيت بسقف خشبي مسطح فتح فيه منور للتهوية والإضاءة، وتشتمل على مجموعة من القبور، أما فتحة الباب التي توجد بالجدار الغربي لهذه المساحة المستطيلة فيبلغ اتساعها ٠.٦٧م وارتفاعها ١.٥٠م يغلق عليها باب خشبي مكون من مصراع واحد يؤدي إلى قبة السعديين، وهي عبارة عن قاعة مربعة يبلغ طول ضلعها ٥.٧٠م فرشت أرضيتها

---

(١) عرف القبر الحوض كنمط من أنماط البناء فوق القبور بعدة بلدان إسلامية، حيث نرى أمثلةً له بتربة الطحاوي بمصر التي ترجع إلى العصر المملوكي، كما توجد له أمثلة في مدافن استانبول التي ترجع إلى العصر العثماني. انظر، محمد عبد الستار عثمان: التربة الإيوان من أنماط المباني فوق القبور في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، بحث نشر في مجلة العصور، دار المريخ للنشر – لندن، المجلد السابع، الجزء الثاني، يوليو، ١٩٩٢م، ص ٢٧٣.

(٢) عن قبة العلويين انظر ص ٦٧٩ من النص الأصلي للرسالة.

بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وتغطيها قبة من الآجر تقوم على أربع حنايا ركنية تحول القاعدة المربعة إلى رقبة مثمنة ترتكز عليها القبة التي تأخذ من الخارج هيئة مضلعة تنتهي بقمة مخروطية الشكل، يشتمل كل جدار من جدرانها الشمالية والغربية والجنوبية على دخلتين متشابهتين تمامًا عمق كل منها ٠,٣٠م واتساعها ٢,١٥م وارتفاعها ٢,١٥م أيضًا، أما الجدار الشرقي فيشتمل على دخلة واحدة بنفس اتساع وارتفاع الدخلات السابقة لكنها أكثر عمقًا؛ إذ يبلغ عمقها ١,٤٥م ويلاحظ أن جدران هذه القاعة خالية من الزخرفة باستثناء الجزء العلوي منها حيث تزينه مساحة مستطيلة من الجص اتساعها ١,٢٠م مقسمة إلى ثلاثة أشرطة زخرفية، أوسطها أكثرها اتساعًا ويزينه صف من عقود زخرفية مفصصة، بداخلها زخارف نباتية، أما العلوي والسفلي فتزينهما كتابات مكررة بالخط الثلث نصها على الشريط السفلي "العز لله" ونصها على الشريط العلوي "العافية الباقية"، ويفتح في الجزء العلوي لكل جدار من الجدران الأربعة ثلاث نوافذ مستطيلة سدت بعضها حاليًا بالبناء.

وتضم هذه القاعة مجموعةً من القبور تشبه مثيلاتها السابق وصفها بالمقبرة المكشوفة لكنها لا تشتمل على كتابات تشير إلى أسماء المقبورين بها، وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان أحمد الأعرج وأفراد أسرته دفنوا بهذا المكان على يد الشيخ أبي عمرو القسطلي، ثمَّ قامت عائشة بنت أحمد الأعرج بتشييد هذه القبة على قبر والدها، وقد ذكر أحد الباحثين – كما سبقت الإشارة – أن شاهد قبر السلطان أحمد الأعرج ظل قائمًا بهذه القبة حتى عام ١٩٤٦م ثمَّ اختفى بعد ذلك، ويذكر أنه عبارة عن لوح مستطيل من الرخام يشتمل على كتابات بالخط الثلث، نصها: "بسملة، تصلية[1]، هذا قبر الأمير المنعم السعيد مولانا أبوا العباس احمد ابن محمد الشريف الحسني برد الله ضريحه واسكنه من الجنان فسيحه وقد استقر – ترضيه – في موقع الشهداء وانتقل الى سرير السعد ولم تزل محاسنه رحمه الله في حياته في التحبيسات ويمد الصدقات متداولة شفعا ووترا واحاديثه واحتسابه بذلك وجه الله الكريم لاخر الدهر تتلى وتقرا وقد عاش في اخر عمره عابدا سعيدا ومات رحمه الله مومنا شهيدا توفى – ترضيه – ضحوة يوم الخميس السابع والعشرين من شهر ذي (الـ) حجة متم عام اربع وستين وتسعمائه دفن في هذه القبه المكرمة التي نشاتها (هكذا) عليه الحرة المصونة المرضية الميمونة ابنته عائشة وانفقت عليها من مالها تقبل الله عملها، ترضية، تصلية"[2].

الفرنان (**شكل ٣٧/ ط**):

ألحق بالزاوية – كما سبقت الإشارة – فرنان متجاوران يقعان إلى الشرق من الميضأة (شكل ٦١)، ويتوصل إلى كل فرن منهما من خلال فتحة باب تطل على شارع سيدي بنسليمان،

---

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 68 - 69.

(٢) هكذا أورد ديفردان النص عن دوكاستري.

وقد سبق وصفهما عند وصف الواجهة الشرقية للزاوية، ولا يزال الفرنان يستخدمان حتى الآن غير أنهما أصبحا تابعين لبلدية مدينة مراكش، التي غيرت من تخطيطهما وفقًا لمتطلبات التشغيل الحديث لمثل هذه المنشآت.

الحمام (٣٧/ ي):

يقع هذا الحمام في مقابل الواجهة الشرقية للزاوية، ويقع مدخله الرئيس في مقابل مدخل ميضأة الزاوية، ويربط بين الواجهة الغربية لهذا الحمام والواجهة الشرقية للزاوية ساباط يعلو شارع سيدي بنسليمان، وقد شيدت بأعلى هذا الساباط وحدة سكنية تستخدم حاليًا كسكن خاص، ولا يزال هذا الحمام يؤدي وظيفته حتى الآن غير أنه أصبح تابعًا لبلدية مدينة مراكش ولم يعد تابعًا للزاوية.

الفصل الرابع

العمارة الجنائزية (قبور الأشراف السعديين)

اهتم حكام الدول المختلفة التي تعاقبت على عرش المغرب الأقصى – كما سبقت الإشارة – بتشييد أضرحة أو مقابر ملكية خاصة بهم وبأسلافهم وخلفائهم من بعدهم، وتعد قبة الباروديين المرابطية المجاورة لجامع ابن يوسف بمراكش من أقدم أمثلة هذا النوع، كما شيد عبد المؤمن بن علي الموحدي روضة بمدينة تينملل على قبر المهدي بن تومرت ولتكون مدفنًا له ولخلفائه من بعده[١]، بينما اتخذ حكام الدولة المرينية من شالة مقبرة ملكية حتى منتصف القرن (٨ هـ / ١٤م)، ثمَّ أصبحت "القلة" أو "قبب بني مرين"، الواقعة أعلى التل المشرف على خارج باب الجيسة بفاس القديمة هي المقبرة الملكية لحكام هذه الدولة[٢].

أما في عهد الدولة السعدية، فقد سبقت الإشارة إلى أن مؤسسها محمد القائم (ت: ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) قد دفن أولاً بآفوغال بجوار ضريح الشيخ محمد بن سليمان الجزولي، ثمَّ قام السلطان أحمد الأعرج في حدود سنة (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م) بنقل رفات والده القائم والشيخ الجزولي إلى مراكش وشيد الضريح الذي ما زال قائمًا بحي رياض العروس، وبعد مقتل كل من محمد المهدي وأحمد الأعرج سنة (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) دفن الأخير بالمقبرة المجاورة للضريح الذي يضم رفات محمد القائم والجزولي بمراكش، أما محمد المهدي فقد نقل من أكلكال إلى مراكش، حيث دفن بالمقبرة الواقعة بقصبة مراكش جنوب جامع المنصور الموحدي،ثمَّ صارت بعد ذلك هي المقبرة الملكية لأسرة الأشراف السعديين، وإن كان هناك خمسة من ملوك هذه الأسرة لم يدفنوا بهذه المقبرة كما سبقت الإشارة.

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٤١ ؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٥، ٦٦؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(2) Basset, H., et Provençal, E., L., Op. Cit., pp.29 - 26; Marçais, G.,: Op. Cit., p. 282.

قبور الأشراف السعديين[١]

الموقع:

تقع قبور الأشراف السعديين بقصبة مراكش جنوب جامع المنصور الموحدي، المعروف بجامع القصبة والذي يقع بالقرب من باب أجناو أحد الأبواب القديمة لمدينة مراكش (شكل ٣) ويلاحظ أن هذه المقبرة محاطة بالمباني والمنشآت المختلفة من الجهات الأربع ولا يظهر منها سوى المدخل الرئيس الذي يقع بواجهته الغربية، بينما يحجب الجزء المتبقي من هذه الواجهة على يمين هذا المدخل مسجد صغير ويحجب الجزء الذي على يسار هذا المدخل زاوية صغيرة حديثة، أما الواجهتان الجنوبية والشرقية فقد شيد إلى جوارهما دور سكنية حديثة، وأما الواجهة الشمالية فهي تلاصق الواجهة الجنوبية لجامع المنصور الموحدي.

المنشئ وتاريخ الإنشاء:

أشارت الروايات التاريخية في سياق حديثها عن وفاة السلطان أبي الحسن المريني سنة (٧٥٢ هـ / ١٣٥١م) إلى أنه دفن أولاً بمراكش: "قبلي – أي جنوب– جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشراف السعديين، ثمَّ لما نهض أبو عنان إلى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم" [٢]. وتأتي الكتابات المنقوشة على التركيبة الرخامية التي تعلو قبر هذا السلطان بشالة لتؤكد ما ذكرته الرواية التاريخية السابقة، بما نصه: "توفي رضي الله عنه وارضاه بجبل هنتاتة في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين لشهر ربيع الأول المبارك من عام اثنين وخمسين وسبعمائة وقبر في قبلة جامع المنصور من مراكش عمره الله بذكره ثم نقل من هنالك الى هذا الضريح المبارك المقدس من شالة" [٣]، ولا تزال التركيبة الرخامية التي كانت تعلو موضع الدفن الأول لأبي الحسن قائمةً حتى الآن بقبور السعديين، وتؤكد الكتابات المنقوشة عليها ما ورد في كل من الرواية التاريخية والتركيبية الرخامية السابق الإشارة إليهما.

فضلاً عن ذلك فإن الفناء أو الحوش المكشوف لقبور السعديين ما زال يشتمل على شاهدين من الرخام، تشير الكتابات المنقوشة عليهما أنهما يخصان شخصيتين من أمراء هنتاتة حكام مدينة مراكش منذ أواخر العهد المريني، حتى سيطرة السعديين على هذه

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية "قبور الأشراف السعديين"، هي التي أطلقها المؤرخون المغاربة على المكان الذي تضمن رفات الأسرة السعدية. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ٤٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص٥٢. على أننا لا نعني بها في هذه الدراسة القبور التي في تخوم الأرض، وإنما ستتعرض الدراسة للشواهد والتراكيب الرخامية التي تعلو هذه القبور وكذلك المباني التي شيدت عليها.

(٢) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٧٤.

(3) Basset, H., et Provençal, E., L., : Op. Cit., p. 36.

المدينة سنة (٩٣٠ هـ / ١٥٢٧م)، وهذان الأميران هما أبو العباس أحمد الهنتاتي (ت ٨٥٩ هـ /١٤٥٥م) وأبو علي الناصر بن يوسف الهنتاتي (ت: ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م)[(١)].

وفي ضوء ما سبق يمكن القول إن الموضع الذي تشغله قبور السعديين حاليًا كان يستخدم للدفن قبل العصر السعدي، ربما — في ظل الأدلة التاريخية والأثرية السابقة — منذ عصر الدولة المرينية، وتجدر الإشارة في هذه الصدد أن بعض الباحثين رأى آن قرب هذه المقبرة من جامع المنصور الموحدي، ربما يسمح بالقول إن الموحدين قد استخدموا هذا المكان للدفن، وأنه استمر في أداء هذه الوظيفة في العصر المريني، إلا آن صاحب هذا الرأي صرح في نفس الوقت أن هذه المقبرة لم تستخدم إلا في عهد السعديين حيث تتوفر الأدلة التي تؤكد ذلك بوضوح[(٢)].

وعلى أية حال فإن هذه المقبرة لم تكن تحمل قبل العصر السعدي اسمًا معينًا، ثمَّ صارت بعد أن أصبحت المقبرة الملكية لأسرة الأشراف السعديين تعرف باسم "قبور الأشراف"[(٣)]، ذلك الاسم الذي كان يطلق — كما سبقت الإشارة — على مقبرة حي رياض العروس المجاورة لضريح الجزولي، كما عرفت باسم "روضة السعديين"[(٤)].

أما فيما يتعلق بتاريخ إنشاء هذه الوحدات المعمارية التي تشتمل عليها هذه المقبرة، فهو أمر سكت عنه المؤرخون — باستثناء الإشارة الموجزة التي أوردها المقري في روضة الآس — رغم اهتمامهم بنقل الكتابات المنقوشة على الشواهد والتراكيب الرخامية الخاصة بالملوك السعديين في مؤلفاتهم، ومع ذلك فإن هناك وثيقة تاريخية مهمة تساهم — إلى حد ما — في التعرف على تاريخ إنشاء هذه الوحدات، وتتمثل في تصميم قصبة مراكش الذي وضعه أحد المهندسين البرتغاليين سنة (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م)[(٥)]، والذي يتضح من خلاله أن قبور السعديين حتى ذلك التاريخ كانت لا تزيد عن قاعة صغيرة تعرف بـ "قبور الملوك"[(٦)]، الذين لم يكونوا

---

(1) Deverdun, G., : Op. Cit., pp. 115 - 116.
(2) Marçais, G., : Op. Cit., p. 393.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٤٤، ٥٦، ١٨٩، ٢٤٣، ٢٥٧؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ص ٥٢، ١٨٧؛ الجزء السادس، ص ص ٧٢، ١٠٧.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٣٥.

(٥) هذا التصميم عثر عليه هنري كولير في مخطوط بمكتبة الإسكوريال بإسبانيا، وهو منفذ بألوان مذهبة على ورقتين متقابلتين، وقد مثلت عليه أهم المنشآت المعمارية التي كانت تشتمل عليها قصبة مراكش آنذاك وأسوارها، وقد حددت المسافات بين هذه المنشآت بدقة بمقياس باسو البرتغالي، وكان الهدف من وضعه على ما ذكر هو تحديد الأماكن التي دفن بها موتى البرتغال خلال سنة (٩٩٣هـ / ١٥٨٥م). انظر، إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٣؛ Koehler, H.,: Op. Cit., p. 4; Deverdun, G., : L'Age des Tombeaux Saadiens de Marrakech, d'Apres de Documents Nouveaux, Hespéris, Librarie Larose, Paris, Tom XL, 1953, p. 559.

(6) Deverdun, G., : Ibid., p. 559

في هذه الفترة سوى محمد المهدي الشيخ (ت: ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧م) وابنه عبد الله الغالب (ت: ٩٨١ هـ / ١٥٧٤م)، ومن هنا فقد رجح بعض الباحثين أن تكون هذه القاعة شيدت بعد التاريخ الأول (٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) الذي يمثل وفاة محمد الشيخ، وقبل التاريخ الثاني (٩٨١ هـ / ١٥٧٤م) الذي يمثل وفاة عبد الله الغالب، حيث شيدها هذا السلطان على قبر أبيه محمد الشيخ[١].

ويتضح من خلال رواية المقري أن قبور السعديين كانت لا تشتمل حتى سنة (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م) – وهو التاريخ الذي نزل فيه هذا المؤرخ المغرب الأقصى وزار قبور السعديين[٢]- إلا على القاعة المعروفة حاليًا بقبة لالة مسعودة (شكل ٣٩/ أ) التي ظهرت في تصميم قصبة مراكش السابق ذكره، والتي ضمت حينذاك إلى جانب قبر كل من محمد الشيخ والغالب قبر لالة مسعودة زوجة محمد الشيخ ووالدة أحمد المنصور والتي توفيت سنة (١٠٠٠ هـ /١٥٩١م)، وقد نقل المقري الكتابات المنقوشة على شواهد هذه القبور وأبدى إعجابه بهذا الضريح بقوله: "وقد زرت هذا الضريح الكريم، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله، وشاهدت عظمة هذه القبة التي أنشأها أمير المؤمنين المنصور بالله أيده الله، وهي من جملة مآثره نصره الله، وداخلها ذهب ساطع في تلك النقوش الغريبة الصنعة، وهذا النثر الذي ذكرنا في مرمر مكتوب بالذهب أيضًا، وعليه باب تغلق مذهبة، وتفتح يوم الجمعة، ويزور الناس يومئذ الضريح المبارك، وعليه قيم لا يفارقه، ورأيت هناك كثيرًا من أرباب الجرائم متشفعين بذلك الضريح الكريم" [٣].

ويفهم من هذا النص أن أحمد المنصور هو الذي شيد هذه القبة أو القاعة[٤] وليس عبد الله الغالب كما ذكر بعض الباحثين، والواقع لا يستبعد أن يكون أحمد المنصور هو الذي شيد هذه القاعة على قبر كل من أبيه الشيخ وأخيه الغالب، ولا يتعارض ذلك مع ظهورها في تصميم قصبة مراكش الذي يرجع إلى سنة (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م)، حيث إن أحمد المنصور تولى حكم البلاد منذ سنة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م)، خاصةً إذا علمنا – وفقًا للمقري- أن الكتابات المنقوشة على شاهد قبر كل من محمد الشيخ وعبد الله الغالب، وكذلك التراكيب الرخامية التي تعلو قبر الشيخ من تأليف الوزير عبد العزيز الفشتالي (ت ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م) بأمر من السلطان أحمد المنصور الذهبي[٥].

كما يفهم من نص المقري أيضًا أن القاعة المستطيلة (ب) التي تقع جنوب قبة لالة

---

(1) Deverdun, G., Ibid., p. 561; Marçais, G., : Op. Cit., p. 393

(٢) المقري: المصدر السابق، ص ك من تقديم المحقق.

(٣) المقري: المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٤) أطلق على المباني التي شيدت على قبور السعديين، وفقًا للتسمية المحلية عدة مصطلحات، وهي: القبة، والقاعة، وأحيانًا الضريح.

(٥) المقري: المصدر السابق، ص ص ١٥٠ – ١٥٤.

مسعودة (أ) والرواقين (ج، د) الواقعين غرب وشرق هذه القاعة، لم تكن قد شيدت حتى سنة (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م)، الأمر الذي يتعارض مع رأي بعض الباحثين الذين رجحوا تشييد هذه الوحدات المعمارية بعد وفاة لالة مسعودة سنة (١٠٠٠ هـ / ١٥٩١م) على يد ولدها أحمد المنصور[١]، الذي ربما شيدها لكي يدفن بها بعد موته بالقرب من قبور والديه[٢]. ومع ذلك يمكن الاتفاق على أن هذه القاعة والرواقين من تشييد أحمد المنصور، ولكن بعد عام (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠م) وفقاً لرواية المقري وهو شاهد عيان جدير بالاعتماد عليه، خاصة وأن الشكل المعماري لعقود الرواقين الغربي والشرقي والزخارف المزينة لها تشبه مثيلاتها بالقبة التي شيدها أحمد المنصور على الفسقية الشرقية بصحن جامع القرويين بفاس.

وأما المبنى الغربي الذي يتكون من ثلاث قاعات (شكل ٣٩/ هـ، و، ز)، والتي اصطلح على تسميتها – في الأبحاث والدراسات الحديثة – بقاعة المحراب (هـ) وقاعة الاثني عشر عموداً (و) وقاعة الثلاث دخلات (ز)، فقد ذكر بعض الباحثين أن أحمد المنصور قد شيده قبل وفاته سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، حيث أراد أن يشيد لنفسه مقبرة أكثر فخامة من القاعة المستطيلة (ب) – التي لا تتلاءم مع حبه للبذخ والتفاخر- كالمقابر التي شيدها سلاطين المماليك بالقاهرة، الذين كانوا يشيدون أضرحتهم في حياتهم، الأمر الذي يعكس استمرار استقبال المغرب للتأثيرات الوافدة من المشرق الإسلامي[٣].ورغم الفارق الزمني بين أحمد المنصور (٩٨٦ – ١٠١٢هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م)، وبين تاريخ نهاية حكم سلاطين المماليك لمصر على يد العثمانيين (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م)، فتجدر الإشارة إلى اهتمام أحمد المنصور بتوطيد علاقات بلاده مع المشرق وبخاصة مصر[٤].

وعلى أية حال يمكن الاتفاق على أن هذا المبنى من إنشاء أحمد المنصور، ومما يؤكد ذلك أن الباب الخشبي الذي يغلق على فتحة المدخل الرئيس لهذا المبنى قد نقش على كل مصراع من مصراعيه كتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا الإمام أبي العباس أحمد المنصور بالله آمير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسني أيده الله" [٥]، حيث إن الدعاء الوارد في هذه الكتابات وهو "أيده الله" دعاء حياة وليس دعاء ممات؛ مما يشير إلى أن أحمد المنصور شيد هذا المبنى أثناء حياته.

أعمال الإصلاح والتجديد:

بعد نهاية الدولة السعدية (١٠٦٩ / ١٦٥٨م) أحاط الغموض مقبرتهم التي تقع جنوب

---

(1) Deverdun, G.,: Op. Cit., pp. 559 - 560; Marçais, G.,: Op. Cit., p. 393.
(2) Deverdun, G.,: Op. Cit., pp. 559 - 560.
(3) Deverdun, G.,: Ibid., pp. 560 - 561; Marçais, G., : Op. Cit., p. 393.
(٤) للاستزادة حول هذه العلاقات، انظر، يونان لبيب ومحمد مزين: المرجع السابق، ص ص ١٥١، ١٥٧.
(5) Deverdun, G., : Inscription Arabes, pp. 109 - 110.

جامع المنصور الموحدي، حيث أمر السلطان إسماعيل العلوي سنة (١٠٩٨ هـ / ١٦٨٤م) في إطار ما قام به من أعمال لمحو ما يمكن أن يذكر بعظمة السعديين – كهدمه لقصر البديع- ، بغلق المدخل الرئيس لقبور السعديين ولم يعد يدخل إليها إلا من خلال فتحة باب صغيرة بالجدار الجنوبي لجامع المنصور الموحدي، كان يتم الدخول منها لدفن بعض ملوك وأمراء الدولة العلوية في هذه المقبرة[1]، كما تشهد بذلك الكتابات المنقوشة على التراكيب الرخامية التي تعلو قبورهم، والتي يؤرخ أقدمها بعام (١١٧٠ هـ / ١٧٥٧م) ويحمل أحدثها تاريخ سنة (١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨م).

وقد ترتب على غلق المدخل الرئيس لهذه المقبرة وحجب جماهير الشعب من زيارتها، أن أخذ أمرها يتناسى مع تقادم الزمن ساعد على ذلك المظهر الفقير الذي يكتسي به السور الخارجي المرتفع المحيط بهذه المقبرة، والذي يحجب خلفه الثراء الزخرفي المفرط الذي تمتاز به الوحدات المعمارية التي بداخل هذا السور، حتى أن الرحالة الأوربيين الذين نزلوا المغرب الأقصى في القرنين (١٢ – ١٣ هـ / ١٨ – ١٩م) ودونوا في مذكراتهم كل ما شاهدوه في تلك البلاد، لم يلتفتوا إلى قبور السعديين[2]، التي قال عنها العالمان الفرنسيان جروم وجان تارو: "إن من لم يشاهد في حياته مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك إلى أية درجة من الارتقاء بلغت المدنية الإسلامية" [3]. فمن هؤلاء الرحالة نجد أن علي بك العباسي (دون مينجو باديا Domingo Badia) الرحالة الإسباني – على سبيل المثال- الذي زار المغرب على عهد السلطان سليمان العلوي (١٢٠٦ – ١٢٣٨ هـ / ١٧٩٢ – ١٨٢٢م) ودون في مذكراته كل ما شاهده في مدينة مراكش التي ظل بها عدة شهور، لم يشر مطلقاً إلى قبور السعديين[4].

وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢م، لم تكن تعلم إدارة الفنون الجميلة التي شكلتها الحماية آنذاك لترميم وعناية الآثار المغربية أن للسعديين مقبرةً ملكية بمراكش، وفي سنة ١٩١٧م تنبه مدير هذه الإدارة السيد "Tranchant de Lunel" إلى الأجزاء العليا للأسقف الجمالونية الشكل التي تغطي قاعات قبور السعديين والتي تظهر من وراء الأسوار الخارجية، فأرسل إلى السيد التهامي باشا مراكش آنذاك يطلب منه السماح له بزيارة هذه الآثار، وبالفعل أدخله هذا الباشا ليلاً إلى جامع المنصور متخفياً في ثياب عربية – حيث كان دخول المنشآت الدينية محرماً آنذاك على غير المسلمين بالمغرب – ومن خلال الباب

(1) De Castries, H., : Op. Cit., pp. 353 - 354.
(2) De Castries, H., : Op. Cit., p. 354.
(٣) عبد الله الجراري: المساجد وأثرها في إصلاح العقول وتطهير النفوس، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، تصدرها وزارة عموم الأوقاف بالمغرب، مطبعة فضالة – المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م، ص ٦٧.
(4) De Castries, H., : Op. Cit., p. 354.

الصغير بالجدار الجنوبي لجامع المنصور توصل «De Lunel» إلى قبور السعديين فهاله ما رآه بها من مهارة معمارية وثراء زخرفي كان لغلق المدخل الرئيس لهذه المقبرة لمدة تزيد عن قرنين ونصف، أكبر الأثر في الحفاظ عليها دون أن تطولها يد الإصلاح والتعديل(١)، حتى يمكن القول إنه أروع أثر معماري بقي سليمًا من عهد السعديين(٢)، ثمَّ توالت عليه بعد ذلك أعمال الإصلاح والتعديل، إذ تعد قبور السعديين من أكثر الآثار المغربية التي يقبل الأجانب والمغاربة على السواء على زيارتها في الوقت الحالي.

التخطيط المعماري لقبور السعديين (شكل ٣٩):

تشغل قبور السعديين مساحة مستطيلة الشكل تبلغ نحو ٢٢٨٨م٢، محاطة بسور يبلغ سمكه نحو ٠.٨٠م وارتفاعه ١٢م تقريبًا، وهي تشتمل على فناء أو حوش مكشوف ومبنيين منفصلين عن بعضهما (شكل ٣٩)، أحدهما بالجهة الشرقية ويتكون من قبة لالة مسعودة (أ) إلى الجنوب منها قاعة مستطيلة (ب) ورواقان أحدهما بالجهة الغربية (ج) لقبة لالة مسعودة والآخر بجهتها الشرقية (د)، أما المبنى الغربي فيتألف من ثلاث قاعات، قاعة المحراب (هـ) وقاعة الاثني عشر عمودًا (و) وقاعة الثلاث دخلات (ز).

وقد استخدمت الطابية المكونة من الجير والرمل والتراب المدكوك في بناء السور الخارجي للمقبرة، في حين استخدم الآجر في المبنيين الشرقي والغربي، واستعمل الخشب في عمل الأسقف وصناعة الأبواب والشبابيك وفي كسوة الأجزاء العليا من الجدران أحيانًا، كذلك استخدام الرخام في عمل الأعمدة وشواهد القبور والتراكيب الرخامية التي تعلو القبور، بينما استعمل الزليج في تغطية الأرضيات وكسوة الأجزاء السفلى من الجدران، كما استخدم القرميد في تغطية الأسطح، واستخدم الجص في تغطية الجدران كما غشيت بعض النوافذ بالجص المفرغ في تشكيلات هندسية.

وتجدر الإشارة إنه يعلو القبر الذي يوجد في تخوم الأرض سواء بالقاعات المغطاة أو بالحوش المكشوف – غالبًا- تركيبة من الرخام الأبيض تتكون من قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، تختلف فيما بينها من حيث الحجم فهناك تراكيب كبيرة الحجم وأخرى صغيرة ، مع ملاحظة أن حجم التركيبة لا يتوافق أحيانًا مع الصفات الجسمانية للمتوفى المدفون في تخوم الأرض فقد يكون طفلاً صغيرًا في حين يوضع على قبره تركيبة كبيرة الحجم والعكس.

أما فيما يتعلق بالنقوش الكتابية التي نفذت على هذه التراكيب فنجدها موزعة إما بطول الأوجه الأربعة للتركيبة أو على وجهين فقط في سطرين، السطر العلوي يشتمل على

(1) De Castries, H., : Ibid., pp. 354 - 355.

(٢) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٩٦.

آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل السطر السفلي على اسم المتوفى وعبارات دعائية نثرًا أو شعرًا، وأحيانًا تاريخ الوفاة إما صريحًا أو يتضمن عجز البيت الأخير جملة حسابية تمثل قيمتها الأبجدية تاريخ الوفاة بصيغة شعرية بحساب الجمل على الطريقة المغربية[1].

الوصف المعماري:

سبقت الإشارة إلى أن قبور السعديين محاطة من الجهات الأربع بالمباني والمنشآت المختلفة، التي حجبت واجهاتها الأربع باستثناء الواجهة التي بها المدخل الرئيس، والذي يوجد بالطرف الشمالي الغربي للسور الخارجي.

المدخل الرئيس (لوحة ١٠٢):

يبلغ اتساع فتحته ١.٤٠م وارتفاعها ٢.٥٠م يعلوها عقد على هيئة حدوة فرس مدبب ويغلق عليها باب خشبي من مصراعين، ويؤطر فتحة الباب دعامتان مستطيلتان (٠.١٠م × ٠.٤٢م) يحملان رفرفًا مائلاً مغطى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ١٠٢). ويؤدي هذا المدخل إلى دهليز مستطيل مكشوف يمتد من الشرق إلى الغرب لمسافة قدرها ١.٧٥م ثم ينكسر ليمتد في اتجاه الجنوب لمسافة قدرها ١٧.٤٥م ويبلغ اتساعها ٢.٥٠م، ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة ثانيةً في اتجاه الشرق بمحاذاة الجدار الجنوبي لقاعة المحراب(شكل ٦٣/ هـ) في مسافة قدرها ١٥.١٥م واتساعها ٠.٩٠م، وينتهي الدهليز بفتحة يبلغ اتساعها ١.٠٧م وارتفاعها ٢.٨٥م تؤدي إلى الحوش المكشوف.

كما يتم الدخول إلى قبور السعديين كما سبقت الإشارة من خلال فتحة باب بالجدار الجنوبي لجامع المنصور الموحدي تقع على يمين المحراب، يبلغ اتساعها ١م وراتفاعها ٣.٤٥م

---

(١) يختلف المغاربة والأندلسيون عن المشارقة في قراءة الكلمات الاصطلاحية للترتيب الأبجدي وفي ترتيب بعض الحروف وبالتالي في قيمها. فأما الحروف التي يختلف موقعها بين المشارقة والمغاربة، فتختلف بذلك قيمتها، فهي ستة:

	ص	ض	س	ظ	غ	ش
عند المشارقة	٩٠	٨٠٠	٦٠	٩٠٠	١٠٠٠	٣٠٠
عند المغاربة	٦٠	٩٠	٣٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

أما نطق الكلمات الاصطلاحية، ففي المشرق يقولون:

أبجد / هوز / حطي / كلمن / سعفص / قرشت / ثخذ / ضظغ.

وأما المغاربة الأندلسيون فيقولون:

أبجد / هوز / حطي / كلمن / صعفص / قرست / ثخذ / ظغش .

انظر، محمد اليعلاوي: حساب الجمل أو التاريخ بالحروف، بحث نشر في حوليات الجامعة التونسية، العدد الثامن، تونس، ١٩٧١م، ص ص ٩٦ — ٩٧.

يغلق عليها باب خشبي من مصراعين، كانت في عهد إنشاء الجامع في العصر الموحدي مخصصة لدخول الخليفة إلى مقصورة الجامع التي كانت تتقدم المحراب[١]، ثمَّ استخدمت بعد ذلك للدخول إلى قبور السعديين، وهي تؤدي إلى مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤,١٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١,١٥م غطيت بسف خشبي مسطح زين بزخارف هندسية نفذت بطريقة الحفر يمتد أسفله إزاران من الخشب العلوي تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "العافية الباقية"، أما الشريط السفلي فمزين بكتابات مكررة بالخط الثلث، نصها: "العز لله" ويشرف جدارها الشرقي على الحوش المكشوف بفتحتين يبلغ اتساع كل منهما ١,٢٠م وارتفاعها ٢,١٥م يفصل بينهما عمود من الرخام الوردي اللون يبلغ ارتفاع الجزء الظاهر من بدنه حاليًا ١,٤٨م يعلوه تاج مزين بزخارف نباتية يبلغ ارتفاعه ٠,٤٠م، وتفضي هاتان الفتحتان إلى الحوش المكشوف.

أولاً- المبنى الشرقي لقبور السعديين (شكل ٤٠) (لوحة ١٠٣):

يتألف هذا المبنى – كما سبقت الإشارة – من قبة لالة مسعودة (أ) إلى الجنوب منها قاعة مستطيلة (ب) ورواقان أحدهما بجهتها الغربية (ج) والآخر بجهتها الشرقية (د)، وتبلغ المساحة الكلية التي تشغلها هذه الوحدات المعمارية نحو ١٥٥م^2 (شكل ٤٠).

قبة لالة مسعودة (شكل ٤٠/ أ):

هي أولى الوحدات المعمارية التي شيدت بقبور السعديين كما سبقت الإشارة، وقد كانت مكشوفةً من الجهات الجنوبية والغربية قبل أن تشيد القاعة المستطيلة (ب) والرواقان (ج، د)، وكان يتوصل إليها قبل بناء هذه الوحدات مباشرةً من خلال مدخلين أحدهما بجدارها الجنوبي والآخر بجدارها الشرقي (شكل ٤٠/ أ)، وبعد إنشاء هذه المباني المحيطة بها أصبح يتوصل إليها من خلال فتحتي بابين إحداهما بالقاعة المستطيلة التي بجنوبها والأخرى بالجدار الشرقي لقبة لالة مسعودة يتوصل إليها بعد اجتياز الرواق الشرقي (لوحة ١٠٤)، وهما متشابهتان تمامًا حيث يبلغ اتساع كل منهما ٢,١٨م، وارتفاعها ٤م سد الجزء السفلي لكل منهما بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ٠,٩٠م، ويتوجها عقد على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص(لوحة ١٠٤)

وتشغل هذه القاعة مساحةً مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ٤,٠٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، وتغطيها قبة زين باطنها بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص بألوان متعددة (لوحة ١٠٥)، وتأخذ هذه القبة من الخارج

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

هيئةً هرمية الشكل غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٤١)، ويلاحظ أن كل من الجدارين الغربي والشمالي يتوسط كل منهما دخلة عميقة، يبلغ اتساع كل منهما ٢,١٨م وارتفاعها ٣,٨٠م يبلغ عمق الدخلة الغربية ٠,٣٠م بينما يبلغ عمق الدخلة الشمالية ١,٢٨م، وقد توجت كل منهما بعقد على هيئة حدوة فرس زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة.

وقد غطي الجزء السفلي للجدران الأربعة لهذه القاعة بتكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١,٦٨م من مستوى أرضية هذه القاعة، قسمت إلى ثلاثة أقسام السفلي ارتفاعه ١,٤٣م مزين بتشكيلات هندسية متنوعة، والقسم الأوسط ارتفاعه ٠,١٨م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، أما القسم الثالث فيبلغ ارتفاعه ٠,٠٧م ويزينه صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، بالنسبة للكتابات التي تزين القسم الأوسط فتبدأ من على الجدار الشرقي لهذه القاعة، بما نصه: "قال مولانا جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه بعد أعوذ بالله من" وتستمر على الجدار الشمالي: "الشيطان الرجيم يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصد ...." يلاحظ انقطاع النص لوجود لوحة رخامية مثبتة بداخل الدخ لةالتي تتوسط هذا الجدار الشمالي للقاعة (لوحة ١٠٦)، وهي تمثل شاهد قبر لالة مسعودة – سوف يأتي ذكرها- كما يلاحظ سقوط بعض تربيعات الزليج التي نقشت عليها هذه الكتابات (لوحة ١٠٦)، ثمَّ تستمر الكتابات على هذا الجدار الشمالي بما نصه: "تلذ الأعين وأنتم فيها خالدون"، ونصها على الجدار الغربي: "وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون[1] دق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم عليه من الله أزكى صلاة وتسليم"، ويعلو تكسية الزليج السابق وصفها على الجدران الأربعة لهذه القاعة شريط ضيق من الجص يبلغ اتساعه ٠,١٢م تزينه زخارف هندسية تحصر بداخلها كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، يعلو ذلك شريط آخر من الجص يبلغ ارتفاعه ٠,٢٧م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتيةتبدأ من الطرف الشرقي للجدار الجنوبي، بما نصه: "أعوذ بالله من"، وتستمر على الجدار الشرقي: "الشيطان الرجيم ثمَّ أورثنا الكتاب"، ونصها على الجدار الشمالي: "الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عن الحزن"، وتستمر الكتابات على الجدار الغربي، ونصها: «إن ربنا لغفور شكور

---

(١) سورة الزخرف، الآيات من ٦٨ – ٧٤.

الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[١] سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد"، وتنتهي هذه الكتابات على الطرف الغربي للجدار الجنوبي بما نصه: "لله رب العالمين[٢]" (لوحة ١٠٦)، ويغطي الجزء الذي يعلو الشريط السابق وصفه على الجدران الأربعة وحتى القبة السابق وصفها التي تغطي هذه القاعة، زخارف هندسية ونباتية متنوعةتفذت على الجص يعلوها شريط ضيق من الجص أيضًا، تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي نصها: "النعمة الشاملة والعافية الباقية والغبطة المتصلة"، ويلاحظ أن العقد الذي يتوج كل من الدخلة التي تتوسط كل من الجدارين الغربي والشمالي مؤطر بثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠٫٣٢م، تزينها كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى لله وملائكته وجميع خلقه على سيدنا"، وعلى الشريط الأفقي: "ومولانا محمد وآله وأزواجه وصحبه وسلم تسليما أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وعلى الشريط الأيسر الرأسي: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[٣]".

وقد دفن بأرضية هذه القاعة مجموعة من الشخصيات السعدية، ويعلو قبر كل منها — الموجود بتخوم الأرض — تركيبة هرمية الشكل من الرخام الأبيض، يبلغ عددها بهذه القاعة سبعة تراكيب (لوحة ١٠٦)، بالإضافة إلى شاهد قبر لالة مسعودة (لوحة ١٠٦)، يلاحظ أن أربعة تراكيب منها فقط هي التي نقشت عليها كتابات بينما الثلاثة الأخرى خالية تمامًا من النقوش الكتابية والعناصر الزخرفية (شكل ٤٢)، وسنعرض فيما يلي لوصف هذه التراكيب وشاهد القبر والنصوص الكتابية المنقوشة عليها وفقًا لترتيبها الزمني.

١- تركيبة السلطان محمد المهدي الشيخ (ت: ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠٫٤٥م وطولها ٢٫٥٠م وارتفاعها الكلي ٠٫٣٨م، تشتمل على شريط كتابي واحد على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ٢٫٢٨م وعرضه ٠٫٠٧م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر البسيط، من نظم عبد العزيز الفشتالي وزير أحمد المنصور الذهبي[٤]، وقد أوردها كل من المقري[٥]

---

(١) سورة فاطر، الآيات من ٣٢ — ٣٥.

(٢) سورة الصافات، الآيات من ١٨٠ — ١٨٢.

(٣) سورة الأحزاب، من الآية ٣٣.

(٤) المقري: روضة الآس، ص ١٥٠.

(٥) المقري: نفس المصدر والصفحة.

الإفراني[١] الناصري[٢]، مع زيادات واختلاف يسير في الألفاظ.

الوجه الشمالي:

١. حـي ضـريحا تغمدتـه رحمـات ... وظللـت[٣] لحـده منهـا غمامـات

٢. استنشقن[٤] نفحة التقديس منه فقد ... هبت من الخلد[٥] منها نسيمات[٦]

٣. لحد به كورت[٧] شمس الهدى فكست ... من أجلها[٨] السبعة الأرضين ظلمات

٤. يا مهجة غالها غول الردى قنصا[٩] ... وأثبتت سهمها فيها[١٠] المنيات

الوجه الجنوبي:

٥. دكت لموتك أطواد العلا صعقا[١١] ... وارتج من نعيك[١٢] السبع السماوات

٦. وشيعت نعشك المزجى إلى عدن ... من الملائكة الحان واصوات

٧. يا رحمة الله عاطيه سلاف رضى ... تدور منها عليه الدهر كاسات

قضى فوافق والتاريخ منه جلا[١٣] ... دار امام الهدى المهدي جنات

---

(١) الإفراني: نزهة الحادي، ص ٤٤.

(٢) الناصري: الاستقصا، الجزء الخامس، ص ٣٥.

(٣) قراها Felix Arin "وظلت" بإسقاط اللام، انظر: Rousseau, G., et des autres : Op. Cit., p. 53.

(٤) في رواضة الآس "واستنشقن" بزيادة الواو، ص ١٥٠؛ وكذلك في نزهة الحادي، ص ٤٤؛ والاستقصا، الجزء الخامس، ص ٣٥؛ كما قراها Arin بزيادة الواو أيضًا. Rousseau, G., et des autres : Op. Cit., p. 53

(٥) في روضة الآس وردت كلمة "فيه" بدلاً من "منها"، ص ١٥٠؛ وكذلك في نزهة الحادي، ص ٤٤؛ أما في الاستقصا، فقد وردت كلمة "لي" بدلاً من "منها"، انظر الجزء الخامس، ص ٣٥.

(٦) وردت في روضة الآس "نسمات" بإسقاط الياء، ص ١٥٠.

(٧) وردت في نزهة الحادي "لموته كدرت" بدلاً من "لحد به كورت"، ص ٤٤؛ وردت في الاستقصا "بحريه"، الجزء الخامس، ص ٣٥؛ وقد قرا Arin كلمة "كورت" بالتاء المربوطة : Rousseau, G., et des autres Op. Cit., p. 53.

(٨) وردت في نزهة الحادي "اجله"، ص ٤٤.

(٩) وردت في نزهة الحادي "فقضى" بدلاً من "قنصا"، ص ٤٤.

(١٠) قراها Arin "منها" بدلاً من "فيها". Rousseau, G., et des autres : Op. Cit., p. 53

(١١) وردت في نزهة الحادي "ضغنا" بدلاً من "صعقا"، ص ٤٤.

(١٢) وردت في الاستقصا "بعدك" بدلاً من "نعيك"، الجزء الخامس، ص ٣٥.

(١٣) وردت في نزهة الحادي "جلى" بالياء بدلاً من "جلا"، ص ٤٤، وفي الاستقصا وردت "حلى"، الجزء الخامس، ص ٣٥.

وتجدر الإشارة إلى أن كلاً من المقري والإفراني قد زادا بين البيتين السادس والسابع، بيتًا من الشعر غير موجود على تركيبة محمد الشيخ موضوع الدراسة، ونصه:

"كأن الثريا صعيدا تعتليه وقد اصبحت تحت الثرى تعلوك ذرات"[١]

٢- تركيبة السلطان عبد الله الغالب بالله (ت: ٩٨١ هـ / ١٥٧٤م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٢٠م وطولها ١,٨٧م وارتفاعها الكلي ٠,١٢م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ١,٧٧م وعرضه ٠,٠٥م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخ لو من علامات الإعراب، ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر الطويل، من نظم أحد كتاب السلطان عبد الله الغالب صاحب هذه التركيبة وفقًا لرواية المقري[٢]، الذي أورد هذه الكتابات هو وكل من الإفراني[٣] والناصري[٤]، مع اختلاف يسير في الألفاظ.

الوجه الشمالي:

١. أيا زائري هب لي الدعاء ترحما[٥] فإني إلى فضل الدعاء فقير

٢. وقد كان أمر المؤمنين[٦] وملكهم الى وصيتي في البلاد شهير

٣. فها أن هذا صرت ملقى بحفرة[٧] ولم يغن عني قائد ووزير

---

(١) المقري: روضة الآس، ص ١٥٠؛ الإفراني: نزهة الحادي، ص ٤٤.

(٢) المقري: المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٣) الإفراني: المصدر السابق، ص ٥٦.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٣.

(٥) وردت في نزهة الحادي "تكرمًا" بدلاً من "ترحمًا"، ص ٥٦.

(٦) وردت في روضة الآس "المسلمين" بدلاً من "المؤمنين"، ص ١٥٤.

(٧) ورد صدر هذا البيت في روضة الآس، على هذا النحو: "فها أنا ذا صرت ملقًا بحفرة"، ص ١٥٤؛ وفي نزهة الحادي هكذا: "فها أنا هذا صرت ملقى بحفرة"، ص ٥٦؛ وورد في الاستقصا: "فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة"، الجزء الخامس، ص ٥٣؛ وهي أقرب إلى الصواب من القراءات السابقة، وقد قرأ Arin "فها اد هذا"، انظر: Rousseau, G., et des autres : Op. Cit., p. 52.

الوجه الجنوبي: (١) (٢) (٣) (٤) (٥)

٤. تـزودت حـسن الظـن بـالله راحمـي	وزادي بحـسن الظـن فيـه كـثير
٥. ومـن كـان مثلـي عالمًـا بحنانـه[١]	فهـو[٢] بنيـل[٣] العفـو منـه جـدير
٦. وقـد جـاء ان الله قـال تفـضلا[٤]	الـى مـا يظـن العبـد بـي[٥]. سيـصير

وقد ذكر كل من الإفراني والناصري أن السلطان محمد بن عبد الله الغالب المعروف بالمسلوخ، عندما قرأ هذه الأبيات عاقب ناظمها وقال له : "إن قولك بحفرة دسيسة وتلويح إلى الحديث الكريم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، فهلا قلت ببلقع أو نحوه"[٦].

٣- شاهد قبر لالة مسعودة والدة السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩١م) (شكل ٤٢):

عبارة عن لوح من الرخام الأبيض مستطيل الشكل محاط به إطار من الخشب، ثبت بالجانب الغربي للدخلة العميقة التي تتوسط الجدار الشمالي لقاعة لالة مسعودة (لوحة ١٠٦)، يبلغ عرض هذا اللوح ٠.٦٤م وطوله ١.١٣م دهن سطحه بلون ذهبي لا يزال بحالة جيدة، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي زودت الفراغات التي بين حروفها بعلامات الإعراب، ويبلغ عدد سطورها ٢٤ سطرًا توجت بعقد من النوع المدبب الذي يشبه حدوة الفرس ذي حافة مفصصة يرتكز على عمودين زخرفيين، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر هذه الكتابات شريط مستطيل زين بزخرفة هندسية مجدولة، يؤطره من أعلى صف من شرافات مدرجة بداخلها زخارف نباتية دقيقة (لوحة ١٠٦)، وقد أورد المقري هذه الكتابات مع اختلاف يسير في الألفاظ، وذكر أنها من نثر الكاتب عبد العزيز الفشتالي وزير السلطان أحمد المنصور[٧]، ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم/ وصلى الله على سيدنا محمد

---

(١) وردت في نزهة الحادي "بجنانه" بدلاً من "بحنانه"، ص ٥٦.

(٢) وردت في نزهة الحادي "فذاك" بدلاً من "فهو"، ص ٥٦.

(٣) وردت في روضة الآس "لنيل" باللام بدل الباء، ص ١٥٤.

(٤) وردت في الاستقصا "ترحما" بدلاً من "تفضلا"، الجزء الخامس، ص ٥٣.

(٥) أشار الناظم بهذا إلى ما أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن الرسول (ﷺ)، قال: "قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرًا فله، وإن ظن شرًا فله". انظر، محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م، رقم الحديث ٤٣١٥، ص ٧٩٥.

(٦) الإفراني: نزهة الحادي، ص ص ٥٦ – ٥٧؛ الناصري: الاستقصا، الجزء الخامس، ص ٥٣.

(٧) المقري: روضة الآس، ص ١٥٥.

وآله/ وازواجه وذريته وصحبه وسلم وتسليما[١] قال رسول الله / صلى الله عليه وسلم كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة / ما خلا سببي ونسبي وكل بني انثى فان عصبتهم لابيهم[٢] ما خلا/ ولد فاطمة فاني انا ابوهم[٣] وعصبتهم هذا ضريح الحجاب العالي والحسب/ المتلالي الموفية[٤] على السماكين الفائزة وهي المسعودة بما اتيح لها/ من خير الدارين كريمة السببين وشريفة المنتمى بصالح القول والعمل إلى الاحمدين[٥] الطاهرة القانتة الناسكة الصالحة الغادية في سبل[٦] الخيرات الرايحة[٧] الصوامة القوامة العابدة[٨] التي لها من اسباغ الوضوء / الحجول[٩] والغرر التي لاهل الجنة علامة الأوابة الى الله بقلب / خاشع وعمل في سبيل البر والزلفى شائع والمتقربة اليه بحسن الآثار / التي منها الجسران[١٠] والمسجد الجامع[١١] ام الحسنات وكاشفة الكرب/ المزمنات[١٢] ثمال اليتامى وملاذ الارامل والايامى كافلة البنات / والبنين ووالدة امام الامة ومولانا الامام المنصور بالله امير المؤمنين / مولاتنا المسعودة بنت الشيخ الجليل الكبير الاصيل عين الاعيان / قبائل وزجيته[١٣] الذين لهم في المغرب الذكر

---

(١) سقطت هذه الكلمة من روضة الآس، ص ١٥٥.

(٢) وردت في روضة الآس "عصبته بابيه" بدلاً من "عصبتهم لابيهم"، ص ١٥٥.

(٣) وردت في روضة الآس "أبوه وعصبيته" بدلاً من "ابوهم وعصبتهم"، ص ١٥٥. وفي هذا إشارة إلى الحديث الذي رواه ابن عساكر عن ابن عمر أن الرسول (ﷺ)، قال: "كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري". انظر، محمد ناصر الدين الألباني: المرجع السابق، المجلد الثاني، رقم الحديث، ٤٦٤، ص ٨٣٦.

(٤) وردت في روضة الآس "المربية" بدلاً من الموفية، ص ١٥٥.

(٥) الاحمدين نسبة إلى أبيها الشيخ أحمد الورززاتي، وولدها السلطان أحمد المنصور.

(٦) وردت في روضة الآس "سبيل"بزيادة الياء، ص ١٥٥.

(٧) وردت في روضة الآس "الرائحة" بالهمزة بدلاً من الياء، ص ١٥٥؛ وقرأها دوكاستري "الدابحة" بدلاً من "الرايحة"، انظر: De Castries, H., : Op. Cit., p. 364.

(٨) وردت في روضة الآس "والعابدة" بزيادة الواو، ص ١٥٥.

(٩) وردت في روضة الآس "الحجل" بدلاً من "الحجول"، ص ١٥٥.

(١٠) المقصود بالجسرين، هما القنطرتان اللتان شيدتهما لالة مسعودة، إحداها على وادي أم الربيع بقصبة تادلا، والثانية على وادي إيسلي المحازي للسور الشرقي لمدينة مراكش. وانظر: Deverdun, G., : Op. Cit., Note 37, p. 133; Rousseau, G., : Note 6, p. 49.

(١١) المقصود المسجد الجامع، هو الجامع الذي شيدته لالة مسعودة بمدينة مراكش بالقرب من باب دكالة فيما بين (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م)، ويعرف حالياً بجامع باب دكالة وقد تم التعرض له بالدراسة الوصفية.

(١٢) وردت في روضة الآس "الكروب والأزمات" بدلاً من "الكرب المزمنات"، ص ١٥٥.

(١٣) وردت في روضة الآس "وزكيته" بالكاف بدلاً من الجيم، ص ١٥٥. مع الأخذ في الاعتبار أن حرف الكاف يقلب جيماً في لهجة بعض مناطق المغرب. انظر، عبد المنعم سيد عبد العال: لهجة شمال المغرب "تطوان"=

المشهور والصيت المذكور / الشيخ احمد بن عبد الله بن الحسن الوزجيتي[١] الاغزي[٢] الوارززاتي[٣] توفيت / قدس الله نفسها وطيب بانفاس المغفرة والرجى[٤] رمسها[٥] سحر ليلة / الثلاثاء السابع والعشرين من محرم فاتح عام الف للهجرة الكريمة / النبوية ودفنت بهذا البهو المقدس بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور فسبحان / الملك الحق المبين وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وصلى الله / اولا وآخرا على سيدنا ومولانا محمد وآله وازواجه وذريته / وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين".

٤- تركيبة لالة مسعودة والدة السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١م) **(شكل ٤٢)**.

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل (لوحة ١٠٦)، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٤٢م وطولها ٢.٠٢م وارتفاعها الكلي ٠.٣٩م، تشتمل على شريط كتابي واحد على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طوله ١.٨٩م وعرضه ٠.٠٨م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها:

الوجه الشمالي:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الذين قالوا ربنا الله
ثمَّ استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا
وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون.

= وما حولها"، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٨م، ص ٨٢. وقبائل وزجيته أو بني وزجيت، كانت معروفة منذ عصر الموحدين، وبحسب بعض الآراء كانت هناك منطقة بالسفح الجنوبي للأطلس تعرف بآيت وازجيت. انظر: Deverdun, G., Op. Cit., Note, p. 132, Rousseau, G., : Op. Cit., Note 9, p. 49.

(١) وردت في روضة الآس "الوزكيتي" بالكاف بدل الجيم، ص ١٥٥.

(٢) وردت في روضة الآس "الاغربي" بدلاً من "الاغزي"، ص ١٥٥؛ وقد ذكر Arin أن هذه الكلمة ربما تكون اسمًا لمنطقة بالمغرب، انظر: Rousseau, G., : Op. Cit., Note 10, p. 49 والواقع أن كلمة "الأغزي" تعني في اللهجة البربرية "المجاهد" وهي مشتقة من كلمة "الغازي" العربية Deverdun, G., Op. Cit., Note 27, p. 132.

(٣) وردت في روضة الآس "الوزتي"، ص ١٥٥. والوارززاتي أو الورززاتي نسبة إلى مدينة ورززات التي تقع جنوب الأطلس الكبير ولا تزال تحمل هذا الاسم حتى الآن. Deverdun, G., : Op. Cit., Note 28, p. 132.

(٤) وردت في روضة الآس "والرحمة" بدلاً من "والرجى"، ص ١٥٥.

(٥) وردت في روضة الآس "نفسها" بدلاً من "رمسها"، ص ١٥٥.

الوجه الجنوبي:

نحن اوليائكم في الحياة الدنيا وفي الاخرة ولكم فيها ما
تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعوة نزلا من غفور
رحيم[(١)] صدق الله العظيم.

٥- تركيبة عبد الله بن محمد الشيخ الأصغر (الثالث) بن زيدان بن أحمد المنصور (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيقمة لـة يعلوهـا هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٤م وطولها ٠.٧٤م وارتفاعها الكلي ٠.١٨م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الغربي والشرقي يبلغ طوله ٠.٦٧م وعرضه ٠.٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها:

الوجه الغربي:

هــذا ريــاض مــن جنــات الرضــوان حــف بــروح ربنــا والريحــان

الوجه الشرقي:

ضــريح مولانــا عبــد الله نجــل محمــد الــشيخي سـليل زيــدان

القاعة المستطيلة (شكل ٣٩/ ب) (الشكلان ٤٠/ أ، ٤٣):

تقع هذه القاعة إلى الجنوب من قبة لالة مسعودة كما سبقت الإشارة، ويلاحظ أن جدرانها الخارجية خالية تمامًا من الزخرفة (الشكلان ٤٠/ أ، ٤٣) (اللوحتان ١٠٣، ١٠٧) باستثناء جزئحي ,ها العلويث يزينه شريط ضيق من الجص زين بكتابات مكررة بالخط الكوفي نصها: "الملك لله"، يعلوه حشوة متسعة من الجص أيضًا تزينها زخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية ونصها لفظ الجلالة، يعلو ذلك إزار متسع من الخشب تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية"، ويتوج الجزء العلوي لهذه الواجهات رفرف خشبي مغطى بحطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر.

ويتوصل إلى هذه القاعة من خلال فتحة باب تتوسط جدارها الجنوبي، يبلغ اتساعها ٢.٢٧م وارتفاعها ٤.١٠م، سد جزؤها السفلي بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ٠.٩٨م، ويعلو فتحة الباب مساحة مستطيلة من الجص تزينها سبع حشوات مستطيلة توجت كل منها

---

(١) سورة فصلت، الآيتان ٣٠، ٣١.

بعقد على هيئة حدوة فرس ترتكز على أعمدة زخرفية من الجص، يلاحظ أن الحشوات الأولى والثالثة والخامسة والسابعة تزينها زخارف هندسية وهي أقل ارتفاعًا واتساعًا من الحشوات الثانية والرابعة والسادسة التي تزينها زخارف نباتية وهندسية وكتابات بالخط الثلث نصها لفظ الجلالة، ويؤطر هذه المساحة المستطيلة أربعة أشرطة مستطيلة من الجص تزينها كتابات مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية".

وتشغل هذه القاعة مساحة مستطيلة الشكل طولها من الشرق إلى الغرب ٩،٦٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٥،٦٢م فرشت أرضيته بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويغطيها سقف خشبي جمالوني الشكل تزينه زخارف هندسية ونباتية متنوعة دهنت بألوان متعددة (لوحة ١٠٨)، غطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٤٠/ أ) (لوحة ١٠٣)، ويلاحظ أن الجدار الشمالي لهذه القاعة يشتمل على ثلاثة مداخل (لوحة ٢٣٥)، أحدها وهو الأوسط أكثر اتساعًا وارتفاعًا من الجانبيين وهو يؤدي إلى قبة لالة مسعودة وقد سبق وصفه عند وصف هذه القاعة، أما الجانبيان فهما متشابهان تمامًا حيث يبلغ اتساع كل منهما ٢،٠٢م وارتفاعه ٢،٧٥م، وقد غشي الجزء السفلي لكل منهما بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ٠،٩٠م، المدخل الذي بالطرف الغربي لهذا الجدار يفتح على الرواق الغربي (ج)، والذي بطرفه الشرقي يفتح على الرواق الشرقي (د) (شكل ٣٩).

ويعلو المدخل الأوسط – كما سبقت الإشارة- عقد على هيئة حدوة فرس، زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات وزينت توشيحتاه – من جهة القاعة المستطيلة- بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويؤطره ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص تزينها كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص تزينها ثلاث حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، زينت الحشوتان الجانبيتان بكتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، بينما زينت الحشوة الوسطى بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر واجهة هذا المدخل والزخارف السابق وصفها، شريط مستطيل من الجص يبلغ اتساعه ٠،٣٤م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وملائكته وجميع خلقه على سيدنا ونبينا ومولانا محمد النبي المصطفى الأمين وعلى اله وازواجه وصحبه وسلم تسليمًا أعوذ" وعلى الشريط الأفقي: "بالله من الشيطان الرجيم إنما يريد الله" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا[1] صدق الله العظيم وبلغ رسوله المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم"،

---

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٣٣.

ويحيط بهذا الشريط السابق وصفه شريط آخر من الجص أكثر ضيقاً، وتزينه زخارف نباتية مكررة بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العز لله"، أما بالنسبة للمدخلين الجانبين فيتوج كل منهما عتب يؤطره شريط مستطيل من الجص تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية نصها آية الكرسي.

ويغطي الجزء السفلي للجدران الأربعة لهذه القاعة تكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١,٩٠م قسمت إلى ثلاثة اقسام زخرفية، السفلي يبلغ ارتفاعه ١,٦٤م تزينه زخارف هندسية متنوعة، والقسم الأوسط الاتفاعه ٠,١٨م تزينه كتابات الخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، أما القسم العلوي فارتفاعه ٠,٠٨م ويزينه صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، بالنسبة للكتابات التي تزين القسم الأوسط، يلاحظ أنها تبدأ بالطرف الشرقي للجدار الجنوبي، بما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وملائكته على سيدنا ونبينا ومولانا محمد النبي المصطفى الأمين وعلى آله وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم" وتستمر على الجدار الشرقي: "الدين أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده اجر عظيم[1] إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع" ونصها على الجدار الشمالي: "الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنت توعدون يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما" وتستمر على الجدار الغربي بما نصه: "بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[2] قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور" ونصها على الطرف الغربي للجدار الجنوبي: "الرحيم[3] إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون[4] إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك[5]"، ويعلو تكسية الزليج السابق وصفها شريط مستطيل من الجص يبلغ اتساعه ٠,٢٣م يدور على الجدران الأربعة لهذه القاعة، وتزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي يقوم على مهاد من زخارف

---

(١) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات من ١٠١، ١٠٧.

(٣) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٤) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٥) سورة المطففين، الآيات من ٢٢ – ٢٦.

نباتية، نصها آية الكرسي، يعلو ذلك مساحة متسعة خالية من الزخرفة، ويزين الجزء العلوي شريط ضيق من الجص تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "العافية الباقية، يعلو ذلك مساحة مستطيلة من الجص تزينها زخارف هندسية ونباتية متنوعة، يعلوها إزار عريض من الخشب يمتد أسفل السقف الخشبي السابق وصفه الذي يغطي هذه القاعة، يزينه صف من عقود مفصصة متجاورة تحصر بداخلها زخارف نباتية.

ويوجد بهذه القاعة مجموعة من التراكيب الرخامية الهرمية الشكل، يبلغ عددها ثمانية تراكيب، يلاحظ أن تركيبة واحدة فقط من بينها لا تشتمل على أية نقوش كتابية أو عناصر زخرفية، وسنعرض فيما يلي لوصف هذه التراكيب والنصوص الكتابية المنقوشة عليها وفقًا لترتيبها الزمني.

٦ - تركيبة الأمير أبو علي منصور بن السلطان محمد المهدي الشيخ (ت: ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض القاعدة ٠.٣٠م وطولها ١.٨١م وارتفاعها الكلي ٠.٢٤م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل وجه من الأوجه الأربعة يبلغ عرضه ٠.٠٦م وطوله على الوجهين الشمالي والجنوبي ١.٦٨م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: الحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وآله خير آل اعوذ بالله من الشيطان الرجيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام[١] هذا قبر الامير الاجل المقدس المنعم مولانا أبي علي منصور.

الوجه الشرقي: بن مولانا الامام.

الوجه الجنوبي:[أ] بي عبد الله محمد الشيخ امير المومنين قدس الله ملاحدهم اجمعين توفي رحمه الله ضحى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من المحرم فاتح عام سبعة وسبعين وتسعمائة وصلى الله اولا واخرا على سيدنا ومولانا.

الوجه الغربي: محمد وآله

(١) سورة الرحمن، الآيتان ٢٦، ٢٧.

٧- تركيبة والدة لالة صفية بنت السلطان أحمد المنصور (ت: ٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٤م وطولها ٠.٧٩م وارتفاعها الكلي ٠.١١م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الجنوبي والشمالي يبلغ طوله ٠.٧٢م وعرضه ٠.٠٤م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الجنوبي: هذا ضريح والدة الحرة الطاهرة لال (هكذا) صفية بنت السلطان قدس الله[1].

الوجه الشمالي: بدر السعود وتوفت رحمها الله في شهر رجب سنة تسعة[2] وتسعين وتسعمائة.

لم تحدد الكتابات المنقوشة على هذا التابوت اسم السلطان المذكور، لكن يتضح من خلال تاريخ (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) الوارد بهذه الكتابات أنه السلطان أحمد المنصور الذي حكم فيما بين (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م)، ويبدو من عدم وصف الكتابات هذه المرأة صاحبة التركيبة بزوجة السلطان، وإنما اكتفت بنعتها بـ "والدة الحرة" أنها كانت أمة ثمَّ أصبحت حرة بعد أن أنجبت للمنصور فصارت أم ولد[3].

٨- تركيبة فاطمة بنت أبي بكر بن محمد بن علي بن ساس (ت: ١٠٢٩ هـ / ١٦٢٠م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢٥م وطولها ١.٧٣م وارتفاعها الكلي ٠.٢٠ م تشتمل على شريط كتابي واحد بكل وجه من الأوجه الأربعة، يبلغ عرضه ٠.٠٧م وطوله على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي ١.٦٠م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم كل نفس ذائقة الموت هذا قبر الحرة الطاهرة الاصيلة الحسنية الماجدة فاطمة بنت المرحوم بكرم الله تعالى المعظم.

الوجه الشرقي: الجليل.

---

(١) هكذا في النص، وربما كانت قدسه الله.

(٢) هكذا في النص، وصحتها "تسع"

(3) Rousseau, G., et des autres : Op. Cit., Note 1, p. 62; Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 131.

الوجه الجنوبي: المنعم الشيخ ابي بكر بن محمد بن علي بن ساس[١] امراء المعقل[٢] قدس الله ثراهما وجعل الجنة لهما ولدت عام احد وسبعين بعد تسعمائة وتوفيت في ربيع الأول من عام تسعة[٣].

الوجه الغربي: وعشرين والف.

٩- تركيبة لالة فاطمة بنت السلطان عبد الله الغالب بالله (ت: ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢٣م وطولها ٢.١٢م وارتفاعها الكلي ٠.١٣م، وتشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طوله ١.٩٧م وعرضه ٠.٠٩م، نفذت الكتابات بطريقة الحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما هذا ضريح الحرة.

الوجه الجنوبي: الطاهرة لل (هكذا) فاطمة بنت مولانا امير المومنين المرحوم بكرم الله امين مولانا ابوا محمد عبد الله توفات[٤] رحمها الله في شهر جماد(ى) الاول عام احدى وثلاثين والف.

١٠- تركيبة لا تحمل اسم صاحبها ولا تاريخ وفاته (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل،

---

(١) ذكر الإفراني أن نصارى البرتغال أخلوا مدينة أزمور على إثر الغارات التي شنها عليهم السلطان أحمد الأعرج، فقام بعض المجاهدين بحراسة هذه المدينة حتى يتوافد عليها جموع المسلمين مخافة عودة البرتغاليين إليها، وقد كان من بينهم الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن ساس، الذي وصفه التادلي الصومعي بالشيخ الإمام الأوحد، فقد كان هذا الرجل من أكابر مشايخ الصوفية وأهل الخير والصلاح بمراكش، وتوفي سنة (٩٦١ هـ / ١٥٥٣م) بزاويته على ضفة نهر تانسيفت باحواز مراكش. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ١٩؛ الصومعي: المصدر السابق، ص ٢٦٩، ح١٨ من نفس الصفحة.

(٢) المعقل اسم لقبيلة عربية شهيرة صحبت بني هلال في مجيئها إلى المغرب، وبطونهم ذوو حسان وذوو منصور، وذوو عبيد الله وكانوا يستقرون في المنطقة الممتدة إلى وادي السوس ودرعة وسجلماسة، ويعد الشبانات الذين اغتالوا آخر سلاطين الدولة السعدية سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨م) وحولوا الملك إلى أسرتهم بزعامة كبيرهم عبد الكريم الشباني، فخذاً مهماً منهم. الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٥٨؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ١٠٨؛ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣) قراها Arin "ستة" بدلاً من "تسعة"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 63.

(٤) هكذا في النص، والصواب "توفيت".

يبلغ عرض قاعدتها ٠.٣٢م وطولها ١.٤٥م وارتفاعها الكلي ٠.٢١م، وتشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طوله ١.٢٥م وعرضه ٠.٠٥م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الارض من ذا الذي.

الوجه الجنوبي: يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم(١).

١١- تركيبة لا تحمل اسم صاحبها ولا تاريخ وفاته (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٣٤م وطولها ١.٨٥م وارتفاعها الكلي ٠.٢٩م، تشتمل على شريط كتابي بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ١.٦٧م وعرضه ٠.٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم الله لا اله الا هو الحي
القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات
وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده.

الوجه الجنوبي: إلا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات
والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم(٢).

١٢- تركيبة السلطان العلوي محمد بن عبد الله (ت: ١٢٠٤ هـ / ١٧٩٠م) (شكل ٤٢):

الرواقان الغربي والشرقي (شكل ٣٩/ ج، د) (اللوحتان ١٠٤، ١٠٩):

يلاحظ أنهما متشابهان تمامًا، حيث يطل كل منهما على الحوش المكشوف ببائكة مكونة من عمودين من الرخام الأبيض في الوسط، ودعامتين من الآجر مدمجتين في الأطراف، يبلغ ارتفاع كل عمود منها ٢.٥٠م، يرتكز على قاعدة مستديرة ارتفاعها ٠.١٠م ويعلوه تاج من الرخام أيضًا ارتفاعه ٠.٥٠م زين بزخارف نباتية متنوعة، ويرتكز عليها ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس ذات حواف مفصصة يلاحظ أن العقد الأوسط أكثر اتساعًا وارتفاعًا من العقدين

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

الجانبين، حيث يبلغ اتساعه ٢.١٦م وارتفاعه نحو ٧م وهو عقد خشبي زينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الخشب، وزين باطنه بحطات من مقرنصات خشبية ذات دلايات، بينما يبلغ اتساع فتحة كل عقد من العقدين الجانبيين ٠.٥٣م وارتفاعها ٢.٨٠م (شكل ٤٠/ أ) (اللوحتان ١٠٤، ١٠٩)، وقد زين باطن كل عقد منهما بحطات من مقرنصات جصية بينما زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة، ويعلو كل عقد حشوة مستطيلة مرتفعة من الجص تزينها زخرفة هندسية متكررة عبارة عن معينات متجاورة متصلة يحصر كل معين بداخله كلمة "يمن" كتبت بالخط الكوفي طردًا وعكسًا تقوم على مهاد من زخارف نباتية، ويتوج عقود هذه البائكة إزار متسع من الخشب تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على إزار الرواق الغربي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[١]"، ونصها على إزار الرواق الشرقي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد"[٢]، ويتوج واجهة كل رواق منهما رفرف خشبي يرتكز على كوابيل خشبية زخرفت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وحرمدانين من الخشب أيضًا زين سطح كل منهما بزخارف نباتية متنوعة وزين باطنه بحطات من مقرنصات خشبية، وقد غطي هذا الرفرف بحطات مائلة من القرميد المزجج باللون الأخضر (اللوحتان ١٠٤، ١٠٩).

ويشغل كل رواق منهما مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٤.٦٠م وعرضها من الشرق إلى الغرب ٢.٦٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويغطيها سقف خشبي مسطح تزينه زخارف هندسية متنوعة، يأخذ من الخارج شكلاً هرميًا غطي بالقرميد المزجج باللون الأخضر (شكل ٤٠/ أ) (لوحة ١٠٧)، ويوجد بالجدار الجنوبي لكل منهما – الذي يمثل الجدار الشمالي للقاعة المستطيلة – مدخل يؤدي إلى القاعة المستطيلة (شكل ٣٩/ ب)، وقد سبق وصفه عند وصف الجدار الشمالي لهذه القاعة، كما يوجد بالجدار الغربي للرواق الشرقي – والذي يمثل الجدار الشرقي لقاعة لالة مسعودة (شكل ٣٩/ أ) – مدخل يؤدي إلى قاعة لالة مسعودة سبق وصفه عند وصف الجدار الشمالي لهذه القاعة (لوحة ١٠٤)، ويغطي الجزء السفلي لجدران كل رواق من هذين الرواقين تكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١.٨٦م (لوحة ١٠٩)، مقسمة إلى ثلاثة أقسام زخرفية، السفلي ارتفاعه ١.٦٠م تزينه زخارف هندسية متنوعة، والأوسط عرضه ٠.١٨م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، أما القسم العلوي فعرضه ٠.٠٨م يزينه صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، بالنسبة للكتابات التي تزين القسم الأوسط للرواق

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) سورة هود، من الآية ٧٣.

الغربي فيبدأ نصها من الطرف الغربي للجدار الجنوبي بما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم آمن الرسول بما انزل إله من" وتستمر على الجدار الشرقي بما نصه: "ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا" ونصها على الجدار الشمالي: "اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"[(١)]، أما بالنسبة لنص هذه الكتابات بالرواق الشرقي فيبدأ من الطرف الشرقي للجدار الشمالي: "بسم الله الرحمن الرحيم آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت" ثمَّ يتوقف النص نظرًا لوجود المدخل الذي يتوسط هذا الجدار الشمالي، ويستمر بعده بما نصه: "وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او" يلاحظ بعد ذلك سقوط بلاطات الزليج التي نفذت عليها هذه الكتابات، ويعلو تكسية الزليج السابق وصفها على جدران كل من هذين الرواقين، شريط مستطيل من الجص يبلغ عرضه ٠.٢٠م تزينه كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها آية الكرسي[(٢)]، ويتوسط الجدار الشرقي للرواق الغربي بأعلى هذا الشريط (لوحة ١٠٩) حشوة مستطيلة من الجص توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، وقد زينت هذه الحشوة بزخارف نباتية، متنوعة وبجزئها السفلي جامة مستديرة تحصر بداخلها كتابات بالخط الثلث، نصها: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"[(٣)]، ويعلو هذه الحشوة مساحة مستطيلة من الجص تزينها ثلاث حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشاتها بزخارف نباتية دقيقة، كما زينت هذه الحشوات بزخارف نباتية أيضًا، ويمتد على جدران كل من هذين الرواقين أسفل السقف الخشبي السابق وصفه، إزار متسع من الخشب يزينه صف من عقود مفصصة متجاورة يحصر كل منها بداخله كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

ويوجد بالرواق الشرقي (شكل ٣٩/ د) أربعة تراكيب هرمية الشكل من الرخام الأبيض، يلاحظ أن ثلاثة منها لا تشتمل على نقوش كتابية أو اية عناصر زخرفية أخرى، بينما زينت التركيبة الرابعة بكتابات تقوم على مهاد من زخارف نباتية.

---

(١) سورة البقرة، الأيتان ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(٣) سورة الزمر، من الآية ٩.

١٣- تركيبة زهرة بنت عبد الصادق زوجة أحد أبناء السلطان أحمد المنصور (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٦م وطولها ٠.٨٧م وارتفاعها الكلي ٠.١١م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الجنوبي والشمالي، يبلغ طوله ٠.٨٤م وعرضه ٠.٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب، ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الجنوبي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن
الرحيم هذا قبر الحرة زهرة بنت ملوك بن عبد
الصادق[1] بن عد(ي)[2] زوجة مولانا.

الوجه الشمالي: الحسن[3] بن مولانا امير المؤمنين ابي العباس المنصور
توفيت رحمها الله في ليلة الجمعة ليلة خمسة ايام
من جماد(ى) الاخير[4].

ثانياً: المبنى الغربي لقبور السعديين (شكل ٣٩/ هـ، و، ز):

سبقت الإشارة إلى أن هذا المبنى يشتمل على ثلاث قاعات تتصل ببعضها، وهو يشغل مساحةً مستطيلةً تبلغ نحو ٣٠٠م^2، ويبلغ ارتفاع واجهاته ١٢م تقريبًا.

الوصف الخارجي:

---

(١) أشار الإفراني في سياق حديثه عن قواد السلطان عبد الله الغالب (ت: ٩٨١ هـ / ١٥٧٣م)، أنه كان من بينهم شخص يدعى عبد الصادق بن ملوك، كما أشار إلى مؤمن بن ملوك أحد قواد السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م). انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٤٧، ١٧٨، ١٨٣ . فربما كانت هناك صلة بين زهرة بنت ملوك صاحبة هذه التركيبة وبين هذين القائدين، حيث يمكن أن تكون بنت الأول وأخت الثاني، أو أختًا لكليهما.

(٢) وردت في النص "عد" ويبدو أن الصواب "عدى"، انظر: Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 135.

(٣) في سياق حديث الفشتالي عن أبناء السلطان أحمد المنصور، ذكر أن من بينهم أربعة كبار مرشحين للملك منهم أبو الحسن علي. الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٧. فربما كان هو المشار إليه في هذه الكتابات، وسقطت كلمة "ابو" من يد النقاش، الذي يبدو أنه اكتفى بذكر الكنية فقط نظرًا لصغر حجم هذه التركيبة وضيق المساحة المخصصة لنقش الكتابات عليها.

(٤) لم يذكر في هذه الكتابات سنة الوفاة، ولكن يبدو أن صاحبة هذه التركيبة توفيت أثناء فترة حكم السلطان أحمد المنصور التي امتدت فيما بين (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م)، حيث لم تنعته الكتابات بالمرحوم أو ما يدل على أنه متوفى، وقد ذكر بعض الباحثين أن الخامس من جمادي الثاني لم يوافق يوم جمعة خلال فترة حكم أحمد المنصور إلا في السنوات التالية (٩٨٩ – ٩٩٧، - ١٠٠٥ – ١٠٠٧ هـ)، وقد رجح أن يكون عام (١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩م) هو تاريخ وفاة هذه المراة. انظر: Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 135.

الواجهة الغربية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٢٥م، يلاحظ أن قطاعها الشمالي قد حجبه المسجد الصغير الذي شيد إلى جوار هذه الواجهة، ويبلغ طول الجزء المكشوف منها حاليًا ١٧م وهو لا يسير في استقامة واحدة، إذ يبدأ من الطرف الشمالي باستقامة قدرها ٧م ثمَّ تنكسر هذه الاستقامة فتبرز بمقدار ٢م، ثمَّ تمتد في استقامتها إلى نهايتها في الاتجاه الجنوبي لمسافة قدرها ١٠م، وهي تمثل الواجهة الغربية لقاعة المحراب، ويشتمل جزؤها العلوي على ثلاث نوافذ مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، ويتوج هذه الواجهة كغيرها من واجهات هذا المبنى صف من شرافات مدرجة.

الواجهة الجنوبية:

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ١٢،٥٠م، وهي تمتد في استقامة واحدة باستثناء حنية المحراب التي تبرز عن سمت هذه الواجهة من الخارج بمقدار ٠،٧٠م، ويفصل بين هذه الواجهة والسور الخارجي للمقبرة دهليز مستطيل يبلغ اتساعه ٠،٩٠م كما سبقت الإشارة.

الواجهة الشرقية (لوحة ١١٠):

يبلغ طول هذه الواجهة نحو ٢٥م، ويلاحظ أنها تمتد في استقامة واحدة وتشتمل على فتحتي بابين، إحداهما تؤدي إلى قاعة المحراب والأخرى توصل إلى القاعة ذات الاثني عشر عمودًا (لوحة ٢٤١)، كما تشتمل على خمس نوافذ مستطيلة توجت إحداها بعقد مدبب.

مدخل قاعة المحراب :

يبلغ اتساع فتحته ١،٩٠م وارتفاعها ٣م، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب، يغلق عليها باب خشبي من مصراعين تزينهما زخارف هندسية متنوعة، ويفتح في الجزء السفلي لكل مصراع خوخة مستطيلة يبلغ ارتفاعها ١،٣٥م وعرضها ٠،٧٥م، ويؤطر كل مصراع أربعة أشرطة مزينة – كما سبقت الإشارة- بكتابات بالخط الثلث تآكلت بعض حروفها، نصها: "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا الإمام أبي العباس أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين ابن امير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيده الله"، وقد زين ظهر الباب بزخارف هندسية أيضًا تشبه مثيلاتها التي على الوجه تمامًا، ويؤطر كل مصراع أربعة أشرطة مستطيلة تزينها كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "العافية الباقية"، وتفضي فتحة الباب السابق وصفها إلى دركاة.

مدخل قاعة الاثني عشر عمودًا:

يبلغ اتساع فتحته[1]م وارتفاعها ٢،٢٥م توجت بعتب خشبي مسطح يبلغ عرضه ٠،١٣م

(١) ذكر بعض الباحثين أن المبنى الغربي لقبور السعديين ربما كان لا يشتمل إلا على مدخل واحد هو الذي=

تزينه كتابات مكررة بالخط الكوفي نصها: "العافية الباقية"، ويوصل هذا المدخل إلى دركاة.

الواجهة الشمالية:

يبلغ طول هذه الواجهة ١٢,٥٠م، وهي تلاصق الواجهة الجنوبية لجامع المنصور الموحدي.

الوصف الداخلي:

الدركاتان:

وضح من وصف الواجهات الخارجية للمبنى الغربي لقبور السعديين، أن واجهته الشرقية تشتمل على مدخلين أحدهما يؤدي إلى قاعة المحراب والآخر يوصل إلى قاعة الاثني عشر عموداً، يلي كل منهما دركاة. بالنسبة لدركاة المدخل الأول يلاحظ أنها تشغل مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ٢,٢٥م وعرضها من الشرق إلى الغرب ١,٢٠م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويغطيها سقف خشبي مسطح، وقد غشي الجزء السفلي لهذه الدركاة بحجاب من خشب الخرط يبلغ ارتفاعه ٠,٩٥م، وتوصل هذه الدركاة إلى قاعة المحراب.

أما الدركاة الثانية، فهي مستطيلة الشكل أيضًا يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٢,٧٧م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية ويغطيها سقف خشبي مستوٍ زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة، ويوجد على يمين ويسار الداخل بهذه الدركاة دخلة يبلغ عمقها ٠,٥٠م، وتنتهي هذه الدركاة بفتحة بكامل اتساعها يبلغ ارتفاعها ٢,٢٥م غشي جزؤها السفلي بحجاب من خشب الخرط ارتفاعه ٠,٥٠م، وهي تؤدي إلى القاعة ذات الاثني عشر عموداً.

قاعة المحراب (شكل ٣٩/ هـ):

تشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١٣,١٥م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٨,٥٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية (لوحة ١١١)، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية في المساحة، القسم الذي يتقدم المحراب يبلغ اتساعه ٢,٢٠م والأوسط اتساعه ٢,٠٩م بينما يبلغ اتساع القسم الثالث ٢,٣٨م، وذلك بواسطة بائكتين تتكون كل منهما من عمودين مستديرين من الرخام الأبيض في الوسط، ودعامتين مدمجتين في الأطراف، يبلغ ارتفاع كل عمود منها ٣م يرتكز على قاعدة مستديرة الشكل ارتفاعها ٠,٢٥م ويعلوه تاج من الرخام الأبيض ارتفاعه ٠,٥٥م زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، يرتكز عليها ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب عمودية على جدار القبلة وثلاثة

= يؤدي إلى قاعة المحراب بينما يرجح أن مدخل قاعة الاثني عشر عموداً كان نافذة ثمَّ تحولت بعد ذلك إلى فتحة باب، غير أن الشكل المعماري لهذا المدخل لا يؤكد ذلك. انظر:

Deverdun, G.,: L'Age des Tombeaux Saadiens, Note 5, p. 560.

عقود أخرى موازية لهذا الجدار (لوحة ١١١)، ويلاحظ أن هذا التخطيط قسم سقف قاعة المحراب إلى تسع مساحات مستطيلة (شكل ٦٥)، المساحة التي تتقدم المحراب غطيت بقبة زين باطنها بزخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص بألوان متعددة، وتأخذ من الخارج هيئةً هرمية الشكل غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، أما المساحة التي تتقدم المدخل الذي يتوسط الجدار الشمالي لهذه القاعة ويصل بينها وبين القاعة ذات الاثني عشر عمودًا، فيتوج جدرانها صف من كوابيل خشبية زينت المساحات المحصورة بينها بزخارف نباتية دقيقة وقد كانت هذه المساحة مكشوفة لكنها غطيت حديثًا بسقف خشبي عبارة عن شخشيخة فتح في جوانبها عدة نوافذ غشيت بالزجاج يسمح بدخول الضوء إلى هذه القاعة، بينما غطيت كل مساحة من المساحات السبع الأخرى بسقف خشبي جمالوني الشكل زين باطنه بزخارف هندسية نفذت بطريق الحفر ودهنت بألوان متعددة (لوحة ١١٢) (شكل ٤١).

المحراب (لوحة ١١٣):

يتوسط الجدار الجنوبي لهذه القاعة، وهو عبارة عن حنية ذات خمسة أضلاع يبلغ اتساعها ١.٥٠م وعمقها ١.٨٣م وارتفاعها ٣.٥٠م، يكتنفها من الجانبين في الداخل أربعة أعمدة مستديرة من الرخام المجزع باللونين الأبيض والأحمر، عمودان بكل جانب ارتفاع كل منها ١.٧٠م يرتكز على قاعدة مستديرة ارتفاعها ٠.١٣م ويعلوه تاج من الرخام الأبيض ارتفاعه ٠.٤٠م زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، ويتوج حنية المحراب عقد على هيئة حدوة فرس مدبب مكون من صنجات زخرفية متجاورة من الجص تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية نفذت على الجص، ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة من الجص أيضًا اتساع كل منها ٠.٢٣م تزينها كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد" وعلى الشريط الأفقي: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"[1] (لوحة ١١٣)، ويعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة من الجص زينت بخمس حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، وترتكز هذه العقود على أعمدة زخرفية من الجص، وزينت كوشاتها بزخارف نباتية دقيقة، كما زينت هذه الحشوات بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر واجهة المحراب ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٢٩م زينت بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة تزينها زخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص (لوحة١١٣)، يعلو ذلك القبة السابق وصفها التي تغطي المساحة التي تتقدم المحراب، أما حنية المحراب من الداخل فهي خالية من الزخرفة ويغطيها

---

(١) سورة النور، الآيتان ٣٦ — ٣٧.

قبة مخروطية الشكل زين باطنها بحطات من مقرنصات جصية. ويوجد على يمين ويسار حنية المحراب أربعة أعمدة من الرخام اثنان بكل جانب، تشبه الأعمدة الأربعة السابق وصفها التي تكتنف حنية المحراب (لوحة ١١٣)، ويحصر كل عمودين من هذه الأعمدة الأربعة مساحة مستطيلة يبلغ اتساعها ٠.٧٠م وارتفاعها ٢.١٠م تزينها زخرفة هندسية متكررة على هيئة معينات متجاورة متصلة نفذت على الجص.

أما الجداران الغربي والشرقي لقاعة المحراب فتمتشابهان تمامًا، حيث يلاحظ أنهما خاليان من الزخرفة ويوجد بالجزء العلوي لكل منهما ثلاث نوافذ مستطيلة سبق وصفها عند الوصف الخارجي للواجهتين الغربية والشرقية للمبنى الغربي.

وأما الجدار الشمالي لقاعة المحراب، فيتوسطه مدخل يؤدي إلى القاعة ذات الاثني عشر عمودًا، يبلغ اتساع فتحته ٢.٣٠م وارتفاعها ٣.٨٠م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة محاط بعقد آخر زخرفي على هيئة حدوة فرس أيضا، وقد زين باطنه بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص، ويؤطر هذا العقد ثلاثة أشرطة من الجص تشبه في أبعادها والكتابات المنفذة عليها مثيلاتها السابق وصفها التي تؤطر العقد المتوج لحنية المحراب، ويعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة تزينها ثلاث حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير زينت كوشتاه بزخارف نباتية، وتحصر كل حشوة بداخلها زخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلو ذلك مساحة مستطيلة تزينها زخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص ويشتمل جزؤها السفلي على كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، ويؤطر واجهة هذا المدخل والزخارف السابق وصفها ثلاثة أشرطة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٢م تزينها كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر"، وعلى الشريط الأفقي: "ذلك هو الفوز العظيم يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرًا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة"[1]، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة تزينها زخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص، يعلو ذلك صف من الكوابيل الخشبية التي تتوج – كما سبقت الإشارة- جدران المساحة التي تتقدم هذا المدخل، والتي كانت مكشوفة ثمَّ غطيت بشخشيخة خشبية حديثة.

(١) سورة التوبة، الآيات من ٧٢ – ٧٤.

ويوجد بهذه القاعة ثمانية من التراكيب الرخامية الهرمية الشكل، سبعة منه تشتمل على نقوش كتابية وعناصر زخرفية نباتية، ويخلو واحد فقط من هذه الكتابات والعناصر الزخرفية، ويتضح من خلال النصوص الكتابية المنقوشة على هذه التراكيب أنها تخص شخصيات من أسرة الأشراف العلويين، مما يشير إلى أن قاعة المحراب هذه لم تكن تستخدم لغرض الدفن في العهد السعدي، بعد أن شيدها أحمد المنصور الذهبي، وسنعرض فيما يلي لهذه التراكيب الرخامية السبعة وفقاً لترتيبها الزمني.

١٤) تركيبة الزهراء زوجة السلطان محمد بن عبد الله العلوي (١١٧٠ هـ / ١٧٥٧م) (شكل ٤٢).

١٥) تركيبة سليمان بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١١٧٩ هـ/ ١٧٦٦م) (شكل ٤٢).

١٦) تركيبة عبد الله بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١١٧٩ هـ / ١٧٦٦م) (شكل ٤٢).

١٧) تركيبة ست الملك بنت السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١١٧٩ هـ / ١٧٦٦م) (شكل ٤٢).

١٨) تركيبة عبد المالك بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧م) (شكل ٤٢).

١٩) تركيبة جعفر بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١١٨٤ هـ / ١٧٧١م) (شكل ٤٢).

٢٠) تركيبة إبراهيم بن السلطان هشام بن محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٣م) (شكل ٤٢).

قاعة الاثني عشر عموداً (شكل ٣٩/ و):

تقع هذه القاعة إلى الشمال من قاعة المحراب، وتتصلان ببعضهما من خلال مدخل يتوسط الجدار الشمالي لقاعة المحراب (لوحة ١١٤) الذي يمثل الجدار الجنوبي لقاعة الاثني عشر عموداً (شكل ٣٩/ هـ، و)، كما يتوصل إلى هذه القاعة من خلال فتحة باب بجدارها الشرقي سبق وصفها عند وصف الواجهة الشرقية للمبنى الغربي وتشغل هذه القاعة مساحة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ٩،٨٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية، ويتوسط هذه القاعة اثني عشر عموداً من الرخام الأبيض ثلاثة في كل جانب (شكل ٣٩/ و)، لذا فقد أثر ذلك على أسلوب تغطية هذه القاعة التي قسم سقفها إلى تسعة أقسام (شكل ٤١)، خمسة منها مربعة المسقط وهي التي في الوسط والأركان الأربعة، وأربعة أقسام مستطيلة المسقط تحيط بالجوانب الأربعة للقسم الأوسط وتقع بين الأقسام المربعة التي في الأركان الأربعة (شكل ٤١)، وقد غطي القسم الأوسط بسقف خشبي مربع المسقط

هرمي الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة (لوحة ١١٥)، وغطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (لوحة ١١٠)، كما غطي كل قسم من الأقسام المربعة الركنية بسقف مربع المسقط هرمي الشكل زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة، غطي من الخارج بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر، بينما غطي كل قسم من الأقسام الأربعة المستطيلة بسقف خشبي مسطح زين باطنه بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة (لوحة ١١٦)، ويأخذ من الخارج شكل هرمي غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر.

أما بالنسبة للأعمدة الرخامية الاثني عشر السابق ذكرها، فيبلغ ارتفاع كل منها ٢.٤٨م يرتكز على قاعدة مستديرة ارتفاعها ٠.٢٣م ويعلوه تاج من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعه ٠.٥٥م زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة، وقد قسمت هذه الأعمدة مساحة القاعة إلى مساحة مربعة في الوسط يبلغ طول ضلعها ٥م، محاطة في كل جانب من جوانبها الأربعة برواق مستطيل يبلغ عرضه ١.٨٥م، يطل كل رواق منها على المساحة الوسطى ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة زين باطن كل منها بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، يلاحظ أن العقد الأوسط أكثرها اتساعًا وارتفاعًا حيث يبلغ اتساعه ٢.٤٠م وارتفاعه نحو ٥.٥٠م، بينما يبلغ اتساع كل عقد من العقدين الجانبيين ٠.٧٨م وارتفاعه ٤.٢٠م، يزين كوشتي العقد الأوسط زخارف نباتية وهندسية دقيقة نفذت على الجص، أما العقدان الجانبيان فيلعو كل منهما حشوة مستطيلة مرتفعة مزينة بزخرفة هندسية متكررة على هيئة معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، ويعلو هذه العقود بكل بائكة إزار من الخشب تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، يبدأ نصها من الطرف الشرقي للبائكة الشمالية (لوحة ١١٧): "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله" ونصها على إزار البائكة الغربية: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما" وتستمر الكتابات على إزار البائكة الجنوبية: "وينصرك الله نصرا عزيزا هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله"، ونصها على إزار البائكة الشرقية: "عليما حكيما ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما"[1]، يعلو ذلك إزار من الخشب أيضًا زين بصف من عقود مفصصة متجاورة يحصر بعضها بداخله زخارف نباتية وبعضها الآخر

(١) سورة الفتح الآيات من ١- ٥.

كتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه الذي يغطي المساحة الوسطى (لوحة ١١٥).

ويغطي الجزء السفلي للجدران الأربعة لهذه القاعة تكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١.٩٧م من مستوى أرضية القاعة، قسمت إلى ثلاثة أقسام زخرفية، السفلي ارتفاعه ١.٦٧م تزينه تشكيلات هندسية متنوعة، أما الأوسط فارتفاعه ٠.٢٠م قوام زخرفته كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، بينما يبلغ ارتفاع القسم الثالث ٠.١٠م ويزينه صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، بالنسبة للكتابات المنقوشة على القسم الأوسط، فتبدأ من على يمين المدخل الذي يتوسط الجدار الجنوبي لهذه القاعة، بما نصه: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم" ونصها على الجدار الشرقي: "القرح للذين أحسنوا واتقوا منهم أجر عظيم[1] ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين في[2]" يلاحظ سقوط بعض بلاطات الزليج التي نفذت عليها الكتابات، ونصها على الجدار الشرقي: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار...... ظلا ظليلا[3] والذين آمنوا" ونصها على الجدار الشمالي: "وعملوا الصالحات سيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا[4] وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم[5] فأثابهم بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها" وتستمر هذه الكتابات على الجدار الغربي بما نصه: "وذلك جزاء المحسنين[6] قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم[7] والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا و" وتستمر هذه الكتابات على الجدار الجنوبي على يسار المدخل الذي يتوسط الجدار، بما نصه: "ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٧١، ١٧٢.

(٢) سورة النساء، من الآية ١٣.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٧.

(٤) سورة النساء، الآية ١٢٢.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٩.

(٦) سورة المائدة، من الآية ٨٥.

(٧) سورة المائدة، الآية ١١٩.

كنتم تعملون[١]صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ونحن على ذلك من الشاهدين".

ويعلو تكسية الزليج السابق وصفها شريط مستطيل من الجص يدور على الجدران الأربعة لهذه القاعة، يبلغ اتساعه ٠,٥٠م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، تبدأ من على يمين المدخل الذي يتوسط الجدار الجنوبي، بما نصه: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في" وعلى الجدار الشرقي نصها: "جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم[٢]إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب[٣]إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا[٤]إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون" ونصها على الجدار الغربي: "حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون[٥]وأما الذين آمنوا وعملوا" "ولا غالب إلا الله" "الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون[٦]يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله" ويستمر النص على الجدار الجنوبي على يسار المدخل الذي يتوسط هذا الجدار: "فضلا كبيرا[٧]إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[٨]والحمد لله رب العالمين"، ويغطي الجدران الأربعة أعلى الشريط الجصي السابق وصفه زخارف نباتية وهندسية متنوعة نفذت على الجص، يعلوها إزار من الخشب يمتد أسفل السقف مباشرة تزينه عقود مفصصة متجاورة تحصر بداخلها زخارف نباتية وكتابات بالخط الكوفي، نصها: "الحمد لله"، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه (لوحة ١١٦).

ويوجد بالجزء العلوي لكل من الجدارين الغربي والشرقي لهذه القاعة ثلاثة نوافذ مستطيلة توجت كل منها بعقد نصف مستدير، وغشيت بالجص المفرغ في تشكيلات هندسية،

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٧٢.

(٣) سورة الكهف، الآيتان ٣٠، ٣١.

(٤) سورة الكهف، الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآيات من ١٠١- ١٠٣.

(٦) سورة السجدة الآية ١٩.

(٧) سورة الأحزاب، الآيات من ٤٥ – ٤٧.

(٨) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

أما الجدار الشمالي للقاعة فيشتمل على مدخلين أحدهما بالطرف الغربي والآخر بالطرف الشرقي لهذا الجدار، وهما متشابهان تمامًا ويفضيان إلى القاعة ذات الثلاث دخلات (شكل ٣٩/ و، ز)، يبلغ اتساع كل منهما ١.٩٢م وارتفاعه ٣.٨٠م وتوج كل منهما بعقد على هيئة حدوة فرس مدبب زين باطنه بحطات جصية ذات دلايات، وزينت توشيحتاه بزخارف نباتية دقيقة نفذت على الجص، ويكتنف جانبي كل مدخل منهما تكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ٢م من مستوى أرضية القاعة، قسمت إلى ثلاثة أقسام زخرفية، السفلي يبلغ ارتفاعه ١٠٨٣م تزينه تشكيلات هندسية متنوعة أما القسم الأوسط فارتفاعه ٠.١٣م وتزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، وأما القسم الثالث فيبلغ ارتفاعه ٠.٠٥م زين بصف من شرفات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، أما بالنسبة للكتابات التي تزين القسم الأوسط فيلاحظ سقوط بلاطات الزليج التي نفذت عليها الكتابات بمدخل الطرف الشرقي لهذا الجدار، بينما نصها على يمين الداخل من مدخل الطرف الغربي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا" ونصها على يسار الداخل: "وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم"[1].

ويوجد بهذه القاعة مجموعة من التراكيب الرخامية الهرمية الشكل، يبلغ عددها تسع عشرة تركيبة زينت جميعها باستثناء تركيبة واحدة فقط بالنقوش الكتابية والزخارف النباتية (لوحة ١١٨)، كما يوجد بهذه القاعة شاهد قبر من الرخام خاص بمحمد المهدي الشيخ كان يوجد في الأصل بالقرب من التركيبة التي تعلو قبره بقاعة لالة مسعودة[2] (شكل ٤٣/ ١)، وتوجد أيضًا تركيبة مستطيلة من الجص غطيت بتربيعات من الزليج تشير الكتابات المنقوشة عليها إلى أنها ترجع للعصر العلوي، وسنعرض فيما يلي لوصف هذه التراكيب وشاهد القبر والنصوص الكتابية المنقوشة عليها وفقًا لترتيبها الزمني.

٢١- شاهد قبر السلطان محمد المهدي الشيخ (ت: ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧م) (شكل ٤٢):

عبارة عن لوح من الرخام الأبيض مستطيل الشكل ثبت – بعد نقله من قاعة لالة مسعودة كما سبقت الإشارة- على الجدار الغربي للقاعة ذات الاثني عشر عمودًا بارتفاع

(١) سورة يونس، الآيات من٦٢- ٦٤.

(٢) ذكر المقري أنه رأى هذا الشاهد تجاه قبر السلطان محمد المهدي الموجود بالقاعة التي تعرف حاليًا بقبة لالة مسعودة، وقام بنقل الكتابات المنقوشة عليه، انظر، المقري: روضة الآس، ص ١٥١. وعند افتتاح هذه المقبرة لأول مرة ١٩١٧م وجد Tranchant de Lunel الشاهد ملقى على الأرض بالركن الجنوبي الغربي للقاعة ذات الاثني عشر عمودًا، فقام بتثبيته في مكانه الحالي على الجدار الغربي لهذه القاعة، انظر: De Castries, H.,: Op. Cit., pp. 345, 361

٠,٤٠م من أرضية هذه القاعة، وهو محاط بإطار من الخشب يبلغ عرضهما معًا ٠,٧٥م وارتفاعهما ١,٤٣م، بينما يبلغ عرض هذا الشاهد ٠,٤٧م وارتفاعه ١,٠٧م، نفذت عليه الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب، ويبلغ عدد سطور هذه الكتابات ٣٢ سطرًا، يتصل بنهايات حروفها عناصر نباتية بسيطة، ويتوج هذه الكتابات عقد على هيئة حدوة فرس مدبب ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطر الكتابات شريط ضيق تزينه زخارف هندسية متشابكة، وبأعلى الشريط العلوي شريط آخر أكثر اتساعًا يزينه صف من شرافات مدرجة، وقد أورد المقري هذه الكتابات مع اختلاف يسير في الألفاظ، وذكر أنها من نثر الكاتب عبد العزيز الفشتالي وزير السلطان أحمد المنصور[١]، ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم / صلى الله على سيدنا محمد/ وآله[٢] أعوذ بالله من الشيطان الرجيم رحمة الله / وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد إنما يريد الله / ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا هذا/ ضريح مولانا الامام كهف الانام ناصر الاسلام مذل عبدة الاصنام الضارب/ في ذات الله بالسنان والحسام أبي الأملاك وواسطة الأسلاك وقمر[٣]/ الأحلاك وارث الخلافة وجذم الإمامة ومهدي الامة الواضح العلامة ذخيرة / الوجود وسر النبا المقصود مولانا الامام الاعظم وطود الهداية الاعصم ابي عبد الله محمد / الشيخ الذي اختاره الله لارشاد الامه واعتامه وارتضاه لتجديد شريعة جده عليه / السلام فاقامه على حين ما انهدت اعلام الدين واركانه وزلزل عرش الاسلام و/ ايوانه والكفر قد طغى طوفانه وبغى على حزب الله بحزب شيطانه وسيف الشريعة / مفلول وصارم الباطل على الحق مسلول وامام الحق عند الخلق مجهول/ وربوع الخلافة في اقطار الارضين بلاقع وطلول فقام رضي الله عنه وقد ارهف / سيف اجتهاده واستوى على جودي جهاده فصدع بامر الله الذي جعله لوقاية الاسلام / عصاما ولشمل الامة نظاما ولحماية السنة الى يوم الدين" ملاكا وقواما[٤]" وصابر[٥]رضي الله / عنه الاهوال واحتسب النفس الزكية في تطهير الارض من الضلال وحسم داء الشرك العضال/ فجاهد وغزى واستأصل بسيف الحق من مرق من الدين وانتزى وانتمى إلى غير الحنيفية البيضاء/ واغتزى[٦]حتى ازاح عن الدين العلة واعاد كمالها الفائت على الملة ملا [٧]الأرض عدلا/ وطهرها من ادناس الجور والاثام حزنا وسهلا وسارت

---

(١) المقري: المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢) ورد في روضة الآس "سيدنا ومولانا محمد وعلى آله" بدلاً من "سيدنا محمد وآله"، ص ١٥٢.

(٣) وردت في روضة الآس "ونور" بدلاً من "وقمر"، ص ١٥٢.

(٤) هاتان الكلمتان سقطتا في روضة الآس، ص ١٥٢.

(٥) وردت في روضة الآس "وكابر" بدلاً من "وصابر"، ص ١٥٢.

(٦) وردت في روضة الآس "واعتزى" بدلاً من "واغتزى"، ص ١٥٢.

(٧) وردت في روضة الآس "وملأ" بإضافة الواو، ص ١٥٢.

الهداية في الدنيا مسير الشمس و/ استقر الاسلام على قواعده الخمس ولما استنار به المسلك والجادة واستضاء / بانوار هدايته من قدرت له من الامم السعادة تشوق الى لقاء ربه واسترده[١] اليه سبحانه/ من باب الشهادة واعد له المغفرة والرحمى قراه وزاده واتاح[٢] له من صنعه الجميل/ بدار النعيم الحسنى والزيادة[٣] وكان مولده رضي الله عنه في عام ستة وتسعين/ وثمانمائة وبويع البيعة العامة من بعد التئام كلمة الاسلام وتطهير الارضين/ من ادران الحيف والاثام عام ستة وخمسين وتسعمائة بفاس المحروسة دار الملك[٤]/ المريني ومجمع اولي الحل والعقد حينئذ بالقطر المغربي وقضى رضي الله عنه شهيدا / بفسطاطه الكريم وملحده الأول باجلجال لزوال يوم الاربعاء السابع والعشرين من ذي حجة/ الحرام خاتم اربعة وستين ثمَّ نقل من مدفنه المقدس الى لحده المكرم بالروضة المشرفة قبلة المسجد[٥]/ من قصبتهم المحروسة بالحضرة العلية يوم الخميس الحادي وعشرين/ من يوم استشهاده تاسع/ عشر المحرم الحرام فاتح خمسة وستين وتسعمائة فسبحان الله الملك[٦] الحق المبين وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين".

٢٢- تركيبة عبد الإله بن السلطان محمد المهدي الشيخ (ت: ٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ هـ - ١٥٦٥م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٣٥م وطولها ٠.٨٥م وارتفاعها الكلي ٠.٢٥م، تشتمل على شريطين كتابيين بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ٠.٦٢م وعرضه ٠.٠٣م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٦٩ ٠م وعرضه ٠.٠٤م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر المجتث، ونصها:

الوجه الشمالي- الشريط العلوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن

---

(١) وردت في روضة الآس "فاسترده" بزيادة الفاء، ص ١٥٢.

(٢) وردت في روضة الآس "واباح" بدلاً من "واتاح"، ص ١٥٢.

(٣) وردت في روضة الآس "وزيادة" بإسقاط الألف واللام، ص ١٥٢.

(٤) وردت في روضة الآس "ملك" بإسقاط الألف واللام، ص ١٥٢. ويقصد أنها كانت عاصمة الدولة المرينية.

(٥) وردت في روضة الآس "المسجد الجامع" بزيادة "الجامع"، ص ١٥٢. ويقصد به جامع المنصور الموحدي بقصبة مراكش.

(٦) وردت في روضة الآس "فسبحان المالك" بدلاً من "فسبحان الله الملك"، ص ١٥٢.

الرحيم وقالوا الحمد لله

الذي اذهب عنا.

الوجه الجنوبي- الشريط العلوي: الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي

أحلنا دار المقامة من فضله

لا يمسنا فيها نصب ولا

يمسنا فيها لغوب[١].

الوجه الشمالي- الشريط السفلي:

بدر المعالي توارى فلنبكه كل حين

عبد الإله إمام قد غاله ناب حين[٢]

نجل إمام تسامى حتى[٣]امتطى الفرقدين

محمد الشيخ أعلى الملوك من غير مين

عام توى رأس همي[٤] [٥] وهو قرة عين

٢٣- تركيبة القاضي أبو عبد الله الغرناطي (ت: ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها٠.١٥م وطولها ١.٦٠م ارتفاعها الكلي ٠.١٨م، تشتمل على شريطين كتابيين على الوجه الغربي وشريط واحد على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي ١.٥٤م وعرضه ٠.٠٥م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الغربي- الشريط العلوي: اعوذ بالله.

الوجه الغربي – الشريط السفلي: من الشيطان الرجيم.

---

(١) سورة فاطر، الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٢) قرأها Arin بإضافة الواو "وحين"، انظر: Rousseau, G. et des autres,: Op. Cit, p. 28.

(٣) بداية الكتابات على الشريط السفلي للوجه الجنوبي.

(٤) رجح بعض الباحثين تحديد تاريخ وفاة صاحب هذه التركيبة من خلال القيمة العددية لحروف الكلمات الآتية: "توى رأس همي" التي تساوي (٩٧٢)، ومن هنا فإن تاريخ وفاة عبد الإله هو سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م)، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid, Note 4, p. 2; Deverdun, G.,: Op. Cit., pp. 86 - 87

(٤)

الوجه الشمالي: بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام[١] هذا قبر القائد أبوا(هكذا) عبد الله بن محمد بن علي بن يوسف الملولي الاندلسي.

الوجه الشرقي: الغرناضي[٢].

الوجه الجنوبي: توفي رحمه الله تعلى[٣] بقول لا اله الى[٤] الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] ضحوة يوم الخميس لنصف من شهر دي الحدج[٦] عام ستة وثمانين وتسعمائة رحمة الله علينا وعليه.

٢٤- تركيبة محل إحدى زوجات السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٨م وطولها ١.١٣م وارتفاعها الكلي ٠.١٩م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل وجه من الأوجه الأربعة يبلغ طوله على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي ١.٠٥م وعرضه ٠.٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين[٧] ورحمتي وسعت كل.

الوجه الشرقي: شيء فسأ

---

(١) سورة الرحمن، الأيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) الصواب "الغرناطي".

(٣) الصواب "تعالى".

(٤) الصواب "إلا".

(٥) يلاحظ أن هذه الصيغة "توفي رحمه الله تعالى بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله" غير شائعة في الكتابات المنقوشة على تراكيب وشواهد القبور المغربية، بينما تعد إحدى خصائص الكتابات الجنائزية في الأندلس. انظر، Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 88.

(٦) الصواب ذي الحجة.

(٧) سورة آل عمران، آية ١٧١.

الوجه الجنوبي: كتبها للذين يتقون[١] هذا ضريح زوجة امير
المؤمنين مولانا المنصور ايده الله الحرة محل
بنت عمر[٢] المرين[٣] توفت (هكذا) رحمها الله
اواخر المحرم فاتح.

الوجه الغربي: سبعة والف.

٢٥- تركيبة السلطان أحمد المنصور الذهبي (ت: ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) **(شكل ٤٢)**:

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٧٠م وطولها ٢.٧٠م وارتفاعها الكلي ٠.٥٤م، تشتمل على شريطين كتابيين بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي بكل وجه منهما ٢.٠٩م وعرضه ٠.٠٥م، بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢.٣٠م وعرضه ٠.١٣م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر الحجاز، وقد أورد الإفراني هذه الأبيات في نزهة الحادي مع اختلاف يسير في الألفاظ[٤]، بينما أوردها الناصري كما هي دون زيادات أو اختلاف في الألفاظ[٥](الأشكال ٤٤، ٤٥، ٤٦)، ونصها:

الوجه الشمالي- الشريط العلوي: وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إن
ربنا لغفور شكور الذي احلنا دار المقامة
من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا
يمسنا فيها لغوب[٦] إن للمتقين مفازا
حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا

---

(١) سورة الأعراف، من الآية ١٥٦.

(٢) لم يتمكن Arin من قراءة هذه الكلمة ورجح أنها ربما كانت اسم علم "كعمر" أو اسم عائلة، انظر:
Rousseau, G., et des autres: Note 7, p. 8.

(٣) تجدر الإشارة إلى أن كلاً من السلطان أحمد المنصور ووالده محمد الشيخ من قبله قد صاهرا الأسرة المرينية التي كانت تحكم المغرب قبل الوطاسيين، انظر:
Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 88.

(٤) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٥) الناصري: المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ١٨٧.

(٦) سورة فاطر، الآيتان ٣٤، ٣٥.

دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا
جزاء من ربك عطاء حسابا[١].

الوجه الجنوبي- الشريط العلوي: جنات عندن يدخلونها تجري من تحتها
الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك
يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم
الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم
ادخلوا الجنة بما كنتم
تعملون[٢] يبشرهم ربهم برحمة منه
ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم
خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر
عظيم[٣].

الوجه الشمالي- الشريط السفلي:

١. هذا ضريح من غدت — به المعالي تفتخر
٢. أحمد منصور اللوا — لكل مجد مبتكر
٣. يا رحمة الله اسرعي — بكل نعمى[٤] تستمر
٤. وباكر الرمس بما[٥] — ء[٦] من[٧] رضاه منهمر
٥. وطيبي ثراه[٨] من — ند كذكره العطر
٦. وافق تاريخ الوفا — ة دون تفنيد[٩] ذكر
٧. مقعد صدق داره — عند مليك مقتدر

---

(١) سورة النبأ، الآيات من ٣١ – ٣٦.
(٢) سورة النحل، الآيتان ٣١، ٣٢.
(٣) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.
(٤) وردت في نزهة الحادي "نهر" بدلاً من "نعمى"، ص ١٨٩.
(٥) ورد صدر هذا البيت في نزهة الحادي، هكذا: "وباكري الرمس بها"، ص ١٨٩.
(٦) بداية الكتابة على الشريط السفلي للوجه الجنوبي.
(٧) وردت في نزهة الحادي "أن" بدلاً من حرف الجر "من"، ص ١٨٩.
(٨) قرأها ديفردان "تراه" بالتاء بدلاً من الثاء، انظر: Deverdun, G., : Op. Cit., p. 89.
(٩) وردت في نزهة الحادي "تقييد" بدلاً من "تفنيد"، ص ١٨٩.

٢٦- تركيبة نوار زوجة السلطان زيدان بن أحمد المنصور (ت: ١٠٣٠ هـ / ١٦٢١م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠،٣٣م وطولها ١،٧٤م وارتفاعها الكلي ٠،٢٣م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجه الشمالي والشرقي والجنوبي، وشريطين على الوجه الغربي، يبلغ طول الشريط الذي على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي ١،٥٨م وعرضه ٠،٠٧م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله هذا
ضريح العقيلة الفايزة بسعادة الانتظام في سلك اهل
البيت رضي الله عنهم الحايزة لشرف الانتماء لجنابهم
فان مولى القوم منهم[1] حظية مولانا امير.

الوجه الشرقي: المومنين.

الوجه الجنوبي: نوار المشمولة بالرحمى من العزيز الغفار والدة نجله السعيد
الاكبر وولده الابر (ا)بي مران عبد الملك مولدها سنة
ثلاث وتسعين وتسعمائة وتوفيت اواخر صفر من شهور
سنة ثلاثين[2] والف فسبحان الحي الذي لا يموت وهو
ارحم الراحمين وصلى الله على.

الوجه الغربي – الشريط العلوي: سيدنا محمد.

الوجه الغربي – الشريط السفلي: خاتم النبيين.

٢٧- تركيبة إحدى زوجات أحد السلاطين السعديين (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠،٧٠م وطولها ٢،٧٠م وارتفاعها الكلي ٠،٥٥م، تشتمل على شريطين كتابيين على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ٢،٠٩م وعرضه ٠،٠٥م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢،٣١م وعرضه ٠،١٣م، وشريط واحد على كل من الوجهين الشرقي والغربي، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين

---

(١) قراها Arin "منهمر" بدلاً من "منهم"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 29.
(٢) قراها Arin "لاثنين" بدلاً من "ثلاثين"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 29.

الشمالي والجنوبي على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي وكذلك الوجهين الشرقي والغربي، على أبيات من الشعر من بحر الرمل (الشكلان ٤٧، ٤٨)، ونصها:

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[١] إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكاسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا[٢].

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: جنات عدن تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون[٣] يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم[٤].

الوجه الشمالي – الشريط السفلي:

١. حـــي بـــالرحمن فقيـــدا أحـــزن الإنـــس وجنـــه

٢. وكـــسى الأرض ظلامـــا اســـتعار الليـــل لونـــه

٣. عنـــصر[٥] المجـــد وعـــزه[٦] شـــيد[٧] الاحـــسان ركنـــه

(١) سورة فاطر، الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة النبأ، الآيات ٣١ – ٣٦.

(٣) سورة النحل، الآية ٣٢).

(٤) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٥) قراها Arin "عصر" بإسقاط النون بدلاً من "عنصر"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 15.

(٦) قراها Arin "عزه" بإسقاط الواو، وقراها دوكاستري "وعز" بإسقاط الهاء، انظر: Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 15; De Castries, H.,: Op. Cit., p. 359.

(٧) قراها Arin "وشيد" بزيادة الواو بدلاً من "شيد"، انظر: Rousseau, G.,: Op.Cit., p. 15

٤. حـــــرام[١] .... الإمــــام خـــير مـــن قـــاد الاعنـــه

الوجه الشرقي:

٥. نزلــــت دار نعـــيم [٢]وتخلـــت دار محنـــه

٦. اصـــبحت قـــرب نـــبي[٣] في حمـــاه مطمئنـــه

٧. وصـــلتها[٤] بعـــلاه رحـــم انتجـــت ابنـــه

٨. إن تـــشأ وقـــت اســـتقلت لـــترى اعظـــم منـــه

٩. وقـــل وخـــل الهـــم رأســـا [٥] مـــسكن الحـــرة جنـــه[٦]

٢٨- تركيبة السلطان زيدان بن أحمد المنصور (ت: ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٧٥م وطولها ٢,٧٢م وارتفاعها الكلي ٠,٥٧م، تشتمل على شريطين كتابيين على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ٢,١٢م وعرضه ٠,٠٦م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢,٣١م وعرضه ٠,١٣م، نفذت الكتابات بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط

---

(١) هكذا وردت في النص، ولعل الصواب "حرم" أي زوجة، وجاءت الزيادة في حرف الألف سهوًا من النقاش، لكن لا يمكننا تأكيد ذلك سيما وأن الكلمة التي بعدها قد تآكلت حروفها، وقد قرأ دوكاستري هذه الكلمة "حرام" على النحو التالي "خير أم"، انظر: De Castries, H.,: Op. Cit., p. 359.

(٢) بداية الكتابات على الشريط السفلي للوجه الجنوبي.

(٣) قرأ Arin صدر هذا البيت، هكذا: "أصبحت فردى" Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 15.

(٤) قرأها Arin "وصلنها" بالنون بدل التاء. Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 15.

(٥) بداية الكتابة على الوجه الغربي.

(٦) قرأ دوكاستري عجز هذا البيت، هكذا: "مسكي المحرة جنة"، انظر: De Castries H.,: Op. Cit., p. 359.

وقد رجح كل من دوكاستري وديفردان أن هذه التركيبة خاصة بلالة شعبانة أو الشعبانية "عائشة بنت أبي بكر" زوجة السلطان أحمد المنصور الذهبي وأم ابنه زيدان الذي تولى بعده ملك المغرب، وذلك لتشابه هذه التركيبة من حيث أبعادها والكتابات القرآنية المنقوشة عليها مع تركيبة السلطان أحمد المنصور الذهبي السابق دراستها، ورجحا أن يكون تاريخ وفاتها هو (١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م)، وحاول كل منهما إثبات ذلك من خلال حساب القيمة العددية لكلمات البيت الشعري الأخير، بعد إسقاط كلمتي "وقل وخل" وحذف بعض الحروف من الكلمات الأخرى، لكن يبدو في ذلك كثير من الافتعال حيث إن القيمة العددية لحروف هذه الكلمات لا تتفق مع عام (١٠٣١ هـ / ١٦٢٢م)، انظر: De Castries, H.,: Ibid., p. 359; Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 94.

العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر مجزوء الرجز، وقد أوردها كل من الإفراني والناصري مع اختلاف يسير في الألفاظ (الشكلان ٤٩، ٥٠)، ونصها:

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم
له ما في السماوات وما في الأرض من ذا
الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين
أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من
علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات
والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي
العظيم[١].

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع
أجر المؤمنين[٢] ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا
ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار
ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا
يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[٣].

الوجه الشمالي – الشريط السفلي:

١. هذا ضريح من به[٤]   تفتخر[٥] المفاخر
٢. زيدان سبط احمد   مبتكر المآثر
٣. حامي حمى الدين بكل   ذابل[٦] وباتر
٤. أجل من خاض الوغى   وللاعادي قاهر

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان ١٩٣، ١٩٤.
(٤) وردت في نزهة الحادي "له " بدلاً من "به"، ص ٢٤٣.
(٥) وردت في نزهة الحادي "يفتخر" بالياء بدلاً من "تفتخر"، ص ٢٤٣.
(٦) وردت في نزهة الحادي "دابل" بالدال بدل الذال، ص ٢٤٣.

الوجه الجنوبي – الشريط السفلي:

٥. لا زال صـوب رحمـة الله   عليـه مـاطر

٦. ومـن شـذا[١] رضـوانه   نفحـة كـل عـاطر

٧. أرخ وفـاة مـن غـدا   جـارا لـرب غـافر

٨. بمقعـد الـصدق[٢] عـلا   أب[٣] المعالي الناصر[٤]

٢٩- تركيبة السلطان عبد الملك بن زيدان (ت: ١٠٣٩ هـ / ١٦٣١م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٧٢م وطولها ٢,٧٠م وارتفاعها الكلي ٠,٥٣م، تشتمل على شريطين كتابيين على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ٢,٠٢م وعرضه ٠,٠٥م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢,٢٨م وعرضه ٠,١١م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي على الوجه الشمالي على بيتين من الشعر من بحر البسيط، أوردهما كل من الإفراني[٥] والناصري[٦] دون زيادات أو اختلاف في الألفاظ (الشكلان ٥١، ٥٢)، ونصها:

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا
محمد وآله الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات
والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك
فقنا عذاب النار ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا
ذنوبنا.

---

(١) قرأها Arin "شدا" بالدال بدل الذال، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 13.

(٢) وردت في نزهة الحادي "على" بدلاً من "علا"، ص ٢٤٣.

(٣) وردت في نزهة الحادي "أبو"، ص ٢٤٣؛ وكذلك في الاستقصا، الجزء السادس، ص ٧٢. وتجدر الإشارة إلى أن السلطان زيدان بن أحمد المنصور يكنى بأبي المعالي. انظر نفس المصدر والجزء، ص ١٣.

(٤) وردت في نزهة الحادي "ناصر" بإسقاط الألف واللام، ص ٢٤٣.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٦) الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٧٨.

الوجه الجنوبي- الشريط العلوي: وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد[١] إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا[٢] اللهم قدرك[٣] (هكذا) على كل شيء اغفر له كل شيء ولا تسأله عن شيء يا رب العالمين.

الوجه الشمالي – الشريط السفلي: هذا ضريح السلطان المرتجى من الله العفو والغفران مولانا امير المؤمنين ابي مروان ابن (هكذا) مولانا زيدان

لا تقنطن فإن الله منان وعنده للورى عفو وغفران

ان كان عندك اهمال فعند ربك افضال واحسان

الوجه الجنوبي- الشريط السفلي: توفي قدسه الله يوم الاحد الخامس من شعبان عام تسع وثلاثين والف[٤] ودفن بروضة اسلافه الكرام اسكنهم الله دار السلام مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

تجدر الإشارة إلى أن الإفراني ذكر في سياق حديثه عن هذا السلطان، أنه كان: "فاسد السريرة مطموس البصيرة ...... مدمنًا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج بمراكش وهو سكران"[٥]. وهذا يفسر شدة إلحاح الكتابات والأبيات الشعرية المنقوشة على تابوت السلطان عبد الملك بن زيدان، على طلب المغفرة والصفح من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٩١، ١٩٤).

(٢) سورة الكهف، الآيتان (١٠٧، ١٠٨).

(٣) قراها Arin "قدرتك" وهي الأوفق، لكنها وردت في النص "قدرك" فلعل التاء سقطت من يد النقاش، انظر: Rousseau, G. et des autres: Op. Cit., p. 18

(٤) ذكر الإفراني في موضعين من نزهة الحادي أن السلطان عبد الملك بن زيدان صاحب هذه التركيبة قد توفي يوم الأحد السادس من شعبان سنة (١٠٤٠ هـ / ١٦٣١م)، كما أورد الناصري هذا التاريخ أيضًا، كذلك ورد في وثيقتين نشرهما دوكاستري ضمن سلسلة المصادر غير المنشورة عن تاريخ المغرب. انظر: الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٤٤، ٢٤٥؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء السادس، ص ٧٧؛ Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 97.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

٣٠- تركيبة مريم بنت السلطان محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (ت: ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠،٢٥م وطولها ٠،٨٨م وارتفاعها الكلي ٠،٢٨م، تشتمل على شريطين كتابيين على كل وجه من الأوجه الأربعة، يبلغ طول الشريط العلوي بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي ٠،٧٤م وعرضه ٠،٠٥،٥م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٠،٨٣م وعرضه ٠،٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان.

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم[1].

- **الوجه الشمالي – الشريط السفلي:** هذا ضريح الحرة الشريفة للتنا (هكذا) مريم بنت مولانا السلطان محمد الشيخ ولدت قرب طلوع الفجر من ليلة الخميس ثماني واربعين والف.

الوجه الجنوبي – الشريط السفلي: وتوفيت قدسها الله اواسط ربيع من السنة المذكورة ودفنت بالروضة المشرفة مع اسلافها الكرام تغمد الله الجميع برحمته.

الوجه الشرقي – الشريط العلوي: لا إله إلا الله.

الوجه الشرقي – الشريط السفلي: محمد رسول الله .

الوجه الغربي – الشريط العلوي: لا إله إلا الله.

الوجه الغربي – الشريط السفلي: محمد رسول الله.

٣١- تركيبة علية والدة أحد السلاطين السعديين (ت: ١٠٥٢ هـ / ١٦٤١ - ١٦٤٢م) (**شكل ٤٢**):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠،٥٢م وطولها ٢،٥٨م وارتفاعها الكلي ٠،٥٣م، تشتمل على شريطين كتابيين بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي بكل منهما ٢،١١م وعرضه ٠،٠٥م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢،٣٢م وعرضه ٠،٠٨م، نفذت الكتابات بالحفر

(١) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ويشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر مجزوء الرمل، ونصها:

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله سيدنا محمد وآله آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير.

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين[1] صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين.

الوجه الشمالي – الشريط السفلي:

١. رحمة الرحمن سحي — بضريح[2] لعليه

٢. وانعشيها بشذاك — في بكور وعشيه

٣. وانزليها بدراك (هكذا) — وامنحي كل عطيه

٤. أم من غزا الجيوش — بالعوالي السمهرية

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ٢٨٥، ٢٨٦.

(٢) قراها Arin "ضريح" بإسقاط الباء، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 24.

الوجه الجنوبي – الشريط السفلي:

٥. بحر جود شمس عقل ذي طباع احمديه

٦. فرع خير الخلق طرا صاحب النفس الزكيه

٧. بحماه ترجو نيلا[١] من عطاياه السنيه

عام جا[٢] الحتف أناخت[٣] بحمى حبر[٤] البريه

٣٢- تركيبة لإحدى الأميرات لم يشر إلى اسمها ولا تاريخ وفاتها (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٣٥م وطولها ١,٧٠م وارتفاعها الكلي ٠,٢٢م، تشتمل على شريط كتابي واحد على كل من الوجهين الجنوبي والشمالي يبلغ طوله ١,٥٥م وعرضه ٠,٠٥م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر السريع، نصها:

---

(١) قراها Arin "انيلا" بزيادة الألف، انظر: Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 24.

(٢) قراها Arin "فجا" بزيادة الفا، انظر: Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 24.

(٣) قراها Arin "اناحت" بالحاء بدل الخاء، انظر: Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 24.

وقد ذكر كل من دوكاستري وديفردان، أن الناظم اعتمد في تحديد تاريخ وفاة صاحبة هذه التركيبة على القيمة العددية لحروف كلمة "اناخت" وهي (١٠٥٢)، وقد رجح ديفردان أن تكون هذه المرأة إحدى زوجات السلطان زيدان بن أحمد المنصور (ت: ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧م) ووالدة أحد أبنائه الثلاثة الذين توالوا من بعده على عرش المغرب، فربما كانت والدة محمد الشيخ الأصغر الذي حكم فيما بين (١٠٤٥ – ١٠٦٤ هـ/ ١٦٣٥ – ١٦٥٣م)، الذي رأى أن يدفن والدته بهذا الموضع ويجعل على قبرها تركيبة كما فعل كل من جده أحمد المنصور ووالده زيدان بن المنصور، انظر:

De Castries, H.,: Op. Cit., pp. 359 – 360; Deverdun, G., : Op. Cit., p. 100

(٤) قراها Arin "خير" وهي الأوفق، لكنها وردت في النص "حبر" فلعل نقط الخاء والياء سقطت من يد النقاش، انظر:

Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 24.

الوجه الجنوبي:

١. بدر المعالي كنت قبل الافول	تضيء بي الافاق دهرا يطول
٢. اسير في اوج العلا صاعدا	سير الهلال[١] لم يشنه[٢] نحول
٣. داركني المحاق إذ طرقت	بدري صروف لليالي المحول
٤. أن شئت وقت الفوز[٣] لا بد قل	بنت الامام في حماء[٤] الرسول

٣٣- تركيبة السلطان محمد الشيخ الاصغر بن زيدان (ت: ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣ – ١٦٥٤م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٧٠م وطولها ٢,٧٣م وارتفاعها الكلي ٠,٥٣م، تشتمل على شريطين كتابيين على كل وجه من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ٢,١٢ وعرضه ٠,٠٦م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ٢,٣١م وعرضه ٠,١٣م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر الطويل، وقد أوردها كل من الإفراني والناصري مع اختلاف يسير في الألفاظ (الشكلان ٥٣، ٥٤)، ونصها:

---

(١) قرأها Arin "هلال" بإسقاط الألف واللام، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 31.

(٢) قرأها Arin "يشتنه" بزيادة التاء، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 31.

(٣) قرأها Arin "القون" بدلاً من "الفوز"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 31.

(٤) قرأها Arin "حما" بإسقاط الهمزة، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 31.

وقد ذكر Arin أن القيمة العددية لحروف كلمات عجز البيت الأخير تعادل (١٢٧٢)، أي أن صاحبة هذه التركيبة توفيت عام (١٢٧٢ هـ / ١٨٥٥ – ١٨٥٦م)، ورجح أن تكون إحدى بنات السلطان عبد الرحمن العلوي (١٢٣٨ – ١٢٨٦ هـ / ١٨٢٢ – ١٨٥٩م)، غير أنه عاد وأكد أن هذا التاريخ غير مقبول في ضوء حالة هذه التركيبة التي يبدو عليها أنها أكثر قدمًا من ذلك التاريخ. Rousseau, G.,: Ibid., p. 31. وقد أيده ديفردان في هذا الرأي الأخير، وذكر أن التنقيط المشرقي الذي استخدم في كتابات هذه التركيبة يرجعها إلى العصر السعدي الذي استخدمت فيه هذه الظاهرة، ومن هنا يمكن حساب القيمة العددية لحروف كلمات عجز هذا البيت الأخير وفقًا للأبجدية المشرقية، ومن هنا يكون تاريخ وفاتها هو (١٠٦٢ هـ / ١٦٥١ – ١٦٥٢م)، الذي يقع في فترة حكم السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان، انظر: Deverdun, G.,: Op.Cit., p. 88.

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل.

الوجه الجنوبي – الشريط السفلي: وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون[١] يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين[٢] إن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها[٣].

الوجه الشمالي - الشريط السفلي:

١. لبدر سماوات المعالي افول — وفي ذا[٤] الضريح كان منه نزول

٢. محمد الشيخي[٥] بن زيدان غاله — حمام فحزن العالمين طويل

الوجه الجنوبي – الشريط السفلي:

٣. امام الانام ذو المئاثر فعله[٦] — له غزة في الصالحات[٧] جميل

٤. حباه إلاه العرش رحمى تخصه — بما هو بالفردوس[٨] منه كفيل

٣٤- تركيبة امرأة تسمى عضيفة لم يشر إلى تاريخ وفاتها (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية منشورية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٣٢م وطولها ١,٣٠م وارتفاعها الكلي ٠,٣٣م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ١,١١م وعرضه ٠,٠٨م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب، ويقوم على مهاد

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٧١.

(٣) سورة آل عمران، من الآية ١٩٨.

(٤) سقط اسم الإشارة "ذا" من نص نزهة الحادي، ص ٢٥٧.

(٥) وردت في نزهة الحادي "الشيخ" بإسقاط الياء، ص ٢٥٧؛ وكذلك في الاستقصا، الجزء السادس، ١٠٧

(٦) ورد صدر هذا البيت في نزهة الحادي، هكذا: "امام المعالي ذو المآثر فضله"، ص ٢٥٧.

(٧) وردت في نزهة الحادي "الصالحين، ص ٢٥٧.

(٨) وردت في نزهة الحادي "الفردوس"، بإسقاط الباء، ص ٢٥٧؛ وكذلك في الاستقصا، الجزء السادس، ص ١٠٧.

من زخارف نباتية، وهي عبارة عن آيات من القرآن الكريم على شريط الوجه الشمالي، بينما يشتمل الوجه الجنوبي على أبيات من الشعر من بحر الرجز، نصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم
يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر
المؤمنين[1].

الوجه الجنوبي:

١. هـذا ضـريح رحمـة للنـاس — لجـدة المـولى ابـي العبـاس
٢. غضيفة بنت الرئيس الحاش — اسـم[2] عقـال بنـات سـاس[3]

٣٥- تركيبة فاطمة بنت الرشيد (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٩م وطولها ١.٨٥م وارتفاعها ٠.١٥م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ١.٧٧م وعرضه ٠.٠٨م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية وهي عبارة عن أبيات من الشعر من بحر الرجز، نصها:

الوجه الشمالي:

١. هـذا ضـريح لحـد قـد غيبـا — شمس المعالي في الثرى[4][1] وحجبا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧١.

(٢) رجح ديفردان أن تكون هذه الكلمة "أسمى" وليس "اسم"، كما ذكر أنه من الضروري إضافة حرف الجر "من" بعد كلمة "عقال" ليستقيم المعنى، انظر: Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 103.

(٣) رجح Arin أن صحة هذه الكلمة "ساسي" وليس "ساس" التي حذفت منها ياء النسب لضرورة الوزن، حيث ذكر هذا الاسم على تركيبة فاطمة بنت أبي بكر بن محمد بن علي بن ساس (ت ١٠٢٩ هـ / ١٦٢٠م) السابق دراستها بالقاعة المستطيلة بالمبنى الشرقي (الشكلان ٨٨ ب، ٩٢ – ٨)، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., Note 5, pp. 27, 63، ويرى بعض الباحثين أن استخدام النقاش للتنقيط المشرقي بكتابات هذه التركيبة يسمح بنسبتها للعصر السعدي، حيث إن هذه الظاهرة عرفها المغرب – كما سبقت الإشارة- في عهد السعديين، ومن هنا يرجح أن المقصود بـ "المولى أبي العباس" المذكور في هذه الكتابات هو السلطان أحمد المنصور الذي كان يحمل هذه الكنية كما سبقت الإشارة، انظر:
Deveredun, G.,: Op. Cit., p. 103.
ومن هنا فقد رجح بعض الباحثين أن غضيفة صاحبة هذه التركيبة هي جدة السلطان أحمد المنصور الذهبي، لذا يمكن إرجاع هذه التركيبة إلى القرن (١٠ هـ / ١٦م)، انظر:
Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., Note 2, p. 27; De Castries, H., : Op. Cit., p. 360; Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 103

(٤) قرأها Arin "التربي" بدلاً من "الثرى"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 22.

فاطمــة بنــت الرشــيد انحنــا لهــا الحمــام في سماهــا نادبــا[٢]

الوجه الجنوبي:

٣. مـا زال مـدامع الانام مـسكبا لموتهـا بـالارض[٣]سـهلا وربـا

٤. بـل مـن يهاديـه النعيم ربنـا سمكـه التـاريخ ان فـاح الكبـا[٤]

٢٦- تركيبة فاطمة الزهراء بنت السلطان محمد الشيخ (الثالث) بن زيدان (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٤٠م وطولها ١.٧٨م وارتفاعها الكلي ٠.٣٥م، تشتمل على شريطين كتابيين بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي، يبلغ طول الشريط العلوي ١.٤٥م وعرضه ٠.٠٤م بينما طول الشريط السفلي ١.٥٤م وعرضه ٠.٠٦م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكل من الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين على أبيات من الشعر من بحر الرجز، ونصها:

الوجه الشمالي – الشريط العلوي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يبشرهم ربهم

برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم

مقيم خالدين فيها أبدا.

(١)

(٢) قرا Arin هذا البيت الثاني، هكذا: "فاطمة بنت الرشيد انبالها في الحمام سماها قاديا"، انظر: Rosseau, G., et des autres: Ibid., p. 22

(٣) وردت في النص "الأرض" بدون الباء، والزيادة بحسب قراءة ديفردان. Deverdun, G., Op. Cit., p. 104.

(٤) قرا Arin هذا البيت الأخير هكذا: "دل يهاريه النعيم ربنا سمكة التاريخ ازفاح الكسا"، انظر: Rousseau, G., Op. Cit., p. 22 وقد رجح كل من Arin وديفردان ان عجز البيت الأخير يشتمل على تاريخ الوفاة من خلال القيمة العددية لحروف الكلمات الثلاث التي تقع بعد كلمة "التاريخ"، لكن يلاحظ أن قيمتها العددية التي تبلغ (١٩٤) لا تتوافق مع تاريخ مقبرة السعديين Rousseau, G., et des autres: Ibid., Note 3, p. 22; Deverdun, G., Op. Cit., p. 105. أما بالنسبة للرشيد والد صاحبة هذه التركيبة، فقد رجح كل من جورج كولان وديفردان أن تكون فاطمة هذه بنت إبراهيم الرشيد بن عبد الله الذي تزوج من بنت السلطان أحمد المنصور الذهبي، وتوفي له ولد يسمى عبد الله سنة (١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦ – ١٥٩٧) يوجد قبره بالجوش المكشوف لمقبرة السعديين. Rousseau., G., et des autres: Op. Cit., Note 1, p. 22; De Castries,: Op. Cit., p. 359; Deverdun, G.,: Op. Cit., pp 105, 120; Colin, G., Une Nouvelle Inscription Saddienne de Marrakech, Hespéris, XXXII, Paris,1945, p. 73

الوجه الجنوبي – الشريط العلوي: إن الله عنده أجر عظيم[١] جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب[٢].

الوجه الشمالي – الشريط السفلي:

١. يا رحمة الرحمن سحي دائما على ضريح من مغاني القدس

٢. مغنا به[٣] شمس المعالي افلت فراع فقدها جميع الانس

لوجه الجنوبي – الشريط السفلي:

٣. فاطمة الزهراء[٤] بنت المرتضى محمد الشيخ الزكي النفس

٤. فأرخ[٥] نأيها بلامين[٦] لدا حلولها بجنان الفردوس

٣٧- تركيبة لا تحمل اسم ولا تاريخ وفاة صاحبها (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٤م وطولها ٠.٧٠م وارتفاعها الكلي ٠.١٣م، تشتمل على شريط كتابي

---

(١) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) سورة ص، الآيتان، ٥٠، ٥١.

(٣) قرأ Arin هاتين الكلمتين على أنهما كلمة واحدة، هكذا: "معتابه"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 26.

(٤) ذكر ديفران أن فاطمة الزهراء صاحبة هذه التركيبة هي بنت السلطان محمد المهدي الشيخ (٩٤٦ – ٩٦٤ هـ/ ١٥٣٩ – ١٥٥٦م)، وأنها وفقاً لما ذكره المؤرخ الإسباني ديجو دو توريس كانت الأخت الشقيقة للأميرين عبد المؤمن وعبد الملك ولالة آية أبناء محمد الشيخ من الشهابة الرحمانية، كما أنها أخت السلطان أحمد المنصور من أبيه، ويبدو أنها كانت تحتل مكانة رفيعة في البلاط آنذاك، حيث كان مخصصاً لها قصر بقصبة مراكش وفقاً لما جاء في تصميم هذه القصبة الذي وضعه أحد المهندسين البرتغاليين سنة (٩٩٤ هـ/ ١٥٨٥م)، كما سبقت الإشارة، ومن هنا فقد رأى ديفردان أنه لا يصح تأريخ تركيبة فاطمة الزهراء قبل هذا التاريخ. Deverdun, G., Op. Cit., p. 106.

والواقع يبدو أن ناظم هذه الأبيات عمد إلى كتابة تاريخ وفاة هذه المرأة اعتماداً على القيمة العددية لحروف كلمات البيت الأخير بعد كلمة "فأرخ" – وهو أمر استبعده ديفردان– والتي تبلغ قيمتها (١٠٤٢) من هنا يمكن القول إن صاحبة هذه التركيبة توفيت سنة (١٠٤٢ هـ/ ١٦٣٢م)، وأنها بنت السلطان محمد الشيخ الأصغر (الثالث) بن زيدان الذي حكم فيما بين (١٠٤٥ - ١٠٦٤ هـ/ ١٦٣٥ – ١٦٥٣م)، ولعل ما يؤكد ذلك أن هذه الكتابات لم تنعته بأي من ألقاب الخلافة، حيث إنه لم يكن قد تولى الملك في عام (١٠٤٢ هـ/ ١٦٣٢م).

(٥) قرأها Arin "فارن" بالنون بدل الخاء، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 26

(٦) قرأها Arin "بلا معين" بزيادة العين بدلاً من "بلامين"، انظر: Rousseau, G., et des autres : Ibid., p. 26.

واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ٠،٦٦م وعرضه ٠،٠٧م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته.

الوجه الجنوبي: عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى[١].

٣٨- تركيبة لالة رقية بنت السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، عرض قاعدتها ٠،١٩م وطولها ٠،٩٠م وارتفاعها الكلي ٠،١٧م، تشتمل على شريط كتابي واحد على كل وجه من الأوجه الأربعة يبلغ عرضه ٠،٠٥م وطوله على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي ٠،٨٣م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويوجد بين فراغات حروف بعض الكلمات عناصر نباتية بسيطة ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الوجه الشرقي: هذ(ا) ضريح.

الوجه الجنوبي: الطهرة (هكذا) السعيدة الشريفة الحسنية للا (هكذا) رقية بنت مولانا احمد ابن مولانا محمد[٢]توفت (هكذا) رحمها الله تعالى في شهر صفر سنة ثلاثث (هكذا) وثمانين.

الوجه الغربي: والف.

---

(١) سورة هود، الآيتان ٧٣، ٧٤.

(٢) رجح كل من Arin وديفردان أن صاحبة هذه التركيبة بنت السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي بن محمد الشيخ، وأن عدم اشتمال الكتابات على أي من الألقاب السلطانية أو ألقاب الخلافة قبل اسم كل من أبيها وجدها، يرجع إلى أنها توفيت بعد سقوط الدولة السعدية وكان ملك المغرب آنذاك هو السلطان إسماعيل بن الشريف العلوي الذي تولى الحكم سنة (١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢م)، انظر: Rousseau, G., et des autres: OP.Cit., Note 3, p. 20; Deverdun, G.,: Op. Cit., pp. 107 - 108. في حين قرأ دوكاستري كلمة "محمد" على أنها "محرز"، ومن هنا فقد ذكر أن لالة رقية صاحبة هذه التركيبة بنت أحمد بن محرز ابن أخ السلطان إسماعيل العلوي، انظر: De Castries, H.,: Op. Cit., p. 359.

٣٩- تركيبة لامرأة لم يذكر اسمها (ت: ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨م) (شكل ٤٢).

القاعة ذات الثلاث دخلات (شكل ٣٩/ ز):

يتم الوصول إلى هذه القاعة من خلال مدخلين بجدارها الجنوبي أحدهما بطرفه الغربي والآخر بطرفه الشرقي، وهو يمثل الجدار الشمالي للقاعة ذات الاثني عشر عمودًا، وقد سبق وصفهما عند وصف هذا الجدار (شكل ٣٩/ و، ز).

وتشغل هذه القاعة مساحةً مستطيلة الشكل يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١١م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢,٩٥م، فرشت أرضيتها بالزليج المتعدد الألوان في تشكيلات هندسية اختفت حاليًا أجزاء كثيرة منه، وغطيت بسقف خشبي مسطح زين بزخارف نباتية وهندسية متنوعة بعضها نفذت بطريقة الحفر وبعضها نفذ بدهانات متعددة الألوان، وبالقطاع الغربي والقطاع الشرقي لهذا السقف الخشبي منوران غطي كل منهما بشخشيخة خشبية فتح في كل جانب من جوانبها الأربعة ثلاث نوافذ غشيت كل منها بشبكة من السلك (لوحة ١١٩)، وقد جددت إدارة الفنون الجميلة للحماية الفرنسية هذا السقف في بداية القرن الماضي[١].

ويوجد بالجدار الشمالي لهذه القاعة ثلاث دخلات متشابهة تمامًا (شكل ٣٩/ ز)، حيث يبلغ اتساع كل منها ١.٩٥م وارتفاعها ٣.٩٠م وعمقها ١.١٦م توجت بعقد على هيئة حدوة فرس، وقد غطي الجزء السفلي لجدران هذه الدخلات وكذلك الجزء السفلي لجدران هذه القاعة بتكسية من الزليج المتعدد الألوان بارتفاع ١.٧٨م من مستوى أرضية هذه القاعة، قسمت إلى ثلاثة أقسام زخرفية السفلي ارتفاعه ١,٥٧م زين بزخارف هندسية متنوعة، أما القسم الأوسط فيبلغ ارتفاعه ٠,١١م تزينه كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية يلاحظ سقوط بعض بلاطات الزليج التي نفذت عليها هذه الكتابات، أما القسم الثالث فارتفاعه ٠,١٠م تزينه شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، بالنسبة لكتابات القسم الأوسط فقد سقطت بلاطات الجدار الشرقي وبعض بلاطات الجدار الشمالي، ونصها على الجزء المتبقي على هذا الجدار: " .... بما صبرتم فنعم عقبى الدار[٢] جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين[٣]..... الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[٤] إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها

---

(1) Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., pp. XVIII – XIX.

(٢) سورة الرعد، من الآية ٢٤.

(٣) سورة النحل، الآية ٣١.

(٤) سورة فاطر، الآيتان ٣٤، ٣٥.

فاكهة ولهم ما يدعون[١]..... زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين[٢]ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم[٣]يا عباد لا خوف عليكم اليوم"، ونصها على الجدار الغربي: " ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين أدخلوا الجنة أنتم وازواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها" وتستمر على الجدار الجنوبي، بما نصه: "خالدون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون[٤]صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين" ويعلو تكسية الزليج السابق وصفها مساحة مستطيلة من الجص يبلغ ارتفاعها ٠,٥٥م، قسمت إلى ثلاثة أشرطة يبلغ ارتفاع كل من السفلي والعلوي ٠,١٥م زين كل منها بزخارف هندسية متنوعة تحصر بداخلها كتابات بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، أما الشريط الأوسط فارتفاعه ٠,٢٥م تزينه كتابات بالخط الثلث تبدأ من الطرف الجنوبي للجدار الشرقي، بما نصه: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار[٥]وبشر الذين آمنوا وعملوا" ونصها على الجدار الجنوبي: "الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وآتوا به متشابهًا ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون[٦]الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم[٧]يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم[٨]رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد[٩]إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

(١) سورة يس، الآيات من ٥٥ - ٥٧.
(٢) سورة الزمر، الآيتان ٧٣، ٧٤.
(٣) سورة غافر، الآية ٧.
(٤) سورة الزخرف، الآيات من ٦٨- ٧٣.
(٥) سورة التوبة، الآية ٧٢.
(٦) سورة البقرة، الآية ٢٥.
(٧) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.
(٨) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.
(٩) سورة هود، الآية ٧٣.

ويطهركم تطهيرا[1]ثمَّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور" وتستمر الكتابات على الجدار الغربي بما نصه" شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[2]إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما" وتستمر على الجدار الجنوبي: "آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين[3]صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين"، يعلو ذلك على كل من الجدارين الشرقي والغربي حشوة مستطيلة من الجص توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف هندسية متنوعة، وقد زينت هذه الحشوة بزخارف نباتية متنوعة، ويؤطرها أربعة أشرطة مستطيلة من الجص عرض كل منها ٠.١٥م تزينها كتابات مكررة بالخط الكوفي، نصها: "الملك لله"، يعلو الشريط الأفقي مساحة مستطيلة مرتفعة تزينها ثلاث حنايا مستطيلة أيضًا توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية متنوعة، يلاحظ أن كلاً من الحنيتين الجانبيتين صماء بينما الوسطى فهي نافذة غشيت بشبكة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

أما الجدار الجنوبي لهذه القاعة، فيتوج كل من المدخل الذي بالطرف الغربي والطرف الشرقي لهذا الجدار – السابق وصفهما- عقد على هيئة حدوة فرس مدبب زينت توشيحتاه بزخرفة هندسية متكررة عبارة عن معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة نفذت على الجص، ويؤطر كل عقد منها ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص عرض كل منها ٠.٣٠م زينت بكتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله" وعلى الشريط الأفقي: "على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها[4]ذلك هو الفوز العظيم[5]"، ويحصر هذان العقدان فيما بينهما مساحة

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٢) سورة فاطر، الآيات من ٣٢- ٣٥.

(٣) سورة الطور، الآيات من ١٧- ٢٠.

(٤) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٥) سورة التوبة، من الآية ٧٢.

مستطيلة من الجص تزينها ثلاث حشوات مستطيلة توجت كل منها بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، زينت توشيحتا عقد الحشوة الوسطى بزخرفة هندسية متكررة عبارة عن معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية، بينما زينت توشيحتا كل من العقدين الجانبيين بزخارف نباتية متنوعة، ويلاحظ أن الحشوة الوسطى أكثر اتساعًا من الجانبيتين، حيث يبلغ اتساعها ١.٨٠م بينما يبلغ اتساع كل حشوة من الحشوتين الجانبيتين ١.٢٠م، زينت الوسطى بكتابات بالخط الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها: "الملك لله"، ويؤطر هذه الحشوة ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص اتساع كل منها ٠.٣٠م تزينها كتابات بالخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية، نصها على الشريط الأيمن الرأسي: "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وملائكته وجميع خلقه على" ونصها على الشريط الأفقي: "سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما أعوذ بالله من الشيطان" ونصها على الشريط الأيسر الرأسي: "الرجيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد"، أما الحشوتان الجانبيتان فزينت كل منهما بزخارف نباتية متنوعة نفذت على الجص، يعلو ذلك مساحة مستطيلة مرتفعة تزينها زخارف نباتية وهندسية متنوعة، يعلوها ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص أوسطها أكثرها اتساعًا تزينه زخرفة هندسية متكررة عبارة عن معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها كتابات بالخط الكوفي نصها لفظ الجلالة، أما الشريطان السفلي والعلوي فتزينهما كتابات مكررة بالخط الكوفي نصها: "الملك لله"، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

وأما الجدار الشمالي لهذه القاعة، فيشتمل كما سبقت الإشارة على ثلاث دخلات سبق وصفها، يعلو كل منها عقد على هيئة حدوة فرس زينت توشيحتاه بزخرفة هندسية متكررة عبارة عن معينات متجاورة متصلة تحصر بداخلها زخارف نباتية دقيقة نفذت على الجص، ويؤطر كل عقد ثلاثة أشرطة مستطيلة من الجص تزينها كتابات بالخط الثلث تشبه مثيلتها السابق وصفها بالأشرطة التي تؤطر عقدي مدخلي الجدار الجنوبي لهذه القاعة، يلي الشريط العلوي زخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص تشبه مثيلتها السابق وصفها بالجدار الجنوبي، يعلو ذلك السقف الخشبي السابق وصفه.

ويوجد بهذه القاعة ثلاثة تراكيب من الرخام الأبيض هرمية الشكل وشاهد قبر مثبت على الجدار الغربي للدخلة الوسطى، وسنعرض فيما يلي لوصف هذه التراكيب وشاهد القبر والكتابات المنقوشة عليها وفقًا لترتيبها الزمني.

٤٠- تركيبة السلطان أبو الحسن المريني (ت: ٧٥٢ هـ / ١٣٥١م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢٧م وطولها ٢.١٧م وارتفاعها الكلي ٠.١٧م، تشتمل على شريط كتابي

واحد على كل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ٢,٠٥م وعرضه ٠,٠٤م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب والعناصر الزخرفية، ونصها:

الوجه الشمالي: الحمد لله هذا اول ضريح دفن به مولانا السلطان المرحوم امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحسن بن مولانا السلطان المرحوم امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق.

الوجه الجنوبي: وكانت وفاته رحمه الله في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين ودفن بهذا الضريح المبارك عصر يوم الأربعاء التالي لليوم المذكور ونقل إلى تربة أسلافه الكرام رحمهم الله بشالة في اليوم السادس عشر من جمادى الأول من العام المذكور.

٤١- شاهد قبر السلطان عبد الله الغالب بالله (ت: ٩٨١ هـ/ ١٥٧٤م) (شكل ٤٢):

عبارة عن لوح من الرخام ثبت حاليًا – كما سبقت الإشارة – على الجدار الغربي للدخلة الوسطى بارتفاع ٠,٧٠م من مستوى أرضية هذه القاعة، وقد كان في الأصل يوجد بالقرب من التركيبة التي تعلو قبر السلطان الغالب بقاعة لالة مسعودة (شكل ٣٩٣/ أ) [1]، ويبلغ عرض هذا اللوح ٠,٦٠م وارتفاعه ١,٠٥م، يشتمل على كتابات نفذت بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي، يبلغ عدد سطورها ٢١ سطرًا، توجت بعقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية ويرتكز على عمودين زخرفيين يعلو كل منهما تاج مزين بزخارف نباتية، ويؤطر هذه الكتابات شريط مستطيل تزينه زخرفة هندسية مجدولة، ويعلو الشريط العلوي شريط آخر مستطيل زين بصف من شرافات مدرجة، ويلاحظ وجود كسر بالزاوية اليسرى بأعلى هذا الشاهد غير أنه بعيد تمامًا عن الكتابات (شكل ٥٥)، وقد أورد المقري هذا النص مع اختلاف يسير في الألفاظ وذكر أنه من إنشاء الوزير الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي بأمر من السلطان أحمد المنصور الذهبي [2]، ونصها: "بسم الله الر/ حمن الرحيم صلى [3] الله على سيدنا محمد [4]/ هذا قبر السلطان العظيم القدر والشان جاني ثمرة العلا آونة/ بالجود والاحسان وآونة بالمرهفات [5] ودوابل [6] المران ذي الحسب/ الذي لاحت من ابن [7] الشرف الفاطمي انواره والكمال الذي سارت في/ المشارق والمغارب اخباره زين السروج

(1) De Castries, H., : Op. Cit., p. 362.

(٢) المقري: روضة الآس، ص ص ١٥٣ – ١٥٤.

(٣) وردت في روضة الآس "وصلى" بزيادة الواو، ص ١٥٣.

(٤) ورد في روضة الآس بزيادة "وآله" بعد "محمد"، ص ١٥٣.

(٥) قرأها دوكاستري "بالمدقات" بدلاً من "المرهفات". De Castries, H.,: Op. Cit., p. 362.

(٦) هكذا بالنص، والصواب "ذوابل" بالذال كما وردت في روضة الآس، ص ١٥٣.

(٧) سقطت هذه الكلمة من نص روضة الآس، ص ١٥٣.

والمجالس وباني[(١)] المساجد والمدارس[(٢)] ذي/ الهمة السنية والايام الهنية الصدر[(٣)] المشروح والوفر[(٤)] الممنوح والثبات/ والاناة والاغضاء عن العيوب والهنات والصفح عن الجناة والحزم المثقف/ للقناة[(٥)] صاحب الصدقات والاوراد والعناية بالغزو والجهاد تارة بالجوار[(٦)]/ المنشآت في البحر كالاعلام وتارة بالمطهمات الجياد امير المومنين عبد الله / ابن امير المؤمنين الشهيد الشهير ذي العزائم الماضية والآثار الباقية امام/ السجادة والمحراب وليث الهياج والضراب ناصر الدين المجاهد في سبيل / رب العالمين ابي عبدالله محمد بن محمد الشريف الحسني العلوي قبضه/ الله اليه في العشر الاواخر من اكرم الشهور عليه[(٧)] شهر رمضان الذي/ انزل فيه القرآن عشية يوم السبت التاسع والعشرين منه[(٨)] عام واحد / وثمانين وتسعمائة بعد التزود بالصيام والقيام وشهود ليلة القدر/ المعلوم قدرها بين الليالي والايام وباثر سماع[(٩)] ما تضمنه صحيح البخاري من / احاديث خير الانام عليه افضل الصلاة وازكى السلام والتوسيع بمعهود/ الصدقات ونوافل الخيرات على الفقراء وذوي الفاقة والحاجات ودفن بهذه/ الروضة المباركة خلف قبر والده بعد صلاة الظهر ثاني يوم وفاته نور الله ضريحيهما/ وقدس روحيهما[(١٠)] وكانت ولادته في رمضان عام ثلاث[(١١)] وثلاثين وتسعمائة وبويع[(١٢)] له / بالخلافة في محرم عام خمسة[(١٣)] وستين وتسعمائة بعد موت[(١٤)] ابيه رحم الله السلف وبارك في الخلف".

---

(١) وردت في روضة الآس "باني" بإسقاط الواو، ص ١٥٣.

(٢) يعد السلطان السعدي عبد الله الغالب بالله واحدًا من أعظم البنائين بين سلاطين الدولة السعدية حيث شيد العديد من المنشآت من أهمها المسجد الجامع الذي شيده بمراكش سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) المعروف بجامع الأشراف أو المواسين، المدرسة الغالبية التي شيدها بمراكش أيضًا سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م) وتعرف حاليًا بمدرسة ابن يوسف.

(٣) وردت في روضة الآس "والصدر" بزيادة الواو، ص ١٥٣.

(٤) وردت في روضة الآس "والرفد" بدلاً من "والوفر"، ص ١٥٣.

(٥) وردت في روضة الآس "القناة" بدلاً من "للقناة"، ص ١٥٤.

(٦) وردت في روضة الآس "بالجواري" بزيادة الياء، ص ١٥٤.

(٧) وردت في روضة الآس "إليه"، ص ١٥٤.

(٨) سقطت هذه الكلمة من نص روضة الآس، ص ١٥٤.

(٩) سقطت هذه الكلمة من قراءة Arin، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 38.

(١٠) وردت في روضة الآس "روحهما" بإسقاط الياء، ص ١٥٤.

(١١) وردت في روضة الآس" ثلاثة" بدلاً من "ثلاث"، ص ١٥٤.

(١٢) وردت في روضة الآس "بويع" بإسقاط الواو، ص ١٥٤.

(١٣) وردت في روضة الآس "خمس" بدلاً من "خمسة"، ص ١٥٤.

(١٤) وردت في روضة الآس "وفاة" بدلاً من "موت"، ص ١٥٤.

٤٢- تركيبة أحد أبناء السلطان محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٢٠م وطولها ٠,٧٠م، تشتمل على شريط واحد من الكتابات يبلغ عرضه ٠,٠٧م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: هذا رياض من جنات الرضوان حف بروح ربنا والريحان.

الوجه الجنوبي: ضريح مولانا عبد الملك نجل محمد الشيخ سليل زيدان.

٤٣- تركيبة عيشة بنت أحمد بن محمد (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,١٧م وطولها ٠,٧٨م وارتفاعها الكلي ٠,١٠م، تشتمل على شريط كتابي واحد على كل وجه من الأوجه الأربعة، يبلغ طوله ٠,٧٠م وعرضه ٠,٠٤م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ويلاحظ تشابك حروف هذه الكتابات وكبر حجمها، وأنها صيغت بأسلوب عامي ركيك، كما أن بعض الأسماء والكلمات قد سقطت بعض حروفها ربما لسهو النقاش أو لقلة خبرته.

الوجه الجنوبي: هذا ضريح عيشة[١] بنت احمد بن محمد بن المير[٢] بن كاوي بن عبد الصادق.

الوجه الغربي: بن جا.

الوجه الشمالي: بر بن موس[٣] احفيدة مريم بنت السيد هيا[٤] عملت عليها هد[٥].

الوجه الشرقي: الشي[٦].

الحوش المكشوف (لوحة ١٢٠):

---

(١) هكذا في النص، ولعل الصواب عائشة.

(٢) ذكر ديفردان أن صاحبة هذه التركيبة وأسرتها غير معروفة، غير أن الإفراني أشار في سياق حديثه عن ثورة ابن أبي محلي، أن هذا الثائر عندما تقدم بجيشه للاستيلاء على سجلماسة التقى بالجيش السعدي وعلى رأسه الحاج المير عامل هذه المدينة من قبل السلطان زيدان بن أحمد المنصور، فلعل لهذا الرجل صلة بصاحبة هذه التركيبة، انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٠٧؛ Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 81.

(٣) هكذا في النص، ولعلها "موسى".

(٤) هكذا في النص، ولعلها "هي".

(٥) هكذا في النص، والصواب "هذا".

(٦) هكذا في النص، والصواب "الشيء".

يشغل مساحة غير منتظمة الشكل، يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحو ٧٠م وعرضها من الشمال إلى الجنوب ٢٦م تقريبًا (شكل ٣٩)، وقد استخدمت أرضية هذا الحوش المكشوف لغرض الدفن، حيث يشتمل على مجموعة كبيرة من القبور بعضها تعلوه تراكيب مستطيلة منخفضة من الجص غطيت بتربيعات من الزليج المتعدد الألوان، وبعضها الآخر تعلوه تراكيب جصية هرمية الشكل، في حين يعلو بعض هذه القبور تراكيب مستطيلة من الرخام الأبيض هرمية الشكل يبلغ عددها ٢٠ تركيبةً، يلاحظ أن تسعةً منها فقط تشتمل على نقوش كتابية وعناصر زخرفية بسيطة، بينما التراكيب الأخرى خالية تمامًا من النقوش الكتابية والعناصر الزخرفية، فضلاً عن ذلك يوجد بهذا الحوش شاهدان من الرخام الأبيض يعدان من أقدم الآثار المؤرخة بقبور السعديين بعد تركيبة أبي الحسن المريني السابق وصفها، وسنعرض فيما يلي لوصف هذين الشاهدين والتراكيب الرخامية التسعة، والنصوص الكتابية المنقوشة عليها وفقًا لترتيبها الزمني.

٤٤- شاهد قبر الأمير أبو العباس أحمد الهنتاني (ت: ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥م) **(شكل ٤٢)**:

عبارة عن لوح من الرخام الأبيض محاط بإطار من الخشب، ثبت بالطرف الشمالي للجدار الغربي لقاعة لاله مسعودة على ارتفاع ٠.٠٨م من مستوى أرضية الحوش المكشوف، يبلغ عرض هذا الشاهد ٠.٤٠م وطوله ٠.٥٦م يشتمل على ١٤ سطرًا من الكتابات نفذت بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب، ويتوج هذه الكتابات عقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة زينت توشيحتاه بزخارف نباتية، ونصها: "بسم الله الرحمن/ الرحيم صلى الله على / سيدنا ومولانا محمد / كل من عليها فان ويبقى/ وجه ربك ذو الجلال والا/ كرام[١]هذا قبر الشاب المكرم الأمير الأسعد الحا/ مل[٢] لكتاب الله ابي العباس احمد / بن الشيخ المعظم المرتفع[٣]الافضل الاكمل/ ابي ثابت عامر بن الشيخ الجليل الماجد/ الاصيل المرحوم ابي الحسن علي بن عبد العزيز/ الهنتاني رحمة الله عليه توفي عفا/ الله عنه يوم الاربعاء التاسع عشر من ربيع / الاخر تسع[٤]وخمسين وثمانمية[٥]عرفنا[٦]الله خيره".

٤٥- شاهد قبر الأمير أبو علي الناصر بن يوسف الهنتاني (ت: ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م) **(شكل ٤٢)**:

عبارة عن لوح من الرخام الأبيض محاط بإطار من الخشب، ثبت على الطرف الجنوبي

---

(١) سورة الرحمن، الأيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) قرأها Arin "الحامد" بدلاً من الحامل"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Op. Cit., p. 46

(٣) قرأها Arin "المرفع" بإسقاط التاء، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 46.

(٤) قرأها Arin "سبع" بدلاً من "تسع"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 46

(٥) هكذا في النص والصواب "ثمانمائة" وقد قرأها Arin "ثمانمي" Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 46.

(٦) قرأها Arin "عرف" بدلاً من "عرفنا"، انظر: Rousseau, G., et des autres: Ibid., p. 46.

للجدار الغربي للدهليز الذي يلي المدخل الذي بالجدار الجنوبي لجامع المنصور الموحدي، يبلغ عرض هذا الشاهد ٠.٥٢م وطوله ٠.٦٠م، يشتمل على ٢٠سطرًا من الكتابات نفذت بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب،ويتوج هذه الكتابات عقد على هيئة حدوة فرس ذي حافة مفصصة، ويؤطرها من الجوانب الأربعة شريط مستطيل يزينه صف من شرافات مدرجة معتدلة ومقلوبة بالتبادل، ونصها: "أعوذ بالله / من الشيطان الرجيم/ بسم الله الرحمن الرحيم/ صلى(١)الله على سيدنا ومولانا محمد/ النبي الكريم وعلى اله وصحبه و/ سلم تسليما اينما تكونوا(٢)يدركم الموت ولو كنتم في بروج/ مشيدة(٣)كل نفس ذائقة الموت و/ انما توفون اجوركم يوم القيامة/ فمن زحزح عن النار وادخل الجنة/ فقد فازوما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(٤)/ هذا قبر الامير الاثيل المجاهد في / سبيل ربه ذي الاخلق(٥) المرضية والمآثر / المحمودة السنية المو"لى الشي(٦)"خ ابي على الناصر / ابن يوسف ابن علي ابن عبد المؤمن ابن / عبد العزيز الهنتاتي(٧)قدس الله روحه/ واسكنه من الجنة فسيحه توفي رحمه /

---

(١) وردت في النص "صل" بإسقاط الياء.

(٢) وردت في النص "تكن".

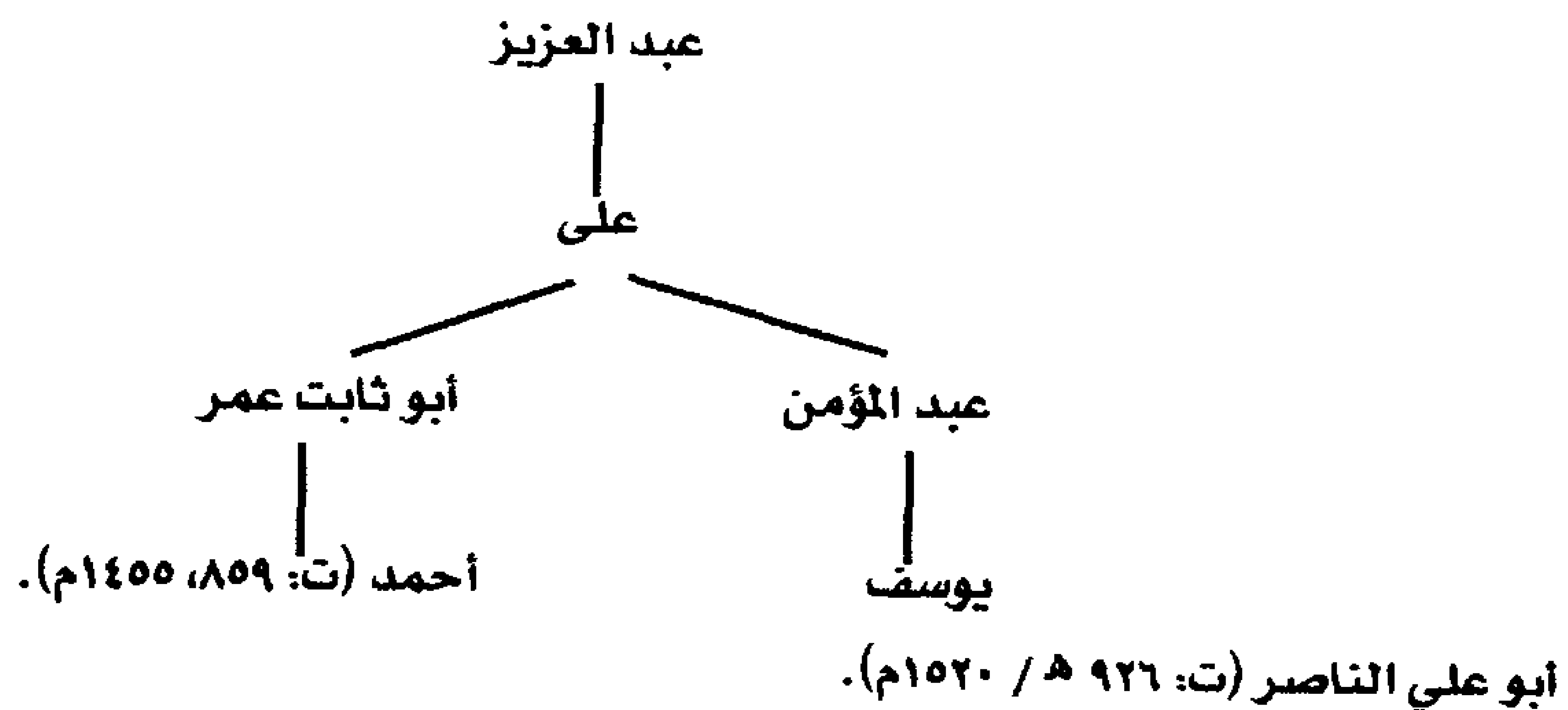
(٣) سورة النساء، من الآية ٧٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٨٥، وقد ورد في النص كلمة "الغرر" بدلاً من كلمة "الغرور".

(٥) هكذا وردت في النص، والصواب "الأخلاق".

(٦) وردت في النص "المو ...يخ" ولعل الصواب "المولى الشيخ" كما رجح ديفردان، وتكون الحروف التي سقطت من سهو النقاش،انظر: Deverdun, G., Op. Cit., p. 116.

(٧) ينتمي صاحب هذا الشاهد والأمير أبو العباس أحمد الذي سبق دراسة شاهد قبره (شكل ٩٢ / ٤٤) إلى قبيلة هنتاتة، التي كانت تحكم مراكش – كما سبقت الإشارة- منذ المرحلة الأخيرة لدولة بني مرين حتى قيام الدولة السعدية، وقد ذكر دو كاستري نسب هذين الأميرين على هذا النحو:



أبو علي الناصر (ت: ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م).

انظر: De Castries, H.,: Op. Cit., p. 363.

وقد كان الناصر الهنتاتي صاحب هذا الشاهد موضع الدراسة أميرًا لمدينة مراكش عند قيام الدولة السعدية، وقد ذكر ليون الإفريقي أنه قام في عام (٩٢٠ هـ / ١٥١٥م) برحلة من سوس مقر محمد القائم=

الله بعد العشاء من ليلة الاثنين منتصف / حجة[1] متمم عام ست[2] وعشرين و"تـ"سعما "ئة"[3] ...... / ...... [4] بمنه وكرمه".

٤٦- تركيبة الزهراء بنت رحو بن شحموط (ت: ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م) **(شكل ٤٢)**:

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,١٤م وطولها ١,٣٦م وارتفاعها الكلي ٠,١١م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الجنوبي والشمالي يبلغ طوله ١,٣٠م وعرضه ٠,٠٣م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب، ونصها:

الوجه الجنوبي: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله هذا قبر الحرة المصونة ذات المحاسن السنية الباهرة المناقب والمفاخر المسطورة المذاهب الجليلة المرحومة الزهرا بنت الشيخ المرحوم رحو[5] ابن شحموط العمراني احد شيوخ.

الوجه الشمالي: بلاد دكالة توفيت رحمة الله عليها في قصر ولدها النجل الطاهر والفرع الزاهي مولاي محمد بن عبد القادر[6] الشريف الحسني ليلة الاحد الثالث عشر من شهر صفر عام خمس[7] وستين وتسعمائة وصلى الله على سيدنا محمد واله.

= مؤسس الدولة السعدية (٩١٥ – ٩٢٣ هـ / ١٥١٠ – ١٥١٧م) إلى مراكش ليلتقي بالأمير الناصر الهنتاتي الذي كان مستبدًا بمنطقة مراكش سهلاً وجبلاً، وكان ذلك بإيعاز من محمد القائم السعدي لربط الصلات مع هذا الأمير. انظر، ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٩ – ١٠.

(١) هكذا في النص، والصواب "ذي الحجة".

(٢) هكذا في النص، والصواب "ستة".

(٣) وردت في النص "وسعما" والصواب "وتسعمائة". انظر: Deverdun, G., Op. Cit., p. 116

(٤) يصعب قراءة بعض الكلمات الأخيرة نظرًا لتآكل حروفها.

(٥) "رحو" تصغير بربري لاسم "عبد الرحمن"، انظر: Deverdun, G.,: Op. Cit., p. 118

(٦) "عبد القادر" زوج صاحبة هذه التركيبة، هو أبو محمد عبد القادر بن السلطان محمد المهدي الشيخ، وقد تولى الوزارة لوالده، وتوفي عام (٩٥٩ هـ / ١٥٥٣م) أي قبل وفاة والده الشيخ بخمسة أعوام، وقبل وفاة زوجته الزهراء بستة أعوام، أما بالنسبة لابنه محمد المذكور في الكتابات، فقد كان وزيرًا لعمه السلطان عبد الله الغالب، وذكر الإفراني، انه كان: "من انبل وزرائه والطفهم مسلكًا وأخفهم روحًا له عارضة في النظم والنثر"، وقد تُوُفِّيَ سنة (٩٧٥ هـ / ١٥٦٧م). انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٣٧، ٥٣ – ٥٥.

(٧) هكذا في النص، والصواب "خمسة".

٤٧- تركيبة علي بن منصور بن محمد (ت: ٩٩٩ هـ / ١٥٩١م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة يعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,١٧م وطولها ٠,٩٥م وارتفاعها الكلي ٠,١٠م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجه الشمالي والجنوبي والغربي يبلغ عرضه ٠,٠٨م بينما يشتمل الوجه الشرقي على زخارف نباتية فقط، نفذت الكتابات بالحفر البارز بالخط الثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كل من عليها فان ويبقى وجه
ربك ذو الجلال والاكرام هذا قبر المزوار المكرم علي بن

الوجه الجنوبي: منصور بن محمد بن احمد بن العباس بن احمد بن
لزرق[١] الزجاني توفي رحمه الله في ليلة الجمعة سادس
عشر من رمطان[٢].

الوجه الغربي: عام تسع وتسعين وتسعمائة.

٤٨- تركيبة عبد المهيمن أحد الأشراف السعديين (ت: ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ – ١٥٩٤م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠,٤٠م وطولها ١,٦٩م وارتفاعها الكلي ٠,٤٤م، تشتمل على شريطين كتابيين بكل من الوجهين الشرقي والغربي، يبلغ طول الشريط العلوي ١,٤٣م وعرضه ٠,٠٦م بينما يبلغ طول الشريط السفلي ١,٥٢م وعرضه ٠,٠٨م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، يشتمل الشريط العلوي بكلا الوجهين على آيات من القرآن الكريم، بينما يشتمل الشريط السفلي بكلا الوجهين أيضًا على أبيات من الشعر من بحر الكامل، ونصها:

---

(١) يلاحظ في لهجة كثير من مناطق المغرب حذف الهمزة حين تكون في أول الكلمة، كما في قولهم على سبيل المثال (لدام، لزار، لساس، لصبع، لول) أي (الإدام، الإزار، الأساس، الإصبع، الأول). انظر، عبد المنعم سيد عبد العال: المرجع السابق، ص ٧١. ومن هنا نرجح أن تكون كلمة "لزرق" الواردة في هذا النص، يقصد بها "الأزرق" سيرًا على هذه القاعدة.

(٢) هكذا في النص والمقصود بها "رمضان"، وتجدر الإشارة إلى أن حرف الضاد في لهجة بعض نواحي المغرب له وجهان في النطق، حيث يبدلونه دالاً كما في قولهم (مدخم – مدغ) (مضخم – مضغ)،ويبدلونها طاء كما قولهم (بيط – لحامط – رطع – طحك عليه – غمط عينيه) (بيض – الحامض – رضع – ضحك عليه – غمض عينيه). انظر، عبد المنعم سيد عبد العال: المرجع نفسه، ص ٨٠. من هنا فإن النقاش لم يخطئ في كتابه كلمة "رمضان" كما ذكر ديفردان، وإنما كتبها كما ينطقها. انظر:
Deverdun, G., : Op. Cit., p. 118.

الوجه الشرقي – الشريط العلوي: أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن
يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم.

الوجه الغربي- الشريط العلوي: بما صبرتم فنعم عقبى الدار[١] متكئين على
سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا
واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم[٢].

الوجه الشرقي- الشريط السفلي:

١. عبد المهيمن سبط من   فخرت بمبعثه البطاح

٢. كسف المحاق هلاله   وعلى الكسوف علا الصياح

الوجه الغربي – الشريط السفلي:

٣. وانقض كوكبه فغا   ر على سناه يد الصباح

٤. أرخه ميتاً لا بحي   في جنة العليا اراح[٣]

٤٩- تركيبة عبد الله بن إبراهيم الرشيد حفيد السلطان أحمد المنصور (ت: ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ – ١٥٩٧م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢٢م وطولها ١.٧٠م وارتفاعها الكلي ٠.١٧م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ عرضه ٠.٠٥م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب، ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى
الله على سيدنا محمد واله هذا ضريح المرحوم بكرم الله
سبحانه مولانا عبد الله ابن مولانا ابراهيم الرشيد ابن
مولانا عبد الله امير المؤمنين وحفيد السلطان

---

(١) سورة الرعد، الآيات من ٢٢ – ٢٤.

(٢) سورة الطور، الآيتان ٢٠، ٢١.

(٣) يلاحظ أن القيمة العددية لحروف كلمات البيت الشعري الأخير بعد كلمة "أرخه" تساوي (١٠٠٢)، من هنا يمكن القول إن تاريخ وفاة عبد المهيمن صاحب هذه التركيبة هو (١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ – ١٥٩٤م)، وذلك أثناء فترة حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م).

الوجه الجنوبي: المعظم مولانا ابي العباس احمد المنصور بالله خلق عام اربعة وتسعين وتسعمائة وتوفي يوم الخميس في رمضان المعظم عام خمسة والف[1] رحمه الله.

٥٠- تركيبة محمد بن أبي مروان عبد الملك بن السلطان زيدان بن أحمد المنصور (ت: ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥م) (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢١م وطولها ٠.٦٥م وارتفاعها الكلي ٠.٢٣م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الجنوبي والشمالي يبلغ طوله ٠.٦٠م وعرضه ٠.١٠م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب، ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الجنوبي: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ضريح المرحوم بكرم الله مولانا محمد ابن مولانا ابوا[2] مروان.

الوجه الشمالي: بن السلطان مولانا زيدان الشريف الحسني توفي بجماد[3](ى) الأول سنة خمس واربعين والف[4].

٥١- تركيبة زوجة السلطان أحمد العباس بن محمد الشيخ الأصغر بن زيدان آخر ملوك الدولة السعدية (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.١٨م وطولها ١.٧٠م وارتفاعها الكلي ٠.١٥م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ عرضه ٠.١٢م، نفذت الكتابات بالحفر البارز

(١) يلاحظ من خلال هذا النص أن عبد الله صاحب هذه التركيبة قد تُوُفِّيَ صغيرًا عن عمر يناهز أحد عشر عامًا، وقد ذكر ديفردان أن إبراهيم الرشيد والد هذا الطفل لم يشر إليه المؤرخون العرب والأوربيون على السواء، ويبدو أنه تزوج من إحدى بنات السلطان أحمد المنصور الذهبي التي ربما كانت لالة صفية، وهذا يفسر سبب وجود هذه التركيبة بمقبرة السعديين. كما رجح كولان أن يكون إبراهيم الرشيد والد هذا الطفل، هو أيضًا والد فاطمة صاحبة التركيبة السابق دراستها بالقاعة ذات الاثني عشر عمودًا (شكل ٩٢ / ٣٥)، انظر:

Deverdun, G., : Op. Cit., p. 120; Colin, G., Op. Cit, pp. 73 - 74.

(٢) هكذا في النص، والصواب "أبو".

(٣) وردت في النص "جماد"، والصواب ما أثبت عاليه.

(٤) أشار الإفراني في سياق حديثه عن السلطان أبي مروان عبد الملك والد صاحب هذه التركيبة، أنه رزق بمولود فأمر بجمع أعيان مراكش للاحتفال بسابعه، فربما كان هذا المولود هو صاحب هذه التركيبة؛ حيث ما ت بعد وفاة والده بخمسة أعوام، انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ٢٤٤.

بخط ثلث بإعجام مشرقي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله علي سيدنا محمد واله هذا ضريح.

الوجه الجنوبي: السيدة بنت الحسين الجرجار ولدة[1] مولانا ابي بكر بن مولاي السلطان مولاي احمد بن مولانا محمد الشيخ الشريف الحسني[2].

٥٢- تركيبة لا تحمل اسم صاحبها ولا تاريخ وفاته (شكل ٤٢):

عبارة عن تركيبة من الرخام الأبيض ذات قاعدة مستطيلة تعلوها قمة هرمية الشكل، يبلغ عرض قاعدتها ٠.٢٠م وطولها ١م وارتفاعها الكلي ٠.١٣م، تشتمل على شريط كتابي واحد بكل من الوجهين الشمالي والجنوبي يبلغ طوله ٠.٩٨م وعرضه ٠.٠٩م، نفذت الكتابات بالحفر البارز بخط ثلث بإعجام مغربي يخلو من علامات الإعراب ويقوم على مهاد من زخارف نباتية، ونصها:

الوجه الشمالي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا

الوجه الجنوبي: يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم[3].

٥٣- تركيبة مريم بنت الأخضر زوجة الأمير الحسين بن محمد بن عبد الله العلوي (ت: ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ – ١٧٩٠م) (شكل ٤٢).

٥٤- تركيبة يزيد بن السلطان العلوي هشام بن محمد بن عبد الله (ت: ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٣م) (شكل ٤٢)

(١) هكذا في النص، والصواب "والدة".

(٢) تجدر الإشارة إلى أن صاحبة هذه التركيبة – التي لم يذكر اسمها – هي زوجة السلطان أحمد العباس بن محمد الشيخ الأصغر آخر ملوك الدولة السعدية، الذي قتل على يد أخواله من الشبانات عام (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨م) رغبة منهم في تحويل الملك إلى أسرتهم. انظر، الإفراني: المصدر السابق، ص ص ٢٥٧ – ٢٥٨. ولما كان النص ينعت أحمد العباس بـ "السلطان" فيمكن القول أن زوجته هذه توفيت وهو لا يزال سلطانًا في الفترة ما بين (١٠٦٤ – ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٣ – ١٦٥٨م).

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

الباب الثالث

الدراسة التحليلية للعناصر المعمارية والزخرفية

ويشمل:

الفصل الأول: العناصر المعمارية.

الفصل الثاني: العناصر الزخرفية.

الفصل الأول
العناصر المعمارية

تميزت الأمثلة القائمة للمنشآت الدينية السعدية – السابق دراستها- من مساجد جامعة ومدارس وزوايا، فضلاً عن العمارة الجنائزية المتمثلة في قبور السعديين، بتعدد الوحدات والعناصر المعمارية المكونة لتخطيطاتها المختلفة التي تؤهلها للقيام بوظائفها، مثل توفير أماكن للصلاة والدرس ومساكن لإقامة الطلاب والشيوخ، والمرافق التي تخدم أرباب الوظائف المختلفة بهذه المنشآت كالخطيب والإمام والمؤذنين والفراشين والوقادين وغيرهم، بالإضافة إلى المرافق الأخرى الخاصة بالطهارة والوضوء وتخزين المياه كالحمامات والميضآت والفساقي والسقايات، وهي عناصر وإن كانت قد استخدمت في العمائر المغربية السابقة على عهد السعديين، فإنها تميزت في هذا العهد بتنوع الوظائف التي تؤديها.

وفي إطار الدراسة التحليلية للعمارة الدينية والجنائزية السعدية الباقية، يمكن أن نتناول هذه الدراسة من خلال العناصر المختلفة التي يتكون منها المبنى، من عناصر منفعة، وعناصر اتصال وحركة، وعناصر تهوية وإضاءة، وعناصر وقاية وعناصر خدمة، وقد أدى هذا التنوع في هذه العناصر المعمارية إلى تكامل وحدات هذه العمائر حتى أصبحت منشآت حيوية تؤدي دورها الوظيفي المنوط بها.

أولاً- عناصر المنفعة:

تعتبر المنفعة – وفقاً لما حدده المعماريون- من أول الشروط الواجب توافرها في المبنى، فالمبنى لا ينشأ أصلاً إلا ليؤدي وظائف انتفاعية وليخدم أغراضاً عملية، فوظيفة المبنى هي السبب في وجوده وفي تبرير وجوده وهي الغرض الغالب عليه والمصدر الرئيس في التصميم واتخاذ المبنى الشكل الذي عليه(١).

وتتمثل عناصر المنفعة في المنشآت الدينية والجنائزية السعدية – موضوع الدراسة- في الأروقة والمئذنة وبيت المنبر وبيت الاعتكاف وخزانة الكتب وبيت الخطيب وخلوة الأسبوع ومصلى الجنائز وقاعة الدرس (بيت الصلاة)، ومساكن الطلاب والسقاية والميضأة والحمام والضريح.

الأروقة:

تجدر الإشارة إلى أن المساجد الجامعة المغربية منذ أقدم أمثلتها القائمة والتي ترجع إلى العصر المرابطي وحتى عهد المرينيين، اتبعت طراز المسجد ذي الصحن المركزي المكشوف المحاط بالأروقة من ثلاثة أو أربعة جوانب، واستمر هذا التخطيط في عهد السعديين –

---

(١) محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ٢٥٥.

والعلويين من بعدهم- حيث طبق في جميع مساجدهم الجامعة الباقية السابق دراستها (الأشكال ١ ، ٣ ، ٩ ، ١٤) وكذلك في جامع الزاوية الجزولية (شكل ٣٧/ ج). وقد كانت ملاءمة هذه الأروقة للاستخدام عاملاً أساسياً وراء انتشار وشيوع هذا التخطيط، فقد استغلت هذه الأروقة للوظائف المختلفة التي كانت تؤديها هذه المساجد في العصور المختلفة، والتي تتمثل في الصلاة والتدريس، إذ أشارت الروايات التاريخية إلى أن العلماء كانوا يقصدون المساجد لإلقاء الدروس وتعليم الطلبة[1]، وفي العصر السعدي تضاعفت أهمية الكراسي العلمية التي عرفها المغرب – كما سبقت الإشارة- مع المرينيين[2]، وزاد عددها بالمساجد المختلفة سواء التي شيدها السعديون أو تلك التي كانت سابقة على عهدهم أيضاً.

ويتضح من خلال مخططات المساجد الجامعة السعدية السابق دراستها، أنها تشتمل على أربعة أروقة وزعت حول صحن أوسط مكشوف (الأشكال ١، ٣ ، ٩، ١٤، ٣٧/ ج)، يلاحظ أنها تشغل مساحةً كبيرةً من المساحة الكلية التي يشغلها المسجد، حتى تتسع لأعداد المصلين الذين يأتون للصلاة بالمسجد، كما يتضح من الجدول الآتي:

الجامع	مساحته الكلية م٢	مساحة الأروقة م٢	مساحة الدعامات م٢ تقريبيًا	عدد المصلين الافتراضي[3]	نسبة الأروقة إلى المساحة الكلية
الجامع الكبير بتارودانت	٣٦٠٠	٢٠٢٣	١٢٥	٢٥٣٠	٥٦.١٩٪
جامع المواسين بمراكش	٣٢٢٥	١٥٠٢	٧٠	١٩٠٩	٤٦.٥٧٪
جامع باب دكالة بمراكش	٢٦٦٥	١٥٠٣	٦٥	١٩١٧	٥٦.٣٩٪
جامع أبي العباس السبتي بمراكش	١٦٢٨	٧٣٦	٥٠	٩١٤	٤٥.٢٠٪
جامع الزاوية الجزولية بمراكش	٧٥٠	٥١١	٢٥	٦٤٨	٦٨.١٣٪

(١) انظر حول هذا الموضوع، على سبيل المثال: التادلي: المصدر السابق، ص ١٤٧؛ ابن أبي زرع: القرطاس، ص ١٧٣؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٩٤ ، ٩٦ – ٩٧، ١٤٤؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٨٢؛ حسن علي حسن: التعليم بالمغرب الأقصى، ص ٦٩؛ عبدالهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ١١٢ – ١١٣.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، المجلد الرابع، ص ص ١١٧ ، ١٨٦؛ الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٧٦ – ٤٧٧؛ ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٤؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٤٧؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٧؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٣٨ – ١٣٩.

(٣) باعتبار أن كل مصلى يشغل مساحة قدرها ٠.٧٥ م٢. انظر، محمد عبد الستار عثمان: الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباي بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٢٥.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن الأروقة الأربعة شغلت غالبًا أكثر من نصف المساحة الكلية لمعظم المساجد الجامعة السعدية، بل اقتربت أحيانًا من ثلثي هذه المساحة كما هو الحال في جامع الزاوية الجزولية بمراكش، ويلاحظ أن رواق القبلة بهذه المساجد أكبر من بقية الأروقة الأخرى اتساعًا وعمقًا، وقد جاء ذلك متوافقًا مع وظيفة هذا الرواق الذي كان يستخدم عادةً في الصلوات الخمس اليومية، إذ كانت مساحته تكفي أعداد المصلين الذين يأتون للصلاة بالمسجد دون الحاجة إلى توزعهم في الأروقة الأخرى، باستثناء الصلوات الجامعة التي يزدحم فيها المسجد بالمصلين، كما كانت الدروس العلمية تعقد عادةً برواق القبلة أيضًا، وكان هذا الرواق يستمد الضوء والهواء من البائكة المطلة على الصحن، والتي اقتصر فيها على استخدام عقد حدوة الفرس لتساعد اتساع فتحته وارتفاعها على دخول الضوء والهواء الكافي، كما يلاحظ أن عدد عقود هذه البائكة قد زاد تبعًا لمساحة رواق القبلة؛ حيث نجدها مكونةً من عشرة عقود كما في الجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، ومن خمسة عقود في كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ٣، ٩ ، ١٤)، ومكونة من ثلاثة عقود بجامع الزاوية الجزولية بمراكش أيضًا (شكل ٣٧ / ج)؛ ولتحقيق نفس الغرض — تزويد رواق القبلة بالضوء والهواء- فتح المعمار بالأجزاء العليا لجدران هذا الرواق عددًا من النوافذ غشيت بستائر من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية مختلفة، وعشقت — أحيانًا- بالزجاج الملون، الذي يسمح بمرور الضوء ولا يسمح بمرور تيارات الهواء التي قد تطفئ المصابيح التي توقد ليلاً، ولتخفيف حدة ضوء الشمس المباشر أو المبهر الداخل من خلال فتحات هذه النوافذ (اللوحتان ١١، ٤١)، ويطلق على هذا النوع من النوافذ في المغرب مصطلح "شمسيات" ومفردها "شمسية"[1]. كما أن استخدام الأسقف الجمالونية والقباب في تغطية رواق القبلة — وغيره من أروقة الجوامع السعدية- زاد من ارتفاع الفراغات الداخلية لهذا الرواق، الأمر الذي ساعد على وفرة الضوء اللازم للدروس العلمية المنعقدة به فضلاً عن تزويده بالتهوية الجيدة (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤، ٣٧، ج).

أما الأروقة الثلاثة الأخرى فيلاحظ أنها صغيرة المساحة بالنسبة لرواق القبلة، فهي لا تشتمل إلا على بلاطة واحدة في كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي وجامع الزاوية الجزولية بمراكش (الأشكال ٣، ٩، ١٤، ٣٧/ ج)، بينما يشتمل الرواقان الشمالي والجنوبي للجامع الكبير بتارودانت على بلاطتين أما الرواق الغربي فيشتمل على بلاطة واحدة (شكل ١)، ويعد صغر مساحة هذه الأروقة استمرارًا للظاهرة التي عرفتها المساجد المغربية منذ عهد المرينيين — كما سبقت الإشارة- حيث أصبح الصحن يشغل مساحةً

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٦٨؛ الأنصاري: المصدر السابق، ح ٣٨، ص ٣١؛ أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢١٣.

كبيرةً من المساحة الكلية التي يشغلها المسجد على حساب مساحة الأروقة الجانبية التي صارت تستخدم كممرات لحماية المصلين من الأمطار عند دخولهم المسجد[١]، ويرجع ذلك – فيما يبدو- إلى كثرة المساجد الجامعة التي شيدها المرينيون إلى جانب المساجد السابقة على عهدهم؛ لذا لم تعد هناك حاجة إلى الأروقة ذات المساحات الكبيرة، سيما وأن كبر المساحة مع قلة عدد النوافذ أو انعدامها- أحيانًا- بجدران هذه المساجد- كغيرها من عمائر الغرب الإسلامي- يساعد على قلة دخول الضوء والهواء إلى هذه الأروقة، بالإضافة إلى استخدام الصحن للصلاة في فصل الصيف، لذلك فقد سدت فتحة العقد الأوسط لواجهة رواق القبلة المطلة على الصحن والواقع على محور المحراب، بحجاب خشبي يشتمل على محراب يحدد اتجاه القبلة، يعرف كما سبقت الإشارة بـ "المحراب الصيفي" أو "العنزة"[٢].

وتمتاز حنايا محاريب المساجد الجامعة السعدية بعمقها الشديد، إذ يبلغ عمق حنية محراب جامع باب دكّالة ٣.٢٥م (لوحة ٢٣) وعمق حنية محراب جامع الموّاسين ٣.١٨م (لوحة ٤٠) وعمق حنية محراب كل من جامع أبي العباس السبتي وجامع الزاوية الجزولية ٢.٥٣م (لوحة ٩٨) بينما يبلغ عمق حنية محراب الجامع الكبير بتارودانت ٢.٥٠م (لوحة ١٠)، ونظرًا لعمق حنايا هذه المحاريب يلاحظ أنها غطيت بقباب كاملة (لوحة ٢٤)، ويتيح هذا العمق للإمام أن يقف داخل حنية المحراب وبالتالي يوفر صفاً خلفه للمصلين، كما أن القبة تعمل على تضخيم صوته ليسمعه جميع المصلين. وفي حين دخل الرخام في كسوة واجهات المحاريب وأيضًا حناياها من الداخل في مساجد تونس منذ القرن (١٠ هـ / ١٦م) متأثرة بالتقاليد العثمانية[٣] نجد أن هذه المادة لم تستخدم في تكسية محاريب المساجد السعدية، وإنما غطي الجزء السفلي لواجهاتها بالزليج المتعدد الألوان أو بالحصير الملون وفقًا للتقاليد المغربية السابقة على العهد السعدي (اللوحات ١٠، ٢٣، ٤٠، ٩٨).

وتجدر الإشارة إلى أن تحديد اتجاه القبلة في المساجد المغربية كان من الموضوعات التي اهتم بها شيوخ وفقهاء المغرب على مر العصور، من ذلك ما رواه البيذق عن المهدي بن تومرت الزعيم الروحي للموحدين، أنه أمر أتباعه بعدم دخول مراكش عاصمة المرابطين حتى يطهروها، وعندما استولى عبد المؤمن بن علي الموحدي على هذه المدينة امتنع الموحدون عن سكناها وسألوا الفقهاء عن مغزى هذه الوصية، فأفتوهم بهدم مساجد المدينة التي شيدها

---

(١) يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة – الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، عدد (٣٠٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو ٢٠٠٤م، ص ١٥٦.

(٢) انظر، هنري تيراس: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) محمد الباجي بن مامي: جوامع مدينة تونس في العهد العثماني دراسة تاريخية وفنية ومعمارية، بحث نشر في مجلة جمعية الآثاريين العرب، المجلس الأعلى للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الأول – رمضان ١٤٢١ هـ / يناير ٢٠٠٠م، ص ص ١٠٥، ١١٩.

المرابطون وبناء مساجد لهم يقيمون فيها الشعائر، وذلك لانحراف قبلة المساجد المرابطية -وفقاً لرأيهم- عن القبلة المستقيمة واتجاهها ناحية الشرق، وكانوا يرون أن التشريق والتحريف لليهود وغيرهم[١] ، ورغم ما تشير إليه هذه الرواية من الاهتمام الشديد بدقة توجيه محاريب المساجد المغربية تجاه القبلة الصحيحة، فإنه لا يستبعد أن يكون ذلك ذريعةً من قبل الموحدين لمحاولة طمس المنشآت التي من شأنها أن تذكر بالدولة المرابطية وحكامها.

وفي العصر المريني، عندما شيد السلطان يعقوب بن عبد الحق مدرسة الصفارين بفاس القديمة (٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م)[٢]، تبين أن في قبلتها انحراف عن قبلة جامع القرويين، كما لوحظ أن في قبلة بعض مساجد فاس انحراف بعضها عن بعض، ورفع ذلك إلى هذا السلطان فجمع فقهاء عصره آنذاك للنظر في ذلك، فذكروا أن جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التي نصبها الإمام إدريس الثاني، وقد صلى إليها العديد من العلماء والصلحاء والقضاة وأمراء العدل ممن يقتدى بهم فما غيروا في ذلك، وما يظهر في قبلة بعض المساجد من انحراف عن بعضها قد يقرب من الصواب على رأي من يرى أن المطلوب من قبلة بلاد المغرب بل وسائر الآفاق إنما هو لجهة مكة لا عين الكعبة، والجهة في ذلك حاصلة، وغاية ما عند الناس في الأقاليم الغائبة عن مكة المحافظة على جهة البيت لا سمته، وقد قال الرسول (ﷺ): "ما بين المشرق والمغرب قبلة" [٣].

وفي العصر السعدي، وصلت إلى أحد العلماء المغاربة وهو محمد بن علي التمكروتي (ت: حوالي ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ - ١٥٥٨م) رسالة علمية إصلاحية في بضع صفحات من عبد الرحمن التاجوري (ت: حوالي ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣م) شيخ الفلكيين بمصر، يتحدث فيها عما بلغه من انحراف قبلة مساجد المغرب، وبخاصة مساجد مدينة فاس، باتجاهها إلى الجنوب بدل المشرق، ويشرح له بطلان ذلك بأدلة عقلية ونقلية، ويحثه على القيام بعمل إيجابي في هذا المضمار، بقوله: "فالله الله يا سيدي محمد، في إصلاح قبلة مساجد المسلمين، فكل مسجد تجده مستقبلاً جهة الجنوب، اجعل محرابه في الحائط الشرقي وسد محرابه الجنوبي، وابعث رسولك إلى السلطان محمد[٤] صاحب مراكش ينظر في محاريب بلاد مملكته وإصلاحها وتصويبها إلى جهة مشارق الاعتدال" [٥].

---

(١) البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي، من القرن ٦ هـ / ١٢م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص ٦٦.

(٢) عن هذه المدرسة. انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٦٥ - ١٧٣.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٨١ - ٨٢.

(٤) يقصد السلطان محمد المهدي الشيخ (٩٥١ - ٩٦٤ هـ / ١٥٤٤ - ١٥٥٧م).

(٥) محمد حجي: الحركة الفكرية، الجزء الثاني، ص ص ٥٤٦ - ٥٤٧.

وتجدر الإشارة إلى أن رواق القبلة بالمساجد السعدية السابق دراستها — كغيرها من مساجد المغرب- لا يشتمل على كرسي للمصحف كما هو الحال برواق أو إيوان القبلة بالمساجد المملوكية والعثمانية بمصر[١]، حيث رأى بعض الفقهاء المالكية أنه لا ضرورة لوجود مثل هذه الكراسي بالمساجد، لأنها تشغل حيزًا من مساحة الصلاة، ثمَّ إن قراءة القرآن بصوت مرتفع يشوش على المسلمين المجتمعين لصلاة الجمعة، ومنهم المصلي والتالي والذاكر والمتأمل، فإذا قرأ القارئ قطع عليهم ما هم فيه[٢]، فضلاً عن ذلك فقد أجاز بعض الفقهاء المالكية كابن رشد القرطبي (ت: ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م) قراءة الحزب في الجماعة[٣]، حيث يقرأ الراغبون في القراءة معًا بصوت مرتفع، ولا زالت هذه الظاهرة مستمرة بمساجد المغرب حتى الآن.

كذلك لا يوجد برواق القبلة بالمساجد الجامعة السعدية — وغيرها من المساجد المغربية- دكة للمبلغين، كما هو معروف بالمساجد المملوكية والعثمانية بمصر أيضًا[٤]، إذ جرت العادة في المغرب- وفقًا لما ذكره ابن الحاج (ت: ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م)- أنه يوجد في الجامع الواحد أربعة مؤذنين، أحدهم يقف خلف الإمام، والثاني حيث ينتهي إليه صوت الأول، والثالث حيث ينتهي صوت الثاني، ثمَّ الرابع كذلك على هذا الترتيب[٥].

المئذنة:

تعتبر المئذنة من عناصر الانتفاع المهمة بالمنشآت الدينية التي أولاها المعمار عنايةً خاصةً ظهرت في تفننه في بنائها والعناية بجمالها. وهي من الوحدات المعمارية التي ارتفع بناؤها ارتفاعًا كبيرًا ليحقق وصول صوت المؤذن إلى أقصى مسافة ممكنة، كما أن هذا الارتفاع يحقق رؤية المؤذن من مسافات بعيدة ربما لا يصلها الصوت، كما أن لها وظيفة تعبيرية من حيث إنها العنصر الدال على كينونة بناء المسجد وتحديد موضعه بين تكوينات المدينة وبخاصة للغرباء[٦].

ولقد عرف المسلمون المكان الذي يرفع منه الآذان باسم المئذنة أو الصومعة أو المنارة[٧]،

---

(١) حول هذه الظاهرة. انظر، محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٢) ابن الحاج: المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ص ٢٠٦ — ٢٠٧؛ محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٣) محمد حجي: نظرات في النوازل الفقهية، ص ص ١١٠ — ١١١.

(٤) محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ص ١٥٤ — ١٥٥.

(٥) ابن الحاج: المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ص ٢١١ — ٢١٢.

(٦) محمد عبد الستار: الإعلان بأحكام البنيان، ص ٦٢.

(٧) عن المعنى اللغوي لهذه المصطلحات الثلاثة. انظر، صالح بن قربة: المئذنة المغربية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ١٩٨٦م، ص ص ٨ — ٩.

وكان العرب يطلقون على أبراج الزهاد اسم "الصوامع"، ولعل بقاء هذه الكلمة للدلالة على المآذن راجع إلى أن المآذن الأولى في الشام وغيرها كانت مربعة كأبراج الزهاد[١]. وهذا لا يعني – فيما يبدو– أنها تقليد لأحد العناصر المعمارية التي شاهدها المسلمون في كنيسة أو معبد سابق على الإسلام، وإنما نتجت تلبيةً لحاجة فرضتها شعيرة الأذان للصلاة[٢].

وقد تنوعت أشكال وطرز المآذن في العالم الإسلامي حسب الأقاليم والبيئات التي وجدت فيها، وكان طراز المآذن ذات المسقط المربع هو الذي عم استعماله في بلاد الغرب الإسلامي[٣]، ولم يستخدم أهل هذه البلاد كلمة "مئذنة" وإنما شاع استعمال مصطلح "الصومعة" – حتى الوقت الحاضر– مع الاستبدال بها مصطلح "المنارة" أو "المنار"[٤]، كما إن بعض أهل المغرب يسمون المئذنة "عساس" بمعنى مكان المراقبة والملاحظة، مما يشهد بأن المآذن لم تكن تستخدم للآذن فحسب بل كانت تستعمل للكشف والمراقبة في بعض الأحيان[٥].

ولا شك في أن طراز المآذن ذات المسقط المربع قد ظهر في الغرب الإسلامي لأول مرة– في ضوء الآثار الباقية– في مئذنة جامع القيروان التي بناها بشر بن صفوان عام (١٠٥ هـ / ٧٢٤ م)[٦]، ثمَّ ساد الطراز المربع للمئذنة وطبق في جميع مساجد المغرب والأندلس فيما عدا

---

(١) زكي محمد حسن: تطور المآذن، بحث نشر في مجلة الكتاب، الجزء الحادي عشر، السنة الأولى، د.ت، ص ص ٧١٦ – ٧١٧.

(٢) صلاح الدين البحيري: عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٢م، ص ص ٧٤ – ٧٥.

(٣) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص ٧١٧؛ السيد عبد العزيز سالم: المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، د.ت، ص ٣.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٤٧، ٥٠؛ المقري: نفح الطيب، الجزء الأول، ص ص ٥٤٧ – ٥٤٨، ٥٦٣.

(٥) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، ١٩٣٦م، ص ١١٢؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٩. وإن كان سيادته يرجح أن عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في الأندلس هو أول من أدخل المآذن السورية المربعة في المساجد الأندلسية، فقد بنى ابنه هشام مئذنة مربعة بجامع قرطبة عام (١٨٠ هـ / ٧٩٦م)، وبنى عبد الرحمن الأوسط مئذنة جامع إشبيلية القديم وهي مئذنة لا تختلف كثيرًا عن المآذن السورية ذات الأبدان المربعة، ثمَّ انتشر هذا الطراز للمئذنة في المغرب والأندلس، فبنى عبد الرحمن الناصر مئذنة جامع الزهراء عام (٣٢٩ هـ / ٩٤١م) ومئذنة جامع قرطبة عام (٣٣٤ هـ / ٩٤٥م) على نفس هذا النظام، ثمَّ بنيت مئذنة مسجد صفاقس عام (٣٧٠ هـ / ٩٨١م) على طراز مئذنة القيروان واتبعت مئذنة قلعة بني حماد (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧م) نفس هذا الطراز. انظر، السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه، ص ٩.

(٦) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ١١٢؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٩. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين يرى أن مئذنة جامع القيروان ربما كانت من إنشاء زيادة الله الأغلبي سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦م). انظر، ك. كريزويل: الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، تعليق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة – دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٥٤. وعن الآراء المختلفة المثارة حول تاريخ بناء هذه المئذنة، انظر، نجوى=

مئذنة مسجد رباط سوسة الذي شيده زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي(٢٠٦ هـ/ ٨٢١ – ٨٢٢م) إذ أنها تستند على برج مربع الشكل بينما كان بدنها دائريًا[١]، ومئذنة مسجد تينملل (٥٤٣ هـ/ ١١٤٣م) التي يلاحظ أنها ذات مسقط مستطيل[٢]، كما ظهر في العصر العلوي ببعض مدن شمال المغرب الأقصى مآذن مثمنة الشكل، وهي تتمثل في مئذنة الجامع الكبير بمدينة شفشاون التي شيدت بأمر الناظر محمد بن قاسم شهبون في عهد السلطان سليمان العلوي (١٢٠٦ – ١٢٣٨ هـ/ ١٧٩٢ – ١٨٢٢م) [٣]، ومئذنة الجامع الكبير بمدينة وزان الذي شيده السلطان سليمان العلوي السابق ذكره[٤]، وأخيرًا مئذنة الجامع الكبير بمدينة طنجة التي يرجح أنها ترجع إلى عهد السلطان سليمان العلوي أيضًا[٥]. وقد رجح بعض الباحثين أن يكون هذا الشكل تقليدًا لقبة الصخرة ببيت المقدس التي يأخذ قطاعها الخارجي شكلاً مثمنًا، سيما وأنه قد عرف عن المغاربة منذ القدم تعلقهم الشديد ببيت المقدس، فعمروه وجاوروا فيه، وحبسوا عليه الرباع والعقار، وحرصوا – على مر الزمان- على تزويد مكتبته العلمية بنفائس الكتب وثمين المصاحف، فلا غرابة أن يستهويهم الشكل الهندسي للقبة لينقلوه إلى بلادهم، كما رجح صاحب هذا الرأي أيضًا أن يكون اتخاذ هذه المآذن للشكل المثمن يرمز إلى خاتم سليمان[٦]، الذي يطلق في المغرب على الشكل المثمن النجمي والذي يعد من أكثر هيئات النجوم تمثيلاً في الزخرفة الهندسية المغربية[٧]، بل والإسلامية بصفة عامة[٨].

والواقع يمكن القول أن هذه المآذن المغربية السابق الإشارة إليها قد تأثرت بالمآذن المثمنة الشكل، التي ظهرت بكل من الجزائر وتونس منذ النصف الأول من القرن (١٠ هـ/ ١٦م)، ففي

= عثمان: مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق – سوريا، ٢٠٠٠م، ص ص ٨٥ – ٨٧.

(١) كريزويل: المرجع السابق، ص ٣٨؛
Hoag, J., : Islamic Architecture, New York, p. 64, Plate 65.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ج٤، ص ٤٤٠؛ صالح بن قربة: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٣) سعيد اعراب: المرجع السابق، ص ٣٠، عبد الهادي التازي: ظاهرة الصوامع المثمنة الشكل بشمال المغرب، بحث نشر في مجلة جمعية الآثاريين العرب، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الأول، رمضان ١٤٢١ هـ/ يناير ٢٠٠٠م، ص ٨٦؛ Korbendau, Y., : L'Architecture Sacrée de l'Islam, ACR Édition, Paris, 1997, p. 316.

(٤) الناصري: المصدر السابق، الجزء الثامن، ص ١٧٣؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٥) عبد الهادي التازي: المرجع نفسه، ص ٨٧.

(٦) عبد الهادي التازي: نفس المرجع والصفحة.

(٧) أندريه باكار: المغرب والحرف التقليدية الإسلامية في العمارة، ترجمة د. سامي جرجس، دار أتوليبه ٧٤ للنشر، ١٩٨١م، المجلد الأول، ص ص ١٥٥ – ١٦٠.

(٨) عبد الناصر محمد حسن: الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية (دراسة في "ميتافيزيقا" الفن الإسلامي)، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج- إصدار خاص: دراسات آثارية، العدد الثالث والعشرون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠٠٠م، ص ٥٦.

الجزائر[1] ظهر هذا الشكل في مئذنة جامع سفير (٩٤١ هـ / ١٥٣٥م) ومئذنة جامع الباي محمد الكبير بمعسكر المعروف بمسجد العين البيضاء (١١٩٥ هـ / ١٧٨٠م) ومئذنة جامع الباشا بوهران (١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢م) ومئذنة جامع القصبة البراني (١٢٣٣ هـ / ١٨١٨م) ومئذنة جامع القصبة الجواني (١٢٣٤ هـ / ١٨١٩م) [2]، أما في تونس فإن أول ظهور للمآذن المثمنة بها كان في جامع يوسف داي (١٠٢١ هـ / ١٦١٢م)، ثمَّ مئذنة جامع حمودة باشا المعروف بجامع سيدي محرز (١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥م) ومئذنة جامع حسين بن علي المعروف بالجامع الجديد (١١١٧ هـ / ١٧٠٥م) ومئذنة جامع صاحب الطابع (١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م) [3].

كما ظهر طراز المآذن المثمنة في العمارة الليبية أيضًا وذلك منذ بداية القرن (١٢ هـ/ ١٨ م)، وتعد مئذنة جامع محمد باشا شائب العين بطرابلس (١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) هي أقدم نماذجه، ثمَّ نراه بعد ذلك في مئذنة جامع أحمد باشا القرمانلي، ومئذنة جامع قورجي، ومئذنة الجامع العتيق بمدينة درنة (من القرن ١٢ هـ /١٨م)، ومئذنة جامع ميرزان بطرابلس، واستمر بعد ذلك إلى فترة متأخرة حيث نجده في مئذنة جامع الباشا بمدينة الخمس التي شيدت سنة (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م) [4].

وخلافًا لما ظهر من تعدد المآذن في بعض مساجد الشرق الإسلامي[5]، نجد أن المساجد في بلاد المغرب والأندلس ليس لها إلا مئذنة واحدة، تتألف عادةً من طابقين مربعين، الأعلى وهو

---

(١) كما ظهر في الجزائر في هذه الفترة أيضًا، إلى جانب المآذن المثمنة الشكل، نوع آخر من المآذن الأسطوانية الشكل تنتهي بقمة مخروطية أو قلمية الشكل، وهي تشبه المآذن العثمانية بتركيا- مع الأخذ في الاعتبار أن المآذن العثمانية أكثر رشاقةً وارتفاعًا عن مثيلاتها التي بشمال إفريقيا- ومن أفضل أمثلة هذا النوع بالجزائر مئذنة جامع سيدي الكتاني بقسنطينة (١١٩٠ هـ / ١٧٧٦م) ومئذنة جامع صالح باي بعنابة (١٢٠٦ هـ / ١٧٩١م). انظر، عبد العزيز لعرج: مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر، ص ٥٣٣.

(٢) عبد العزيز لعرج: المرجع نفسه، ص ٥٣٢.

(٣) محمد الباجي بن مامي: المرجع السابق، ص ص ١٠٦ — ١١٧.

(٤) صلاح أحمد البهنسي: التأثيرات العثمانية على العمارة والفنون الإسلامية في ليبيا منذ بداية العصر العثماني الأول وحتى نهاية العصر العثماني الثاني (٩٥٨ — ١٣٣٠ هـ / ١٥٥١ — ١٩١١م)، بحث نشر في أعمال المؤتمر الثاني لمدونة الآثار العثمانية في العالم حول: العمارة السكنية، النقائش الجنائزية وآليات الترميم، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، ١٩٩٨م، ص ٧٩.

(٥) مثال لذلك الجامع الأموي بدمشق وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط- بعد زيادة مسلمة بن مخلد عام (٥٣ هـ / ٦٧٢م)- ، والجامع النبوي — بعد إعادة بنائه في عهد الوليد بن عبد الملك عامي (٨٨ — ٩٠ هـ / ٧٠٧ — ٧٠٩م)- حيث اشتمل كل منها على أربع مآذن، وهناك ما اشتمل على مئذنتين كجامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة (٣٩٣ هـ / ١٠٠٣م)، وغير ذلك. انظر، صالح بن قربة: المرجع السابق، ص ص ١٢ — ٢١.

الجوسق أصغر حجمًا وأقل ارتفاعًا من الأول[١]، ويرتد إلى الداخل ليوفر الممشى الذي يعلو الطابق الأول، ويفتح في كل ضلع من أضلاعه الأربعة فتحة معقودة أو فتحتين، وذلك – فيما يبدو- لحماية المؤذنين الذين يعتلون هذه الصوامع في كل الأوقات مهما اختلفت فصولها، حيث يمكن أن يستخدم الممشى للأذان في الفصول التي لا تسقط فيها الأمطار، بينما يستخدم الجوسق في فصل الشتاء وهطول الأمطار[٢]، ويعلو هذا الجوسق – في معظم النماذج- قبة صغيرة يعلوها عمود من الحديد[٣]، ثبت فيه مجموعة تفافيح أو كرات من النحاس مختلفة الأحجام، ويطلق عليه في الاصطلاح المغربي اسم الجامور[٤]أو العزري[٥].

على أن هناك بعض المآذن المغربية لا تتكون من طابقين، وهي مئذنة جامع القيروان (١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) وجامع صفاقس (٣٧٠ هـ / ٩٨١م)، إذ أن كلاً منهما تتألف من ثلاثة طوابق، كما يلاحظ أن مئذنة كل من جامعي القرويين والأندلس بفاس تتكون من طابق واحد تعلوه قبة[٦]، كذلك يلاحظ أن مئذنة مسجد أبي يوسف يعقوب المريني بشالة تتكون من قاعدة مربعة طول ضلعها ٣.٧٥ م وارتفاعها ١٤.٣٥ م يعلوها دعامة أو بناء مصمت مربع الشكل طول ضلعه ١.٣٤ م وارتفاعه ٥م[٧]، وفي العصر السعدي نجد أن الطابق الثاني لمئذنة جامع المواسين غير مغطى بقبة، كما أنه لا يشتمل على سلم داخلي- كما هو الحال في طابقها الأول- وإنما يوجد سلم خارجي يلاصق الواجهة الشرقية لهذا الطابق (اللوحتان ٦٥، ٦٧).

وقد شيدت مآذن الغرب الإسلامي بمواد بناء مختلفة، فمنها ما شيد بالآجر المغطى بطبقة من الملاط كمئذنتي جامع القرويين والأندلس بفاس (٣٤٥ هـ / ٩٥٦م)، ومئذنتي

---

(١) توريس بالباس: الأبنية الإسلامية، ص ١٠٤؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٣.

(٣) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ١٠٥؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٤٠ – ٤٤١.

(٤) الجامور أو الجمار بتشديد الميم قلب النخل والدوم وهو لين أبيض يؤكل، وهي لفظة حية في اللغة العربية المغربية، انظر، العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد، تُوُفِّيَ أواخر القرن ٧ هـ / ١٣م): رحلة العبدري المسماه بالرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات ٤ – حجازية ١، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م، ح١، ص ٩٢؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ح٣، ص ١٣١؛ عبد الهادي التازي: الجامور في الصوامع المغربية، بحث نشر في مجلة جمعية الآثاريين العرب، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الثالث، ذي القعدة ١٤٢٣ هـ/ يناير ٢٠٠٢م، ص ص ١٠٤ – ١٠٧.

(٥) عبد الهادي التازي: المرجع نفسه، ص ١٠٥؛ ولنفس المؤلف: جامع القرويين، المجلد الأول، ص ٥٧.

(٦) عبد الهادي التازي: نفس المرجع والمجلد والصفحة. وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يرى أن الطابق الثالث من مئذنة جامع القيروان مضافًا إليها ولا يرجع إلى عصر الإنشاء. انظر، كريزويل: المرجع السابق، ص ١٥٣؛ Marçais, G.,: Manuel, Tome. I, p. 27.

(7) Basset, H., et Provençal, L.,: Op. Cit., p. 270

المسجد الكبير بأغادير- التي شيدت قاعدتها بالحجر- وتلمسان (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م) [١]، ومنها ما شيد بالحجر كمئذنة جامع القيروان (١٠٥ هـ / ٧٢٤م) – التي شيد طابقها الثالث بالآجر [٢]- ومئذنة قلعة بني حماد (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧م) ومئذنة مسجد قرطبة (٣٤٠ هـ / ٩٥٠م) ومئذنة جامع حسان بالرباط [٣]، ومئذنة جامع المنصورة المريني بتلمسان (٧٠٢ هـ / ١٣٠٢م)، كما أن هناك من المآذن – وبخاصة في عصر الموحدين- ما دخل في بنائها مواد مختلفة من الآجر والدبش والحجر كمئذنة الكتبية [٤] بمراكش، أما المآذن المرينية فقد شيدت – وفقاً لنماذجها الباقية- بالآجر المغطى بطبقة من الملاط، وقد شيدت المآذن السعدية الباقية هي الأخرى بالآجر المغطى بالملاط، كما هو الحال في مئذنة الجامع الكبير بتارودانت، ومئذنة جامع باب دكّالة، ومئذنة جامع المؤّاسين، ومئذنة جامع أبي العباس السبتي ومئذنة جامع الزاوية الجزولية بمراكش.

ونظرًا لأن مساجد الغرب الإسلامي امتازت – كما سبقت الإشارة- بمئذنة واحدة، الأمر الذي جعل المعمار يعتني – فيما يبدو- ببنائها وزخرفتها عناية خاصة، سيما منذ العصر الموحدي؛ حيث كانت المآذن تزين قبل هذا العصر من جهة واحدة فقط وهي الجهة المقابلة للصحن، كما هو الحال بمئذنة جامع القيروان وصفاقس وقلعة بني حماد، ولكن بدايةً من عصر الموحدين زينت الواجهات الأربع للمئذنة [٥] بعناصر زخرفية متنوعة من نباتية وهندسية أهمها شبكة المعينات المتجاورة المتصلة (الأشكال ٥٦ / أ، ب، ج، د، ٥٧/ أ، ب، ج، د، ٥٨/ أ، ب، ج)، كما زينت بعض المآذن فضلاً عن ذلك بنقوش كتابية كما هو الحال بمئذنة جامع الكتبية بمراكش ومآذن جامع المشور وسيدي بلحسن (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م) والمنصورة بتلمسان [٦]، كما استخدم الزليج في كسوة واجهات المآذن المغربية، وترجع أولى نماذج استخدام الزليج في الزخارف الجدارية بالمغرب والأندلس إلى العصر الموحدي، غير أنه استخدم في نطاق محدود كأشرطة ضيقة تتوج واجهات بعض المآذن، كمئذنتي جامع الكتبية وجامع القصبة بمراكش [٧]، ثمَّ صار يستخدم بعد ذلك في كسوة الواجهات الأربع لغالبية المآذن المرينية، وفي العصر السعدي استخدم الزليج في كسوة الواجهات الأربع لمئذنة الجامع الكبير بتارودانت

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر، بحث نشر في مجلة المجلة، العدد التاسع والعشرون، مايو ١٩٥٩م، ص ص ٣١ – ٣٢.

(٢) نجوى عثمان: المرجع السابق، ص ١١١.

(٣) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٠٣؛ مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٠٣، ٤٤٠.

(٥) صالح بن قربة: المرجع السابق، ص ٥٩، ح ٤٠ من نفس الصفحة.

(٦) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٧٧.

(٧) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص ص ٢٧، ٥٢؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٨.

فقط (لوحة ١٣)، بينما غطيت مئذنتا كل من جامع باب دكّالة وأبي العباس السبتي بطبقة من الجص نفذت عليها زخارف هندسية متنوعة (اللوحات ٢٧، ٤٧، ٤٨، ٦٠، ٦١)، في حين نجد أن واجهات مئذنة جامع المواسين حاليًا خالية تمامًا من الزخرفة (لوحة ٤٥)، وقد استمرت هذه الظاهرة في مآذن المساجد العلوية التي يلاحظ أن واجهاتها خالية تقريبًا من الزخرفة[١].

فضلاً عن ذلك، فقد امتازت مآذن الغرب الإسلامي - وبخاصة في العصر الموحدي- بارتفاعها وضخامة أبعادها، فعلى سبيل المثال يبلغ طول ضلع القاعدة المربعة لصومعة حسان ١٦م، ويبلغ ارتفاعها الحالي - بعد سقوط الأجزاء العلوية التي كانت تكملها - ٤٤م، وقدر بعض الباحثين ارتفاعها الكلي بنحو ٨١ م[٢]، وبذلك تعتبر - في ضوء المآذن الباقية- أعلى مئذنة في العالم الإسلامي من العصور الوسطى، فهي أكثر ارتفاعًا من مئذنة قطب منار بدلهي التي يبلغ ارتفاعها ٧٣م، كما يبلغ طول ضلع قاعدة مئذنة الكتبية بمراكش ١٢,٥٠م وارتفاعها الكلي ٦٧,٥٠م، وبذلك فهي أعلى مئذنة في الغرب الإسلامي - في ظل سقوط الأجزاء العليا من صومعة جامع إشبيلية (الخيرالدا) وصومعة حسان بالرباط- وثالث مئذنة في العالم الإسلامي بعد مئذنة قطب منار بدلهي السابق الإشارة إليها، ومئذنة جامع السليمية (٩٧٦ - ٩٨٢ هـ /١٥٦٨- ١٥٧٤م) بأدرنة البالغ ارتفاعها ٧٠,٨٩ م[٣].

غير أن هذه الضخامة والارتفاع الشاهق لم يستمرا في مآذن المساجد المرينية- ربما لصغر مساحة هذه المساجد عن مثيلاتها الموحدية- ، وقد استمرت هذه الظاهرة في العصر السعدي، كما يتضح من الجدول الآتي:

اسم الجامع	عرض قاعدة المئذنة	ارتفاعها الكلي
الجامع الكبير المريني بفاس الجديد	٥٫٧٠ م	٢٧,٧٠ م
جامع الحمراء المريني بفاس الجديد	٤,٥٠ م	١٩,٢٠ م
جامع الشرابليين المريني بفاس القديمة	٣ م	١٧,٧٥ م[٤]
الجامع الكبير بتارودانت	٥,٥٠ م	٢٧ م
جامع باب دكّالة بمراكش	٤,٦٠ م	٢٧,٥٠م
جامع المواسين بمراكش	٩ م	١٧,٥٠ م
جامع أبي العباس السبتي بمراكش	٤,٤٠ م	٢٥ م
جامع الزاوية الجزولية بمراكش	٢,٧٠م	١٧,٨٥م

(1) Maslow, B.,: Op. Cit., p. XXII.
(2) Caillé, J., : Le Mosquée de Hassan a Rabat, Paris, 1945, pp. 95, 149.
(٣) أوقطاي آصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، ١٩٨٧م، ص ١٨٣.
(4) Maslow, B.,: Op. Cit., pp. 50, 59, 76.

ويعكس تصميم مآذن الغرب الإسلامي محاولات التوفيق بين ارتفاعها لتحقيق غرضها الوظيفي ومنع ضرر الكشف الذي ربما يحدث نتيجة هذا الارتفاع، فجاء سلمها من الداخل تضيئه مناور أو فتحات نافذة في بدن المئذنة من الخارج غالبًا ما تكون في مستوى لا يمكن الصاعد من الإطلال فتقتصر على الإضاءة والتهوية، وتأخذ غالبًا هيئة الفتحات المزغلية التي تجعل الناظر منها في حالة تمكنه من الإطلال في بعض المآذن التي لا ترتفع فتحاتها عن مستوى الشخص الصاعد لسلم المئذنة، لا يكشف المستويات أسفل النافذة - وهي المستويات التي تتضرر من الكشف- لأن خط البصر يكون مستقيمًا[١] (انظر على سبيل المثال شكل ٥٩)، بالإضافة إلى أن الجوسق الخاص بالمؤذنين جاء في أعلى موضع من مبناها.

ولما كان سلم الطابق الثاني لمئذنة جامع المواسين بمراكش يلاصق الواجهة الشرقية لهذا الطابق من الخارج (لوحة ٦٥)، ولم يشيد من الداخل كما هو الحال بسلم الطابق الأول لنفس المئذنة؛ قام المعمار بعمل سياج أو سترة مبنية بالآجر لهذا السلم تمنع المؤذن من النظر إلى الدور المجاورة، سيما وأن هذه المئذنة قليلة الارتفاع كما سبقت الإشارة.

وعلى الرغم من ذلك ذكر الجزنائي أن بعض الخلفاء المغاربة: "كان يشتد على قومه الأذان في أن لا يصعد للأذان نهارًا إلا من عرفت عفته ووثق به في غض بصره حوطةً على حرم المسلمين والاطلاع على عوراتهم، وخوف فتنة تحدث بسبب من لا يؤمن في ذلك، وكان بعض من ابتلي بالنظر في الحسبة يأمر المؤذنين بعمل عصائب على أعينهم حين الأذان بالنهار"[٢]. وقد كانت هذه الشروط من العوامل المساعدة مع المواصفات المعمارية السابقة على منع ضرر الكشف من على هذه المآذن.

ويلاحظ من خلال المساقط الأفقية للمساجد الجامعة المغربية السابقة على العهد السعدي، أن المئذنة لم يكن لها- كما سبقت الإشارة- موقع محدد بالنسبة لتصميم المسجد، وقد نهجت المساجد السعدية نفس النهج، حيث نجد أن المئذنة تقع أحيانًا داخل ساحة الصلاة بالجامع، كما هو الحال في مئذنة جامع باب دكّالة بمراكش التي تشغل الركن الشمالي من الرواق الغربي لهذا الجامع (شكل ٣)، وأحيانًا أخرى – وهو الغالب- تقع المئذنة خارج ساحة الصلاة بالجامع، كما في مئذنة الجامع الكبير بتارودانت التي شيدت بملاصقة القطاع الغربي لواجهته الجنوبية (شكل ١)، ومئذنة جامع المواسين بمراكش التي توجد بملاصقة الطرف الجنوبي لواجهته الغربية (شكل ٩)، ومئذنة جامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا حيث شيدت بملاصقة الطرف الغربي للواجهة الشمالية لهذا الجامع (شكل ١٤)، ومئذنة جامع الزاوية الجزولية التي شيدت بملاصقة الطرف الشمالي للجامع (شكل

(١) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ص ٦٢ – ٦٣.

(٢) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٥٣ – ٥٤.

٣٧/ج).

تبقى الإشارة إلى أن بعض مآذن الغرب الإسلامي استبدل بسلمها الداخلي طريق صاعد بدون درجات، كمئذنة جامع الكتبية بمراكش وحسان بالرباط والخيرالدا بإشبيلية والمنصورة المريني بتلمسان[1]، ربما كان الهدف منه رفع مواد البناء من أحجار وغيرها على ظهور الدواب بسهولة كلما ارتفع بناء المئذنة[2]، كما أن هذا الطريق الصاعد يسهل مهمة المؤذن الذي ربما يكون متقدمًا في السن ويضطر لاستخدام دابة للوصول إلى أعلى المئذنة[3]، سيما وأن هذه المآذن تميزت بارتفاعها الشديد كما سبقت الإشارة، ومما يساعد على ذلك اتساع هذا الطريق الصاعد وارتفاع سقفه، إذ يبلغ عرض طريق مئذنة الكتبية — على سبيل المثال- ١.٣٠ م وارتفاع سقفه ٣.٦٥م [4]، وعرض طريق مئذنة حسان ٢م تقريبًا[5]، وقد وردت عديد من الإشارات التاريخية التي تفيد الصعود إلى قمة هذه المآذن على ظهر الدواب عبر الطريق الصاعد الذي بداخلها، من ذلك ما ذكره ابن مرزوق (ت: ٧٨١ هـ / ١٣٨٠م) في سياق حديثه عن جامع المنصورة المريني بتلمسان، حيث ذكر أن: "صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها، صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر وهو رحمة الله عليه على فرسه وأنا على بغلتي من أسفلها إلى أعلاها وكأنا في وطأ من الأرض" [6].

كما أشار مارمول في سياق حديثه عن جامع الكتبية بمراكش، إلى أن: "شكله عجيب وصومعته أعلى صومعة في أفريقيا بأسرها. سمك جدرانها اثنا عشر قدمًا، ويستطيع ثلاثة فرسان أن يصعدوا جنبًا إلى جنب حتى أعلاها لشدة استواء مدرجها وسعة عرضه، مع نوافذ عديدة من مسافة لأخرى؛ لإعطاء المزيد من الإنارة"[7]، كذلك ذكر نفس المؤرخ في سياق حديثه عن جامع حسان بالرباط أن صومعته: "شبيهة بصومعة مراكش (الكتبية) والكنيسة الكبرى بإشبيلة (الخيرالدا)، وكأنها من عمل صانع واحد، وإن كان مدرج صومعة حسان أوسع من مدرج الآخرين بحيث يمكن أن يصعد فيه أربعة فرسان معًا جنبًا إلى جنب حتى يصلوا إلى أعلاها" [8]. وقد كانت فكرة الطريق الصاعد الذي لا يشتمل على درجات معروفة

(١) صالح بن قربة: المرجع السابق، ص ٥٢؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٣.

(٢) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٠؛ عبد الرحمن فهمي: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٣) عبد العاطي محمد الورفلي: أوراق أندلسية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية- بنغازي، ١٩٩٠، ص ٣٩؛ سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(٥) عبد الرحمن فهمي: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٦) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٣٢.

(٧) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٥٤.

(٨) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ١٣٠.

ومطبقة في المغرب منذ فترة طويلة في الأهراء التي يخزن فيها الحبوب، فقد ذكر مارمول في سياق وصفه لمدينة مراكش: "وبعد الدخول من باب الطبول هناك على اليسار بناءات قديمة مبنية بالجير والرمل متصلة بسور القصبة كانت في القديم أهراء ذات طابقين يخزن فيها القمح، وتحتها قباب كثيرة يخزن فيها التبن، مع سلم خارجي واسع جداً بدون درجات – مرقاة– ، تصعد عليه الدواب المحملة بالقمح" [(١)].

وعلى طول هذا الطريق الصاعد يوجد بالبدن المركزي لهذه المآذن عدة غرف متطابقة بلغ عددها ست أو سبع غرف غطيت كل منها بقبة[(٢)](شكل ٦٠)، وإن كان لا يعرف على وجه التحديد سبب بناء هذه الغرف، إلا أنه يمكن القول أنها شيدت ليستخدمها أهل الزهد والورع والمتصوفة كخلوات ينقطعون فيها للعبادة، خاصةً وأن انقطاع الزهاد بالمآذن ظاهرة قديمة عرفها الغرب الإسلامي منذ عهد الدولة الأموية بالأندلس؛ حيث أشار عبد الواحد المراكشي في سياق حديثه عن الحكم بن هشام الملقب بالربضي (١٨٠ – ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ – ٨٢٢ م): "وفي أيامه أحدث الفقهاء أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع، أعني صوامع المساجد" [(٣)]، كما ذكر التميمي (ت: ٦٠٣ – ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ – ١٢٠٨م) في سياق حديثه عن الشيخ أبي يعزى يلنور الذي قدم إلى مراكش بعد عام (٥٤١ هـ / ١١٤٦م)، و: "اجتمعت به أيضًا بمدينة مراكش كان بعث فيه فنزل في صومعة المسجد الجامع وكنت أختلف إليه وأزوره" [(٤)]. وعن هذا الشيخ ذكر ابن الزيات أيضًا، أنه: "قدم مراكش بعد عام أحد وأربعين وخمسمائة فحبس في صومعة الجامع أيامًا ثمَّ خلي سبيله" [(٥)]. كما عرف المشرق هذه الظاهرة أيضًا، فقد أشار ابن جبير في سياق حديثه عن الجامع الأموي بدمشق: "وللجامع ثلاث صوامع: واحدة في الجانب الغربي، وهي كالبرج المشيد، تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة، راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي – رحمه الله– ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد من أهل قلعة يحصب"[(٦)].

ومما يؤكد أن هذه الغرف التي بالمآذن المغربية قد شيدت كخلوات للزهاد والمتصوفة

---

(١) مارمول: نفس المصدر والجزء، ص ٥١.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٢٣٣، ٤٤٢؛ عبد الرحمن فهمي: المرجع السابق، ص ١٨٩؛ سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٣) المراكشي: نفس المصدر، ص ٣٠؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٣٧.

(٤) التميمي (محمد بن القاسم بن عبد الكريم): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، ص ١٣٩. عن محمد الشريف: المستفاد أو استقطاب التيار الصوفي، ص ٢٥.

(٥) التادلي: المصدر السابق، ص ٢١٥. وقد ورد في نسخة رقم ٤٣٥٤ التي بالخزانة الحسنية بالرباط كلمة "فجلس" بدلاً من "فحبس".

(٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٨٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٣٧.

هو أن كلاً من مئذنة الكتبية وحسان والخيرالدا - التي شهدت مولد هذه الظاهرة- ، من إنشاء الخليفة يعقوب المنصور الموحدي الذي كان يولي المتصوفة والزهاد اهتمامًا خاصًا، يدل على ذلك ما رواه صاحب المعجب عن هذا الخليفة، فقد ذكر: "وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة" [1]، كما أشار في موضع آخر إلى استصحاب يعقوب المنصور للأولياء في مشروعاته الجهادية واعتبارهم جنده الحقيقيين[2].

ومن هنا لا يستبعد أن يكون هذا الخليفة قد شيد هذه الغرف لتكون خلوات يتعبد فيها من يرغب من هؤلاء الزهاد والمتصوفة، سيما وأن الزاوية لم تكن قد ظهرت حتى هذا التاريخ كمنشأة خاصة بالتصوف.

وأخيرًا، يلاحظ على المآذن المغربية أنه يلاصق أحد جوانب طابقها الثاني أو الجوسق صاري من الحديد أو الخشب يرفع من عليه علم أبيض يؤذن بدخول أوقات الصلاة بالنهار (الأشكال ١٦، ٥٦/ ج، د، ٥٨/ أ، ب)، وعلم أزرق كل صباح جمعة إلى الساعة العاشرة إيذانًا بأن اليوم يوم جمعة، وعلى الناس أن يستعدوا لما يتطلب منهم فيه من الاغتسال وارتداء الأبيض من الثياب والتطيب والتبكير بالذهاب إلى المساجد على ما هو معروف في كتب الحديث والفقه[3]، وهي ظاهرة عرفها المغرب منذ عهد السلطان أبي عنان فارس المريني (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥٧م)، حيث أشارت الروايات التاريخية إلى أنه صعد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) وأمر: "أن يجعل بأعلى الصومعة المذكورة صارٍ وينشر فيه علمًا أبيض في أوقات صلاة النهار وفنار فيه سراج زاهر لأوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد عن المدينة ولم يسمع النداء، وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات وبما يتعلق بها من وجوب الصلوات، ويتركب عليها من الحقوق في وجوه شتى من العادات والعبادات"[4].

بيت المنبر:

عرفت مساجد الغرب الإسلامي نوعًا خاصًا من المنابر يعرف باسم "المنابر المتحركة"، وقد تطلبت حركة المنبر وضع معماري خاص لكونها كانت توضع في حجرات خاصة تقع خلف جدار القبلة تعرف في الاصطلاح المغربي باسم "بيت المنبر" [5]، وهي عبارة عن حجرة

---

(١) المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٢) المراكشي: نفس المصدر، ص ٢٨٩.

(٣) عبد الهادي التازي: جامع القرويين، المجلد الثاني، ح ٥٢، ص ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٥٢ ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الثاني، ص ٥٠٨.

(٥) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ؛ المقري: نفح الطيب، الجزء الأول، =

مستطيلة تزيد مقاساتها عن حجم المنبر، ويتوصل إليها من فتحة باب توجد على يمين المحراب، وكانت حركة المنبر تتم عن طريق مجموعة من العجلات مثبتة في قوائم قاعدته لتجري على قضيبين من الحديد أو من الخشب مثبتين في أرضية بيت المنبر في وضع متواز ويمتدان خارج فتحة بابها داخل البلاطة التي تتقدم المحراب، حتى إذا كانت صلاة الجمعة أو صلاة العيدين — إذا اضطر الأمر للصلاة داخل المسجد- أخرج المنبر يسير على العجلات ليوضع بجوار المحراب، فإذا انتهى الإمام من خطبته ونزل من المنبر أدخل المنبر في حجرته وبذلك تنتظم صفوف المصلين وراء الإمام دون أن يقطعها شيء، كما أن ذلك يساعد على حفظ المنبر وصيانته[١].

ويؤكد بعض الباحثين أن نظام المنابر المتحركة انتقل من جامع قرطبة إلى غيره من مساجد المغرب والأندلس؛ حيث يحتفظ جامع المرية وجامع القناطر في بورتودي سنتامرية بفتحة باب على يمين المحراب تؤدي كما هو الحال بجامع قرطبة إلى بيت المنبر، وترجع هذه النماذج إلى عصر الخلافة الأموية بالأندلس (١٣٨ — ٤٠١ هـ / ٧٥٥ — ١٠١٠م)، كذلك تحتفظ كل من جوامع تلمسان والقرويين بفاس من عصر المرابطين(٤٤٨ — ٥٤٠ هـ / ١٠٥٦ — ١١٤٥م)، وتينملل والكتبية والقصبة بمراكش وحسان بالرباط من عصر الموحدين (٥١٤ — ٦٦٨ هـ / ١١٢٠ — ١١٦٩م)، بفتحات مماثلة لحجرات منابرها على يمين محاريبها[٢]، واستمرت هذه الظاهرة في كل المساجد الجامعة المرينية والسعدية من بعدها.

ومن أقدم المنابر المتحركة منبر مسجد قرطبة الذي صنع بأمر الخليفة الأموي الحكم الثاني بعد أن تم الانتهاء من توسعة مسجد قرطبة سنة (٣٦٥ هـ / ٩٧٥م) [٣]، ومنبر مسجد سوسة ومنبر مسجد الزيتونة ومنبر القرويين بفاس ومنبر مسجد تازة ومنبر مسجد تينملل ومنبر مسجد الكتبية ومنبر مسجد القصبة بمراكش، ومنابر المساجد الحفصية والزيانية والمرينية، التي ما زال عدد كبير منها باقيًا حتى الآن[٤]، كما تجدر الإشارة إلى أن ظاهرة المنابر المتحركة وما تتطلبه من حجرة لحفظها لم تكن قاصرةً على غرب العالم الإسلامي

= ص ٥٤٨؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ٣٤٥.

(١) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٨٥ — ٤٨٦؛ محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق، ح١، ص ٥٣؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٢٤؛ عبد العزيز لعرج: المرجع السابق، ص ٥٣٤؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٥؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٥٦، ٥٨؛ وللمؤلف نفسه: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص ص ٢٠٥، ٢٦٥، ٣٨٤.

(٣) توريس بالباس: المرجع نفسه، ص ٣٨٤.

(٤) عبد العزيز لعرج: المرجع السابق، ص ٥٣٤.

دون شرقه كما أكد بعض الباحثين[١]، فقد كان- وفقًا لما ذكره بعض الباحثين- في الجامع الأزهر منبر متحرك وقت إنشائه[٢]، كما أشار ابن جبير (ت: ٦١٤ هـ / ١٢١٧م) إلى أن قوائم قاعدة منبر الخطيب بالمسجد الحرام كانت تشتمل على أربع بكرات مغلفة بالحديد لتسهيل حركته[٣]. كذلك كان ببعض مساجد الإسكندرية وغيرها منابر متحركة وفقًا لما ذكره الزركشي[٤].

وكما تطلبت حركة المنبر إيجاد حجرة لحفظه، تحكمت أيضًا- فيما يبدو- في المادة التي صنع منها المنبر؛ حيث يلاحظ أن جميع منابر الغرب الإسلامي صنعت من الخشب، وهي مادة خفيفة نسبيًا تتناسب مع حركة المنبر كما أن المادة التي صنع منها المنبر تحكمت بدورها في حركة المنبر التي يرتبط بها تضمين مخطط الجامع بيتًا لحفظ المنبر من عدمه، فعندما استخدمت مادة الحجر والرخام في صناعة بعض المنابر بكل من الجزائر وتونس، منذ منتصف القرن (١٠ هـ / ١٦م) – بعد خضوعها للسيطرة العثمانية- أصبح المنبر ثابتًا في مكانه على يمين المحراب - وهذا النوع من المنابر يعتبر مظهرًا من مظاهر التأثير السياسي والفني العثماني[٥]- لذا لم يعد مخطط الجامع بهذين البلدين يشتمل على بيت أو حجرة للمنبر.

أما المغرب الأقصى- الذي لم يخضع للسيطرة العثمانية- فلم يعرف هذا النوع من المنابر الرخامية والحجرية الثابتة، حيث يلاحظ آن المساجد الجامعة السعدية التي شيدت في القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م) يشتمل تخطيطها على بيت للمنبر (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤)، ولا يزال كل من جامعي المواسين (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) وأبي العباس السبتي بمراكش (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م) يحتفظ بمنبره الأصلي المتحرك (اللوحات ٤٢، ٤٣، ٥٨)، وقد استمرت هذه الظاهرة بالمغرب في عهد العلويين.

ولقد كان اتخاذ المنابر المتحركة وما تتطلبه من حجرات لحفظها موضوع فتوى

---

(١) كريزويل: المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٢) حسن عبد الوهاب: الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة: ١٩٧٩م، ص ١٣٢.

(٣) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٧٢؛ عواطف محمد يوسف نواب: المرجع السابق، ص ٣٥٤.

(٤) الزركشي (محمد بن عبد الله، ت: ٧٩٤ هـ / ١٣٩١م): إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الخامس، القاهرة، ١٣٨٤ هـ، ص ٣٧٤.

(٥) يعتبر منبر جامع القيروان الذي يرجع إلى سنة (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ – ٨٦٣م) أقدم المنابر الخشبية القائمة حتى الآن، مع الأخذ في الاعتبار أن هذا المنبر ثابت في مكانه وغير متحرك. انظر، عبد العزيز لعرج: المصدر السابق، ص ص ٥٣٤ – ٥٣٥، ٥٣٧؛ محمد الباجي بن مامي: المرجع السابق، ص ص ١٠٥، ١٠٩.

فقهاء وشيوخ المغرب، من ذلك ما ذكره الونشريسي (ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م) في جواب له عن مجموعة من البدع: "ومنها اتخاذ المنبر العالي فإنه من الأشياء التي تقطع الصفوف وتأخذ من المسجد جزءاً كبيراً وهو وقف على صلاة المسلمين ... وأما بلاد المغرب فقد سلموا من تقطيع الصفوف لكن بقيت عندهم بدعتان، إحداهما كبر المنبر على ما هو في البلاد، والثانية أنهم يدخلون المنبر في بيته إذا فرغ الخطيب من خطبته، .... ومنبر السنة خلاف هذا كله إنما كان ثلاث درجات لا غير، وهي لا تشغل مواضع المصلين" [(١)]. وإن كان هذا يغاير رأي بعض الفقهاء المشارقة، إذ يذكر الزركشي في هذا الصدد أنه يكره اتخاذ المنبر الكبير الذي يضيق على المصلين إذا لم يكن المسجد متسعاً، وإن كان لا يضيق لسعة المسجد لا يكره، هذا بالنسبة للمنبر الثابت، أما إذا كان المنبر متحركاً وله خزانة خلفه يرد إليها بعد الخطبة فلا يكره، لأنه لا توجد صلاة أثناء الخطبة[(٢)].

بيت الاعتكاف:

يعد بيت الاعتكاف من عناصر الانتفاع التي ألحقت بالمساجد الجامعة السعدية الباقية، باستثناء الجامع الكبير بتارودانت أول المساجد التي شيدت في عهد السعديين (٩٢٣ — ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ — ١٥٤٤م)، بينما ألحق بكل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش بيت للاعتكاف، عبارة عن غرفة مستطيلة تقع خلف القطاع الشرقي للجدار الجنوبي لرواق القبلة، ويتوصل إليه من داخل الجامع من خلال فتحة باب بالجدار الجنوبي لهذا الرواق أيضاً (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، وتطل هذه الغرفة على رواق القبلة ببائكة مكونة من عقدين على هيئة حدوة فرس (اللوحات ١٩، ٢٦، ٣٤، ٤٣).

وتعد هذه البائكة عنصر اتصال مهم، حيث يتحقق من خلال فتحتي عقديها اتصال بيت الاعتكاف بالمسجد، وهو أمر ضروري لصحة الاعتكاف بهذه الغرفة، إذ إنها لو كانت منفصلةً عن المسجد لما جاز الاعتكاف بها، لأن الاعتكاف من شرطه المسجد على ما هو معروف عند الفقهاء[(٣)]، فضلاً عن ذلك فهي تزود هذه الغرفة بالضوء والهواء، خاصةً وأنها لا تشتمل إلا على نافذة صغيرة بجدارها الجنوبي.

ويلاحظ على بيوت الاعتكاف الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية أنها تشغل مساحات صغيرة نسبيًا لا تتسع إلا لعدد قليل من الأشخاص؛ حيث تبلغ مساحة بيت الاعتكاف الملحق بجامع باب دكّالة بمراكش، ١٥,٢١م^2، بينما تبلغ مساحة نظيره الملحق بجامع أبي العباس

---

(١) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٨٥؛ وانظر أيضاً، ابن الحاج: المصدر السابق، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص ٢١٢.

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص ٣٧٤.

(٣) ابن الحاج: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢١٤.

السبتي بمراكش أيضًا ٨.٧٥م٢، وربما يرجع ذلك إلى أن الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ليس فرضًا على عموم المسلمين، وإنما هو سنة يقوم بها من تسمح ظروفه بذلك.

كما يلاحظ على بيوت الاعتكاف الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية، أيضًا أن كلا منها يقع بالقرب من مدخل الواجهة الجنوبية للمسجد (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، ليتم الوصول إلى كل منها بسهولة دون المرور بصحن المسجد وأروقته الجانبية، كما يبدو أن هذا الوضع جاء تلبيةً لرغبة بعض الفقهاء الذين كرهوا الدخول بالطعام للمعتكفين عند الغروب والمرور به بالمسجد، والناس آنذاك في انتظار صلاة المغرب، فيشمون رائحة الطعام، ومنهم الفقراء والمساكين فيتأذون من هذه الروائح وتبقى نفوسهم مشتهيةً لذلك الطعام وأعينهم فيه[١]. ومن هنا فإن قرب بيت الاعتكاف من مدخل الواجهة الجنوبية للمسجد يحقق الوصول إليه مباشرةً، وبالتالي يمنع حدوث هذا الأمر الذي يترتب عليه إيذاء المسلمين وتقليل الفضل الذي من أجله ينقطع المعتكف بالمسجد.

ويبدو أن الحاجة إلى إيجاد مكان يوفر الخصوصية للمقيمين بالمسجد أثناء تأدية سنة الاعتكاف من جهة، وحفاظًا على نظافة المسجد وعدم شغل أي جزء من مساحته لغير غرض الصلاة من جهة أخرى، كان وراء إلحاق هذه الوحدة المعمارية بالمساجد الجامعة. وهي ظاهرة شهدت المساجد الجامعة المرينية - في ضوء النماذج الباقية - الإرهاصة الأولى لها، حيث نجدها في الجامع الكبير بفاس الجديد (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) (شكل ١٨)، ثمَّ نجدها في مسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ — ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ — ١٣٥٥ م)، إذ يشتمل كل منهما على غرفة مستطيلة تقع خلف الجدار الجنوبي لرواق القبلة وتطل عليه ببائكة مكونة من عقدين على هيئة حدوة فرس، يلاحظ أنها تشبه في شكلها المعماري وموقعها بيت الاعتكاف الملحق بالمساجد السعدية السابق دراستها (الأشكال ٣، ٩، ١٤).

كما تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هناك بعض الروايات التي تفيد بوجود أماكن مخصصة بالجامع للاعتكاف، من ذلك ما ذكره أحد فقهاء المالكية المغاربة، وهو ابن الحاج (ت: ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م)، الذي أطلق على هذه الأماكن اسم "الطبقة" التي يتبين من مسماها أنها وحدة معمارية تبنى فوق بناء سفلي، ربما كانت فوق سطح المسجد، و"الديوان"، حيث ذكر: "وأما الطبقة فإن لم تكن من المسجد فالاعتكاف لا يصح فيها، وإن كانت من المسجد فلا يصح الجمعة فيها لكونها محجورة .... وأما موضع الديوان فلا يخلو أيضًا إما أن يكون من المسجد أم لا، فإن كان من المسجد فلا يجوز غلقه ولا تحجيره ولا جلوس أهل الديوان فيه، وإن كان من غير المسجد فلا يصح فيه الاعتكاف، إذ أن من شرطه المسجد كما

---

(١) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص ٢١٨.

تقدم"[١]، مما يشير إلى أن بيت الاعتكاف الملحق بالمساجد الجامعة المرينية والسعدية، قد مر — فيما يبدو- بعدة مراحل حتى وصل إلى الهيئة أو الشكل المعماري السابق وصفه، والذي تتوفر فيه خاصية الاتصال بالمسجد، دون استقطاع أي جزء من المساحة المخصصة للصلاة به، إلى جانب مراعاة شعور المصلين المنتظرين لصلاة المغرب بالمسجد.

خزانة الكتب:

تعتبر خزانة الكتب أو المكتبة من عناصر الانتفاع المهمة بالمنشآت الدينية بصفة عامة والتي تقوم منها بوظائف تعليمية على وجه الخصوص، لأنها الموضع الذي يلجأ إليه الدارسون بالمنشأة والراغبون في الاطلاع للحصول على المؤلفات التي يريدون الاطلاع عليها[٢]. وقد سبقت الإشارة إلى أن أول ظهور للمكتبات الموقوفة على طلبة العلم بالمغرب كان في أوائل العصر الموحدي- وربما قبل ذلك ولكن سكت عنها المؤرخون ولم يشيروا إليها- حيث زود الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ -- ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ — ١١٩٨م) مدرسته التي برحبة قصره بقصبة مراكش بمكتبة علمية[٣]، كما زود الشيخ أبو الحسن الشاري المُتَوَفّى عام (٦٤٩ هـ / ١٢٥١م) مدرسته التي شيدها بمدينة سبتة بمكتبة وقفها على طلبة العلم[٤]، وفي عهد الدولة المرينية الذي شهد نشاط الحركة العلمية، وازدياد المتعلمين وطلاب المعرفة، وانتشار المدارس في مختلف المدن المغربية، اهتم سلاطين هذه الدولة بتزويد هذه المدارس بمكتبات تشتمل على مؤلفات في مختلف العلوم والفنون[٥]، كما زود السلطان أبو عنان فارس جامع القرويين بخزانتين، إحداهما للكتب، والأخرى للمصاحف ما زالتا قائمتين حتى الآن[٦]. وقد حرص سلاطين وأمراء الدولة السعدية على تزويد مساجدهم ومدارسهم التي شيدوها أو تلك التي كانت سابقةً عليهم بخزانات تتوفر على أمهات الكتب في شتى فروع العلم، وشاركتهم فئات الشعب المختلفة في إثراء هذه المكتبات بالعديد من المؤلفات، حتى إنه لا يكاد يخلو مسجد كبير في أية مدينة مغربية -- كما سبقت الإشارة- من مكتبة عامة تشتمل زيادة على مصاحف القرآن الكريم على العديد من كتب العلوم المختلفة، فضلاً عن ذلك فقد اهتم متصوفة الزوايا التي كانت منتشرةً بمختلف جهات المغرب على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات وتزويدها بكتب فروع العلم المختلفة؛ لتكون تحت تصرف طلبة العلم والدارسين، وصارت المكتبة

---

(١) ابن الحاج: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢١٣ — ٢١٤.

(٢) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ٣١٣.

(٣) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص ص ١٤٦ -- ١٤٧.

(٤) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٢.

(٥) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٦) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٦.

من مرافق الزاوية الصوفية، فقد كان التعليم أحد المهام التي تكفلت الزوايا بأدائها آنذاك.

ولما كانت المخطوطات تتكلف الكثير في نسخها وتجليدها بالإضافة إلى ما تتكلفه من أوراق ومداد، فقد وضعت في مقابل الانتفاع بها شروط صارمة حفاظاً عليها من التلف والضياع، وحددت شروط لهذه الخزانات والقائمين عليها يلتزمون بها للمحافظة على ما تحت أيديهم من الكتب وترميمها وتقديمها للمستعيرين، من ذلك أن هذه الكتب لم يكن مباحًا بيعها أو تبادلها[١]، لأنها كانت موقوفة وكان لا يسمح للطلبة بقراءة الكتب إلا في عين المكان من غير استعارتها، وإن كانت هناك إعارة فلم يكن يسمح للطالب باستعارة أكثر من كتاب، وإنما يأخذ كتابًا بعد كتاب حتى وإن كانت الكتب التي يحتاجها من فروع مختلفة، وكذلك عدم السماح بخروج الكتب إلا في حضور المدرسين ورضاهم[٢].

أما بالنسبة لموضع هذه المكتبات في المساجد الجامعة السعدية، فيلاحظ أنها تشغل مساحات مستطيلة أو مربعة متفاوتة فيما بينها خضعت لظروف مساحة الجامع الملحقة به، وهي تقع عادةً خلف جدار القبلة ويتوصل إليها من فتحة باب على يسار المحراب كما هو الحال بكل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، وهذا يوضح حرص المعمار على أن تكون خزانة الكتب قريبة من رواق القبلة ذلك الموضع الذي كانت تعقد فيه الدروس العلمية، لتكون الكتب في متناول الشيوخ والطلاب. أما بالنسبة للمدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش، فيلاحظ أنها تشتمل على دخلتين لحفظ الكتب على جانبي المحراب بداخل بيت الصلاة الذي تعقد فيه الدروس (شكل ٢١)، وذلك لتسهيل تناول الكتب منهما أثناء عقد هذه الدروس.

بيت الخطيب:

يعد بيت الخطيب أو قاعة الخطابة من عناصر الانتفاع التي ألحقت بالمساجد الجامعة ليس في المغرب فقط ولكن في المشرق أيضًا[٣]، وقد روعي في موقعها أن تكون قريبةً من المنبر الذي يخطب عليه الخطيب والمحراب الذي يصلي فيه، لذا جرت العادة في بلاد المغرب أن تقع حجرة الخطابة خلف جدار القبلة، يتوصل إليها عادةً من فتحة باب تقع على يمين أو يسار المحراب، كما هو الحال بجامع القرويين والأندلس بفاس القديمة[٤]، وجامع تازة الموحدي[٥]،

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٢) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ٣٤٠؛ العلمي: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٣٣٦ – ٣٣٧.

(٣) انظر في هذا الصدد، محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ص ١٤٣ – ١٤٤.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ص ٥٧، ٧٨، ٩٤.

(٥) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ١٦١.

وفي المساجد الجامعة المرينية كجامع المنصورة بتلمسان والجامع الكبير بفاس الجديد، ومسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة[1].

وتعتبر قاعة الخطابة الملحقة بجامع القرويين بفاس القديمة أقدم النماذج — في ضوء الأمثلة القائمة- الباقية من هذا النوع في المغرب، ويمكن إرجاعها إلى العصر المرابطي — رغم أن مسجد القرويين قد تحول إلى مسجد جامع أيام الزناتيين سنة (٣٢١ هـ / ٩٣٢م)- وذلك في الزيادة والتوسعة التي أجريت على الجامع فيما بين (٥٣٣ — ٥٣٨ هـ / ١١٣٨ — ١١٤٣م) على يد كل من القاضي ابن معيشة والفقيه عبد الملك بن بيضاء، وهي آخر زيادة في المسجد من الداخل، كما شيدت فيها عدة مرافق خلف جدار قبلته[2]. ثمَّ انتشرت هذه الظاهرة بعد ذلك في المساجد الجامعة المغربية.

وفي المساجد الجامعة السعدية الباقية — السابق دراستها- يلاحظ أن بيت الخطيب يشغل مساحات مستطيلة تتفاوت فيما بينها خضعت لظروف المساحة الكلية التي يشغلها الجامع الملحقة به، وهي تقع خلف جدار القبلة ويتوصل إليها من خلال بابين أحدهما من خارج الجامع، والآخر من الداخل بجدار القبلة على يسار المحراب، من خلاله يتمكن الخطيب من الوصول إلى المنبر دون آن يتخطى رقاب المصلين وهو الأمر المكروه فقهيًا. كما يلاحظ أن بيت الخطيب يقع — غالبًا- بالقرب من خزانة الكتب الملحقة بالجامع، حتى يمكن للخطيب الحصول على الكتب المختلفة استعدادًا للخطبة. ونظرًا لتعرض مثل هذه الوحدات للعديد من التعديلات لتغير وظيفتها، واستخدامها استخدامات مختلفة في الفترات اللاحقة، إلى جانب غيبة الوصف الموثق الدقيق، فإنه لا يمكن التعرف على مخططها الأصلي.

خلوة الأسبوع:

تعتبر خلوة الأسبوع من عناصر الانتفاع التي ألحقت بالمساجد الجامعة المغربية، ويطلق عليها أيضًا "مجلس الأسبوع"[3] و"زاوية القراء"[4]، لكون القراء يجتمعون فيها لقراءة القرآن الكريم في كل أسبوع[5]. وقد ذكر بعض الباحثين أن الأصل في الخلوة أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اتخذ رحبةً في ناحية المسجد، وقال: من أراد أن يلفظ آو ينشد شعرًا أو يرفع صوتًا فليخرج إلى هذه الرحبة. كما ذكر أن الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١ هـ / ١١٦٦م) خصص مكانًا في المسجد ببغداد للفقراء من أصحابه لا يدخل إليه غيرهم، يجتمعون

---

(١) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٢) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٦٧ — ٦٨.

(٣) ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥) الجزنائي: المصدر نفسه، ص ٧؛ ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩.

فيه على مداولة حزب التسبيح صباحًا وحزب الفلاح مساءً، يتلونهما جميعًا بصوت واحد كقراءة شخص واحد طيلة الأسبوع[1].

أما في المغرب فيرجع انتشار إنشاء خلوات الأسبوع وإلحاقها بالمساجد الجامعة إلى العصر المريني، وكانت من أوائل الخلوات تلك الخلوة التي ألحقها السلطان أبو عنان فارس المريني بمسجد مدرسته البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م) [2]، ثمَّ تعددت نماذجها بعد ذلك، ومن أمثلتها خلوة الأسبوع بجامع القرويين بفاس القديمة التي شيدها السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠م) المعروفة بخلوة الأسبوع السفلى[3]، وخلوة الأسبوع بالجامع الكبير بفاس الجديد التي شيدها السلطان عبد العزيز أبي العباس المريني سنة (٧٩٨ هـ / ١٣٩٦م) [4]، وخلوة الأسبوع بالجامع الأعظم بمكناس التي شيدها الأمير أبو زكريا الوطاسي (ت: ٨٥٢ هـ / ١٤٤٧م) [5].

وفي العهد السعدي شيد السلطان عبد الله الغالب سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) خلوة أخرى للأسبوع بجامع القرويين بفاس القديمة[6]، عرفت بخلوة الأسبوع العليا تمييزًا لها عن الخلوة المرينية السابق الإشارة إليها، وهي لا زالت قائمة حتى الآن بالركن الجنوبي الغربي للجامع بأعلى ساباط نهج السبطريين[7]، وهي مكونة – كما سبقت الإشارة- من أربع غرف متفاوتة المساحة، ولها نافذة تطل على داخل الجامع، كما شيد نفس السلطان خلوة للأسبوع بجامع المَوَاسين بمراكش (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م) بأعلى الساباط الذي يربط الواجهة الجنوبية للجامع بواجهة المبنى المقابل لها، وهي عبارة عن غرفة مستطيلة طولها ٤.٥٠م وعرضها ٣.٥٥م، غير أنها مهدمة حاليًا. أما بالنسبة للمساجد الجامعة السعدية الأخرى الباقية وهي الجامع الكبير بتارودانت وجامعي باب دكّالة وأبي العباس السبتي بمراكش، فهي وإن كان لا يوجد بين ملحقاتها حاليًا خلوات للأسبوع، فربما كان ملحقًا بكل جامع منها- كما جرت العادة

---

(١) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ح ٨٨، ص ٣٤٩.

(٢) عبد الهادي التازي: نفس المرجع والمجلد، ص ٣٣٢، ح ٨٩، ص ٣٤٩؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٧.

(٤) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الثاني، ح ٨٩، ص ٣٤٩.

(٥) ابن غازي: المصدر السابق، ح ٧٢، ص ٣٩.

(٦) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٧٥.

(٧) السبطريون: جمع سبطري، ويقصد بهم في اصطلاح المغاربة بائعو الخيط والجلد والخرازين الذين يتصل عملهم بصناعة الأحذية، وترجع الكلمة إلى أصل إسباني، وهو حي شهير بفاس يقع إلى الغرب من جامع القرويين. انظر، روجيه لو تورنو: فاس قبل الحماية، الجزء الأول، ص ٥٢٤ ؛ عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص ٤٦٨؛ Bel, A., : Op. Cit., Note 1, p. 181

بالمساجد الجامعة المغربية منذ العصر المريني وكما هو الحال بجامع المواسين السعدي- خلوة للأسبوع ثمَّ تغيرت وظيفتها أو اندثرت.

مصلى الجنائز:

تتضمن مصادر الحديث والفقه الإسلامي كثيراً من الإشارات والأحكام المتصلة بالجنازة والصلاة عليها، ومن هذه الإشارات ما يدل على وجود موضع خاص بصلاة الجنازة خارج المسجد على عهد النبي (ﷺ)، حيث ورد: "أن اليهود جاءوا إلى النبي (ﷺ) برجل منهم وامرأة زنيا، فأمر بهما فرجما قريبًا من موضع الجنائز عند المسجد" (١). وتأتي رواية أخرى تشير إلى أن مصلى الجنائز بالمدينة: "كان لاصقًا بمسجد النبي (ﷺ) من ناحية جهة المشرق"(٢).

وإن كانت هناك أحاديث تشير إلى الصلاة على بعض الجنائز في المسجد، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة – رضي الله عنها- : "ما صلى رسول الله (ﷺ) على سهيل بن بيضاء إلا في المسجد"، فربما كان ذلك لأمر عارض أو لبيان الجواز، وبه قال الجمهور، على أن هناك من الفقهاء من أنكر ذلك، ومنهم الإمام مالك وأبو حنيفة، وكل من قال بنجاسة الميت، وأما من قال بطهارته منهم فلخشية تلويث المسجد(٣).

لذا فقد حرص المغاربة - وهم مالكية المذهب كسائر بلدان الشمال الإفريقي- على إلحاق مصليات جنائزية بمساجدهم الجامعة، حتى لا يدخلوا بالجنازة إلى هذه المساجد(٤)، خروجًا من الخلاف حول نجاسة الميت، واتقاء نزول شيء يلوث المسجد(٥). وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن مشروع توسعة القاضي ابن معيشة لجامع القرويين بفاس القديمة أن يشيد خلف جدار القبلة عدة مرافق كان من بينها مصلى للجنائز، غير أن ابن معيشة صرف عن القضاء في عام (٥٣٣ هـ / ١١٣٨م) قبل أن ينهي أعماله، فلما تولى الفقيه عبد الملك بن

---

(١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: ٨٥٢ هـ / ١٤٤٧ م): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم أحاديثه وبوبه محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق وتخريج محب الدين الخطيب، راجعه قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٨م، الجزء الثالث، رقم الحديث ١٣٢٩، ص ٢٣٧؛ محمد عبد الستار عثمان: مدينة ظفار بسلطنة عمان، دراسة تاريخية أثرية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ١١٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٠٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٢٣٧؛ محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١١٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٠٩ – ٤١٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٠٤.

(٥) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٧٤.

بيضاء قضاء المدينة عام (٥٣٧ هـ / ١١٤٢م) استأنف العمل فيه فكان الفراغ من إنشاء هذا المصلى الجنائزي عام (٥٣٨ هـ / ١١٤٣م)[١]، وهكذا اكتسب جامع القرويين مصلى للجنائز يعد أقدم مثل من نوعه - قائم حتى الآن- في كل بلاد المغرب[٢]، سيما وأنه لا يمكن التأكيد بأن المعمار المرابطي عند تجديده لهذا الجامع قد أقام هذا المصلى بتأثير وافد من الأندلس، خاصةً وأنه لا يمكن القطع بوجود مصليات جنائزية بالمساجد الأندلسية قبل عصر الموحدين[٣].

وبالنسبة لموقع مصلى الجنائز من تخطيط المسجد الجامع، فيلاحظ أنه يقع خلف رواق القبلة ويتصل بالمسجد من الداخل عن طريق مدخل أو اثنين، وتماثل هذه السمة ما كان عليه الحال في عهد الرسول (ﷺ) حيث أنشئت مصلى الجنازة ملاصقةً لمسجده من جهة الشرق[٤] كما سبقت الإشارة. ومن أمثلة ذلك المصلى الجنائزي الملحق بمسجد القرويين والأندلس بفاس القديمة وجامع تازة (شكل ١٧) والمسجد الجامع بفاس الجديد (شكل ١٨) ومسجد المنصورة المريني بتلمسان وفي مسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة، ويتميز المصلى الجنائزي الملحق بهذا المسجد الأخير بانخفاض مستوى أرضيته عن أرضية المسجد بنحو ثلاثة أمتار[٥].

---

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢) ابن الحاج: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٢٢٠ – ٢٢٢؛ عبد الهادي التازي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٧٤.

(٣) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٠٤. هذا وقد جرت العادة بمصر أن تلحق بمداخل القرافات مصليات جنائزية يصلى فيها على المُتَوَفَّى، وكان يلحق ببعض هذه المصليات مغاسل لتغسيل الميت وتكفينه، أما في سوريا فكانت الصلاة تتم على المُتَوَفَّى في الصحن ولا تدخل الجنازة إلى أماكن الصلاة بالجامع، وكان بدمشق في العصور الوسطى مصليات جنائزية تطورت بعد ذلك إلى مساجد ألحقت بالمقابر. انظر، محمد الكحلاوي: نفس المرجع والصفحة. ويعتقد بعض الباحثين أن الرواق أو السقيفة التي تتقدم مدخل مسجد الصالح طلائع بالقاهرة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) قد أعد خصيصًا لاستخدامه صحنًا للجنائز، ولعل هذا المسجد اقتبسه من مساجد المغرب. أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الأول، العصر الفاطمي، دار المعارف، ١٩٦٥م، ص ١٤٤. وقد ذكر الأزرقي أنه كان بمكة المكرمة ثلاثة أبواب خصصت للصلاة على الجنائز، وهي باب العباس بن عبد المطلب ويعرف بباب بني هاشم، وباب بني عبد شمس وهو باب بني شيبة الكبير، وباب الصفا، وفي هذه الأبواب الثلاثة خصصت مواضع للصلاة على الجنائز، ويضيف الأزرقي أن الناس فيما مضى كانوا يصلون على المُتَوَفَّى في المسجد الحرام. انظر، الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، ت: ٢٤٤ هـ / ٨٥٩م): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي صالح ملحس، دار الأندلس، بيروت- لبنان، د.ت، الجزء الثاني، ص ٩٧.

(٤) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٥) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

وعلى الرغم من إلحاق هذه المصليات الجنائزية بالمساجد الجامعة المغربية، فقد كان أهل هذه البلاد يصلون على أمواتهم في المساجد وذلك في أوقات الطوارئ مثل الطاعون والأوبئة أو المجاعات وما يترتب عليها من هلاك أرواح كثيرة، وقد أورد ابن عذارى نصًا لمرسوم صدر عن الخليفة الموحدي محمد الناصر (٥٩٥ – ٦١٠ هـ / ١١٩٩ – ١٢١٣م) يأمر فيه بالصلاة على المتوفين في المساجد الجامعة وذلك وقت انتشار الأوبئة ليسهل دفن المسلمين ويخفف على المصليات الجنائزية وما يترتب عليها من انتظار ربما قد يساعد على انتشار الأمراض[١]. ولعل في صدور هذا المرسوم ما يؤكد أن الصلاة على الميت في المصلى الجنائزي كانت هي الأساس.

كما كانت الصلاة على الميت بهذه البلاد تتم بالمصلى أو "الشريعة" – وفقا لاصطلاح المغاربة والأندلسيين- الموجودة عادة بجوار المقبرة خارج أسوار المدن- حيث كانت تتم فيه صلاة العيدين والاستسقاء وغير ذلك- حتى أن المقبرة في هذه الحالة كانت تعرف بمقبرة المصلى، كما هو الحال في كل من مدينة سبتة وقرطبة وبلنسية ومالقة وغيرها، ويعد هذا استمرار لما كان معروفًا في عهد النبي (ﷺ)، حيث ثبت عنه أنه كان يصلي صلاة الجنازة في المصلى التي كان يصلى فيها صلاة العيدين والاستسقاء[٢].

وقد كانت الصلاة على الجنائز في المسجد أو صحنه، وكون المصلى الجنائزي من المسجد أم لا، من المسائل الفقهية التي ناقشها الفقهاء المغاربة، فأفتى بعضهم بأن الصحن الذي يغلق عليه باب المسجد له حرمة المسجد وحكمه، فلا يصلى فيه على ميت؛ لأن الميت لا يدخل إلى المسجد[٣]، كما أفتى ابن علال المصمودي (ت: ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠م) بأن المصلى الجنائزي ليس من المسجد[٤].

ولقد كان لهذه الأحكام الفقهية أثرها على التخطيط المعماري للمساجد الجامعة السعدية الباقية، فألحق بكل منها مصلى جنائزي خلف جدار القبلة يتصل بالمسجد من خلال فتحة باب تقع على يسار أو يمين المحراب، كما يشتمل على فتحة باب تتصل بالشارع الخارجي، يتم من خلالها الدخول بالميت إلى المصلى الجنائزي دون المرور بالمسجد، ويلاحظ على هذه المصليات الجنائزية أنها تشغل مساحات صغيرة نسبيًا بالنسبة لمساحة المساجد المجاورة لها (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤)، حيث يشغل المصلى الجنائزي الملحق بجامع أبي العباس السبتي بمراكش – وهو المصلى الجنائزي الوحيد من العصر السعدي الذي لا زال يحتفظ

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص ١٣٦؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٠٦؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ٢٣٧؛ محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١١٧.

(٣) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ١٦٣.

(٤) الونشريسي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

بتخطيطه الأصلي إلى حد ما- ٣٣,٨١م٢، وهذا لا يتعارض مع وظيفة هذه المصليات حيث إن صلاة الجنازة في الإسلام فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وصلاة الجنازة تخلو من الركوع والسجود ويؤديها المسلمون وهم واقفون، ومن هنا فإن صلاة الجنازة يمكن أن تقام في مساحة صغيرة نسبيًا، كما يمكن أن تكون هذه المساحة أرض فضاء حيث لا تستغرق الصلاة سوى بضع دقائق، فلا يحتاج المصلون إلى سقف أو حوائط لحمايتهم من العوامل الجوية المؤثرة كالشمس والرياح والبرد والمطر وغيرها(1).

قاعة الدرس (بيت الصلاة):

تعد قاعة الدرس أو بيت الصلاة من أهم عناصر الانتفاع بالمدارس السعدية الكبرى التي جمعت بين وظيفتي التعليم والسكن، والمتمثلة في المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش، نظرًا لكونها تشتمل على قاعة واحدة تعقد بها الدروس وتؤدى بها الصلوات الخمس، وهي تقع بالدور الأرضي، ويلاحظ أن المعمار لم يشيد بأعلى هذه القاعة وحدات معمارية أخرى، ورغم ذلك فقد ارتفع بجدرانها ليساوي بينها وبين جدران مساكن الطلاب المكونة من طابقين (شكل ٢٣)، وهي تشبه في ذلك مثيلاتها بالمدارس المرينية السابقة عليها(2).

وكانت هذه القاعة تؤدي الغرض الوظيفي منها، حيث إنها اشتملت على محراب يحدد اتجاه القبلة للمصلين، يمتاز بعمقه الشديد الذي بلغ ٣,٢٠م (لوحة ٨٣)، لذا فقد غطي بقبة كاملة، وهو بذلك أعمق من محاريب المساجد الجامعة السعدية السابق دراستها باستثناء محراب جامع باب دكّالة البالغ عمقه ٣,٢٥م (لوحة ٢٣). كذلك فإن الارتفاع بجدران هذه القاعة وتزويدها بعدد من النوافذ في أجزائها العليا (لوحة ٧٨)، وارتفاع واتساع المدخل المؤدي إليها، وزيادة فراغها الداخلي من خلال تغطية جزئها الأوسط بقبة، كل ذلك ساعد على تزويدها بالضوء اللازم للدروس المنعقدة بها، وتحقيقًا للخصوصية التي تتطلبها هذه الدروس اكتفى المعمار بفتح ثلاثة أبواب بجدارها المطل على الصحن، كعنصر اتصال بين القاعة والصحن (لوحة ٧٦) (شكل ٢٥).

واضافةً لما سبق، فقد كانت هذه القاعة تؤدى فيها – كما سبقت الإشارة- الصلوات الخمس فقط، ولم تقم فيها الخطبة أو الجمعة، لكون هذه المدرسة شأنها شأن المدارس المغربية- والتي ترجع أقدم نماذجها الباقية إلى العصر المريني- لم تكن مساجد جامعة(3)،

---

(1) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١١٦.

(2) للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

(3) باستثناء المدرسة البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م) التي أقر فيها منشؤها السلطان أبو عنان فارس المريني – وفقًا لما جاء بلوحة حبوسها- صلاة الجمعة، وزودها بمئذنة ومنبر ومصلى جنائزي وميضأة خارجية بخلاف ميضأتها الداخلية، كما هو الحال بالمساجد الجامعة في =

وقد كان وقف المبنى مدرسة يبقى لصاحبها اشتراط ما يراه من شروط تختص بنظام الارتفاق بالمبنى[(١)]، لذا كانت مساجد المدارس المغربية خاصة بطلبتها وغير مباحة لعموم الناس، وهذا ما أكده الفقهاء والعلماء المغاربة منذ عصر المرينيين- أعظم بناة المدارس بالغرب الإسلامي عامة- فقد ذكر اليزناسني (ت: ٧٩٤ هـ / ١٣٩٣م) أن الهدف من بناء مسجد المدرسة حتى لا تكون شبيهة بالفندق أو الخانقاة، وأن مسجد المدرسة مستغنى عنه لأن جميع المدارس بنيت بجوار المساجد الجامعة، لذلك فإن هذه المدارس- باستثناء مدرستي الصفارين والبوعنانية المرينتين بفاس القديمة - لا تشتمل على مآذن لدعاء الناس للصلاة[(٢)]، ويضيف السيوري (القرن ٩ هـ / ١٥م) أن: "مسجد المدرسة ليس في الحكم كغيره من المساجد المباحة لعموم الناس، ولهذا قيل في الآذان فيها ما قيل" [(٣)]. ومن هنا يمكن القول أن قاعة الدرس بالمدرسة الغالبية السعدية كغيرها من قاعات المدارس المرينية السابقة عليها، كانت مخصصةً للدرس وليصلي بها طلاب المدرسة وشيوخها وأرباب وظائفها[(٤)].

مساكن الطلاب:

كانت الإقامة بمساكن الطلاب بمدارس المغرب تخضع منذ العصر المريني لقوانين وتنظيمات صارمة أشرف على تنفيذها مختصون في ذلك، ومن هذه القوانين أن هذه المساكن لا يقيم بها إلا الطلبة الغرباء دون طلبة المدن الذين كانوا يستمرون في العيش مع أهليهم[(٥)]، ومنها أيضًا أن يكون عمر الطالب عشرين عامًا فأكثر[(٦)]، وأن يحضر طلبة المدرسة الحزب القرآني والدروس العلمية المقررة بها[(٧)]، كذلك لا يجوز للطالب أن يعير حجرته لغيره لأنه لا يملك إلا الانتفاع بها ولا يملك التصرف فيها، كذلك لا يجوز لمن انقطع للعبادة وترك حضور الدروس المقررة بالمدرسة أن يسكن بمساكنها، وإنما يسكنها من يحضر هذه الدروس مع عبادة لا تشغله عن القيام بما قصده الواقف من العكوف على دراسة العلم وحضور مجالسه[(٨)]، كما أن عقوبة الطرد من هذه المساكن كانت تطبق على الذين أتموا عشر سنوات من

= تلك البلاد. للاستزادة حول هذا الموضوع، انظر. محمد أبو رحاب: المرجع نفسه، ص ص ٢٥٨ — ٢٨٥، ٢٨٧.

(١) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية، ص ص ٢٤٥ — ٢٤٦.

(٢) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ٣٧١ — ٣٧٢.

(٣) الونشريسي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢٤٥ — ٢٤٦.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٥) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٧.

(٦) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ٧.

(٧) الونشريسي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٨) الونشريسي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢٦٣ — ٢٦٤.

التعليم دون أن يبرهنوا على الكفاءات العلمية المطلوبة[1]. ويضيف الفقيه أبو علي اليوسي (ت: ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١م) أنه يجب على كل طالب أن يطلع على الشروط الخاصة بنظام المدرسة التي اشترطها الواقف ومن الواجب احترامها شرعًا، وإذا خصصت المدرسة لإيواء الطلبة أو لفئة معينة كطلبة العرب أو الأجانب أو الفقهاء أو النحاة أو البالغين سنًا معينًا، فليس لأحد غيرهم السكنى بها وإلا عُدَّ ذلك غصبًا.

وتعتبر مساكن الطلاب من أهم عناصر الانتفاع بالمدارس السعدية، سواءً كانت مستقلةً وهي التي تتمثل في المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش (شكل ٢١) وجمعت – كما سبقت الإشارة – بين التعليم والسكن، أو تلك التي ألحقت بالمساجد الجامعة السعدية كمدرسة جامع باب دكّالة ومدرسة جامع المَوّاسين ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ٣٣، ٣٤، ٣٦) والتي اقتصرت وظيفتها على السكن فقط، إذ كان يقيم بها الطلاب الذين يتلقون تعليمهم بالمساجد الجامعة المجاورة لها، كما كان يسكن بالمدارس السعدية بنوعيها بعض الموظفين والعاملين بها كالشيوخ وخازن الكتب والخدم والحرس وغير ذلك.

ويمكن تحديد ثلاثة نماذج لتخطيط مساكن الطلاب بالمدارس السعدية، الأول ويتمثل في توزيع هذه المساكن على أضلاع المدرسة من ثلاثة جوانب منفصلة تمامًا عن صحنها الأوسط المكشوف، وقد وزعت كل مجموعة منها حول صحن صغير مكشوف بلغ عددها ستة صحون، كل صحن منها محاط من جهاته الأربعة برواق مغطى، كما هو الحال في المدرسة الغالبية بمراكش (شكل ٢١). ويبدو أن هذا التخطيط وتكرار أو تعدد الصحون جاء انعكاسًا لظروف المساحة التي تشغلها هذه المدرسة والتي تبلغ نحو ١٨٠٤م٢، – وهي تعد أكبر مدرسة أثرية باقية ببلاد المغرب بصفة عامة – من جهة، وكثرة عدد مساكن الطلاب بهذه المدرسة، الذي بلغ مئةً وأربعين حجرةً من جهة أخرى، إذ أن توزيع هذا العدد الكبير من مساكن الطلاب على صحن مركزي واحد في الوسط ربما يمثل – فيما يبدو – صعوبة بالنسبة للمعمار، كما لا يمكن لهذا العدد الكبير من المساكن أن يستمد حاجته من الضوء والهواء من هذا الصحن فقط، خاصةً إذا وضعنا في الاعتبار قلة عدد النوافذ بواجهات هذه المدرسة – كغيرها من منشآت الغرب الإسلامي – ؛ لذا فقد لجأ المعمار إلى توزيع هذه المساكن حول عدة صحون، سيما وأن كبر المساحة التي تشغلها هذه المدرسة قد سمح له بذلك. ومن هنا يمكن القول أن الرغبة في توزيع مساكن الطلاب حول صحن أوسط مكشوف مباشرةً كان هو السبب الرئيسي في تعدد صحون هذه المدرسة واختلاف تخطيطها عن مثيلاتها من المدارس السعدية المعاصرة لها، وكذلك المدارس المرينية السابقة عليها، والتي يشتمل تخطيط كل

---

(١) الونشريسي: نفس المصدر والجزء، ص ٧.

منها على صحن واحد في الوسط.

أما النموذج الثاني فيتمثل في توزيع هذه المساكن على الأضلاع الأربعة للصحن يتقدمها رواق مغطى في كل جانب، وذلك لحماية القاطنين بهذه المساكن من العوامل الجوية المتمثلة في أشعة الشمس صيفًا والمطر والتيارات الهوائية شتاءً كذلك فإن ارتفاع أرضية هذه الأروقة عن أرضية الصحن بمقدار ٠.٠٥ م أحيانًا يمنع مياه الأمطار عند سقوطها من الدخول إلى حجرات الطلاب التي بالدور الأرضي، كذلك يمكن الانتقال من خلالها من مكان إلى آخر أثناء سقوط الأمطار، بالإضافة إلى أن استخدام الأروقة والممرات حول الصحن المكشوف يوفر الظلال التي تعمل على تحريك الهواء داخل الفراغات الداخلية نتيجة لاختلاف الضغط بينها، مما يترتب عليه تقليل درجة حرارة الهواء داخل هذه الفراغات[1]، كما هو الحال بمدرسة جامع المواسين ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش (الشكلان ٣٤، ٣٦). وأما النموذج الثالث فيتمثل في توزيع هذه المساكن على أضلاع الصحن من ثلاثة جوانب دون أن يتقدمها أروقة تفصلها عن الصحن، كما هو الحال بمدرسة جامع باب دكالة قبل هدم حجراتها (شكل ٣٣) ولعل السبب في عدم وجود أروقة تتقدم مساكن الطلاب بهذه المدرسة هو صغر مساحتها بشكل ملحوظ مقارنةً بمثيلاتها السعدية، حيث تبلغ المساحة التي تشغلها نحو ١٢٠ م^{2}، فضلاً عن كونها المدرسة السعدية الوحيدة التي غطي صحنها، فلم تعد هناك حاجة للأروقة المغطاة لحماية مساكن الطلاب من العوامل الجوية السابق الإشارة إليها.

وتشغل مساكن الطلاب بهذه المدارس مساحةً كبيرة من المساحة الكلية المخصصة للمدرسة مقارنةً بمساحة قاعة الصلاة والدرس – بالنسبة للمدرسة الغالبية- والصحن، ولمضاعفة أعداد هذه المساكن لجأ المعمار إلى الامتداد بها رأسيًا في طابقين كما هو الحال بالمدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش (شكل ٣٠)، وقد قسم كل طابق إلى حجرات وغرف منفصلة تفتح على أروقة يشرف بعضها في المدرسة الغالبية على الصحون الصغيرة الجانبية، ويشرف بعضها الآخر على الصحن الأوسط لهذه المدرسة؛ حيث استغل المعمار مساحة الرواقين الجانبيين لهذا الصحن في بناء مجموعة من الغرف في الطابق الثاني، يفصل بينها وبين الغرف التي تطل على الصحون الجانبية رواق مغطى (الشكلان ٢١، ٣١) (اللوحتان ٧٧، ٨٦)، وعلى الصحن الأوسط بالنسبة لمدرسة جامع أبي العباس السبتي (شكل ٣٦)، وتشغل هذه الحجرات والغرف مساحات متفاوتة فيما بينها تتراوح بين (٥ م^{2} – ٨م^{2}) أي أن كلاً منها يمكن أن تتسع عند الضرورة لأكثر من طالب. ويلاحظ على فتحة باب كل

(١) قيصر طالب: المسكن في المملكة العربية السعودية، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١م، ص ١٦٥.

منها أنها توجد – غالبًا – بطرف الجدار الذي فتحت فيه وليس في وسطه؛ وذلك حتى يمكن للطالب استغلال مساحة الحجرة أو الغرفة بالكامل، كذلك يوفر هذا الوضع نوعًا من الخصوصية، ويمنع ضرر الكشف عند فتح هذا الباب فجأةً أو عندما يكون الباب مفتوحًا (الشكلان ٣٤، ٣٦).

وتجدر الإشارة إلى أن المدارس التي شيدت على يد الفقهاء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب في البوادي والمراكز الصغرى، كانت بعضها عبارة عن مساحة كبيرة مسقوفة يأوي إليها جميع الطلبة الغرباء في المركز، وبعضها الآخر يحتوي على حجرات وغرف صغيرة متعددة – كما هو الحال بمدارس المدن الكبرى – عدت أحيانًا بالمئات، كما هو الحال بالمدرسة البونعمانية بجنوب سوس، ومدرسة سكتانة بالأطلس الكبير، ويبلغ عدد حجرات المدرسة المجاورة للمسجد الجامع بالزاوية الدلائية ألفًا وأربعمائة حجرة لسكن الطلاب. كما ألحق ببعض الزوايا كالزاوية الجزولية السابق دراستها – على سبيل المثال – سكن للمقدم المشرف على الزاوية ودار للضيافة واستقبال الغرباء الوافدين، مما يشير إلى تعدد أغراض السكن بالمنشآت الدينية والتعليمية في عهد السعديين.

السقاية:

بلاد المغرب والأندلس السقايات كمورد للشرب منذ فترة مبكرة، وكان بعضها مخصصًا لشرب الإنسان وبعضها الآخر لشرب الدواب، حيث كانت من عناصر الانتفاع المهمة التي ألحقت – غالبًا – بالمنشآت الدينية في تلك البلاد، لتوفر الماء الطاهر للوضوء في المساجد والمدارس والزوايا وكذلك تزويد الدور السكنية بما تحتاجه من الماء[١]، فلقد كان تزويد المدن بماء الشرب في الفترات التي لم تكن تمتد فيها شبكات المياه من الأعمال الضرورية التي قامت فيها السقايات بدور مهم، لذا فقد انتشرت بأعداد كبيرة سواء أكانت مستقلة أو ملحقة بالمنشآت الأخرى، سيما وأن الماء – كما سبقت الإشارة – كان وما زال في تلك البلاد مشكلةً قائمةً بذاتها، ذلك لأن مناخها الجاف والمتقلب يجعل من وفرة الماء أو قلته قضية في غاية الأهمية[٢].

وقد شيدت السقايات في المدن المغربية قريبة من تكويناتها المعمارية المختلفة لتكون مصدرًا للماء يفي بحاجات المرتفقين بها، حيث أفادت الروايات التاريخية بأنه كان بمدينة فاس – على سبيل المثال – على عهد الموحدين ثمانون سقاية بعضها كانت تعتمد على مياه

---

(١) محمد الكحلاوي: السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش، ص ٣١٧؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٩

(٢) محمد مزين: وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس، ص ص ٣٨٩ – ٤٠٢.

الأنهار، والبعض الآخر على مياه العيون[١]، وكان بمدينة مكناس على هذا العهد أيضًا أربعمائة سقاية[٢]، وبمدينة سبتة خمس وعشرون سقاية بعضها معد لسقي الإنسان والآخر لسقي الدواب[٣].

وقد تلحق السقايات أحيانًا بالمساجد كمسجد قرطبة الذي زوده الحكم المستنصر في عام (٣٥٦ هـ / ٩٦٦م) بسقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية[٤]، وفي عام (٣٨٨ هـ / ٩٩٨م) شيد المظفر بن المنصور أبي عامر سقاية بجامع القرويين على يسار الخارج من باب الحفاة[٥]، وسقاية مسجد الكتبية الثاني بمراكش[٦]، وسقاية مسجد الأندلس بفاس التي شيدها السلطان أبو ثابت عامر المريني عام (٧٠٧ هـ / ١٣٠٧م) [٧]، وسقاية مسجد لالة غريبة بفاس الجديد (٨١٠ هـ / ١٤٠٨م) [٨].

وفي العصر المريني ألحقت السقايات بعمارة المدارس، فقد زود السلطان أبو الحسن علي مدرسة الصهريج بفاس القديمة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م) بسقاية جلب إليها الماء من عين بخارج باب الحديد[٩]، لا زالت بقاياها قائمةً بالركن الشمالي الغربي لهذه المدرسة[١٠]، كما زود نفس السلطان مدرسته التي شيدها بمدينة سلا عام (٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) بسقاية لا تزال قائمةً حتى الآن على يسار المدخل الرئيس للمدرسة[١١].

كما شيدت السقايات كوحدة معمارية مستقلة بذاتها، كسقاية سيدي فرج بفاس القديمة (٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م) [١٢]، كذلك ارتبطت السقاية – في حالات قليلة- بعمارة مكتب تعليم الصبيان (المسيد)- كما هو معروف بمصر في الكتاب والسبيل- حيث استغل المعمار الامتداد الرأسي للسقاية في بناء المكتب، كما هو الحال بسقاية مسجد لالة غريبة بفاس الجديد (٨١٠ هـ / ١٠٨م) [١٣]

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٤٧؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) ابن غازي: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٤٣.

(٤) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ٣٤٦.

(٥) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٥٥.

(٦) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٧) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٩٣؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٣٥٥.

(٨) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣١١؛

(٩) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ٤١٢؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ص ١١١ – ١١٢.

(١٠) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ١٩٦، ٣١٢.

(١١) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٢٤٤، ٣١٢.

(12) Bel, A., : Op. Cit., pp. 72 - 85.
(13) Bel, A., : Ibid., pp. 66.

أما في العصر السعدي فقد ألحقت السقايات بالمساجد الجامعة، كسقاية جامع باب دكّالة بمراكش المعروفة حاليًا بسقاية سيدي الحسن وعلي (الشكلان ٥، ٦) (لوحة ٤٨)، وسقاية جامع المواسين بمراكش أيضًا (الشكلان ١١، ١٢) (لوحة ٤٦)، كما ألحقت أحيانًا بالزوايا كسقاية الزاوية الجزولية بنفس المدينة (شكل ٣٨)، وقد شيد بأعلى هذه السقاية مكتب تعليم الصبيان الملحق بهذه الزاوية، وأحيانًا أخرى تكون السقاية وحدةً معمارية مستقلةً بذاتها كالسقاية المعروفة باسم "اشرب وشوف" بمراكش، ويلاحظ أن كلاً من سقايتي جامع باب دكّالة وجامع المواسين خصص جزء منهما لشرب الإنسان وآخر للدواب (الأشكال ٥، ٦، ١١، ١٣).

وبالنسبة للتكوين المعماري للسقاية يلاحظ أنه يختلف عما نجده في المنشآت المماثلة في مصر وهي الأسبلة[1]. فالسقاية – غالبًا – عبارة عن بناء مستطيل صغير يتوسطه دخلة عميقة معقودة كسيت ببلاطات من الزليج المتعدد الألوان، وبالجزء السفلي لصدر هذه الدخلة فتحات يخرج منها الماء عبر أقصاب من الفخار أو أنابيب من الرصاص مغيبة داخل جدران السقاية، وتنساب هذه المياه في حوض أسفل هذه الفتحات، ويتوج واجهة السقاية سقف خشبي مائل مغطى بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر[2] (شكل ٣٨). وفي العصر السعدي أضيف إلى هذا التكوين المعماري – السابق وصفه – باستثناء سقاية اشرب وشوف بمراكش – مساحة مستطيلة تطل على الشارع ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس، كما هو الحال بسقايتي جامع باب دكّالة وجامع المواسين بمراكش (الأشكال ٥، ٦، ١١، ١٣) (اللوحتان ٢٨، ٤٦)، وقد خصص هذا الجزء لشرب الدواب، وهما أقدم السقايات المغربية الباقية من هذا النوع.

وفي ضوء ما سبق يمكن تقسيم السقايات المغربية في العصر السعدي من حيث الوظيفة إلى نوعين: أولهما: سقايات لشرب الآدميين فقط، كسقاية "اشرب وشوف" وسقاية الزاوية الجزولية بمراكش، أما النوع الثاني، فعبارة عن سقايات خصص جزء منها لشرب الآدميين يجاوره آخر لشرب الدواب، كما هو الحال في سقايتي جامع باب دكّالة وجامع المواسين بمراكش.

---

(١) يتكون السبيل من وحدة معمارية عبارة عن حجرة مربعة أو مستطيلة، وقد يلحق بها إيوان صغير أو حواصل، وتفرش أرضيته غالبًا بالرخام ويعلوه سقف خشبي مسطح، وتوضع به أحواض الماء في أرضية نوافذ السبيل، أو أن المزملاتي القائم بعملية تسبيل الماء يملأ الأواني ويضعها بالنوافذ، وقد وجد ببعض الأسبلة "شاذروان" عبارة عن لوح رخامي أو حجري به قنوات، ويثبت هذا الشاذروان بوضع مائل يجري الماء من عليه إلى حوض أو فسقية تملأ منها أواني الشرب التي توضع بنوافذ السبيل. انظر، محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ص ٣٣٧ – ٣٣٨.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٥٥ – ٣٥٦؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣١٠.

الميضأة:

تعتبر الميضأة أو "دار الوضوء" كما يطلق عليها بالمغرب[١] من عناصر الانتفاع الضرورية بالمنشآت الدينية، لما تقوم به من دور مهم إذ تمكن المصلي من الوضوء استعداداً للصلاة، كذلك فإن وجودها بالإضافة إلى المراحيض في منشأة يقطنها الطلاب والشيوخ والمتصوفة كالمدارس والزوايا أمر ضروري، حيث إنهم يقيمون بهذه المدارس والزوايا إقامة دائمة يحتاج معها إلى مثل هذه الوحدات لقضاء الحاجات والتطهر والاغتسال[٢].

وقد كان الحرص على طهارة المساجد وتجنيبها ما لعله ينبعث من روائح غير مرغوب فيها أثره على موقع الميضأة، حيث راعى المعمار المغربي أن تكون خارجة عن ساحة المسجد قريبة منه، لا يفصل بينهما سوى شارع ضيق، كما يتضح في المساجد الموحدية والمرينية، ولا زالت بعض المساجد المغربية تحتفظ بميضآتها القديمة كجامعي القرويين والأندلس بفاس القديمة وجامع المدرسة البوعنانية بنفس المدينة أيضاً.

وكانت واجهة الجامع المقابلة للميضأة تشتمل على فتحة باب تقع في مقابل مدخل الميضأة مباشرة، وكانت تثبت بأرضية الشارع بين هذين البابين مجموعة من الأحجار يمر عليها المتوضئ حافي القدمين، كما كانت دركاة مدخل الجامع تشتمل – غالبًا- على قناة صغيرة تملأ بالماء ليتمكن الحفاة من غسل أرجلهم قبل الدخول إلى المسجد؛ لذا فقد سمي هذا الباب بـ "باب الحفاة"[٣]، كما أطلق عليه أحياناً اسم "باب الحجر"؛ لوجود الأحجار المثبتة بين بابي الميضأة والمسجد، ويذكر أنه كان لهذه الأحجار قيّم على تنظيفها كل حين وله على ذلك جراية شهرية من الحبس المعين لذلك[٤]. ويكشف هذا عن مدى الحرص على طهارة ونظافة المسجد، على أنه لا يوجد أثر لهذه الظاهرة حالياً، حيث لم تعد هناك حاجة لهذه الأحجار أو لقناة الماء بمداخل المساجد.

أما عن التخطيط المعماري للميضآت المغربية، فقد أمدنا ليون الإفريقي بوصف دقيق لها عند وصفه لمساجد مدينة فاس، فقال: "وتوجد قرب المساجد ميضآت عامة – أي أنها كانت مباحة لعموم الناس على عكس ميضآت المدارس التي كانت قاصرة على طلابها- ، وهي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنائف[٥] ذات أبواب قصيرة، وفي كل كنيف مغسلة –

---

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧١؛ ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٢) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص ص ٣٥٢ – ٣٥٣.

(٣) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٤١٧؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ح٣، ص ١٥٦؛ Maslow, B.,: Op. Cit., p.5.

(٤) ابن غازي: المصدر السابق، ص ٣٩؛ ابن زيدان: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٩٩.

(٥) الكنيف من المصطلحات التي أطلقت على المرحاض أو بيت الخلاء، كما يطلق عليه في المغرب مصطلح "كرياس" بكسر الكاف، والجمع "كراييس"، وفيه لغة بالنون بدلاً من الياء: انظر، العلمي: المصدر=

يقصد حوض الاستنجاء- يخرج الماء إليها من الجدار ويسيل في ساقية من رخام وحيث إن التيار قوي فإن الماء ينظف الميضأة، ويدفع هكذا جميع قاذورات المدينة إلى النهر[١]. وفي وسط بناية الميضأة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع[٢] وعرضه أربعة، وطوله اثنا عشر ذراعًا. وقد صنعت حول الصهريج مجارٍ لتصريف الماء الجاري أسفل المراحيض، وفي فاس نحو مائة وخمسين ميضأةً من هذا النوع" [٣].

ويتفق هذا الوصف مع التخطيط المعماري للميضآت الملحقة بالمساجد السعدية. كميضأة الجامع الكبير بتارودانت (شكل ١) وميضأة كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (شكل ١٤)، حيث تتكون كل منها – كما سبقت الإشارة- من مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مكشوف بوسطه حوض مستطيل عميق محاط بقناة لتصريف المياه الناتجة عن الوضوء، ويحيط بالجوانب الأربعة للصحن عدة مراحيض بكل منها حوض ماء للاستنجاء، يلاحظ أن هذا الحوض يوجد في مراحيض كل من ميضأة جامعي باب دكّالة والمواسين بمراكش- أكثر الميضآت السعدية احتفاظًا بتخطيطها الأصلي- على يمين الجالس بها ليأخذ الماء منها بيمينه ليستنجي بشماله تنزيهًا لليد اليمنى عن استخدامها في الاستنجاء كما نصت كتب الفقه الإسلامي، ولكل مرحاض باب خشبي من مصراع واحد، يوجد – في معظم النماذج- في الطرف المقابل لحوض الماء ليتم ستر الجالس بالمرحاض حتى وإن فتح الباب عليه، وهذه الظواهر لم تكن قاصرةً على بلد بعينه بل كانت عامةً حرص عليها المعمار المسلم في الشرق والغرب[٤]، ويعلو باب كل مرحاض نافذة صغيرة لتزويده بالضوء والهواء من خلال الصحن المكشوف الذي يتوسط الميضأة.

وبالنسبة لموقع هذه الميضآت التابعة للمساجد الجامعة السعدية، فيلاحظ أنها بنيت – باستثناء كل من ميضأة الجامع الكبير بتارودانت وجامع الزاوية الجزولية- منفصلة عن بناء الجامع، حيث تقع ميضأة جامع باب دكّالة في مقابل واجهته الشمالية يفصل بينهما طريق العبدلاوية البالغ عرضه ٣٥،٨م، وتقع ميضأة جامع الموّاسين في مقابل واجهته الشمالية

= السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٢، ح ٢٨٢ من نفس الصفحة؛ وانظر أيضًا، محمد عبد الستار:الإعلان بأحكام البنيان، ص ٢٠٧.

(١) يقصد بهذا النهر، وادي بوخرارب الذي يخرج من مدينة فاس حاملاً مياه الصرف والنفايات، ويلتقي بوادي سبو على بعد أربعة كيلو مترات إلى الشرق من هذه المدينة، وعلى وادي بوخرارب هذا توجد القناطر التي تصل إحدى العُدْوَتين بالأخرى (عدوة القرويين وعدوة الأندلس)، وهو بخلاف وادي الجواهر أو وادي فاس كما يعرف حاليًا. انظر، الجزنائي: المصدر السابق، ح ٧٩، ص ٣٤.

(٢) الذراع (الروماني أو الهاشمي إلخ) يساوي نحو ٠،٦٧م. ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤.

(٣) ليون الإفريقي: نفس المصدر والجزء، ص ص ٢٢١ – ٢٢٢.

(٤) حول هذه الظواهر. انظر، محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٥٠.

أيضًا يفصل بينهما شارع ضيق يبلغ عرضه ٢.٧٠م، ويعلو هذا الشارع ساباط يربط بين هذا الجامع وميضأته[١]، كما تقع ميضأة جامع أبي العباس السبتي في مقابل واجهته الغربية (شكل ١٤)، أما ميضأة الجامع الكبير بتارودانت فهي وإن كانت تقع خارج مساحة الجامع إلا أنها تلاصق واجهته الغربية (شكل ١)، كذلك تقع ميضأة جامع الزاوية الجزولية بملاصقة واجهته الشرقية (شكل ٣٧).

وفي ضوء اختلاف موضع الميضآت من المساجد الجامعة المجاورة لها، - رغم تواجد كل المساجد السعدية بمدينة واحدة هي مراكش باستثناء جامع واحد شيد بمدينة تارودانت- يمكن القول أن المعمار لم يراعِ – في كل هذه الحالات- اتجاه الريح وموضع الميضأة من المسجد، حيث نجد أن بعض هذه الميضآت يقع إلى الشمال من المسجد، وبعضها الآخر يوجد إلى الشرق منه، في حين وجدت بعض الميضآت في الجهة الغربية من المسجد؛ مما يشير إلى أنه اعتمد بصفة أساسية في تجنيب المسجد الروائح غير المرغوب فيها التي قد تنبعث من الميضأة، بأن جعلها خارج ساحة المسجد، بعيدة عنه بعض الشيء، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ظروف المساحة التي شيد عليها الجامع وملحقاته.

وفي حين وقف المبنى وميضأته مسجد جامع يجعله عام الارتفاق لكل المسلمين في المدينة دون تحديد شروط للارتفاق من قبل الواقف، نجد على العكس من ذلك بالنسبة للمدارس، إذ أن وقف المبنى مدرسة يبقى لصاحبه اشتراط ما يراه من شروط تختص بنظام الارتفاق بالمبنى، لذا كانت ميضآت المدارس المغربية وماؤها في ظل شروط الارتفاق التي حددها واقفوها وأقرها الفقهاء المالكية قاصرة على طلبتها ولا يسمح لغيرهم بدخولها والانتفاع بها[٢]، من ذلك ما ذكره عمران المشدالي (ت: ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣م)، أنه لا يسمح: "الدخول إلى المدارس لقضاء الحاجة بها والوضوء والشرب من مائها وهو لم يكن من أهلها ولا أعدت الميضأة والشرب إلا لأهلها"[٣]. ولعل ذلك يفسر بناء ميضآت المدارس المغربية من الداخل، كما هو الحال بالمدارس المرينية[٤]، وقد استمرت هذه الظاهرة في العصر السعدي، حيث نجد أن ميضأة مدرسة ابن يوسف بمراكش تقع بركنها الشمالي الغربي وتنخفض أرضيتها عن مستوى

---

(١) يذكر هذا بالساباط الذي يربط بين جامع قجماس الإسحاقي وميضأته بالقاهرة (٨٨٥ – ٨٨٦ هـ/ ١٤٨٠ – ١٤٨١م). انظر، محمد عبد الستار عثمان: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٨٩.

(٢) كان للفقهاء المشارقة موقف معارض في ذلك، سجله الزركشي في إعلام الساجد بقوله: "أفتى ابن الصلاح بالجواز على ما جرت به العادة، واستمر به العرف في المدارس وينزل العرف في ذلك منزلة شروط الواقف له في وقفه تصريحاً، قال: وبذلك أفتى الغزالي ونقل الفتيا إلى الإحياء في آخر كتاب الحلال والحرام". انظر، الزركشي: المصدر السابق، ص ٤٠٤.

(٣) الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ٣٤١.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

أرضية المدرسة بمقدار ٠.٢٠م.

كما كان لشروط الماء والوضوء في المذهب المالكي أثره الكبير على التخطيط التفصيلي للميضأة والمراحيض بما يتناسب وهذه الشروط، حيث يكشف التصميم المعماري للأحواض والفساقي التي تتوسط هذه الميضآت، وكل صحون المساجد والمدارس، مدى تأثره بمذهب الإمام مالك المتبع ببلاد المغرب، ذلك المذهب الذي يبيح الوضوء من مصدر مباشر واحد كالفسقية وأن يخالط المتوضئون الماء كله الذي بها (اللوحات ٣٠، ٧٥، ٩١). ويتفق الشافعية مع المالكية في هذا الأمر، في حين يختلف أتباع المذهب الحنفي مع كليهما في ذلك، حيث إنهم يحبذون ألا يخالط المتوضئ ماء الحوض كله؛ لأن ذلك يؤثر على طهارة ماء الحوض، ولذلك فضلوا أن يمر الماء من الحوض عبر أنابيب إلى صنابير يتحكم كل متوضئ في فتحها وغلقها حسب حاجته، وقد كان لذلك أثره على التصميم المعماري لوحدات الوضوء في بعض المنشآت الدينية في المشرق التي جمعت بين تدريس المذهبين، حيث إنها تشتمل- في كثير من الحالات- على فسقية لوضوء الحنفية وفق ما نص عليه مذهبهم، وكذلك فسقية أخرى لوضوء الشافعية بالصفة التي تتوافق مع مذهبهم[١]، كما هو الحال في جامع قايتباي – المندثر- بغزة[٢]، ومسجد الأميرين محمد وأحمد بإخميم[٣].

الحمام:

يعد الحمام من عناصر الانتفاع المهمة التي ألحقت بالمنشآت الدينية ليس في المغرب فقط ولكن في المشرق أيضاً[٤]، ليخدم المقيمين بهذه المنشآت من طلاب وشيوخ وغيرهم من أصحاب الوظائف المختلفة، والواقع أن المصادر التاريخية – المعروفة حتى الآن- لا تفيدنا كثيراً عن الحمامات العامة بالمغرب الأقصى قبل العصر الموحدي، سواء من حيث الإحصاءات العددية أو الوضع المعماري، فضلاً عن عدم وجود بقايا معمارية لهذا النوع من المنشآت قبل هذا العصر كما سبقت الإشارة. أما في عهد الموحدين فقد انتشرت الحمامات انتشاراً كبيراً، حتى إن مدينة فاس وحدها – على سبيل المثال- كانت تشتمل في عهدهم على ثلاث وتسعين

---

(١) محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: سلسلة الدراسات الوثائقية (٢) وثيقة السلطان قايتباي "دراسة وتحليل" المدرسة بالقدس والجامع بغزة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م، ث ٥٣١؛ محمد عبد الستار وعوض الإمام: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٣) محمد عبد الستار: وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم وأضواء جديدة على عمارته، بحث نشر في مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، المجلد الحادي والأربعين، ١٩٩٤م، ص ٣٨٧.

(٤) كما هو الحال ببعض المنشآت الدينية المملوكية بمصر، مثال لذلك الحمام الذي ألحقه الناصر محمد بن قلاوون بخانقاته بسرياقوس، والحمام الذي ألحقه المؤيد شيخ بجامعه، وحمام شيخو المجاور لخانقاته. انظر، محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ٣١٨.

حمامًا[١]، كما ذكر أن الخليفة الناصر الموحدي شيد ثلاثمئة وثلاثةً وتسعين حمامًا[٢].

ولكن مما يؤسف له اختفاء هذه النوعية من المنشآت باستثناء حمام كشف عنه في مدينة القصر الصغير شيده يعقوب المنصور الموحدي عندما قام بتحصين هذه المدينة وشيد بها مسجدًا[٣]. وفي العصر المريني زاد الاهتمام بإنشاء الحمامات العامة، حيث ذكر الأنصاري أن مدينة سبتة كانت تشتمل في تلك الفترة على اثنين وعشرين حمامًا[٤]، كما كانت مدينة فاس تشتمل في بداية القرن (١٠ هـ / ١٦م) على مئة حمام ترجع – في الغالب– إلى العهد المريني[٥]، على أنه لم يتبق حاليًا من الحمامات المرينية سوى نماذج قليلة جدًا. وفي عهد الأشراف السعديين تزايد عدد الحمامات العامة بالمدن المغربية، نظرًا للنمو العمراني والكثافة السكانية التي شهدتها البلاد في عهدهم كما سبقت الإشارة، كما ألحقت بالمجموعات المعمارية السعدية والزوايا حمامات خاصة لتلبية حاجات المرتفقين بها كطلبة المدارس الملحقة بهذه المجمعات، والهيئة التعليمية والقومة وغيرهم ومتصوفة الزوايا، وربما كان يسمح للعامة باستخدام هذه الحمامات نظير أجر معين يستخدم للصرف على إصلاح وترميم الوحدات المعمارية المختلفة المكونة لهذه المجموعات كما سبقت الإشارة.

ولا تزال بعض هذه الحمامات قائمة حتى الآن، كالحمام المجاور للجامع الكبير بتارودانت، والحمام المجاور لكل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (شكل ١٤)، والحمام المجاور للزاوية الجزولية بمراكش أيضًا (شكل ٣٧). ولكن مما يؤسف له أننا لا نستطيع التعرف على التخطيط القديم لهذه الحمامات الخاصة بالمنشآت الدينية، نظرًا لتعرضها للعديد من التعديلات والتجديدات التي غيرت من تخطيطها الأصلي. وإن كان يمكن القول في ظل الوصف المعماري الذي زودنا به ليون الإفريقي عن حمامات مدينة فاس في القرن (١٠ هـ / ١٦ م) أنها كانت تتبع التخطيط المعماري المتعارف عليه في حمامات العالم الإسلامي، الذي يتكون من ثلاث حجرات "بيوت" للاستحمام، وحجرة الملابس "المشلح"، تجاورها عدة مراحيض بالإضافة إلى حجرة لتسخين المياه "المستوقد" [٦].

الضريح:

يعتبر الضريح من عناصر المنفعة التي ألحقت بالكثير من المنشآت الدينية بالمغرب، إذ

---

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٤.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣) مصطفى أعشى: المرجع السابق، ص ص ٣٣، ٣٥.

(٤) الأنصاري: المصدر السابق، ص ٣٧.

(٥) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٩.

(٦) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

اهتم حكام الدول المختلفة المتعاقبة على حكم المغرب – كما سبقت الإشارة- بتشييد أضرحة خاصة بهم وبأسلافهم وخلفائهم من بعدهم. وتعد قبة الباروديين المرابطية المجاورة لجامع ابن يوسف المرابطي بمراكش (خريطة ١٠) من أقدم أمثلة هذا النوع، ويرجح أنها شيدت فيما بين (٥١٤ – ٥٢٥ هـ / ١١٢٠ – ١١٣٠م) لتكون مدفنًا لإحدى الشخصيات المرابطية الكبرى(١)، كما أسفرت التنقيبات التي أجريت بجوار جامع تينملل الموحدي عن وجود مقبرة كبيرة(٢)، ربما كانت هي الضريح الذي أشارت الروايات التاريخية إلى أن عبد المؤمن بن علي شيده على قبر المهدي بن تومرت وليكون مدفنًا له ولخلفائه من بعده(٣)، على أن أقدم أثر مغربي قائم حتى الآن ارتبطت فيه عمارة الأضرحة بالمنشآت الدينية برباط وثيق، هي المقبرة الملكية للدولة المرينية بشالة قرب مدينة الرباط، حيث ما تزال أطلال الأضرحة والمنشآت الدينية التي شيدها بها سلاطين هذه الدولة قائمة حتى الآن، وتتمثل – كما سبقت الإشارة- في أربع قباب ومسجدين أحدهما ينسب لأبي يوسف يعقوب والآخر لأبي الحسن علي(٤)

ومع ازدهار الحركة الصوفية بالمغرب في العهد الوطاسي وانتشار الزوايا بشكل لم يسبق له نظير داخل المدن والبوادي، أصبح الضريح من الوحدات الرئيسية للزاوية، بل إن الضريح أصبح سببًا رئيسًا في إنشاء بعض الزوايا بأكملها حتى يمكن اعتبارها ملحقةً به، مثل الزاوية الجزولية بمراكش التي نشأت وحداتها المعمارية المختلفة من مسجد جامع ومكتب لتعليم الصبيان وسقاية ومسكن لمقدم الزاوية ورئيس الطريقة ودار للضيافة واستقبال الغرباء والوافدين وميضأة وفرنين وحمام، حول الضريح الذي شيده السلطان السعدي أحمد الأعرج سنة (٩٣٠ هـ / ١٥٢٤م) على رفاة والده محمد القائم والصوفي الشهير محمد بن سليمان الجزولي (شكل ٣٧). كما أن المقبرة الملكية للأشراف السعديين بمراكش البالغ مساحتها نحو ٢٢٨٨م٢، تضم عدة قاعات للدفن فضلاً عن فناء أو حوش مكشوف، نشأت في الأصل حول الضريح الذي يعرف حاليًا بقبة لالة مسعودة (شكل ٣٩). وتذكر هذه الظاهرة بما كان معروفًا بمصر في العصر المملوكي، حيث كانت الرغبة الملحة لكثير من سلاطين وأمراء المماليك في إنشاء ضريح له يضم رفاته ويخلد ذكره، فكرة أساسية تبعها إلحاق مسجد أو مدرسة أو خانقاة، ومن هنا صار الضريح النواة الأساسية لإنشاء كثير من المنشآت

---

(١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٤٦؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ج١، ص ١٧٦.

(٢) محمد الكحلاوي: نفس المرجع والحاشية والصفحة.

(٣) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١٤١؛ مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٥، ٦٦.

(4) Basset, H., et Provençal, L., : Op. Cit., pp. 256 - 264; Marçais, G.,: Op. Cit., Tome II, pp. 49 - 50.

الدينية في ذلك العصر، كما هو الحال في خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء على سبيل المثال[١].

ومن خلال النماذج الباقية من الأضرحة المغربية منذ أقدم الأمثلة التي تتمثل في قبة الباروديين المرابطية وحتى العصر السعدي إلى جانب بعض الإشارات التاريخية، يتضح أن التكوين المعماري الغالب على عمارة الضريح عبارة عن حجرة مربعة تغطيها قبة، يلاحظ أنها اتخذت أشكالاً معمارية متعددة، ففي المغرب الأدنى انتشرت قباب نصف كروية ترتكز على رقبة مثمنة (شكل ٦١ / أ)، وفي المغرب الأوسط وجدت قباب نصف كروية أيضًا لكنها ترتكز مباشرةً على جدران حجرة الدفن التي يتوج أركانها شرافات مدرجة، ويلاحظ أن بدن القبة يشتمل على فتحات للتهوية والإضاءة (شكل ٦١/ ب)، أما في المغرب الأقصى والأندلس فنجد أن القبة نصف كروية من الداخل بينما تأخذ من الخارج هيئةً هرميةً ذات أربعة أضلاع غطيت بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر.(شكل ٦١/ ج)، كما هو الحال في القبة التي تغطي قاعة لالة مسعودة بقبور السعديين بمراكش، كما انتشر بالمناطق الصحراوية في جنوب بلاد المغرب نوع من القباب مخروطي الشكل أو بيضاوي ينتهي بقمة مدببة (شكل ٦١/ د) [٢].

وفي ضوء دراسة مقبرة السعديين بمراكش تبين أنها جمعت بين عدة أنماط من المباني التي شيدت فوق القبور، ففضلاً عن الحجرة المربعة التي تعلوها قبة كقاعة[٣] لالة مسعودة (الشكلان ٣٩/ أ، ٤١)، نجد أن هذه المقبرة تضم أربع حجرات أخرى تشغل كل منها مساحة مستطيلة الشكل (شكل ٣٩)، لكنها تختلف فيما بينها في المساحة وفي أسلوب التغطية، إذ غطي بعضها بسقف جمالوني كالحجرة التي تقع إلى الجنوب من قاعة لالة مسعودة (الشكلان ٣٩/ ب، ٤١)، وبعضها الآخر قسم سقفها إلى تسع مساحات مستطيلة غطيت جميعها بأسقف جمالونية، باستثناء مساحة واحدة منها غطيت بقبة، كما هو الحال في قاعة المحراب (الشكلان ٣٩/ هـ ، ٤١)، كما قسم سقف بعض هذه الحجرات إلى تسعة اقسام، خمسة منها مربعة المسقط وهي التي في الوسط والأركان الأربعة، غطي كل منها بسقف هرمي، وأربعة أقسام مستطيلة تحيط بالجوانب الأربعة للقسم الأوسط، وتقع بين الأقسام المربعة في الأركان الأربعة، وقد غطي كل قسم منها بسقف مسطح، كما هو الحال في القاعة ذات الاثني عشر عمودًا (الشكلان ٣٩/ و، ٤١)، كذلك غطيت بعض هذه القاعات بسقف مسطح

---

(١) حول هذه الظاهرة، انظر، محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ص ٣٤٩ – ٣٥٢.

(2) Marçais, G., : Op. Cit.,Tome II, pp. 796 – 798.

(٣) سبقت الإشارة إلى أن إطلاق مصطلح "قاعة" على حجرات الدفن بقبور السعديين تسمية محلية وليست لها صلة بالشكل المعماري لهذه الحجرات.

كالقاعة ذات الثلاث دخلات (الشكلان ٣٩/ ز ٤١).

ويتضح في ضوء ما سبق أن المغرب عرف في عهد الأشراف السعديين إلى جانب نمط المقابر التي تعلوها قبة – النمط السائد في هذه البلاد- أنماطًا أخرى من المباني التي تعلو القبور لم تكن معروفة بالمغرب – في ظل ما وصلنا من نماذج- قبل عهد السعديين.

ثانياً عناصر الإنشاء:

حتى يؤدي المبنى الغرض الوظيفي الذي أنشئ من أجله لا بد وأن تتوافر فيه المتانة، فالمبنى يصمم بحيث يكون قويًا متينًا ثابتًا يتحمل القوى التي يتعرض لها، ويقاوم الاستهلاك وعوامل الزمن. ومن هنا تبرز أهمية الإنشاء كمحور أساسي في دراسة تاريخ العمارة، فإنشاء المبنى يحقق وجوده حتى إن أحد الباحثين يقرر أنه يمكن كتابة تاريخ العمارة كله من وجهة نظر الإنشاء وبيان أن تطورها على مر العصور ما هو إلا نتيجة محاولات لحل مشكلة التسقيف (Roofing) والتغطية (Covering) وبيان أن الطرز المعمارية ناتجة عن المواد وأحسن أساليب الإنشاء المتيسرة في العصر الذي كانت فيه من حوائط حاملة وأكتاف وأعتاب حجرية وعروق خشبية وعقود وقباب وجمالونات .... إلخ[١].

وقبل التعرض لدراسة عناصر الإنشاء في العمائر الدينية والجنائزية السعدية، نتعرض أولاً لمواد الإنشاء التي استخدمت في بنائها، لما لهذه المواد من أثر كبير على إنتاج عناصر ووحدات معمارية وأساليب إنشائية خاصة ببعض المناطق الإسلامية[٢]، وتحديد المدة الزمنية لانتقال الحرارة من الجو الخارجي لداخل المبنى ولما لها من أثر كبير أيضًا في معالجة الظروف المناخية والبيئية[٣].

استخدم العديد من مواد البناء في تشييد العمائر الدينية والجنائزية السعدية، كالآجر والحجر والطابية والرخام والخشب والجص والزليج والقرميد والبجماط والزجاج وغيرها، ويعتبر الآجر مادة البناء الرئيسية ليس في إنشاء العمائر السعدية فحسب بل في عمارة بلاد المغرب بوجه عام، وذلك لتوفر الطمي والصلصال الجيد في مختلف مدنها، بينما شاع استخدام الأحجار غير المنحوتة والمكلسة في عمائر الرباط وسلا لتوفر هذه المادة بهاتين المدينتين[٤]، حيث يستخرج الحجر الوردي من منطقة سلا، ويجلب من محجر دار الحمراء

---

(١) محمد عبد الستار: أضواء على أهمية الإنشاء في تاريخ العمارة الإسلامية، مجلة العصور، العدد الخامس، الجزء الثاني، دار المريخ للنشر، لندن، ١٩٩٠، ص ٢٣٠١.

(٢) فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة (٢١ – ٣٥٨ هـ / ٦٣٩ – ٩٦٩م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٢٩٠.

(٣) يحيى وزيري: المرجع السابق، ص ص ١٠٥، ١١٠.

(٤) عبد العزيز بنعبد الله: الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال، ص ٢٦٦.

قرب بو القنادل في ضواحي الرباط، وقد استخدمت الأحجار التي جلبت من هذا المحجر الأخير في بناء الكثير من البوابات الضخمة لمختلف مدن المغرب؛ كباب شالة وباب الرواح وأبواب قصبة الودايا، وكذلك عدة مآذن[١]، كما يوجد غرب مدينة مراكش جبل صخري صغير هو جبل جيليز أو كليز، الذي كانت تقلع منه الأحجار للبناء في العصر المرابطي[٢]، وإلى الغرب من مدينة فاس يوجد محجر كبير كان يستخرج منه - وفقاً لرواية مارمول- كل الحجر الذي كان يصنع منه الجير[٣]، وقد شاع في العهد السعدي البناء بالحجر ليس في المدن المغربية فحسب بل وفي البوادي أيضًا، فبعد أن كان سكانها يعيشون حتى مطلع القرن (١٠ هـ/ ١٦م) – كما سبقت الإشارة- في أكواخ من القش[٤]، أخذت ظاهرة بناء البيوت بالحجر تعم هذه النواحي[٥]. وتجدر الإشارة إلى أن البناء بالآجر والحجر بسمك كبير يساعد على توفير عزل حراري جيد للفراغات الداخلية للمبنى، لأن هذا السمك يجعل الحرارة الخارجية تأخذ وقتًا طويلاً لتصل إلى هذه الفراغات الداخلية، مما يجعلها تحتفظ بهوائها البارد معظم ساعات النهار أثناء ارتفاع درجة حرارة الهواء في الخارج[٦].

وقد استخدمت الطابية أو الطوابي أو الثابوت كما يطلق عليها في بعض مناطق المغرب كتارودانت[٧]، وهي عبارة عن خليط من طين أو صلصال وجير والحصى الصغير، يخفق أو يعجن كله باستخدام آلة خشبية مخصصة لذلك، ثمَّ يكبس هذا الخليط قبل أن يجف في قالب يشد على الجدار، يتألف من ألواح خشبية في وضع متوازٍ تبلغ أبعاده – غالبًا- ٢م طولاً وعرضه ٠,٨٠م وارتفاعه ٠,٨٠م أيضًا، ويتسع لنحو ١٢٠ ك من الخليط السابق ذكره، وينتج عن ذلك كتلة من الطابية يبلغ حجمها ١,٢٨م^{3} [٨]، وبعد أن تجف الطابية تنزع الألواح لبناء طبقة أخرى وهكذا، وتتميز الطابية بصلابتها وقوة تماسكها لاشتمالها على الجير والحصى لذلك شاع استعمالها في بناء أسوار المدن[٩]، فقد ذكر مارمول في سياق حديثه عن أسوار

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥.

(٢) ابن الزيات: المصدر السابق، ح٢٣٨، ص ١٤٩.

(٣) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦١.

(٤) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٣١.

(٥) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(٦) يحيى وزيري: المرجع السابق، ص ص ١٠٦ – ١٠٧.

(٧) مولود شهبون: المونوغرافية الثقافية لإقليم تارودانت، وزارة الشئون الثقافية، المندوبية الإقليمية- تارودانت، المملكة المغربية، ١٩٩٩م، ص ٢.

(٨) حصلت على هذه المعلومات من خلال أ/ مولود شهبون محافظ المباني التاريخية والمواقع الأثرية بمندوبية وزارة الثقافة والاتصال بتارودانت في أغسطس ٢٠٠١م، وذلك وفقاً للتقنية التي يعمل بها معلمي هذه الصناعة.

(٩) محمد عبد الستار: الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٩٢؛ عبد العزيز بنعبد الله: الفن المغربي تعبير رائع عن=

مدينة مراكش، أنها: "متينة، مبنية بالجير والرمل المزوجين بتراب جيد يجعل الخليط صلبًا لدرجة أنه إذا أصيب بضربة معول، تطاير منه الرشاش كأنه صخر" [١]. وفي العصر السعدي استخدمت الطابية في بناء بعض الدور السكنية، وفي بناء أسوار مدينة تارودانت وبناء الجدران الخارجية للجامع الكبير بنفس المدينة وفي بناء السور المحيط بقبور السعديين بمراكش (اللوحات ١، ٢، ٦٩)، وغير ذلك.

كما استخدم الرخام بمختلف ألوانه الأبيض والأسود والمجزع المائل إلى الصفرة، وذلك في فرش أرضيات بعض صحون المساجد والمدارس السعدية، كصحن جامع باب دكالة بمراكش وصحن المدرسة الغالبية أو مدرسة ابن يوسف بمراكش أيضًا (لوحة ٧٥)، واستخدم أيضًا في عمل الفساقي أو الخصات التي تتوسط هذه الصحون (اللوحات ٣، ٣٠، ٩١) وفي عمل الأعمدة وتيجانها (اللوحات ٢٦، ٣٥، ٦٤، ١٠٩) وفي عمل تراكيب وشواهد القبور (اللوحتان ١٠٦، ١١٨). وللرخام عدة مقالع رئيسية في المغرب، هي: منطقة بوسكورة ورخامها أصفر، ووادي إيكم بمنطقة الرباط ورخامها أسود معرق ورخام رمادي، ووادي عكراش قرب الرباط وهو رخام أحمر فاتح، وتيفلت في نواحي الرباط أيضًا ورخامها رمادي، وفي منطقة أبي الجعد بضواحي بني ملال ورخامها أبيض ورمادي معرق، وورزازات بمنطقة مراكش ورخامها أبيض مجزع، وإنزكان ورخامها وردي معرق، وزاكورة ورخامها أسود "أحافيري"، وتازة ورخامها وردي منقط، وفي منطقة وجدة ورخامها بني فاتح، وفي منطقة صفرو بنواحي فاس ورخامها يسمى الحجارة اللينة وهو وردي وأسمر فاتح، وفي بن سليمان بمنطقة الدار البيضاء ورخامها أسمر فاتح وأحمر [٢].

وعلى الرغم من وجود الرخام بهذه المناطق إلا أن المغرب كانت تفتقر إلى الرخام بصفة عامة، لذا كانت تستورده من تلمسان والأندلس [٣]، كما كان بعض سلاطين الدولة السعدية يستوردون الرخام – وفقًا للروايات التاريخية- من بعض دول أوربا، من ذلك جلب أحمد المنصور الذهبي الرخام من إيطاليا لاستعماله في بناء قصر البديع بمراكش [٤]، وكان يشتريه منهم مقابل وزنه سكرًا من إنتاج معاصر القصب التي كانت منتشرة آنذاك بطول المنطقة الساحلية الممتدة من سبتة في الشمال إلى أقصى إقليم السوس في الجنوب [٥].

= مدارك الأجيال، ص ٢٥١.

(١) مارمول: المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٧.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٤.

(٣) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨١؛ السيد عبد العزيز سالم: مدارس فاس، ص ٢٠٢؛ Bel, A.,: Op. Cit.,p. 366.

(٤) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٨١.

(٥) الإفراني: المصدر السابق، ص ١٠٣؛ ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ص ٨١؛ بول برتي: المرجع السابق، =

ويصل الرخام إلى الورشة بعد استخراجه في شكل كتل ضخمة، ويعالج الرخام يدويًا في المغرب، ويقطع إما إلى ألواح أو ينحت مباشرةً إذا كان المطلوب عمل فسقيات أو تيجان أعمدة أو أي أعمال فنية أخرى. ولتخطيط مواضع التقطيع يستعمل الصانع أداة "المرسام" أو الرسم المثقوب لتحديد أساس الشكل، ثمَّ يواصل عمله مباشرةً بالأزاميل والمناقش على البارد. وإذا كان حجم العمل المطلوب كبيرًا كالفسقية أو تاج العمود، يقطع الصانع أو "المعلم" — كما يطلق عليه في المغرب حتى الآن- كتلة الرخام بحيث يكون لها ستة أوجه، ثمَّ يرسم التصميم مباشرةً على الرخام وينحت حتى يبرز التشكيل فيعيد الرسم وينحت، وتتكرر هذه العملية أولاً بأول كلما تلاشى الرسم تحت ضربات المطرقة والإزميل. وتأتي بعد ذلك مرحلة الصقل بعد إنجاز القطعة المنحوتة في شكلها النهائي، والصقل عملية دقيقة تستوجب الصبر والدقة وجميع عمليات التشكيل السابق ذكرها عمليات طويلة تتناسب مع صلابة المادة وهشاشتها في نفس الوقت[١].

واستخدم الخشب، وخاصة خشب الأرز في عمل أسقف العمائر السعدية وفي صنع الأبواب والنوافذ والأحجبة والأعتاب والرفارف، كما استخدم أيضًا في تكسية الأجزاء العليا من الجدران، كما هو الحال بالمدرسة الغالبية بمراكش (اللوحتان ٦، ٧٦)، وهي ظاهرة عرفتها العمائر المغربية — في حدود ما أعلم- في العصر المريني كما نشاهدها في مدارسهم[٢]، وقد أكد بعض الباحثين أن المكانة التي تشغلها الأخشاب المنحوتة بهذه المدارس أكثر أهميةً من مثيلتها في كل من تلمسان والأندلس، كما أنها تقدم أجمل نماذج الفن المغربي في أعمال الحفر على الخشب[٣].

ويرجع ذلك إلى أن المغرب كانت — وما تزال- تتوفر فيها الغابات الغنية بالأشجار التي تستخدم في البناء، ويعتبر خشب الأرز المجلوب من الأطلس هو أكثر أنواع الأخشاب استعمالاً في المغرب، وهو غير قابل للتسوس ولا يتأثر بالتقلبات الجوية، ولا يصاب بيرقات الحشرات المتطفلة على الخشب، لكن يجب استعماله وهو تام الجفاف[٤]، وعن مميزات هذا النوع من الخشب ذكر الجزنائي: "وقد يعمر العود منه في الموضع الذي لا يناله ماء ألف سنة

= ص ص ١٣٧ — ١٤١.

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ١٥. تجدر الإشارة إلى أن هذا المؤلف استقى هذه المعلومات من المعلمين المغاربة الذين توارثوا العمل بهذه الصناعة عن أسلافهم منذ زمن بعيد. انظر: أندريه باكار: المرجع نفسه، المجلد الأول، ص ١٥.

(٢) انظر في هذا الصدد، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣١٣.

(3) Bel, A., : Op. Cit., pp. 360 - 361.

(٤) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٢٠.

وأزيد لا يعفن ولا يستاس"[1]. ولا تعد هذه الرواية من باب المبالغة، حيث يلاحظ أن أخشاب الأرز المستخدمة في العمائر المرينية الباقية وبخاصة في المدارس بكل من فاس ومكناس وسلا، والتي شيدت في الفترة المحصورة ما بين (٦٧٤ – ٧٥٦ هـ / ١٢٧٥ – ١٣٥٥م) لا زالت بحالة جيدة وكأنها صنعت حديثًا، فضلاً عن بعض التحف التي صنعت من هذا النوع من الخشب كمنبري جامع الكتبية وجامع القصبة بمراكش، وهما يرجعان إلى العصر الموحدي، ولا يزالان بحالة جيدة. ويضيف ابن القاضي، أن هذه الأخشاب: "يتخذ منها الأبواب والعقود للبيوت فتظنها تبراً، وإن نقشت وزينت كانت في لينها كالشمع أو ألين" [2].

وهناك ثلاثة أنواع مختلفة من خشب الأرز يجري استعمالها، وهي: الأرز المصمت الذي يقتصر استخدامه في الأعمال الثمينة والمنحوتة، والأرز المستعمل في صنع الجوائز والروافد، وهناك نوع آخر من الأرز يعد للطلاء بالألوان. وأفضل أرز المغرب هو الموجود في غابة الهجيرات على طريق ميدلت، وهناك أنواع أخرى تجلب من خنيفرة وأزرو[3].

ويعتبر خشب العرعار (التويًا) ثاني أنواع الأخشاب الشائعة الاستعمال في المغرب بعد خشب الأرز، هذا إلى جانب أنواع أخرى كخشب الويواني أو الواوا – الذي لم يعد له وجود الآن بالمغرب- وكان يستخدم بصفة خاصة في صنع القباب، كما كان المغرب يستورد بعض أنواع الأخشاب، كخشب الأبنوس الذي يستورده من مدغشقر لاستعماله في تطعيم الأخشاب، وخشب الأكاجة (الأكاجو) الذي كان يستورد من الجابون وساحل العاج[4].

ونظرًا لتوافر الأخشاب الجيدة بالمغرب، فقد تعددت أسواق الخشب في تلك البلاد كما برع النجارون في قطعه وزخرفته، فكان هناك بالمدن المغربية المختلفة، كمدينة فاس على سبيل المثال "زريبة الخشب" و"رحبة الأعواد"، وسوق النجارين، وسوق "العوادين"، وحوانيت "اللزازين"، وهناك النجار "الرقايقي" والنجار "الشغايلي" وهناك "البلاج"[5] ؛ حيث يأخذ كل منهم اسمه من نوع العمل الذي يقوم به.

وفضلاً عن الخواص الفنية والتشكيلية الرائعة لمادة الخشب من حيث ألوانه وملمسه وتجزيعاته، والزخارف المنفذة عليه، مما يشيع الكثير من النواحي الجمالية، فإنه يتميز بأنه عازل جيد للحرارة وخاصة عند استخدامه في الأسقف، فضلاً عن قابليته لامتصاص أو فقد ما به من رطوبة لمساميته[6].

---

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، القسم الأول، ص ٤٤.

(٣) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٢٠.

(٤) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ٢٢٢.

(٥) عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص ٤٧٤.

(٦) يحيى وزيري: المرجع السابق، ص ص ١٠٨ – ١٠٩.

كذلك استخدم الجص في كسوة جدران العمائر السعدية - موضوع الدراسة- فإذا كانت الأجزاء السفلى من جدران هذه العمائر قد غطيت – غالبًا- بالزليج المتعدد الألوان، فإن الأجزاء العليا والأسقف وباطن القباب – في كثير من الأحيان- كسيت بالجص المنقوش بزخارف دقيقة متنوعة، كما كسيت الواجهات الخارجية لهذه العمائر بالجص أيضًا.

ويتميز الجص المغربي بأنه يجف ببطء، ويعطي هذا الجفاف البطيء للصانع الوقت اللازم للنحت، كما يتميز هذا الجص بأنه طيع بالنسبة للنحات لفترة طويلة، حتى أنه يكفي تبليله بالماء بعد تركيبه بشهور ليلين مرة أخرى، فتدخل عليه التعديلات أو اللحامات اللازمة. ويفرش "الطراح" الجص على السطح المطلوب زخرفته في طبقات سمكها عدة سنتيمترات، ويختلف السمك تبعًا للعمل المطلوب، ويتراوح بصفة عامة بين ٠.٠٣م و ٠.٠٤م ويرسم "الغبار" وهو واقف على سقالته الزخارف على الجص وهو ما زال رطبًا، ويستخدم في ذلك المسطرة أو الفرجار، ويستعمل في كثير من الأحيان نموذجًا أو رسمًا مثقبًا، وتنحت الزخارف على مستوى عمودي بالنسبة لمستوى الجدار، أو بميل متجهةً إلى أعلى[(١)].

ويعتبر استخدام مادة الجص – فضلاً عن النواحي الجمالية- من المعالجات البيئية المهمة في بعض مناطق العالم الإسلامي والتي يتميز مناخها بالرطوبة العالية، فالجص مادة رخوة هشة لها حساسية شديدة للرطوبة وقدرة كبيرة على امتصاص كميات كبيرة منها، فعند تعرض الجص للحرارة في الجو الجاف فإنه يفقد الرطوبة المخزونة؛ مما يؤدي إلى انخفاض درجة حرارة الجص، وبالتالي الهواء الملامس له ، ففي البلدان القريبة من البحر كبلاد المغرب ترتفع الرطوبة جدًا في فصل الصيف نتيجة التبخر، فتنشط مادة الجص أكثر في امتصاص الرطوبة من الجو ليلاً، أما في النهار ومع ارتفاع درجة الحرارة يبدأ الجص في طرد الرطوبة المخزونة فيه، فينشأ عن ذلك انخفاض في درجة حرارة المكان، فضلاً عن ذلك فإن اللون الأبيض للجص يعكس أشعة الشمس مما يخفف الأحمال الحرارية على المبنى، ومن مميزات تغطية الحوائط بمادة الجص أنها تعمل كطبقة عازلة بينها وبين المطر كما تعمل على تقوية هذه الحوائط وعزلها مما يقلل من عوامل التفسخ والانهيار[(٢)].

كما استخدم الزليج المتعدد الألوان في كسوة أرضيات بعض العمائر السعدية والأجزاء السفلى لجدرانها (اللوحات ٣٠، ٦٣، ٧٧)، وترجع أولى نماذج استخدام الزليج في الزخارف الجدارية بالمغرب والأندلس – كما سبقت الإشارة- إلى العصر الموحدي، حيث ظهر

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٦١.

(٢) يحيى وزيري: المرجع السابق، ص ص ١٠٩ – ١١٠.

لأول مرة في شريط عريض يتوج واجهات الطابق الأول لصومعة الكتبية بمراكش[١]، ثمَّ في صومعة جامع القصبة بمراكش أيضًا (٥٩١ هـ / ١١٩٦م) [٢]، وعلى الرغم من ذلك لم ينتشر استخدام الزليج ويبلغ قمته في المغرب إلا في عصر بني مرين[٣]، وفي العصر السعدي شاع استخدام الزليج في الزخارف الجدارية أكثر من ذي قبل، حيث لم يقتصر استخدامه على العمائر الدينية والجنائزية وقصور ودور الأغنياء، بل دخل استخدامه أيضًا في الدور المتوسطة.

والزليج عبارة عن مربعات من الطين المحروق قياسها (١٠ ٠م × ٠.١٠م) مطلية بالمينا، وتقص هذه المربعات يدويًا باستخدام مطرقة ثقيلة مدببة من طرفيها يطلق عليها اسم "المنقاش" ويستخرج الطين الذي يدخل في تركيب هذه المربعات في شكل قوالب، ويغمر لمدة أربع وعشرين ساعةً في حوض يسمى "الزوبة"، وبعد ذلك ينزل "العجان" إلى هذه الزوبة ليخفق الصلصال ويعجنه ليجعله متجانسًا قابلاً للتشكيل مع العناية باستخراج كل الأجسام الصلبة منه مهما صغرت كالحجارة وقطع الخشب الصغيرة وغيرها. ويستخدم قالب خشبي لصنع المربعات — السابق الإشارة إليها- التي تعرض للشمس لفترة تكفي لجفافها، ثمَّ توضع هذه المربعات على لوح وتصقل تمامًا "بالملوق" قبل تقطعيها، وأخيرًا تجفف المربعات تمامًا بتعريضها للشمس، وتتوقف مدة التعريض على الظروف الجوية[٤].

ثمَّ تأتي بعد ذلك عملية الحرق والطلاء بالمينا، حيث توضع المربعات في الفرن لتحرق حرقًا أوليًا ثمَّ تستخرج وتطلى بالمينا السائلة، لتعود إلى الفرن مرةً أخرى لتحرق تحت درجة حرارة تبلغ نحو ٨٠٠° لتثبيت المينا، وتوضع المربعات البيضاء أولاً، وتوضع فوقها المربعات الزرقاء ثمَّ المربعات الخضراء التي يلزم تعريضها لحرارة أقل. وبعد مرور أربع وعشرين ساعة يتم إخراج المربعات ثمَّ تفرز وتفحص، وتصنف حسب الألوان وتستبعد منها المربعات التالفة أو (النُّفَّالة) وفقًا لاصطلاح الصناع المغاربة. وهنا تبدأ عملية تقطيع الزليج التي يسبقها "الرشم" أو الرسم، التي يغمس فيها الصانع عودًا من الخيزران في حبر ثمَّ يرسم حدود القطع المطلوب نحتها باستخدام نموذج للقياس، ويرسم الصانع أكبر عدد ممكن من هذه القطع على كل مربع وفقًا لأبعاد الرسم المطلوب[٥].

وتقطيع الزليج أو"تكسيره" هو أدق عملية، حيث يتعين على الصانع أو "الكسار" فصل كل قطعة مخططة أو مرسومة دون أن يكسر أيًا منها مستعينًا بالمطرقة المدببة المعروفة باسم

(١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٥٢، ٨٢؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٧.

(٢) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٢٧، ٥٢؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٨.

(3) Terrasse, C.,: Op. Cit., p. 12.

(٤) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٣٥٧.

(٥) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ٣٥٨.

"المنقاش"، يمسكها بيده بقوة وثبات لينحت قطع الزليج المرسومة على المربعات السابق ذكرها، وتتم هذه العملية في موقع البناء ذاته لبساطة ما تتطلبه عملية التقطيع، فالمطلوب قاعدة على شكل هرم من الدبش بارتفاع ٠,٤٠م من سطح الأرض، يعلوها حجر صلب كالرخام أو قطعة من الحديد لا يتجاوز سمكها سنتيمترات، تستند عليها قطعة الزليج المطلوب نحتها حتى لا تتهشم تحت المطرقة، ويأتي بعد ذلك دور "الخلاص" الذي يرقق القطع الواحدة تلو الأخرى، ويشذبها ويزيل جميع الأجزاء الناتئة منها، ثمَّ يأتي بعد ذلك دور "الفراغ" الذي يركب قطع الزليج على السطح المراد زخرفته وفقاً للشكل الزخرفي المطلوب، وذلك بتثبيتها على طبقة من الملاط يبلغ سمكها ما بين ٠,٠٤م إلى ٠,٠٥م[١].

واستخدم القرميد المزجج باللون الأخضر في تغطية الأسطح الخشبية للعمائر السعدية السابق دراستها (اللوحات ٢٢، ٣٧، ٥٥، ٩٤). وكما هو الحال في الزليج، فإن القراميد تشكل وتطلى بالمينا، وتحرق طبقاً للطريقة التقليدية لحرق الطين. غير أن هناك طريقتين لخرط وتشكيل القراميد، الأولى تتم من خلال وضع العجينة على أسطوانة مخروطية منتفخة تعطي قرميدين بعد قطعها طوليًا إلى قسمين، وتعرف بطريقة آسفي، أما الطريقة الثانية وهي خاصة بفاس تستعمل قالبًا خشبيًا يعطي لوحًا من الطين على شكل شبه منحرف طويل ويوضع اللوح على قالب شبه مخروطي يعطيه الشكل النهائي، بعد ذلك تعرض للشمس لتجف[٢].

ثمَّ تغمس القراميد – مثل الزليج- في طلاء سائل يعطيها ذلك اللون الأخضر الذي ينتج عن النحاس الأصفر المخلوط بالرصاص والرمل، مع ملاحظة أن الجزء الذي يمسكه الصانع بيده لا يوضع عليه طلاء؛ ذلك لأنه سيختفي عند التركيب. ثمَّ تحرق القراميد في أفران ذات حرارة تبلغ نحو ٨٠٠°، بعد ذلك تصبح جاهزة للتركيب. ويمكن التمييز بين نوعين من القراميد من حيث شكل الحافة؛ فهناك قراميد ذات حافة متعرجة وقد اشتهرت فاس بصناعتها، أما النوع الثاني فحوافها بارزة قليلاً وقد اشتهرت بها مدينة آسفي[٣].

ثمَّ تأتي بعد ذلك عملية تركيب القراميد على أسطح المباني، وكان يقوم برصه على هذه الأسطح وتثبيته محترفون في ذلك يسمون "الركازة"[٤]، ويتم في البداية وضع طبقة من الملاط على الأسطح الخشبية – الجمالونية- التي تغطي المبنى لتثبت عليها القراميد،

---

(١) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ص ٣٥٨، ٣٩١، ٤٥٢؛ وانظر أيضاً:
Bel, A., Les Industries de la Céramique a Fès, A. Leroux Libraire-Editeur, Paris, 1918, pp. 153 - 159.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٥٠٢ – ٥٠٦؛ Bel, A.,: Op. Cit., pp. 177- 180.

(٣) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٥٠٧ – ٥٠٩.

(٤) عبد القادر زمامة: المرجع السابق، ص ٤٧٤.

وتوضع سلالم خشبية كبيرة على منحنى السقف لتسهيل مهمة العمال، الذين يقومون بوضع طبقة سفلى من هذه القراميد بهيئة مقعرة - أي توضع على ظهرها على الملاط الذي يعلو السطح مباشرةً- ويلاحظ أن القراميد في هذا الجزء تكون غير مطلية، وهي تقوم بتصريف مياه الأمطار، ثمَّ توضع فوقها الطبقة العليا التي ستكون ظاهرةً للعيان، وهي القراميد المزججة باللون الأخضر، وينتهي السقف بـ "سنابل" أو جامور يشبه الذي يعلو المآذن، وهذه الجامورات تصنع من بعض أنواع المعادن أو من الصلصال المحروق[١] المزجج باللون الأخضر أيضًا (اللوحات ١٨، ٨٢، ١٠٢)، وذلك حتى لا تتأثر – فيما يبدو- بمياه الأمطار التي تتساقط في فترات طويلة من العام بهذه البلاد. كما أن الملمس الناعم والألوان الفاتحة البراقة تعكس أشعة الشمس، وتقلل من الاكتساب الحراري للأسطح، كذلك فإن استخدام الملمس الناعم أيضًا في الأسطح المنحنية يزيد ويؤكد انحناءها[٢].

كذلك استخدم البجماط في كسوة أرضيات بعض المنشآت السعدية، وهو عبارة عن بلاطات مزججة من أحد وجهيها، وهذه البلاطات دائمًا مستطيلة أبعادها (٠.٠٥م × ٠.١٥م) وأكثر سمكًا من مربعات الزليج؛ حتى تكون أكثر صلابة نظرًا لكونها تستخدم في كسوة الأرضيات، على عكس مربعات الزليج التي تستخدم غالبًا في تكسية الأجزاء السفلى من الجدران، ولهذه البلاطات ألوان متنوعة أكثرها استخدامًا الأخضر والأبيض، وأحيانًا الأزرق، ويمكن تشكيل تكوينات مختلفة من خلال تعاقب هذه الألوان أكثرها شيوعًا الزخرفة الزجزاجية أو "السبعية" التي يطلق عليها في المغرب مصطلح "سروال"، ويتم لصق البجماط على طبقة من الطين لا تقل عن ٠.٠٧م فوق الأرضية المراد كسوتها بهذه البلاطات، ولتسوية هذه البلاطات يستعمل العامل مطرقة تسمى "الميجم" يبلغ وزنها ١.٥ كجم، ولوحًا صغيرًا من الخشب يطرق عليه[٣].

كما استخدمت أنواع مختلفة من المعادن في العمائر السعدية، كالحديد والنحاس، والبرونز؛ حيث يلاحظ أن الأبواب الخشبية الخارجية – غالبًا- مصفحة بألواح من الحديد أو البرونز مثبتة بمسامير مطرقة ضخمة ولهذه الأبواب مطارق حديدية (دقاقات) أو برونزية (اللوحتان ٢٩، ٦٨)، واستخدم البرونز في عمل بعض الثريات كما في جامع المواسين بمراكش (لوحة ٣٥)، واستخدم النحاس أو البرونز أيضًا في عمل الجامور الذي يعلو المآذن والأسقف

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٥١٣ – ٥١٤.

(٢) سامي علي كامل وآخرون: الخصائص المعمارية للقرى السياحية في المناطق الصحراوية الداخلية حالة إقليم الوادي الجديد، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء – تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة – قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م، ص ٥٩ ب.

(٣) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ص ٤٧٩، ٤٩١، ٤٩٣؛

Bel, A., : Op. Cit., pp. 1٠٩ - 167.

الجمالونية والذي يشتمل على عدة كرات أو تفافيح من المعدن أيضًا (اللوحات ٢٧، ٦٠، ١٠٠).

ولتجهيز المعدن للاستخدام يمر بعدة عمليات، أولها تتم بعد استخراجه من الأرض مباشرةً حيث ينظف المعدن بالماء، ثمَّ يصهر في بوتقة على نار بوقود الخشب، وهكذا تتكون كرة تحتوي على شوائب، ويعاد صهر هذه الكرة لفصل المعدن عن الشوائب، وتجهيز ألواح منه تدفع إلى الصفار "الصوايني" الذي يقوم بتقطيع المعدن ولحمه وصقله لإخراج الشكل المطلوب، ويتبع في ذلك تخطيطًا مرسومًا على نموذج ورقي، وبعد ذلك تسلم القطعة المطلوب نقشها للمعلم "النقاش" [١].

أما عناصر الإنشاء فتتمثل في المنشآت الدينية والجنائزية السعدية- موضوع الدراسة- في عدة عناصر رئيسية، يمكن حصرها في الأساسات والحوائط الحاملة والأعمدة والدعامات والعقود والأسقف.

الأساسات:

تعد وظيفة الأساس من الناحية الإنشائية هي توزيع وتوصيل الأحمال التي تعلوه إلى طبقات التربة المناسبة بدون إحداث انهيار فيها أو حدوث ضغوط غير مسموح بها، ونظرًا لأهمية الأساسات في متانة البناء فقد اهتم بها المعمار اهتمامًا واضحًا يعكسه استخدام مواد بنائية متينة في بناء الأساسات كالحجر بأنواعه والآجر أو الطوب اللبن والطين إذا لم يتوفر الحجر[٢]، كما أن لطبيعة الأرض علاقة بالأساسات فإذا كانت صخريةً فلا تحفر في تلك الحالة أساسات عميقة، بعكس المناطق التي لا تتمتع بقرب مستوى الأرض الصخرية أو عدم وجودها فإنها تحتاج إلى أساسات عميقة قد تصل إلى مستوى يتناسب وارتفاع المباني المنشأة فوق سطح الأرض، لتتحمل الثقل الواقع عليها سواء الثقل الميت المتمثل فيما يعلوها من مبانٍ أو الثقل الحي المتمثل فيمن يستغل وحداتها من البشر، وحتى تظل باقيةً تؤدي وظائفها التي أنشئت من أجلها[٣].

وقد كان هذا توجهًا عامًا حرص عليه المعمار المسلم في كل بلدان العالم الإسلامي[٤]، ففي الغرب الإسلامي نستشهد على صحة ذلك بما أورده بعض المؤرخين في هذا الصدد، كابن صاحب الصلاة - على سبيل المثال- الذي ذكر في سياق حديثه عن بناء الخليفة أبي يعقوب الموحدي لجامع إشبيلية (٥٦٧ هـ / ١١٧١م)، أنه :" أسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٤٥٦.

(٢) محمد عبد الستار: اضواء على أهمية الإنشاء، ص ٢٣٢.

(٣) محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ص ٤٤١ — ٤٤٣.

(٤) عن هذه الظاهرة في مصر على سبيل المثال. انظر، محمد عبد الستار: نفس المرجع، ص ص ٤٤١ — ٤٤٤.

الأرض أطول مما فوق الأرض" [١]، فضلاً عن ذلك فقد أوضحت بعض الروايات حرص المعمار المغربي على الوصول إلى مستوى الأرض الصلبة أو المستوى الصخري للأرض، لوضع أساس مبانيه عليها مباشرةً، من ذلك ما ذكره الجزنائي في سياق حديثه عن بناء بعض الملحقات بجامع القرويين بفاس بأمر الفقيه أبي محمد يسكر (ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢م)، حيث: "حفر قاعته إلى أن وصل الأرض الصحيحة ثمَّ بلط ذلك بالرمل والجير، وجعل أسفله طاقة من أحجار كبار مبسوطة وطاقة من الرمل والجير" [٢].

والواقع لم تشر المصادر التاريخية المعاصرة للسعديين- في حدود ما اطلعت عليه- ولا الدراسات الحديثة التي تعرضت بالإشارة لمنشآتهم إلى مواد البناء التي استخدمت في أساساتها ولا إلى طرق بنائها وعمقها، كما لم تتح الفرصة خلال الزيارة الميدانية لعمل جسات لمعرفة ذلك، لكن يمكن القول بوجه عام إن المعمار السعدي قد ورث خبرة سابقيه من المعماريين المغاربة في وضع أساسات متينة للمنشآت التي شيدها، كما يمكن القول إن أساسات هذه المنشآت – في حالة انعدام الأرض الصخرية- كانت عميقة ومتينة؛ نظرًا لسمك جدرانها وارتفاعها كما إن بعضها تتكون من طابقين كالمدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا، كما يتضح ذلك أيضًا من بقاء جدران هذه المنشآت بحالة جيدة حتى الآن دون حدوث تصدع أو تشققات.

الحوائط الحاملة:

كان لكبر مساحة المساجد الجامعة السعدية وما ينتج عن ذلك من امتداد جدرانها لمسافات طويلة، واشتمال الفراغ الداخلي المحصور بينها على بوائك ينتهي "رفسها" إلى هذه الجدران، كما كان لارتفاع بعض المدارس السعدية المكونة من طابقين كالمدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش، أثره في تشكيل حوائطها الحاملة تشكيلاً سعى إلى تحقيق متانتها وتحملها لما تحمله من أثقال ميتة تتمثل في ثقل الجدران ذاتها وما يعلوها من أنواع الأسقف والتغطية وغيرها من عناصر المبنى الإنشائية، وأثقال حية تنتج عن استخدام الإنسان للمبنى[٣]. لذا فقد شيدت جدران هذه المنشآت سميكةً حتى أنها وصلت في بعض الأحيان إلى أكثر من متر، مع ملاحظة أن هذا السمك يقل كلما ارتفعت الحوائط في الطابق الثاني للمدرستين السابق ذكرهما، وذلك حتى يخفف الثقل على حوائط الدور الأرضي، وقد انصب هذا التقليل على الحوائط من الداخل وبالتالي لم يؤثر على شكل الواجهة الخارجي، ولتخفيف الثقل على هذه الحوائط أيضًا استخدم المعمار في تسقيف هذه

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(٢) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣) محمد عبد الستار: أضواء على أهمية الإنشاء، ص ص ٢٣٢، ٢٤٣ – ٢٤٤.

العمائر مواد إنشائية خفيفة كالخشب والقرميد، وهي مواد أخف ثقلاً من المواد المستخدمة في إنشاء هذه الحوائط التي تمثلت في الآجر أو الطابية في بعض الأحيان، كما هو الحال في جدران الجامع الكبير بتارودانت والسور المحيط بقبور السعديين بمراكش.

ولتحقيق متانة هذه الحوائط تجنب المعمار فتح أية نوافذ بقطاعها السفلي واكتفى – أحيانًا- بفتح صف من نوافذ صغيرة ضيقة بقطاعها العلوي، يلاحظ أنها اقتصرت في المساجد الجامعة على جدار القبلة فقط، ولوقاية هذه الحوائط من ماء المطر الذي يتساقط ببلاد المغرب لفترات طويلة من العام، توجت هذه الحوائط برفرف خشبي مائل يزيد امتداده عن ٠.٥٠ م غطي بحطات من القرميد المزجج، ليصب هذا الماء في الشارع دون أن يلحق ضررًا بهذه الحوائط، ولتحقيق نفس الغرض أيضًا غطيت الحوائط بالجص الذي يعمل كطبقة عازلة بينها وبين المطر، كما يعمل على تقوية هذه الحوائط وعزلها مما يقلل من عوامل التفسخ والانهيار، كما سبقت الإشارة. (اللوحات ١، ٢، ١٤، ١٥، ٤٧، ٦٩).

ونظرًا للضيق النسبي لشوارع وطرق المدن المغربية القديمة من جهة، ولتسهيل حركة الارتفاق بهذه الشوارع والطرق من جهة أخرى، لجأ المعمار إلى شطف ركن المبنى الذي يحدد زاوية تلاقي هذه الطرق ببعضها[1]، ويلاحظ أن هذا الشطف بكامل ارتفاع الحائط وليس إلى مستوى معين منه، كالشطف الموجود بركن الواجهة الغربية للجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، والشطف الموجود بالركن الشمالي للواجهة الغربية لجامع المواسين بمراكش (شكل ٩)، وكذلك الشطف الموجود بالركن الشمالي للواجهة الشرقية لجامع أبي العباس السبتي بمراكش أيضًا (شكل ١٤)، والشطف الموجود بالركنين الشمالي والجنوبي للواجهة الغربية للمدرسة الغالبية بمراكش (شكل ٢١)، كما لجأ المعمار إلى شطف الواجهة الشمالية للزاوية الجزولية في ثلاث مناطق، نظرًا لضيق الشارع الذي تطل عليه هذه الواجهة التي يلاحظ أنها لا تمتد في استقامة واحدة (شكل ٣٧).

الأعمدة والدعامات:

بدايةً من النصف الأول من القرن (٦ هـ / ١٢م) أدخل المرابطون تجديدًا مهمًا على العناصر الإنشائية الحاملة في العمائر الدينية بالمغرب والأندلس، يتمثل في استخدام دعامات[2] من الآجر كعناصر حاملة ترتكز عليها العقود بدلاً من الأعمدة الحجرية أو

---

(١) هذه الظاهرة شائعة ومعروفة منذ فترة مبكرة في العمارة الإسلامية، للاستزادة عنها، انظر، محمد عبد الستار: المرجع نفسه، ص ٢٤٥.

(٢) يرجع استخدام الدعامات إلى فترات مبكرة في تاريخ العمارة الإسلامية، فقد استخدمت في صهريج الرملة بفلسطين (١٧٢ هـ / ٧٨٩م)، وفي مسجد رباط سوسة بتونس (٢٠٦ هـ / ٨٢١ – ٨٢٢م) وفي جامع المتوكل بسامراء (٢٣٥ هـ / ٨٥٠م)، وفي جامع أحمد بن طولون بالقاهرة (٢٦٣م – ٢٦٥ هـ / ٨٧٦ – ٨٧٩م) واستمر=

الرخامية التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت[١]، واستمر استخدام الدعامات في عصر الموحدين[٢] وبني مرين من بعدهم وبخاصة في المساجد[٣]، إذ أنهم استخدموا الأعمدة الرخامية والحجرية أحيانًا- إلى جانب الدعامات- في مدارسهم، فنراها تحمل سلسلة العقود المكونة للبوائك التي ببيت صلاة كل من مدرسة دار المخزن بفاس الجديد والعطارين والبوعنانية بفاس القديمة، كذلك تحمل عقود بائكات الواجهات المطلة على الصحن كما في مدرسة السبعيين والعطارين بفاس القديمة ومدرسة أبي الحسن بسلا[٤]. وفي عصر بني نصر اشتهر الغرناطيون بكثرة استخدامهم للرخام فعادوا إلى استخدام الأعمدة الرخامية بمساجدهم كما هو الحال في مسجد البيازين والحمراء بغرناطة[٥].

وفي المنشآت السعدية نجد أن الأعمدة قد استخدمت – إلى جانب الدعامات- على نطاق واسع، حيث نراها تحمل سلسلة العقود المكونة للبوائك التي تحمل سقف بيت الصلاة بالمدرسة الغالبية بمراكش (شكل ٢٢) (لوحة ٦٤)، وسقف قاعتي المحراب والاثني عشر عمودًا بقبور السعديين بمراكش أيضًا (الشكلان ٣٩، ٤١) (لوحة ١١١)، كذلك تحمل عقود بائكات الرواقين الغربي والشرقي الواقعين على جانبي قبة لالة مسعودة بقبور السعديين أيضًا (اللوحات ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩)، وتحمل عقود بائكة بيت الاعتكاف المطلة على رواق القبلة بكل من جامعي باب دكّالة والمواسين بمراكش (اللوحتان ٢٧، ٤٣)، كما تحمل عقود البائكة التي تتقدم مدخل الزاوية الجزولية بمراكش (لوحة ٨٨)، وتحمل عقود بائكات الواجهات المطلة على صحن هذه الزاوية أيضًا (شكل ٣٧/ أ).

وإلى جانب استخدام الأعمدة كعناصر حاملة استخدمت أيضًا للغرض الزخرفي، وبخاصة على جانبي حنايا المحاريب وكأنها تحمل العقود التي تتوجها، كما هو الحال في محاريب كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش(اللوحتان ٢٣،

= استخدامها في العصور التالية. كمال الدين سامح: العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ص ص ١٤١ ، ١٥١؛ أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٥٣.

(١) توريس بالباس: الأبنية الإسبانية، ص ١٠٣؛ ولنفس المؤلف: الفن المرابطي والموحدي، ص ص ١٧ – ١٨؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤١٠.

(٢) باستثناء جامع حسّان بالرباط الذي يتميز بأنه الوحيد الذي يشتمل على أعمدة مكونة من أقراص مستديرة بعضها من الحجر وبعضها من الرخام ثبتت فوق بعضها عن طريق قوائم من الخشب والرصاص. توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٢٢؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٣٠١.

(٣) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٢٢؛ أرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة د. أحمد موسى، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م، ص ١٣٢.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٣١٦ – ٣١٧.

(٥) توريس بالباس: الأبنية الإسبانية، ص ١٠٣.

٣٥)، ومحراب جامع الزاوية الجزولية بمراكش أيضًا (لوحة ٩٨)، وكذلك محراب بيت الصلاة بالمدرسة الغالبية بنفس المدينة، ومحراب قاعة المحراب بقبور السعديين بمراكش أيضًا (لوحة ١١٣).

ومن هذه الأعمدة ما هو من الرخام الأبيض وهو الغالب، كما هو الحال في الأعمدة التي على جانبي المحراب بجامع باب دكّالة وجامع الزاوية الجزولية والمدرسة الغالبية، وكذلك الأعمدة التي بصحن الزاوية الجزولية وقاعتي المحراب والاثني عشر عمودًا بقبور السعديين، وبعضها من الرخام المجزع باللونين الأصفر والأحمر، كالعمود الأوسط لبائكة بيت الاعتكاف بجامع باب دكّالة والأعمدة التي ببيت الصلاة بالمدرسة الغالبية والأعمدة التي على جانبي محراب قاعة المحراب بقبور السعديين، وبعضها الآخر من الرخام الأصفر كالأعمدة التي تكتنف حنية محراب جامع الموّاسين وتقع على جانبيه أيضًا، كما أن هناك بعض الأعمدة من الرخام الأسود، كالعمودين الجانبيين ببائكة بيت الاعتكاف بجامع باب دكّالة، والأعمدة الثلاثة التي تحمل عقود بائكة بيت الاعتكاف بجامع الموّاسين.

ويلاحظ أن من هذه الأعمدة ما يرتكز على أرضية المنشأة مباشرةً بدون قواعد، في حين يرتكز بعضها الآخر على قواعد ناقوسية الشكل أو أسطوانية أو ذات مسقط مستطيل، أو مربعٍ، أما بالنسبة لتيجانها، فتجدر الإشارة إلى أن تيجان الأعمدة المغربية نشأت وتطورت – وفقًا لرأي بعض الباحثين- تحت تأثيرين كبيرين، الأول مستلهم من النماذج القديمة الكورنثية أو المركبة (شكل ٦٢)، والثاني مستلهم من الأندلس بصفة خاصة (شكل ٦٣)، ويلاحظ أن شكل التاج (الإسباني – المغربي) تعرض في القرن (٧ هـ / ١٣م) لتطور مهم، حيث اختفى الانحناء المخروطي – الذي كان يميز النماذج القديمة- شيئًا فشيئًا، وأصبح التاج يتألف من جزأين مستقلين، السفلي أسطواني الشكل، والعلوي مكعب أو منشوري رباعي الأوجه (شكل ٦٣)، وقد زين الجزء السفلي – غالبًا- بشريط زخرفي متعرج أو شريطين متعرجين أحدهما فوق الآخر، يعرف بالزخرف الشريطي الثعباني (المحنش) [١].

وقد شاع هذا النوع من التيجان في مختلف المنشآت ببلاد الغرب الإسلامي، فنراه في بعض المدارس المرينية بالمغرب الأقصى كمدرسة العطارين والبوعنانية بفاس القديمة، وفي بعض منشآتهم أيضًا بالمغرب الأوسط كجامعي المنصورة وسيدي بومدين بتلمسان (الشكلان ٦٤، ٦٥)، ونراه في العديد من المنشآت الحفصية بالمغرب الأدنى كتيجان مدخل سوق القماش، كما نراه في منشآت بني نصر بغرناطة كقصر الحمراء على سبيل المثال[٢].

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٥٤ – ٥٥؛
Rousseau, G.,: L'Art Decoratif Musulman, Paris, 1934, pp. 90 - 93.

(2) Marçais, G., : Op. Cit., Tome II, pp. 602 - 609;Rousseau, G., : Op. Cit., pp. 90 - 94.

وقد استمر هذا الشكل في تيجان الأعمدة السعدية، حيث نجدها تتكون من جزأين السفلي أسطواني زين غالبًا بالشريط المتعرج الثعباني، والجزء العلوي مكعب أو منشوري زين بزخارف نباتية وهندسية كثيفة وآخرى كتابية – أحيانًا- بالخطين الكوفي والثلث (شكل ٦٥) (اللوحات ٢٦، ١٠٤، ١٠٩).

وتجدر الإشارة إلى أن الأعمدة المستخدمة في العمائر السعدية موضوع الدراسة، تتفق في آن جميعها ذات أبدان أسطوانية، غير أن هذه الأعمدة تختلف فيما بينها في ارتفاع قواعدها وأبدانها وكذلك تيجانها، وفقاً لاستخدامها في كل منشأة، كما يتضح من الجدول الآتي:

اسم المنشأة	ارتفاع القاعدة	ارتفاع البدن	ارتفاع التاج	الارتفاع الكلي
جامع باب دكالة بمراكش (بيت الاعتكاف)	–	١,٧٠م	٠,٣٧م	٢,٠٧م
المدرسة الغالبية بمراكش (بيت الصلاة)	٠,١٧م	١,٨٥م	٠,٤٢م	٢,٤٤م
الزاوية الجزولية بمراكش (البائكة التي تتقدم المدخل الرئيسي)	–	١,٨٨م	٠,٢٠م	٢,٠٨م
(بائكات الواجهات المطلة على صحن الزاوية	٠,١٥م ٠,١٢م	١,٥٣م ٢م	٠,٤٠م ٠,٤٢م	٢,٠٨م ٢,٥٤م
قبور السعديين بمراكش				
(الرواقان الغربي والشرقي)	٠,١٠م	٢,٥٠م	٠,٥٠م	٣,١٠م
(قاعة المحراب)	٠,٢٥م	٣م	٠,٥٥م	٣,٨٠م
(قاعة الاثنى عشر عمودًا)	٠,٢٣م	٢,٤٨م	٠,٥٥م	٣,٢٦م

وفي ضوء ما سبق يتضح تميز بعض الأعمدة المستخدمة في المنشآت السعدية بارتفاعها الكبير – إلى حد ما- وبخاصة تلك التي تحمل سقف بعض الوحدات المعمارية بهذه المنشآت كقاعات الدفن بقبور السعديين وبيت الصلاة بالمدرسة الغالبية بمراكش، وقد ساعد ذلك على تجنب انخفاض أسقف هذه الوحدات، ولتحقيق نفس الغرض جاءت العقود التي تحملها هذه الأعمدة من النوع الذي على هيئة حدوة الفرس، الذي يتميز بطول رجليه عن مثيلتها بالعقود الأخرى، وبأن اتساعه ليس محدودًا بارتفاعه. فضلاً عن ذلك فقد ساعد استخدام الأسقف الخشبية بأنواعها في تغطية أسقف العمائر السعدية – والمغربية بصفة عامة- على تخفيف الضغط والثقل على هذه الأعمدة.

أما الدعامات فقد استخدم السعديون أنواعًا مختلفةً منها، كالدعامات ذات المسقط المستطيل، ونجدها تستخدم في بوائك البلاطات العمودية والموازية لجدار القبلة بالمساجد السعدية، حيث يرتكز عقدان على جوانب كل دعامة منها، كذلك استخدمت دعامات ذات

مسقط على هيئة حرف T ، وتستخدم غالبًا في البائكة المطلة على صحون تلك المساجد، ويرتكز على كل دعامة منها ثلاثة عقود، واستخدمت أيضًا دعامات متعامدة أو على هيئة الصليب، ونجدها بصفة خاصة في بلاطة المحراب الموازية لجدار القبلة كما نجدها – أحيانًا- في البلاطة المطلة على الصحن، ويرتكز على كل دعامة منها أربعة عقود، كما استخدمت دعامات على هيئة زاوية قائمة، ونجدها بصفة خاصة في الأركان الأربعة للبوائك المطلة على الصحن، حيث يرتكز عقدان على كل دعامة منها. ولكي تتحمل هذه الدعامات رفس العقود التي تحملها وثقل السقف الذي يعلوها، حرص المعمار على أن تكون سميكة ومتينة حيث يتراوح سمكها ما بين ١.٠٢ م × ١.١٤م و ١م × ١.٢٢م، أما ارتفاعها فيتراوح ما بين ٢.٢٧م و ٢.٤٨م، ليساعد هذا الارتفاع مع استخدام عقود حدوة الفرس والتغطية بالأسقف الجمالونية والقباب على تجنب انخفاض الأسقف- كما سبقت الإشارة عند الحديث عن الأعمدة- وبالتالي زيادة الفراغ الداخلي للمبنى.

وقد شيدت هذه الدعامات من الآجر وأدمج في بعضها أعمدة شيدت هي وتيجانها من الجص، بلغ عددها ثلاثة أعمدة وأحيانًا أربعة، وهي للغرض الزخرفي ولا تقوم بأي دور من الناحية الإنشائية (اللوحات ٢٠، ٢١، ٣٤، ٣٩، ٥٧).

ولئن كانت دعائم الآجر أضفت على البلاطات المتعددة طابع القوة والثبات أكثر مما توفره الأعمدة الرخامية أو الحجرية، كما أتاحت التخلص من الروابط الخشبية التي تصل بين الأعمدة، ومن العقود المزدوجة المستخدمة في جامع قرطبة، إلا أن استخدام الدعامات كعناصر حاملة أفقد المسجد من الداخل مظهر الرشاقة، واستقطع جزءًا كبيرًا من ساحات الأروقة المخصصة للصلاة[١]، لذلك يلاحظ أن المساجد السعدية شغلت – كما سبقت الإشارة- مساحات كبيرة، لتعويض تلك المساحات الكبيرة التي شغلتها هذه الدعامات كما يتضح من الجدول الآتي:

الجامع	مساحته الكلية م٢	مساحة الأروقة م٢	المساحة التي تشغلها الدعامات م٢
الجامع الكبير بتارودانت	٣٦٠٠	٢٠٢٣	١٢٥
جامع المواسين بمراكش	٣٢٢٥	١٥٠٢	٧٠
جامع باب دكالة بمراكش	٢٦٦٥	١٥٠٣	٦٥
جامع أبي العباس السبتي بمراكش	١٦٢٨	٧٣٦	٥٠
جامع الزاوية الجزولية بمراكش	٧٥٠	٥١١	٢٥

ويلاحظ أن الجزء السفلي للدعامات المستخدمة في المساجد السعدية قد غطي

(١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ١٨.

بالحصير الملون كما هو الحال بالجدران الداخلية لهذه المساجد بارتفاع نحو ١.٥٥م (اللوحات ٦، ١٢، ١٩، ٢٠، ٣٩، ٥٣، ٥٦)، وهي ظاهرة قديمة عرفتها المساجد المغربية منذ فترة طويلة، حيث أشار ليون الإفريقي (تُوُفِّيَ بعد ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م) في سياق وصفه لمساجد مدينة فاس، أن جدرانها مغطاة بحصر غاية في الجمال بارتفاع قامة الإنسان[١]. وذلك – فيما يبدو- لوقاية هذه الجدران من الرطوبة من جهة، وللحفاظ على نظافة هذه الجدران ونظافة ملابس من يستندون عليها من جهة أخرى.

أما بالنسبة للدعامات المستخدمة في المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش، فقد غطي جزؤها السفلي بارتفاع ١.٦٨م بتكسية من الزليج المتعدد الألوان المزين بزخارف هندسية متنوعة، وكتابات بخط الثلث تقوم على مهاد من زخارف نباتية (لوحة ٧٧).

العقود:

ظهرت عدة أشكال مختلفة للعقود المستخدمة في العمائر الدينية والجنائزية السعدية – موضوع الدراسة- تمثلت في العقد الذي على هيئة حدوة الفرس (المتجاوز لنصف دائرة)، والعقد نصف المستدير، والعقد المطنف، والعقد الموتور، وتتمثل وظيفة هذه العقود من الناحية الإنشائية في أنها تقوم بتوزيع ثقل الأسقف على جميع أجزاء البناء، وتخفف ضغط البناء عن الفراغ الذي بين الدعائم، وتحول معظم الثقل والضغط نحو الدعائم مباشرة، ومنها بالتالي إلى الأرض[٢]. وقد غلب عقد حدوة الفرس من حيث انتشاره واستعماله على العقود الأخرى في هذه العمائر- بل وفي كل عمائر الغرب الإسلامي- ، وينسب أقدم مثل مرجح التاريخ للعقد حدوة الفرس إلى العصر الساساني ويوجد في معمدانية ماريعقوب بمدينة نصيبين المشيدة عام (٣٥٩م)[٣]، ثمَّ ظهر أول مثل له في العمارة الإسلامية في الجامع الأموي بدمشق (٨٨ – ٩٦ هـ/ ٧٠٧ – ٧١٤م) في عقود البائكات المطلة على الصحن والنوافذ التي تعلو تلك العقود[٤]، أما أول ظهور له في مصر فكان في العصر المملوكي، حيث نجد الإرهاصة الأولى له في ضريح المنصور قلاوون (٦٨٣ – ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ –١٢٨٥م)، ثمَّ تبلور في تجديدات حسام الدين لاجين لمئذنة جامع ابن طولون عام (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦م)، واستمر ظهوره بعد ذلك في عمائر هذا

---

(١) ليون الإفريقي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٣.

(٢) عاصم نايف البرغوثي: الخصائص المعمارية، ص ١٤٤.

(٣) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، ص ٧٢؛ فريد شافعي: المرجع السابق، ص ص ١٧٣، ٢٠٣، شكل ٩٣.

(٤) مارتن بريجز: فن العمارة، بحث نشر في كتاب تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة د. زكي محمد حسن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م، ص ١٢٦؛ أحمد فكري: المرجع السابق، ص ٧٢؛ فريد شافعي: المرجع السابق، ص ٢٠٣، الشكلان ١٣٧، ١٣٨؛ حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٨١م، ص١٩٣.

العصر[(١)]، غير أنه لم ينتشر في عمائر الشرق الإسلامي مثلما انتشر في غربه، إذ أصبح من أشهر مميزاته المعمارية، ومن أقدم أمثلته تلك التي بالمسجد الجامع بالقيروان (١٠٥ هـ / ٧٢٤م)[(٢)]، ثمَّ ساد بعد ذلك في جميع المنشآت الدينية والمدنية على السواء، كجامع قرطبة وجامع القصبة الكبير بإشبيلية وقصر السيد بقرطبة وواجهة قصر الجص بإشبيلية وغيرها[(٣)]، وفي جميع المساجد الموحدية[(٤)]، والمساجد والمدارس المرينية[(٥)].

ولعل الدافع إلى شيوع هذا النوع من العقود في عمائر الغرب الإسلامي تلك المميزات التي ينفرد بها عن غيره، كقوة المقاومة والتماسك الوثيق[(٦)]، حيث إن مقاومة عقود حدوة الفرس لاندفاع القوة الناشئة من انحنائها تفوق مقاومة الأنواع الأخرى من العقود كالنصف مستديرة- على سبيل المثال- ، وإن هذه القوة لا تندفع خارج حدود العقد، وتساعد على تماسك أجزائه، كما أن الحائط الذي يعلو العقد نصف المستدير يكاد يضاعف ارتفاعه مرتين ارتفاع الحائط الذي يعلو عقد حدوة الفرس، وإن كان ارتفاعهما بمستوى واحد، نظراً لطول رجلي عقد حدوة الفرس عن مثيلتيها في العقد نصف المستدير، وبالتالي فإن قوة عقد حدوة الفرس تزداد لخفة الحمل أو الثقل الذي فوقه نظراً لقلة ارتفاع الحائط الذي يعلوه[(٧)]، ويتبع قلة ارتفاع الحائط اقتصاد في الجهد ومواد البناء وتوفير في النفقات[(١)].

---

(١) فريد شافعي: مئذنة مسجد ابن طولون رأي في تكوينها المعماري، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر- الجزء الأول، مايو ١٩٥٢م، ص ١٧٦؛ كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص ص ٢١، ٤٥.

(٢) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ٧٤؛ ولنفس المؤلف: مسجد الزيتونة الجامع بتونس، بحث نشر في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثاني، مايو ١٩٥٢م، ص ص ٨٠ — ٨١؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٥. هذا ويرى د. أحمد فكري أن عقود المسجد الجامع بالقيروان هي من ابتكار معمار المسجد ذاته، وأنها فريدة في عصرها ولم تقم عقود شبيهة لها في أي عصر من العصور، أو في أي أثر من الآثار التي سبقتها، وأما الأمثلة السابقة عليها التي وجدت في كل من سوريا وآسيا الصغرى أو في الهند، فهي أمثلة منفردة لا تنم إلا عن مظهر زخرفي، ولا تعبر عن تفهم صحيح للميزات التي تتجمع في عقود مسجد القيروان، كذلك لا يوجد بكل من هذه الأمثلة سوى عقد أو عقدين، يتوج فتحة باب، أو يعلو نافذة أو يزين واجهة، أما مسجد القيروان فيشتمل على مئات منها انظر، أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، ص ص ٧٨ — ٧٩.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ص ٣٦٦ — ٣٦٧؛ ولنفس المؤلف: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، بحث نشر في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٩٢م، ص ٦٣.

(٤) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٥) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ص ٣١٧، ٣٢٠.

(٦) أحمد فكري: مسجد الزيتونة الجامع بتونس، ص ٨١.

(٧) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ص ٧٤ — ٧٦.

بالإضافة إلى ذلك فإن من أهم مميزات عقد حدوة الفرس هي وفرة الإضاءة، لأنه يسمح بنفاذ كمية من الضوء والهواء أكثر من غيره من العقود الأخرى، ولعل هذه الميزة هي العامل الأول في شيوعه في عمارة الغرب الإسلامي، فنظرًا لبرودة الجو في هذه البلاد جاءت جدران وسقوف أروقة الصلاة بمساجدها خالية من الفتحات النافذة، لذا كانت تستمد الضوء والهواء من صحن المسجد، فلجأ المعمار إلى استخدام عقد حدوة الفرس لاتساع فتحته وارتفاعها - عن مثيلاتها في العقود الأخرى - لتساعد على دخول الضوء والهواء، وقد اتبع ذلك شيوع نظام تعامد البلاطات على جدار القبلة، حتى لا يجد عائقًا في سبيله من صحن المسجد[٢] وهذا النظام قلما نجده في مساجد الشرق الإسلامي حيث المألوف أن تمتد البلاطات بمحازاة جدار القبلة[٣].

ومن العوامل التي أدت إلى شيوع عقد حدوة الفرس في عمارة الغرب الإسلامي أيضًا، هو استخدامهم لأعمدة ودعامات قصيرة - لا يزيد ارتفاعها أحيانًا عن ثلثي قامة الإنسان - في حمل عقود البوائك، ثمَّ يبدأ خصر العقد بعد ذلك مباشرةً ويطول فلا تبدأ العقود إلا على ارتفاع مترين[٤]، وذلك لتجنب انخفاض الأسقف، وهذه الخاصية لا تتوفر إلا في عقد حدوة الفرس، بالإضافة إلى أن ارتفاع عقد حدوة الفرس ليس محدودًا باتساعه كما سبقت الإشارة.

أما في العمائر الدينية والجنائزية السعدية - موضوع الدراسة - فقد شاع استخدام عقد حدوة الفرس أكثر من غيره من العقود الأخرى، ومن أبرز أمثلته العقود التي تتوج بعض مداخلها الرئيسية (اللوحتان ٢٩، ٤٧)، والعقود التي ببعض البائكات المطلة على صحونها (اللوحات ١٧، ١٨، ٣١، ٣٢)، وكذلك ما يتوج بعض بائكات أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة (اللوحات ٢٠، ٣٩، ٥٦، ٦٤)، والعقود التي تتوج حنايا بعض محاريبها (اللوحات ٢٣، ٤٠، ٥٧، ٨٣)، وما يتوج واجهة سقاية الدواب بسقاية جامع المواّسين بمراكش (لوحة ٤٦).

وقد حظي عقد حدوة الفرس في هذه العمائر - فضلاً عن انتشاره - بعناية المعمار، فتنوعت وتعددت أشكاله وظهر في تكوينات زخرفية مختلفة، فنجد منه عقد حدوة الفرس المدبب أو المنكسر كما يطلق عليه بعض المغاربة[٥] - وذلك لانكسار استدارته قليلاً عند قمته - ويتميز هذا النوع بأن حدة ميل جوانبه تسمح بتحويل ثقل وضغط السقف نحو

---

(١) أحمد فكري: المرجع نفسه، ص ٧٦، ولنفس المؤلف: مسجد الزيتونة الجامع بتونس، ص ٨١.

(٢) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، ص ص ٧٦ – ٧٧.

(٣) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص ١٧٥ ؛ حسين مؤنس: تطور العمارة الإسلامية في الأندلس، بحث نشر في حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير، المجلد الأول، مايو ١٩٥٨، ص ٢١٧.

(٥) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٠.

الدعائم مباشرةً، وبالتالي إلى الأرض أكثر من العقود الأخرى، كما أنه يحتاج إلى قليل من الدعم الخارجي[١]. ومن أبرز الأمثلة بالعمائر السعدية موضوع الدراسة ما يتوج بعض المداخل الرئيسية لهذه العمائر (لوحة ١٠٢)، وما يوجد ببعض البائكات المطلة على صحونها (اللوحات ٥، ٩٢، ٩٥)، وكذلك ما يتوج بائكات بعض أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة (اللوحات ١٢، ٥٦، ٩٩)، وفيما يتوج بعض حنايا محاريبها ويتمثل ذلك في محرابي جامع الزاوية الجزولية، وقاعة المحراب بقبور السعديين (لوحة ١١٣)، بعد أن كان عقد حدوة الفرس هو السمة التقليدية للمحاريب المغربية بوجه عام[٢]، وكذلك ما يتوج واجهة سقاية الدواب بسقاية جامع باب دكّالة (لوحة ٢٨)، وعقود العديد من الدخلات والحنايا بداخل هذه العمائر (اللوحتان ٧٤، ٧٦).

كما زين باطن عقد حدوة الفرس أحيانًا بحطات من مقرنصات جصية ذات دلايات، وقد شاع استخدام هذا النوع من العقود بكل من المغرب والأندلس قبل العهد السعدي، حيث نجده مستخدمًا – على سبيل المثال – في المساجد والمدارس المرينية[٣]، وفي عمائر بني نصر بغرناطة، وبخاصة قصر الحمراء[٤]. ومن أبرز أمثلته ما يتوج بعض بائكات أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة (اللوحات ١٩، ٢٥، ٣٤، ٤٤، ٥٣)، وما يتوج بعض مداخل قاعات الدفن بقبور السعديين (لوحة ١٠٥)، وفيما يتوج بعض بائكات هذه القاعات. وفي بعض الأحيان زين باطن عقد حدوة الفرس بأقواس مجوفة أو فصوص صغيرة تتناوب مع أخرى كبيرة، ومن أبرز أمثلته ما يتوج بعض بائكات أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة (اللوحتان ١٠، ٢٦)، وما يعقد بعض المداخل بهذه العمائر (لوحة ٨٧)، وفيما يتوج العديد من الدخلات والحنايا والنوافذ بداخل هذه العمائر (اللوحتان ٧٧، ٧٨).

أما بالنسبة للعقد نصف المستدير، فعلى الرغم من كونه أكثر أنواع العقود انتشارًا وشيوعًا في مختلف بلدان العالم، فإنه يصعب تحديد أول نموذج له أو تحديد العصر الذي ظهر فيه، أما أقدم مثل باق له من العمارة الإسلامية فيتمثل في عقود قبة الصخرة (٧٢ هـ / ٦٩١ – ٦٩٢ م)، ثمَّ تتابعت أمثلته بعد ذلك بغير انقطاع مع ملاحظة أن استعماله أخذ يقل تدريجيًا مع ازدياد الإقبال على الأنواع الأخرى التي انتشرت في العمارة الإسلامية في الشرق والغرب[٥].

---

(١) عاصم نايف البرغوثي: المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٥٠٥؛ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٣٠٠.

(٣) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٤) عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، ص ١٨٥؛ يحيى وزيري: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٩م، ص ٦١.

(٥) فريد شافعي: المرجع السابق، ص ص ٢٠١، ٢٠٣.

أما في المغرب فلم ينتشر العقد نصف المستدير بنطاق واسع في عمائر تلك البلاد، ومع ذلك نجده يتوج فتحات بعض الأبواب والنوافذ وكذلك العديد من الدخلات والحنايا بداخل هذه العمائر، كالمساجد الموحدية[١]، والمساجد والمدارس المرينية[٢].

وأما في العمائر الدينية والجنائزية السعدية فيلاحظ استخدام العقد نصف المستدير للأغراض الإنشائية والزخرفية على السواء، حيث نجده يتوج فتحات أبواب كل من بيت المنبر وبيت الخطيب بجامع المواسين (لوحة ٤٠)، وبيت المنبر بجامع أبي العباس السبتي (لوحة ٥٧)، وبيت المنبر ومصلى الجنائز بجامع الزاوية الجزولية (لوحة ٥٣)، كما نراه يتوج بعض النوافذ والعديد من الدخلات والحنايا بداخل هذه العمائر (اللوحات ١١، ٤١، ٧٤، ٧٦، ٨٣، ٨٤).

أما العقد المطنف (Corbelled arch) الذي ظهرت عدة نماذج له ترجع إلى الحضارة الإيجية، ومن أمثلته القبور المستديرة المعروفة بالثولوس (Tholos tombs) التي كانت شائعة بين (١٥٠٠ – ١٣٠٠ ق.م)، أبرزها ما يسمى بخزينة – بيت مال- أتريوس (Treasury of Atreus) في مكيني ببلاد اليونان، واستعمل أيضًا في بلاد الشام، فقد عثر في أوغاريت على مجموعة من أربعة عشر قبرًا لها عقود مطنفة تعكس تأثيرات إيجية، وينتج العقد المطنف من بناء مداميك الحجر أو الآجر، بحيث يبرز طرف كل مدماك عن المدماك الذي تحته قليلاً إلى الداخل، وتلتقي المداميك برأس مثلثة في القمة[٣].

وترجع أولى نماذج العقد المطنف الباقية بالعمارة المغربية – على حد علمي- إلى العصر المريني، حيث نراه يتوج البائكات المطلة على صحون المدارس المرينية، كمدرسة القاضي بمكناس حوالي عام (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م) ومدرسة الصهريج بفاس القديمة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م) وفي المدرسة الجديدة بمكناس – المعروفة خطأ بالبوعنانية- (٧٣٦ – ٧٤٢ هـ / ١٣٣٦ – ١٣٤١م) ومدرسة أبي الحسن بسلا (٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) والمدرسة البوعنانية بفاس القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م)، ويتكون العقد المطنف في هذه المدارس من حرمدانين من الجص أو الحجر يعلوهما طنفان خشبيان يعلوهما عتبان من الخشب أيضًا، ويلاحظ أن الحرمدانين يرتدان عن الطنفين الخشبيين وهما يرتدان بدورهما عن العتبين العلويين[٤].

أما في العمائر الدينية والجنائزية السعدية فقد انتشر استخدام العقد المطنف، وهو من الخشب أيضًا ويشبه في تكوينه الأمثلة المرينية السابق الإشارة إليها، ومن أبرز أمثلته عقود دهليز المدرسة الغالبية (اللوحتان ٧٠، ٧١)، وما يتوج البائكات المطلة على صحن هذه المدرسة

---

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٣) عاصم نايف البرغوثي: المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢١.

(اللوحتان ٧٧، ٧٨)، ونراه في عقود الأروقة التي تتقدم مساكن الطلاب بهذه المدرسة أيضًا (لوحة ٨٧)، وما يتوج الجزء الخاص بالآدميين في كل من سقاية جامعي باب دكّالة والمواسين وفي سقاية الزاوية الجزولية وسقاية اشرب وشوف بمراكش (لوحة ٤٦).

وأما العقد الموتور، فالواقع أن هذا النوع من العقود لم يظهر بالعمارة المغربية — في حدود ما أعرف- قبل العصر السعدي، ويعكس ظهوره في هذه الفترة التأثير الموريسكي والبرتغالي على العمارة المغربية[1]. ومن أبرز أمثلته العقود التي تتوج فتحات أبواب المراحيض بميضأة جامع باب دكّالة، وعقود البائكة التي تتقدم المدخل الرئيس للزاوية الجزولية (لوحة ٨٨).

الأسقف:

استخدم السعديون أنواعًا مختلفةً من الأسقف الخشبية في تغطية عمائرهم الدينية والجنائزية- موضوع الدراسة- كالأسقف الجمالونية والهرمية والمسطحة والقباب الخشبية أيضًا بالإضافة إلى القباب المبنية بالآجر والجص. ويرجع غلبة استخدام الأسقف غير المسطحة بهذه العمائر — كغيرها من عمائر الغرب الإسلامي- إلى طبيعة الأحوال المناخية بهذه البلاد، التي تتميز بتساقط الأمطار بغزارة لفترات طويلة من العام، وبالتالي تمنع هذه الأسقف المائلة أو المنحنية تجمع المياه بأعلاها، ويتم تصريفها عبر قنوات للاحتفاظ بها في صهريج بصحن المسجد للاستفادة من هذه المياه في الوضوء وغيره وبخاصة في فترات الجفاف، كما أن الأسقف المنحنية تزيد من سرعة الهواء المار فوق سطوحها، وتستقبل كمية قليلة من أشعة الشمس قياسًا بالأسقف المسطحة، فيترتب على ذلك تلطيف درجة الحرارة داخل المبنى في فصل الصيف[2]، فضلاً عن ذلك فإن استخدام القباب والأسقف الهرمية والجمالونية في التغطية يزيد من الفراغ الداخلي للمبنى؛ مما يؤدي إلى وفرة الإضاءة والتهوية الجيدة، إلى جانب أن الزيادة في المساحة الداخلية يوفر مكانًا لحركة الهواء الدافئ الملامس للسقف؛ مما يؤدي إلى توزيع شدة الإشعاع الشمسي فوق مساحة أكبر، وبالتالي تقل درجة الحرارة داخل المبنى أثناء النهار[3]. أما الأسقف الجمالونية فقد تميزت مساجد الغرب

---

(١) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٨٥.

(٢) إيمان محمد عيد عطية: أساليب التصميم المعماري في المجتمعات الصحراوية، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء — تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة — قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م، ص ٣٤ ب؛ سامي سليمان عليوة: الخصائص البصرية والبيئية للتجمعات العمرانية الهامشية في إقليم جنوب مصر، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء- تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة- قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م، ص ٢٠.

(٣) إيمان محمد عيد عطية: المرجع السابق، ص ٣٤ ب.

الإسلامي كما سبقت الإشارة - كغيرها من عمائر تلك البلاد- بتغطيتها بتلك الأسقف[١]، كمسجد قرطبة[٢]، والقيروان والقرويين والأندلس بفاس القديمة، ومساجد الموحدين في تنملل وتازة ومراكش والرباط وغيرهما[٣]، ومساجد المرينيين ومدارسهم[٤].

وقد كان لاستخدام هذه الأسقف أثره – فيما يبدو- على تخطيط المساجد بهذه البلاد؛ فنظرًا لأن هذه الأسقف صنعت من الخشب، وهي مادة ضعيفة – نسبيًا- ولا تستمر على حالتها لمدة طويلة، وتحتاج إلى ترميم وصيانة في فترات متقاربة، فكان لا بد من تقسيم الأسقف الطويلة إلى أقسام أو أجزاء ليسهل صيانتها وتجديدها، لذا جاء تخطيط مساجد هذه البلاد- التي تميزت باتساع مساحاتها كما سبقت الإشارة- يتكون من بلاطات عمودية أو عمودية وموازية لجدار القبلة، عن طريق بائكات عبارة عن صفوف من أعمدة – في المساجد المبكرة- أو دعامات تحمل سلسلة من العقود لتزيد من الفراغ الداخلي للمبنى، ويرتكز على كل صفين من هذه الأعمدة أو الدعامات جزء أو قسم من السقف، وبهذا الفصل الإنشائي تتم عملية الترميم والتجديد في أي جزء من هذا السقف دون أن يؤثر على الأجزاء المجاورة[٥].

كذلك كان لاستخدام القباب في تغطية بعض المساحات بداخل هذه المساجد أثره على تخطيطها، حيث يلاحظ أن البلاطة التي تتقدم المحراب بكل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي، وكذلك البلاطة التي جهة الصحن بجامع باب دكّالة، غطيت كل منها بثلاث قباب واحدة في كل جانب، والثالثة في الوسط تتقدم المحراب (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، لذا فإن هذه البلاطات على الرغم من أن عقود كل منها تمتد بموازاة جدار القبلة، اشتملت أيضًا على أربعة عقود عمودية على هذا الجدار، وذلك ليمكن تشكيل ثلاث مساحات مربعة يتم تحويل مسقطها المربع إلى مسقط مثمن أو دائري تقوم عليه القبة، كما كان لذلك أثره أيضًا على نوعية الدعامات الحاملة لعقود هذه البلاطات، حيث جاءت غالبًا من النوع الذي على هيئة حرف T أو متعامدة على هيئة الصليب؛ ليرتكز على الأولى ثلاثة عقود، ويرتكز على الثانية أربعة عقود (الأشكال ٣، ٩، ١٤).

وقد استخدمت الأسقف الجمالونية في تغطية بلاطات أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة

---

(١) لم تستخدم الأسقف الجمالونية في تغطية المساجد بمصر، ولكنها ظهرت في بعض مساجد الشرق الإسلامي، كالجامع الأموي بدمشق (٨٦ هـ / ٧٠٥م). انظر، فريد شافعي: المرجع السابق، ص ١٩٧؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٥٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣١٩.

(٣) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٥٣.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٥) وتجدر الإشارة إلى أن المعمار المغربي تنبه إلى هذا الحل منذ تخطيطه للمساجد الأولى بهذه البلاد، كالمسجد الجامع في القيروان. انظر، نجوى عثمان: المرجع السابق، ص ص ١٠٢- ١٠٣.

السعدية (اللوحات ٧، ٣٨، ٩٧)، ويلاحظ أن هذه الأسقف تأخذ نفس امتداد بلاطات هذه الأروقة من الداخل، سواء كانت هذه البلاطات عمودية أو موازية لجدار القبلة (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤، ٣٧/ ج)، كما استخدمت الأسقف الجمالونية أيضًا في تغطية بعض قاعات الدفن بقبور السعديين (اللوحتان ١٠٨، ١١٢)، وفي تغطية البناء الذي يعلو الحوض الذي يتوسط فناء ميضأة كل من جامعي باب دكّالة والمواسين، وتتكون هذه الأسقف من مستويين، السفلي — وهو الذي نراه من الداخل- عبارة عن ألواح خشبية مسطحة "سماوات"[1] ترتكز على عوارض خشبية (جوائز)[2](اللوحتان ٧، ١٠٨) أما المستوى العلوي — والذي نراه من الخارج- فيتكون من ألواح خشبية أيضًا ثبتت عليها حطات القرميد المزجج باللون الأخضر التي اتخذت هيئةً معماريةً جمالونية الشكل (اللوحات ٢٢، ٣٧، ٥٥)، وقد صمم المعمار هذه الأسقف بهذه الهيئة لتصريف مياه الأمطار الساقطة عليها، حيث كانت تفصل بين حطات القرميد التي تغطي هذه الأسقف قنوات ممتدة تتجمع فيها مياه الأمطار ثمَّ تنساب في ميازيب أو تستمر هذه القنوات في السير تجاه الصهريج- الذي يوجد بصحن الجامع- عبر الجدران والدعائم، وبذلك لا تصل المياه إلى السقف الداخلي وتعرضه للتلف كما حرص المعمار على عدم تتويج جدران هذه المنشآت بشرافات حتى لا تعرقل تصريف مياه الأمطار عند سقوطها على هذه الأسقف المائلة[3].

كذلك فإن الملمس الناعم للقرميد الذي يغطي المستوى العلوي وألوانه الفاتحة البراقة تعكس — كما سبقت الإشارة- أشعة الشمس وتقلل من الاكتساب الحراري للأسطح، فضلاً عن ذلك فإن طبقة الهواء الرقيقة التي تفصل بين المستويين اللذين يتكون منهما السقف، تعمل على تأخير وصول الحرارة إلى داخل المبنى لفترة طويلة[4].

كما استخدمت الأسقف الهرمية في تغطية بعض وحدات المنشآت الدينية والجنائزية

---

(١) سماوات: مفردها سماء، سقف خشبي مسطح، وقد فسرها الإدريسي في سياق وصفه لجامع قرطبه، كما يلي: "وسقفه كله سماوات خشبية مسمرة في جوائز سقفه". انظر، الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن إدريس الحمودي الحسني، من القرن ٦ هـ / ١٢م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، الجزء الثاني، ص ٥٧٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم :بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، بحث نشر في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٩٢م، القسم الثاني، ص ٣٤٢.

(٢) جوائز: مفردها جائزة، وهي كتلة من الخشب قطاعها مربع تمتد أفقيًا في جانبي السقف لتحمل الألواح الخشبية فيما بينها. انظر، السيد عبد العزيز سالم: المرجع نفسه، ص ٣٤٢.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، ص ص ٦٧، ٦٩ ؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٥٢، ٤٥٢.

(٤) قيصر طالب: المرجع السابق، ص ١٦٨ ؛ إيمان محمد عيد عطية:المرجع السابق، ص ٣٤ ب.

السعدية- موضوع الدراسة- وهي عبارة عن سقف مربع المسقط هرمي الشكل له أربعة أضلاع من الخشب مثلثة الشكل تثبت قواعدها على جدران المساحة المربعة المراد تسقيفها، وتلتقي رءوسها لأعلى مكونةً هيئة الهرم، ويعرف هذا النوع من الأسقف في الاصطلاح المغربي- كما سبقت الإشارة- باك" برشلة"، وقد استخدم هذا السقف في تغطية المساحات المربعة بداخل أروقة الصلاة بالمساجد الجامعة (لوحة ٩)، والمساحة المربعة بنهاية دهليز المدرسة الغالبية (لوحة ٧٣)، والمساحات المربعة بداخل بعض قاعات الدفن بقبور السعديين (لوحة ١١٥)، وتأخذ هذه الأسقف (البرشلة) من الخارج هيئةً هرميةً ذات أربعة جوانب غطيت بحطات القرميد (لوحة ١١٠) ويبدو أن هذا النوع من الأسقف استخدم في تغطية المساحات المربعة كبديل للقبة، لتميزه عنها بالاقتصاد في الجهد والنفقات وسرعة الإنشاء الناتجة عن بساطة التكوين.

أما الأسقف المسطحة فيلاحظ أنها محدودة الاستخدام في العمائر السعدية موضوع الدراسة- بل وفي عمائر الغرب الإسلامي بصفة عامة- حتى لا تتجمع عليها مياه الأمطار التي تسقط على هذه البلاد في فترات طويلة من العام، كما سبقت الإشارة ومع ذلك فقد استخدمت في تغطية بعض الدهاليز والممرات والأروقة التي تحيط بصحن كل من المدرسة الغالبية والزاوية الجزولية (اللوحتان ٧٠، ٨٦)، وفي تغطية القاعة التي تقع إلى الغرب من ضريح الجزولي، وفي تغطية بعض المساحات المستطيلة بداخل كل من قاعة الدرس بالمدرسة الغالبية وبعض قاعات الدفن بالمبنى الغربي لقبور السعديين (اللوحتان ١١٦، ١١٩). ويبدو أن المعمار استخدم هذه الأسقف المسطحة لتجميع أشعة الشمس، وتدفئة المبنى، نظراً لأن الأسقف المستوية تتميز بأنها تستقبل كمية من أشعة الشمس أكثر من الأسقف المنحنية أو المائلة[١].

أما القباب الخشبية، فيمكن القول أنها نادرة في العمارة الإسلامية، ندرتها في بقية الطرز المعمارية السابقة على الإسلام والمعاصرة له، وهناك احتمال بأن القبة الأصلية فوق الصخرة في مبنى قبة الصخرة كانت من الخشب مثلما هي اليوم، أما قبة الإمام الشافعي الخشبية – الحالية- فلا يعتقد أنها هي القبة الأصلية التي شيدت مع البناء عام (٦٠٨ هـ / ١٢١١م) لكون الجدران التي تحملها يصل سمكها نحو ٢,٥٠ م، مما يرجح أن القبة الأصلية كانت مشيدة بالآجر حسب أسلوب البناء الذي كان سائداً في العصر الفاطمي والأيوبي، وأول المملوكي[٢].

وأما في المغرب فترجع أقدم نماذج القباب الخشبية الباقية- في حدود ما أعلم- إلى العصر المريني، حيث يوجد مثال نادر يتمثل في تغطية قاعتي الدرس بالمدرسة البوعنانية بفاس

(١) سامي سليمان عليوة: المرجع السابق، ص ٢٠.
(٢) فريد شافعي: المرجع السابق، ص ١٩٩.

القديمة (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م)، فقد غطيت كل قاعة منها بقبة خشبية ذات ضلوع مشعة، تأخذ من الخارج هيئةً هرميةً غطيت بالقرميد المزجج باللون الأخضر[1].

والقباب المغربية من الداخل إما أن تكون نصف كروية أو مخروطية، وقد قسم هذا البدن الداخلي الذي يعرف وفقًا لاصطلاح المغاربة بـ(الطاسة) [2] تقسيمًا منتظمًا إلى عدة أجزاء أو ضلوع – تشبه فصوص البرتقالة– تتكون منها القبة، وتقطع هذه الأجزاء وتدهن وتنفذ عليها الزخارف وهي على الأرض، فإذا ما جمعت هذه الأجزاء، كونت قبة، يختلف اسمها وفقًا لعدد هذه الأجزاء أو الضلوع، فالقبة التي تتكون من خمسة ضلوع تعرف بـ (الخماسية)، والتي تتكون من ثمانية ضلوع تعرف بـ (الجفنة المثمنة)، والمكونة من أربع وعشرين ضلعًا تعرف بـ (الجفنة الأربع وعشرينية)، والتي تتكون من ستين ضلعًا تعرف بـ (الستينية) [3]، ويطلق على قطب القبة أو الصرة التي تتوسطها مصطلح (شاشية) وهي مستديرة أو تتخذ شكل نجمة ثمانية (خاتم سليماني)، وتنطلق منها الأجزاء أو الضلوع المشعة التي تتكون منها القبة كما سبقت الإشارة، ويلاحظ أن هذه الشاشية هي آخر الأجزاء التي يتم تركيبها في القبة، وهو أمر مقصود حيث يتم ترك فتحتها لتسمح بمرور شخص من خلالها لوضع اللمسات النهائية وتنفيذ التشطيبات الأخيرة بالقبة، وبعد الانتهاء يخرج الشخص وتركب الشاشية[4].

وقد استخدمت القباب الخشبية في تغطية بعض الوحدات المعمارية بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية– موضوع الدراسة– ، حيث نجدها تغطي الجزء الأوسط لقاعة الدرس بالمدرسة الغالبية، وهي مكونة من ثمانية ضلوع (لوحة ٨١)، كما نراها تغطي ضريح الجزولي وهي قبة ذات ستة عشر ضلعًا (لوحة ٩٣)، وتأخذ كل منهما من الخارج هيئةً هرميةً، غطيت بالقرميد المزجج باللون الأخضر (اللوحتان ٨٢، ٩٤) كذلك نجدها تغطي خزانة الكتب الملحقة بجامع المواّسين. وقد زين باطن هذه القباب وكذلك الأسقف الجمالونية والهرمية والمسطحة بزخارف هندسية متنوعة نفذت بطريقة الحفر ودهنت بألوان متعددة، ويحيط بالجزء الأسفل لهذه الأسقف أزر خشبية زينت بكتابات نفذت بالخط الثلث أو الكوفي تقوم على مهاد من زخارف نباتية.

وبالإضافة إلى الأسقف الخشبية السابق ذكرها، استخدمت في تغطية العمائر الدينية والجنائزية السعدية، قباب من الآجر والجص تأخذ من الداخل هيئةً نصف كروية، وقد زين

---

(١) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢٢.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٩٠.

(٣) أندريه باكار: المرجع نفسه، المجلد الثاني، ص ص ٢٢٥– ٢٢٦.

(٤) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

باطن هذه القباب بمقرنصات جصية وزخارف هندسية ونباتية كثيفة لدرجة يصعب معها تمييز مناطق انتقالها (اللوحات ١٦، ٢١، ٣٦، ٥٤، ١٠٥)، وإن كان شكل هذه القباب من الداخل (٢٤ / أ- ب) وقلة ارتفاعها عن سطح المسجد من الخارج يكشف أنها ترتكز مباشرةً على جدران المساحة المربعة المراد تسقيفها، حيث تشطف أركان هذا المسقط المربع على هيئة درجات حتى تصل إلى شكل مثمن ترتفع فوقه القبة مباشرة[1]، وربما حل المعمار مشكلة الانتقال من المسقط المربع إلى المسقط الدائري بهذه القباب عن طريق وضع ألواح من الحجر أو الخشب في أعلى أركان زوايا المساحة المربعة المراد تسقيفها، فينتج عن ذلك قاعدة مثمنة، ثمَّ يضع عليها مدماك من الحجر – أو كتل خشبية قوية- بحيث يقطع أحد الأحجار كلاً من زوايا المثمن، ويضع بعد ذلك مدماك آخر بنفس الأسلوب، فتتشكل لديه قاعدة ذات اثنين وثلاثين ضلعًا قريبة من الشكل الدائري يضع عليها القبة[2]. وتأخذ هذه القباب من الخارج هيئةً هرمية غطيت بالقرميد (اللوحات ٢٢، ٣٧، ٥٥)؛ وذلك لمنع تجمع المياه بأعلاها. وقد استخدمت هذه القباب في تغطية بعض المساحات المربعة بأروقة الصلاة بالمساجد الجامعة، بلغ عددها سبع قباب بجامع باب دكّالة، وخمس بجامع المواسين وثلاث قباب بجامع أبي العباس السبتي (اللوحات ١٦، ٢١، ٣٦، ٥٤)، واستخدمت أيضًا في تغطية المساحة التي تتقدم المدخل الرئيس للمدرسة الغالبية (لوحة ٦٥) (شكل ٢٤/ أ- ب)، ونراها تغطي بعض قاعات الدفن بقبور السعديين (لوحة ١٠٥).

ومن خلال توزيع هذه القباب داخل المساجد الجامعة السعدية، يلاحظ أنها استخدمت بصفة خاصة في تغطية بعض المساحات المربعة برواق القبلة، إذ نجد أن رواق القبلة بجامع باب دكّالة يشتمل على ست قباب، ثلاث منها في بلاطة المحراب، والثلاث الأخرى بالبلاطة التي جهة الصحن، كما تشتمل بلاطة المحراب برواق القبلة بكل من جامع المواسين وأبي العباس السبتي على ثلاث قباب (شكل ١٤)، ويرجع ذلك إلى أن استخدام القباب في التغطية يزيد – كما سبقت الإشارة- من ارتفاع الفراغ الداخلي للوحدات التي تغطيها؛ مما يؤدي إلى وفرة الإضاءة وتوفير التهوية الجيدة بها، الأمر الذي يساعد على ملاءمة هذه الرواق لوظائفه والتي من بينها عقد الدروس العلمية، سيما وأن جدران هذه المساجد – كغيرها من عمائر بلاد

---

(١) وقد شيدت بعض القباب بمصر بنفس هذا الأسلوب. للاستزادة حول هذا الموضوع انظر، فريد شافعي: العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عمادة شؤون المكتبات- جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٢م، ص ١٨٩.

(٢) تعد هذه الطريقة من الأساليب البسيطة التي اتبعها المعمار في بناء قبة فوق حجرة مربعة دون استعمال أجزاء الوصل المختلفة، من مثلثات كروية أو حنايا ركنية أو حطات المقرنصات، وقد شاع استعمال هذه الطريقة قبل الإسلام واستمر العمل بها بعد ذلك في العديد من البلدان الإسلامية. انظر، عاصم نايف البرغوثي: المرجع السابق، ص ص ١٤٨ – ١٤٩.

المغرب- تخلو من الفتحات النافذة؛ نظرًا لبرودة الجو بهذه البلاد، فاعتمد على الصحن كمصدر رئيس في التهوية والإضاءة.

كما استخدمت القبة أيضًا في تغطية المساحة التي تلي كل مداخل الجامع، كجامع باب دكّالة، أو المساحة التي تلي المدخل الرئيس فقط، كما هو الحال بجامع الموّاسين، ولعل السبب في ذلك هو أن زيادة الفراغ الداخلي للمساحة التي تلي هذه المداخل الناتج عن تغطيتها بالقبة، يؤدي إلى وفرة الإضاءة وبالتالي تسهيل عملية الدخول والخروج من هذه المداخل.

واستخدمت القباب الآجرية أيضًا في تغطية حنايا المحاريب بكل من المساجد الجامعة والمدرسة الغالبية وقاعة المحراب بقبور السعديين، حيث تميزت هذه المحاريب- كما سبقت الإشارة- بعمقها الشديد مما سمح للمعمار بتغطيتها بقباب كاملة تأخذ غالبًا هيئةً مخروطية وقد تمكن المعمار من تغطية المساحة المستطيلة لحنية المحراب بقبة، عن طريق إيجاد مساحتين مثلثتين بركني هذه المساحة المستطيلة، ثمَّ شطف الركنين الآخرين، فتشكلت لديه قاعدة مثمنة وضع عليها القبة (لوحة ٢٤) (شكل ٢٩/ أ- ب)، وقد زين باطن هذه القباب بزخارف هندسية ونباتية متنوعة نفذت على الجص بألوان متعددة، (لوحة ٢٤).

كما استخدم القبو نصف البرميلي والقبو المتقاطع أيضًا في تغطية بعض الدركاوات والمراحيض، وبعض الغرف الملحقة بالمآذن وبعض حجرات مساكن الطلاب، وكذلك في تغطية السلالم الداخلية الصاعدة سواء تلك التي تربط بين الطوابق المتعددة للمبنى، كما هو الحال في المدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي، والتي تؤدي إلى بيوت الاعتكاف بالمساجد الجامعة، كما هو الحال بكل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي، أو تلك التي بداخل مآذن هذه المساجد الجامعة السابق الإشارة إليها، بالإضافة إلى مئذنة كل من الجامع الكبير بتارودانت وجامع الزاوية الجزولية بمراكش، كما استخدمت في تغطية الجزء الخاص بالدواب في سقايتي كل من جامع باب دكّالة وجامع الموّاسين بمراكش.

ثالثاً- عناصر الاتصال والحركة:

تعد عناصر الاتصال والحركة من العناصر المهمة بأي منشأة معمارية، إذ إنها تربط أجزاءها بعضها ببعض، كما أنها تربطها جميعًا بما يحيط بها من شوارع، أو يلحق بها من وحدات في الجهة المقابلة عن طريق ساباط يربط بين المبنى وملحقاته يعلو ما يفصل بينهما من شوارع[1]. وتتمثل عناصر الاتصال والحركة في العمائر الدينية والجنائزية السعدية- موضوع الدراسة- في المداخل والدركاوات والدهاليز والممرات أو الأروقة والسلالم

(١) محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ٣٨٥.

والساباطات.

المداخل:

تبدأ عناصر الاتصال بالعمائر السعدية موضوع الدراسة بالمدخل الذي يلاحظ أنه يربطها بالشارع الخارجي مباشرةً دون أن يتقدمه سلم ويرجع ذلك إلى أن أرضية هذه العمائر بنفس مستوى أرضية الشوارع المطلة عليها من جهة – وإن كانت الآن تنخفض بنحو ٠.٥٠ م عن مستوى أرضية هذه الشوارع– ، وللضيق النسبي لشوارع وطرق المدن المغربية القديمة من جهة أخرى، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على العمائر السعدية فقط، وإنما نشاهدها في كل المنشآت المغربية السابقة على عهد السعديين، باستثناء بعض النماذج القليلة التي يتقدم مداخلها أو أحد مداخلها سلم، كما هو الحال في مداخل جامع حسان الموحدي بالرباط، ومدخل الواجهة الشمالية الغربية لجامع الأندلس بفاس، الذي يعرف بالباب المدرج الكبير، وهو من الإضافات الموحدية[1]، والمدخل الرئيسي لمدرسة أبو الحسن المريني بسلا (٧٤٢ هـ / ١٣١٤م) [2].

وتشتمل معظم العمائر السعدية وبخاصة المساجد الجامعة على عدة مداخل، وذلك لتسهيل دخول وخروج المصلين من المسجد، فنجد أن الجامع الكبير بتارودانت يشتمل على أربعة مداخل، بينما يشتمل كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي على ثلاثة مداخل، وتتميز مداخل هذه المساجد السعدية بأنها بارزة على سمت الجدران (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤). ويلاحظ أنه يلي كل مدخل من مداخل هذه المساجد السعدية دركاة تشغل عادةً مساحةً مربعةً أو مستطيلة الشكل، وتتميز هذه الدركاوات – كما سبقت الإشارة– بأنها تقع داخل كتلة المدخل البارزة، وذلك حتى لا تشغل جزءًا من ساحة الصلاة بالجامع، وتعد أقدم أمثلة المداخل البارزة الباقية بالعمارة الإسلامية بصفة عامة تلك التي ظهرت في مدخل قصر المشتى ببادية الشام (١٢٥ – ١٢٦ هـ / ٧٤٣ – ٧٤٤ م)، وفي قصر الأخيضر (١٦١ هـ / ٧٧٧م)[3]، وبخان عطشان بالعراق (١٦١ هـ / ٧٧٧م)، بينما توجد أقدم أمثلتها القائمة بالعمارة الدينية بمسجد المهدية بتونس (٣٠٣ هـ / ٩١٦م)، أما في مصر فقد ظهرت أول نماذجه في العصر الفاطمي حيث نراه في جامع الحاكم بأمر الله (٣٨٠ – ٤٠٣ هـ / ٩٠٩ – ١٠١٣م)، واستمر في

---

(١) محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ص ٣٦٣، ٤٠١.

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(٣) عبد الناصر محمد حسن: الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي (دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية الوافدة)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، إسكندرية، ٢٠٠٢م، الجزء الأول، ص ٧٧٠.

عمائرها طوال هذا العصر، وفي العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث نجدها في المدارس الصالحية (٦٤١ هـ / ١٢٤٣م) وفي جامع الظاهر بيبرس (٦٦٥ – ٦٦٧ هـ / ١٢٦٦ – ١٢٦٩م)[١].

وأما في المغرب الأقصى فقد تميزت المساجد المرابطية بأن مداخلها لا تبرز عن سمت الجدران، وفي العصر الموحدي اشتملت بعض المساجد على مداخل بارزة كمسجد تينملل وتازة والكتبية[٢]، كما تميزت مداخل المساجد الجامعة المرينية بالمغربين الأقصى والأوسط بأنها بارزة على سمت الجدران كالجامع الكبير بفاس الجديد، وجامع الحمراء بنفس المدينة، وجامع المنصورة قرب تلمسان، وجامع سيدي بومدين بالعباد، وجامع سيدي الحلوي بتلمسان.

وإذا كانت المساجد الجامعة السعدية تميزت بتعدد مداخلها، فقد كان الحال على عكس ذلك في مدارسهم التي تميزت باشتمالها على مدخل واحد فقط، بصرف النظر عن كونها مستقلة كالمدرسة الغالبية بمراكش، أو ملحقة بالمساجد الجامعة كمدرسة كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش أيضًا (الأشكال ٢١، ٣٣، ٣٤، ٣٦)، وذلك ليمكن التحكم في الدخول والخروج من هذه المدارس، حيث كانت قاصرةً في حدود الشروط التي حددها منشئوها على الطلاب والشيوخ وأرباب الوظائف العاملين بها فقط، وليست عامة الارتفاق لعموم المسلمين كالمساجد الجامعة. أما الزاوية الجزولية؛ فقد تميزت بتعدد مداخلها - نظرًا لتعدد وحداتها المعمارية – حتى أنها بلغت ثلاثة عشر مدخلاً، لم يتبق منها حاليًا سوى ستة مداخل بينما سدت الأخرى بالبناء (شكل ٣٧)، نظرًا لتعرض الوحدات التي كانت تؤدي إليها للخراب أو لتغير وظيفتها الأصلية، أما قبور السعديين فتشتمل على مدخلين فقط (شكل ٣٩)، ويلاحظ على هذه المداخل أنها – باستثناء مدخل مدرسة جامع باب دكّالة – لا تبرز عن سمت الجدران.

وتجدر الإشارة إلى أن فتحات مداخل المنشآت السعدية – موضوع الدراسة- ليست بنسب ثابتة من حيث الاتساع والارتفاع، كما يتضح من الجدول التالي:

---

(١) أحمد قاسم جمعة: أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب في العصر الإسلامي، بحث نشر في مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد التاسع، ١٩٧٨م، ص ١٩٣.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٣٧٤، ٣٨٢، ٤٠١.

اسم المنشأة	اتساع فتحة المدخل	ارتفاع فتحة المدخل	نسبة الاتساع إلى الارتفاع
الجامع الكبير بتارودانت	١- ١,٩٠ م ٢- ١,٨٦ م ٣- ١,٩٠ م ٤- ١,٤٨ م	٢,٩٠ م ٣ م ٢,٧٠ م ٢,٣٥ م	١ : ١,٥٢ م ١ : ١,٦ م ١ : ١,٤٢ م ١ : ١,٥٩ م
جامع باب دكالة بمراكش	١- ٢,٤٥ م ٢- ٢,٤٦ م ٣- ٢,٥٠ م	٤.١٥ م ٤ م ٣.١٥ م	١ : ١,٧ م ١ : ١,٦٢ م ١ : ١,٢٦ م
جامع المواسين بمراكش	١- ٢,٩٠ م ٢- ٢,٥٥ م ٣- ٢,٥٠ م	٤ م ٤ م ٤ م	١ : ١,٣٨ م ١ : ١,٥٧ م ١ : ١,٦ م
جامع أبي العباس السبتي بمراكش	١- ٢,٥٠ م ٢- ٢,٤٠ م ٣- ٢,٤٠ م	٣,٧٠ م ٣,٨٠ م ٣,٨٠ م	١ : ١,٤٨ م ١ : ١,٥٨ م ١ : ١,٥٨ م
المدرسة الغالبية بمراكش	١,٨٠ م	٢,٩٠ م	١ : ١,٦ م
مدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش	١,٤٨ م	٢,٠٥ م	١ : ١,٣٨ م
الزاوية الجزولية	١- ١,٥٥ م ٢- ١.٤٣ م	٢,٥٠ م ١.٦٥ م	١ : ١,٦ م ١ : ١,١٣ م
قبور السعديين	١- ٢,١٨ م ٢- ٢,٢٧ م ٣- ١,٩٠ م	٤ م ٥,١٠ م ٣ م	١ : ١.٨٣ م ١ : ٢,٢٤ م ١ : ١,٥٧ م

وفي ضوء ما سبق يتضح أن نسبة اتساع فتحات الأبواب السعدية إلى ارتفاعها غير ثابتة، وإن كانت تقترب – بصفة عامة- من نسبة ١ : ١.٥ م، باستثناء مداخل قبور السعديين التي تصل نسبة بعضها من ١ : ٢ م؛ وذلك لتسهيل الدخول والخروج منها أثناء عملية الدفن.

وقد تحكمت المساحة وظروف التخطيط في تكوين هذه المداخل، فمنها ما كان عبارةً عن فتحة باب تؤدي لدركاة بها فتحة باب أخرى يتوصل منها إلى أروقة الصلاة مباشرةً دون وجود دهليز، حتى لا يتم استقطاع أي جزء من ساحة الصلاة، كما هو الحال في مداخل الجامع الكبير بتارودانت باستثناء مدخل الواجهة الغربية، ومداخل كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤)، ومنها ما اشتمل على جزأين رئيسين، الجزء الأول تؤدي إليه فتح الباب مباشرةً وهو الدركاة التي تشتمل على فتحة باب يتوصل منها للجزء الثاني، وهو دهليز مستطيل يؤدي إلى أروقة الصلاة، كما هو الحال بمدخل الواجهة الغربية للجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، أو يوصل إلى الصحن كمدخل المدرسة الغالبية (شكل ٢١)، والمدخل الرئيس للزاوية الجزولية (شكل ٣٧، ١/ ١)، ومنها ما كان من النوع المنكسر[1]، كمدخل كل من مدرسة جامع المواسين (شكل ٣٤) ومدرسة جامع أبي العباس السبتي (شكل ٣٦)، ومدخل قبور السعديين (شكل ٣٩).

وبالإضافة إلى المداخل الرئيسية لهذه المنشآت، فإنها تشتمل بداخلها على عديد من فتحات الأبواب الخاصة ببيت المنبر وبيت الخطيب ومصلى الجنائز وبيت الاعتكاف والمئذنة والميضآت بالنسبة للمساجد الجامعة، وقاعة الدرس ومساكن الطلاب والميضآت بالنسبة للمدارس، وقاعات الدفن بالنسبة لقبور السعديين. وقد حرص المعمار على أن تكون فتحة باب كل حجرة أو غرفة من مساكن الطلاب – غالبًا - بطرف الجدار الذي فتحت فيه وليست في وسطه؛ وذلك حتى يمكن للطالب – كما سبقت الإشارة – استغلال مساحة حجرته أو غرفته بالكامل، كذلك لتوفير الخصوصية ومنع ضرر الكشف لمن بداخل هذه الوحدات السكنية، كما حرص المعمار أيضًا على أن يكون وضع فتحة باب المراحيض – غالبًا- في مقابل حوض الماء الذي يوجد بها، وذلك ليتم ستر الجالس بالمرحاض حتى وإن فتح الباب عليه كما سبقت الإشارة.

الدركاوات والدهاليز:

تلي مداخل العمائر الدينية والجنائزية السعدية عادةً دركاة تشغل مساحةً مربعة أو مستطيلة الشكل- كما سبقت الإشارة- بعضها يشتمل على فتحة تقع على محور فتحة المدخل تؤدي إلى أروقة الصلاة، ونلحظ ذلك فيما يلي مدخلي الواجهة الجنوبية ومدخل

---

(١) المدخل المنكسر وحدة معمارية استخدمت في العمارة الحربية حيث صممت أبواب القلاع والحصون بطريقة معينة تضطر الداخل فيه إلى الانعطاف يسارًا فتنكشف يمينه فيسهل ضربه – إذا كان عدوًا- من جانب الجنود المكلفين بالحراسة والدفاع، واستخدم المدخل المنكسر أيضًا في العمارة المدنية وبخاصة في الدور كعنصر واق من الكشف، ولا يشترط في تخطيطه في الوحدات السكنية اتجاه معين في الانعطاف كما هو في العمارة الحربية. انظر، محمد عبد الستار: الإعلان بأحكام البنيان، ح ١٠١، ص ٧٧.

الواجهة الشمالية للجامع الكبير بتارودانت، وما يلي مداخل كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤)، وقد تؤدي الدركاة إلى الصحن مباشرة كما هو الحال في مدرسة جامع باب دكّالة نظرًا لصغر مساحة هذه المدرسة ومحاولة استغلال كل هذه المساحة في عمل مساكن للطلاب (شكل ٣)، وأحيانًا يوجد بصدر بعض الدركاوات فتحة باب تؤدي إلى دهليز يوصل إلى أروقة الصلاة كالدركاة التي تلي مدخل الواجهة الغربية بالجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، أو توصل إلى الصحن، كالمدخل الرئيس للزاوية الجزولية (شكل ٣٧، ١/١)، أو يوصل إلى بعض الملحقات كالمدخل الثاني للزاوية الجزولية أيضًا (شكل ٣٧، ٢/١).

أما الدهاليز فتشغل – غالبًا – مساحات مستطيلة بعضها يشتمل على عدة فتحات أبواب تؤدي إلى خزانة الكتب ومكتب تعليم الصبيان والميضأة، كما هو الحال بالجامع الكبير بتارودانت (شكل ١)، وبعض الدهاليز تشتمل على مصطبتين للجلوس، وأحيانًا يكون بأحد جداري الدهليز فتحتان إحداهما تؤدي إلى مساحة مستطيلة تستخدم للتخزين والأخرى إلى السلم الصاعد لمساكن الطلاب كما هو الحال بالمدرسة الغالبية (شكل ٢١)، وتشتمل بعض الدهاليز الأخرى على عدة فتحات بعضها توصل إلى مكتب تعليم الصبيان، والجامع وسكن المقدم والميضأة، كما هو الحال في الزاوية الجزولية (شكل ٣٧، ٢/١)، وذلك لتوزيع هذه الوحدات على جانبي هذا الدهليز.

الممرات والأروقة ذات البائكات المطلة على الصحن:

وهي من عناصر الاتصال المهمة بالعمائر السعدية موضوع الدراسة وبخاصة في المدارس، ويلاحظ أن توزيعها ارتبط بتوزيع مساكن الطلاب على جوانب الصحن، سواء كانت موزعة على الجوانب الأربعة كالمدرسة الغالبية ومدرسة كل من جامع المواّسين وأبي العباس السبتي، مع ملاحظة أن مساكن الطلاب بالمدرسة الغالبية لم توزع على جوانب الصحن الأوسط وإنما وزعت على جوانب الصحون الستة الجانبية (الأشكال ٢١، ٣٤، ٣٦)، أو ثلاثة جوانب كمدرسة جامع باب دكّالة (شكل ٣). كما تقوم هذه الأروقة فضلاً عن ذلك بحماية مساكن الطلاب- كما سبقت الإشارة- من العوامل الجوية المتمثلة في أشعة الشمس والمطر والتيارات الهوائية، كذلك يمكن الانتقال من خلالها من مكان إلى آخر أثناء سقوط الأمطار.

ولم يقتصر وجود هذه الأروقة على الدور الأرضي فحسب، بل توجد في الطابق الأول بكل من المدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي مرتبطة أيضًا بمساكن الطلاب، حيث تفتح عليها الغرف إما من جانب واحد أو من الجانبين (شكل ٣١) (لوحة ٨٦). كما تحيط هذه الأروقة بصحن الزاوية الجزولية من ثلاث جهات، هي الشمالية والغربية والشرقية (شكل ٣٧).

السلالم:

سبقت الإشارة إلى أن مداخل المنشآت السعدية – موضوع الدراسة- لا يتقدمها أي نوع من أنواع السلالم، سواء كانت منفردةً أو مزدوجةً أو نصف دائرية- كما هو معروف في بعض المنشآت بالقاهرة- ، غير أن هذه المنشآت اشتملت على العديد من السلالم الداخلية، وهي من عناصر الاتصال المهمة بهذه المنشآت، لكونها تربط الوحدات المعمارية بعضها ببعض، وتربط الطوابق ببعضها في المنشآت متعددة الطوابق كالمدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش، حيث تشتمل المدرسة الأولى على سلمين (شكل ٢١) بينما تشتمل الثانية على سلم واحد (شكل ٣٦)، وفي المساجد الجامعة نجد أن كل مئذنة بداخلها سلم صاعد، فضلاً عن اشتمال كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش على سلم صاعد يوصل إلى بيت الاعتكاف الملحق بكل منها (الأشكال ٣، ٩، ١٤)، كذلك تشتمل الزاوية الجزولية على سلمين، أحدهما يوصل إلى مكتب تعليم الصبيان الذي يوجد بأعلى السقاية والآخر يوجد بداخل مئذنة جامع هذه الزاوية.

ويلاحظ على هذه السلالم أنها تختلف فيما بينها من حيث الشكل ومواد البناء، حيث شيد معظمها بالآجر، وكسيت قائمة ونائمة كل درجة بـ"الدص" أو البجماط، وأحيانًا يحد نائمة الدرجة لوح من الخشب يتراوح عرضه ما بين ٠,٠٥م إلى ٠.٠٦م، كما هو الحال في سلمي المدرسة الغالبية بمراكش، وذلك – فيما يبدو- لمنع الانزلاق من هذا السلم وبخاصة أثناء الهبوط، كما شيدت بعض سلالم هذه المنشآت بالحجر وبخاصة بعض السلالم التي بداخل المآذن. أما من حيث الشكل فيلاحظ أن بعض هذه السلالم يتكون من قلبة واحدة، كما هو الحال في سلالم بيوت الاعتكاف الملحقة بالمساجد الجامعة، وسلم مكتب تعليم الصبيان الملحق بالزاوية الجزولية، ومنها ما يتكون من قلبتين كسلمي المدرسة الغالبية وسلم مدرسة جامع أبي العباس السبتي، والتي تتكون كل منهما من طابقين، ويرتكز إنشاء درجات السلم على حائطين في الجانبين، ومن هذه السلالم ما يتكون من أربع قلبات، كما هو الحال في السلالم الداخلية للمآذن، حيث يدور السلم حول بناء مركزي مربع أو مستطيل (الأشكال ١، ٣، ٩، ١٤، ٣٧/ ج)، ويغطي هذه السلالم عادة أقبية نصف برميلية وأخرى متقاطعة، وأحيانًا توجد أسفل السلم موضع أو مساحة تسمى (بيت الدرج) [1]، تستخدم للتخزين كما هو الحال في سلالم بيوت الاعتكاف الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية.

ويلاحظ من خلال أبعاد أو مقاسات هذه السلالم، سواء من حيث عرض السلم وارتفاع قائمته واتساع نائمته، أن هذه السلالم لا تتفق فيما بينها على نسب ثابتة، وإنما شيد كل

---

(١) عن هذا المصطلح. انظر، محمد عبد الستار عثمان: عمارة سدوس التقليدية دراسة أثرية معمارية – دراسة حالة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

منها وفقاً لتخطيط ومساحة كل منشأة ليقوم بوظيفته كعنصر اتصال يربط بين وحداتها المختلفة، ويوصل إلى الطوابق العليا، كما يتضح من الجدول التالي:

اسم المنشأة	نوع السلم	عرض السلم	ارتفاع القائمة	اتساع النائمة
الجامع الكبير بتارودانت	السلم الداخلي للمئذنة	١ م	٠,٢٠ م	٠,٥٠ م
جامع باب دكالة	السلم الداخلي للمئذنة	٠,٧٢م	٠,١٧ م	٠,٣٥ م
جامع المواسين	السلم الداخلي للمئذنة	١,٣٢م	٠,١٦ م	٠,٤٧ م
جامع الزاوية الجزولية	السلم الداخلي للمئذنة	٠,٨٥م	٠,٢٨ م	٠,٢٨ م
جامع أبي العباس السبتي	سلم بيت الاعتكاف	-	٠,٢١ م	٠,٣٢ م

وتنفرد مئذنة جامع أبي العباس السبتي عن غيرها من المآذن السعدية، بأن سلمها الداخلي يتكون من درجة يبلغ ارتفاع قائمتها ٠,١٢ م، واتساع نائمتها ٠,٧٠م، تليها مرقاة يبلغ اتساعها ٠,٧٠م وطولها ١,٧١م هكذا بالتبادل حتى نهاية السلم، وهي ظاهرة شوهدت من قبل في السلم الداخلي لمئذنة جامع ابن صالح المريني بمراكش.

الساباطات:

الساباط سقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ والجمع سوابيط أو ساباطات[١]، ويطلق عليه في الاصطلاح المغربي أيضاً الأزج وجمعها آزاج[٢]، وقد تنوعت تعريفات فقهاء المذاهب السنية للساباط، فقد عرفه الحنابلة بأنه هو: "المستوفي لهواء الطريق كله على جدارين أو هو السقف يغطي الطريق بين البيتين"، وعرفه ا لمالكية فقالوا: "هو سقف بين حائطين متقابلين بينهما سكة بالنسبة لمن له الجانبان المتقابلان الأيمن والأيسر من دارين، وقد يكون له جانب واحد، ويستعير من جاره الجانب الآخر ليبني عليه، وقد يكون الساباط مستنداً على الحائطين، وقد يكون مستنداً على الأعمدة تكون بصف كل حائط"، وعرفه الشافعية بقولهم:

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص ٣٣٢؛ محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٢؛ ولنفس المؤلف بعض المصطلحات للعمارة المغربية الأندلسية، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٠؛ محمد الكحلاوي: مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي – دراسة أثرية معمارية، بحث نشر في مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٩م، ص ٢٢٠.

"سقيفة تحتها ممر نافذ" [١]. وكان يشترط أن يبنى الساباط بارتفاع كافٍ يسمح للفارس المرور أسفله شاهرًا أسلحته دون أي عائق[٢].

وقد استخدم الساباط كعنصر اتصال بين مبنيين متقابلين سواء كانا دارين كما في بيت الكريدلية بالقاهرة، أو جامع وخانقاة كما كان الحال بين جامع بشتاك وخانقاته بالقاهرة أيضًا، أو جامع وميضأته كما في قجماس الإسحاقي بنفس المدينة، كما كان يربط جامع قرطبة وقصرها ساباط يصل من خلاله الخليفة إلى المقصورة، وتكشف هذه الأمثلة عن الشكل المعماري للساباط بوضوح[٣].

وقد كان بناء تلك الساباطات في المدن المغربية والأندلسية المكتظة بالسكان يستجيب لضرورة حيوية، هي التغلب على مشكلة المساحة الصغيرة للدور السكنية وازدحامها، فكان يتم تغطية الشوارع في معظم آجزائها بساباطات تستغل في توسيع المساكن وزيادة عدد وحداتها، ومن جانب آخر تحقيق الاتصال بينها، وعلى الرغم مما كان يترتب على هذا الحل من تقليل نسبة التهوية والإضاءة بهذه الشوارع، إلا أنه كان الحل الأكثر انتشارًا في غالبية هذه المدن آنذاك[٤]. ويمكن مشاهدة هذه الظاهرة في كثير من مدن المغرب القديمة، كفاس وسلا وتطوان ومراكش وغيرها التي ما زالت تحتفظ بمبانيها الأثرية.

وفضلاً عن الوظائف السابقة للساباطات فإنها تعد وسيلة معالجة مناخية جيدة، حيث تحمي الأشخاص من التعرض المباشر لأشعة الشمس عند انتقالهم بين أجزاء المبنى الواحد أو المباني المختلفة، لأنها توفر مساحات كبيرة من المناطق المظللة، وبالتالي تقليل المناطق المعرضة لأشعة الشمس المباشرة من شوارع وممرات فيعمل ذلك على تحريك الهواء داخل الفراغات نتيجة لاختلاف الضغط بينها، وبالتالي تقليل درجة حرارة الهواء داخل الفراغات الخارجية والداخلية[٥].

وقد استخدم الساباط في العمائر السعدية موضوع الدراسة كعنصر اتصال، حيث نراه يربط بين المنشأة وبين ما يلحق بها من وحدات في الجهة المقابلة لها، كالساباط الذي يربط بين الواجهة الشمالية لجامع المواسين بالجدار الجنوبي لميضأته المقابلة له، وبأعلاه شيدت

---

(١) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٢) توريس بالباس: المدن الإسبانية الإسلامية، ص ٥٦٨.

(٣) محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٤) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٥٦٧ — ٥٧٠.

(٥) يحيى وزيري: المرجع السابق، ص ١٠١؛ أحمد هلال محمد: مدخل لتصميم المسكن الريفي في المجتمعات الصحراوية الجديدة من واقع تطوير العمارة الريفية التقليدية في صعيد مصر، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة- قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م، ص ٢٨ ب.

وحدات سكنية يبدو أنها كانت خاصة بأرباب الوظائف بالجامع (شكل ٩)، والساباط الذي يربط الواجهة الشرقية للزاوية الجزولية بالواجهة الغربية لحمام هذه الزاوية (شكل ٣٧)، وقد شيدت بأعلاه وحدة سكنية لا زالت قائمة حتى الآن.

وأحيانًا يصل الساباط بين المنشأة وبين أحد المباني المقابلة لها، كالساباط الذي يصل بين الواجهة الجنوبية لجامع المواسين وواجهة المبنى المقابل لها، وبأعلاه شيدت خلوة الأسبوع التابعة لهذا الجامع (شكل ٩)، والساباط الذي يصل الواجهة الجنوبية للمدرسة الغالبية بواجهة جامع ابن يوسف المقابلة لها، وبأعلاه شيدت قبة تغطي المساحة التي تتقدم مدخلها الرئيس، وكذلك الساباط الذي يصل الواجهة الغربية لهذه المدرسة أيضًا بواجهة المبنى المقابل لها (شكل ٢١) (اللوحتان ٦٧، ٦٩)، والساباط الذي يصل الواجهة الشمالية للزاوية الجزولية بواجهة المباني المقابلة لها (شكل ٣٧).

رابعاً- عناصر التهوية والإضاءة:

تعددت عناصر التهوية والإضاءة في العمائر الدينية والجنائزية السعدية، فمنها الصحون والنوافذ بأنواعها واختلاف أماكن وجودها، بالإضافة إلى المناور والمداخل.

الصحون:

يلاحظ من خلال المساقط الأفقية للعمائر السعدية موضوع الدراسة، أن كلاً منها تشتمل على صحن مكشوف أو عدة صحون كما هو الحال في المدرسة الغالبية. ويرجع ذلك إلى أن انفتاح وحدات المبنى – أيًا كانت وظيفته- على صحن داخلي مكشوف يوفر التهوية والإضاءة الطبيعية اللازمة لها، إلى جانب تحقيق الهدوء والخصوصية للمنتفعين بهذا المبنى، وتقليل فتحات النوافذ بالحوائط الخارجية وبالتالي الوقاية من التيارات الهوائية الباردة شتاءً وأشعة الشمس المبهرة صيفًا، والحفاظ على درجة الحرارة الداخلية دون تأثرها بارتفاع درجة الحرارة الخارجية نهارًا؛ لأن من وظائف الصحن الرئيسية تجميع وسحب الهواء البارد لتوجيهه داخل وحدات المبنى مما يساعد على عمل اتزان حراري بين الظروف المناخية الخارجية والداخلية للمبنى[1]، أي أن الصحن يعتبر بمثابة الوسيط بين كل الظروف المناخية الخارجية وفراغات أو وحدات المبنى الداخلية، حيث يحدث من خلاله عملية تبادل حراري بينهما طوال اليوم[2].

بالإضافة إلى ذلك فإن الصحن يعمل خلال فصول السنة كمنظم حراري، ففي فصل الشتاء يستقبل الإشعاع الشمسي المباشر مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الفراغات المطلة

(١) أحمد هلال محمد: نفس المرجع والصفحة.

(٢) عبد المنطلب محمد علي: الفناء كمنظم حراري، بحث نشر في مجلة المعماري، العدد الثالث، كلية الهندسة، قسم العمارة، جامعة أسيوط، ١٩٩٥م، ص ٣٤.

عليه، أما في فصل الصيف – وبخاصة في حالة الصحون الكبيرة- لا تصل أشعة الشمس إلى هذه الفراغات، سيما إذا كانت تتقدمها أروقة مغطاة، مما يؤدي إلى تلطيف درجة الحرارة بداخلها(١)، كذلك يساعد الصحن على وقاية المبنى من العواصف الرملية والترابية، كما تساعد فساقي الماء التي تتوسط – عادةً- صحون المنشآت المختلفة في تلطيف درجة الحرارة وتجميل البيئة الداخلية للمبنى(٢)، وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الصحن المكشوف يوفر التهوية والإضاءة الطبيعية لعناصر المبنى المختلفة، إلى جانب تحقيقه للخصوصية والهدوء، كما أنه يقوم بدور الملطف المناخي والمنظم الحراري للمبنى، كذلك يقوم بأغراض أخرى تتعلق بوظيفة المنشأة أو المبنى الذي يوجد به، كما سيتضح من العرض التالي:

فبالنسبة للمساجد الجامعة يتضح من مساقطها أن بوسط كل منها صحن مكشوف وزعت على جوانبه الأروقة الأربعة للجامع، لذا فإن الصحن يعد من أهم عناصرها المعمارية من حيث وظيفته التي تتمثل في إمداد أروقة الصلاة وغيرها من الوحدات المعمارية التي يتضمنها الجامع بالهواء والضوء اللازم لها، إلى جانب كونه عنصرًا رئيسًا من عناصر الاتصال والحركة، ونظرًا لأهمية الصحن فقد انسحب ذلك على مساحته، حيث يلاحظ أنه أصبح يشغل مساحةً كبيرةً من المساحة الكلية التي يشغلها الجامع، بعد أن صغرت مساحة رواق القبلة وقلت عدد بلاطاته إلى جانب قلة عدد بلاطات الأروقة الثلاثة الأخرى المحيطة بالصحن، ويتضح ذلك من الجدول الآتي:

الجامع	مساحته الكلية م^2	مساحة الصحن م^2	النسبة المئوية
الجامع الكبير بتارودانت	٣٦٠٠	١١٥٥	٣٢.٠٨٪
جامع المواسين بمراكش	٣٢٢٥	٧٦٤	٢٣.٦٨٪
جامع باب دكالة بمراكش	٢٦٦٥	٧٦٣	٢٨.٦٣٪
جامع أبي العباس السبتي بمراكش	١٦٢٨	٢٩٨	١٨.٣٠٪
جامع الزاوية الجزولية بمراكش	٧٥٠	١٧٣	٢٣.٠٦٪

ولم تقتصر الأغراض التي حققها الصحن على ما سبقت الإشارة إليه بل إنه حقق أغراضًا أخرى منها أنه كان يستخدم للصلاة في فصل الصيف، لذا فإنه يشتمل- كما سبقت الإشارة- على دخلة ذات خمسة أضلاع تقع على نفس محور المحراب، أسفل الحجاب الخشبي الذي يعرف بالعنزة أو المحراب الصيفي، لكونه يحل محل المحراب في تحديد اتجاه

(١) عبد المنطلب محمد علي: المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٢) أحمد هلال محمد: المرجع السابق، ص ٢٨ ب.

القبلة (اللوحتان ٣٣، ٥١)، كما أنه كان يستخدم للصلاة كامتداد للأروقة في الصلوات الجامعة التي يزدحم فيها المسجد بالمصلين، حيث كان الصحن يغطى في هذه الحالة بسحابة من القماش لحماية المصلين، وهي ظاهرة عرفتها المساجد الجامعة المغربية منذ وقت مبكر، فقد ذكر الجزنائي في سياق حديثه عن زيادة القاضي عبد الله بن داوود لجامع القرويين بفاس القديمة في العصر المرابطي، إنه: "جعل له مظال من شقق الكتان تنتشر عليه كل يوم جمعة في زمن القيظ تحجب بها الشمس عن المصلين العاجزين عن الرواح البعداء المنازل الذين لا يجدون محيصًا عنه لتضايق الجامع، وذلك بأن جعل في أطنابها سلبات تجري في بكر موثقة بالرفوف الدائرة على جوانب الصحن ترتفع بها المظال مدة الحاجة إليها، ثمَّ تحط وتزال وتخزن إلى وقت الحاجة إليها أيضًا، وجعل في مواضع منها فرجًا يتنفس منها الهواء، وبقيت كذلك أعوامًا إلى أن تمزقت وأهمل النظر فيها وبقيت بكرها ظاهرة إلى الآن"[١]. ومما يؤكد ذلك أن الحلقات الحديدية المستديرة التي كانت تشد بها الحبال لا تزال مثبتة بالجزء العلوي لواجهات الصحن الأربعة بمسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة[٢].

أما بالنسبة للمدارس السعدية، فيلاحظ أن كلاً من مدرسة جامع باب دكّالة ومدرسة جامع المَوّاسين ومدرسة جامع أبي العباس السبتي، تشتمل على صحن أوسط وزعت على جوانبه مساكن الطلاب (الأشكال ٣، ٣٤، ٣٦)، يلاحظ أن هذا الصحن مكشوف في كل من مدرستي جامع المَوّاسين وجامع أبي العباس السبتي، ليزود مساكن الطلاب بالهواء والضوء، في حين نجد أن هذا الصحن مغطى بمدرسة جامع باب دكّالة، لذا لجأ المعمار لتزويد مساكن الطلاب الموزعة على جوانب هذا الصحن بالهواء والضوء من خلال ثلاث نوافذ كبيرة بالواجهة الغربية لهذه المدرسة تطل على شارع باب دكّالة (لوحة ١٤)، ونافذة واحدة بجدارها الشرقي تطل على الرواق الغربي للجامع. أما المدرسة الغالبية فنظرًا لأن صحنها الأوسط المكشوف محاط بجدار بارتفاع الطابق الأول للمدرسة من الجهات الجنوبية والشمالية والغربية، جعله ينفصل تمامًا عن مساكن الطلاب الموزعة على الضلعين الجنوبي والشمالي للمدرسة، لجأ المعمار إلى توزيع هذه الوحدات السكنية في مجموعات منفصلة عن بعضها، كل مجموعة مكونة من ست أو سبع حجرات حول صحن أوسط مكشوف مستقل، لذا بلغ عدد صحون هذه المدرسة ستة صحون بخلاف الصحن الأوسط الرئيس الذي بلغت مساحته ٣٣٠ م^2 من المساحة الكلية للمدرسة البالغة ١٨٠٤ م^2، أي إنه يشغل ١٨.٢٩٪ من مساحة المدرسة، وتمثلت وظيفته في إمداد قاعة الدرس وغرف الطلاب بالطابق الأول لهذه المدرسة بالهواء والضوء (شكل ٢١).

---

(١) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٢٦.

ويلاحظ أنه يتوسط هذه الصحون السابق الإشارة إليها فساقي وأحواض للاستفادة من الماء- فضلاً عن الوضوء- في تلطيف درجات الحرارة لأن مرور الهواء الداخل إلى الصحن يتم تبريده إذا ما مر على الماء عن طريق التبخر[١]، وفضلاً عن صحون هذه المساجد والمدارس، فإن ميضأة كل منها يتوسطها فناء مكشوف يمد المراحيض المحيطة به بالضوء والهواء، كما يعمل هذا الفناء المكشوف على تجديد الهواء بالميضأة؛ مما يساعد على طرد الروائح غير المرغوب فيها التي تنبعث من المراحيض.

وأما الصحن المكشوف بالزاوية الجزولية (شكل ٣٧/ أ)، ففضلاً عن استخدامه للدفن[٢]، فقد كان عنصر اتصال مهم إضافةً لتزويده لضريح الجزولي وغيره من الوحدات المعمارية المحيطة به بالضوء والهواء، حيث يلاحظ أن المعمار فتح بجداره الشرقي نافذةً كبيرةً (٠,٩٥م × ١,٣٥ م) لإضاءة الدهليز الموصل لسكن المقدم وجامع وميضأة الزاوية (شكل ٣٧).

النوافذ:

نظرًا لتلاصق المنشآت بالمدن المغربية القديمة وازدحامها من جهة، وضيق الشوارع التي تطل عليها هذه المنشآت من جهة أخرى، بالإضافة إلى شدة البرودة بهذه البلاد، انعكس ذلك على قلة عدد النوافذ الخارجية بواجهات المنشآت السعدية – كغيرها من العمائر المغربية- موضوع الدراسة، واعتمدت الوحدات المعمارية المختلفة بهذه المنشآت في تغذيتها بالضوء والهواء على الصحن وعلى النوافذ الداخلية المطلة على هذا الصحن في بعض المنشآت وبخاصة المدارس.

فبالنسبة للمساجد الجامعة، يلاحظ أن المعمار تجنب فتح أية نوافذ بواجهاتها باستثناء صف من نوافذ صغيرة بالقطاع العلوي لجدار القبلة، فضلاً عن ذلك فقد حرص على تغشية هذه النوافذ الصغيرة بستائر جصية عشقت – غالبًا- بالزجاج الملون (اللوحتان ١١، ٤١). الذي لا يسمح بمرور تيارات الهواء التي تطفئ المصابيح التي توقد ليلاً، ولتخفيف حدة ضوء الشمس المباشر أو المبهر الداخل من خلال فتحات هذه النوافذ كما سبقت الإشارة.

وأما المدارس السعدية، فيلاحظ أن الواجهات الخارجية لكل من مدرستي جامع المواسين وجامع أبي العباس السبتي لا تشتمل على أية نوافذ، واعتمد على الصحن الأوسط المكشوف في تغذية مساكن الطلاب الموزعة على جوانبه بالضوء والهواء، وعلى العكس من ذلك في مدرسة

---

(١) قيصر طالب: المرجع السابق، ص ١٠١؛ إيمان محمد عيد: المرجع السابق، ص ٣٦ ب.

(٢) تذكر ظاهرة استخدام صحن الزاوية الجزولية لغرض الدفن، بما عرفته صحون بعض المنشآت في بلدان إسلامية أخرى غير المغرب، كاليمن على سبيل المثال التي استخدمت صحون بعض مدارسها لغرض الدفن أيضًا، كما هو الحال في صحن المدرسة الأشرفية الكبرى (٨٠٠ هـ / ١٣٩٨م) على سبيل المثال. انظر، محمد سيف النصر: المرجع السابق، ص ص ١٠٤ – ١٠٥.

جامع باب دكّالة التي لجأ المعمار إلى فتح عدة نوافذ بعضها يطل – كما سبقت الإشارة- على الشارع وبعضها الآخر يطل على الرواق الغربي للجامع، وذلك لأن صحنها الأوسط – كما سبقت الإشارة- مغطى؛ بالتالي لم يعد هناك مصدر للحصول على الضوء والهواء إلا من خلال هذه النوافذ، الأمر الذي يكشف عن أثر وجود الصحن المكشوف في قلة أو كثرة عدد النوافذ بواجهات المنشأة. أما المدرسة الغالبية فقد تنوعت فتحات النوافذ بواجهاتها وبداخلها، والتي تطل إما على الصحن الأوسط الرئيس أو على الصحون الستة الجانبية أو على الأروقة المحيطة بها، وذلك من حيث أحجامها وأشكالها وما يغشيها من ستائر سواء كانت حديدية أو جصية أو خشبية، حيث تشتمل كل واجهة من الواجهتين الجنوبية والغربية على صفين من النوافذ، السفلى تخص حجرات الطلاب بالدور الأرضي، وتخص العليا غرف الطابق الأول (لوحة ٦٩).

وتتميز نوافذ هذه الواجهات الخارجية بقلة عددها وبصغر حجمها مقارنةً بفتحات النوافذ الداخلية، حيث يبلغ عرض كل منها ٠،٥٢م وارتفاعها ٠،٦٤م، وغشيت بمصبعات حديدية، وذلك لتضييق زاوية الرؤية والحد من دخول الأشعة الشمسية المباشرة، بينما بلغ عرض كل نافذة من النوافذ الداخلية ٠،٨٥م وارتفاعها ١،٦٥م، سد الجزء السفلي منها بحجاب من خشب الخرط، ويغلق عليها مصراعان من الخشب ليسهل التحكم في فتحها وغلقها (اللوحتان ٧٧، ٧٨). كما يشتمل الجزء العلوي لجدار القبلة ببيت الصلاة أو قاعة الدرس- كما هو الحال بالمساجد الجامعة- على صف من نوافذ صغيرة غشيت بستارة من الجص المفرغ في تشكيلات هندسية (لوحة ٨٤).

وفي الزاوية الجزولية، يلاحظ رغم امتداد واجهاتها الخارجية لمسافات طويلة، أنها تشتمل على عدد قليل من النوافذ تتمثل في نوافذ الواجهة الشمالية لمكتب تعليم الصبيان لتزويده بالهواء والضوء اللازم للدروس المنعقدة به، وهي نوافذ مستطيلة غشيت بشبكة من مصبعات حديدية، وذلك – فيما يبدو- لتأمين عدم سقوط أي من الأطفال من خلال هذه النوافذ، والنوافذ التي توجد بالقطاع العلوي لجدار القبلة بجامع الزاوية، وهي نوافذ صغيرة غشيت بقضبان خشبية. أما قبور السعديين، فيلاحظ أن واجهات المبنى الشرقي لا تشتمل على أية نوافذ واكتفى بتزويد قاعاته بالضوء والهواء من خلال فتحات أبوابها (اللوحات ١٠٣، ١٠٤، ١٠٨)، بينما تشتمل الواجهة الشرقية للمبنى الغربي على مجموعة من النوافذ لتزويد قاعات هذا المبنى بالهواء والضوء اللازم عند القيام بعمليات الدفن (لوحة ١١٠).

المناور السماوية:

يعتبر الصحن العنصر المعماري المهم والرئيس في تزويد المنشآت الدينية والجنائزية السعدية بالضوء والهواء، وقد ساعدت المناور السماوية – التي اقتصر وجودها بهذه العمائر

دون المناور الحائطية – على تحقيق هذه الوظيفة أيضًا، وإن كانت نسبتها في ذلك ضئيلة قياسًا على دور الصحون، حيث يمكن بواسطة هذه الملاقف سحب الهواء المار عاليًا فوق المبنى ودفعه بالقوة إلى الداخل، ويتميز الملقف إلى جانب ذلك بأنه يقلل من الأتربة والرمال التي تحملها الرياح في المستوى المنخفض، وقد اقتصرت المناور التي وجدت بالعمائر السعدية موضوع الدراسة على ثلاثة أمثلة فقط، الأول يفتح في سقف الدهليز الذي يلي المدخل الرئيس للمدرسة الغالبية، حيث فتح فيه منوران للتهوية والإضاءة أحدهما في طرفه الجنوبي والآخر بطرفه الشمالي (لوحة ٧٠)، والمثال الثاني يوجد في أسقف الممرات التي توجد بين غرف الطلاب بالطابق الأول للمدرسة الغالبية أيضًا (لوحة ٨٦)، ولعل السبب في وجود هذه المناور بهذه المدرسة راجع لطول الدهليز والممرات التي بها من جهة، وانعدام أو قلة الضوء الواصل إليها من الصحن من جهة أخرى؛ لذا اضطر المعمار لعمل تلك المناور السماوية لتكون عاملاً مساعدًا في تغذية تلك الوحدات المعمارية بالضوء والهواء.

أما المثال الأخير لهذه المناور فيوجد في أسقف قاعة المحراب وقاعة الدخلات الثلاث بالمبنى الغربي لقبور السعديين (لوحة ١١٩)؛ والسبب في ذلك راجع لعدم وجود صحن مكشوف بهذا المبنى من جهة، ولقلة عدد النوافذ بواجهاته الخارجية من جهة أخرى، ومن هنا زودت المناور هذه القاعات بالضوء والهواء.

المداخل:

تتميز فتحات المداخل بالعمائر السعدية – موضوع الدراسة- بصفة عامة بأنها مستطيلة الشكل، تتراوح نسبة ارتفاعها فيما يخص مداخل المساجد ما بين (٢,٣٥ م إلى ٤,١٥م) ونسبة اتساعها ما بين (١,٤٨ م إلى ٢,٩٠م)، وتوجت جمعيها بعقد على هيئة حدوة فرس لما يتميز به هذا النوع من العقود – كما سبقت الإشارة- من اتساع وارتفاع يسمحان بنفاذ الضوء والهواء إلى داخل هذه المساجد (لوحة ٢٩)، ويغلق على كل مدخل من مداخل هذه المساجد باب خشبي من مصراعين ليسهل التحكم في عملية الفتح والغلق لتزويد المسجد بالضوء والهواء عند الضرورة.

كما تميزت فتحات مداخل المدارس السعدية بأنها مستطيلة الشكل أيضًا، يبلغ اتساع مدخل المدرسة الغالبية ١,٨٠م وارتفاعه ٢,٩٠م، ويبلغ اتساع مدخل مدرسة جامع أبي العباس السبتي ١,٤٨م وارتفاعه ٢,٠٥م، وفضلاً عن تعدد مداخل بيت الصلاة أو قاعة الدرس بالمدرسة الغالبية، والتي بلغت ثلاثة مداخل أوسطها يبلغ اتساعه ٣,٥٠م وارتفاعه ٤,٥٠م يتوجه عقد على هيئة حدوة فرس (لوحة ٧٦)، كذلك توجت فتحات أبواب حجرات الطلاب بعقود على هيئة حدوة فرس، وتتراوح نسبة اتساعها ما بين (٠,٦٥ م إلى ٠,٧٧م) وارتفاعها ما بين (١,٧٨م إلى ١,٩٥م) (لوحة ٨٧).

أما الزاوية الجزولية فلها مدخلان مستطيلا الشكل أيضًا، يبلغ اتساع المدخل الرئيس ١.٥٥م وارتفاعه ٢.٥٠م (شكل ٣٧، ١/ ١)، بينما يبلغ اتساع المدخل الآخر ١.٤٣م وارتفاعه ١.٦٥م (شكل ٣٧، ١/ ٢)، توج كل منهما بعقد على هيئة حدوة فرس، كما تميزت مداخل الوحدات المعمارية لهذه الزاوية بكبر حجمها، فمدخلي ضريح الجزولي يبلغ اتساع أكبرهما ٢.٠٨م وارتفاعه ٣.٧٠م، ويبلغ اتساع المدخل الآخر ١.٣٠م وارتفاعه ٢.٠٥م، كما أن المدخل الذي يتوسط الواجهة الجنوبية لصحن الزاوية ويؤدي إلى الرواق الشمالي لمسجد الزاوية، يبلغ اتساعه ١.٥٥م وارتفاعه ٢.٦٥م (لوحة ٩١).

وأما مقبرة السعديين، فنظرًا لاعتماد قاعات الدفن بها على المداخل كعنصر رئيس للتهوية والإضاءة لعدم اشتمالها على صحون مكشوفة ولقلة نوافذها – كما سبقت الإشارة- من جهة، ولتسهيل المرور من هذه المداخل عند القيام بدفن الموتى بداخل قاعاتها من جهة أخرى، فقد انعكس ذلك على حجم مداخل هذه القاعات، إذ يبلغ اتساع مدخل قبة لالة مسعودة ١٨ ٢م وارتفاعه ٤م، ويبلغ اتساع مدخل القاعة التي تقع إلى الجنوب منها ٢.٢٧م وارتفاعه ٤.١٠م، ويبلغ اتساع فتحة مدخل قاعة المحراب ١.٩٠م وارتفاعها ٣م.

خامساً- عناصر الوقاية:

تعتبر عناصر الوقاية من أهم العناصر التي تشكل المبنى لأن المبنى ينشأ أصلاً كمأوى للإنسان ووقايته، وتتنوع الوقاية بتنوع المؤثرات ولذلك وجدت عناصر للوقاية من العوامل الطبيعية المناخية، وأخرى من أعين الناس[(١)].

ومن مظاهر محافظة المعمار السعدي على المبنى ووقاية المرتفقين به والمترددين عليه، استخدام الأسقف الجمالونية المغطاة بحطات القرميد – كما سبقت الإشارة- لمنع تجمع مياه الأمطار أعلى هذه الأسقف، وأيضًا الانخفاض بمستوى أرضية الصحن عن مستوى أرضية الأروقة والوحدات المعمارية الأخرى المحيطة به بمقدار (٠.٠٥ م إلى ٠.١٢م)، وذلك لتجنب دخول مياه الأمطار عند سقوطها إلى هذه الأروقة والوحدات المعمارية، كذلك يمكن القول أن فساقي الماء التي تتوسط صحون المنشآت السعدية تحقق – إلى جانب استخدامها للوضوء وتلطيف درجة الحرارة فضلاً عن شكلها الجمالي- غرضًا وقائيًا، حين تشب الحرائق لسبب أو لآخر، سيما وأن هذه المنشآت غطيت بأسقف خشبية وفرشت أرضياتها بالحصير، واستخدم في إضاءتها - ليلاً- قناديل الزيت والشموع، كما أن الأروقة التي تتقدم مساكن الطلاب تقوم- كما سبقت الإشارة- بحماية هذه المساكن من العوامل الجوية المتمثلة في أشعة الشمس المباشرة والمطر والتيارات الهوائية، إلى جانب أن أبواب حجرات وغرف الطلاب فتحت بشكل معين يمنع ضرر الكشف والوقاية من أعين الآخرين، حيث جاءت –في معظم النماذج-

---

(١) محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ٤٠٩.

بطرف الجدار الذي فتحت فيه وليس في وسطه. ومن بين عناصر الوقاية بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية- موضوع الدراسة- أيضًا الحوائط والأسطح والأبواب والنوافذ والرفارف وغيرها.

الحوائط:

تعتبر الحوائط من العناصر الإنشائية إلى جانب كونها واحدةً من أهم عناصر الوقاية، من حيث حجب من بداخلها ووقايتهم من ضرر الكشف والصوت ومن الحر والبرد، الأمر الذي انعكس على أسلوب إنشائها كزيادة سمكها لمنع التوصيل الحراري وتحقيق العزل الصوتي، أو بزيادة ارتفاعها وتنظيم الفتحات التي تتخللها للوقاية من عيون الآخرين أو العوامل المناخية المؤثرة وغير ذلك(١).

لذا فإن سمك الحوائط الخارجية للعمائر السعدية موضوع الدراسة وصل أحيانًا- كما سبقت الإشارة- إلى أكثر من متر، وكان لسمك هذه الحوائط أثره في إتاحة فتح نوافذ للتهوية والإضاءة سواء كان من الخارج أو من الداخل فيما يطل على الصحن الأوسط المكشوف والأروقة المحيطة به، وهذا فيما يتعلق بالمدارس، كما يلاحظ أن هذا السمك يقل بالنسبة للحوائط الداخلية التي تفصل بين الوحدات المختلفة للمبنى، كذلك فإن حوائط الدور الأرضي في المنشآت متعددة الطوابق كالمدرسة الغالبية ومدرسة جامع أبي العباس السبتي أكثر سمكًا مما يعلوها.

ولزيادة سمك هذه الحوائط وبالتالي تحقيق العزل الصوتي ومنع التوصيل الحراري، كان يتم تكسية هذه الحوائط من الخارج بطبقة من الملاط الجصي السميك، أما من الداخل فغطيت أجزاؤها السفلية أحيانًا بكسوة من الزليج وأحيانًا أخرى بالحصير الملون، تعلوه تكسيات جصية ولبس الجزء العلوي في بعض الأحيان بكسوة خشبية (اللوحات ٦، ١٩، ٢٠، ٣٥، ٣٩، ٥٣، ٧٤، ١٠٩)، ولحماية الحوائط الأربعة المطلة على الصحن الأوسط لهذه العمائر من مياه الأمطار، توجت هذه الحوائط برفرف خشبي مائل غطي بحطات من القرميد المزجج باللون الأخضر (اللوحات ١٧، ١٨، ٣٢، ٥٢، ٧٤، ٧٨)، وتعمل هذه الرفارف المائلة إلى جانب الأسقف الجمالونية التي تغطي هذه المنشآت على منع تجمع مياه الأمطار أعلى هذه الأسقف (اللوحات ٢٢، ٣٧، ٥٥).

الأبواب والنوافذ:

تميزت فتحات الأبواب بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية، بتتويجها برفارف خشبية مائلة غطيت بحطات القرميد، تعرف في اصطلاح المغاربة باسم "الشماسات" ومفردها

(١) محمد عبد الستار: أضواء على أهمية الإنشاء، ح ٣٦، ص ٢٣٨

"شماس"[١]، وذلك لحجب أشعة الشمس وتلطيف درجة الحرارة، وكذلك لتنزلق مياه الأمطار بعيداً ولا تتجمع أمام فتحة الباب مباشرةً (لوحة ١٠٢)، ولنفس الغرض أيضًا غطي الجزء الذي يتقدم بعض هذه المداخل من الطريق بقبة، كما هو الحال في المدرسة الغالبية (لوحة ٦٥)، وذلك لتوفير مساحات مظللة أمام هذه المداخل، مما يعمل على الوقاية من أشعة الشمس المباشرة، وكذلك تقليل درجة حرارة الهواء داخل الفراغات الخارجية والداخلية.

ونظرًا لاتساع فتحات مداخل هذه العمائر- كما سبقت الإشارة- ، فقد صنعت الأبواب التي تغلق عليها من مصراعين، ولقد استخدم الخشب وبخاصة خشب الأرز في عمل مصاريع هذه الأبواب، وزاد في متانتها وفي سد ما يمكن أن يوجد من فواصل بين لوح الخشب والذي يليه أن صفحت بألواح من المعدن – وبخاصة البرونز- مثبتة بمسامير "مطرقة" ضخمة متجاورة تظهر رءوسها العريضة من الخارج في صفوف متوازية (اللوحتان ٢٩، ٦٨)، وقد انعكس كبر حجم هذه الأبواب على طريقة حركة مصاريعها، حيث يلاحظ أنها تدور حول محاور[٢]، كما يلاحظ أن كل مصراع من مصراعي بعض الأبواب الخشبية – وكذلك الأحجبة الخشبية التي تقع على محور المحراب بالمساجد الجامعة- تشتمل على فتحة صغيرة، تسمح بالدخول والخروج دون فتح الباب الكبير، عرفت وفقاً للاصطلاح المغربي – كما سبقت الإشارة- بالخوخة (اللوحات ٣٣، ٥١، ٩٢، ٩٦).

أما النوافذ، فيلاحظ أن المطلة على الشوارع تقع غالبًا بالقطاع العلوي من الجدران، لذلك يصعب فتحها وغلقها، مما جعل المعمار يغشيها بستائر حديدية ثابتة تعرف في اصطلاح المغاربة بالوشائع أو الشبائك[٣] (لوحة ٦٩)، كذلك فإن النوافذ التي بالقطاع العلوي لجدار القبلة بالمساجد الجامعة والمدرسة الغالبية وقاعة المحراب بقبور السعديين، غشيت بستائر جصية عشقت – أحيانًا- بالزجاج الملون الذي يسمح بمرور الضوء ولا يسمح بمرور تيارات الهواء التي قد تطفئ المصابيح التي توقد ليلاً (اللوحتان ١١، ٤١)، أما النوافذ الداخلية المطلة على الصحن المكشوف وبخاصة المدارس، فقد زودت بشبابيك خشبية سهلة الغلق والفتح، وزيادة في الحفاظ على الخصوصية سد الجزء السفلي لكل نافذة منها بحجاب من خشب الخرط (اللوحتان ٧٧، ٧٨).

سادساً- عناصر الخدمة:

تتمثل عناصر الخدمة في العمائر الدينية والجنائزية السعدية – موضوع الدراسة- في

(١) حسين مؤنس: تطور العمارة الإسلامية في الأندلس، ص ٢١٧.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٤٥٥؛
Ricard, P., et Delpy, A.,: Note au Sujet de vieilles portes de maisons marocaines, Hesperis, Tome XV, Librarie Larose, paris, 1932, pp. 165 - 166.

(٣) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٤٥٥.

الحجرات المخصصة لتخزين الفرش والأثاث، وكذلك الوحدات المخصصة لأرباب الوظائف المقررة بهذه العمائر، والتي تنوعت فكان منها المقدم والبواب والوقاد والكناس والخدام والحراس[١]، غير أنه لا يمكن القطع بأنهم كانوا يقطنون بتلك العمائر، كما أنه يصعب الآن تحديد هذه الوحدات – باستثناء سكن المقدم بالزاوية الجزولية (شكل ٣٧/ و)- التي كانت مخصصة لهؤلاء الموظفين؛ نظرًا لعدم وجود وثائق من عصر الإنشاء تتضمن الوصف المفصل الدقيق للوحدات المعمارية المكونة لهذه المنشآت، كما هو الحال في وثائق وقف المنشآت المملوكية بالقاهرة على سبيل المثال[٢].

وعلى آية حال، فوجود مثل هذه العناصر يشير إلى حرص المعمار المغربي على تضمين المنشأة كل العناصر التي تجعلها تؤدي وظائفها على أكمل وجه.

(١) للاستزادة حول هذه الوظائف. انظر، الونشريسي: المصدر السابق، الجزء السابع، ص ص ١٧، ٣٦٧، ٣٦٩؛ الناصري: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص ١٢.

(٢) حول هذه الظاهرة، انظر، محمد عبد الستار: نظرية الوظيفية، ص ص ٣٩٩ – ٤٠٥.

الفصل الثاني
العناصر الزخرفية

يعتبر الفن في كل قطر مرآة لأمجاده وصورةً حيةً لروائعه، فما من أثر من الآثار إلا ويمكن أن تنطوي زخارفه ونقوشه على أسرار من شأنها أن تلقي يومًا ما ضوءًا جديدًا على بعض النقاط التي ظلت غامضةً في تاريخ البلاد[١].

وقد احتلت الفنون الإسلامية - ولا تزال - مكانة مرموقةً بين الطرز الفنية التي عرفتها الحضارة الإنسانية عامةً، فقد استطاعت هذه الفنون التي انتشرت في أقطار عديدة - كانت مهدًا لحضارات وفنون متباينة - فيما بين حدود الصين شرقًا حتى جبال البرانس والمحيط الأطلسي غربًا، ومن إيطاليا وصقلية شمالاً حتى أواسط أفريقيا جنوبًا، أن تحقق طرازًا فريدًا بين تلك الطرز لا تخطئه العين لما يتميز به من وحدة، ورغم ذلك فقد تفرعت عنه عدة طرز محلية، لكل منها سمات خاصة وشخصية مستقلة يتميز بها كل قطر في قليل أو كثير عن بقية الأقطار الأخرى[٢].

وبالنسبة للفن الإسلامي الذي نشأ في بلاد المغرب والأندلس، فيمكن تقسيمه إلى أربعة طرز لكل منها معالمه الخاصة ومميزاته الواضحة - إلى حد ما - وهي الطراز المغربي (٢٧ - ٤٧٩ هـ / ٦٤٧ - ١٠٨٦م) أي منذ أول اصطدام بين العرب والروم في سبيطلة، وهو الفتح العربي الأول للمغرب الأدنى على يد عبد الله بن أبي سرح في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، حتى موقعة الزلاقة وبداية ضم الأندلس للمغرب على يد المرابطين، وقد قام هذا الفن على يد سكان البلاد من البربر - فضلاً عن العرب الفاتحين - في ظل الإسلام سواء كان هذا في المغرب الأدنى أو المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى[٣]، ويلاحظ على هذا الطراز الاحتفاظ بالأساليب الفنية القديمة لهذه البلاد لفترة طويلة بعد الفتح العربي، وقد كانت صلة هذه الأساليب بالفن الروماني واضحةً إلى حد بعيد[٤].

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله: الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال، ح ٢٤، ص ٢٤٢.

(٢) باسيليو بابون مالدونادو: الفن الإسلامي في الأندلس، الجزء الأول، الزخرفة الهندسية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، العدد ٣٥٣، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٥؛ عبد الناصر محمد حسن: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١١.

(٣) عثمان عثمان إسماعيل: طرز الفن الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط - المغرب، مايو ١٩٦٠م، ص ٦٠؛ وللمؤلف نفسه: الفن الإسلامي بالمغرب، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط - المغرب، يوليو ١٩٦٠، ص ٦١.

(٤) عثمان عثمان إسماعيل: نشأة الفن الإسلامي وأصوله وتأثيره على فنون أوربا (I)، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط - المغرب، فبراير ١٩٦٠م، ص ٦٥.

ثمَّ الطراز الأندلسي، وهو الطراز الذي نشأ في شبه جزيرة أيبيريا على يد العرب الفاتحين وسكان البلاد فيما بين سنتي (٩٢ – ٤٧٩ هـ / ٧١٠ – ١٠٨٦م)، أي منذ أن فتحها جيش موسى بن نصير حاكم بلاد المغرب بقيادة طارق بن زياد في خلافة الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، حتى موقعة الزَّلاَّقة وبداية ضم الأندلس إلى المغرب على يد المرابطين[١]، كما سبقت الإشارة.

أعقب ذلك في كل من بلاد المغرب والأندلس، الطراز الأندلسي المغربي فيما بين (٤٧٩ – ٨٩٧ هـ / ١٠٨٦ – ١٤٩٢م)، وهو مزيج من فن المغاربة والأندلسيين أي أنه يشمل الفنون الإسلامية التي ازدهرت في الأندلس وبلاد المغرب، إذ أن ضم المرابطين للأندلس سهل انتقال الفن الأندلسي إلى المغرب وأن يؤثر فيه، كما أن اتساع فتوح الموحدين قد أخضع الفن الأندلسي المغربي لمؤثرات جديدة أتته من القيروان وقلعة بني حماد، التي يلاحظ في فنونها التأثيرات العراقية والمصرية، وقد استمر هذا الطراز حتى سقوط دولة بني الأحمر في غرناطة وانتهاء حكم المسلمين بالأندلس[٢].

وأخيرًا طراز المدجنين[٣]، الذي أنتجه المسلمون الذين عاشوا تحت حكم المسيحيين، وقد نشأ هذا الطراز في طليطلة - بعد سقوطها على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة (٤٨٧ هـ / ١٠٨٥م)- وانتشر في كافة أنحاء إسبانيا في زخرفة الكنائس والقصور والدور وغيرها[٤]، وهو امتداد للفن الإسلامي والأندلسي في الأراضي المسيحية[٥].

والواقع يمكن القول أن التيارات الحضارية المتبادلة بين بلاد الشمالي الإفريقي وشبه جزيرة أيبيريا ترجع لفترات طويلة قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد، نظرًا لخضوعهما لحكم واحد من جهة، ولتشابه التضاريس والمناخ بينهما من جهة أخرى، مما جعل بعض المؤرخين يصرحون بأن جغرافية إسبانيا وتاريخها أقرب إلى جغرافية وتاريخ شمال أفريقيا منها إلى

---

(١) عثمان إسماعيل: طرز الفن الإسلامي، ص ٦٠؛ وللمؤلف نفسه: الفن الإسلامي بالمغرب، ص ٦١.

(٢) عثمان إسماعيل: المرجع نفسه، ص ٦١؛ وللمؤلف نفسه: طرز الفن الإسلامي، ص ٦٠.

(٣) منذ العصر المرابطي (٤٤٨ – ٥٤٠ هـ / ١٠٥٦ – ١١٤٥م) كان هناك عدد من المسلمين يعيشون في كنف الممالك الإسبانية، كان الإسبان يسمونهم "المدجنين" من تدجن أي ألف واستأنس، ومنها مدجن ومدجنون، وبالإسبانية Mudejares وهم أرقى حضارةً من المسيحيين، أما إمارة غرناطة فقد أطلق الإسبان على سكانها المسلمين اسم "الموريسكيين"- كما سبقت الإشارة- ثمَّ عمموا هذا التسمية على سائر المسلمين. انظر، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٨٤؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ح١، ص ١٨.

(٤) عثمان عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٦٠، وللمؤلف نفسه: نشأة الفن الإسلامي وأصوله وتأثيره على فنون أوربا (II)، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد السادس، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط- المغرب، مارس ١٩٦٠م، ص ٦٨.

(٥) حسين مؤنس: المساجد، ص ٢٥٠.

آوربا[١].

لقد دلت الحضارات القديمة على الأهمية الاستراتيجية والتضامن الطبيعي والتكامل الاقتصادي بين هاتين العُدْوَتين، إذ يلاحظ أن التحكم في إحدى العُدْوَتين كان مرتبطًا ارتباطًا يكاد يكون عضويًا بالتحكم في العدوة المقابلة، بمعنى أن أي تدخل أو حضور أجنبي بإحداها معناه العبور من البحر الفاصل الجامع بينهما في نفس الوقت والامتداد والتوسع بالضرورة للعدوة الأخرى، حدث هذا مع الفينيقيين والقرطاجنيين وحدث مع الرومان والوندال[٢].

إذ نجد أن الفينيقيين بمجرد ما رست أقدامهم بسواحل شمال إفريقيا بدأوا يتطلعون إلى سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث أسسوا بها عددًا من المراكز مثل قادس وقرطاجنة، وعندما ظهر الرومان، استخدم القرطاجنيون شبه الجزيرة الأيبيرية كواجهة أمامية ومركز مهم لمحاربة الرومان، وقد أدرك الرومان بدورهم ما أدركه سابقوهم في الاستيلاء على العُدْوَتين، فوضعوا مخططاتهم على أساس هذا الهدف إلى أن تمكنوا من ذلك، وعندما سقطت الإمبرطورية الرومانية الغربية تحت ضربات البرابرة الجرمان من قبائل الوندال، اتجهت موجة من هؤلاء في القرن الخامس الميلادي إلى شبه جزيرة آيبيريا واستولت عليها، وبعد أن تعرضت هذه الأخيرة أوائل القرن السادس الميلادي إلى غارات القوط الغربيين أجلوا عنها الوندال الذين نزحوا إلى شمال إفريقيا، واتخذوها مركزًا لحكمهم، وقضوا على الرومان هناك وهكذا حل القوط الغربيون بعد ذلك محل الوندال في حكم شبه الجزيرة الأيبيرية، ودام حكمهم لها زهاء قرنين، وقد ساءت الأحوال في شبه الجزيرة الأيبيرية في عهدهم، مما هيأ الظروف الملائمة للفتح الإسلامي لهذه البلاد انطلاقًا من المغرب وبسيوف بربرية[٣].

والنتيجة الأساسية التي يمكن الخروج بها من خلال هذه التحركات المتبادلة قديمًا، هي تسهيل تسرب التيارات المتبادلة بين الطرفين على مختلف المستويات، ومن بينها التيارات الحضارية والفنية، والحقيقة التي تجدر الإشارة إليها أن شبه الجزيرة الأيبيرية كانت أكثر تحضرًا من بلاد المغرب، لأنها اتصلت أكثر بالحضارة الرومانية، كما تعددت المدن والقرى التي عملت على رفع المستوى الفكري العام، مثل طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغيرها[٤]، أما الإرث الحضاري القديم لبلاد المغرب فلم يكن من الكثافة والانتشار بحيث يجعل كفته في الميزان أرجح من كفة البداوة، وهو ما لاحظه المؤرخون كابن خلدون منذ قرون، حينما قارن

---

(١) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، ص ٢٣.

(٢) محمد القبلي: المغرب والأندلس والمجال المتوسطي، ص ص ١٤ — ١٥؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) محمد رزوق: المرجع نفسه، ص ٢٤؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٤) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٦.

بين الأندلس والمغرب في ميادين حضارية متعددة[(١)].

على أن الامتزاج الحضاري والسياسي بين البيئتين قد تم بالفعل في ميادين متعددة على مر العصور. وفي العصر الإسلامي بدأت العلاقات بين العُدْوَتين مع الفتح — كما سبقت الإشارة- على يد طارق بن زياد وجنده من المغاربة واستمرت حتى سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م) وانتقال الأندلسيين إلى العدوة المغربية، ثمَّ الانصهار بين المجتمعين خلال هذه الفترة، فحضور المغرب بالأندلس كان واضحًا لفترات طويلة، حيث قام بدور حاسم في الميدانين السياسي والحربي بعد انهيار الحكم المركزي بالأندلس، وقيام ملوك الطوائف، وجاهد المغربي جنبًا إلى جنب مع أخيه الأندلسي، مما ساهم في مد عمر الأندلس إلى حين سقوط غرناطة في نهاية القرن (٩ هـ / ١٥م)، وقد نتج عن ذلك امتزاج حضاري نما واستمر طوال عهد المرابطين والموحدين والمرينيين من بعدهم[(٢)].

كما كانت للهجرات المتتالية للأندلسيين من علماء وصناع وحرفيين وغيرهم إلى بلاد المغرب، طوال فترات التاريخ الإسلامي حتى صدور قرار الطرد النهائي لهم من إسبانيا سنة (١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م)، ناشرين التراث الأندلسي في هذه البلاد؛ أكبر الأثر في نقل هذا التراث إلى بلاد المغرب من جهة، وتكوين تراث أندلسي مغربي واحد في أقطارها الثلاثة، كان بمثابة عامل تقريب بينها وحد تصوراتها وأذواقها واهتماماتها، في ميادين الفكر والثقافة إلى جانب العمارة والفنون[(٣)].

فقد كان المرابطون همزة الوصل بين الأندلس والمغرب، حيث نما التبادل بين شقي مملكتهم، فبينما كانت الأندلس إذ ذاك خاضعة سياسيًا للمغرب، فإن المغرب أصبح إقليمًا فنيًا أندلسيًا[(٤)]؛ إذ توافد عدد كبير من الحرفيين والصناع الأندلسيين إلى المغرب في هذه الفترة، وبخاصة في ميدان البناء وصناعة الخزف في كل من مراكش وفاس، حيث استقدم يوسف بن تاشفين عددًا من الصناع من قرطبة للاستعانة بهم في مشروعاته المعمارية بفاس للزيادة في مساجدها وسقاياتها وحماماتها وخاناتها وإصلاح أسوارها وبناء الأرحية والطواحين[(٥)]، كما استقدم ابنه على المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة تانسيفت بمدخل

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ص ٤٢٨ — ٤٣٠؛ وانظر أيضًا في هذا الصدد، ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص ص ٥٧ — ٦٦، ٦٩ — ١١٥؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) محمد رزوق: المرجع نفسه، ص ص ٢٦ — ٢٧، ٣٤.

(٣) محمد رزوق: التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، ص ٧٢.

(٤) عبد العزيز بنعبد الله:المرجع السابق، ص ٢٤٢؛
Marçais, G., : Op. Cit.,Tome I, p. 301

(٥) الجزنائي: المصدر السابق، ص ٤٢؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، ص ٣٧.

مدينة مراكش[١]، كما قاموا ببناء القنوات التي تنقل الماء من الجبل إلى مراكش، وهذا النوع هو "الخطارات" التي ما تزال تستعمل حتى الآن[٢]، ومن الناحية الفنية فقد بالغ المرابطون في زخرفة عمائرهم تحت تأثير الفن الأندلسي؛ حتى لا نكاد نرى فراغًا بدون زخرفة[٣].

وقد تواصل المد الحضاري الأندلسي في العصر الموحدي وبخاصة في عهد يوسف بن عبد المؤمن، الذي زين مراكش وإشبيلية معًا بأروع المنشآت، وواصل ابنه يعقوب المنصور ذلك فأضاف إلى مدينة مراكش وفاس مدينة الرباط التي أصبح التأثير الأندلسي فيها واضحًا لعلاقتها الوطيدة بالأندلس، إذ كانت قاعدة انطلاق الجيوش الموحدية نحو الأندلس[٤]، وما يلفت الانتباه في الفترة الموحدية أن توافد الأندلسيون على المغرب اتخذ أحيانًا شكلاً رسميًا، بصدور ظهير للخليفة الموحدي الرشيد في ٢١ شعبان سنة ٦٣٧ هـ، يقضي بإسكان جالية بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرها من بلاد شرق الأندلس بمدينة رباط الفتح[٥].

ويلاحظ على العمائر الموحدية أنها بدأت بسيطة خالية من الزخرفة، وهو ما يتمشى مع الدعوة الإصلاحية وفكرة التقشف التي ظهر بها الموحدون في أول الأمر، والتي اضطرت علماء فاس لطمس معالم الزخارف المرابطية بجامع القرويين بفاس عندما علموا بقدوم الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي[٦]، غير أن هذه الفكرة ذهبت بموت المهدي وأمست المنشآت الموحدية - سيما منذ عهد يعقوب المنصور- آيةً من آيات الفن المعماري[٧]، ومع ذلك فقد امتازت بالاقتصاد في الزخارف التي انحصرت في أشكال رئيسية حاسمة الخطوط بينة المعالم تخلى صانعوها عن كل حشو، واكتفوا بالأشكال الأساسية يبرزونها واضحةً فوق أرضيات واسعة خالية من الزخرفة، وهو ما تشهد به عمائرهم القائمة إلى اليوم[٨].

وفي العصر المريني تميزت العلاقات المغربية الأندلسية بالتدخل المستمر للقوات المغربية

(١) عبد العزيز بنعبد الله: المرجع السابق، ص ٢٤٢؛ اندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٥.

(٢) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣) توريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص ص ١٢، ٤٨.

(٤) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٣٧.

(٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس(عصر الموحدين وانهيار الأندلس) الجزء السادس، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ص ٧٣٧ – ٧٣٨؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٣٥.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٥٤؛ الجزنائي: المصدر السابق، ص ٦٨؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ١٢، ٨٤.

(٧) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص ٥٤؛ ابن عذارى: المصدر السابق، قسم الموحدين، ص ١٧٤.

(٨) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ١٢، ٤٨؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٥٩.

بالأندلس للمحافظة على ما بقي من الثغور، ولكن دون جدوى، إذ ظلت المدن الأندلسية تتساقط باستمرار نتيجة التعاظم المستمر للقوات المسيحية، وتراجع القوات الأندلسية أمامها، ولم يتبق في النهاية إلا غرناطة[١].

وقد تواصل المد الحضاري بالمغرب بفضل استمرار هجرة عدد كبير من الأندلسيين من مختلف الفئات، مما أدى إلى ازدهار الناحية الفنية في العصر المريني، الذي يعد من أزهى عصور الفن الإسلامي في بلاد المغرب، فقد ازدانت عمائرهم المختلفة بزخارف رائعة غطت كل المساحات دون ترك أي فراغ[٢]، وأدخلت مواد أخرى بجانب الجص - لم تكن تستخدم في العصور السابقة - نفذت عليها هذه الزخارف، كالزليج الذي استخدم في تكسية الأجزاء السفلية للجدران وفي كسوة واجهات المآذن، والخشب الذي استخدم في كسوة الأجزاء العلوية من الجدران حتى جاءت عمائرهم وبخاصة المدارس أروع وأجمل وأزهى من القصور التي أقامها بنو الأحمر بغرناطة[٣].

وبعد سقوط غرناطة انتقل كثير من أهلها إلى بلاد المغرب، وحملوا معهم العديد من الفنون التي كانوا يمارسونها في بلادهم إلى وطنهم الجديد، بل وطوروها[٤]، ولكن الملاحظة الجديرة بالاعتبار أن تأثير الطراز الأندلسي المغربي استمر على أقطار الشمال الإفريقي الثلاثة إلى ما قبل القرن (١٠ هـ / ١٦م)، ثمَّ تعرض كل من المغربين الأوسط والأدنى بعد هذا التاريخ للتأثيرات العثمانية والأوربية[٥]، حيث خضع كل منها للسيطرة العثمانية بينما كان المغرب الأقصى هو البلد العربي الوحيد - كما سبقت الإشارة - الذي لم يسيطر عليه العثمانيون الذين نجحوا في غزو الإمبراطورية البيزنطية وبلاد فارس وزحفوا على فيينا والبلقان، والأناضول وسوريا ومصر والعراق والجزيرة العربية، وتونس وطرابلس الغرب (ليبيا) وأخيرًا وصلوا إلى الجزائر، لكن هذه الموجة العارمة تحطمت على حدود المغرب الأقصى، لذا

---

(١) إبراهيم حركات: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٩ ؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) أرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة د. أحمد موسى، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٣١ ؛ محمد عبد العزيز مرزوق: المرجع السابق، ص ص ٨٩ – ٩٠ ؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٣٣.

(٣) عبد العزيز سالم: مدارس فاس، ص ٢٠٢.

(٤) محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٦٧ ؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٣١٠ – ٣١١.

(٥) إبراهيم حركات: السياسة والمجتمع في العصر السعدي، ص ٢٩٩ ؛ خضعت الجزائر وتونس للعديد من التأثيرات الاجنبية، وهي مزيج من فنون الشرق والغرب، وقد ساعدت على نمو فن جديد ساهم فيه المرتزقة والرقيق من صقلية وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا وغيرها ممن استقدمهم البايات والباشوات من استانبول وآسيا الصغرى، ولم تلبث هذه المؤثرات أن انتقلت إلى المغرب. انظر، إبراهيم حركات: نفس المرجع، ج١، ص ٢٩٨.

يلاحظ أن التأثير العثماني على العمارة والفنون في المغرب الأقصى في عصر الأشراف السعديين خلال القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م) يكاد يكون منعدمًا[١]؛ الامر الذي أتاح للمعماريين والصناع المغاربة التطور بفنونهم، على نفس الأصول والتقاليد، مما أضفى على العمارة والفنون المغربية أصالةً فريدة في بابها[٢].

في حين يلاحظ أن الفن الموريسكي أي الأندلسي المتأخر كما يتجلى في الفن الغرناطي، استمر تأثيره على العمارة والفنون بالمغرب الأقصى في عهد الأشراف السعديين(١٠– ١١ هـ / ١٦ – ١٧م)، بل إن هذا التأثير لم يعد يقتصر على مدن الشمال وإنما وصل إلى جبال الأطلس، ودخل استخدام الزليج والنقش على الحجر والجص والخشب والفسقيات المائية إلى الدور المتوسطة، بعد أن استقر الصناع الأندلسيون في تلك المدن، كما يظهر التأثير الموريسكي في تعدد النقوش القرآنية والشعرية بالعمائر السعدية كقبور السعديين بمراكش على سبيل المثال، وفي نقوش أبواب الرباط وسلا[٣].

على أن ظهور التأثير الغرناطي أو الموريسكي قويًا على العمارة والفنون المغربية في العصر السعدي، جعل بعض الباحثين يقرر بأن الفن السعدي فن خالٍ من الابتكار ويتجه نحو الماضي، لم تستطع بعض التأثيرات الأجنبية تغيير الأصول القديمة وابتداع فن جديد مما أصابه بالجمود[٤]. والواقع أن الفن المغربي في تلك الفترة تميز باستيعاب التراث الأندلسي قاطبةً بمميزاته ومؤثراته، فجمع بذلك بين الرصانة المحلية والروعة الأندلسية، فأصبح الفن المغربي يتميز بقوة شخصيته التي لم يعد التراث الأندلسي إلا جزءًا بارزًا منها[٥]، ولولا احتضان المغرب لهذا التراث الأندلسي لكانت صفحة الفن والعمارة الإسلامية في الأندلس قد طويت، ذلك أن الأندلس القديمة تبدو اليوم – كما سبقت الإشارة- بلادًا إسبانيةً نصرانيةً محضة، ولا تكاد قواعدها القديمة – باستثناء غرناطة وإشبيلية وقرطبة- تبدى شيئًا من مظاهرها الإسلامية، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد أن نظفر في بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة، بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسي[٦].

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٥٩.

(٢) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٣) إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٢٩٩ – ٣٠٠؛ محمد رزوق: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(4) Terrasse, H.,: Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, Tome 2, p. 234.

(٥) إبراهيم حركات: الثقافة المغربية بين الثقافات الإنسانية، ص ص ٤٥ – ٤٦.

(٦) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ص ٩ – ١٠؛ ليوبولدوتوريس بالباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١ – ١٠٣١م)، المجلد الثاني (الجزء الثاني)، الفن والعمارة، ترجمة د. علي عبد الرءوف البمبي وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، العدد ٤١٢، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٦.

وقد سبقت الإشارة إلى أن المغاربة اشتركوا في فتح الأندلس، وأضافوا – جنبًا إلى جنب مع إخوانهم العرب- قطرًا أوربيًا ضخمًا هو شبه الجزيرة الأيبيرية إلى دولة الإسلام[١]، لذا فإن المغرب هو الوارث الطبيعي للتراث الأندلسي بعد أن انتهى الحكم الإسلامي في هذه البلاد بسقوط غرناطة (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م).

فضلاً عن ذلك فقد تميز تاريخ المغرب في القرنين (١٠ – ١١ هـ/١٦ – ١٧م) بظاهرة تضخم أعداد الأسرى المسيحيين الذين كان يتم الحصول عليهم عن طريق حركة الجهاد البحري، بالإضافة إلى معركة وادي المخازن الشهيرة ،وكان هؤلاء الأسرى يكلفون بأعمال البناء والصناعات المختلفة، حيث تظهر التأثيرات الأوربية والبرتغالية منها بصفة خاصة على العمارة الحربية التي شيدها السعديون[٢]، ولقد حاول الإسبان منع أحمد المنصور من الاستفادة من أسرى معركة وادي المخازن في مشروعاته العسكرية والعمرانية وغيرها، بالمسارعة في افتداء هؤلاء الأسرى مما زاد من تمسك أحمد المنصور بالأيدي الخبيرة منهم بوجه خاص للاستفادة منهم في مشروعاته المختلفة[٣]. كما تجدر الإشارة إلى أن الاضطهاد الديني الذي عرفته أوربا خلال القرن (١٠ هـ / ١٦م)، والذي تجابه فيه البروتستانت والكاثوليك، جعل كثيرًا من المسيحيين يغادرون أوربا للاستقرار بالمغرب، حيث عملوا حرفيين وتجارًا وجنودًا[٤].

وأخيرًا تؤكد الروايات التاريخية المعاصرة أن أحمد المنصور كان يحرص على استقدام المهرة من الصناع الأجانب ليساهموا بخبراتهم في مشروعاته العمرانية والحربية، من ذلك ما ذكره الفشتالي في سياق حديثه عن قصر البديع بمراكش، من أن أحمد المنصور: "حشد له الصناع وأرباب الحكمة من كل أرض حتى من بلاد الإفرنجة، فكان يجتمع فيه كل يوم من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء وجهابذة البناء وأولي المعرفة والكفاية في التنميق والتشييد ومن سائر الفعلة وأسارى الدولة خلق عظيم"[٥]. غير أن تعرض هذا القصر الرائع للهدم سنة (١١١٩ هـ / ١٧١٠م) على يد السلطان إسماعيل العلوي – كما سبقت الإشارة- ، لا يسمح بالتعرف على التأثيرات الفنية التي تجمعت في عمارته.

وقد زين السعديون عمائرهم الدينية والجنائزية – موضوع الدراسة- بشتى أنواع الزخارف، كما تنوعت المواد التي نفذت عليها تلك الزخارف ما بين جص وخشب ورخام

---

(١) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) ابراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص ٣٠٠، ٣٧٠.

(٣) عبد الكريم كريم: المرجع السابق، ص ص ١١٦، ١١٩.

(٤) ابراهيم حركات: المرجع السابق، ص ٤٤٩.

(٥) الفشتالي: المصدر السابق، ص ١٦٨.

ونحاس وبرونز وزليج. وطبيعي أن كل مادة من هذه المواد تستلزم أسلوبًا فنيًا خاصًا لتنفيذ الزخارف عليها، وتستلزم أيضًا أدوات لتنفيذ تلك الزخارف، فمثلاً كانت الزخارف الجصية تنفذ إما بأداة حديدية وإما بالقالب. وقد أطلق على الزخارف المنفذة بالآلة الحديدية مصطلح "نقش الحديدة"، في حين أطلق على الزخارف القالبية مصطلح "زخارف مقولبة" [1].

أما الخشب فكان يزخرف إما بالحفر البارز أو الغائر، وفي بعض الأحيان كان يتم زخرفة الخشب بالتلوين، وهو ما يعرف عند المغاربة بـ "الزواق" [2]، يضاف إلى ذلك أن المغاربة كانوا يزخرفون الأخشاب بالتطعيم، وبطريقة الحشوات المجمعة، وعلى الرخام نفذت الزخارف بطريقة الحفر الغائر والحفر البارز، وعلى النحاس والبرونز استخدمت طريقة الحفر والحز والتخريم وطريقة الصب بالقالب [3].

أما الزليج فقد نفذت زخارفه بطريقتين، إحداهما النقش والأخرى التقشير، أما الزليج المنقوش فهو الذي يقطع ويقص على هيئة الزخارف المطلوبة، ثمَّ يركب أثناء العمل بتثبيته على السطح في "المرطوب" أو المونة المكونة من الحمرى والجير، على هيئة الفسيفساء ويحتاج هذا العمل إلى صانعين، أحدهما يقطع الزليج حسب الأشكال الزخرفية المطلوبة والموضوع تصميمها أمامه ويسمى "النقاش" لأنه ينقش من قطع الزليج المتساوية الحجم قطعًا أخرى مختلفة الشكل والحجم حسب الزخارف المطلوبة، أما الصانع الآخر فيقوم بتثبيت هذه القطع فوق طبقة "المرطوب" وهو لا زال لينًا ويسمى هذا الصانع بـ "الفراش" لأنه يفرشها في مواضعها من السطح المراد تزيينه. وينقسم الزليج المنقوش إلى ثلاثة أنواع حسب عناصره الزخرفية، ففي حالة الزخرفة النباتية يسمى "توريق مولف أو مؤلف" أي أن الأوراق والنباتات التي كانت قد قصت مستقلة عن بعضها تم تأليفها إلى جوار بعضها، وعندما تستخدم الزخارف الهندسية يقال "زليج منقوش"، وفي حالة الزخارف الكتابية المقصوصة في الزليج يقال "كتابة مولفة" [4].

وأما الزليج المقشر فيتم بفرش الزليج ذي اللون الواحد فوق السطح المراد زخرفته، وبعد ذلك ترسم أشكال الحروف أو الزخارف النباتية أو كليهما معًا فوق الزليج، ثمَّ يقوم الصانع بتقشير الطبقة اللامعة باستثناء أشكال الكتابات والزخارف النباتية ليظهر لون طينة الزليج الأصلية ويتباين مع لون السطح اللامع للنقوش الكتابية والزخارف النباتية [5]. وفي حالة

---

(١) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ص ٢٢٢.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٢٢٦.

(٣) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٤٥٩.

(٤) عثمان إسماعيل: دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، ص ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٥) يذكرنا هذا الأسلوب بطريقة تنفيذ الزخارف على الخزف الجبري الذي ينسب إلى قبائل كانت تسكن=

النقوش الكتابية يقال "كتابات مقشرة"، وبالنسبة للزخارف النباتية يقال "توريق مقشر" [١] (اللوحات ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧١).

وقد زينت المنشآت السعدية موضوع الدراسة بشتى أنواع الزخارف، من زخارف نباتية وهندسية ونقوش كتابية، إلى جانب الزخارف المستمدة من أشكال وعناصر معمارية نفذت لتؤدي غرضًا زخرفيًا بحتًا.

أولاً- الزخارف النباتية:

تميزت الزخارف النباتية المزينة للعمائر الدينية والجنائزية السعدية بتنوعها سواء من حيث المادة التي نفذت عليها أو من حيث تشكيلاتها، فمن حيث المواد التي نفذت عليها تتمثل في الزليج والجص والخشب والرخام والبرونز، أما من حيث الوحدات النباتية فتتمثل في المراوح النخيلية وأنصافها بهيئاتها المتعددة، وكيزان الصنوبر، والوريدات المتعددة البتلات، إلى جانب الأفرع المتماوجة ذات العقد الصغيرة والأوراق المتنوعة، وقد نجد بداخل هذه الوحدات في بعض الأحيان زخارف نباتية أخرى، كأن نجد – على سبيل المثال- بداخل المراوح النخيلية كيزان صنوبر أو حبيبات لؤلؤ أو وريدات متعددة البتلات إلى جانب زخارف نباتية دقيقة الحجم.

وكثيراً ما مثلت هذه الوحدات بمفردها كموضوع زخرفي قائم بذاته، وأحيانًا ظهرت كمهاد لعناصر أو موضوعات أخرى مثل الكتابات والزخارف الهندسية أو متصلة ببعض هذه الموضوعات، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الوحدات النباتية كانت من الزخارف الشائعة في المغرب في عصر المرابطين والموحدين والمرينيين من بعدهم.

أ- المراوح النخيلية:

تشكل المراوح النخيلية العنصر الرئيس للزخرفة النباتية المرابطية والموحدية، غير أن الواحدة منها تختلف عن الأخرى اختلافًا نسبيًا، فالمراوح النخيلية المرابطية تميزت كغيرها من العناصر الزخرفية الخاصة بنفس العهد بأنها كثيفة وذات حجم صغير حتى تكاد تصبح مختلطة المعالم[٢]. وقد استعمل المرابطون المراوح النخيلية المعرقة بكثرة في زخارفهم منذ نهاية القرن (٥ هـ/ ١١م)، كما استعملوا- قليلاً- الورقة النخيلية البسيطة ذات العرق

= شمال شرق إيران من عبدة النار، عرفوا بالجبرية واشتهروا بصناعة الخزف، واختصوا بأنواع امتازت بأساليب صناعية وفنية معينة، ويرجع هذا النوع من الخزف إلى أوائل العصر الإسلامي واستمر حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وفيه تشكل الآنية ثمَّ تطلى بطبقة البطانة، ثمَّ ترسم الزخارف المطلوبة على البطانة، ثمَّ تكشط المساحات الخالية من الزخارف ليظهر لون طينة الإناء وهي ذات لون وردي، ليتباين مع لون الزخارف، فيبدو أن الإناء يحتوي على لونين مختلفين. انظر، سعاد ماهر محمد: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٢٨.

(١) عثمان إسماعيل: نفس المرجع، ص ١٩٨؛ أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٥٢.

(٢) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ١٥٧.

الموازي لحافة الفص الداخلية مما يذكر بالكأس[١](شكل ٦٦)، وبصفة عامة يمكن القول إن المراوح النخيلية المرابطية احتفظت ببساطة واحات الجنوب مستوحية من الأندلس لطفها ورشاقتها[٢].

وفي القرن (٦ هـ / ١٢م) يلاحظ أن زهد الموحدين وفكرة التقشف التي ظهروا بها وبخاصة في بداية عهدهم- كما سبقت الإشارة- ، خلقت أسلوبًا زخرفيًا يتميز بالوضوح والقصد والمتانة، قل فيه استخدام الزخارف النباتية وإن وجدت فهي أكثر بساطة وأكبر حجمًا من نظيرتها المرابطية، ولم يقتصر الأمر على قلة استخدام الزخارف النباتية، بل امتد كذلك إلى تشكيل هذه الزخارف، وكاد الموحدون يتخلون في زخارفهم عن المراوح النخيلية الصغيرة المعرقة، فحذفوا تفاصيلها واكتفوا بحدودها الخارجية،ومدوا بداخلها أحيانًا عروقًا وخطوطًا محفورة[٣]، فقد كانوا يبحثون عن الخطوط الرشيقة والمعرقة معًا، كما عرف فنهم المراوح النخيلية الملساء ذات الانحناءات الغليظة التي تبدو كأنها تخرج من كئوس متتابعة[٤](شكل ٦٧)، ويلاحظ أن المراوح النخيلية المزدوجة أكثر استعمالاً من المنفردة في الزخارف النباتية الموحدية، وهي ذات فصوص غير متماثلة وتلتف متقابلة في وضع عكسي، ويوجد بداخلها أحيانًا وريدات صغيرة متعددة الأشكال وكيزان صنوبر مدببة[٥]، وترمز المراوح النخيلية الموحدية إلى العودة إلى تقشف المجاهدين، فهي شماء حادة وتشبه في زخرفتها غمد الخنجر[٦](شكل ٦٧).

وفي عصر الدولة المرينية أصبحت المراوح النخيلية أكثر رقة تعكس صورةً واضحةً لطيب الحياة والانسجام، وتذكر بأكبر بناة المغرب[٧]، وامتازت هذه المراوح النخيلية بالتنوع الشديد في هيئاتها، فمنها ما كانت ملساء تمامًا، واشتملت بعضها وبخاصة في القرن (٧ هـ / ١٣م) على زخرفة تشبه أسنان الذئب، وفي القرن (٨ هـ / ١٤م) وجدت منها أمثلة معرقة بكثرة تذكر بأسلوب القرن (٥ هـ / ١١م) [٨](شكل ٦٨).

وفي عهد الأشراف السعديين، فعلى الرغم مما ذكره بعض الباحثين من أن المراوح

(١) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٨٥؛ Gayot, H.,: Op. Cit., p. 6.

(٢) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨١.

(٣) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ص ١٥٧- ١٥٨؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٤٨ – ٤٩.

(٤) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٨٥؛ Gayot, H.,: Op. Cit.,p. 6.

(٥) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٤٩.

(٦) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨١.

(٧) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد والصفحة.

(٨) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٨٥؛ محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٣٦؛ Gayot, H.,: Op. Cit., p. 7

النخيلية قد ذبلت وفقدت مميزاتها[1]، فإن المراوح النخيلية التي تزين العمائر السعدية موضوع الدراسة تميزت بالتنوع الشديد في هيئاتها (شكل ٦٩)، فمنها ما كانت ملساء تمامًا مع تغيير مستوى السطح بقصد التلاعب بالظل والضوء، كما وجدت منها أمثلة معرقة بكثرة تذكر بأسلوب القرن (٥ هـ / ١١م)، وبمثيلاتها المرينية في القرن (٨ هـ / ١٤م) (شكل ٧٠)، ومنها ما كان بسيطًا على هيئة ورقة منحنية منتفخة القاعدة تشبه القوقع (شكل ٧١/أ)، والمراوح النخيلية التي تخرج من شكل كأسي (شكل ٧١/ب)، والمراوح النخيلية ذات الكأس المكون من ورقتين يتفرع منه ورقة تشبه رأس الحربة (شكل ٧١/ج)، والمراوح النخيلية المزدوجة المؤلفة أيضًا من ورقتين مقعرتين إحداهما أكبر من الأخرى (شكل ٧١/د)، والمراوح النخيلية المزدوجة المؤلفة أيضًا من ورقتين ولكنهما محدبتان (شكل ٧١/ هـ)، وأحيانًا تكون ورقة مقعرة والأخرى محدبة(شكل ٧٢/ أ)، والمراوح النخيلية المؤلفة من ورقتين يتفرع منهما أوراق صغيرة (شكل ٧٢/ب)، والمراوح النخيلية المنحنية التي يشبه بعضها أحيانًا حرف الـ C (شكل ٧٢/ج)، والمراوح النخيلية التي يتفرع من أوراقها ميمات صغيرة أو عقد (اللوحات ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٩، ٨٠، ٩٢)، والمراوح النخيلية المؤلفة من ورقتين مزدوجتين متدابرتين يحصران بينهما شكلاً بيضاويًا بداخله أوراق نباتية أو كيزان صنوبر صغيرة.

ب- كوز الصنوبر:

يعتبر كوز الصنوبر من العناصر النباتية الشائعة في زخارف بلاد المغرب والأندلس، وأهم ما يمتاز به هذا العنصر هو ذلك التنوع الشديد في هيئاته مما يشهد على ما تمتع به الفنان من قدرة على الابتكار، بحيث استطاع توليد أشكال مختلفة منه، فأحيانًا نراه منتفخًا صغير الحجم (شكل ٧٣/أ- 1)، وأحيانًا أخرى يكون ممتدًا ومستقيمًا (شكل ٧٣/أ- 2)، وتارة يكون على هيئة كمثرية الشكل(شكل ٧٣/أ- 3)، كما يبدو أحيانًا وكأنه متصل بساق أو يخرج من شكل كأسي(شكل ٧٣/أ- 5, 4)، وفي بعض الأحيان يتفرع من قاعدة على هيئة مروحة نخيلية (شكل ٧٣/أ - 6)، وغير ذلك من الأشكال المتعددة التي نراها في العمائر والتحف المرابطية كما في منبر جامع الأندلس بفاس القديمة من القرن (٥ هـ / ١١ م)(شكل ٧٣/ب- 6 ,26)، وفي جامع الكتبية الموحدي القرن (٦ هـ / ١٢م) (شكل ٧٣/ب- 25, 24, 18,16, 11, 5, 4, 1) وفي الزيادة المرينية لجامع تازة (شكل ٧٣/ب- 9, 7, 3)، وفي المدارس المرينية بفاس وسلا ومكناس (شكل ٧٣/ ب- 12-15) وبفندق النجارين المريني بفاس القديمة (شكل ٩٩/ب – 21 - 23)، وفي عمائر بني نصر بغرناطة من القرنين (٧ – ٨ هـ / ١٣ – ١٤م) (شكل ٧٣/ ب- 20, 19, 2).

أما في العهد السعدي فإن أهم ما نلحظه على عنصر كوز الصنوبر الذي يزين العمائر

(١) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٨٥؛ Gayot, H.,: Op. Cit., p. 8.

الدينية والجنائزية موضوع الدراسة، هو ذلك التنوع الشديد في هيئته، وفي المواد التي نفذ عليها، حيث نجده منفذًا على الخشب والجص والرخام (شكل ٧٤/أ، ب) (اللوحات ١٢، ٤١، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٤، ٩٢، ١١٣).

ج- الأفرع والبراعم والسيقان:

تعد الأفرع النباتية من العناصر التي شاع استخدامها في الزخارف النباتية التي تزين العمائر السعدية- كما هو الحال في العمائر المغربية الأخرى- موضوع الدراسة، ويلاحظ أن هذه الأفرع تلتف مكونةً أشكالاً دائرية، ويخرج من هذه الأفرع مراوح وأنصاف مراوح نخيلية، وتتصل بالأفرع والأوراق براعم صغيرة في هيئة الميمات، وتستخدم هذه الأفرع غالبًا كمهاد للنقوش الكتابية (الأشكال ٤٤ - ٥٤) (اللوحات ٦٣، ٧٩، ٨٠)، وفي بعض الأحيان تشكل موضوعًا قائمًا بذاته داخل حشوات أو أشرطة زخرفية.

وفضلاً عن هذه الأفرع الملتفة توجد أفرع أو سيقان نباتية تحمل بعض العناصر النباتية كالمراوح النخيلية وكيزان الصنوبر وغيرها، وتكون هذه السيقان في بدايتها بسيطة مستقيمةً، وعند التقاء ساقين ببعضهما تكونان زخرفة في هيئة لوزية أو دائرية الشكل، ويتشابك الساقان في نهايتهما فينتج عن ذلك- غالبًا- زخرفة مضفورة.

ثانياً- الزخارف الهندسية:

عرفت الفنون التي سبقت الفن الإسلامي أنواعًا كثيرةً من الزخارف الهندسية، غير أن هذه الزخارف لم يكن لها شأن كبير في تلك الفنون، وكانت تستخدم في الغالب كإطارات لغيرها من الزخارف[1]، بينما احتلت الزخارف الهندسية مكانةً خاصةً في الفن الإسلامي مما يعكس ميلاً واضحًا إليها لدى العرب والمسلمين[2]، فقد ابتكر الفنان المسلم أشكالاً وتكوينات هندسية لم تكن مألوفةً من قبل، ولم تكن براعته في هذه الزخرفة أساسها الشعور والموهبة الطبيعية فحسب، بل كانت تقوم على علم وافر بأصول الهندسة العلمية[3]، حتى صارت الزخارف الهندسية- وفقًا لرأي بعض الباحثين- أوسع ميادين الفن الإسلامي، والتي تجلى فيها الإبداع الحقيقي للفنان المسلم[4].

وفيما يتعلق ببلاد المغرب فتجدر الإشارة إلى أن فنون البربر- سكان البلاد الأصليين- قد قامت على الأصول الهندسية، فليس بين فنونهم أثر للأشكال الحيوانية

---

(١) عثمان إسماعيل: نشأة الفن الإسلامي وأصوله وتأثيره على فنون أوربا (II)، ص ٧١.

(٢) محمد السيد غيطاس: الفنون الزخرفية الإسلامية بين الصناعة والفن (دراسة تطبيقية على الخزف الإسلامي)، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج- جامعة أسيوط، العدد الرابع، ١٩٩٤م، ص ٢٦١.

(٣) عثمان إسماعيل: المرجع السابق (II)، ص ٧١.

(٤) عثمان إسماعيل: دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، ص ص ٦٠ – ٦١.

والنباتية ولو المحورة، فعلى العمائر والصوف والسجاد والمنسوجات والخشب زخارف قائمة كلها على الخطوط الهندسية[١]. وفي العصر الإسلامي صارت الزخارف الهندسية تمثل عنصراً رئيساً من عناصر الزخرفة التي نبغ فنانو الغرب الإسلامي في تنفيذها على واجهات عمائرهم، فضلاً عن التحف التطبيقية.

وقد شهد عصر الأشراف السعديين استمراراً لاستخدام هذه الزخارف التي كانت معروفةً من قبل، وأدخلت تعديلات على بعضها، وشهد بعضها الآخر تطوراً في هيئة تنفيذه، مع الأخذ في الاعتبار أن الفن السعدي تميز بغلبة استخدام الزخارف الهندسية على حساب العناصر الزخرفية الأخرى[٢]، حيث كانت تستخدم قبل هذا العصر – غالبًا – كإطارات للزخارف النباتية والنقوش الكتابية[٣].

ومن أهم أشكال الزخارف الهندسية التي ظهرت على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، زخرفة الجدائل أو الضفائر، وشبكة المعينات، والأطباق النجمية وأجزائها، والشكل المحاري، والعنصر الملفوف أو الثعباني، وقد تنوعت المواد التي نفذت عليها هذه الزخارف فنراها على الزليج والجص والخشب والرخام.

أ- زخرفة الجدائل أو الضفائر:

شاع استخدام الجدائل أو الضفائر – وفقاً للاصطلاح المغربي[٤]– في تزيين واجهات العمائر السعدية موضوع الدراسة كإطارات أو حدود تفصل بين مساحات الزخرفة المختلفة، فنجدها أحيانًا على هيئة جفوت متعددة الميمات، ومنها ما ينتج من تداخل خطين يشكلان تصميماً هندسياً على هيئة معين محاط بأربع كندات تتقابل كل اثنتين منها بالرأس، ويعرف هذا النوع وفقاً للاصطلاح المغربي باسم "ضفيرة الكوي بالعقدة"[٥] (شكل ٥٥).

ب- شبكة المعينات:

تعرف شبكة المعينات في اصطلاح المغاربة باسم "الكتف والدرج" والكتف هو الخط المنحني أما الدرج فهو الزاوية القائمة الصغيرة التي تليه، وينشأ عن تقاطع الخطوط المنحنية شكل يشبه طرف الرمح، أما زاوية ميل الخط المنحني فتتراوح بين ٤٥° و ٦٠° على المستوى الأفقي، ولهذه الشبكة من الأكتاف والدرج أهمية رئيسية في التصميمات الزخرفية؛ حيث تكون بمثابة الهيكل العظمي بالنسبة للزخارف النباتية[٦].

---

(١) باسيليو بابون مالدونادو: الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة الهندسية، الجزء الأول، ص ١٥.
(2) Terrasse, C., : Op. Cit., p. 33
(3) Bel, A., : Inscriptions Arabes de Fès, p. 303
(٤) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٦٨.
(٥) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ١٧٠.
(٦) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ١٨٤؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ج٤، ص ٤٧٩.

وتعتبر شبكة المعينات من أهم العناصر الزخرفية التي برع فنانو الغرب الإسلامي في تنفيذها سواء على واجهات العمائر أو التحف التطبيقية المختلفة[١]، وتظهر هذه الزخرفة على الواجهات في هيئة رقعة كبيرة من المشبكات تنبت من ثلاثة عقود زخرفية أو أكثر بحسب المساحة المخصصة لذلك، ثمَّ ترتفع تلك العقود المصمتة في اتجاه رأسي حتى تغطي المساحة المراد زخرفتها[٢].

وقد اختلفت آراء الباحثين حول أصل هذه الزخرفة، فقد ذكر جورج مارسيه- وأيده في هذا الرأي عدد من الباحثين[٣]- أن زخرفة شبكة المعينات تستمد أصولها من تقاطع وتداخل عقود مسجد قرطبة (شكل ٧٥/أ)، وأن عصر الخلافة الأموية قد عرف تطور هذا النوع من الزخرفة الذي بلغ نضجه في قصر الجعفرية ووصل قمته في صومعة الخيرالدا وفي صومعتي حسان والكتبية[٤]، بينما يعتقد ريكار بروسبير أن التضفيرات الهندسية عكست أشكالاً زخرفية ظهرت أشكالها البدائية في إسبانيا على الآجر في واجهة كنيسة كرستو دي لوث "Cristo de Luz" (شكل ٧٥/ب)، والتي كانت في الأصل مسجداً يعرف بمسجد باب المردوم، وباب الشمس بطليطلة الذي يشتمل على عقود متداخلة مفصصة ظهرت فيما بعد بمسجد سرقسطة، ثمَّ بلغت جمالها في صوامع الموحدين وبني مرين[٥]، أما هنري تيراس فقد ذكر أن أصل شبكة المعينات يرجع إلى زخرفة التضفير التي بدأت بالفن الإسلامي المبكر في الأندلس الأموي والتي كانت تستخدم كإطارات لعناصر زخرفية مستقلة، ثمَّ استخدمت في القرن(٦ هـ / ١٢م) على واجهات المآذن بشكل واسع ومعقد على هيئة شبكة من مناطق تحدها خطوط منحنية[٦].

وعلى الرغم من اختلاف الآراء الثلاثة في الأصل الزخرفي لهذه الظاهرة الفنية، إلا أنها تتفق جميعًا في الموطن الأول الذي ظهرت به، وهو الأندلس والواقع أن زخرفة المعينات زخرفة

---

(١) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٧.

(٣) من هؤلاء: توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٢٦؛ السيد عبد العزيز سالم: أمثلة من الابتكارات في المسجد الجامع بقرطبة، بحث نشر في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م، ص ١٩٥؛ باسيليو مالدونادو: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١١٩.

(4) Marçais, G., : Op. Cit.,Tome I, pp. 219 - 220.

(5) Ricard, P.,: Pour comprendre l'Art Musulman dans l'Afrique du Nord et l'Espagne, paris, pp. 131 - 134.

عن عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٥٨.

(6) Terrasse, H.,: L'Art Hispano - Mauresque des Origines au XIIIe siecle, Paris, 1932, pp. 333, 365.

عن عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٥٨؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٧٩.

بربرية الأصل؛ لأن البربر – كما سبقت الإشارة- عرفوا الزخارف الهندسية دون الحيوانية أو النباتية، فليس بين فنونهم أثر للأشكال الحيوانية أو النباتية ولو المحورة، وإنما نجد على العمائر والتحف التطبيقية المختلفة زخارف قائمة كلها على الخطوط الهندسية، نلحظ من بينها موضوعات بسيطة هي نفسها المعينات وهي أكثر موضوعاتهم انتشارًا، وقد ظل فنهم وفيًا للخطوط المستقيمة حتى بعد اتصالهم بالأندلس الذي يميل إلى استخدام الخطوط المنحنية[1].

فضلاً عن ذلك فإن شبكة المعينات هذه لها معنى خاص في المعتقدات البربرية لأن المعينات المتجاورة أو المربعات ترمز عندهم إلى عدد كبير من العيون اليقظة والحذرة التي يسمونها "عيون الحجل"، وتفسر العين الحسودة عند البربر كثيراً من المركبات الزخرفية على المعادن والمنسوجات، وتلقي ضوءاً على عدد الفروع الزخرفية في العنصر الواحد فتجعل منه عادةً شكل "يد" من خمسة أو أربعة فروع لدفع شر العين، ويمكن القول إن معظم العناصر الزخرفية البربرية تعتبر رموزًا لرد خطر الحسد وأن اعتقادهم هذا يمثل هذه الفكرة الأساسية التي تلعب دورًا كبيرًا في الفن البربري[2].

وهكذا يتضح أن شبكة المعينات زخرفة هندسية مغربية الأصل قامت على أساس عقيدة بربرية وجدت بالمغرب قبل أن تظهر تلك الأمثلة المشار إليها بالأندلس؛ حيث لا ننظر إلى مسجد قرطبة أو مسجد باب المردوم وباب الشمس بطليطلة كأمثلة مبكرة لها، وإنما ننظر فقط إلى صومعة جامع إشبيلية (الخيرالدا) وحوائط قصر الحمراء كمخلفات أثرية تعكس تأثير الفن المغربي على الفن الإسلامي ببلاد الأندلس، فالمغرب هو الموطن الأصلي لهذه الزخرفة، ومن المغرب انتشر تأثيرها وانبعاثها على يد البربر أنفسهم إلى غير بلاد المغرب شرقًا وشمالاً[3].

وقد ظهرت الإرهاصة الأولى لزخرفة شبكة المعينات على مئذنة قلعة بني حماد (٥ هـ / ١١ م)، حيث تحمل واجهتها المطلة على الصحن مثالاً واضحًا لشبكة المعينات البربرية الأصل[4]، ثمَّ انتشرت على المآذن الموحدية (شكل ٧٦)، وبلغت ذروتها من الرقة والجمال في عصر بني مرين، وأصبحت العنصر البارز في زخرفة واجهات مآذنهم وعمائرهم (الأشكال ٥٦- ٥٨)، كما أصبحت زخرفة شبكة المعينات العنصر البارز في جميع الزخارف في عصر بني نصر بغرناطة (شكل ٧٧).

---

(١) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ص ٦٠ – ٦١.

(٢) عثمان إسماعيل: نفس المرجع، ص ٦١؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٠.

(٣) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٦١.

(٤) عثمان إسماعيل: نفس المرجع، ص ص ٤٨، ٦١.

وفي عهد الأشراف السعديين شاع استخدام زخرفة شبكة المعينات على واجهات عمائرهم ومآذنهم، كما تنوعت العناصر المكونة لحدود تلك المعينات فقد تكون هندسية وأحيانًا نباتية، كما استخدمت- أحيانًا- النقوش الكتابية في تزيينها (الأشكال ٧٨/ أ، ب، ج) (اللوحات ١٣، ٢٧، ٧٦، ٧٨، ٨٣، ١٠٤، ١٠٩، ١١٣).

ج- الأطباق النجمية:

تعتبر الزخارف النجمية من أشكال نجوم وأطباق نجمية من الوحدات الزخرفية الهندسية التي مثلت بكثرة على واجهات العمائر السعدية موضوع الدراسة، وقد تنوعت المادة التي نقشت عليها هذه الأشكال النجمية من الزليج إلى الخشب، فالجص.

وقد كانت أشكال النجوم من بين الزخارف الهندسية التي زينت واجهات العمائر الموحدية، حيث نرى أشرطةً هندسيةً تشتمل على أشكال متعددة الضلوع تظهر فيها أشكال نجوم مثمنة الرءوس، لكنها لم تشتمل مطلقًا على أشكال أطباق نجمية[1].

ومن المعروف أن الإرهاصة الأولى لظهور الأطباق النجمية ترجع إلى العصر الفاطمي بمصر؛ حيث ظهرت بداية الطبق النجمي في واجهة محراب السيدة رقية (٥٢٧ هـ /١١٣٣م)، وهو يتكون من تكرار وحدة زخرفية في وسطها نجمة سداسية وحولها ست حشوات كل منها مسدس منتظم تمامًا[2]. غير أن الطبق النجمي بمحراب السيدة رقية بهذا الشكل يعد ناقصًا؛ حيث إن الطبق النجمي الكامل يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية من الحشوات، هي: شكل النجمة "الترس" الذي يتوسط الطبق النجمي ويحتل مكان البؤرة منه، وشكل اللوزة المضلعة التي يشترك فيها عدد من الحشوات لكل منها أربعة أضلاع، وترتب هذه الحشوات حول النجمة في ترتيب إشعاعي بحيث تقع أطرافها على محيط دائرة حقيقية، والكندة التي تشتمل عادةً على ستة أضلاع ويوزع عدد منها مساو لعدد اللوزات في توزيع إشعاعي وفي نظام دائري تام حول اللوزات[3]، ويعتبر منبر المسجد الأقصى ببيت المقدس (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ – ١١٦٩م) هو أقدم مثل للأطباق النجمية الحقيقية[4].

وفي المغرب نجد أن زخرفة الأطباق النجمية انتشرت بشكل واسع على واجهات العمائر المرينية المختلفة[5]، واستمر استخدام هذا العنصر بكثرة في عهد الأشراف السعديين، حيث نرى

---

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٨٤ – ٤٨٦.

(٢) فريد شافعي: مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي بمصر، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٤م، الجزء الأول، ص ٨٤؛ أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، لوحة ٧٦.

(٣) فريد شافعي: المرجع السابق، ص ص ٨٣ – ٨٤.

(٤) فريد شافعي: نفس المرجع، ص ٩٠.

(٥) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٤٣.

الأطباق النجمية على واجهات عمائرهم متعددة الأشكال والهيئات، فمنها ما كان مثمنًا (لوحة ٦٣)، ومنها ما كان اثني عشري (اللوحات ١٠٦، ١١٢، ١١٥)، ومنها ما كان ست عشري (اللوحتان ٨١، ٩٣)، كما استخدمت أشكال متعددة من النجوم، كالنجوم السداسية الرءوس والثمانية التي يطلق عليها المغاربة مصطلح "خاتم سليماني" (١).

د- العنصر المحاري:

يعتبر العنصر المحاري من الوحدات الزخرفية الهندسية التي نفذت بكثرة على واجهات العمائر المغربية السابقة على العصر السعدي، ثمَّ استمر تنفيذه واستخدامه على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية موضوع الدراسة، وقد ذكر بعض الباحثين أن فناني الغرب الإسلامي قد اقتبسوا هذا الشكل من شكل القوقعة التي عرفت في الفن الإسلامي منذ عصر الخلفاء العباسيين(٢)، بينما ذكر آخرون أن هذا الشكل وصل إلى المغرب من الأندلس، ويرجع أصل ظهوره إلى القوط الغربيين، ثمَّ أصبح عنصرًا من عناصر الزخرفة الإسلامية(٣)، أما عن تكوينه الزخرفي فقد رأى بعض الباحثين أنه ربما كان مشتقًا من المراوح النخيلية(٤).

وقد كان ظهور الشكل المحاري في مصر بجامع عمرو بن العاص في أعمال عبد الله بن طاهر (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م)، حيث نجده يتوج الحنايا الغائرة التي توجد بين نوافذ واجهات هذا الجامع(٥)، ثمَّ ظهر بعد ذلك بجامع أحمد بن طولون (٢٦٤ هـ / ٨٧٧م) بين فتحات الشبابيك الجصية المعقودة من الخارج، وأيضًا بين كوشات عقود البوائك المطلة على الصحن، ثمَّ ظهر في توشيحتي أحد المحاريب الجصية الفاطمية بجامع ابن طولون أيضًا(٦)، كما ظهر في العصر الفاطمي أيضًا في الطاقية التي تتوج الدخلة بالجانب الشرقي برحبة باب زويلة(٧) بين عقود بوائك المسجد الأقمر (٥١٩ هـ / ١١٢٥م)، وفي توشيحتي محراب السيدة رقية (٥٢٧ هـ / ١١٣٢م)(٨)، ثمَّ ظهر بشكل محور في قبة الخلفاء العباسيين بالقاهرة (٦٤٠ هـ /١٢٤٢م) (٩).

أما في الغرب الإسلامي فقد ظهر الشكل المحاري في منطقة انتقال القبة التي تتقدم

---

(١) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٥٥.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٣؛

Marçais, G., : L'architecture Musulmane d'Occident, p. 257.

(٣) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٧٨.

(٤) باسيليو مالدونادو: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٩٣؛

Basset, H., et Provençal, L., : Op. Cit., p. 76

(٥) انظر، عبد الناصر محمد حسن: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٧٤٤.

(٦) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٣.

(٧) عبد الناصر محمد حسن: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٧٤٤.

(٨) أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، لوحة ٤٢، ٥٠ ب.

(٩) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٣.

المحراب بجامع القيروان التي شيدت سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦م) أو (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) وفقًا لبعض الآراء[١] ثمَّ نراه بشكل متطور في توشيحتي عقد محراب مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة (٤٤٠هـ/١٠٤٧م) [٢]، ثمَّ ظهر بالمغرب الأقصى في العصر المرابطي في منطقة انتقال قبة الباروديين بمراكش (٥١٤ هـ/١١٢٠م) [٣]، ثمَّ انتقل إلى الموحدين الذين استخدموه بكثرة وخاصة في منشآتهم الحربية، وقد أصبح قريبًا من شكل الوريدة المتعددة البتلات، وابتعد عن شكله الهندسي، فنراه في توشيحتي عقد كل من باب أجناو بمراكش[٤] (شكل ٧٩/ أ، ب) وعقد باب الأودايا بالرباط[٥] (شكل ٧٩/ ج)، وغير ذلك من الآثار الموحدية.

ثمَّ انتقل من الموحدين إلى المرينيين ولم يقتصر ظهوره على توشيحات العقود وإنما انتشر على واجهات منشآتهم المختلفة، فنراه على واجهات المساجد، كالمسجد الجامع بفاس الجديد (٦٧٧ هـ / ١٢٧٩م) ومسجد أبي الحسن بفاس القديمة(٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) [٦]، وفي توشيحتي المدخل الرئيس بالجامع الكبير بالمنصورة في تلمسان[٧]، وفي كوشات عقود بوائك الزيادة المرينية بمسجد تازة الموحدي[٨]، وفي آثار شالة المرينية[٩]، وفي المدارس المرينية بكل من فاس وسلا ومكناس[١٠].

وفي العمائر السعدية موضوع الدراسة يلاحظ أن الفنان المغربي نفذ العنصر المحاري بأساليب مختلفة، فأحيانًا نجده ينحصر بين كلمة "يمن" أو "اليمن" كتبت بالخط الكوفي طردًا وعكسًا، أو بين بعض العبارات التي كتبت بالخط الكوفي أيضًا مثل "الملك لله" (لوحة ٧١)، وأحيانًا بين ورقتين مزدوجتين متدابرتين من المراوح النخيلية، وفي بعض الأحيان نجده بداخل حطات المقرنصات بباطن القباب والمداخل والعقود (اللوحتان ٢٤، ٤١).

هـ- العنصر الملفوف أو الثعباني:

---

(١) أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٦٣؛ عبد العزيز سالم: المسجد الجامع بالقيروان، ص ١٧٤؛ نجوى عثمان: المرجع السابق، ص ص ٧٠ – ٧١.

(٢) محمد الكحلاوي: نفس المرجع، ص ٤٨٤.

(٣) محمد الكحلاوي: نفس المرجع، ص ٤٨٤؛ Robert, H., : Op. Cit., fig. 2 - 129

(4) Marçais, G., : Op. Cit.,p. 243

(5) Hill, D., and Golvin, L., : Islamic Architecture in North Africa, London, 1976, figs. 499 - 500

(٦) Hill, D., and Golvin, L., :Ibid., figs. 355 - 356.

(٧) Hutt, A., : Islamic Architecture North Africa, Scorpion Publications limited, plate 10.

(٨) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٤.

(٩) Basset, H., et Provençal, L., : Op. Cit., figs. 8 - 9, 12, 15, 16 - 18.

(١٠) محمد ابو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٤٠.

يعتبر العنصر الملفوف أو الثعباني من الأشكال الهندسية التي شاع استخدامها على العمائر الدينية والجنائزية السعدية- موضوع الدراسة- والتكوين الزخرفي لهذا العنصر عبارة عن خط ملتو طرفه السفلي يلتف عكس طرفه العلوي ليكون كل منهما شكل دائرة، وتتميز الدائرة السفلية بأنها أكثر حجمًا واستدارةً من الطرف العلوي، وقد ملئ داخل هذا التكوين بمجموعة من التهشيرات[١] (شكل ٨٠)، وقد أطلق على هذا العنصر الشكل الثعباني أو الحلية الثعبانية لأنه يأخذ شكل ثعبان قائم على ذيله[٢].

ويرى بعض الباحثين أن الإرهاصة الأولى للشكل الثعباني قد ظهرت على بعض الأخشاب التي ترجع إلى الطراز العباسي بمصر والمؤرخة بنهاية القرن (٣ هـ / ٩م) وبداية القرن(٤ هـ / ١٠م)، حيث ظهرت بها بعض أشكال ملتوية (ثعبانية) يمكن أن نعتبرها مرحلة مبكرة للأشكال الثعبانية التي ظهرت بشكل متطور في الغرب الإسلامي[٣].

في حين يرى بعضهم الآخر أن أقدم أمثلته ترجع للقرن (٥ هـ / ١١م) بمصر؛ حيث ظهر على إطار أحد الشبابيك الجصية في مئذنة الحاكم الغربية (٤٠٣ هـ / ١٠١٢) [٤]، ثمَّ ظهر بقلعة بني حماد في القرن (٥ هـ / ١١م) (شكل ٨١/ أ)، ثمَّ ظهر بعد ذلك في مسجد تلمسان المرابطي (٥٣٠ هـ / ١١٣٣م) (شكل ٨١/ ب)، واستمر ظهوره في العصر الموحدي بهيئة أكثر إتقانًا وتعددت استخداماته، وصار يؤدي وظيفةً معماريةً إضافةً للناحية الزخرفية، حيث نراه يحمل عقد المحراب وعقود البوائك بمسجد تينملل (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ – ١١٥٤م) (شكل ٨٢/ أ، ب)، كما نراه يحمل عقد المدخل في باب الرواح الموحدي بالرباط[٥] (شكل ٨٢/ ج).

وفي عصر بني مرين بلغ هذا العنصر أقصى تطوره الفني وفقد وظيفته المعمارية وتبلورت مهمته الزخرفية واتخذ شكل ثعبان ملفوف حول نفسه يملأ – أحيانًا- الفراغ الناشئ في الفص الأسفل من العقد بعد أن كان هو نفسه يشكل الكابولي الذي يرتكز فوقه العقد من كلا الجانبين[٦] (شكل ٨٣).

وفي عهد الأشراف السعديين نجد أن الشكل الثعباني الذي ظهر على واجهات عمائرهم المختلفة، يشبه من حيث الشكل والوظيفة مثيله المريني السابق ذكره، وإن كان قد اشتد تحوره واندماجه في الفص السفلي للعقد إلى حد يصعب تمييزه أحيانًا (اللوحات ١٠، ١٧، ١٨،

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨١.

(٢) Basset, H., et Provençal, L., : Op. Cit., p. 78.

(٣) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٨٢.

(٤) أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٦٧؛ عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٥) عثمان إسماعيل: نفس المرجع والصفحة؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٨١ – ٤٨٢.

(٦) عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٢٨؛
Basset, H., et Provençal, L., : Op. Cit., pp. 79- 80.

٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٤٠)، كما نجد الشكل الثعباني يزين الجزء السفلي لبعض الكوابيل الجصية (اللوحتان ٧٧، ٨٧) (شكل ٨٤).

ثالثاً - النقوش الكتابية:

لم يكن المسلمون أول من استعمل الكتابة في زخرفة العمائر وسائر التحف الفنية، إذ سبقهم إلى ذلك أهل الشرق الأقصى، كما عرف الغربيون هذا الفن في العصور الوسطى، غير أننا لا نجد فنًّا استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الإسلامي، ساعد على ذلك أن حروف الخط العربي أصلح من غيرها لهذا الغرض بما فيها من استقامة وانبساط وتقويس فيسهل وصل الخطوط العمودية والأفقية فيه بالرسوم الزخرفية الأخرى وصلاً يتجلى فيه الاتزان والإبداع والجمال[١].

ولئن كانت الزخارف النباتية والهندسية المنفذة على العمائر والتحف الفنية الإسلامية، إنما ترجع أصولها لفنون سابقة على الفن الإسلامي، فإن فن الخط العربي كان من أهم الميادين الفنية التي تجلت فيها عبقرية الفنان المسلم بأجلى صورة، فقد ابتكر ذهنه الخلاق طرزًا شتى للكتابة لم يستوحِ فيها فنًّا من فنون الأمم السابقة عليه ولا استلهم عنصرًا من عناصر الزخرفة التي كانت معروفة للدول التي خالطها أو أخضعها لسلطانه، بل ابتدع هذه الطرز فأتقن الإبداع وابتكرها فأجاد وأحسن الابتكار وأطلق العنان لخياله فلم يخذله خياله الخصب[٢].

وقد اتسعت المجالات التي استخدمت فيها الكتابة العربية لتشمل التزويق على أوراق البردي، ثمَّ الكتابة على الورق في المخطوطات والمصاحف واللوحات الخطية، والتسجيل على العمائر المختلفة الدينية والمدنية والحربية على السواء، وعلى قطع العملة والصنج والأوزان والأختام وغيرها[٣]. وقد نالت هذه الكتابات اهتمامًا كبيرًا تجلى في ابتكار كل ما يضفي جمالاً وحسنًا على الخطوط التي دونت بها، ومن ذلك إخضاعها للقوانين الهندسية واستغلال ما في طبيعتها من مرونة وطواعية وقابلية المد والمط والاستمداد والرجع والاستدارات[٤]، وقد امتد هذا الاهتمام إلى زخرفة هذه الكتابات، فكان منها ما زين بالتلوين أو كان مشجرًا أو مزهرًا أو مورقًا أو على أرضية من الزخارف النباتية[٥]، وقد ازداد استعمال

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الفكر العربي، د.ت، ص ٢٣٤؛ عثمان إسماعيل: نشأة الفن الإسلامي (II)، ص ٧٠.

(٢) عثمان إسماعيل: نفس المرجع والصفحة.

(٣) حسين عبد الرحيم عليوة: الخط، بحث نشر في كتاب القاهرة تاريخها – فنونها – آثارها، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ص ٢٨٠ – ٢٨١.

(٤) إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية، سلسلة اقرأ ٥٣، دار المعارف، ١٩٨٤م، ص ص ٦٦، ٨٧.

(٥) محمد غيطاس: المرجع السابق، ص ٢٦٣.

الزخارف الكتابية شيوعًا في العالم الإسلامي منذ القرن (٤ هـ / ١٠م) وبلغ ذروة مجده في القرنين (٥- ٦ هـ / ١١ – ١٢) [١].

وكانت الكتابات العربية على العمائر والتحف التطبيقية طوال القرون الخمسة الأولى من الهجرة النبوية تكتب بالخط الكوفي، ولكن هذا لا يعني أن خط الثلث لم يكن معروفًا طوال هذه القرون الخمسة، بل كان معاصرًا للخط الكوفي في هذه الفترة غير أنه تخلف عنه كخط أثري تسجيلي واقتصر استعماله على المكاتبات اليومية وفي تدوين الكتب الوضعية المختلفة[٢]. ومنذ القرن (٦ هـ / ١٢م) ندر استخدام الخط الكوفي بمصر والشرق الإسلامي كخط تسجيلي على العمائر والتحف التطبيقية، واقتصر استخدامه على العبارات الدعائية والآيات القرآنية وحل الخط الثلث محله في الكتابات التأسيسية[٣].

أما في الغرب الإسلامي فقد شاع استخدام الخط الكوفي في الزخرفة الكتابية، ولم يظهر الخط الثلث كعنصر زخرفي على العمائر إلا في القرن (٥ هـ / ١١م) حيث نجده منفذًا على الجص في منية المرور بغرناطة، وفي قصر الكاستيخو بفحص مرسية، وقصبة مالقة[٤]. بينما استخدم لأول مرة كخط تسجيلي في القبة التي تتقدم المحراب في المسجد الجامع بتلمسان (٥٣٠ هـ / ١١٣٦م) [٥] وفي المصلى الجنائزي بجامع القرويين بفاس القديمة (٥٣١ هـ / ١١٣٧م)[٦]، وفي العصر الموحدي تحمل الفسقية التي بصحن جامع القرويين كتابات تأسيسية بالخط الثلث نفذت على الرخام مؤرخة بعام (٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م)، كما تحمل الثريا البرونزية الموحدية التي بجامع القرويين أيضًا كتابات بالخط الثلث تتضمن آيات قرآنية، بينما كتب تاريخ الصنع وهو (٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م) بالخط الكوفي[٧]، أما بالنسبة للعمائر الموحدية فلم تأخذ الزخارف الكتابية فيها مكانًا مرموقًا كما كان للزخارف النباتية والهندسية واقتصر على استخدام الخط الكوفي[٨].

---

(١) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص ص ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٢) حسين عبد الرحيم عليوة: المرجع السابق، ص ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

(٣) عثمان إسماعيل: دراسات جديدة في الفنون الإسلامية، ص ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

(٤) مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د. لطفي عبد البديع ود. السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص ٣١٥؛ توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٥) توريس بالباس: نفس المرجع، ص ص ٢٠، ٥٤؛ جوميث مورينو: المرجع السابق، ص ٣١٦؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٦) عبد الهادي التازي: الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٧٠.

(٧) عبد الهادي التازي: نفس المرجع، ص ص ٢٧٢ – ٢٧٣.

(٨) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ١٥٦؛ أرنست كونل: المرجع السابق، ص ١٣٠؛ محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٩٠.

أما في عصر بني مرين فقد ذاع استخدام النوعين معًا، وأصبحت الكتابات ذات رشاقة في التأليف وتوازن في النسب[١]، وإذا كانت الكتابات الكوفية قد ندر استخدامها بمصر والشرق الإسلامي في الكتابات التأسيسية واقتصرت على كتابة النصوص والعبارات الدعائية أو الآيات القرآنية منذ القرن (٦ هـ / ١٢م) – كما سبقت الإشارة- ، فإن الكتابات الزخرفية بالمدارس المرينية تمدنا بنصوص تأسيسية بالخط الكوفي ترجع للقرن (٨ هـ / ١٤م)، حيث نقش على أحد تيجان الأعمدة الرخامية بمدرسة العطارين بفاس القديمة كتابات بالخط الكوفي تحمل تاريخ (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)، وعلى الحجاب الخشبي الذي يغلق على فتحة الباب الموصل لصحن المدرسة البوعنانية بفاس القديمة أيضًا (٧٥١ – ٧٥٦ هـ / ١٣٥٠ – ١٣٥٥م) كتابات بالخط الكوفي اختفى منها تاريخ سنة الإنشاء ولم يبق سوى تاريخ الشهور، بما نصه:" ... بتاريخ شهر رجب الفرد المبارك" [٢].

وفي عهد الأشراف السعديين استخدم الخطان الكوفي والثلث معًا أيضًا، ولكن اقتصر استخدام الكوفي على كتابة العبارات الدعائية والآيات القرآنية، وقد تنوعت المادة التي نقشت عليها تلك الكتابات من الزليج إلى الخشب فالجص فالرخام فالبرونز، كما تنوعت مضامين الكتابات المنفذة على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية موضوع الدراسة، فكانت منها الآيات القرآنية والأدعية والأشعار التي تحمل اسم منشئ المبنى وألقابه والدعاء له – وأحيانًا تحدد تاريخ الإنشاء- ومنها ما اتصل بوظيفة المبنى أو العمل الفني الذي نقشت عليه، أما الكتابات المنقوشة على شواهد القبور والتراكيب الرخامية الخاصة بالأسرة السعدية، فتضمنت فضلاً عن الآيات القرآنية والأشعار اسم المُتَوَفَّى ونسبه وألقابه والدعاء له وتاريخ وفاته الذي كتب- أحيانًا - بحساب الجمل على الطريقة المغربيَة، ويلاحظ أن تاريخ الوفاة على كثير من الشواهد والتراكيب قد حدد بدقة شديدة وفقًا للتوقيتات الإسلامية: "وقضى ... لزوال يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي حجة الحرام خاتم أربعة وستين"، " توفي .....ضحى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من المحرم فاتح عام سبعة وسبعين وتسعمائة"، "قبضه الله إليه ... في العشر الأواخر من ... شهر رمضان ... عشية يوم السبت التاسع والعشرين منه عام واحد وثمانين وتسعمائة"، "توفيت ... سحر ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من محرم فاتح عام ألف للهجرة". فقد حدد على وجه التقريب الساعة إضافةً لتحديد اليوم والشهر، وهي سمة تميزت بها شواهد القبور في بلدان إسلامية أخرى غير المغرب، كما هو الحال في كثير من شواهد القبور العمانية على سبيل المثال[٣].

---

(١) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٣) محمد عبد الستار: مدينة ظفار بسلطنة عمان، ص ٢٠٩.

بالإضافة إلى ذلك فإن الكتابات المنقوشة على بعض تراكيب وشواهد القبور السعدية، لم تكتف بتحديد وقت الوفاة بل حددت وقت الدفن أيضًا: " ودفن .... بعد صلاة الظهر ثاني يوم وفاته"، "ودفنت ..... بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور"، وهي ظاهرة شوهدت من قبل في بعض تراكيب وشواهد القبور المرينية.

وفضلاً عما تتميز به النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية من مميزات خاصة تفيد الدراسات الأثرية من الناحية الفنية، حيث إنها تعكس مدى التطور الذي بلغته الكتابات الزخرفية في هذا القطر من العالم الإسلامي[1]، فإنها تفيد الدراسات التاريخية والأثرية فائدةً كبيرةً؛ ذلك أنها اشتملت على نصوص حددت أسماء المنشئين وتواريخ الإنشاء وألقابًا فخريةً ووظيفيةً صححت كثيرًا من الهنات التي وقع فيها بعض المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين على السواء، وأماطت اللثام عن حقائق تاريخية جديدة كانت خافيةً عنهم. من ذلك أن بعض المؤرخين نسب المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش إلى السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١ – ٧٤٩ هـ / ١٣٣١ – ١٣٤٨م) وإنما اقتصر دور السلطان عبد الله الغالب السعدي على تجديدها سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م) وشاركهم في هذا الرأي بعض الباحثين المحدثين، بينما أكدت الكتابات المنقوشة على العتب الخشبي المتوج لفتحة المدخل الرئيس لهذه المدرسة، وعلى تكسية الزليج التي تغطي الجزء السفلي لواجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن، وعلى تيجان الأعمدة الرخامية الحاملة للعقود التي يرتكز عليها سقف بيت الصلاة، أن هذه المدرسة من إنشاء السلطان السعدي عبد الله الغالب سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤ – ١٥٦٥م).

كما أكدت الكتابات المنقوشة على الباب الخشبي الذي يغلق على فتحة المدخل الرئيس للمبنى الغربي لقبور السعديين أن هذا المبنى من إنشاء السلطان أحمد المنصور، حيث إن الدعاء الوارد في هذه الكتابات لهذا السلطان، وهو: "أيده الله" دعاء حياة وليس دعاء ممات؛ مما يشير إلى أن أحمد المنصور شيد هذا المبنى أثناء حياته.

كما سجلت الكتابات المنقوشة بهذه العمائر موضوع الدراسة ألقابًا فخريةً تعكس أحداثًا تاريخيةً وأعمالاً قام بها السلاطين السعديون، وهي: "ناصر الدين" و" ناصر الإسلام"، و"المجاهد في سبيل رب العالمين" و" مذل عبدة الأصنام"، حيث كان الجهاد وطرد المحتل البرتغالي والإسباني من الثغور المغربية هو الركيزة الأساسية لقيام دولتهم. فضلاً عن الألقاب التي تكشف عن السمات الأخلاقية التي كان يتمتع بها السلاطين السعديون، من تدين وخشية لله وعدل وعلم وشجاعة وسخاء وصفح وتجاوز عن المخطئين وغير ذلك من

---

(١) تجدر الإشارة إلى أننا لن نتعرض لدراسة الكتابات الزخرفية بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية من ناحية الشكل، حيث إن ذلك يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها لا يتسع المجال لها في هذا البحث.

الخلال الكريمة، ومنها: "إمام السجادة والمحراب" و"طود الهداية الأعصم"، و"صاحب الصدقات والأوراد" و"كهف الأنام" و"الصدر المشروح" و"الوفر الممنوح" و"الإغضاء عن الهنات" و"الصفح عن الجناة"، و"العلامة"، فضلاً عن الألقاب التي تشير إلى اهتمام بعض هؤلاء السلاطين بالبناء والتعمير، مثل "باني المساجد والمدارس"، ومن الألقاب التي تكشف عن السمات الأخلاقية التي كانت تتمتع بها لالة مسعودة زوجة السلطان محمد المهدي وأم ابنه أحمد المنصور، "الطاهرة" و"القانتة" و"الناسكة" و"الصالحة" و"الصوامة" و"القوامة" و"العابدة" و"الأوابة" و"أم الحسنات" و"كاشفة الكرب المزمنات" و"ثمال اليتامى" و"ملاذ الأرامل والأيامى" و"كافلة البنات والبنين".

كما تضمنت هذه الكتابات ألقابًا تؤكد انتماء السلاطين السعديين إلى النسب النبوي الشريف، مثل: "سبط خاتم الرسل" و"الشريف الحسني" و"ابن الشرف الفاطمي". كذلك أشارت هذه الكتابات إلى بعض المنشآت التي شيدت في العصر السعدي، كجامع باب دكالة بمراكش والقنطرة التي على وادي أم الربيع وكذلك القنطرة التي على وادي إيسلي المحازي للسور الشرقي لمدينة مراكش.

وتتضمن النصوص الكتابية المنفذة على واجهات العمائر التي شيدها سلاطين الدولة السعدية والمنقوشة على تراكيب وشواهد قبورهم، العديد من الآيات القرآنية والتي يشير بعضها إلى الانتصار، مثل: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" [١]، "نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين"[٢]، وفي ذلك إشارة للانتصارات التي حققها السعديون في حروبهم سواء على الوطاسيين والعثمانيين أو على الإسبان والبرتغال.

ومن هذه الآيات ما يشير إلى فضل تعمير المساجد بالصلاة والذكر، مثل: "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله" [٣]، "أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا"[٤]، "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون"[٥]. ومن هذه الآيات ما يشير إلى فضل العلم والعلماء: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"[٦].

ونظرًا لانتساب السعديين إلى النسب النبوي الشريف، فقد تضمنت الكتابات المنقوشة

---

(١) سورة الفتح، الآية ١.

(٢) سورة الصف، من الآية ١٣.

(٣) سورة النور، الآية ٣٦، ومن الآية ٣٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٧٨.

(٥) سورة المنافقون، الآية ٩.

(٦) سورة الزمر، من الآية ٩.

على واجهات عمائرهم بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى تزكية الله (سبحانه وتعالى) لأهل البيت النبوي الشريف، مثل: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" [١]، "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد"[٢]. ومن هذه الآيات ما يحض على الجهاد في سبيل الله ومقاتلة الكفار والمنافقين، " يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير" [٣].

ومن الآيات ما يشير إلى عفو الله (سبحانه وتعالى) ومغفرته للمؤمنين من عباده وما أعده لهم من جنات ونعيم، ويلاحظ أن هذه الآيات نقشت بصفة خاصة على واجهات قاعات الدفن بقبور السعديين، ومنها: "يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم" [٤]، "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم"[٥]، "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون" [٦].

وتعد سورة الإخلاص وآية الكرسي من النصوص الأساسية التي نقشت بكثرة على واجهات العمائر السعدية موضوع الدراسة، وتعكس هذه النصوص التي تلخص عقيدة الإسلام القائمة على التوحيد أثر الأوضاع السياسية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك،حيث اكتسى الغزو البرتغالي للبلاد صبغة دينية وأفصحت الإجراءات سواء تلك التي مهدت للغزو أو صاحبته عن عداء شديد للمسلمين، وعن رغبة عمياء في القضاء على الإسلام بالمغرب، فقد جندت الكنيسة كل إمكاناتها لتحقيق هذا الهدف، فأصدرت البابوية قرارات متعددة تحث المسيحيين على تمويل الغزو البرتغالي للمغرب، وتضفي عليه طابع المشروعية، وعملت على تنمية روح الحقد والعداء ضد المسلمين في نفوس المسيحيين، وأرسلت الكنيسة عدداً من رهبانها وكهنتها إلى المغرب لتنفيذ المخططات الرامية إلى تنصير المغاربة، فأقاموا مؤسساتهم الدينية، وصبوا حقدهم الأعمى على مساجد المسلمين وزواياهم بالمناطق التي احتلوها بنهبها

(١) سورة الأحزاب، من الآية ٣٣.

(٢) سورة هود، من الآية ٧٣.

(٣) سورة التوبة، الآية ٧٣ ؛ سورة التحريم، الآية ٩.

(٤) سورة التوبة، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٥) سورة التوبة، الآية ٧٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآيات ١٠١ – ١٠٣.

وتنجيسها، وهدم الكثير منها، وتحويلها إلى كنائس[١].

وتشير المصادر التاريخية المغربية والأجنبية إلى وجود حالات من التنصير والارتداد عن الإسلام بالمغرب أثناء الاحتلال البرتغالي، وخصوصًا في المناطق التي كانت تحت سلطة البرتغاليين. فقد وردت في كتب النوازل فتاوى حول المرتدين، كما وردت بكتب المؤرخين البرتغاليين إشادات بالمتنصرين من المسلمين، وتنويه بتشبثهم بالدين المسيحي حتى الموت[٢].

ويلاحظ على العبارات الدعائية التي ظهرت على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية أن بعضها يتفق مع مثيلاتها على العمائر الموحدية[٣]، مثل "العز لله"، "الحمد لله"، "الملك لله"، لا إله إلا الله"، كما أن بعضها الآخر يتفق مع العبارات الدعائية التي نقشت على واجهات العمائر المرينية[٤]، ومن هذه العبارات: "البركة الكاملة النعمة الشاملة الغبطة المتصلة"، العافية الباقية"، "الشكر لله"، "البقاء لله"، "اليمن"، "النصر والتمكين والفتح المبين"، كما ظهرت على هذه العمائر السعدية موضوع الدراسة عبارات دينية جديدة، منها: "أحسن ما صرف فيه المقال الحمد لله على كل حال"، "ولا غالب إلا الله"، وهو شعار ملوك بني نصر المشهور الذي نقش على جدران منشآتهم بغرناطة وبخاصة قصر الحمراء، ويعكس تكراره على واجهات عمائرهم شعور النبوءة والنذير بحدوث المأساة[٥]، بينما يعكس نقشه على واجهات العمائر السعدية تأثير مهاجري الأندلس أو الموريسكيين على العمارة والفن السعدي، كما يعكس أيضًا الرضا والتسليم من جانب هؤلاء الموريسكيين لقضاء الله تعالى، فضلاً عن تمسكهم بتقاليدهم الفنية.

هذا من ناحية مضمون النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية، أما من الناحية الفنية فإلى جانب تنوع المادة التي نفذت عليها الكتابات، فقد تنوعت أساليب الخطوط نفسها، فنجد منها الكوفي المضفر على أرضية خالية من الزخرفة (شكل ٨٥)، ويختلف عنه أسلوب آخر من الكوفي المضفر حيث يظهر على مهاد من زخارف نباتية تتألف من مراوح نخيلية وأنصافها (شكل ٨٦) (لوحة ٧٢)، كما نجد كتابات بالخط الكوفي المضفر تقوم على مهاد من زخارف نباتية أيضًا، لكنها كتبت طردًا وعكسًا مثل كلمة "يمن"، و"اليمن"

---

(١) الحسن اليوبي: المرجع السابق، ص٢٣٤.

(٢) الحسن اليوبي: نفس المرجع، ص٢٣٥.

(٣) عن هذه العبارات الدعائية الموحدية، انظر، محمد الكحلاوي: ثريات من النواقيس في جامع القرويين بمدينة فاس، بحث نشر في مجلة الدارة، السنة السابعة عشرة، العدد الرابع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ، ج ٣٨، ص ١٤٩.

(٤) عن العبارات الدعائية التي ظهرت على واجهات العمائر المرينية، انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٤٩.

(٥) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، الجزء السابع، ص ص ٢٩٤، ٢٩٨.

(اللوحتان ٧١، ٧٢)، وهناك نوع آخر من الخط الكوفي، وهو الكوفي المربع (اللوحتان ٣٣، ٥١)، وقد وجدت من هذا النوع أمثلة عديدة بالمدارس والمساجد المرينية وبخاصة تلك التي شيدها السلطان أبو الحسن المريني، كما في مدارسه بكل من فاس ومكناس (شكل ٨٧)، وفي مسجد سيدي بومدين بالعباد قرب تلمسان[١] (شكل ٨٨)، هذا إلى جانب الكوفي الذي تمتد نهايات حروفه القائمة مكونةً إطارًا يحف بالكتابة من أعلى في هيئة عقد مدبب أو مفصص، مثل عبارة "الملك لله" وكلمة "اليمن" (لوحة ٧١).

أما الخط الثلث فقد تنوعت نماذجه أيضًا، حيث نجد منه ما يقوم على أرضية خالية من الزخرفة، ونجد منه نوعًا آخر وهو الغالب يقوم على مهاد من زخارف نباتية تتألف من مراوح نخيلية وتتصل بالأفرع والأوراق عقد صغيرة في هيئة الميمات (اللوحات ٦٣، ٦٧، ٧٩، ٨٠، ١١٨) (الأشكال ٤٤ – ٥٤، ٨٩/ أ، ب، ٩٠).

رابعاً- الزخارف المعمارية:

استمرارًا لما هو معروف بالمغرب قبل عهد الأشراف السعديين[٢] فقد شاع في العمائر الدينية والجنائزية السعدية استخدام زخارف مستمدة من أشكال معمارية في تزيين واجهات هذه العمائر، كالمقرنصات والشرافات والمحاريب والعقود.

أ- المقرنصات:

المقرنصات أو الدلايات أو المقربصات وفقًا لمسماها المغربي[٣]، هي حليات معمارية تشبه خلايا النحل، وتستعمل كوسيلة إنشائية للتدرج من المسقط المربع إلى مسقط دائري تقوم عليه القباب، كما تقوم في بعض الأحيان مقام الكوابيل حين تتخذ أسفل شرافات المآذن، كما تستعمل كحليات زخرفية تشاهد في الواجهات[٤]، والمقرنصات كعنصر إنشائي وهي عبارة عن أجسام مضلعة تصنع من الحجر أو الجص أو الرخام أو الخشب، وتوضع هذه المقرنصات بعضها بجانب بعض في صفوف "حطات" أفقية أو توضع فوق بعضها في صفوف رأسيه، وتؤلف بأشكالها مجموعات هرمية متدرجة تبدأ قاعدتها من أعلى وتنتهي قمتها إلى أسفل وبعض هذه المقرنصات غائر يشبه خلايا النحل وبعضها متدلٍ كالعناقيد[٥]، شبهها بعض الباحثين بأصابع القفاز المقلوب[٦].

---

(١) عن هذه الظاهرة في العصر المريني، انظر، محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٥٠.

(٢) انظر في هذا الصدد، محمد أبو رحاب: نفس المرجع، ص ص ٣٥١ – ٣٥٣.

(٣) توريس بالباس: الفن المرابطي الموحدي، ص ٥١؛ أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٨٨.

(٤) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص ١٥٢؛ كمال الدين سامح: المرجع السابق، ص ص ٨٢ – ٨٣.

(٥) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ٥١؛ محمد الكحلاوي: عمائر الموحدين الدينية، ص ٤٤٤.

(٦) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٨٨.

ولعل أقدم أمثلة استخدام المقرنصات كعنصر إنشائي ترجع إلى العصر الساساني المبكر، وكانت في بدايتها تتكون من طاقة أو حنية مجوفة واحدة توضع في الأركان الأربعة لقاعدة القبة لتحويل المسقط المربع إلى دائرة لإمكان التغطية بالقبة، ثمَّ شاع استخدام هذه الحنيات المجوفة في العمارة البيزنطية[1]. أما في العصر الإسلامي فترجع أقدم أمثلة استخدامها كعنصر إنشائي إلى العراق؛ حيث نراها في قصر الأخيضر ببادية العراق حوالي (١٦٠ هـ / ٧٧٧م)، وفي باب العامة المدخل الرئيسي لقصر الجوسق الخاقاني بسامراء (٢٢١ هـ / ٨٣٦م)[2].

وقد استخدمت المقرنصات كعنصر زخرفي لأول مرة في العصر الإسلامي في عضد باب مدفن جنبادي كابوس في جورجان بإيران (٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ – ١٠٠٧م)، ثمَّ في مدفن جنبادي علي في ابرقوة بإيران أيضًا (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ – ١٠٥٧م)، ثمَّ في مئذنة مسجد آني (٤٦٥ – ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣م) في أرمينيا[3].

وأما في الغرب الإسلامي فقد انتقلت هذه الظاهرة إلى المغرب الأدنى "تونس" عن طريق دمشق ومصر قبل أن تصل إلى المغرب والأندلس[4]. ويرجع أقدم مثل لاستخدامها كعنصر إنشائي في جامع القيروان حيث تحمل القبة التي تتقدم المحراب المشيدة عام (٢٢١ هـ / ٨٣٦م)[5] أو (٢٤٨ هـ / ٨٦٣م) ثمَّ نجدها بعد ذلك في قبة المحراب بجامع سوسة (٢٣٦ هـ / ٨٥٠م)، وفي قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس (٢٥٠ هـ / ٨٦٤م)، وفي مسجد قرطبة (٣٥٠ هـ/٩٦١م) [6].

وقد تطورت المقرنصات بعد ذلك واتخذت مظهرًا زخرفيًا بحتًا ظهر لأول مرة في القباب الأربعة بجامع القرويين بفاس القديمة وفي قبة مصلى الجنائز الملحق به (٥٢٩ هـ / ١١٣٥م)، وفي

---

(١) كمال الدين سامح: المرجع السابق، ص ٨٣؛ فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص ٢٠٠.

(٢) فريد شافعي: نفس المرجع والمجلد والصفحة؛ عثمان إسماعيل: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٣) صالح لمعي مصطفى: التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ١٩٨٤م، ص ٣٩.

(٤) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢٨٨.

(٥) في حين يرى د. أحمد فكري أن هذه القبة تقوم على مقرنصات معقودة، وأيده في ذلك بعض الباحثين. انظر، أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، ص ٩٠؛ وللمؤلف نفسه: مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الأول، ص ١٦٣؛ عبد العزيز سالم: المسجد الجامع بالقيروان، ص ص ١٧٤ – ١٧٥. نجد أن هناك من يرى أن هذه القبة مقامة على حنايا ركنية وليست مقرنصات. انظر،

Creswell, K., A., C.,: Early Muslim Architecture, Volume II, Early Abbasids, Wmayyads of Cordova, Aghlabids, Tulunids and Samanids, A. D. 751 - 905, Hacker Art Books, New York, 1979, p. 315.

(٦) أحمد فكري: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٦٣.

قبة المسجد الجامع بتلمسان (٥٣٠ هـ / ١١٣٥م) [١]، وفي عصر الموحدين خطت المقرنصات خطوات واسعة فكسيت بها بواطن قباب مساجدهم، كما كانت تغطي واجهات محاريب هذه المساجد ودخلاتها، كما كانت المقرنصات تتدلى من بعض عقودها[٢].

وفي العصر المريني استمر استخدام المقرنصات للغرض الزخرفي في أشكال متطورة، فنجدها في بواطن القباب والعقود، كما نراها تتدلى من بواطن الأسقف الخشبية وفي تيجان الأعمدة[٣]. وفي عهد الأشراف السعديين استمر استخدام المقرنصات للغرض الزخرفي أيضًا، فنراها في بواطن القباب بكثافة يصعب معها تمييز مناطق انتقال هذه القباب (اللوحات ١٦، ٢١، ٢٤، ٥٤، ٦٥، ١٠٥) (الشكلان ٢٤، ٢٩)، وبواطن العقود (اللوحات ٢٣، ٤٠، ٥٣، ٥٧)، كما نجدها تزين واجهات هذه العمائر (اللوحتان ٧٤، ١٠٦)، ويلاحظ على المقرنصات المستخدمة في هذه العمائر السعدية أنها نفذت على الخشب والجص.

وتجدر الإشارة إلى أن المقرنصات المنفذة على الخشب من العمليات التي تحتاج إلى مهارة ودقة فائقة؛ لأنها تتطلب استخدام أجزاء أو قطع خشبية سابقة التصنيع، يبلغ عددها ثمانية أجزاء يتراوح عرضها بين ٠.٠٥ م و ٠.١٠م، وهي وفقًا لمسمياتها المغربية: (١) الشربية (٢) التستية المفتوحة (٣) الكتف (٤) الشعيرة أو السروالية الصغيرة (٥) الدنبوك وهو الجزء الرئيس في المقرنص (٦) اللوزة وتستخدم فقط في القبة أو في الشاشية (٧) السروالية أو البوجة (٨) التستية المسدودة. كما يتطلب أن يكون السطح المراد زخرفته بالمقرنصات الخشبية مقسمًا بشبكة ذات زوايا ٩٠°، ٤٥°، ويبدأ الصانع بتجميع هذه القطع حول الشاشية — التي تمثل قطب القبة- وهكذا حتى يصل إلى قاعدة القبة[٤].

أما المقرنصات المنفذة على الجص، فتنتج عن صب القطع في قوالب خشبية عبارة عن معكوس القطع العادية التي نشاهدها، ويبدأ الجصاص عمله بقاعدة القبة، فيضع القوالب في عدة صفوف، ثمَّ يصب الجص، وبعد جفاف الجص يعيد استخدام القوالب في صب الصفوف العليا وهكذا بالتتابع حتى يبلغ الشاشية. وبعد هذه المرحلة يبدأ نحت هذه المقرنصات ثمَّ نقشها في كثير من الأحيان بألوان متعددة[٥].

---

(١) توريس بالباس: المرجع السابق، ص ص ٤٥، ٥١، ٥٢، ٧٥؛ السيد عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، ص ١٨٥.

(٢) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٥.

(٣) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

(٤) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٢٩٠، ٣٠٤.

(٥) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ص ٣٠٤ — ٣٠٥.

ب- الشرافات:

تعد الشرافات من الوحدات المعمارية الزخرفية التي استعملت لتتويج الواجهات قبل الإسلام في العمارة الآشورية والإيرانية والرومانية[(١)]. وتعتبر الشرافات المدرجة من أنواع الشرافات التي استخدمت في العمارة الإسلامية، وقد انتقلت إليها من الفن الساساني حيث انتشر استعمالها في الأطراف العليا لعمائرهم وكزخارف في تيجان أكاسرة الساسانيين، وكانت جوانب بعض هذه الدرجات رأسية وبعضها مائلة[(٢)].

وتجدر الإشارة إلى أن الشرافات المدرجة قد ظهرت نماذج مبكرة لها ببلاد فارس وبلاد ما بين النهرين سابقة على العصر الساساني (٢٢٦ – ٦٤١م)، حيث نجد أمثلة لها على المنحوتات الكيشية المكتشفة في سوسة والتي يرجع تاريخها إلى ١٢٠٠ ق.م، ثمَّ استمر تطورها واستخدامها في بلاد ما بين النهرين فظهرت بأعلى المسلات كالمسلة البيضاء المكتشفة في نينوى وترجع إلى ١١٠٠ ق.م – أواسط العصر الأشوري- ، وظهرت أيضًا في بعض منحوتات واجهة قصر ناصر بال الثاني في نمرود في الفترة الآشورية الحديثة التي ترجع إلى ٩٠٠ ق.م، كما وجدت في واجهة قصر نبوخذ نصر الثاني في بابل، وفي بوابة عشتار التي ترجع إلى ٦٠٠ – ٧٠٠ ق.م، وظهرت أيضًا في واجهات مقابر مدائن صالح[(٣)].

وترجع أقدم أمثلة هذه الشرافات في العصر الإسلامي إلى العصر الأموي، إذ نجدها تتوج جدران القصور الأموية بالشام، كقصر الخليفة الوليد الأول في المنيا على بحيرة طبرية، وقصر الخليفة هشام بخربة المفجر، كما ظهرت في العراق، حيث نجدها تتوج جدران قصر الأخيضر[(٤)]، كذلك في قصر الحير الشرقي(١٠٩ هـ / ٧٢٧م)، كما نجدها تتوج جزءًا من الجدار الجنوبي للفناء الكبير في قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني بسامراء (٢٢١ هـ / ٨٣٦م) [(٥)].

أما في الغرب الإسلامي فيلاحظ أن هذه الشرافات تكاد تختفي من عمائر تلك البلاد، حيث انها تعرقل – كما سبقت الإشارة- تصريف المياه من الأسطح الجمالونية المتخذة من الخشب[(٦)]، ومع ذلك فقد توجت هذه الشرافات بعض واجهات، ومآذن عمائر الغرب الإسلامي،

---

(١) صالح لمعي: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) فريد شافعي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨١.

(٣) علي بن صالح عطا الله العنبر: الزخارف في المباني الطينية بمنطقة نجد، رسالة ماجستير – غير منشورة- كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، ١٩٩٣م، ص ٢٧٤.

(٤) عبد الناصر محمد حسن: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ص ٧٧٠ – ٧٧١.

(٥) فريد شافعي: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٢١٤.

(٦) جوميث مورينو: المرجع السابق، ص ٣٣٨.

فنراها في المسجد الجامع بالقيروان، وفي مسجد قرطبة، وفي المسجد الجامع بتلمسان[١]. وفي قبة الباروديين بمراكش (٥١٤ هـ / ١١٢٠م)[٢]، وفي العصر الموحدي نراها تتوج الواجهات الخارجية لمسجد تينملل وفي مئذنة مسجد تازة وفي واجهات مسجد قصبة مراكش[٣].

وفي العصر المريني نجدها تتوج واجهات العديد من مآذن المساجد (الأشكال ٥٦، ٥٧، ٥٨) ومئذنة كل من مدرسة الصفارين والمدرسة البوعنانية بفاس القديمة، كذلك نراها تتوج الأحجبة الخشبية التي تفصل الأروقة التي تتقدم مساكن الطلاب عن صحون المدارس المرينية، كما نجدها منقوشة على الزليج الذي يكسو الجزء السفلي لجدران منشآتهم المختلفة وبخاصة المدارس[٤]، وهي شرافات مقلوبة ومعتدلة باللونين الأبيض والأسود بالتبادل، وتعرف هذه الزخرفة وفقاً للاصطلاح المغربي- كما سبقت الإشارة — بـ "القائم والنائم" أو " القايم والنايم" [٥]. كما أطلق على نوع من هذه الشرافات المدرجة اسم "شرافات مكة" (شكل ٩١/ أ) [٦]، فلعل اصل هذه التسمية يرجع إلى أن المغاربة شاهدوا هذا الشكل من الشرافات أثناء تأديتهم لفريضة الحج، فنقلوه إلى بلادهم؛ لما عرف عنهم من تعلقهم الشديد بالأراضي المقدسة.

وفي العمائر السعدية موضوع الدراسة نجد الشرافات تتوج واجهات مآذن المساجد الجامعة بكل من تارودانت ومراكش (اللوحات ١٣، ٢٧، ٤٨، ٦٠، ٦١، ١٠٠) (الأشكال٢، ٤/أ، ١٠/ أ، ١٥)، ونراها تتوج واجهات مدرسة جامع باب دكّالة بمراكش (لوحة ١٤)، كما نجدها تتوج الحجاب الخشبي الذي يمثل المحراب الصيفي أو العنزة بكل من جامعي الموّاسين وأبي العباس السبتي وجامع الزاوية الجزولية بمراكش (اللوحات ٣٣، ٥١، ٩٦)، ونراها تتوج باب المقدم وجوانب جلسة الخطيب بكل من منبر جامع الموّاسين وجامع أبي العباس السبتي بمراكش (اللوحات ٤٢، ٤٣، ٥٨)، كذلك نجد هذه الشرافات منقوشة على الزليج الذي يكسو الجزء السفلي لجدران بعض المنشآت السعدية، وتحصر بعض هذه الشرافات بداخلها زخارف نباتية بسيطة (اللوحات ٦٣، ٧٩، ٨٠) (الشكلان ٩٠، ٩١/ ب).

ج- المحاريب الزخرفية:

انتشرت الزخارف المعمارية التي على هيئة محراب متوج بعقد مفصص أو على هيئة حدوة فرس في تزيين واجهات العمائر السعدية موضوع الدراسة، ويرتكز العقد على عمودين

---

(١) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ص ٤٤٩ — ٤٥٠.

(2) Robert, H., : Op. Cit., p. 57, fig. 2 - 129.

(٣) محمد الكحلاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٨.

(٤) محمد أبو رحاب: المرجع السابق، ص ٣٥٣.

(٥) أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨٤.

(٦) أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ١٩٧.

زخرفيين بتيجان وقواعد ناقوسية أحيانًا تشبه مثيلاتها الإنشائية المستخدمة في هذه العمائر، كما نقشت أشكال المحاريب على شواهد القبور السعدية تحصر بداخلها كتابات هذه الشواهد (شكل ٥٥).

د- العقود الزخرفية:

ظهرت الزخارف المعمارية التي على هيئة عقود مفصصة أو على هيئة حدوة فرس أو نصف مستديرة في تزيين واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، حيث تتوج الحنايا الرأسية المستطيلة التي تزين هذه الواجهات (اللوحات ٣٣، ٤١، ٧٤، ٨٤، ٨٧، ١١٣)، كما يحيط – غالبًا- بعقود البوائك أو العقود المتوجة لفتحات المداخل عقود أخرى زخرفية (اللوحات ١٧، ١٨، ١٩، ٣١، ٣٢، ٣٣)، وأحيانًا تحف بالجزء العلوي لبعض العبارات الدعائية المنفذة بالخط الكوفي – كما سبقت الإشارة- عقود مفصصة أو مدببة (لوحة ٧١).

الخاتمة

اتضح من دراسة العمارة الدينية والجنائزية السعدية العديد من النتائج المرتبطة بتاريخها وطرزها المعمارية وعناصرها الزخرفية.

فقد أوضحت الدراسة التاريخية سوء الأوضاع التي كان عليها المغرب الأقصى قبل قيام الدولة السعدية في مطلع القرن (١٠ هـ / ١٦م)، من وحدات سياسية متعددة، نتجت عن ضعف السلطة المركزية بفاس التي كانت متمثلةً حينذاك في الوطاسيين، وتدهور اقتصادي نجم عن الفتن والاضطرابات التي كانت عليها البلاد في الداخل والخارج، وفوضى اجتماعية زادها تأخر أنماط الحياة المختلفة، وسيادة المجتمع القبلي، ثمَّ جمود فكري وجهل غالب على العامة، وظهور دعاة زوايا وطرق صوفية، غلب على بعضها الشذوذ والشعوذة، وزاد هذه الأوضاع سوءًا الأخطار الخارجية التي كانت تهدد البلاد من جراء الاحتلال الإسباني والبرتغالي لمعظم السواحل المغربية.

وبينت الدراسة التاريخية أيضًا أن المغرب الأقصى كله كان مهددًا بالسقوط في قبضة القوى المسيحية، نتيجةً لغيبة القوى الوطنية التي عليها تعبئة الطاقات، والوقوف جبهة قوية متماسكة لمجابهة هذه الأخطار.

وأكدت الدراسة التاريخية والحضارية للعصر السعدي، أن دولة الأشراف السعديين لم تستمد مقومات قيامها لمجرد رغبة جماهير الشعب المغربي في "التبرك" بهم، سيما وأن المغرب كان يشتمل حينذاك على عدة فروع من الأشراف، وإنما كانت هناك عوامل أخرى تتعلق بسلوك هذه الأسرة التي لم تحاول مطلقًا الاتصال بالدولة المرينية عندما كانت تحاول استقطاب الأشراف، وبالتالي فلم تتمتع بجرايات وامتيازات كغيرها من فروع الأشراف، الأمر الذي قوى مكانة الأشراف السعديين عند عامة الشعب وبخاصة المتصوفة، وأضعف في الوقت نفسه مكانة غيرهم من فروع الأشراف، إلى جانب قيام الأشراف السعديين بالجهاد ومقاومة المحتل الأجنبي ببلاد درعة في جنوب المغرب.

بينت الدراسة التاريخية أن التيار الصوفي نجح في تغيير الدعامة التي كان يقوم عليها الحكم سابقًا بالمغرب، وهي "العصبية القبلية" وأقاموا مكانها دعامة جديدة قائمة على فكرة "الشرف"، إذ بفضلهم وصل الأشراف السعديون إلى الحكم.

وأكدت الدراسة التاريخية والحضارية أن محمد بن عبد الرحمن مؤسس الدولة السعدية، لم يتلقب بألقاب الخلافة بصفته مؤسسًا للدولة التي تنتمي إلى الأشراف، وتبعه في ذلك أكبر أبنائه أحمد الأعرج، الذي اكتفى بلقب "الأمير"، بينما تلقب ابنه الأصغر محمد الشيخ بلقب "ملك سوس" عندما كان حاكمًا بهذا الإقليم نيابةً عن أبيه وأخيه، غير أنه بمجرد خلعه لأخيه أحمد الأعرج وتولي حكم المغرب اتخذ على الفور لقب الخلافة، وتلقب بـ

"أمير المؤمنين" وتبعه في ذلك خلفاؤه من بعده.

أوضحت الدراسة التاريخية أن حكم الأشراف السعديين للمغرب الأقصى استغرق مدةً تزيد على قرن ونصف من الزمان (٩١٥ – ١٠٦٩ هـ / ١٥١٠ – ١٦٥٨م)، استطاعوا خلالها تحرير الثغور المغربية المختلفة من أيدي الإسبان والبرتغال والقضاء على أعوانهم الخونة من القبائل المغربية، والقضاء على حكم الوطاسيين والوحدات الانفصالية السياسية في البلاد، والانتصار على البرتغال في معركة وادي المخازن الشهيرة (٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م)، والتصدي للأتراك العثمانيين الذين حاولوا مرارًا السيطرة على المغرب، كما سيطروا من قبل على سائر بلاد الشمال الإفريقي وغيرها من البلاد العربية، فصار المغرب الأقصى البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للحكم العثماني في القرن (١٠ هـ / ١٦م)، كما تمكنوا من فتح بلاد السودان الغربي (٩٩٩ هـ / ١٥٩١م)، فامتدت رقعة نفوذهم وشملت مجموع الأراضي الواقعة شمال نهر النيجر، ومملكة برنو الواقعة شرقي السودان، وبالتالي فقد نجحوا في تأسيس إمبراطورية عظمى لا تقل أهميةً وغنًى عن الإمبراطوريتين المعاصرتين: العثمانية والإسبانية.

بينت الدراسة التاريخية أن قوة الدولة السعدية امتدت حتى عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ – ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ – ١٦٠٣م)، والذي بموته انتهت عظمة السعديين، وصار تاريخ دولتهم حتى زوالها سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨) زاخرًا بالفوضى والثورات والانهيار على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرانية.

وفي إطار الدراسة التاريخية والحضارية للعصر السعدي، تبين أن بلاد المغرب شهدت نهضةً عمرانيةً في هذا العصر، بعد حالة الجمود المعماري التي بدأت مع نهاية الدولة المرينية واستمرت لمدة قرنين من الزمان، أي إلى ظهور الدولة السعدية، وذلك للأوضاع السياسية والاقتصادية المتدهورة التي عرفتها البلاد آنذاك. وما إن دانت البلاد للأشراف السعديين حتى شرعوا في تجديد وتشييد العديد من المدن والمنشآت المختلفة، رغم ما اتسم به العصر السعدي من جهاد ضد المحتل الأجنبي الإسباني والبرتغالي، وصراع ومعارك حربية مع الوطاسيين والدولة العثمانية، والثوار والأمراء المستقلين.

وأوضحت الدراسة أن حركة السعديين المعمارية اتسمت بطابع الشمولية، فمن العمائر الدينية شيدوا مجموعةً رائعةً من المساجد الجامعة والمدارس والزوايا ومكاتب تعليم الصبيان وخزانات الكتب، ومن العمائر الجنائزية شيدوا عددًا من الأضرحة، ومن المنشآت المدنية أقاموا المدن والقصور والدور والبيمارستانات والحمامات والفنادق والأسواق والقناطر والسدود والسقايات ومصانع السكر وغيرها، كما اهتموا بالمنشآت الحربية فشيدوا القصاب والحصون والأبراج والأسوار إلى جانب مصانع الأسلحة.

وبينت الدراسة أن عامة الشعب وبخاصة بعض كبار الصوفية شاركوا في إقامة المنشآت

ذات النفع العام، وفي الدور الأخير من تاريخ الدولة السعدية قام الثوار والزعماء المستقلون عن السلطة المركزية بمراكش، بتشييد مدن ومنشآت مختلفة.

وأكدت الدراسة أن مخططات المنشآت المعمارية المختلفة في العصر السعدي كانت تخضع لتصميم هندسي يرسم سلفاً، مدروس من قبل لجنة مختارة من المعماريين الأكفاء أو "عرفاء البناء" كما يطلق عليهم بالمغرب، وبمقاييس متفق عليها مسبقاً، وكانت وحدات القياس تشمل الذراع والشبر والإصبع.

كشفت الدراسة أنه كان لبعض السلاطين السعديين، كأحمد المنصور الذهبي، دراية بالهندسة المعمارية سمحت لهم بتبادل الآراء مع كبار المعماريين حول تصاميم المنشآت وطرق العمل والتنفيذ.

أثبتت الدراسة أنه كان يقوم بتنفيذ تعليمات السلطان بشأن إنشاء مبانٍ جديدةٍ أو ترميم أخرى قديمة، موظف بكل مدينة – فيما يبدو- يعرف باسم "صاحب الأشغال"، وكانت هذه الوظيفة معروفة في العصر الموحدي ويحمل صاحبها الاسم نفسه، وفي العصر المريني كان صاحبها يدعى بـ "المشرف".

أكدت الدراسة أن العمائر الدينية هي أكثر العمائر القائمة بالمغرب ليس من العصر السعدي فحسب، بل من جميع العصور السابقة عليه، نظراً لما تحظى به هذه النوعية من المنشآت من حرمة تمنع الاعتداء عليها، ولحث الشرع الحنيف على ضرورة تعهدها وإصلاحها كلما احتاجت إلى ذلك، وبخاصة المساجد التي اتفقت آراء الفقهاء على أنها لا تهدم ولا تنقل إلى مكان آخر إلا عند أقصى الضرورة.

أوضحت الدراسة أن جميع المنشآت المغلة بالمدن المغربية، من حوانيت وفنادق ودور وحمامات وأفران وغيرها تكاد تكون جميعها موقوفةً على المساجد والزوايا والمدارس لتؤمن صيانتها والحفاظ عليها، ودفع مرتبات العاملين بها.

أثبتت الدراسة أن المساجد الجامعة السعدية الباقية بالمغرب الأقصى بلغ عددها أربعة مساجد، شيدت في الفترة المحصورة ما بين سنتي (٩٢٣ – ١٠١٢ هـ / ١٥١٧ – ١٦٠٣م)، واحداً منها بمدينة تارودانت، وثلاثة مساجد بمدينة مراكش.

وبينت الدراسة أن المساجد الجامعة السعدية تعد أكبر مساجد المغرب الأقصى مساحةً بعد مساجد الموحدين، التي تميزت بضخامتها وكبر مساحتها شأن سائر المنشآت الموحدية.

وكشفت الدراسة أن المسجد الجامع في العصر السعدي تميز بأنه مبنى ضمن مجموعة معمارية تضم: مصلى جنائزي ومدرسة وميضأة وحمام وسقاية وأحواض للدواب ومكتب لتعليم الصبيان، وخزانة للكتب وبيت للاعتكاف ومساكن للقومة، وكانت هذه الوحدات المعمارية تتوزع بحرية حول الساحة المجاورة للمسجد.

أوضحت الدراسة أن ظاهرة المجمعات المعمارية لم تكن وليدة الفترة السعدية، وإنما عرفها المغرب – على أقل تقدير- منذ العصر المريني. كما بينت الدراسة أن الوحدات المعمارية المكونة للمجمع الديني السعدي، كانت تعود كلها بالنفع على المرتفقين بهذا المجمع والمترددين عليه وعلى سكان الأحياء التي تقوم بينها هذه المجمعات، ولم يكن من بين هذه الوحدات ما يعود بالنفع على صاحب المنشأة، كما هو الحال بالمجمعات الدينية المملوكية التي تضم في بعض الأحيان قاعات خاصة أو قصرًا لسكن صاحب المنشأة، وما يتصل بهذا السكن الخاص من مطابخ ومراحيض وإسطبلات كان يستغلها صاحب المنشأة وأقاربه عندما كانوا ينزلون بالمنشأة، بالإضافة إلى العديد من المدافن الجنائزية.

أكدت الدراسة أن المغرب الأقصى عرف بناء المدارس منذ عصر الموحدين، منذ عهد أول خلفائهم عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ – ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ – ١١٦٣م) على وجه التحديد، ولم تظهر في المغرب الأدنى إلا في أواسط القرن(٧ هـ / ١٣م)، بينما ظهرت في المغرب الأوسط في بداية القرن (٨ هـ / ١٤م)، أما في الأندلس فقد ظهرت المدارس لأول مرة عندما شيد السلطان يوسف أبو الحجاج المدرسة النصرية بغرناطة سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م).

بينت الدراسة أنه بانتهاء العصر المريني لم يشهد المغرب الأقصى نشاطًا ملموسًا في بناء المدارس التي كانت في عديد من المدن الكبرى، وبخاصة مدينة فاس قد بلغت حد الكفاية منذ عهد المرينيين، إذ لم يهتم الوطاسيون بإنشاء مثل هذه النوعية من المنشآت التعليمية.

وكشفت الدراسة أن العهد الوطاسي شهد تنافس العلماء والفقهاء والميسورين في بناء المدارس، وبخاصة في إقليم السوس بجنوب المغرب، وهي تجربة جماهيرية في نطاق الحقل الثقافي والتعليمي لم يسبق لها نظير، إذ كان إنشاء المدارس في العصر المريني والتمويل المنتظم لها منذ البداية من قبل السلاطين أنفسهم، وظل مختصًا بهم حتى آخر مدرسة شيدت في عصرهم.

أثبتت الدراسة أن سلاطين السعديين لم يكثروا من بناء المدارس في عهدهم، ويرجع ذلك – فيما يبدو- إلى سببين، أولهما وفرة المدارس المرينية، وبخاصة في المدن الكبرى، التي واصلت أداء مهمتها في هذا العهد، وثانيهما إقبال كثير من العلماء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب على بناء كثير من المنشآت التعليمية والدينية من مدارس وزوايا في عدة جهات لم يسبق أن عنيت السلطة المركزية بها مطلقًا، من حيث تزويدها بهذه المنشآت.

بينت الدراسة أن المدارس التي شيدت في العصر السعدي تنقسم إلى نوعين، أولهما المدارس الكبرى، وهي على غرار مثيلاتها المرينية من حيث اشتمالها على مساكن للطلاب، وقاعة للصلاة والدرس، وقد شيدت من هذا النوع – في ظل ما أشارت إليه المصادر التاريخية وما وصلنا من آثار قائمة- مدرسة واحدة ،هي المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف

بمراكش. أما النوع الثاني فهو عبارة عن مدارس صغيرة بنيت كملحق للمساجد الجامعة التي شيدها السعديون، وتشتمل على مساكن للطلاب فقط، ومن هذا النوع مدرسة الجامع الكبير بتارودانت، وكل من مدرسة جامع باب دكّالة، ومدرسة جامع الأشراف أو الموّاسين، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش.

أوضحت الدراسة أن المدارس التي شيدت على يد الفقهاء والمتصوفة والميسورين من عامة الشعب، المنتشرة في البوادي والمراكز الصغرى، تتميز ببساطة تكوينها المعماري، وعدم خضوعها للتأثير الأندلسي وإنما خضعت للتأثير المحلي، حيث بنيت وسقفت بالطريقة نفسها التي قامت عليها مساكن القرية المتواجدة بها.

وكشفت الدراسة أنه ارتبط بذكر الأولياء والمتصوفة في المصادر التاريخية، وبخاصة في كتب المناقب، عدة منشآت تمثلت في الرباط والرابطة والزاوية، على أن الزاوية لم تظهر في تاريخ التصوف كمركز ديني وتعليمي إلا بعد الرباط والرابطة.

بينت الدارسة أن المغرب الأقصى عرف الربط مع الفتح الإسلامي التي لم يكن دورها قاصرًا فقط على الدفاع عن حدود البلاد وملازمة الجهاد، وإنما كانت مأوى للمتعبدين والزهاد، ومركز إشعاع ديني يتعلم فيها المقيمون بها أصول دينهم وأحكام الإسلام.

أكدت الدراسة أن الرابطة تأتي بمعنى الرباط، سواء في الإطلاق على مكان الجهاد، أو مكان العبادة، وإن كان بعض الباحثين يرى أن مصطلح "رباط" قد سبق مصطلح "رابطة" في الظهور بالمغرب الأقصى، وبينت الدراسة أنه لم يبق آية نماذج كاملة من ربط المغرب الأقصى، كما هو الحال برباط المنستير ورباط سوسة بالمغرب الأدنى.

أثبتت الدراسة أن الزوايا تعتبر تطورًا للربط من حيث آن كليهما مأوى لإقامة الزهاد والمتعبدين وإطعام الفقراء، ولكن بتوزيع جغرافي مغاير لما كان عليه نظام الربط التي كانت تقع أغلبها على الحدود والمراكز الساحلية، بينما انتشرت الزوايا داخل المدن المغربية.

وكشفت الدراسة آن الزوايا تختلف عن الربط، في كون الزوايا أصبحت تحتضن خلايا اجتماعية دينية لها نفس الأهداف، ولكن لكل منها طقوسه وطريقته في الذكر، فضلاً عن تنوع أصولها، بينما كانت الربط تضم المؤمنين من غير انتماء لطريقة معينة.

أثبتت الدراسة أنه خلافًا لما ذكره بعض الباحثين من آن المغرب عرف الزوايا بعد القرن (٥ هـ / ١١م)، أو ما ذكره بعضهم الآخر من أنها لم تظهر بالمغرب قبل عهد أبي يوسف يعقوب المريني (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ – ١٢٨٦م)، فإن أقدم المنشآت التي أطلق عليها مصطلح "زاوية" بالمغرب الأقصى تلك التي ظهرت على عهد الشيخ أبي محمد صالح الماجري المُتَوَفّى سنة (٦٣١ هـ / ٣٣ – ١٢٣٤م).

بينت الدراسة أن الزاوية قبل أن تكون منشأة خاصة بالتصوف مرت بعدة وظائف، تغير

خلالها توزيعها الجغرافي تبعًا لكل وظيفة، كما صاحبها أيضًا تغير الفئات التي شيدت هذه الزوايا، فبدأت بإيواء الحجاج المسافرين عبر الطريق البري المؤدي للشرق الإسلامي، لذ فقد انتشرت الزوايا التي شيدها الشيخ أبو محمد صالح وأتباع طريقته في مطلع القرن (٧ هـ / ١٣م) على طول هذا الطريق، وفي بداية عصر الدولة المرينية شيد سلاطينها الزوايا خارج أسوار المدن وبالقرب من أبوابها وعلى الطرق التي تربط بين المدن، لاستقبال وإيواء عابري السبيل والمسافرين الواردين عليها الذين يباغتهم الليل، أي أنها كانت بمثابة استراحات يقضي فيها المسافرون ليلتهم قبل متابعة طريقهم، ثمَّ تحولت بعد ذلك لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لطريقة معينة وصارت لا تبنى إلا لهذا الغرض، وفي نهاية القرن (٩ هـ / ١٥م) بدأت الزوايا تمارس أنشطة دينية وتعليمية ثمَّ سياسية وجهادية.

أوضحت الدراسة أن السعديين قد نجحوا أثناء ازدهار دولتهم في صرف عدد غير قليل من شيوخ المتصوفة عن الخوض في السياسة التي طالما شغلتهم من قبل، فتحولت زواياهم إلى مراكز تعليمية نشطة، ولكن ما إن ضعفت الدولة السعدية عقب وفاة أحمد المنصور، حتى تبنت بعض الزوايا القيام بحركات سياسية مناوئة للدولة، وكونت كيانات مستقلة عنها.

أثبتت الدراسة أن تشييد الزوايا لم يعد بعد نهاية الحكم المريني قاصرًا على الدولة، حيث شهد العهد الوطاسي مشاركة شيوخ التصوف في بنائها، بل أصبحت – فيما يبدو- قاصرةً عليهم، واستمرت هذه الظاهرة في عصر السعديين، على أن بناء الزوايا من طرف شيوخ التصوف كان يتم – وفقًا لبعض الإشارات التاريخية- بموافقة السلطة الحاكمة سيما في فترة ازدهارها.

كشفت الدراسة أن الضريح الذي شيده السلطان أحمد الأعرج بمراكش على قبر والده والشيخ الجزولي، صار نواةً أو عنصرًا رئيسيًا التفت حوله مجموعة من الوحدات كونت مجموعة دينية كاملة، وهي تعد الزاوية الوحيدة من العصر السعدي التي لا تزال بحالة جيدة.

أوضحت الدراسة أن الزوايا تختلف فيما بينها من حيث الشكل المعماري، فبعضها بسيط بدأت في بيت أو مسجد صغير للصلاة والذكر واجتماع المريدين، أو في المكان الذي يسكنه أحد الصلحاء أو موقع خلوته، وبعضها نشأ حول ضريح أحد الصلحاء، ويجتمع فيه أتباع طريقته للزيارة والإقامة، مع الأخذ في الاعتبار أن زوايا المغرب الأقصى لم تكن تشتمل حتى العصر المريني على أضرحة، كما لم تنشأ الزاوية في الأصل حول الضريح الذي أصبح بعد ذلك من الوحدات الرئيسية للزاوية، كما قد تتوفر الزاوية على مقبرتها الخاصة، وعادةً يدفن فيها شيخ الطريقة والمريدون وغيرهم، وتشتمل الزاوية فضلاً عن ذلك على مساكن وحمام وسقاية وأحيانًا فرن أو أكثر، ومكتب لتعليم الصبيان، غير أن بعض الزوايا لا يقتصر

مدلولها على كل ما سبق ذكره من الوحدات، وإنما يشمل كافة القرية أو المدينة القائمة حولها بدورها وأسواقها ومساجدها وسائر مرافق الحياة الضرورية لها.

وأكدت الدراسة أن التكوين المعماري الغالب على عمارة الضريح بالمغرب هو أن يرتفع فوق أضلاعه الأربعة قبة، كقبة الباروديين المرابطية بمراكش، والقباب المرينية بكل من شالة وفاس، فضلاً عن قبور الصالحين والأولياء التي جرت العادة ببلاد المغرب أن تبنى عليها القباب، كنوع من التمييز عن قبور غيرهم من العامة، حتى أن مصطلح القبة انسحب على تسمية القبر الذي يضم جثمان أحد الأولياء أو الصالحين، كما هو الحال في مقبرة باب الفتوح بفاس، حيث أطلق على قبور هذه الفئة اسم "القباب".

بينت الدراسة أن العادة جرت ببلاد المغرب أن تبنى المقابر على أطراف المدن خارج الأبواب والأسوار، حتى إن أسماء بعض الأبواب غلب على تسمية المقابر القريبة منها، كمقبرة باب الفتوح ومقبرة باب الجيسة بفاس، ومقبرة باب تَاغْزُوت بمراكش.

كشفت الدراسة أنه كان وراء تحديد مكان الدفن بالمقبرة في المغرب الأقصى اعتبارات معينة، بحيث إن المقبرة كانت تعكس الفئات أو الطبقات الاجتماعية في المدينة أو القرية، حيث كانت بعض المقابر كمقبرة باب الفتوح بفاس تفرق بين الصالحين والأولياء وأبناء الأسر التجارية والزراعية الذين كانت لهم بقع عائلية خاصة، بينما كان يدفن عامة الناس والغرباء على اتساع أرجاء المقبرة، أما في البوادي النائية فكانت العصبيات تتحكم في توزيع مساحة المقبرة.

وفي إطار الدراسة التاريخية والحضارية للعصر السعدي، تبين أن المغرب الأقصى شهد خلال هذا العصر نشاطاً معمارياً، وازدهاراً عمرانياً ملموساً، حيث ازدانت البلاد بشتى أنواع المنشآت ما بين دينية ومدنية وحربية، وأن هذا النشاط امتد من عهد محمد المهدي الشيخ حتى وفاة أحمد المنصور الذهبي ثمَّ بدأ ينكمش بعد ذلك في فترة ضعف الدولة وانحلالها، مما يعكس أثر العوامل السياسية والاقتصادية على النمو العمراني وعناصره المعمارية.

وقد أوضحت الدراسة التاريخية والمعمارية للمساجد الجامعة السعدية كثيراً من الحقائق الجديدة التي تتصل بتاريخ إنشائها، حيث أثبتت الدراسة أن الجامع الكبير بتارودانت جامع يرجع إلى العصر السعدي، ومن إنشاء محمد المهدي الشيخ فيما بين (٩٢٣ – ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ – ١٥٤٤م)، وذلك أثناء إقامته بهذه المدينة كنائب عن أبيه وأخيه بإقليم السوس، ومن هنا فهو يعد أول المساجد المشيدة في العصر السعدي، في حين لم تشر الدراسات التي تناولت الحديث عن المنشآت السعدية إلى هذا الجامع مطلقاً.

وأثبتت الدراسة أن جامع الحرة أو باب دكّالة بمراكش شيدته لالة مسعودة زوجة محمد المهدي وأم ابنه أحمد المنصور فيما بين عامي (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٧٧ – ١٥٨٦م)، وهو أمر

تباينت فيه آراء المؤرخين، حيث ذكر بعضهم أنه شيد سنة (٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م)، بينما ذكر آخرون أنه شيد سنة (٩٩٥ هـ / ١٥٨٦م).

أكدت الدراسة أن جامع الأشراف أو المؤاسين بمراكش، شيد على يد السلطان عبد الله الغالب بالله سنة (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢)، وهو التاريخ الذي اتفقت عليه آراء المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين على السواء.

أثبتت الدراسة أن جامع أبي العباس السبتي بمراكش من إنشاء السلطان عبد العزيز بن أحمد المنصور سنة (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م)، في حين نسب بعض الباحثين هذا الجامع إلى السلطان عبد الله الغالب، دون الإشارة إلى تخطيطه وعمارته.

أوضحت الدراسة أن المساجد الجامعة السعدية الباقية متشابهة من حيث التخطيط العام، ورغم ذلك يمكن تقسيمها من خلال نظام توزيع البلاطات داخل أروقتها إلى نمطين رئيسيين، الأول عقود بائكاته موازية لجدار القبلة، ويوجد منه نموذج واحد يتمثل في الجامع الكبير بتارودانت، أما النمط الثاني فعقود بائكاته عمودية على اتجاه جدار القبلة، ويمثله كل من جامع باب دكّالة والمواسين وأبي العباس السبتي بمراكش، مع ملاحظة أن رواق القبلة بمساجد هذا النمط الأخير يشتمل فضلاً عن البلاطات التي تمتد عقودها عمودية على اتجاه جدار القبلة، على بلاطات عقودها موازية لهذا الجدار، بلغ عددها بلاطتين في جامع باب دكّالة، وبلاطة واحدة بكل من جامعي المؤاسين وأبي العباس السبتي.

أثبتت الدراسة أن تخطيط المساجد الجامعة المغربية في العهد السعدي لم يخضع مطلقًا للطراز العثماني في تخطيط المساجد، الذي تأثرت به تخطيطات المساجد في البلاد الإسلامية التي خضعت للسيطرة العثمانية منذ القرن (١٠ هـ / ١٦م)، ومن بينها بلاد الشمال الإفريقي، ليبيا، والجزائر، وتونس، باستثناء المغرب الأقصى، الذي يعد البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للسيطرة العثمانية في القرن (١٠ هـ م ١٦م).

وفي إطار الدراسة التاريخية والمعمارية للمدارس السعدية الباقية، أثبتت الدراسة أن المدرسة الغالبية المعروفة حاليًا بمدرسة ابن يوسف بمراكش من إنشاء السلطان السعدي عبد الله الغالب سنة (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م)، وهو أمر تباينت فيه آراء المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين على السواء، حيث ذكر بعضهم أنها من إنشاء السلطان أبي الحسن المريني ثمّ جددت في العصر السعدي على يد عبد الله الغالب، في حين ذكر آخرون أنها شيدت على يد هذا السلطان المذكور، ويستبعد أن يكون قد شيدها على أنقاض مدرسة أبي الحسن المرينية.

كشفت الدراسة أن التخطيط المعماري للمدارس السعدية ينقسم إلى نمطين، الأول وتمثله المدرسة الغالبية، التي يتكون تخطيطها من صحن أوسط مكشوف بالجهة الشرقية منه قاعة مستطيلة للصلاة والدرس، وبكل من الجهتين الجنوبية والشمالية رواق مغطى،

ومساكن للطلاب موزعة في طابقين على الأضلاع الجنوبية والشمالية والغربية منفصلة تمامًا عن الصحن الأوسط للمدرسة، حيث وزعت كل مجموعة منها حول صحن صغير مكشوف محاط من جهاته الأربع برواق مغطى، يبلغ عدد هذه الصحون الصغيرة ستة صحون، ثلاثة بالضلع الجنوبي للمدرسة تقابلها ثلاثة أخرى بضلعها الشمالي. أما النمط الثاني فهو بسيط وتمثله كل المدارس الصغيرة الملحقة بالمساجد الجامعة السعدية، وهي مدرسة جامع باب دكّالة، ومدرسة جامع المواّسين، ومدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش، وتخطيطها عبارة عن صحن أوسط مكشوف في كل من مدرسة جامع المواّسين ومدرسة جامع أبي العباس السبتي، ويحيط بصحن كل منهما رواق مغطى يتقدم مساكن الطلاب التي وزعت على الجوانب الأربعة لهذا الصحن، في طابق واحد بمدرسة جامع المواّسين، وفي طابقين بمدرسة جامع أبي العباس السبتي، أما بالنسبة لمدرسة جامع باب دكّالة فيتوسطها صحن مغطى وزعت على جوانبه الثلاثة الشرقية والجنوبية والغربية مساكن الطلاب في طابق واحد.

أثبتت الدراسة أن الاختلاف في الشكل المعماري بين نمطي المدارس السعدية جاء تلبيةً لحاجة الوظيفة، حيث إن المدرسة الغالبية التي تمثل النمط الأول لم تكن مخصصة لسكنى الطلاب فحسب، وإنما خصصت أيضًا لعقد الدروس العلمية، لذا فقد زودت بقاعة للصلاة والدرس على عكس مدارس النمط الثاني التي كانت قاصرةً على سكنى الطلاب، الذين كانوا يتلقون دروسهم في المساجد الجامعة التي ألحقت بها هذه المدارس.

كشفت الدراسة أن الزاوية الجزولية بمراكش شيدت على فترات متتالية، بدأت بالضريح الذي شيده السلطان أحمد الأعرج على قبر كل من والده والشيخ محمد بن سليمان الجزولي سنة (٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م)، ثمَّ صار هذا الضريح النواة الرئيسية الذي التفت حوله الوحدات المعمارية الأخرى بعد ذلك.

وفي إطار الدراسة التاريخية والمعمارية للعمارة الجنائزية السعدية الباقية أثبتت الدراسة أن الموضع الذي تشغله قبور السعديين حاليًا بقصبة مراكش، كان يستخدم للدفن قبل العصر السعدي، ربما — في ظل الأدلة التاريخية والأثرية — منذ عصر الدولة المرينية، وأن هذه المقبرة لم تكن تحمل قبل العصر السعدي اسمًا معينًا، ثمَّ صارت تعرف بعد أن أصبحت المقبرة الملكية للأسرة السعدية باسم "قبور الأشراف السعديين"، كما عرفت أيضًا باسم "روضة السعديين".

وأوضحت الدراسة أن قبور السعديين لم تكن تشتمل حتى تاريخ (١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠م) إلا على قاعة لالة مسعودة، التي شيدها — وفقًا لرواية المقري — السلطان أحمد المنصور الذهبي، الذي شيد أيضًا الوحدات المعمارية الأخرى التي تضمها هذه المقبرة وذلك بعد عام (١٠٠٩ هـ/ ١٦٠٠م)، في حين أشار بعض الباحثين إلى أن قاعة لالة مسعودة شيدها السلطان عبد الله

الغالب على قبر أبيه محمد المهدي الشيخ بعد وفاته عام (٩٦٤ هـ / ١٥٥٦م).

وفي إطار الدراسة التحليلية للعناصر المعمارية للعمائر الدينية والجنائزية السعدية، أوضحت الدراسة تعدد الوحدات والعناصر المعمارية المكونة لتخطيطات هذه العمائر، والتي تؤهلها للقيام بوظائفها، مثل توفير أماكن للصلاة والدرس ومساكن لإقامة الطلاب والشيوخ والمرافق التي تخدم أرباب الوظائف المختلفة بهذه المنشآت، كالخطيب والإمام والمؤذنين والفراشين والوقادين وغيرهم، بالإضافة إلى المرافق الأخرى الخاصة بالطهارة والوضوء وتخزين المياه كالحمامات والميضآت والفساقي والسقايات، وهي عناصر وإن كانت قد استخدمت في العمائر المغربية السابقة على عهد السعديين فإنها تميزت في هذا العهد بتنوع الوظائف التي تؤديها.

بينت الدراسة أن المساجد الجامعة المغربية منذ أقدم أمثلتها القائمة والتي ترجع إلى العصر المرابطي وحتى عهد المرينيين، اتبعت طراز المسجد ذي الصحن المركزي المكشوف المحاط بالأروقة من ثلاثة أو أربعة جوانب، واستمر هذا التخطيط في عهد السعديين – والعلويين من بعدهم- ، وذلك لملاءمة هذه الأروقة للوظائف المختلفة التي كانت تؤديها هذه المساجد في العصور المختلفة، والتي تتمثل في الصلاة والتدريس.

أوضحت الدراسة أن الأروقة الأربعة التي تشتمل عليها المساجد الجامعة السعدية، تشغل مساحةً كبيرةً من المساحة الكلية التي يشغلها المسجد، حتى تتسع لأعداد المصلين الذين يأتون للصلاة بالمسجد، وأن رواق القبلة بهذه المساجد أكبر من بقية الأروقة الأخرى اتساعًا وعمقًا، وقد جاء ذلك موافقًا لوظيفة هذا الرواق الذي كان يستغل للصلوات الخمس، ولم تكن الأروقة الأخرى تستخدم لكثرة المنشآت الدينية التي كانت تشتمل عليها المدن المغربية في عهد السعديين، كما كانت الدروس العلمية تعقد عادة برواق القبلة.

وأوضحت الدراسة أن الأروقة الثلاثة الأخرى قد صغرت مساحتها بالنسبة لرواق القبلة، ولا تشتمل إلا على بلاطة واحدة أو بلاطتين كما في الرواقين الشمالي والجنوبي للجامع الكبير بتارودانت، ويعد ذلك استمرارًا للظاهرة التي عرفتها المساجد المرينية، حيث أصبح الصحن يشغل مساحةً كبيرةً من المساحة الكلية التي يشغلها المسجد على حساب مساحة الأروقة الجانبية.

بينت الدراسة أن محاريب المساجد الجامعة السعدية تميزت بعمقها الشديد، مما سمح بتغطيتها بقباب كاملة. ويتيح هذا العمق للإمام أن يقف داخل حنية المحراب وبالتالي يوفر صفًا خلفه للمصلين، كما أن القبة تعمل على تضخيم صوته ليسمعه جميع المصلين.

وكشفت الدراسة أن مادة الرخام لم تدخل في تكسية واجهات محاريب المساجد السعدية، وإنما استخدم الزليج المتعدد الألوان أو الحصير الملون في تغطيتها، وفقًا للتقاليد

المحلية المغربية، وذلك على عكس واجهات محاريب مساجد بلدان شمال إفريقيا الأخرى، التي كسي بعضها بالرخام منذ القرن (١٠ هـ / ١٦م) متأثرةً بالتقاليد العثمانية.

أثبتت الدراسة أن رواق القبلة بالمساجد السعدية والمساجد المغربية بصفة عامة، لا يشتمل على كرسي للمصحف، كما هو الحال برواق أو إيوان القبلة بالمساجد المملوكية والعثمانية بمصر، حيث رأى بعض فقهاء المالكية أنه لا ضرورة لوجود مثل هذه الكراسي بالمساجد، لأنها تشغل حيزًا من مساحة الصلاة، بالإضافة إلى أن قراءة القرآن بصوت مرتفع يشوش على المسلمين المجتمعين لصلاة الجمعة.

وأوضحت الدراسة أن رواق القبلة بالمساجد الجامعة السعدية والمساجد المغربية بصفة عامة، لا توجد به دكة للمبلغين، كما هو معروف بالمساجد المملوكية والعثمانية بمصر، إذ جرت العادة أن يوجد في الجامع الواحد أربعة مؤذنين يتواجدون في أماكن متباعدة من المسجد لتبليغ صوت الإمام للمصلين.

بينت الدراسة أن قاعة الدرس (بيت الصلاة) من أهم عناصر الانتفاع بالمدارس السعدية الكبرى التي جمعت بين وظيفتي التعليم والسكن، وتقع هذه القاعة بالدور الأرضي، ولم يشيد المعمار بأعلاها وحدات معمارية أخرى، وعلى الرغم من ذلك ارتفع بجدرانها ليساوي بينها وبين جدران مساكن الطلاب المكونة من طابقين، وقد كانت هذه القاعة مخصصةً لعقد الدروس وليصلي بها من بالمدرسة من الطلاب والشيوخ وأرباب الوظائف المختلفة بالمدرسة.

أكدت الدراسة أن المساجد الجامعة السعدية كغيرها من مساجد الغرب الإسلامي، لم تعرف ظاهرة تعدد المآذن – كما هو معروف في بعض مساجد الشرق الإسلامي- وأن المآذن السعدية تتبع في تخطيطها التخطيط المعماري المتعارف عليه في مآذن الغرب الإسلامي، التي تتألف من طابقين مربعي المسقط، الأعلى وهو الجوسق أصغر حجمًا وأقل ارتفاعًا من الأول، وينفصل عن التربيع العلوي للطابق الأول من أعلى من خلال ممشى.

أثبتت الدراسة أن المساجد الجامعة المغربية لم تعرف حتى العصر السعدي – والعلوي من بعده- غير المنابر الخشبية المتحركة، في حين ظهر ببلدان شمال إفريقيا الأخرى، ليبيا والجزائر وتونس، منذ منتصف القرن (١٠ هـ / ١٦م) طراز جديد من المنابر، هو المنابر الرخامية أو الحجرية الثابتة، وذلك بعد أن فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على هذه البلاد.

كشفت الدراسة أن بيت الاعتكاف يعد من عناصر الانتفاع التي ألحقت بالمساجد الجامعة السعدية، وهي ظاهرة وجدت أولى نماذجها- على حد علمي- في المساجد المرينية السابقة على العهد السعدي، كما هو الحال في الجامع الكبير بفاس الجديد وفي مسجد المدرسة البوعنانية بفاس القديمة.

أوضحت الدراسة أن تخطيط المساجد الجامعة السعدية يشتمل على مصلى جنائزي

يقع خلف رواق القبلة، ويتصل بالمسجد من الداخل عن طريق مدخل أو اثنين، ويلاحظ على هذه المصليات الجنائزية أنها تشغل مساحات صغيرة نسبيًا بالنسبة لمساحة المساجد المجاورة لها، وهذا لا يتعارض مع وظيفة هذه المصليات، حيث إن صلاة الجنازة في الإسلام فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، كما أنها تخلو من الركوع والسجود ويؤديها المسلمون وهم واقفون، ومن هنا فإن صلاة الجنازة يمكن أن تقام في مساحة صغيرة نسبيًا.

وبينت الدراسة أن مساكن الطلاب بالمدارس السعدية الباقية من أهم عناصر الانتفاع بها، لذا شغلت الجزء الأكبر من المساحة المخصصة للمدرسة، فضلاً عن مضاعفة أعداد هذه المساكن عن طريق امتدادها رأسيًا في طابقين، وقد أمكن تحديد ثلاثة نماذج لتخطيط مساكن الطلاب بهذه المدارس، الأول يتمثل في توزيع هذه المساكن على أضلاع المدرسة من ثلاثة جوانب منفصلة تمامًا عن صحنها الأوسط المكشوف، وقد وزعت كل مجموعة منها حول صحن صغير مكشوف بلغ عددها ستة صحون، كل صحن منها محاط من جهاته الأربع برواق مغطى، أما النموذج الثاني فيتمثل في توزيع هذه المساكن على الجوانب الأربعة للصحن يتقدمها رواق مغطى في كل جانب، وأما النموذج الثالث فيتمثل في توزيع هذه المساكن على أضلاع الصحن من ثلاثة جوانب دون أن يتقدمها أروقة تفصلها عن الصحن.

أكدت الدراسة أن السقاية تعد من عناصر الانتفاع المهمة التي ألحقت بالمنشآت الدينية السعدية، لتوفير الماء الطاهر للوضوء في المساجد والمدارس والزوايا كذلك مد الدور السكنية بما تحتاجه من الماء، كما شيدت السقاية كوحدة معمارية مستقلة بذاتها، وتكوينها المعماري عبارة عن بناء مستطيل صغير يتوسطه دخلة عميقة معقودة كسيت ببلاطات من الزليج المتعدد الألوان، وبالجزء السفلي لصدر هذه الدخلة فتحات يخرج منها الماء عبر قصاب من الفخار أو أنابيب من الرصاص مغيبة داخل جدران السقاية، وتنساب هذه المياه في حوض أسفل هذه الفتحات، ويغطي السقاية سقف خشبي مائل غطي بالقرميد، وفي العصر السعدي أضيف إلى هذا التكوين المعماري مساحة مستطيلة تطل على الشارع ببائكة مكونة من ثلاثة عقود على هيئة حدوة فرس، خصصت لشرب الدواب كما هو الحال في سقاية جامع باب دكّالة وسقاية جامع المواسين، وهما أقدم السقايات المغربية الباقية من هذا النوع.

كشفت الدراسة أن الحرص على طهارة المساجد وتجنيبها ما لعله ينبعث من روائح غير مرغوب فيها أثره على موقع الميضأة، حيث راعى المعمار أن تكون خارجة عن ساحة المسجد قريبة منه، كما حرص أن تكون ميضآت المدارس في ركن من ساحة المدرسة، كذلك كشفت الدراسة عن مدى تأثر التصميم المعماري للأحواض والفساقي التي تتوسط صحون هذه المساجد والمدارس وميضآتها بمذهب مالك المتبع بتلك البلاد.

أوضحت الدراسة أهم الدوافع التي أدت إلى شيوع استخدام العقد الذي على هيئة حدوة

الفرس عن غيره من العقود في العمائر السعدية وغيرها من عمارة الغرب الإسلامي، كقوة المقاومة والتماسك الوثيق، والاقتصاد في الجهد ومواد البناء وقلة النفقات، كما ساعد اتساع فتحته على دخول الضوء والهواء إلى أروقة الصلاة العميقة الخالية – تقريبًا- من الفتحات النافذة لبرودة الجو في هذه البلاد، كذلك كان من دواعي استخدامه تجنب انخفاض الأسقف، نظرًا لاستخدام تلك البلاد لأعمدة ودعامات قصيرة في حمل البوائك التي يرتكز عليها السقف.

وكشفت الدراسة عن شيوع استخدام العقد نصف المستدير في العمائر الدينية والجنائزية السعدية، سواء للأغراض الإنشائية أو الزخرفية، حيث نجده مستخدمًا في تتويج فتحات الأبواب والنوافذ والعديد من الدخلات والحنايا بداخل هذه العمائر.

بينت الدراسة أن العمارة الدينية والجنائزية السعدية استخدمت العقد المطنف، وهو نوع من العقود ترجع أولى نماذجه الباقية بالعمارة المغربية – على حد علمي- إلى العصر المريني، ثمَّ استمر ظهوره بعد ذلك في العمارة السعدية.

وأثبتت الدراسة أن العقد الموتور استخدم في العمارة الدينية والجنائزية السعدية، وهو نوع من العقود لم يظهر – في حدود ما أعلم- من قبل في العمارة المغربية قبل العصر السعدي، ويعكس ظهوره في هذه الفترة التأثير الموريسكي والبرتغالي على العمارة السعدية.

أوضحت الدراسة استخدام العمارة الدينية والجنائزية السعدية لأنواع مختلفة من الأسقف الخشبية، كالأسقف الجمالونية والهرمية والمسطحة والقباب الخشبية أيضًا، هذا إلى جانب القباب المبنية بالآجر والجص، والأقبية المتقاطعة والنصف برميلية.

أكدت الدراسة أن مداخل المنشآت الدينية والجنائزية السعدية تربطها بالشارع مباشرةً دون أن يتقدمها أي نوع من أنواع السلالم المزدوجة أو المنفردة أو النصف دائرية، وذلك لكون هذه المنشآت بنفس مستوى أرضية الشوارع المطلة عليها من جهة، وللضيق النسبي لشوارع وطرق المدن المغربية القديمة من جهة أخرى.

بينت الدراسة تعدد عناصر الوقاية في العمائر الدينية والجنائزية السعدية، سواء كانت للوقاية من العوامل الطبيعية المناخية أو للوقاية من ضرر الكشف، وتمثلت في الحوائط والأسطح والأبواب والنوافذ والرفارف وغيرها.

أثبتت الدراسة أن الطراز الأندلسي المغربي كان هو السمة المميزة لعمارة وفنون بلدان الشمال الإفريقي إلى ما قبل القرن (١٠ هـ / ١٦م)، ثمَّ تعرضت كل من الجزائر وتونس بعد هذا التاريخ للتأثيرات العثمانية بعد خضوعها للسيطرة العثمانية، بينما استمر الطراز الأندلسي المغربي هو السمة المميزة للفن المغربي في العصر السعدي خلال القرنين (١٠ – ١١ هـ / ١٦ – ١٧م)؛ ونظرًا لعدم خضوع المغرب الأقصى للسيطرة العثمانية فإن التأثير العثماني على

العمارة والفنون المغربية خلال تلك الفترة يكاد يكون منعدمًا.

بينت الدراسة تنوع المواد التي نفذت عليها الزخارف بالعمائر الدينية والجنائزية السعدية، حيث نفذت على الجص والخشب والزليج والرخام والنحاس والبرونز.

أوضحت الدراسة تنوع الزخارف النباتية المزينة للعمائر الدينية والجنائزية السعدية، حيث نجد منها المراوح النخيلية وأنصافها بهيئاتها المتعددة، وكيزان الصنوبر، والوريدات المتعددة البتلات، إلى جانب الأفرع المتماوجة ذات العقد الصغيرة والأوراق المتعددة، وكثيرًا ما مثلت هذه الوحدات بمفردها كموضوع زخرفي قائم بذاته، وأحيانًا ظهرت كمهاد لعناصر أو موضوعات أخرى مثل الكتابات والزخارف الهندسية أو متصلة ببعض هذه الموضوعات.

كشفت الدراسة عن تنوع الزخارف الهندسية التي ظهرت على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، ومنها زخرفة الجدائل أو الضفائر، وشبكة المعينات، والأطباق النجمية وأجزاؤها، والشكل المحاري، والعنصر الملفوف أو الثعباني، مع الأخذ في الاعتبار أن الفن السعدي تميز بغلبة استخدام الزخارف الهندسية على حساب العناصر الزخرفية الأخرى، بينما كانت قبل هذا العصر تستخدم- غالبًا- كإطارات للزخارف النباتية والنقوش الكتابية.

أكدت الدراسة أن الخط الكوفي كان هو الخط الشائع في الزخرفة الكتابية على عمائر الغرب الإسلامي، بينما لم يظهر الخط الثلث كعنصر زخرفي على العمائر إلا في القرن (٥ هـ / ١١م)، بينما استخدم لأول مرة كخط تسجيلي في القبة التي تتقدم المحراب في المسجد الجامع بتلمسان (٥٣٠ هـ / ١١٣٦م) وفي المصلى الجنائزي بجامع القرويين بفاس القديمة (٥٣١ هـ / ١١٣٧م).

بينت الدراسة أن العمائر الموحدية اقتصرت على استخدام الخط الكوفي في الزخرفة الكتابية، بينما ذاع في العمائر المرينية استخدام الخطين معًا الكوفي والثلث، واستمر ذلك في عهد السعديين.

أوضحت الدراسة تنوع مضامين الكتابات المنفذة على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، فكانت منها الآيات القرآنية والأدعية والأشعار، إلى جانب الكتابات المنقوشة على التراكيب الرخامية وشواهد قبور الأسرة السعدية، والتي تضمنت فضلاً عن الآيات القرآنية والأشعار، اسم المُتَوَفَّى ونسبه وألقابه والدعاء له وتاريخ وفاته، الذي كتب - أحيانًا- بحساب الجمل على الطريقة المغربية.

كشفت الدراسة أن تاريخ الوفاة على كثير من الشواهد والتراكيب السعدية قد حدد بدقة شديدة وفقًا للتوقيتات الإسلامية، حيث حددت - على وجه التقريب- الساعة واليوم والشهر والسنة، وهي سمة تميزت بها شواهد القبور في بلدان إسلامية أخرى غير المغرب

الأقصى، كما هو الحال في كثير من شواهد القبور العمانية على سبيل المثال.

أثبتت الدراسة أن الكتابات المنفذة على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، وكذلك المنقوشة على تراكيب وشواهد القبور، أمدتنا بألقاب فخرية ووظيفية صححت كثيراً من الهنات التي وقع فيها بعض المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين على السواء، وأماطت اللثام عن حقائق تاريخية جديدة كانت خافية عنهم، كما عكست هذه الكتابات بعض الألقاب التي تجسد أحداثًا تاريخيةً وأعمالاً قام بها الحكام السعديون، مثل لقب "ناصر الدين" و"ناصر الإسلام" و"المجاهد في سبيل رب العالمين" و"مذل عبدة الأصنام"؛ حيث كان الجهاد وطرد المحتل الإسباني والبرتغالي وتحرير الثغور المحتلة من أيديهم هو الركيزة الأساسية لقيام دولتهم، وأهم ما ميز حياة هذه الدولة، فضلاً عن الألقاب التي تكشف عن السمات الأخلاقية التي كان يتمتع بها السلاطين السعديين، إلى جانب الألقاب التي تشير إلى اهتمام بعض هؤلاء السلاطين بالبناء والتعمير.

كما أمدتنا الكتابات المنفذة على واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، بألقاب تؤكد انتماء السلاطين السعديين إلى النسب النبوي الشريف، مثل "سبط خاتم الرسل" و"الشريف الحسني" و"ابن الشرف الفاطمي"، كذلك أشارت هذه الكتابات إلى بعض المنشآت التي شيدت في العهد السعدي.

وكشفت الدراسة عن تنوع أنماط وأساليب تنفيذ الكتابات على واجهات عمائر السعديين وشواهد قبورهم وتراكيبهم الرخامية، فنجد منها الكوفي المضفر على أرضية خالية من الزخرفة، والكوفي المضفر على مهاد من زخارف نباتية كتب أحيانًا طردًا وعكسًا، كما نجد نوعًا آخر من الخط الكوفي هو الكوفي المربع، كذلك تنوعت نماذج الخط الثلث، حيث نجد منه ما يقوم على أرضية خالية من الزخرفة، ونجد نوعًا آخر يقوم على مهاد من زخارف نباتية.

أوضحت الدراسة استخدام الفنان لزخارف مستمدة من أشكال وعناصر معمارية في تزيين واجهات العمائر الدينية والجنائزية السعدية، كالمقرنصات والشرافات والمحاريب والعقود.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر العربية

ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف النصري، ت: ٨٠٧ – ٨١٠ هـ / ١٤٠٤ – ١٤٠٧م):

- روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية،الرباط، ١٩٩١م.

الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني من القرن ٦هـ / ١٢م):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزآن مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.

الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، ت: ٢٤٤ هـ / ٨٥٩م):

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزآن، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت- لبنان، د.ت.

الإفراني (محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله المراكشي، تُوُفِّيَ بعد ١١٥١ هـ / ١٧٣٩م):

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، نشر هوداس، باريس، ١٨٨٨م

الأنصاري (محمد بن القاسم بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك السبتي، كان حيًا عام ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م):

- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٦٩م.

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ت: ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجاب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي، من القرن ٦ هـ / ١٢م):

- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.

التادلي (أبو يعقوب يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات، ت: ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م):

- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق د. أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٤م.

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي البلنسي، ت: ٦١٤ هـ / ١٢١٧م):

- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير، دار صادر- دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

الجزنائي (أبو الحسن علي، من أهل القرن ٨ هـ / ١٤م):
- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م.

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري، ت: ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م):
- المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، أربعة أجزاء، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨١م.

ابن الحاج النميري (أبو القاسم برهان الدين بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد، تُوُفِّيَ بعد ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م):
- فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة ونشر د. محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٩٠م.

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي، ت: ٨٥٢ هـ / ١٤٤٧ م):
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم أحاديثه وبوبه محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق وتخريج محب الدين الخطيب، راجعه قصي محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، القاهرة، ١٩٨٨م،.

الحساني (إبراهيم بن علي بن عبد الله، أواخر القرن ١٠ هـ / ١٦م):
- ديوان قبائل سوس "في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي"، تحقيق د. عمر أفا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت: بعد عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦١م):
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

ابن حوقل (أبو القاسم محمد، ٣٨٠ هـ / ٩٠٩م):
- صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت — لبنان، د.ت.

ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت: ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م):
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، أربعة مجلدات، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣ — ١٩٧٧م.
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة،

الإسكندرية، ١٩٨٣م.

- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق د. محمد كمال شبانة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م):

- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، سبعة مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ١٩٩٢م.

ابن الزبير (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، ت: ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م):

- صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق عبد السلام الهراس وسعبد أعراب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، ١٩٩٤م

ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي، ت: ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م):

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٤م.

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

الزركشي (محمد بن عبد الله، ت: ٧٩٤ هـ / ١٣٩١م) :

- إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا المراغي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكتاب الخامس، القاهرة، ١٣٨٤ هـ.

الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت: ٥٣٨ هـ / ١١٤٣م):

- أساس البلاغة، تقديم د. محمود فهمي حجازي، سلسلة الزخائر (٩٥)، الهيئة العامة لقصور الثقافة مايو ٢٠٠٣م.

السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، ت: ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٦م):

- تاريخ السودان، نشره هوداس، الطبعة الثانية، باريس، ١٩٦٤م.

ابن صاحب الصلاة (محمد بن أحمد بن إبراهيم الباجي، ت: ٥٩٤ هـ / ١١٩٨م):

- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق د. عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، دار المغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٨٧م.

الصومعي (أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز التادلي، ت: ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤م):

- المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق على الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير – جامعة ابن زهر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م.

الضُعيف الرباطي (محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد كان حيًا حتى عام ١٢٣٨ هـ / ١٨١٢م):

- تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان (١٠٤٣ - ١٢٣٨ هـ / ١٦٣٣ – ١٨١٢م)، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.

العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد، تُوُفِّيَ أواخر القرن ٧ هـ / ١٣م):

- رحلة العبدري المسماه بالرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات (٤) حجازية (١)، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م.

ابن عذاري (المراكشي، ت: ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥م):

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

العلمي (عيسى بن علي الحسني، ت: ١١٢٧ هـ / ١٧١٦م):

- النوازل، ثلاثة أجزاء، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٣– ١٩٨٩م.

ابن عيشون الشراط (أبو عبد الله محمد، ت: ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧م):

- الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسة رسائل وأطروحات (٣٥)، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ١٩٩٧م.

ابن غازي (أبو عبد الله محمد، ت: ٩١٩ هـ / ١٥١٣م):

- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.

الفشتالي (عبد العزيز بن محمد، ت: ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م):

- مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، مختصر الجزء الثاني، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة

محمد الخامس — الرباط، المطبعة المهدية، ١٩٦٤م.

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م):

- وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني، مقتبس من "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، نشر وتحقيق محمد المنوني، مجلة البحث العلمي، العدد الأول، السنة الأولى، الرباط، يناير- ١٩٦٤م.

ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت: ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦م):

- ذيل وفيات الأعيان المسمى بدرة الحجال في أسماء الرجال، ثلاثة أجزاء، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث — القاهرة، المكتبة العتيقة — تونس، ١٩٧٠ — ١٩٧٢م.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، قسمان، نشر وتحقيق دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.

القرطبي (ابن حيان):

- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت — لبنان، ١٩٧٣م.

ابن القطان (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك، تُوُفِّيَ منتصف القرن ٧ هـ / ١٣م):

- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق د. محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٩٠م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت: ٨٢١ هـ / ١٤١٧م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء العاشر، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م.

الكلالي (أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى، ت: ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧م):

- فصله تصف الدراسة بالقرويين، مقتبسة من رسالة "تنبيه الصغير من الولدان على ما وقع في مسألة الهارب مع الهارية من الهذيان لمدعي استحقاق الفتوى آجليان"، نشر وتحقيق محمد المنوني، مجلة البحث العلمي، العدد السابع، السنة الثالثة، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٦م.

ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان، تُوُفِّيَ بعد عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠م):

- وصف إفريقيا، جزآن، ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، ١٩٨٣م.

مؤرخ مجهول:

- تاريخ الدولة السعدية التاكمادرتية، نشرج. كولان، مطبوعات معهد

العلوم العليا المغربية، الرباط، ١٩٣٤م.

مارمول (كربخال، ألف كتابه بعد عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١م):

- إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة د. محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ - ١٩٨٩م.

المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد):

- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، الطبعة الثانية، تحقيق بشير البكوش، راجعه محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٩٩٤م.

ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد بن أحمد التلمساني، ت: ٧٨١ هـ / ١٣٨٠م):

- منتخبات من مسند ابن مرزوق، المعروف بالمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن،نشر ليفي بروفنسال،مجلة هسبريس، المجلد الخامس، الفصل الأول، الرباط، ١٩٢٥م.

مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م):

- صحيح مسلم، نشر وتحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

المقري (أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م):

- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية - الرباط، ١٩٨٣م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ثمانية أجزاء، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري، ت: ٧١١ هـ / ١٣١١م):

- لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م.

الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، ت: ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م):

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تسعة أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٥٤م.

النعيمي (عبد القادر بن محمد الدمشقي، ت: ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م):

- الدارس في تاريخ المدارس، جزآن، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة

الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م.

ابن الوقاد التلمساني (محمد بن عبد الرحمن، تُوُفِّيَ بعد ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧م):

- تارودانت فيما بين (١٠٦٨ – ١٠٧٣ هـ / ١٦٥٨ – ١٦٦٢م) من خلال مقيدات ابن الوقاد التلمساني، دراسة وتحقيق د. نور الدين صادق، ١٩٩٨م.

الونشريسي (أحمد بن يحيى، ت: ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م):

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ثلاثة عشر جزءًا، خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف د. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، د.ت.

ثانياً- المراجع العربية

إبراهيم حركات (دكتور):

- السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.
- المغرب عبر التاريخ، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثالثة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٩٣م.

إبراهيم علي طرخان (دكتور):

- دولة مالي الإسلامية – دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

أحمد الطوخي (دكتور):

- مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٧م.

أحمد بزيد الكنساني:

- تاريخ تارودانت في العصر الوسيط حتى القرن الثامن الهجري، منشورات نادي الغد الأدبي، تارودانت – المغرب، ١٩٩٩م.

أحمد بن عامر:

- الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٧٢م.

أحمد فكري (دكتور):

- مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦١م.
- مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الأول، العصر الفاطمي، دار المعارف، ١٩٦٥م.

- مساجد القاهرة ومدارسها الجزء الثاني، العصر الأيوبي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

أحمد مختار العبادي (دكتور):

في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

جلال يحيى (دكتور):

- المغرب العربي الحديث والمعاصر، الفجر واحتلال فرنسا للجزائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

حسن الباشا (دكتور):

- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ثلاثة أجزاء، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م.

الحسن السائح:

- الحضارة الإسلامية في المغرب، الطبعة الثانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

الحسن اليوبي (دكتور):

- الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة فضالة، ١٩٩٨م.

حسن جلاب (دكتور):

- محمد بن سليمان الجزولي (مقاربة تحليلية لكتابته الصوفية)، الطبعة الثانية، المطبعة والوراقة الوطنية – مراكش، ١٩٩٩م.

حسن عبد الوهاب:

- تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

حسن علي حسن (دكتور):

- الحياة السياسية في المغرب، القرن الثالث الهجري، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

حسن عيسى عبد الظاهر (دكتور):

- الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩١م.

حلمي محمد عشيش:

- المغرب الأقصى كما رأيته، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

حمدي عبد المنعم محمد حسين (دكتور):
- مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٣م.

درويش النخيلي (دكتور):
- السفن الإسلامية على حروف المعجم، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٤م.

رشيد بورويبة والدكالي (دكتور):
- المساجد في الجزائر، سلسلة الفن والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة التاميرا، روتوبريس، مدريد — إسبانيا، ١٩٧٠م.

زكي محمد حسن (دكتور):
- فنون الإسلام، دار الفكر العربي، د.ت

سامي محمد نوار (دكتور):
- المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة أثرية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

سعاد ماهر محمد (دكتور):
- الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):
- العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور):
- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي، جزآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت؛ ١٩٧١ — ١٩٧٢م.
- المغرب الكبير، الجزء الثاني، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع،الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي

حتى الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، د.ت.

صالح بن قربة (دكتور):

- المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر، ١٩٨٦م.

صالح لمعي مصطفى (دكتور):

- التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

عبد الرحمن بن زيدان:

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، خمسة أجزاء، المطبعة الوطنية، الرباط، ١٩٢٩م.

عبد العاطي محمد الورفلي (دكتور):

- أوراق أندلسية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية- بنغازي، ١٩٩٠م.

عبد العزيز الدولاتلي (دكتور):

- مدينة تونس في العهد الحفصي، ترجمة محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨١م.

عبد الكريم كريم (دكتور):

- المغرب في عهد الدولة السعدية — دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية، الدار البيضاء — المغرب، ١٩٧٨م.

عبد الله التليدي:

- المطرب في مشاهير أولياء المغرب، الطبعة الثانية، مؤسسه التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة، ١٩٨٧م.

عبد الله كنون:

- النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦١م.

عبد المنعم سيد عبد العال (دكتور):

- لهجة شمال المغرب "تطوان وما حولها"، دار الكاتب العربي للطباعه والنشر بالقاهرة، ١٩٦٨م

عبد الناصر محمد حسن (دكتور):

- الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي (دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية

الوافدة)، جزآن، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، إسكندرية، ٢٠٠٢م.

عبد الهادي التازي (دكتور):

- جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ثلاثة مجلدات، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م.

عثمان عثمان إسماعيل (دكتور):

- دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية بالمغرب الأقصى، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ت.

عمر الجيدي (دكتور):

- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في المغرب الإسلامي، منشورات عكاظ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.

عواطف محمد يوسف نواب (دكتور):

- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين – دراسة تحليلية مقارنة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م.

فاروق عثمان أباظة (دكتور):

- أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، إسكندرية، د.ت.

فريد شافعي (دكتور):

- العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة (٢١ – ١٥٨ هـ / ٦٣٩ – ٩٦٩م)، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

قيصر طالب:

- المسكن في المملكة العربية السعودية، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١م.

كمال الدين سامح (دكتور):

- العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
- العمارة الإسلامية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

كمال السيد أبو مصطفى (دكتور):
- جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦م.

لطفي عبد البديع (دكتور):
- الإسلام في إسبانيا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

المتوكل عمر الساحلي:
- المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة، الجزء الرابع، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.

محمد المختار السوسي:
- خلال جزولة، الجزء الرابع، تطوان — المغرب، د.ت.

محمد المنوني:
- حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.
- ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء، ١٩٩٦م.

محمد بن عبد السلام بن أحمد بوسته:
- بلوغ الآمال في ذكر مناقب السادات سبعة رجال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ١٩٩٥م

محمد بن محمد عبد الله بن المبارك الفتحي المراكشي:
- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، الطبعة الثانية، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، د.ت.

محمد حجي (دكتور):
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، جزآن، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، ١٩٧٨م.
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.
- نظرات في النوازل الفقهية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.

محمد رزوق (دكتور):
- الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ — ١٧م، مطبعة

أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

محمد عبد الستار عثمان (دكتور):

- الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي – دراسة أثرية معمارية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٨م.
- عمارة سدوس التقليدية دراسة أثرية معمارية – دراسة حالة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٩٩م.
- المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- مدينة ظفار بسلطنة عمان دراسة تاريخية أثرية معمارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، إسكندرية، ٢٠٠٠م.

محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور):

- الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، د.ت.

محمد عبد الله عنان:

- دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحدين وانهيار الأندلس) الجزء السادس، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)، الجزء السابع، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠١م.
- دولة الإسلام في الأندلس، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، الجزء الثامن، طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

محمد ناصر الدين الألباني:

- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

مصطفى أبو ضيف أحمد (دكتور):

- أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبني مرين (٥٢٤ – ٨٧٦ هـ / ١١٣٠- ١٤٧٢م) مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٢م.

مصطفى أعشى:

- نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب، مطبعة فضالة، المحمدية – المملكة المغربية، د.ت.

مولود شهبون:

- المونوغرافية الثقافية لإقليم تارودانت، وزارة الشئون الثقافية، المندوبية الإقليمية – تارودانت، المملكة المغربية، ١٩٩٩م.

نجوى عثمان (دكتور):

- مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق – سوريا، ٢٠٠٠م.

يحيى وزيري (دكتور):

- موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٩٩م.

يسري الجوهري (دكتور):

- شمال إفريقية، الطبعة السادسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

يونان لبيب رزق ومحمد مزين (دكتور):

- تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢م، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

ثالثاً- الدوريات العربية

إبراهيم جمعة (دكتور):

- قصة الكتابة العربية، سلسلة اقرأ (٥٣)، دار المعارف، ١٩٨٤م.

إبراهيم حركات (دكتور):

- مسجد حسان، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، وزارة عموم الأوقاف، الرباط، العدد الأول، السنة السادسة، مطبعة فضالة، المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م.
- الحياة الدينية في عهد بني مرين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، السنة السابعة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، نوفمبر ١٩٦٣م.
- الثقافة المغربية بين الثقافات الإنسانية، بحث نشر في مجلة الثقافة، السنة الثالثة، العدد ١٨، وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، ١٩٧٣م.

أحمد بوكاري (دكتور):

- الزاوية الشرقاوية خلال القرن (١٢ هـ / ١٨م) بعض جوانب نشاطها الاجتماعي والسياسي، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثامن والثلاثون السنة الخامسة عشرة، وزارة الشئون الثقافية، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ديسمبر ١٩٨٩م.

أحمد فكري (دكتور):

- مسجد الزيتونة الجامع بتونس، بحث نشر في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثاني، مايو ١٩٥٢م.

أحمد قاسم جمعة (دكتور):

- أهم التأثيرات المعمارية والفنية المتبادلة بين العراق والمغرب العربي في العصر الإسلامي، بحث نشر في مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد التاسع، ١٩٧٨م.

أحمد هلال محمد (دكتور):

- مدخل لتصميم المسكن الريفي في المجتمعات الصحراوية الجديدة من واقع تطوير العمارة الريفية التقليدية في صعيد مصر، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة، – قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م.

إيفان هربك:

- تفكك وحدة المغرب السياسية، بحث نشر في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع "إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر"، اليونسكو، ١٩٨٨م.

إيمان محمد عيد عطية (دكتور):

- أساليب التصميم المعماري في المجتمعات الصحراوية، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء – تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة – قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م.

جلال يحيى (دكتور):

- المغرب العربي والاستعمار، سلسلة المكتبة الثقافية (١٦٤)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.

حبيبة البورقادي:

- إيليغ قديمًا وحديثًا للمختار السوسي، بحث نشر في مجلة البحث

العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، الرباط – المغرب، سبتمبر ١٩٦٦م.

الحسن السائح:

- الثقافة المغربية في عصر السعديين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثالث، السنة السابعة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ديسمبر ١٩٦٣م.

حسن عبد الوهاب:

- الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

حسن علي حسن (دكتور):

- التعليم بالمغرب الأقصى في عهدي المرابطين والموحدين، بحث نشر في حوليات كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م.

حسين عبد الرحيم عليوة (دكتور):

- الخط، بحث نشر في كتاب القاهرة تاريخها- فنونها- آثارها، القاهرة، ١٩٧٠م.

حسين مؤنس (دكتور):

- تطور العمارة الإسلامية في الأندلس، بحث نشر في حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير، المجلد الأول، مايو ١٩٥٨م.
- المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٧، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٨١م.

ربيع حامد خليفة (دكتور):

- أثر الفن والعمارة العثمانية على مصر والبلاد العربية، بحث نشر في مجلة دراسات في الأدب والتاريخ التركي المصري، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٩م.

زكي علي:

- أهم الآثار التاريخية بتاردوانت، بحث نشر في مجلة الصديق، العدد الثاني، جمعية أصدقاء الثقافة والفن بتاردوانت، المغرب، إبريل، ١٩٧٧م.

زكي محمد حسن (دكتور):

- تطور المآذن، بحث نشر في مجلة الكتاب، الجزء الحادي عشر، السنة الأولى، د.ت.

سامي سليمان عليوة (دكتور):

- الخصائص البصرية والبيئية للتجمعات العمرانية الهامشية في إقليم جنوب مصر، المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء- تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة- قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م.

سامي علي كامل (دكتور) وآخرون:

- الخصائص المعمارية للقرى السياحية في المناطق الصحراوية الداخلية حالة إقليم الوادي الجديد، بحث نشر في المؤتمر المعماري الدولي الثالث (عمارة وتخطيط الصحراء – تجارب الماضي وآفاق المستقبل)، كلية الهندسة – قسم العمارة، جامعة أسيوط، نوفمبر ١٩٩٧م.

سعيد أعراب:

- جامع شفشاون، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، مطبعة فضالة – المحمدية، أكتوبر، ١٩٦٢م.

سليمان مصطفى زبيس:

- القبة التونسية، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٩م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور):

- روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر، بحث نشر في مجلة المجلة، العدد التاسع والعشرون، مايو ١٩٥٩م.
- مدارس فاس بحث نشر في كتاب الشعب، عدد (٧٨)، بيوت الله مساجد ومعاهد، الجزء الثاني، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
- المسجد الجامع بالقيروان، بحث نشر في كتاب الشعب، عدد (٧٨)، بيوت الله مساجد ومعاهد، الجزء الثاني، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
- مسجد القرويين بفاس، بحث نشر في كتاب الشعب، عدد (٧٨)، بيوت الله مساجد ومعاهد، الجزء الثاني، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
- أمثلة من الابتكارات في المسجد الجامع بقرطبة، بحث نشر في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان ١٩٩٢م.
- العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، بحث نشر في كتاب

بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.

- بعض المصطلحات للعمارة الإسلامية الأندلسية المغربية، بحث نشر في كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار، القسم الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.

صدقي علي آزايكو (دكتور):

- فتاوى بعض علماء الجنوب بخصوص نظام "إينفلاس" بالأطلس الكبير الغربي في أوائل القرن السابع عشر، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م.

صلاح أحمد البهنسي (دكتور):

- التأثيرات العثمانية على العمارة والفنون الإسلامية في ليبيا منذ بداية العصر العثماني الأول وحتى نهاية العصر العثماني الثاني (٩٥٨ – ١٣٣٠ هـ / ١٥٥١ – ١٩١١م)، بحث نشر في أعمال المؤتمر الثاني لمدونة الآثار العثمانية في العالم حول: العمارة السكنية، النقائش الجنائزية وآليات الترميم، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ١٩٩٨م.

صلاح الدين البحيري (دكتور):

- عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها في الفنون، حوليات كلية الآداب، الحولية الثالثة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٢م.

العابد الفاسي:

- خزانة القرويين ونوادرها، بحث نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، الجزء الأول، مايو ١٩٥٩م.

عاصم نايف البرغوثي (دكتور):

- الخصائص المعمارية للعقود والقباب الكلاسيكية، بحث نشر في مجلة العصور، المجلد الأول، الجزء الثاني، دار المريخ للنشر، لندن، ١٩٨٦م.

عبد الرحمن فهمي محمد (دكتور):

- حول مئذنة من روائع الفنون الإسلامية، بحث نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، جامعة الملك عبد

العزيز، السنة الثالثة، العدد الثالث، ١٣٩٨ هـ.

عبد العزيز بنعبد الله:

- الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال، بحث نشر في مجلة اللسان العربي، المجلد التاسع، الجزء الأول، الرباط – المغرب، يناير ١٩٧٢م.
- معطيات الفن الإسلامي في المغرب، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثالث، السنة الثانية، الرباط – المغرب، يونيه ١٩٧٥م.

عبد العزيز لعرج (دكتور):

- صورة المسكن المغربي الإسلامي في العصرين المريني – الزياني من خلال النصوص التاريخية والشواهد الأثرية، بحث نشر في كتاب دراسات في آثار الوطن العربي (٢) المؤتمر الرابع للآثاريين العرب – الندوة العلمية الثالثة، القاهرة، ٢٠٠١م.
- مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر، بحث نشر في كتاب المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي (٣)- الندوة العلمية الرابعة، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

عبد القادر الريحاوي:

- الأبنية الأثرية في دمشق دراسة وتحقيق، (٣) المدرسة الجقمقية، بحث نشر في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠م.

عبد القادر زمامة:

- وثيقة حضارية عن شبكة توزيع المياه في فاس القديمة، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد ٣١، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٨٠م.
- فاس وصناعاتها التقليدية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ – ١٩٨١م.

عبد اللطيف إبراهيم (دكتور):

- سلسلة الدراسات الوثائقية (٢) وثيقة السلطان قايتباي "دراسة وتحليل" المدرسة بالقدس والجامع بغزة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

عبد الله الجراري:

- تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا، دار الفكر العربي، ١٩٦١م.
- المساجد وأثرها في إصلاح العقول وتطهير النفوس، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، تصدرها وزارة عموم الأوقاف بالمغرب، مطبعة فضالة – المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م.

عبد الله العمراني:

- فاس وجامعتها، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الثامن، السنة الثالثة، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٦م.
- العرش المغربي عبر التاريخ، بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء الثامن، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية، الرباط، ١٩٧٣م.

عبد الله عبد الرازق إبراهيم (دكتور):

- المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ١٩٨٩م.

عبد الله كنون:

- عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي – الرباط، ١٩٦٦م.
- يوسف بن تاشفين (ترجمة نقدية)؛ بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء الثامن، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية (مديرية الشئون الثقافية)، الرباط، ١٩٧٣م.

عبد المنطلب محمد علي (دكتور):

- الفناء كمنظم حراري، بحث نشر في مجلة المعماري، العدد الثالث، كلية الهندسة، قسم العمارة، جامعة أسيوط، ١٩٩٥م.

عبد الناصر محمد حسن (دكتور):

- الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية (دراسة في "ميتافيزيقا الفن الإسلامي)، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج- إصدار خاص، دراسات آثارية، العدد الثالث والعشرون، الجزء الثاني، أكتوبر ٢٠٠٠م.

عبد الهادي التازي (دكتور):

- ما قاله التاريخ عن مدينة المحمدية الحديثة ومدينة المحمدية القديمة، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، يوليو ١٩٦٠م.
- الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ظاهرة الصوامع المثمنة الشكل بشمال المغرب، بحث نشر في مجلة جمعية الآثاريين العرب، المجلس الأعلى للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الأول، رمضان ١٤٢١ هـ / يناير ٢٠٠٠م.
- الجامور في الصوامع المغربية، بحث نشر في مجلة جمعية الآثاريين العرب، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الثالث، ذي القعدة ١٤٢٣ هـ / يناير ٢٠٠٢م.

عثمان عثمان إسماعيل (دكتور):

- الفن الإسلامي بالمغرب، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، يوليو ١٩٦٠م.
- طرز الفن الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، مايو ١٩٦٠م.
- نشأة الفن الإسلامي وأصوله وتأثيره على فنون أوربا (I) بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الخامس، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، فبراير ١٩٦٠م.
- نشأة الفن الإسلامي وأصوله وتأثيره على فنون أوربا (II)، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد السادس، السنة الثالثة، وزارة عموم الأوقاف، الرباط – المغرب، مارس ١٩٦٠م.

عصمت دندش (دكتورة):

- حول رباط عبد الله بن ياسين، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد ١١، السنة الخامسة، وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، الرباط، المغرب، مطبعة فضالة – المحمدية، مارس ١٩٧٨م.

عمر بنميرة (دكتور):
- قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، سلسة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م.

عوض عوض محمد الإمام (دكتور):
- وكالة جديدة في ضوء وثيقة الحاج إبراهيم بن عبيد المسراتي مع دراسة ونشر وتحقيق لهما، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، العدد السادس عشر (عدد تذكاري)، مطبعة الجبلاوي، يونيو ١٩٩٤م.
- نقود الصوفي الثائر أبو محلي ضد السلطان الناصر زيدان السعدي (١٠١٩- ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٠ – ١٦١٣م)، بحث تحت النشر.

فريد شافعي (دكتور):
- مئذنة مسجد ابن طولون رأي في تكوينها المعماري، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر- الجزء الأول، مايو ١٩٥٢م.
- مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي بمصر، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، الجزء الأول، ١٩٥٤م.

قاسم الزهيري (دكتور):
- الممالك الإسلامية القديمة في إفريقيا- مملكة سغاي (٤)، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد العاشر، السنة الخامسة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، يوليو ١٩٦٢م.

محمد أبو طالب (دكتور):
- نوازل تربوية، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م.

محمد الأخضر (دكتور):
- الأدب المغربي أيام المرابطين والموحدين (٤٦٢ – ٦٦٧ هـ/ ١٠٦٩ – ١٢٦٨م)، بحث نشر في مجلة الثقافة المغربية، الجزء التاسع، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية والثقافية، مديرية الشئون الثقافية،

الرباط، ١٩٧٣م.

محمد الباجي بن مامي (دكتور):

- جوامع تونس في العهد العثماني دراسة تاريخية وفنية ومعمارية، بحث نشر في مجلة جمعية الأثاريين العرب، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، العدد الأول، القاهرة، يناير، ٢٠٠٠م.

محمد الحمداوي:

- من الحلقات المفقودة في تاريخ المساجد المغربية، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، عدد خاص، وزارة عموم الأوقاف الرباط، المغرب، مطبعة فضالة- المحمدية، أكتوبر١٩٦٢م.

محمد السيد غيطاس (دكتور):

- الفنون الزخرفية الإسلامية بين الصناعة والفن (دراسة تطبيقية على الخزف الإسلامي)، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بسوهاج – جامعة أسيوط، العدد الرابع عشر، ١٩٩٤م.

محمد الشريف (دكتور):

- "المستفاد" أو استقطاب التيار الصوفي على عهد الموحدين، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ١٩٩٩م.
- ابن بطوطة ومظاهر أزمة التجارة الصحراوية في القرن (٨ هـ / ١٤م) بالنسبة للمغرب المريني، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي – تطوان، ١٩٩٩م.
- جوانب من الحياة اليومية لمتصوفة الأندلس والمغرب من خلال "السر المصون" لطاهر بن محمد الصدفي، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ١٩٩٩م.
- من مصادر التاريخ البحري للمغرب في العصر الوسيط "المقصد

الشريف" لعبد الحق البادسي، بحث نشر في كتاب الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة عبد المالك السعدي، تطوان ١٩٩٩م.

محمد الفاسي:

- موقعة وادي المخازن الحاسمة، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد التاسع، السنة الثالثة، الرباط – المغرب، سبتمبر ١٩٦٦م.
- سوس عند الجغرافيين والمؤرخين قديمًا وحديثًا، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الثالث والعشرون، السنة التاسعة، مطبعة فضالة، المحمدية، مارس ١٩٨٢م.

محمد القبلي (دكتور):

- قضية المدارس المرينية – ملاحظات وتأملات، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
- ما لم يرد في كتابات ابن خلدون، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
- مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
- ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطة ببلاد المغرب الكبير، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر- الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٧م.
- رمز "الإحياء" وقضية الحكم في المغرب الوسيط (الخطاطة العامة وأرضية الاختلاف)، بحث نشر في كتاب مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧م.
- التموجات الدينية - الاجتماعية ومشروعية سلطان الدولة بالمغرب الأقصى الوسيط، بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر – الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م.
- المغرب والأندلس والمجال المتوسطي مقدمات أولية وملاحظات،

بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م.

- قراءة في زمن أبي محمد صالح، بحث نشر في كتاب الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩٧م.

محمد المغراوي (دكتور):

- مسائل العملة والصرف والأسعار في العصر المرابطي من خلال "فتاوى ابن رشد"، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م.

محمد المنوني:

- نظم الدولة المرينية (٣) النظام الاقتصادي، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الرابع والخامس، السنة الثانية، جامعة محمد الخامس، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٦م.
- خطة الحسبة في المغرب، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد ١٤، السنة السادسة، وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، الرباط – المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٧٩م.
- الخزائن العلمية بمدينة تارودانت وما إليها، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، أغسطس – سبتمبر ١٩٩٠م.

محمد اليعلاوي (دكتور):

- حساب الجمل أو التاريخ بالحروف، بحث نشر في حوليات الجامعة التونسية، العدد الثامن، تونس،١٩٧١م.

محمد بن شقرون (دكتور):

- النهضة الأدبية والفنية على عهد بني مرين (٢)، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العددان ١٤ – ١٥، السنة السادسة، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٩م.

محمد بن فارس الجميل (دكتور):

- آراء ابن الحاج في تعليم الصبيان "دراسة مقارنة"، بحث نشر في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٦٥، السنة ١٧، مجلة النشر العلمي – جامعة الكويت، ١٩٩٩م.

محمد حجي (دكتور):

- المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني (٢)، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد السابع، السنة الثالثة، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط – المغرب، ١٩٦٦م.
- العلاقات المغربية التركية في القرن السادس عشر، بحث نشر في مجلة المناهل، العدد الخامس والعشرون، السنة التاسعة، مطبعة فضالة، المحمدية- المغرب، ديسمبر، ١٩٨٢م.
- موقف الفقهاء من حركة المجاهد العياشي السلاوي، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة – المحمدية، ١٩٩٥م.

محمد خصيف (دكتور):

- مدرسة ابن يوسف أكبر مدرسة عتيقة بالمغرب العربي، بحث نشر في مجلة المتحف العربي، السنة الثالثة، العدد الثالث، تصدر عن متحف الكويت الوطني، وزارة الإعلام – الكويت، يناير، فبراير، مارس، ١٩٨٨م.

محمد رزوق (دكتور):

- التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي (تأصيل تاريخي)، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- الجهاد البحري في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م
- صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية – المغرب في القرنين ١٦ و ١٧ نموذجًا، بحث نشر في كتاب دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

محمد زنيبر (دكتور):

- النوازل السياسية في المغرب الحديث، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات (٤٦)، مطبعة فضالة – المحمدية، ١٩٩٥م.

محمد سيف النصر (دكتور):

- نظرة عامة إلى المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية، بحث نشر في مجلة الإكليل، السنة الثالثة، العدد الأول، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء – اليمن، ١٩٨٥م.

محمد عبد الستار عثمان (دكتور):

- أضواء على أهمية الإنشاء في تاريخ العمارة، مجلة العصور، العدد الخامس ، الجزء الثاني، دار المريخ للنشر، لندن، ١٩٩٠م.
- التربة الإيوان من أنماط المباني فوق القبور في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، بحث نشر في مجلة العصور، دار المريخ للنشر – لندن، المجلد السابع، الجزء الثاني، يوليو، ١٩٩٢م.
- وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بأخميم وأضواء جديدة على عمارته، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد الحادي والأربعين، ١٩٩٤م.
- آطام المدينة، دراسة تحت النشر في موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة – مادة أطم.

محمد عبد الستار عثمان وعوض عوض محمد الإمام (دكتور):

- عمارة المساجد في ضوء الأحكام الفقهية دراسة تطبيقية أثرية، بحث نشر في سجل أبحاث ندوة عمارة المساجد، المجلد الثامن: الضوابط الشرعية لعمارة المساجد، كلية العمارة والتخطيط – جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، يناير – فبراير ١٩٩٩م.

محمد عبد الهادي شعيرة (دكتور):

- من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة، بحث نشر في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

محمد محمد الكحلاوي (دكتور):

- مقاصير الصلاة في العصر الإسلامي- دراسة أثرية معمارية،

بحث نشر في مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٩م.

- المدارس المغربية دراسة أثرية معمارية، بحث نشر في مجلة العصور، المجلد السادس، الجزء الأول، دار المريخ للنشر، لندن، يناير ١٩٩١م.
- ثريات من النواقيس في جامع القرويين بمدينة فاس، بحث نشر في مجلة الدارة، السنة السابعة عشرة، العدد الرابع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ.
- السقايات المغربية بمدينتي فاس ومراكش دراسة أثرية مقارنة مع الأسبلة المملوكية بالقاهرة، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد الرابع، ١٩٩٥م.
- السمات المعمارية بين مساجد دهلي ومساجد الغرب الإسلامي، بحث نشر في كتاب ندوة الآثار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ١٩٩٨م.

محمد مزين (دكتور):

- وثيقة جديدة حول توزيع المياه بفاس المدينة القديمة (عدوة الأندلس) في أواخر العصر المريني، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس — جامعة محمد بن عبد الله، العددان الثاني والثالث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٧٩ — ١٩٨٠م.
- مساهمة السعديين في عمران فاس — محاولة استقراء لبعض المصادر: النوازل الفقهية والحوالات الحبسية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد الرابع والخامس، ١٩٨٠ — ١٩٨١م.
- التاريخ المغربي ومشكل المصادر نموذج: النوازل الفقهية، بحث نشر في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس — جامعة محمد بن عبد الله، عدد خاص ٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.
- الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي، بحث نشر في كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦؛ جامعة محمد الخامس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥م.

مصطفى بن عمر المسلوتي:

- الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد ٣٢٥، السنة ٣٨، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، يناير، فبراير، ١٩٩٧م.
- البحوث المنشورة في مجلة "هسبريس" حول مدينة تارودانت؛ بحث نشر في مجلة تارودانت، العدد الخامس، نشرة الجمعية الرودانية للثقافة والتراث، مكتبة الاعتصام، الرباط – المغرب، ١٩٩٩م.

هادي روجي إدريس:

- المجتمع في المغرب بعد زوال الموحدين، بحث نشر في كتاب إفريقيا العام، المجلد الرابع "إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، اليونسكو، ١٩٨٨م.

يحيى وزيري (دكتور):

- العمارة الإسلامية والبيئة – الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، عدد (٣٠٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو ٢٠٠٤م

رابعاً – الرسائل العلمية

أحمد بن محمد العبودي:

- المؤشرات الآثارية للعمارة السكنية التقليدية في جنوب غربي الجزيرة العربية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، قسم الآثار والمتاحف، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣م.

جمال أحمد طه:

- مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م إلى ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٩٣م.

رضوان محمد محمد رضوان البارودي:

- الحياة الحربية في عصر الدولة المرينية، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ١٩٧٩م.

صالح محمد فياض أبو دياك:

- نظم الحكم والإدارة في دولة بني مرين (بني عبدالحق)، رسالة ماجستير، غير منشورة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٧م.

علي بن صالح عطا الله العنبر:

- الزخارف في المباني الطينية بمنطقة نجد، رسالة ماجستير – غير منشورة- كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، ١٩٩٣م.

علي جبار:

- النشاط السياحي بمدينة تارودانت- دراسة جغرافية، بحث لنيل الإجازة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، ١٩٨٩م.

على حامد الماحي:

- المغرب في عصر السلطان أبي عنان المَريني (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨- ١٣٥٨م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠م.

عمر عسران أحمد طه:

- دولة الأشراف السعديين في مراكش، رسالة ماجستير، غير منشورة،كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م.

محمد السيد محمد أبو رحاب:

- مدارس المغرب الأقصى في عصر بني مرين (٦٦٨ – ٨٦٩ هـ / ١٢٦٩ – ١٤٦٤م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب بسوهاج – جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٩م.

محمد عبد الستار عثمان:

- الآثار المعمارية للسلطان الأشرف برسباي بمدينة القاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

محمد لكثيري وعبد الكريم لحراش:

- الجامع الأعظم بتارودانت دراسة في الجانب التاريخي والعلمي، بحث لنيل الإجازة – غير منشور – شعبة الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، ١٩٩٧م.

محمد محمد الكحلاوي:

- العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي (عمائر الموحدين الدينية في المغرب) دراسة أثرية معمارية، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٦م.

خامساً- المراجع الأجنبية المعربة

أرنست كونل:

- الفن الإسلامي، ترجمة د. أحمد موسى، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٦م.

أوقطاي آصلان آبا:

- فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، ١٩٨٧م.

باسيليو بابون مالدونادو:

- الفن الإسلامي في الأندلس، الجزء الأول- الزخرفة الهندسية، الجزء الثاني – الزخرفة النباتية، ترجمة د. علي إبراهيم على منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، العددان ٣٥٣ – ٣٥٤، القاهرة، ٢٠٠٢م.

بوفيل أ. و:

- الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة د. زاهر رياض، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م.

جاك كاييه:

- سفارات وبعثات مغربية في هولاندا على عهد الملوك السعديين (١)، ترجمة عبد اللطيف أحمد خالص، بحث نشر في مجلة البحث العلمي، العدد الثامن، السنة الثالثة، الرباط، المغرب، مايو – أغسطس، ١٩٦٦م.

جورج مارسيه:

- الفن الإسلامي، ترجمة د. عفيفي بهنسي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨م.
- بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩١م.

جول أركمان:

- الزوايا والطوائف الدينية بالمغرب، ترجمة مليكة دلال، بحث نشر في مجلة أمل، عدد مزدوج ٢٢ – ٢٣، نظيمة الزوايا في علاقاتها بالمجتمع والسلطة (٢)، السنة الثامنة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.

ديل إيكلمان:

- الإسلام في المغرب، جزآن، ترجمة محمد أعفيف، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٩١م.

روجيه لوتورنو:

- فاس في عصر بني مرين، ترجمة د. نقولا زيادة، مكتبة لبنان، ١٩٦٧م.
- فاس قبل الحماية، جزآن، ترجمة د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م.

كريزويل ك. أ:

- الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، تعليق أحمد غسان، سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤م.

كينيث براون:

- موجز تاريخ سلا (١٠٠٠ – ١٨٠٠م) ترجمة محمد جيدة وأناس لعلو، منشورات آمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

ليفي بروفنسال:

- مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ (٥)، الرباط، ١٩٧٧م.
- الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم وأ. محمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، ١٩٩٠م.

ليوبولدو توريس بالباس:

- الأبنية الإسبانية الإسلامية، ترجمة علية إبراهيم العناني، بحث نشر في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الأول، السنة الأولى، مدريد، ١٩٥٣م.
- الفن المرابطي والموحدي، ترجمة د. سيد غازي، دار المعارف بمصر، ١٩٧١م
- تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١ – ١٠٣١م)، المجلد الثاني (الجزء الثاني) الفن والعمارة، ترجمة د. علي عبد الرءوف اليمبي وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، العدد ٤١٢، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- المدن الأسبانية الإسلامية، ترجمة إليو دورو دي لابنيا، مركز

الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ٢٠٠٣م.

مارتن بريجز:

- فن العمارة، بحث نشر في كتاب تراث الإسلام، الجزء الثاني، ترجمة د. زكي محمد حسن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٣٦م.

مانويل جوميث مورينو:

- الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة د. لطفي عبد البديع ود. السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

هنري تيراس:

- مسجد للا عودة بمكناس، ترجمة عبد اللطيف ملين، بحث نشر في مجلة دعوة الحق، العدد الأول، السنة السادسة، مطبعة فضالة، المحمدية، أكتوبر ١٩٦٢م.

سادساً- المراجع الأجنبية

Basset, H., et Provençal, E., L.,:

- Chella une Nécropole Mérinide, Paris, 1922.

Basset, H., et Terrasse, H., :

- Sanctuaires et Fortersses Al Mohades, Hespéris, Tome VII, Librairie Larose, Paris, 1927.

Bel, A., :

- Les Industries de la Céramique à Fès, A. Leroux Libraire - Éditeur, Paris, 1918.
- Inscriptions Arabes de Fès, Paris, 1919.

Boutaleb, B.,

- La Zaouia de Dila , Hespéris Tamuda, Vol. IV - Fasc. 1- 2, Pairs,1963.

Colin, G., :

- Autour du Jama El- Fna de Marrakech, Hespéris, Tom X, Librarie Larose, Paris, 1930.
- Une Nouvelle Inscription Saddienne de Marrakech, Hespéris, XXXII, Paris,1945.

- La Zaouya Mérinite d'Anemli, a Taza, Hespéris, Tome XL, Librairie Larose, Paris, 1953.

Creswell, K., A., C.,:

- Early Muslim Architecture, Volume II, Early Abbasids, Wmayyads of Cordova, Aghlabids, Tulunids and Samanids, A. D. 751 - 905, Hacker Art Books, New York, 1979.

De Castres, H., :

- Le Cimetière de D. Jama El Mansour, Hespéris, Tome VII, Librairie Larose, Pairs, 1927.

De Cenival, P.,:

- La Zaouia Dite de Berada a , Hespéris, Tome XV, Librairie Larose, Pairs, 1932.

Deverdun, G., :

- Recherches Archéologiques à Marrakech, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1952.
- L'Age des Tombeaux Saadiens de Marrakech, d'Après de Documents Nouveaux, Hespéris, Tom XL, Librarie Larose, Paris, 1953.
- Inscriptions Arabes de Marrakech, Éditions Techniques Nord Africaines, Rabat, 1956.
- Marrakech des Origines a 1912, 2 Vols., Éditions Technique Nord- Africaines, Rabat, 1966.

Dozy, R., :

- Supplement aux Dictionnaires Arabes, 2 Vols., Paris, 1927.

El Farz, H.:

- Expertise de Remparts de La Ville de Taroudannt, Etude Historique, Royaume de Maroc, 1996.

Gayot, H., :

- Le Décor Floral dans L'Art de L'Islam Occidental, École du Livre, Rabat, 1955.

Golvin, L.,:

- Architecture Musulmane La Madrasa Médiévale, Edisud, 1995.

Hazared, H., W., :

- The Numismatic History of Late Medieval North Africa, New York, 1952.

Henry, R:

- Où se trouvait la Zaouia de Dila?, Hespéris, Tome XXXI, Librairie larose, Paris, 1944.

Hill, D., and Golvin, L.:

- Islmic Architecture in North Africa, London, 1976.

Hillenbrand, R.,:

- Islamic Architecture Form, Function and Meaning, Edinbrgh University press, 1994.

Hoag, J.,:

- Islamic Architecture, New York.

Horne, J.,:

- Many Days in Morocco, London, 1925.

Hutt, A., :

- Islamic Architecture North Africa, Scorpion Publications Limited.

Koehler, H., :

- La Kasba Saadienne de Marrakech d'Après un plan Manuscrit de 1585, Hespéris, Tome XXVII, Librairie Larose, Paris, 1940.

Korbendau, Y.,:

- L'Architecture Sacrée de L'Islam, ACR Édition, Paris, 1997.

Lavoix, H., :

- Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Espagne et Afrique, Paris, 1891.

Marçais, G., :

- Manuel d'Art Musulman L'Architecture Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile, 2 Vols. Éditions Auguste Picard, Paris, 1926- 1927.
- L'Architecture Musulmane d'Occident Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris, 1954.

Marçais, G., et W.,:

- Les Monuments Arabes de Tlemcen, Paris, 1903.

Maslow, B., et Terrasse, H., :

- Une Maison Mérinide de Fès, Revue Africiane, Tome LXXIX - Au Siége de la Société Historique Algérienne, Alger, 1936.

Maslow, B.,:

- Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Les Éditions d'Art et d'Histoire, Paris, 1934.

Meunié, J., Terrasse, H., et Deverdun, G.,:

- Recherches Archéologiques à Marrakech, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1952.

Peretie, A., :

- Les Medrasas de Fès, Archives Marocaines, vol. XVIII, Paris, 1922.

Ricard, P. et Delpy, A.,:

- Note au Sujet de Vieilles Portes de Maisons

Marocaines, Hespéris, Tome XV, Librairie Larose, Paris, 1932.

Rousseau, G., et des autres:

- Le Mausolée des Princes Sadiens à Marrakech, Paul Geuthner, Paris, 1925.

Rousseau, G.,:

- L'Art Décoratif Musulman, Paris, 1934.

Saadaoui, A.,:

- Testour du XVII^e, Au XIX^e Siècle Histoire Architecturale d'une ville Morisque de Tunisie, Publications de la Faculté des lettres La Manouba, Tunis, 1996.

Terrasse, C.,:

- Médersas du Maroc, Éditions Albert Morance, Paris, 1927.

Terrasse, H., :

- Histoire du Maroc, Casablanca, 2 Vols., 1949.
- Trois Bains Mérinide du Maroc, Maisonneuve, Paris, 1950.

Triki, H., et Dovifat, A.,:

- Medersa de Marrakech, Editions La Croisee de Chemins, 1999.

بحر الروم

البحر المحيط

بحر الظلمات

المغرب الأقصى

المغرب الأوسط

المغرب الأدنى

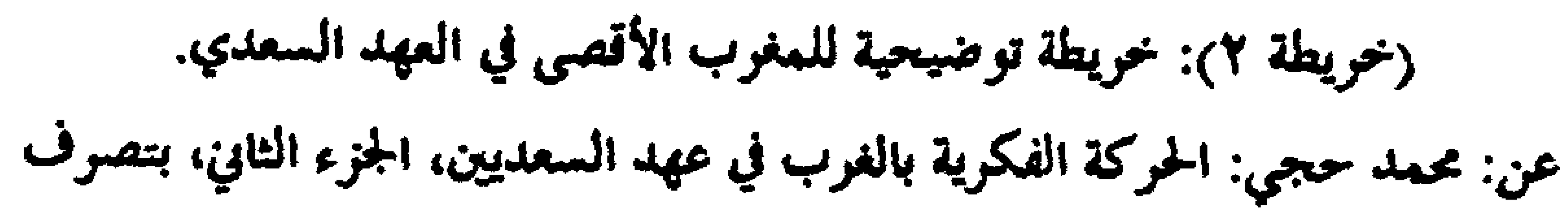
سواتة (قبائل)

طرابلس (مدن)

المغرب العربي في العصر الإسلامي

(خريطة ١): خريطة توضيحية لبلاد المغرب العربي في العصر الإسلامي.

عن: زاهر رياض: شمال أفريقيا في العصر الإسلامي.



(خريطة ٢): خريطة توضيحية للمغرب الأقصى في العهد السعدي.

عن: محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الجزء الثاني، بتصرف

(خريطة ٣): خريطة توضيحية لخط سير الجيش السعدي لفتح السودان الغربي.

عن: أ.و. بوفيل: الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، شكل ٨.

(خريطة ٤): خريطة توضيحية لمدينة مراكش في عهد المرابطين.

عن (بتصرف):.Deverdun, G.,: Marrakech des Origines a 1912, II, PL. VIII

مراكش
في عهد الموحدين

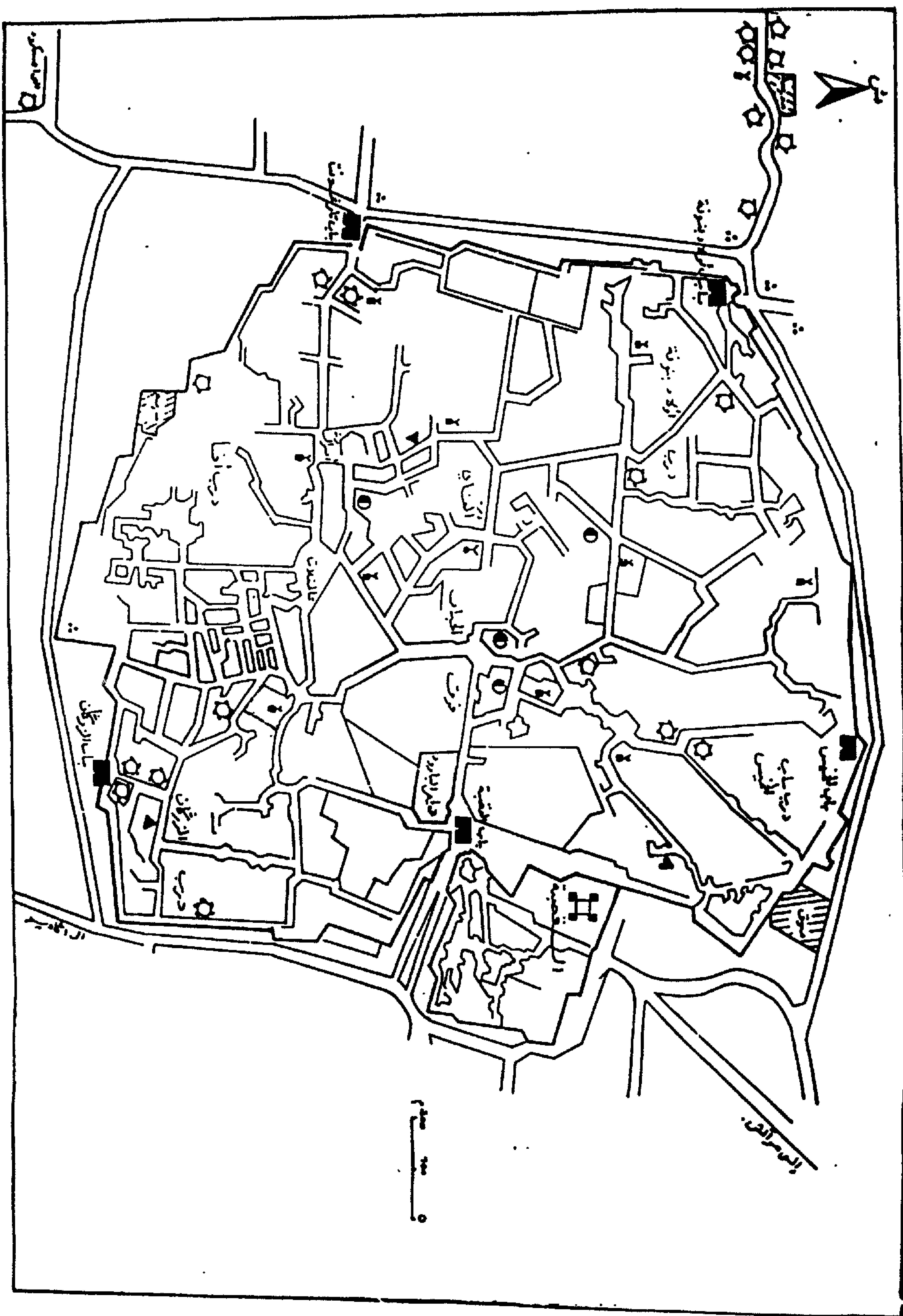
(خريطة ٥): خريطة توضيحية لمدينة مراكش في عهد الموحدين.

مراكش بعد السعديين



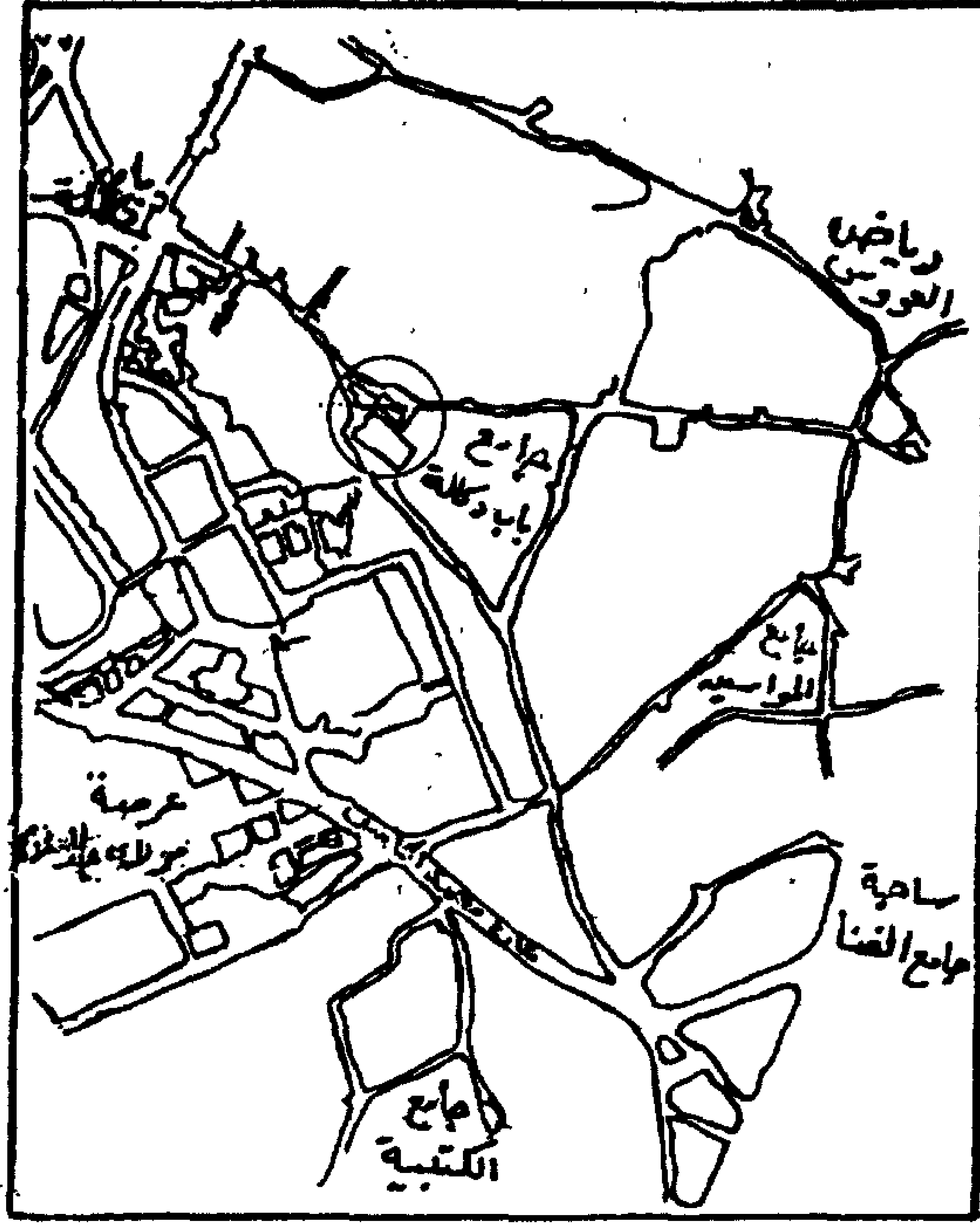
(خريطة ٦): خريطة توضيحية لمدينة مراكش بعد الأشراف السعديين.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش، بتصرف.

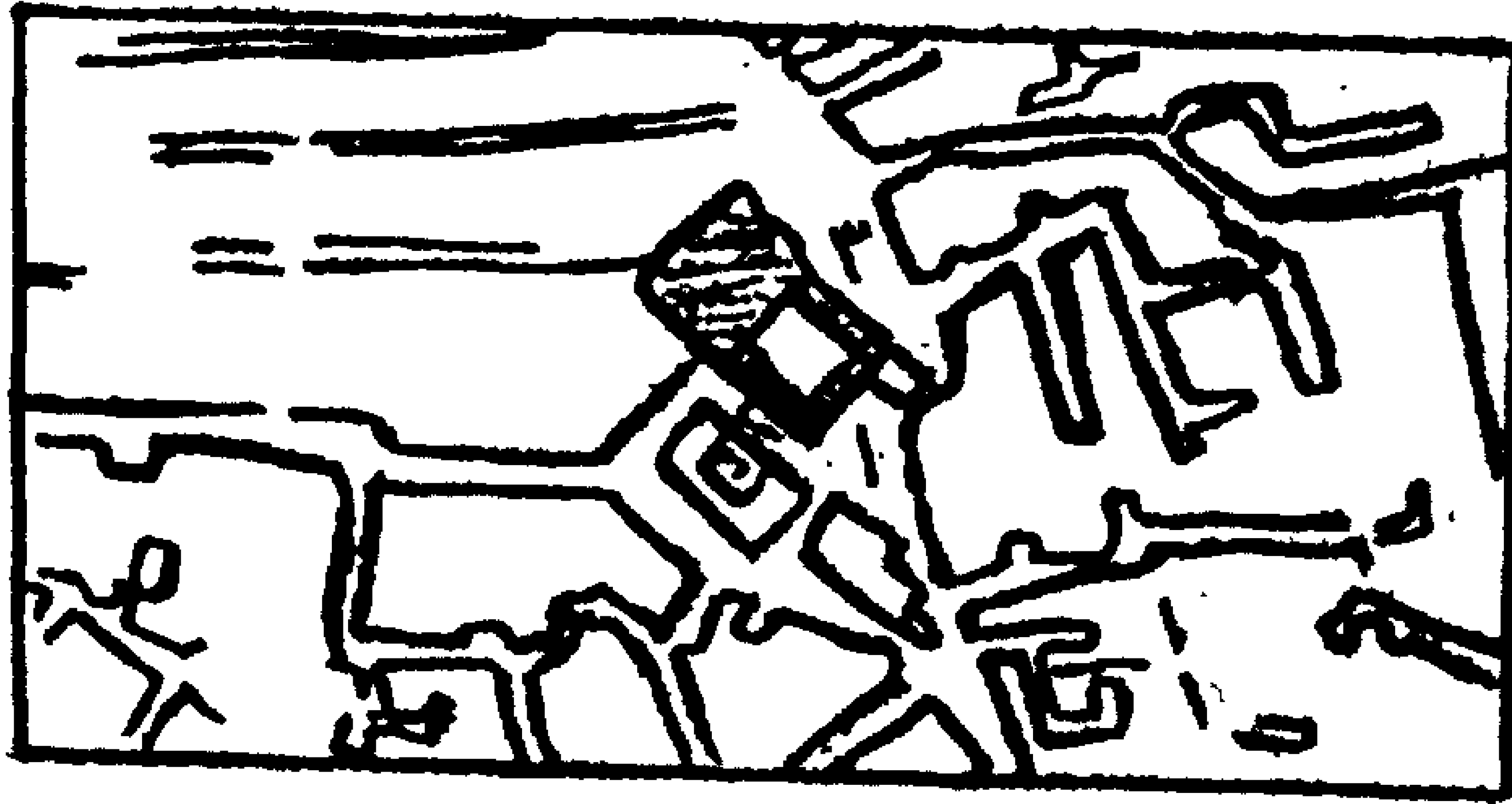


(خريطة ٧): خريطة توضيحية لمدينة تارودانت.

ـفي، علي جبار: النشاط السياحي بمدينة تارودانت، دراسة جغرافية، بتصـ



(أ)

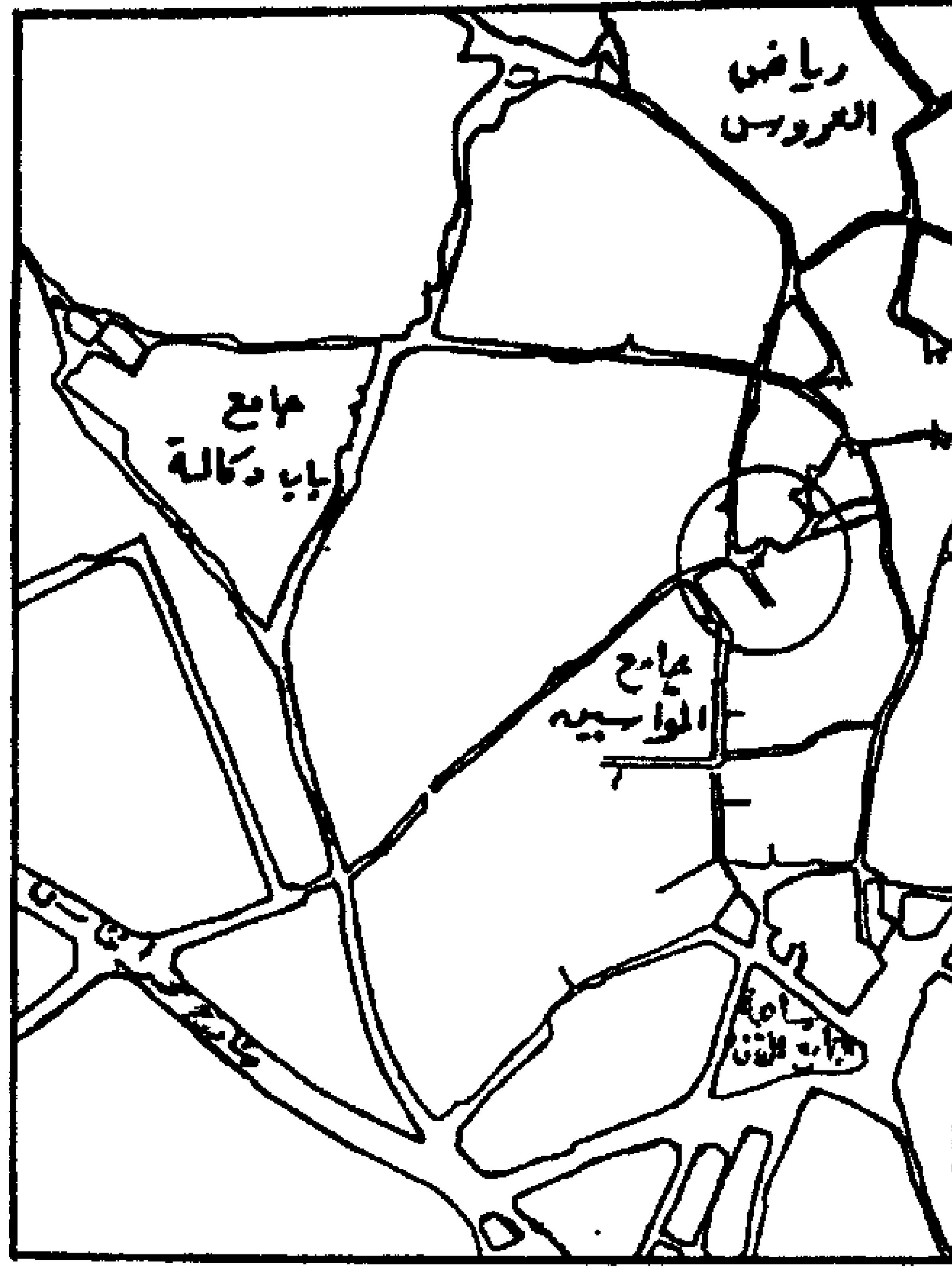


(ب)

١- شارع باب دكّالة .
٢- طريق العبدلاوية .
٣- شارع فاطمة الزهراء .

(خريطة٨/أ– ب): خريطة توضيحية لموقع جامع باب دكّالة بمدينة مراكش.

عن: مفتيشية المباني التاريخية بمراكش، بتصرف.



(أ)

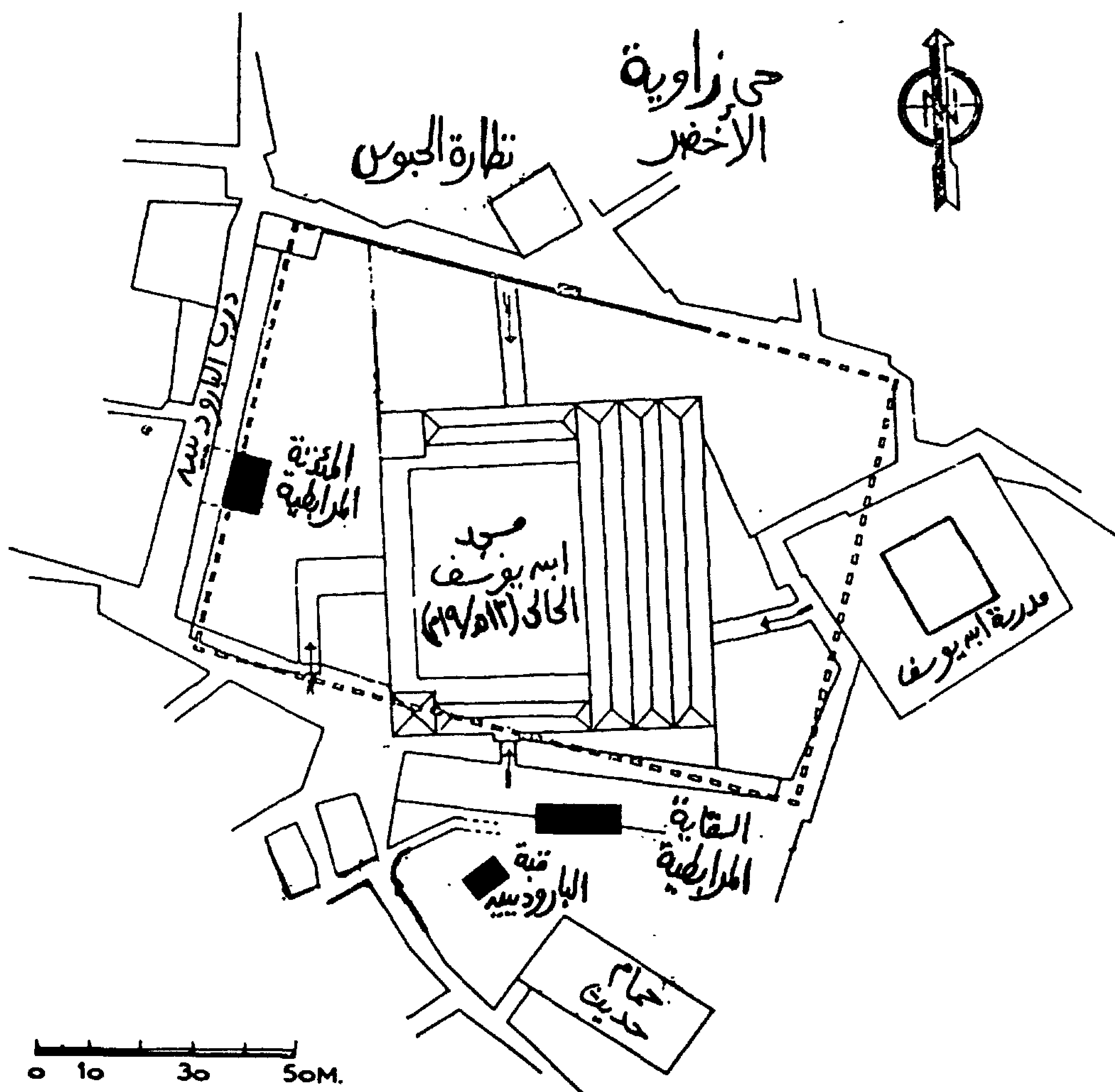


(ب)

١- طريق السويقة .
٢- درب الحمام .
٣- درب الجنائز .
٤- زنقة المواسين .

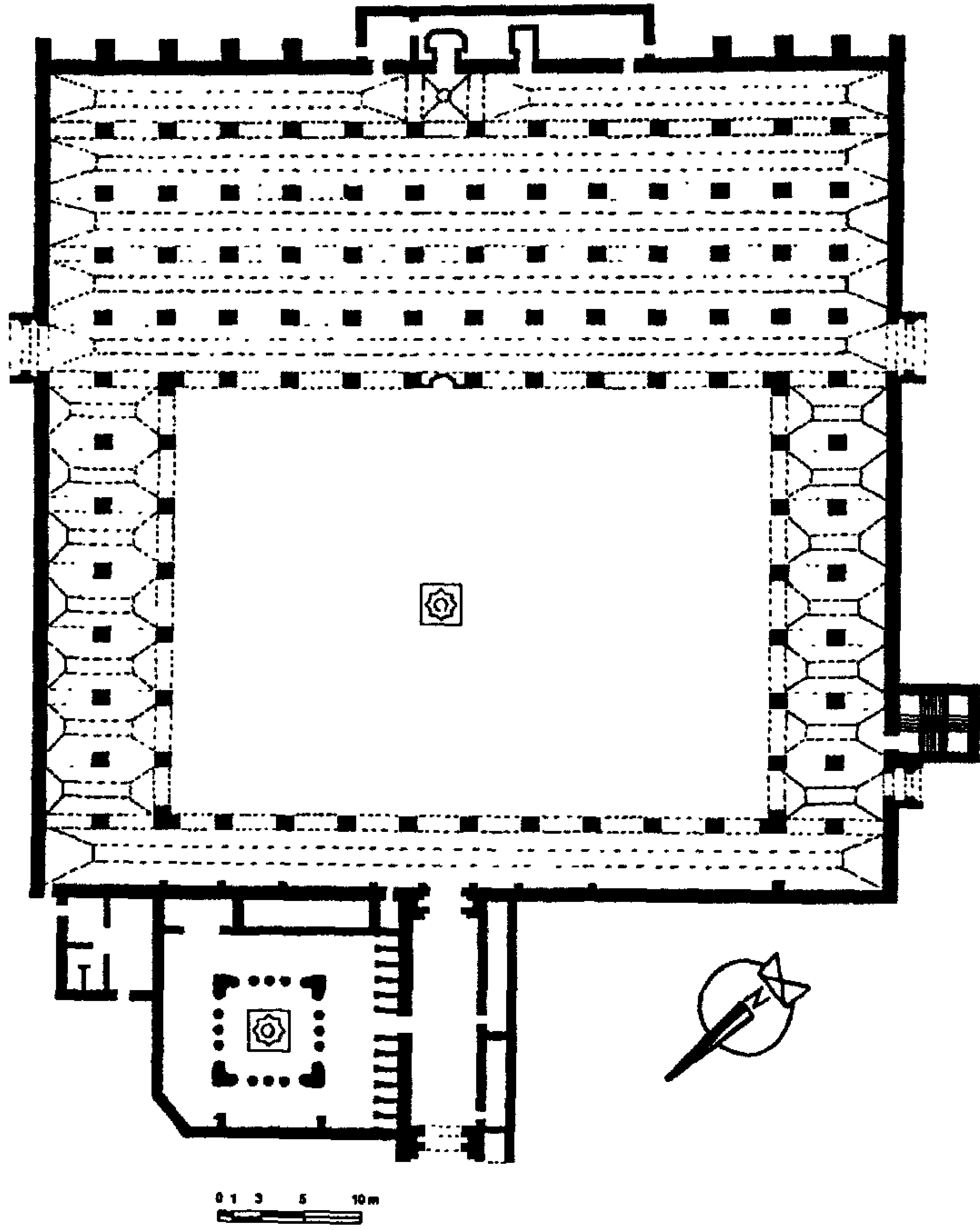
(خريطة٩/ أ-ب): خريطة توضيحية لموقع جامع الموّاسين بمدينة مراكش.

عن: مفتيشية المباني التاريخية بمراكش، بتصرف.



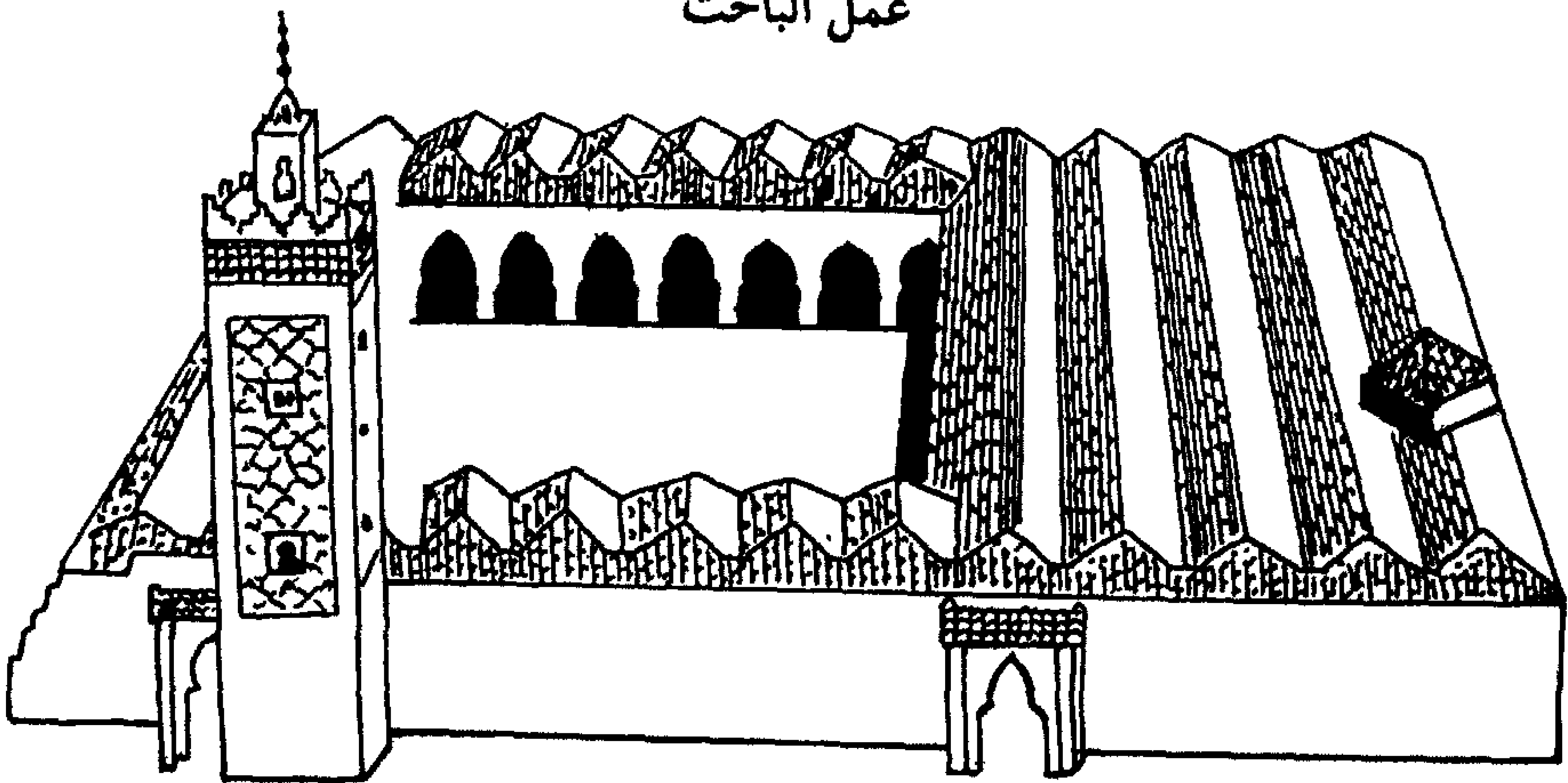
(خريطة ١٠): خريطة توضيحية لموقع مدرسة ابن يوسف بمدينة مراكش.

عن (بتصرف): Deverdun, G., : Op. Cit., PL. XXVIII.



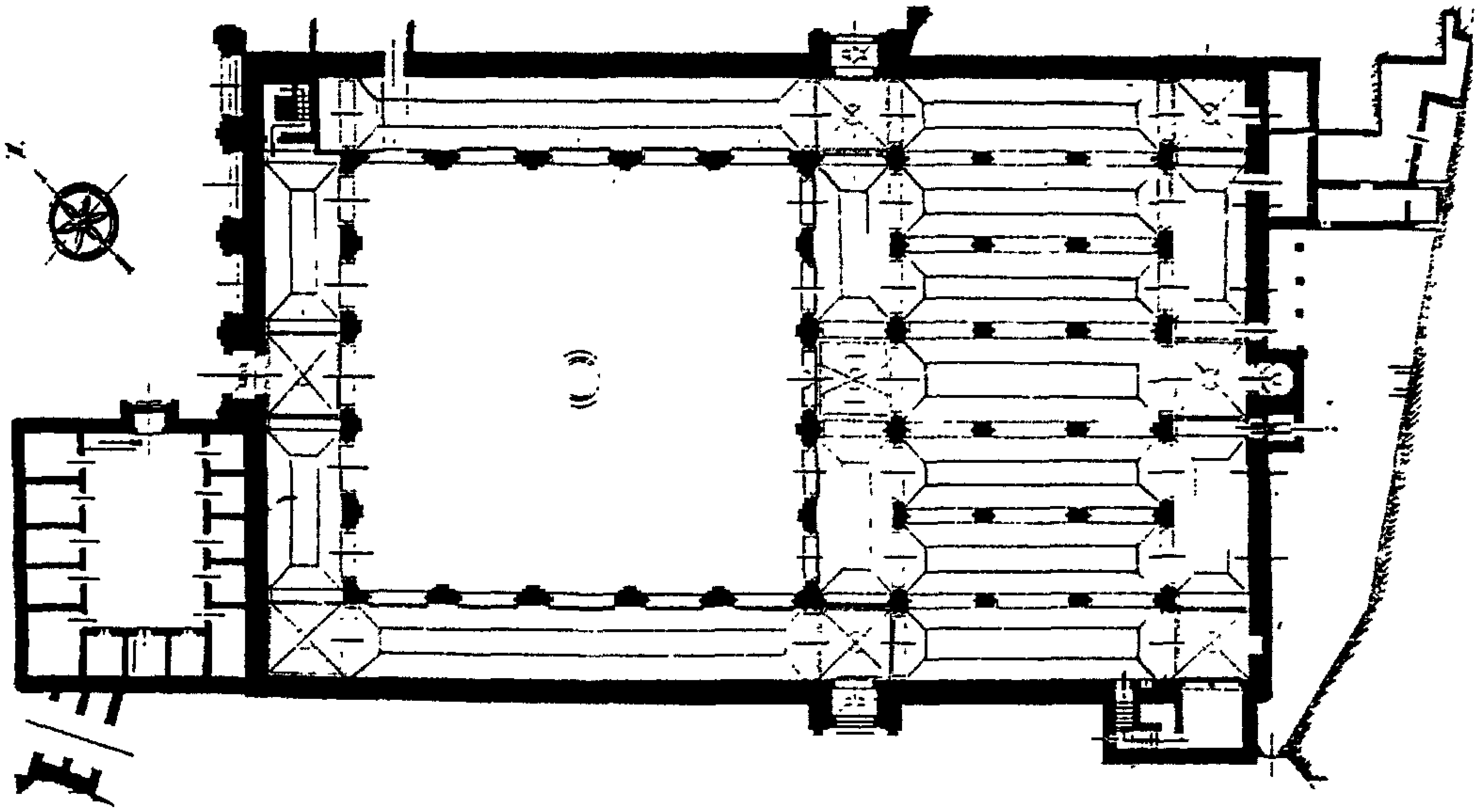
(شكل ١): مسقط أفقي للجامع الكبير بتارودانت (٩٢٣ – ٩٥٢ هـ / ١٥١٧ – ١٥٤٤م).

عمل الباحث



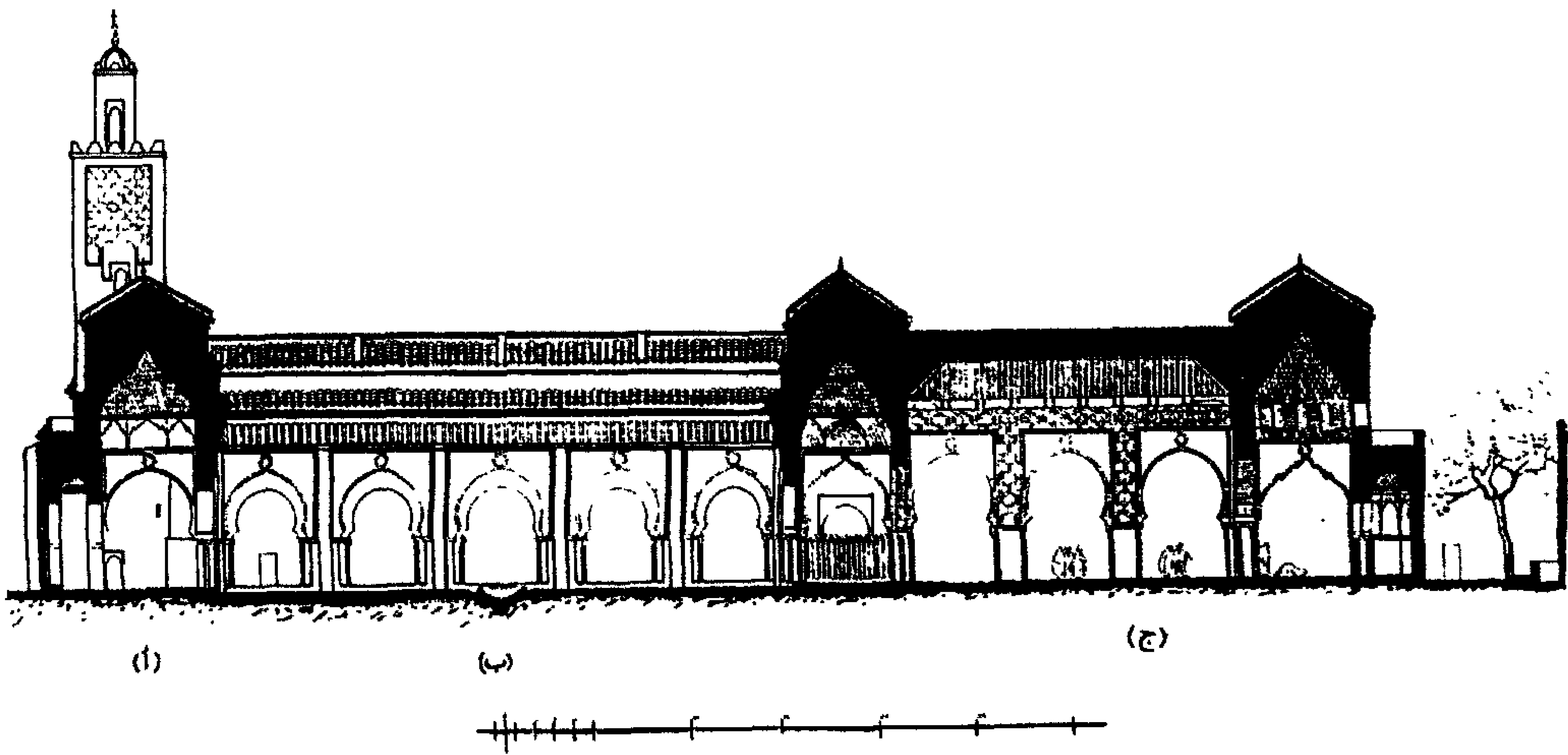
(شكل ٢): منظور للجامع الكبير بتارودانت.

عمل الباحث.



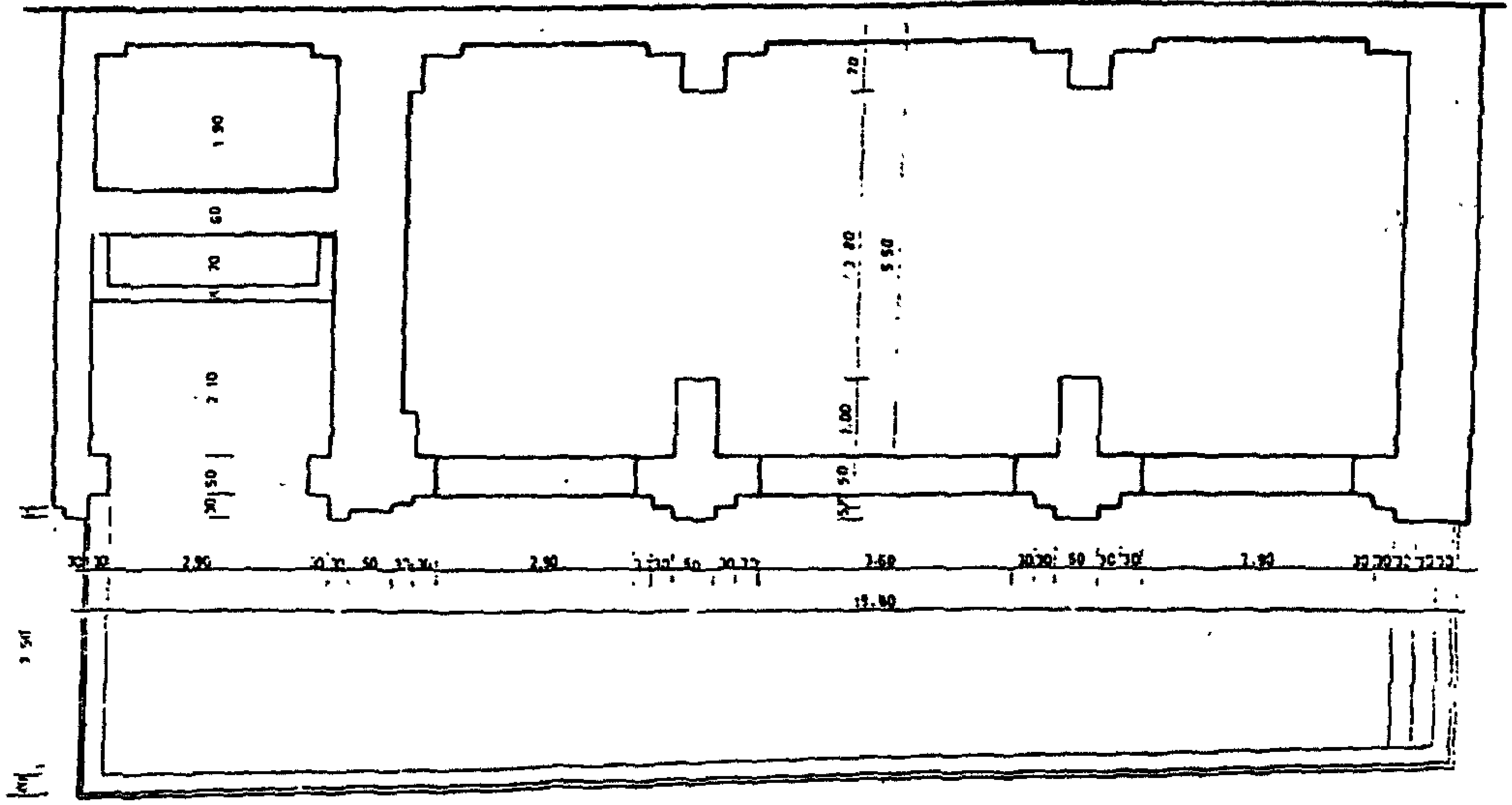
(شكل ٣): مسقط أفقي لجامع باب دكّالة بمراكش (٩٦٥ – ٩٩٥ هـ / ١٥٥٧ – ١٥٨٦م).

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



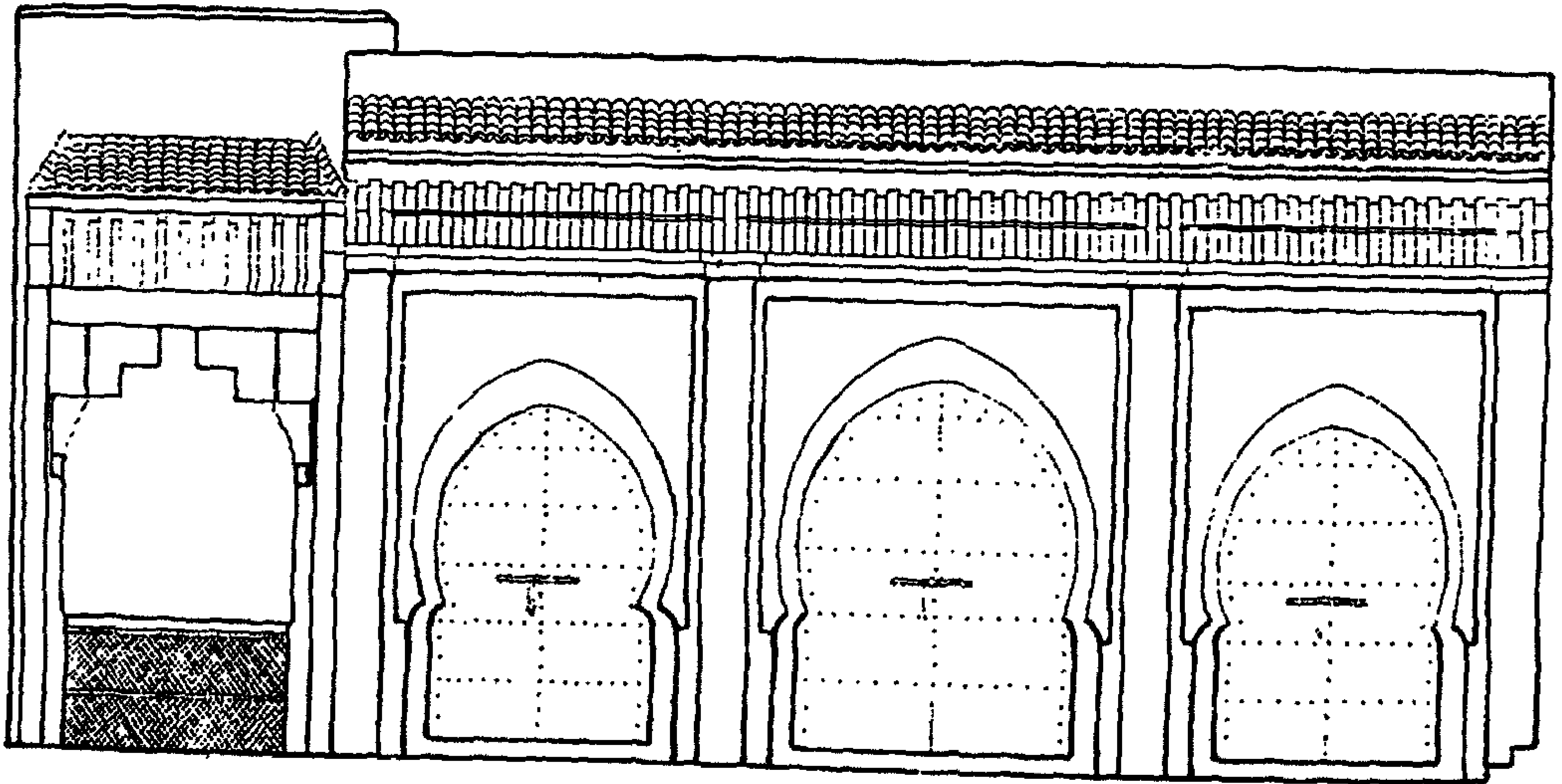
(شكل ٤/أ،ب،ج): قطاع رأسي لجامع باب دكّالة بمراكش.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



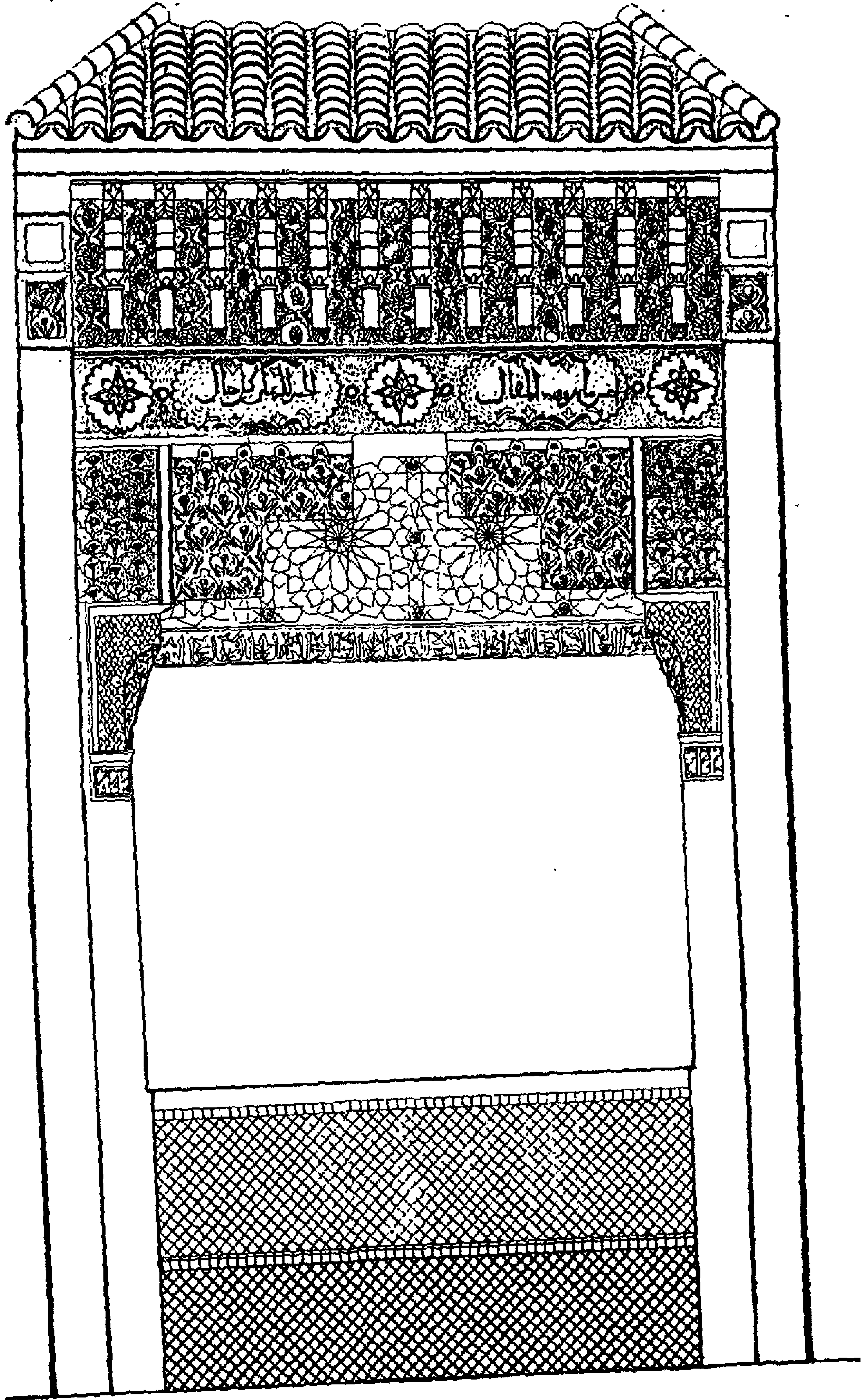
(شكل ٥): مسقط أفقي لسقاية "الحسن وعلي" التابعة لجامع باب دكّالة بمراكش.

عن:هفتشية المباني التاريخية بمراكش.



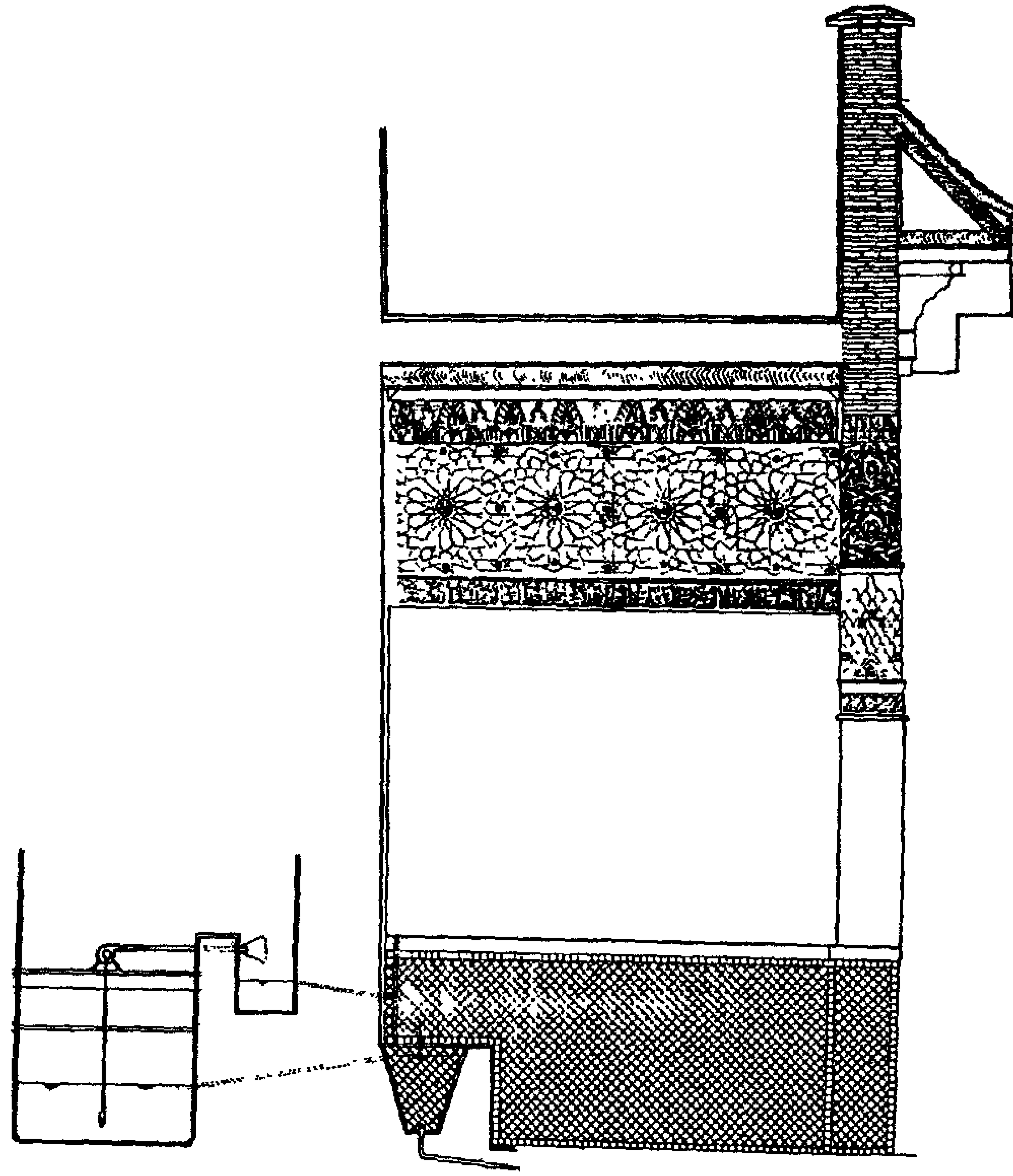
(شكل ٦): شكل توضيحي لواجهة سقاية "الحسن وعلي" التابعة لجامع باب دكّالة بمراكش.

عن:هفتشية المباني التاريخية بمراكش.



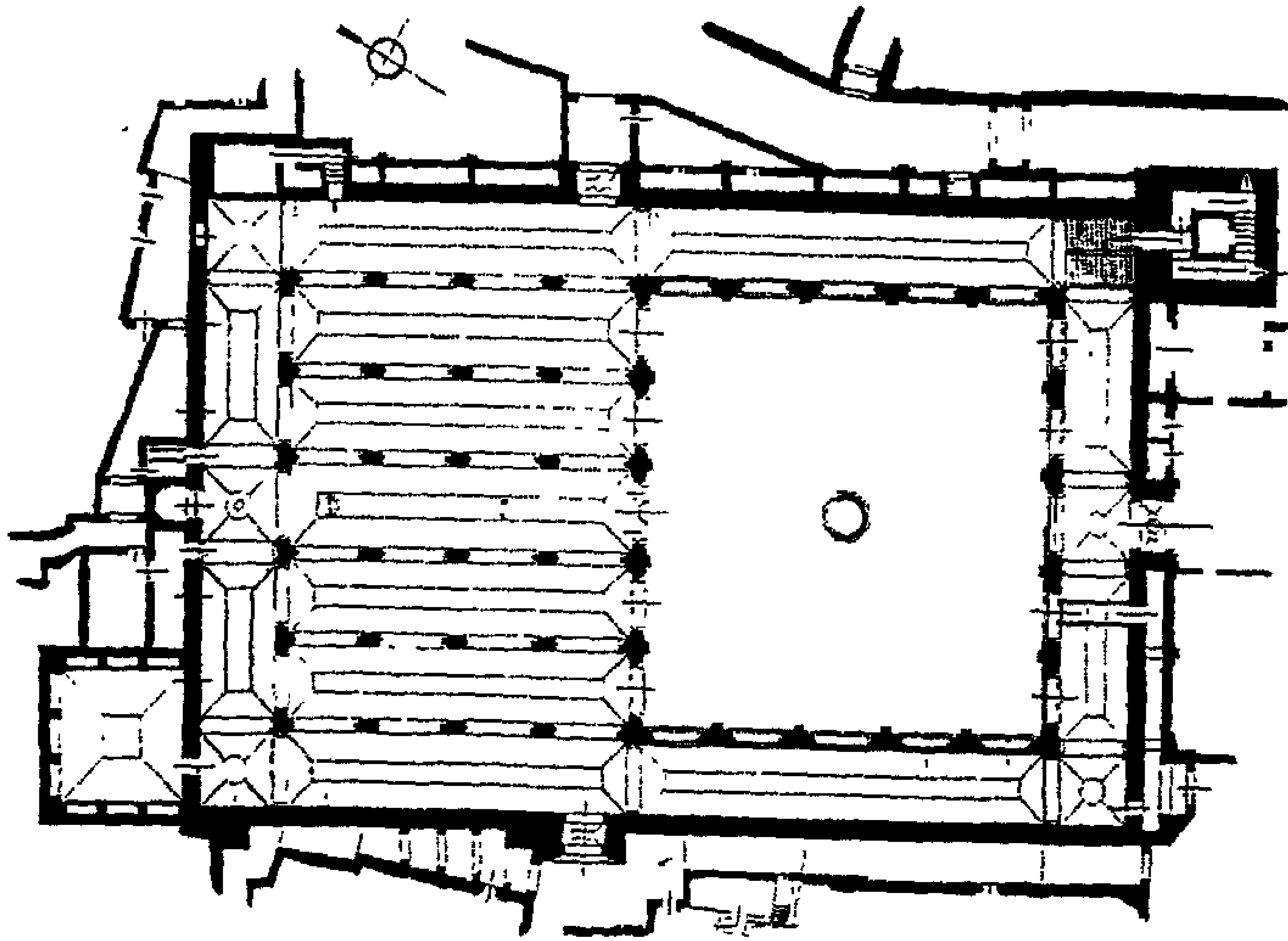
(شكل ٧): شكل توضيحي للقسم الخاص بشرب الآدميين بسقاية "الحسن وعلي" بمراكش.

عن:هفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٨): شكل توضيحي لطريقة تزويد سقاية "الحسن وعلي" بالماء.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٩): مسقط أفقي لجامع المواسين بمراكش (٩٧٠ هـ / ١٥٦٢م).

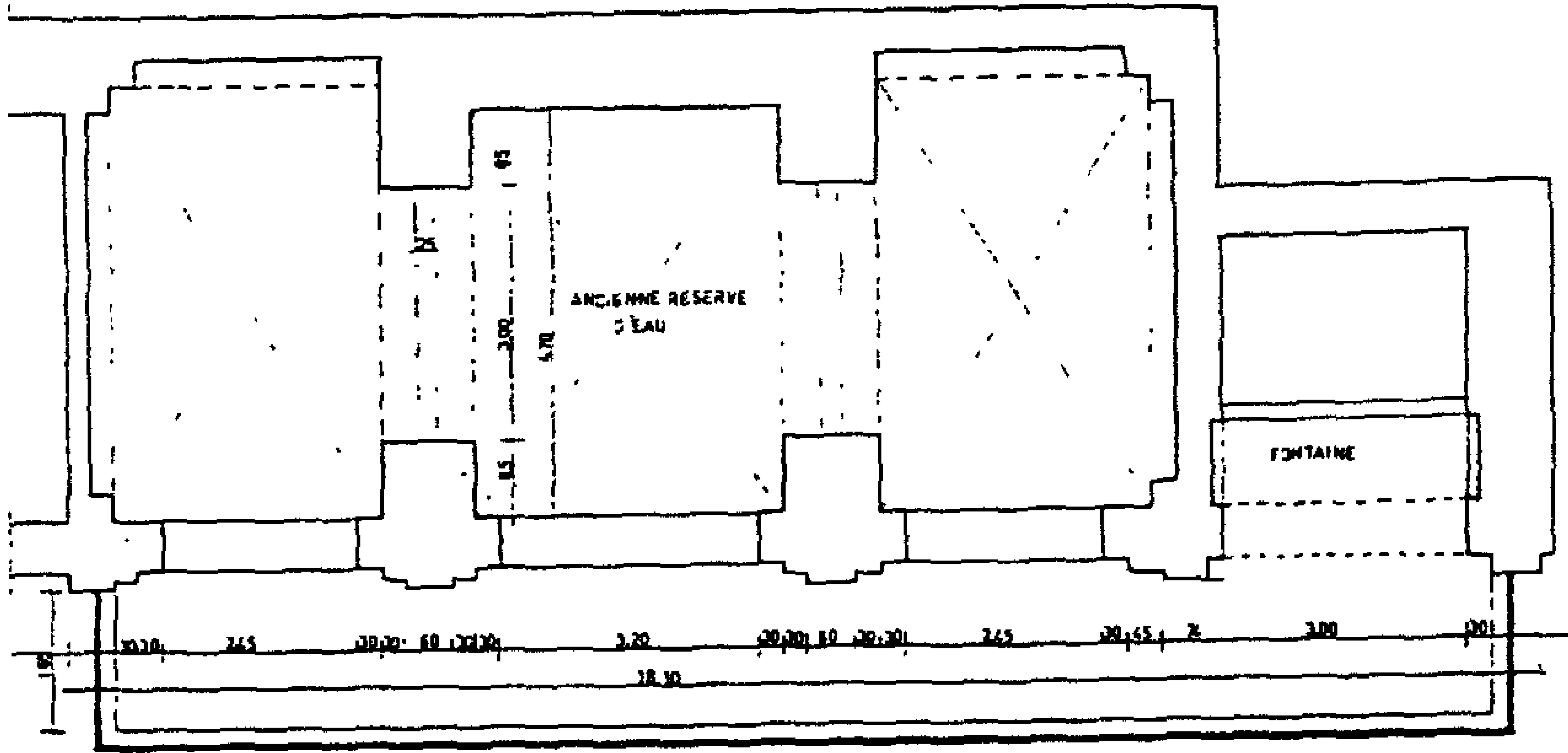
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(ج)　　　　　　　　　　　　(ب)　　　　　　(أ)

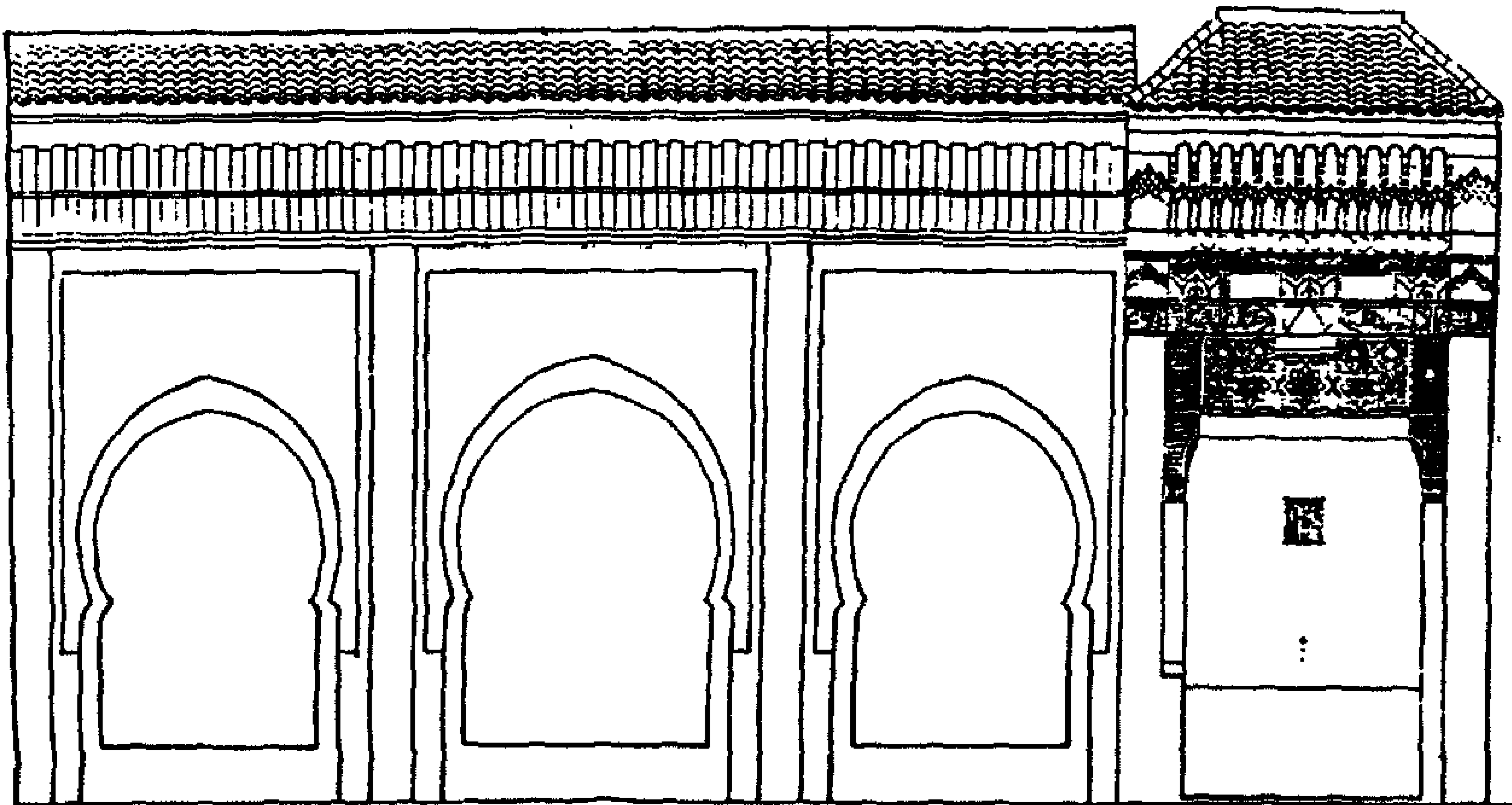
(شكل ١٠ /أ،ب،ج): قطاع رأسي لجامع المواسين بمراكش.

عن:مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



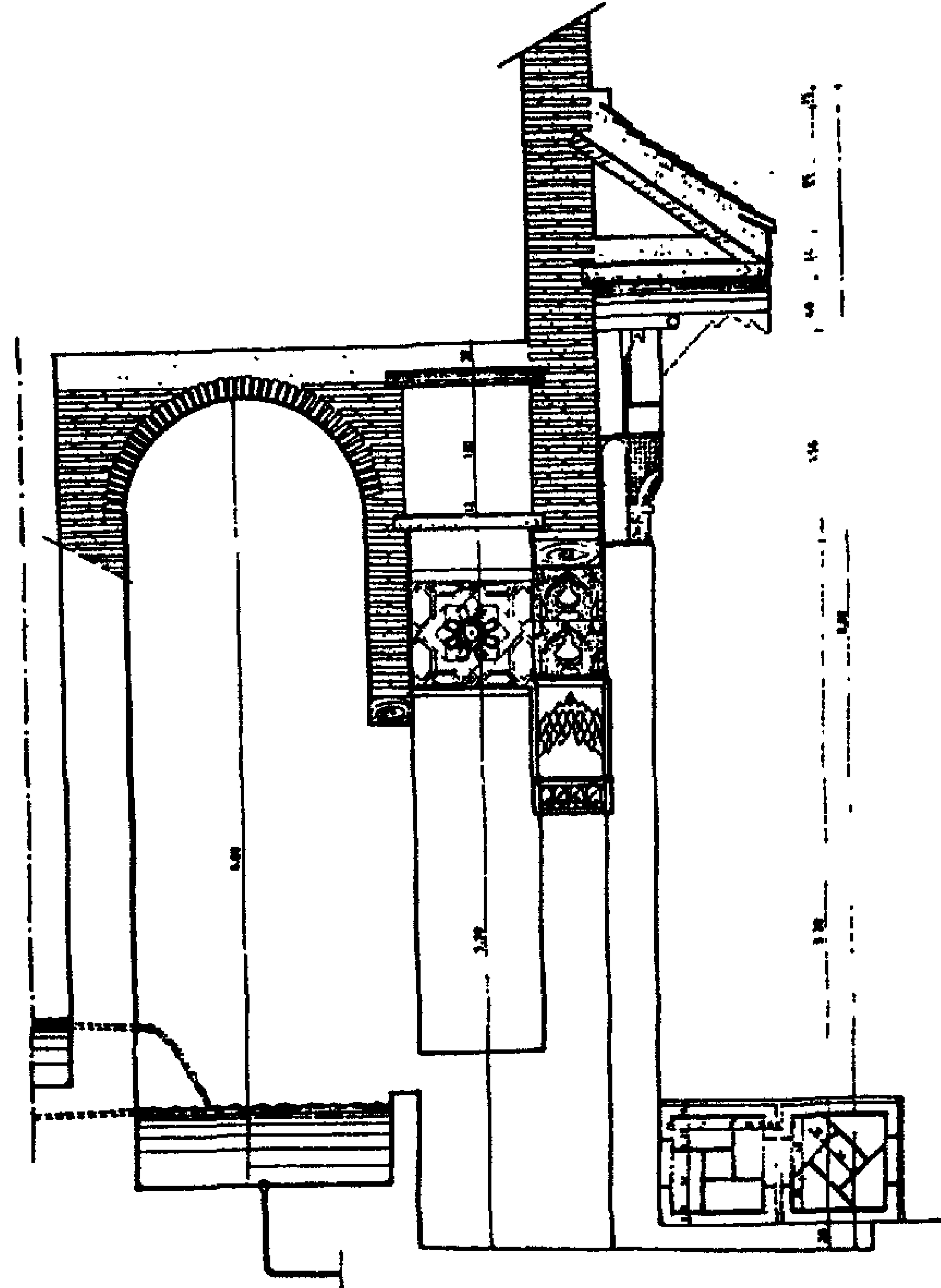
(شكل ١١): مسقط أفقي للسقاية التابعة لجامع المواسين بمراكش.

عن:مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



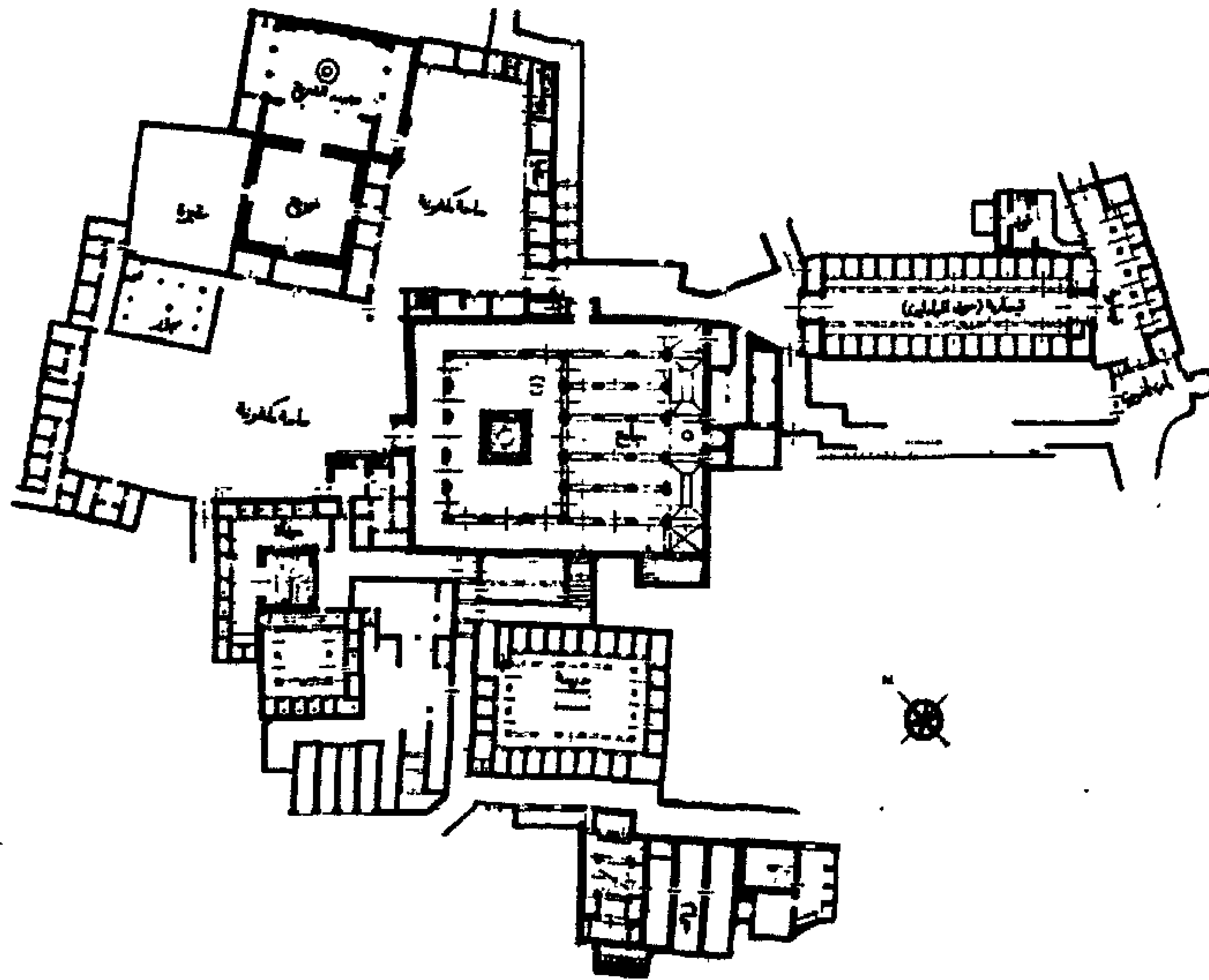
(شكل ١٢): شكل توضيحي لواجهة السقاية التابعة لجامع المواسين بمراكش.

عن:مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



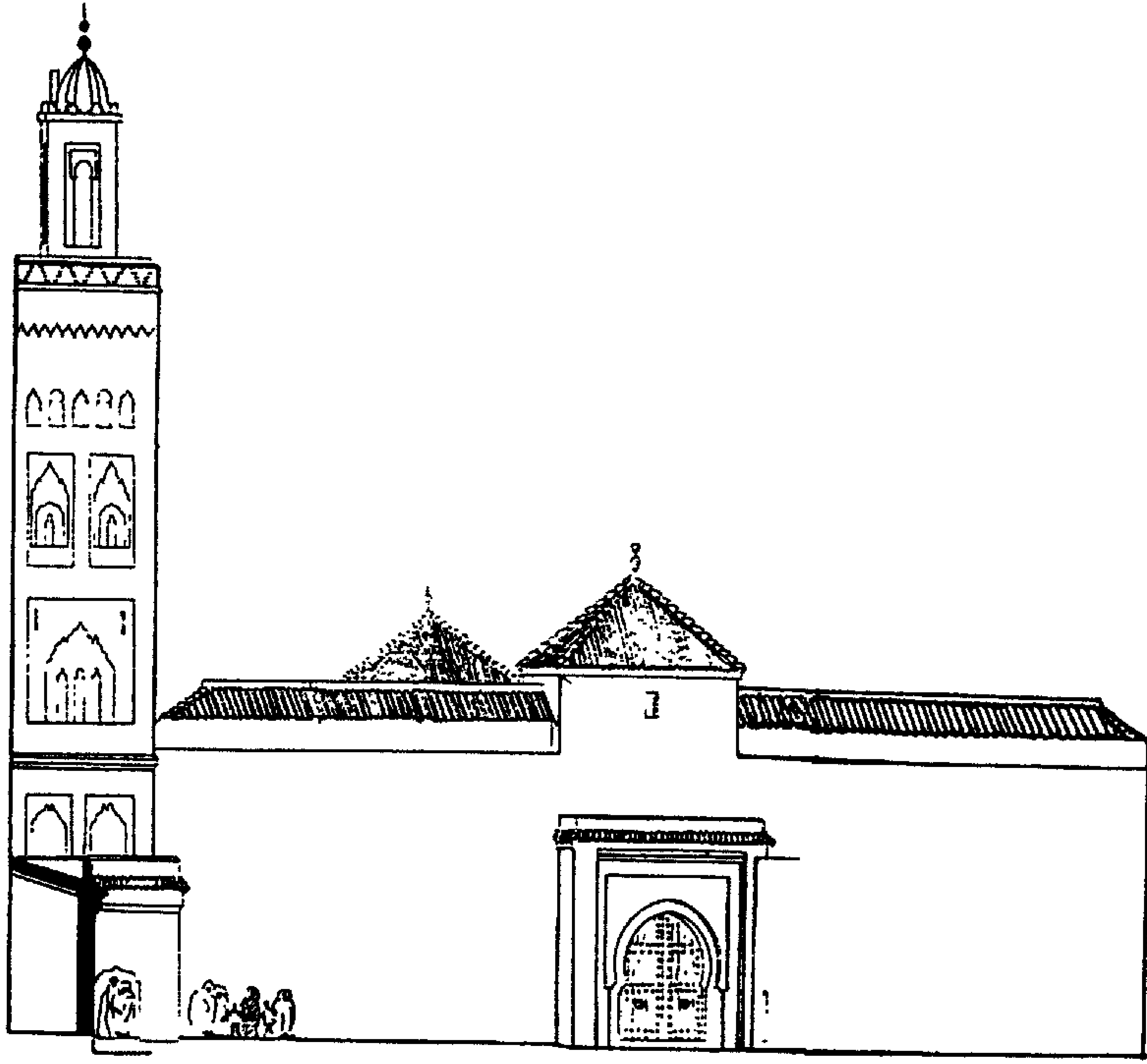
(شكل١٣): شكل توضيحي لطريقة تزويد السقاية التابعة لجامع الموّاسين بالماء.

عن:هفتشية المباني التاريخية بمراكش.

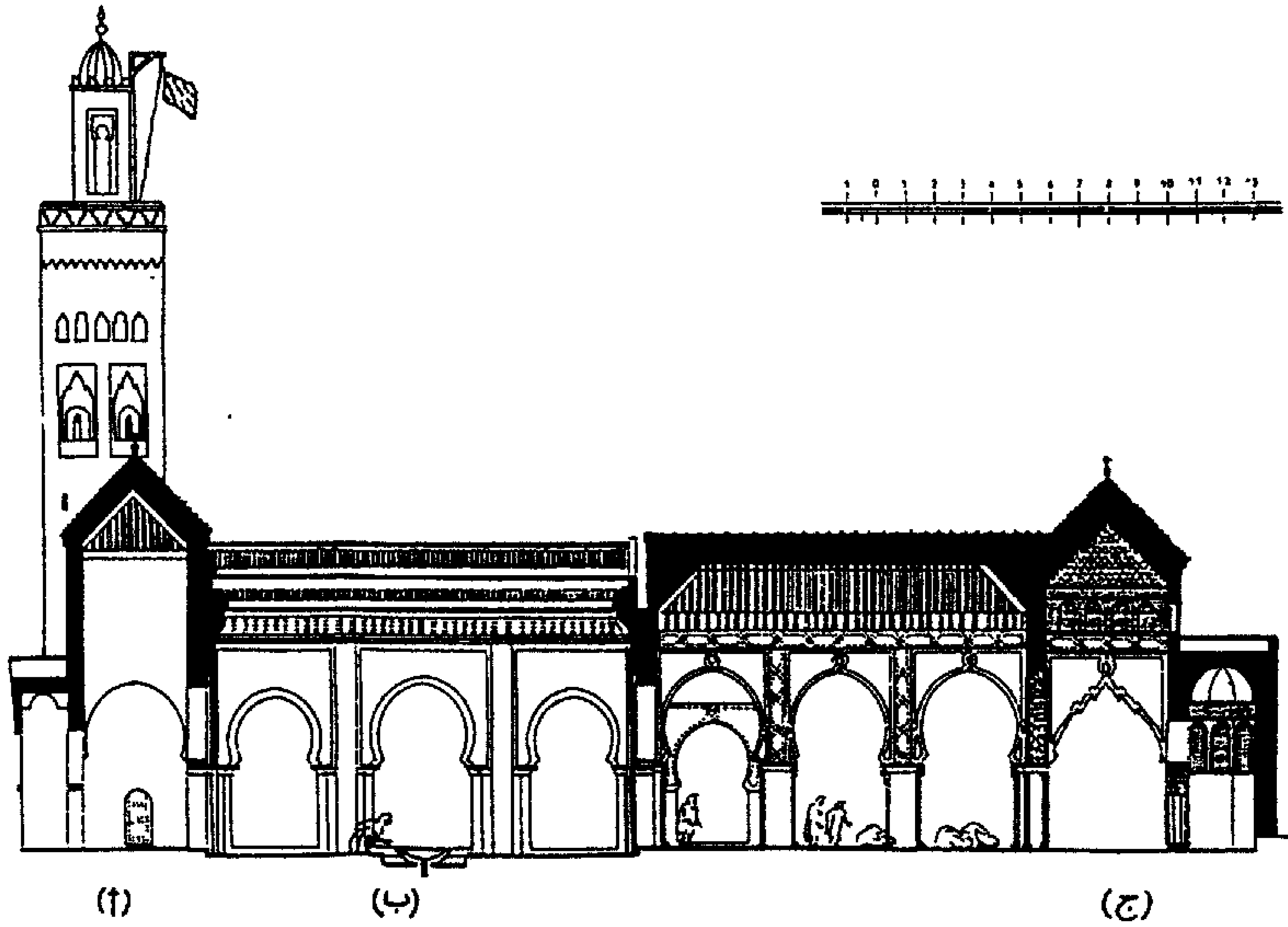


(شكل ١٤): مسقط أفقي لجامع أبي العباس السبتي وملحقاته بمراكش (١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م).

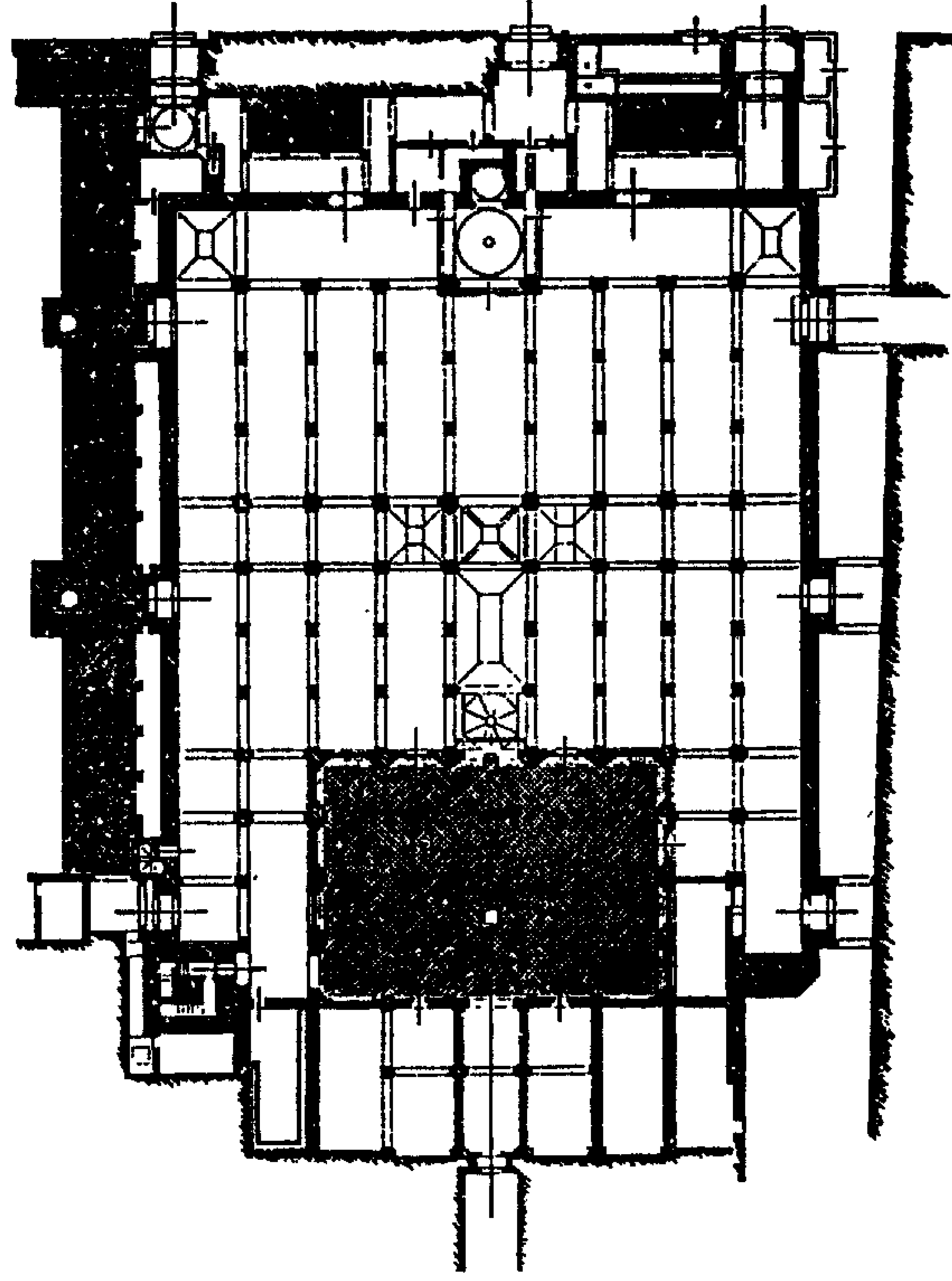
عن:هفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ١٥): شكل توضيحي للواجهة الغربية لجامع أبي العباس السبتي بمراكش.
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش، بتصرف.

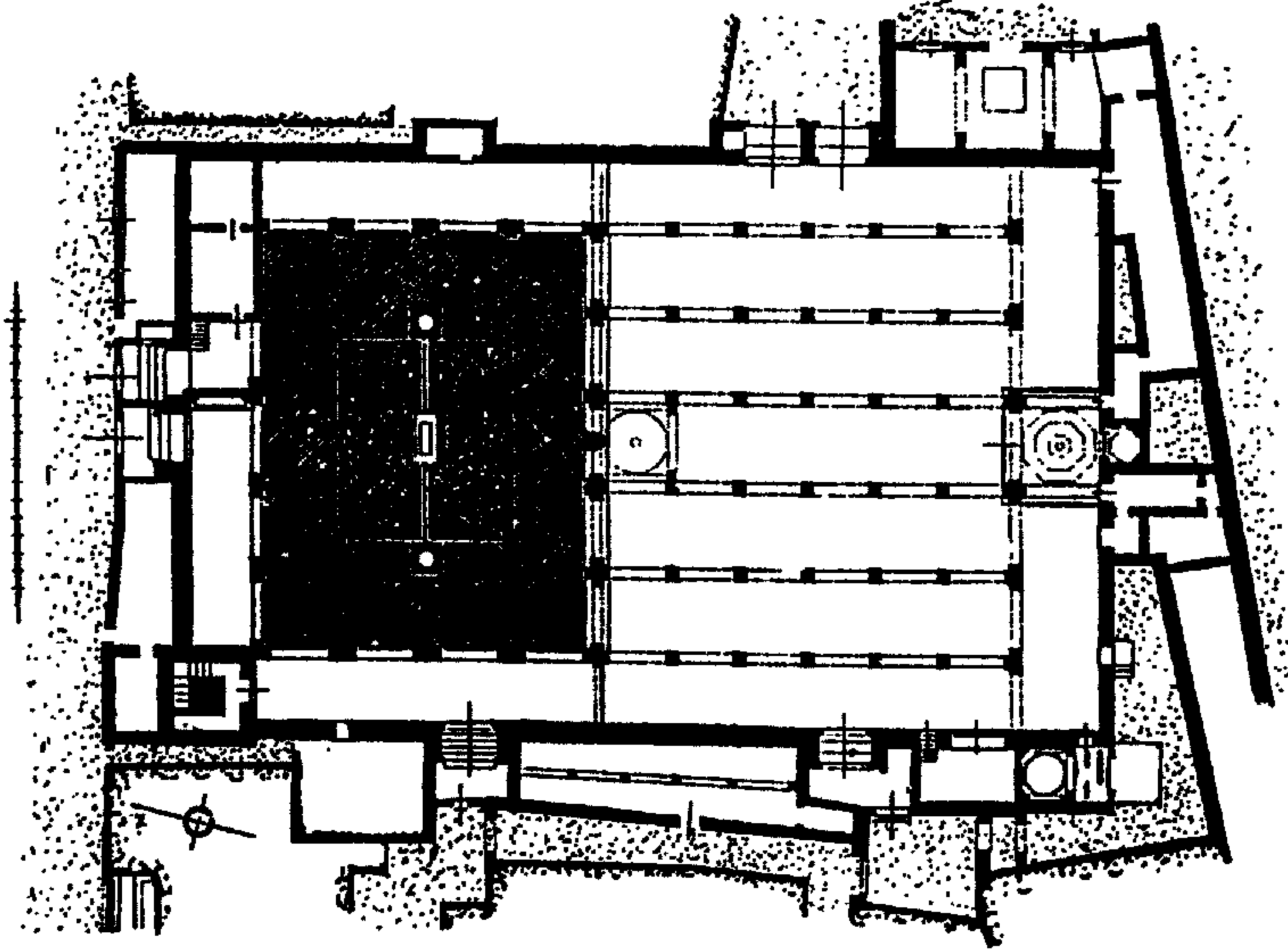


(شكل ١٦/أ،ب،ج): قطاع رأسي لجامع أبي العباس السبتي بمراكش.
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



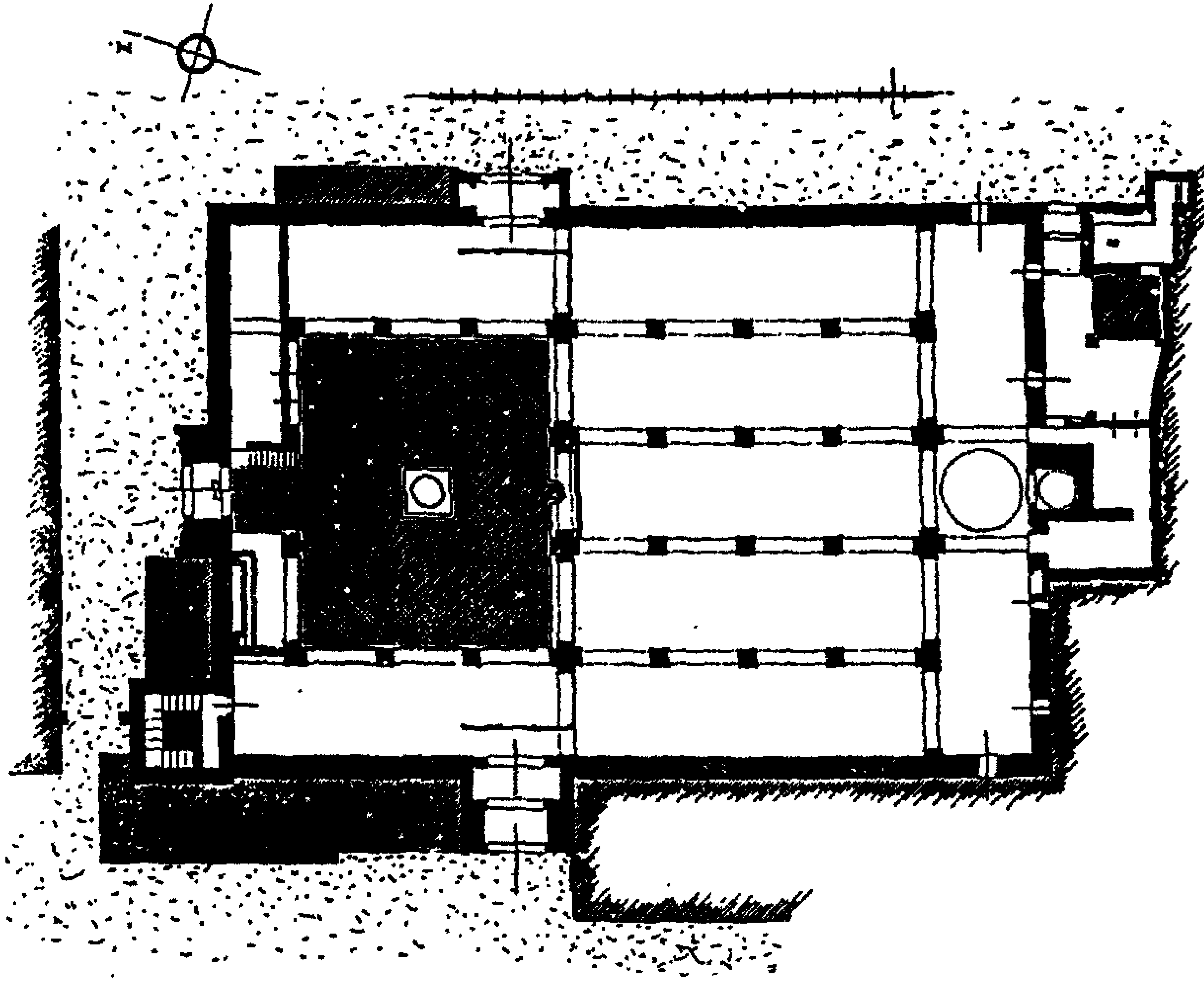
(شكل ١٧): مسقط أفقي لجامع تازة بعد التوسعات المرينية.

عن:.Maslow, B.,: Les Mosquées de Fès, PL. 6



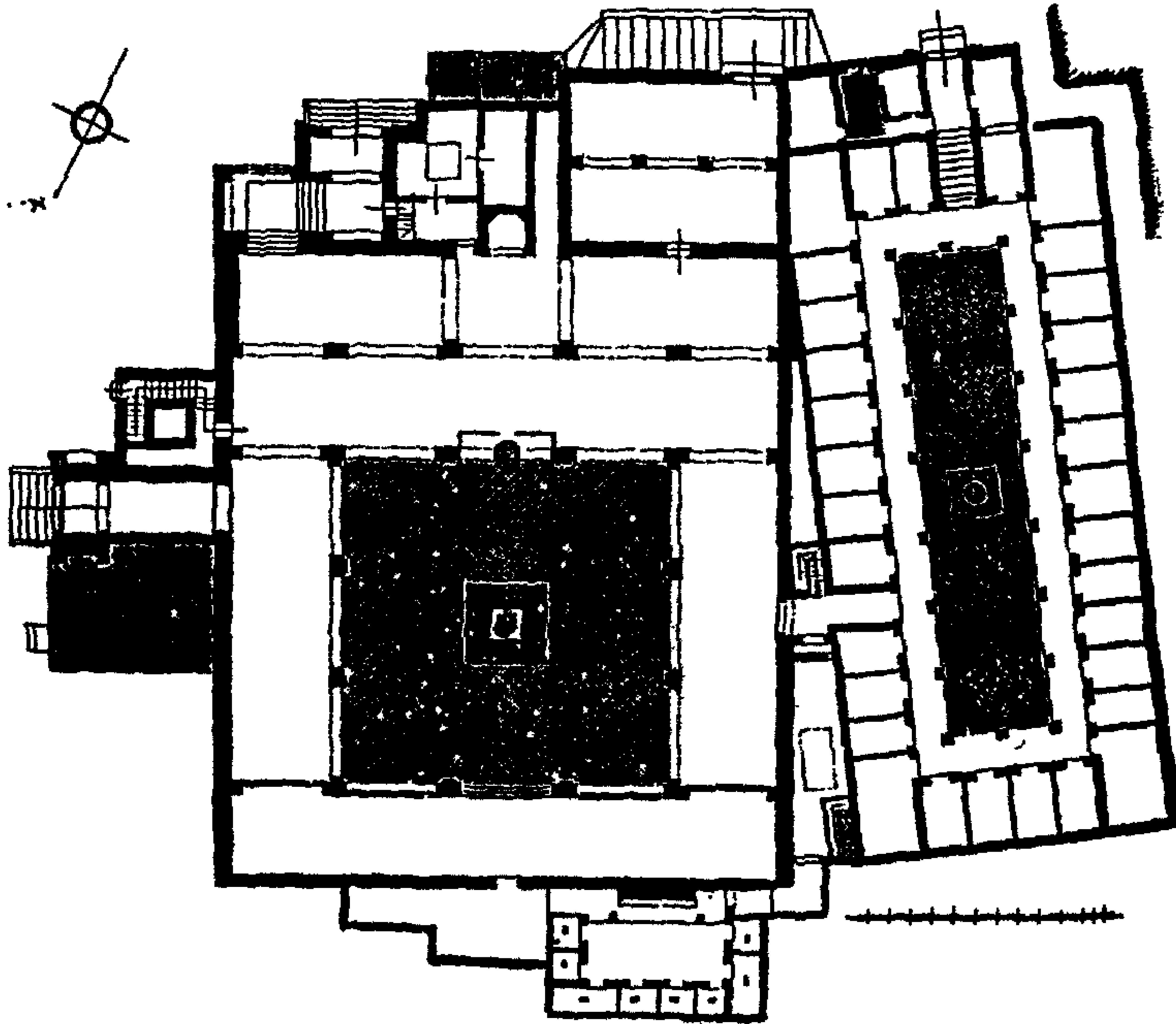
(شكل ١٨): مسقط أفقي للجامع الكبير بفاس الجديد.

عن: .Maslow, B.,: Ibid., PL. 10



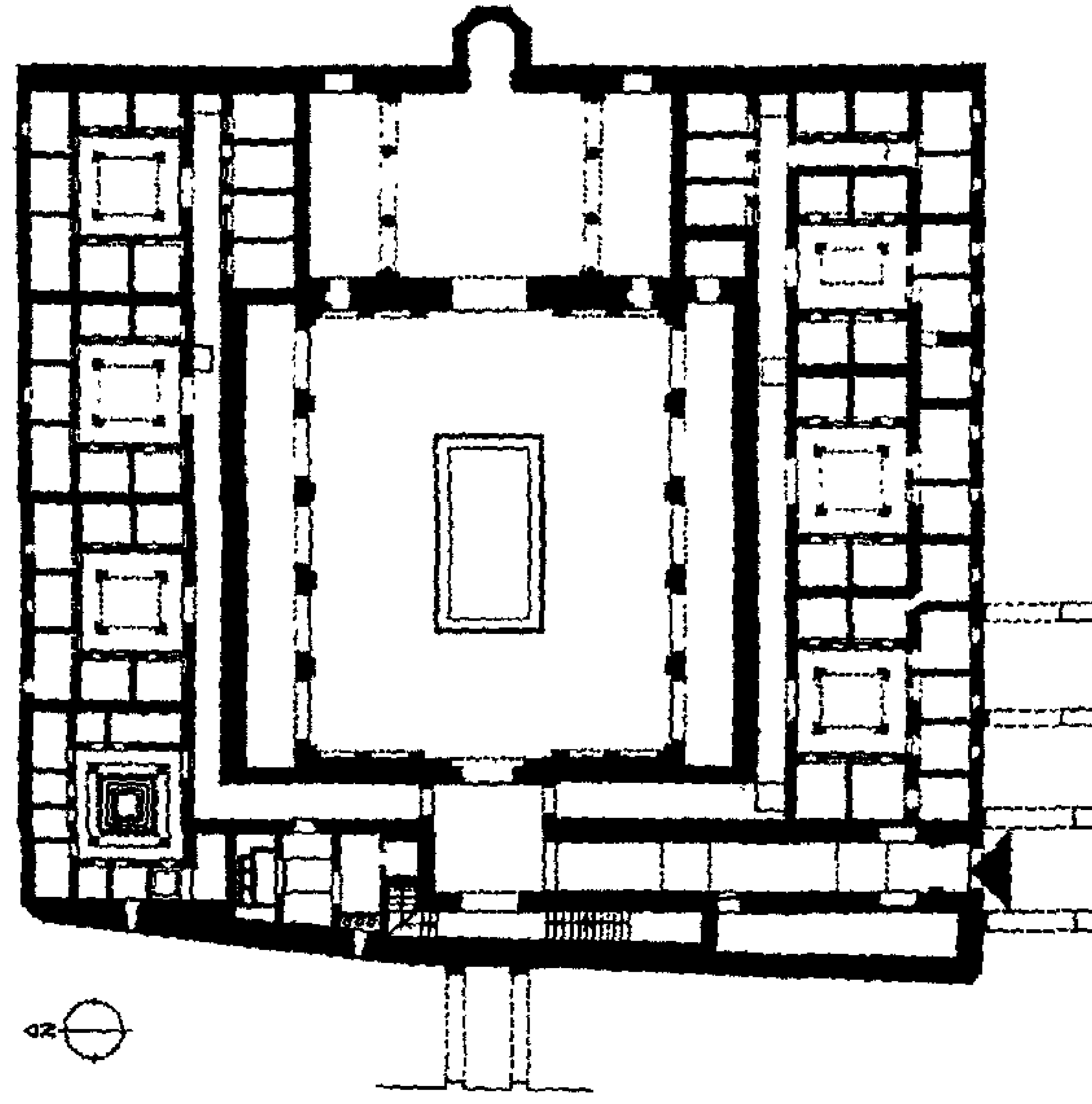
(شكل ١٩): مسقط أفقي لمسجد الحمراء بفاس الجديد.

عن:.Maslow, B.,: Ibid., PL. 15



(شكل ٢٠): مسقط أفقي لمسجد باب الجيسة بفاس القديمة.

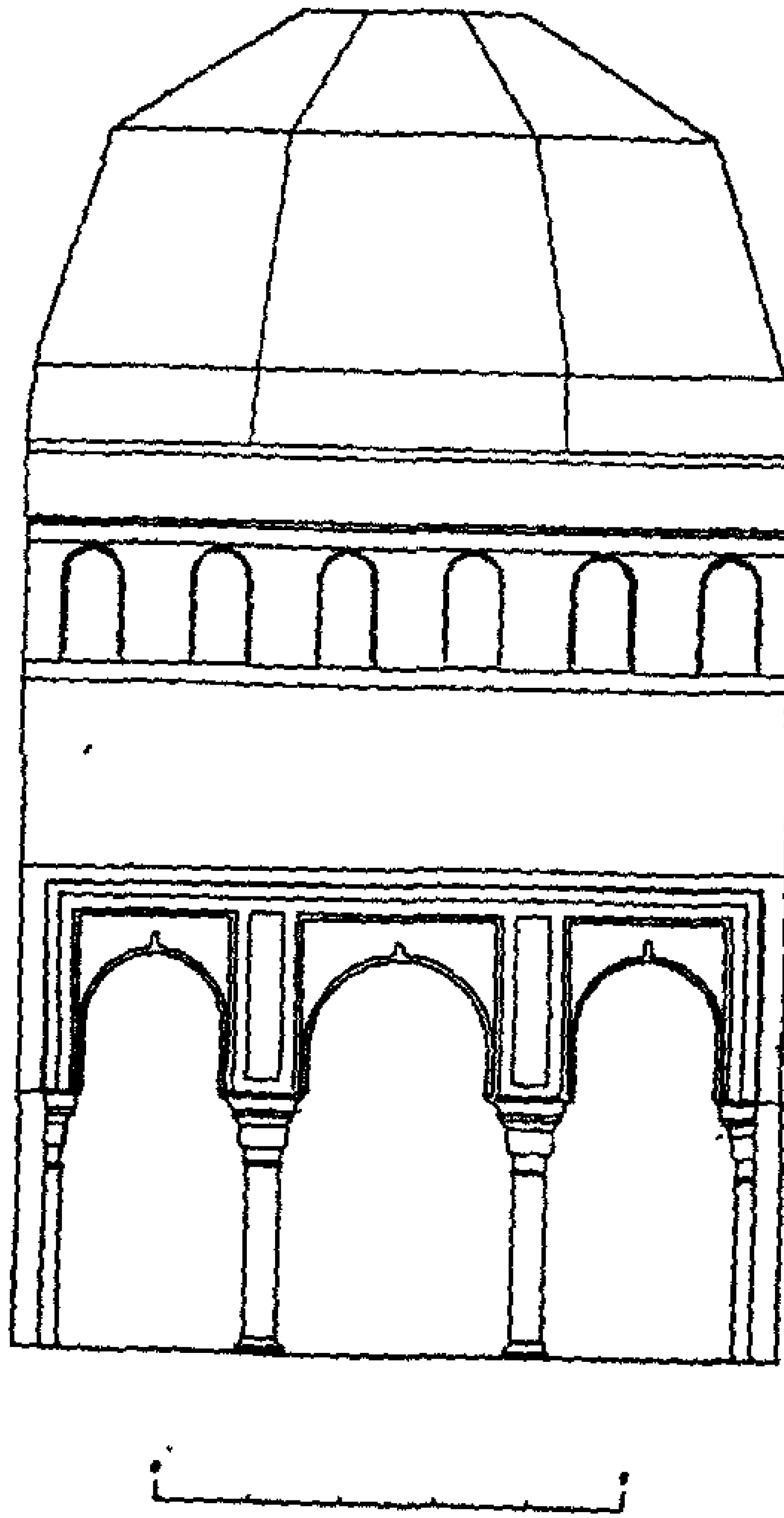
عن: .Maslow, B.,: Ibid., PL. 32



(شكل ٢١): مدرسة ابن يوسف بمراكش (٩٧٢ هـ / ١٥٦٤م).

مسقط أفقي للدور الأرضي.

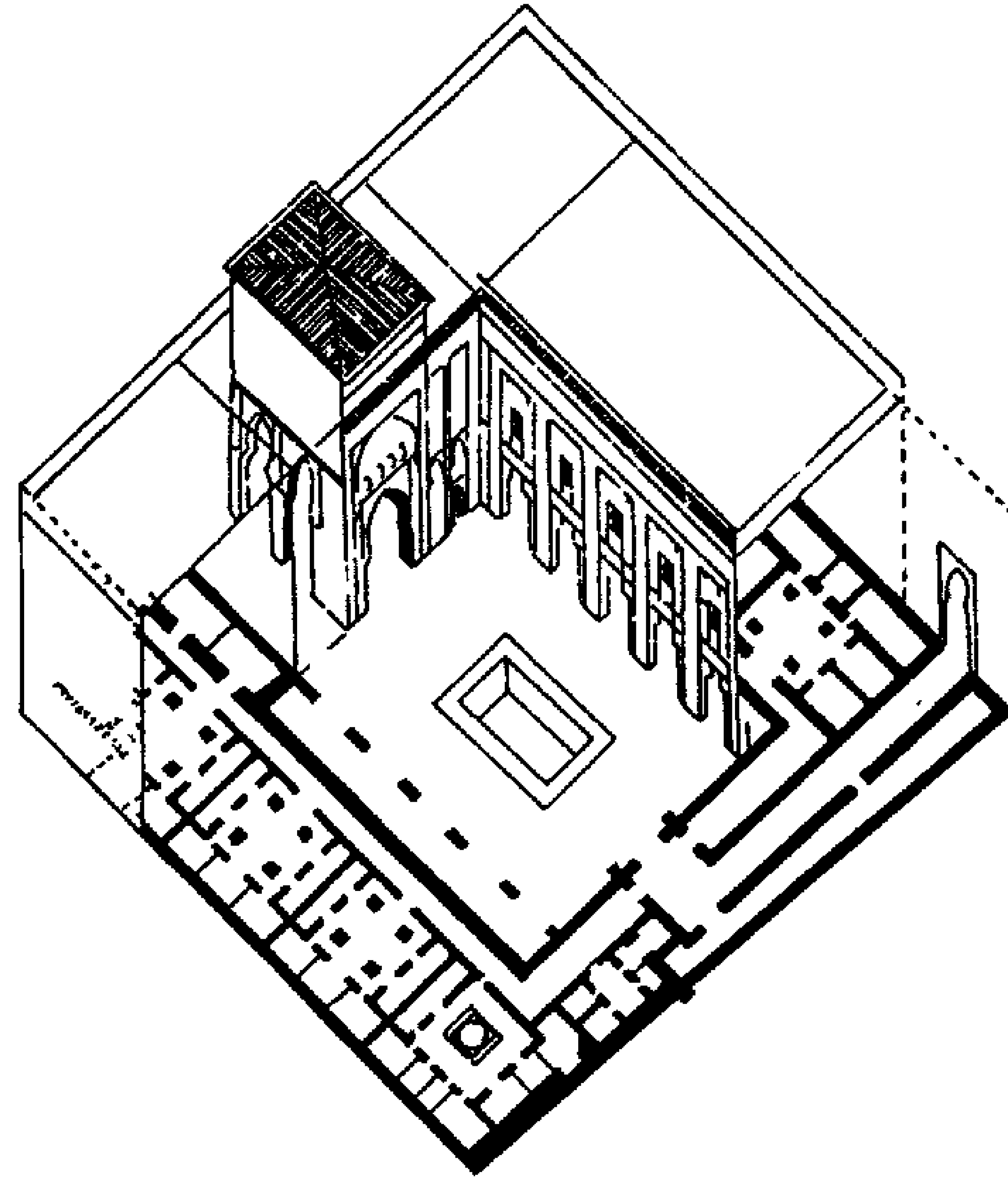
عن: Triki, H., et Dovifat, A.,: Medersa de Marrakech, Fig. 162.



(شكل ٢٢): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

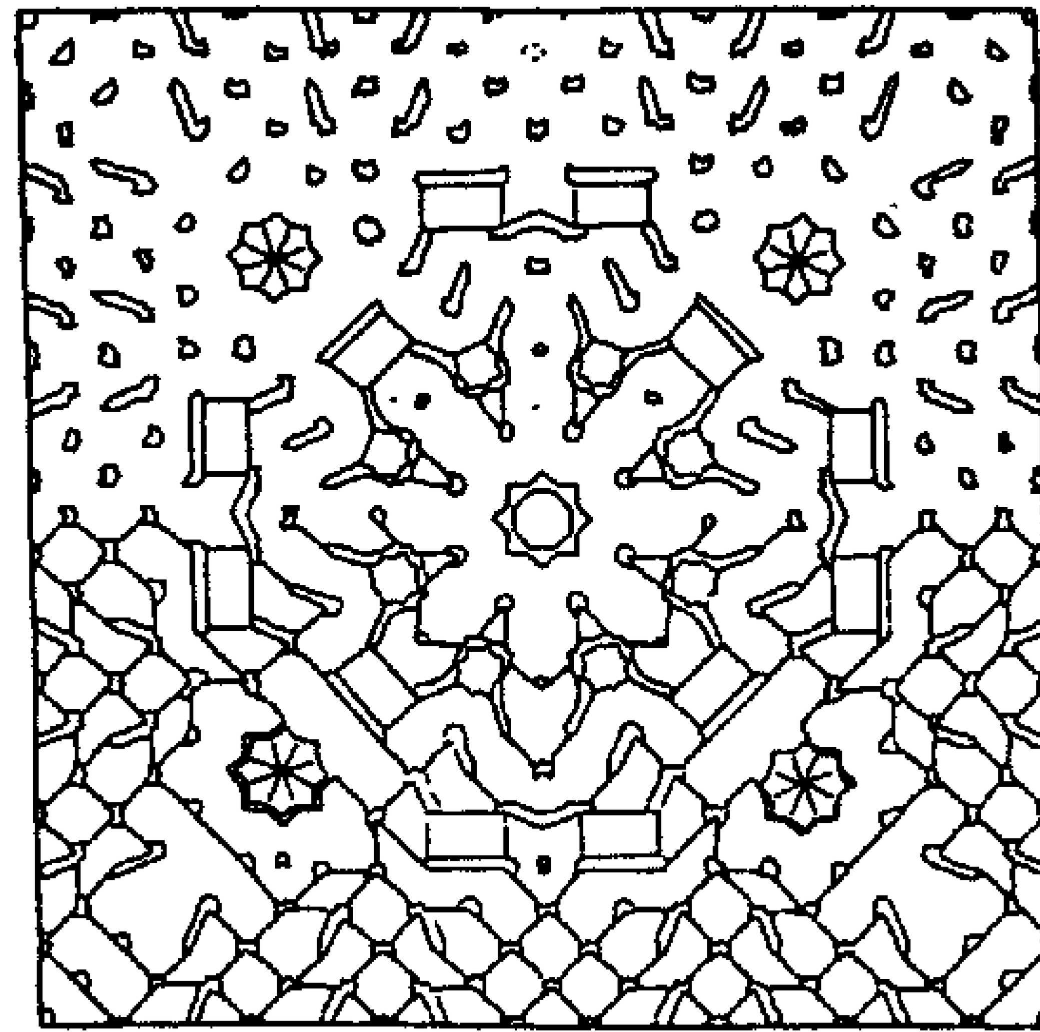
شكل توضيحي للقسم الأوسط لبيت الصلاة.

عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 182.

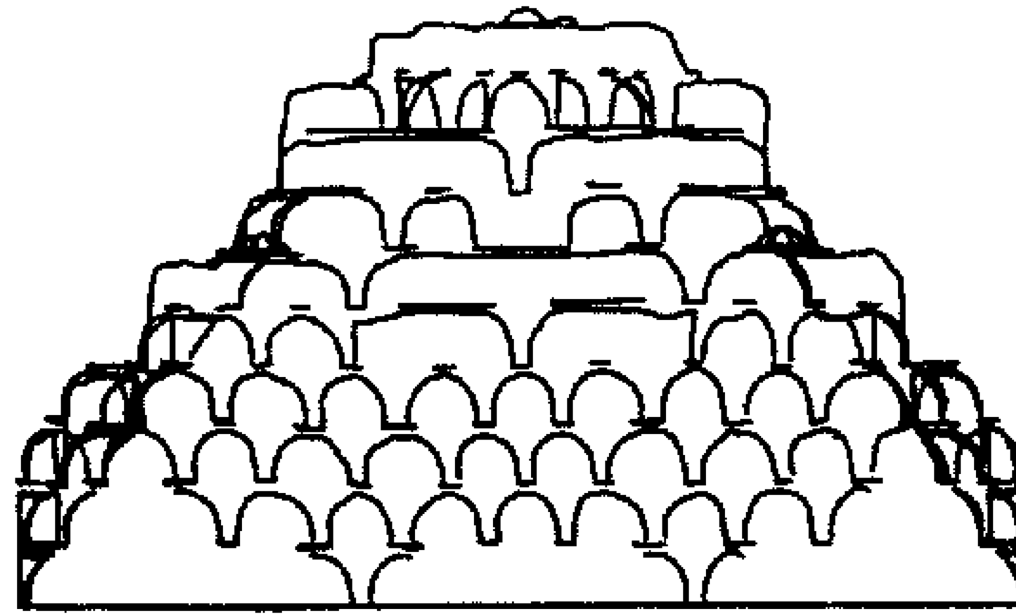


(شكل ٢٣): منظور لمدرسة ابن يوسف بمراكش.

عن: محمد خصيف: مدرسة ابن يوسف أكبر مدرسة عتيقة بالمغرب الأقصى، ص ٥٧.



(أ)



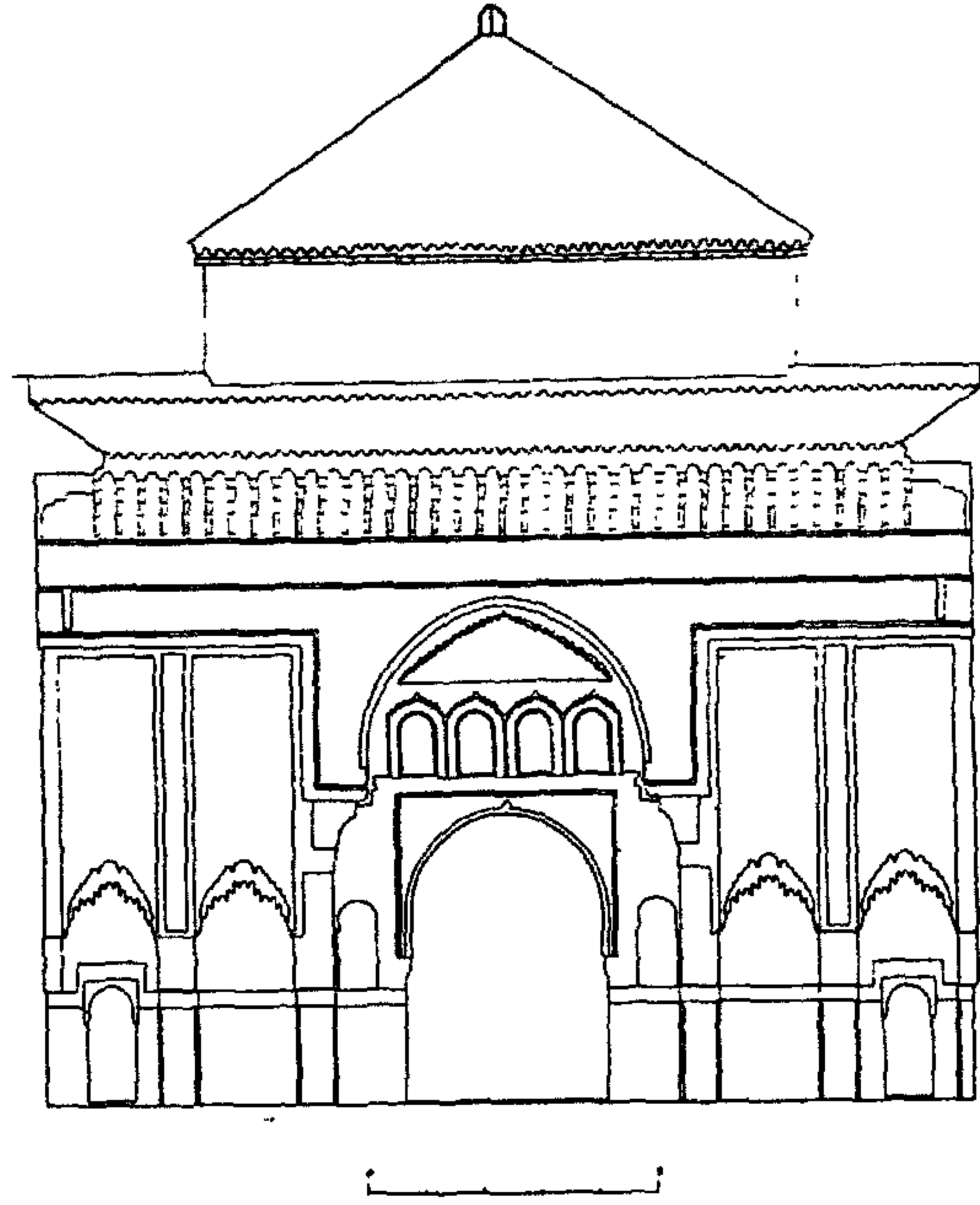


(ب)

(شكل ٢٤ /أ،ب): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

شكل توضيحي للقبة التي تغطي المنطقة التي تتقدم المدخل الرئيس.

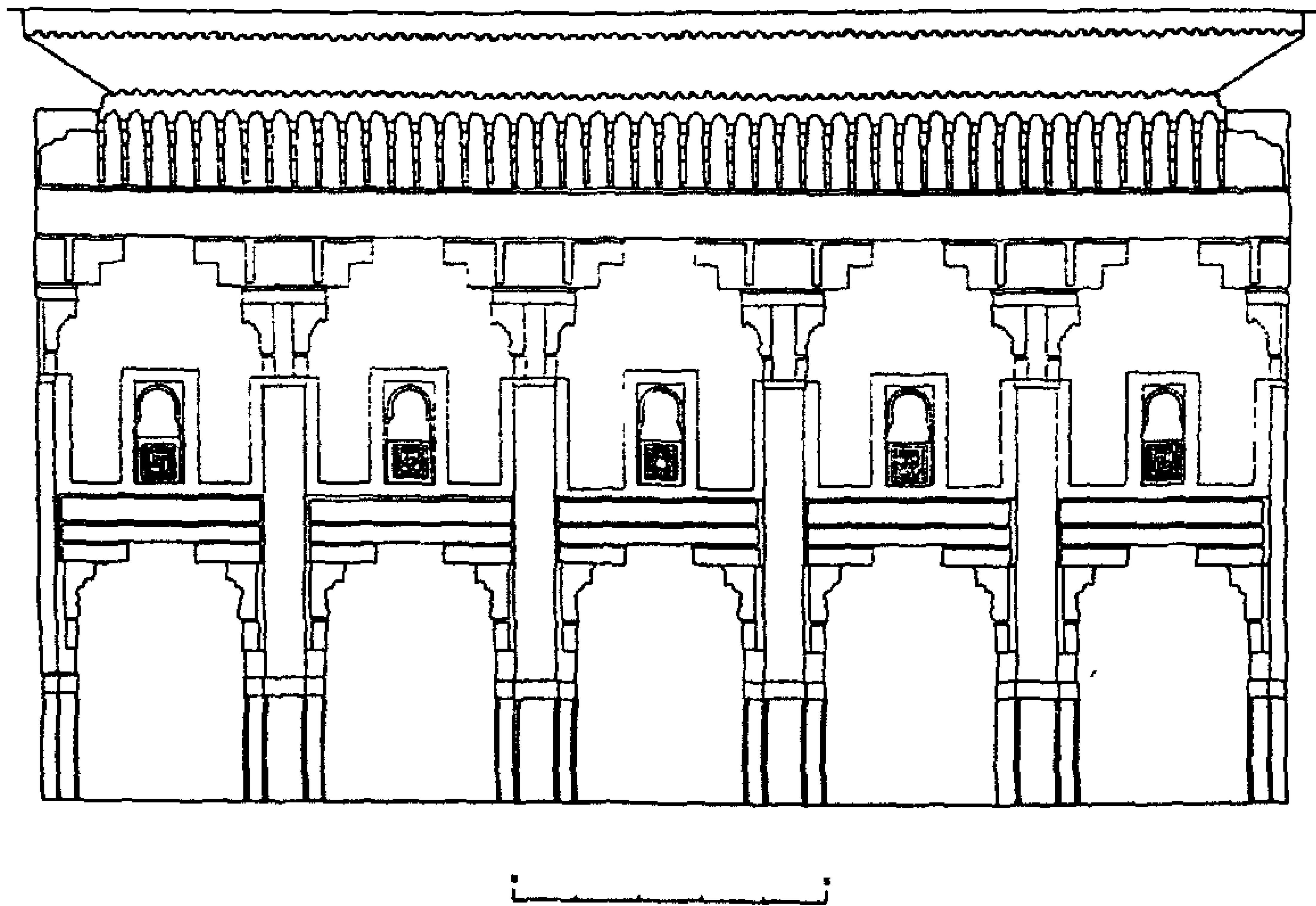
عن: Triki, H., et Dovifat: Op. Cit., Fig. 161.



(شكل ٢٥): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

الواجهة الشرقية للحصن.

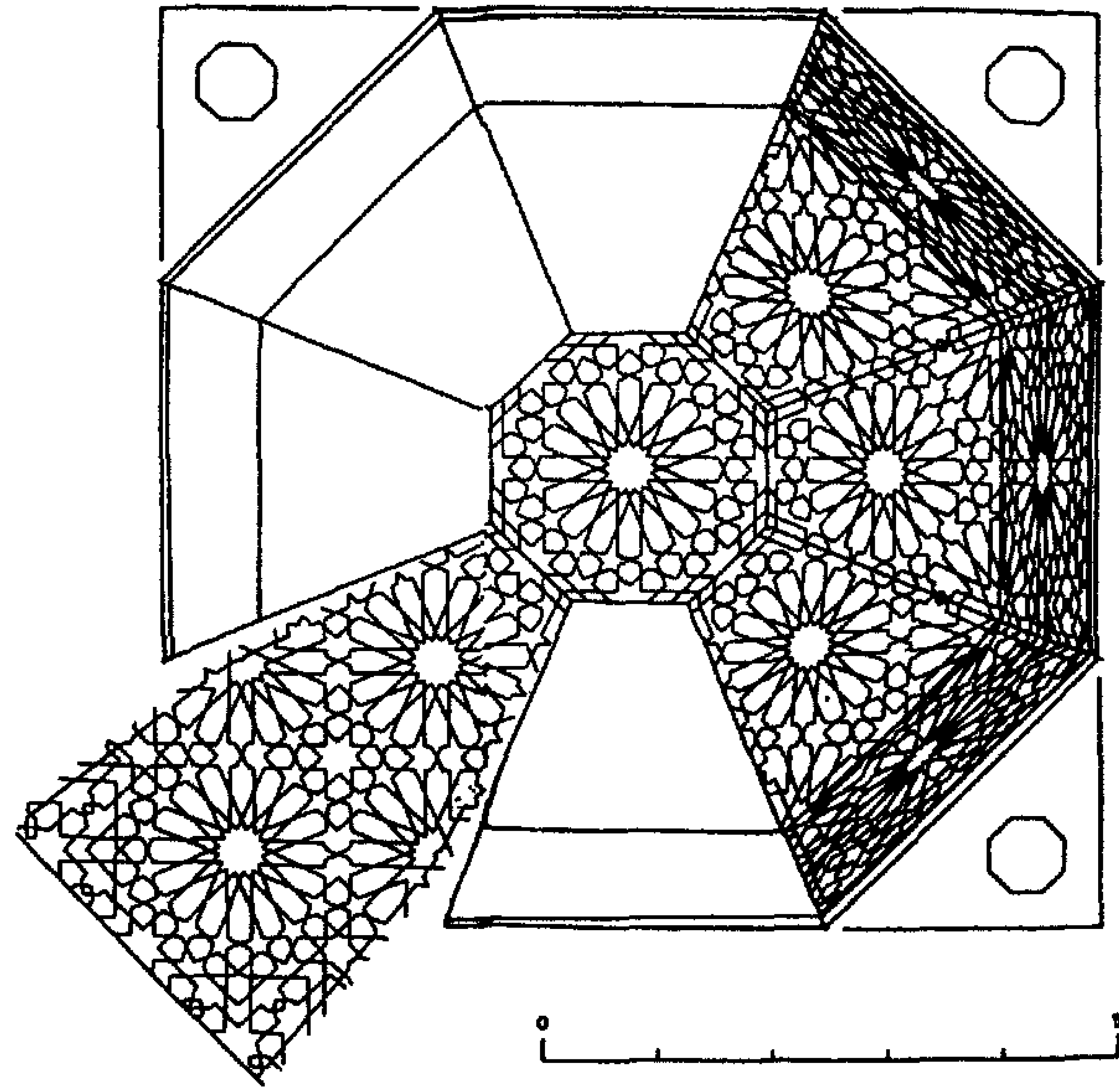
عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 176.



(شكل ٢٦): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

الواجهة الجنوبية للصحن.

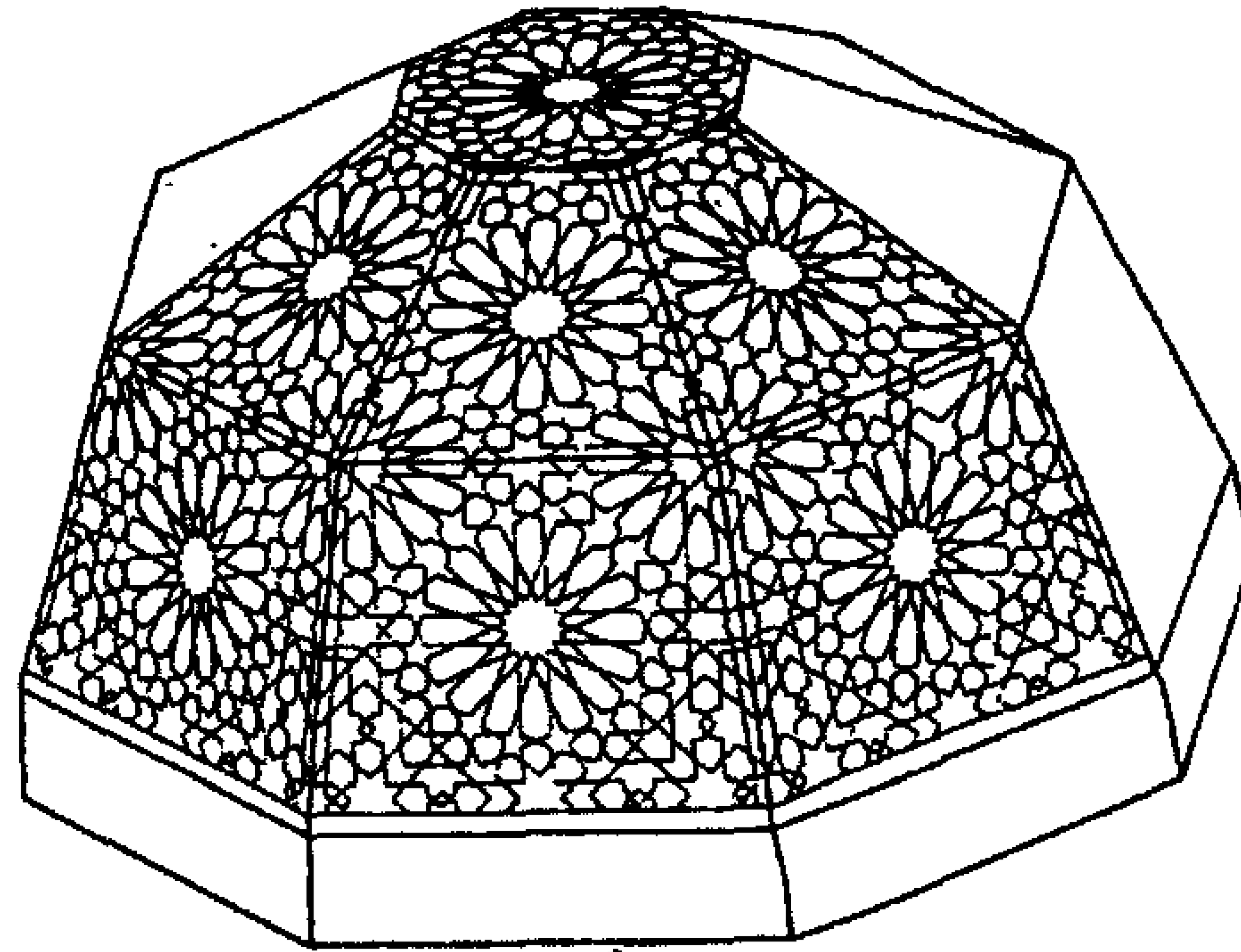
عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 178.



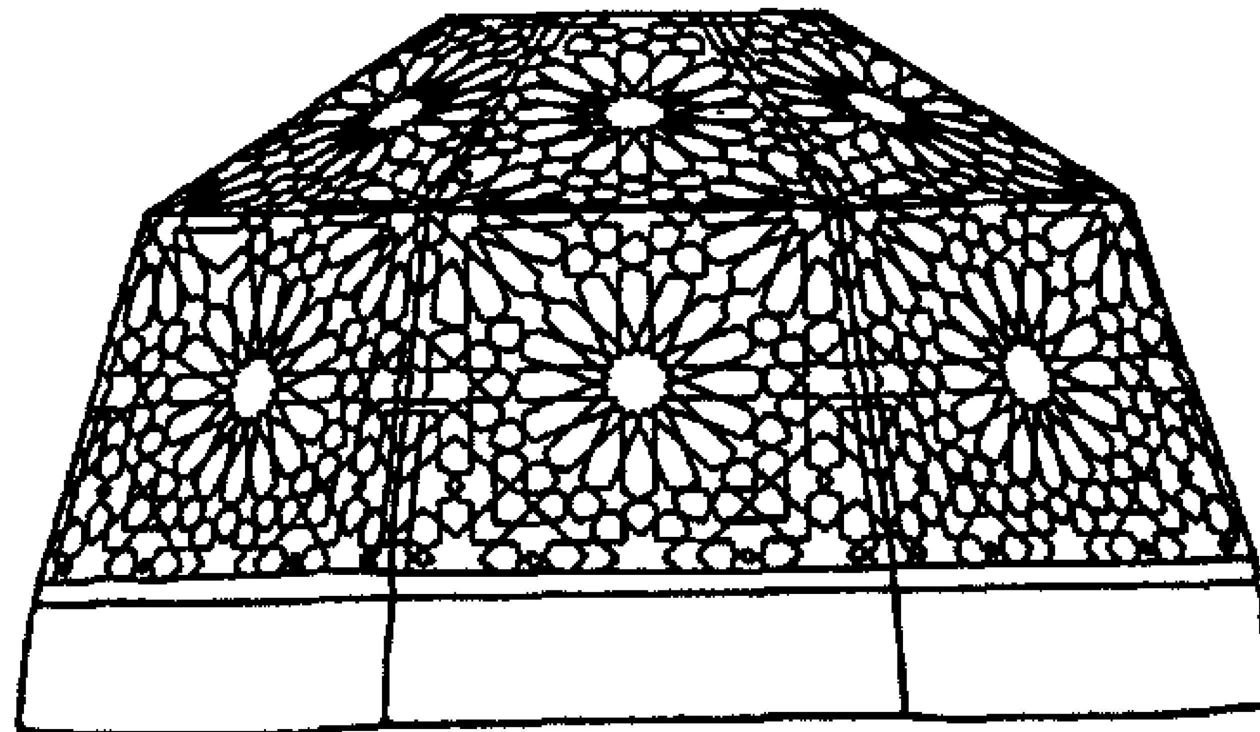
(شكل ٢٧): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

شكل توضيحي لزخارف القبة الخشبية التي تغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة.

عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid.



(أ)

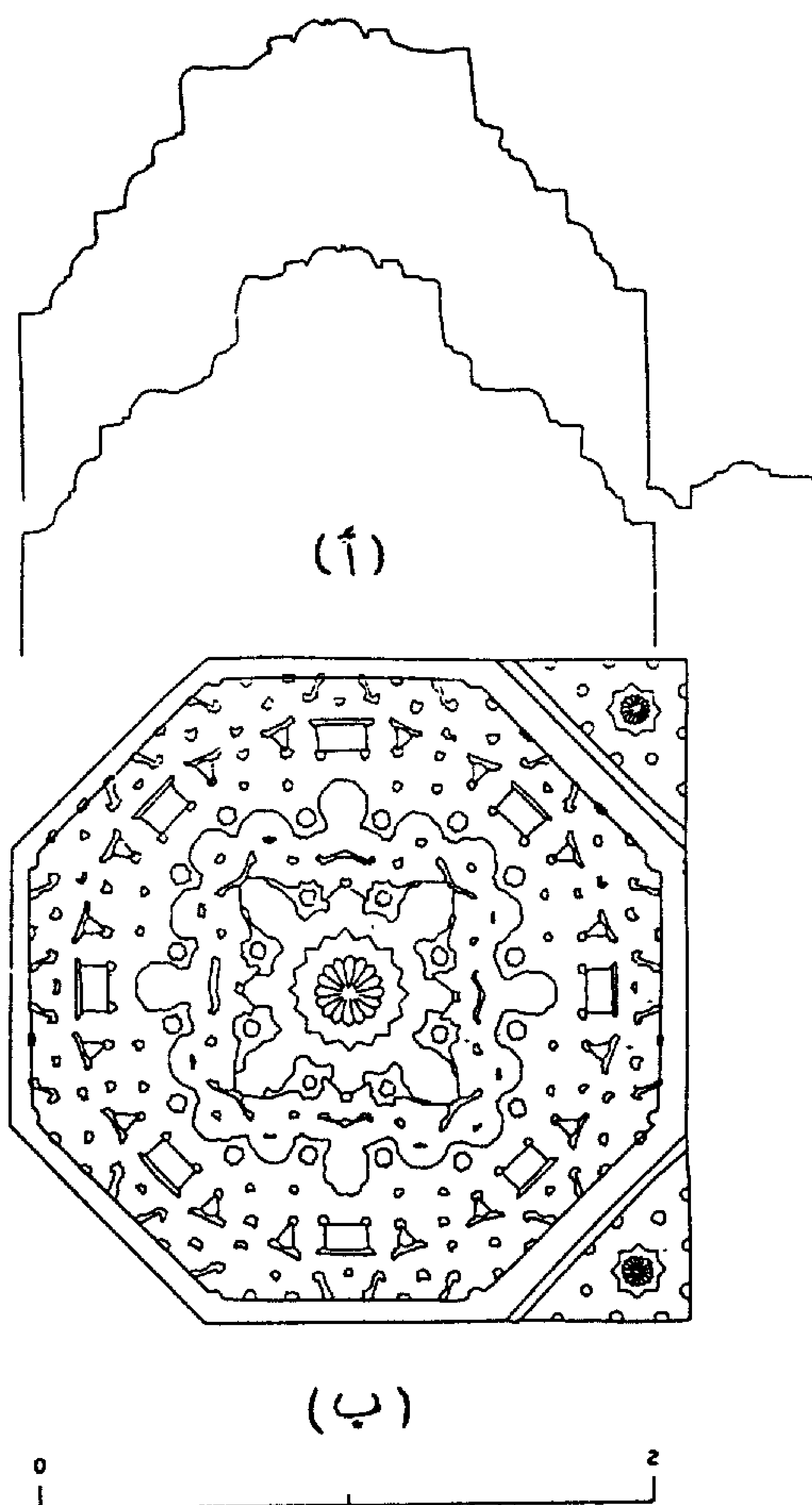


(ب)

(شكل ٢٨/أ،ب): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

شكل توضيحي لزخارف القبة الخشبية التي تغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة.

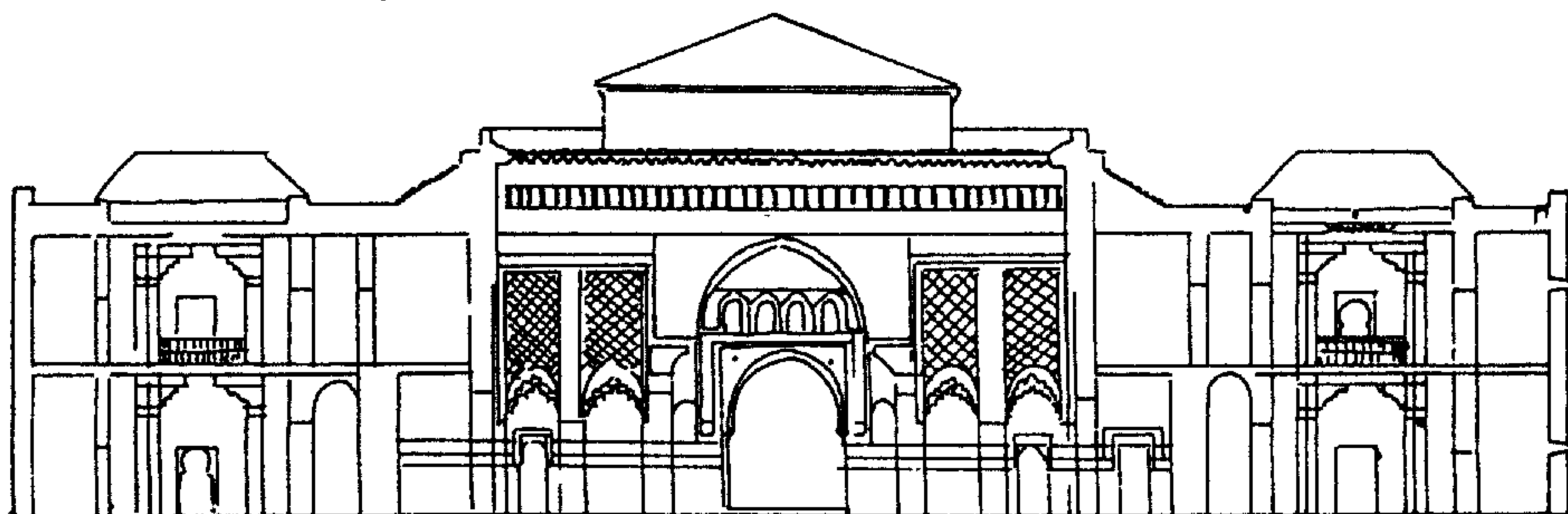
عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 186.



(شكل ٢٩ /أ،ب): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

شكل توضيحي لزخارف باطن القبة التي تغطي حنية المحراب ببيت الصلاة.

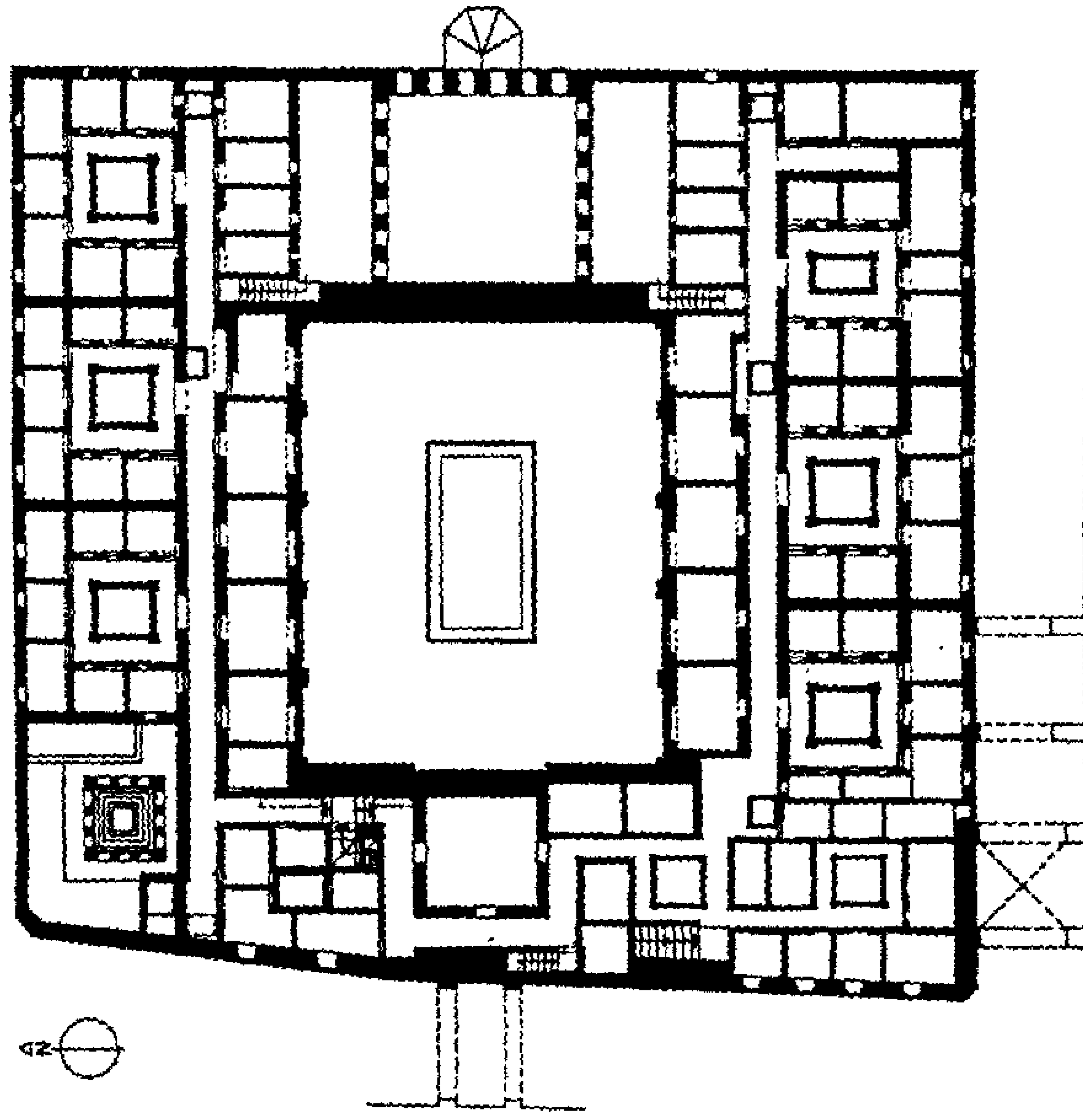
عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 185.



(شكل ٣٠): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

قطاع رأسي يوضح واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن ومساكن الطلاب الموزعة على جانبيه.

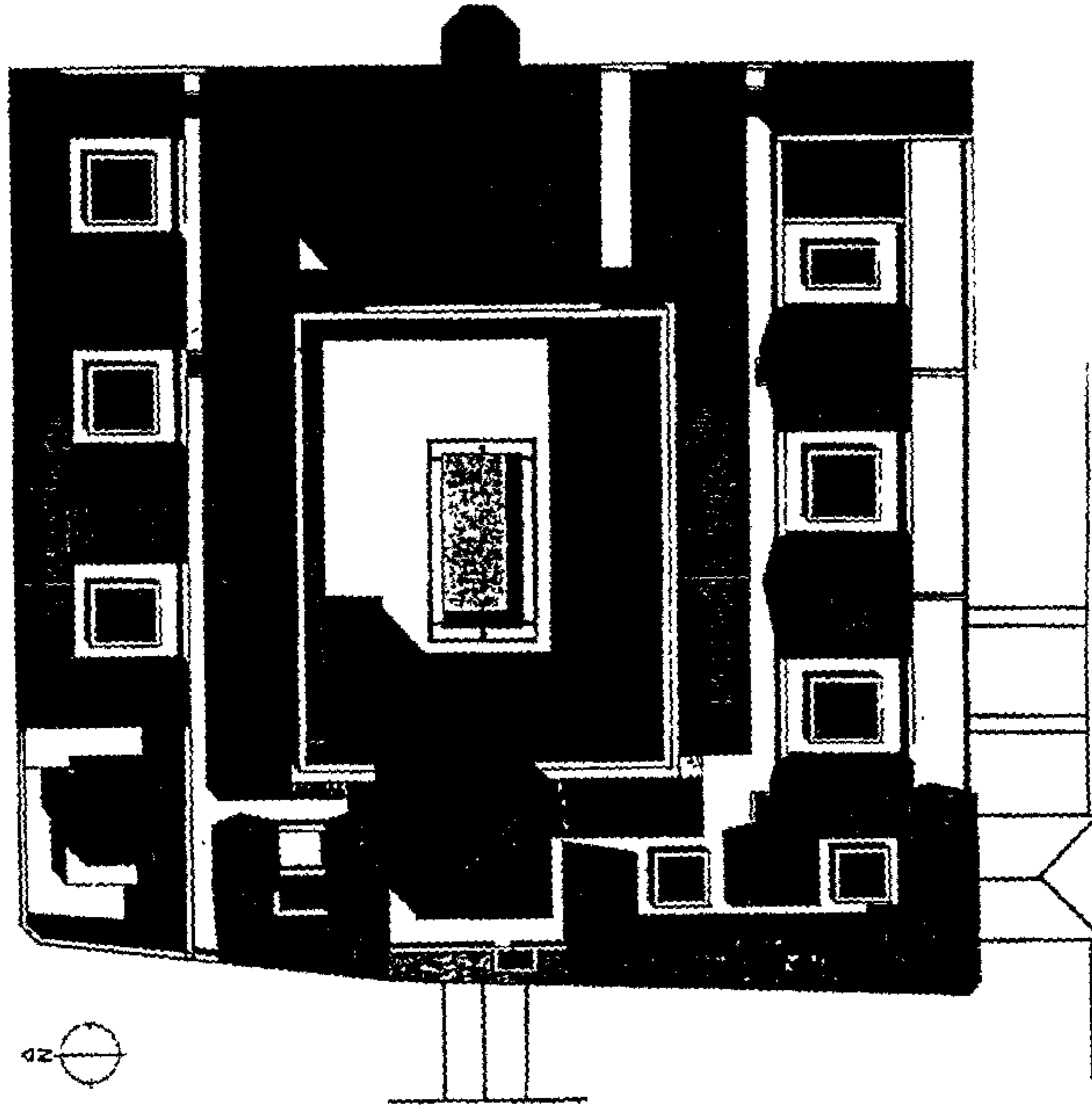
عن: محمد خصيف: المرجع الساق، ص ٥٣.



(شكل ٣١): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

مسقط أفقي للطابق الأول.

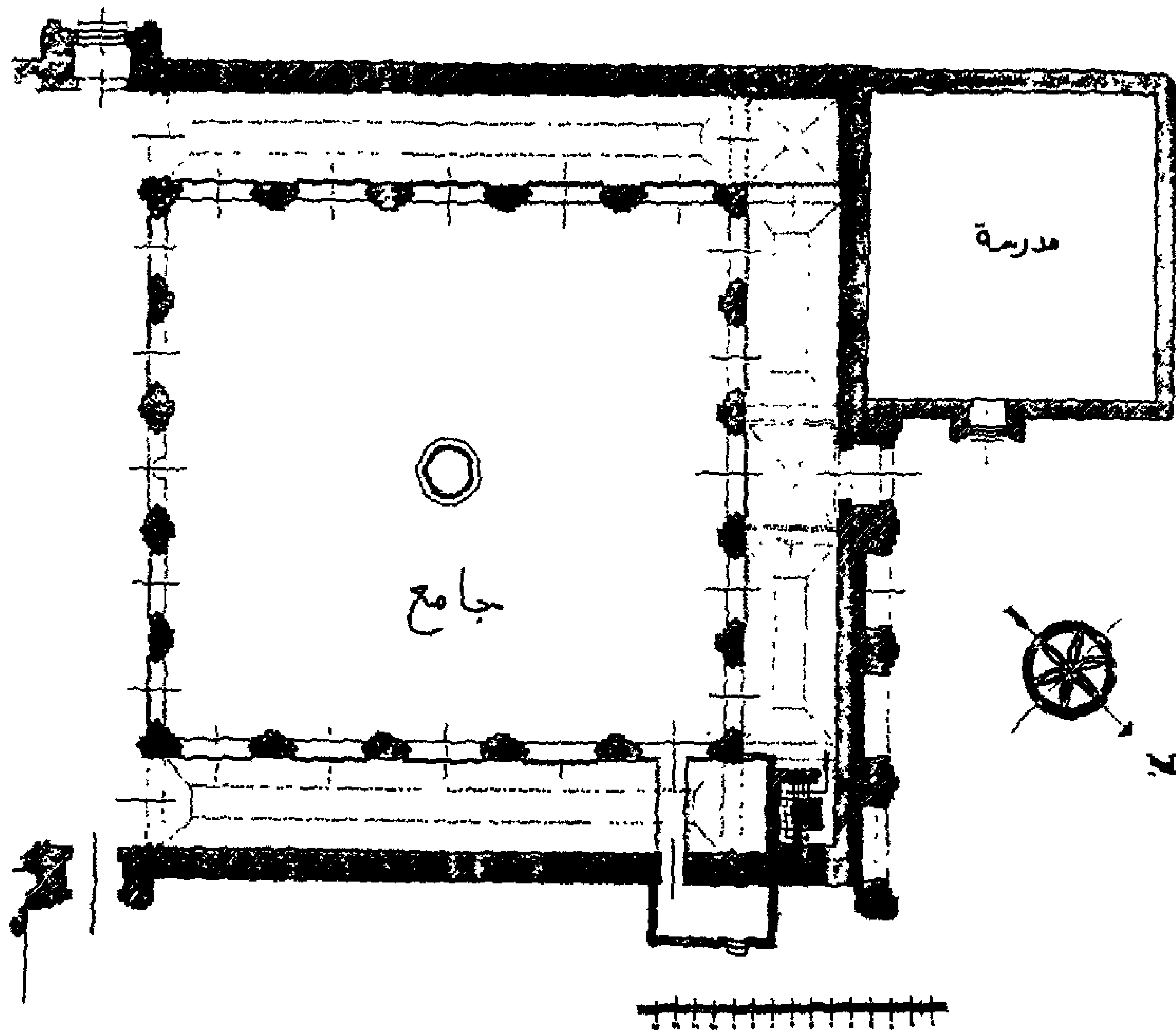
عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 164.



(شكل ٣٢): مدرسة ابن يوسف بمراكش.

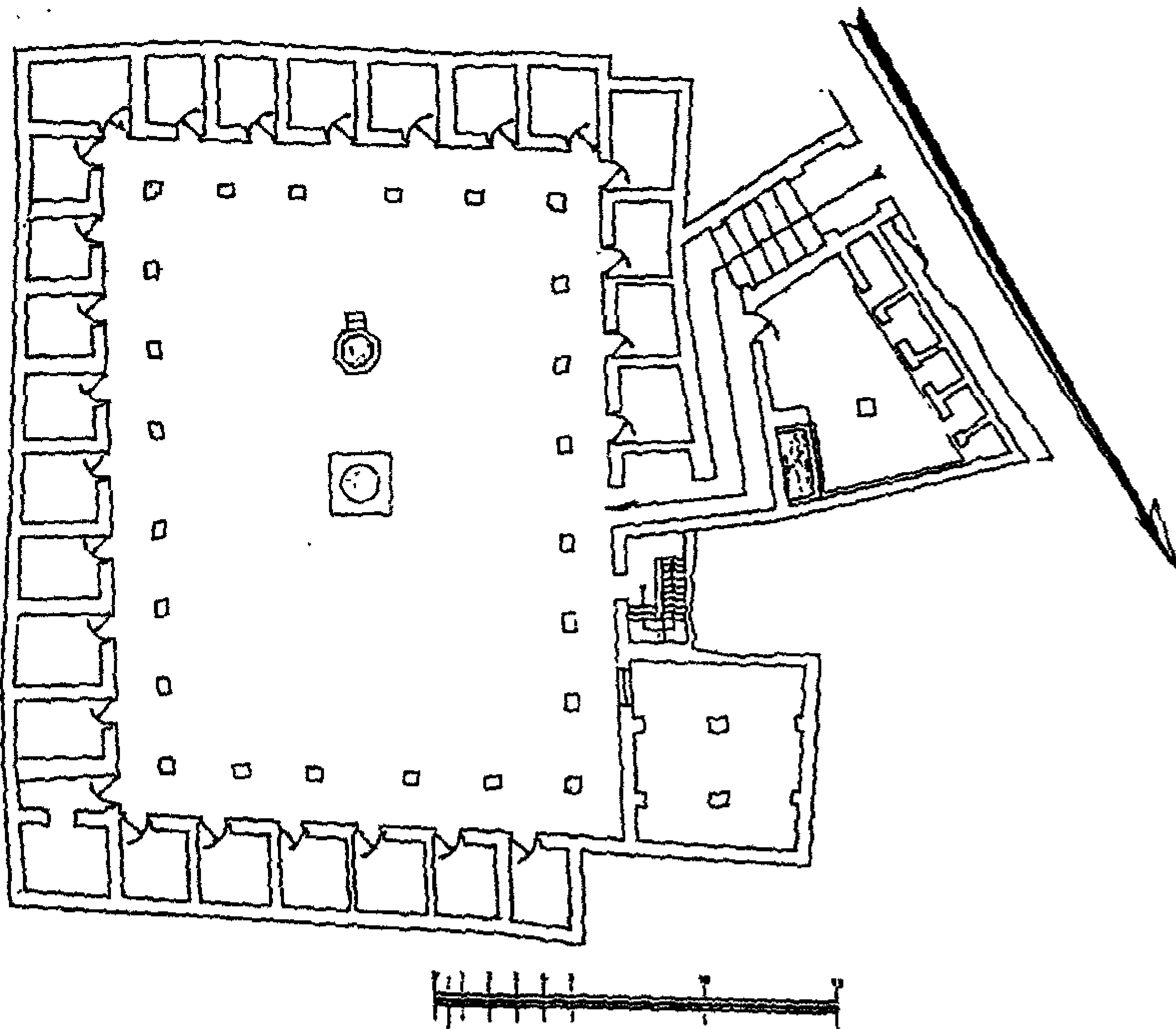
مسقط أفقي لسطح المدرسة.

عن: Triki, H., et Dovifat: Ibid., Fig. 169.



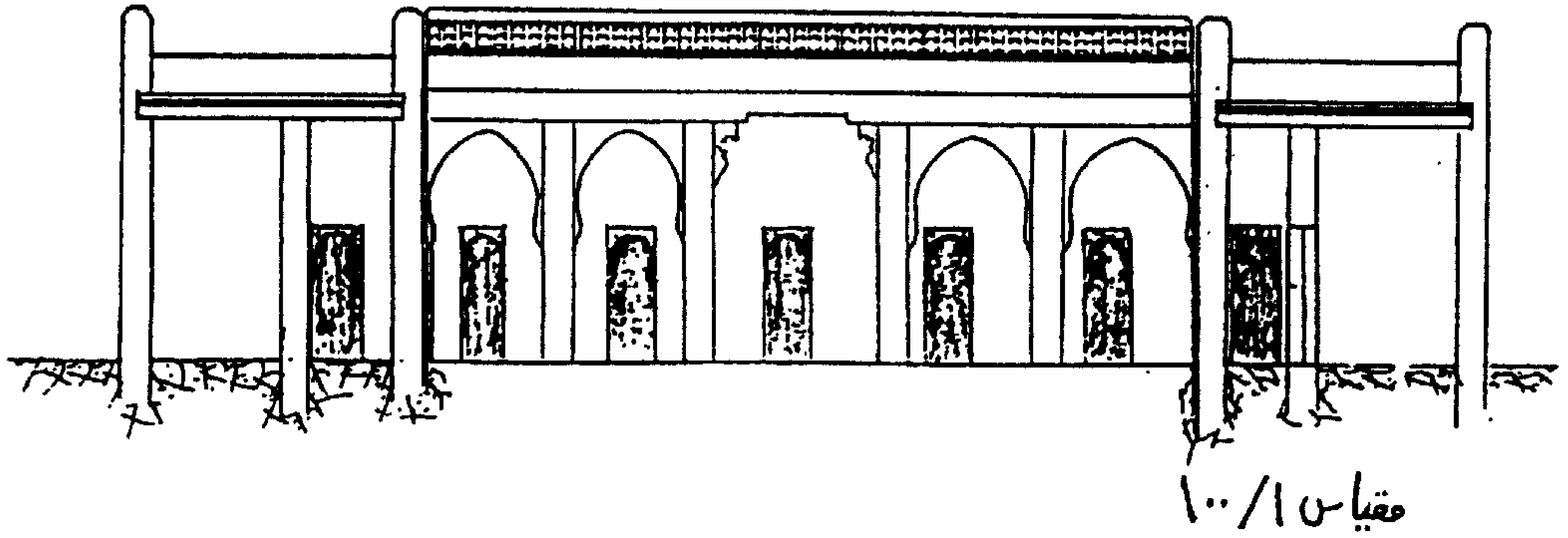
(شكل٣٣): مسقط أفقي للتخطيط الحالي لمدرسة جامع باب دكّالة بمراكش.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٣٤): مسقط أفقي لمدرسة جامع الموّاسين بمراكش.

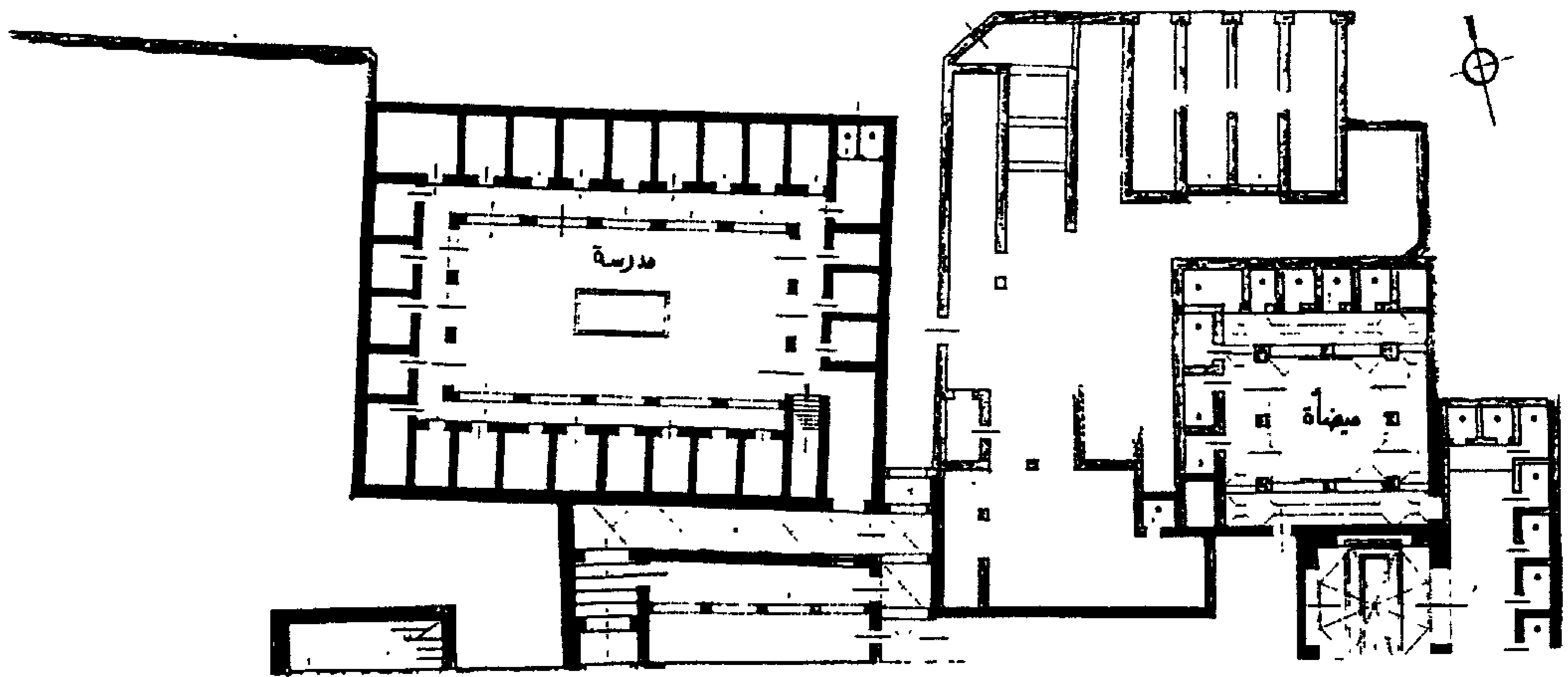
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٣٥): مدرسة جامع الموّاسين بمراكش.

شكل توضيحي للواجهة الجنوبية لمساكن الطلاب.

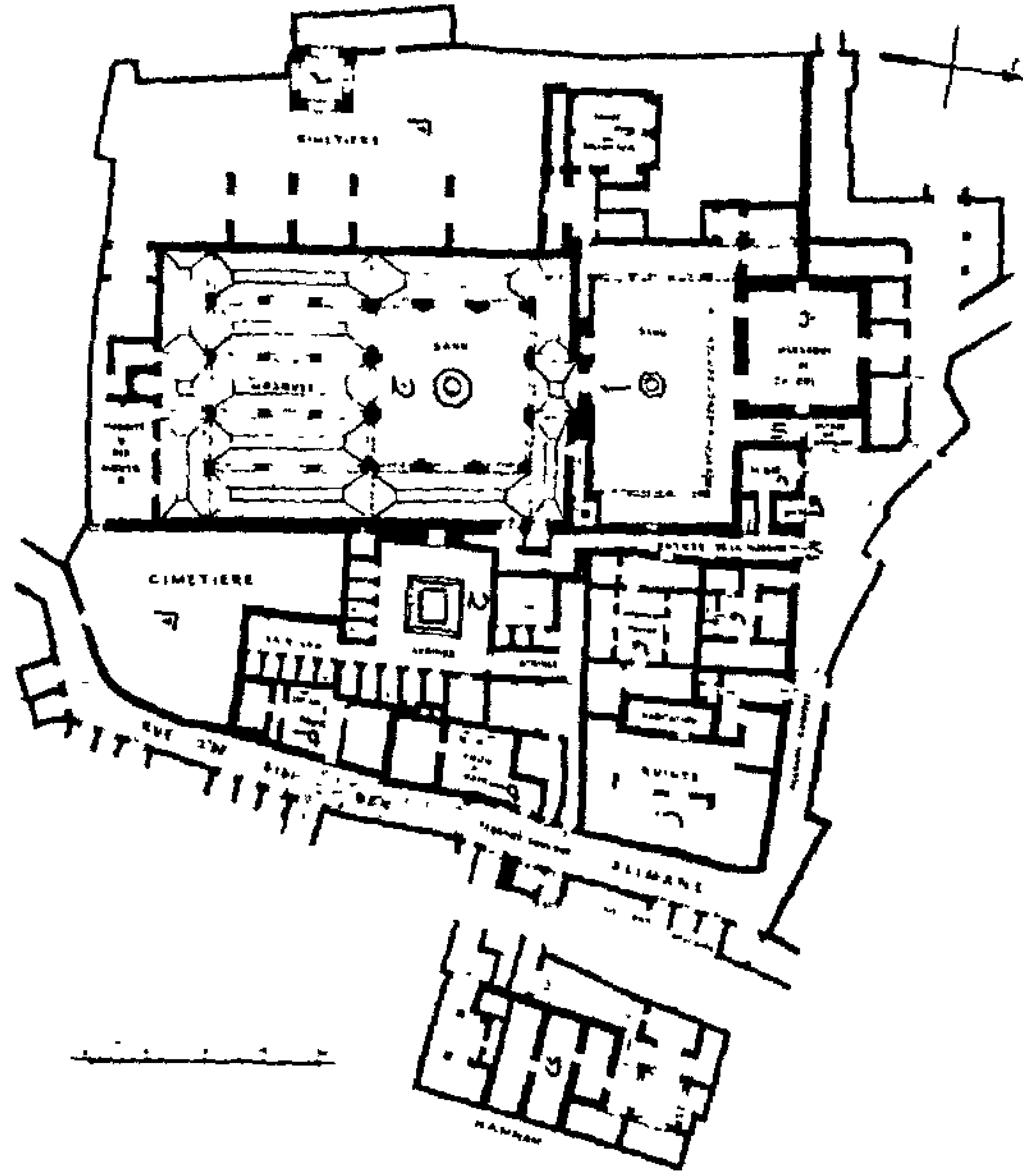
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٣٦): مدرسة جامع أبي العباس السبتي بمراكش.

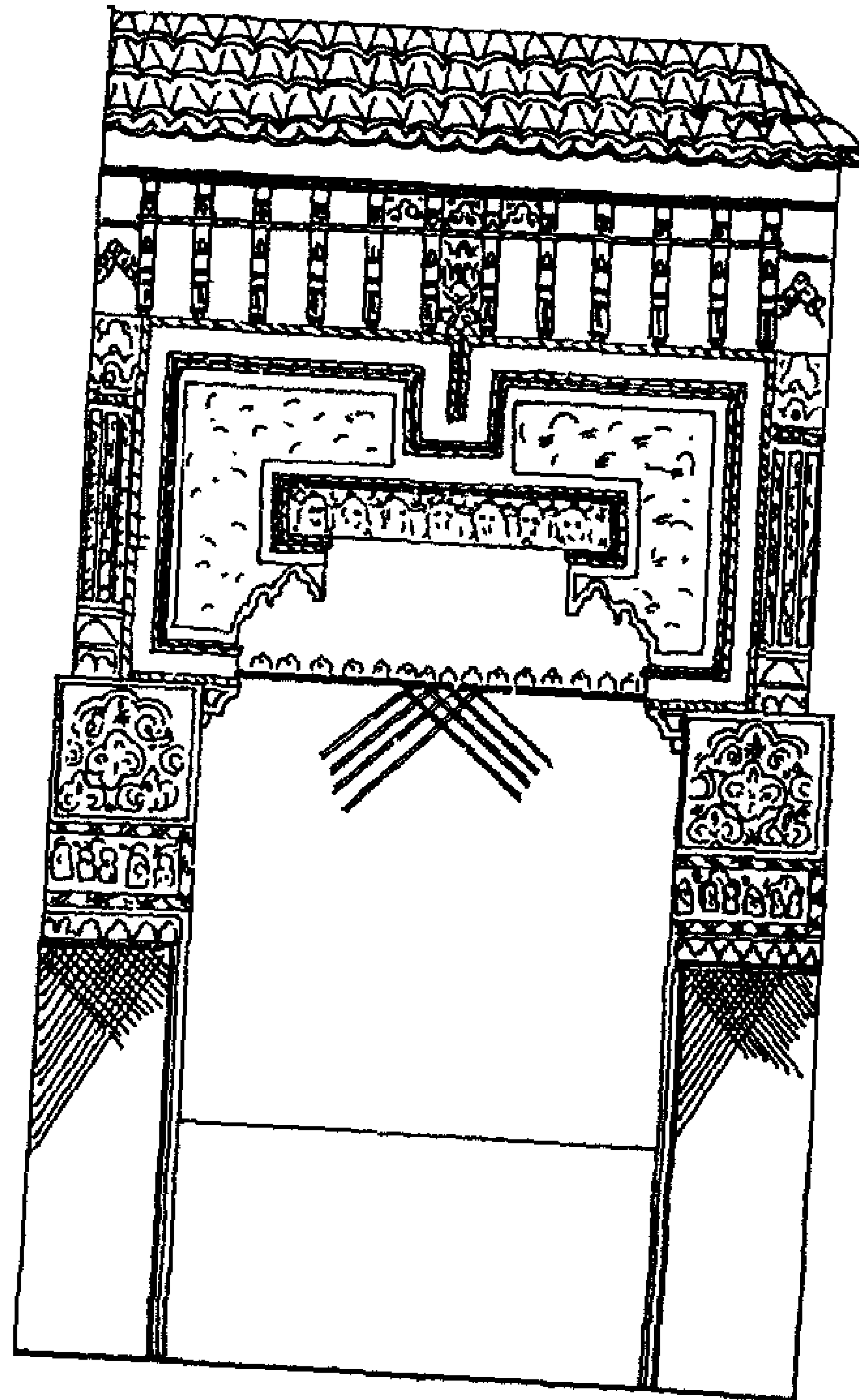
مسقط أفقي للدور الأرضي.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



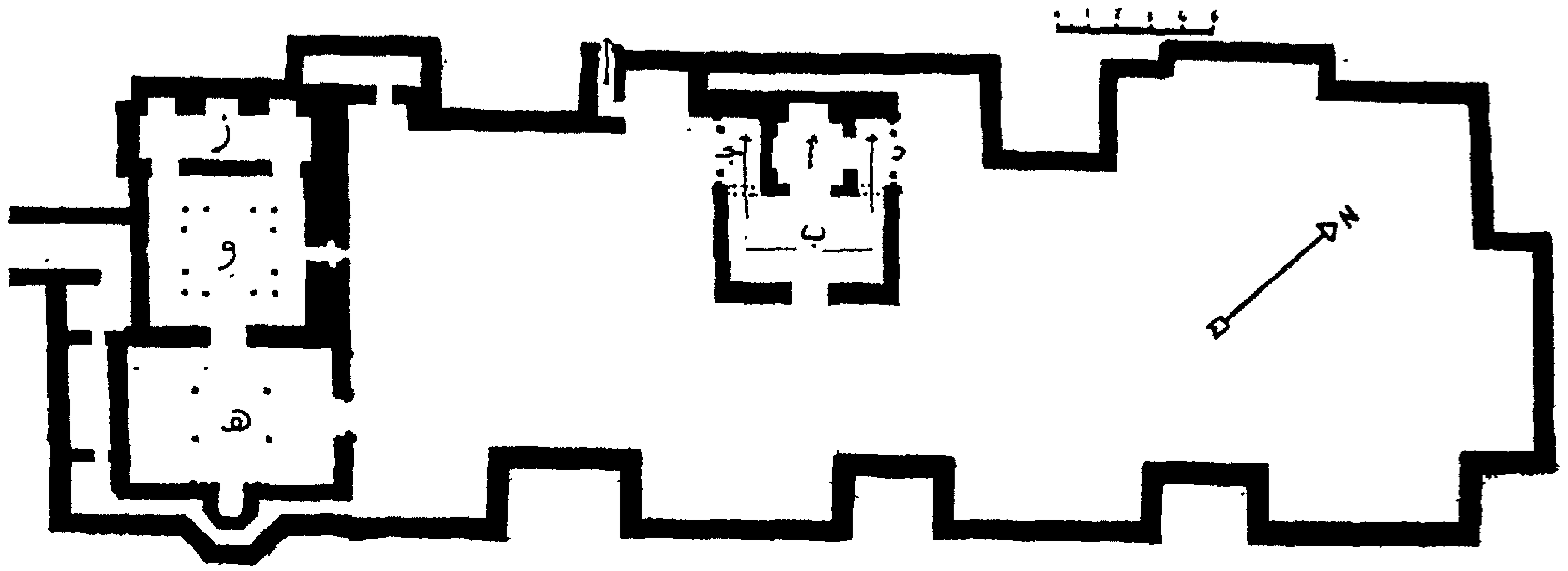
(شكل ٣٧): مسقط أفقي للزاوية الجزولية وملحقاتها مبراكش.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



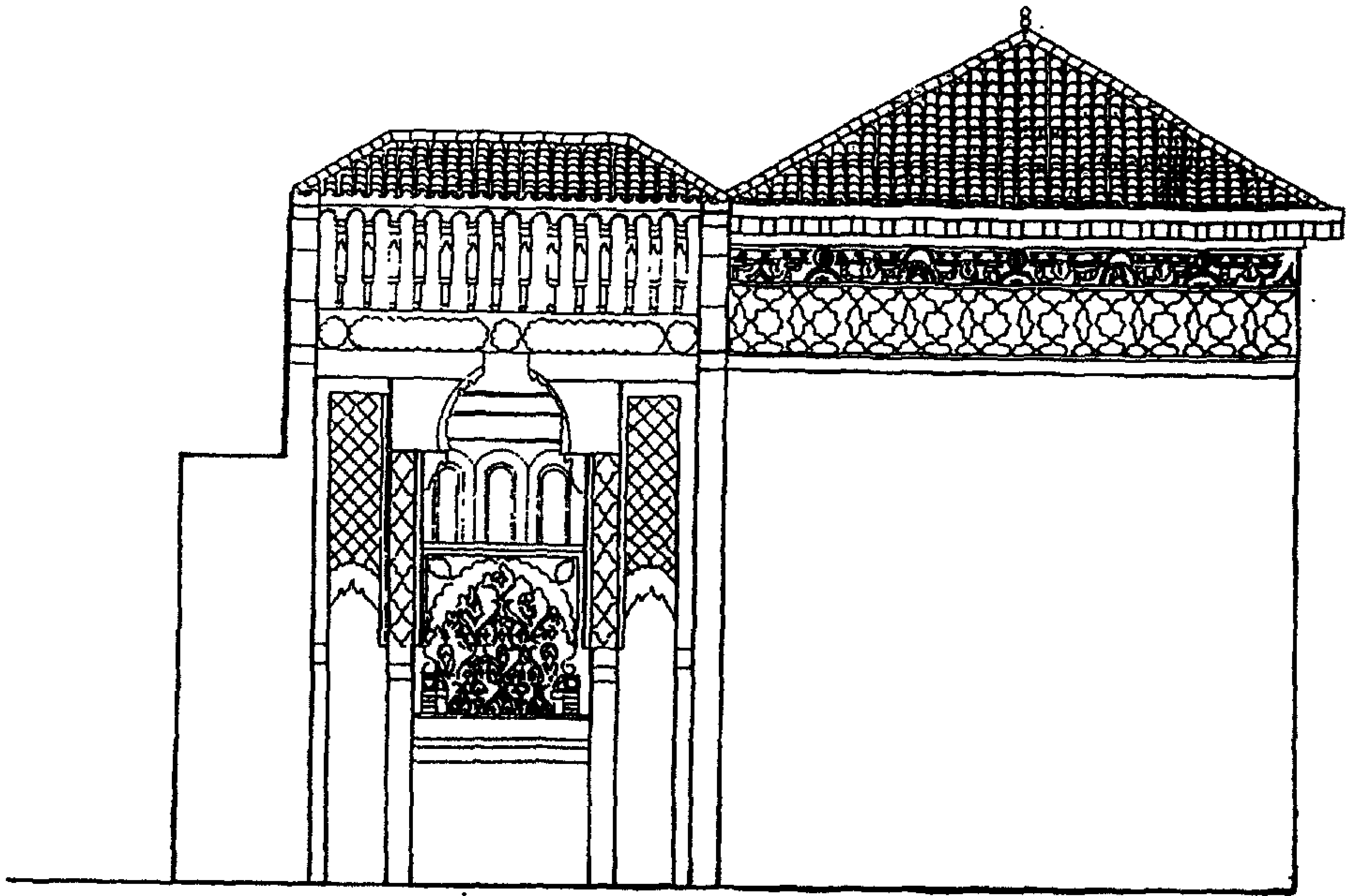
(شكل ٣٨): شكل توضيحي لسقاية الزاوية الجزولية بمراكش.

عمل الباحث.



(شكل ٣٩): مسقط أفقي لقبور السعديين بمراكش.

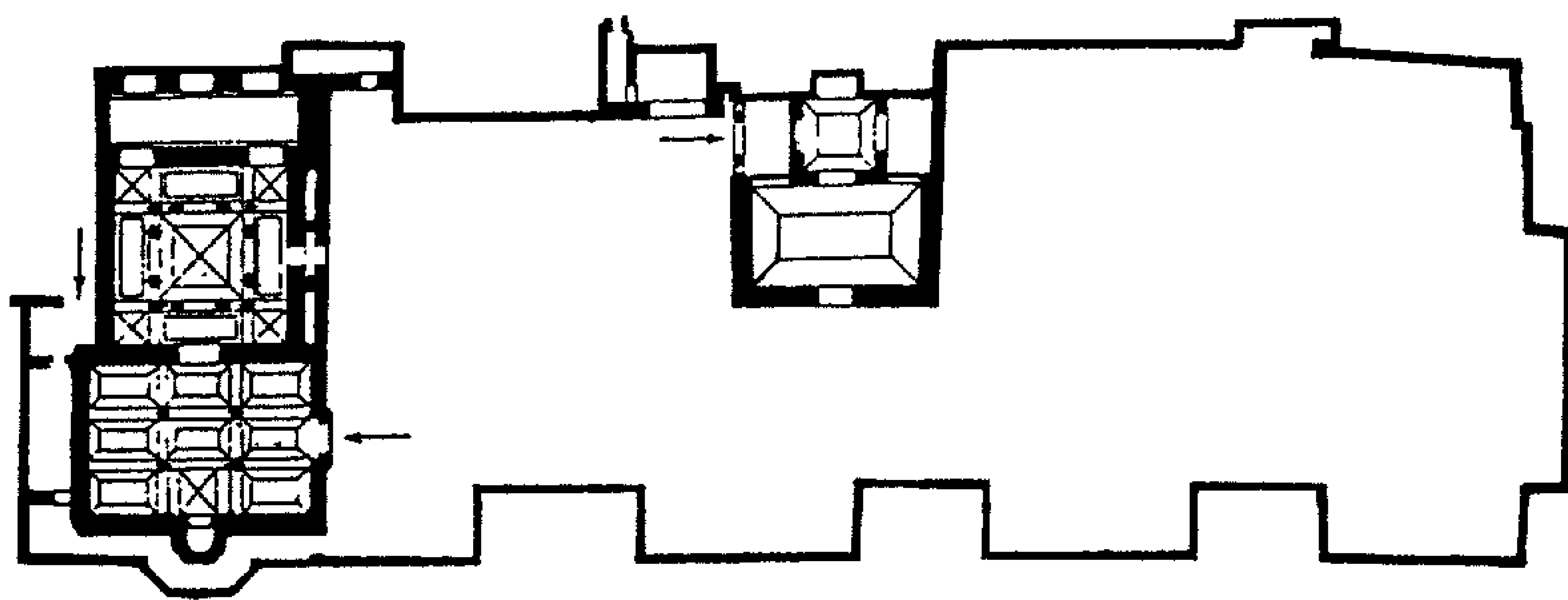
عن: "بتصرف": Deverdun, G.,: L'Age des Tombeaux Saadiens de Marrakech, P. 559.



(شكل ٤٠): قبور السعديين بمراكش.

شكل توضيحي للواجهة الغربية للمبنى الشرقي.

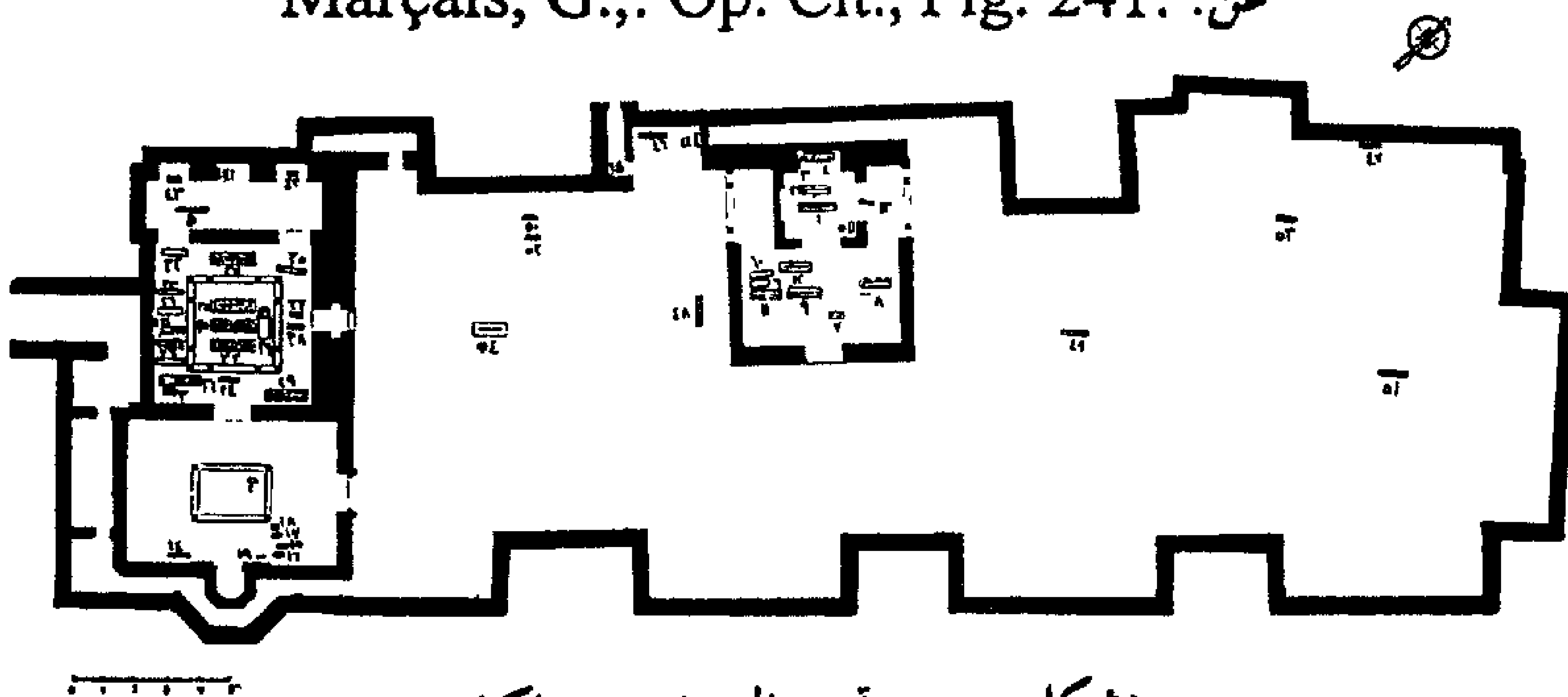
عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



(شكل ٤١): قبور السعديين بمراكش.

شكل توضيحي لأسلوب التغطية بالمبنيين الشرقي والغربي.

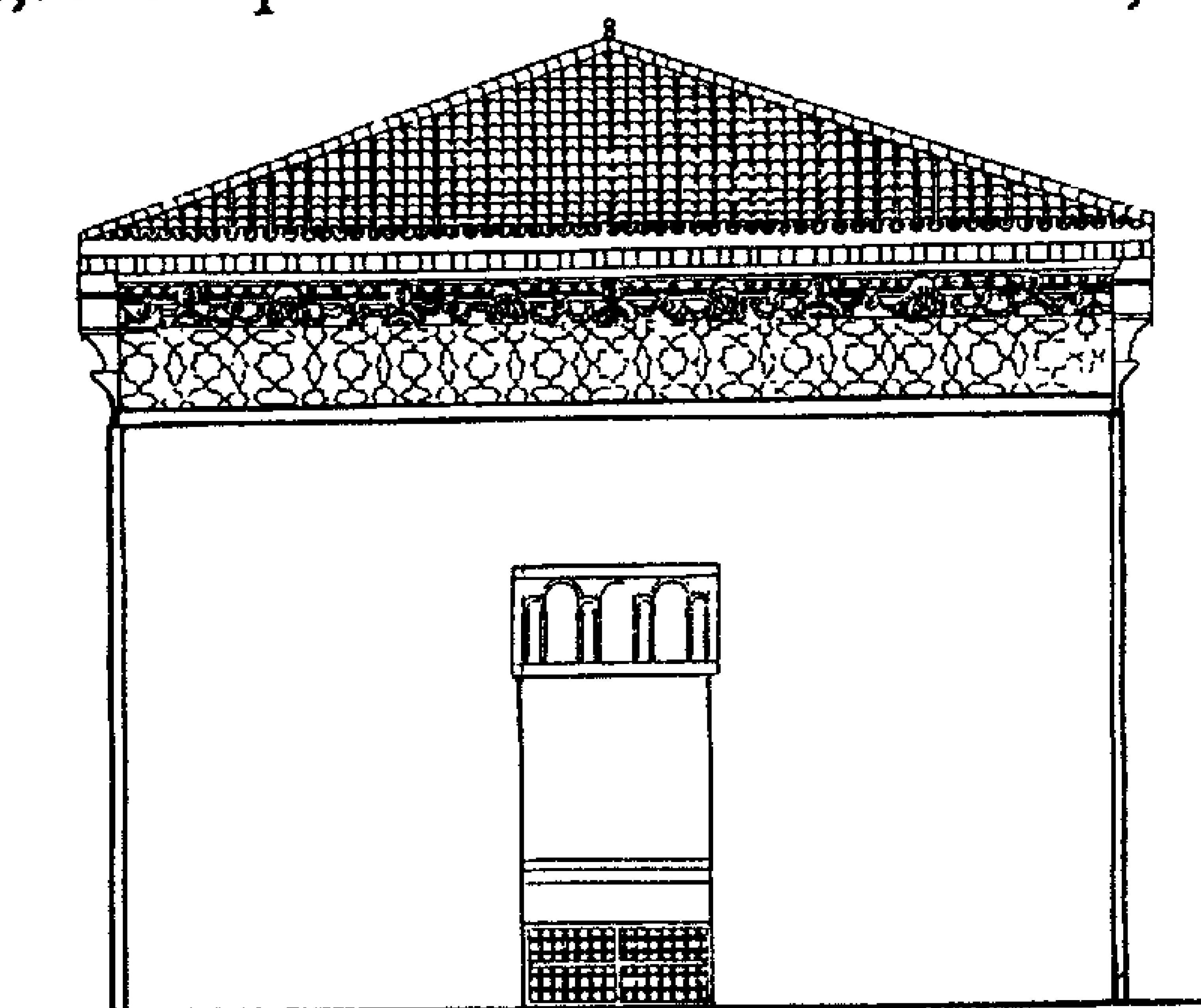
عن: Marçais, G.,: Op. Cit., Fig. 241.



(شكل ٤٢): قبور السعديين بمراكش.

مسقط أفقي موضح عليه توزيع تراكيب وشواهد القبور.

عن (بتصرف): Deverdun G.,: Inscription Arabes de Marrakech, P. 74.

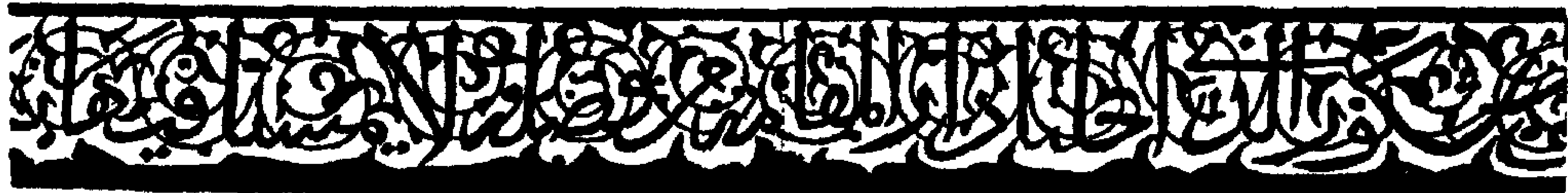


(شكل ٤٣): قبور السعديين بمراكش.

شكل توضيحي للواجهة الجنوبية للقاعة المستطيلة بالمبنى الشرقي.

عن: مفتشية المباني التاريخية بمراكش.



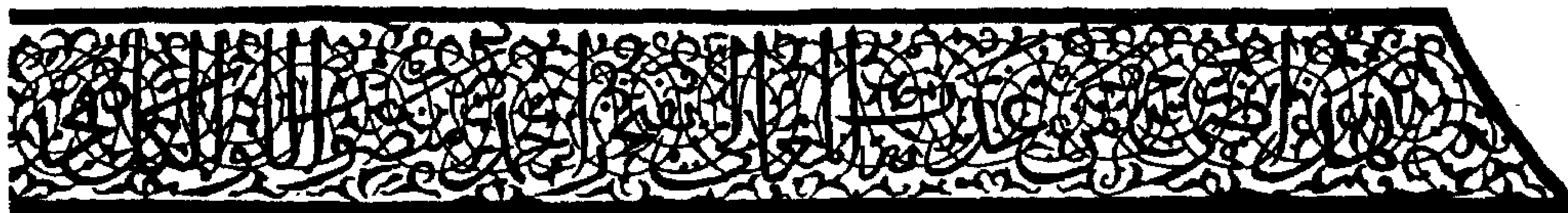






(شكل ٤٤): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط العلوي) لتركيبة السلطان أحمد المنصور الذهبي (ت: ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣م).

عن: Rousseau, G.: Le Mousolée de Princes Sa'diens à Marrakech, PL. LVIII.

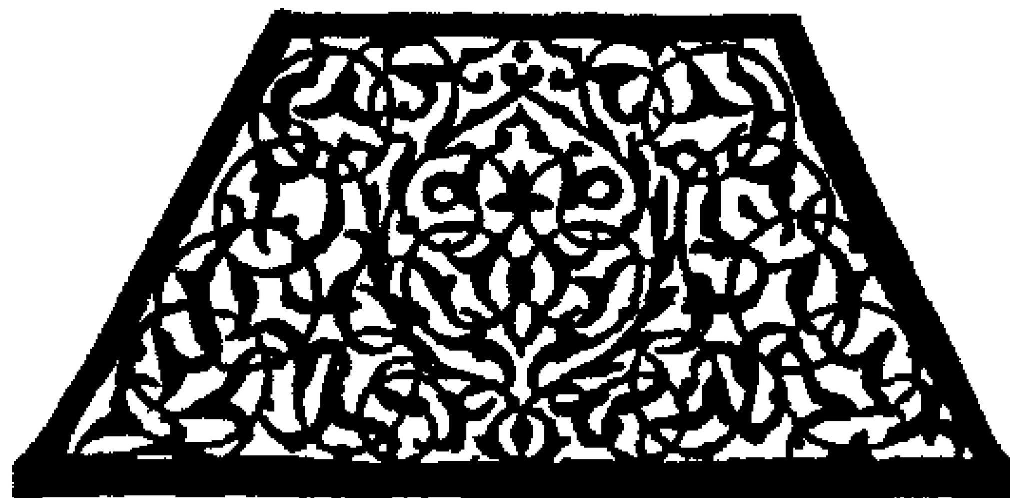




(شكل ٤٥): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان أحمد المنصور الذهبي.

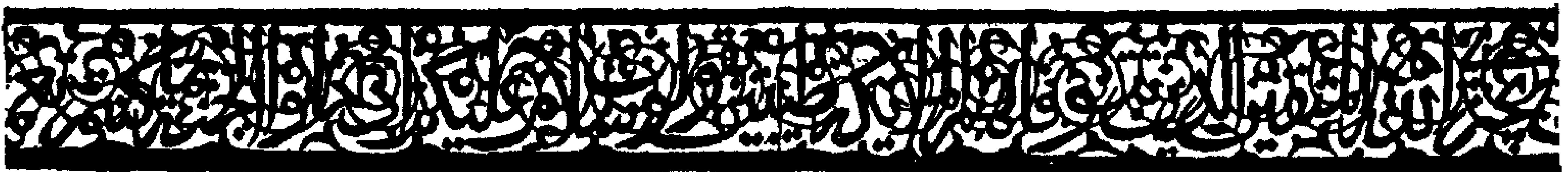
عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXI - LXII.






(شكل ٤٦): الكتابات المنفذة على الوجه الجنوبي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان أحمد المنصور الذهبي.

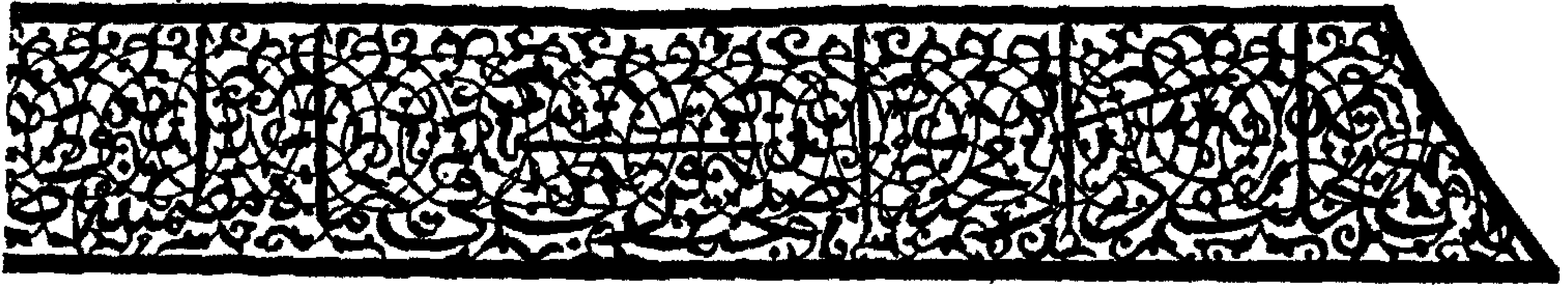
عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LIX - LX.

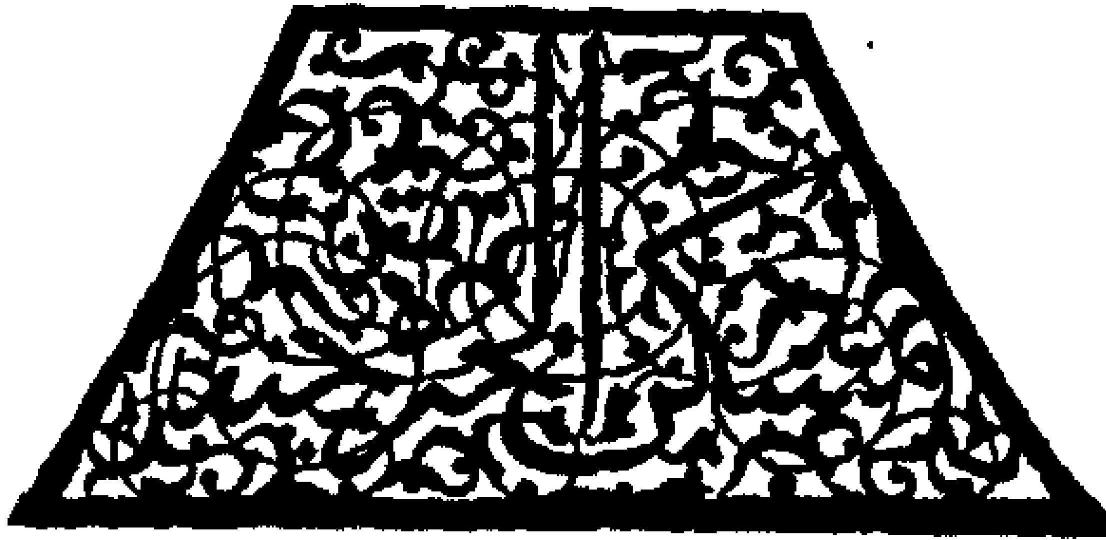






(شكل ٤٧): الكتابات المنفذة على الوجه الجنوبي (الشريط العلوي) لتركيبة زوجة أحد السلاطين السعديين.

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXIX.






(شكل ٤٨): الكتابات المنفذة على الوجه الجنوبي (الشريط السفلي) لتركيبة زوجة أحد السلاطين السعديين.

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXVIII



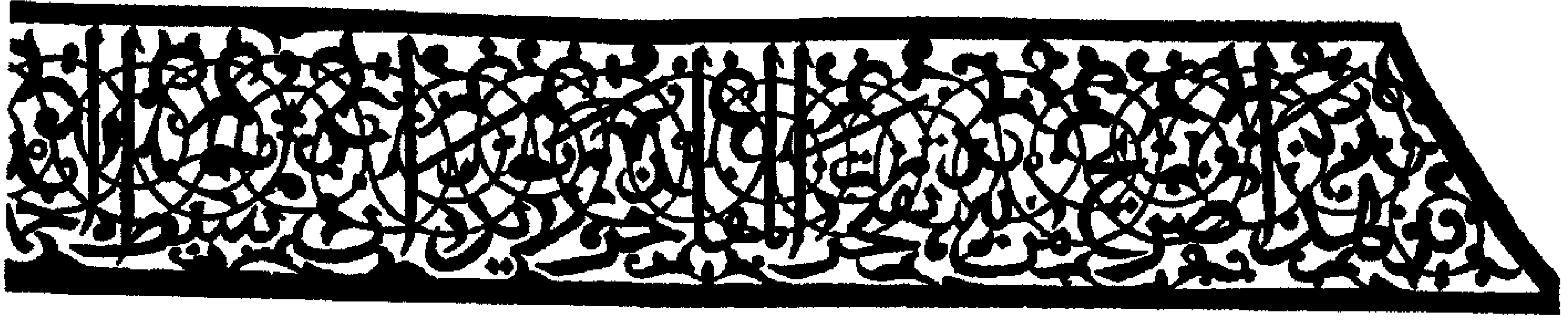
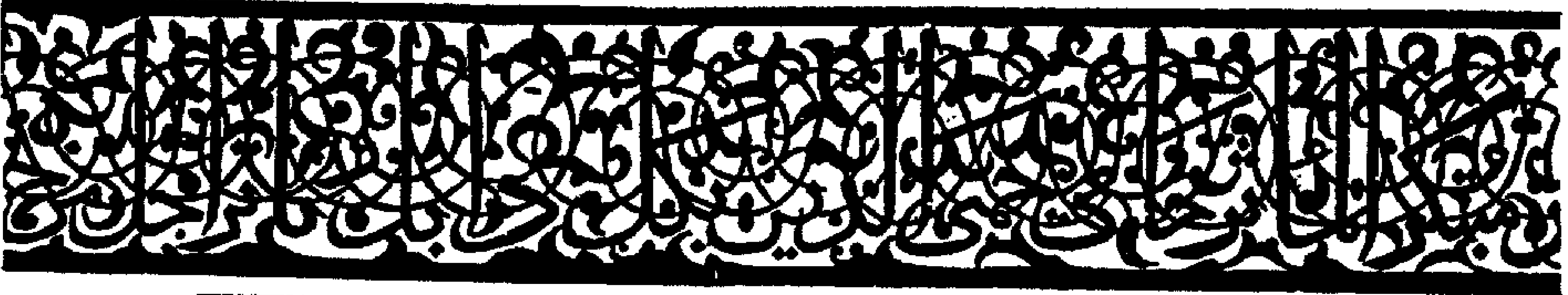
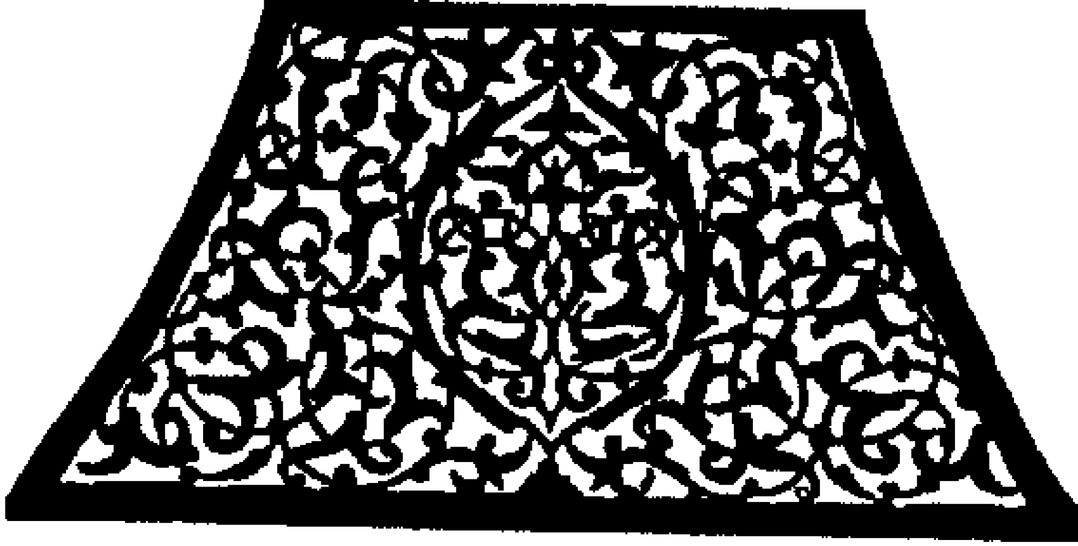
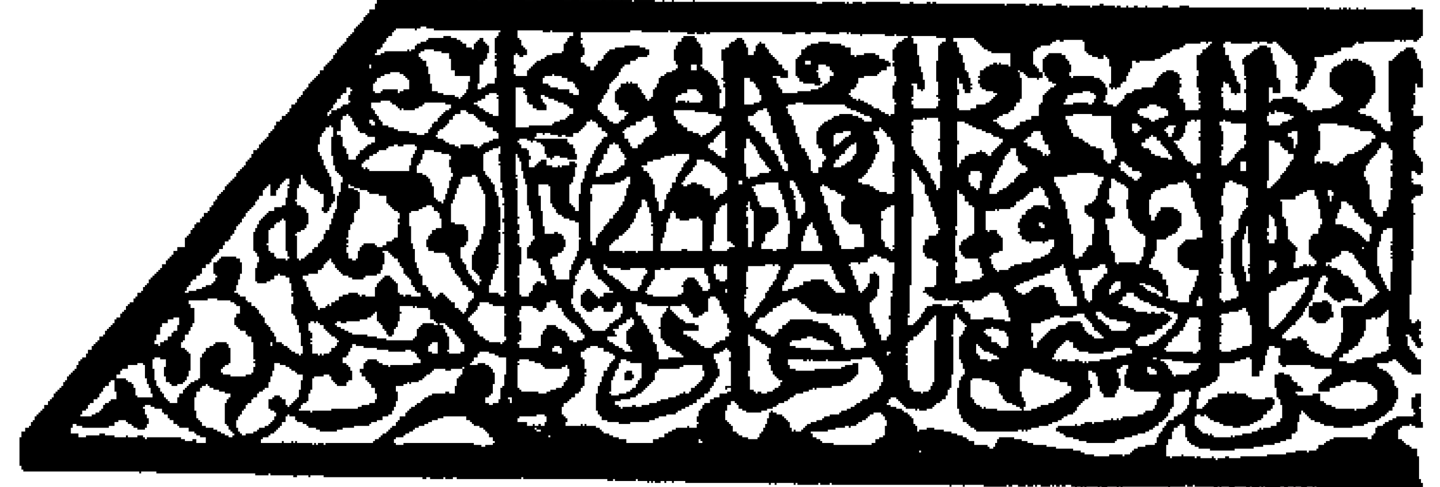




(شكل ٤٩): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط العلوي) لتركيبة السلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبي

(ت: ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧م).

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXIV.

(شكل ٥٠): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبي.

عن: .Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXV







(شكل ٥١): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط العلوي) لتركيبة السطلان عبد الملك بن زيدان (ت: ١٠٣٩ هـ / ١٦٣١م).

عن: .Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXX





(شكل ٥٢): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان عبد الملك بن زيدان.

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXXI.

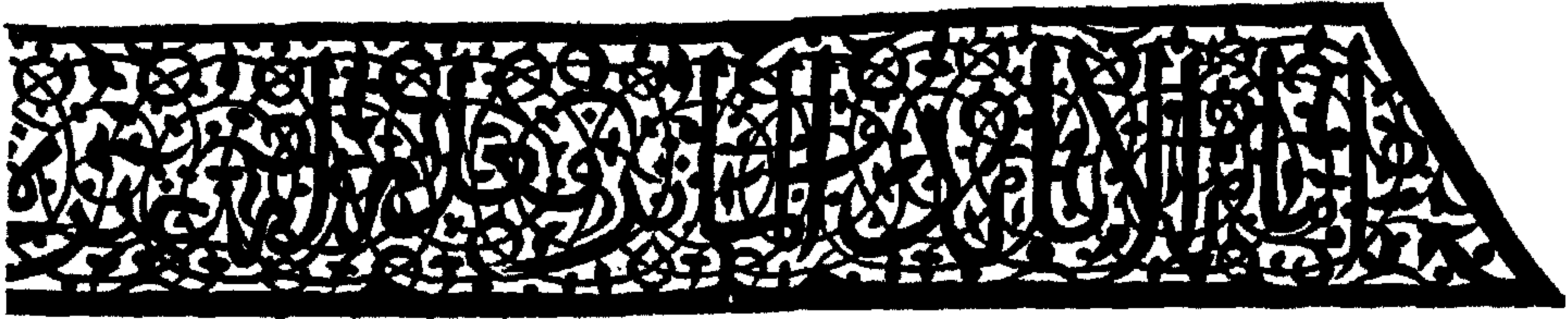






(شكل ٥٣): الكتابات المنفذة على الوجه الشمالي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان محمد الشيخ الأصغر بن زيدان.

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LIV.

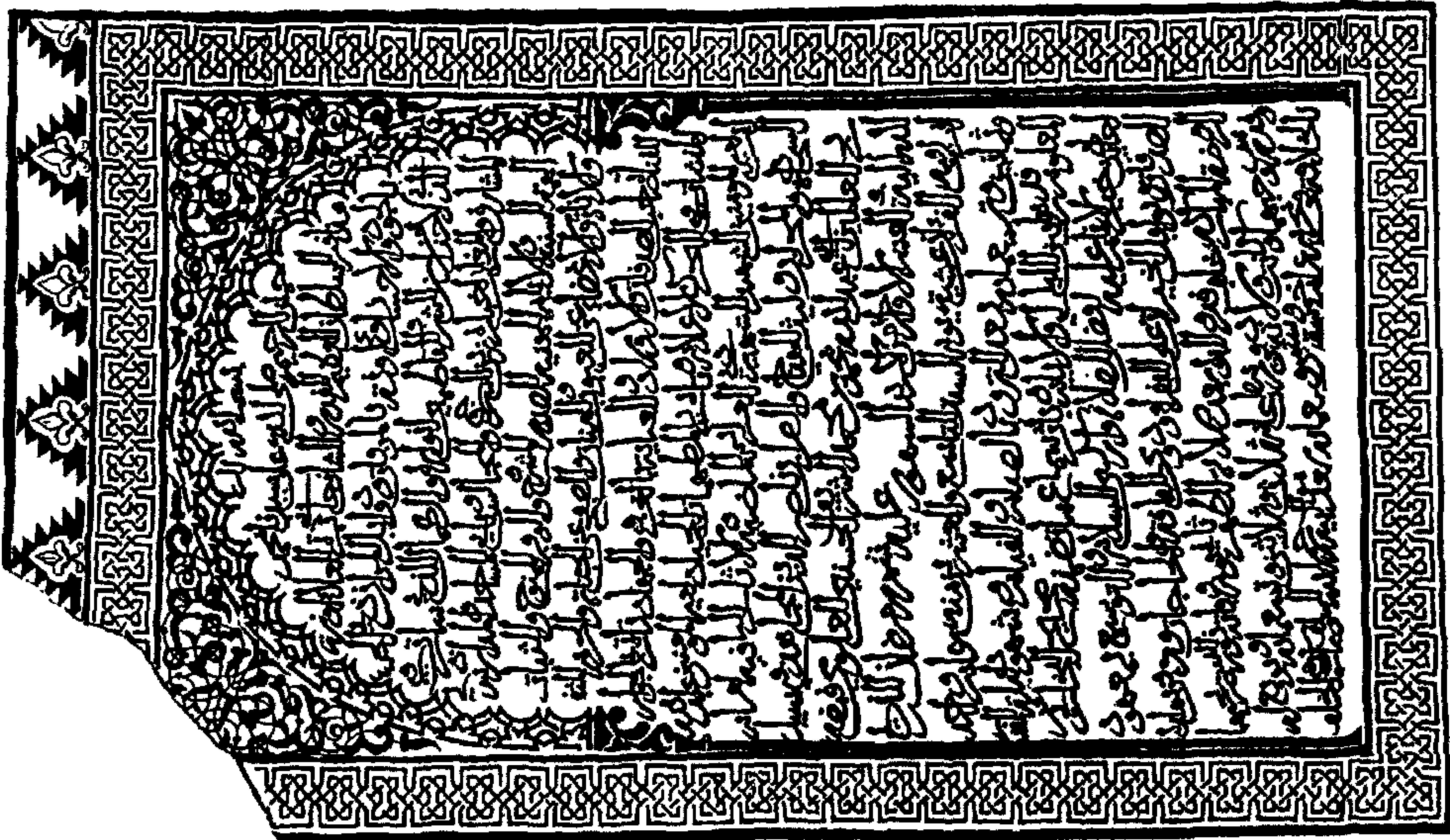






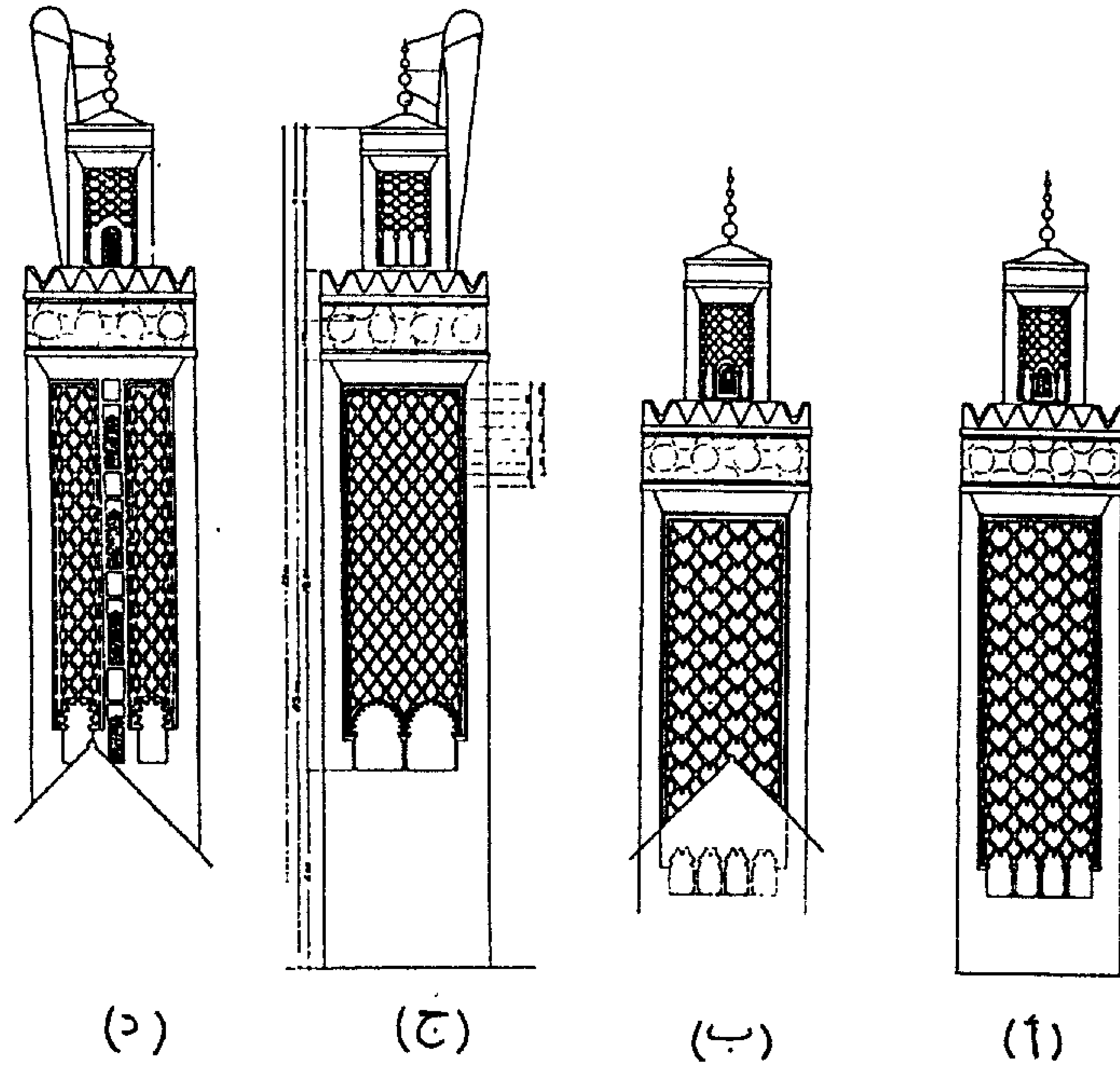
(شكل ٥٤): الكتابات المنفذة على الوجه الجنوبي (الشريط السفلي) لتركيبة السلطان محمد الشيخ الأصغر بن زيدان.

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LVI.



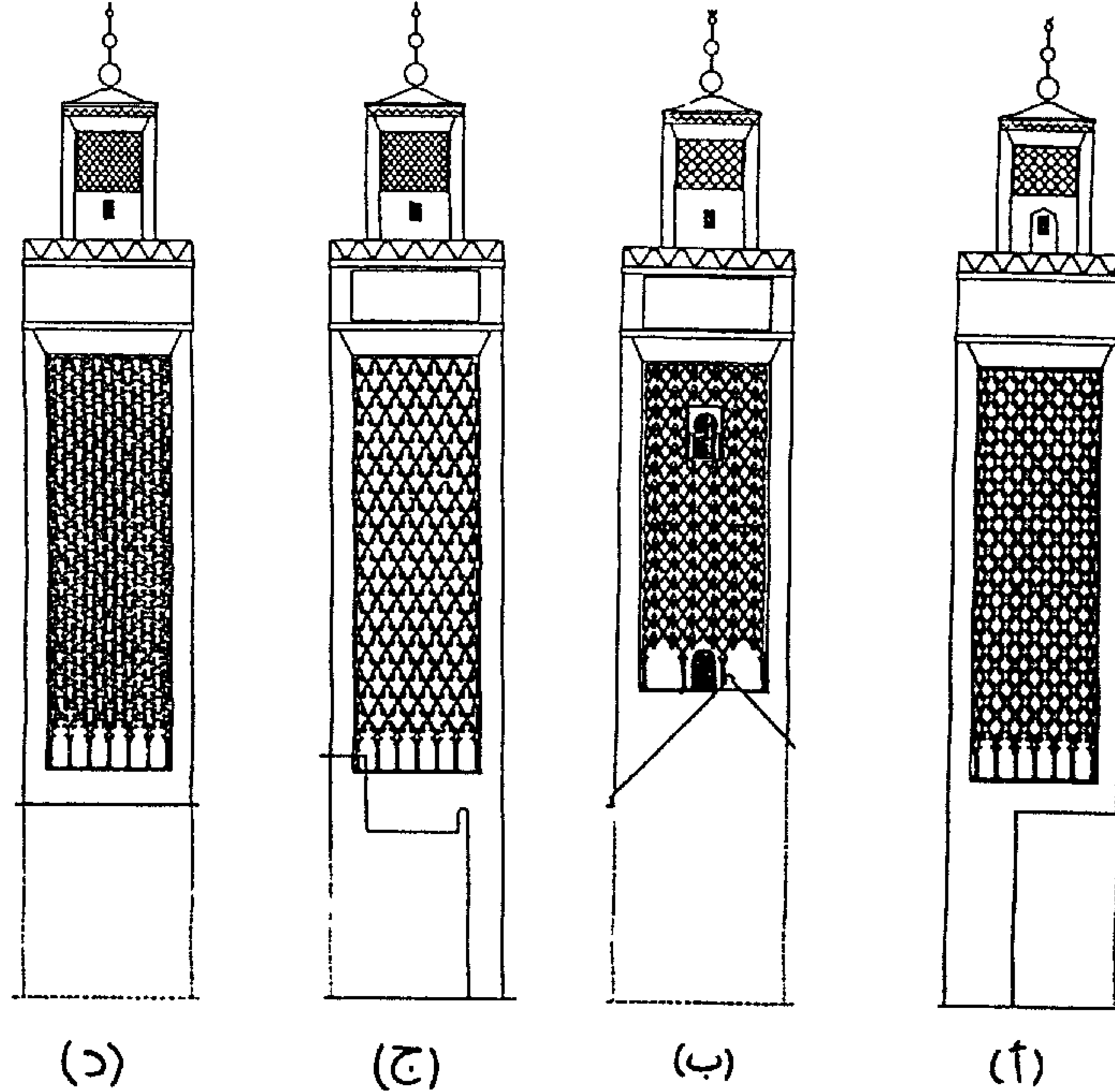
(شكل ٥٥): الكتابات المنفذة على شاهد قبر السلطان عبد الله الغالب بالله (ت: ٩٨١ هـ / ١٥٧٣م).

عن: Rousseau, G.,: Ibid., PL. LXXXII.



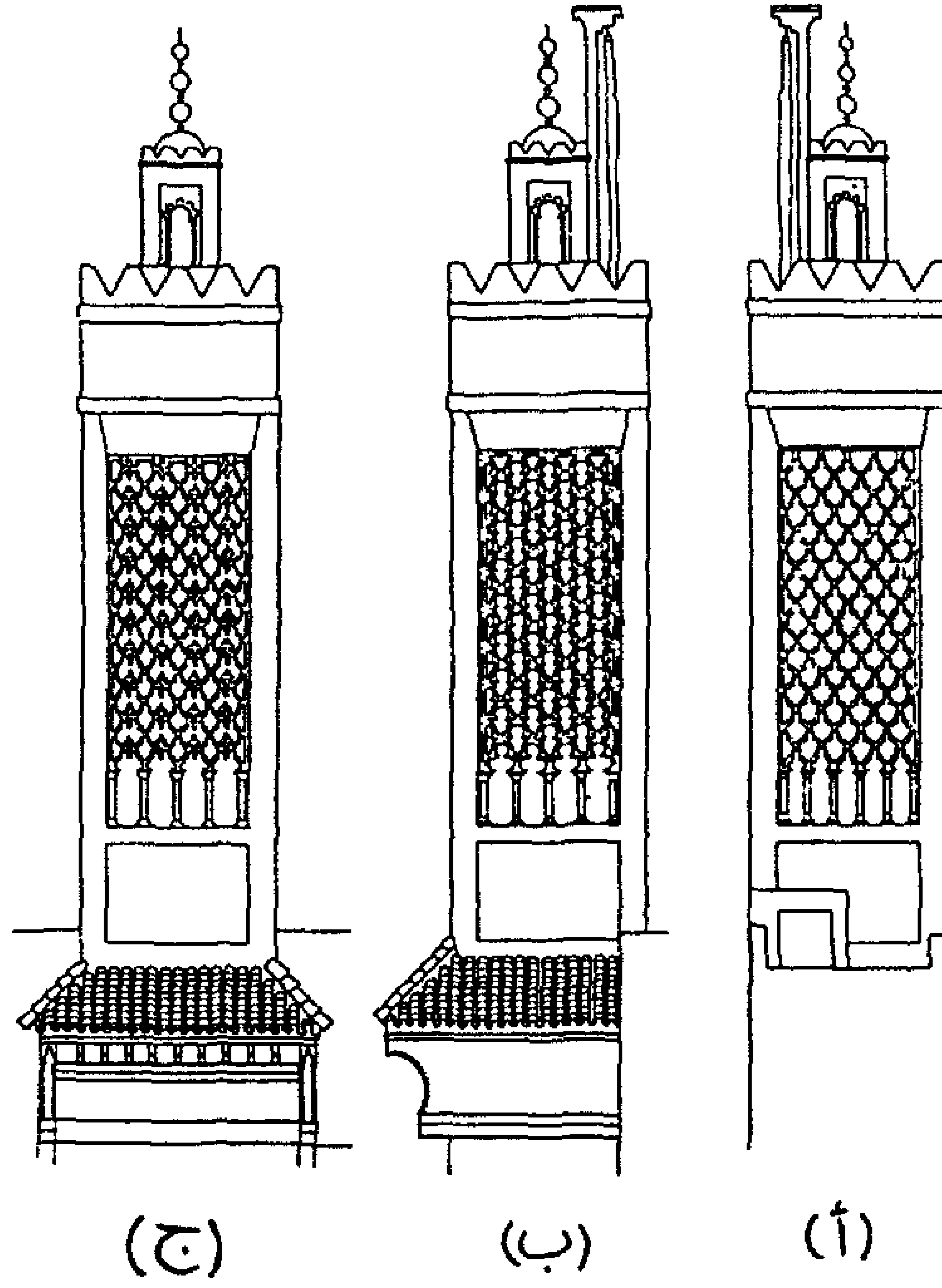
(شكل ٥٦ / أ،ب،ج،د): شكل توضيحي لمئذنة الجامع الكبير المريني بفاس الجديد.

عن: Maslow, B.,: Op. Cit., Figs. 12- 13.



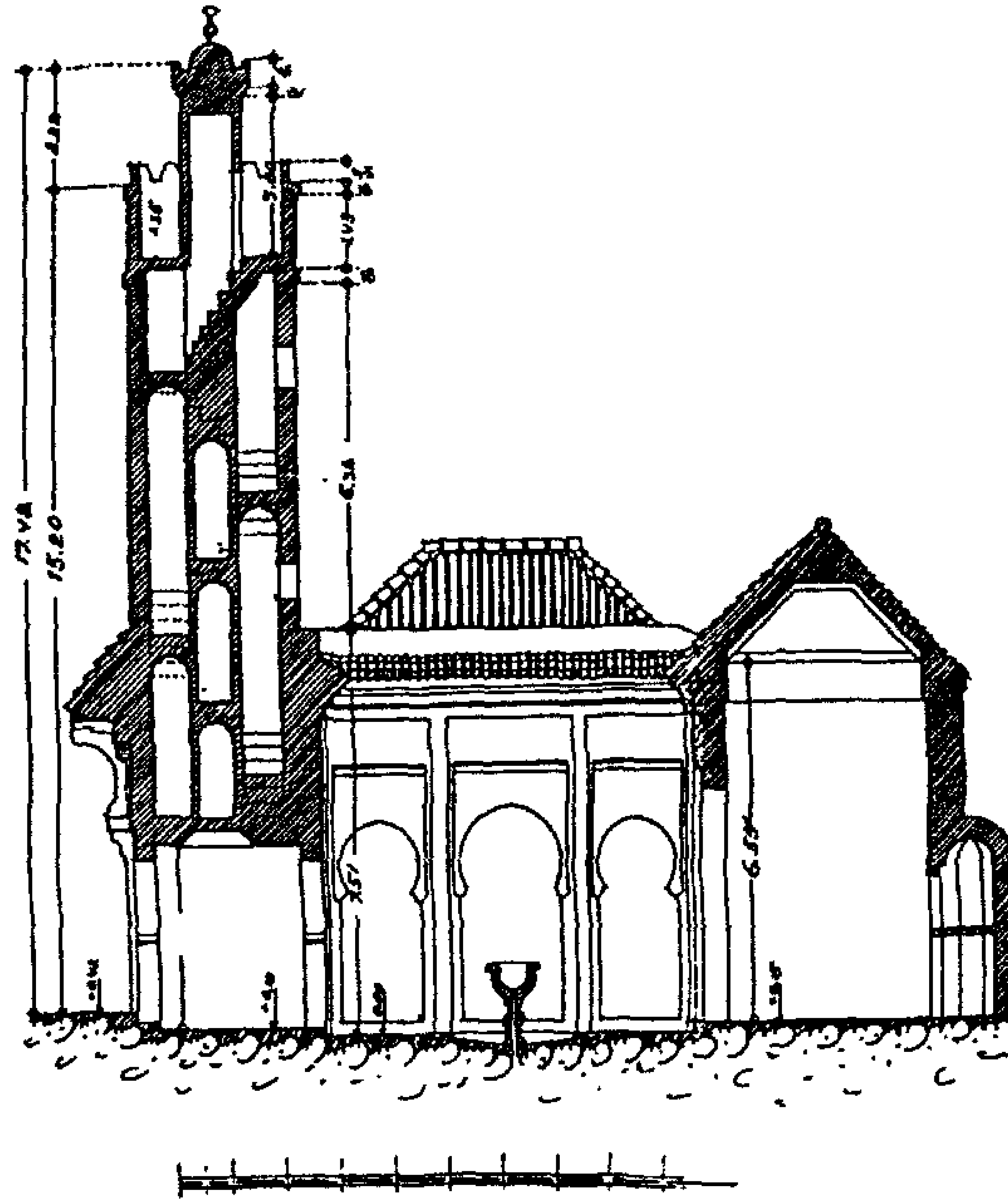
(شكل ٥٧): شكل توضيحي لمئذنة الجامع الحمراء المريني بفاس الجديد.

عن: Maslow, B.,: Ibid., Figs. 17- 18.



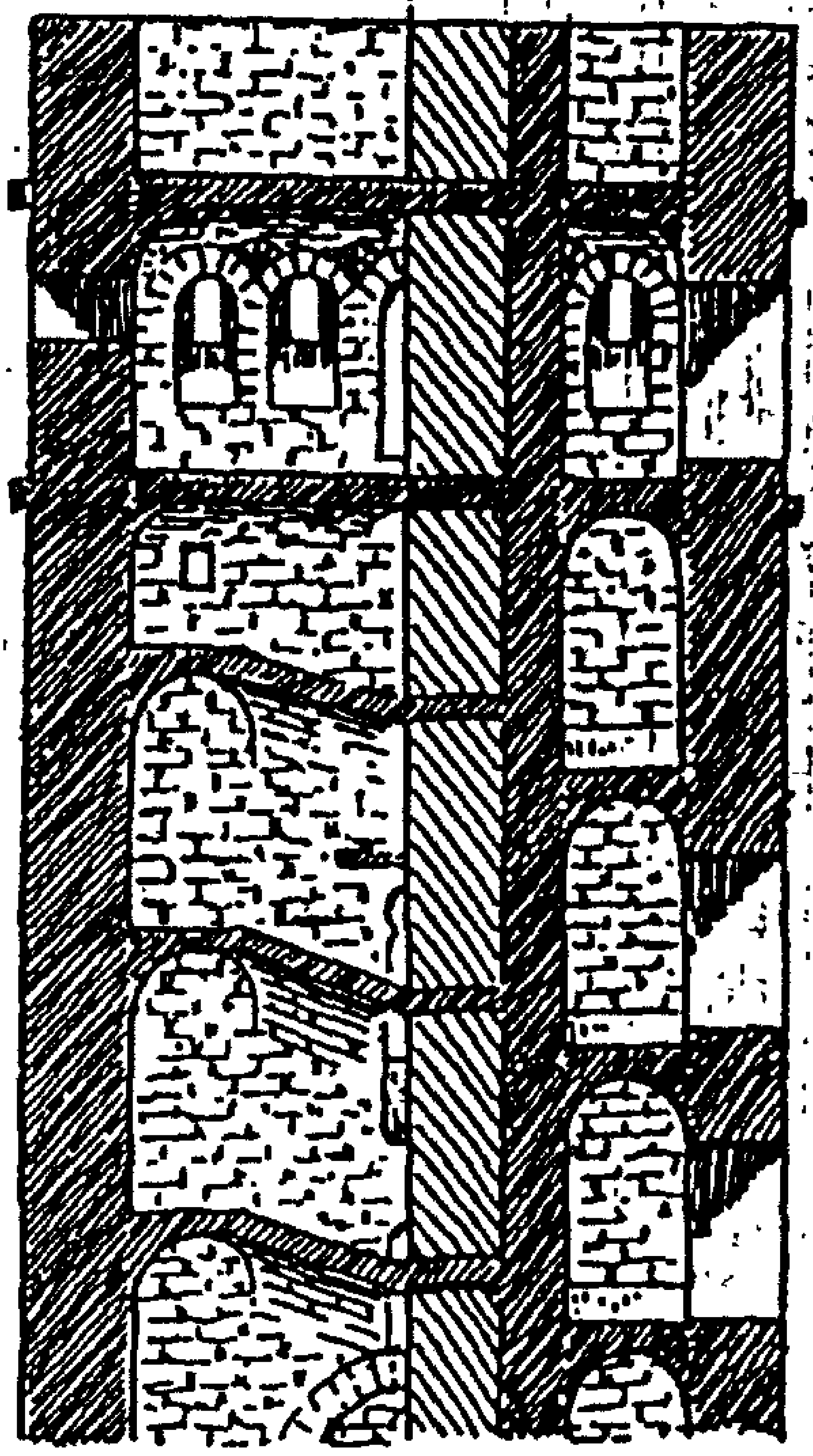
(شكل ٥٨): شكل توضيحي لمئذنة جامع الشرابليين بفاس القديمة.

عن: Maslow, B.,: Ibid., Fig. 26.



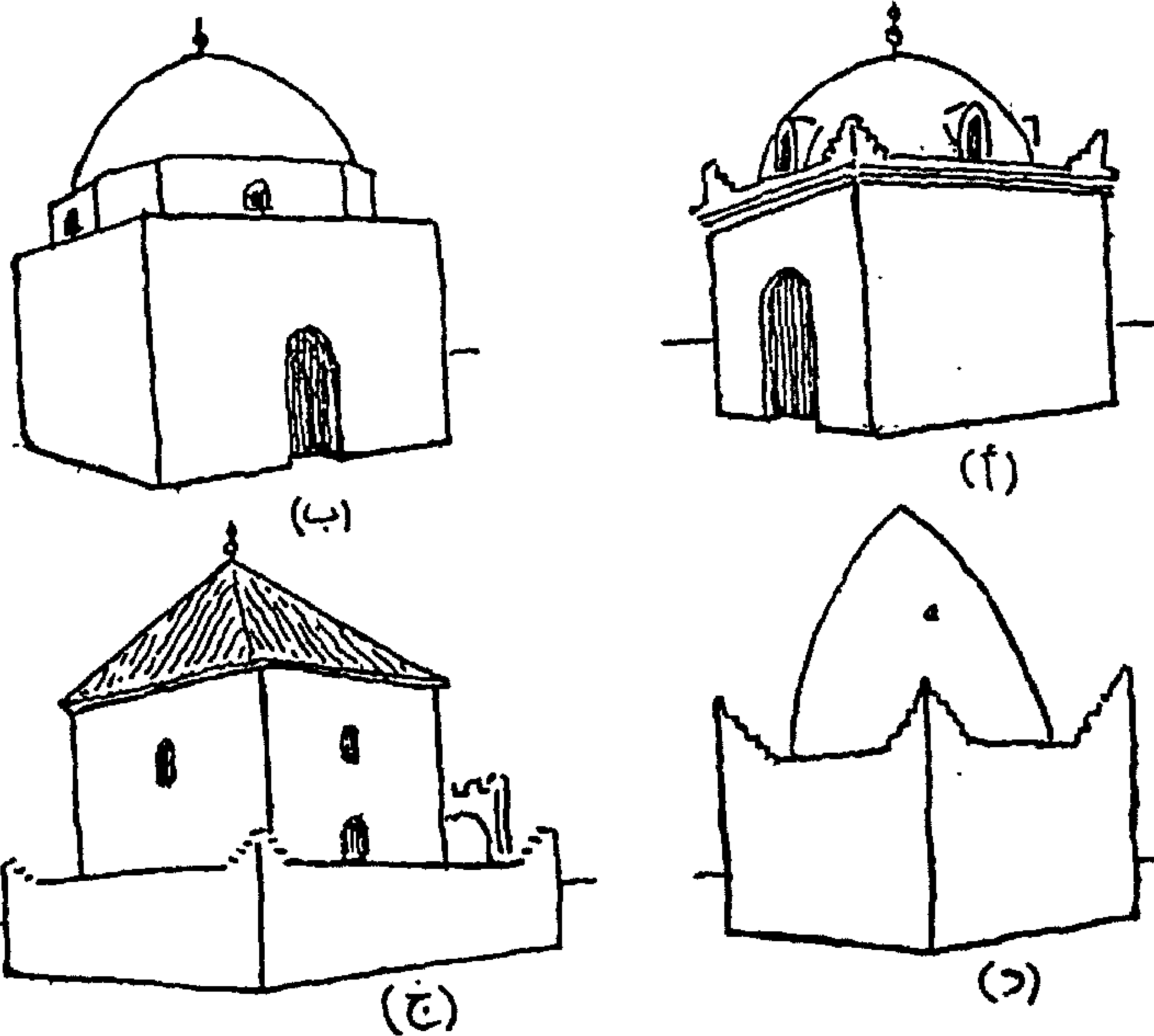
(شكل ٥٩): قطاع رأسي لمسجد أبي الحسن المريني بفاس القديمة.

عن: Maslow, B.,: Op. Cit., Fig. 28.



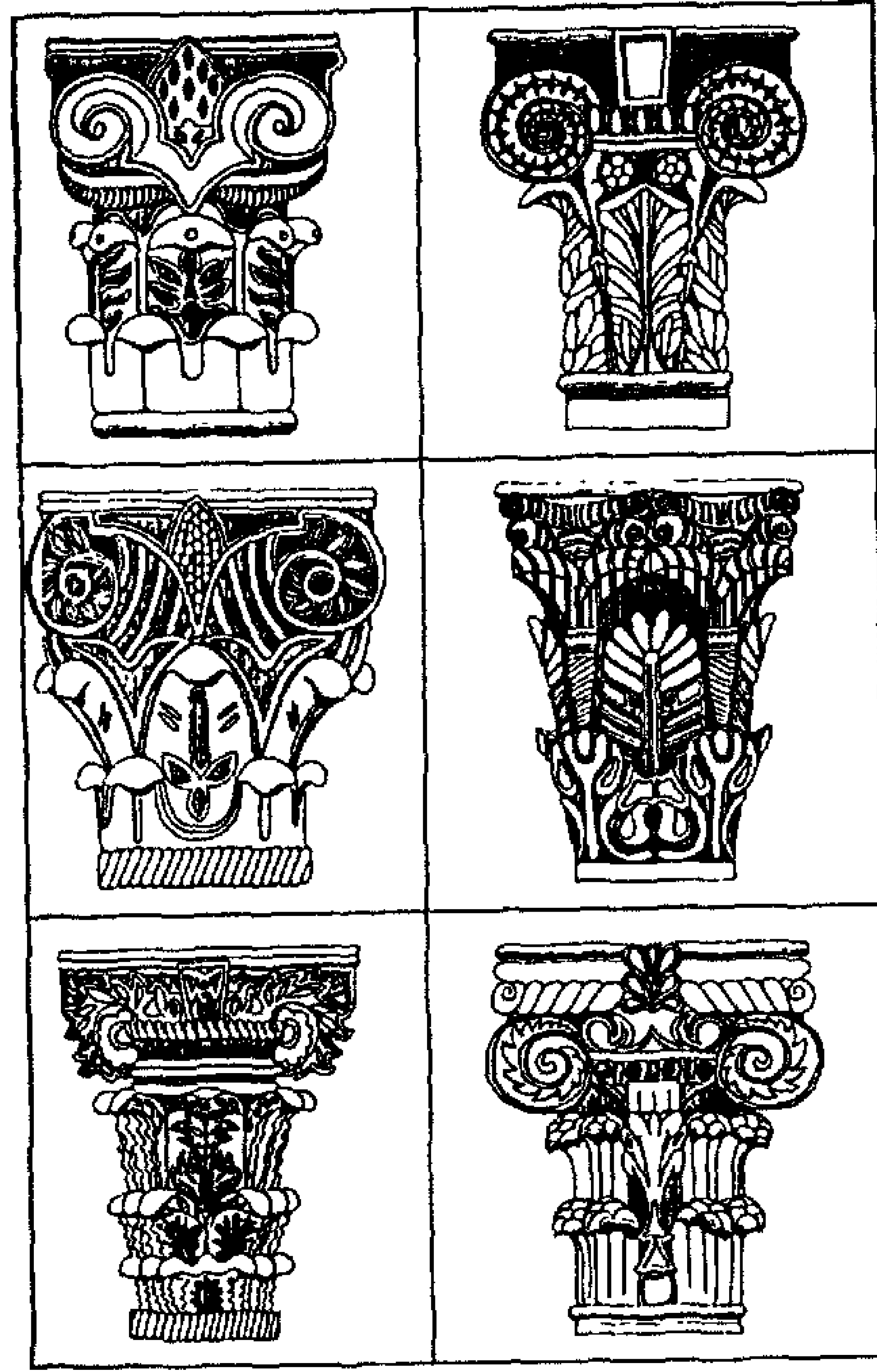
(شكل ٦٠): قطاع رأسي لمئذنة جامع المنصورة المريني بتلمسان.

عن:.Hillenbrand, R.,: Op. Cit., Figs. 3 - 37



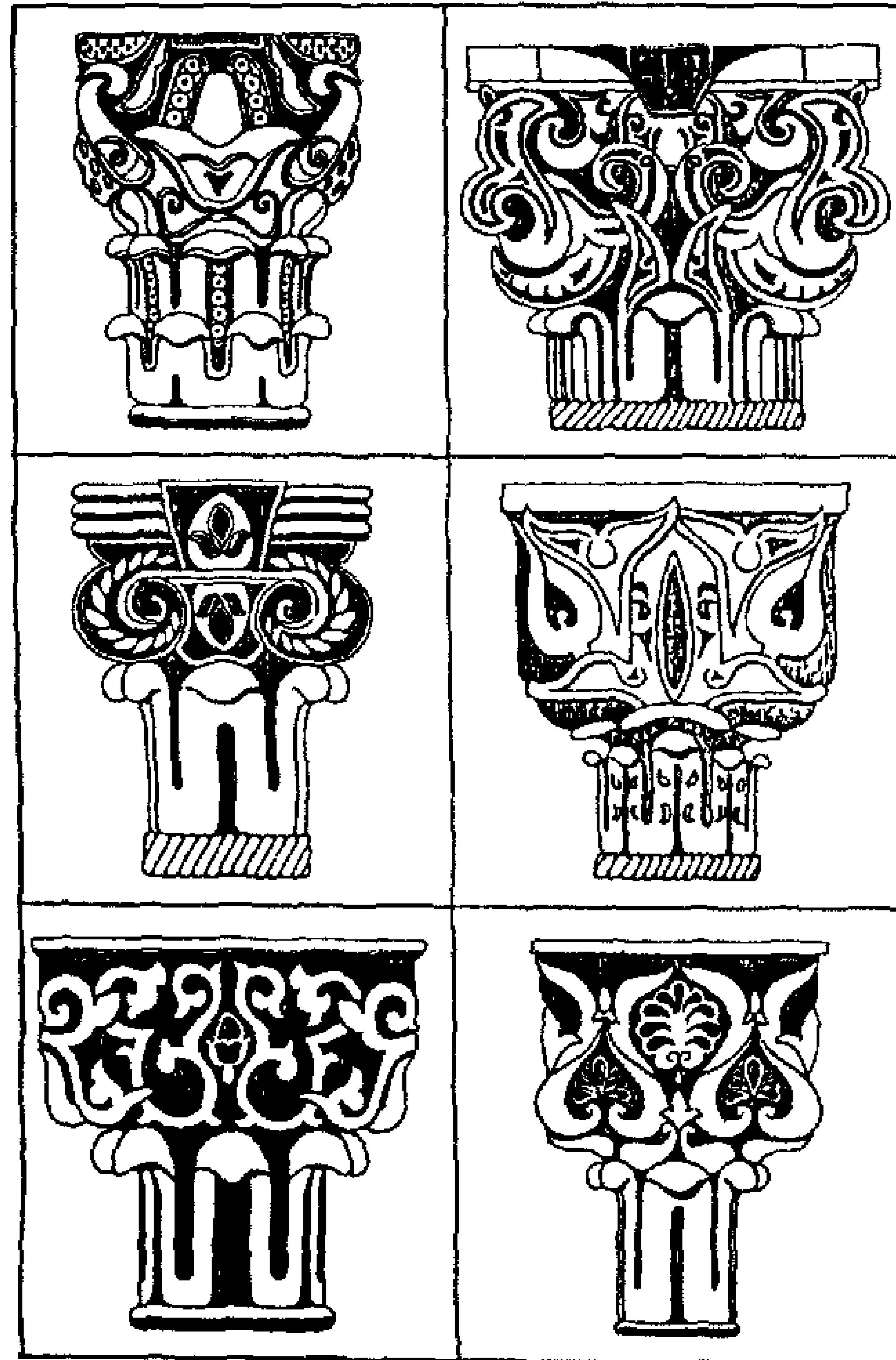
(شكل ٦١ /أ،ب،ج،د): شكل توضيحي لأشكال القباب بالغرب الإسلامي.

عن: .Marçais, G.,: Manuel d'Art Musulman, Tome II, Fig. 440



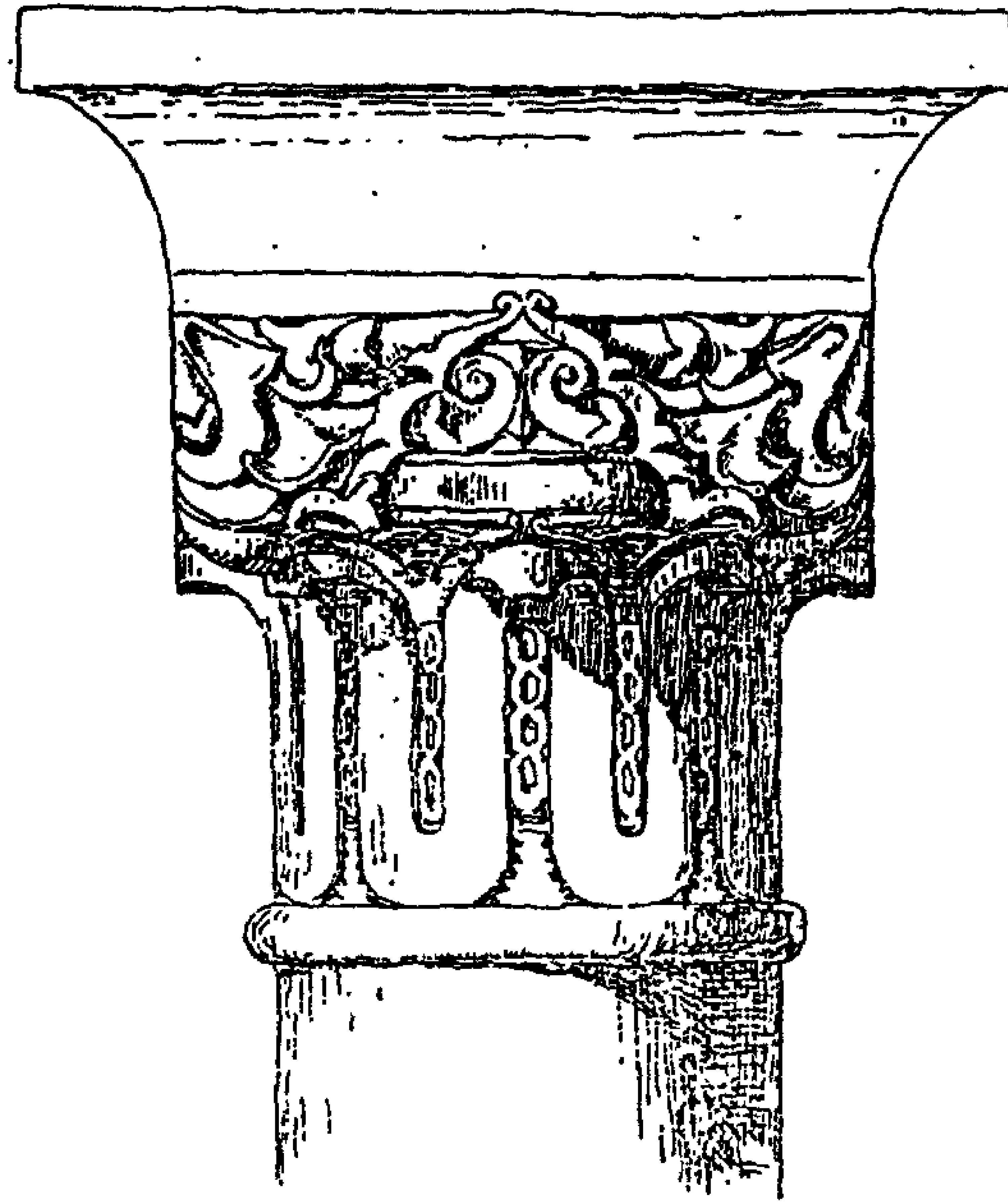
(شكل ٦٢): شكل توضيحي للتيجان الكورنثية والمركبة.

عن: أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ٥٤.



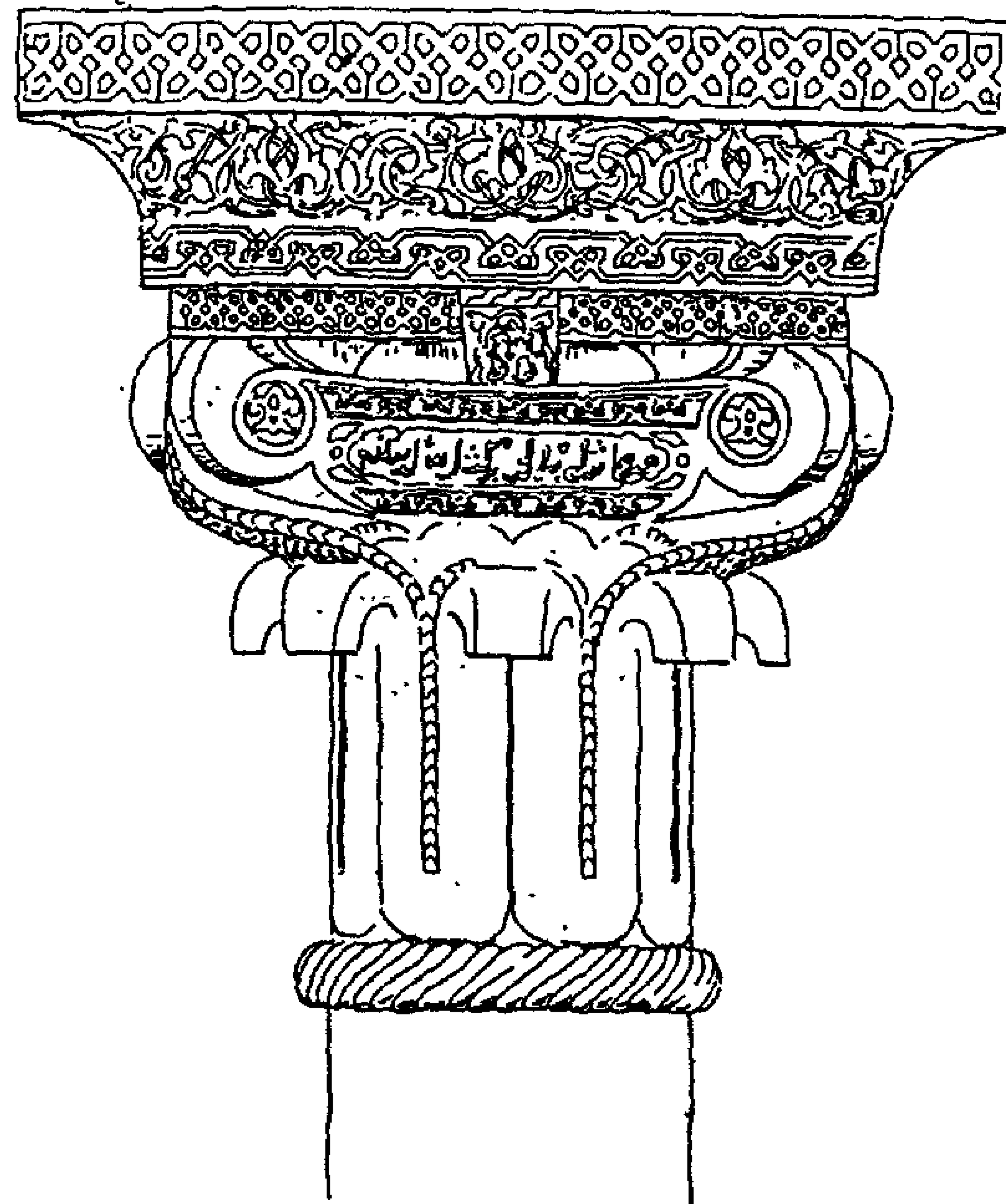
(شكل ٦٣): شكل توضيحي للتيجان الأندلسية.

عن: أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد، ص ٥٥.



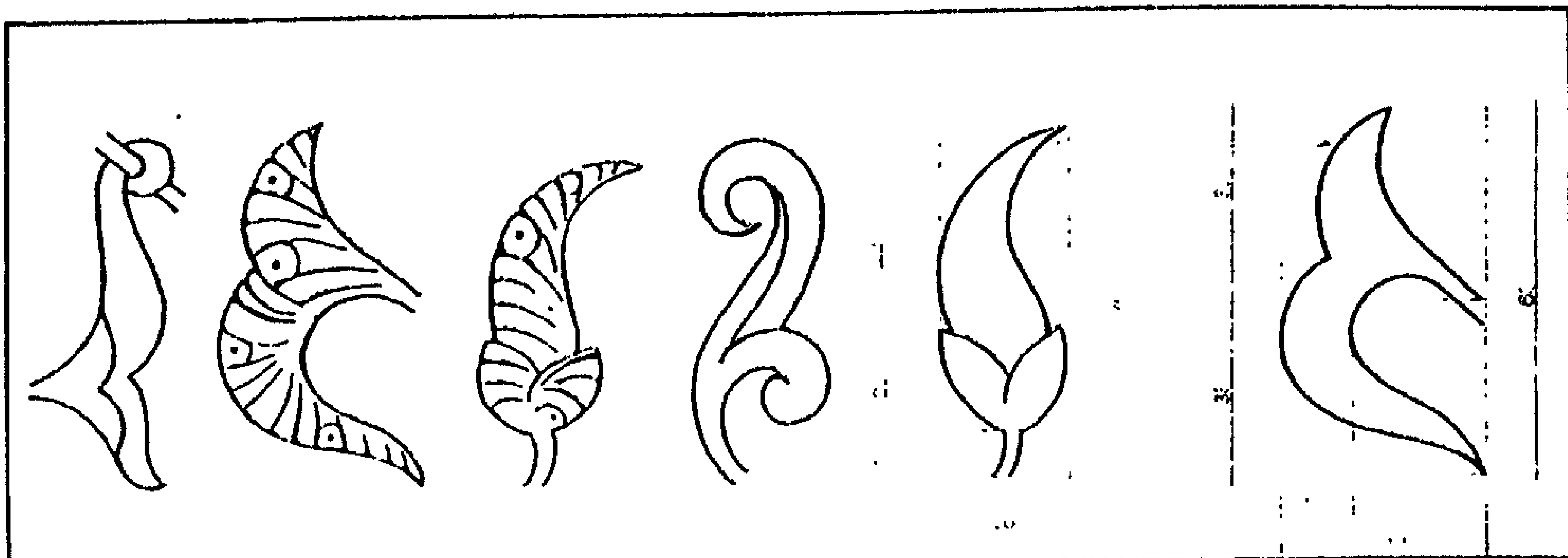
(شكل ٦٤): شكل توضيحي لأحد التيجان الرخامية بجامع المنصورة المريني بتلمسان.

عن: Marçais,G.,: Op. Cit., Tome II, Fig. 325.



(شكل ٦٥): شكل توضيحي لأحد التيجان الرخامية بجامع سيدي بومدين المريني بالعباد.

عن: Marçais, G., Ibid., Tome II, Fig. 329.

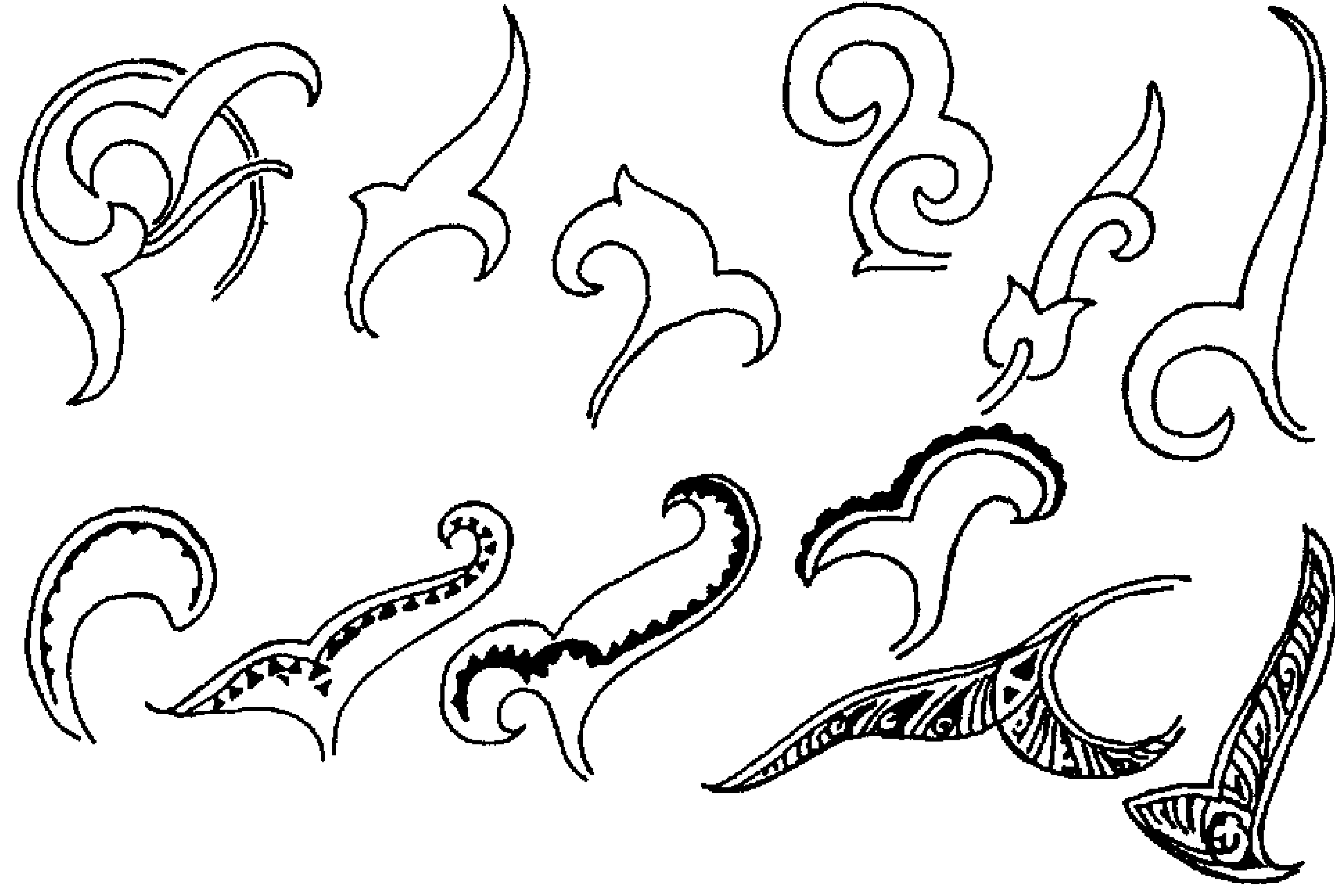


(شكل ٦٦): شكل توضيحي للمراوح النخيلية المرابطية.

عن: أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٨٠.

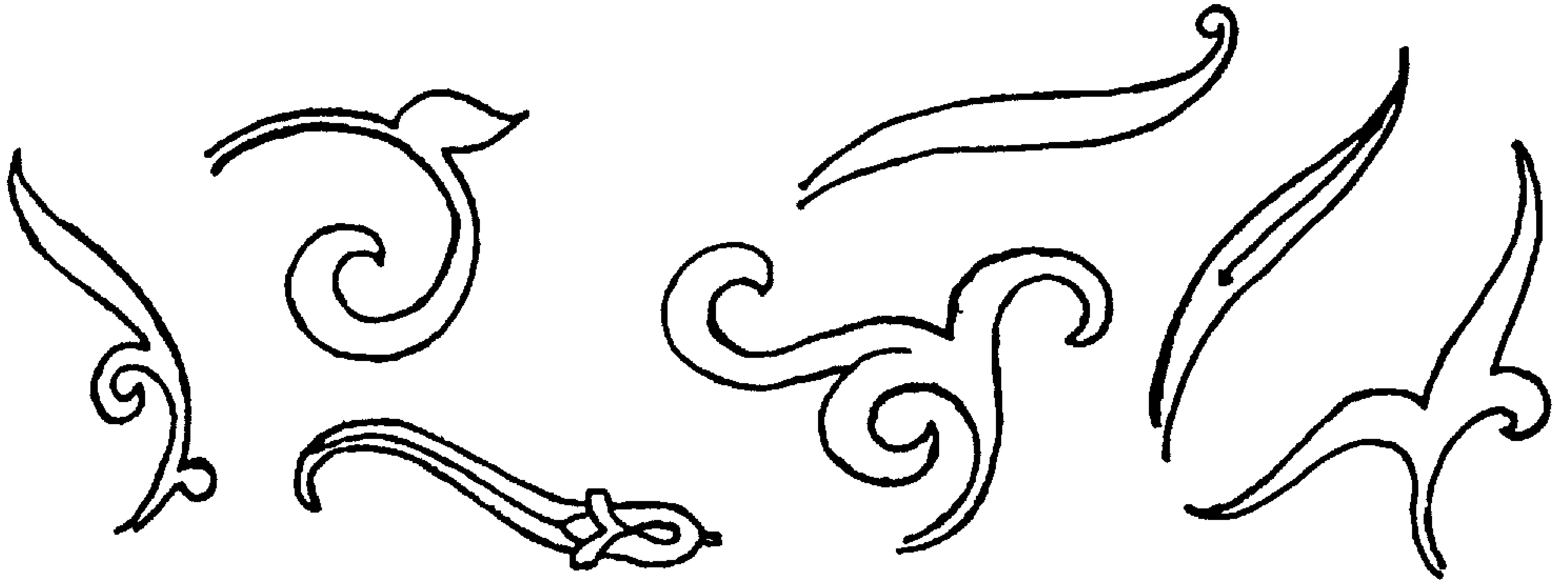
(شكل ٦٧): شكل توضيحي للمراوح النخيلية الموحدية.

عن: أندريه باكار: نفس المرجع والمجلد والصفحة.



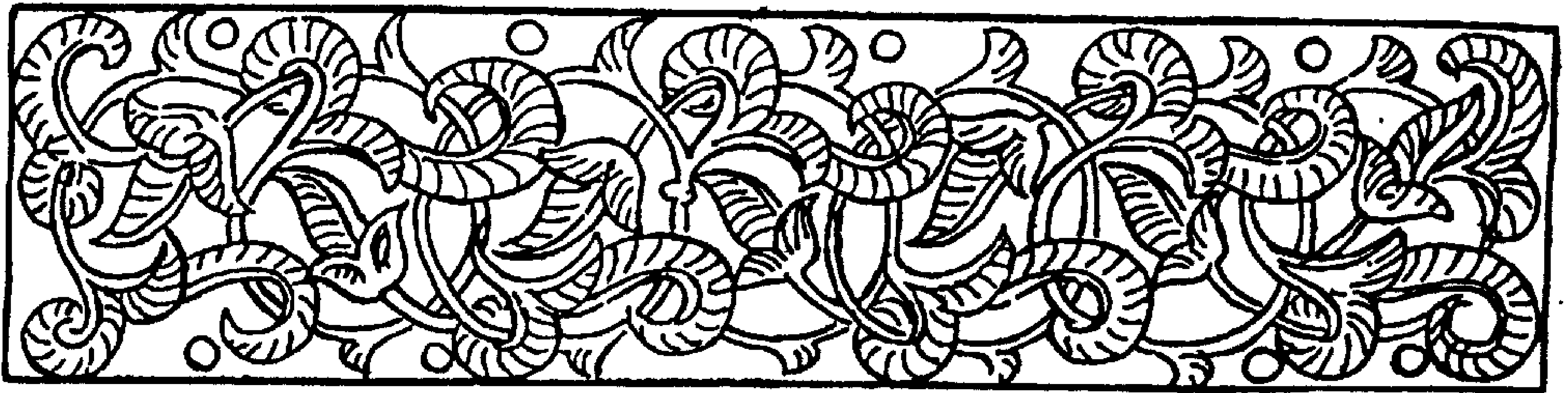
(شكل ٦٨): شكل توضيحي للمراوح النخيلية المرينية.

عن: Gayot, H.,: Op. Cit., P. 7.



(شكل ٦٩): شكل توضيحي للمراوح النخيلية السعدية.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 8.



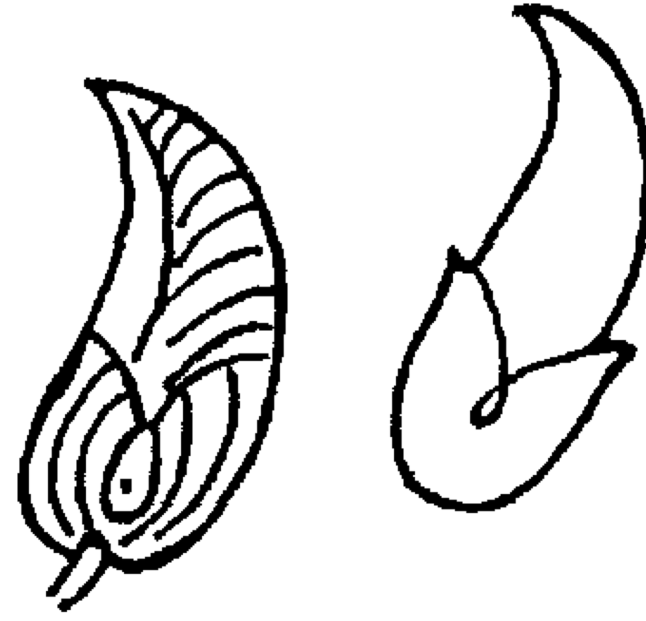
(شكل ٧٠): شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية معرقة.

عن: Gayot, H.,: Op. Cit., P. 35.



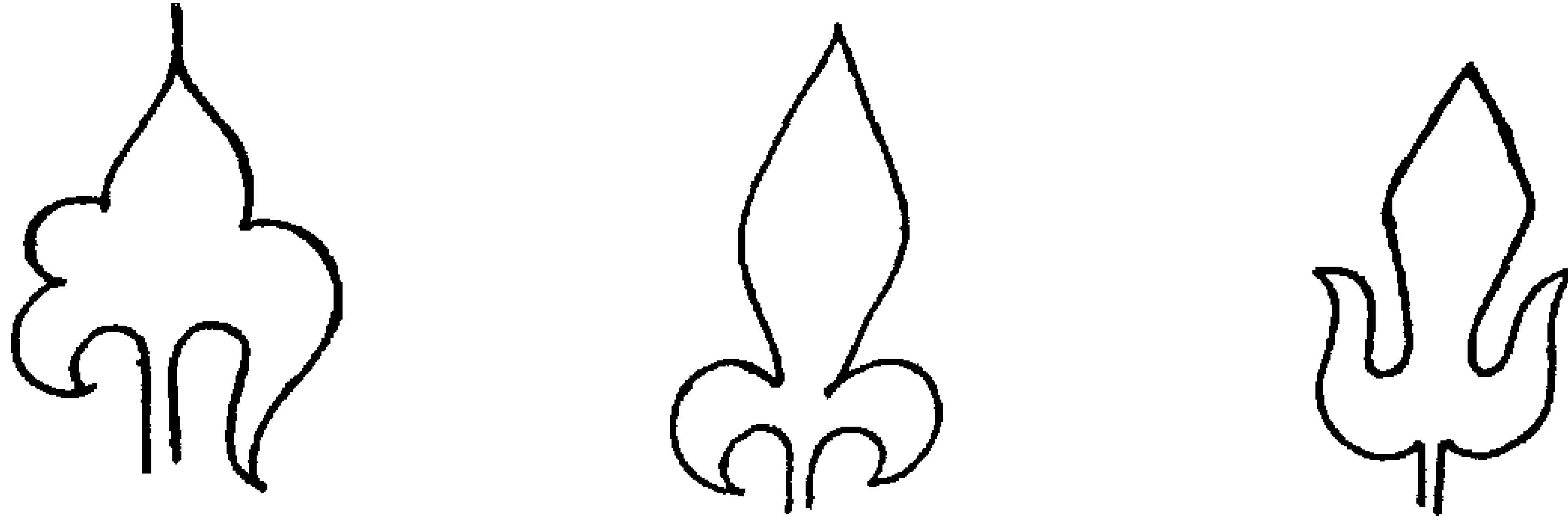
(شكل ٧١/أ) : شكل توضيحي لمروحة نخيلية سعدية على هيئة القوقع.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 11.



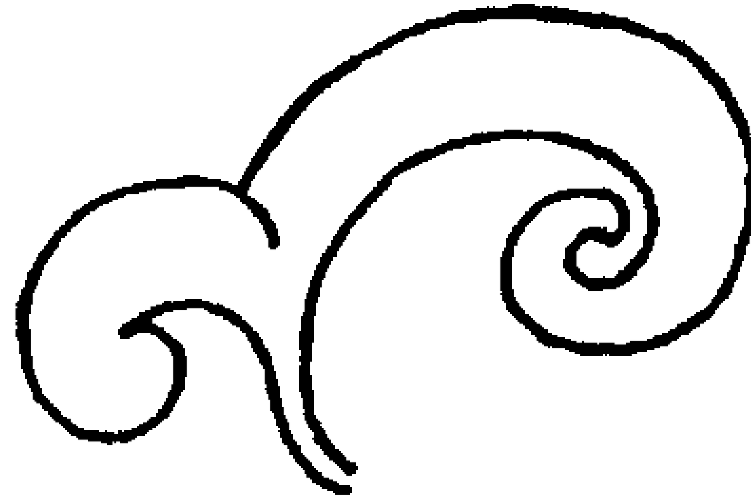
(شكل ٧١/ب): شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية تخرج من شكل كأسي.

عن: Gayot, H.,: Op. Cit., P. 13.



(شكل ٧١/ج) : شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية تنتهي بشكل على هيئة رأس الحربة.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 18.



(شكل ٧١/د) : شكل توضيحي لمروحة نخيلية سعدية مؤلفة من ورقتين مقعرتين.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 19.



(شكل ٧١/هـ) : شكل توضيحي لمرواح نخيلية سعدية محدبة.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 20.



(شكل ٧٢/ أ): شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية مؤلفة من ورقتين إحداهما مقعرة والأخرى محدبة.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 21.



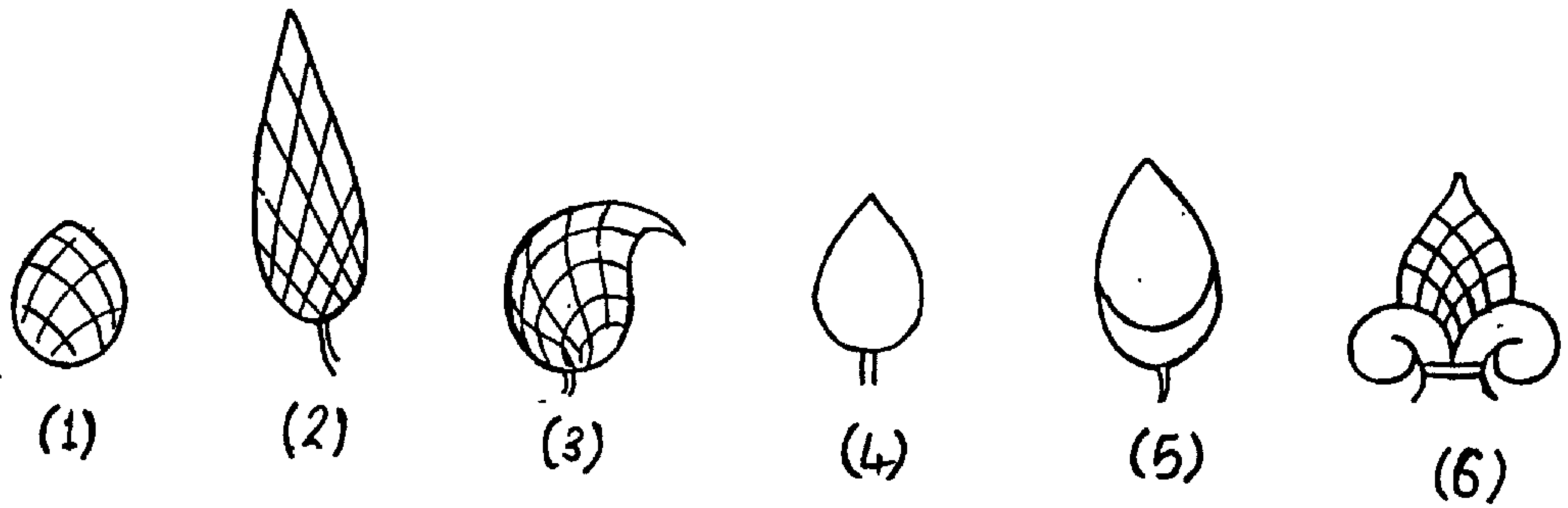
(شكل ٧٢/ ب) : شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية مؤلفة من عدة أوراق.

عن: Gayot, H.,: Ibid., PP. 22 - 23.



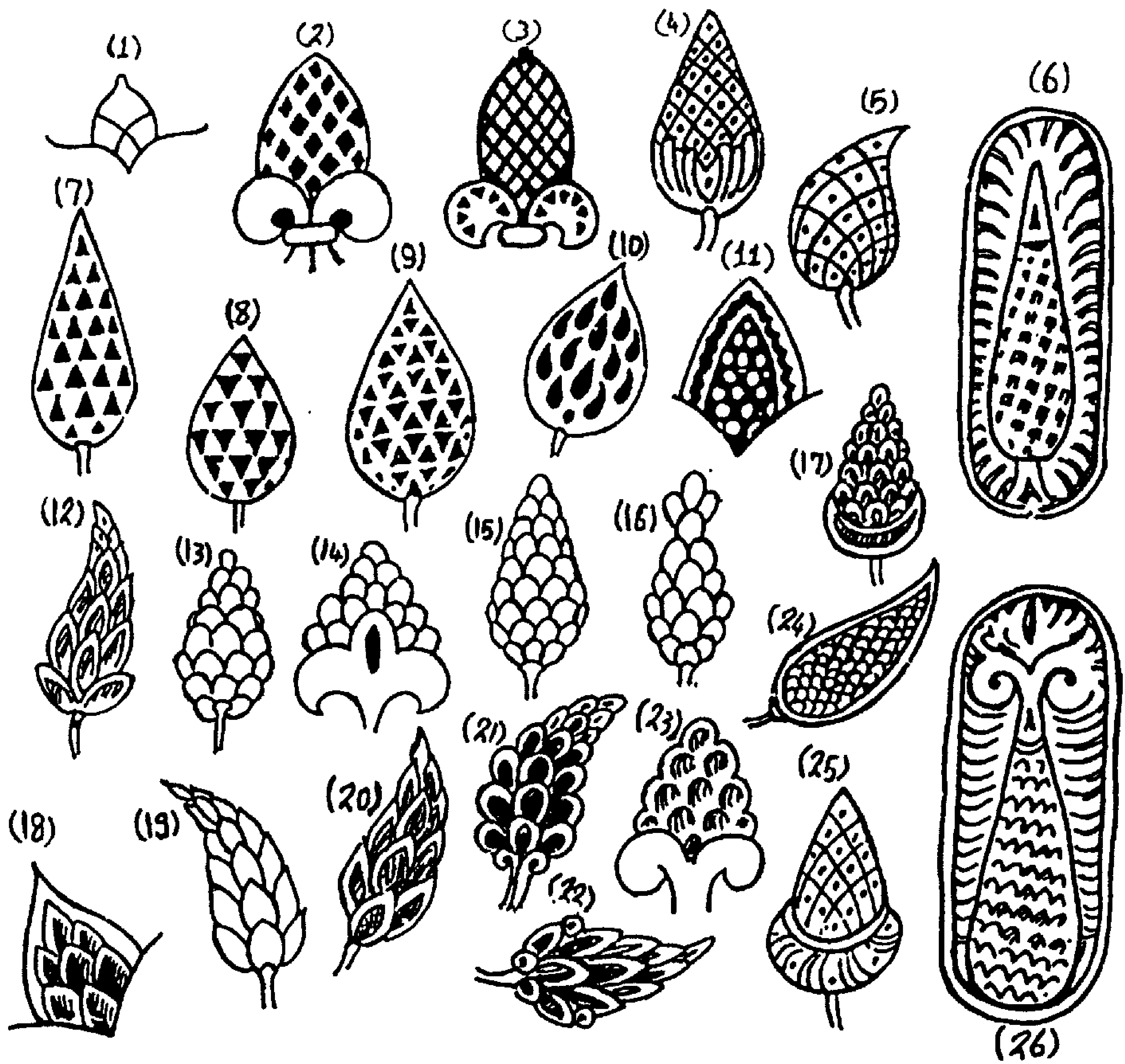
(شكل ٧٢/ ج) : شكل توضيحي لمراوح نخيلية سعدية منحنية بعضها على هيئة حرف الـ "C".

عن: Gayot, H.,: Ibid., PP. 15 - 16.



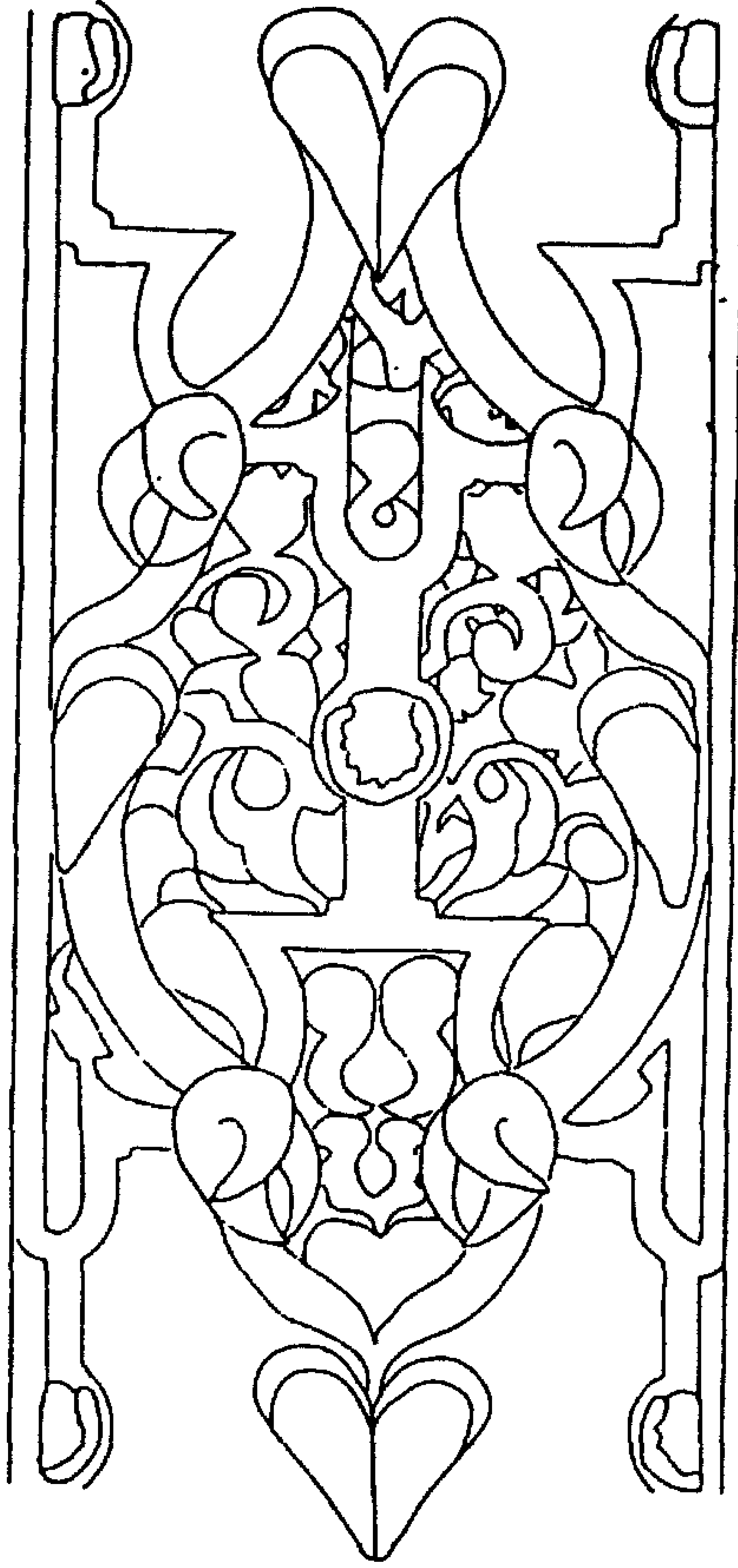
(شكل ٧٣ / أ) : شكل توضيحي للأشكال المتعددة لعنصر كوز الصنوبر.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 27.



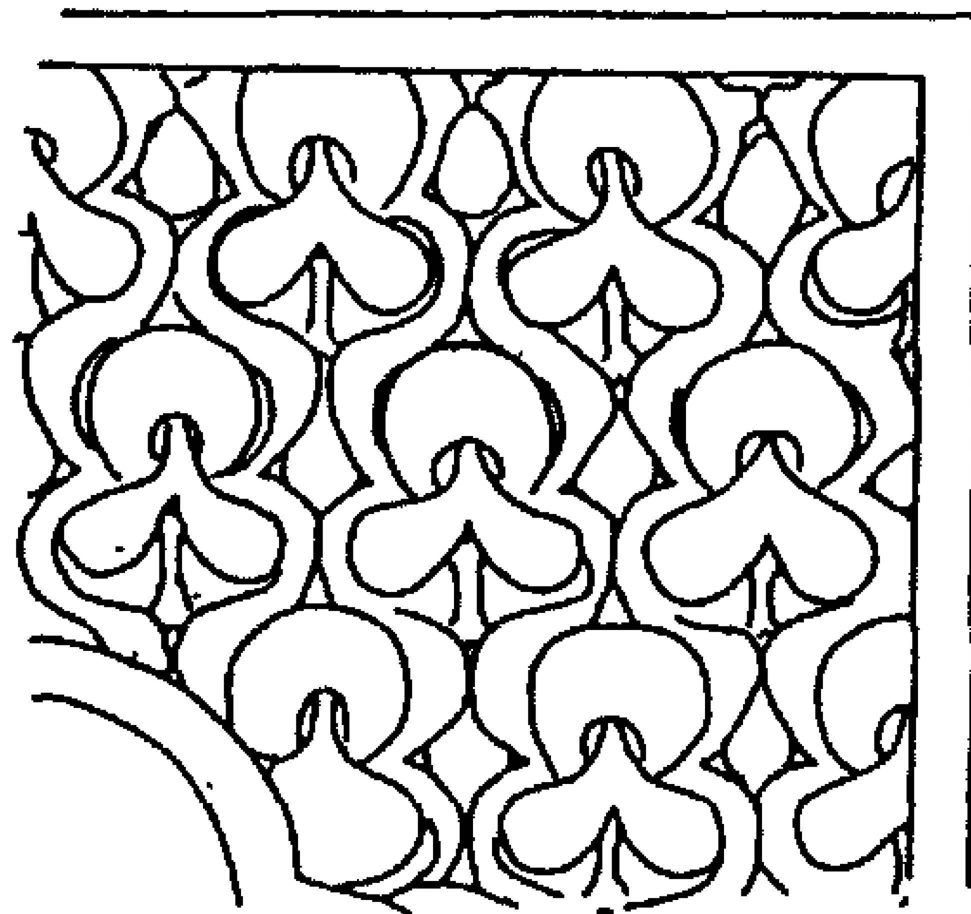
(شكل ٧٣ / ب) : شكل توضيحي لعنصر كوز الصنوبر في الغرب الإسلامي.

عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 27.



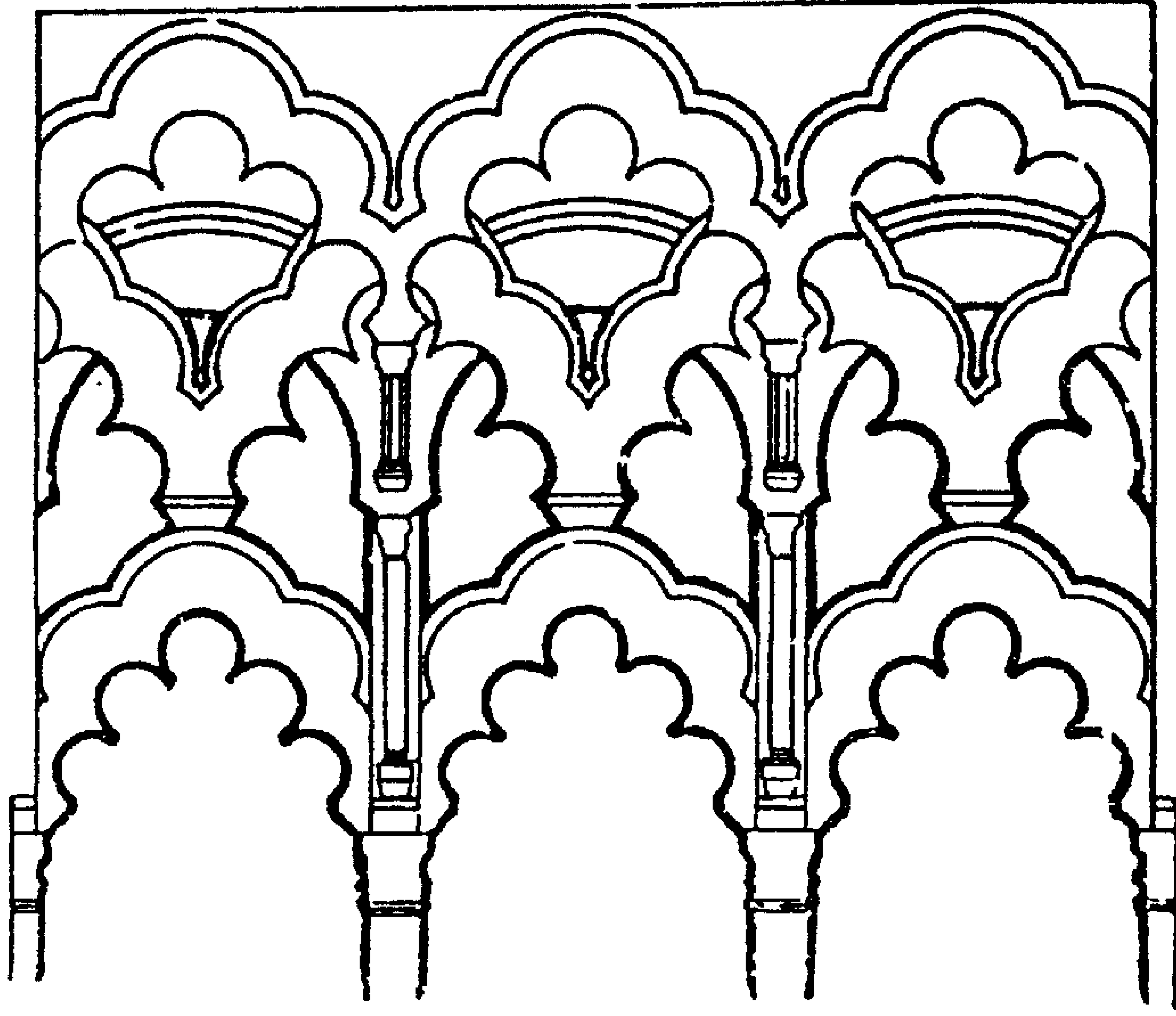
(شكل ٧٤ / أ): شكل توضيحي لعنصر كوز الصنوبر السعدي.

عن: Triki et Dovifat: Op. Cit., P. 179.



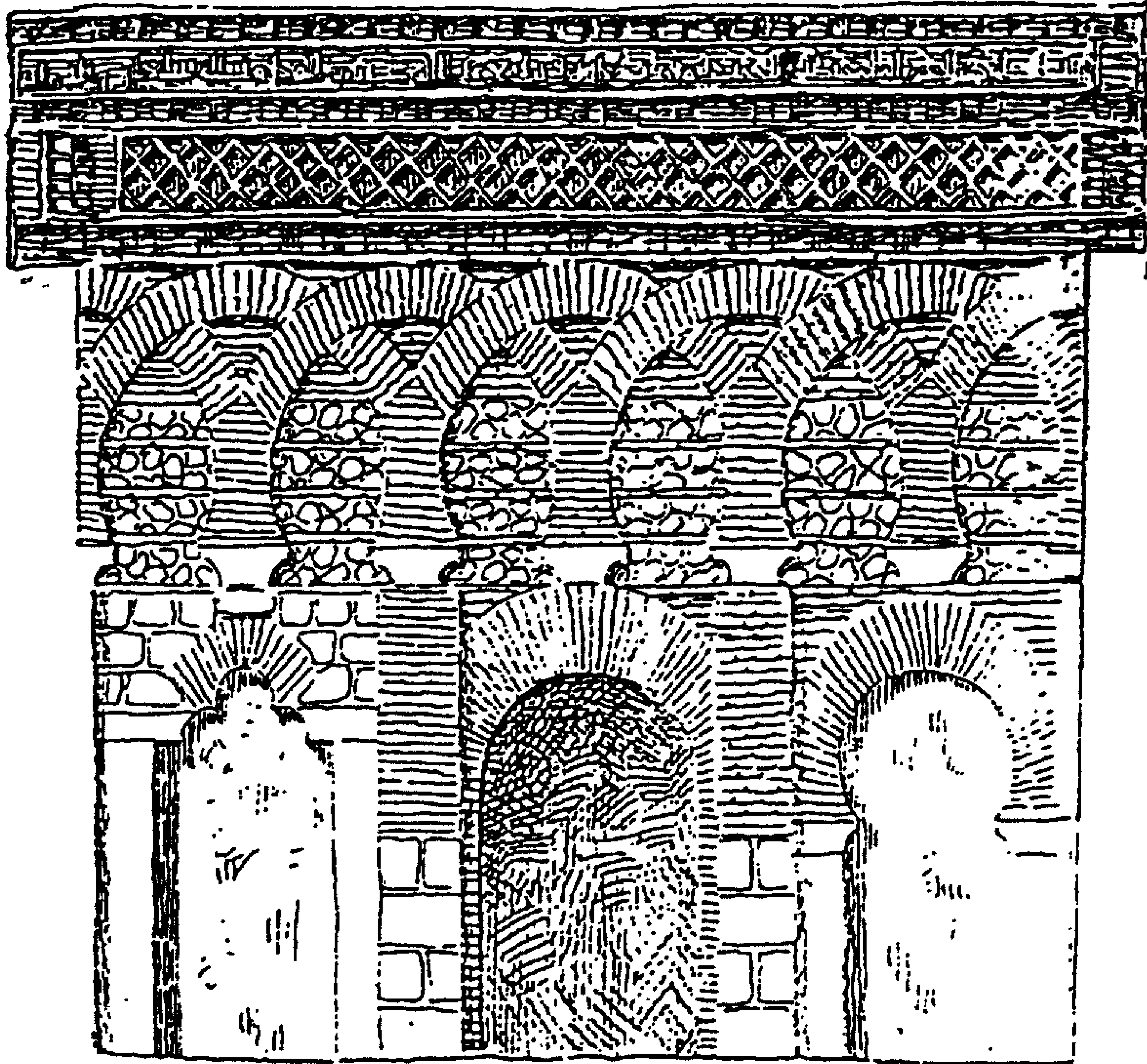
(شكل ٧٤ / ب) : شكل توضيحي لعنصر كوز الصنوبر السعدي.

عن:.Triki et Dovifat: Ibid., P. 179.



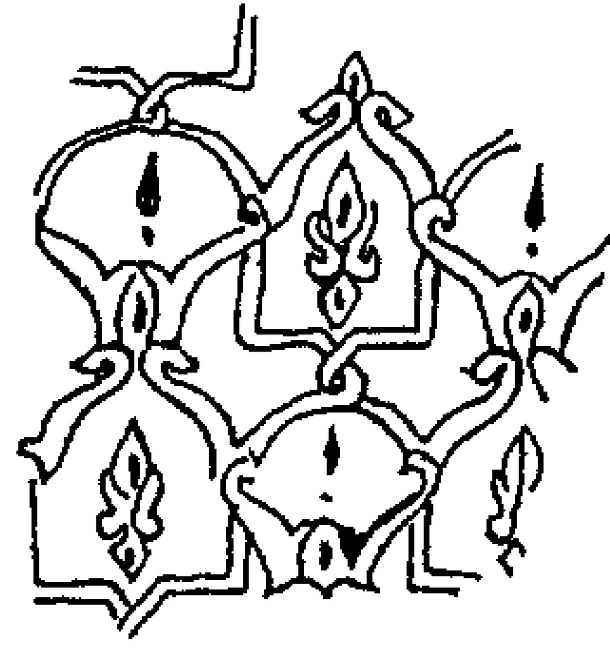
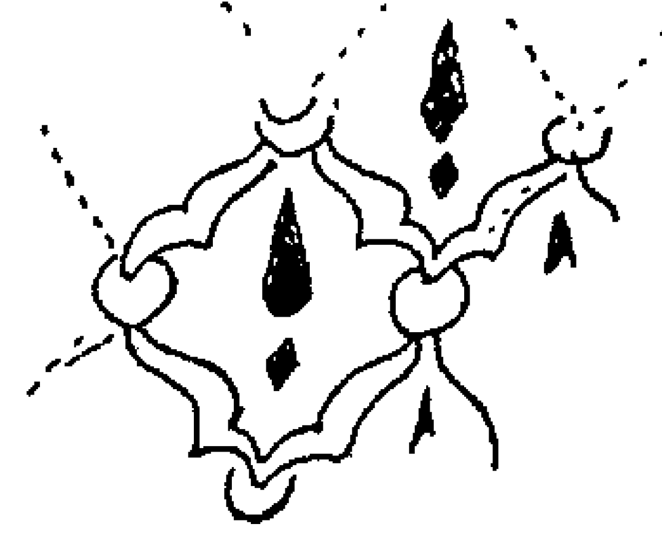
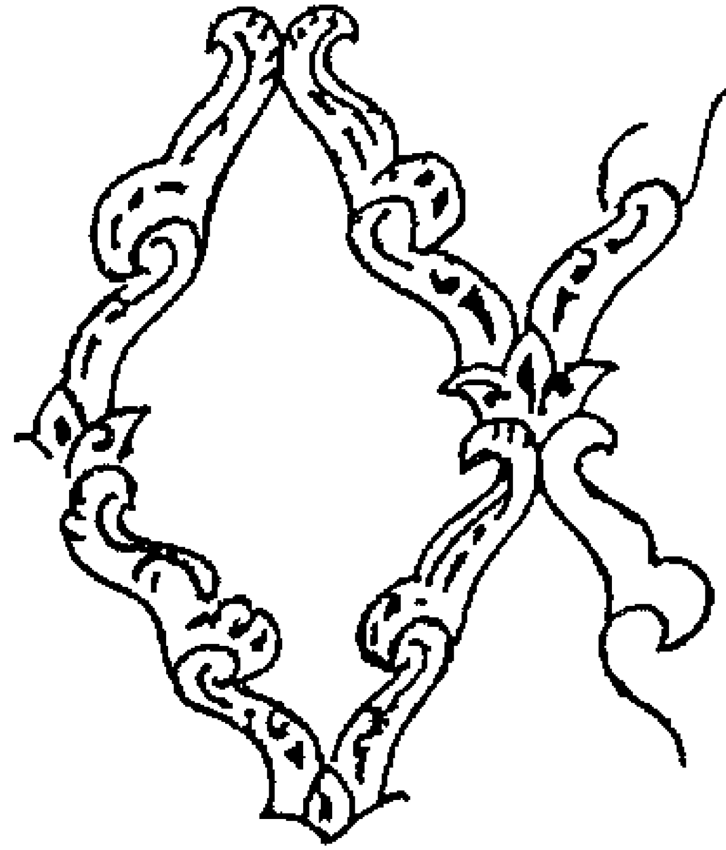
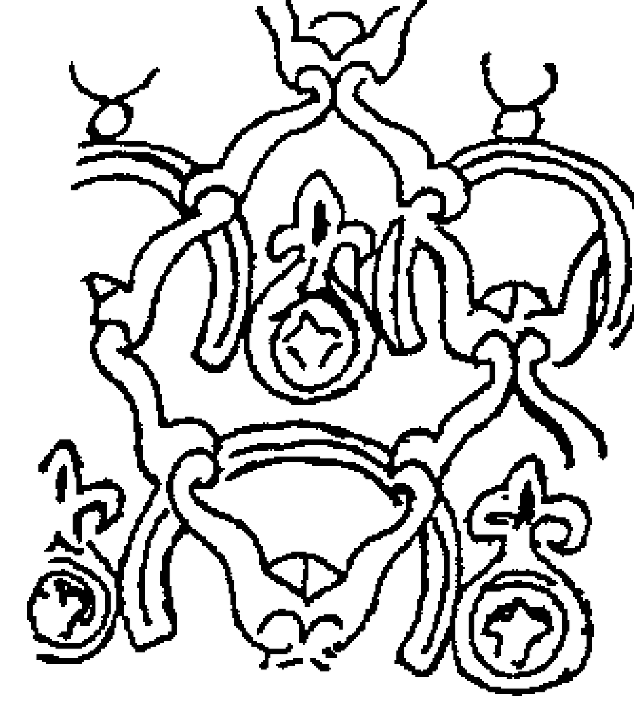
(شكل ٧٥ / أ) : شكل توضيحي لعقود مسجد قرطبة.

عن: ليوبولدو توريس بلباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية، الفن والعمارة، المجلد الثاني (الجزء الثاني)، شكل ٣٠٣.



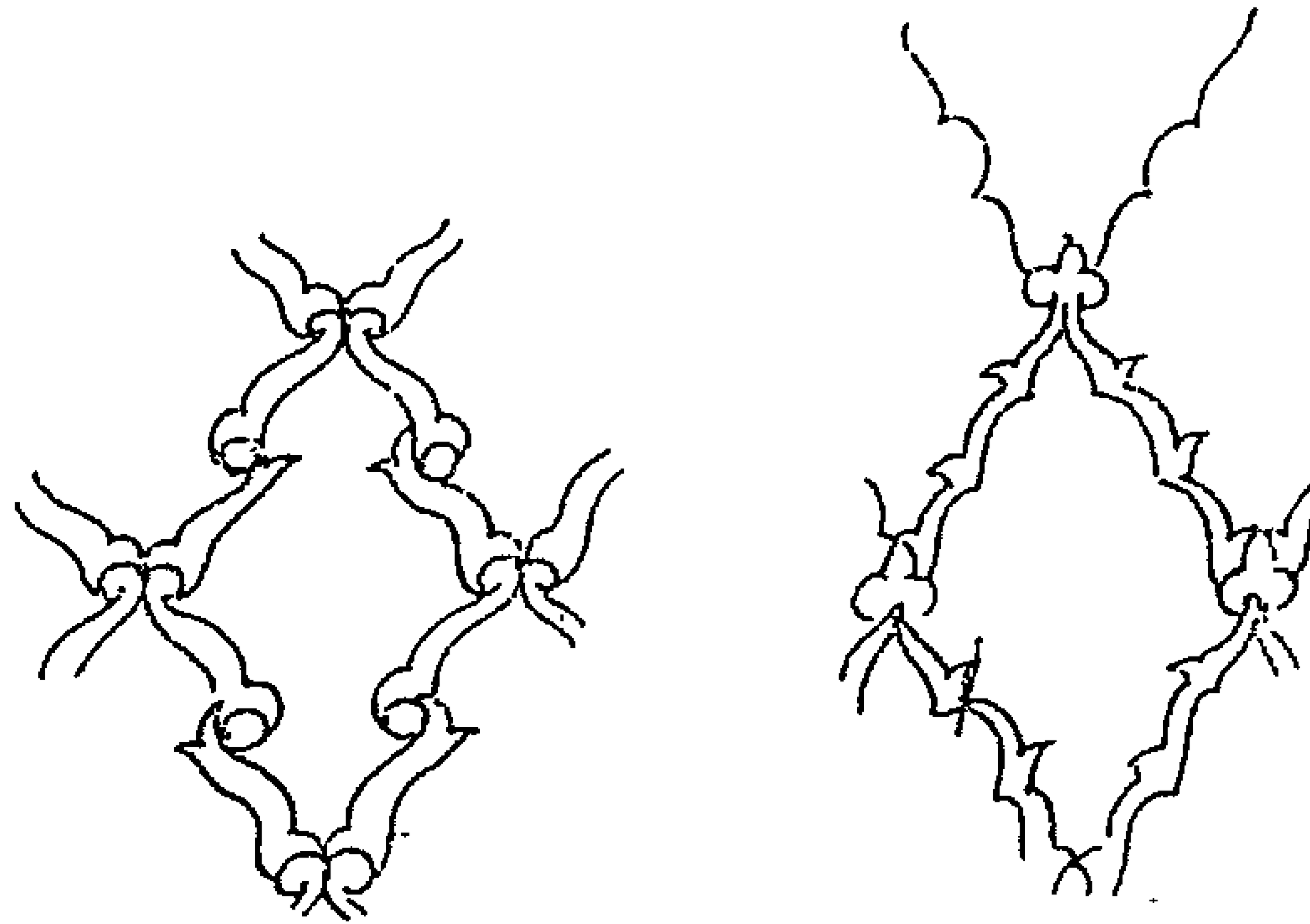
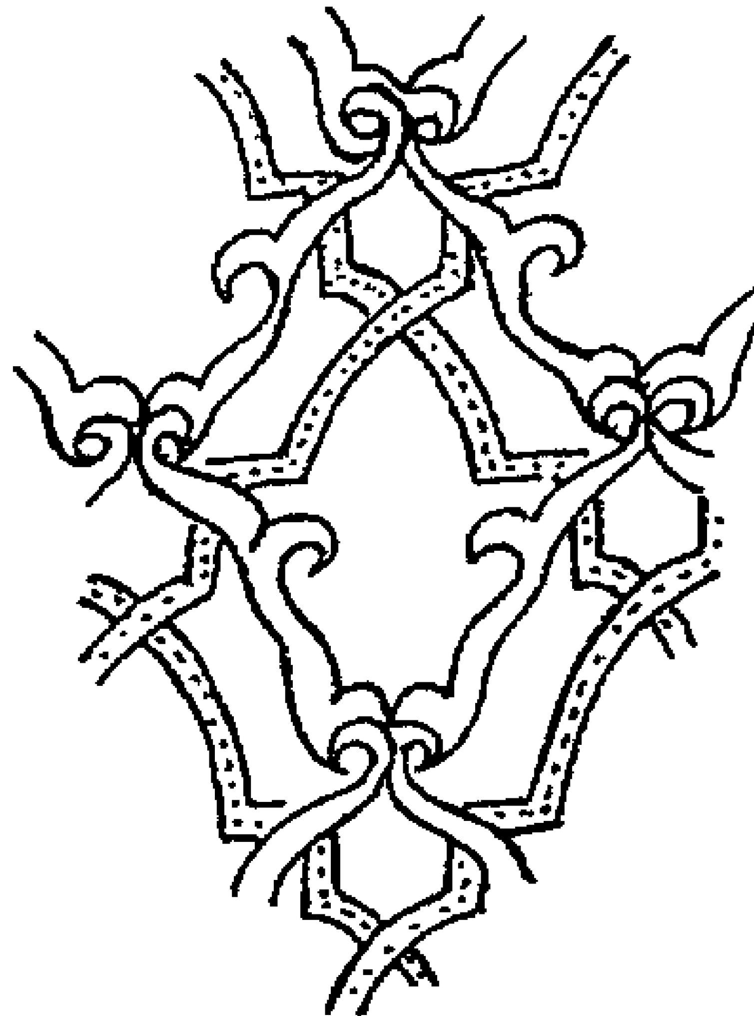
(شكل ٧٥ / ب): شكل توضيحي لعنصر شبكة المعينات على واجهة مسجد باب المردوم.

عن: Marçais, G.,: Op. Cit., Tome I, Fig. 131.

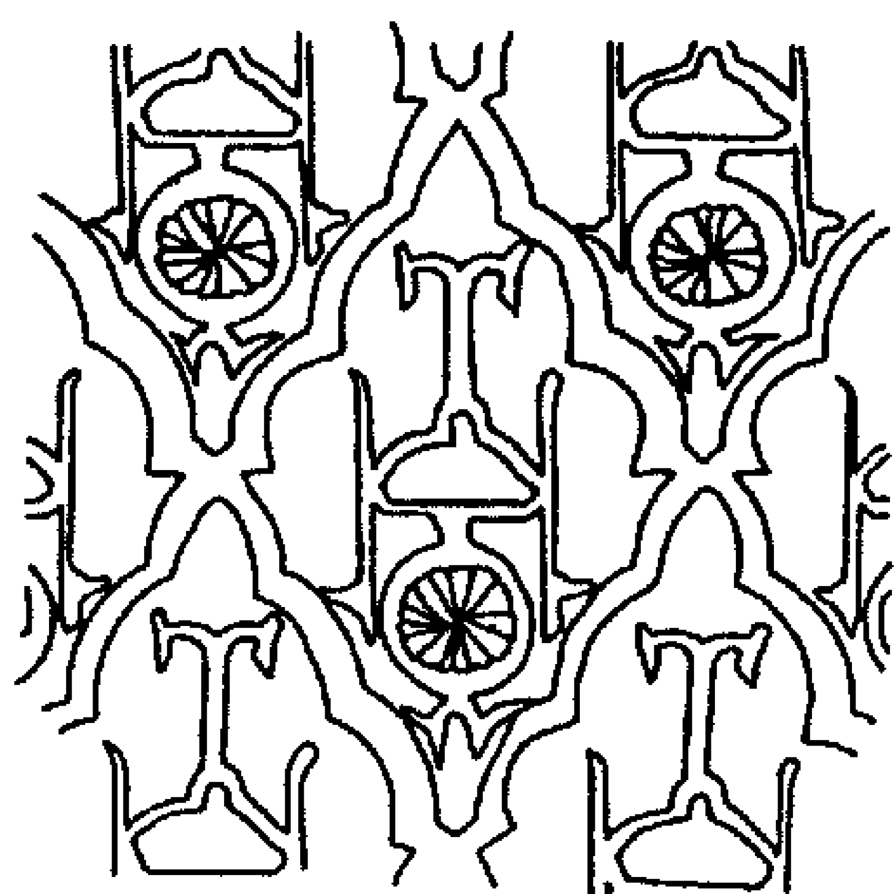
(شكل ٧٦): شكل توضيحي للأشكال المتنوعة لعنصر المعينات في العصر الموحدي.

عن: 46.–Gayot, H.,: Op. Cit., PP. 45

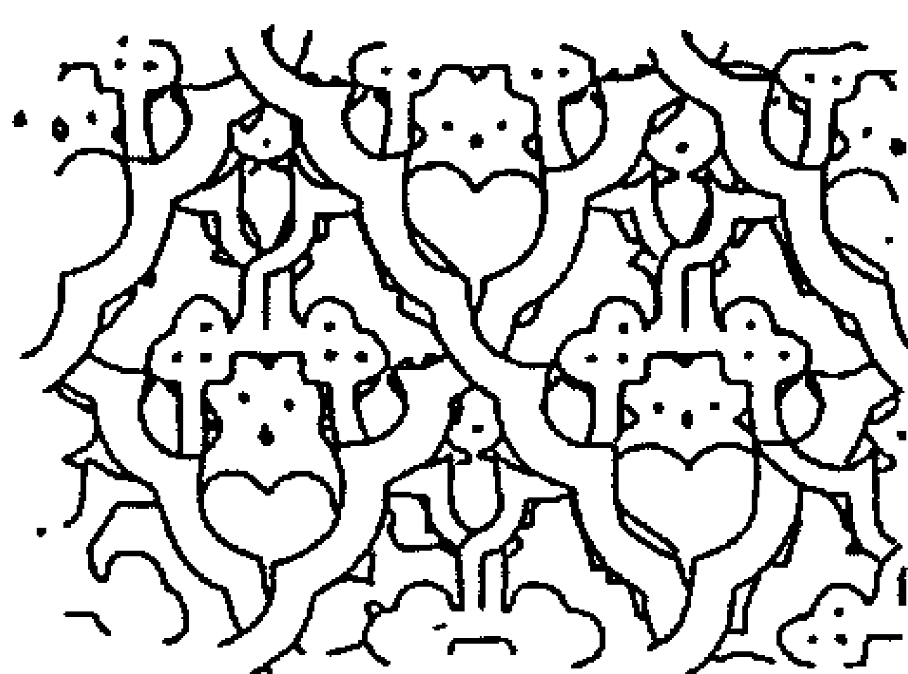



(شكل ٧٧): شكل توضيحي للأشكال المتنوعة لعنصر المعينات في عصر بني نصر بغرناطة.

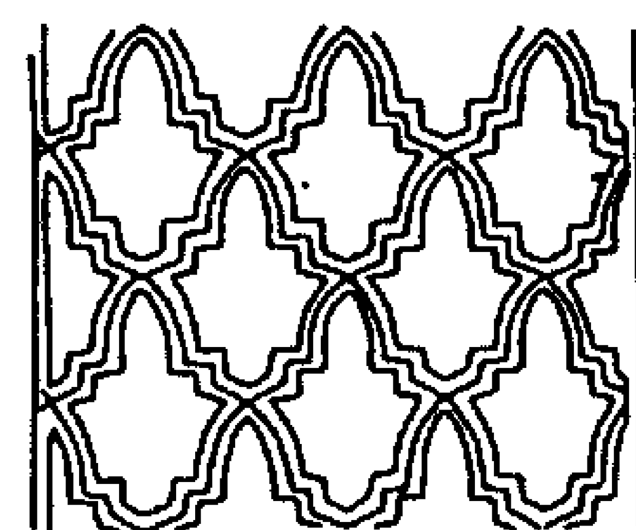
عن: Gayot, H.,: Ibid., P. 45.



(ج)



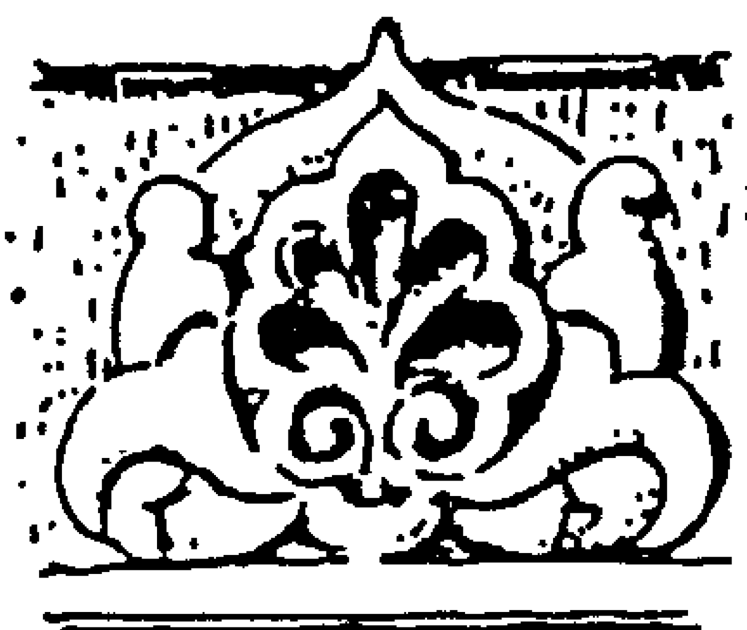
(ب)



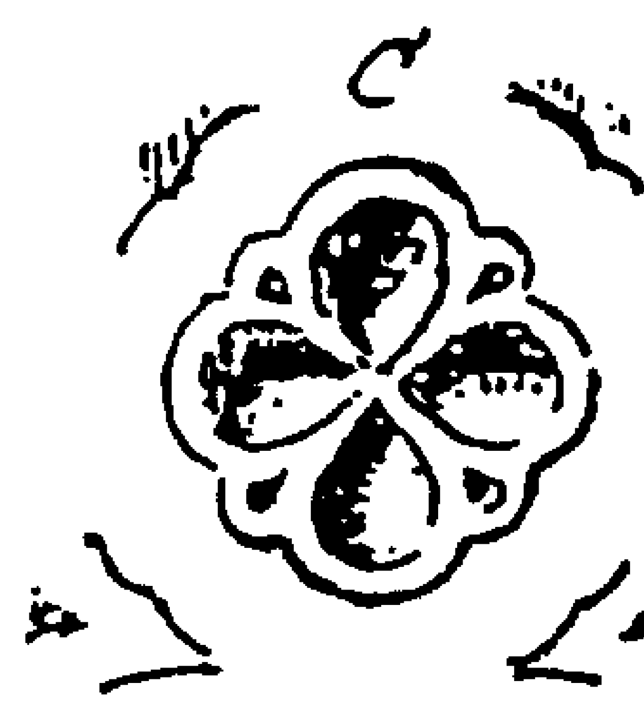
(أ)

(شكل ٧٨ / أ، ب، ج):: شكل توضيحي للأشكال المتنوعة لعنصر شبكة المعينات في العصر السعدي.

عن: Triki et Dovifat: Op. Cit., P. 179.



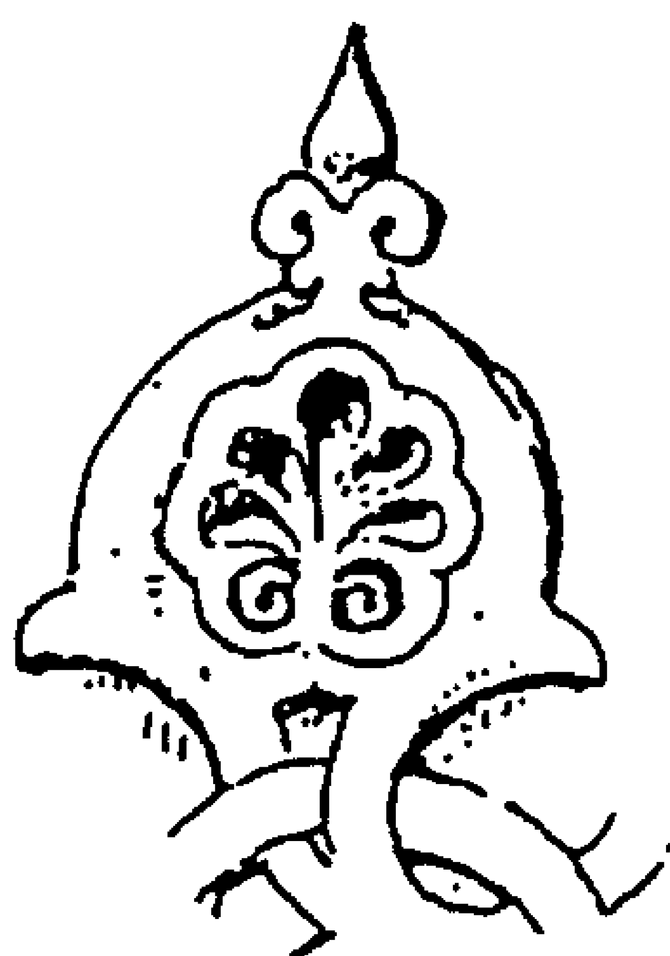
(ب)



(أ)

(شكل ٧٩ /أ،ب): شكل توضيحي للعنصر المحاري بباب أجناو الموحدي بمراكش.

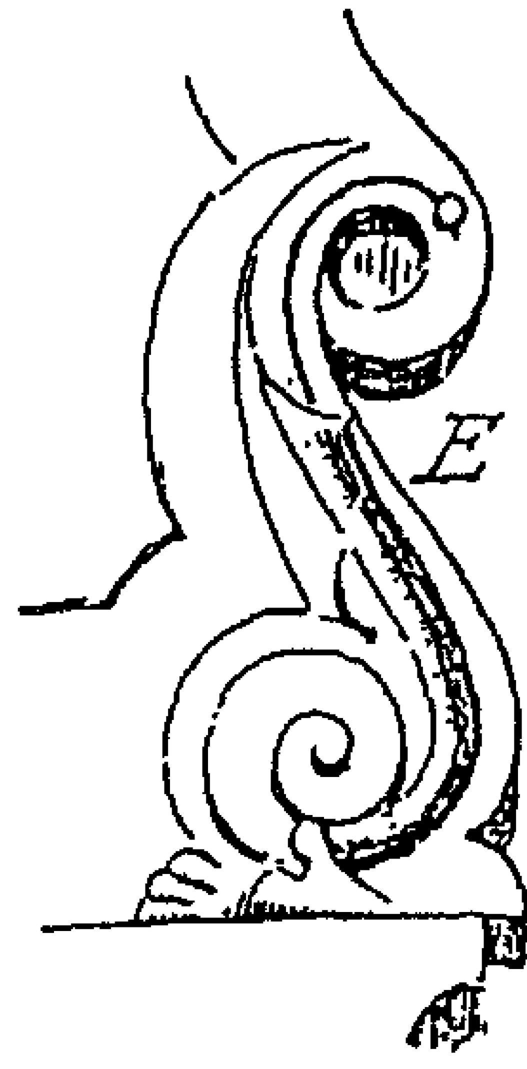
عن: Marçais, G.,: L'Architecture Musulmane d'Occident, Fig. 119, A- C.



(ج)

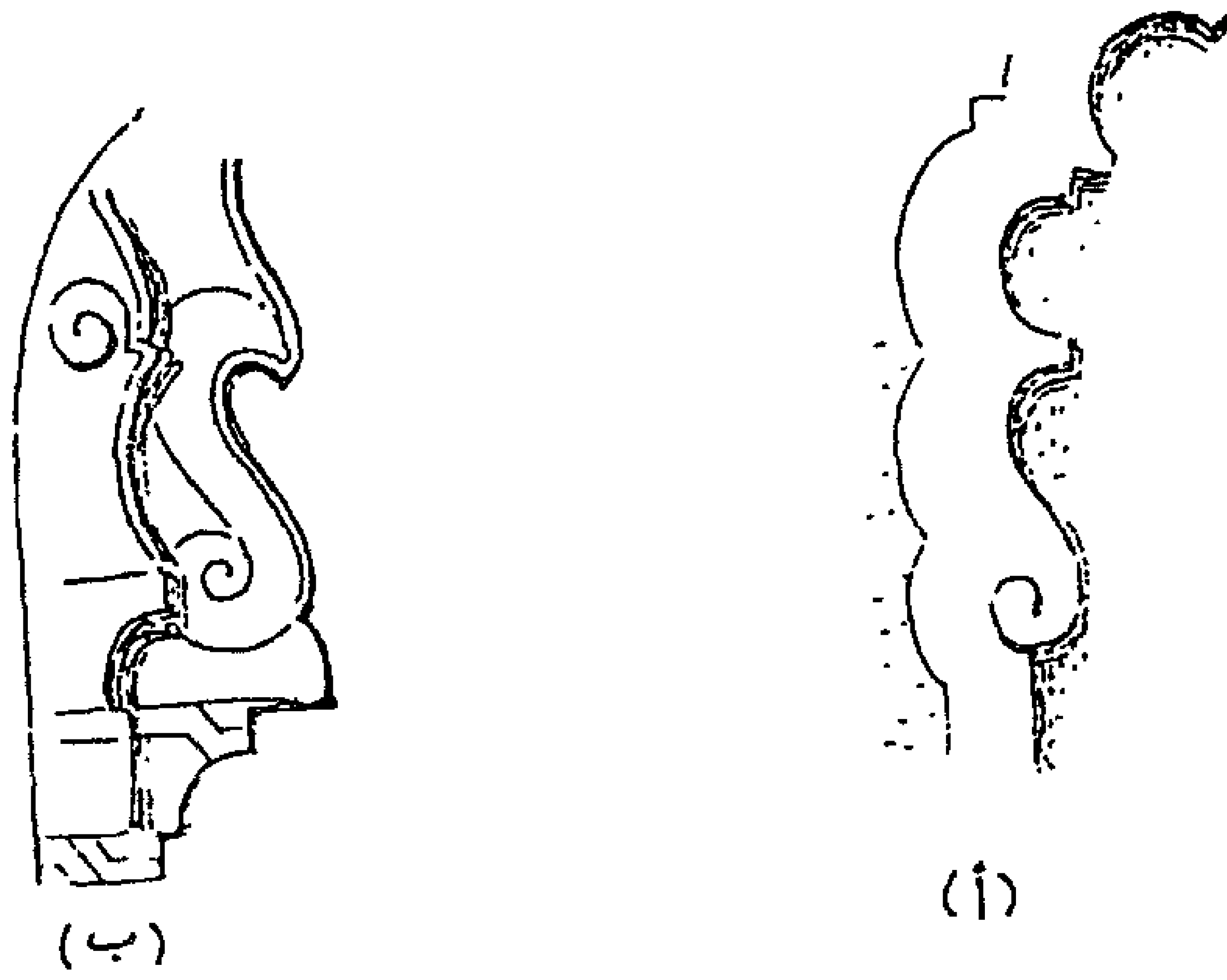
(شكل ٧٩ /ج): شكل توضيحي للعنصر المحاري بباب الأودايا الموحدي بالرباط.

عن: Marçais, G.,: Ibid., Fig. 119, B.



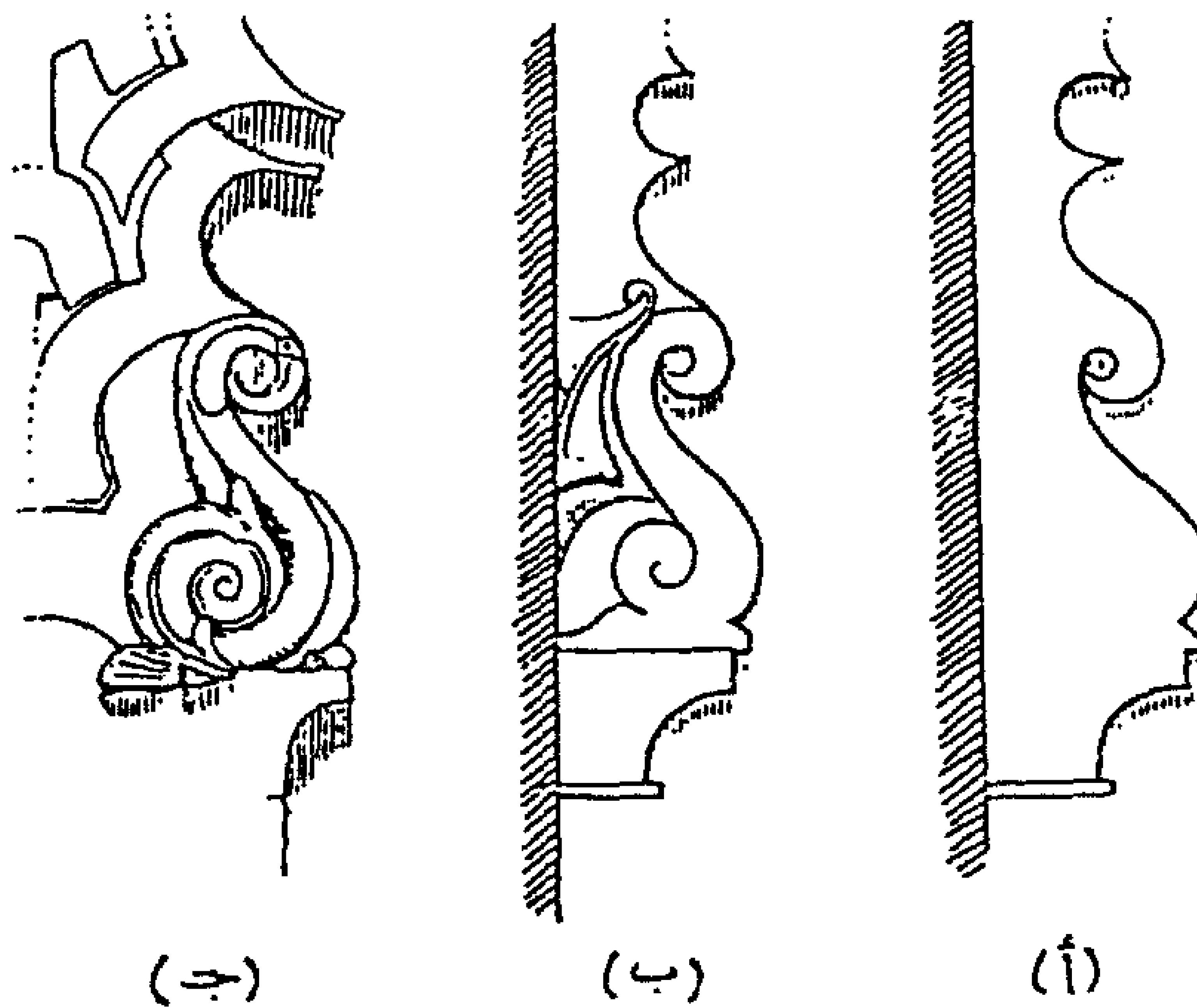
(شكل ٨٠): شكل توضيحي للعنصر الملفوف أو الثعباني.

Marçais, G.,: Op. Cit., Fig. 141, E. :عن



(شكل ٨١): شكل توضيحي للعنصر الملفوف بقلعة بني حماد (أ)، والمسجد الجامع، والمسجد الجامع بتلمسان (ب).

Marçais, G.,: Ibid., Fig. 141, C-D. :عن



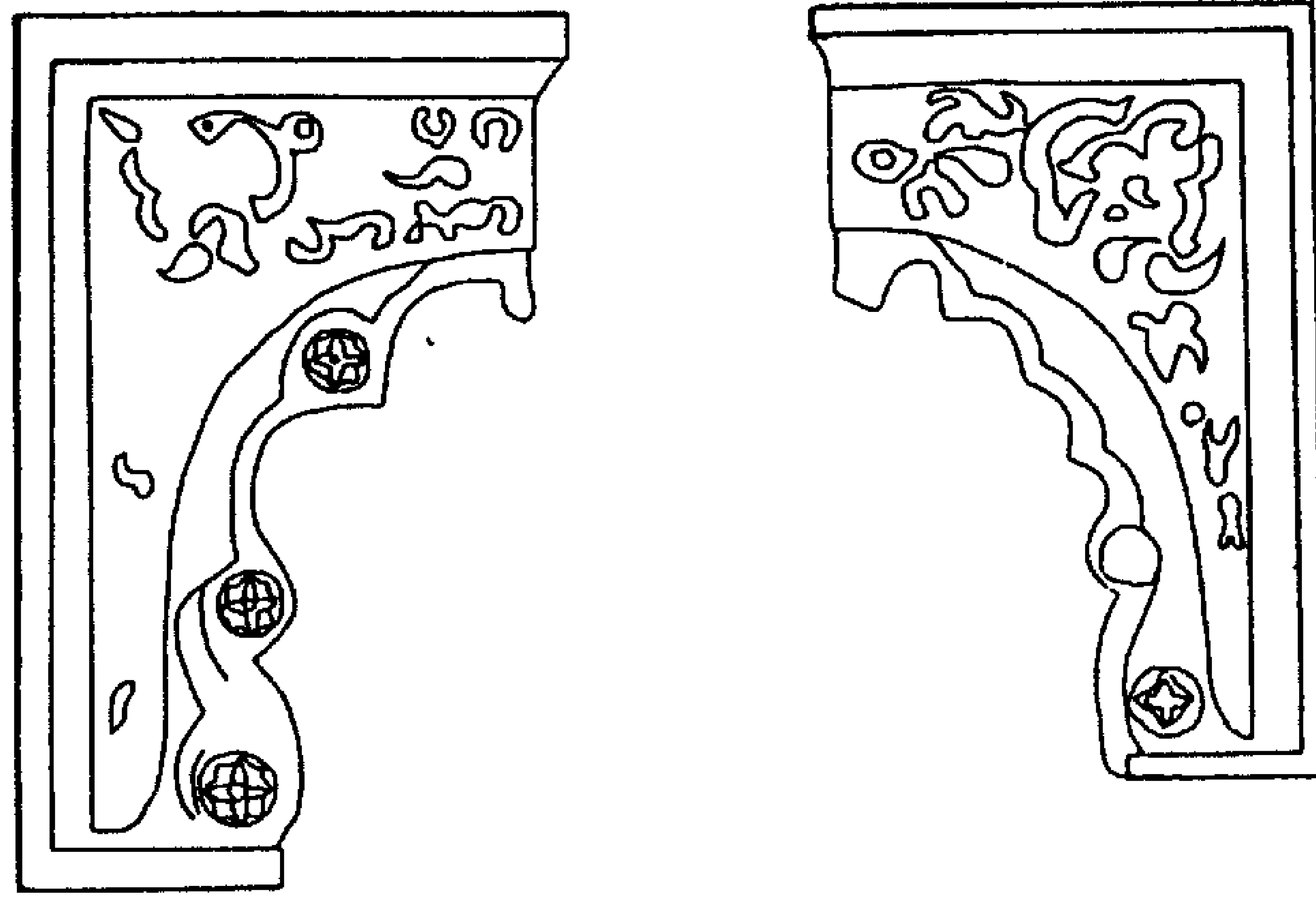
(شكل ٨٢): شكل توضيحي للعنصر الملفوف بمسجد تينملل (أ– ب)، وباب الرواح الموحدي (جـ).

Basset et Provençal: Op. Cit., Fig. 21. :عن



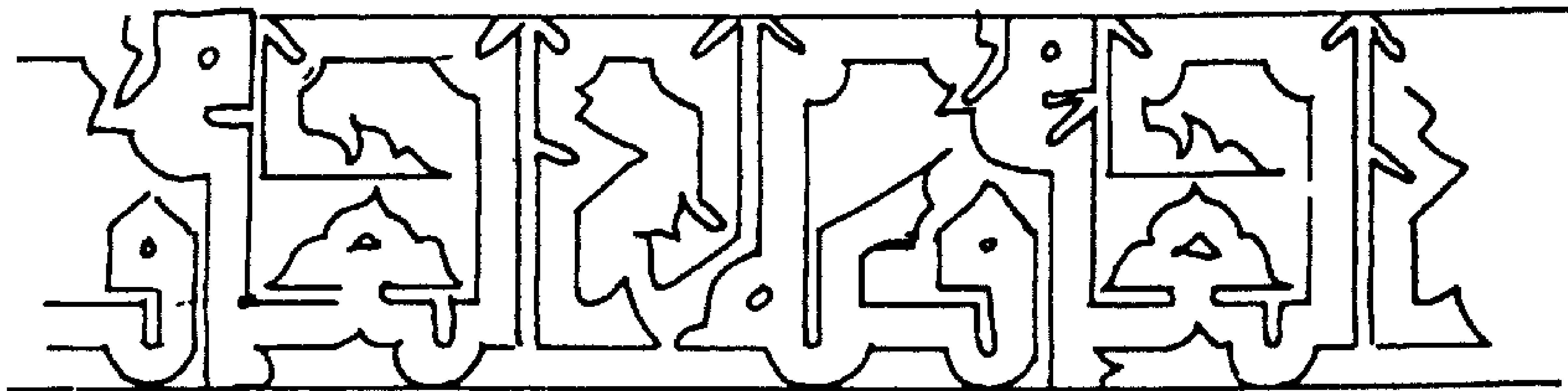
(شكل ٨٣): شكل توضيحي للعنصر الملفوف في العنصر المريني.

عن: Basset et Provençal: Op. Cit., Fig. 21.



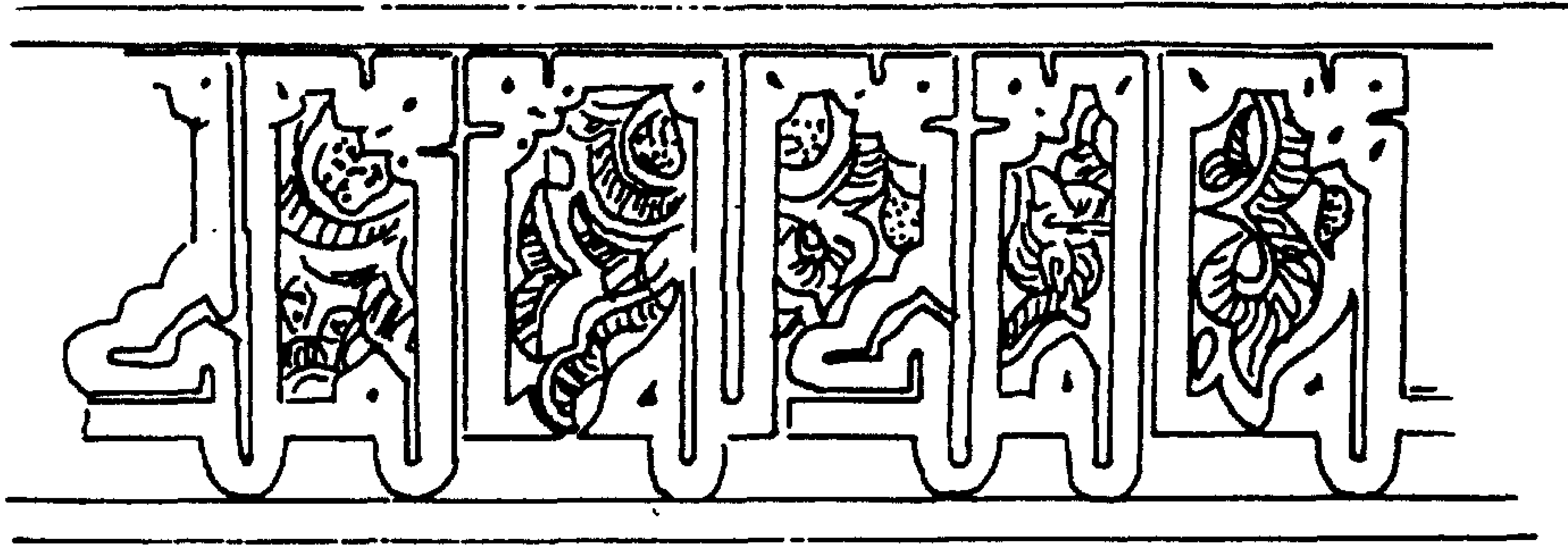
(شكل ٨٤): شكل توضيحي للعنصر الملفوف السعدي.

عن: Triki et Dovifat: Op. Cit., P. 179.



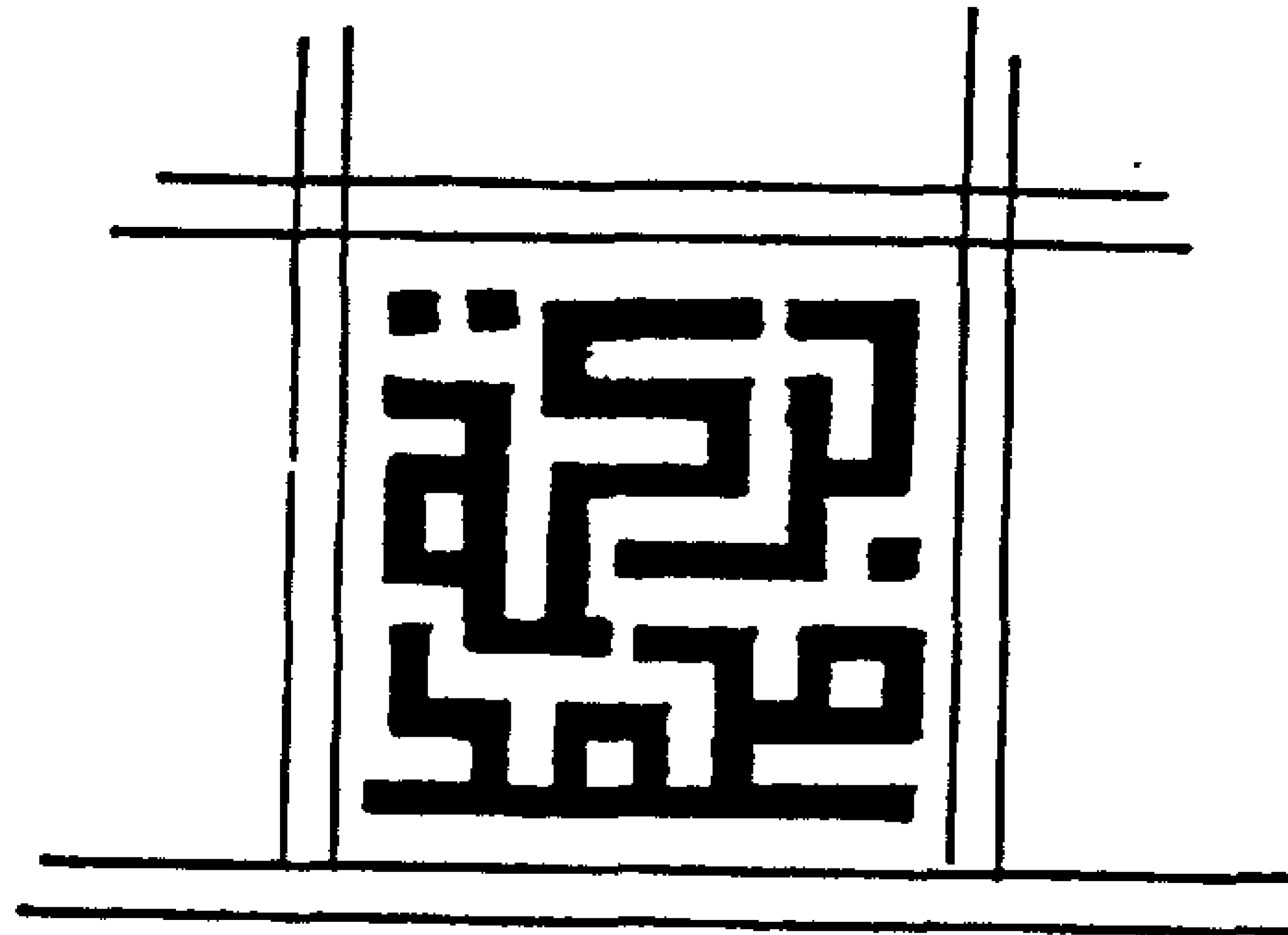
(شكل ٨٥): شكل توضيحي للخط الكوفي المضفر السعدي على أرضية خالية من الزخرفة.

عن: محمد خصيف: المرجع السابق، ص ٥٤.



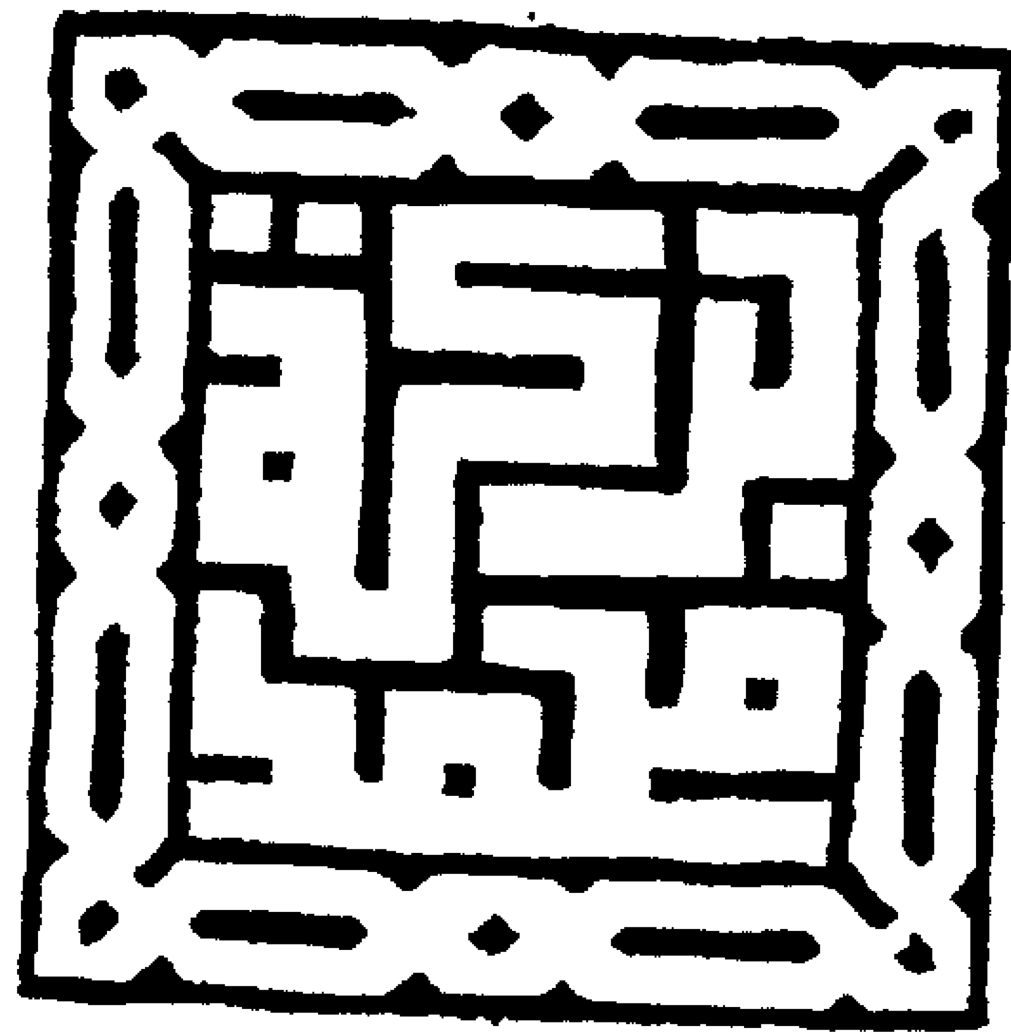
(شكل ٨٦): شكل توضيحي للخط الكوفي المضفر السعدي على أرضية نباتية.

عن: محمد خصيف: المرجع نفسه، ص ٥٥.



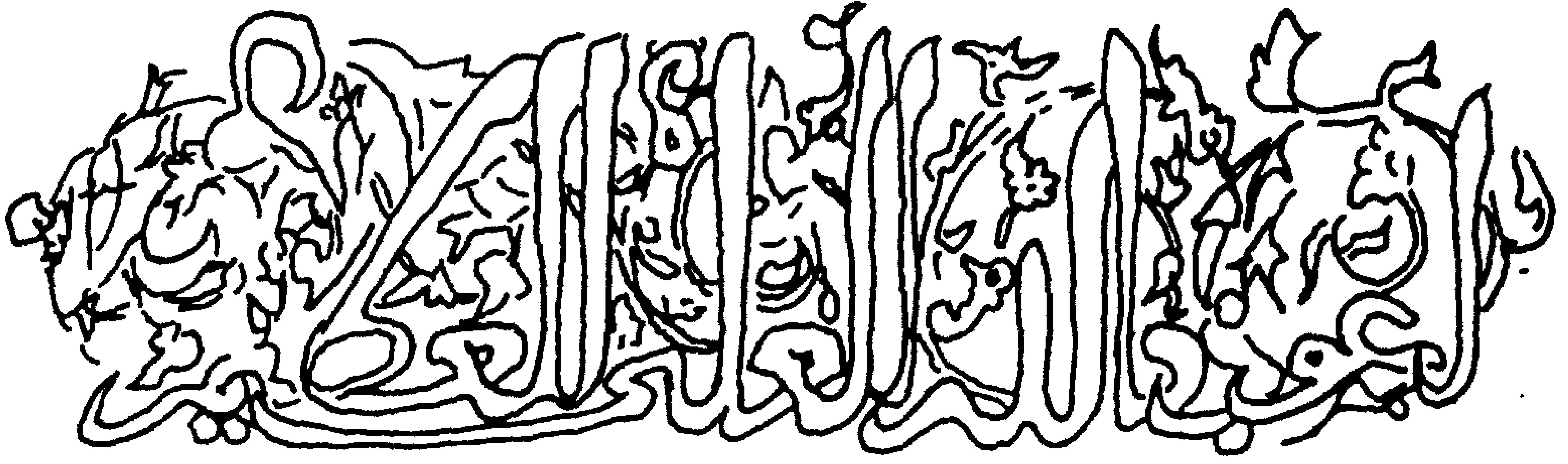
(شكل ٨٧): شكل توضيحي للخط الكوفي المربع بمدرسة أبي الحسن المريني بكل من مكناس (٧٣٦ - ٧٤٢ هـ/ ١٣٣٦ - ١٣٤١م) وسلا (٧٤٢ هـ/ ١٣٤١م).

عمل الباحث.



(شكل ٨٨): شكل توضيحي للخط الكوفي المربع بمسجد سيدي بومدين المريني بتلمسان.

عن: Marçais, W., et G.,: Op. Cit., Fig. 50.



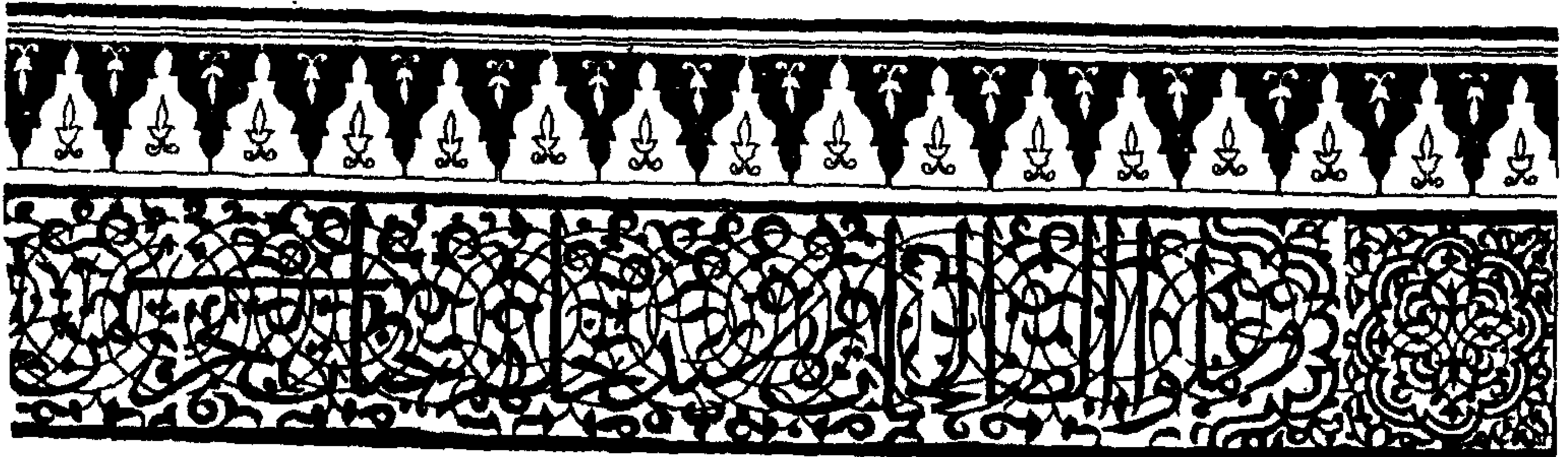
(شكل ٨٩ / أ) : شكل توضيحي للخط الثلث السعدي على أرضية نباتية.

عن: محمد خصيف: المرجع السابق، ص ٥٤.



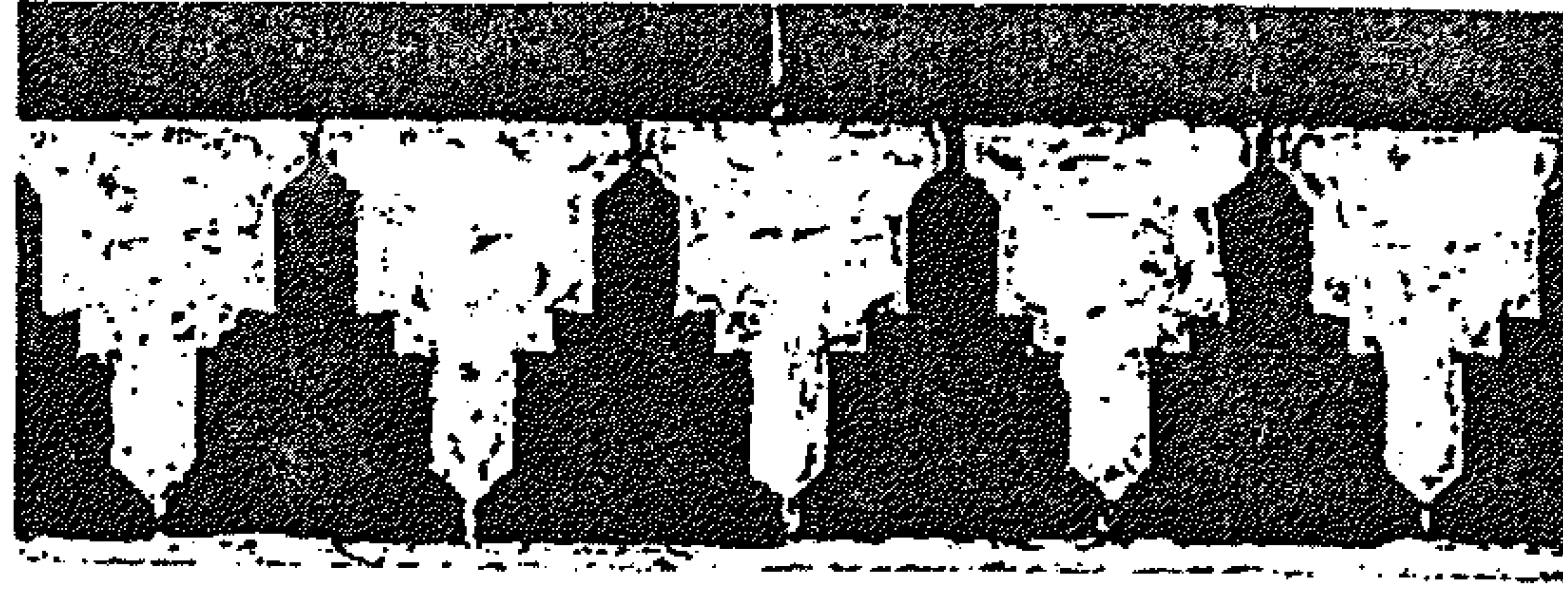
(شكل ٨٩ / ب) : شكل توضيحي للخط الثلث السعدي على أرضية نباتية.

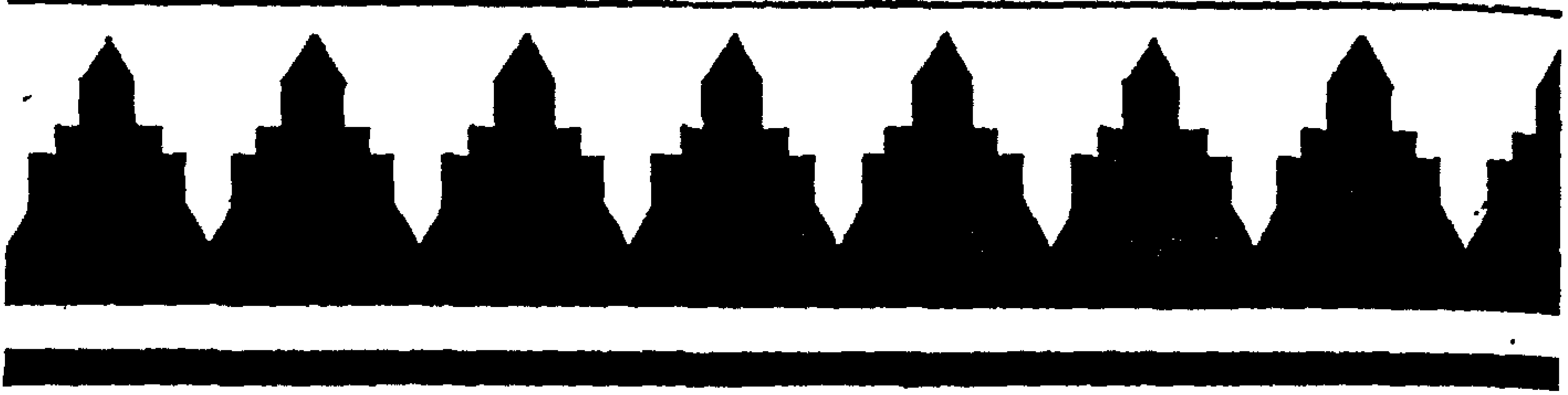
عن: محمد خصيف: المرجع نفسه، ص ٥٥.



(شكل ٩٠): شكل توضيحي للخط الثلث السعدي على أرضية نباتية.

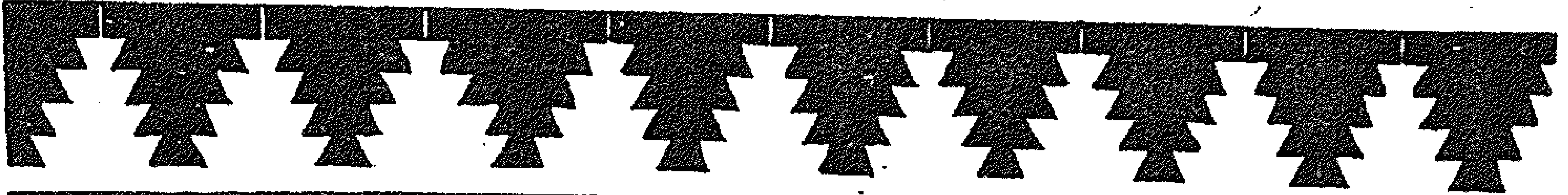
عن: Rousseau, G., Le Mausolée de Princes Sa'diens, PL. LXXX.LX.

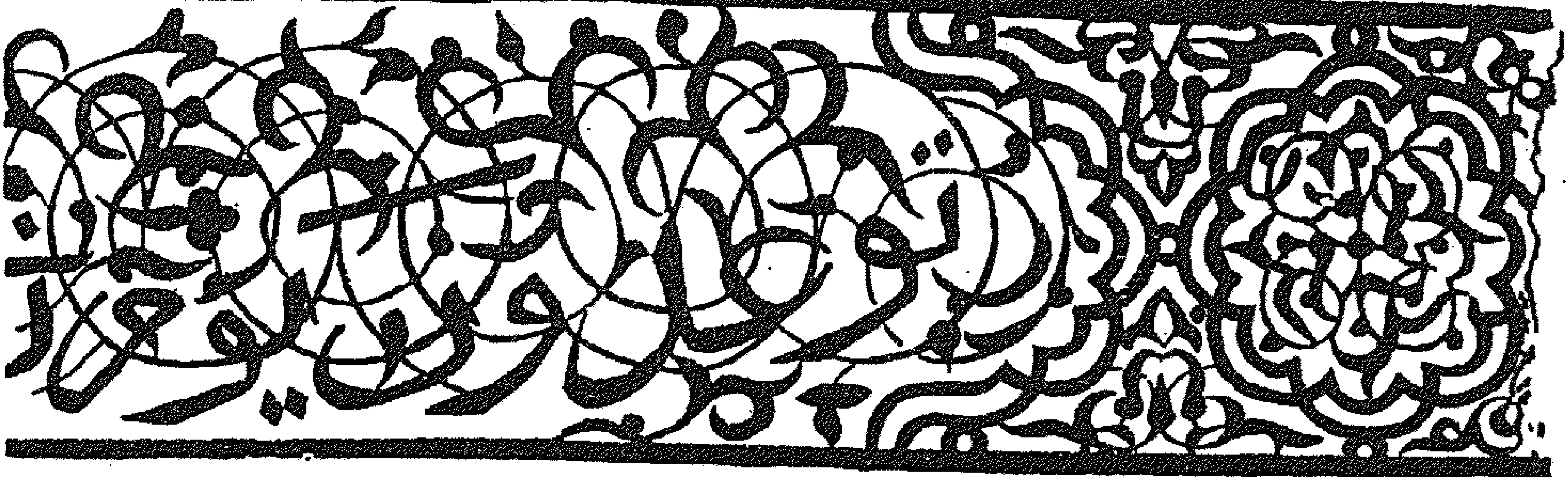




(شكل ٩١ / أ): شكل توضيحي للشرافات المدرجة المعروفة بشرافات مكة.

عن: أندريه باكار: المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ١٩٦ – ١٩٧.



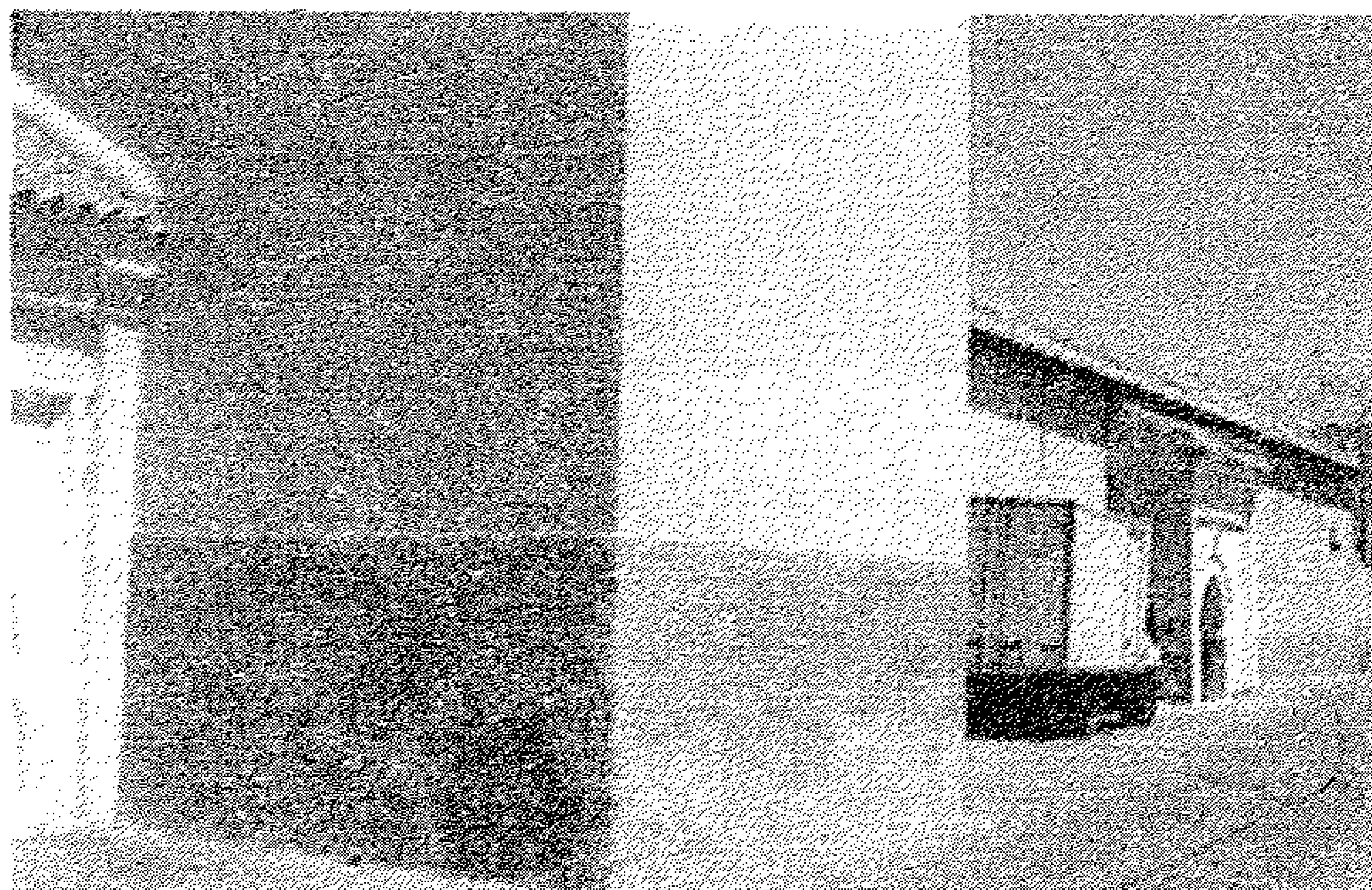


(شكل ٩١ / ب): شكل توضيحي لعنصر الشرافات المدرجة السعدية.

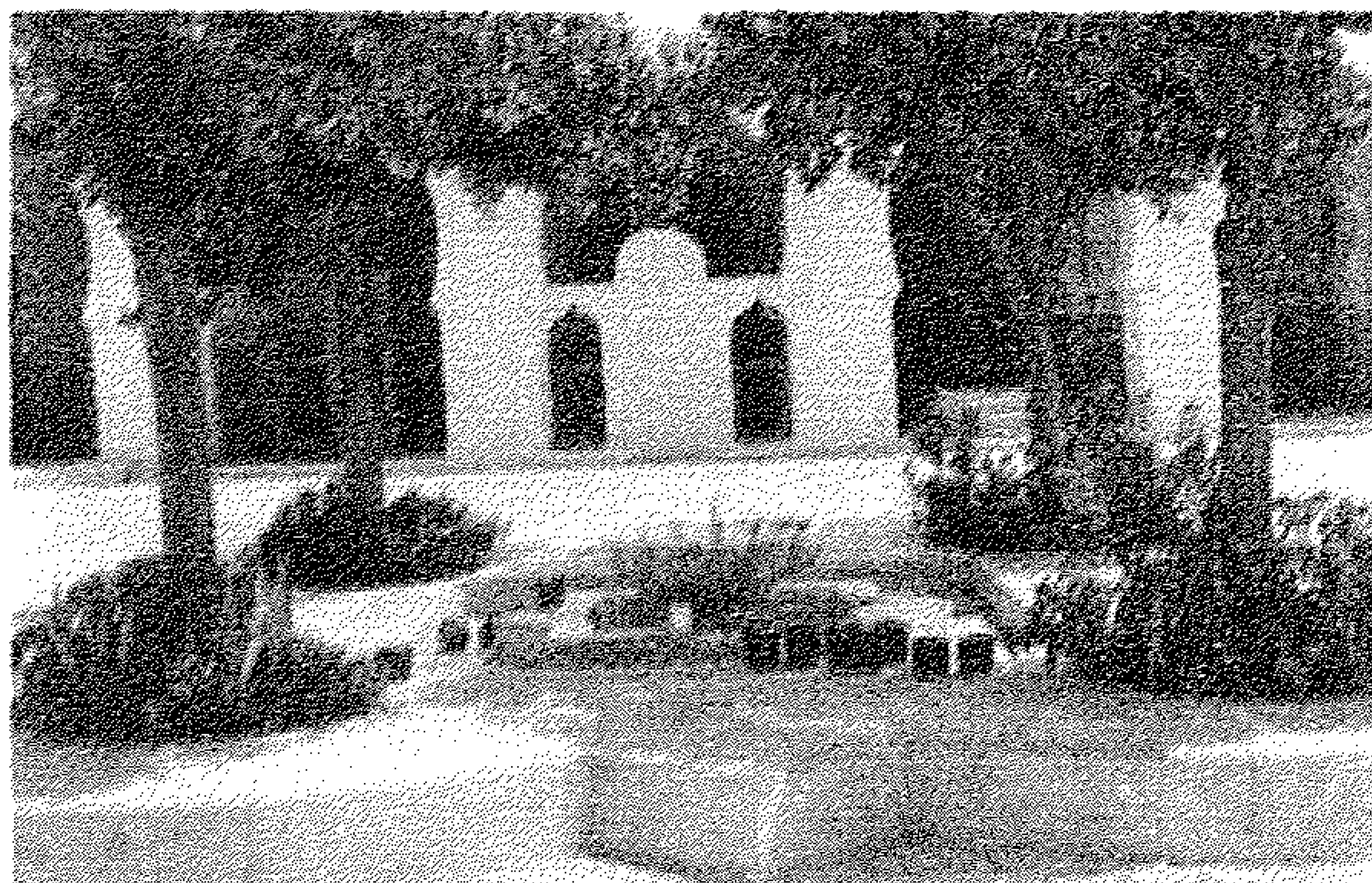
عن: Rousseau, G.,: Op. Cit., PL. LXIII.



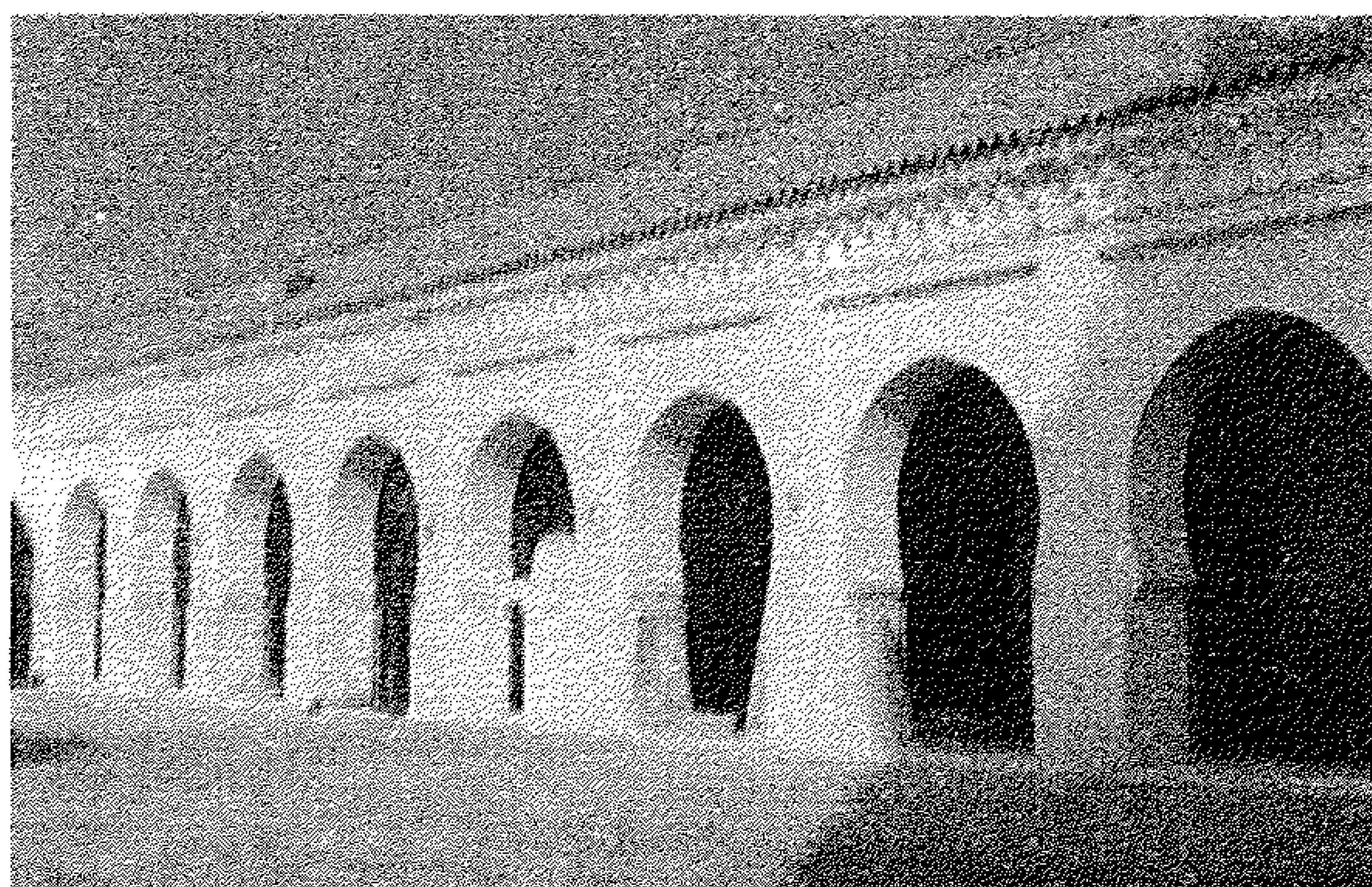
(لوحة ١) : الجامع الكبير بتارودانت.
المدخل الرئيسي بالواجهة الغربية للجامع.
تصوير الباحث



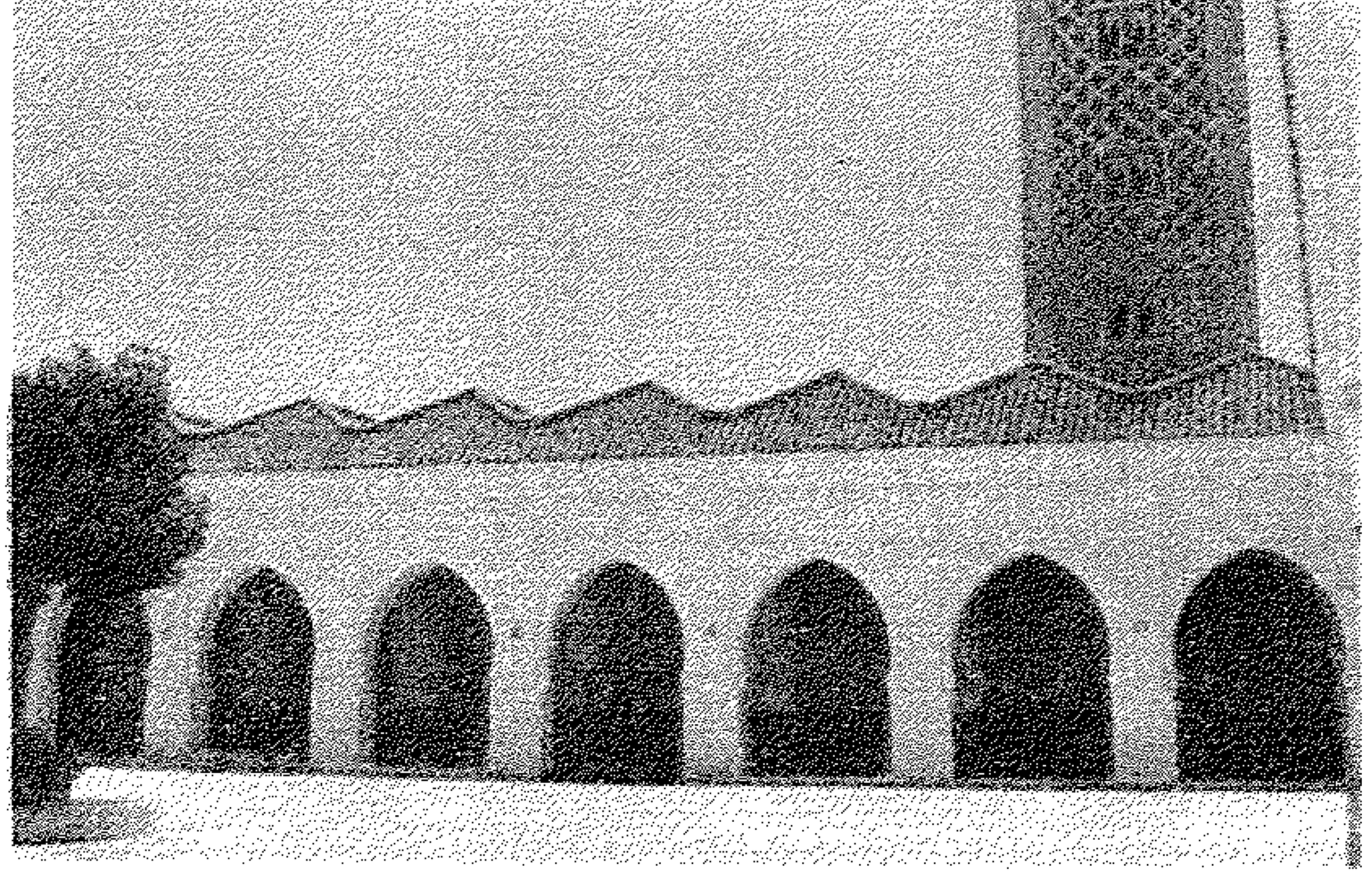
(لوحة ٢) : الجامع الكبير بتارودانت.
الواجهة الجنوبية للجامع.
تصوير الباحث.



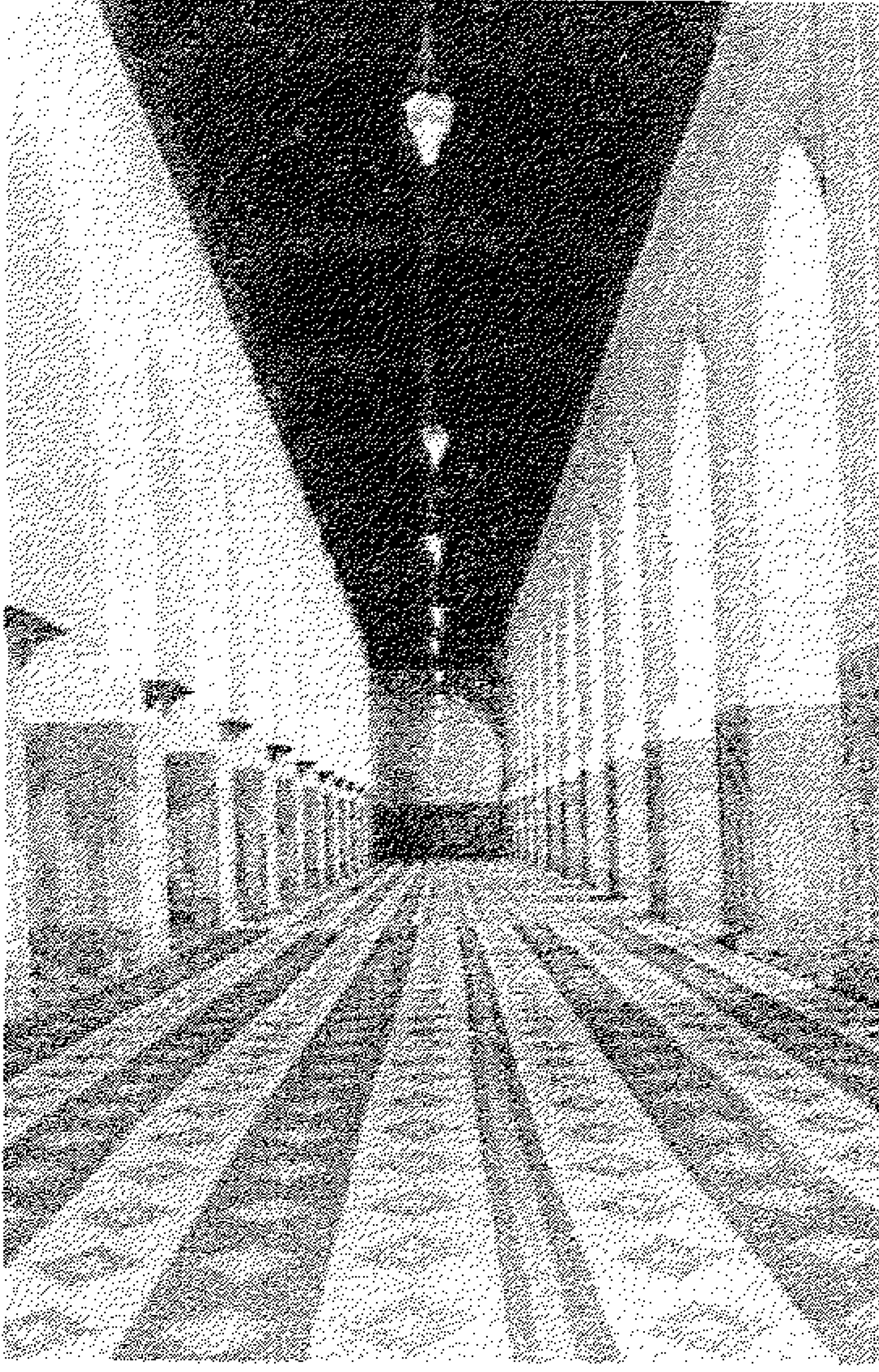
(لوحة ٣) : الجامع الكبير بتاوردانت.
صحن الجامع والفسقية التى تتوسطه.
تصوير الباحث.



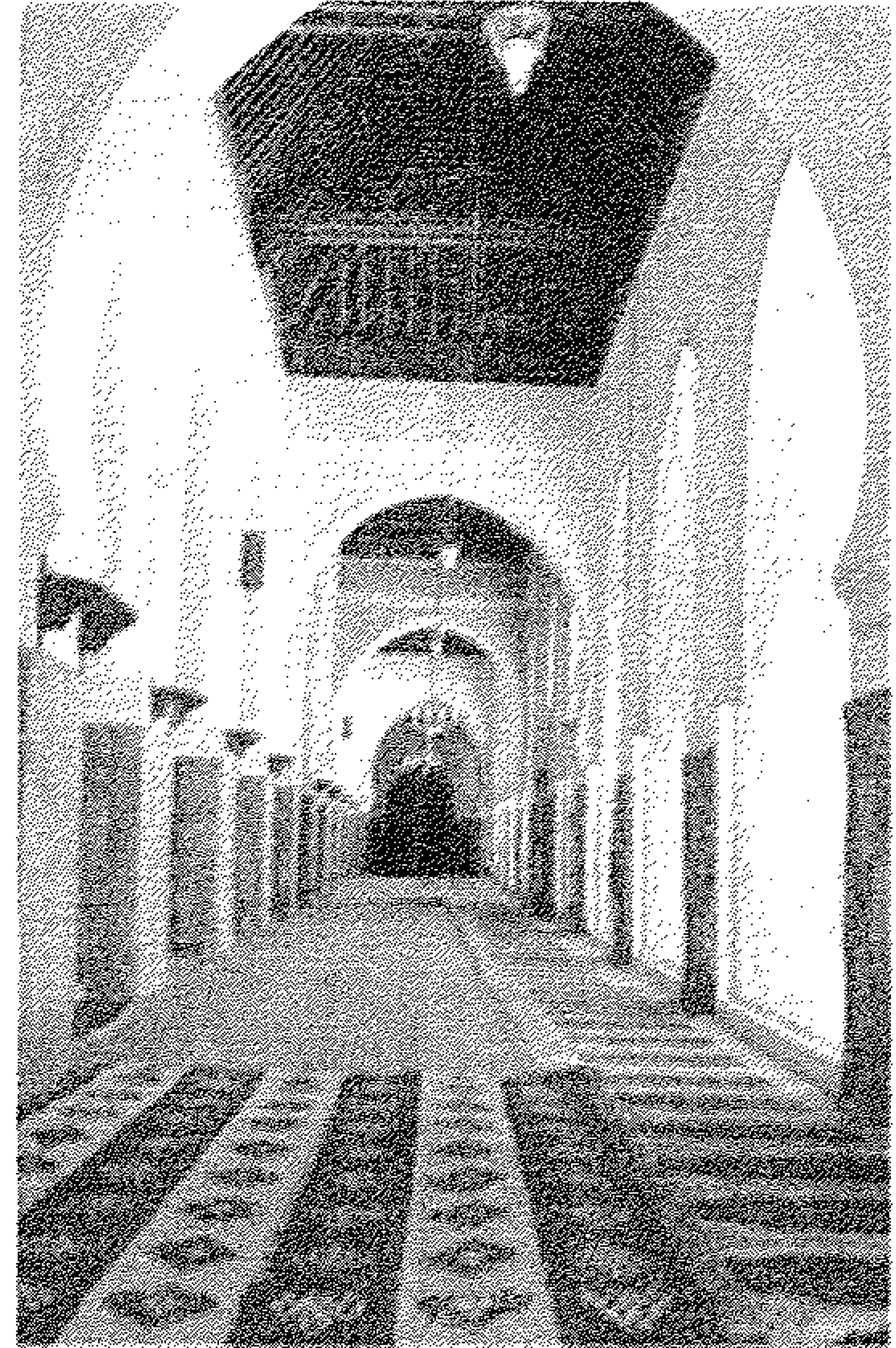
(لوحة ٤) : الجامع الكبير بتاوردانت.
الواجهة الشرقية للصحن.
تصوير الباحث.



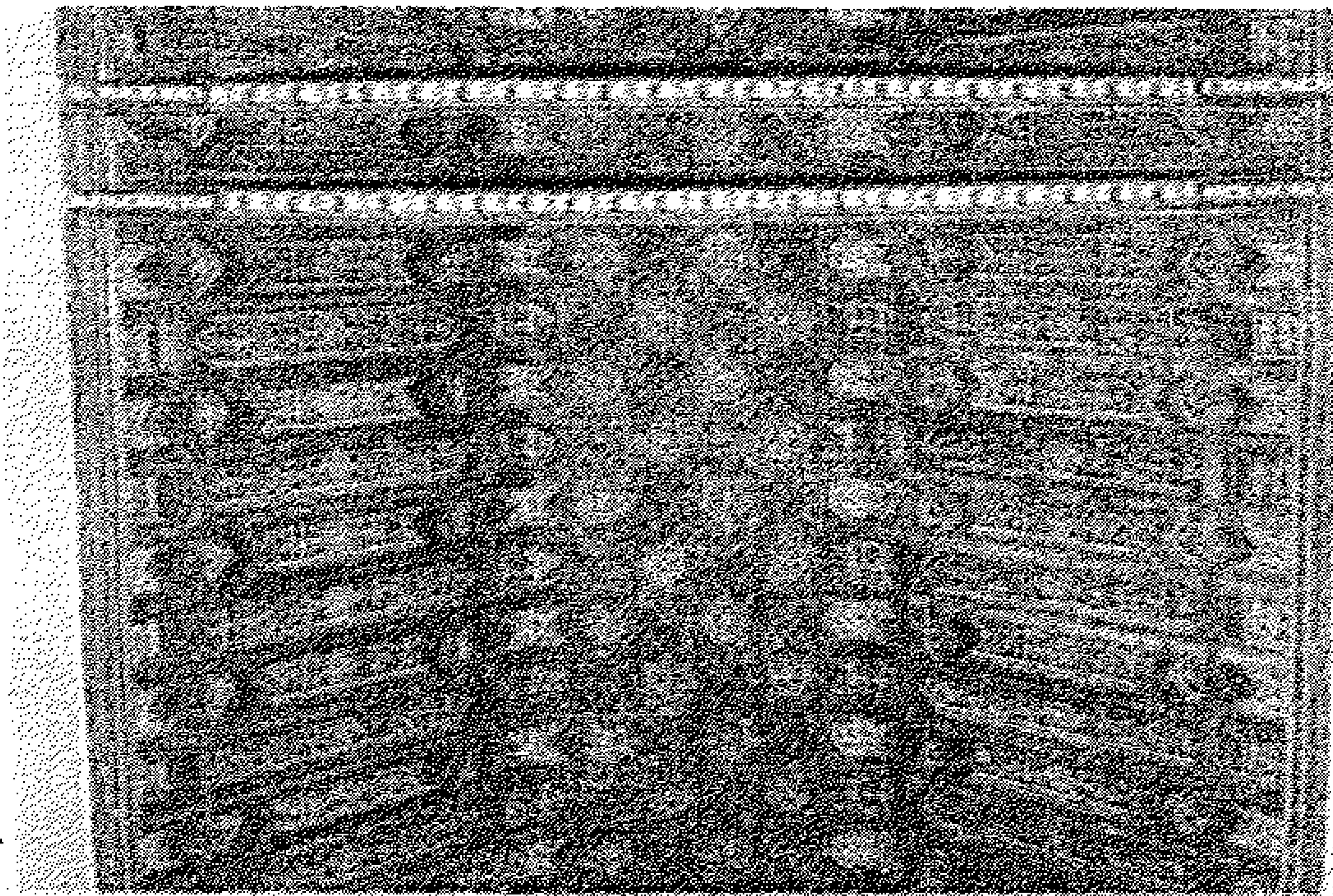
(لوحة ٥) : الجامع الكبير بتاوردانت.
الواجهة الجنوبية للصحن. تصوير الباحث.



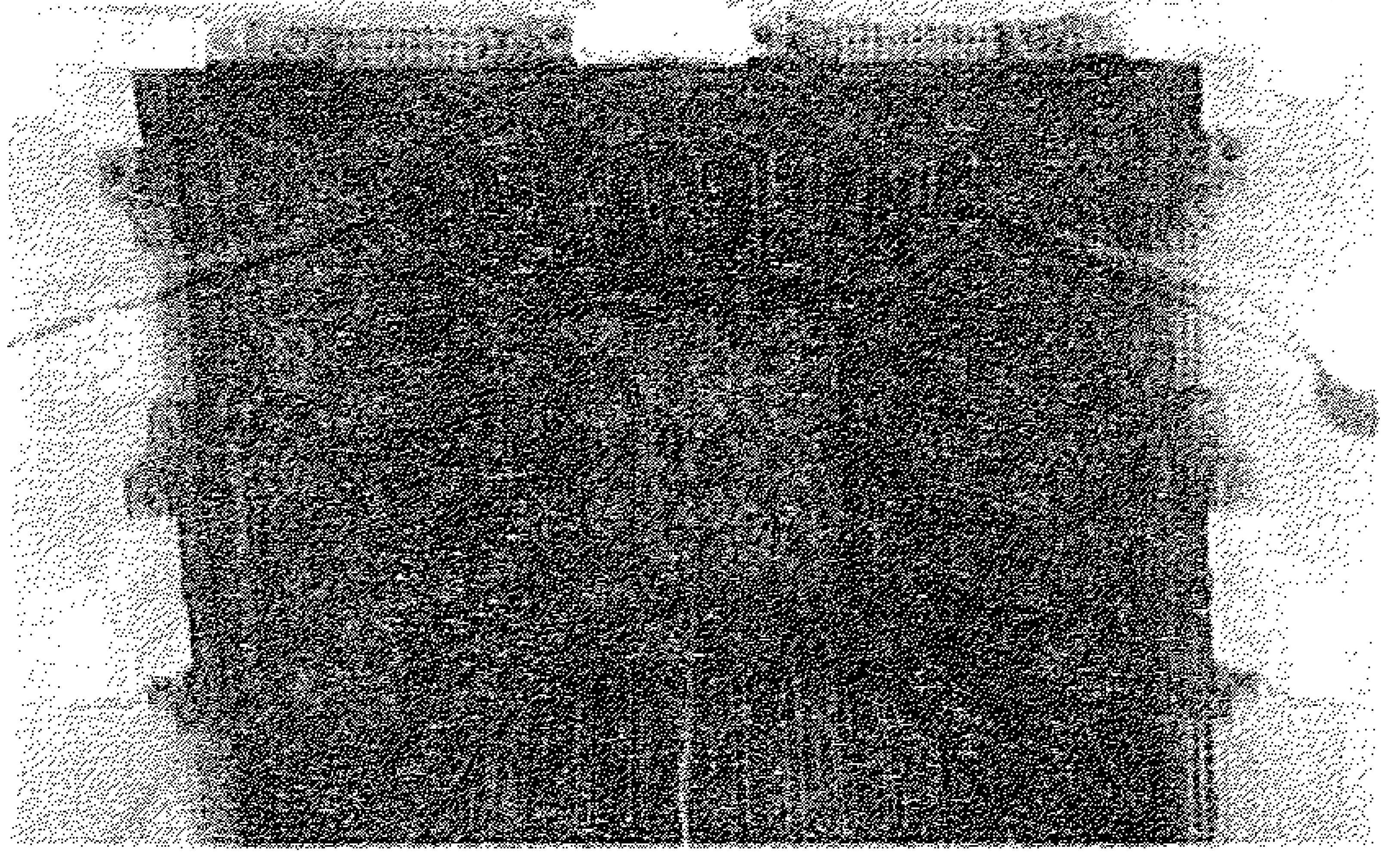
(لوحة ٦) : الجامع الكبير بتاوردانت.
إحدى بلاطات رواق القبلة. تصوير الباحث.



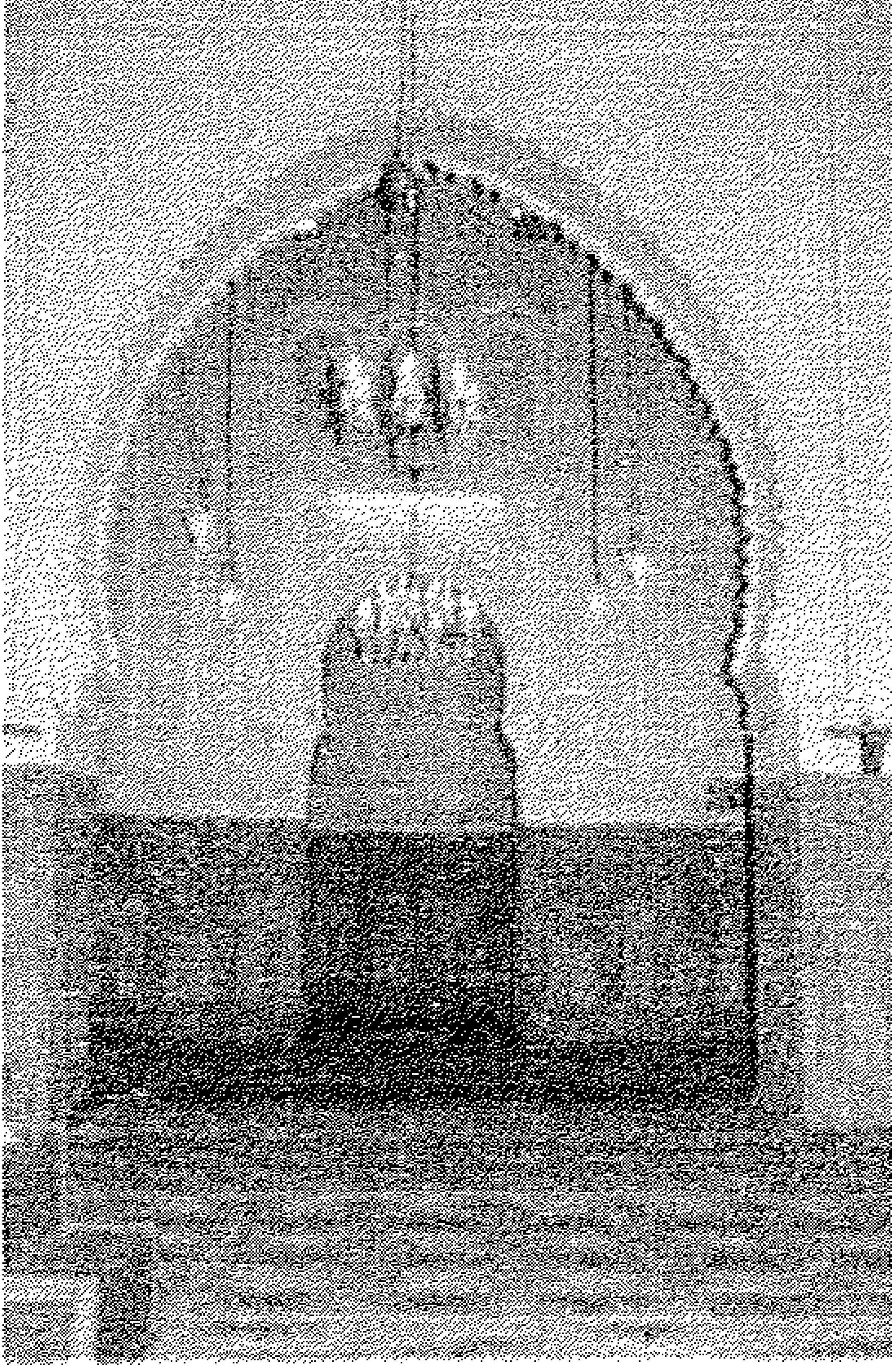
(لوحة ٧) : الجامع الكبير بتاوردانت.
رواق القبلة، البطلاطة التي تطل على صحن الجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٨) : الجامع الكبير بتاوردانت.
تفصيل للزخارف المزينة للأسقف الخشبية الجمالية
التي تغطي رواق القبلة. تصوير الباحث.



(لوحة ٩) : الجامع الكبير بتاوردانت.
السقف الخشبى الهرمي الشكل المعروف بـ «البرشلة»
الذي يغطي المساحة التى تتقدم المحراب.
تصوير الباحث.



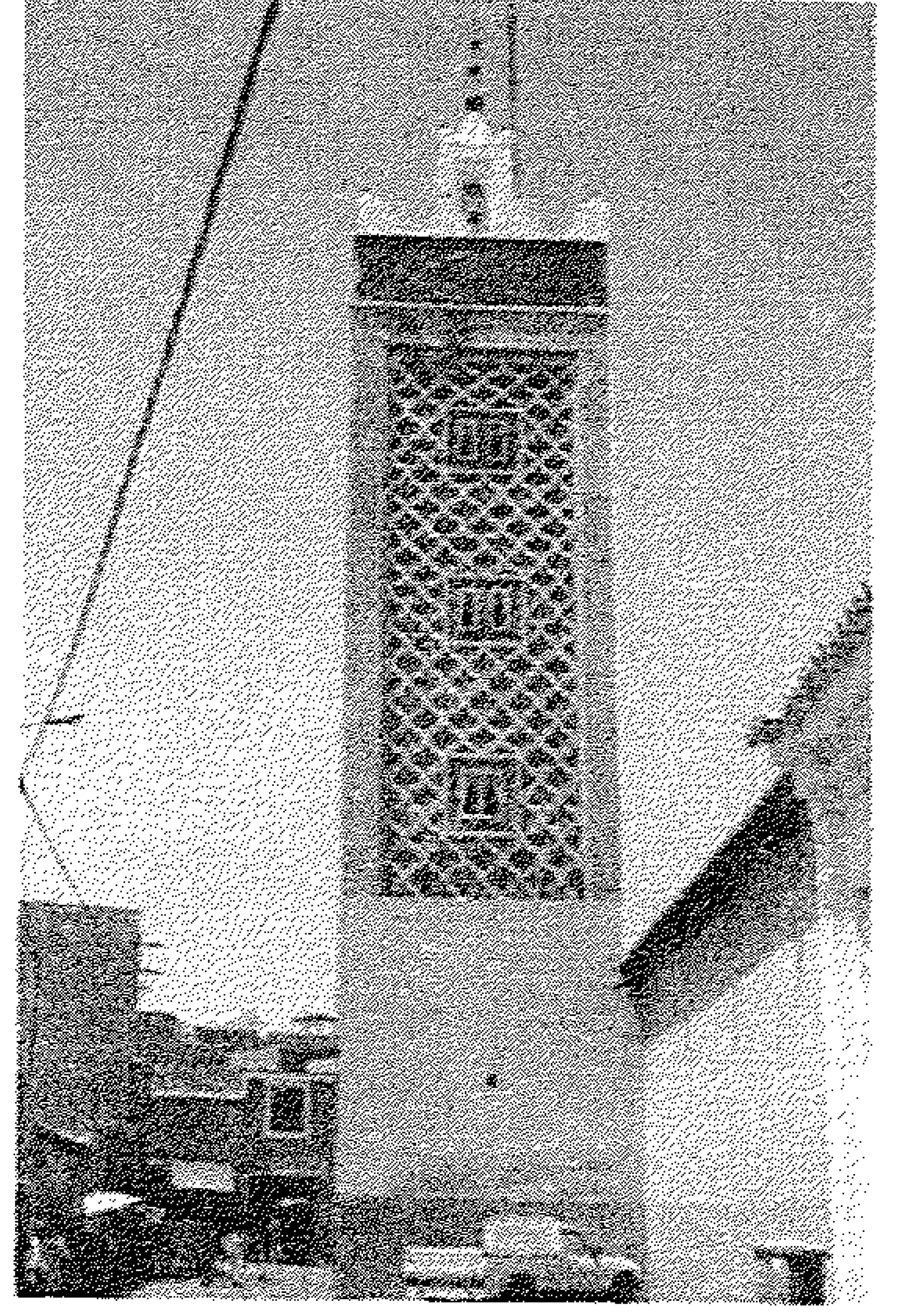
(لوحة ١٠) : الجامع الكبير بتاوردانت.
حنية المحراب تتوسط الجدار الشرقي للجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ١١) : الجامع الكبير بتاوردانت.
تفصيل للزخارف المنفذة على الجص أعلى حنية المحراب.
تصوير الباحث.



(لوحة ١٢) : الجامع الكبير بتاوردانت.
الرواق الجنوبي للبلاطة التي جهة الصحن.
تصوير الباحث.



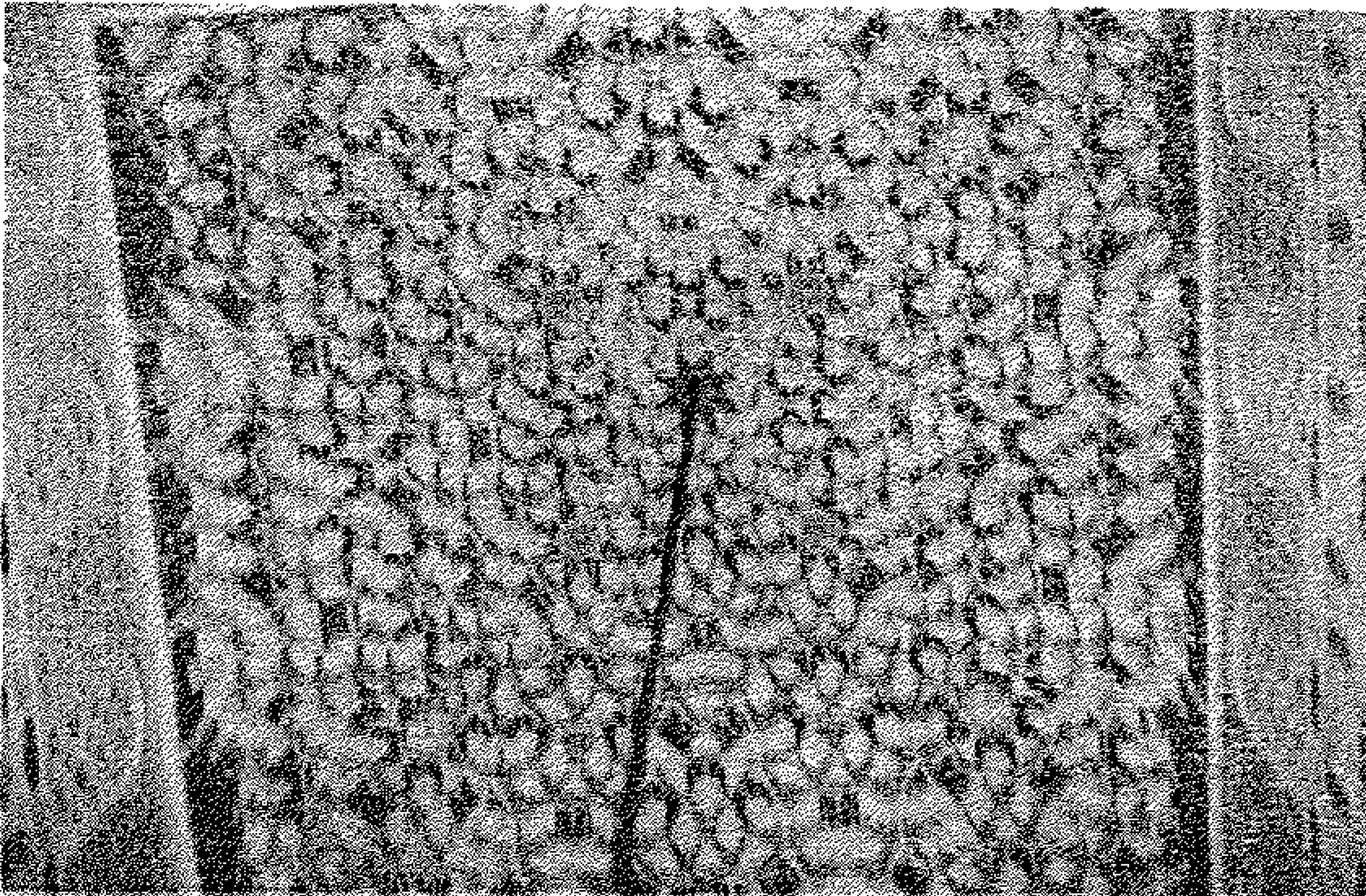
(لوحة ١٣) : الجامع الكبير بتاوردانت.
الواجهة الشرقية لمئذنة الجامع التي تلاصق
القطاع الغربي لواجهته الجنوبية.
تصوير الباحث.



(لوحة ١٤) : جامع باب دكَّالة بمراكش
(٩٦٥ - ٩٩٥هـ/١٥٥٧ - ١٥٨٦م).
القطاع الجنوبي للواجهة الغربية للجامع.
تصوير الباحث.



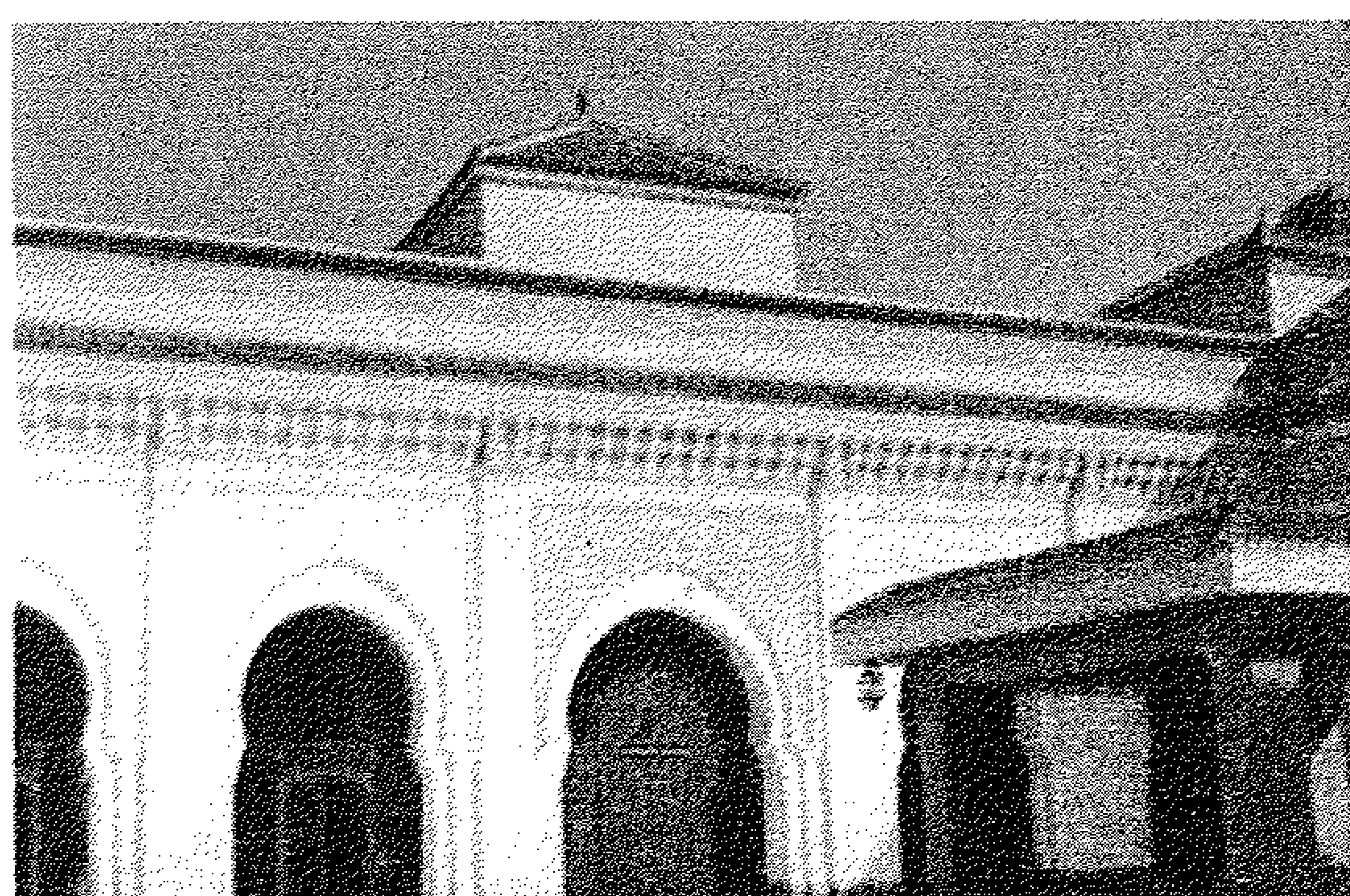
(لوحة ١٥) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
المدخل الذي بالقطاع الشرقي للواجهة الجنوبية للجامع.
تصوير الباحث.



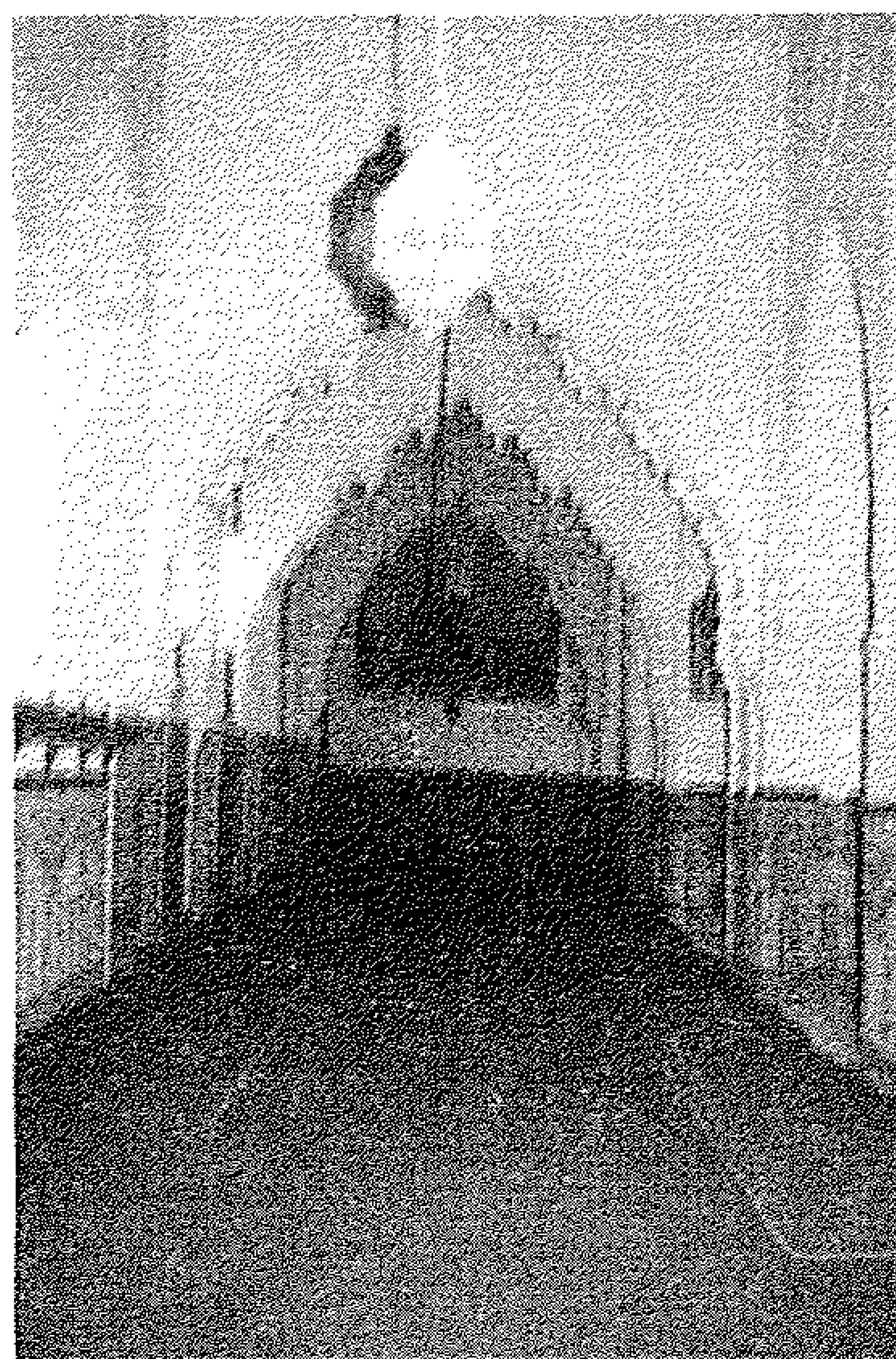
(لوحة ١٦) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
القبة التي تغطي المساحة التي تلي مداخل الجامع.
تصوير الباحث.



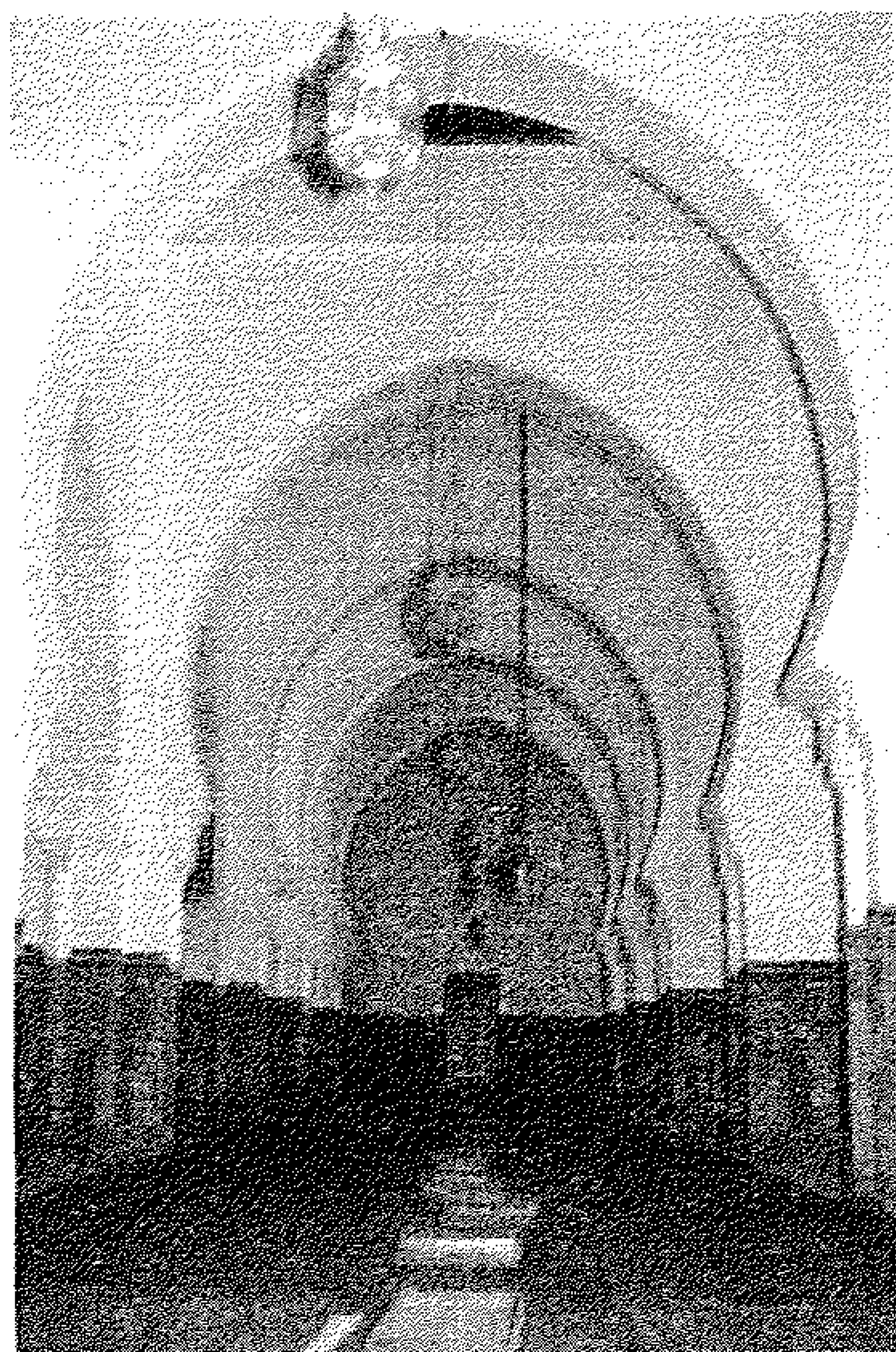
(لوحة ١٧) : جامع باب دكّالة بمراكش.
الواجهة الجنوبية للصحن.
تصوير الباحث.



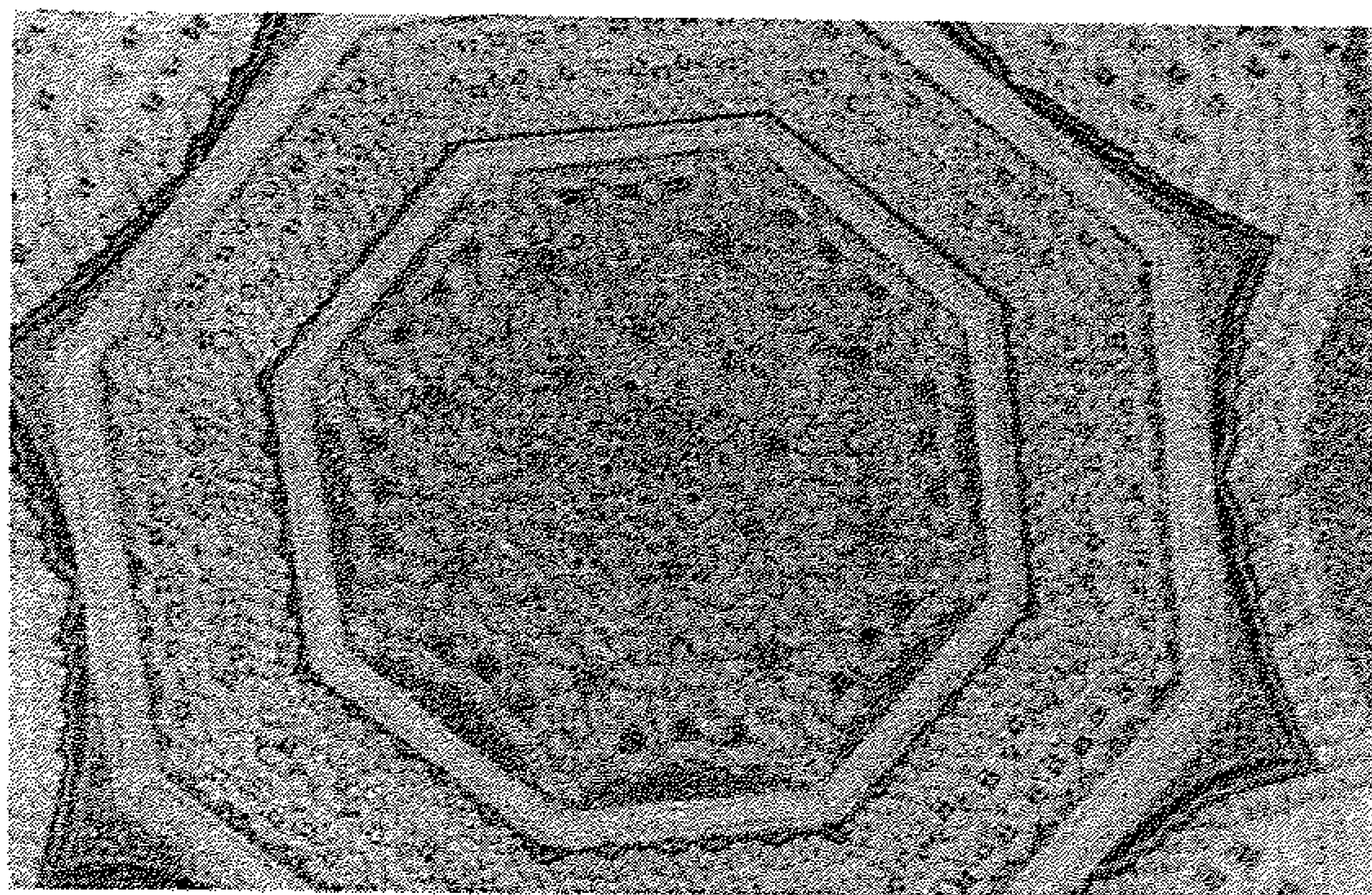
(لوحة ١٨) : جامع باب دكّالة بمراكش.
الواجهة الشرقية للصحن.
تصوير الباحث.



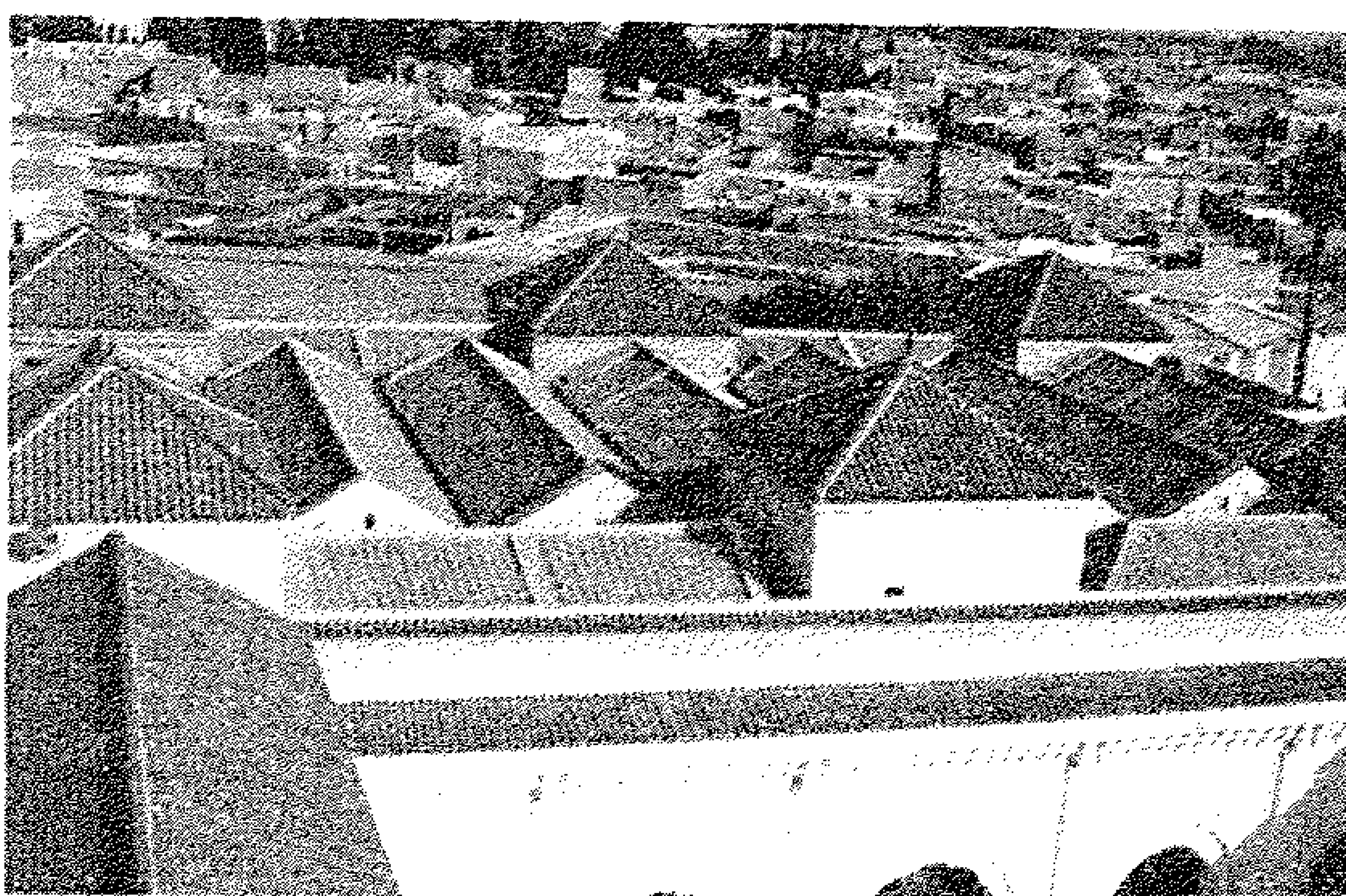
(لوحة ١٩) : جامع باب دكّالة بمراكش.
البلاطة التي تتقدم المحراب برواق القبلة.
تصوير الباحث.



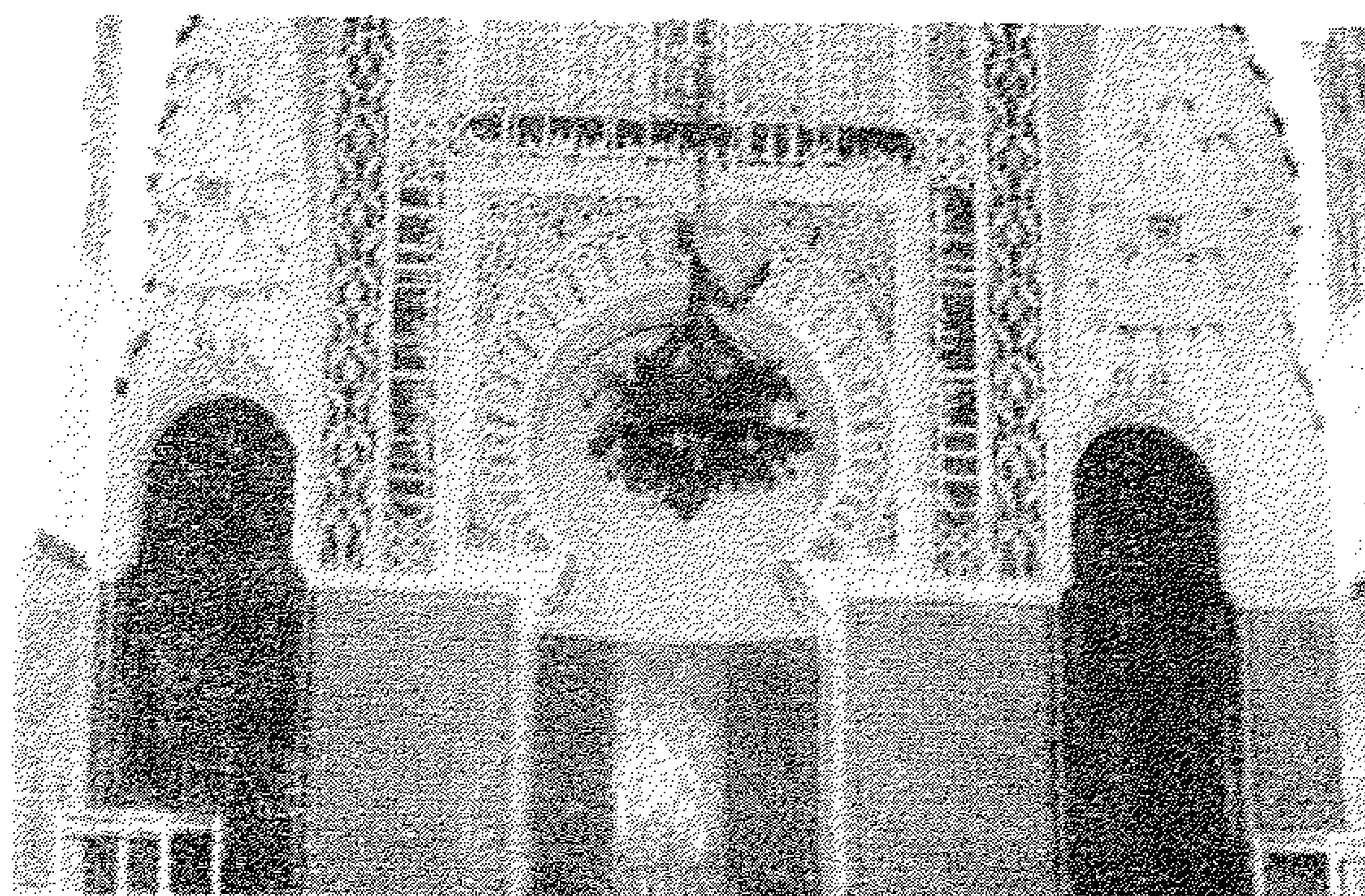
(لوحة ٢٠) : جامع باب دكّالة بمراكش.
عقود بائكات رواق القبلة.
تصوير الباحث.



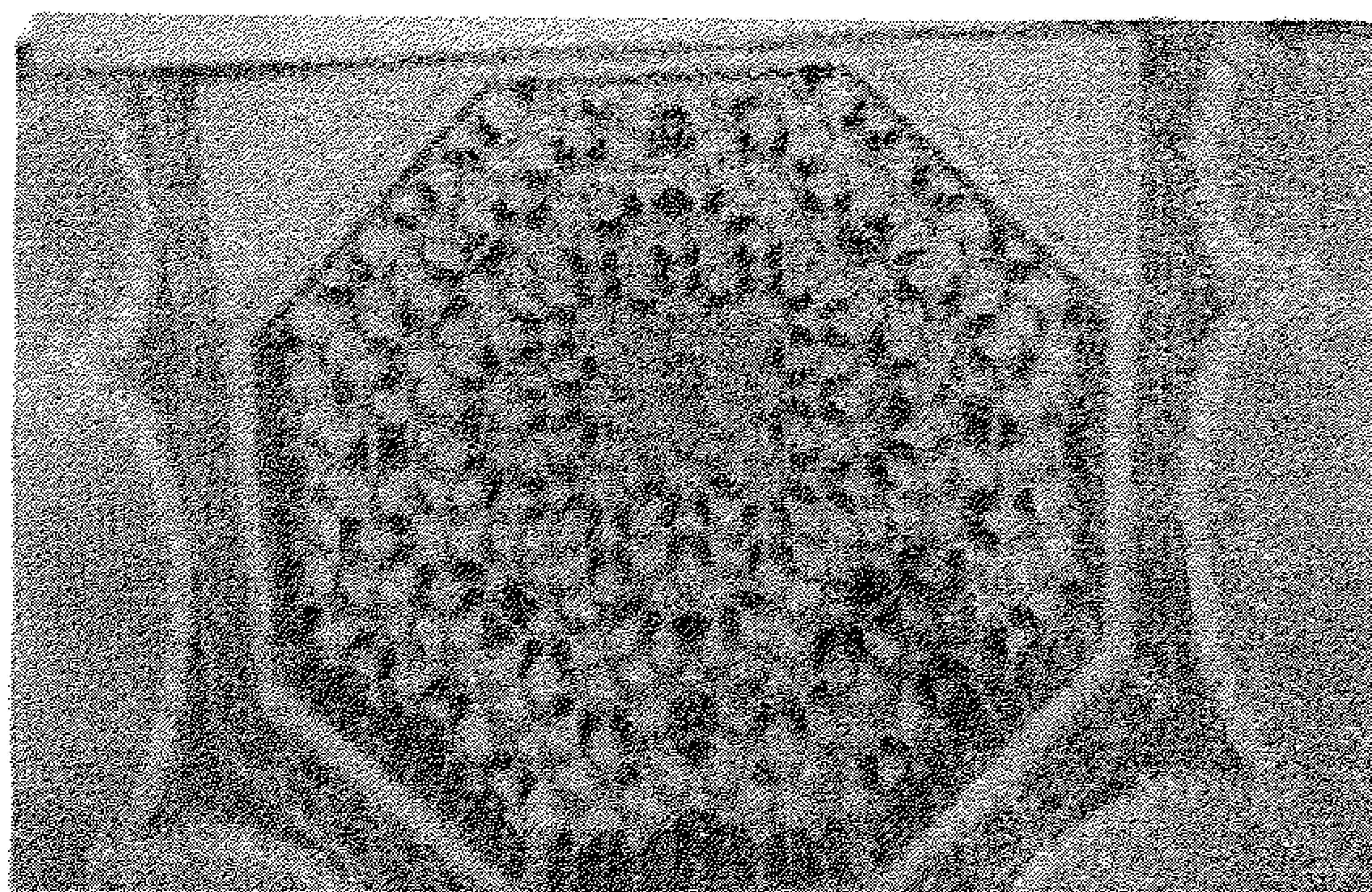
(لوحة ٢١) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
القبة التي تغطي المساحة التي تتوسط
البلاطة المطلة على الصحن برواق القبلة.
تصوير الباحث.



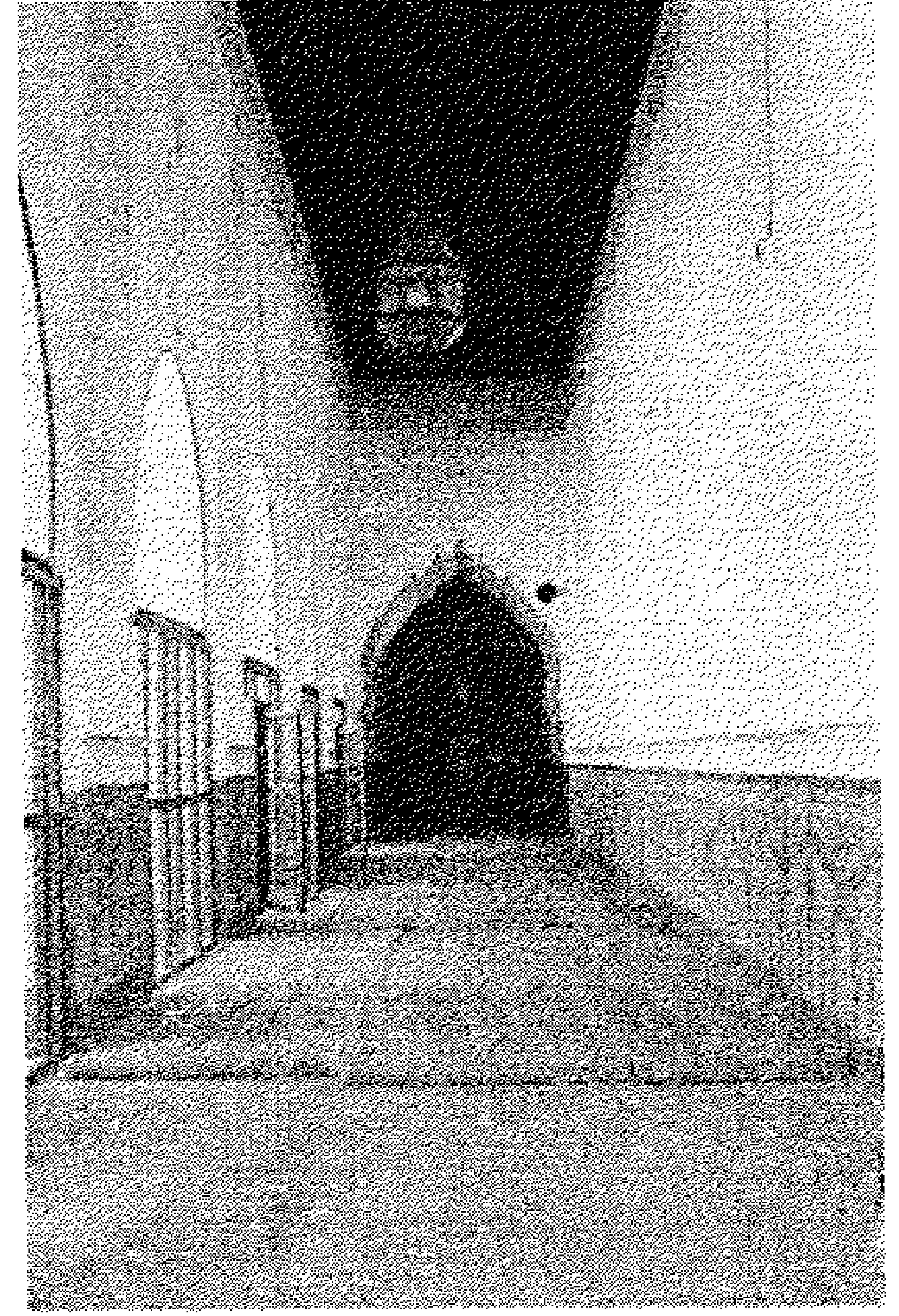
(لوحة ٢٢) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
الأسقف الجمالونية والهرمية التى تغطي أروقة الجامع.
تصوير الباحث.



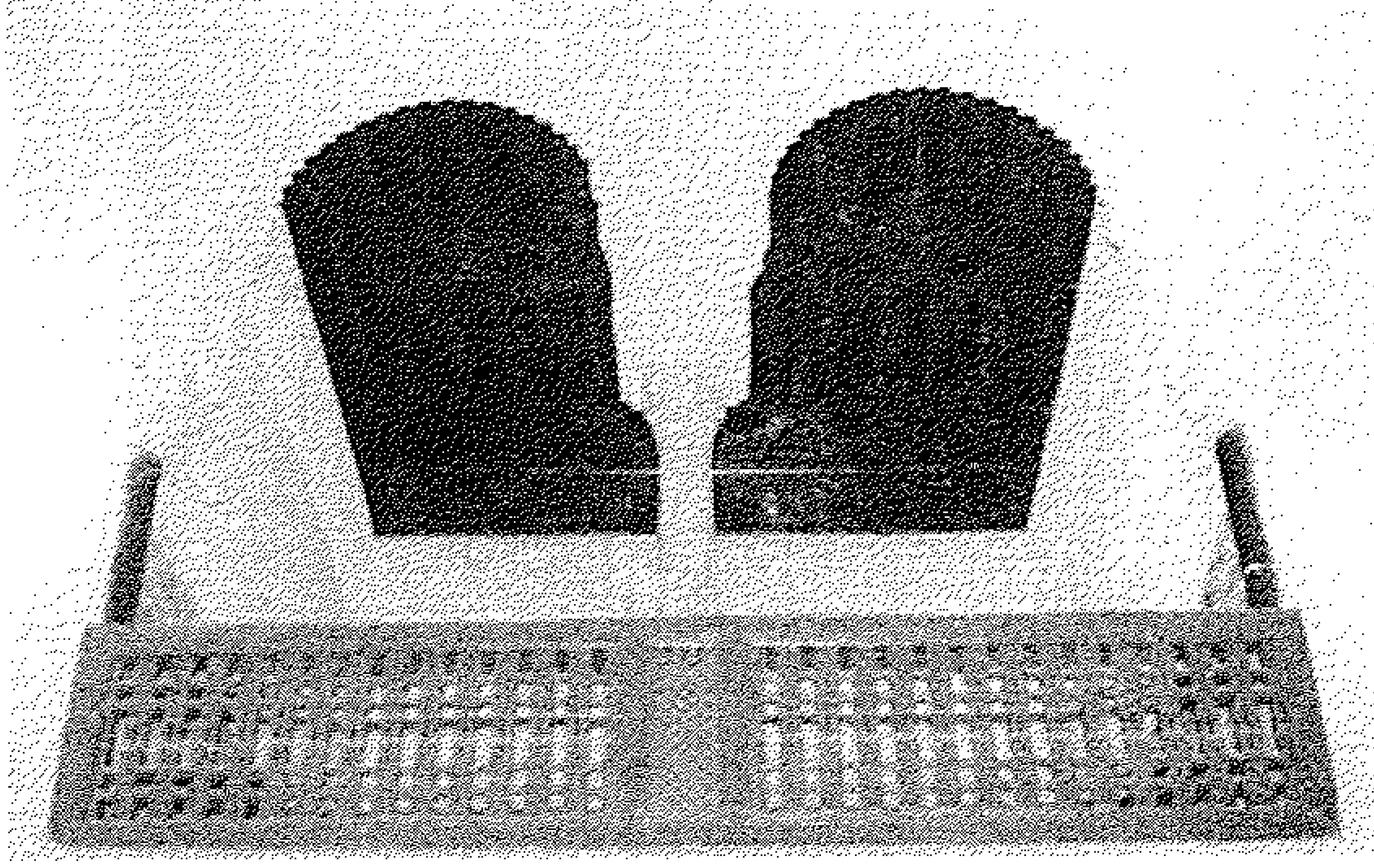
(لوحة ٢٣) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
حنية المحراب التي تتوسط الجدار الشرقى لرواق القبلة.
تصوير الباحث.



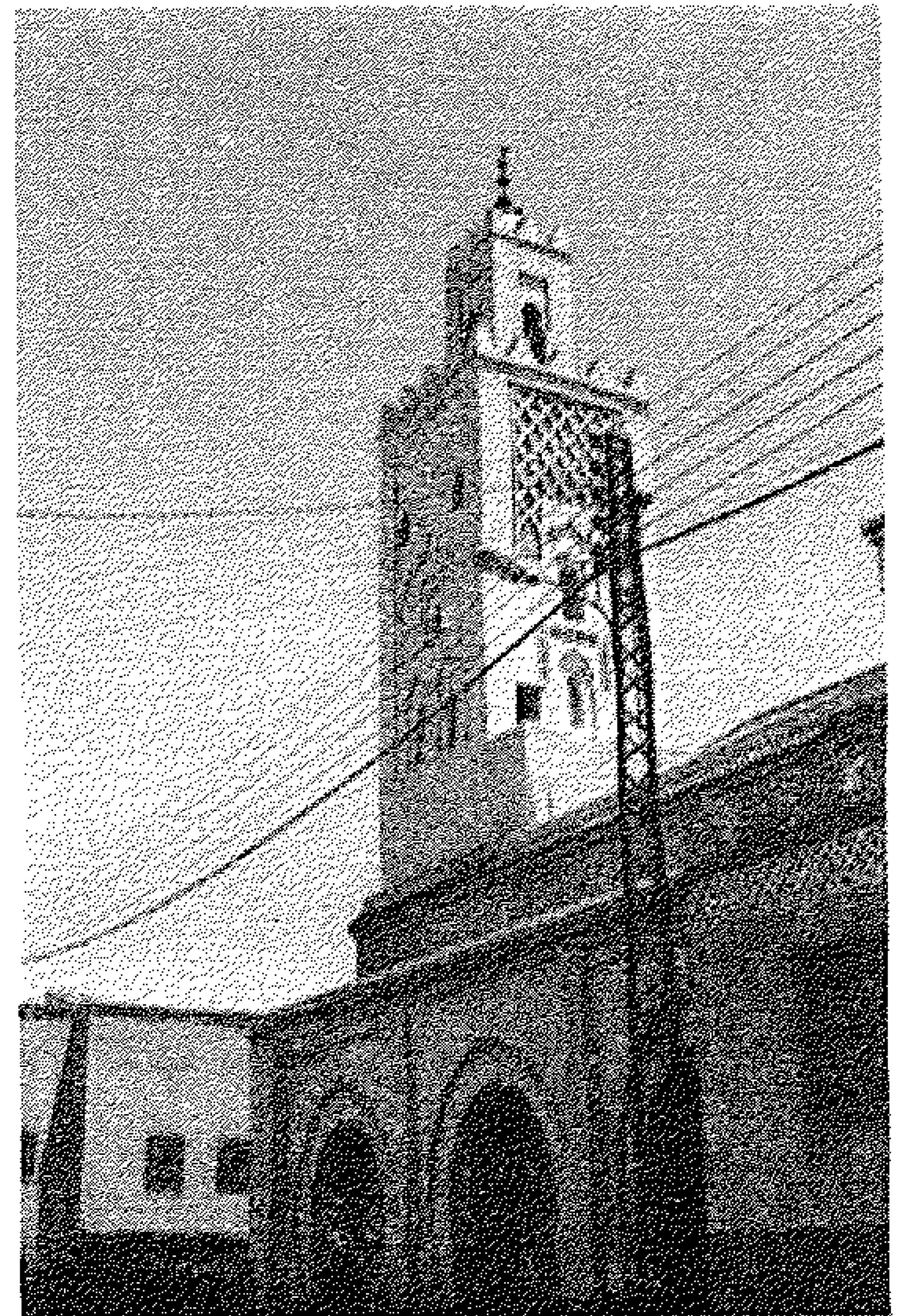
(لوحة ٢٤) : جامع باب دكَّالة بمراكش.
تفصيل للزخارف التي تزين باطن القبة
التي تغطي حنية المحراب.
تصوير الباحث.



(لوحة ٢٥) : جامع باب دكّالة بمراكش.
الرواق الجنوبي للجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٢٦) : جامع باب دكّالة بمراكش.
واجهة بيت الاعتكاف المطلة على البلاطة التي تتقدم المحراب.
تصوير الباحث.



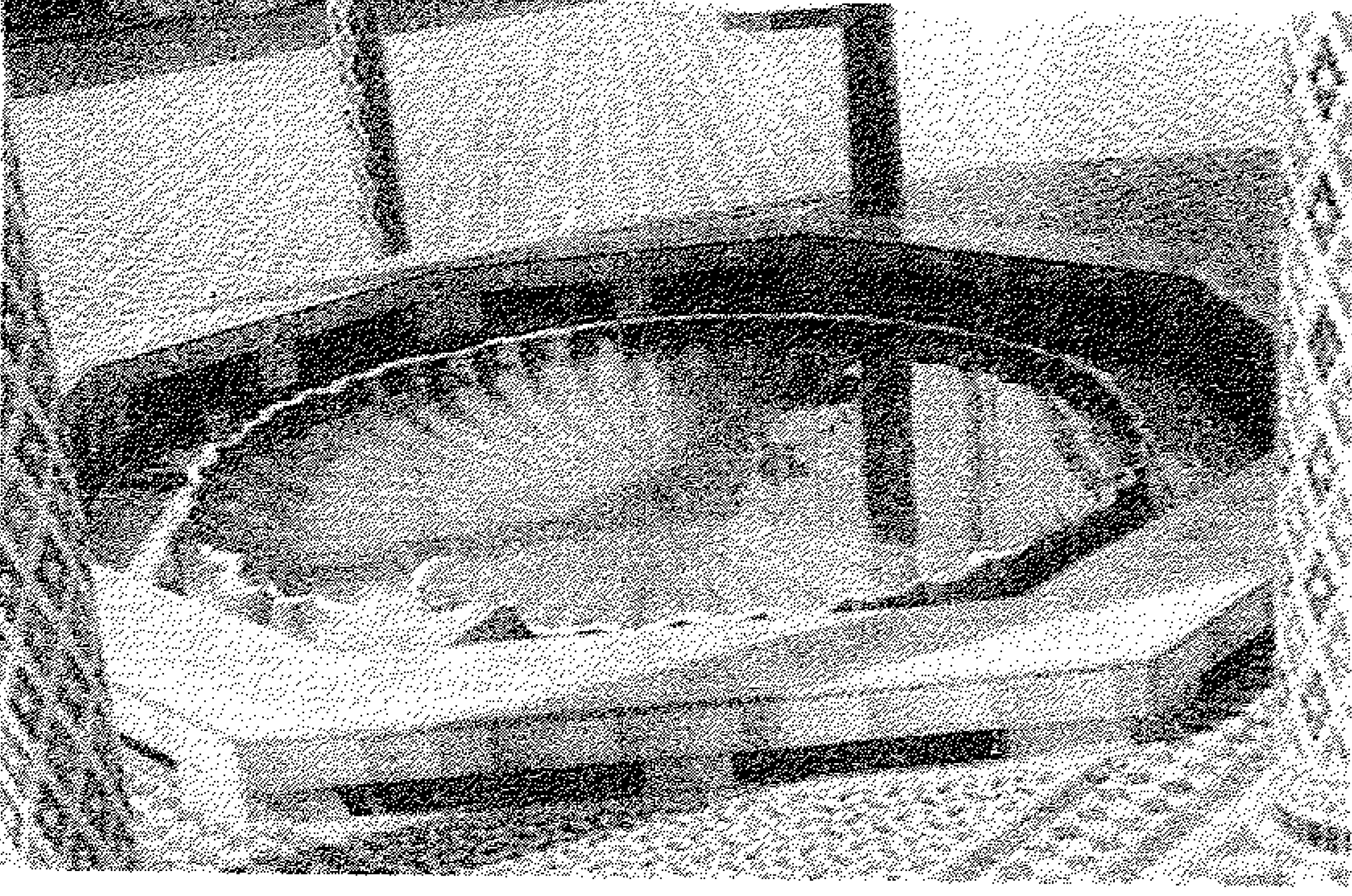
(لوحة ٢٧) : جامع باب دكّالة بمراكش.
الواجهتان الجنوبية والغربية لمئذنة الجامع.
تصوير الباحث.



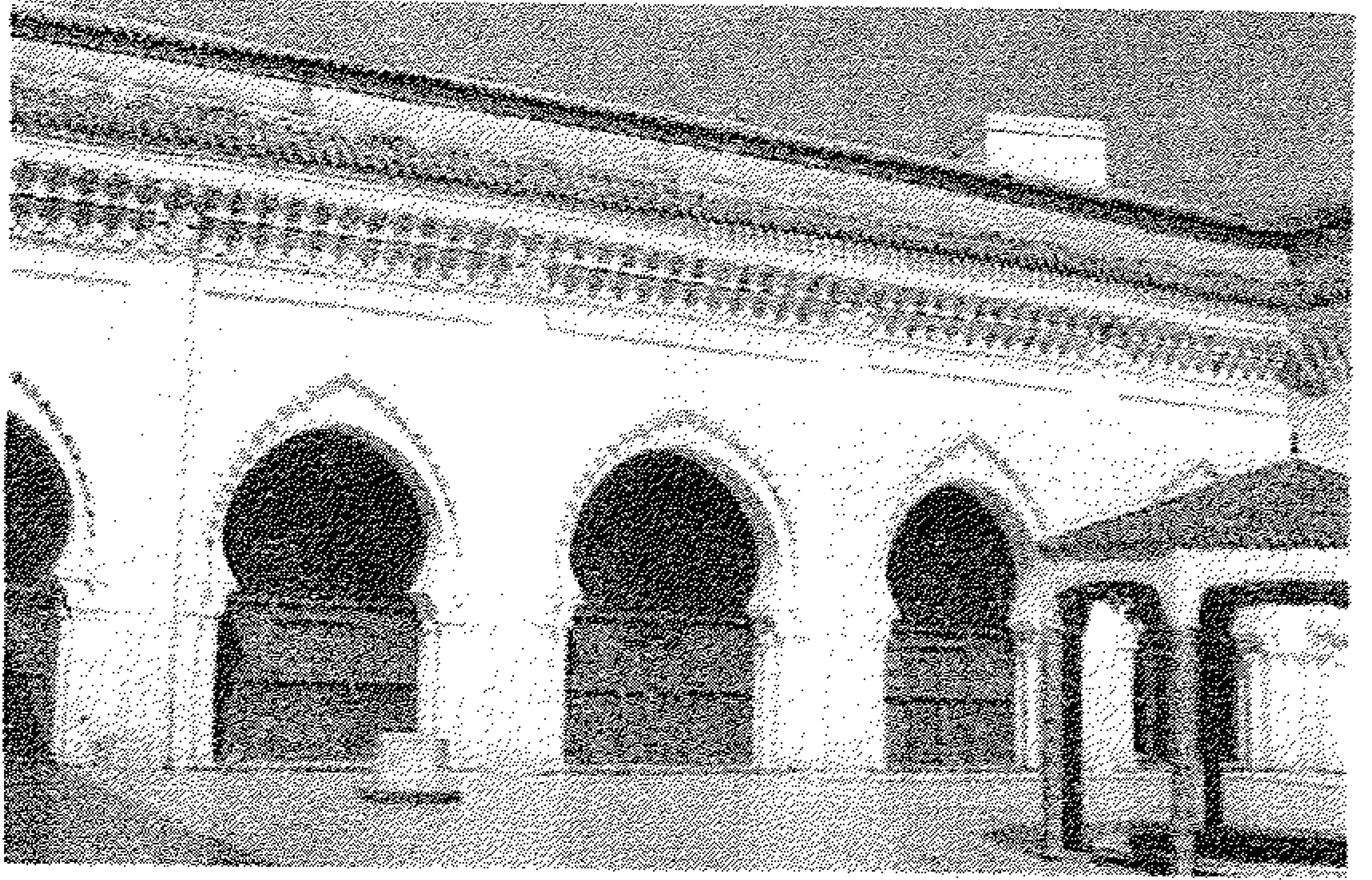
(لوحة ٢٨) : جامع باب دكّالة بمراكش.
واجهة سقاية «الحسن وعلي» التابعة للجامع.
تصوير الباحث.



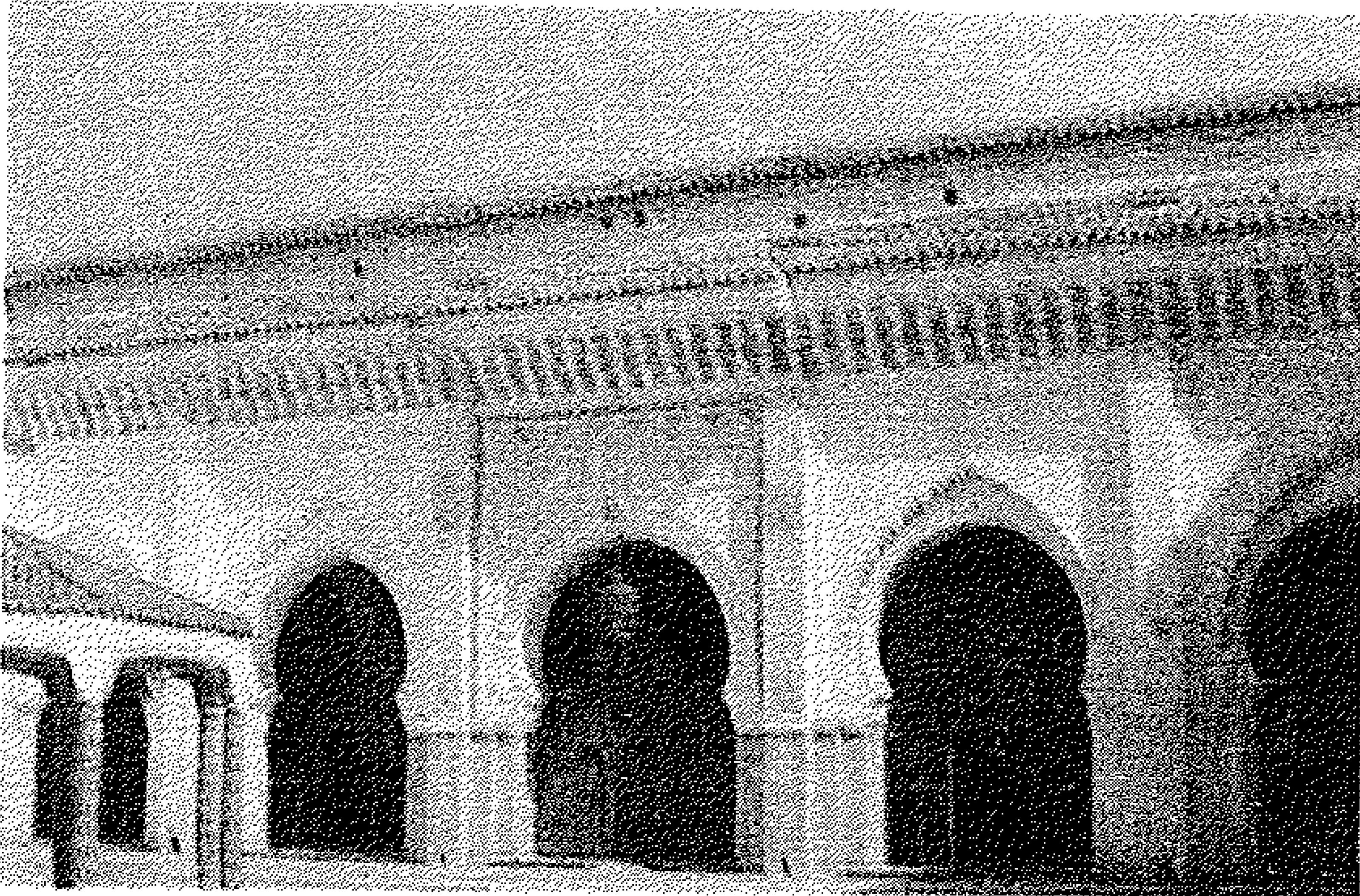
(لوحة ٢٩) : جامع المواسين بمراكش (٩٧٠هـ/١٥٦٢م)
المدخل الرئيسى الذي يتوسط الواجهة الغربية.
تصوير الباحث.



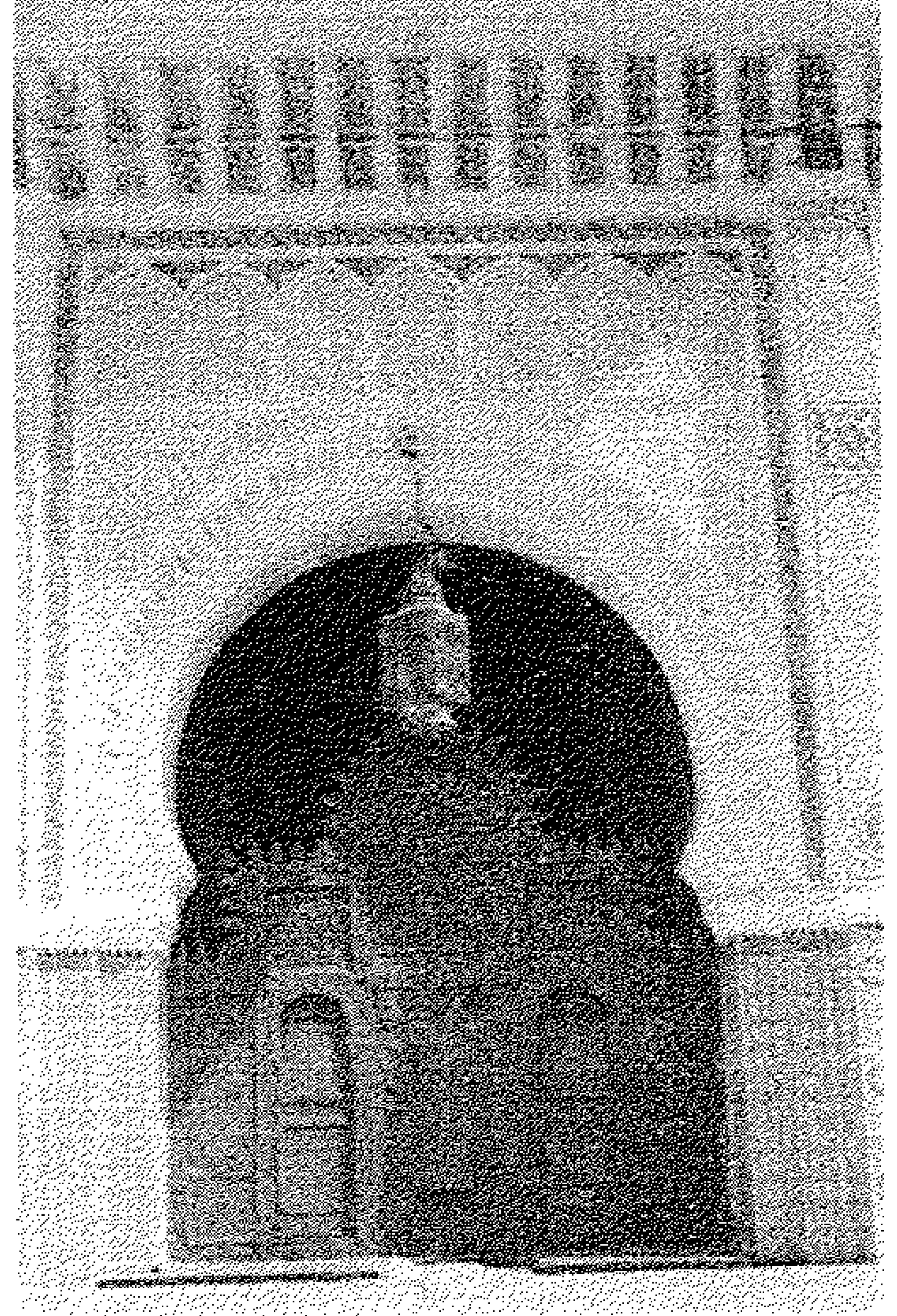
(لوحة ٣٠) : جامع المواسين بمراكش.
صحن الجامع والفسقية التى تتوسطه.
تصوير الباحث.



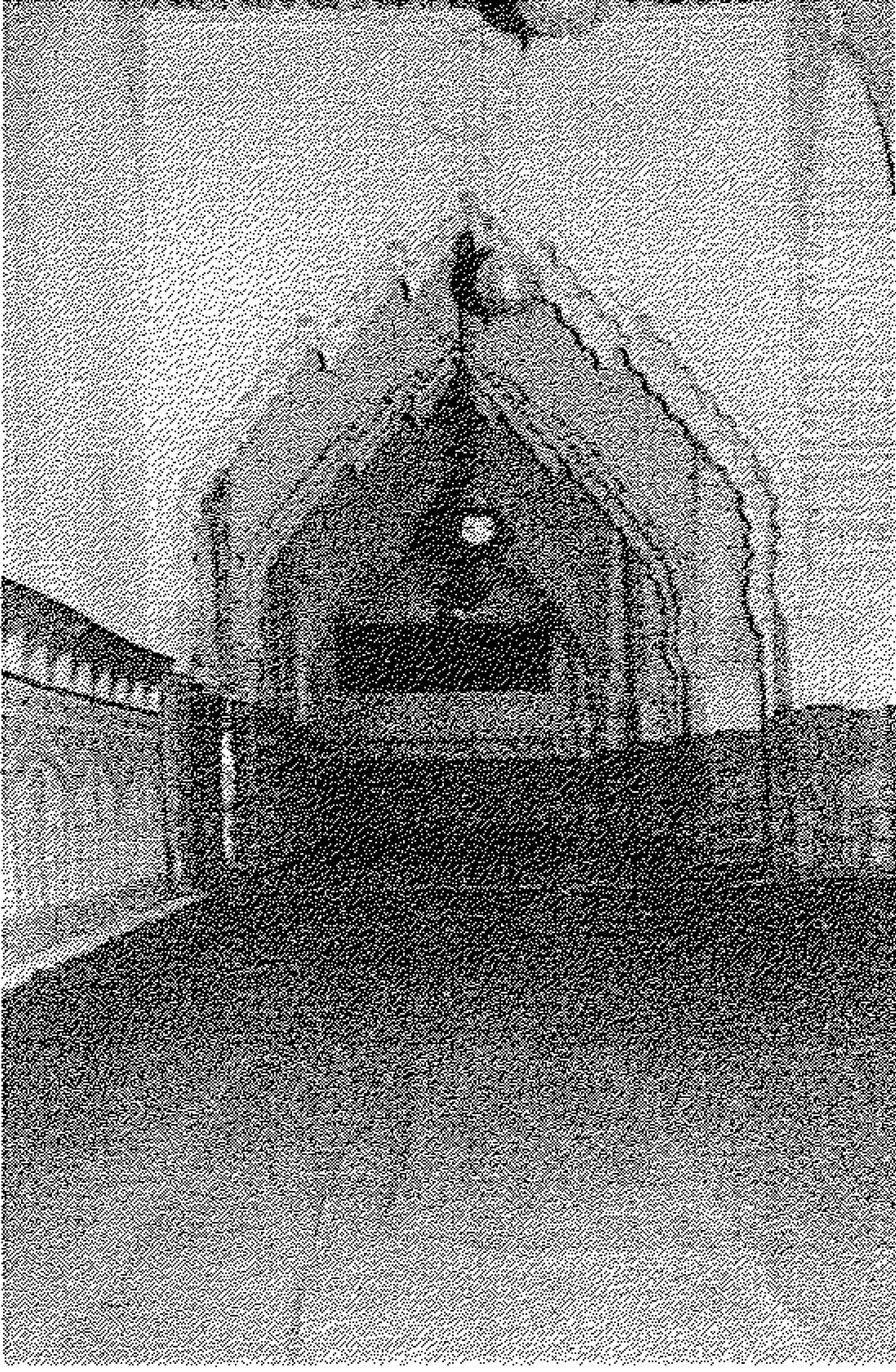
(لوحة ٣١) : جامع المواسين بمراكش.
الواجهة الشمالية لصحن الجامع. تصوير الباحث.



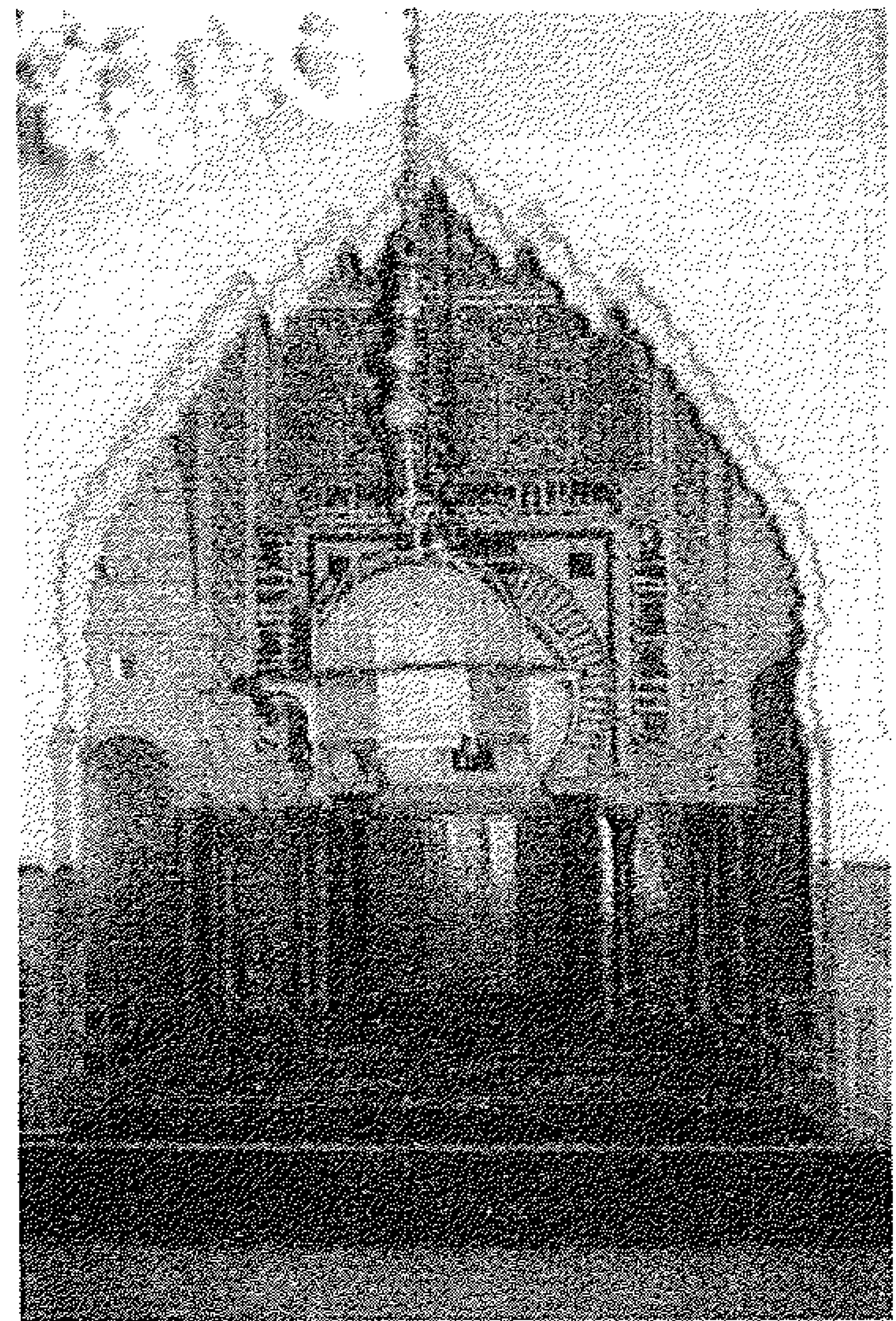
(لوحة ٣٢) : جامع المواسين بمراكش.
الواجهة الشرقية لصحن الجامع. تصوير الباحث.



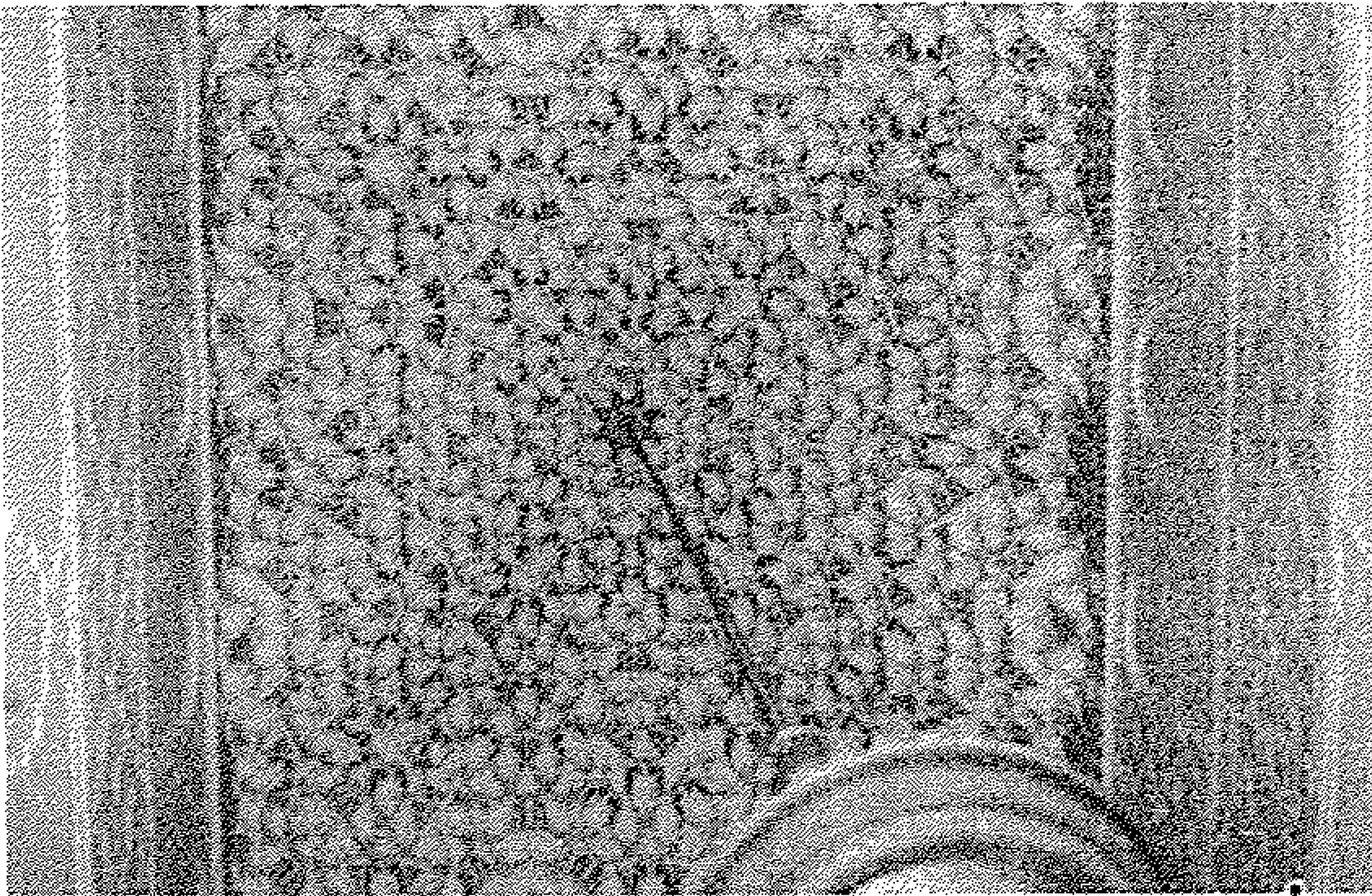
(لوحة ٣٣) : جامع المواسين بمراكش.
«العنترة» أو المحراب الصيفي للجامع من جهة الصحن.
تصوير الباحث.



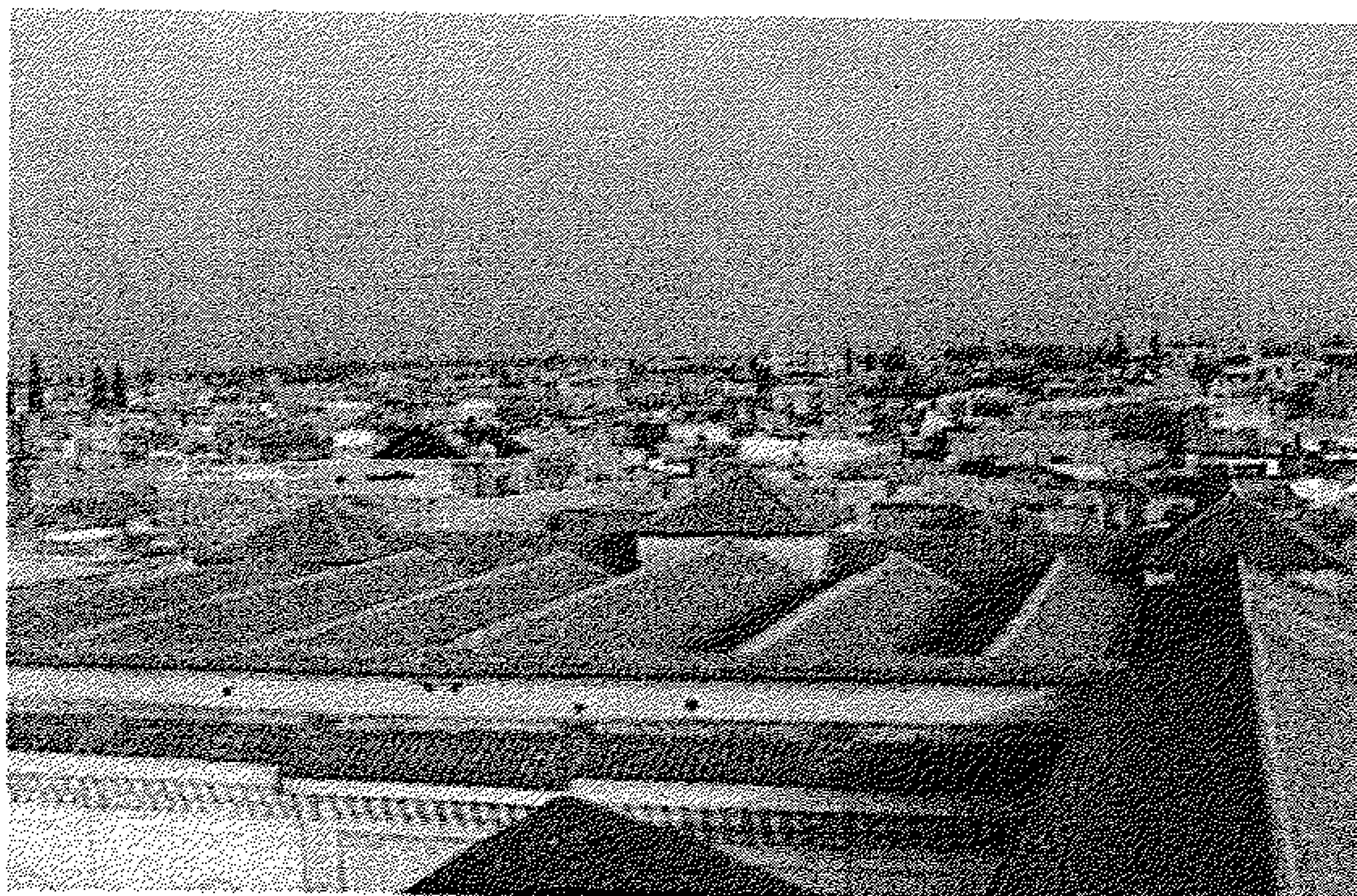
(لوحة ٣٤) : جامع المواسين بمراكش.
البلاطة التي تتقدم المحراب برواق القبلة. تصوير الباحث.



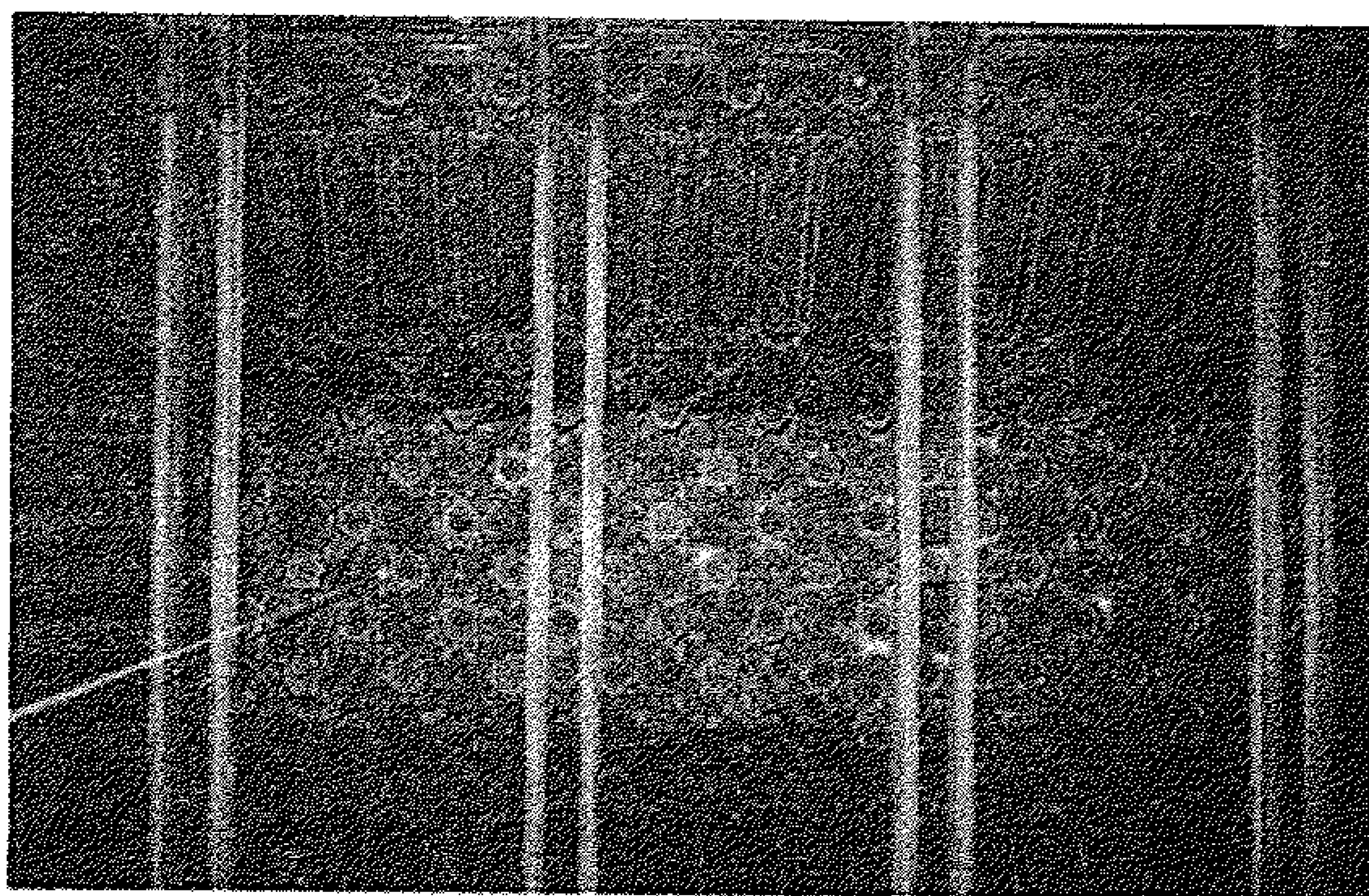
(لوحة ٣٥) : جامع المواسين بمراكش.
واجهة المحراب، ويظهر فيها الثرايا البرونزية التي تتدلى من سقف رواق القبلة. تصوير الباحث.



(لوحة ٣٦) : جامع المواسين بمراكش.
تفصيل للزخارف التي تزين باطن إحدى القباب برواق القبلة.
تصوير الباحث.



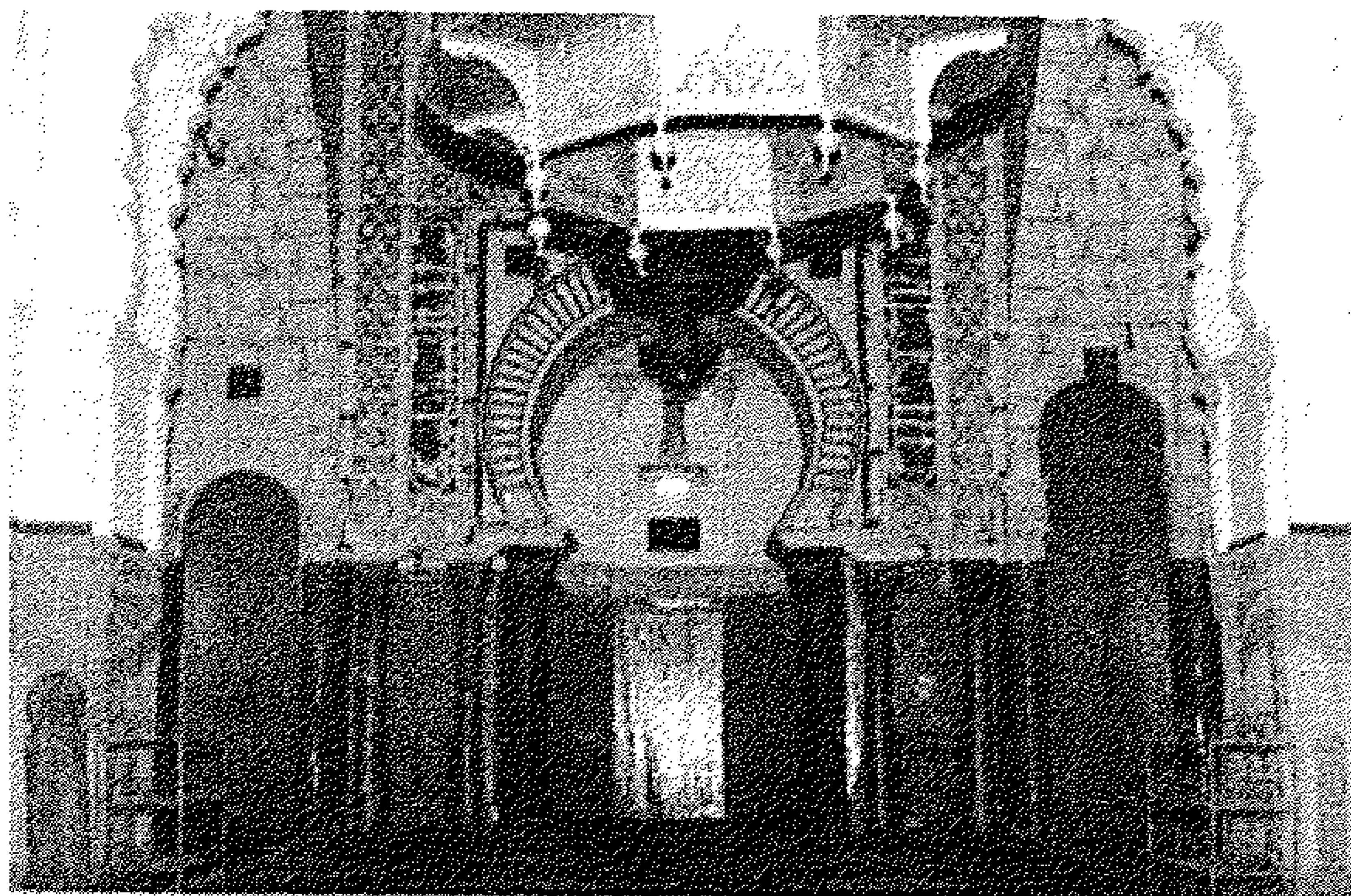
(لوحة ٣٧) : جامع المواسين بمراكش.
الأسقف الجمالونية والهرمية التي تغطي أروقة الجامع.
تصوير الباحث.



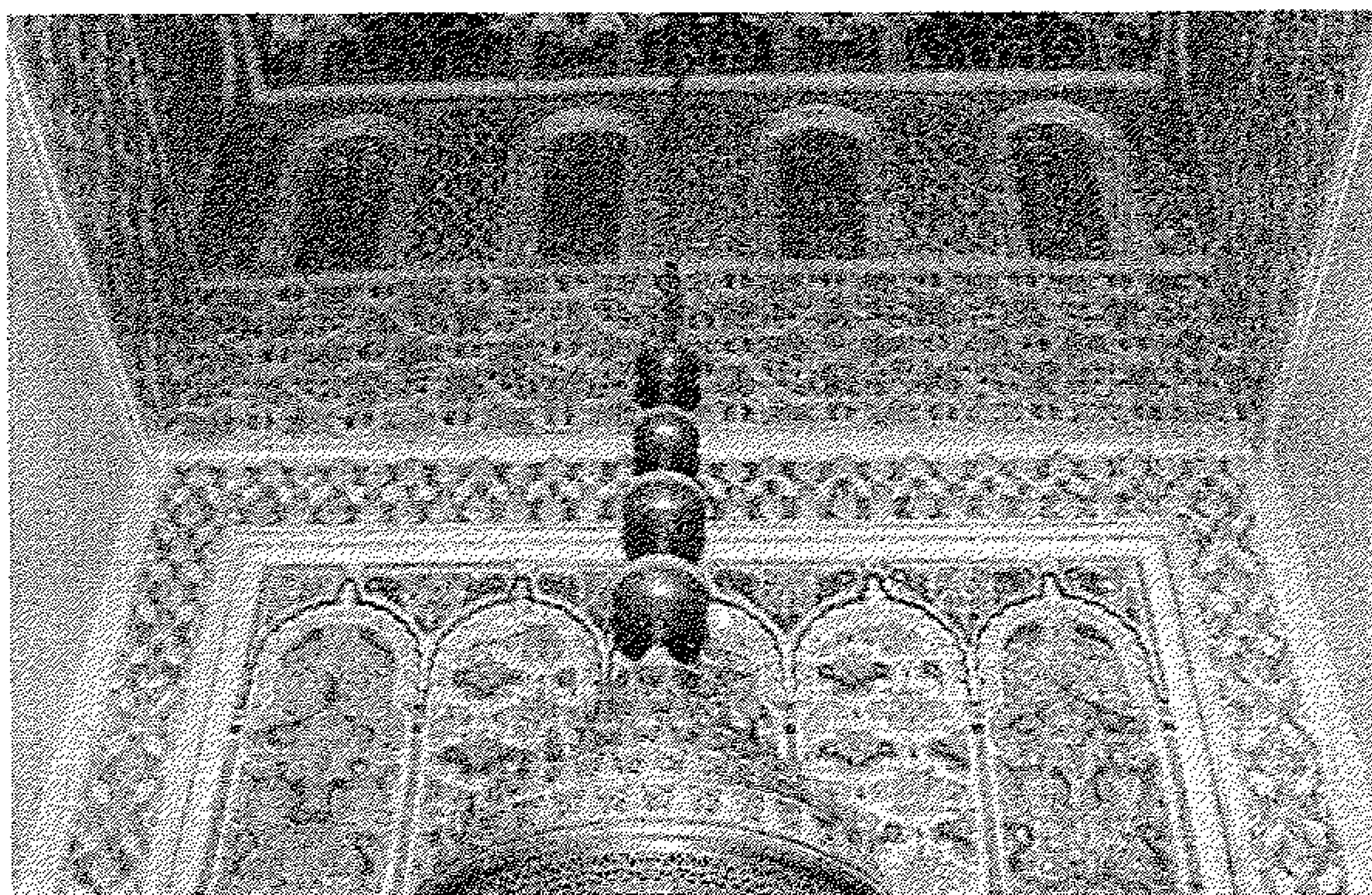
(لوحة ٣٨) : جامع المواسين بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الجمالوني
الذي يغطي بلاطات رواق القبلة.
تصوير الباحث.



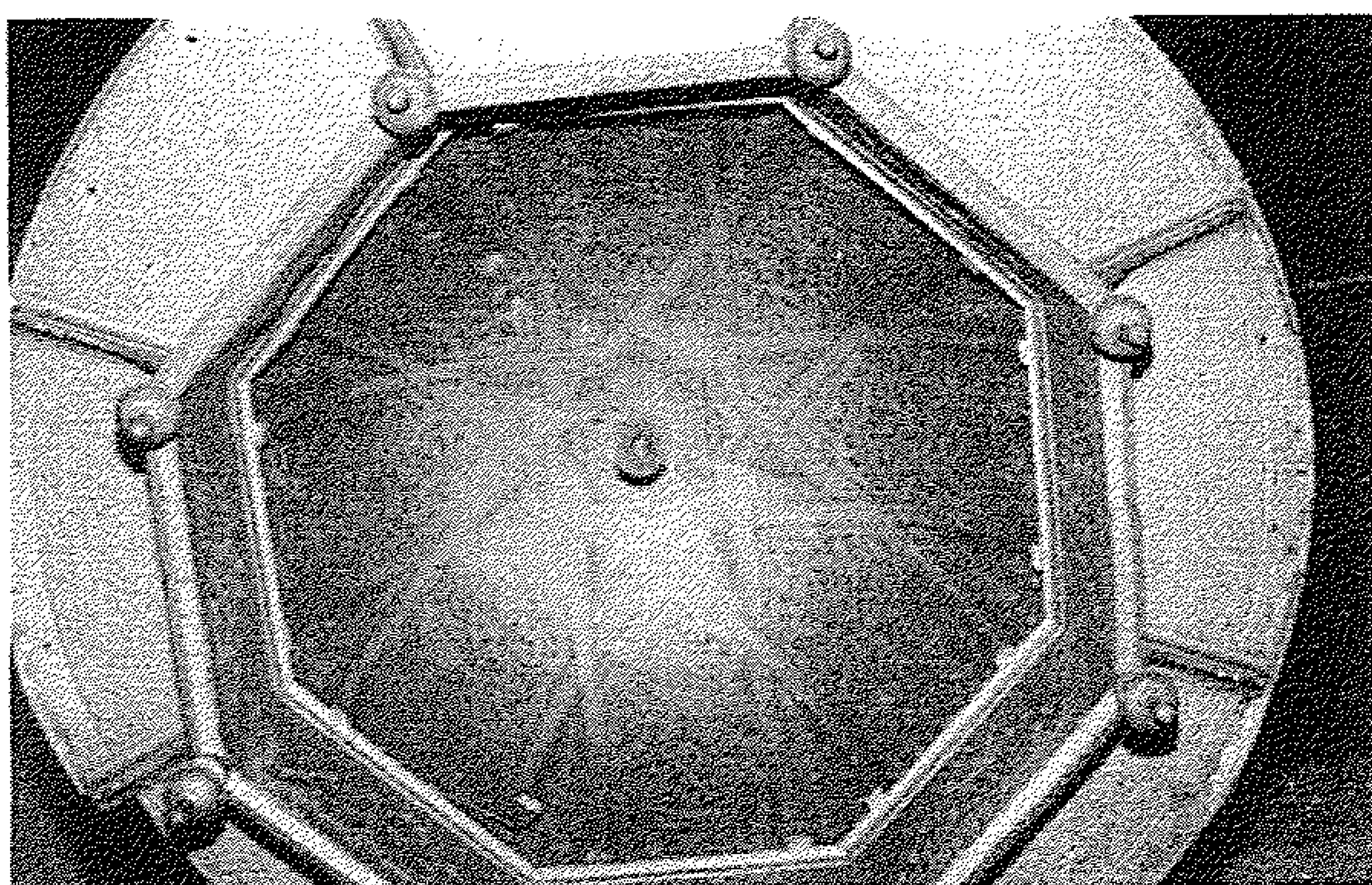
(لوحة ٣٩) : جامع المواسين بمراكش.
عقود بائكات رواق القبلة.
تصوير الباحث.



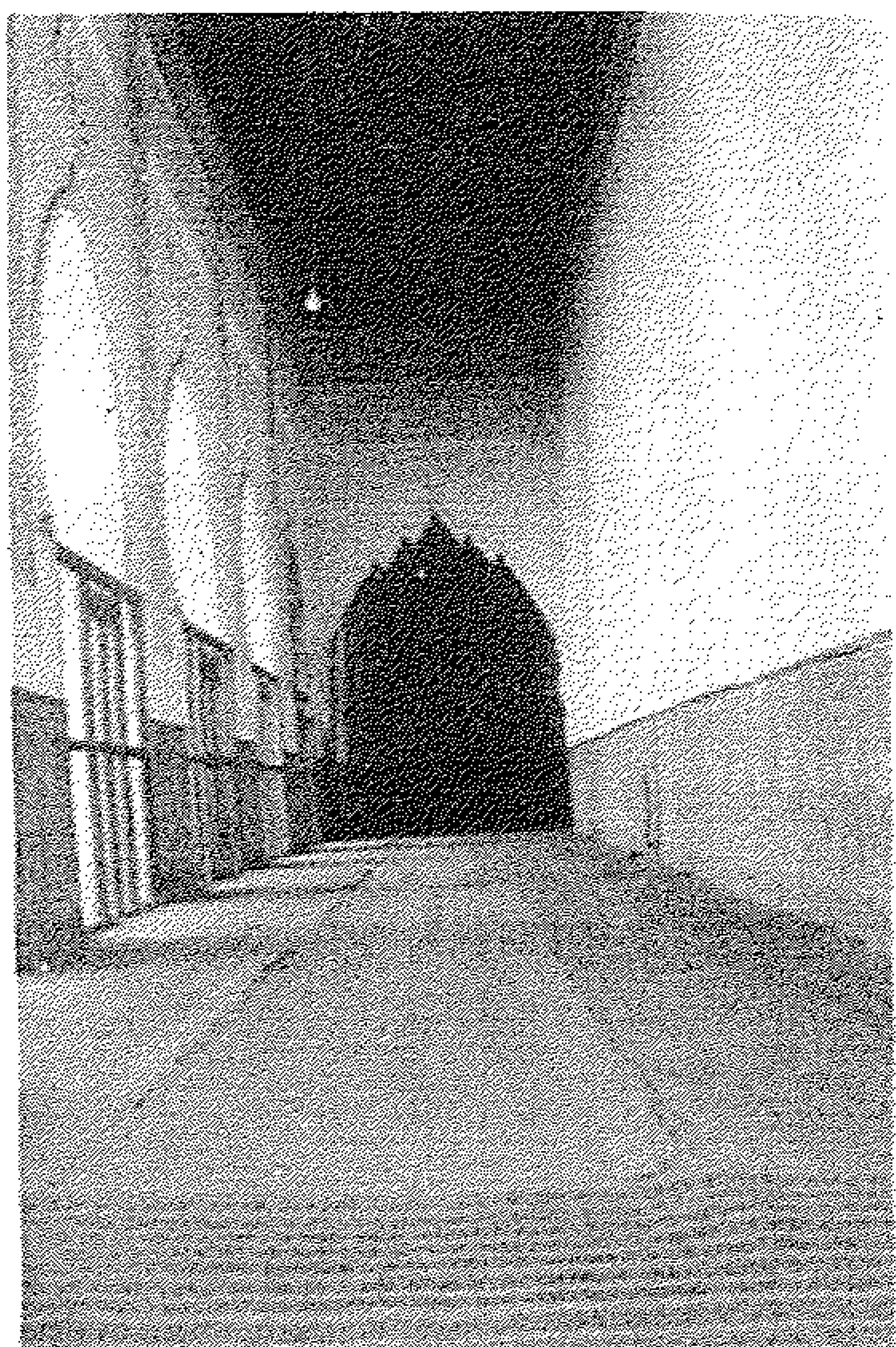
(لوحة ٤٠) : جامع المواسين بمراكش.
حنية المحراب التي تتوسط الجدار الشرقي لرواق القبلة.
تصوير الباحث.



(لوحة ٤١) : جامع المواسين بمراكش.
تفصيل للزخارف المنفذة على الجص أعلى حنية المحراب. تصوير الباحث.



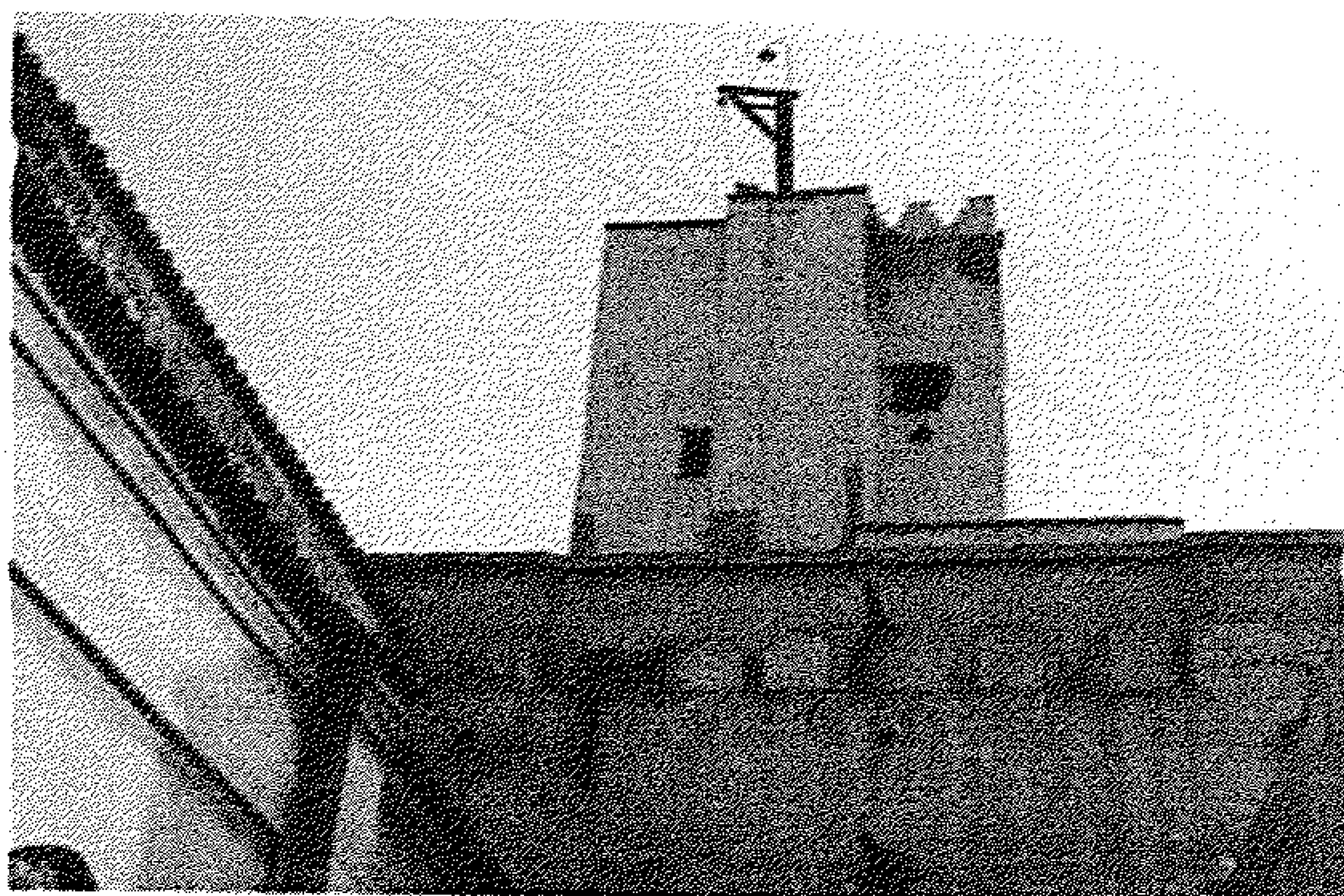
(لوحة ٤٢) : جامع المواسين بمراكش.
تفصيل للزخارف التى تزين باطن الثرايا البرونزية التي تتدلى من سقف رواق القبلة. تصوير الباحث.



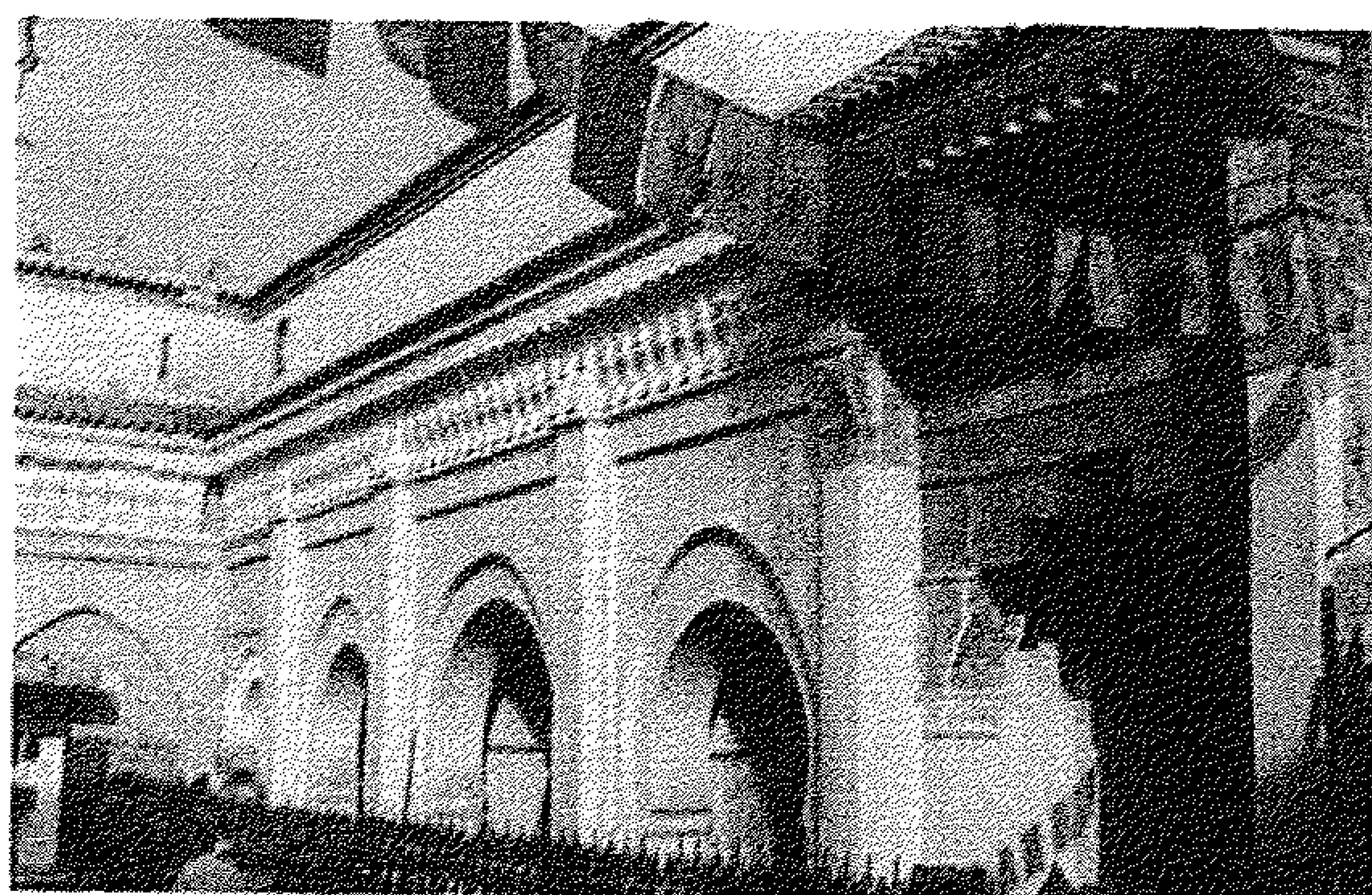
(لوحة ٤٤) : جامع المواسين بمراكش.
الرواق الجنوبي للجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٤٣) : جامع المواسين بمراكش.
المنبر الخشبي المتحرك، ويظهر فيها واجهة بيت الاعتكاف التي تطل على رواق القبلة. تصوير الباحث.



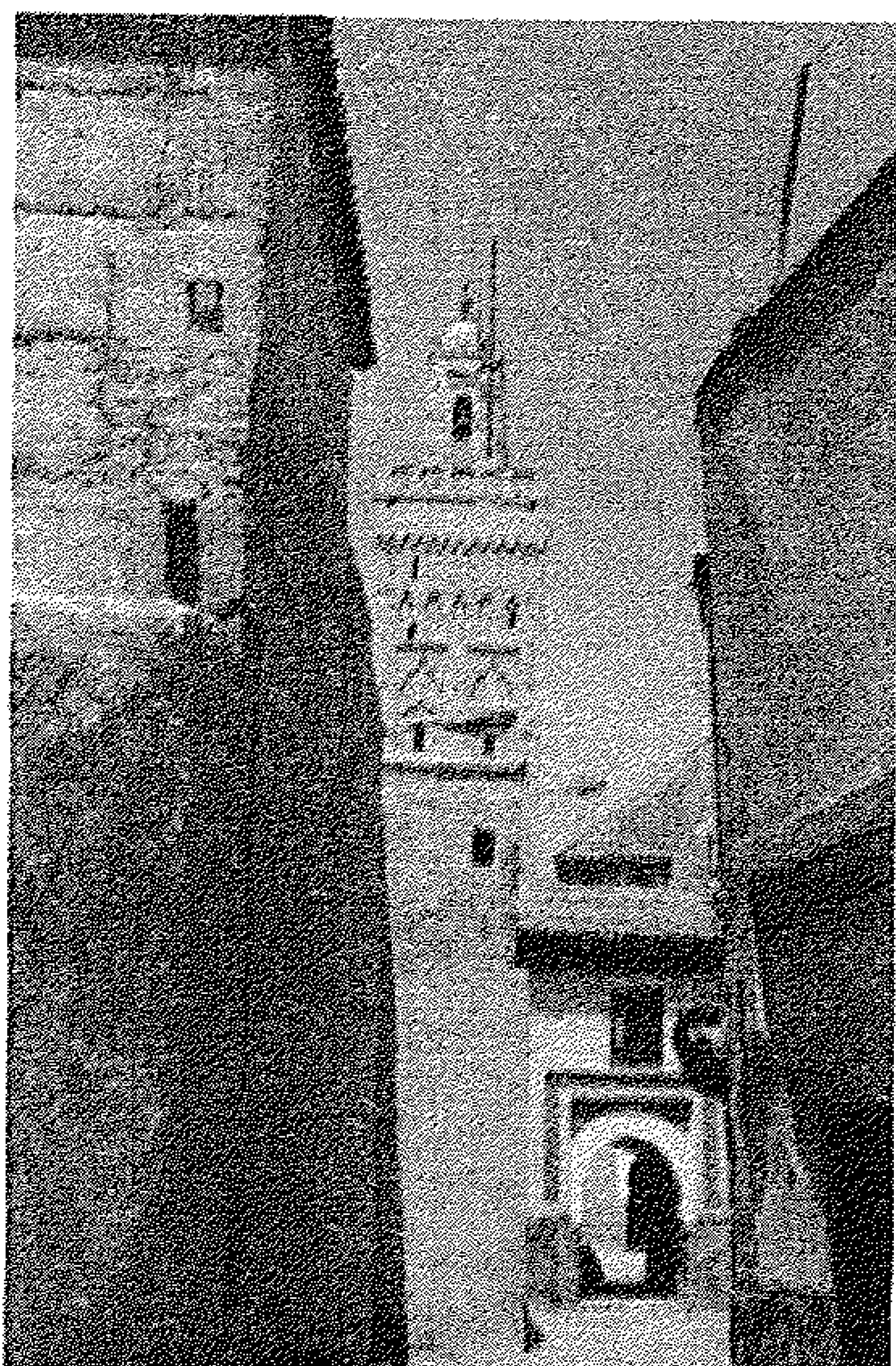
(لوحة ٤٥) : جامع المواسين بمراكش.
الواجهة الشمالية لمئذنة الجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٤٦) : جامع المواسين بمراكش.
الواجهة الرئيسية للسقاية التابعة للجامع.
تصوير الباحث.



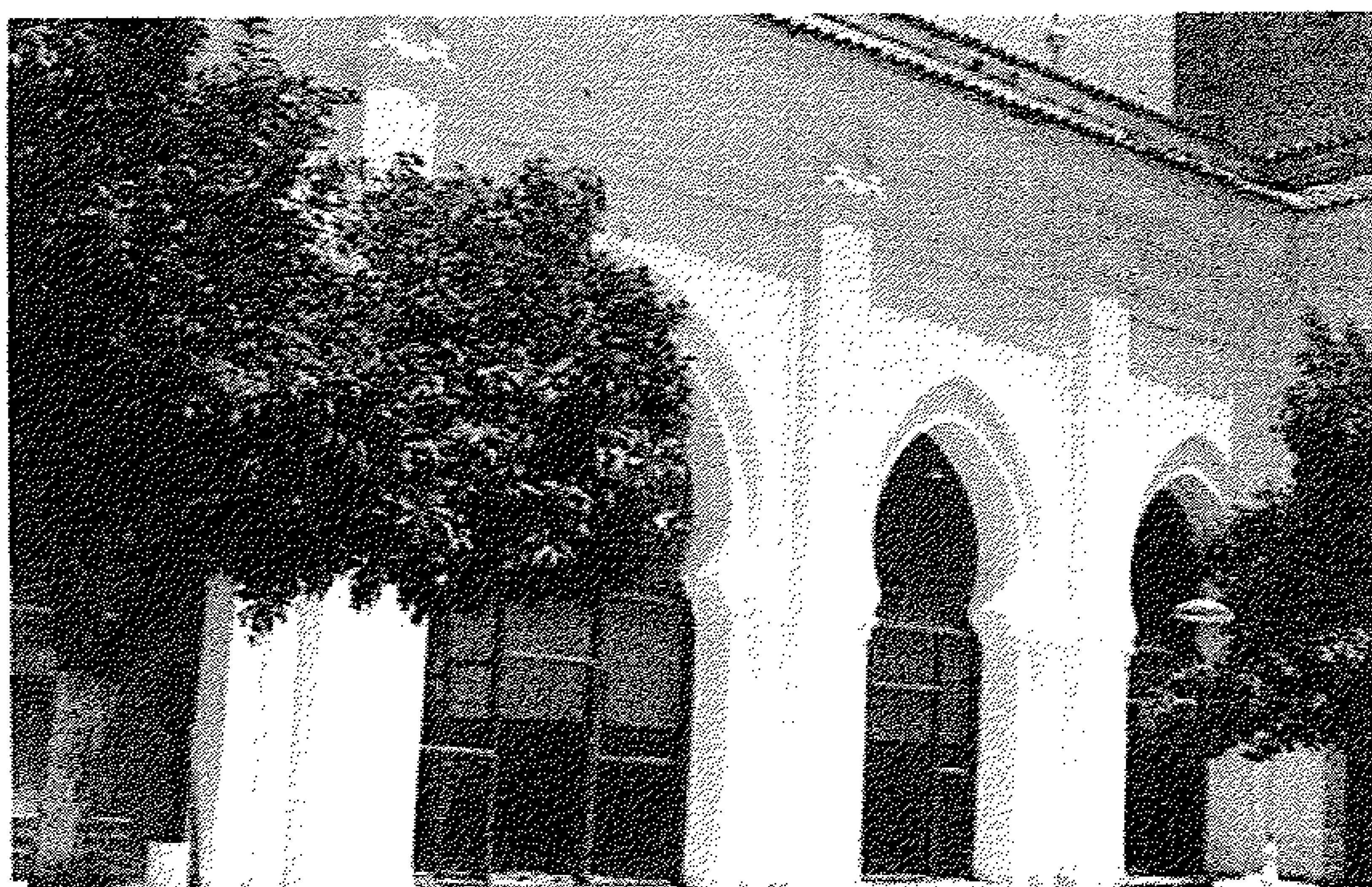
(لوحة ٤٧) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
القطاع الشمالي الغربي للواجهة الغربية للجامع،
ويظهر فيها مئذنة الجامع.
تصوير الباحث.



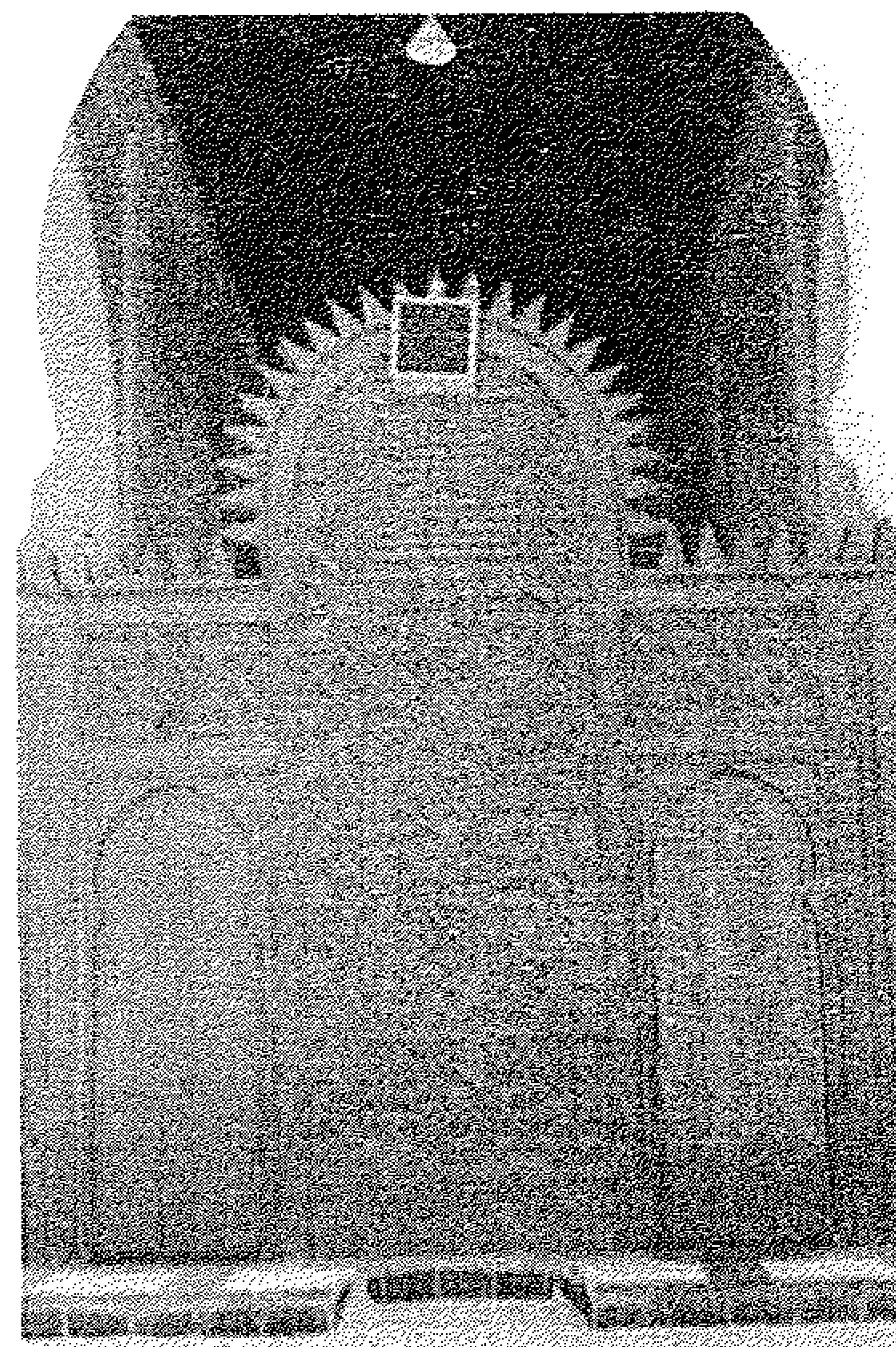
(لوحة ٤٨) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
القطاع الشرقي للواجهة الشمالية للجامع، ويظهر
فيها المدخل الذي يتوسط هذه الواجهة.
تصوير الباحث.



(لوحة ٤٩) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الواجهة الشرقية للصحن. تصوير الباحث.



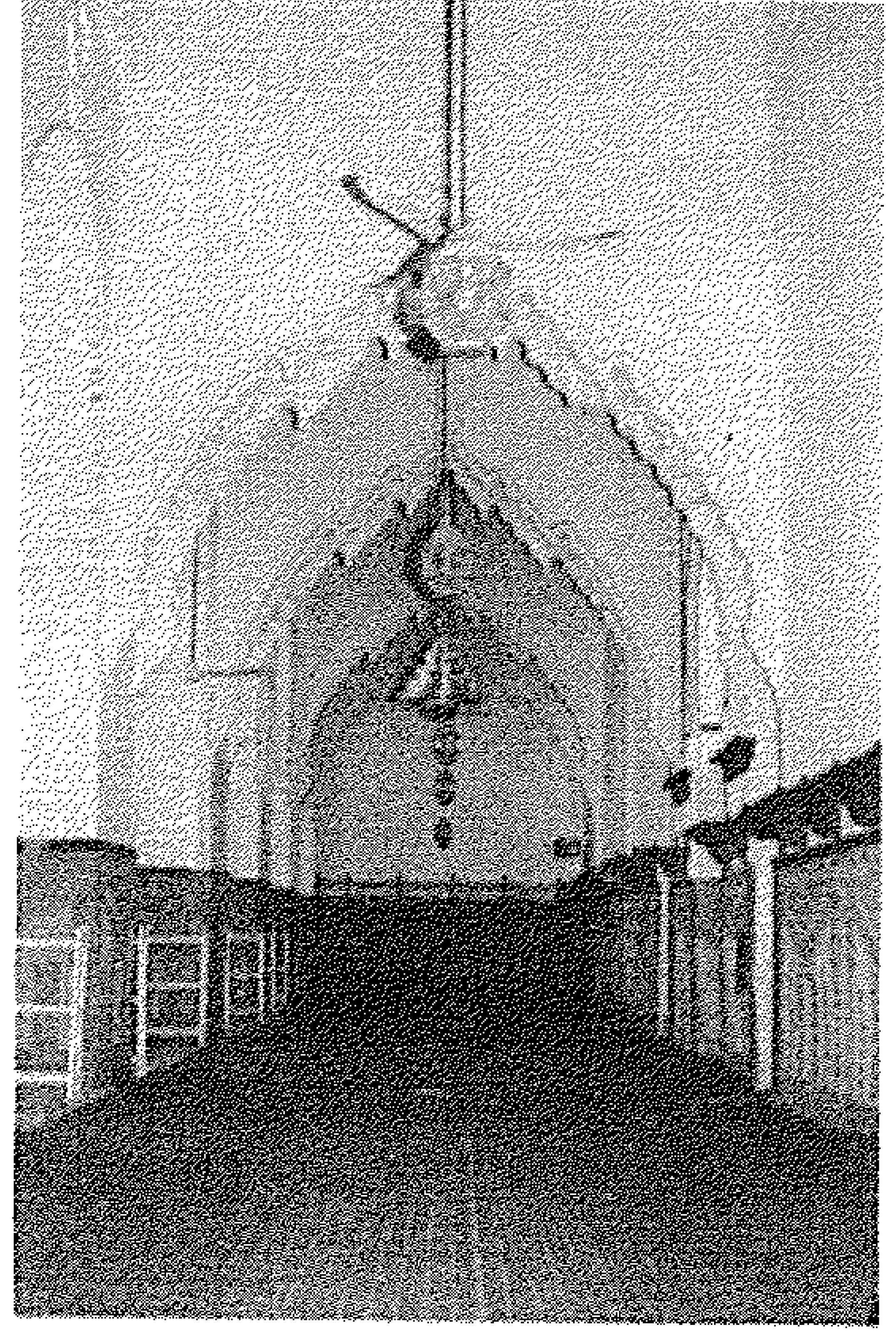
(لوحة ٥٠) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الواجهة الجنوبية للصحن. تصوير الباحث.



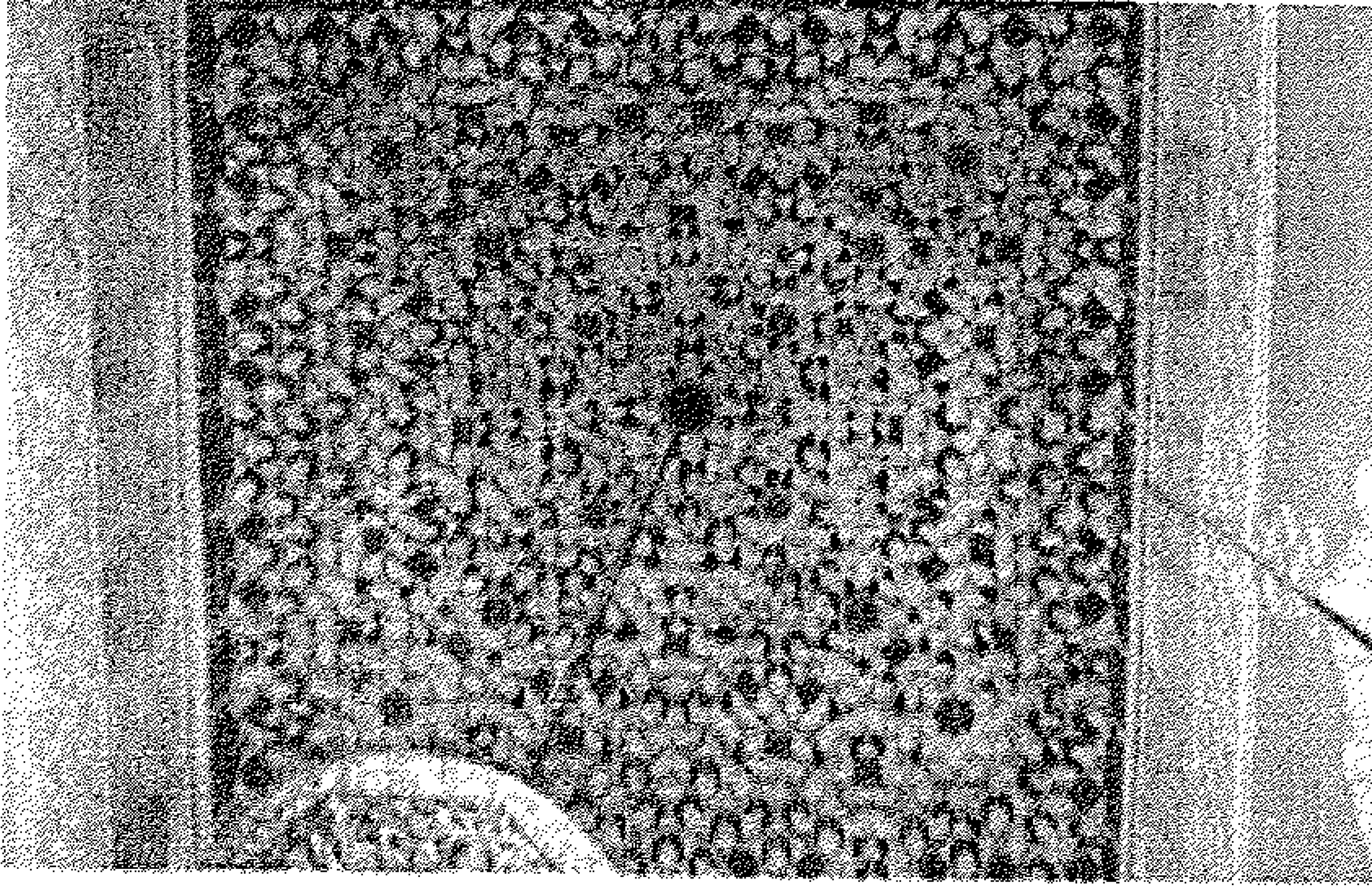


(لوحة ٥١) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
«العترة» أو المحراب الصيفي للجامع من جهة الصحن.
تصوير الباحث.

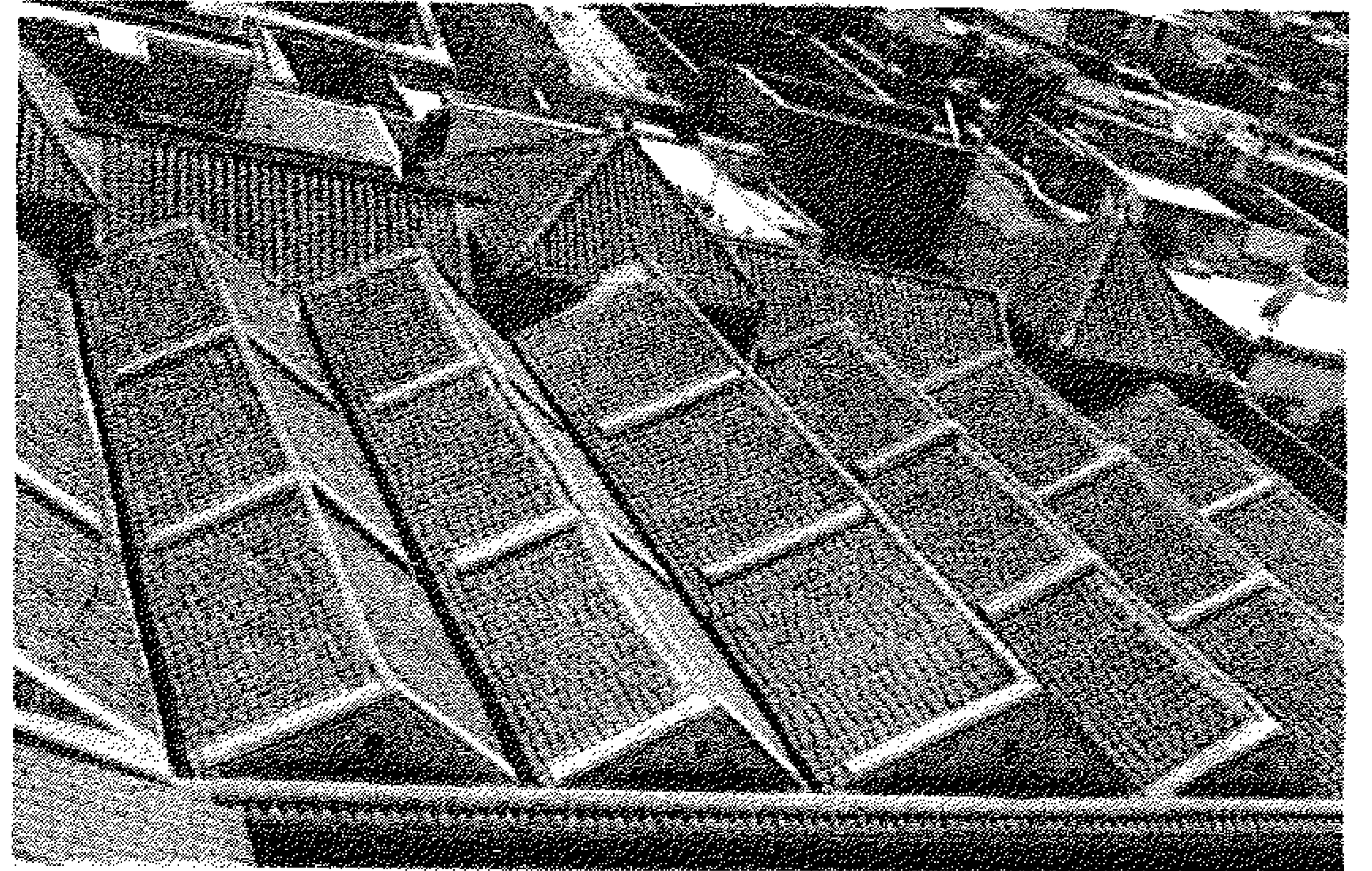
(لوحة ٥٢) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الواجهة الغربية للصحن.
تصوير الباحث.



(لوحة ٥٣) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
البلاطة التي تتقدم المحراب برواق القبلة.
تصوير الباحث.



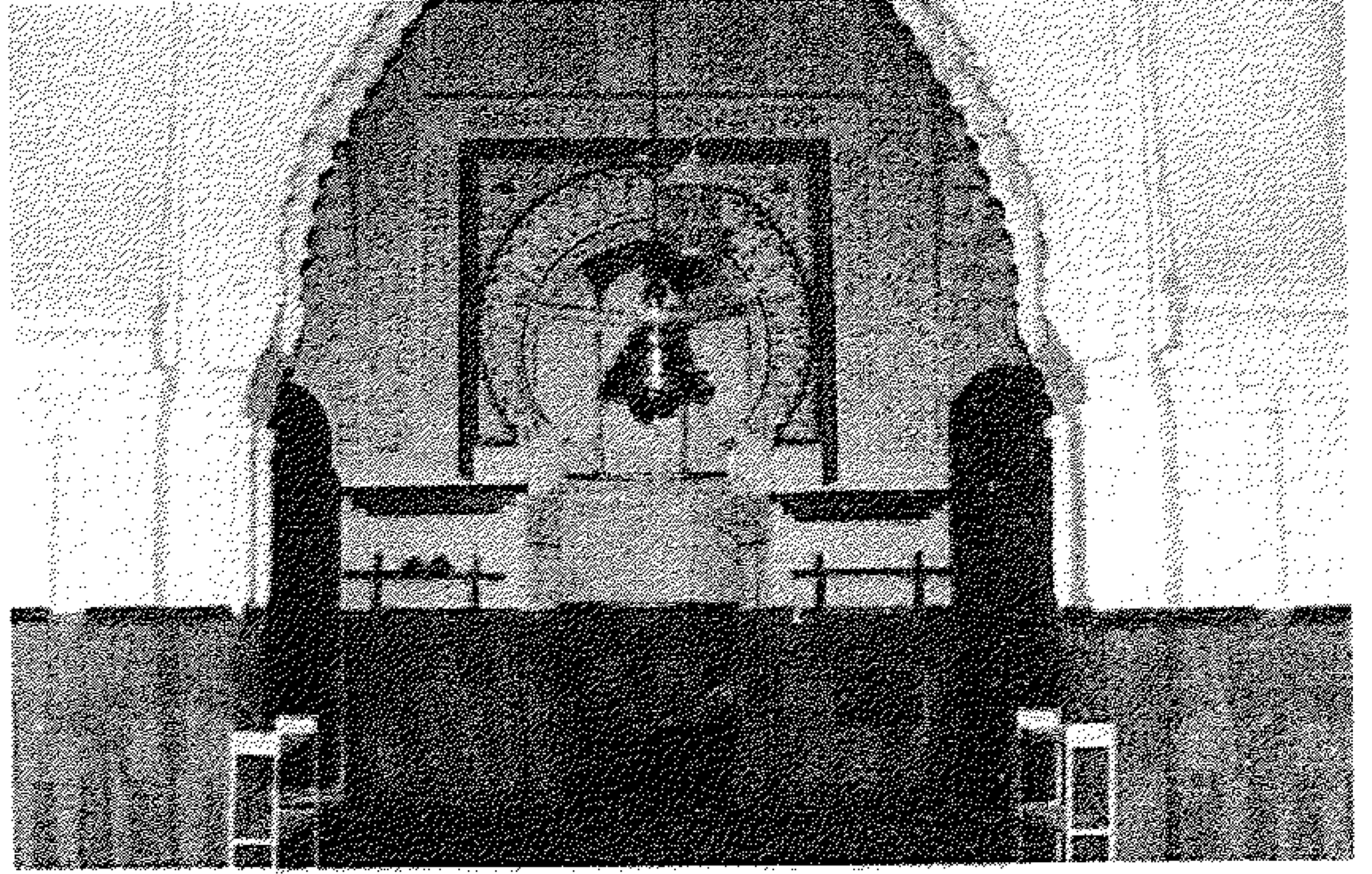
(لوحة ٥٤) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
تفصيل لزخارف باطن إحدى قباب رواق القبلة.
تصوير الباحث.



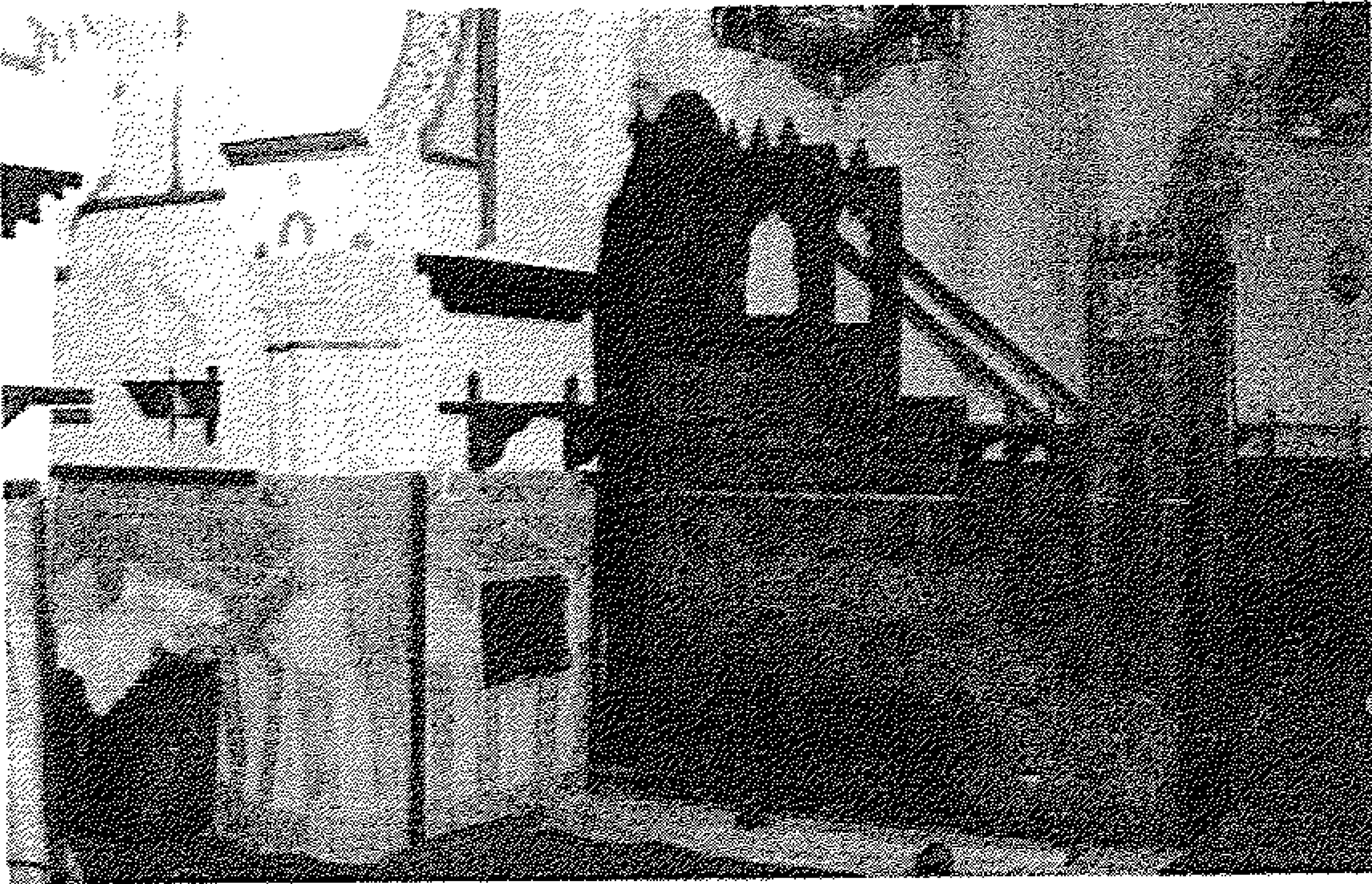
(لوحة ٥٥) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الأسقف الجمالونية والهرمية التي تغطي أروقة الجامع.
تصوير الباحث.



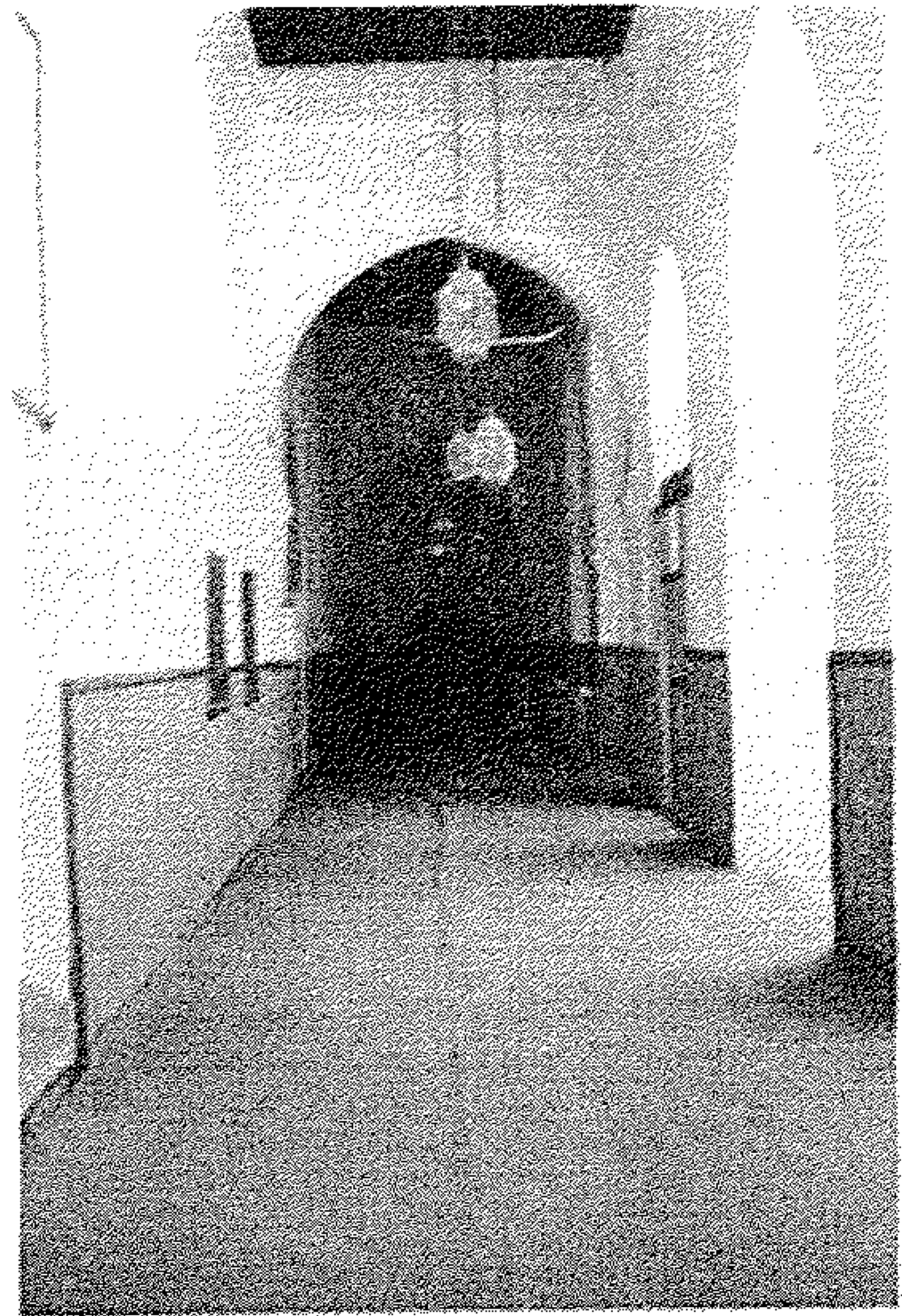
(لوحة ٥٦) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
عقود بأشكات رواق القبلة.
تصوير الباحث.



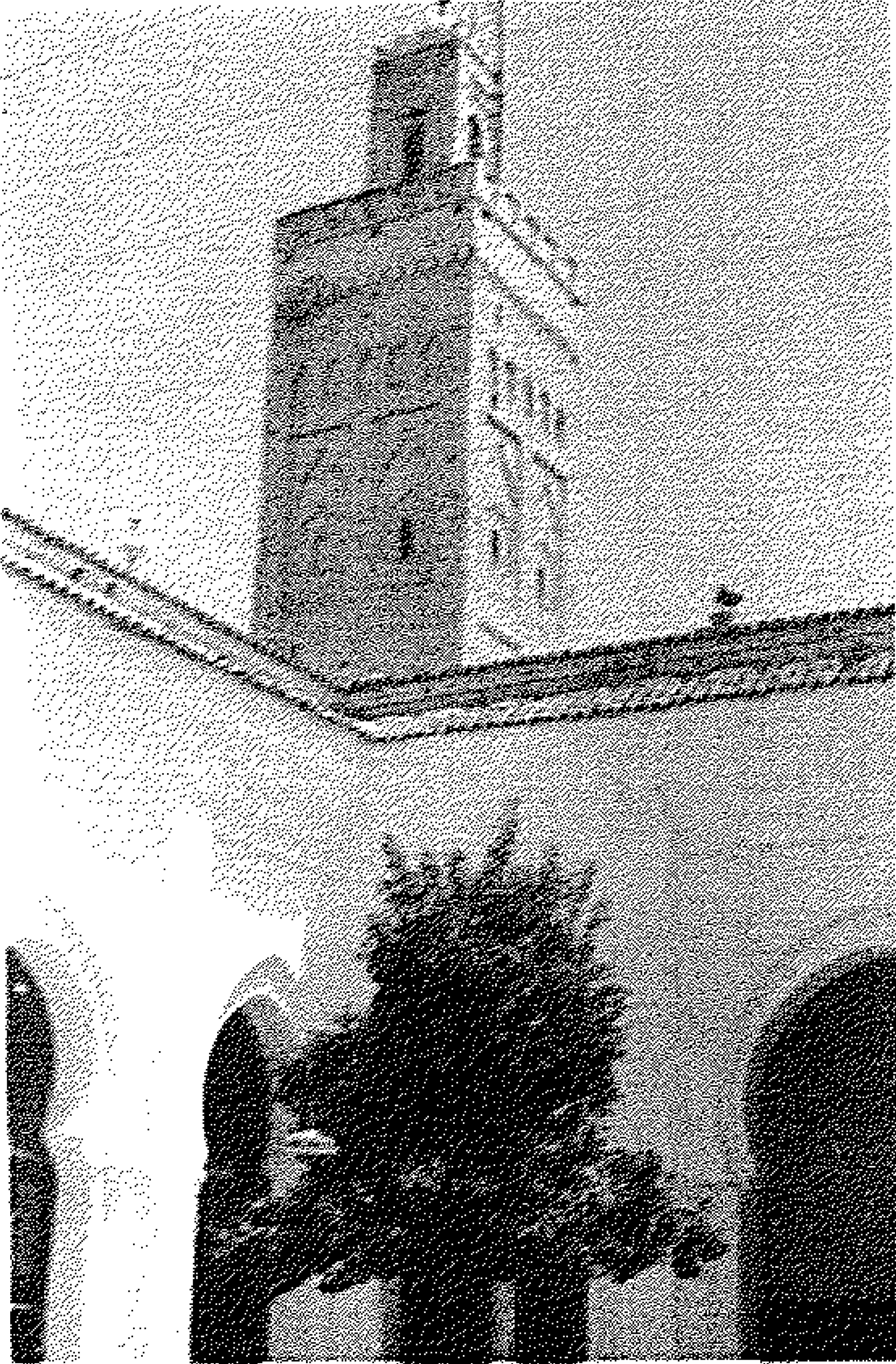
(لوحة ٥٧) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
حنية المحراب وعلى جانبيها بابي بيت المنبر
وبيت الخطيب. تصوير الباحث.



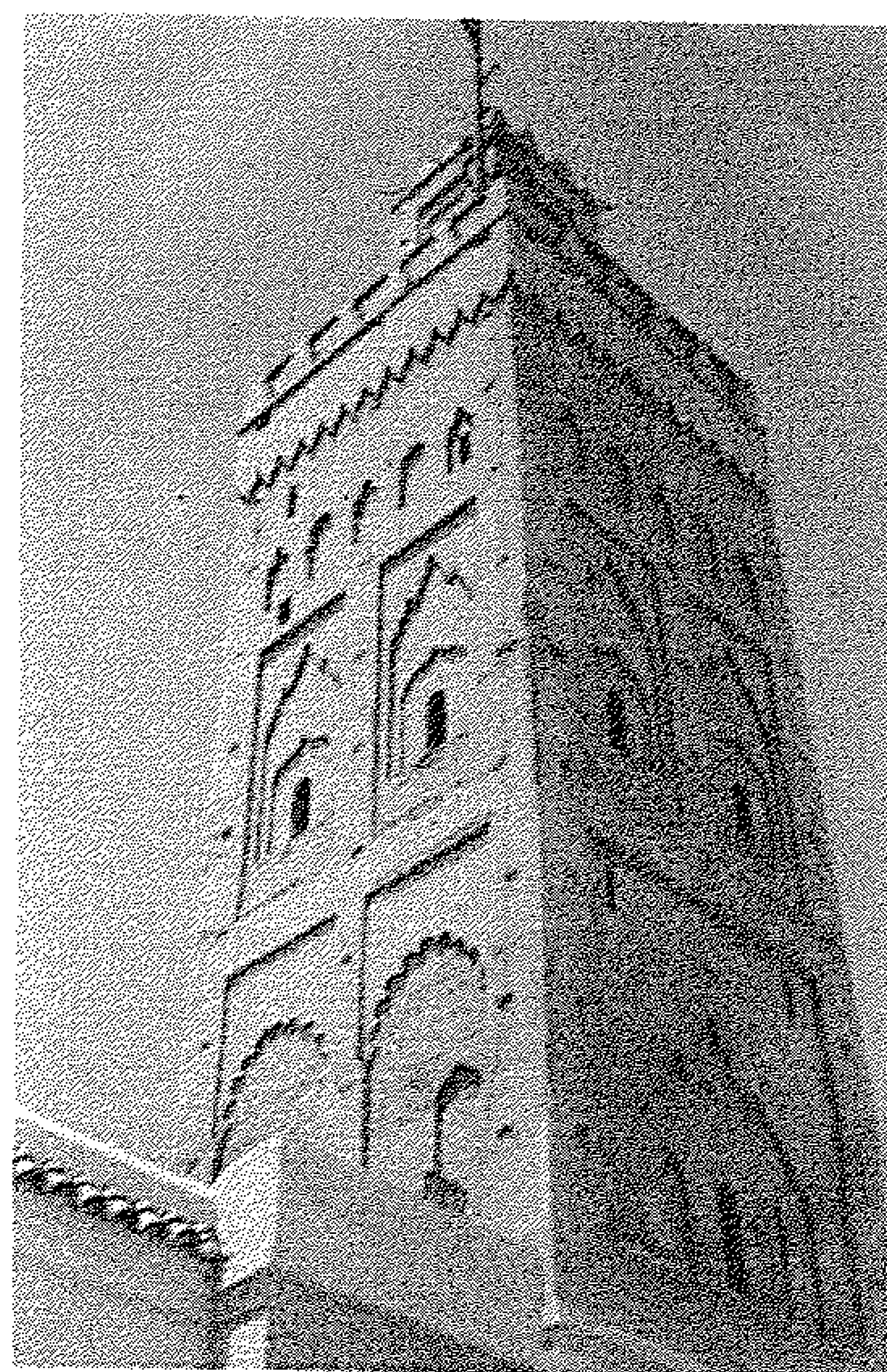
(لوحة ٥٨) : جامع أبي العباس السبتى بمراكش.
المنبر الخشبى المتحرك الذي يرجع إلى تاريخ
إنشاء الجامع. تصوير الباحث.



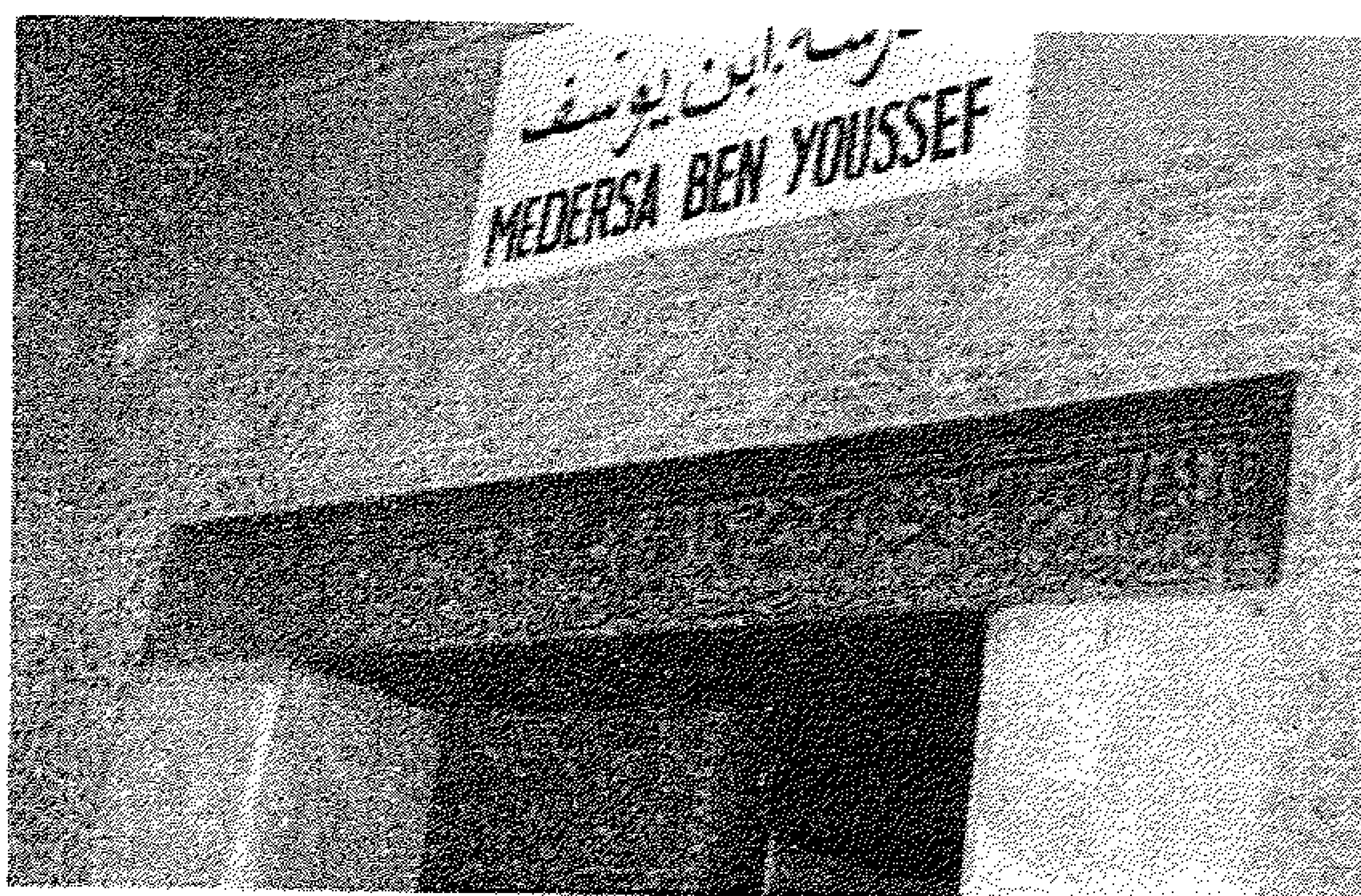
(لوحة ٥٩) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الرواق الشمالي للجامع.
تصوير الباحث.



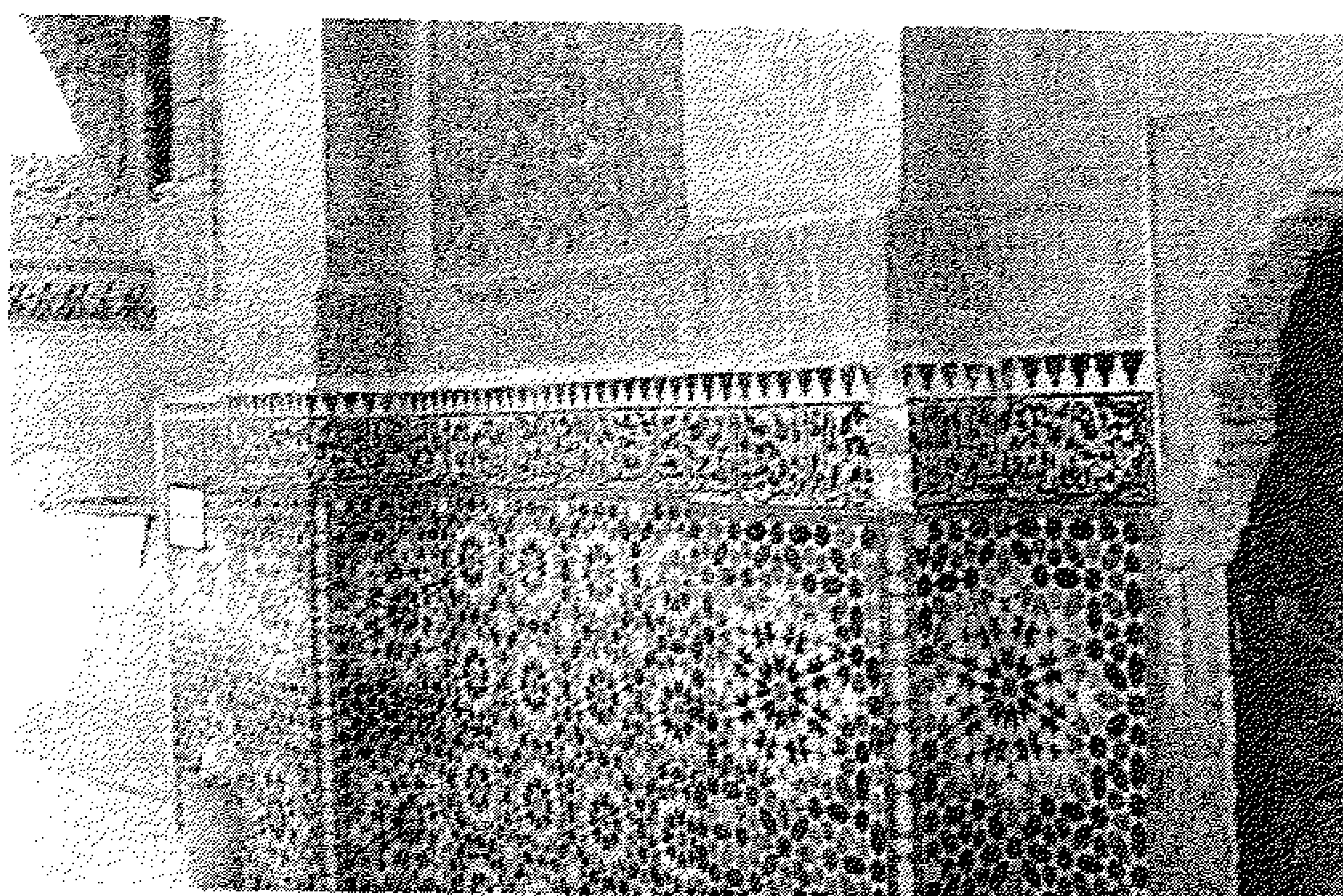
(لوحة ٦٠) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الواجهتان الغربية والشمالية لمندبة الجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٦١) : جامع أبي العباس السبتي بمراكش.
الواجهتان الشمالية والشرقية لمئذنة الجامع.
تصوير الباحث.



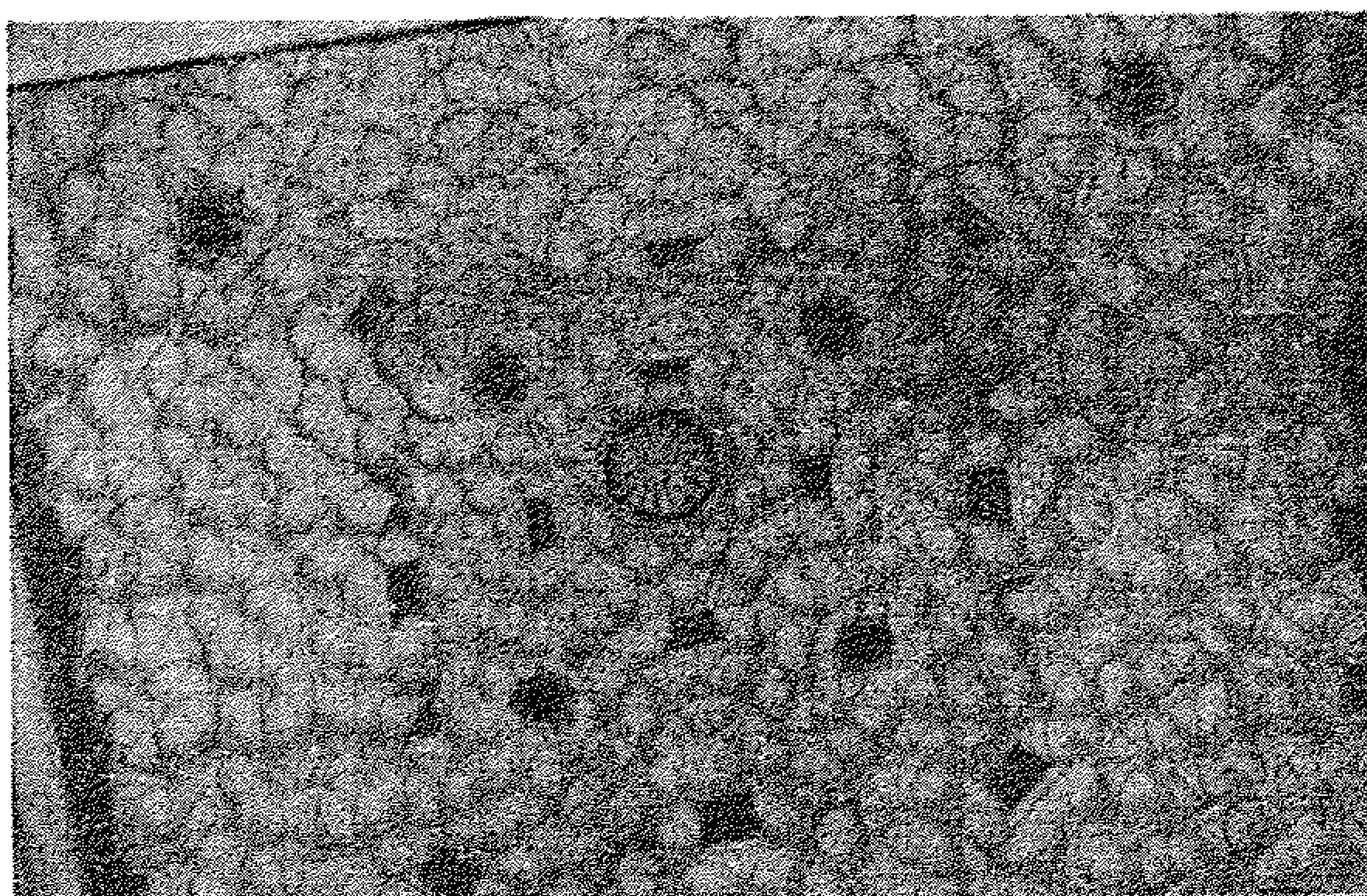
(لوحة ٦٢) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للكتابات المنفذة على العتب الخشبى
الذي يعلو فتحة المدخل الرئيسي. تصوير الباحث.



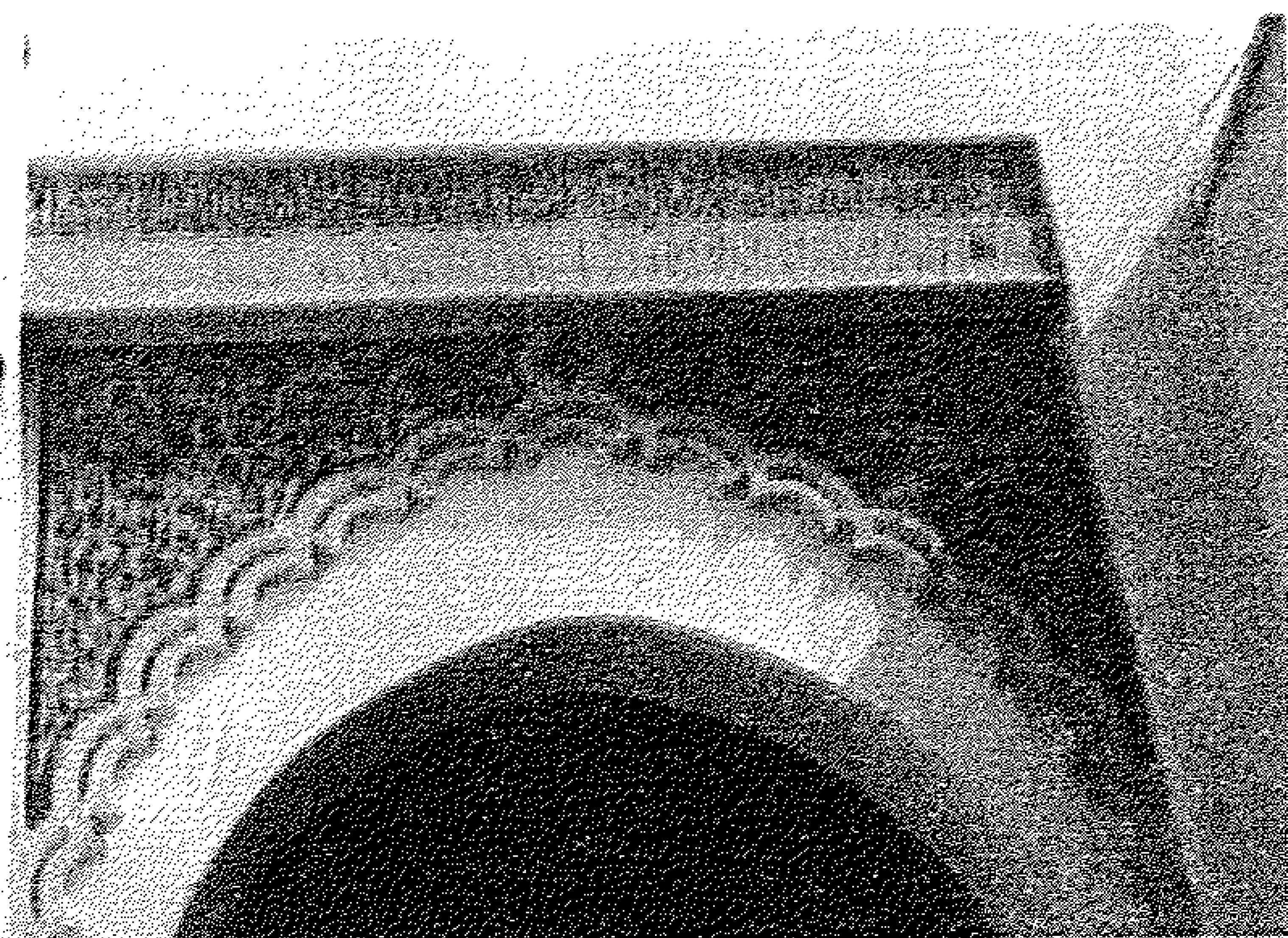
(لوحة ٦٣) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للكتابات المنفذة على الزليج
بالواجهة الشرقية لصحن المدرسة. تصوير الباحث.



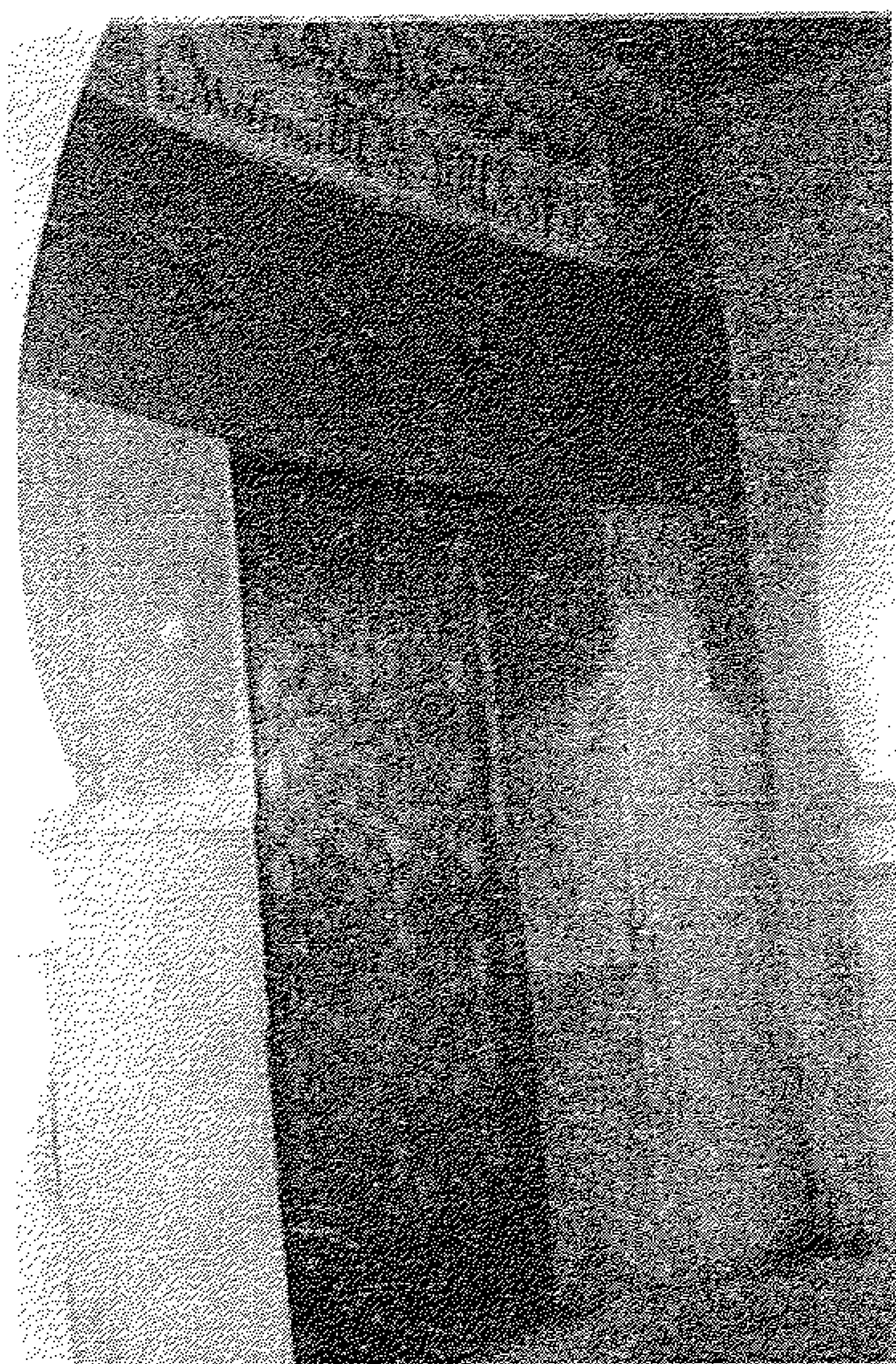
(لوحة ٦٤) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الأعمدة الرخامية التي تحمل عقود البائكة
التي توجد بداخل بيت الصلاة. تصوير الباحث.



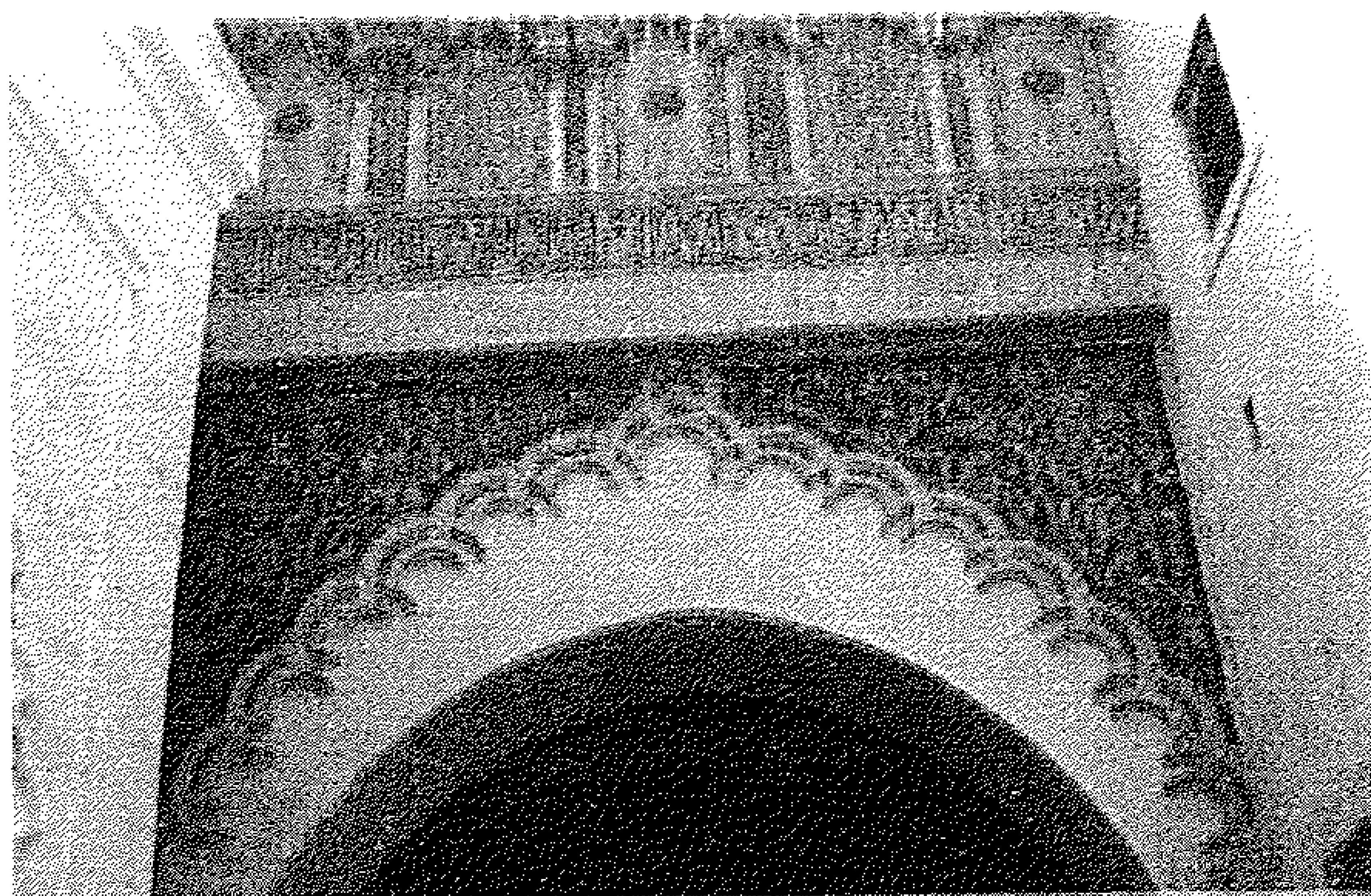
(لوحة ٦٥) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف باطن القبة
التي تتقدم المدخل الرئيسي للمدرسة.
تصوير الباحث.



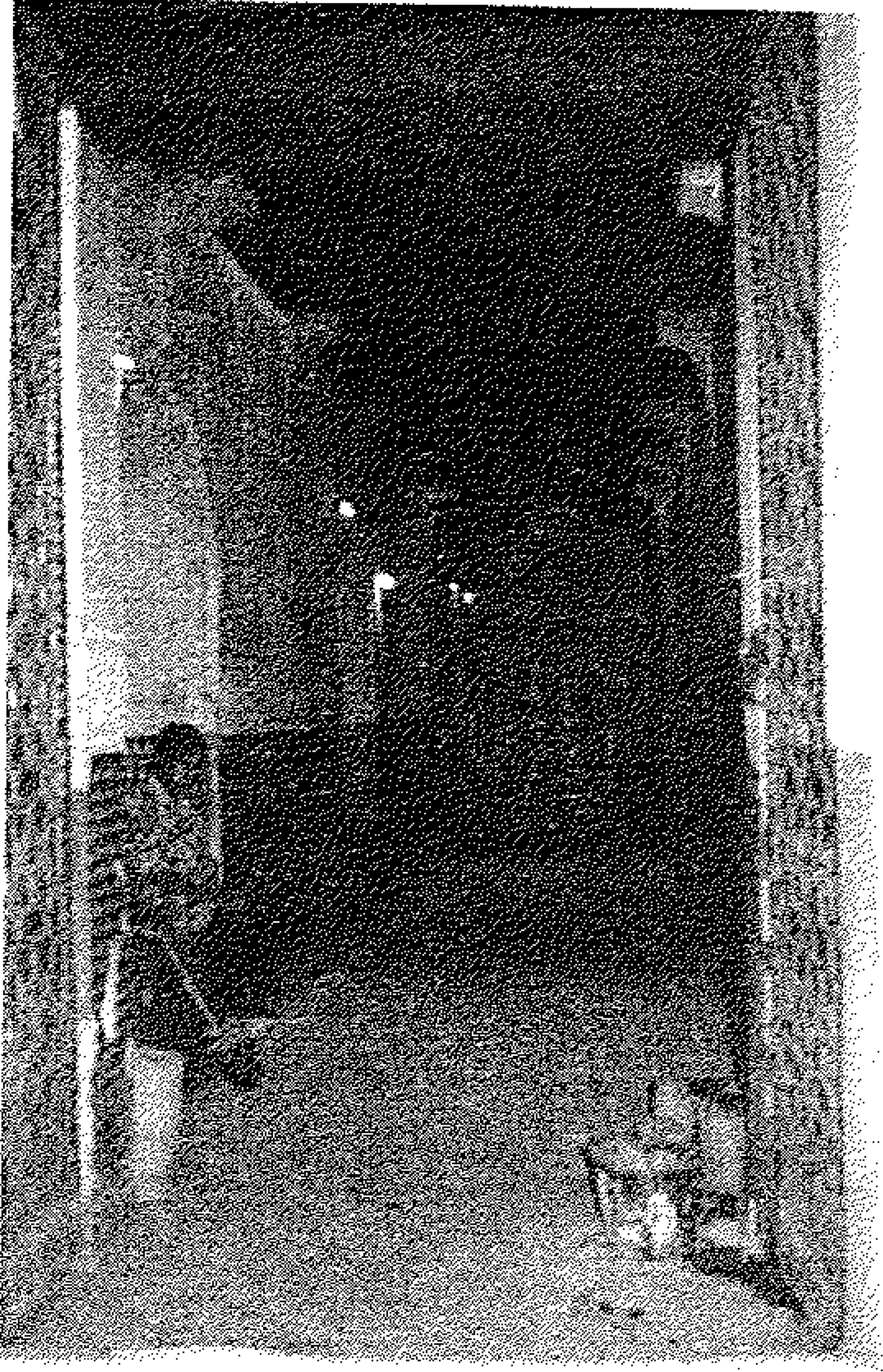
(لوحة ٦٦) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف عقد الساباط الذي يصل بين مدرسة
ابن يوسف وجامع ابن يوسف المقابل لها.
تصوير الباحث.



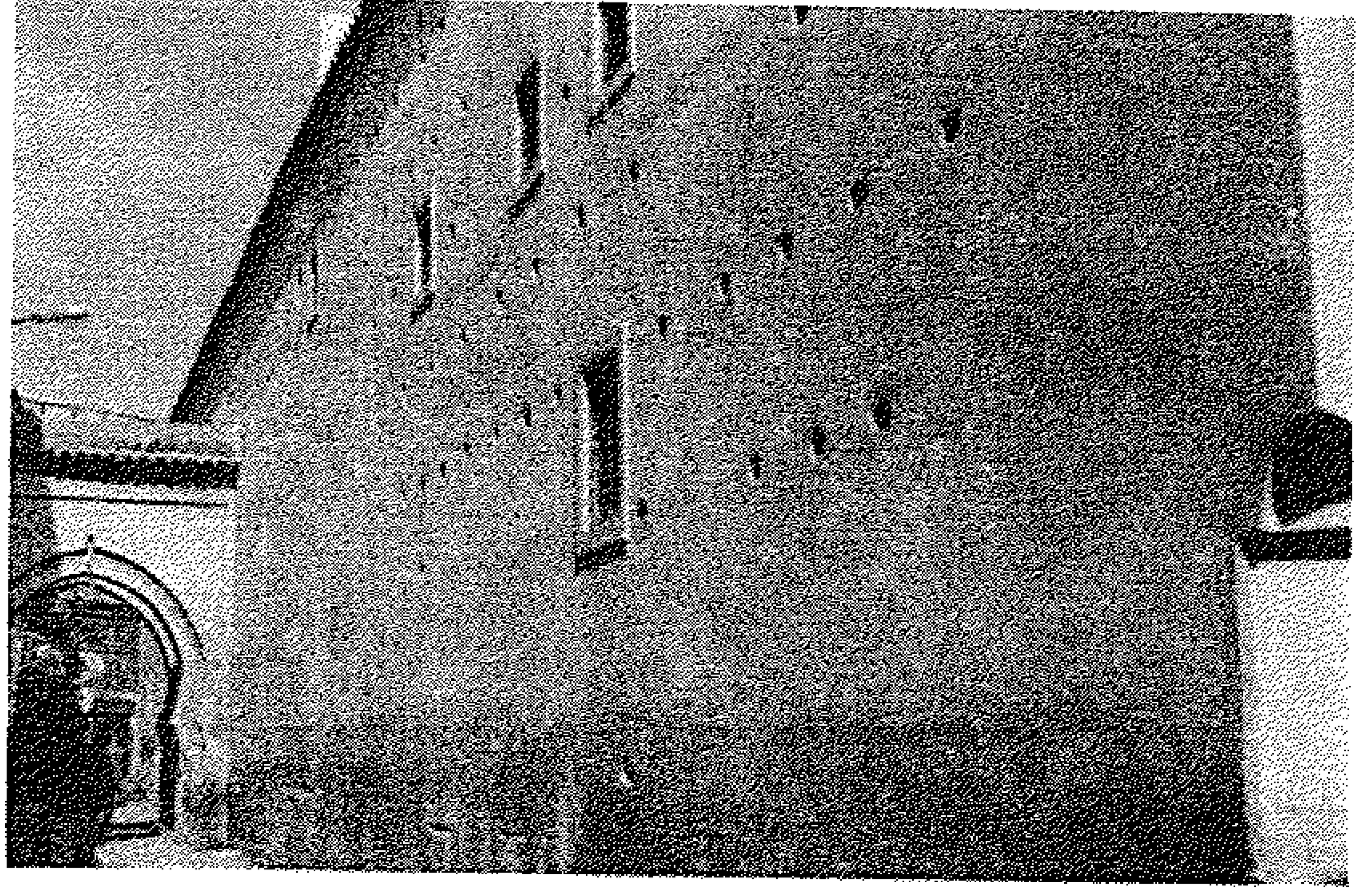
(لوحة ٦٨) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
المدخل الرئيسي للمدرسة.
تصوير الباحث.



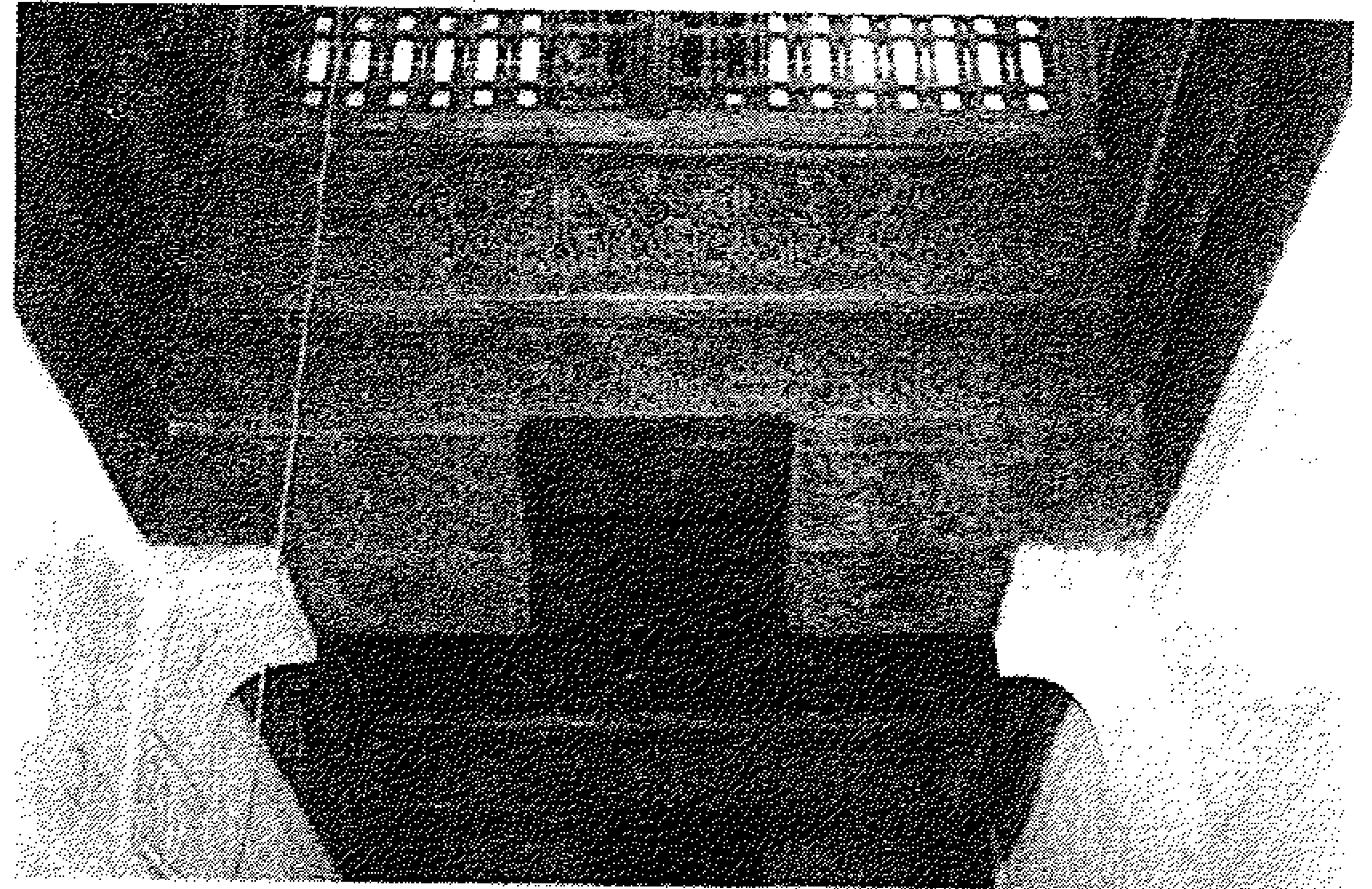
(لوحة ٦٧) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف عقد الساباط الذي يصل بين مدرسة
ابن يوسف وجامع ابن يوسف المقابل لها. تصوير الباحث.



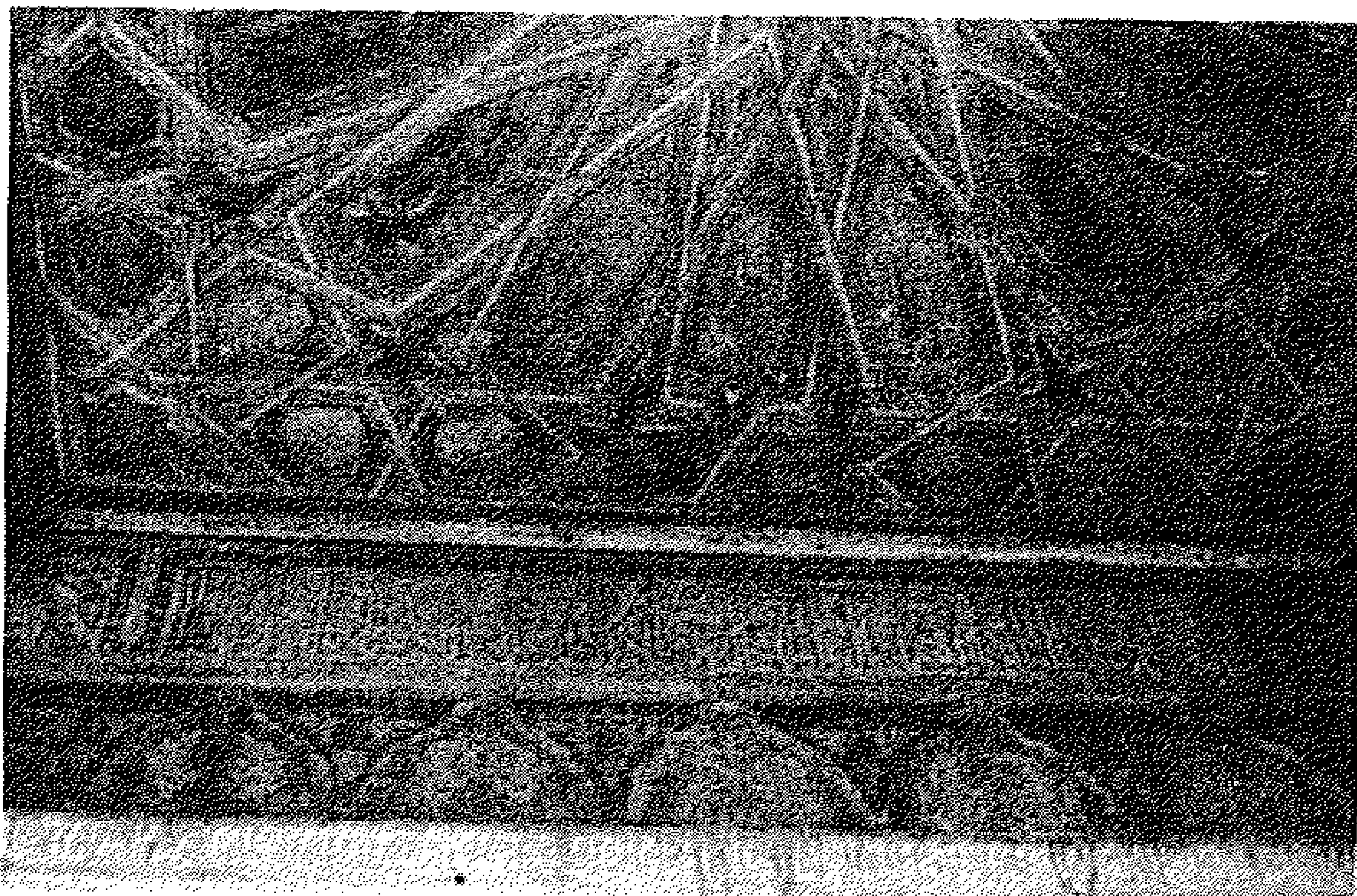
(لوحة ٧٠) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الدهليز الذي يلى المدخل الرئيسى للمدرسة.
تصوير الباحث.



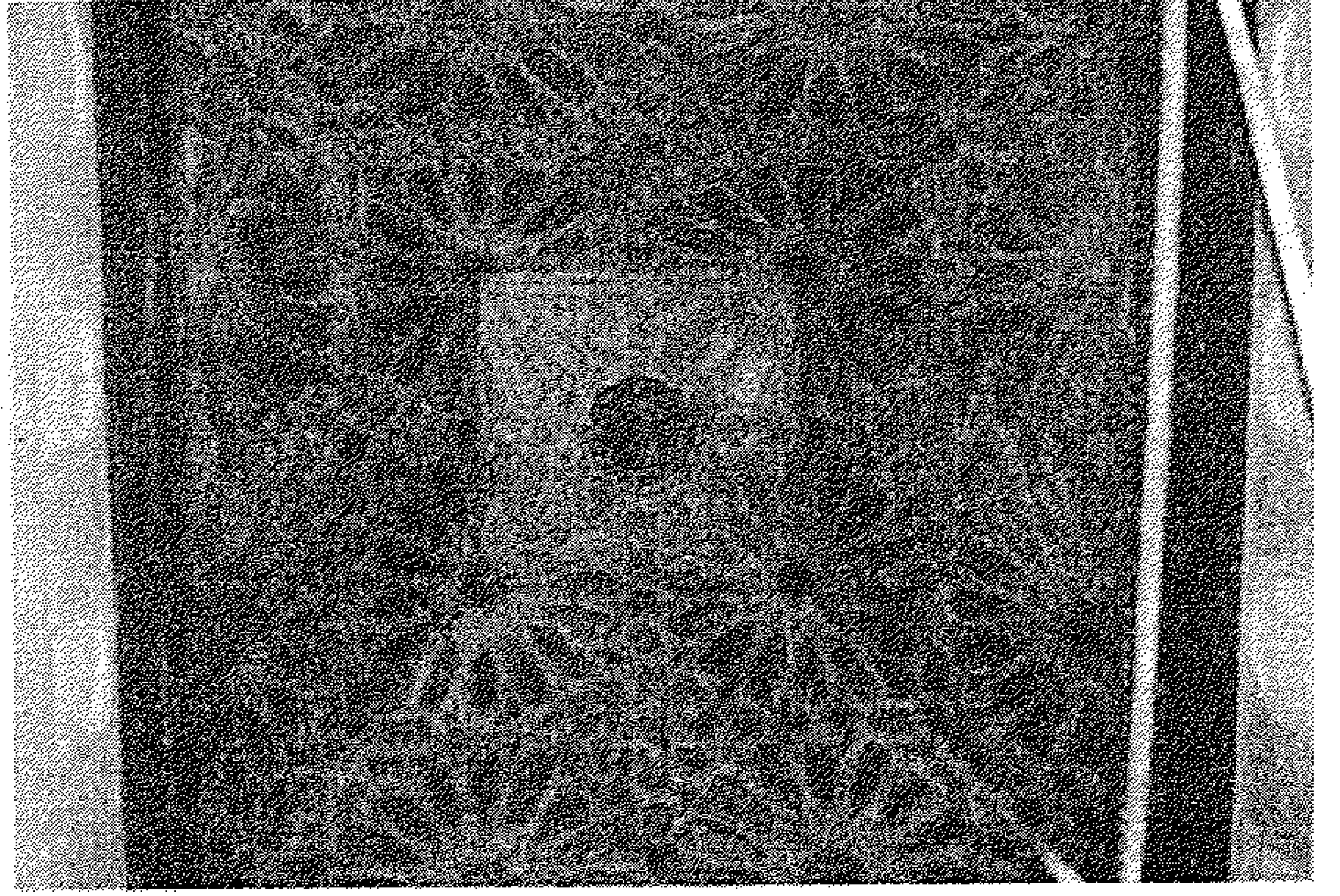
(لوحة ٦٩) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الواجهة الغربية للمدرسة.
تصوير الباحث.



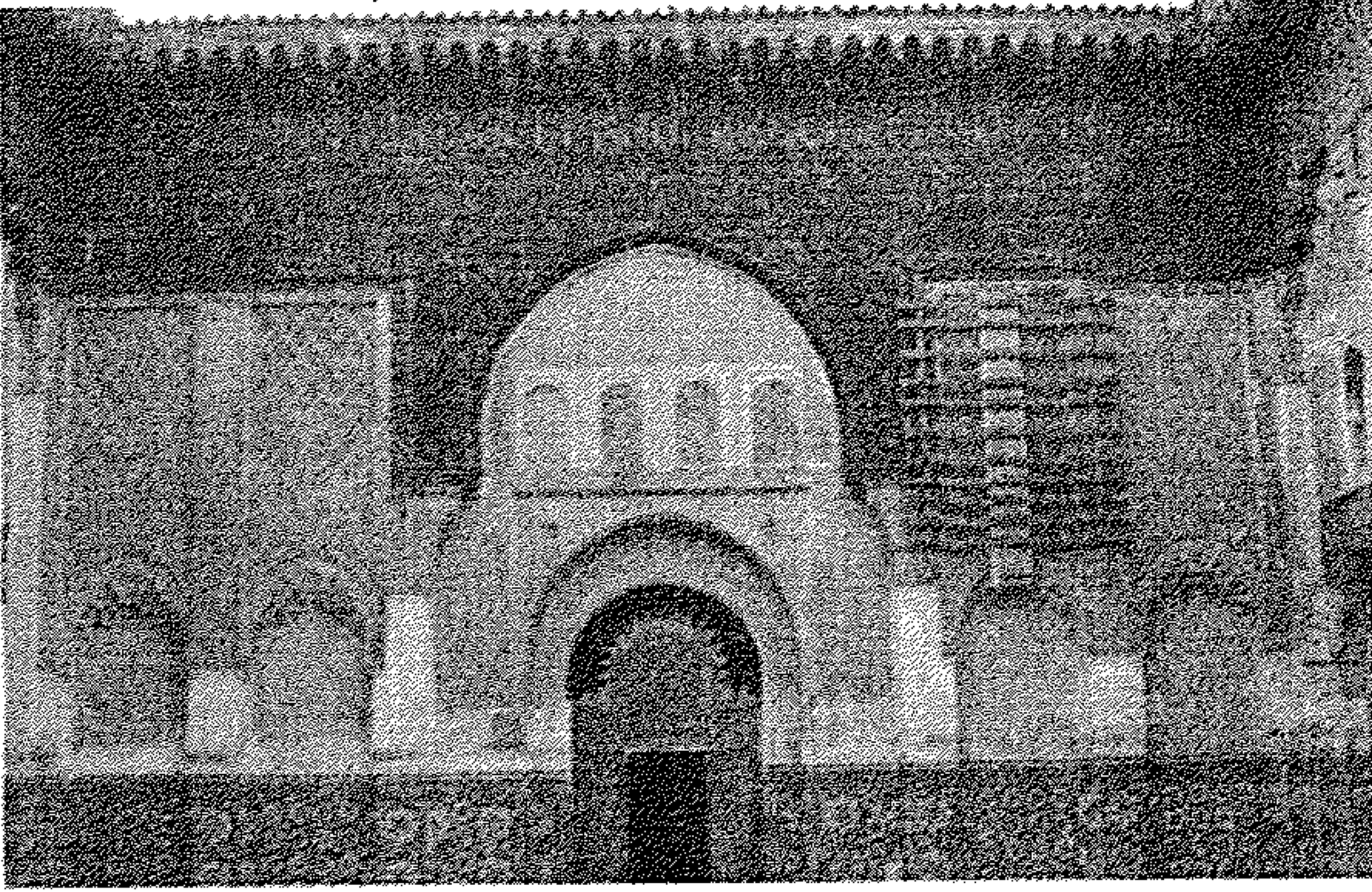
(لوحة ٧١) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف أحد العقود الخشبية
المطنفة التي بدهليز المدرسة.
تصوير الباحث.



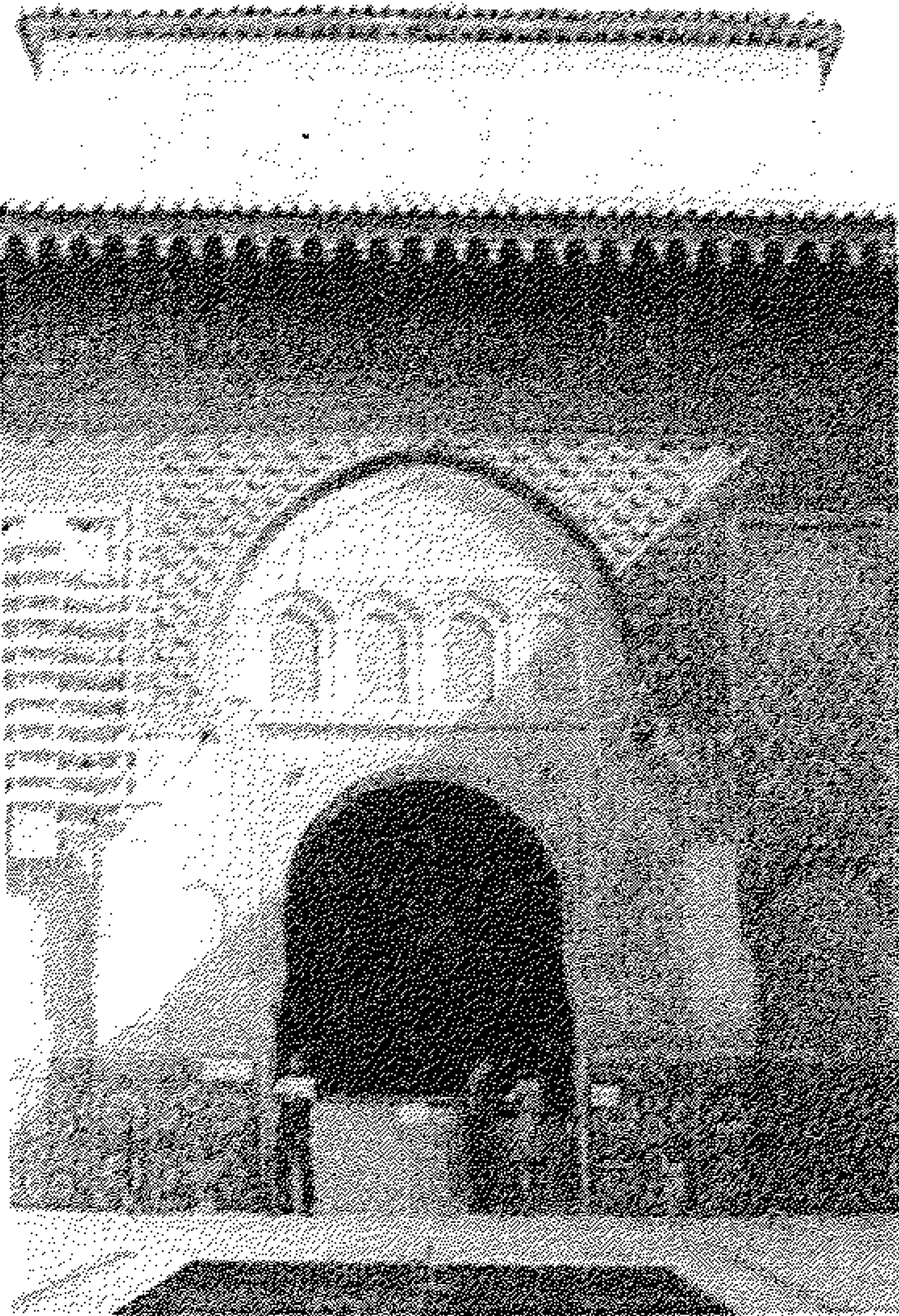
(لوحة ٧٢) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الذي يغطي دهليز
المدرسة. تصوير الباحث.



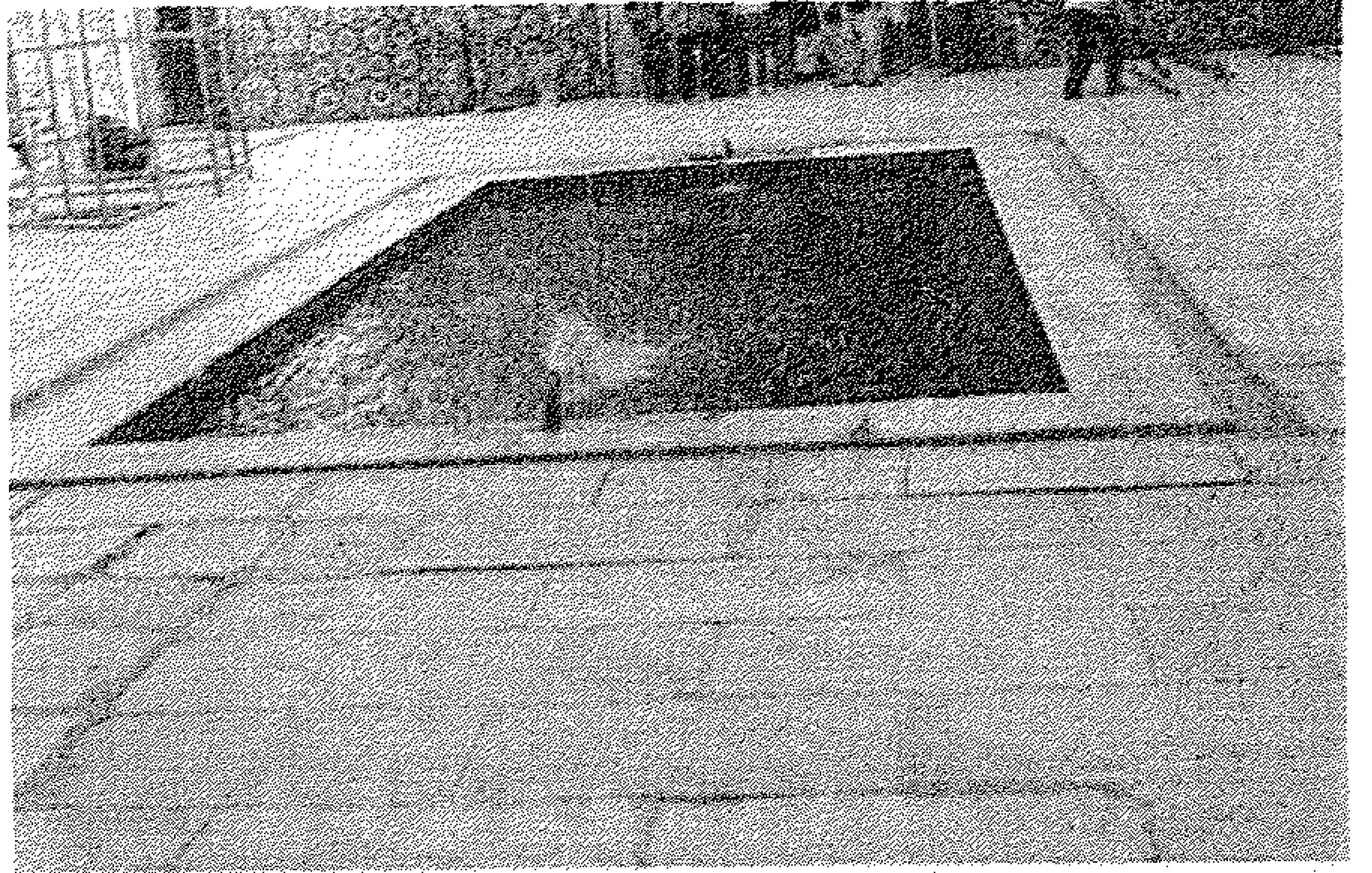
(لوحة ٧٣) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الذي يغطي المساحة المربعة التي تلي دهليز المدرسة. تصوير الباحث.



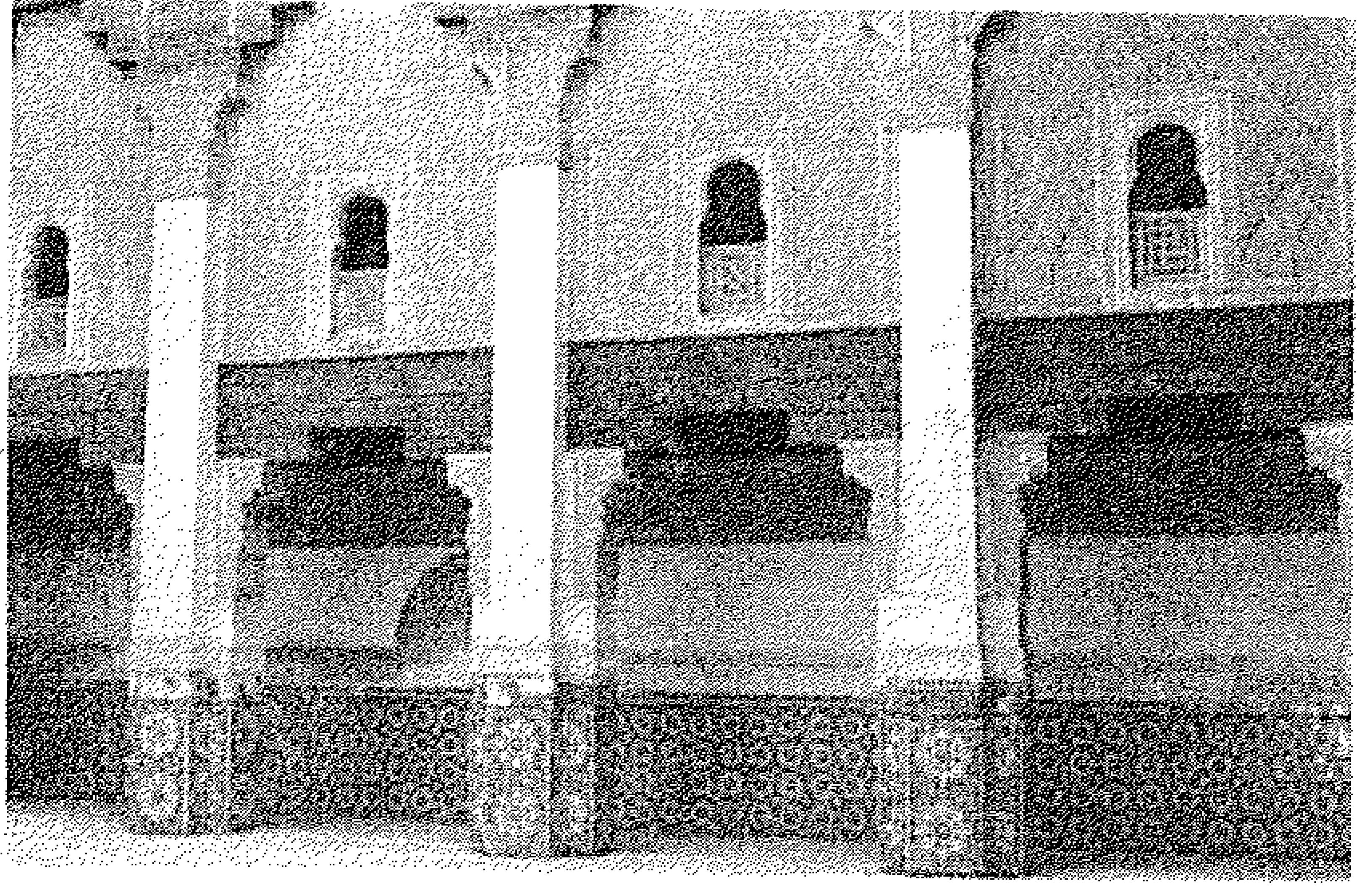
(لوحة ٧٤) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الواجهة الغربية لصحن المدرسة. تصوير الباحث.



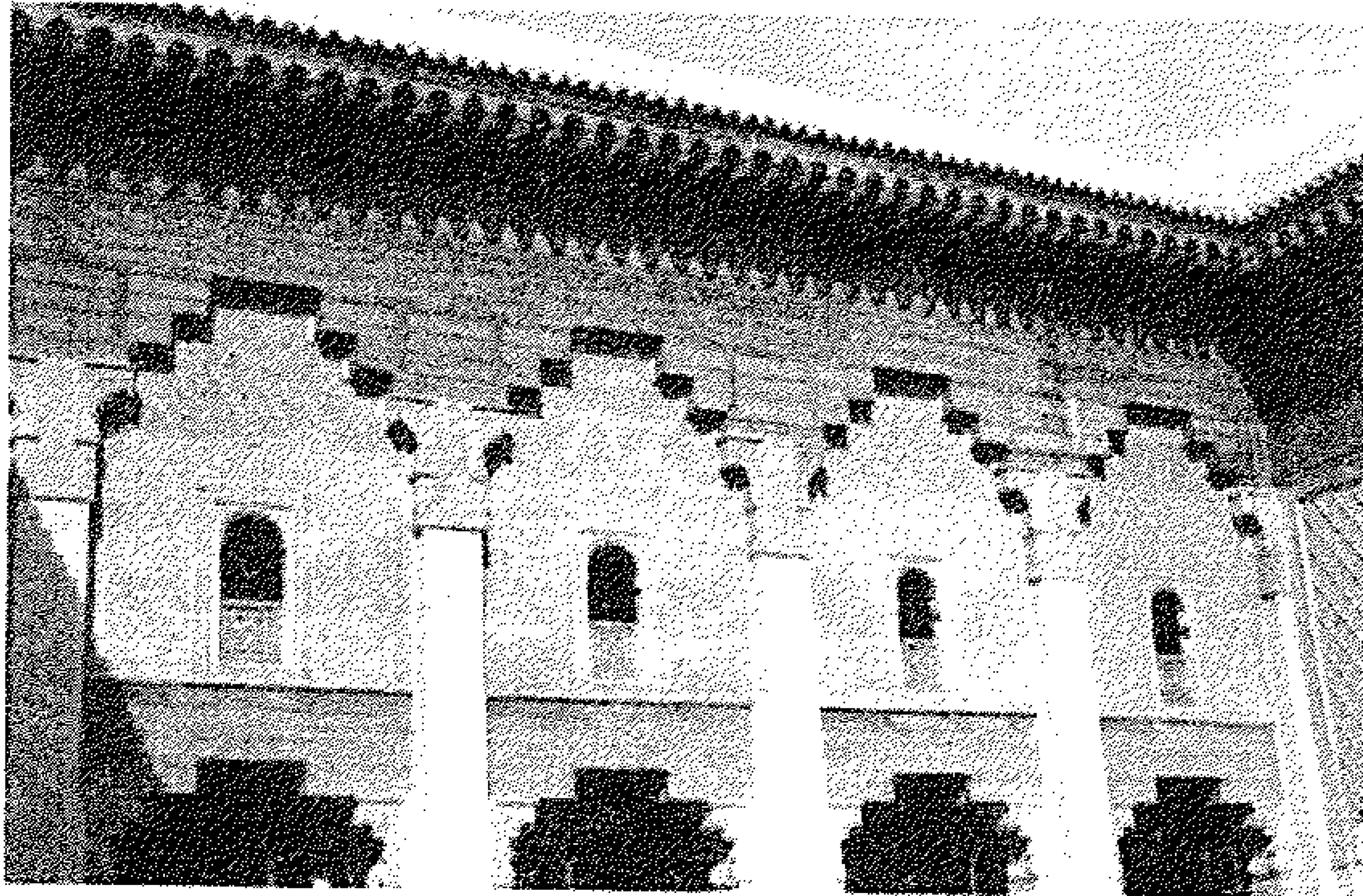
(لوحة ٧٦) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
المدخل المؤدي إلى بيت الصلاة، وهو يتوسط الواجهة الشرقية. تصوير الباحث.



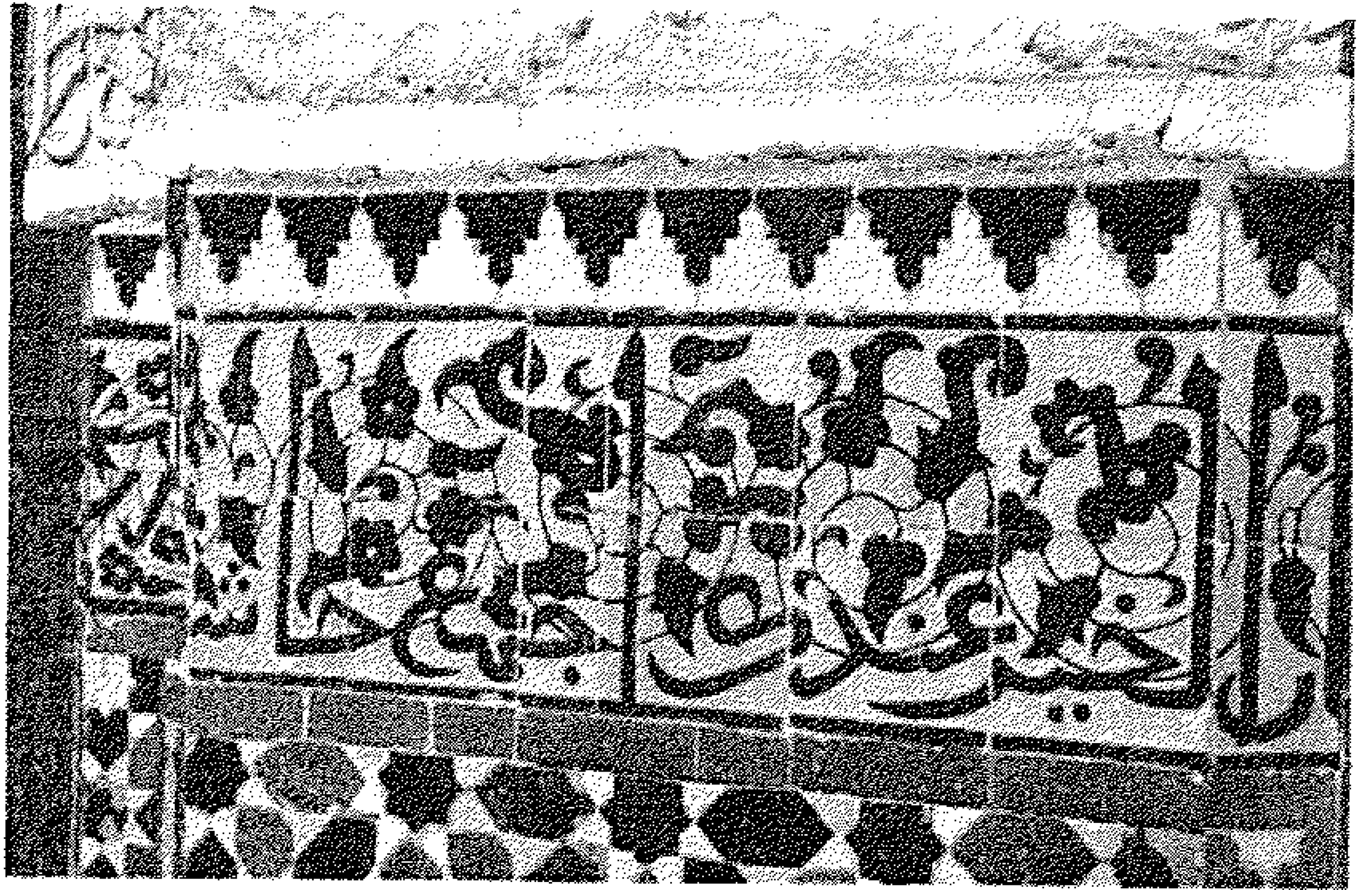
(لوحة ٧٥) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
صحن المدرسة والحوض المستطيل الذي يتوسط.
تصوير الباحث.



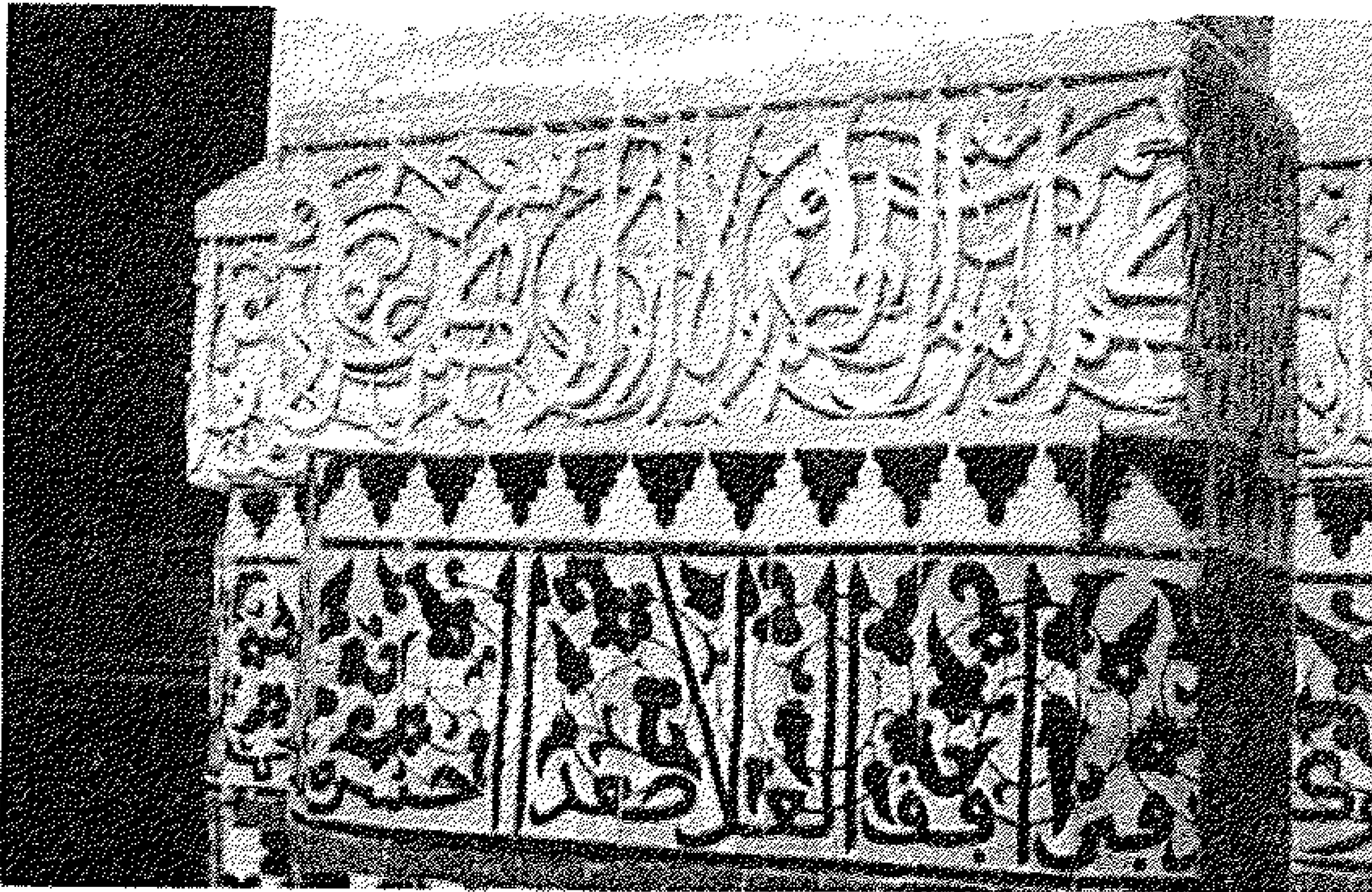
(لوحة ٧٧) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الجزء العلوي للواجهة الشمالية للصحن، ويظهر فيها نوافذ مساكن الطلاب بالطابق الأول للمدرسة.
تصوير الباحث.



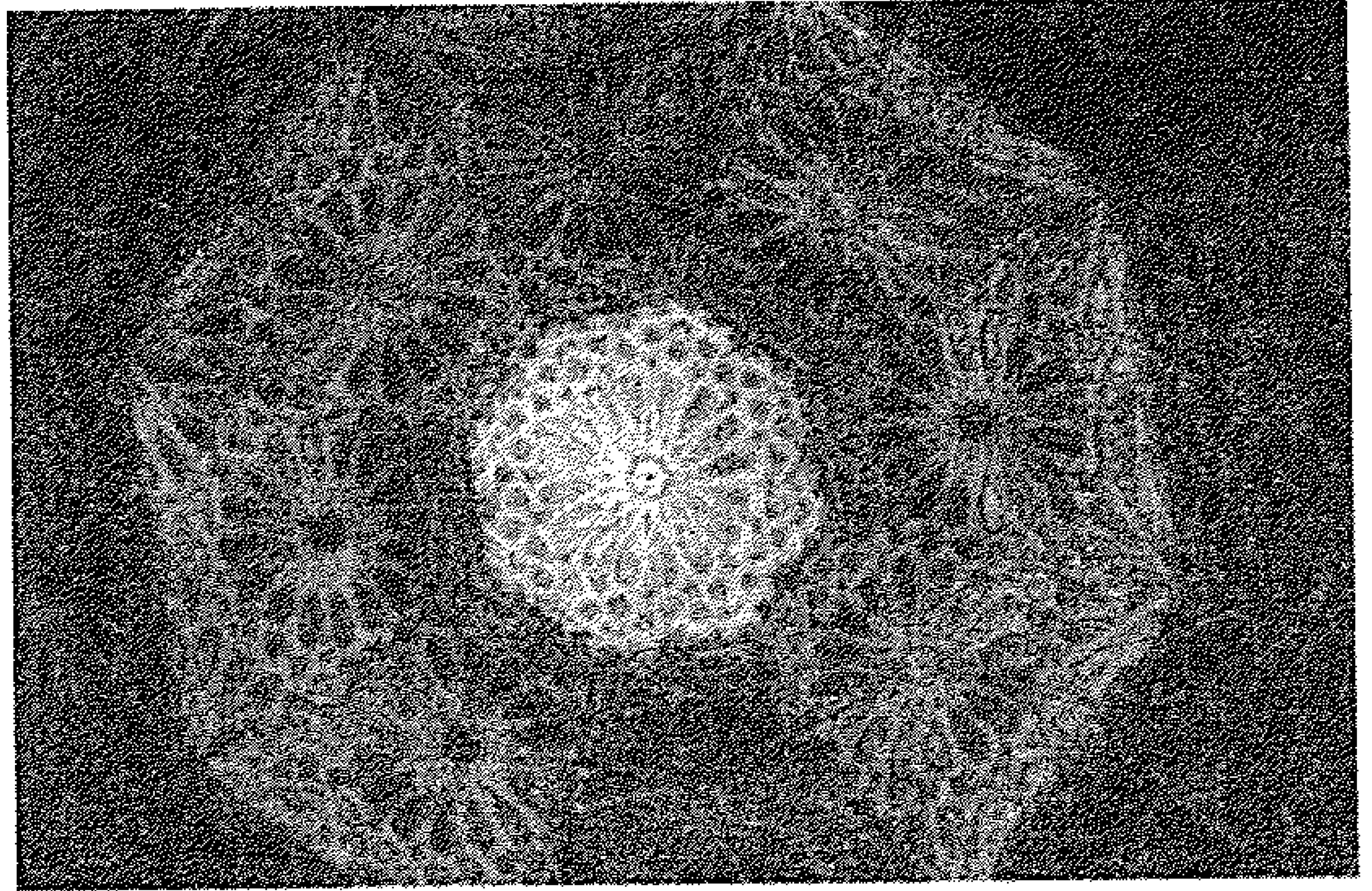
(لوحة ٧٨) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الجزء العلوي للواجهة الشمالية للصحن، ويظهر فيها نوافذ مساكن الطلاب بالطابق الأول للمدرسة.
تصوير الباحث.



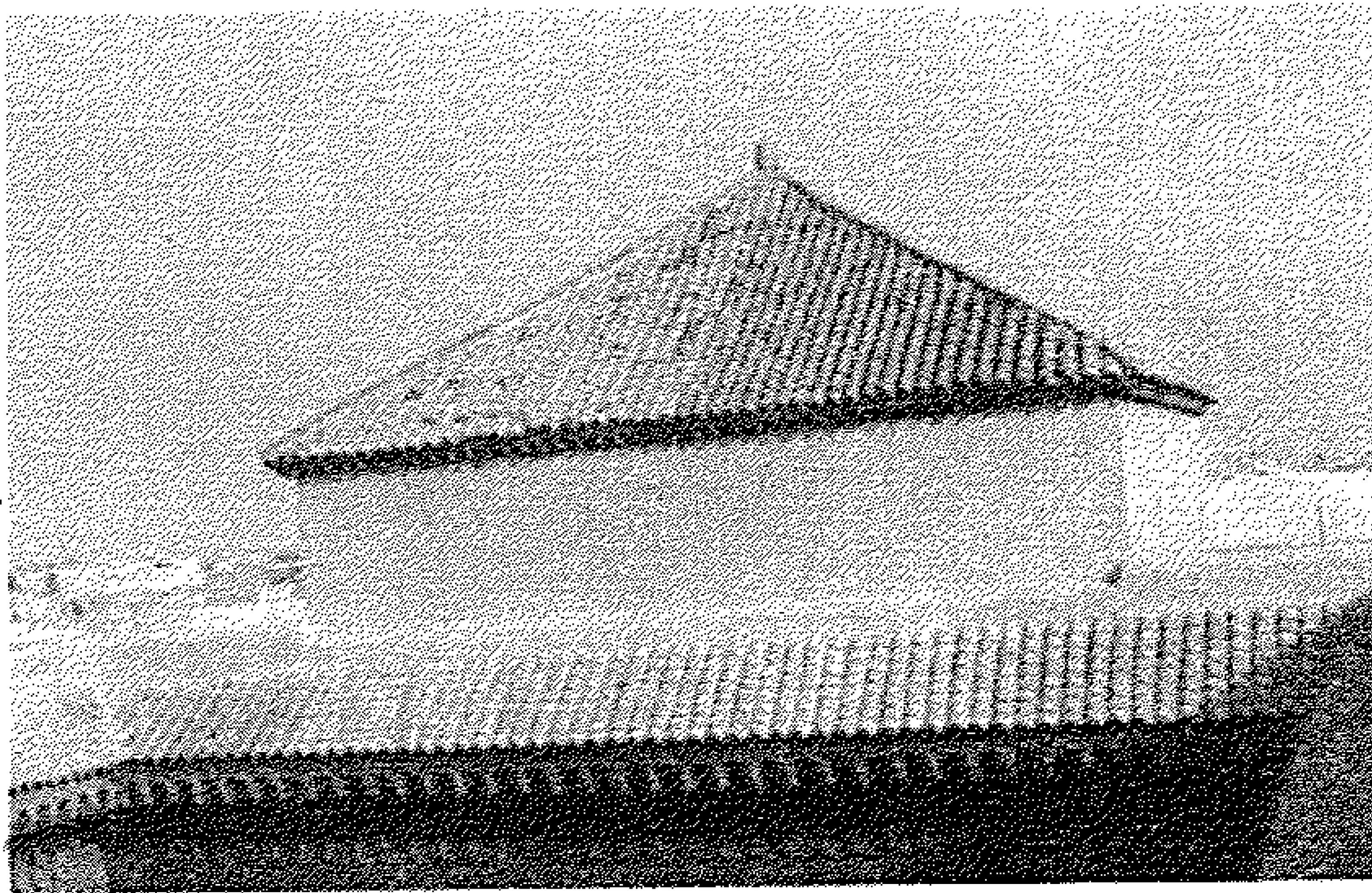
(لوحة ٧٩) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للزخارف المنفذة على الزليج بدعامات الواجهة الشمالية للصحن.
تصوير الباحث.



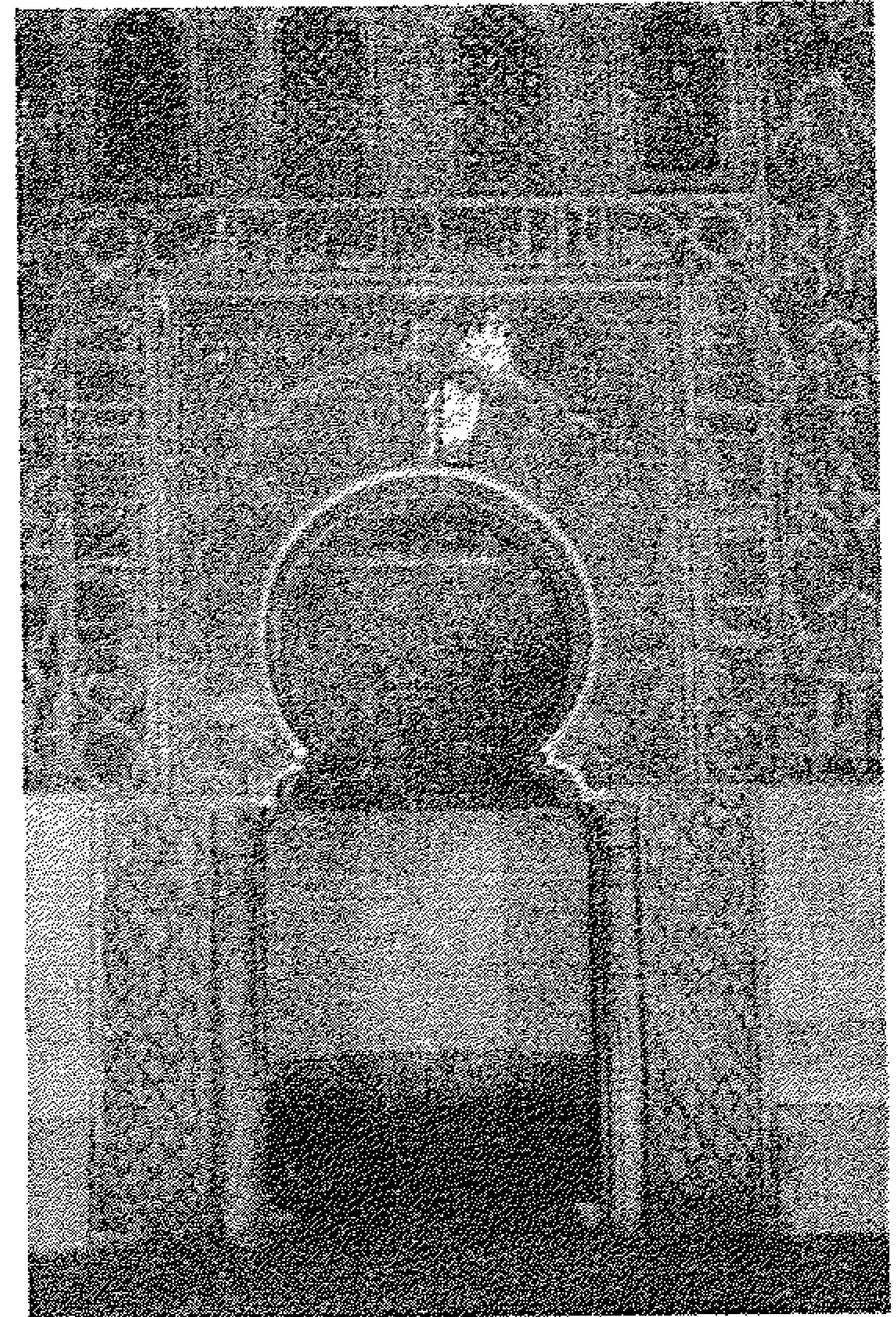
(لوحة ٨٠) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للزخارف المنفذة على الزليج والجص بدعامات الواجهة الشمالية للصحن.
تصوير الباحث.



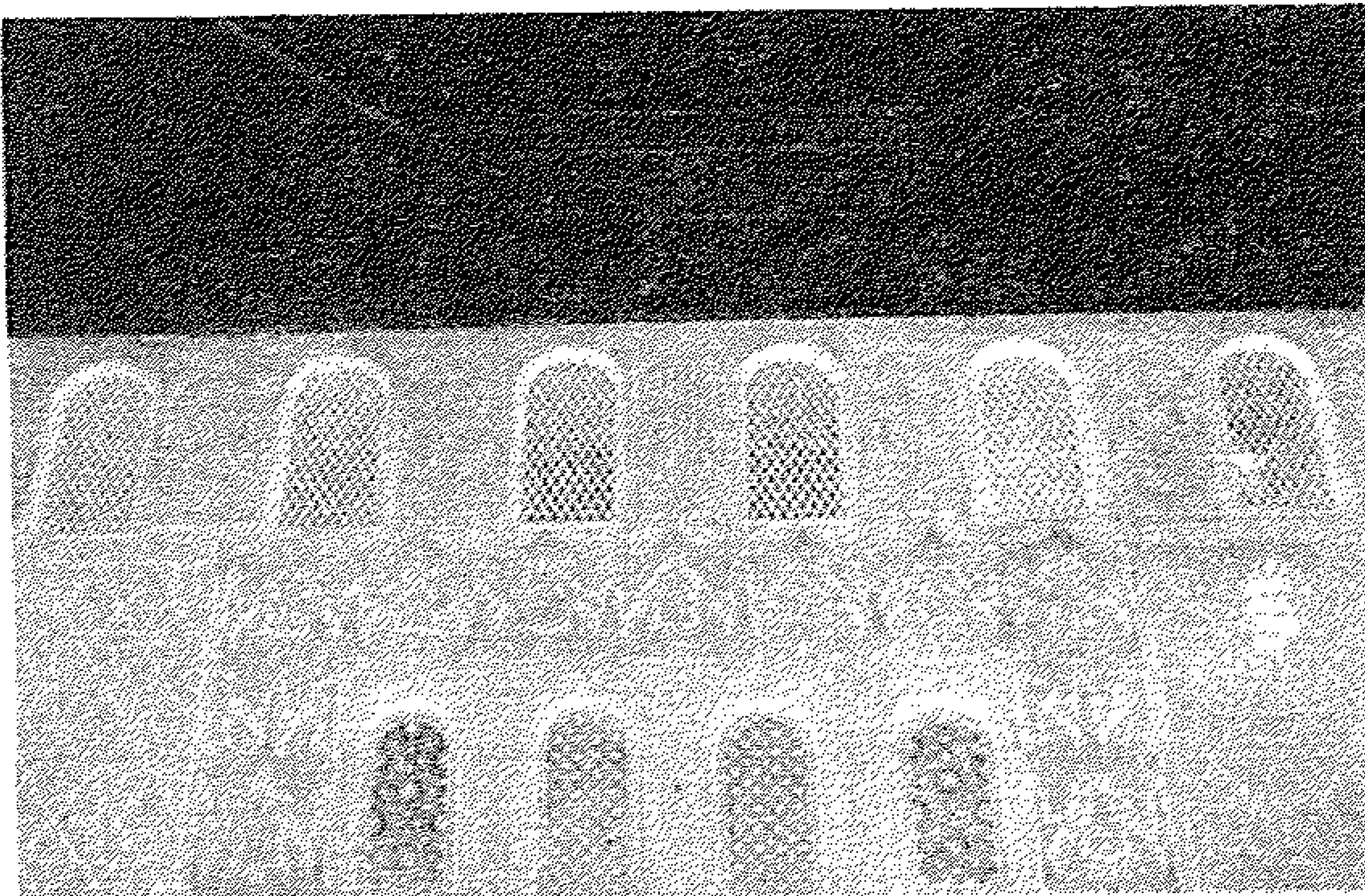
(لوحة ٨١) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف القبة الخشبية التي تغطي القسم الأوسط لبيت الصلاة.
تصوير الباحث.



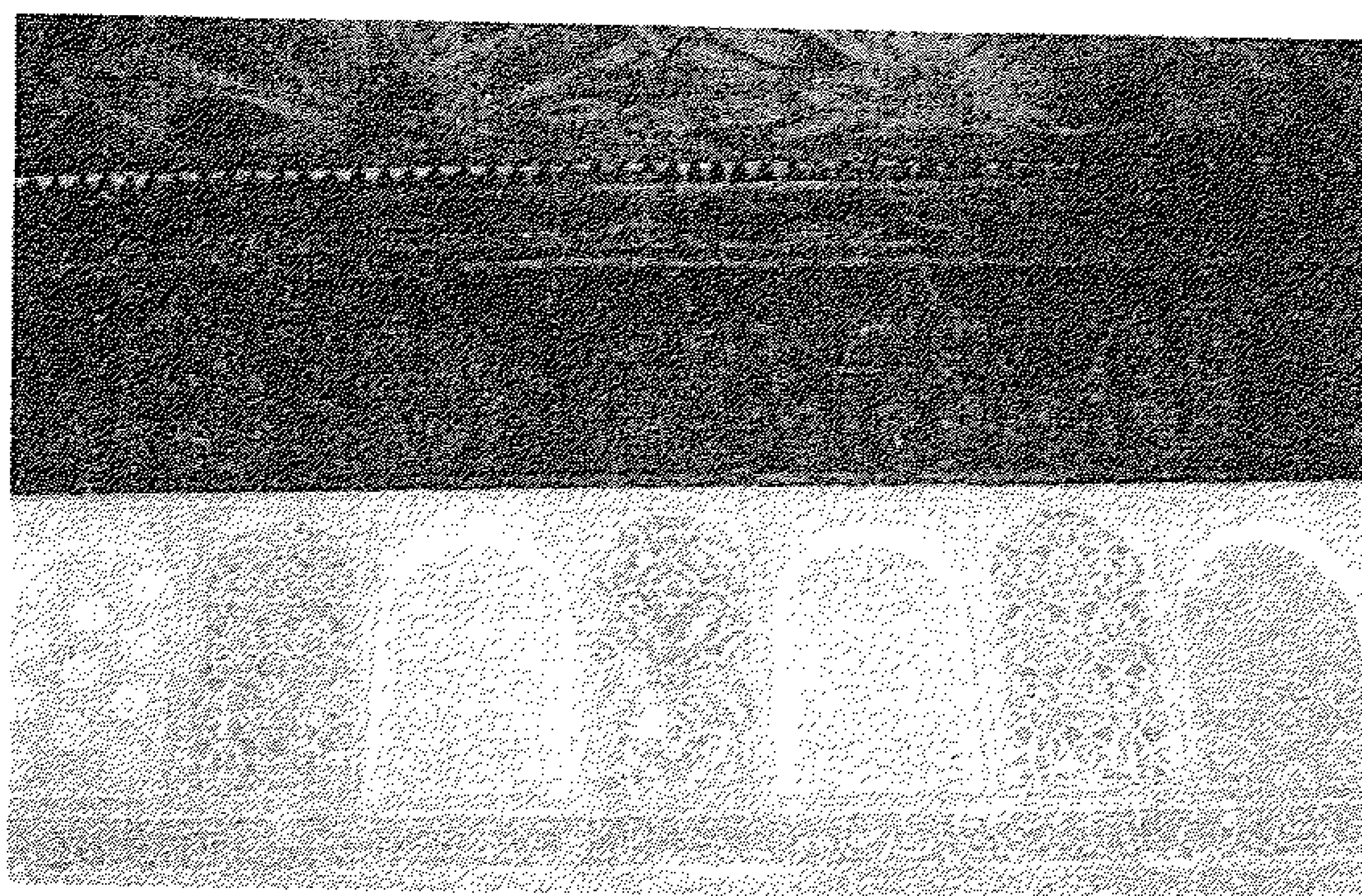
(لوحة ٨٢) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل لزخارف القبة الخشبية التى تغطى القيم الأوسط لبيت الصلاة.
تصوير الباحث.



(لوحة ٨٣) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
حنية المحراب التي تتوسط الجدار الشرقي لبيت الصلاة.
تصوير الباحث.



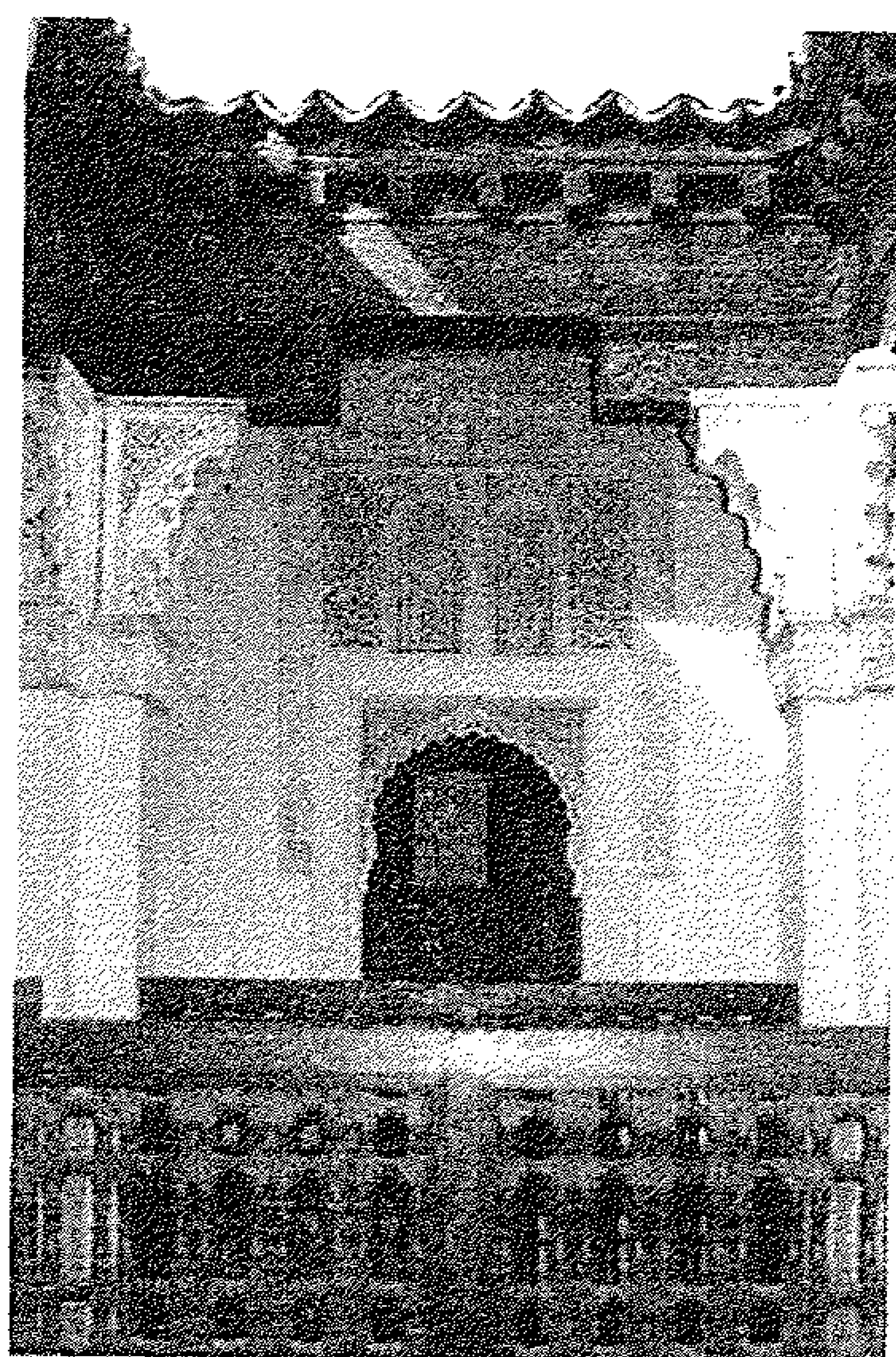
(لوحة ٨٤) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للزخارف المنفذة على الجص أعلى حنية المحراب.
تصوير الباحث.



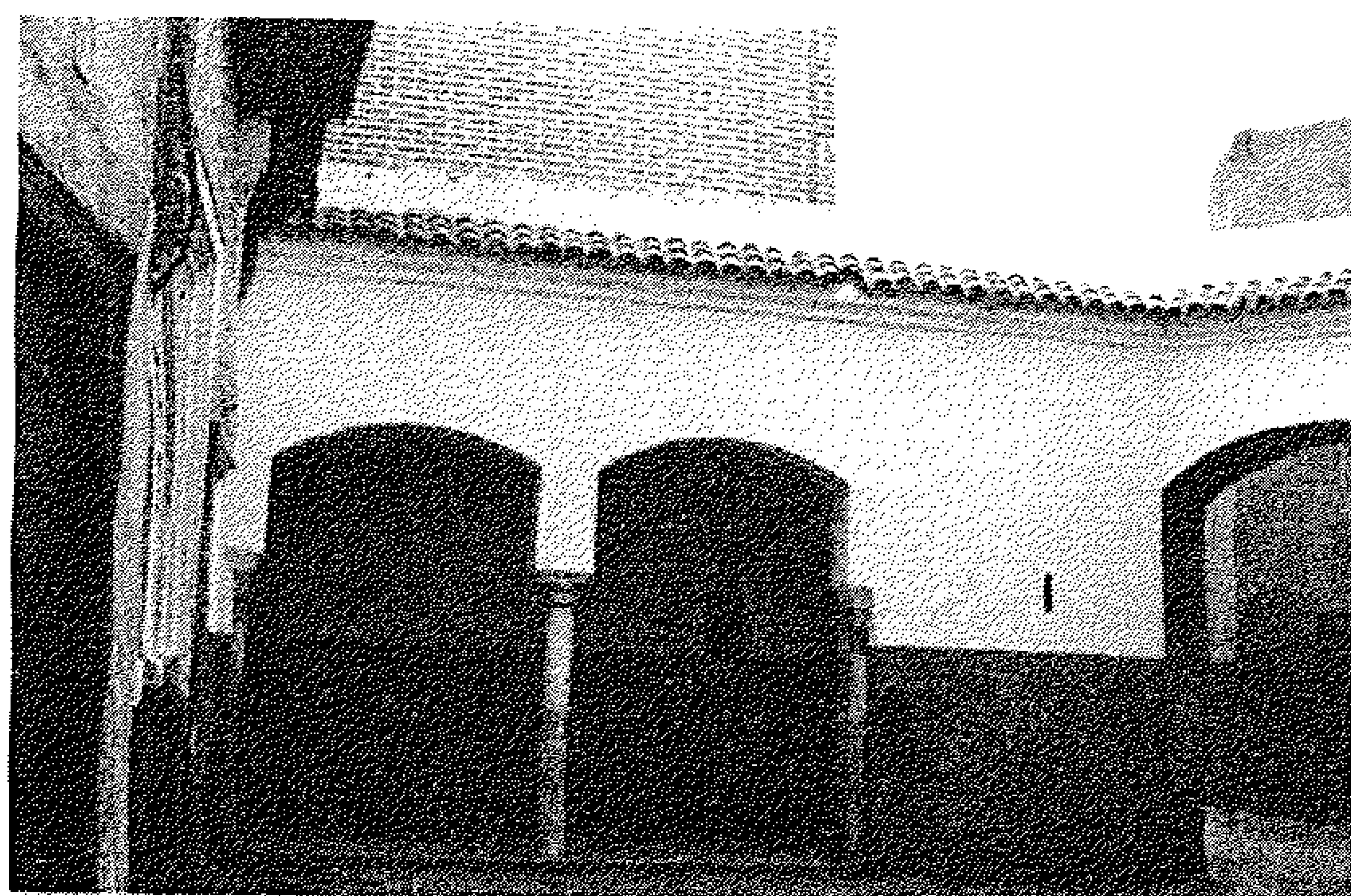
(لوحة ٨٥) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
تفصيل للزخارف المنفذة على الجص بالجزء العلوي للجدارين الشمالي والجنوبي لبيت الصلاة، ويظهر فيها السقف الخشبي الذي يغطي القسمين الجانبيين لبيت الصلاة. تصوير الباحث.



(لوحة ٨٦) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
الممر أو الرواق الذي يفصل بين غرف الطلاب بالطابق الأول للمدرسة. تصوير الباحث.



(لوحة ٨٧) : مدرسة ابن يوسف بمراكش.
إحدى غرف الطلاب بالطابق الأول، ويظهر فيها الممر أو الرواق الذي تطل عليه غرف الطلاب. تصوير الباحث.



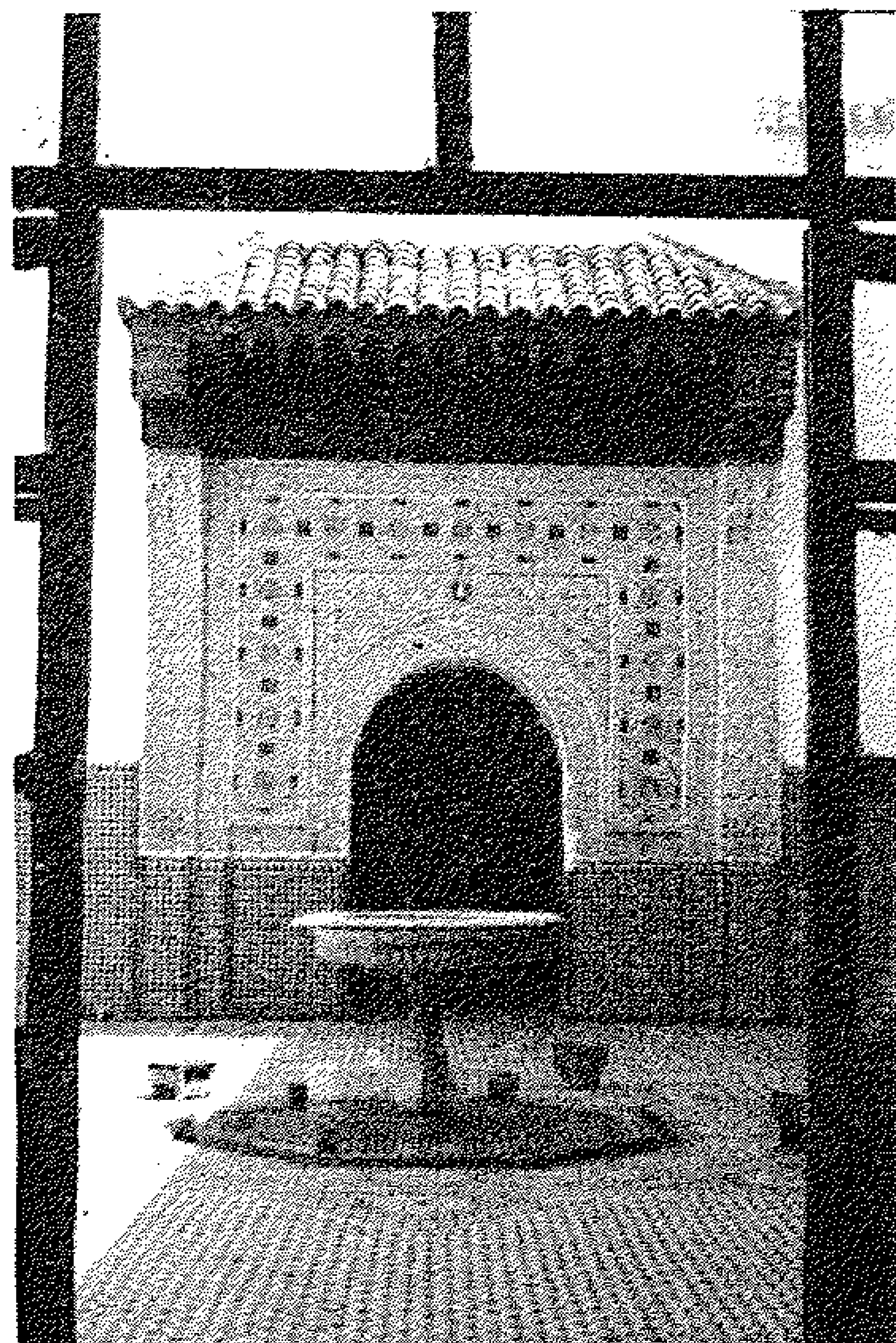
(لوحة ٨٨) : الزاوية الجزولية بمراكش.
البائكة التي تفضي إلى المساحة المستطيلة التى تتقدم المدخل الرئيسي للزاوية. تصوير الباحث.



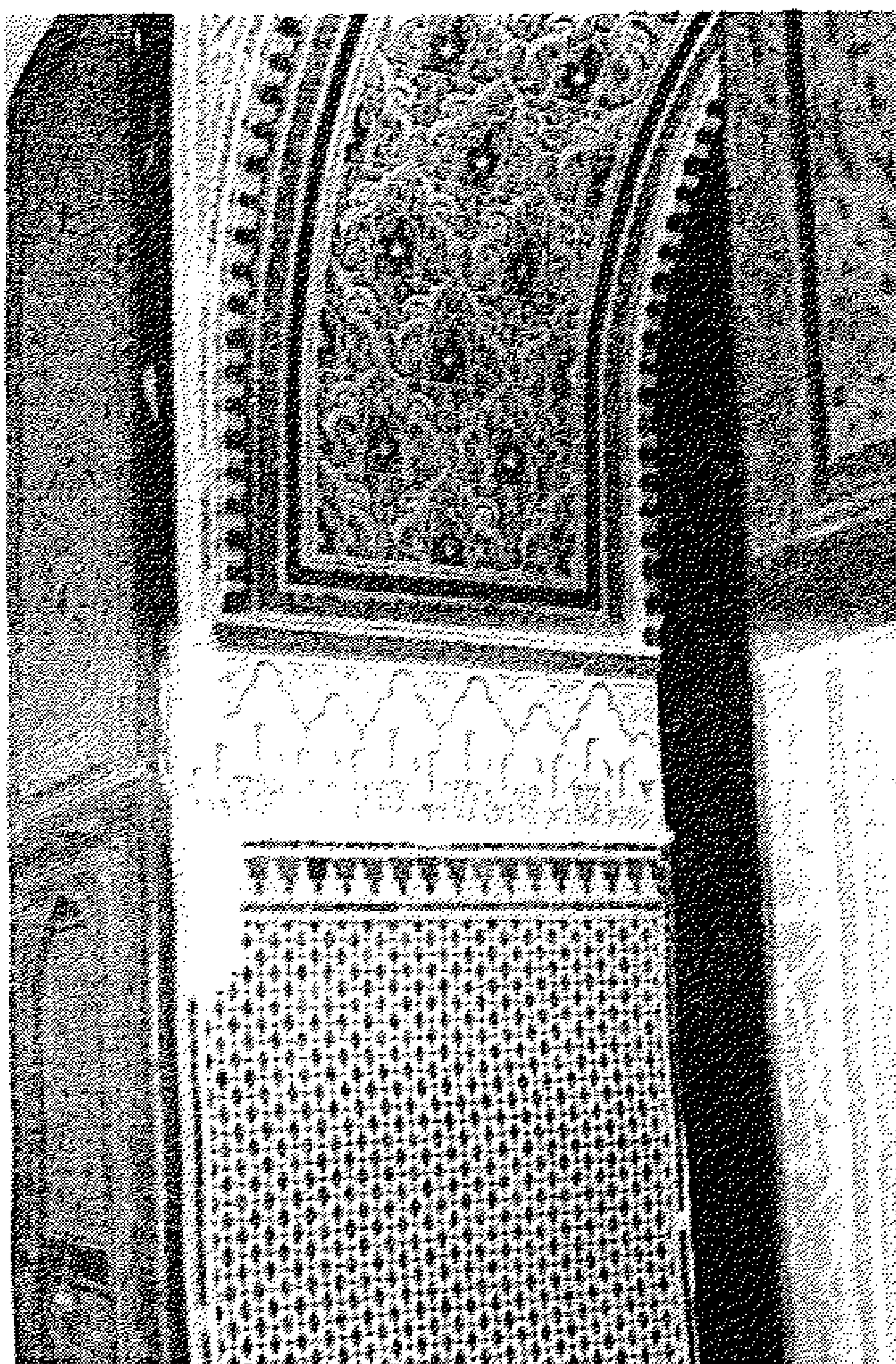
(لوحة ٨٩) : الزاوية الجزولية بمراكش.
القطاع الغربي للواجهة الشمالية للزاوية، ويظهر فيها واجهة السقاية والمدخل الثاني للزاوية. تصوير الباحث.



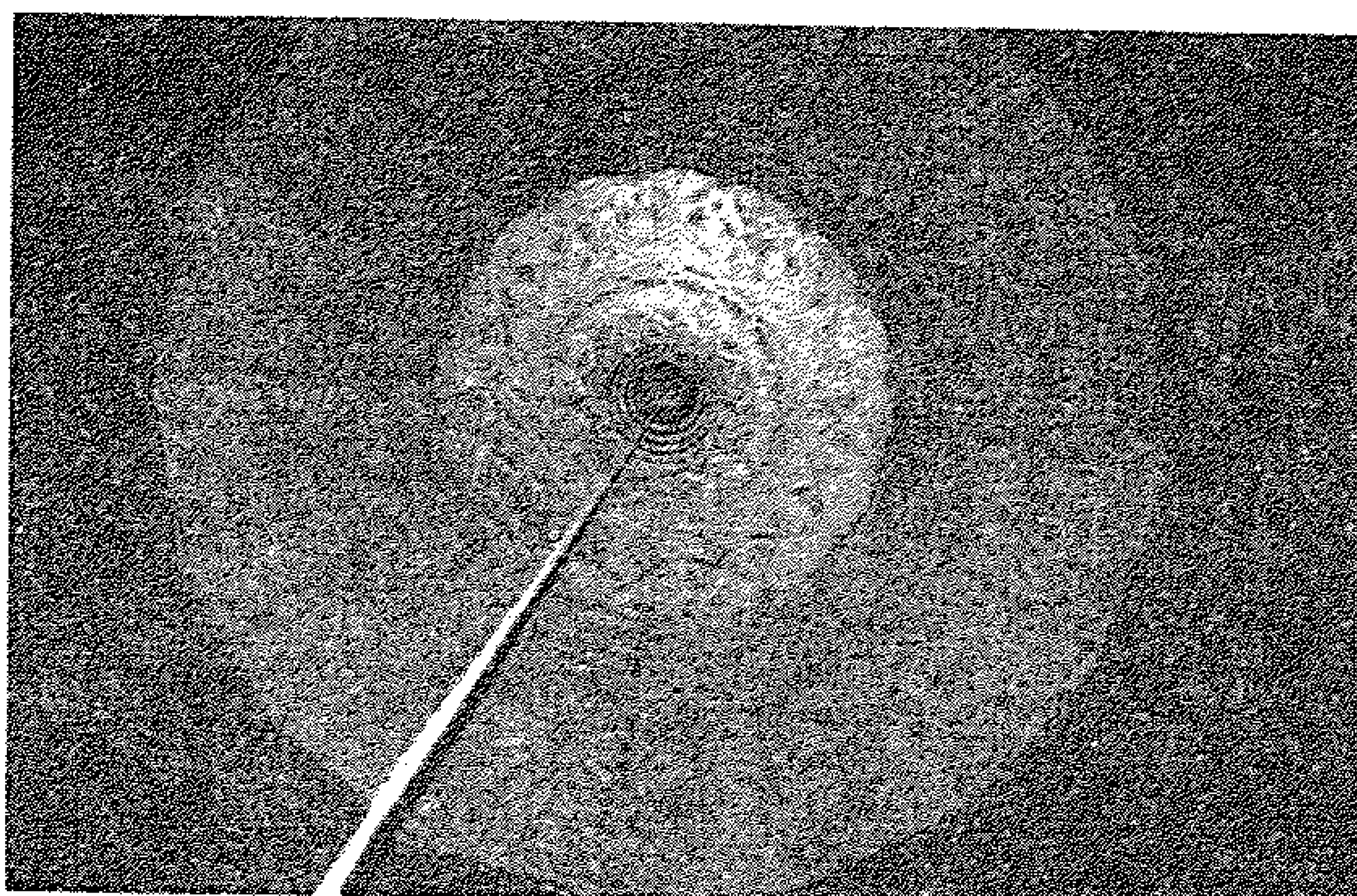
(لوحة ٩٠) : الزاوية الجزولية بمراكش.
القطاع الجنوبي للواجهة الشرقية للزاوية، ويظهر فيها مئذنة جامع الزاوية. تصوير الباحث.



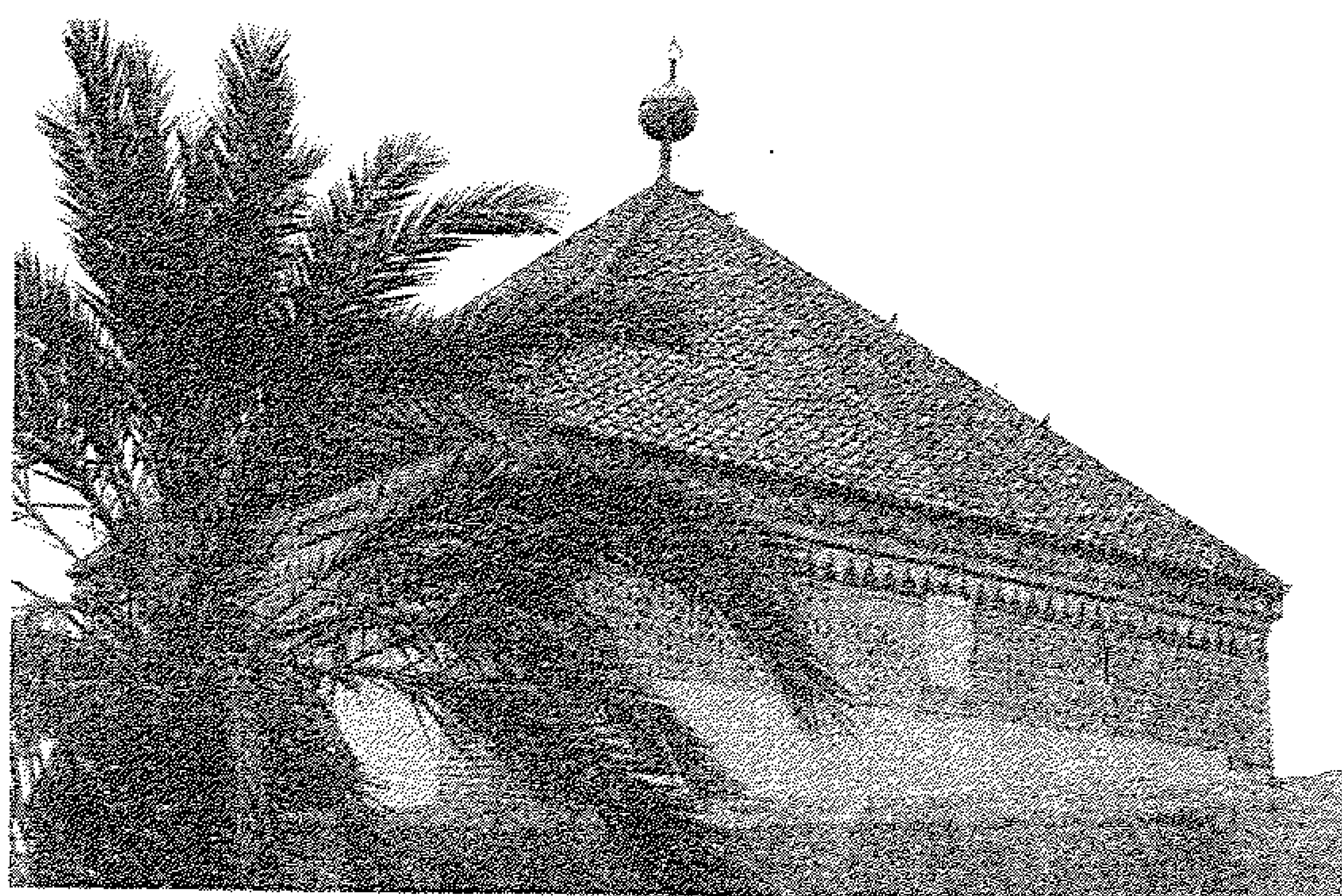
(لوحة ٩١) : الزاوية الجزولية بمراكش.
صحن الزاوية والفسقية التي تتوسطه، ويظهر فيها المدخل المؤدي إلى جامع الزاوية. تصوير الباحث.



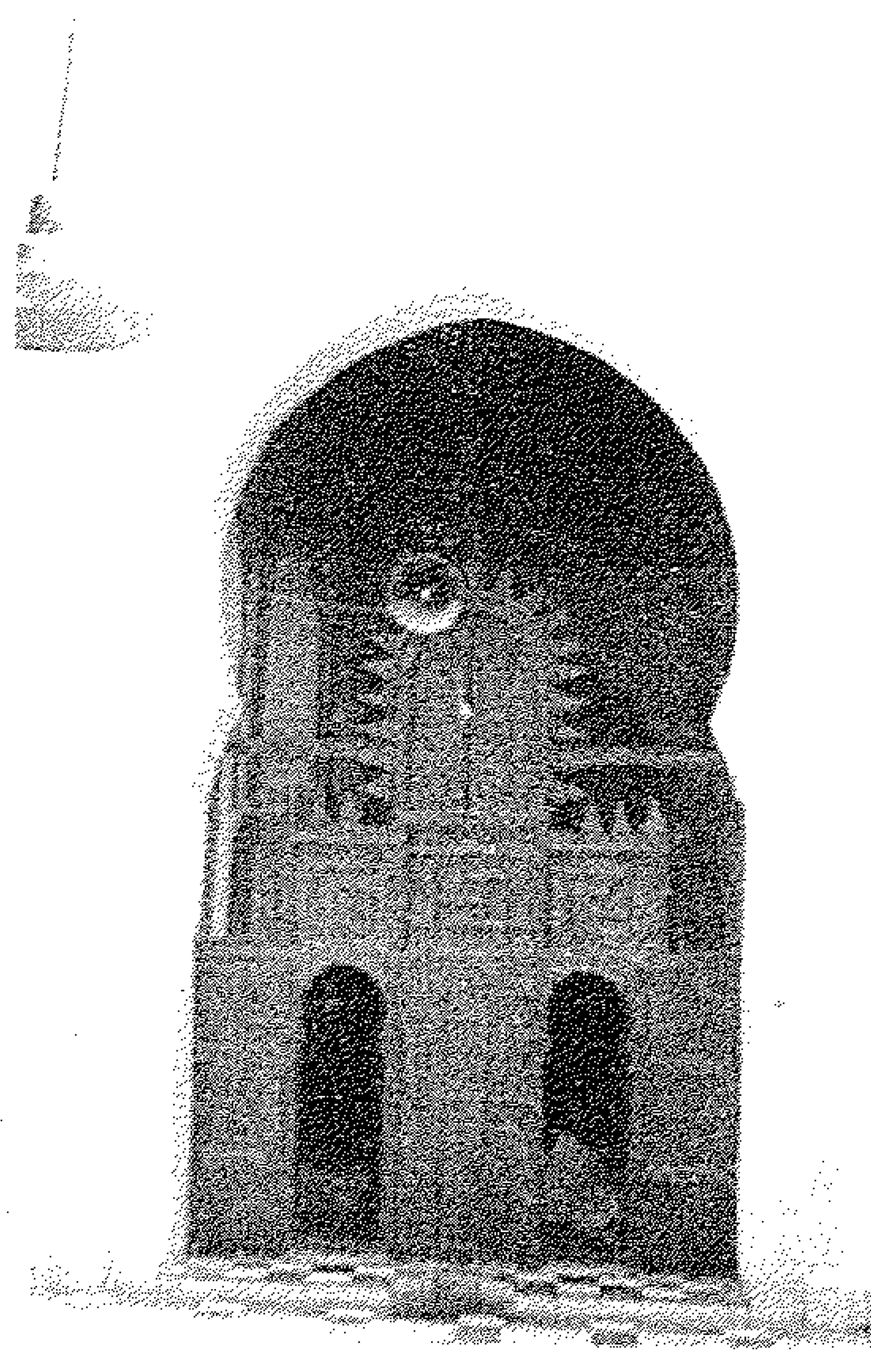
(لوحة ٩٢) : الزاوية الجزولية بمراكش.
المدخل المؤدي إلى ضريح الجزولي.
تصوير الباحث.



(لوحة ٩٣) : الزاوية الجزولية بمراكش.
تفصيل للزخارف التي تزين باطن القبة الخشبية
التى تغطى ضريح الجزولي. تصوير الباحث.



(لوحة ٩٤) : الزاوية الجزولية بمراكش.
ضريح الجزولي من الخارجي ويظهر فيها البناء الهرمى
الذي يغطي القبة الخشبية التى تغطى الضريح.
تصوير الباحث.



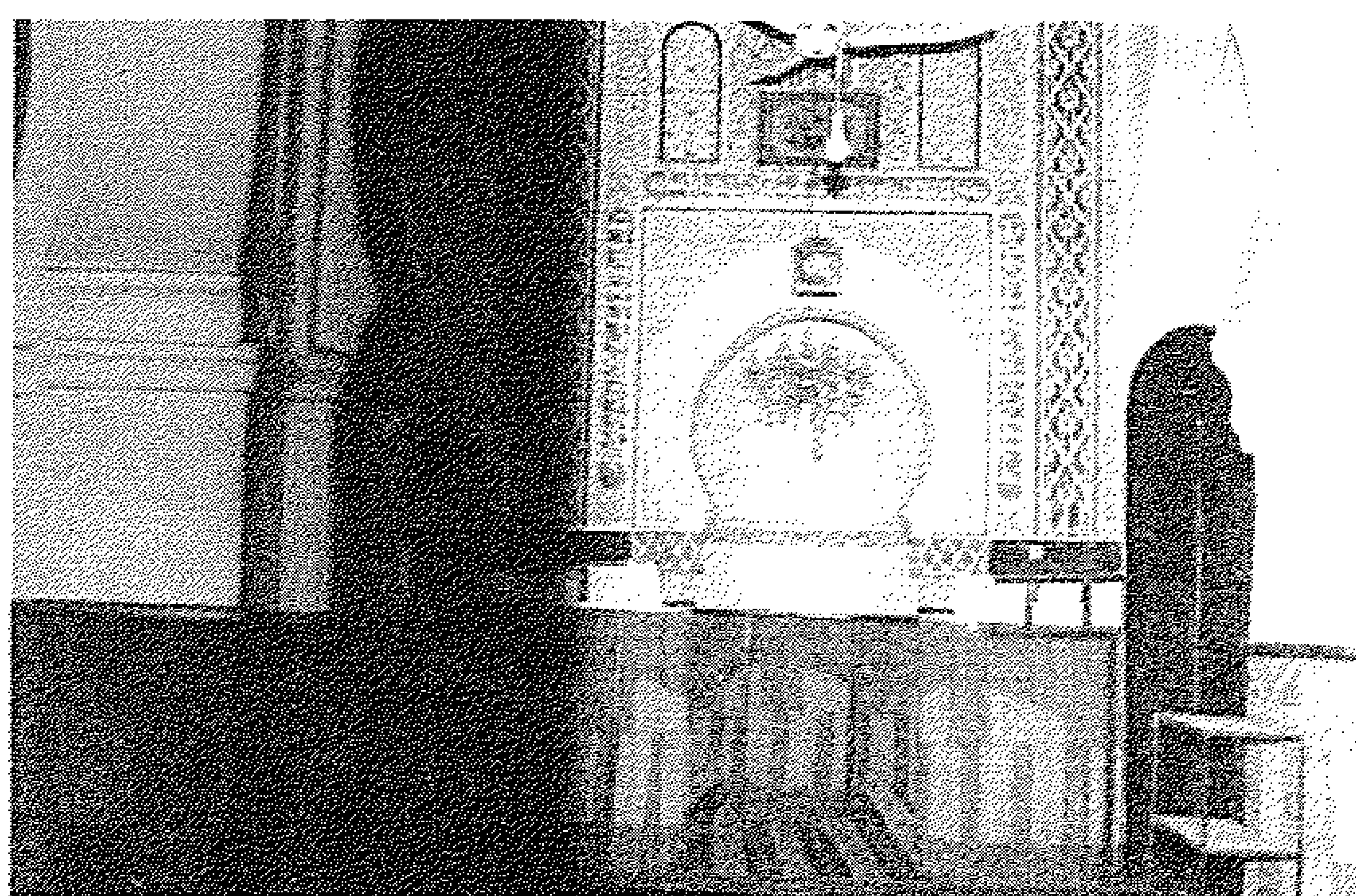
(لوحة ٩٦) : الزاوية الجزولية بمراكش.
«العترة» أو المحراب الصيفي الذي يحدد اتجاه القبلة
عند استخدام صحن الجامع للصلاة في فصل الصيف.
تصوير الباحث.



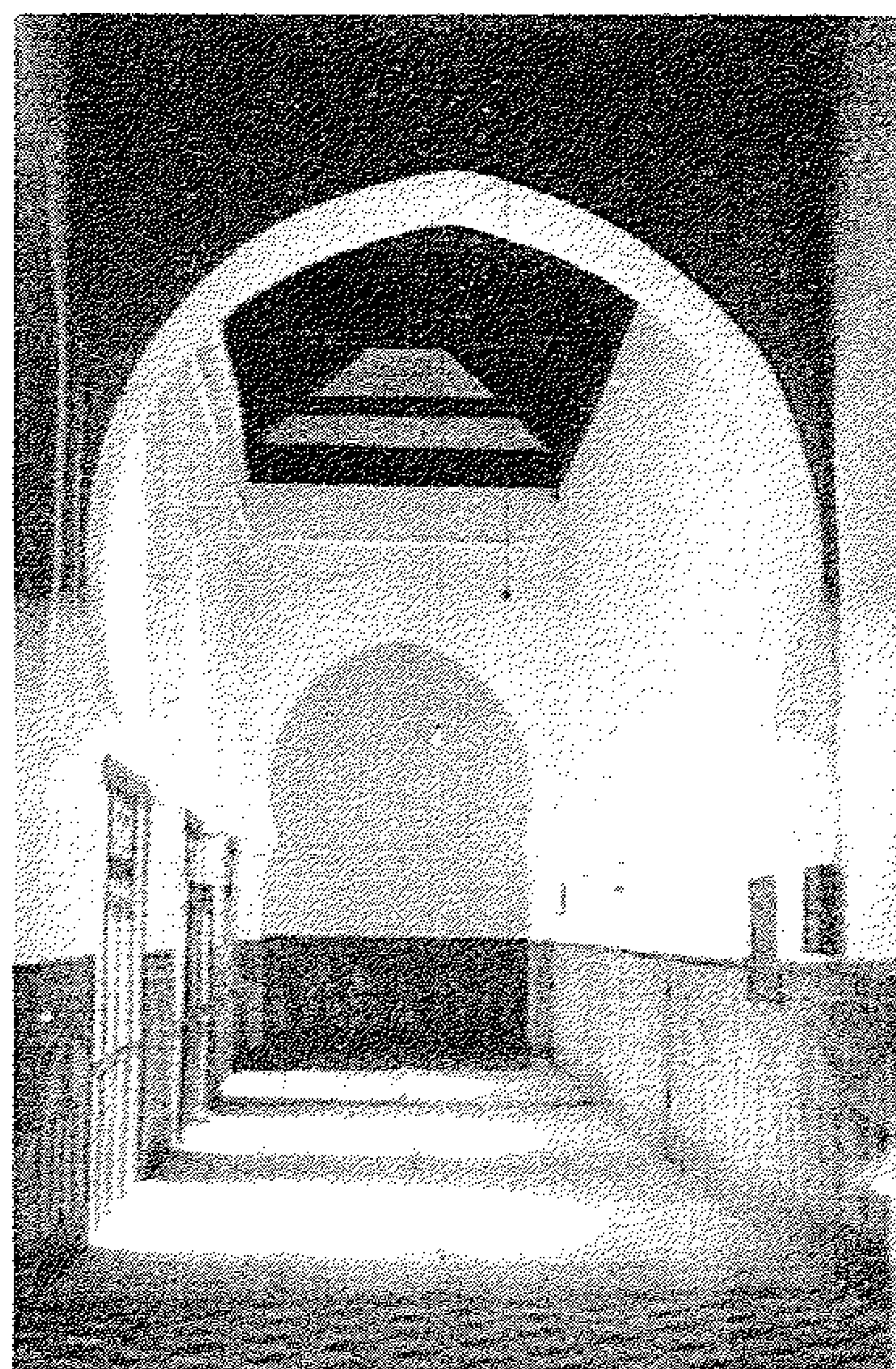
(لوحة ٩٥) : الزاوية الجزولية بمراكش.
الواجهة الشرقية للصحن.
تصوير الباحث.



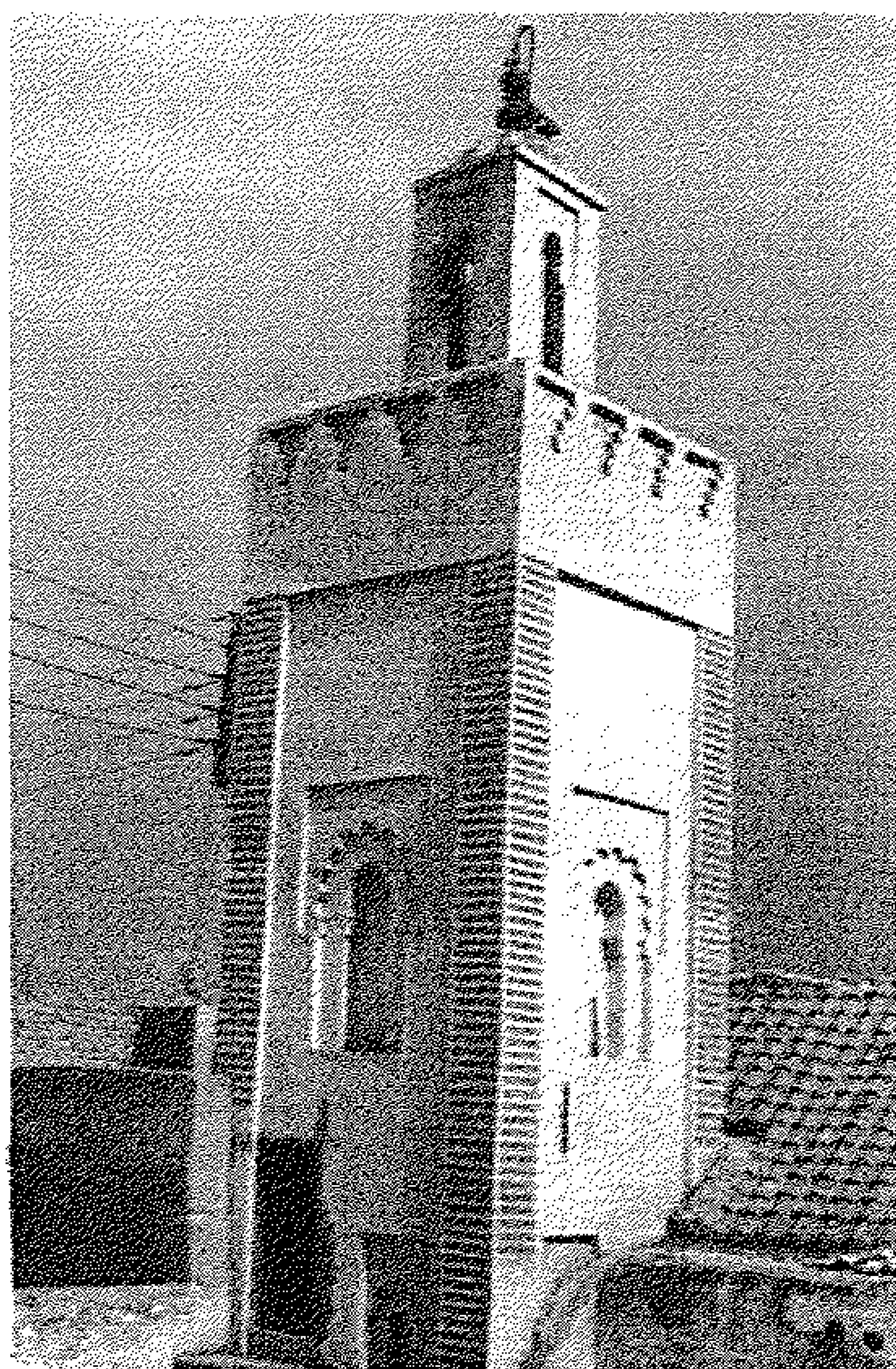
(لوحة ٩٧) : الزاوية الجزولية بمراكش.
الأسقف الجمالونية التى تغطي أروقة الجامع.
تصوير الباحث.



(لوحة ٩٨) : الزاوية الجزولية بمراكش.
حنية المحراب التى تتوسط الجدار الجنوبى لرواق القبلة.
تصوير الباحث.



(لوحة ٩٩) : الزاوية الجزولية بمراكش.
الرواق الشرقي لجامع الزاوية.
تصوير الباحث.



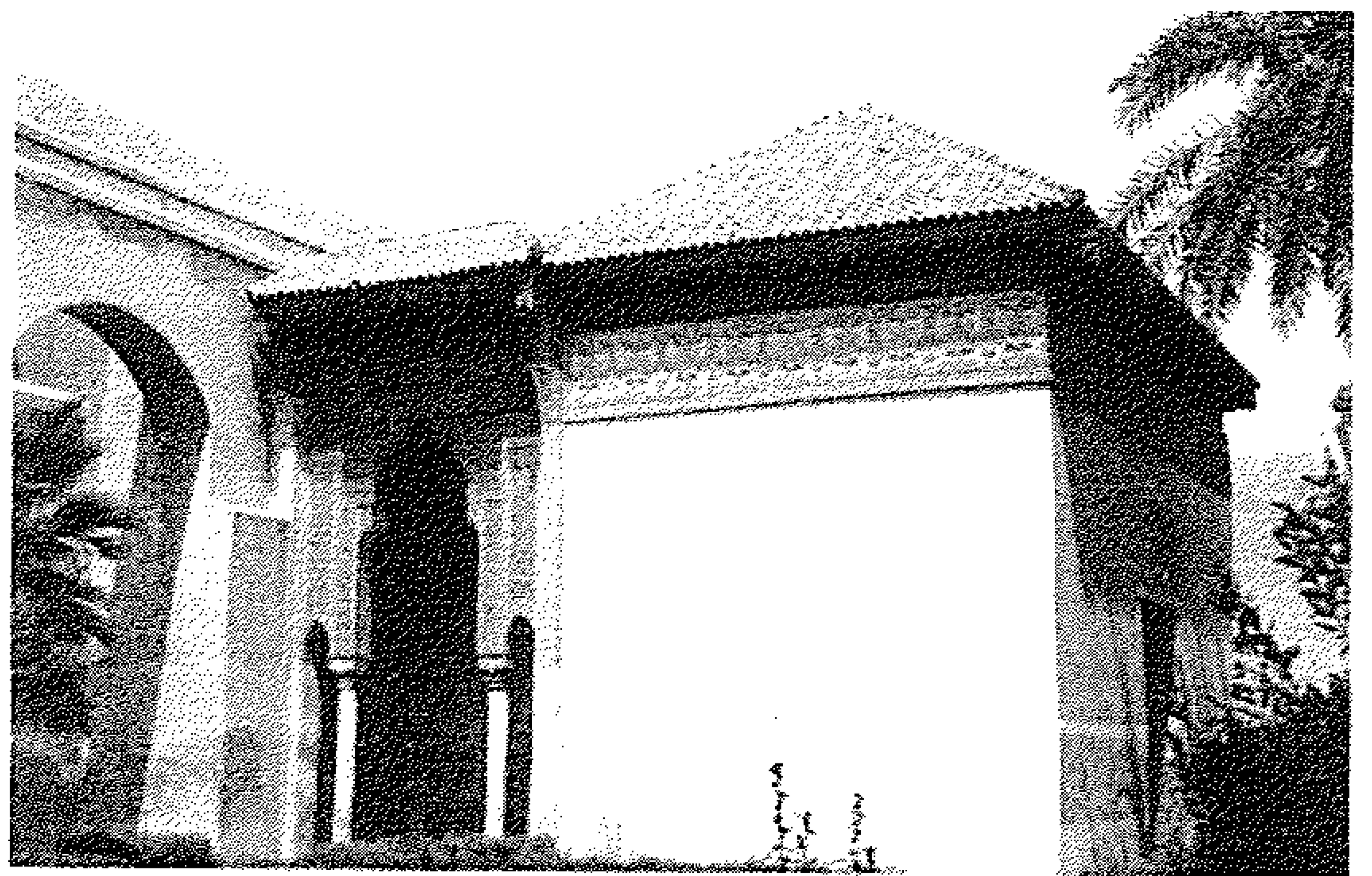
(لوحة ١٠٠) : الزاوية الجزولية بمراكش.
الواجهتان الغربية والشمالية لمئذنة جامع الزاوية.
تصوير الباحث.



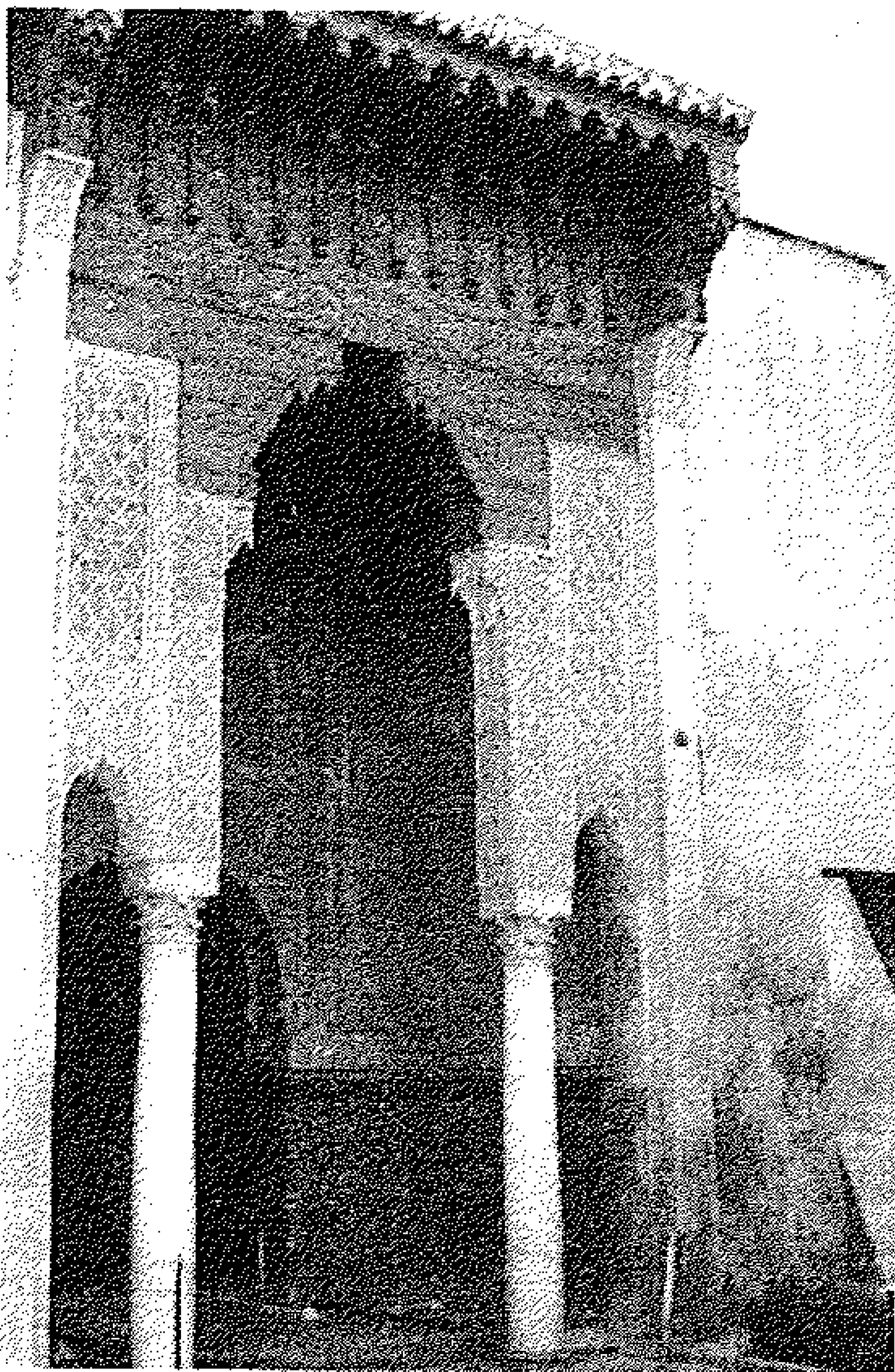
(لوحة ١٠١) : الزاوية الجزولية بمراكش.
مقبرة الزاوية، ويظهر فيها القبتان السعدية والعلوية. تصوير الباحث.



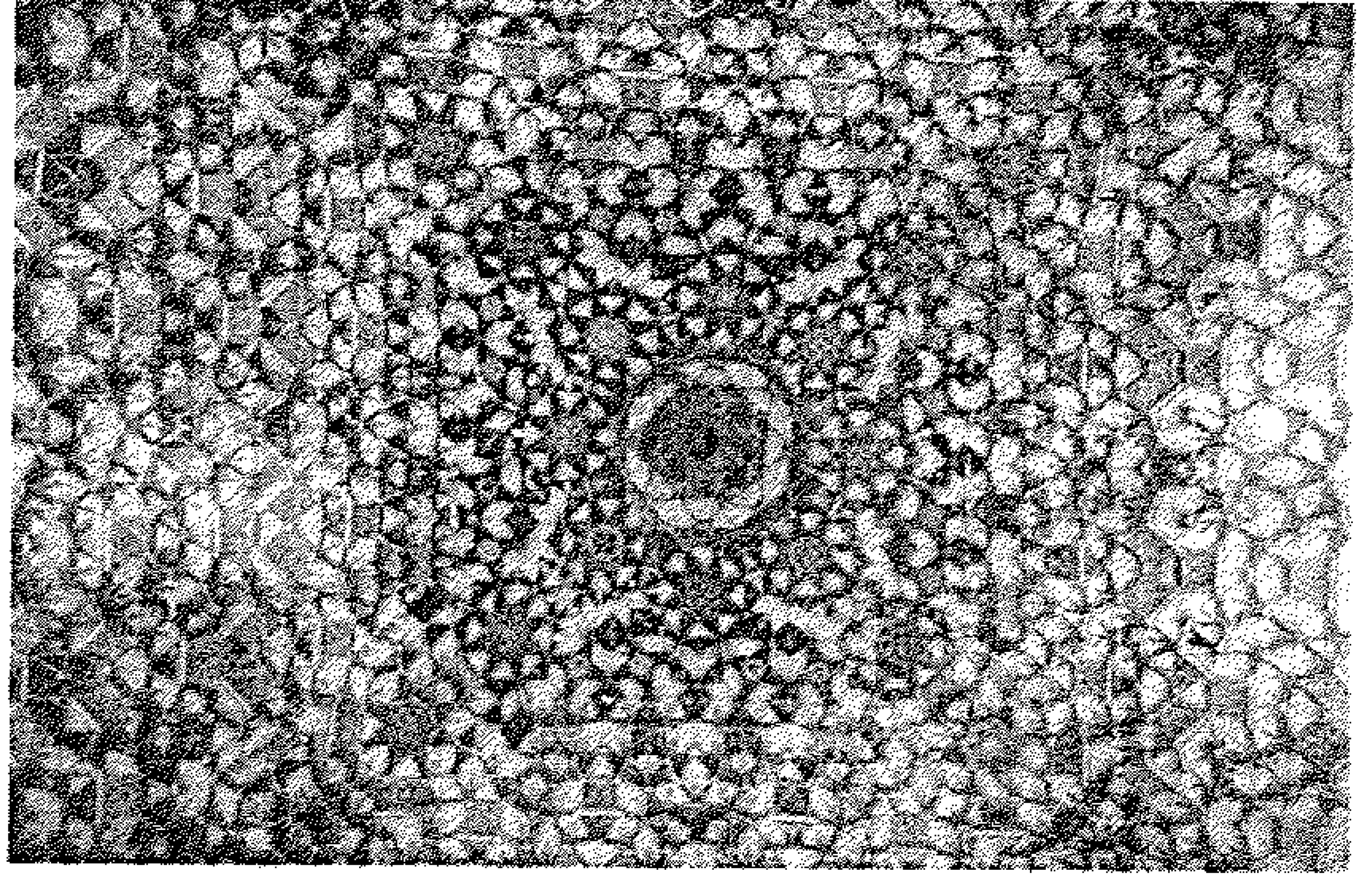
(لوحة ١٠٢) : قبور السعديين بمراكش.
المدخل الرئيسي للمقبرة. تصوير الباحث.



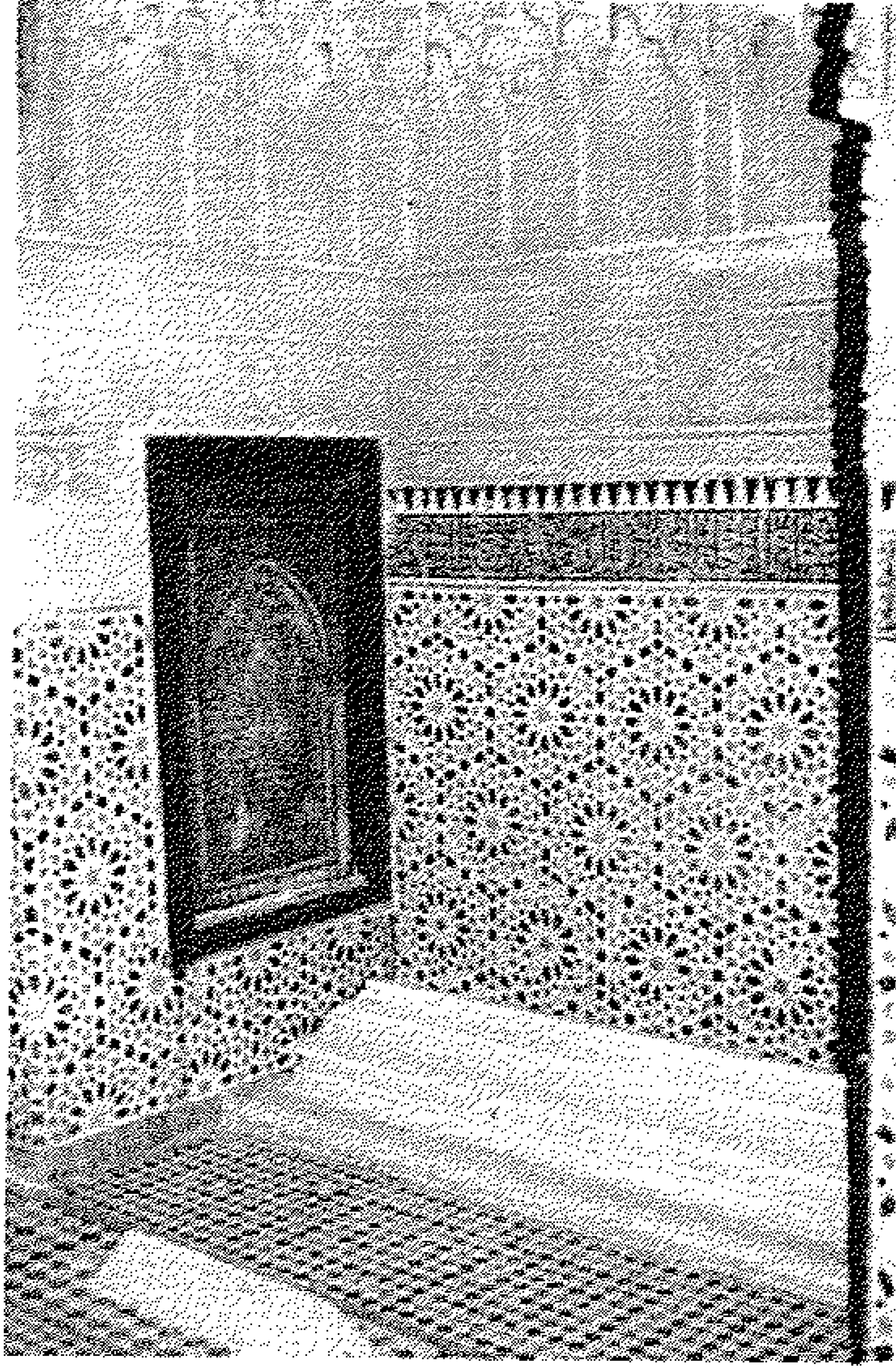
(لوحة ١٠٣) : قبور السعديين بمراكش.
الواجهتان الغربية والجنوبية للمبنى الشرقي.
تصوير الباحث.



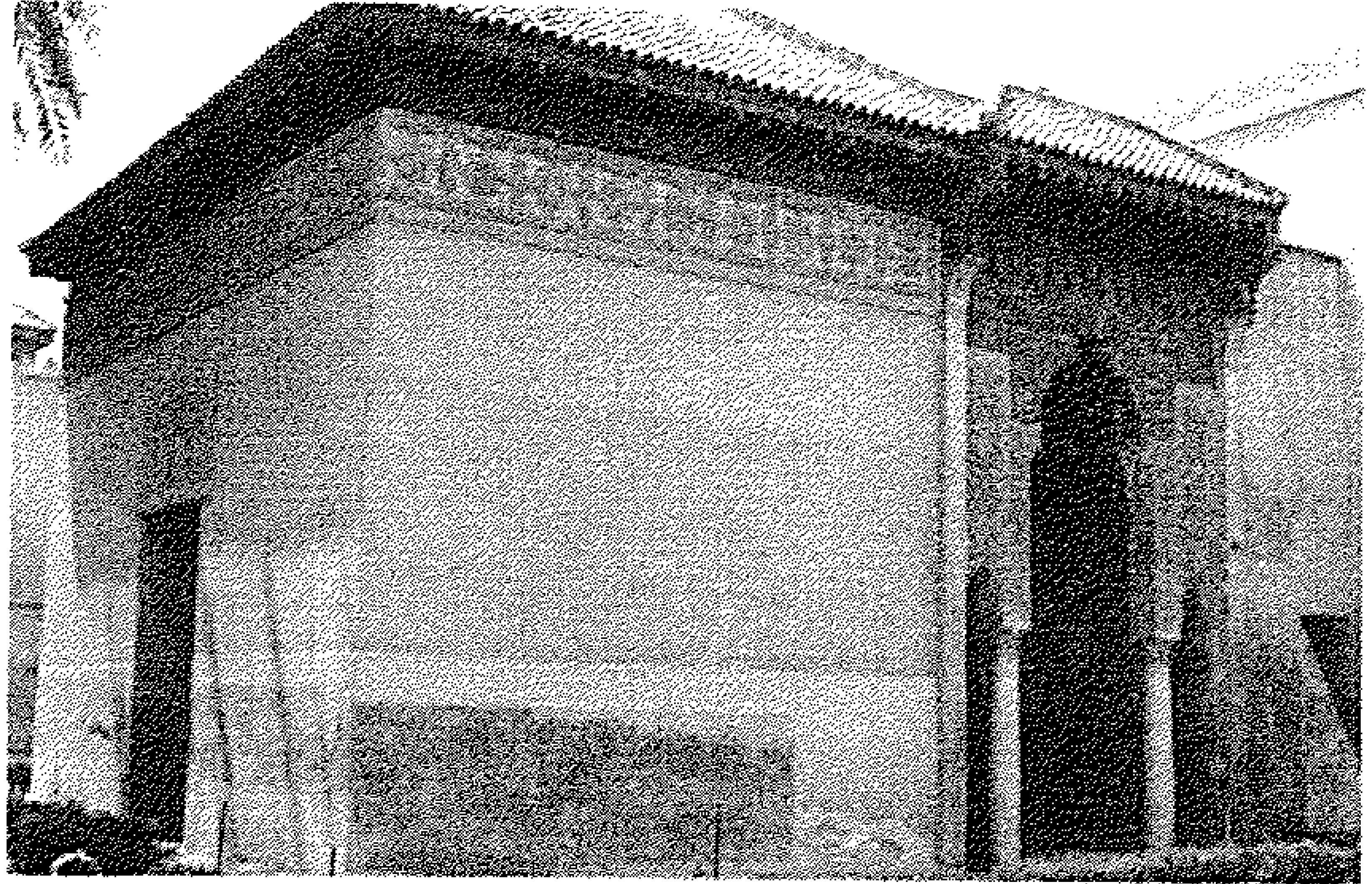
(لوحة ١٠٤) : قبور السعديين بمراكش.
الرواق الذي يقع إلى الشرق من قاعة لالة مسعودة
بالمبنى الشرقي. تصوير الباحث.



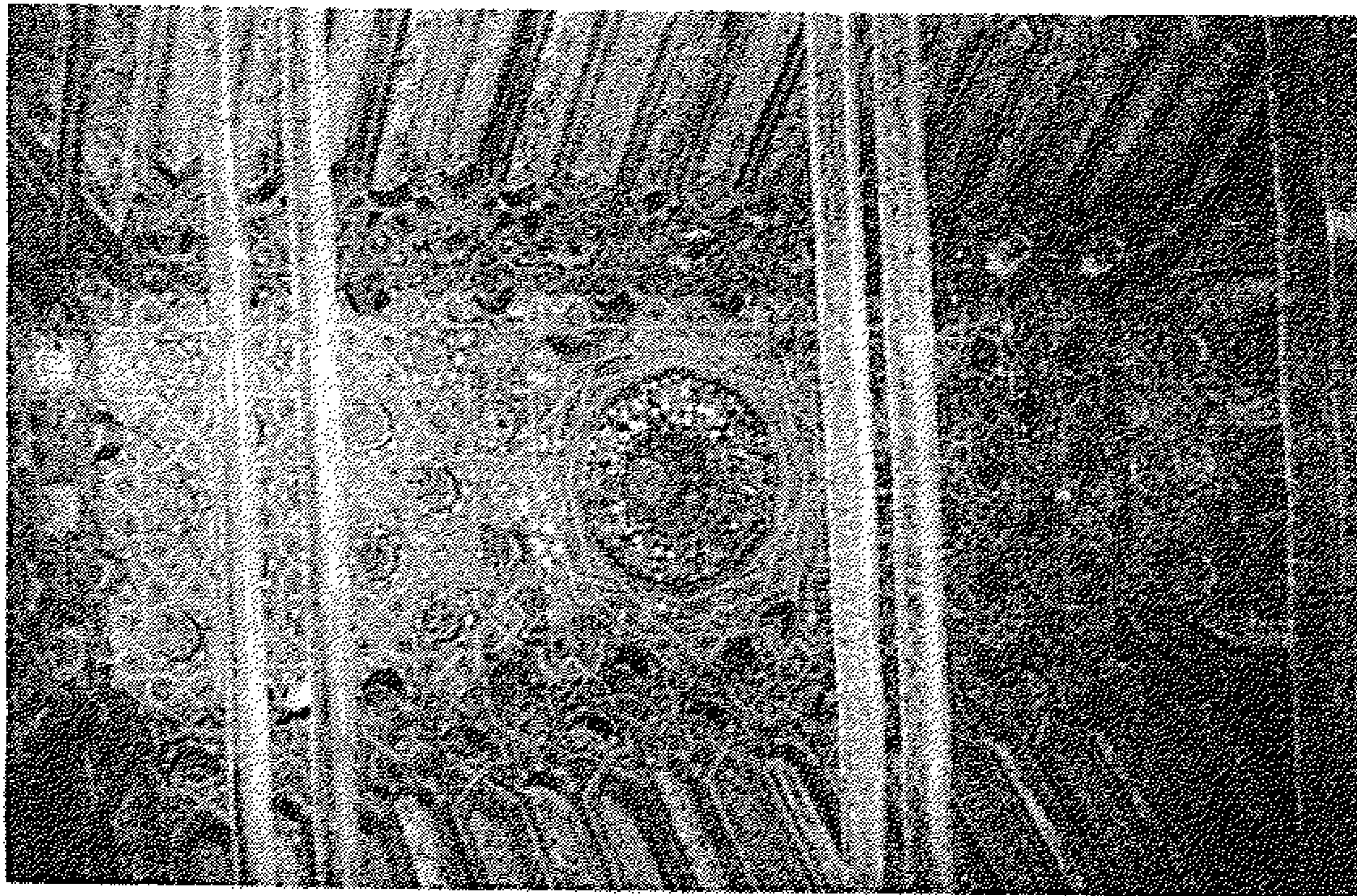
(لوحة ١٠٥) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف القبة التي تغطي قاعة لالة مسعودة بالمبنى الشرقى.
تصوير الباحث.



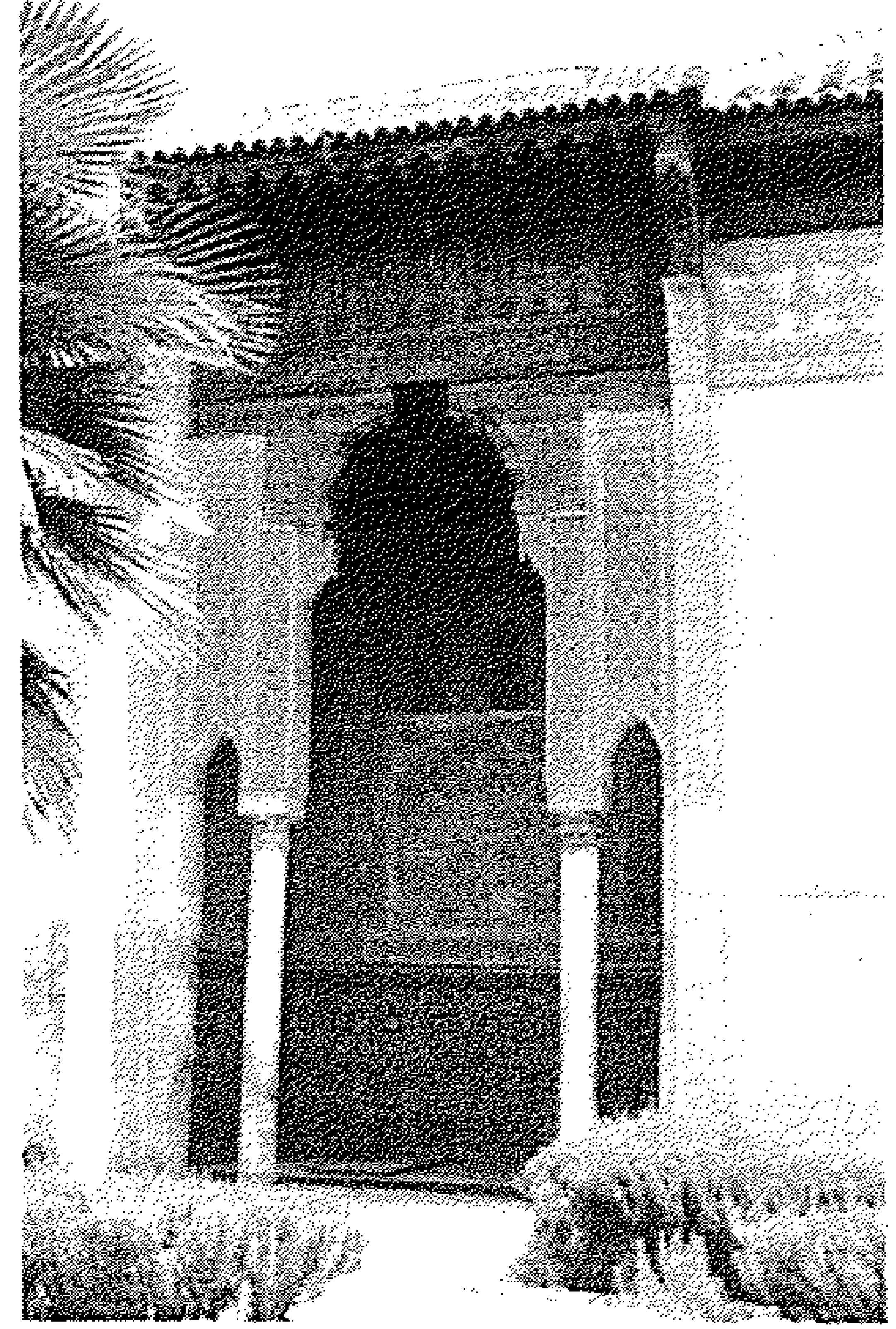
(لوحة ١٠٦) : قبور السعديين بمراكش.
التركيبة الرخامية وشاهد قبر لالة مسعودة بالقاعة التي تحمل اسمها .تصوير الباحث.



(لوحة ١٠٧) : قبور السعديين بمراكش.
الواجهتان الشرقية والجنوبية للمبنى الشرقي.
تصوير الباحث.



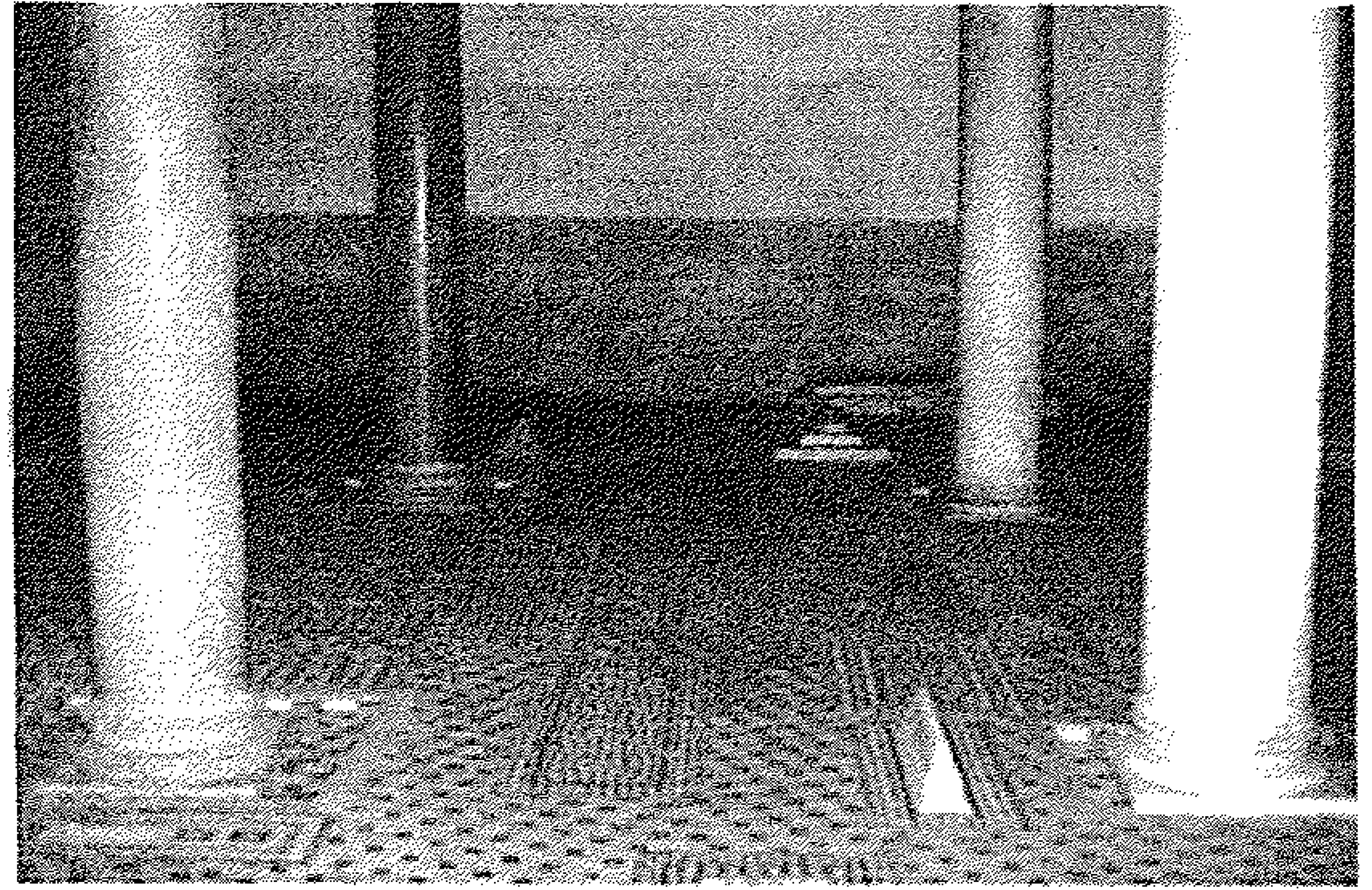
(لوحة ١٠٨) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الجمالونى الذي يغطي الحجرة التي تقع إلى الجنوب من قاعة لالة مسعودة بالمبنى الشرقي.
تصوير الباحث.



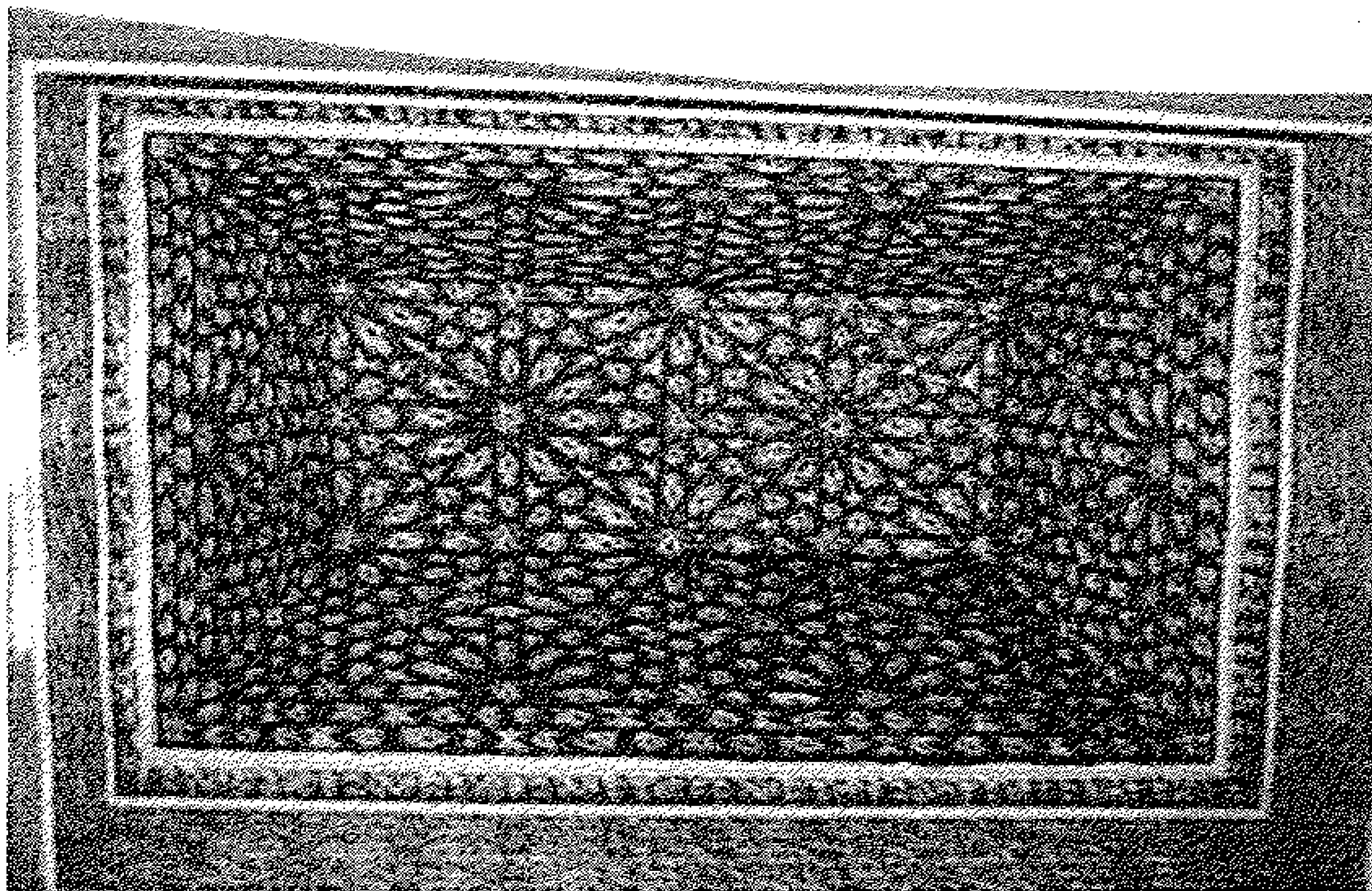
(لوحة ١٠٩) : قبور السعديين بمراكش.
الرواق الذي يقع إلى الغرب من قاعة لالة مسعودة بالمبنى الشرقي. تصوير الباحث.



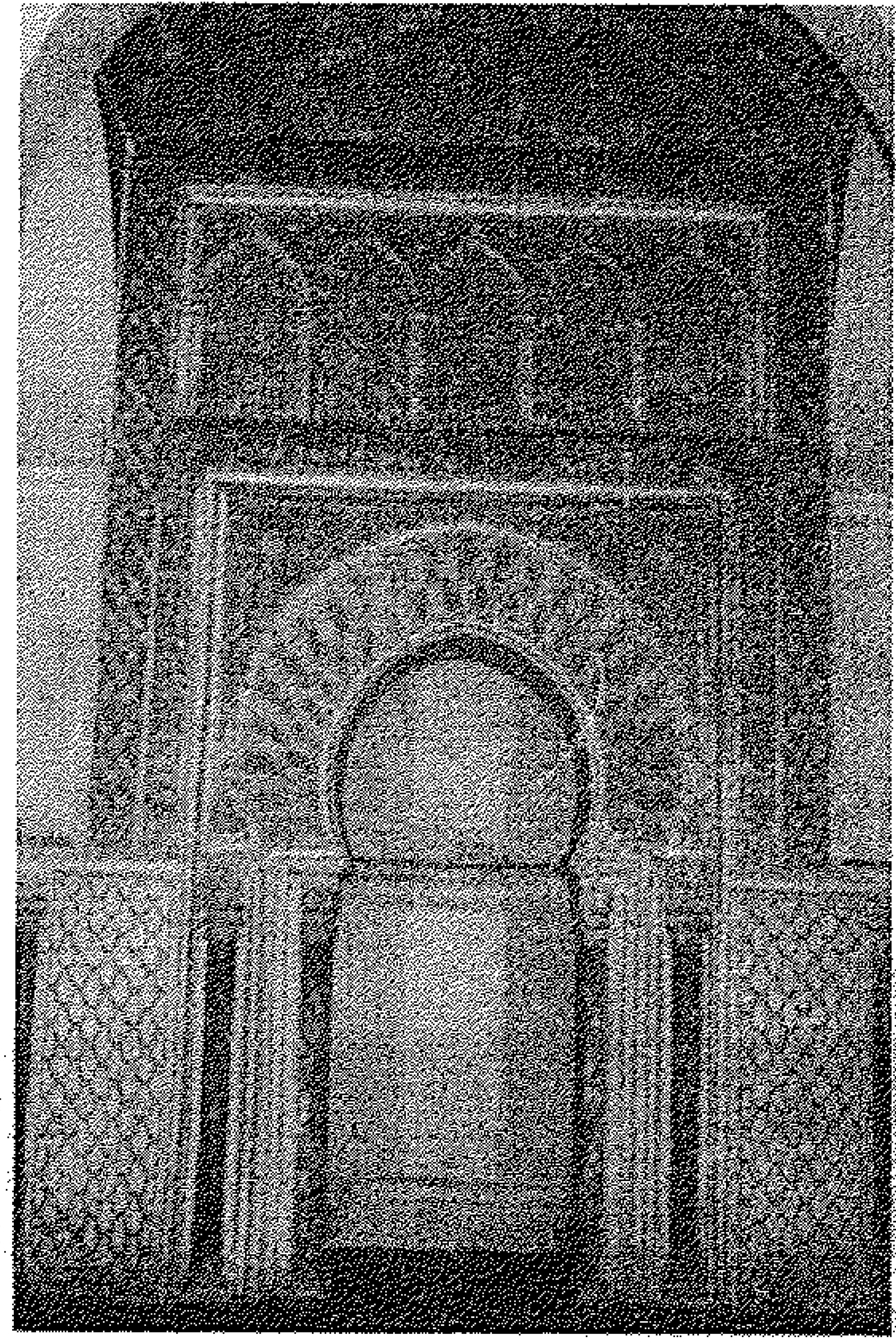
(لوحة ١١٠) : قبور السعديين بمراكش.
الواجهة الشرقية للمبنى الغربي لقبور السعديين.
تصوير الباحث.



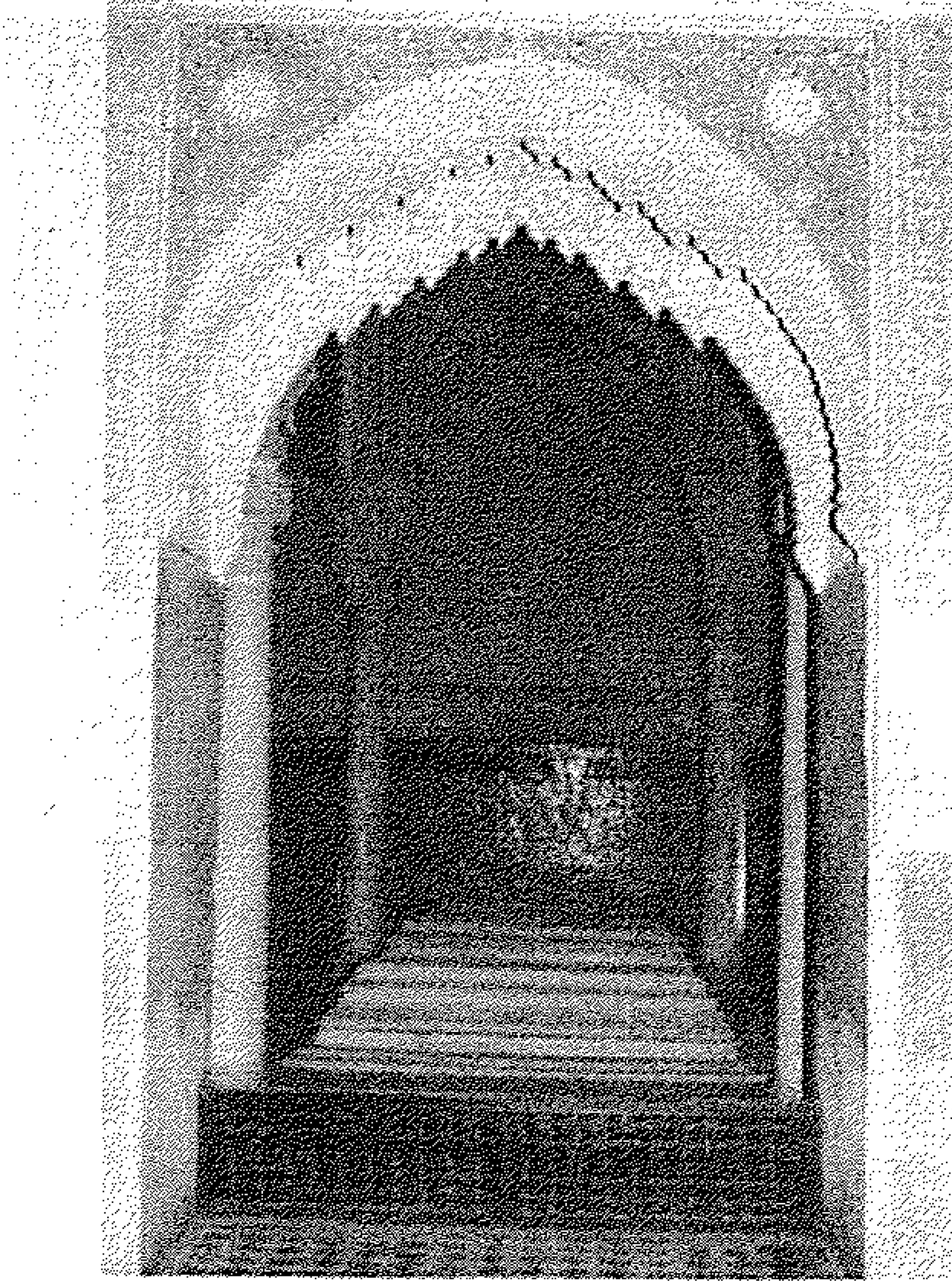
(لوحة ١١١) : قبور السعديين بمراكش.
بعض التراكيب الرخامية بقاعة المجراب بالمبنى الغربى.
تصوير الباحث.



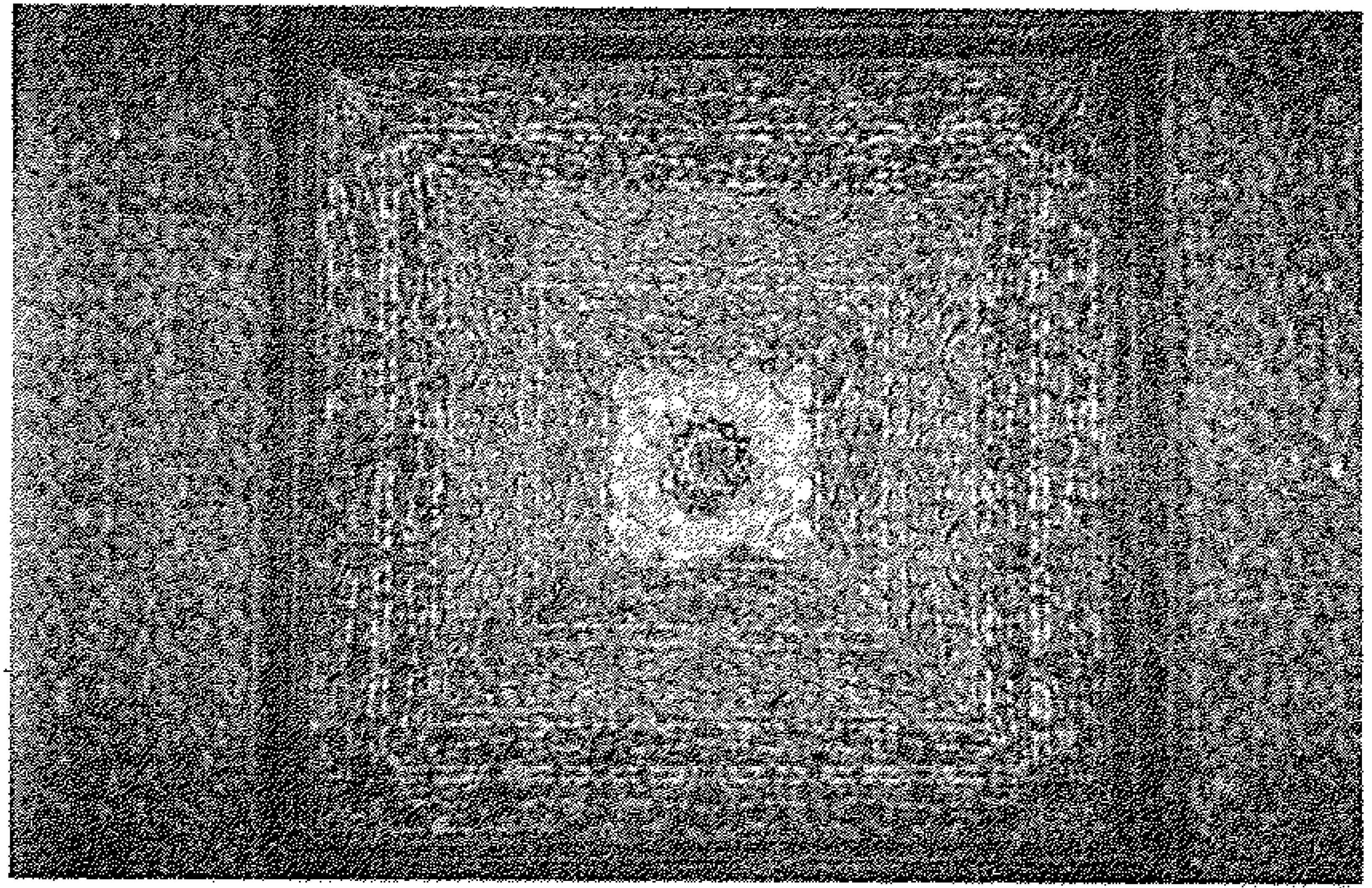
(لوحة ١١٢) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف الأسقف الجمالونية
بقاعة الحراب بالمبنى الغربي.
تصوير الباحث.



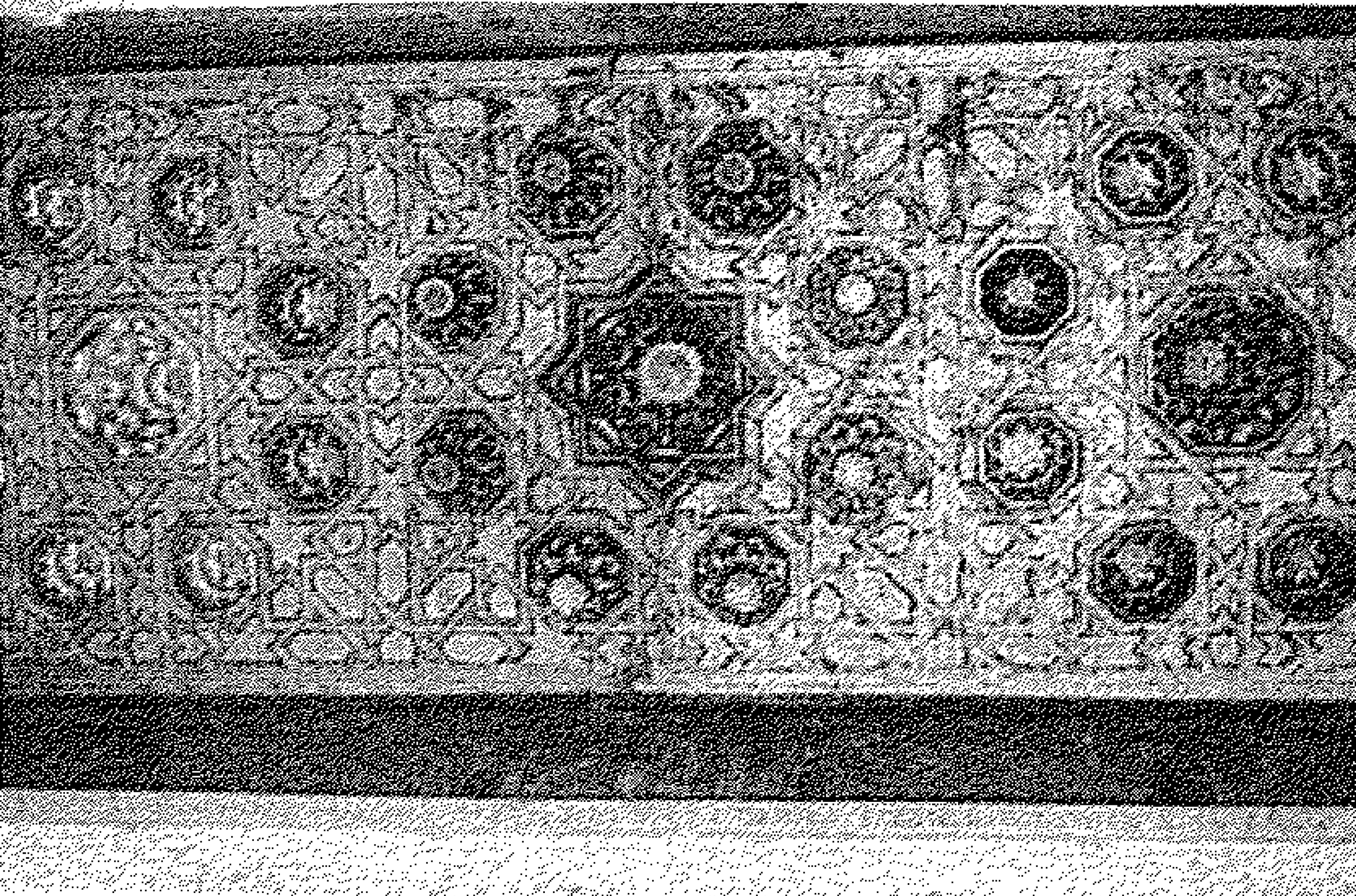
(لوحة ١١٣) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف واجهة المحراب الذي يتوسط
الجدار الجنوبي لقاعة المحراب.
تصوير الباحث.



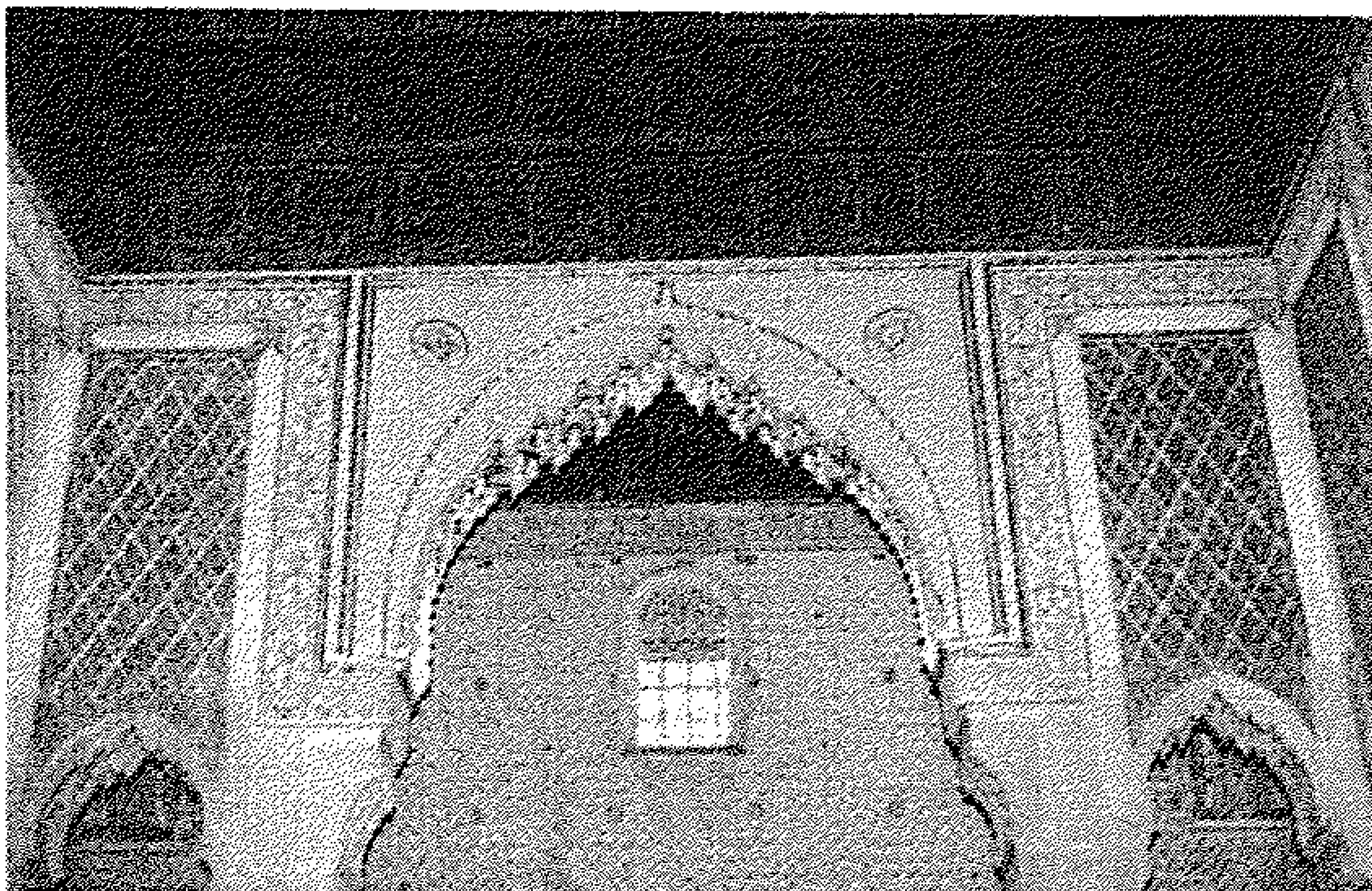
(لوحة ١١٤) : قبور السعديين بمراكش.
بعض التراكيب الرخامية بالقاعة ذات
الإثنى عشر عموداً بالمبنى الغربي.
تصوير الباحث.



(لوحة ١١٥) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الذي
يغطي المساحة الوسطى بالقاعة
ذات الإثنى عشر عموداً.
تصوير الباحث.



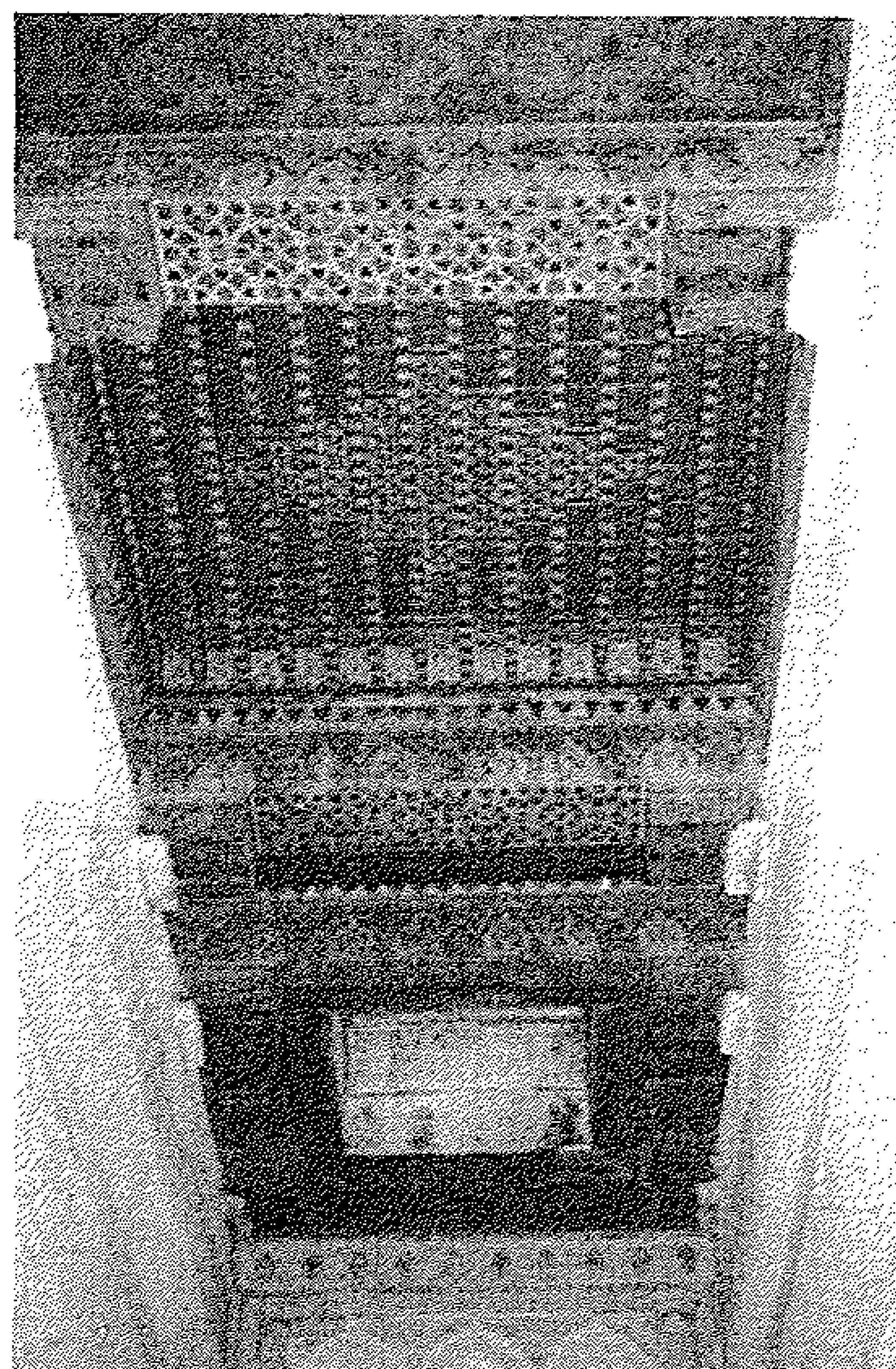
(لوحة ١١٦) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي
الذي يغطي المساحات المستطيلة
بالقاعة ذات الإثنى عشر عموداً.
تصوير الباحث.



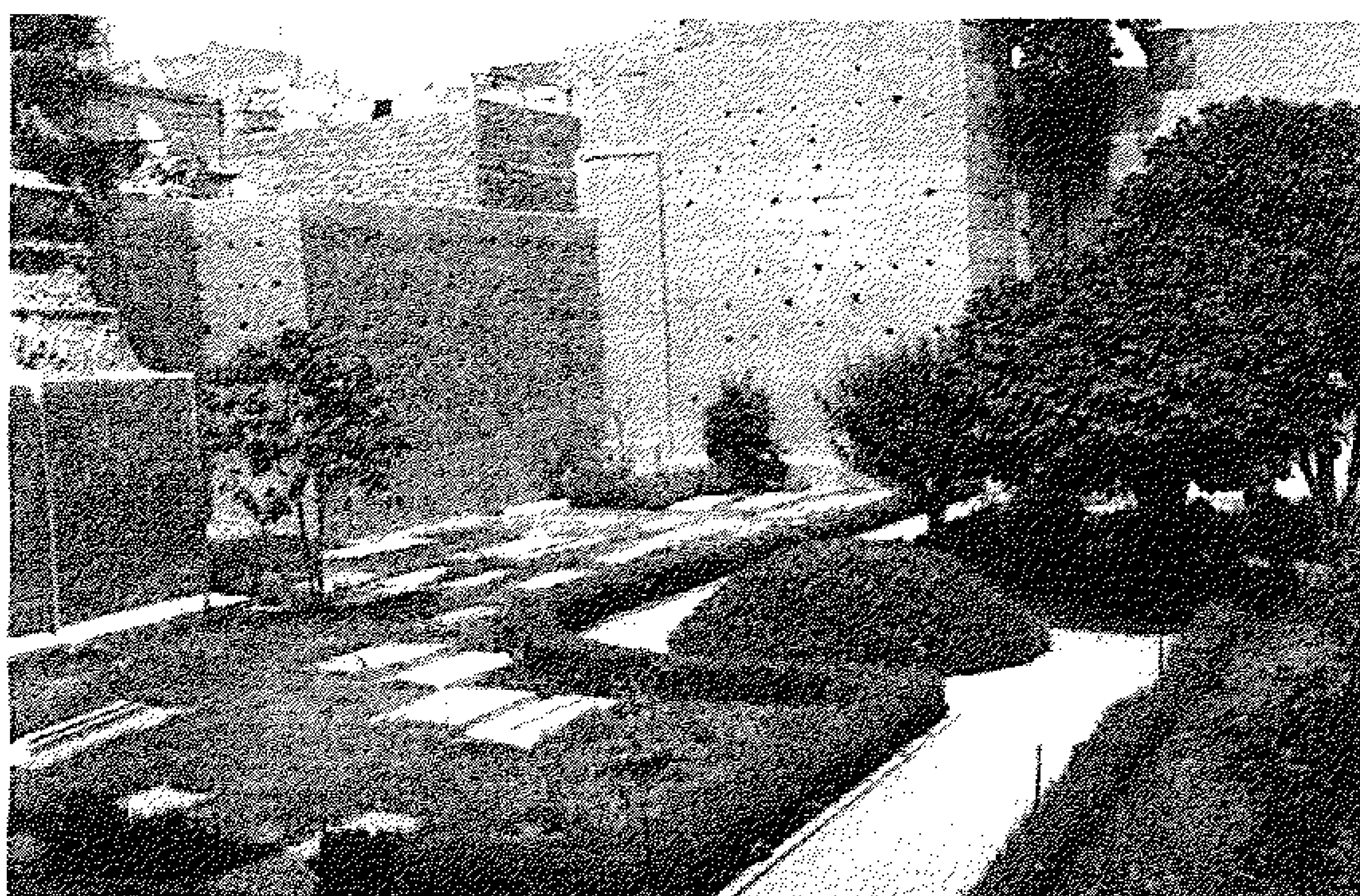
(لوحة ١١٧) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف الأجزاء العليا من جدران القسم الأوسط بالقاعة ذات الإثنى عشر عموداً. تصوير الباحث.



(لوحة ١١٨) : قبور السعديين بمراكش.
بعض التراكيب الرخامية بالقاعة ذات الإثنى عشر عموداً.
تصوير الباحث.



(لوحة ١١٩) : قبور السعديين بمراكش.
تفصيل لزخارف السقف الخشبي الذي يغطي القاعة ذات الثلاث دخلات. تصوير الباحث.



(لوحة ١٢٠) : قبور السعديين بمراكش.
بعض التراكيب الرخامية بالحوش المكشوف لقبور السعديين.
تصوير الباحث.

المحتـــــوى

دار القاهرة
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٣٩١٣٣٥٤